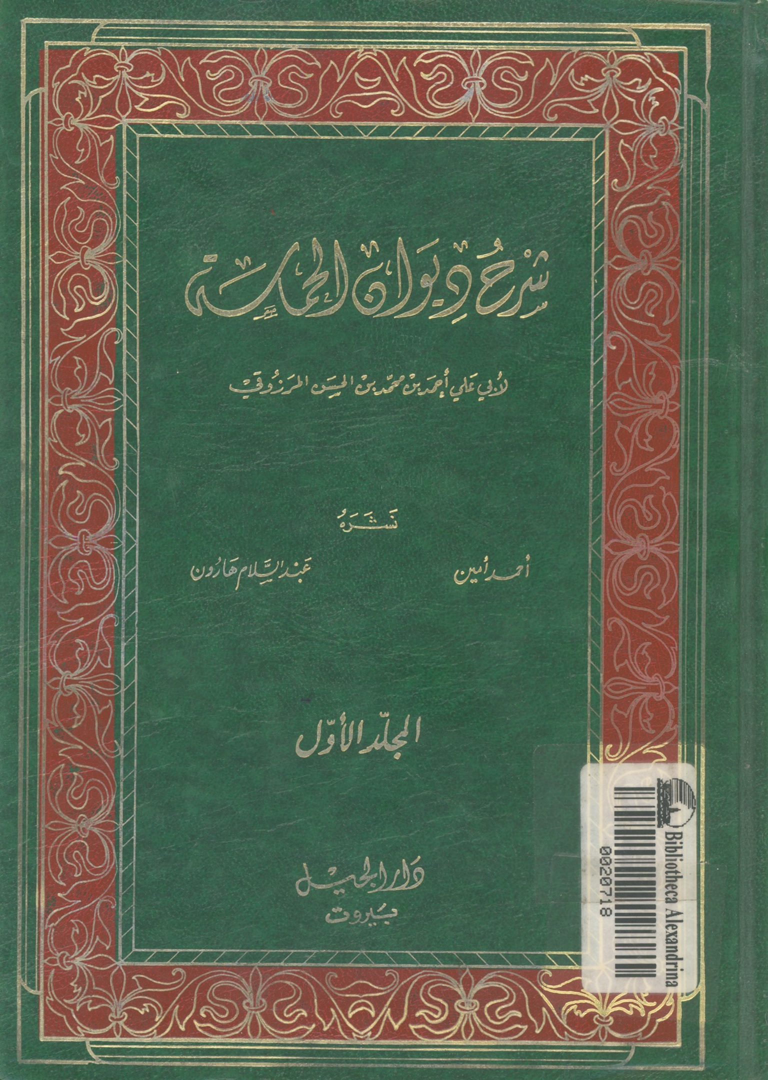

شرح ديوان الحماسة
لأبي علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي
نشره
أحمد أمين
عبد السلام هارون
المجلد الأول
دار الجيل
بيروت
Bibliotheca Alexandrina
0020718

شرح ديوان الحماسة

شرح ديوان الحماسة

لأبي علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي

ـــــ - ٤٢١

نشره

أحمد أمين   عبد السلام هارون

القسم الأول

دار الجيل
بيروت

الطبعة الأولى
١٤١١هـ - ١٩٩١م

تصدير

بسم الله ، والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله .

نال ديوان الحماسة من الشهرة فى العالم العربى ما يستحقه ، ففى الحق أن اختيار أبى تمام كان اختياراً موفقاً ، لأن جامعه شاعر ممتاز مكّنه شعره من أن يختار أحسنَ ما تقع عليه عينه ، وما تسمعه أذنه . وهو إلى جانب ذلك شاعر كبير من شعراء المعانى ، فكان هذا أيضاً محور اختياره ، ولذلك فقد يقرأ القصيدة الطويلة كلها ، فيعجبه منها معنى أو معنيان ، فيختارهما من بين القصيدة الطويلة . وإذا لم يكن بينهما رابطٌ ربط بينهما ، وإذا كانت هناك كلمة نابية غيّرها بخيرٍ منها ، فكان مختاراً ومنقّحاً فى وقت واحد ، وكان له أيضاً فضل تبويب الشعر ، فإنا لا نرى أحداً قبله قسّم الشعر هذا التقسيم ؛ فأولا كانت حركة الجمع ، وثانياً كانت حركة الاختيار حيثما اتفق فى النظم ، كالمفضليات والأصمعيات ، وفى النثر كأمالى القالى ، ثم جاءت حركة الاختيار المبوب ، ولعل فاتحتها كان أبا تمام .

ويظهر أن العادة فشت أولا فى أن يسمى الكل باسم أى جزء حتى فى تسمية القرآن . فسميت سورة البقرة لآية فيها فى البقرة ، وسورة الأنعام كذلك ، وسورة النمل كذلك ، ثم فشت عادة تسمية الشىء بأوله ، فسمّى العين للخليل لأنّ أول أبوابه باب العين ، وسمى أبو تمام ديوانه بالحماسة كذلك .

وقد جرى المؤلفون على هذا النمط فى عصور التاريخ إلى ظهور مختارات البارودى ، وهو تقسيم ليس منطقياً كالذى اتبعه بعض الإفرنج فى تقسيم الشعر

إلى شعر طبيعة ، وشعر إنسان ، وشعر إلهى مثلا . وإلا فأىُّ منطق فى باب الأدب ، وباب الأضياف ، وباب النسيب .

قرأت أول عهدى بالأدب شرح ديوان الحماسة هذا للتبريزى فلم يعجبنى ، لأن التبريزى نحوى لغوى أكثر منه أديباً وناقداً ، فكنت أقرأ الشرح أحياناً وأنا متعطِّش جدا لأفهم معنى بيتٍ فلا أجده ، لأنَّ الشارح انصرفَ إلى شىء آخر . ثم عَثَرْت على نتف للمرزوقى فرأيتُها تسدُّ هذا النقص ، ثم قرأت شرحه على مشكلات أبى تمام ، فرأيته إماماً عظيما لا يتهرَّب من المشاكل ، ولكن يتصدَّى لها ، فوددت أن لو عُثِرعلى شرحه لديوان الحماسة ونشر ، لأنه يكمل نقص التبريزى ، فلما عثر عليه وجدته فوق ما أتوقَّع ، ووجدتُ له مقدّمة فى النقد لم أر مثلَها فى اللغة العربية ، فكم كنا نقرأ فى كتب الأقدمين عن « عمود الشعر » ونحفظ الكلمة ولا نفهم معناها حتى شرحها المرزوقى شرحا دقيقاً وافياً ، وكم له من حسنات أخرى غير هذه . فإخراجه للقراء يسد ثلمة ، ويكمل نقصاً .

والحق أنَّ أبا تمام كان بارعا فى اختياره ، حتى كان شادى الأدب يحفظه أول ما يحفظ ، حتى متعلمو النثر قد نصحهم علماء الأدب أن يقبلوه نثراً مع محافظتهم على المعانى ، ولقد ألف بعضهم نثراً كاملا للديوان — وهو أبو سعيد على بن محمد الكاتب المتوفى سنة ٤١٤ — وأوصوهم أن ينسوه إذا نثروه لتبقى معانيه فى اللاوعى يستمد منها صاحبُها عند الضرورة . وكم أُلِّفت مختارات من عهده إلى اليوم ، ولكن لم يَحْظَ منها ما حظى ديوان الحماسة .

وكتب الأدب والنحو والصرف مليئة بتعبيرها : « قال فى الحماسة » . ويكفى هذا إشارة لأبى تمام وكتابه .

وكما برع فيه أبو تمام ، برع شارحه المرزوقى ، فوفّى الكلام حقه لغة ونحواً وصرفاً ومعنى ونقداً ، فالكتاب فى مَتْنِهِ وشرحه رغبة الآمل ، وبغية المتأدب .

وقد اشتركت فى إخراجه مع الأستاذ المحقق « عبد السلام محمد هارون » . والحق يقال أن كان له حظ فى نشره أكبرُ من حظى ، فله الشكر على ما بذل من جهد فى إخراج الكتاب ؛ وفى نسبته ما ورد فى الشرح إلى قائله ، والتعريف بأعلام الشعراء وغيرهم ؛ وتصحيح ما حصل فيه من خطأ الناسخ ، ووضع فهارسه الفنية ، فالله يجزيه عنا وعن الأدب خير الجزاء ؟

أحمد أمين

تقديم

كتب الاختيار :

لعل أقدم ما وصل إلينا من كتب الاختيار هو « القصائد المفضليات » التى صنعها المفضَّل الضبى ، وهو اختيار لقصائد طويلة من عيون الشعر ، لم يرتبها المفضَّل على أبواب خاصة ، ولا قصد أن يجمع الشعر الذى يتناول أغراضاً معيَّنة ، وإنما هو اختيار الذوق الأدبى والجزالة اللغوية ، فيما تراءى له فى ذلك العصر .

وقد ظهر بعده من كتب الاختيار التى على هذا النمط « الأصمعيات » لأبى سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعى ، و « جمهرة أشعار العرب » لأبى زيد محمد بن أبى الخطاب القرشى ، و « مختارات شعراء العرب » لأبى السعادات ابن الشجرى .

وهناك ضرب آخر من كتب الاختيار بدأه أبو تمام بديوان الحماسة وجرى فيه على تبويب معانى الاختيار . وحذا حذوه البحترى مع بعض الريبة فى نسبة الحماسة إليه(1) ، وكذا الخالديان ، وابن الشجرى ، وأبو هلال العسكرى ،

(1) من اطلع على دقة تقسيم الأبواب فى الحماسة المنسوبة إلى البحترى وكثرة ضروبها وأنواعها التى بلغت ١٧٤ بابا راعه أن يكون ذلك من صنيع مثل البحترى . وكما صنع أبو تمام حماسة لآل سلمة ، صنع البحترى حماسة للفتح بن خاقان . وتجد فى صدر نسخة ليدن من حماسة البحترى هذا النص : « اختاره من أشعار العرب للفتح بن خاقان معارضة لكتاب الحماسة الذى ألفه أبو تمام حبيب بن أوس الطائى رحمهما الله وعفا عنهما . رواية أبى العباس أحمد بن محمد المعروف بابن أبى خالد الأحول عن أبيه عن البحترى . على أن البغدادى يشك فى نسبة الحماسة إلى البحترى ، فى الخزانة (٣ : ٥٩١) بعد أن نقل عن العينى قوله : « ذكره البحترى فى حماسته » : « ولم نسمع أن للبحترى حماسة » .

والأعلم الشنتمرى ، وأبو الحجاج يوسف بن محمد البياسى الأندلسى ، وأبو الحسن علي بن أبي الفرج البصرى ، فى دواوينهم المعروفة بالحماسات .

اسم ديوان الحماسة :

ليس يُدْرَى أمر هذه التسمية ، أهى من صنيع أبى تمام نفسه ، أم هى عرف جرى بين الأدباء ، وشهرة سارت على وجه الدهر حتى تأدّت إلينا جيلا بعد جيل . فليس هذا الديوان ديوان حماسة فحسب ، ولكنه يجمع إلى الحماسة المراثىَ ، والأدب ، والنسيب ، والهجاء ، والأضياف ، والمديح ، والسير والنعاس ، والملح ، ومذمّة النساء .

والظاهر أن أبا تمام سماه بأول أبوابه وأعظمها .

ويقول التبريزى فى مقدمة شرحه للحماسة إن أبا تمام قد صنّف خمسة كتب فى الشعر ، منها كتاب الحماسة ، وكتاب الوحشيات .

وقد عثرت على نص فى المؤتلف ١٨١ فيه : « ومنهم المثلم بن عمرو التنوخى أنشد له الطائى فى اختياره الذى سماه الحماسة » . ومن هذا النص يُفهم أن صاحب التسمية هو أبو تمام نفسه .

والذى يقرن بين الحماسة والوحشيات يجد بينهما شبهاً كبيراً فى التبويب ، فهى تشتمل على الحماسة ، والمراثى ، والأدب ، والنسيب ، والهجاء ، والسماحة ، والأضياف ، والصفات ، والمشيب ، والملح ، ومذمّة النساء .

وكما أُطلِق على الاختيار الأول اسم الحماسة الكبرى ، أُطلِق على الاختيار الثانى اسم الحماسة الصغرى وجاء فى مقدمة ناسخه : « وهذا الكتاب اختاره أبو تمام حبيب بن أوس الطائى رحمه الله بعد اختياره كتاب الحماسة الكبرى ، ورووه ، ولكن وجد بعده مكتوباً فى مسودّة بخطه مترجما بكتاب الوحشيات »

ولقد رأيتَ أن هذه التسمية صارت شهرة لكتب الاختيار التى بوّبت لمعانى الشعر ، وأن هذه الشهرة قديمة جداً ، ولا سيما أنها قد أُطلقت على حماسة البحترى ، وهو قريب العهد والمعاصرة لأبى تمام .

وقد عرف هذه التسمية ابن جنى المتوفى سنة ٣٩٢ إذ يقول فى مقدمة (التنبيه على شرح مشكلات الحماسة) : « وقد أجبتك — أيدك الله — إلى ملتمسك من عمل ما فى الحماسة من إعراب ، وما يلحق به من اشتقاق أو تصريف » .

تاريخ حماسة أبى تمام :

يقولون فى أمثالهم : « رُبَّ ضارةٍ نافعة » . وهكذا كانت الحال مع أبى تمام فى صنعه لديوان الحماسة . وقد اقتصّ لنا التبريزى فى مقدمة شرح الحماسة أن أبا تمام كان قد قصد عبد الله بن طاهر وهو بخراسان ، فمدحه وأثابه ، وعاد من خراسان يريد العراق . فلما دخل العراق اغتنمه أبو الوفاء بن سلمة فأنزله وأكرمه ، فأصبح ذات يوم وقد وقع ثلج عظيم قطع الطريق ومنع السابلة ، فغم أبا تمام ذلك وأحرج صدره ، على حين سر ذلك مضيفه أبا الوفاء ، فأقبل على أبى تمام وقال له : وطِّنْ نفسك على هذا المقام فإن هذا الثلج لا ينحسر إلا بعد زمان . وأحضره خزانة كُتبه فطالعها واشتغل بها ، وصنّف خمسة كتب فى الشعر منها كتاب الحماسة والوحشيات ، وهى قصائد طوال[1] .

ويقول التبريزى : « إن كتاب الحماسة بقى فى خزائن آل سلمة يضنون به ولا يكادون يبرزونه لأحد حتى تغيرت أحوالهم . وورد همذان رجل من أهل دينور يعرف بأبى العواذل ، فظفر به وحمله إلى أصبهان ، فأقبل أدباؤها عليه ورفضوا ما عداه من الكتب المصنفة فى معناه ، فشهر فيهم ثم فيمن يليهم » .

---

(١) هكذا ذكر التبريزى . وقد رجعت إلى الوحشيات مصورة دار الكتب المصرية برقم ٢٢٩٧ أدب فوجدتها مقطوعات على غرار الحماسة ، وإن كانت تمتاز ببعض الطول .

وقد نفهم من نص التبريزى : « ورفضوا ما عداه من الكتب المصنفة فى معناه » أن أبا تمام قد سبق فى هذا الضرب من الاختيار ، وأرى أنه إنما يعنى مطلق كتب الاختيار كالمفضليات ، والأصمعيات ، والمعلقات .

عمل أبى تمام فى الحماسة :

صب أبو تمام ذوقه الفنى على ما وصل إليه من أشعار العرب ، فاختار لكل باب من أبواب الحماسة ما ارتضاه ذوقه ، وعنى عناية خاصة بشعراء طيئ فكان قسطهم فى اختياره قسطا كبيرا . وقد لحظ العلماء أن أبا تمام يعمد أحيانا إلى تغيير نصوص الشعر ، ليستقيم له أن يربط بين الأبيات التى تفككت ، أو ليستر عوار نقيصة يَشِين وجه الحسناء من مقطوعاته . وفى ذلك يقول المرزوقى[1] :

«وهذا الرجل لم يعمد من الشعراء إلى المشتهرين منهم دون الأغفال ، ولا من الشعر إلى المتردد فى الأفواه ، المجيب لكلّ داع ، بل اعتسف فى دواوين الشعراء جاهليهم ومخضرمهم ، وإسلاميهم ومولَّدهم ، واختطف منها الأرواح دون الأشباح ، واخترف الأثمار دون الأكمام ، وجمع ما يوافق نظمه ويخالفه ، لان ضروب الاختيار لم تَخْفَ عليه ، وطرق الإحسان والاستحسان لم تستتر عنه ؛ حتى إنك تراه ينتهى إلى البيت الجيد فيه لفظة تشينه ، فيجبر نقيصته من عنده ، ويبدل الكلمة بأختها فى نقده ، وهذا يَبِين لمن رجع إلى دواوينهم فقابل ما فى اختياره بها » .

وهذه التهمة : تهمة أبى تمام بتغيير النصوص التى اختارها ، والتى يدعمها المرزوقى فى أثناء شرحه بما يظهرها ويقويها كان جديرا بها أن تنزل بقيمة الحماسة باعتبارها نصوصا يستشهد بها فى علوم اللغة والعربية ، ولكننا نجد العلماء مجمعين على تزكية أبى تمام فى الحماسة ، وعلى تزكية الحماسة ونصوصها ، بل يعدون

(١) فى المقدمة ١٣ – ١٤ .

صنيعه فى الحماسة داعية إلى الوثوق بشعر أبى تمام نفسه والاستشهاد بشعره . وفى ذلك يقول الزمخشرى[1] : « وهو وإن كان محدثا لا يستشهد بشعره فى اللغة فهو من علماء العربية ، فأجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه . ألا ترى إلى قول العلماء : الدليل على هذا بيت الحماسة ، فيقنعون بذلك لوثوقهم بروايته وإتقانه » .

زيادات الحماسة :

وجدت نصا فى الخزانة (٣ : ٣٥٢) عن ابن المستوفى ، قال وهو يتكلم فى نسبة بعض الأبيات : « ووجدتها أيضا فى نسخة قديمة ذكر كاتبها أنها زيادات الحماسة ، كتبها محمد بن أحمد بن الحسن فى ربيع الآخر سنة ٣٩٨ ، ونسبها — أى الأبيات — لمرداس بن عمرو . قال : وتروى للأخطل » . ولست أدرى أمر هذه الزيادات ، هل هى من صنيع أبى تمام ، أم من صنيع غيره .

شراح الحماسة :

هذه الشهرة الطائرة لصانع الحماسة أبى تمام ، وذلك الاختيار الموفق الذى عَمَد فيه أبو تمام إلى الاشعار التى يحتج بها فى اللغات والعربية والمعانى ؛ ذلك الاختيار الذى انتزع إعجاب القدماء حتى يقول المرزوقى : « وقع الإجماع من النقاد على أنه لم يتفق فى اختيار المقطعات أنقى مما جمعه ، ولا فى اختيار المقصدات أوفَى مما دوّنه المفضل ونقده » ، ويقول التبريزى : « قالوا : إن أبا تمام فى اختياره الحماسة أشعر منه فى شعره » .

هذه الدوافع جميعا دعت الأُدباء من قديم الزمان أن يُعنَوا عناية صادقة بدراسة هذه المجموعة الشعرية ، وأن يتصدى لها جمهرة منهم بالتفسير والتوضيح والإعراب .

وقد حفظ لنا صاحب كشف الظنون أسماء عشرين ممن شرحوا الحماسة ،

---

(١) انظر الخزانة (١ : ٤ طبع بولاق) .

وقد رتبتهم على وفياتهم ، وأذكر فى هذه المناسبة أن وفاة أبى تمام كانت فى سنة ٢٣١ .

١ — أبو بكر محمد بن يحيى الصولى المتوفى سنة ٣٣٥ . وهو أول جامع لشعر أبى تمام .

٢ — وأبو الفتح عثمان بن جنى المتوفى سنة ٣٩٢ . وقد سمى شرحه « التنبيه على شرح مشكلات الحماسة » . وقد استحضر معهد إحياء المخطوطات بجامعة الدول العربية نسخة جيدة منه ، من مكتبة أحمد الثالث بتركيا برقم ٢٣٦٩ مكتوبة فى سنة ٥٩٤ . وقد استعنت بهذه النسخة واقتبست منها مادعت الضرورة إليه فى التحقيق . وفى اللوح ٢٢ ما يفيد أنه ألفه بعد سر الصناعة . ومن هذا الكتاب نسخة جيدة بدار الكتب المصرية برقم ٤٤ أدب كتبت سنة ٦٨٢ .

٣ — وأبو القاسم الحسن بن بشر الآمدى صاحب الموازنة ، المتوفى سنة ٣٧١ .

٤ — وأبو هلال الحسن بن عبد الله العسكرى ، المتوفى سنة ٣٩٥ . وشرحه هو أحد الشروح التى اعتمد عليها التبريزى فى تأليفه . ويمتاز هذا الشرح بعنايته بتصحيح نسبة الأبيات إلى الشعراء ، وتوضيح بعض ما غمض فى ذلك ، مع العناية ببيان اشتقاق أسمائهم .

٥ — وأبو المظفر محمد بن آدم الهروى المتوفى سنة ٤١٤ .

٦ — وأبو على أحمد بن محمد المرزوقى المتوفى سنة ٤٢١ ، وهو صاحب هذا الشرح الذى ننشره .

٧ — وأبو عبد الله الخطيب الإسكافى ، صاحب مبادئ اللغة ، المتوفى سنة ٤٢١ .

٨ — وأبو الحسن على بن سيده ، اللغوى المشهور ، المتوفى سنة ٤٥٨ ، وهو شرح كبير فى ست مجلدات ، سماه « الأنيق » .

٩ — وأبو القاسم زيد بن على الفسوى المتوفى سنة ٤٦٧ .

١٠ — وأبو الفضل عبد الله بن أحمد الميكالى المتوفى سنة ٤٧٥ .

١١ — وعبد الله بن أحمد السامانى المتوفى سنة ٤٧٥ .

١٢ — والأعلم أبو الحجاج يوسف بن سليمان الشنتمرى المتوفى سنة ٤٧٦ وهو كبير فى ست مجلدات .

١٣ — وأبو بكر بن يحيى الصولى المتوفى سنة ٤٧٦ .

١٤ — وعبد الله بن إبراهيم بن حكيم الخَيَرىّ المتوفى سنة ٤٧٦ لا سنة ٥٨٤ كما ذكر صاحب كشف الظنون .

١٥ — وأبو زكريا يحيى بن على الخطيب التبريزى المتوفى سنة ٥٠٢ . وقد فسر الحماسة ثلاث مرات ، كما ذكر صاحب كشف الظنون ، قال : « شرح أولا شرحا صغيرا فأورد كل قطعة من الشعر ثم شرحها ، وشرح ثانيا بيتاً بيتاً ، ثم شرح شرحا طويلا مستوفيا . وأول المتوسط : « أما بعد حمدا لله الذى لا يبلغ صفاته الواصفون » .

ومما هو جدير بالذكر أن شرح التبريزى المتداول — بهذا الاعتبار — هو الشرح المتوسط ، أما الصغير فمنه قطعة بدار الكتب برقم ١١٩٥ تشمل باب الحماسة . وأما الكبير فما لم نهتد إلى معرفته .

وقد طبع شرح التبريزى ثلاث مرات إحداها فى مدينة « بن » سنة ١٨٢٨ بتحقيق المستشرق « غِيُورغ وِلْهَلْم فَرَيْتَغ » Dr. Georg. Guil. Freytag المعلم فى المدرسة الكلية الفريدرخُوَلْهَلْمِيَّة[1] .

وقد ألحق بنسخته فهارس للأعلام واللغة والقوافى .

وطبع مرة أخرى فى بولاق ١٢٩٦ بتصحيح الشيخ محمد قاسم ، ومرة ثالثة بتحقيق الأستاذ الجليل الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد ، وذلك فى سنة ١٣٥٧ .

(١) هذا هو المكتوب فى صدر النسخة المطبوعة ، أثبته كما هو .

وقد صنع له كذلك عدة فهارس نافعة .

١٦ — وأبو المحاسن مسعود على البيهقي المتوفى سنة ٥٤٤ .

١٧ — وأبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن منذر بن سعيد بن ملكون الحضرمي الإشبيلي المتوفى سنة ٥٨٤ .

١٨ — وأبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبري ، شارح ديوان المتنبي ، المتوفى سنة ٦١٦ . وهو شرح مختصر اقتصر فيه على الإعراب .

١٩ — وأبو نصر منصور بن مسلم بن على الحلبي، والمعروف بابن الدميك ، لم يذكروا تاريخ وفاته . قال ياقوت : صنع تتمة لما قصّر فيه ابن جني في شرح الحماسة .

٢٠ — وأبو على حسن بن على الاستراباذي النحوي .

٢١ — وأبو نصر قاسم بن محمد النحوي .

* * *

٢٢ — هذا ما عرّفه صاحب كشف الظنون من شروح الحماسة ، عرضتُه بعد تحقيقه وتصحيحه والتعليق عليه .

على أن أول شارح للحماسة فيما نعلم ، هو أبو رياش أحمد بن إبراهيم الشيباني المتوفى سنة ٣٣٩ . وهو شيخ أبي عبد الله النمري(١) ، خلافا لما نص البغدادي(٢) أن أول شارح لها هو أبو عبد الله النمري . وقد نقل البغدادي نصوصا من هذا الشرح في مواضع يسيرة من الخزانة ، على حين أكثر التبريزي من النقل عنه في شرحه للحماسة . ويفهم من تتبع نصوصه أن معظمها في الأخبار والأسباب التي قيل من أجلها الشعر ، وهي زاوية مهمة حقا في تفهم أسرار الحماسة .

٢٣ — وكما صنع أبو رياش تفسيرا للحماسة ، صنع تلميذه أبو عبد الله النمري(٣)

(١) إنباه الرواة (١ : ٢٥) مع الحواشي . ونزهة الألباء ٤٠١ .
(٢) في الخزانة (٣ : ٥٤١) .
(٣) نزهة الألباء ٤٠١ — ٤٠٣ .

كتابا فى « مشكلات الحماسة » . ومن هذا الكتاب نصوص فى مواضع متفرقة من الخزانة . والتبريزى فى شرحه يورد نصوصاً من هذا الكتاب ثم يعقبها برد أبى محمد الأعرابى عليها وتخطئته لما فى تهكم ، معتمداً على شيخه أبى الندى ، فى أكثر الأمر .

٢٤ — ومما تقدم يعلم أن أبا محمد الأعرابى قد صنع نقداً لشرح النمرى . ومن هذا الكتاب نسخة برقم ٨٠ أدب ش ، وأخرى برقم ١٤٨١ أدب بخط الشنقيطى ، والظاهر أنها منقولة من الأولى . واسم هذا النقد « إصلاح ما غلط فيه أبو عبد الله الحسين بن على النمرى البصرى مما فسره من أبيات الحماسة أولا وثانيا» جاء فى أوله : « قال أبو محمد الأعرابى : حضرت المجلس العادلى العالى — نوره الله — ذات ليلة ، فجرى ذكر أبى عبد الله النمرى رحمه الله ، فأثنى عليه بعض الحاضرين وذكر أنه كان شيخ البصرة فى زمانه فضلا ونبلا ، ودراية ورواية ، قد استخرج معانىَ الأبياتِ من أبيات الحماسة هو فيها السابق المبرز ، والجواد المُبِرّ ، فقلت : شاكِهْ أبا يسار ! تأملت ما فسره الشيخ من تلك الأبيات أولا وثانيا ، فوجدت فى خلال ذلك خللا كثيراً ، إما قصوراً وإما تقصيراً ، فقال لى :

* عنتا باطلا وظلما[1] *

إن كنت صادقا فيما تدعيه فجرّد لنقيضها كتاباً يدل على صحة دعواك ، وقد أمهلتك سنة . فأمليت كتابى هذا بعون الله فى مدة أسبوع ، وبينت مواضع الزلل فيما فسره أبو عبد الله ، وأثبتّ الصواب تحت كل بيت ، وجعلت ذلك خدمة للمجلس العادلى العالى . وبالله التوفيق » .

٢٥ - وقد فات صاحب الكشف أيضاً أن يذكر شيخ المعرّة أبا العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعرّى المتوفى سنة ٤٤٩ . ومن هذا الشرح نصوص نقلها التبريزى فى شرحه .

(١) الحارث بن حلزة اليشكرى فى معلقته . وهو بتمامه :
عنتا باطلا وظلما كما تعـ ـتر عن حجرة الربيض الظباء

٢٦ — وأشار البغدادى إلى مصنّف لأبى على الشلوبين . قال[1] : « وذكر الشلوبين فيما كتب على الحماسة . . . » .

٢٧ — وإلى شرح لأبى الفضل الطبرسى ، وقد نقل البغدادى منه نحو ثلاثين نصا فى مواضع متفرقة[2] .

٢٨ — وهناك شرح حديث منسوب إلى الأديب « محمد سعيد الرافعى » . والحق أنه للمغفور له أستاذنا الشيخ إبراهيم الدجوى . وقد طبع هذا الشرح عدة مرات .

٢٩ — وآخر صنعه المغفور له العلامة الشيخ سيد بن على المرصفى ، بعد تغيير ترتيبه . وقد طبع منه الجزء الأول سنة ١٣٣٠ .

٣٠ — وآخر صنعه بهاء الدين عبد القادر بن لقمان ، سماه « الرصافة القادرية » طبع بالهند سنة ١٢٩٩ وبآخره تفسير لبعض الكلمات اللغوية باللغة الإنجليزية . ومن هذا الشرح نسخة بالمكتبة الأزهرية .

* * *

وهناك ضرب آخر طريف من التفسير ، عمد فيه صاحبه إلى نثر أبيات الحماسة ، مجليًا بذلك معانيها الغامضة . وصاحب هذا التفسير ، هو أبو سعيد على ابن محمد الكاتب المتوفى سنة ٤١٤ . وقد صنع كتابه هذا لبهاء الدولة بن بويه ، وسماه « منثور البهائى[3] » .

موازنة بين شرحى المرزوقى والتبريزى :

على أن الذى يعنينا من هذه الشروح شرحان . هما شرحا المرزوقى والتبريزى . والمرزوقى متقدم على التبريزى ، بين وفاتيهما نحو إحدى وثمانين سنة ،

(١) الخزانة (٤ : ٩٢) .
(٢) انظر إقليد الخزانة لراجكوتى ٥٤ .
(٣) كشف الظنون فى رسم (الحماسة) .

إذ كانت وفاة التبريزى فى سنة ٥٠٢ من الهجرة . ويعدّ المرزوقى من أقدم الشرّاح إذ كان بين وفاته فى سنة ٤٢١ ووفاة أبى تمام فى سنة ٢٣١ نحو مائة وتسعين سنة[(١)].

وشرح المرزوقى يعدّ أكبر الشروح التى وصلت إلينا ، وأكثرها عناية بمعانى الشعر ، وبالنقد والموازنة ، على حين لم تفته العناية باللغة والاشتقاق ، وكذا العناية التى لا إسراف فيها بمسائل النحو والتصريف . لكنه قد فاته كثير من أخبار الشعر ومناسباته ، والكلام على أسماء الشعراء واشتقاق أعلامهم وهما الميزتان اللتان امتاز بهما التبريزى عليه . والتبريزى فى هذه الناحية الأولى قد أفاد من شرح أبى رياش للحماسة — ويبدو أن كتاب أبى رياش لم يقع للمرزوقى حتى يمكنه الانتفاع به كما صنع التبريزى — وفى الناحية الأخرى قد أفاد من شرح أبى هلال العسكرى ، ومن المبهج لابن جنى .

والمرزوقى ذو عبارة رصينة متخيَّرة ، يتكلف لها الصنعة حيناً ، ويعمد آخر إلى السجع المتّين . ومن عجب أن التبريزى ينقل عبارته هذه ذاتَ الطابع الخاص ، ولا يجهد قلمه فى نسبة العبارة إليه إلا فى القليل النادر[(٢)] . بل إنه فى مقدمة كتابة لم يشر إلى إفادته منه ، مع أن للموازنَ بين الشرحين يدهشه التقاربُ الشديد بين عبارات التفسير واتجاهاته ، ثم لا يرتاب فى أن التبريزى كان فى جُمْهور شرحِه عالةً على المرزوقى .

ومن عجب أيضاً أن التبريزى مع ذلك ينعى على هؤلاء الذين يهملون نسبة أقوال العلم إلى أصحابها فيقول فى تفسير الشطر الثالث من الحماسية ٨٩[(٣)] : « قال

---

(١) ولم يتأخر تأليف المرزوقى لشرح الحماسة عن سنة ٤١٧ . قال ياقوت : « وجدت خطه على كتاب شرح الحماسة من تصنيفه وقد قرئ عليه فى شعبان سنة ٤١٧ » .

(٢) من ذلك النادر ما ورد عند التبريزى فى شرح البيت الأول من الحماسية ٦٩ والثانى من الحماسية ٨٧ والشطر الثالث من الحماسية ٨٨ .

(٣) هى الحماسية ٨٨ عند المرزوقى ، إذ أن هناك خلافا فى ترتيب المقطوعات كما سيأتى .

المرزوقى : وذكر بعض المتأخرين — يعنى ابن جنى — ولم ينصفه حيث لم يسمّه فى كتابه . . . [1] » .

وفى أسلوب المرزوقى أيضاً استطالة عجيبة ، يفصل بين المبتدأ وخبره أو بين الفعل ومفعوله بعبارة طويلة يضل القارئ فى ثناياها حتى يهتدى إلى ارتباط الكلام [2] .

ويمتاز شرح المرزوقى بمقدمته النفيسة الجريئة التى تعدّ وثيقة هامة فى تاريخ النقد الأدبى : نقد الشعر ونقد النثر ، ضمنها مسائل شتى تتعلق بموازنة النظم والنثر أيهما أشرف وأعلى قدراً ، ويتبع ذلك الكلامُ على المقايسة بين منزلة الشاعر والكاتب ، والعلة فى كثرة الشعراء وقلة النثّار ، ولماذا لا يستطيع الأديب أن يجمع الإجادة فى صناعتى النظم والنثر ؟ وما أثر الصنعة والطبع فى الآثار الأدبية فى قيمتها وفى جمالها ؟ ومتى تُستحسن الصنعة ؟ وما مدى العلاقة بين ذوق الأديب فيما يصنع بيانه من إنتاج أدبى وفيما يختار من بيان غيره ؟ وهذه المسألة مبنية على ما صنع أبو تمام فى اختيار الحماسة ، إذ كان ذوقه فى ذلك الاختيار مخالفاً لذوقه فى نسج شعره وصناعتِه مخالفةً ظاهرة . وقد أجاد المرزوقى فى جواب هذه المسألة بما يعدّ مثالا فى البيان ، وغاية فى إصابة الحكم .

وكلمة أخرى فى هذين الشرحين : أن متن الحماسة فيهما يخالف بعضه بعضا فى الرواية وعدد الأبيات ، وفى ترتيب المقطوعات وترتيب الأبيات ، بله عدد المقطوعات . وقد لحظت أن المرزوقى لم يرو الحماسة التى أولها :

---

(١) مما هو جدير بالذكر أن المرزوقى لا يصرح باسم ابن جنى ، وكأنه كان يستضعفه ولا يرى مكانه ، وتكاد تكون عبارة « قال بعضهم » فى شرح المرزوقى يقصد بها ابن جنى فحسب . وليس يذكر هذه العبارة إلا فى مقام الاعتراض فى أغلب الأمر .

(٢) انظر نموذجا لذلك ما ورد فى الصفحة الأولى من مقدمته ، إذ فصل بين « جارتينى » وبين « أمر الشعر » بثلاثة أسطر .

أقول لها وقد طارت شعاعا من الأبطال ويحك لن تراعى

وترتيبها عند التبريزى ١٤ ، ونتج من ذلك أن نجد أن المقطوعات التى تلى المقطوعة ١٣ يزيد رقمها واحدا عند التبريزى ، على حين نجدها برقم أدنى عند المرزوقى ، أى إن الحماسة رقم ١٥ عند التبريزى يقابلها رقم ١٤ عند المرزوقى ، والحماسية ١٦ عند التبريزى يقابلها ١٥ ، عند المرزوقى ، وهلم جرا .

كما نجد أن الحماسيتَين ١٠٤ ، ١٠٥ فى ترتيب المرزوقى وهما ١٠٥ ، ١٠٦ عند التبريزى — قد تقدمت أولاهما على الأخرى عند المرزوقى وتأخرت عند التبريزى .

وهذه المفارقات راجعة إلى الخلاف فى نسخ الحماسة وروايتها ، وقد وجدت المرزوقى يقول فى شرحه[1] : « وقد رجعنا إلى نسخ مختلفات المصادر ... » ، يعنى بذلك نسخ الحماسة ، وهو نص صريح فى بيان تعدد نسخ الحماسة .

المرزوقى :

قال الصاحب ابن عباد[2] : « فاز بالعلم من أصبهان ثلاثة : حائك ، وحلاج ، وإسكاف . فالحائك هو المرزوقى ، والحلاج أبو منصور بن ماشده ، والإسكاف أبو عبد الله الخطيب بالرى ، صاحب التصانيف فى اللغة » .

وليس يعنى الصاحبُ أنَّ أصبهان لم يبرز منها إلا هؤلاء العباقرة ، ولكنه عنى أنهم نبغوا من بين أصحاب الصناعات ، وإلا فإن عباقرة أصبهان كثيرون ، وقد ظهر فيها فحول كُثار ، منهم قبل المرزوقى أبو الفرج الأصبهانى صاحب الأغانى المتوفى سنة ٣٥٦ وغيره كثير .

وليس يعرف زمان مولد (أبى على أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقى) ،

(١) ص ٢٥٥ من هذا الجزء .

(٢) معجم الأدباء (٥ : ٣٥) .

ولكن وفاته قد أجمع المترجمون له أنها كانت سنة ٤٢١ لم يشذ منهم أحد .
ولكنا نجد نصا غريبا فى نهاية كتاب الأزمنة والأمكنة للمرزوقى[١] ، وهو : «فرغت منه ضحوة يوم الخميس ثالث عشر جمادى الآخرة سنة ٤٥٣» . والخطب فى هذا هين ، إذ يبدو أن هذه عبارة الناسخ لا عبارة المرزوقى . يؤيد هذا إجماع المؤرخين قاطبة على سنة وفاته وعدم اختلافهم فى ذلك . ويؤيده أيضا ما ورد فى نص ياقوت : « وكان — أى المرزوقى — معلم أولاد بنى بويه بأصبهان ، ودخل إليه الصاحب فما قام له ، فلما أفضت الوزارة إلى الصاحب جفا » . فإذا عرفنا أن ولاية الصاحب للوزارة دامت ثمانى عشرة سنة وأن وفاته كانت فى سنة ٣٨٥ وأنتجنا من ذلك أنه تولى الوزارة نحو سنة ٣٦٧ — إذا عرفنا ذلك كان القول بأن المرزوقى دامت حياته ٨٦ سنة بعد جفاء الصاحب له ، غايةً فى البعد والاستحالة ، ولاسيما إذا وجدنا المؤرخين لم يذكروا المرزوقى بأنه كان من المعمرين[٢] .

شيوخه وتلاميذه :

والمؤرخون لا يعرفون للمرزوقى شيخاً إلا أبا علىّ الفارسىّ المتوفى سنة ٣٧٧ . يذكرون أنه قرأ عليهم كتاب سيبويه ، وتتلمذ له بعد أن كان رأسا بنفسه[٣] . والمرزوقى يذكر سماعه منه فى مواضع من شرحه[٤] .

وأما تلاميذه فلم يذكروا منهم إلا سعيداً البقال : قال ياقوت : « وكتب عنه سعيد البقال ، وأخرجه فى معجمه .

ويذكرون أيضاً أنه اتصل ببنى بويه وكان معلم أولادهم .

(١) الأزمنة والأمكنة (٢ : ٣٨٤) .

(٢) وقد عثرت أخيراً على نص فى شرح الحماسية ١٦٤ يفهم منه أن المرزوقى صنع كتاب الأزمنة قبل شرح الحماسة ، أى قبل سنة ٤١٧ . انظر الحاشية الأولى من صفحة ١٦ من التقديم .

(٣) معجم الأدباء (٥ : ٣٥) . (٤) انظر الحماسية ١٢٣ : ٢ ، ١٣٥ : ٣ .

والمرزوقى يعد فى زمرة البصريين ، وهو فى مواضع من شرحه[1] يقول : « أصحابنا البصريون » .

مؤلفات المرزوقى :

١ — شرح الحماسة ، قال ياقوت : « أجاد فيه جدا » . وقال القفطى : « وهو الغاية فى بابه » . وقال ابن شاكر[2] : « وهو أحسن شروحها » .

٢ — شرح المفضليات . ومنه نسخة فى مكتبة برلين برقم ٧٤٤٦ .

٣ — شرح الفصيح . قال القفطى : « وهو كتاب جميل فى نوعه »

٤ — شرح أشعار هذيل .

٥ — كتاب الأزمنة والأمكنة . وقد طبع فى مجلدين فى حيدر أباد سنة ١٣٣٢ .

٦ — الأمالى . ومنه قطعة بدار الكتب المصرية برقم ٣٣٠٠ أدب . تكلم فيها على شرح طائفة من الآيات القرآنية والأحاديث ، والأمثال ، والحكم ، مع ذكر ما يناسبها من العلوم المختلفة .

٧ — ألفاظ العموم والشمول . منه قطعة بدار الكتب المصرية برقم ٤١٤٠ أدب .

٨ — شرح الموجز ، فى النحو ، كما ذكر ابن شاكر .

٩ — شرح النحو (؟ !) . ذكره ياقوت . والظاهر أنه الكتاب السابق .

١٠ — وذكر له القفطى كتاباً بعنوان « مفردات متعددة فى النحو » .

شرح المرزوقى للحماسة :

سمى المرزوقى كتابه هذا « شرح الاختيار المنسوب إلى أبى تمام الطائى .

---

(١) انظر الحماسة ١٣ : ١ والحماسية ٥٠ : ٤ .

(٢) فى عيون التواريخ نسخة دار الكتب فى وفيات ٤٢١ .

المعروف بكتاب الحماسة » . وقد أثبت هذه التسمية فى صدر مقدمته .

وفى مكتبات العالم من هذا الكتاب نسخ كثيرة منها فى تركيا وحدها عشر نسخ ، وفى القاهرة نسختان : إحداهما فى دار الكتب المصرية ، والأخرى فى التيمورية الملحقة بدار الكتب . وفى كل من برلين ، وليدن ، والمتحف البريطانى ، والموصل ، وطهران نسخة واحدة . فهى سبع عشرة نسخة ، وإليك أرقامها :

١ — نسخة كوبريلى برقم ١٣٠٨ — ١٣١١
٢ — « نور عثمانية برقم ٣٩٩٩ — ٤٠٠١
٣ — « أيا صوفيا برقم ٤٠٥٨
٤ — « لا له لى برقم ١٨١٠ — ١٨١٣
٥ — « الفاتح برقم ٣٩٤١ — ٣٩٤٤
٦ — « بايزيد برقم ٢٦٠٤
٧ — « عاطف برقم ٢١٤٦
٨ — « المكتبة العمومية برقم ٥٣٩٢ ، ٥٣٩٣ ، ٥٥٤٧
٩ — « فيض الله برقم ١٦٤٤
١٠ — « برلين برقم ٧٤٤٩
١١ — « ليدن برقم ٦٠٣
١٢ — « المتحف البريطانى برقم ٥٦٨ — ٥٦٩
١٣ — « الموصل (مخطوطات الموصل ١٩٠)
١٤ — « طهران (الجزء الثانى ٢٨٨)
١٥ — « دار الكتب المصرية برقم ٣٠٦ أدب
١٦ — « مكتبة تيمور باشا برقم ١٠٢٧ شعر . وهذه النسخة لم يعرفها بروكلمان .

١٧ — نسخة روان كشك الملحقة بمكتبة طوب قبو سراى ، ورقمها ٧٠٦ وهذه النسة لم يعرفها بروكلمان أيضاً .

النسخ المعتمدة فى التحقيق :

اعتمدنا فى تحقيق هذه النسخة على أربع نسخ هى التى أمكننا أن نحصل عليها ، واسترجحنا من هذه النسخ الأربع نسختين اعتمدنا عليهما اعتمادا تاما .

١ — النسخة الأُولى ، وهى التى سميناها نسخة الأَصل ، وهى نسخة المكتبة العمومية بالآستانة ، وهى كاملة فى مجلدين برجع تاريخ نسخها إلى سنة ٥٢٥ أى بعد وفاة المرزوقى بأربع سنين ومائة سنة ، كتبها سعد بن إبراهيم ابن أحمد الفرائى ، قياسها ١٨,٥ × ٢٩,٥ وينتهى الجزء الأول منها بالحماسية رقم ٣٥٠ .

٢ — نسخة دار الكتب المصرية ، وهى قديمة أرجح أنها من مخطوطات القرن السادس ، بها ترقيع وتقطّع وتلوث وآثار أرضة ، وهى نسخة ناقصة بها تكميل فى أولها ، وتنتهى بنهاية المقطوعة الحماسية رقم ٣٠٠ أى إنها أقل من نصف الكتاب ، وهذه النسخة مجهولة التاريخ والناسخ ، وقد رمزت إلى هذه النسخة بالرمز (م) .

أما النسختان الأخريان فهما :

٣ — نسخة المكتبة التيمورية ، وهى نسخة ناقصة حديثة الخط مجهولة الناسخ وتاريخ النسخ ، وهى فى حجم متوسط تنتهى بنهاية الحماسية رقم ٣٢٣ .

٤ — نسخة روان كشك الملحقة بمكتبة طوب قبو سراى برقم ٧٠٦ ، وهى من مجلوبات معهد المخطوطات بالإدارة الثقافية لجامعة الدول العربيـة ، وهى نسخة خزائنية مكتوبة بخط نسخى دقيق جميل ، مع خلوها من الضبط ، كتبها

شمس الدين القدسى برسم السلطان مراد خان سنة ٨٦٩ بأولها طرة مذهبة ، كما أن صفحاتها مجدولة بالذهب ، وقياسها ٢٢ × ٣٥ .

تحقيق الكتاب :

فى هـذا الجزء الأول عارضت نسختى المكتبة العمومية ودار الكتب المصرية معارضة تامة فى النص وفى الضبط ، وقد ظهر لى أن خلافهما قليل جدا ، وستستمر المعارضة القامة بينهما إلى أن تنتهى نسخة دار الكتب . هذا مع الاستعانة بما نقدر عليه من المخطوطات ما وجدنا إلى ذلك سبيلا ، وحينئذ تحل نسخة روان كشك محل نسخة دار الكتب المصرية فى المقابلة التامة .

وقد استدعى تحقيق هذا الكتاب أن أقارنه مقارنة تامة بشرح التبريزى. بحيث لا أترك فائدة جديرة بالإثبات فيما أرى إلا اقتسبتها فى الحواشى . ولا سيما ما كان متعلقا برواية المتن ، أو تحقيق الأخبار وتوضيحها ، أو ما كان فيه تأييد المرزوقى أو طعن عليه .

وكذلك اصطحبت فى تحقيقه شرح مشكل أبيات الحماسة لابن جنى ، وكان فى النية أن أقتبس جميع نصوص هذا الكتاب وأضعها فى أماكنها إزاء أبيات الحماسة ، لكنّى وجدت فى ذلك إثقالا ، ووجدت الفائدة التى يجنيها القارئ من إسهاب ابن جنى فى هذا الكتاب خاصة فائدة غير مرجوّة . لذلك لم أثبت منها إلا ما كان ضروريا لتوضيح أو تأييد .

كذلك كان الصُّنع فى كتاب المبهج لابن جنى أيضاً .

وقد التزمت أن أترجم لجميع شعراء الحماسة ترجمة موجزة ، وأن أشير إلى مراجع الترجمة . وقد أفدت من جهدى فى تراجم شعراء الحيوان للجاحظ ، والبيان والتبيين له ، شيئاً كثيراً ، كما أفدت من جهد الأخ العلاّمة الشيخ أحمد محمد شاكر فى كتاب « الشعر والشعراء لابن قتيبة » ما يجعلنى أعترف له هنا بالفضل العظيم ـ

كما عنيت عناية خاصة بتعيين أسماء المجهولين من شعراء الحماسة الذين يعبّر عنهم أبو تمام بقوله : « وقال آخر » أو بعض شعراء قبيلةٍ ما من قبائل العرب ، وقد وفّقتِ فى ذلك بعون الله بعض التوفيق .

وكذلك كان الأمر فى تعيين أسماء المجهولين فى شرح المرزوقى .

واستعنت بعد ذلك بمختلف المراجع الأدبية واللغوية والتاريخية والبلدانية وكتب القراءات والتفسير وغيرها لتحقيق هـذا الكتاب وضبط نصوصه . وبيانُ تلك المراجع سوف ألحقه بالفهارس العامة للكتاب إن شاء الله .

الفهارس العامة والاستدراكات :

وسيلحق بنهاية هذا الكتاب إن شاء الله — أى فى نهاية المجلد الرابع — ما تقتضيه طبيعته من الفهارس الفنية للشعر ، واللغة ، والأمثال ، والأعلام ، والبلدان ، ويتلوها الاستدراكات والتصحيحات .

* * *

وبعد ، فإن صاحب الفضل الأكبر فى إخراج هذه النشرة الأولى من هذا الكتاب الجليل ، هو أستاذنا الكبير « الدكتور أحمد أمين بك » ، فهو الذى اقترح أن ينشر هذا الكتاب ، لما له ولمؤلفه من خطر ، كما أقرّ إخراجه فى لجنة التأليف والترجمة والنشر ، التى كانت لمصر والعالم العربى بمثابة جامعة علمية عاملة ، بما أظهرت للمثقفين من آثار التأليف فى الشرق والغرب . وقد اشترك حفظه الله فى وضع منهج الإخراج ليبدو الكتابَ فى هذا الوضع العلمى الحديث ، كما تفضل بمراجعة ما صنعت لتحقيق هذا الكتاب مراجعة دقيقة ، فله من الله ومن العلم خير الجزاء .

القاهرة فى { ٢٠ من المحرم سنة ١٣٧١ — ٢١ من أكتوبر سنة ١٩٥١ }

عبد السلام محمد هارون

الجزء الأول

من شرح الاختيار المنسوب إلى أبي تمام الطائي

المعروف بكتاب الحماسة

صنعة

الشيخ الإمام أبي علي أحمد بن محمد بن الحسن

المرزوقي الإصفهاني

٠٠٠ — ٤٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله خالقِ الإنسان، متميّزًا بما علّمه من التبيُّن والبيان، وصلّى على أفضلِ مَن صدع بأمره وزَجْره، داعيا وناهيا، وعلى الطاهرين من آله وسلم.

وبعد فإنّك جارَيْتَنى — أطالَ الله بقاءك فى أشملِ سعادة وأكمل سلامة، لمّا رأيتَنى أَقصُر ما أستفضِلُه من وقتى، وأستخلصه من وُكْدى[1]، على عملِ شرحٍ للاختيار المنسوب إلى أبى تمامٍ حبيب بن أوس الطائىّ، المعروف بكتاب الحماسة أمْرَ[2] — الشِّعرِ وفنونِه، وما نال الشُّعراءُ فى الجاهلية وما بعدها، وفى أوائل أيّام الدولتين وأواخرها من الرفعة به، إذ كان الله عزّ وجلّ قد أقامه للعربِ مقام الكُتُب لغيرها من الأمم، فهو مستودع آدابها، ومُستحفَظ أنسابها، ونِظام فَخارها يوم النّفار، وديوانُ حِجاجها عند الخِصام.

ثم سألتنى عن شرائط الاختيار فيه، وعمّا يتميز به النّظمُ عن النّثر، وما يحمد أو يذمّ من الغُلُوّ فيه أو القصد، وعن قواعدِ الشعر التى يجب الكلامُ فيها وعليها، حتّى تصيرجوانبُهَا محفوظة من الوَهْن، وأركانُها محروسة من الوَهْى إذ كان لا يُحْـكم للشّاعر أو عليه[3] بالإساءة أو بالإحسان إلاّ بالفحص عنها، وتأمُّلِ مأخَذِه منها، ومدى شأْوِه فيها، وتمييز المصنوع ممـا يَحُوكه من المطبوع والأَتِىّ المُـتسهَل من الأَبىّ المستكرَه. وقضيتَ العَجَب كيف وقع الإجماعُ من النُّقّاد على أنه لم يَتّفق فى اختيار المقطّعات أَنْـقَى ممـا جمعه، ولا فى اختيار

(١) الوكد بالضم: السعى والجهد، وبالفتح: المراد، والهم، والقصد.

(٢) أمر، هو المفعول الثانى لجاريتنى فى الكلام قبله. على أن المعروف أن يقال جاراه فى كذا وبكذا، أى جرى معه فى المناظرة والجدال.

(٣) م: «وعليه».

المُقصَّدات أوفَى مما دوّنه المفضَّلُ ونقده[١] .

وقلت إنّ أبا تمّام معروفُ المذهب فيما يقرِضُه ، مألوف المسلك لما ينظمه نازعٌ فى الإبداع إلى كل غاية ، حاملٌ فى الاستعارات كلَّ مشقّةٍ ، متوصّلٌ إلى الظَّفَرِ بمطلوبه من الصّنعة أين اعتَسَفَ وبماذا عَثَر ، متغلغلٌ إلى توعير اللفظ وتغميض المعنى أنَّى تأتّى له وقَدَر ؛ وَهو عادلٌ فيما انتخبَه فى هذا المجموع عن سلوك معاطفِ مَيْدانه ، ومُرْتضٍ ما لم يكن فيما يصوغه من أمره وشانِهِ ، فقد فَلَيْتُه فلم أجدْ فيه ما يوافق ذلك الأسلوبَ إلا اليسير . ومعلومٌ أن طبع كل امرئٍ — إذا ملك زمام الاختيار — يجذبُه إلى ما يستلذّه ويهواهُ ، ويصرِفه عما يَنفِرُ منه ولا يرضاه . وزعمتَ بعد ذلك أجْمَعَ أنّك مع طول مجالستِك لجهابذة الشِّعْر والعلماء بمعانيه ، والمبرِّزين فى انتقادِه ، لم تقفْ من جهتهم على حَدٍّ يؤدّيك إلى المعرفة بجيّدهِ ومتوسِّطهِ ورديئِه ، حتى تجرِّد الشهادةَ فى شىء منه ، وتَبُتَّ الحُكْمَ[٢] عليه أوْله ، آمنا من الجاذبينَ والمُدافعين . بل تعتقدُ أنّ كثيراً مما يستجيدُه زيدٌ يجوز أن لا يطابقَه عليه عمْرو ، وأنه قد يُستحسَنُ البيتُ ويُثْنَى عليه ثم يستهجَن نظيرُهُ فى الشَّبَه لفظاً ومعنًى حتّى لا مخالفةَ ، فيُعرضُ عنه ، إذْ كان ذلك موقوفاً على استحلاء المستَحْلِي واجتواء المُجتوِى ، وأنّه كما يُرزق الواحِدُ فى مجالسِ الكبارِ من الإصغاء إليه والإقبال عليه ، ما يُحْرَمُ صِنْوُهُ وشبيهُهُ ، مع أنّه لا فضيلةَ لذلك ولا نَقيصةَ لهذا إلاّ ما فازَ به من الجَدِّ عند الاصطفاء والقَسْمِ .

وقلتَ أيضاً : إنّى أتمنّى أن أعرفَ السببَ فى تأخُّرِ الشُّعراء عن رُتبةِ الكُتّاب البُلغاء ، والعذرَ فى قِلّة المترسِّلين وكثرة المُفلِقين[٣] ، والعلّةَ فى نباهة

---

(١) يعنى بذلك القصائد المفضليات ، التى اختارها المفضل الضبى .

(٢) فى الأصل : « لتحكم » وأثبتنا ما فى م .

(٣) المفلق : الشاعر المجيد يجىء بالعجائب فى شعره .

أولئك وخُمول هؤلاء، ولماذا كان أكثرُ المترسِّلين لا يُفلِقون فى قَرْض الشعر، وأكثرُ الشعراء لا يَبْرعون فى إنشاء الكُتُب، حتى خُصَّ بالذِكر عَدَدٌ يسير منهم، مثل إبراهيم بن العبّاس الصولىّ، وأبى علىّ البَصير[١]، والعَتّابىّ، فى جمعهم بين الفَنَّين، واغترازِهم رِكابَ الظَّهْرَين[٢]. هذا ونظامُ البلاغة يتساوى فى أكثره المنظومُ والمنثور.

وأنا إنْ شاء الله وبه الحولُ والقوّة، أُورِدُ فى[٣] كلّ فَصْلٍ من هذه الفُصولِ ما يحتمله هذا الموضع، ويمكن الاكتفاء به؛ إذ كان لتقصّى المقالِ فيه موضعٌ آخَر، من غير أن أنصِبَ لما تُصَوِّرُه النعوتُ الأمثلةَ، تفادياً من الإطالة، ولأنّه إذا وَضَحَ السَّبيلُ وقَعَتِ الهداية بأيسرِ دليل. والله عزّ وجلّ الموفِّق للصواب، وهو حسبنا ونعمَ الوكيل.

* * *

اعلم أنّ مذاهبَ نُقَّادِ الكلام فى شرائِطِ الاختيار مختلفة، وطرائقَ ذوِى المعارف بأعطافِها وأردافِها مفترقَة، وذلك لتفاوُتِ أقدار مناديحِها على اتّساعها[٤] وتنازُح أقطار مظانِّها ومعالمها[٥]، ولأنّ تصاريفَ المبانى التى هى كالأوعية، وتضاعيف المعانى التى هى كالأمتعة فى المنثور، اتَّسَعَ مَجالُ الطبع فيها ومَسْرَحُه، وتَشَعَّبَ مَرَادُ الفِكْر لها[٦] ومَطْرَحُه. فمن البلغاء من يقول: فِقَرُ

(١) هو أبو على الفضل بن جعفر بن الفضل بن يونس النخعى، المعروف بالبصير، كان من أهل الكوفة وسكن بغداد، ومدح المتوكل والفتح بن خاقان، وكان يتشيع فى غلو. وبقى إلى أيام المعتز. نكت الهميان ٢٢٥.

(٢) الاغترار: أن يدخل قدمه فى الغرز، وهو للجمل مثل الركاب للبغل. فى الأصل «اغترارهم»، صوابه فى م.

(٣) م: «من».

(٣) المناديح: المفاوز، والمندح: المكان الواسع.

(٥) عنى بالتنازح التباعد.

(٦) م: «فيها».

الألفاظ وغُرَرُها ، كجواهر العقود ودررها ، فإذا وُسِمَ أغفالُها بتحسين نظومها[١] وحُلِّيَ أعطالُها بتراكيب شُذورِها ، فراق مسموعُها ومضبوطُها ، وزانَ مفهومُها ومحفوظُها ، وجاء ما حُرِّر منها مُصَفًّى من كَدَر العِيِّ والخَطَل ، مقوَّما من أَوَدِ اللّحن والخطأ ، سالما من جَنَف التأليف[٢] ، موزونا بميزان الصواب ، يَمُوج فى حواشيه رونَقُ الصّفاء لفظًا وتركيبًا — قَبِله الفهمُ والتذّ به السمع . وإذا وَرد على ضدّ هذه الصفة صَدِئَ الفهمُ منه ، وتأذّى السّمع به تأذِّى الحواسِّ بما يخالفها .

ومنهم من لم يَرْضَ بالوقوف على هذا الحدّ فتجاوزه ، والتزم من الزيادة عليه تتميمَ المقطع ، وتلطيفَ المطلَع ، وعَطْفَ الأواخر على الأوائل ، ودَلالةَ الموارد على المصادر ، وتناسُبَ الفصول والوصول ، وتعادُلَ الأقسام والأوزان ، والكشفَ عن قناع المعنى بلفظٍ هو فى الاختيار أوْلَى ، حتّى يطابق المعنى اللفظَ ، ويسابق فيه الفهمُ السمع . قال : ولا غاية وراء هذا .

ومنهم من ترَقَّى إلى ما هو أشقُّ وأصعب ، فلم تقنعْه هذه التكاليفُ فى البلاغة حتّى طَلب البديع : من الترصيع والتسجيع ، والتطبيقِ والتجنيس ، وعكس البناء فى النّظم[٣] ، وتوشيح العبارةِ بألفاظٍ مستعارة ، إلى وجوهٍ أُخَر تَنطق بها الكتُب المؤلَّفة فى البديع ، فإنى لم أذْكر هذا القَدْر إلاّ دلائل على أمثالها . ولكلٍّ مما ذكرتُه ومما لم أذكرْ رسمٌ من النفوذ والاعتلاء ، بإزائه ما يضادُّه فيُسَلم للنُّكوص والاستفال[٤] . وأكثر هذه الأبواب لأصحاب

---

(١) م : « بحسن نظومها » .

(٢) الجنف : الميل فى الكلام وفى الأمور كلها .

(٣) يعنى بذلك ما ورد فى نحو قوله :

مودته تدوم لكل هول وهل كل مودته تدوم

(٤) الاستفال : النزول إلى أسفل .

الألفاظ ، إذ كانت المعانى بمنزلة المعارِض للجوارى[1] ، فأرادوا أن يلتذّ السمْعُ بما يُدْرِكُ منه ولا يَمُجّه ، ويتلقّاه بالإصغاء إليه والإذْن له فلا يحجُبَه[2] .

وقد قال أبو الحسن ابن طَبَاطَبا[3] رحمه الله ، فى الشِّعر : هو ما إن عَرِىَ من معنًى بديع لم يَعْرَ من حُسن الديباجة ؛ وما خالف هذا فليس بالشعر[4] .

ومن البُلَغاء من قصد فيما جاشَ به خاطِرُه إلى أن يكون استفادةُ المتأمّل له ، والباحثِ عن مكنونه من آثار عقله أكثر من استفادته من آثار قولهِ أو مِثْلَه . وهم أصحابُ المعانى ، فطلبوا المعانى المُعْجِبَةَ من خواصّ أماكنها ، وانتزعوها جَزْلَةً عَذْبَةً حكيمةً ظريفةً أو رائقةً بارعةً[5] ، فاضلةً كاملةً ، لطيفةً شريفةً ، زاهرةً فاخرةً ؛ وجعلوا رسومَهَا[6] أن تكون قريبةَ التشبيه ، لائقةَ الاستعارة ، صادقةَ الأوصافِ ، لائحةَ الأوضاح ، خَلاّبةً فى الاستعطاف ، عَطّافةً لدى الاستنفار ، مستوفيةً لحظوظِها عند الاستهام من أبواب التصريح والتعريض ، والإطناب والتقصير ، والجِدّ والهَزل ، والخُشونة واللَّيان[7] ، والإباء والإسماح ، من غير تفاوُت يظهر فى خِلالِ أطباقِها ، ولا قصورٍ ينبَعُ من أثناء أعماقِها ، مبتسمةً من مثانى الألفاظ عند الاستشفاف ، محتجبة فى غموض الصِّيان ، لدى الامتهان[8] تعطيك مُرادَكَ إن رفَقت بها ، وتمنعُك جانِبَهَا إن

(١) المعارض جمع معرض كمنبر ، وهو الثوب تعرض فيه الجارية وتجلى .

(٢) م : «فلا يحجبه» .

(*)(٣) ذكره ابن خلكان عرضاً فى ترجمة أبى القاسم أحمد بن محمد ابن طباطبا قال : «ولا أدرى من هــذا أبو الحسن ، ولا وجه النسبة بينه وبين أبى القاسم المذكور» . وفى معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية كتاب له يدعى «عيار الشعر» ذكر فى صدره أنه لأبى الحسن محمد بن أحمد ابن طباطبا العلوى . وذكر هذا الكتاب فى كشف الظنون وذكر أنه لابن طباطّبا .

(٤) م : «بشعر» .

(٥) م : «حكيمة طريفة ، أو رائعة بارعة» .

(٦) م : «وسومها» .

(٧) الليان ، بالفتح كسحاب : مصدر لان يلين لينا وليايا .

(٨) لدى الامتهان ، ساقطة من م .

عَنُفَتْ معها . فهذه مَناسِبُ المعانى لطُلّابها ، وتلك مناصِبُ الألفاظ لأربابها . ومتى اعترف اللفظ والمعنى فيما تَصُوبُ به العقولُ[(١)] فتعانقا وتلابسا ، متظاهِرَين فى الاشتراك[(٢)] وتوافقا ، فهناك يلتقى ثَرَيَا البلاغة[(٣)] فيُمطرُ روضُها ، ويُنشَر وشْيُها ، ويتجلّى البيان فصيحَ اللسان ، نَجيحَ البُرْهان ، وترى رائدَى الفَهمِ والطّبعِ متباشرين لها من المسموعِ والمعقول بالمَسرح الخِصْب والمَكْرَع[(٤)] العذب . فإذا كان النثرُ — بما له من تقاسيم اللفظ والمعنى والنظم — اتسع نطاقُ الاختيار فيه على ما بيّنّاه بحسبِ اتساع جوانبها وموادّها ، وتكاثر أسبابها ومَوَاتّها[(٥)] ، وكان الشعر قد ساواه فى جميع ذلك وشاركه ، ثم تفرّد عنه وتميّز بأنْ كان حَدُّه « لفظ موزون مُقَفًّى يدُلُّ على معنًى » ، فازدادت صفاتُه التى أحاط الحَدُّ بها بما انضمّ من الوزن والتقفيةِ إليها ، ازدادت الكُلَف فى شرائطِ الاختيار فيه ، لأن للوزن والتقفيةِ أحكاما تماثلُ ما كانت للمعنى واللفظ والتأليف أو تُقارِب ، وهما يقتضيان من مراعاة الشاعرِ والمنتقد ، مثلَ ما تقتضيه تلك من مراعاة الكاتب والمتصفِّح ، لئلا يختلّ لها[(٦)] أصلٌ من أصولها ، أو يعتَلّ فرْعٌ من فروعهما .

فإذا كان الأمر على هذا ، فالواجب أن يُتبيَّن ما هو عمودُ الشعرِ المعروفُ عند العرب ، ليتميَّزَ تَليدُ الصنعةِ من الطريف ، وقديمُ نظامِ القريضِ من الحديث ، ولتُعرفَ مواطئُ أقدام المختارين فيما اختاروه ، ومَراسمُ إقدام

---

(١) تصوب به : تجود به ، من قولهم صاب المطر صوباً : نزل .

(٢) فى الأصل : « الاعتراف » وأثبتنا ما م .

(٣) ضبطت فى الأصل بضم الثاء وفتح الراء وتشديد الياء ، وهذا خطأ . يقال التقى الثريان ، وذلك أن يجىء المطر فيرسخ فى الأرض حتى يلتقى هو وندى الأرض . اللسان (ثرا) .

(٤) م : « المشرع » .

(٥) موات : جمع ماتة بوزن فاعلة ، وهى الوسيلة .

(٦) هذه الكلمة ساقطة من م .

المزيِّفين على ما زيَّفوه ، ويُعْلَمَ أيضاً فرقُ ما بين المصنوع والمطبوع ، وفضيلةُ الأتيِّ السَّمْحِ على الأبيِّ الصعب ، فنقول وبالله التوفيق :

إنهم كانوا يحاولون شرفَ المعنى وصحَّتَهُ ، وجزالة اللفظ واستقامته ، والإصابةَ في الوصف — ومن اجتماع هذه الأسباب الثلاثة كثُرت سوائر الأمثال ، وشواردُ الأبيات — والمقاربةَ في التشبيه ، والتحامَ أجزاء النَّظم والتئامَها على تخيُّرٍ من لذيذ الوزنِ ، ومناسبةَ المستعارِ منه للمستعار له ، ومشاكلةَ اللفظ للمعنى وشِدَّة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما — فهذه سبعة أبواب هي عمودُ الشعر ، ولكلِّ باب منها مِعْيار .

فعِيَار المعنى أن يُعرَضَ على العقل الصحيح والفَهم الثاقب ، فإذا انعطف عليه جَنْبَتَا القَبول والاصطفاء ، مستأنِساً بقرائِنِه ، خَرج وافياً ، وإلاّ انتقَص بمقدار شَوْبِه ووحْشَتِه .

وعيار اللفظ الطَّبعُ والرِّواية والاستعمال ، فما سَلِمَ مما يُهَجِّنُهُ عند العَرضِ عليها فهو المختار المستقيم . وهذا في مُفْرداته وجملته مُرَاعًى ، لأنّ اللفظة تُستكرم بانفرادها ، فإذا ضامَّها مالا يوافِقُها عادت الجملةُ هَجِينًا .

وعيار الإصابة في الوصف الذَّكاءُ وحسنُ التمييز ، فما وجداه صادقا في العُلُوق ممازِجاً في اللُّصوق ، يتعسّر الخروج عنه والتبرُّؤ منه ، فذاك سِيماء الإصابة فيه . ويروى عن عمر رضي الله عنه أنه قال في زهير : « كان لا يَمدَحُ الرجلَ إلاّ بما يكون للرّجال » . فتأمّل هذا الكلامَ فإنّ تفسيره ما ذكرناه .

وعيار المقاربة في التشبيه الفطنةُ وحسنُ التقدير ، فأصْدَقُه مالا ينتقِض عند العكس ، وأحسَنُه ما أُوقع بين شيئين اشتراكُهما في الصفات أكثر من انفرادهما ليَبِينَ وجهُ التشبيه بلا كلفَة ، إلا أن يكون المطلوب من التشبيه أشهرَ صفات المشبَّه به وأملكَها له ، لأنه حينئذ يدلُّ على نفسه ويحميه من الغموض والالتباس .

وقد قيل : « أقسام الشعر ثلاثة : مَثَلٌ سائرٌ ، وتشبيه نادر ، واستعارةٌ قريبة » .

وعيار التحام أجزاء النظم والتئامه على تخيُّر من لذيذ الوزن ، الطبعُ واللسان ، فما لم يتعثّر الطبعُ بأبنيتِهِ وعقودِهِ[1] ، ولم يتحبّس اللسانُ فى فصوله ووصوله ، بل استمرّا فيه واستسهلاه ، بلا مَلالٍ ولا كلالٍ ، فذاك يُوشِك أن يكون القصيدة منه كالبيتِ ، والبيتُ كالكلمةِ تَسالُماً لأجزائه وتقارُناً ، وألاّ يَكُونَ كما قيل فيه :

وشِعرٍ كبعر الكبش فَرّقَ بينَهُ لسانُ دعِيٍّ فى القريضِ دَخِيلِ[2]

وكما قال خَلَفٌ :

وبعضُ قريضِ الشِّعرِ أولادُ عَلّةٍ يَكُدُّ لسان الناطقِ المتَحَفِّظِ[3]

وكما قال رُؤبَةُ لابنه عُقبَةَ وقد عَرَضَ عليه شيئاً مما قاله ، فقال :

* قد قلتَ لو كان له قِرَانُ[4] *

وإنّما قلنا « على تخَيُّرٍ من لذيذ الوزنِ » لأنّ لذيذَهُ يطْرَبُ الطّبع لإيقاعه ، ويُمازِجُهُ بصفائِهِ ، كما يَطرُبُ الفهمُ لصواب تركيبه ، واعتدالِ نظومِهِ . ولذلك قال حسّان :

تَغَنَّ فى كل شعرٍ أنت قائِلُهُ إنّ الغِناءَ لهذا الشعر مِضمارُ[5]

وعيار الاستعارة الذّهن والفطنة . ومِلاَكُ الأَمْرِ تقريب التّشبيه فى الأصل

(١) فى الأصل : « بأبيه » ، صوابه فى م .

(٢) البيت لأبى البيداء الرياحى ، كما فى البيان (١ : ٦٦) .

(٣) أولاد علة : بنو رجل واحد من أمهات شتى ، فهم مختلفون . انظر البيان (١ : ٦٦) والعمدة (١ : ١٧٢) .

(٤) فى البيان (٢ : ٦٨) : « إنه يقول لو كان لقوله قران » ، وذلك حيث ورد الخبر برواية أخرى .

(٥) المضمار ، يطلق على الموضع الذى تضمر فيه الخيل ، وعلى زمانه أيضاً ، ويستعمل كذلك بمعنى التضمير . عنى أن الغناء وسيلة لتحسين الشعر واختباره . وهذا البيت مما لم يرد فى ديوان حسان . وأنشده فى العمدة (٢ : ٢٤١) بدون نسبة .

حتى يتناسَبَ المشبَّه والمشبَّه به ، ثم يكتفى فيه بالاسم المستعارِ لأنّه المنقولُ عمَّا كان له فى الوضع إلى المستعار له .

وعيارُ مشاكلة اللفظ للمعنى وشدَّةِ اقتضائهما للقافية ، طول الدُّرْبة ودوامُ المدارسة ، فإذا حكما بحسن التباس بعضها ببعضٍ ، لا جفاء فى خِلالها ولا نُبُوٌّ ، ولا زيادة فيها ولا قُصورَ . وكان اللفظ مقسوماً على رُتَب المعانى : قد جُعِلَ الأخَصُّ للأخصِّ ، والأخسُّ للأخَسِّ ، فهو البرىء من العيب . وأما القافيةُ فيجبُ أن تكون كالموعودِ [به[1]] المنتظر ، يتشوَّفُها[2] المعنى بحقِّه واللفظ بِقِسْطِهِ ، وإلا كانت قَلِقَةً فى مَقَرِّها ، مُجتَلَبَةً لمستغنٍ عنها .

فهذه الخصال عَمُودُ الشِّعر عند العرب ، فمن لَزِمها بحقِّها وبَنَى شِعرَه عليها ، فهو عندهم المُفْلِق المعظَّم . والمُحْسن المُقدَّم . ومن لم يجمعها كلَّها فبقدر سُهْمَتِهِ منها يكون نَصيبه من التقدُّم والإحسان ، وهذا إجماعٌ مأخوذٌ به ومُتَّبَع نَهْجُه حتى الآن .

واعلم أنّ لهذه الخِصالِ وسائطَ وأطْرافاً ، فيها ظَهَر صدقُ الواصف ، وغُلُوُّ الغالى ؛ واقتصادُ المقتصِد . وقد اقْتَفَرَها اختيارُ الناقدين[3] ، فمنهم من قال : « أحسنُ الشعرِ أصدَقُه » قال : لأن تجويد قائلِهِ فيه مع كونه فى إسارِ الصدْقِ يدلُّ على الاقتدارِ والحِذق . ومنهم من اختار الغُلُوَّ حتى قيل «أحسن الشعر أكذبه» ؛ لأنَّ قائِلَهُ إذا أسقط عن نفسه تقابُلَ الوصف والموصوفِ امتدّ فيما يأتيه إلى أعلى الرُّتبة ، وظهر قوَّتُه فى الصياغة وتَمَهُّرُهُ فى الصناعة ، واتّسعت مخارِجُهُ وموالِجُه ، فتصرَّف فى الوصف كيف شاء ، لأنّ العَمَلَ عنده على المبالغة والتمثيل ، لا المصادقة

(١) هذه من م .
(٢) فى الأصل : « يتشوفه » وأثبتنا ما فى م .
(٣) الاقتفار : الاقتفاء والتتبع .

والتحقيق . وعلى هذا أكثرُ العلماء بالشّعر والقائلين له . وبعضهم قال : « أحسَنُ الشّعر أقصَدُه[١] » ؛ لأنّ على الشاعر أن يبالغ فيما يصير به القول شعرًا فَقَطّ[٢] ، فما استوفَى[٣] أقسام البراعة والتجويد أو جُلّها ، من غير غُلُوٍّ في القول ولا إحالةٍ في المعنى ، ولم يُخْرِجِ الموصوفَ إلى أن لا يُؤْمَنَ لشيءٍ[٤] من أوصافه ، لظهور السَّرفِ في آياته ، وشمول التزيّد لأقواله ، كان بالإيثار والانتخاب أولى .

ويَتْبع هذا الاختلافَ مَيْلُ بعضِهم إلى المطبوع وبعضِهم إلى المصنوع . والفرقُ بينهما أن الدّواعي إذا قامت في النفوس ، وحَرَّكت القرائح ، أَعملت القلوبَ . وإذا جاشت العقولُ بمكنون ودائعها ، وتظاهرت مكتَسَباتُ العُلومِ وضروريّاتُها ، نبعت المعاني ودَرَّتْ أخلافُهَا ، وافتقرت خفيّات الخواطرِ إلى جليّات الألفاظ ، فمتى رُفِضَ التكلُّف والتعمُّل ، وخُلِّيَ[٥] الطبعُ المهذَّب بالرّواية ، المدرَّب في الدّراسة ، لاختياره ، فاسترسل[٦] غيرَ محمولٍ عليه ، ولا ممنوع مما يميل إليه ، أدّى من لطافة المعنى وحلاوة اللفظ ما يكونُ صَفْوًا بلا كَدَرٍ ، وعَفْوًا بلا جَهدٍ ، وذلك هو الذي يسمّى « المطبوع » . ومتى جُعل زِمامُ الاختيارِ بيدِ التعمُّل والتكلُّف ، عاد الطبع مستخدَمًا متملَّكا ، وأقبلتِ الأفكارُ تستحمِلُهُ أثقالَهَا ، وتردِّدُه في قَبُول ما يؤدّيه إليها ، مُطَالَبَةً له بالإغرابِ[٧] في الصنعة ، وتجاوزِ المألوفِ إلى البِدْعة ، فجاء مؤدّاهُ وأثَرُ التكلُّفِ يَلُوحُ على صفحاته ، وذلك هو « المصنوع » .

---

(١) من القصد ، وهو الوسط في الأمور .

(٢) ورد في نسخة الأصل ، بتشديد الطاء مع ضمها ، وصوابها التشديد مع الكسر ، كما في اللسان والقاموس ، وهي لغة في « قط » ساكنة الطاء بمعنى حسب .

(٣) في الأصل : « فاستوفى » ، والصواب من م .

(٤) م : « بشيء » .

(٥) وردت في الأصل بالحاء المهملة ، مع تقييدها بالإشارة ، والوجه ما أثبتنا من م .

(٦) كذا في م . وفي الأصل : « واسترسل » .

(٧) مطالبة بفتح اللام في الأصل وم . وفي م « بالإعزاب » ، والإعزاب : الإبعاد .

وقد كان يتّفقُ فى أبيات قصائدهم — من غير قَصْدٍ منهم إليه — اليسيرُ النَّزْرُ ، فلما انتهى قَرْضُ الشعر إلى المُحْدَثِين ، ورأوا استغرابَ الناس للبديع على افتنانهم فيه ، أُولعوا بتَوَرُّدِهِ إظهاراً للاقتدار ، وذَهاباً إلى الإغراب . فمن مُفْرِط ومُقْتَصِد ، ومحمودٍ فيما يأتيه ومذموم ، وذلك على حسب نُهوض الطبع بما يُحمَّلُ ، ومَدَى قُوَاهُ فيما يطلب منه ويُكَلَّفُ . فمن مال إلى الأوّلِ فلأنَّهُ أشبه بطرائق الإعراب ، لسلامته فى السَّبْك ، واستوائه عند الفحص . ومَن مال إلى الثانى فلدلالته على كمال البراعة ، والالتذاذ بالغرابة .

* * *

وأما تعجُّبُك من أبى تمّام فى اختيار هذا المجموع وخروجِه عن مَيْدان شِعره ، ومفارقتِه ما يهواه لنفسه ؛ وإجماع نُقّاد الشعر بَعْدَه على ما صحبه من التوفيق فى قصدهِ ، فالقولُ فيه أنّ أبا تَمّامٍ كان يختار ما يختار لجودته لا غير ، ويقول ما يقوله من الشعر بشهوته . والفرق بين ما يُشْتَهى(١) وبين ما يُستجاد ظاهرٌ ، بدلالة أنّ العارف بالبَزِّ قد يشتهى لُبْس ما لا يستجيده ، ويستجيد ما لا يشتهى لُبْسَه . وعلى ذلك حالُ جميع أعراض الدُّنيا مع العقلاء(٢) العارفين بها ، فى الاستجادة والاشتهاء . وهذا الرجُل لم يعْمِدْ من الشعراء إلى المشتهرين منهم دون الأغفال ، ولا من الشّعر إلى المتردِّدِ فى الأفواه ، المجيب لكلِّ داعٍ ، فكان أمرُه أقرب ، بل اعتَسَفَ فى دواوينِ الشّعراء جاهليِّهم ومخضرَمِهم ، وإسلامِيِّهم ومولَّدِهم ، واختطف منها الأرواحَ دون الأشباح ، واخترف الأثمار دون الأكمام(٣) ، وجَمع ما يوافق نظمَه ويخالفه ؛ لأن ضروبَ الاختيار لم تخْفَ

(١) فى الأصل : « يشتر » ، صوابه فى م .
(٢) فى الأصل : « من العقلاء » ، صوابه فى م .
(٣) الاختراف : اجتناء الثمر . والأكمام : جمع كم ، بالكسر ، وهو غطاء النور الذى هو أصل الثمرة .

عليه، وطرق الإحسان والاستحسان لم تَستتِر عنه، حتى [إنّك[١]] تراه ينتهى إلى البيت الجيِّدِ فيهِ لفظة تَشِينُه، فيَجْبُر نقيصتَه من عنده، ويُبَدّل الكلمة بأختها فى نقده. وهذا يَبين لمن رجع إلى دواوينهم، فقابل ما فى اختياره بها. ولو أنّ نقْد الشعر كان يُدرَك بقوله لكان مَن يقول الشعرَ مِن العلماء أشعر الناس. ويكشف هذا أنه قد يميِّزُ الشعر من لا يقولُه، ويقولُ الشعرَ الجيد من لا يَعرف نَقدَه. على ذلك كان البُحْتُرىّ، لأنّه فيما حُكِىَ عنه كان لا يُعْجَبُ من الشِّعر إلا بما وافق طبعَه ومعناه ولَفْظَه.

وحكى الصُّولِىّ أنه سَمع المُبَرِّد يقول: سمعت الحسنَ بن رجاء يقول: ما رأيت أحداً قطُّ أعلمَ بجيّد الشعر قديمِهِ وحديثِهِ من أبى تمَّام. وحُكى عنه أنه مَرّ بشعر ابن أبى عُيَيْنَة فيما كان يختاره من شِعر المحدَثين فقال: «وهذا كله مختار». هذا وشعرُه أبعدُ الأشياء من شِعره. وهذا واضح.

* * *

وأمّا ما غَلب على ظنك[٢] من أنّ اختيار الشعر موقوفٌ على الشّهوات؛ إذ كان ما يختارُه زيدٌ يجوز أن يزيِّفَه عمروٌ، وأنَّ سبيلَها سبيلُ الصُّوَر فى العيون، إلى غير ذلك مما ذكرْتَهُ — فليس الأمر كذلك؛ لأن من عَرَفَ مستورَ المعنى ومكشوفه، ومَرْفوض اللفظ ومألوفَه، ومَيّزَ البديعَ الذى لم تقتسمه المَعارِض، ولم تعتسفْه الخواطر، ونَظَر وتبحَّر، ودار فى أساليب الأدب فتخيَّرَ، وطالت مجاذبتُه فى التّذاكر والابتحاث، والتداوُل والابتعاث، وبانَ له القليلَ النائبُ عن الكثير، واللّحظ الدالُّ على الضمير، ودَرَى تراتيبَ الكلام وأسرَارَها، كما درى تعاليقَ المعانى وأسبابَها، إلى غير ذلك مما يكمّل الآلةَ، ويَشْحَذُ

(١) هذه من م.
(٢) م: «فى ظنك».

القريحة — تراه لا يَنظر إلّا بعين البصيرة ، ولا يسمع إلا بأذُن النَّصَفة[١] ، ولا ينتقد إلا بيد المَعْدِلة[٢] ، فحُكمُه الحكم الذى لا يُبدَل ، ونقدُه النقد الذى لا يُغيَّر .

واعلم أنه يَعرف الجيّد من يجهل الردىء . والواجب أن تَعرف القابح المتسخَّطة كما عَرفتَ المحاسن المرتضاة ، وجِمَاعُها إذا أُجملت أنّها أضدادُ ما بيّنّاه من عُمَد البلاغة ، وخِصال البراعة ، فى النظم والنثر . وفى التفصيل كأنْ يكون اللفظُ وحْشِيًّا أو غير مستقيم ، أو لا يكونَ مستعمَلًا فى المعنى المطلوب ، فقد قال عمر رضى الله عنه فى زهير : « لا يتتبع الوحشىّ ولا يُعاظِلُ الكلامَ » . أو يكونَ فيه زيادة تفسد المعنى أو نقصان ، أو لا يكون بين أجزاء البيت التئام ، أو تكون القافية قَلِقَةً فى مقرّها ، أو مَعِيبةً فى نفسِها ، أو يكونَ فى القَسْم أو التقابُل ، أو فى التفسير فساد ، أو فى المعنى تناقض وخروجٌ إلى ما ليس فى العادة والطبع ، أو يكونَ الوصفُ غيرَ لائق بالموصوف ، أو يكونَ فى البيت حَشْوٌ لا طائلَ فيه ، إلى غير ذلك مما يحصِّلهُ لك تأمُّلُك جُمَل المحاسن وتفصيلَها ، وتتبُّعُك ما يُضَادُّها[٣] وينافيها ، وهذا هَيِّنٌ قريب .

وإنما قلت هذا لأنّ ما يختاره[٤] الناقد الحاذق قد يتّفق فيه ما لو سُئل عن سبب اختياره إياه ، وعن الدّلالة عليه ، لم يمكنه فى الجواب إلا أن يقول : هكذا قضيّةُ طَبْعِى ، أو ارْجِعْ إلى غيرى ممن له الدُّرْبَةُ والعلم بمثله فإنّه يَحْكُم بمثل حُكْمى ، وليس كذلك ما يَسترذله النّقد أو ينفيه الاختيار ، لأنه لا شىء من ذلك إلاّ ويمكن التنبيهُ على الخلل فيه ، وإقامة البرهان على رداءته ، فاعلمْه .

* * *

(١) النصفة والنصف ، بالتحريك فيهما : الإنصاف .

(٢) المعدله بكسر الدال وفتحها : العدل . وجاءت فى الأصل بكسر الدال .

(٣) فى الأصل : « ما لا يضادها » ، والوجه ما أثبتنا من م .

(٤) فى الأصل : « ما لا يختاره » والوجه حذف « لا » كما فى م .

وأمّا[1] تمنّيك معرفةَ السبب فى تأخّر الشعراء عن رتبة الكُتّاب البُلَغاء ، والعذرِ فى قِلّة المترسّلين وكثرة المُفْلقين ، والعلّةَ فى نباهة أولئك وخُمُولِ هؤلاء ، ولماذا كان أكثر المُفْلقين لا يبرعون فى إنشاء الكتب ، وأكثرُ المترسّلين لا يُفْلِقُون فى قَرْض الشعر ، فإنِّى أقول فى كل فَصْلٍ من ذلك بما يَحْضُر[2] ، والله وَلِىُّ توفيقى ، وهو حسبى وعليه توكُّلِى .

اعلم أن تأخُّر الشعراء عن رتبة البلغاء ، مُوجِبُه تأخُّرُ المنظوم عن رتبة المنثور عند العرب ، لأمرين :

أحدهما أنّ ملوكهم قبل الإسلام وبعدَه كانوا يتبجّحون[3] بالخطابة والافتنان فيها ، ويَعُدّونها أكملَ أسباب الرياسة ، وأفضلَ آلات الزّعامة . فإذا وقف أحدُهم بين السّماطَيْن لحصولِ تنافرٍ أو تضاغُنٍ أو تظالم أو تشاجر ، فأحسَنَ الاقتضابَ عند البُداهة[4] ، وأنجَعَ فى الإسهاب وقت الإطالة ، أو اعتلى فى ذِرْوة مِنبرٍ فتصرّف فى ضروب من تخشين القول وتليينه ، داعيا إلى طَاعَةٍ ، أو مُسْتَصْلِحاً لرعيّةٍ ، أو غيرِ ذلك مما تدعو الحاجةُ إليه ، كان ذلك أبلَغَ عندهم من إنفاق مالٍ عظيم ، وتجهيز جيشٍ كبير . وكانوا يأنَفون من الاشتهار بقَرض الشعر ، ويَعُدُّه ملوكُهم دناءة . وقد كان لامرئ القيس فى الجاهلية مع أبيه حُجر بن عَمْرٍو ، حين تعاطى قولَ الشعر فنهاه عنه وقتاً بعد وقت ، وحالا بعد حال ، ما أخرَجَه إلى أن أمر بقتله . وقِصّتُه مشهورة ، فهذا واحد .

والثانى أنهم اتخذوا الشعر مَكْسَبَةً وتجارة ، وتوصّلوا به إلى السُّوَق كما

(١) فى الأصل : « وإنما » ، والصواب فى م .
(٢) م : « ما يحضر » .
(٣) التبجح : الفخر والتباهى .
(٤) اقتضاب الكلام : ارتجاله ، اقتضب الحديث والشعر : تكلم به من غير تهيئة أو إعداد له .

توصلوا به إلى العِلْية ، وتعرَّضوا لأعراض الناس ، فوصفوا اللئيمَ عند الطمع فيه بصفة الكريم ، والكريمَ عند تأخُّر صلته بصفة اللئيم ، حتى قيل : « الشعر أدنى مروَّة السريّ ، وأسرى مروَّة الدنيّ » . وهذا الباب أمرُه ظاهر . وإذا كان شرفُ الصانع بمقدار شرف صناعته ، وكان النظمُ متأخّراً عن رتبة النثر ، وجب أن يكون الشاعر أيضاً متخلِّفاً عن غاية البليغ .

ومما يدلُّ على أن النثر أشرف من النظم ، أن الإعجاز من الله تعالى جدُّه والتحدّيَ من الرسول عليه السلام وقَعَا فيه دون النظم ؛ يكشف ذلك أن معجزات الأنبياء[1] عليهم السلام فى أوقاتهم كانت من جنس ما كانت أُمَمُهم يُولَعون به فى حِينهم ، ويغلِبُ على طبائعهم ، وبأشرف ذلك الجنس . على ذلك كانت معجزةُ موسى عليه السلام ، لأنها ظهرت عليه وزمنُه زمن السِّحر والسَّحَرة ، فصارت من ذلك الجنس وبأشرفِه . وكذلك كان حالُ عيسى عليه السلام ، لأن زمنَه كان زمنَ الطبّ ، فكانت معجزته وهى إحياء الموتى ، من ذلك الجنس وبأشرفه . فلما كان زمنُ النبي صلى الله عليه وسلم زمن الفصاحة والبيان ، جعل الله معجزتَه من جنس ما كانوا يُولَعون به وبأشرفه ، فتحدّاهم بالقرآن كلاماً منثوراً ، لا شعراً منظوماً .

وقد قال الله عزَّ وجلَّ فى تنويه النبي عليه السلام[2] : ﴿ مَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ[3] ﴾ .

---

(١) فى الأصل : « فيكشف ذلك أن معجز الأنبياء » ، وأثبتنا ما فى م .

(٢) يقال نوه فلانا ونوه به إذا رفعه وطير به وقواه ، ومنه قول أبي نخيلة :

ونوهت لى ذكرى وما كان خاملا ولكن بعض الذكر أنبه من بعض

م : « فى تنزيه النبى عليه السلام » .

(٣) هذا وجه جائز فى الاستشهاد بالقرآن مع ترك الواو أو الفاء ونحوهما . انظر الحيوان (٣ : ٤/١٥ : ٥٧ ، ٢٧٦) ورسالة الشافعى الفقرات رقم ٦٤٣ ، ٩٧٤ ، ٩٧٥ بتحقيق الشيخ أحمد شاكر .

وقال أيضاً : (والشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُم الغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فى كلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ) .

ولمّا كان الأمر على ما بيَّنّاه وجب أن يكون النثر أرفع شأناً ، وأعلى تمكناً وبناء من النظم ، وأن يكون مزاوِلُه كذلك ، اعتباراً بسائر الصناعات ومزاوليها[1] .

* * *

وأما السبب فى قِلّة المترسلين وكثرة المُفلِقين وعِزِّ مَن جمع بين النوعين مبرِّزًا فيهما ، فهو أنَّ مبنَى « الترسُّل » على أن يكون واضحَ المنهج ، سهلَ المعنى ، متّسِع الباع ، واسع النِّطاق ، تدلُّ لوائحُهُ على حقائقه ، وظواهرُه على بواطنه ، إذ كان مورِدُه على أسماعٍ مفترقةٍ : من خاصيٍّ وعاميّ ، وأفهام مختلفة : من ذكيّ وغبيّ . فمتى كان متسهِّلا متساوياً ، ومتسلسِلا متجاوباً ، تساوت الآذانُ فى تلقّيه ، والأفهام فى درايته ، والألسن فى روايته ، فيُسمحُ شاردُه إذا استُدعىَ ، ويَتعجَّلُ وافِدُه إذا استُدنى ، وإن تطاوَلَ أنفاسُ فصوله ، وتباعَدَ أطراف حُزُونِه وسهوله . ومبنى « الشعر » على العكس من جميع ذلك لأنه مبنىّ[2] على أوزان مقدّرة ، وحدود مقسَّمة ، وقوافٍ يُساق ما قبلَها إليها مهيَّأةٍ ، وعلى أن يقوم كلُّ بيت بنفسه غير مفتقِرٍ إلى غيره إلا ما يكون مضمَّناً بأخيه ، وهو عيب فيه . فلما كان مداه لا يمتدُّ بأكثر من مقدار عَرُوضه وضَرْبه ، وكلاهما قليل ، وكان الشاعر يعمل قصيدتَه بيتاً بيتاً ، وكلُّ بيت يتقاضاه بالاتحاد ، وجب أن يكون الفضل فى أكثر الأحوال فى المعنى ، وأن يبلغ الشاعرُ فى تلطيفه ، والأخذ من حواشيه ، حتى يتسع اللفظ له ، فيؤدّيه على غموضِه وخفائه — حَدًّا يصير

(١) م : « وبمزاوليها » .
(٢) م : « بنى » .

المُدركُ له والمشرِفُ عليه، كالفائز بذخيرة اغتنمها، والظافرِ بدفينةٍ استخرجها. وفى مثل ذلك يحسُن انْحاءُ[1] الأثر، وتباطؤُ المطلوب على المنتظِر. فكلُّ ما يُحمَد فى الترسُّل ويُختار، يُذمّ فى الشعر ويُرْفَض.

فلما اختلف المبْنَيانِ كما بيّناً، وكان المتولِّى لكل واحدٍ منهما يختار أبعدَ الغايات لنفسه فيه، اختلفت فيهما الإصابتان، لتبايُن طرفيهما، وتفاوُتِ قطريهما، وبَعُد[2] على القرائح الجمع بينهما. يكشفُ ذلك أن الرَّجَزَ وإنْ خالف القصيدَ مخالفةً قريبة ترجع إلى تقطيع شأو اللفظ فيه، وتزاحم السّجع عليه، قلّ عددُ الجامعِين بينهما، لتقاصر الطباع عن الإحاطة بهما. فإذا كان الرّجز والقصيد مع أنهما من وادٍ واحد، أفضت الحالُ بمتعاطيهما إلى ما قلتُ على خلافٍ يسير بينهما — فالنثر والنظم وهما فى طرفين ضِدّين، وعلى حالتين متباينتين، أولَى وأخصُّ.

* * *

وأمّا السبب فى قلّة البلغاء وكثرة الشعراء، ونباهة أولئك وخمول هؤلاء، فهو أنّ المترسِّل محتاجٌ إلى مراعاة أمورٍ كثيرة، إن أهملها أو أهمل شيئا منها رجعت النقيصةُ إليه، وتوجهت اللائمة عليه.

منها تبيُّنُ[3] مقاديرِ من يَكتب عنه وإليه، حتّى لا يرفع وضيعاً، ولا يضع رفيعا.

ومنها وزن الألفاظ التى يستعملها فى تصاريفه، حتّى تجىء لائقةً بمن يُخاطَب بها، مُفخَّمة لحضرة سلطانه[4] التى يصدر عنها.

---

(١) رسمت فى الأصل وم: «انمحاء» مع وضع شدة على النون.

(٢) م: «فبعد».

(٣) فى الأصل: «يبين»: صوابه فى م.

(٤) م: «سلطانها».

ومنها أن يعرف أحوالَ الزمان ، وعوارضَ الحدَثَان ، فيتصرّف معها على مقاديرها فى النقض والإبرام ، والبسط والانقباض .

ومنها أن يعلم أوقات الإسهاب والتطويل ، والإيجاز والتخفيف ؛ فقد يَتَّفق مايحتاج فيه إلى الإكثار ، حتّى يستغرق فى الرسالة الواحدة أقدارَ القصائدالطويلة ، ويَتَّفِق أيضا ما تُغْنى فيه الإشارة ، وما يجرى مَجرى الوَحْى فى الدَّلالة .

ومنها أن يعرف من أحكام الشَّريعة ما يقف به على سَوَاء السبيل ولا يَشْتطّ فى الحكومة ، ولا يَعدِل فيما يخُطّ عن المَحَجّة . فهو إنّما يَترسّل فى عهود الوُلاة والقضاة ، وتأكيد البَيعة والأيمان ، وعِمارة البُلدان ، وإصلاح فسادٍ ، وتحريضٍ على جهادٍ ، وسَدّ ثغورٍ ورَتْق فتوق ، واحتجاجٍ على فئة ، أو مجادَلَة لِمِلّة ، أو دعاء إلى ألفة ، أو نهى عن فُرْقة ، أو تهنئة بعطيّة ، أو تعزية برزيّة ، أو ماشا كل ذلك من جلائل الخطوب ، وعظائم الشئون التى يُحتاج فيها إلى أدواتٍ كثيرة ، ومعرفةٍ مفتَنّة .

فلما كان الأمرُ على هذا صار وجود المضطلعين بجودة النثر أعزّ ، وعددُهم أنْزَر . وقد وسَمَتْهم الكتابةُ بشرفها ، وبوّأتهم منزلةَ رياستها ، فأخطارُهم عالية بحسب عُلوّ صناعتهم ، ومَعاقِدِ رياستهم ، وشدةِ الفاقة إلى كفايتهم .

والشعراء إنّما أغراضُهم التى يُسدِّدون نحوَها ، وغاياتُهم التى يَنْزِعون إليها ، وصفُ الدّيار والآثار ، والحنين إلى المعاهد والأوطان ، والتشبيب بالنساء ، والتلطيف فى الاجتداء ، والتفنُّن فى المديح والهجاء ، والمبالغةُ فى التَّشبيه والاوصاف . فإذا كان كذلك لم يتدانَوا فى المِضمار ، ولا تقارَبُوا فى الأقدار . وهذا القول كافٍ .

وإذْ قد أتينا بما أردنا ، ووفَّينا بما وَعَدنا ، فإنا نشتغل بما هو القصد من شرح الاختيار ، والله الموفِّق للصواب ، والصلاة والسلام على رسوله محمدٍ وآله الأخيار .



باب الحماسة

قال الشيخ أبو على أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقى الإصفهانى رحمه الله .

الحماسة : الشجاعة ، والفعل منه حَمِسَ ، ورجلٌ أحْمَسُ . وكانت العرب تسمِّى قريشا : حُمْساً[1] لتشدُّدهم فى أحوالهم دِيناً ودُنْيا وتسمِّى بنى عامر : الأحامِسَ ، وكأنّهم ذهبوا فى واحد حُمْس إلى أنه صِفَةٌ ، فجمعوه جَمع الصفات ، كما يقال أحْمَرُ وحُمْرٌ وأشقر وشُقْرٌ ، وذهبوا فى واحد الأحامس إلى أنه اسم ، فجمعوه جمع الأسماء كما يقال أحْمد وأَحامِد ، وأجْدَل وأجادِلُ . وهم يُخْرِجون الأسماء إلى باب الصفات كثيراً ، فيقولون : بنو فلان الذوائب لا الذنائب ، والمراد هم الأعالى لا الأسافل ، كما يُخْرِجون الصفات إلى باب الأسماء كثيراً . وعلى هذا الأساود : الحيّاتُ ، والأَدَاهِمُ : القُيُود : قال :

* أَوْعَدَنِى بالسِّجن والأداهِمِ[2] *

والأباطح : جمع الأَبطح . وكلُّ ذلك صفات أُخرجتْ إلى باب الأسماء .

وقال الدُّرَيْدى[3] : حَمِسَ الشرُّ : اشتدَّ . والحُمْسُ : قريش ، وكِنَانةُ وخُزَاعةُ ، تَحَمَّسوا فى دينهم . وبنو حِمَاسٍ : قبيلة من العرب ، وكذلك بنو حُمَيْسٍ[4] . وقوله :

---

(١) م : « الحمس » .

(٢) نسبة العينى (٤ : ١٩٠) للعديل بن الفرخ ، قاله حين هجا الحجاج فتوعده . وبعده :

* رجلى فرجلى شثنة المناسم *

(٣) يعنى أبا بكر محمد بن الحسن بن دريد .

(٤) انظر جمهرة ابن دريد (٢ : ١٥٦) .

١

قال بعض شعراء بَلْعَنْبَر[١] :

المراد به بنى العنبر ، ولهذا وجب ألاَّ يصحبَ الكسرة التى فى الراء التنوين . وإنّما حذف النون من « بنى » لاجتماعه مع اللام من العنبر ، وتقاربهما فى المخرج . وذلك لأنّه لما تعذّر الإدغام فيه جُعِلَ الحذف بدَلاً من الإدغام . وإنّما تعذَّر الإدغام لأن الأول متحرِّك والثانى ساكن سكونًا لازما ، فلما كان من شرط المُدْغَم تحريك الثانى إذا أُدْغِمَ الأولُ فيه ، وكان لام التعريف ساكنًا سكونا لازما ، جُعِلَ الحذْفُ لكونه مؤديًا إلى التخفيف المطلوب من الإدغام بدلاً لمّا تَعَذَّرَ هو . ولا يلزم على هذا أن يُحذفَ النون من بنى النّجّار لأنّ اللام قد أُدْغِمَ فى النون التى بعده ، فلا يمكن تقدير إدغام النون التى قبْلَه فيه ، حتى إذا تعذَّر جُعِل الحذْفُ بَدَلا من الإدغام ، بدلالة أن ثلاثة أشباه[٢] لا يصح إدغامُ بعضها فى بعض ، ومما يُشْبِهُ هذا من اجتماع المتجانسين من كلمتين واستعمال الحذف فى أحدهما بدلاً من الإدغام قولهم عَلْمَاءِ بنو فلان[٣] ، والمعنى على الماء . ومما يُشْبِهه لكنهما التقيا فى كلمة واحدة ، قولهم ظَلِلْتُ ومَسِسْتُ يقال منهما ظَلْتُ ومَسْتُ ، وإن شئت ظِلْتُ ومِسْتُ . تُلْقَى حركة المحذوف على فاء الفعل . قال الله تعالى : ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ . وإنّما تعذر الإدغام هاهنا لأنّ لامَ الفعل فى مثل هذا المكانِ إذا اتَّصل به ضميرُ الفاعل يُسكّن البتّة ، فلما

---

(١) فى شرح التبريزى : « واسمه قريط بن أنيف » ، وفى التنبيه لابن جنى : « وقد تروى لأبى الغول الطهوى » .

(٢) فى النسختين : « أشياء » ، وكذا النص عند التبريزى . والوجه ما أثبتنا .

(٣) شاهده ما أنشده التبريزى وابن جنى فى المبهج من قول قطرى :

غداة طفت علماء بكر بن وائل وعجنا صدور الخيل نحو تميم

لزمه السّكون لم يصحّ إدغام العين فيه ، فلذلك حُذِف .

والعَنْبَرُ فى اللغة : التُّرسُ والطِّيبُ . وعَنْبَرَةُ الشتاءِ : شِدَّتُهُ . وعنبرة القوم : خلوص أنسابِهم . ويقال : رأيته بهذا البلد عَنْبَرِيًّا . يُضرَبُ به مثلاً فى الهداية . وبنو العنبر أهْدَى قَوْمٍ . ويمكن تقدير النون زائدة فيه،فيكون فَنْعلا من عَبَرْتُ، كأنّه بحُسنِ تأتّيهِ للاهتداء يَعْبُرُ الطُّرُق . ومنه قيل فى البعير : [هو[1]] عُبْرُ أسفار .

١ـ لَوْ كُنْتُ مِن مَازِنٍ لَمْ تَسْتَبِحْ إبِلِى بَنُو اللَّقِيطَةِ مِنْ ذُهْلِ بْنِ شَيْبَانَا[2]

مَازِنُ بن مَالِك بن عَمْرو بن تَمِيم ، هُمْ بَنُو أخى العَنْبَرِ بن عَمْرو بن تميم ، وإذا كان كذلك فمَدْح هذا الشاعر لهم يَجْرِى مَجْرَى الافتخار بهم ، وفى بنى مازن عصَبِيّةٌ شديدة قد عُرِفوا بها وحُمِدوا من أجلها ، ولذلك قال بعض الشعراء[3] موبّخا لغيرهم :

فَهَلاَّ سَعَيْتُمْ سَعْىَ عُصْبَةِ مَازِنٍ وهل كُفَلائِى فى الوفاء سَواء
كأنَّ دَنَانِيرًا على قَسِمَاتِهِم وإنْ كان قد شَفَّ الوجوهَ لقاء

وقصد الشاعر فى هذه الأبيات عندى إلى بَعْث قومه على الانتقام له من أعدائه ومُهْتَضِميه ، وتهييجهم وهزّهم ، لاذَمِّهم . وكيف يَذُمُّهم ووبالُ الذمّ راجع إليه ؟ ! لـكنّه فى هذا المعنى سالك لطريقة كَبْشَةَ أخت عَمْرو بن مَعْدِيكَرِبَ فى قولها :

---

(١) التكملة من م .

(٢) فى شرح التبريزى : «وزعم أبو محمد الأعرابى أن الرواية :
. . . لم تستبح إبلى بنو الشقيقة من ذهل بن شيبانا
قال : «الشقيقة هى بنت عباد بن زيد بن عمرو بن ذهل بن شيبان » ثم ذكر أن اللقيطة هى نضيرة بنت عصيم بن مروان بن وهب بن بغيض بن مالك بن سعد بن عدى بن فزارة » .

(٣) هو محرز بن مكعبر الضبى ، كما فى اللسان (قسم) ، وسترد هذه المقطوعة فى الحماسة برقم ٦١١ .

أرْسَلَ عبدُ الله إذْ حَانَ يَوْمُهُ إلى قومِهِ لا تعقلُوا لَهُمُ دَمِى

ألا تَرى أنّها قالت فى جملة هذه الأبيات :

وَدَعْ عَنْكَ عَمْراً إن عَمْراً مُسَالمٌ وهَلْ بَطْنُ عَمْرٍ غَيْرُ شِبْرٍ لِمَطْعَمِ

فلا يجوز أن يُتوهم أنها كانت تهجو أخاها عَمْراً أو تَنْسُبه إلى العَجْز والتقصير فى طلب ثأر أخيه ، وعمرو هو الذى كان يُعَدُّ بألْفِ فَارِسٍ ، ولـكن مرادها بَعْثُهُ وتهييجُه . وهذا كما يقول العبد لمولاه والغلام لصاحبه وقد لحقتهما هَضِيمة من أجنبيّ : لو كُنّا فى خدمه فلانٍ عَمِّكَ أو أخيك لما جَسَر هذا أن ينالَنا بمكروه ! ولا يجوز أن يقال إنهما هجَوَا سيّديهما أو فضَّلا غيرَهما عليهما ، ولـكن المراد تحريكُهُما لها ، وإذا كان الأمر على هذا فمن الظاهر بُطلانُ قولِ من يذهب إلى أنّ هذا الشاعر هجا قومَهُ ومَدَح بنى مازن يؤكّدُ ما قلته قوله :

ـ يَجْزُونَ من ظُلْمِ أهل الظلْمِ مَغْفِرَةً ومن إساءةِ أهْلِ السُّوءِ إحْسانا

لأنه لا يقال لمن يُمْسِكُ عجزاً عن الانتصار إنه غَفَرَ ، ولا لمن يقدر على جزاء الإساءة إنه اختار الإحسان . فإن قيل : أليس قد قال :

* لَيْسُوا من الشَّرِّ فى شىء وإنْ هَاناَ *

وقال أيضا :

ـ فليْتَ لى بِهِمُ قَوْمًا إذا رَكِبُوا شَنُّوا الإغارةَ فُرْسَاناً ورُكْبَانا

قلت : ليس يَزِيدُ شيء مما قاله على قول كبشة :

* ودَعْ عنك عَمْرًا إنَّ عَمْراً مُسَالِمٌ *

وإذا كانت أبياتُها باتّفاقٍ من أصحاب المعانى لا تكون هجواً ، فكذلك أبيات هذا العنبرىّ . ومما يشهد للطريقة التى سلكناها ويؤيدها ، أنّ فى جملة أبياته التى وصف فيها قومه :

يُخْبُونَ نِيرَانَهُمْ حتى إذا خَمَدَت شَبُّوا لِمُوقِدِ نار الحرْبِ نيرَانَا[1]

---

(١) هذا البيت مما لم يختره أبو تمام من هذه القصيدة .

وهذا المعنى هو مثل ما افتخر به غيره فى صفات نفسه فقال :

أَفِرُّ من الشَّرِّ فى رِخْوِهِ[(١)] فكيف الفِرارُ إذا ما اقترَبْ

بل الذى ذكره العنبرى أزْيَد ، لأنه وصفهم بالاحتمال والصبر ما أمكن ، فإذا اهتاجوا زادُوا على كل هائج . ألا ترى أنه قال :

* شَنُّوا لِمُوقِد نار الحرب نيرانا *

ومعنى البيت لو كنت مازنياً لم تُغِرْ بنو اللّقيطةِ على إبلى .

ولَقيطَةُ أُلحِقَ بها الهاء وإن كان فَعِيلاً فى معنى مَفْعُولَةٍ ، لأنّه أُفرِدَ عن الموصوف به وجُعِل اسما . وهذا كما يقال النّشيطَةُ[(٢)] والذَّبيحَةُ ، والبَنِيّةُ فى الكعبة .

فأما الاستباحة ، فقد قيل هى فى معنى الإباحة ، وقد قيل : إن الإباحة هى التّخلِيَةُ بين الشىء وبين طَالِبِه ، والاستباحة اتّخاذُ الشىء مباحاً للنّفس . وكأن الأصل فى الإباحة إظهار الشىء للمَنَاظر ليتناوَلَه مَن شاء ومنه بَاحَ بسرِّه بَوْحاً وبُؤُوحاً . والمَازِنُ فى اللغة : بَيض النّمْل ، ويقال : هو يَتَمَزّن على أصحابه ، كأنه يَتَفَضّل عليهم . وذُهْل من ذَهَلْتُ عن الشىء .

٢ - إذًا لقَامَ بِنَصْرِى مَعْشَرٌ خُشُنٌ عند الحَفِيظَةِ إنْ ذُو لوثَةٍ لانَا[(٣)]

(١) الرخو : ما فيه رخاوة وسهولة . وفى م : «رخوة» .

(٢) النشيطة من الإبل : التى تؤخذ فتستاق من غير أن يعمد لها . والأوفق كما ورد فى م «النسيكة» ، وهى الذبيحة التى تذبح بمكة .

(٣) نص التبريزى على أن الرواية ضم اللام فى «لوثة» . قال : «ومن روى اللوثة بالفتح قال : إذاً لان ذو القوة ، وكان أبلغ فى المعنى» . يذهب التبريزى إلى أن هناك فرقا بين الضم والفتح ، وهو قول لبعض اللغويين ، وزعم أن معناها بالضم الضعف ، وبالفتح القوة والشدة . والأصح أنهما لغتان بمعنى واحد ، وهو الحمق والاسترخاء والضعف ، وسيأتى للمرزوقى كلام فى هذا .

اللام فى «لقام» جوابُ يمينٍ مضمرة، والتقدير إذاً والله لقام [بنصرى[1]].
فإن قيل: فأين جواب لو كنت؟ قلت: هو لم تستبح إبلى. وفائدة «إذاً» هو أنّ هذا أخرَجَ البيت الثانى مُخْرَج جواب قائلٍ قال له: ولو استباحوا ماذا كان يفعل بنو مازن؟ فقال: إذاً لقام بنصرى مَعْشَرٌ خُشُن. قال سيبويه: «إذاً جوابٌ وجزاء»، وإذا كان كذلك فهذا البيت جواب لهذا السائل وجزاء على فعل المستبيح. ويجوز أن يكون أيضاً إذاً لقام جوابَ «لو»، كأنه أجيب بجوابين. وهذا كما تقول: لو كنتَ حُرًّا لاستقبحت ما يفعلُه العبيدُ، إذاً لاستحسنت ما يفعله الأحرار[2]. وقوله «إنْ ذو لوثة» يرتفع ذو عند حُذّاق النحويِّين بفعل مُضمَرٍ، الفعلُ الذى بعدَه تفسيره، وهو لاَنَ. والتقديرُ إن لاَنَ ذو لُوثَةٍ لانا. وإنّما قالوا هذا لأنَّ «إنْ» لمَّا كان شرطاً كان بالفعل أولى، وعملُه الجزم فيجب أن لا يفارِقُ معمولَهُ فى اللفظ والتقدير. وليس هذا موضعَ الكلام على من يجعل «ذو» بعد إنْ وما أشْبَهَهُ مبتدأ. ومعنى البيت إذاً والله لقامَ بنَصْرِى، أى لتكفّلَ به قومٌ أشدّاء عند الغضبِ، إذَا الضعيفُ لاَنَ.
ويقال: قام بالأمر، أى تكفل به. وهو القائم والقيِّم. وقام بالقِسْطِ والعَدْلِ فى الرعيَّةِ، وقامَ عليه إذا ساسَه ووليه، ومنه القيُّومُ والقَيّامُ[3] فى صفات الله تعالى، وقولُه: ﴿إلاَّ ما دُمْت عليه قائماً﴾ أى قاهراً. وأقمتُ الرُّمْحَ فقامَ، بمعنى قوَّمْتُه فتقوّم. وقولُه «إنْ ذو لُوثَةٍ» تعريضٌ منه بقومِه ليَغْضَبوا ويهتاجُوا لنُصْرَتِهِ. وهو فى البعثِ والتهييج أحسن من التصريح، كما أنه فى الذّمِّ والهجو

(١) هذه من ل.

(٢) ما بعد هذه الكلمة إلى كلمة «والتقدير» تجده بلفظه عند التبريزى بدون تنبيه على مأخذه.

(٣) أصله «قيوام» على فيعال كما ورد فى اللسان: ومثله «صياغ» من الصوغ. وقد قرأ بها عمر بن الخطاب فى سورة آل عمران: «الله لا إله إلا هو الحى القيام». انظر كتاب المصاحف للسجستانى ٥٢ بتحقيق المستشرق آرثر جفرى.

كذلك . وهذا بعضُ الناس رواه «إنْ ذو لَوْثَةٍ» وزعم أنَّ ذو لُوثةٍ ليس بجيِّد لأن الضعيف أبدًا مَهِينٌ ، والواجب أن يقول إن القويُّ لانَ ، واللَّوْثةُ هي القوّة . والرِّواية الصحيحة هي ضم اللام من اللُّوثة[1] . والفائدةُ ما ذكرت من التعريض بقومه . ولأنْ يكون طَرَفَا البيت متناولَين لمعنيين متقابلين ، أحسن من أن يكونا مفيدَين لمعْنًى واحد . و «المَعْشَرُ» : اسم للجماعة ، لا واحد له من لفظه . وقال الخليل : هو اسم لجماعةٍ أمرُهُم واحد . ويقال جاءوا مَعْشَرَ مَعْشَرَ ، أى عَشَرةً عَشَرةً . و «خُشُنٌ» : جمعُ خَشِنٍ وأَخْشَنَ . و «الحفيظةُ» : الخَصْلَةُ يُحفَظُ لها ، أى يُغضَبُ . وقيل هى الحَمِيّة ، وفى المثل : «الحفائظُ تُحلِّلُ الأحقادَ» وقيل أيضاً «أهل الحفائظِ أهل الحفاظ» . وذلك أن ذا الأَنَفِ يحترِسُ من العارِ ، فلا يزال يَتحفّظ ويُحافِظ حتى يَسْلَمَ منه . وكأنّ الأصل فى الكُلِّ الحِفظُ الذى هو نقيض النِّسيان . وقد طابق الخشونة باللين فظهرت الصنعةُ به ، وجادَ البيتُ له ، كأنه[2] قال معشَرٌ خَشِنُون عند الحفيظة إن كان ذوُو اللُّوثةِ ليِّنين عندها .

٣ـ قَوْمٌ إذا الشَّرُّ أَبْدَى ناجِذَيْهِ لَهُمْ طَارُوا إليهِ زَرَافاتٍ وَوُحْدانَا

أراد أن يَصف بنى مازن بما يهتاج له قومُه فينصرونه ، فقال : هم قوم إذا ظهر لهم الشَّرُّ واشتدّ سارعوا إليه غير متوقِّعِين[3] لتجَمُّع ، ولا مُعَرِّجين على تأهُّب ، لكنّهم يتبادرون أفراداً وثُبَاتٍ ، وأشتاتاً وجماعاتٍ . وإبداء النّاجذِ — وهو ضِرس الحِلْم — مَثَلٌ لاشتداد الشرّ . ومثله قولُ الآخر :

فَمَنْ يَكُ مِغْزالَ اليدينِ ، مكانُهُ إذا كَشَرَتْ عن نابِها الحَرْبُ خامِلُ

(١) انظر ما سبق من التعليق عند إنشاد البيت .
(٢) فى الأصل : «أنه» ، وأثبتنا ما فى م .
(٣) كذا فى الأصل . وفى م : «متوقفين» .

فأمّا قول عَنتَرَة :

* إذْ تَقلِصُ الشفتانِ عَنْ وَضَحِ الفَمِ[١] *

وقول الأَعْشَى :

* سَعَةُ الشِّدْق عن النَّابِ كَلَحْ[٢] *

وقول الآخر :

* وقَدْ أسْلَمَ الشَّفَتَانِ الفَما *

فإنما هو صفةٌ للمُصطلى بنار الحرب عند اشتداد الأمر عليه . ومثلُه لبعض البلغاء : « صارَ الأَكَسُّ كالأَرْوَق ، والمُحتال كالأحمق ؟ وذو البصيرة كالأَخْرَق[٣] » . ويقال : عَضَّ على ناجِذِهِ[٤] ، إذا صَبَرَ على الأمر . ونجّذَتْهُ الأمورُ : أحكمَتْه . قال الشاعر[٥] :

* ونَجَّذَنِي مُدَاوَرَةُ الشُّؤُونِ *

ويقول الرجل إذا أراد أن يتشدّد على صاحبه : لأُرِيَنَّكَ نَاجِذِي ! والمعنى أنه يكْشِرُ له ويكْلَحُ فى وجهه حتّى يبدوَ ناجِذُهُ . ويقولون : « خِلْتُهُ لِعُبُوسه يبتَسِمُ[٦] ، ولإقدامِهِ يَنْهَجِمُ[٧] » . وقال بعضهم: النواجِذُ : الضَّوَاحِك،واحتجّ بحديث النبى صلى الله عليه وسلم « أنّه ضحك حتى بَدَتْ نواجِذُه » . قال :

---

(١) صدره : * ولقد حفظت وصاة عمى فى الضحى *

(٢) صدره فى الديوان ١٦١ : * وله المقدم فى الحرب إذا *

(٣) الأكس : القصير الأسنان الصغيرها . والأروق : الطويل الأسنان .

(٤) م : « ناجذيه » .

(٥) هو سحيم بن وثيل الرياحى ، كما فى اللسان (نجذ) والأصمعيات . وصدر البيت :

* أخو خمسين مجتمع أشدى *

(٦) فى النسختين : « يتبسم » ، والتصحيح بعده يقتضى ما أثبتنا ليصالح السجع .

(٧) كذا على الصواب فى م . يقال انهجم الخباء : سقط . وفى الأصل : « يتهجم » ، ولا أصل له فى اللغة . وعلى هذا فالوجه أن يكون الفعل قبله : « يبتسم » لكنه ورد كذا فى النسختين .

وأقاصى الأسنان لا يُبْدِيها الضَّحِك . والصحيحُ الأوّل ، فأمّا الخَبَرُ فمحمولٌ على المُبَالَغَةِ وإنْ لم تَبْدُ النواجِذُ .

وجواب « إذا » طاروا . و « وُحْدَانَا » هو جَمْعُ واحد ، وواحِدٌ صِفَةٌ ، كصاحب وصُحْبَانٍ ، ورَاعٍ ورُعْيَان . ويقال طِرْتُ إلى كذا ، إذا أسْرعتَ إليه ، وطِرْتُ بكذا ، أى سبَقْتُ به . والزَّرَافاتُ : الجماعاتُ ، واشتقاقُه من من الزَّرْف ، وهو الزِّيادة على الشىء . ويقال زَرَفْتُ القَوْم قُدَّامِى ، أى قدَّمتُهُم فِرَقاً . وحُكِى فى الزَّرافَة تشديد الفاء ، يقال جاء القوم بِزَرَّافَتِهِم ، أى بجماعتهم ؛ وهو غريب . والمعنى أنهم لحرصهم على القتال وجُرْأتهم ، لا ينتظِرُ بَعْضُهُم بَعْضاً ، لكنّ كُلاًّ منهم يعتقد أن الإجابة تعيّنت عليه إذا تشدّد الشرُّ لهم . وفى طريقته قول بعضِ الشعراء[1] :

قَوْمٌ إذا هَتَفَ الصَّرِيخُ رأيتَهُمْ   مِنْ بيْنِ مُلْجِمِ مُهْرِهِ أو سافِعِ[2]

سَافِعٌ : آخذ بناصية فَرَسِهِ . ومنه قولُ الله تعالى : ﴿ لَنَسفَعًا بالنَّاصِيَة ﴾ . وقول الآخَر[3] :

وكنتُ إذا جارى دعَا لمضُوفَةٍ   أشَمِّرُ حتى يَنْصُفَ الساقَ مِئزرِى

٤ـ لايَسْألُونَ أخَاهُمْ حِينَ يَنْدُبُهُمْ   فى النائِبَاتِ عَلَى ما قَالَ بُرهَانَا

الأصْلُ فى النُّدْبة — وإن اشتهرت ببكاء الأموات وقولِهم عنده : وافُلانَاه : — الدُّعاء ، وتوسّعُوا فيه فقالوا : نُدِبَ فُلانٌ لكذا وكذا ، إذا نُصِبَ له ورُشِّحَ للقيام به . ويقولون : تكلّمَ فلانٌ فانتدَبَ له فُلانٌ ، إذا عارضَهُ . والشاعر يقول : هؤلاء القوم ، يعنى بنى مازن ، لحسن محافظتهم وقوّة تناهيهم

(١) هو عمرو بن معديكرب ، كما فى تفسير أبى حيان (٨ : ٤٩١) .
(٢) رواية أبى حيان : « إذا كثر الصياح » .
(٣) هو أبو جندب الهذلى ، كما فى اللسان (نصف) وديوان الهذليين (٣ : ٩٢)

فى نُصْرَةِ المُنتَسِبِ إليهم والمُعَلِّق(١) حَبْلَهُ بحَبْلِهم ، لا يسألونَ الواحد منهم إذا دَعَاهُم حُجَّةً على دعواه ، ولا يراجعونه فى كيفية ما ألجأه إليهم ، لكنهم يُعَجِّلون الإغاثة له . وهذا تعريضٌ منه بما لِحَقَهُ من قومه أو رآه من عادتهم عند الاستغاثة بهم . والعرب تقول : يا أخا قريش ؛ والمعنى يا وَاحِدًا منهم . ومِثْلُه :

إذا اسْتُنْجِدُوا لم يَسْألُوا من دَعَاهُمُ   لأيّةِ حَرْبٍ أمْ بأيِّ مكانِ(٢)

وقد وَصَفَ بنى مازنٍ غيرُ واحدٍ من الشعراء بمثل ما وصفهم هذا الشاعر ، فمن ذلك قول بعضهم :

نَفْسِى فِـدَاءٌ لبنى مَازِنٍ   من شُمُسٍ فى الحَرْبِ أبْطَالِ

وقول الآخر(٣) :

فَهَلَّا سَعَيْتُمْ سَعْىَ عُصْبَةِ مازنٍ   وهَلْ كُفَلَائِى فى الوَفَاءِ سَوَاءُ

٥ — لَـكِنَّ قَوْمِى وإنْ كانوا ذَوِى عَدَدٍ   لَيْسُوا مِنَ الشَّرِّ فى شَىْءٍ وإنْ هَانَا

رَجَع إلى صفة قومه بما يأنفون منه عنده ؛ وتَدْخُلهم الحَمِيّة لدى الإصْغاء إليه ، وليس قَصْدُهُ ذَمّهم فقال : لكنّ قومى وإن كان فيهم كثرة عَدَدٍ وعُدَّةٍ ليسوا من دَفْع الشر وإنكاره ، وقَصْدِهِ وارتكابه فى شىء ، وإن كانَ فِيهِ خِفةٌ وقِلّةٌ . وقد قابَلَ الشَّرْطَ بالشَّرْطِ فى الصَّدْرِ والعَجزُ ، وطَابَق العَدَدَ والكثرةَ بالهَوْن والخِفّة فى هذا الكلام ، ويريد أن يَصِفَهُم بأنهم يؤثرون السلامَةَ والعَفْو عن الجُناة ما أمكن ، ولو أرادوا الانتقام لقَدرُوا بعَددهم وعُدَّتهم ولكنّ المراقَبَةَ والتقوى تدعُوهُمْ إلى إيثارِ الحُسْنَى .

(١) كذا ضبط فى الأصل . وفى م : « المعاق » بسكون العين وتخفيف اللام المكسورة . وكلاهما بمعنى واحد . اللسان (علق) .

(٢) لوداك بن ثميل المازنى ، سيأتى فى المقطوعة ١٨ .

(٣) هو محرز بن مكعبر ، كما سبق فى حواشى ص ٢٣ .

٦ـ يَجْزُونَ مِن ظُلْمِ أَهْلِ الظُّلْمِ مَغْفِرَةً ... ومن إساءةِ أَهْلِ السُّوءِ إِحْسَانَا

روى بعضهم «من ظَلْمِ أَهْلِ الظُّلْمِ» والظَّلْمُ بالفَتْح المصدر وبالضَّم الاسم. وهذه الرواية عندى أحسن. وقد بيّنْتُ ما فى المغفرة والإحسان من الدلالة على أنهم كانوا يَقْدِرُون على إيثار ضدِّهما. والظُّلْم: انتقاص الحظّ والنصيب. وقيل هو وضع الشىء فى غير موضِعِه، ونقيضُهُ العَدْلُ. ويَنتصب إحسانًا بيَجْزُونَ مضمَرًا، كأنه قال: ويَجْزُون من الأساءة إحسانا. وجَازَ حَذْفُهُ لأن الفِعْلَ قَبْلَه يَدُلُّ عليه.

٧ـ كَأَنَّ رَبَّكَ لَمْ يَخْلُقْ لِخَشْيَتِهِ ... سِوَاهُمُ مِنْ جَمِيعِ الناسِ إِنسَانَا[1]

الخَشْيَةُ والخَشْىُ والمَخْشَاةُ: مصدر خَشِىَ. ويقولون: هذا المكان أَخْشَى من ذاك، وهو نادرٌ لأنّ المكانَ يُخْشَى فهو مفعول. ورجُل خَشْيَانٌ وامرأةٌ خَشْيَانَةٌ. وقوله «سِوَاهم من جميع الناسِ» هو استثناءٌ مَقدَّمٌ، ولو وَقع مَوقِعَهُ لكان الكلامُ لم يَخْلُق لخشيته إنسانًا سواهم، فكانَ يجوزُ فى سواهم البَدَلُ والاستثناء والصِّفةُ، فلمّا قُدِّمَ بَطَلَ أن يكونَ بدلاً وصِفةً لأنهما لا يتقدّمان على الموصوف والمبدل منه، فبقِىَ أن يَكونَ استثناءً. وقد نَبَّهَ بهذا الكلام أنّ احتمالهم لاحتساب الأَجْرِ على زَعْمِهِم، وإبقاءهم فى الانتقام لخشْيَةِ فواتِ الذُّخْرِ فى دعواهم، فكأنّ الله لم يَخْلُقْ لخوفِهِ غيرَهُمْ.

(١) بعده بيت ثامن لم يروه المرزوقى، ورواه التبريزى، وهو:

فليتَ لى بهمُ قوماً إذا ركبوا ... شَدُّوا الإغارةَ فُرساناً وركبانا

قال التبريزى فى تفسيره: «ويروى: شنوا الإغارة، أى فرقوها. يقال شن عليهم الغارة بالشين معجمة. وسن عليه درعه بالسين، إذا صبها عليه. ومن روى: شدوا الإغارة، فليس الإغارة مفعولا به ولا انتصابها على ذلك. لكن انتصابها انتصاب المفعول له، أى شدوا للإغارة كقولك حملوا للإغارة فرساناً وركبانا، أى فى هذه الحالة. وهو كقول الآخر:

* شددنا شدة فقتلت منهم *

أى حملنا حملة. وشدت هذه غير متعدية، وإذا أريد تعديتها وصلت بعلى. قال:

أشد على الكتيبة لا أبالى ... أحتفى كان فيها أم سواها».

٢

وقال شَهْلُ بن شيبانَ الزِّمّانى[١] :

ويُلَقَّبُ بِالفِنْدِ . والفِنْدُ فى اللغة : القطعة العظيمة من الجَبَل ، وجمعه أَفْنادٌ . قال الدُّرَيْدِى : لُقِّب به لعظم شخصِه . قال : وهو أحد الفرسان . وقال غيره : لُقِّب به لأنّه قال لأصحابه فى يومِ حَرْبٍ : « استَنِدُوا إلىّ فإنّى لَكُمْ فِنْد » .

١ — صَفَحْنَا عن بَنى ذُهْلٍ وقُلْنا القَوْمُ إِخْوَانُ[٢]

صَفَحْتُ عنه : عَفَوْتُ عن جُرْمِه . ويقال أعرضتُ عن الأمرِ صَفحًا ، إذا تركتهُ . وقد يقال : أَصْفَحْتُ عنه ، كما يقال أَضْرَبْتُ [عنه[٣]] . ويقال : أَبْدَى لى صَفْحَتَهُ ، إذا مكّنك من نفسه . يقول عفَوْنا عن جرم هؤلاء القوم ، وراعَيْنا من الأحوال المتواشِجة بيننا وبينهم ، ما حَمَلَنا على الإغضاء على قَبيحٍ يتّفق منهم ، والتجاوزِ عن هَفْوَةٍ تَحْصُل مِن جهتهم ، وقلنا : إنّ ما بيننا وبينهم من الاخوّةِ يقتضى الإبقاء على الحال معهم ، وانتظاراً لفَيْئَةٍ[٤] تكون منهم . وحقيقةُ صَفَحْنا عن بنى ذُهْلٍ : أعرضْنا عنهم : ولَّيْناهم صَفْحةَ أعناقِنا ووجوهِنا ، وهى جانبُها ، فلم نؤاخذْهم بما كان منهم . وقال فى هذا المعنى ضربْنا عنهم صَفْحًا ، وفى القرآن : (أَفَنَضْرِبُ عنكم الذِّكْرَ صفحًا) .

٢ — عَسَى الأيامُ أن يَرْجِعْ نَ قَوْمًا كالذى كانوا

إنّما نَكَّر قوما لأنَّ فائدتَه مثل فائدة المعارف ، ألا ترى أنه لا فَصْل بين

---

(١) هو شاعر جاهلى قديم ، وكان أحد فرسان ربيعة المشهورين ، شهد حرب بكر وتغلب وقد قارب المائة . الخزانة (٢ : ٥٨ — ٥٩) والأغانى (٢٠ : ١٤٣ — ١٤٤) واللآلى ٥٧٩ .

(٢) التبريزى : « ويروى : * صفحنا عن بنى هند * وهى هند بنت مر بن أد أخت تميم ؛ وهى أم بكر وتغلب ابنى وائل . فيقول : « صفحنا عن بنى تغلب لأنهم إخوتنا عطفتنا عليهم الرحم » .

(٣) هذه من م . (٤) الفيئة : الرجعة .

أن تقولَ عَفَوْت عن زَيْدٍ فلعلّ الأيام تَرُدُّ رَجُلاً مثل الذى كان ، وبين أن تقولَ فلعلّ الأيام تَرُدُّ الرجلَ مثلَ الذى كان؛ لأنك تريد فى الموضعين به رَجُلاً أو الرَّجُلَ . والمعنى فَعَلْنا ذلك بهم رجاء أن تَرُدَّهُم الأيامُ إلى أَحْسَنِ ما كانوا عليه من قَبْلُ . وعَسَى من أفعالِ المقارَبَةِ . وأن يَرْجِعْنَ فى موضع خبر عسى ، ولو قال عَسَى أن يَرْجِعَ الأيامُ قوما لـكانَ أن يرجعَ فى موضع فاعل عَسَى وكان يَكْتَفِى [به[1]] ؛ وذلك لأنّ عَسَى لمقاربة الفعل ، والفعل لا بُدّ له من الفاعل ، فإذا تقدّم الفِعْلُ مع أن وتبعه الفاعل فقد حصل ما يطلبه ، فإذا وليه الاسم بقى ينتظر الفعل وإن ارتفع ذلك الاسم به ، فيجرى الفعل مع أن بعده مجرى خبر كان بعد اسم كان . ومعنى يَرْجِعْنَ : يَرْدُدْنَ ، وهو باب فَعَل وفَعَلْتُه . يقال رَجَعَ فلانٌ رجوعا ومَرْجَعًا ورُجْعَى ورُجْعَانًا ، ورَجَعْتُهُ رَجْعًا . ومعنى يرجعن قوماً يَرْدُدْن بأمرهم أمر قوم ، وبائتلافهم ائتلاف قوم . فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامَه . وخبر كان محذوف كأنه قال كالذى كانُوه ، أى كانوا عليه قبلُ من الائتلاف والتوادّ والاتفاق . والضمير الذى أظهرناه فى « كانوه » هو الذى تصحّ الصلة به ، لأنّ الموصول لابد من أن يكون فى صلته ضمير يعود إليه إذا كان اسماً ، والذى ليس يرجع إليه من كانوا شىء إلا ما أبرزناه من الضمير . ومن جَوّز حذف الجارّ والمجرور من الصفة فى نحو قوله تعالى : ﴿ واتَّقُوا يَوْمًا لاَ تَجْزِى نَفْسٌ عن نفسٍ شيئا ﴾ ويقدّر فيه أنّ الكلام لا تجزى فيه نفس عن نفس شيئا ، لا يَسُوغُ له أن يقدِّر فى الصّلة أيضا كذلك . وإذا كان الأمر على هذا فلا يجوز أن يكون التقدير يَرْجِعْنَ قَوْمًا كالذى كانوا عليه ، لأن مثل عليه لا يجوز حذفه من الصلة ، لا تقولُ الذى مَرَرْتُ جالسٌ ، وأنت تريد مررتُ به ، والذى دَخَلتُ منطلقٌ ، وأنت

(١) هذه من م .

تريد الذى دخلت عليه . وبمثل هذا تَوَصَّلَ مَن زعم فى الآية أنّ التقدير : واتَّقُوا يومًا لا تجزيه نفس عن نفس شيئا ، لأنه قال : الصفة كالصّلة ، فكما لا يجوز حذف فيهِ وأشباهه من الصّلة ، كذلك لا يجوز حذفها من الصّفة ، فاعلمْه . ويجوز أن يكون قوله كالذى كانوا ، أراد « كالذين » كانوا ، وحذَف النون تخفيفا ، كما قال(١) :

إنّ الَّذِى حانت بفَلْج دماؤهم هُمُ القومُ كلُّ القومِ يا أمَّ خالِدِ(١)

فيكون المعنى يَرجِعْن بهم قوماً كالذين كانوا من قبل . وفى هذا الوجه يجوز أن يُجْعَل « الذى » للجنس ، كما قال الله تعالى : ﴿ والذى جَاء بالصِّدقِ وصَدَّق به ﴾ ثم قال ﴿ أولَئِكَ هم المتَّقُون(٢) ﴾ ، والفصل بين هذا الوجه وبين الوجه الأوّل أنّه أمّل فى الوجه الأول أنّهم إذا عَفَوا عنهم أدَّبَتْهُم الأيام ورَدّت أحوالهم فى التَّوَادِّ والتّحاب كأحوالهم فيما مضى ، وأزالت من فسادِ ذات البين ما اعترض بسُوء عشرتهم . وفى الوجه الثانى أمَّلَ أن ترجِـعَ الأيامُ أنفسَهُم إذا صفحوا عنهم كما عُهِدَتْ : سلامةَ صدورٍ ، وكَرَمَ اعتقادٍ وعُهُود .

٣ — فَلَمَّـا صَرَّحَ الشَّرُّ فأَمْسَى وهْوَ عُرْيَانُ

فائدة أمسَى وأصبح وظَلّ وبات فى مثل هذا المكان على حدِّ الفائدة فى « صار » لو وَقَعَ موقعها ، ألا ترى قوله تعالى : ﴿ وإذا بُشِّر أحَدُهُم بالأُنثَى ظَلَّ وجْهُهُ مُسْوَدًّا ﴾ ، والبِشارة بالأنثى تقع ليلاً ونهارا . وكذلك تقول : أصبحوا خاسرين وأمسَوْا نادمين ، وإن كانوا فى كلِّ أوقاتهم على ذلك . « وَلَمَّـا » عَلَمٌ للظرف ، وهو لوقوع الشىء لوقوع غيره ، ولهذا لا بدَّ له من جواب . ويقال : صَرَّحَ الشىء إذا كشف عنه وأظهره ، وصَرَّح هو إذا انكشف(٣) . ومثله بيَّن ،

(١) البيت للأشهب بن رميلة ، كما فى البيان (٤ : ٥٥) والخزانة (٢ : ٥٠٨) .
(٢) هم المتقون ، من م .
(٣) م : « بمعنى انكشف » .

الشيءَ وبيَّن هو ، أى تبيَّن ، وفى المثل « قد بَيَّنَ الصُّبحُ لذى عينين » . وفَعَّلَ بمعنى تفعّل واسعٌ ، يقال وَجَّهَ بمعنى توجَّه ، وقَدَّم بمعنى تَقَدَّمَ ، ونبَّه بمعنى تنبه ، ونكَّبَ بمعنى تنكَّبَ . فيقول : لمّا ظَهَرَ الشَّرُّ كلَّ الظُّهور وصار بحيث لا يستُره شيء ولم يبق بيننا وبينهم سِوَى الصَّبر على الظلم الصريح . والمعنى أنهم لمّا تجاوزُوا الأحوالَ المتشابكة ، والأخْذَ بالإنصاف والمَعْدِلة ، إلى استعمال الظُّلم ورَفْع الحِشْمَة ، حينئذ جازيناهم بمثل ما ابتدءونا . وذكر العُريَانِ مَثَلٌ لظُهور الشّر . وقد اشتمل هذا الكلام على تفسير البيت الذى يتلوه ، وهو قوله :

٤ — ولم يَبْقَ سِوَى العُدْوَا نِ دِنَّاهُم كما دَانُوا

العُدْوان والعَدَاء والعَدْوَ[1] : الظُّلْم . وأما قوله دِنّاهُمْ كما دانوا ، والأول ليس بجزاء ، فهذا لميلهم إلى المطابقة والموافقة ، وإخراجِ اللفظ فى مِعْرَض صاحبه[2] ليُعْلَمَ أنّه جزاؤه على حَدِّه وقَدْره ، أو ابتداؤه . وعلى ذلك قوله تعالى : ﴿يُخادِعُون الله وهو خادِعُهُم﴾ و ﴿الله يَستَهزِئُ بِهم[3]﴾ ومَا أشبهه . وجواب لَمَّا صَرَّح « دِنَّاهُمْ » . وقوله فى البيت التالى[4] هو تفصيل لما أجمله قوله دِنّاهُمْ ، لأنه فَسَّرَ كيف كان ذلك الجزاء . والدِّين لفظةٌ مشتركةٌ فى عدّة معانٍ : الجزاء ، والعادةُ ، والطاعة ، والحِسَاب . وهو هاهنا الجزاء . ويقولون : « كما تدين تُدان » أى كما تَصْنَع يُصْنَع بك .

٥ — مَشَيْنَا مِشْيَةَ اللَّيْثِ غَدَا واللَّيْثُ غَضْبَانُ[5]

كرّر الليثَ ولم يأت بضميره تفخيماً وتهويلا ، وهم يفعلون ذلك فى أسماء

(١) كذا ضبط فى الأصل ، ومثله العدد بالفتح أيضاً .
(٢) يعنى ما يسميه البلاغيون المشاكلة .
(٣) قبلها : (وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون) .
(٤) م : « الثانى » .
(٥) التبريزى : « ويروى : شددنا شدة الليث » .

الأجناس والأعلام . قال عديّ :

لا أرى الموتَ يسبِقُ الموتَ شيءٌ نَغَّصَ الموتُ ذا الغنى والفقيرا[١]

فيقول : سَعَيْنا إليهم مِشْيَةَ الأسد ابتكر وهو جائع ، وكَنَى عن الجوع بالغضب لأنّه يصحبه . وهذا التشبيه أخرج ما لا قوّةَ له في التصوُّر إلى ما له قوّة فيه ، ومن روَى « عَدَا » على أن يكون من العدوان فليست روايته بحسنةٍ ، لأنّ الليث في أكثر أحوالِه ظالمٌ عادٍ . والمِشْيَةُ : اسم الحالة التي يكون عليها الماشي في مَشْيِهِ ، والمَشْيَةُ المَرّة الواحدة ، والفعل يتعدّى إلى كلٍّ واحد منهما . والليث من أسماء الأسد . ويقال : استَلْيَثَ الرجل ، إذ اشتدّ وقَوِيَ .

٦ — بِضَرْبٍ فيــه تَوْهِيــ نٌ وتَخْضِيــعٌ وإقْرَانُ[٢]

تَعَلّقَ الباء منه بمَشَيْنا ، أي مَشَيْنَا بضَرْبٍ في ذلك الضرب تضعيف للمضروب به ، وتذليلٌ ولينٌ . ويجوز أن يكون المعنى فيه تَوْهين وصوتٌ في القَطع وكسرُ العِظام وإطاقَةٌ وقوّةٌ . ويكون حينئذ « تَخْضِيعٌ » من الخَضْعَةِ والخَضِيعَةِ وهما اختلاط الصّوت في الحرب . ومنه خَضِيعَةُ بَطْنِ الفَرَس ، قال الأصمَعِيُّ : يقال « للسِّياطِ خَضْعَةٌ » لا أَدْرِي أَمِنَ الصَّوْتِ هو أو من القَطْع[٣] . وقد روى بَعْضُهم :

* والضّاربين الهامَ تحت الخَيْضَعَهْ[٤] *

وقال : هي السيوف . و « إِقْرَانٌ » من قولهم : أَقْرَنَ فُلانٌ ، أي أطاق .

---

(١) انظر الخزانة (١ : ١٨٣ / ٢ : ٤/٥٣٤ : ٥٥٢) وسيبويه (١ : ٣٠) .

(٢) التبريزي : « ويروى : تخذيع ، وهو القطع . ويروى :

ضرب فيه تفجيع وتأيم وإرنان »

(٣) م : « أم من القطع » .

(٤) الرجز للبيد في ديوانه ٧ — ٨ وأمالي ثعلب ٤٥٠ والخزانة (٤ : ١١٧) . وهي مع قصتها في الخزانة وأمالي المرتضى (١ : ١٣٤ — ١٣٧) والحيوان (٥ : ١٧٣) والأغاني (١٤ — ٩١ — ٩٢) والعمدة (١ : ٢٧) .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ . وفى الأوّل[١] إقْرَانٌ من قولهم : أقْرَنَ الدُّمَّلُ ، إذا نَضِجَ ولان . ويقال استَقْرَنَ الحِبْنُ أيضا . و « تَخْضِيعٌ » من الخضوع يكونُ ، وهو الذُّل . ويقال خَضَعَ الرجل وأَخْضع ، إذا لَيَّنَ كلامَه للنِّساء . وفى الحديث : « نَهَى أن يَخْضَعَ الرجل لغير امرأتِه » ، أى يُلَيِّنَ كلامَه .

٧ – وَطَعْنٍ كَفَمِ الزِّقِّ غَـــذَا والزِّقُّ ملآنُ

كرّر ذِكْر « الزِّق » كما كرر ذكر الليث فيما قبله . وهذا الوصف أبلغُ من قول النابغة :

* وطَعْنٍ كإيزَاعِ المَخَاضِ الضَوارِبِ[٢] *

وهذا التشبيهُ أبرَزَ ما يقلّ فى الاعتياد فى صورة ما يَكثُر فيه : ومثلُه :

فَجَبَهْنَاهُم بِضَرْبٍ كما يَخْ رُجُ من خُرْبَةِ المَزَادِ الماء[٣]

أى وبطَعْنٍ فى اتّساعه وخروج الدم منه كفم الزِّق إذا سال بما فيه وهو مملوء . وغَذَا يَغْذُو غُذُوًّا[٤] ، إذا سال . وغَذَاهُ يَغْذُوه غَذْواً . والاسم الغِذاء . فأمّا قول الهُذَلىّ[٥] :

* فالطَّعْنُ شَغْشَغَةٌ والضَّرْبُ هَيْقَعَةٌ[٦] *

فهو حكايةُ صوت الوَقْعِ ، وقوله « غَذَا » فى موضع النصب على الحال ، والأجودُ أن يُجْعَلَ « قَدْ » مُضْمَرةً[٧] .

---

(١) يريد فى أصل استعماله .

(٢) ويروى : «كإيزاغ» بالغين المعجمة . وصدوره كما فى ديوانه ٨ :

* بضرب يزال الهام عن سكناته *

(٣) البيت للحارث بن حلزة اليشكرى فى معلقته . شرح القصائد العشر للتبريزى ٢٦٦ .

(٤) كذا ضبط فى الأصل . وفى اللسان : « غذوا » بالفتح .

(٥) عبد مناف بن ربع الهذلى .

(٦) عجزه . * ضرب المعول تحت الديمة العضدا *

(٧) ابن جنى : « غذا حال من المضاف إليه ، وهو قليل . ويجب أن تكون قد هاهنا مرادة لذوقة ، أى قد غذا ، من حيث كانت قد تقرب الماضى من الحال » .

٨ ــ وبَعضُ الحِلْمِ عند الجَهْ لِ للذِّلّةِ إذْعَانُ

يَعْتذر من تركهم التحلُّمَ مع الأوِدَّاء والأقارب، لمّا كان مُفْضِيًا إلى اكتساء ذُلٍّ، واكتساب خُضُوعٍ وعَارٍ. والتقديرُ: بعض الحِلم إذْعان للذِّلّةِ عند جَهْلِ الجاهل. وهذا إذا تُوُهِّمَ أن المُحْتَمِلَ إنما فَعَلَ ما فَعَلَهُ خَوْفًا وعَجْزاً؛ لا مَيْلا منه إلى التجاوز والإغضاء واستبقاء الأُخُوّةِ والودادِ. ويقال: أَذْعَنَ لِكذا: إذا انقاد له. ومنه ناقةٌ مِذعانٌ. وأَذْعَنَ بكذا: أقرَّ به.

٩ ــ وفى الشّرِّ نجاةٌ حِيـ نَ لا يُنْجِيكَ إحْسَانُ

قوله « فى الشر نجاة » أراد: وفى دفع الشرّ، فحذَف المضاف وأقام المضافَ إليه مُقامَهُ. ويجوز أن يريدَ: وفى عمل الشر نجاةٌ، كأنه يريدُ وفى الإساءة مَخْلَصٌ إذا لم يُخَلِّصْكَ الإحسان. وهذا مِثْلُ قولِهِم: « الطَّعْنُ يَظْأَرُ » أى يَعْطِفُ، وكما قال زُهَيْر:

وَمَنْ يَعْصِ أَطْرَافَ الزِّجَاجِ فإنّهُ مُطيعُ العَوالِي رُكِّبَتْ كُلَّ لَهْذَمِ[1]

وهذا الكلام يجرى منه مجرى الاعتذار مما أُجْرِىَ إليه مع القَوْم، فاعْلَمْهُ ويقولون أيضا: « من لم تُقَوِّمه الكرامة قَوَّمته الإهانة ».

٣

وقال أبو الغُول الطُّهَوِىّ[2]:

الغول مَأخوذٌ من غَالَهُ يَغُولُهُ غَوْلاً، إذا أهْلَكَهُ. وهم يُسَمُّون كلَّ داهية

(١) م: « يطيع العوالى »، وهى الرواية المشهورة.
(٢) شاعر إسلامى كان فى الدولة المروانية. الخزانة ٣: ١٠٩ واللآلى ٥٧٩.

غولاً . وبذلك سَمَّوا الشيطانَ والحَيَّة(١) غُولاً . والغِيلَان عِندهم سَحَرة الجنّ . قال :

* كَمَا تَلَوَّنُ فى أثوابها الْغُولُ(٢) *

١ ــ فَدَتْ نَفْسِى وما مَلَكَتْ يَمِينِى ... فَوَارِسَ صَدَّقُوا فيهم ظُنُونِى

لَفْظُه لفظ الخبر . والمَعْنى معنى الدعاء . يقول : تفدى نفسى ومالِى أَجْمَعُ فوارس يكونون عند الظَّنِّ بهم فى الحَرْبِ ، وقد رُوى آخر البيت على وجوهٍ تتقارب معانيها . روى : « فوارسَ صُدِّقَتْ فيهم ظُنُونى » . ويكون ظنونى فى موضع رفعٍ بصُدِّقت ورُوى : صَدَّقَتْ فيهم ظُنونى » بفتح الصاد . وتضعيف عين الفعل يَدُلّ على التكثير . وظنونى يرتفع بالفعل . وتخصيص اليمين فى قوله : « وما ملكت يمينى » لِفَضْلِها وقوة التصرّف بها . وهم يقيمون البعضَ مقام الجملة فينسُبون إليه الأحداثَ والأخبارَ كثيرا ، على ذلك قوله تعالى : ﴿ فَظَلَّت أعْناقُهُمْ لها خَاضِعِين ﴾ . وقَوْلُهُم : عُذْتُ بِحَقْوِ فلان . وهو عَبْدَ المَقَذِّ(٣) ، وحُرُّ الوجهِ ، ولئيمُ القَفَا وما أشبهه . وفى القرآن : ﴿ أو ما مَلَكت أيمانُكُم ﴾ . وفوارِس شاذٌّ فى الجُمُوع عند سيبويه ، لأنّ فواعل إنما تكونُ جمع فاعلة فى صفات ما يَعْقِل دُون فاعل ، واستُدْرِكَ على سِيبَوَيْه هَالِكٌ فى الهوالِك .

وبيتُ الفرزدق :

وإذَا الرِّجالُ رأَوْا يزيدَ رأيتَهُم ... خُضعَ الرِقابِ نَوَاكِسَ الأَبصارِ

(١) فى الأصل : « والجنة » ، صوابه فى م .

(٢) لكعب بن زهير ، وصدره :

* فما تدوم على وصل تكون به *

(٣) المقذ : منتهى منبت الشعر من مؤخر الرأس .

وبيتُ عُتَيبة بن الحارث :

* ومثلِى فى غَوائِبكم قَلِيلُ *

وقال أبو العباس المُبَرِّد : هو الأصْلُ فى جميعه ، ويجوز فى الشِّعر .

٢ــ فوَارِسُ لا يَمَلُّونَ المَنَـايَا إذا دَارَتْ رَحَى الحَرْب الزَّبُون

مَلِلتُ الشيءَ أَمَلُّه مَلَالاً وَمَلَالَةً ومَلَلًا ، إذا سَئِمْتُهُ . ويقال : فُلَانٌ ذو مَلةٍ طَرِفٌ ، إذا ضَجِرَ بشىء فتطرَّفَهُ . قال :

* إنّك واللهِ لذو مَلّةِ(١) *

ويجوز الرفْعُ فى فوارِس على أن يَكُونَ خبر ابتداء مُضْمَر ، كأنه قال : هم فوارِسُ . ويجوز النصب فيه على أن يَكُونَ بَدَلاً من فوارِسَ الأُولى ، ولا يمَلُّون فى موضع الصفة للفوارس . والمعنى فَدَتْ نفسى فوارسَ لا يَضْجرون بمكايدة الحرب(٢) ومَقَاساةِ الشدائد فيها ، ولا يكرهون المقاتلةَ إذا دارت رحَى الحرب بأهلِها . والزَّبُون : الدَّفُوع ، ومنه الزَّبانِيَةُ . وإنما شَبَّهَ الحربَ بالناقةِ الزَّبُونِ فوصف بصفتها ، وهى التى تَزْبِنُ حالبَها وتدفعُه برجْلها . قال :

تَزْبِنُ بالأخفـاف والمَناسِمِ عَنْ ذِرْوَةٍ تَخْضِبُ كَفَّ الهَاشِمِ

ويقولون : ثَبَتَ فُلانٌ فى مَزْحَى الحرْب ، أى حيثُ دارت رحاها . ومَنِيَّةٌ ومَنايَا ، كصحيفة وصَحائفَ ، والأصل منائِىُ فاستُثْقِلَتِ الضَّمَّةُ فى الياء فحذفت ثم فروا من الـكسرة وبعدها ياء إلى الفتحة فانقلبت الياءُ ألفاً فصار مَنَاءا ، فأَبدَلوا من الهمزة لتوسُّطِها أَلِفَيْنِ ياءً فصار مَنَايَا .

٣ــ ولا يَجْزُونَ من حَسَنٍ بِسَىْءٍ ولا يَجْزُونَ من غِلَظٍ بِلِينِ(٣)

---

(١) لعمر بن أبى ربيعة فى اللسان (طرف) وإصلاح المنطق ٢٢٢ ، ٢٨٨ . وعجزه
* يطرفك الأدنى عن الأبعد *

(٢) م : « لمكايدة » .

(٣) التبريزى : « ويروى : من حُسن بسوء ، ومن حسن بسوأى ، على فعلى » .

هذا الكلام من صفة الفوارس. يريدُ أنّهم يعرفون مَجارِيَ الأمور ومقاديرَ الأحوالِ فيُوَازِنُونَ الخشِنَ بالخشِنِ واللِّينَ باللِّينِ، كما قال الآخر:

تَجَازِيَ الوَافِي بكَيْـلٍ وافِ ... مَلْآنَ والطِّفَافُ بالطِّفَـافِ

وقولُهُ «بِسَيْء» أراد بسَيِّئٍ فخفّف، كما قالوا في هَيِّنٍ هَيْنٌ وفي لَيِّنٍ لَيْنٌ. وروى بعضُهم: بِسِيٍّ[1]». والمعنى أنهم يزيدون في الجزاء على قَدْرِ الابتداء. وليس ذلك بشَيء لأنّ سَيِّئ في مقابَلةِ حَسَنٍ، كما أنّ اللِّينَ في مقابلةِ الغِلَظ، وفي العُدُول عنه إلى سِيٍّ إخلالٌ بالتقابُلِ، والبيت إنّما حَسُنَ به.

٤ — ولا تَبْلَى بَسَالَتُهُمْ وإنْ هُمْ ... صَلُوا بالحَرْبِ حِيناً بعدَ حِينِ

يقال: بَلِيَ الثوبُ يَبْلَى بِلًى وَبَلاء[2]، ويستعار فيقال: لبِسْتَ فُلاناً وبَلَّيْتُه، إذا استمتَعْتَ به وتَمَلَّيتَهُ. وإنّما يصفهم بالاستمرار على حالةٍ واحدةٍ في مُزَاوَلةِ الحرْبِ، وأنّ شجاعَتَهم لا تَنْقُص ولا تَبْلَى عند امتدادِ الشَّرِّ، واتّصال البَلاء. والبَسَالَةُ تُوصَفُ بها الأُسْدُ والرِّجال، يقال أَسَدٌ باسِلٌ وبَسُولٌ. كما يقال رجل باسل وبسول. قال امرُؤُ القَيْسِ:

* ما غَرَّكُمْ بالأَسَدِ الباسِلِ[3] *

و «صَلُوا» هو من صَلِيتُ بكذا أي مُنِيتُ به، وهو من الفِعْل فَعِلُوا بكسر العين، ولهذا انضمّ اللام من صَلُوا، ولو كان فَعَلُوا بفتح العين لقيل صَلَوْا، كما قيل دَعَوْا ورَمَوْا. فإن قيل: فأين جوابُ الشرط في قوله «وإن هُمْ صَلُوا بالحرب»؟ قيل: هو متقدّم، والتقدير إن صَلُوا ومُنُوا بالحرب لم تَخْلُقْ شجاعَتُهم. وفَصَل بين الفِعْلِ وإنْ بـ«هُم»، لأنه ماض لم يَظْهَر فيه أثَرُ إنْ

(١) السي: المثل. وهما سيان أي مثلان.

(٢) التبريزى: «إذا فتحت الباء مددت، وإذا كسرت قصرت».

(٣) صدره كما في ديوانه ١٤٨:

* قولا لدودان عبيد العصا *

بالجزم . ولو كان الفِعْلُ مُسْتَقْبَلًا لَظَهر الجزمُ فيه ، ولَمَا حَسُنَ الفصلُ بينه وبين إنْ بالاسم . يقْبُح أن يقال إنْ زَيْدٌ يأتِني أُكْرِمْهُ ، وتقولُ إن اللهُ أَقْدَرَنِي على زَيْدٍ فَعَلْتُ به كذا . وهذا شيءٌ يجوز فى إنْ دون سائر حروف الجزاء ، لأنه الاصْلُ فى الجزاء والحرْفُ الذى لا يَزولُ عنه . وروى بعضُهم : « ولا تُبلَى بَسالَتهم » من بَلَوْتُه إذا اختبرتَهُ ، ويكون المعنى لا يمكن اختبار شجاعَتِهم فَيُعْرف غَوْرُها ومُنْتَهاها على مَرِّ الأزمان ، واختلاف الأحوال .

٥ ـ هُمُ مَنَعُوا حِمَى الْوَقْبَى بضَرْبٍ يُؤَلِّفُ بينَ أشتَاتِ المَنُونِ[١]

قوله « بضرب يؤلّف » وقد وقع المنع والضرب جميعاً حكايةُ حال ، لولا ذلك لقال : بضربٍ ألّف . ومثله فى القرآن : ﴿ وَنُقَلِّبُهُم ذاتَ اليَمين وذَاتَ الشِّمَالِ وكَلبُهُمْ باسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بالوَصِيد ﴾ . يقول[٢] : هؤلاء القوم الذين أشرتُ إليهم بقولى : فوارس صدَّقوا فيهم ظُنونى ، هم الذين منعوا حمى هذا المكان بضَرْبٍ يجمع بين المنايا المتفرِّقة . وهذا تقييدٌ بعد إطلاق ، وتخصيصٌ بعد تعميم : والحِمَى : موضع الماء والكلإ . ويقال : أَحْمَيْتُ المكان ، أى جعلته حِمًى . وحَمَيْتُهُ : ذَبَبْتُ عنه . وقوله « يؤلف » من صفة الضَّرب ، ويحتمل وجوهاً : يجوز أن يكون المعنى إنّ هؤلاء لو بقُوا فى أماكنهم ولم يجتمعوا فى هذه المعركة لوَقَعَت مَوتاتُهم متفرِّقة فى أمكنةٍ متغايرة ، وأزمنةٍ متفاوتةٍ ، فلما اجتمعوا تحت الضرب الذى وصفه صار الضربُ جامعاً لتلك المنايا ووجوهِها . وحُكِيَ عن أبى سعيد الضرير[٣] أن المَعنَى إذا وَقع بهم ألَّف بين أقدارهم التى قُدِّرت عليهم . ويجوز

(١) الوقبى ضبط فى الأصل و م بسكون القاف ، وضبطه ياقوت بفتحها . وانظر ليوم الوقبى شرح التبريزى ومعجم البلدان والخزانة (٣ : ١٠٧) والميدانى (٢ : ٣٥٧) .

(٢) م : « فيقول » .

(٣) هو أبو سعيد أحمد بن خالد الضرير . لقى أبا عمرو الشيبانى وابن الأعرابى . وكان يلقى الأعراب الفصحاء الذين استوردهم ابن طاهر نيسابور فيأخذ عنهم ، مثل عرام ، وأبى العميثل . نكت الهميان ٩٦ – ٩٨ .

أن يكون المعنى أنّ أسباب الموت مختلفةٌ ، وكأنّ هذا الضَّربَ جمع بين الأسباب كُلِّها . ويجوز أن يكون المراد ضَرْباً لا يُنفِّسُ المضروبَ ولا يمهلُهُ ، لأنه جمع فِرَق الموت له . وقوله « أشتاب المَنون » واحدها شَتٌّ . والمَنون : الموت ، وهو من مَنَنْتُ أى قطعت .

٦– فَنَكَّبَ عنهم دَرْءِ الأعَادِى وداوَوْا بالجُنُونِ مِنَ الجُنُونِ

نَكَّبَ قد جاء متعدّياً إلى مفعولين ، قال أَوْسٌ :

نَكَّبْتُها ماءَهُمْ لمَّا رأيتُهُمُ صُهْبَ السِّبَالِ بأيديهم بيازِرُ

والأكثر نَكَّبْتُ عن كذا . يقول : حَرَّفَ عن هؤلاء القوم هذا الضربُ اعوجاجَ الأعداء وخِلافَهم ، وداوَوْا الشر بالشر . وهذا كما يقال : « الحديد بالحديد يُفلَحُ » . وكما قيل : « لا يَفُلُّ الحديدَ إلاَّ الحديد » . وأصلُ النَّكْب : المَيْلُ ، ولذلك يقال نَكَبْتُ الإناء ، إذا أَمَلْتَهُ . ونُكِبَ الرجُل نَكْبَةً . وعلى هذا النَّكْباء فى صفة الريح : والدَّرْء ، أصله الدَّفع ، ثم استُعْمِل فى الخلاف ، لأن المختلِفَين يتدافعان . ومثله :

* وقوَّمتُ عنه دَرْأَه فتنكَّبا[1] *

٧–ولا يَرْعَوْنَ أَكنافَ الهُوَيْنَى إذا حَلُّوا ولا أَرْضَ الهُدونِ

يُروى : « ولا رَوْض الهُدُونِ » ، وهو أفصح . والهُدُون : الصُّلح والسُّكون . وفى الحديث : « هُدْنةٌ على دَخَنٍ » ، أى صُلْحٌ على فَسَادٍ دَخِيلةٍ . يصفهم بالميل إلى الشر ، والحرصِ على القتال والقتل ، وأنهم يؤثرون جانبَ الخصومة على الصلح ، وناحيةَ الذُّعر على السكون ، فيقول : لا يَرعى هؤلاء

(١) لابن مفرغ الحميرى ، كما فى البيان (٢ : ٢٨١) . وصدره :

* فيارب خصم قد كفيت دفاعه *

القومُ جوانبَ الخصال السَّهلة والأمور الهيِّنة ، ولا ينزلون منازل الأمْنِ والراحة . والْهُوَيْنَى : تصغير الْهُونى ، والْهُونى : تأنيث الأهْوَن . ويجوز أن يكون الْهُونى فُعْلَى اسمًا مبنيًّا من الهِينَةِ ، وهى السكون . ولا تجعله تأنيث الأهون .

٤

وقال جعفر بن عُلْبَةَ الحارثى[١] :

١ــ أَلَهْفَى بقُرَّى سَحْبَلٍ حين أَحْلَبَت ... علينا الولايا والعدوُّ المُبَاسِلُ

التلهُّف يكون على الفائت بعد الإشراف عليه ، يقولون : وا لَهْفَاه ، ووالَهْفَ أُمَّاه . ولَهَّفَ نفسه وأمَّه إذا قال ذلك . وفى المثل : « إلى أُمِّه يَلْهَفُ اللَّهفان » . وقوله « أَلَهْفَى » يجوز أن يكون مُنادًى مفرَدًا ، ويجوز أن يكون مضافًا . فإذا جَعَلْتَه مضافًا فإنَّ أصلَهُ أَلَهْفِى أو أَلَهْفِ . فإذا كان أَلَهْفِى فكأنه فرَّ من الكسرة وبعدها ياء إلى الفتحة فانقلبت ألفًا . وعلى ذلك ياغُلامَا أَقبِلْ . وقوله :

* وهل جَزَعٌ أنْ قلتُ وا بأباهُما *

وإنَّما المعنى بأَبِى هُمَا . وعلى ذلك طريقتهم فى مَدَارِى ومَدَارَى ، وعَذارى وعَذارَى ، وصَحارِى وصَحارَى ، وفى بَقِيَ بَقَى ، وفى رَضِيَ رَضَى[٣] . وإذا كان أَلَهْفِ يكون الألف قد زيدت لامتداد الصوت به ليكون أدلّ على التحسُّر . وكذا إن جعلتَه ألهفُ مفرَدًا يكون الألِفُ زيدت لذلك . ومعنى « أَحْلَبَتْ » : أعانت . وأصله الإعانة فى الحَلَبِ خاصّة ، ثم استمرت فى الإعانات كلِّها . وقد

---

(١) فى الأصل : « علية » صوابه فى م والتبريزى والمبهج وابن جنى .

(٢) التبريزى : « ويروى : أجلبت . والأصل الجلبة رفع الأصوات » .

(٣) بقى ورضى ، بفتح القاف والضاد لغة طيئ ، يجعلون كل ياء انكسر ما قبلها ألفا . اللسان (بقى) .

يكون الشيء مختصًّا فى الأصل ثم يصير بالعُرف عامًّا ، كما قد يكون عاما فى الأصل ثم يصير به مختصا . ورُوى : « الوَلاَيا » وهى جَمْعُ الوَلِيَّة ، وهى البَرْذَعَة ، وهى تكون كناية عن النساء إن شئت ، وعن الضعفاء الذين لا غناء عندهم إن شئت . ويشبه هذا قول أم تأبّط شرًّا تؤبّنه : « وا ابناه ليس بعُلْفُوف ، حُشِيَ من صوف ، تَلُفُّه هُوف[1] » . وقولهم : « هو كالحِلْس المُلْقَى » . ويُروى : « المَوالِي » ومعنى البيت أنه يتلهف لِمَا نزل بهم فى الموضع الذى ذكره حين أعان الأعداء عليهم كَوْنُ الحُرَمِ مَعَهُم أو مَن يجرى مَجْرَى الحُرَم من الضعفاء الذين لا دِفاعَ بهم ؛ لِمَا وجَبَ عليهم من الذبّ عنهم ، والاشتغال بالحماية عليهم . ومن رَوى المَوالى — وهم أبناء العمّ — فإنما خَصَّهم بالذكر لأن الجفاء منهم أشدّ تأثيراً فى النفس . ألا تَرَى أنَّ من كان بنو عمه عليه فهو كمن قُوتِل بسلاحِهِ ، ألا ترى إلى قول الآخَر حيث يقولُ :

مَخَافَةَ جَوْرٍ من أميرٍ مُسَلَّطٍ ورَهْطِى وما عاداكَ مثلُ الأقاربِ

والعدوّ إشارة إلى الجنس . وللُباسِل ، من البَسالة . وأجراه على لفظ العدوّ لا على معناه . وفى القرآن : (فإنَّهُمْ عَدُوٌّ لى إلاَّ رَبَّ العالمين[2]) .

٣ — فقالوا لنا ثِنتَانِ لا بُدَّ منهما صُدورُ رِماحٍ أُشْرِعَتْ أوْ سَلَاسِلُ

التاء فى « ثنتان » كالتاء فى بنتان ، إلا أنه لم يُستعمل واحدهُ كما استعمِل بنت . وكذلك التاء فى اثنتان كالتاء فى ابنتان إلاّ أنهم لم يقولوا اثْنَةٌ كما قالوا ابْنَة . والشاعر حَكَى ما دار بينهم عند الالتقاء فيقول : أدارَنا[3] أعداؤُنا على

(١) العلفوف : الجافى الكثير اللحم والشعر . والهوف : الريح الحارة . وفى اللسان (هوف) : « وقيل لم يسمع هذا إلا فى كلام أم تأبط شرا » .

(٢) إلا رب العالمين ، من م فقط » .

(٣) كذا فى الأصل و م بتقديم الدال ، وهى هنا أليق من « أرادنا » .

خَصْلَتَيْن حكموا علينا بهما ، وخَيَّرُونا فيهما ، وهو[١] الاستسلام الذى آخره الاسْرُ ، أو القتل الذى أوّلُهُ الامتناعُ والدَّفع . وقوله « ثنتان » أراد خصلتان اثنتان ، ثم فسّرهما بقوله « صُدورُ رماح [أشرِعت[٢]] » وخصّ الصدورَ لأن المقاتلةَ بها تقع ، ويجوز أن يكون ذَكَرَ الصدور وإن كان المرادُ الكُلّ كما قال :

* الواطئين على صدور نِعَالِهم *

وإن كان الوطء للصدور والأعجاز . وكنى عن الأسر بالسَّلاسل . وقوله « لا بدّ منهما » أراد لا بدّ منهما على طريق التعاقب لا على طريق الجمع بينهما ، وإلاّ سقط التخيير الذى أفاده « أو » من قوله « أو سلاسل[٣] » . ألا ترى أنّه إذا قال خُذ الدينار أو الثّوبَ ، وكُلِ السمك أو اشرب اللبن ، فليس فيه الجمع بينهما . وإذا كان الأمر على هـذا فالمعنى لا بدّ من إحداهما[٤] . و « أشرعت » : هُيِّئَتْ للطَّعن . وكذلك شُرِعت . ويُستعمل فى السَّيف أيضا وكان الأصلُ فيه مشارِعُ المياه . وفى المَثَل : « أهْوَنُ الوِرْدِ التشريع » ، أى إيراد الشريعة .

٣ — فقُلنا لهمْ تِلْـكُمْ إذًا بَعْدَ كَرَّةٍ ❊ تُغادِرُ صَرْعَى نَوْءها مُتَخَاذِلُ

يقول : أجبناهم وقلنا تلـكم ، [أى تلك[٥]] التخييرة وذلك التحكّم . ولا يجوز أن تكون الإشارة بتلكم إلى واحدة من هاتين الخصْلتين اللتين تقدّم ذكرُهما ، لأنّه لا اختيار فيهما لمختارٍ حكمه حكم هؤلاء ، إلا أن يكون الكلام على طريق

(١) الوجه « وهما » .
(٢) هذه من م .
(٣) كلمة « أو » هنا من م فقط .
(٤) قال ابن جنى : « لك فى منهما وجهان : إن شئت كان على حذف المضاف ، أى لابد من إحداهما . ألا تراه قال أو سلاسل . أو إنما توجب أحد الشيئين . وإن شئت كان على ظاهره لابد منهما جميعا . فصدور الرماح لمن يقتل ، والسلاسل لمن يؤسر ؛ أى يكون بعضنا كذا وبعضنا كذا » .
(٥) هذه من م .

التهكُّم والسخرية . والمعنى إنّما يكون ذلك بعد عَطْفَةٍ وجَوْلةٍ تترك بيننا قوماً مصروعين يخذُلُهم النُّهوض ولا يطيقون الحَرَاك . وإذًا ، هو جوابٌ وجَزَاء ، وهو مُلغًى هَاهُنَا . وكُمْ من تِلْكُمْ للخطاب لا للضمير ، فلا موضع له من الإعراب . واختار أن يقول « متخاذِلُ » لأن هذا البناء يختَصُّ بما يَحْدُثُ شيئًا بعد شىء . على ذلك قولهم تداعى البناء[1] كأنّ أجزاء النهوض يخذُل بعضُها بعضاً فلا يكمُل ، وكأنه أنكَرَ عليهم الاشتراط والتحكم والإلجاء منهم إلى ذلك ، فقال : يَسُوغُ ما ابتدأتم فيه لَكُمْ بعدَ جولةٍ يتعقّبها هذا الأمر . ويجوز أن يكون الحُكم والتخيير بقوله « ثنتان لا بد منها » وقع بين الحرب والاستِئسار ، لا القتل والاستئصال ، فاختاروا المحاربةَ . والإشارة[2] بقوله تلكم حينئذ يجوز أن تكون على ما قَدَّمْتُهُ ، ويجوز أن تكون إلى ما دَلَّ عليه قوله أو سَلَاسِلُ ، من الأَسْرِ فكأنه قال : الخصلة الثانيةُ نؤخِّرها وننظر فى الأولى ماذا يَنْتَتِجُ منها . وقوله « تغُادِرُ » صفةٌ للكَرّة ، وقوله « نوءها » الضمير يعود[3] إلى صَرْعَى ، والجمع مآله إلى التأنيث ، ولو قال نوءهُمْ لكان أحسن . والنوْء : النُهوض ، وهو أصل المناوأة ، وإن اشتهرت فى المعاداة . ويكون النَّوْء : السقوطَ أيضا . ويُشبِه هذا قول الآخر :

* ينوء بصدره والرّمحُ فيه *

٤ ــ ولم ندْر إِنْ جِضْنَا من الموت جَيْضَةً   كَمِ العُمْرُ باقٍ والمدى مُتَطاوِلُ[4]

(١) م : « البنيان » .

(٢) م : « ويكون الإشارة » .

(٣) م : « يرجع » .

(٤) التبريزى : « كلهم روى هذا البيت إن جضنا من الموت جيضة ، بكسر الهمزة على ما مر تفسيره ، غير أبى العلاء المعرى فإنه أخذ على أن جضا بفتح الهمزة . وكأنه ذهب فى هذا إلى أن إن بكسر الهمزة لما يستقبل ، وأن بفتح الهمزة لما مضى . والشاعر فى ذكر قصة قد مضت فيحمل قوله أن جضنا بفتح الهمزة ، على تقدير لما جضنا » .

جاضَ عن قِرْنِه وحاصَ بمعنًى، أي عَدَلَ وانحرَفَ. والعُمْر والعَمْر لغتانِ: الحياةُ والبقاء. ومنه قولُهم: لعَمْر الله، وعَمْرَكَ اللهَ. إلا أنه في اليمين لا يستعمل إلا بفتح العين. وقوله «كم العُمْر» في موضع الظرف، والمعنى كم يومًا أو وقتًا العمر باقٍ. وارتفع العمر بالابتداء. والواوُ في قوله «والمدى متطاوِل» واو الحال، أي كم العمر باقٍ ومداه متطاول. ولم يأت بالضمير لأنَّ الواو أغْنَى عنه، والمعنى لم نَعْلَمْ إن عَدَلْنَا عن الحرب عَدْلَةً كم بَقِيَ من أعمارنا، وغايات العمر ممتدّة مبهمة حتّى لا ينتهِي أحدٌ منها إلى حدّ إلاّ وكما يرجو أن يتّصل بعده أيضا لا يَأمن أن ينقطع، فكأنه قال: إذا كان الحال في الأعمارِ على هذا أبداً فلا مَعنًى للعُدُول عن الحرْب، إذْ لا يمتنِعُ مع تطاول المدَى في رجاء العُمْر أن يَقصُرَ في نفسه وينقطِعَ عن المأمول فيه. ويَجوز أن يَتعلق الحال الذى دَلَّ عليه «والمَدَى متطاوِلُ» بإن جِضْنَا. والتقدير لم نَدْرِ إن جِضْنَا ومَدَانَا متَطاوِلٌ كَمِ العمْر باقٍ أي مَدَى رجائِنا. وهذا حَسَنٌ عندى. ويجوز أن يكون الواو عاطفةً كأنه قال: لم نَعْلم كم العُمْر بَاقٍ وكم المدى متطاوِلٌ إنْ جِضْنَا. وحُكي عن بعض المتأخرين أنه فَسّرَ العُمْر على أنّهُ الحِينُ، قال ومنه قوله تعالى: ﴿فقد لَبِثْتُ فِيكُم عُمُرًا﴾ وهذا إذا حُقِّق يرجع إلى الأوّل[١].

٥ ـ إذا ما ابْتَدَرْنا مَأْزِقًا فَرَجَتْ لَنَا بأَيْمَانِنا بِيضٌ جَلَتْها الصَّيَاقَلُ

يقول: إذا ما استَبَقْنَا إلى مَضِيقٍ في الحرب وسَّعَتْهُ لنا سُيُوفٌ مَصْقُولَةٌ بأَيمانِنا

(١) ابن جنى: «لك في كم وجهان إن شئت جعلتها زماناً فتنصبها حينئذ على الظرف بباق، أي يبقى عشرين أو ثلاثين. وإن شئت جعلتها أفعالا فتنصبها حينئذ على المصدر، أي أبقية تبقى أم ألف بقية أم أقل أم أكثر، وهى منصوبة أيضاً بباق».

والفائدة فى قوله « جعلتْها الصَّياقل » اهتمامُهم بإصلاح آلاتِ الحرب ، لدوام مُزَاوَلتهم لها[١] . وجَعَلَ الفِعْلَ للسُّيوف على المجاز والسَّعَة .

٦ـ لَهُمْ صَدْرُ سَيْفِى يَوْمَ بَطْحَاءِ سَحْبَلٍ وَلِى مِنْهُ ماضُمَّتْ عَلَيْهِ الأَنامِلُ[٢]

هذا مثل قوله :

مقابِرُهُنَّ بطونُ الأَكُفِّ وأَغمادُهُنّ رءوسُ المُلُوكِ

وإنْ كان فى هذا تقسيمٌ خَلَا منه المُشَبَّهُ . وَلَكَ أن تَرْوِى « ما ضُمَّتْ عليه الأناملُ » و « ضَمَّتْ » ، فإذا قلتَ ضُمَّت فالمعنى قُبِضتْ عليه الأناملُ[٣] . وإذا قلتَ ضَمَّت فالمعنَى قبضَتْه الأناملُ . والبَطْحَاء والأَبْطَح : مَسِيلٌ فيه دُقَاقُ الحصَى واسِعٌ . وهما صفتان أُخرِجتا إلى باب الأسماء . وبطحاءُ مَكّة وأبْطَحُها معروفان ، والتأنيث والتذكير فيهما يُحْمَلان على البَلْدَة والبقْعَةِ ، والبَلدِ والمكَانِ ، إلاّ أنّه لا يُقَالُ مكانٌ أَبْطحُ ولا بُقْعةٌ بطحاء . ويقال : تَبَطَّحَ السَّيْلُ ، إذا سَال عَرِيضاً . فأمَّا « سَحْبَلٌ » فاسم موضعٍ أُضيفَ البطحاءِ إليه ، كما يقال صَحْراءِ سَحْبَلٍ . ويقال ضَبٌّ سَحْبَلٌ ، إذا كان عريضَ البَطْنِ . ولا يَمتنع أن يكون المكانُ سُمِّى به لاتّساعه .

٥

وقال أيضاً :

١ـ لا يَكْشِفُ الغَمَّاءَ إلاّ ابن حُرَّةٍ يَرَى غَمَراتِ المْوتِ ثُمَّ يَزُورُهَا

مَعنى « يرى غَمَرات الموت » أنْ يتحقّقَها بالممارسة حتّى يصير كأنّه أدركَها

---

(١) التبريزى : « وقوله جلتْها الصياقل ، ضرورة ، لأن السيوف لا تجلوها إلا الصياقل ، ولو كان يجلوها غيرهم وكان جلائهم إياها فضل على جلاء غيرهم لكان لذكرهم هاهنا معنى . . . ولو قال اجتهد فى صقلها الصياقل وما أشبه كان حسنا » .

(٢) م : « ولى فيه » . (٣) انظر الحماسية ٨٢ .

(٤) م : « قبض عليه بالأنامل » .

بحاسة العين وشاهَدَها ، فيقول : لا يكشف الخصْلَةَ الشديدة إلاّ رَجُلٌ كريم، يرى قُحَم الموتِ ثم يتوسّطُها ويَصْبِرُ فيها ولا يَعْدِلُ عَنها . وإنما قال « ابنُ حُرَّةٍ » لينبّه على زوال الهُجْنَةِ منه ، وخُلوصِ مَوْلده مما يَشُوبهُ ، وليصيرَ كَرَمُه مهيِّجاً لأَنَفَتِه ، ومصبِّراً له على كلِّ ما يُدْفَع إليه من الشرِّ إلاّ أنْ يُزِيلَهُ . ولأنّ ما يَسْتَنْكِفُ منه العرَبُ هو الهُجْنَةُ إذْ كان مَن ليس أبوه من العربِ خارجاً من أن يكون عَرَبيًّا . والغَمَّاء والغَمُّ والغُمَّةُ والغَمَمُ مَرْجِعُ جميعها إلى التَّغْطية . فإنْ قيل : لِمَ عَطَف الزِّيارةَ على رؤية الغَمَرات بحَرْفِ المُهْلَة ، وهلّا جعلها عَقِيبَ الرُّؤْية ؟ قلت : إنَّ « ثُمَّ » وإن كان فى عطفِه المفردَ على المفرَدِ يدلُّ على التَّراخى فإنه فى عَطْفِه الجملةَ على الجملةِ ليس كذلك . ألا تَرَى قولَه عزّ وجلّ : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ ما العَقَبَةُ . فَكُّ رقبةٍ . أوْ إطعامٌ فى يوم ذى مَسْغَبَةٍ . يتيماً ذا مَقْرَبَةٍ . أو مِسكينا ذا مَتْرَبَةٍ . ثمّ كان من الذين آمنوا ﴾ . ولا يجوز تراخِى الإيمان عن شىء مما عَدَّدَهُ وذَكره[1] .

٣ ــ تُقَاسِمُهُم أَسْيَافُنَـا شَرَّ قِسْمَةٍ فَفِينَا غَوَاشِيهَـا وفيهِمْ صُدُورُهَا

وَضَع « قِسمةٍ » موضع مقاسمة ؛ أراد شرَّ مُقَاسَمَةٍ . وانتصاب « شَرَّ » على المصْدَر . والغَوَاشى : القوائم ، وتكون الأغمادَ أيضا . والصُّدور ، أراد بها المضاربَ ، وإنّما قال : شَرَّ قِسْمَةٍ ، لأنَّ مَنْ حُمِلَ على مثْل هذه القِسْمة فيما يُقَاسَمُ عليه كان الشَّرُّ لَهُ . وهذا أيضا مِثْلُ قوله :

* لَهُمْ صَدْرُ سَيْفِى يَوْمَ بَطْحَاءِ سَحْبَلٍ[2] *

---

(١) زاد التبريزى : « وأصل الزيارة الميل ، وهو من الزور ، والميل فى أحد الشقين، فقوله يزورها ، أى يميل إليها فيأتيها » .

(٢) من الحماسية السابقة .

والمعنى قاسمناهم سيوفنا ففينا مقابضها وفيهم مضاربها[١] .

٦

وقال أيضا :

١ـ هَوَاىَ مَعَ الرَّكْبِ اليمانِينَ مُصْعِدٌ جَنِيبٌ وجُثْمَانِى بِمَكَّةَ مُوثَقُ

هذه الأبيات ضمّنها هذا الباب لِمَا اشتملتْ عليه مِن حُسْنِ صَبْرِه على البَلاء، وقلّة ذُعْرِه من الموت والفناء[٢] ، واستهانته بوعيد المتوعِّد وحِذْقه برَسَفَانِ المُقيَّد . و «هَوَاىَ» ياء الإضافةِ فُتِحَتْ منه على الأصل ، وذاك أنّ هذه الياء لمّا كان ضميرَ اسْمٍ على حَرْفٍ واحدٍ متطرّف كرِهوا أن تُسكَّنَ فتَختَلّ[٣] فجعلوا من أصلِه التحريك ، فإذا كان ما قبلَه متحركا كغُلامِى ودارِى : كان لك فيه وجوهٌ : تحريك الياء وهو الأصل ، وتسكينه تخفيفا ، وحَذْفُهُ من النّداء إذا قُلْتَ ياغُلامِ ، وإبدالُ الألفِ منهامع انفتاح ماقبْلَها كقولك وا بِأَباها وياغُلامَا أقبلْ . وإذا سَكَنَ ما قَبْلَهَ فمتى كان واوًا أو ياء أُدْغِمَ فيه ولم يَكُنْ بُدٌّ من تحريكه لئلاّ يلتقيَ ساكنان ، تقول مُسْلِمِىَّ فى الجميع[٤] ومسلمَىَّ فى التثنية . وإذا كان ما قبله ألفًا كعَصَاىَ وقفاىَ وهَوَاىَ ، لم يكن بُدٌّ من الإتيان به على الأصل ، وهو تحريكه ، لئلا يلتقى ساكنان أيضا ، ولا يجوز الإدغام هاهُنا كما جاز مع الواو والياء ، لأنّ الألف لا تُدْغَمُ فى شىء ولا يُدغمُ فيها غيرُها ، لكونها هوائيّةً

(١) ابن جنى : «فى هذا البيت دلالة على قوة شبه الظرف بالفعل ، وذلك أنه عطف قوله : ففيناغواشيها على قوله : تقاسمهم ، ومن شرط المعطوف أن يكون وفق المعطوف عليه» .
(٢) هذا ما فى م . وفى الأصل : «من الموت والقتل» .
(٣) م : «أن يسكن فيختل» .
(٤) م : «فى الجميع» .

لا مُعتَمَد لها فى المخرَج ، إلاّ فى لُغَةِ هُذَيْلٍ ، لأنهم يُبْدِلونَ من الألِفِ الياء ويُدْغِمُون . على هذا قوله :

سَبَقُوا هَوَىَّ وأعْنَقُوا لِهَوَاهُم   فتَخَرَّموا ولِكلِّ جَنْبٍ مَصْرَعُ(١)

واليَمَانُون : جمع يَمانٍ ، والنسبةُ إلى يَمَنٍ يَمَنِىٌّ ، لكنّه حُذِف إحدى ياءىِ النسب وأُتِىَ بالألف عِوَضاً مِنْهُ . ومِثْلُهُ شَآمٍ وتَهَامٍ ، ومعنى البيت هَوَاىَ رَاحِلٌ ومُبْعِدٌ مع رُكْبَانِ الإبل(٢) القَاصِدِين نحو اليَمَن ، مُنْضَمٌّ إليهم ، مَقُودٌ معهم ، وبدنِى مأسُورٌ مُقَيَّدٌ بمكة . ورَاكِبٌ ورَكْبٌ مثلُ تَاجِرٍ وتَجْرٍ . وقد قيل فى الجُثمانِ إنه الشَّخصُ والجُسْمَانُ الجِسْم ، هكذا قاله الأصْمَعِىُّ . والشَّخصُ إنما يُستعملُ فى بدن الإنسان إذا كان قائماً . والخليلُ ذَكَر فى العين أنَّ الجُثمَانَ والجُسْمَان بمعنًى واحدٍ . وأَصْعَدَ فى الأرض : أَبْعَدَ ، وحُكِىَ أن صَعْدَةَ اسمٌ عَلَمٌ للأرض ، وأنّ الصَّعيد منه . ولهذا قيل لحُمُر الوحش : بَنَاتُ صَعْدَةَ ، وأولادُ صَعْدَةَ . وهذا إن ثَبَتَ فهو كما يقال بناتُ البَرّ . وقوله « جَنِيبٌ » أى مَجْنُوبٌ مُسْتَتْبَعٌ . وذكر أنّ بَعْضَهُم يرويه « حَثِيثٌ(٣) » ، والصحيحُ الأول لفظاً ومعنًى .

٢ — عَجِبْتُ لِمَسْرَاهَا وأَنَّى تَخَلَّصَتْ   إلَىَّ وبَابُ السِّجْنِ دُونِى مُغْلَقُ

يقول : تعجَّبْتُ من سير هذهِ(٤) الخيال إلىّ ، ومن حُسْن توصُّلِها مع هذه الحال ، وهو أنَّ بابَ السجْن مرتَجٌ(٥) دونى . فأمَّا تعجُّبُه من سيْرها فعلَى عادة العرب والشُّعراء فى وصف الخيال ، وذلك أنَّهم يُجْرُونَها مجرَى المرأةِ نَفْسِها ،

---

(١) البيت لأبى ذؤيب الهذلى ، من قصيدته التى رثى بها بنيه . وهى أول ديوان الهذليين
(٢) هذه الكلمة ساقطة من م .
(٣) لم يذكر التبريزى هذه الرواية .
(٤) كذا وردت ، كأنه جعل الخيال مؤنثا لأنه خيال أنثى .
(٥) هذا ما فى م . وفى الأصل : « مرتد » .

فيستطرفون منها ما يُسْتَطْرَفُ من تلك لو وَقَع الفعل منها على الحقيقة مع تَعْمّتِهَا . وهذا كما قال غيره :

طَرَقَ الخيالُ ولا كَلَيْلَةِ مُدْلِجِ سَدِكاً بأَرْحُلِنَا ولم يَتَعَرَّجِ (١)

وكما قال الآخر (٢) :

وأَنَّى اهْتَدَتْ والدَّوُّ بينى وبينها وما خِلْتُ سَارِى الليل بالدَّوِّ يَهْتَدِى

وأمَّا تعَجُّبُه من تَوَصُّلِهَا فهو تعَجُّبٌ من لُطْفِهَا فى ذَلِكَ ، وحُسْنِ تأتِّيهَا ، مع العوارض والموانع . والَمسْرَى يصلُح فى اللُّغة أن يكون مصدراً ومكاناً ووقْتاً والبيت لا يمتنع من وُجُوهِهِ . وأنَّى معناه كيف ، أو مِنْ أين ، كذا قال سيبويه . وقد تَجَرَّدَ لأن يكون بمعنى كيف فى قول الكميت :

* أَنَّى ومن أين آبَكَ الطَّرَبُ *

٣ـ أَتَتْنَا فَحَيَّتْ ثم قَامَت فَوَدَّعَتْ فَلَمَّا تَوَلَّتْ كَادَتِ النَّفْسُ تَزْهَقُ

التَّحيَّةُ : السَّلام والُملْكُ والبقاء . والُمحَيَّا : الوجْهُ من الإنسان ، لأنه يُخَصُّ عند التسليم بالذِّكْر فيقال حَيَّا الله وَجْهَكَ ، وإن كانَتْ الجملةُ متلقَّاةً به . وقيل التَّحية مشتقة من الحيَاة أو الحياء . والُمحَاياةُ : تحِيَّةُ القوم بعضهم بعضا . والمحيَّا من الفرس: حيث انفرَقَ اللَّحم تحت الناصيَة . فيقول حاكِياً لحال الخيال: جاءتنا فسلَّمت علينا ، ثم لم تلبث إلاَّ قليلا حتَّى قامت وأعرضَتْ ، فلما تَولَّتْ كادت النفس تَخْرُجُ فى أثرها . ويُروَى :« أَلَمَّتْ فحَيّت » . والإلمامُ : الزيارة الخفيفةُ . وقوله « لما تولَّتْ » جوابُهُ « كادَتِ النفسُ » وهو عَلَمٌ للظرف . ومتى كان عَلَماً للظرف لم يكن له بُدٌّ من جَوابٍ ، لأنَّه يكون لوقوع الشيء لوقوع غيره . وتَزْهَقُ

(١) مطلع قصيدة للحارث بن حلزة اليشكرى ، فى المفضليات (٢ : ٥٥) .

(٢) هو الحطيئة من قصيدة فى ديوانه ٢١ — ٢٥ .

خبر كادَتْ ، لأنّ كاد[1] كَكان وأخواته هاهنا إذا وقع بعده الاسم ، وهو موضوعٌ لمشارفةِ الفِعْل ومشافَهته ، ولهذا وجبَ ألاّ يكُونَ مَعَهُ « أن » . تقول : كاد يَفْعَلُ ، ولا يجوز أن يفعلَ إلاّ فى الشِّعر . ومعنى تَزْهَقُ : تَهْلِكُ ، ومنه قيل للبئر البعيدة القَعْر والمَتْلَفةِ البعيدة : زاهِقَةٌ وزهوق . وفى القرآن : ﴿ فإذا هُوَ زاهِقٌ ﴾ . ويجوز أن يريد به فى البيت تَخرج فى إثرِهاَ سريعةً لما تولّت . ومنه زَهَقَتِ الراحِلَةُ : تَقَدَّمَتْ . وَزَهَقَ السهمُ : أسرع .

٤ـ فَلاَ تَحْسَبِي أَنِّي تَخَشَّعْتُ بَعْدَكُمْ لِشَيْءٍ ولاَ أَنِّي من المَوْتِ أَفْرَقُ

ترك الإخْبَارَ عنها وأقبل عليها يخاطِبُها ، جَرْيًا على عادتهم فى التَنَقُّلِ والافتنانِ فى التصرُّف . ومعنى تَخَشَّعْتُ : تكلّفْتُ الخشوع . والخشوعُ فى البَصرِ كالخضُوع فى البدن . ويقال : اختشع فلانٌ ، إذا طأطأَ رأسَهُ رَامِيًا ببصره إلى الأرض وهو خاشع الطَّرْفِ خاضِعُ العُنُقِ . يقول مُسْتَهِينًا بما اجتمع عليه من الحبس والتقييد ، ومتبجّحًا عندها بالصبر على الهوى والتهالك فيه — وبهذا دخلت الأبياتُ فى الحماسة — لا تظنِّى أنى تكلّفتُ الخشوع بعدكم لشيء عارضٍ ، ولا أنِّى أخاف من الموت . والفَرَق : الخوفُ ، وهو فَرِقٌ وفَرُوقٌ وفَرُوقَة . وقال :

* أنورًا سَرْعَ ماذا يا فَرُوقُ[2] *

فإن قيل : فأين مفعول تحسبي ؟ قلت : قد نابت الجملة ، وهى قوله « أنى تخشّعت بعدكم » عن المفعولين . ألاَ ترى أنّ تقديره لا تحسبيني خاشِعًا ، فكما أنّ المفعولين يحصلان من دون « أنَّ » كذلك إذا دخل « أنّ » فى الكلام

(١) هذا ما فى م . وفى الأصل : « لأنه كادت » .

(٢) صدر بيت لزغبة الباهلى ، أو مالك بن زغبة الباهلى ، أو أبى شفيق الباهلى . اللسان (نور ، حذق) ، وعجزه :

* وحبل الوصل منتكث حذيق *

ينوب مع ما بَعْدَهُ عنهما ، لأن اللفظ بالمفعولين قد حَصَل وإن كانا فى صلة أنَّ . وأنَّ وما بعده فى تقدير اسمٍ ، وهذا كما تقول : لو أنك جئتنى لأ كرمتُك ، إذْ كنتَ قد لفظتَ بالفعل فى صلة أنَّ ، وإن كنت لا تقولُ لَوْ مجيئُك .

٥ـ ولاَ أنّ نفسِي يَزْدَهِيهاوَعِيدُكُمْ ولاَ أنَّنِي بالمَشْيِ فى القَيْدِ أخْرَقُ(١)

الوعِيدُ والوَعْدُ من أَصْلٍ واحدٍ ، وإن كانَ أحَدُهُما ضَمانا فى الخيْرِ والآخر ضمانا فى الشرّ ، لـكنه فُرِقَ بين المعنيَيْن بتغيير البناءين ، كما فعلوا مثل ذلك فى العِدْل والعَدِيل ، فجعلوا أحدَهما فى الأناسىّ والآخر فى غيرهم . يقول : ولا تَظُنّ أن نفسى يَسْتَخِفُّها تهدُّدُكُمْ ، ولا أننى تَجِرت بالرَّسَفَان ، وهو المشى فى القَيد . ويقال زَهَاهُ زَهْوًا وازدهاه ، إذا استخفّه . ويُستعمل الزَّهْو فى الباطلِ والتزيُّدِ فى القول . يقال : قال زَهوًا ، وفى الـكِبْر يقال زُهِيَ لا غير ، وهو مَزْهُوٌّ ، والأصل الخِفَّةُ . والأَخرَق : القليل الرِّفق بالشَّىء . وقال أهل اللغة : الخُرْق : ضدّ الرفق . وفلان رقيقٌ وفلان أخرق . وربّما قالوا : فلانٌ صَنَع وفلان أخرق . قال :

* وهْىَ صَنَاعُ الرِّجْلِ خَرقاء اليَدِ *

ويروى «أخرُق» بضم الراءفيكون فِعلاً ، و«أخرَق» بفتح الراء فيـكون صفةً .

٦ـ ولـكنْ عَرَتْنِي من هوَاكِ صَبَابَةٌ كما كنت أَلْقَى مِنْكِ إِذْ أنا مُطْلَقُ(٢)

قوله « كما كنت ألقى منك » ، الأجود أن يكون « ما » موصوفة غير

---

(١) أشار التبريزى إلى أنه يرو : «وعيدهم» ، وابن جنى إلى رواية : «ولا أننا عن يزدهيه وعيلهم» .

(٢) أشار ابن جنى إلى رواية : «زمانة» بدل «صبابة» .

موصولة ، لأنك إذا جعلتها موصولة كانت مَعْرفة وفى تَقديرِ الذى ، والقصْد إلى تشبيه صَبابةٍ مجهولةٍ بمثِلها ، والتقدير عرَتْ صبابةٌ تشْبه صبابةً كنتُ أكابدها فيكِ فى ذلك الوقت . كأنه شبَّه حالَه فيها بعد ما مُنِيَ به[1] بحالِه من قبل . ومفعول ألْقى محذوف تخفيفاً له ، [أراد[2]] كما كنتُ ألقاهُ منكِ .

ويقال عرَاه وأعراه بمعنًى واحد . ومنه عرَاء الدار وعرْوتها بفتح العين ، أى حيث تُعَرى منه أى تؤْتَى . يقول : ولكنّى تعرونى فى الهوَى رِقّةُ شوْقٍ وجَهْد صبابة ، كما كنتُ أقاسيه منكِ وفيكِ حين كنتُ مُطْلَقاً ومُخَلًّى . والفعل من الصَّبابة صبِبْتُ بكسر الباء ، والصفة صَبٌّ . وقولُه « إذْ أنا مطلق » الجملة فى موضع جرّ بالإضافة ، وقد شُرِح بها « إذْ » كأنّه قال : وقت إطلاق[3] .

٧

وقال أبو عَطَاءِ السِّنْدِىُّ[4] :

١ ــ ذَكَرْتُكِ والخَطِّىُّ يَخْطِرُ بَيْنَنَا وقَدْ نَهِلَتْ مِنَّا المُثَقَّفَةُ السُّمْرُ

يَعني بالخطّىّ رُمْح نفسه ، أى يتردّدُ بالطَّعْنِ . كأنّه يُصوِّر حالَهُ وما يُكابِدُه فى مُجَاهدةِ أعدائِه . والخَطُّ : سِيفُ البَحرين وعُمَان[5] وإليه يُنسب القَنا .

---

(١) به ، باتفاق النسختين ، فالضمير للحال . وفى التبريزى : « بها » .

(٢) هذه من م والتبريزى .

(٣) أورد التبريزى عقب شرح هذه المقطوعة « حديث جعفر بن علبة الحارثى وسبب حبسه وقتله » ، وهو حديث طويل .

(٤) التبريزى : « واسمه أفلح مولى عنبر بن سماك بن حصين ، وكان به عجمة شديدة . يجعل الجيم زايا والشين سينا ، وهو من شعراء بنى أمية » . وانظر ترجمته أيضا فى الشعر والشعراء ٧٤٢ والأغانى ١٦ : ٧٨ ــ ٨٤ والخزانة ٤ : ١٦٧ .

(٥) وردت فى النسختين بتشديد الميم ، وهو ضبط لا تقره المعاجم ولا كتب البلدان . وهذه هى المجاورة للبحرين . وأما المشددة الميم المفتوحة العين فهو التى بالشام .

وكأنّ قولهم : الخطيطةُ ، وهى أرض لم تُمْطَرْ بين أرضين ممطورتين ، منه . والخَطْرُ أصله التحرُّك ، يقال مَرَّ يَخْطِر خَطْرًا ، وخَطَر البَعير بذَنَبه خَطْرًا وخَطَرَانًا . فنبّه بهذا الكلام على قلّة مبالاته بالحرب ، وأنّ نفسه تاقت والرمح يختلف بالطّعْن بينهم[1] إليها حتى كانت تلك هَمَّه وشُغْلَهُ ، فقال : ذَكَرْتُكِ بقلبى ورماحُ الخطِّ تضطرب فى الحرب بيننا ، وقد رَوِيَتْ منّا أى من دمائنا[2] . وروى بعضهم : « وقد نُهِكَتْ[3] منّا المثقّفة » من نَهَكَ المرض ، وليس بشىء : ومصدر ذكرتُكِ ذُكْر بضم الذال ، لأنّ الذُّكْر بالقَلْب والذِّكْر باللّسان . والاسْمُ من نَهِلَتْ النَّهَلُ . والمَوْرِدُ : المَنْهَلُ : وقد عُدَّ الناهِلُ فى الأضداد ، لوقوعه على الرَّيّان والعَطْشَان ، وكأن حقيقة النَّهَلِ أوّل السَّقْى ، والاكتفاء بِهِ قَدْ يقع وقد لا يَقَعُ[4] فلذلك استُعمل النّاهِلَ فى الرِّى والعَطَش .

٢ — فَوَاللهِ ما أَدْرِى وإنِّى لَصَادِقٌ أَدَاءٌ عَرَانِى من حِبَابِكِ أم سِحْرُ

أقسمَ بالله على استواء علمه[5] بالحالتين اللتين ذكرهما . ويسمّى الألف التى فى قوله « أداء عرانى » ألفَ التّسوية ، لهذا الذى ذكرناه . وكذلك لو قال : ليت شعرى أزيدٌ فى الدار أم عَمْروٌ ، لكان الألفُ ألفَ التسوية أيضاً ، لأنه بتمنّيه العِلم بما ذَكَرَهُ من الأمرين ، دَلّ على استواء دِرَايته بهما : « وعَرَانى » معناه أصابنى . يقال عَرَاه يَعْرُوه ، واعتراه يعتريه ، وعَرَّهُ يَعُرُّهُ بمعنًى واحد .

(١) هذا ما فى م . وفى الأصل : « بينهما » .

(٢) أشار ابن جنى أن جملة « وقد نهلت » بدل من الحال الأولى ، أو هى حال من الضمير فى « بيننا » .

(٣) كذا فى النسختين بالبناء للمفعول .

(٤) بعض النحويين لا يجيز هذا التعبير ، وهو إيلاء النافى لفظ « قد » .

(٥) هذه الكلمة ساقطة من م .

و « الحِبَابُ » بمعنى الُحبِّ ، كأنه مصدر حَببتُه . وقد يكون مصدر حابَبْتُه ويكون من اثنين . ويكون أيضا جَمعَ الُحبِّ ، وكأنّه جَمعه على اختلاف أحواله فيه ، كما تُجْمَعُ الشَّمس على مواقعِها . ويُروَى « جَنَابِكِ[1] » والمعنى من ناحيتك . وقوله « إنّى لصادِقٌ » يجوز أن يريد به صِدْقَهُ فى الخبر ، ويجوز أن يُرِيدَ بِرَّه فى الحلفِ ، ومرجع الوجهين إلى معنًى واحدٍ .

٣ – فإنْ كَانَ سِحْرًا فاعْذِرِيني على الْهَوَى وإنْ كَانَ دَاءٌ غَيْرَهُ فَلَكِ الْعُذْرُ

السِّحر والتمويه يرجعان إلى معنًى واحد ، ولذلك قال تعالى : ﴿ سَحَرُوا أعْيُنَ النّاسِ ﴾ ، أى أخرجوه على وَجهٍ فى مَرأَى العين وحقيقتُه على خِلَافه . والسَّحّارَة[2] : لُعْبَةٌ ذلك صِفَتُها . ويقال عَنْزٌ مسحورةٌ ، إذا عَظُمَ ضَرْعُها وقَلّ لَبَنُهَا . وأرضٌ مسحورةٌ ، إذا لم تُنْبِتْ شيئًا : فيقول : إنْ كان ما بى سِحْرًا فلى عُذْرٌ فى هواكِ ، لأنّ من يُسْحَر يُحْبَبْ ، وإن كان داءٌ غيرَ السحر فالعُذر لك ، لأنّى وقعتُ فيه بتعرّضى لك ، وفِكْرِى فى مَحَاسِنك ، والدَّلالة على أن « فاعْذِرِينى » فى موضِع فَلِى عُذْرٌ ، ما قابَلَهُ به من قولِهِ « فَلَكِ العُذْرُ » . وفى هذا إسقاطُ سؤال السائل : لم قال اعذِرِينى ولا ذَنْب له وإنّما يحتاجُ إلى بَسْطِ الْعُذْرِ مَن له ذَنْب أو يُتَصَوَّرُ بصورته ، وانتصاب «داء» على أن يكون خبر كان ، كأنّه قال : وإن كان ما بى داءً . ويجوز أن يكون تَوَهَّمَ أن تلك تصوَّرتْهُ[3] بصورة المُذنِبِ[4] فيما أظهرَه من عشقِهِ فقال لها : إن أنتِ فتَنْتِنى

(١) زاد التبريزى : « من جنابك » بالكسر ، أى مجانبتك .

(٢) ضبط فى م بتخفيف الحاء ، والصواب تشديدها كما فى اللسان . قال : « شىء يلعب به الصبيان إذا مد من جانب خرج على لون ، وإذا مد من جانب آخر خرج على لون آخر مخالف وكل ما أشبه ذلك سحارة » .

(٣) م : « صورته » .

(٤) فى الأصل : « الذنب » صوابه فى م والتبريزى .

وأوقعتِني في حِبالَتِك لِمَا عَرَضْتِ عليَّ من محاسنِكِ فلى عُذْرٌ حين افتتنت ، لأن مِثْلَ محاسِنِك تُزِلُّ العفيف ، وتنقُلُ عن طَبعِهِ الحليم . وإن كنتُ المتعرِّضَ لك والجالب على نفسى ما شَقِيتُ به ، فالعُذْرُ لكِ .

٨

وقال آخر[١] :

١ — وَفَارِسٍ فِي غِمَارِ المَوْتِ مُنْغَمِسٍ إذَا تَأَلَّى على مَكْرُوهِهِ صَدَقَا[٢]

جَعَل للموت غِماراً على التَّشبيه بالماء ، ثم جَعَلَهُ مُنْغَمِساً فيها فَحَسُنَت الاستعارة جِدًّا : وتَأَلَّى وائتَلَى وآلى من الأَلِيَّةِ . ولا حَلِفَ ثَمَّ ، إنّما يريد الحَتْمَ والإيجابَ ، فيقول : رُبَّ فارسٍ داخلٍ فى شدائد الموت إذا حَلَفَ على ما يُكْرَهُ منه أو يكون كريهاً فى نفسه بَرَّ ولم يَحْنَثْ أنا فَعَلْتُ به كذا . ويُروى « مكروهةٍ » والمعنى خَصلةٍ تُكْرَهُ وتَشُقُّ . فعلى هذا يكون صفةً مُفْردةً عن الموصوفِ . ويجوز أن يكون مصدراً كالمصدوقة وما أشبهها من المصادر الجائية على زِنَةِ المفعول . وأضاف المكروه إذا رويت « مكروهِهِ » إلى الفارس لوقوعه منه . والمنغمسُ : الداخِلُ فى الشّىء ، يقال غَمَسْتُه فى الماء وغيرِه ، ورَجُلٌ مُغامِسٌ للذى يغشى الحَرْبَ ويتردّد فيها . والغِمَارُ والغَمَرات جمع غَمْرَةٍ ، وهى فى الماء والحرب والشرّ ترجع إلى السَّتْر . ويقال رجل مُغَامِرٌ ، إذا ألقى نفسه فى الغمرات والمهالك . ورَوى بعضهم « فى غُمَار الموت » بضم الغين ، وكسرُها أجود مع ذكر المنغمِس .

---

(١) م : «آخر» فقط . وعند التبريزى وابن جنى : «وقال بلعاء بن قيس الكنانى» . وكان بلعاء هذا رأس بنى كنانة فى حروبهم ، وهو شاعر محسن . المؤلف ١٠٦ . ومات قبل يوم الحريرة ، وهو اليوم الخامس من أيام الفجار . العقد الفريد .

(٢) يروى «مكروهه» بالإضافة إلى الهاء ، و«مكروهة» بالتاء فى آخره .

٢ — غَشَّيْتُه وهو فى جَأْوَاء بَاسِلَةٍ عَضْبًا أَصَابَ سَوَاءَ الرَّأْسِ فانفَلَقَا

العَضْبُ : القَطْعُ ، وتوسَّعُوا فيه فقالوا : عَضَبَهُ عن حاجته ، أى حَبَسَهُ ، وامرأةٌ مَعْضُوبَةٌ أى معضولة[1] ، وسَيْفٌ عَضْبٌ أى قاطع ، كأنه وُصِفَ بالمصدر . والتغشِّى أصله الإتيان والملابسة ، ومنه الغِشاوة : الغطاء . وتوسعوا فيه حتى قيل تَغَشَّاهم بالعَدْل أو الجوْرِ . وفى القرآن : ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُم النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ ﴾ . فقوله غَشَّيْتُه ، هو كما يُقال قَنَّعْتُهُ ، وهو جَوَاب رُبَّ فارسٍ هكذا أنا ضربتُه وهو فى جيشٍ تَامِّ السِّلاح كريه اللِّقاء ، بسيفٍ قاطع أصاب وَسَطَ رأسِه فَشَقَّهُ . والسَّوَاء : الوسط ها هنا ، وفى التنزيل : ﴿ فى سَوَاءِ الجَحِيم ﴾ . ويوضَع موضعَ المصدر ثم يوصَف به ، وفى التنزيل : ﴿ سَوَاءً للسائِلِين ﴾ . وأصابَ ، بمعنى طَلَب وبمعنى نَالَ ، ويقالُ أَصَبْتُ الصواب فأَخْطَأْتُه . والجأواء : الخضرة ، وهو من الجُؤْوَة ، يعنى اخضرار السلاح . والبَسالة تستعمل فى الناس وغيرهم ، وهى الشَّجاعة . ويقال رَجُلٌ باسل وأَسَدٌ باسِلٌ وبَسُولٌ . قال :

* ما غَرَّكُم بالأَسَدِ الباسِلِ[2] *

وهذا يجوز أن يكون من البَسْلِ ، وهو الحرام ، كأنه لِتمنُّعه محرَّم .

٣ — بِضَرْبَةٍ لم تَكُنْ مِنِّى مُخَالَسَةً ولا تَعَجَّلْتُها جُبْنًا ولا فَرَقَا

يُقَالُ تَعَجَّلْتُ الشىء ، أى تكلَّفْتُه على عَجَلَةٍ . ويقال أيضا أَعْجَلْتَه واستعجلتُه وتعجَّلْتُه بمعنًى . والخَلْسُ : أَخْذ الشىء مخاتَلَةً ، وقيل الاختلاسُ أَوْحَى من من الخَلْسِ . ويقالُ هو لكَ خُلْسَةٌ ، كما يُقال نُهْزَةٌ وفُرْصَةٌ . يقولُ : غَشَّيْتُه

(١) أ « معضولة » ساقط من م .

(٢) لامرئ القيس . وصدره :

* قولا لدودان عبيد العصا *

سَيْفًا بأن ضرَبْتُه ضرْبَةً هكذا . فأمّا قوله لم تكن منى مُخَالسةً ، فهو خلاف قول الآخَر[١] :

وَقَدْ أَخْتَلِسُ الضَّرْ بَـ ـةَ لا يَدْمَى لَهَا نَصْـلِى

وقول الهُذَلىِّ[٢] :

* وَطَعْنَةِ خَلْسٍ قَدْ طَعَنْتَ مُرِشَّةٍ[٣] *

لأنّ قصْد الشاعر هاهنا إلى أنّه تناوَلَ من خصمه ما تناول بتثبُّتٍ وقوّة قلب لا كما يفعله الجبانُ . وثَمَّ يذكُر تمكُّنَه من خَصْمه على شدّة احترازٍ منه حتّى تناول ما تناوَلَه خَلْسًا . وقد وُصِفَ الشجاعُ بالمُخَالِس والخَلِيس ، وكذلك المُصارِعُ . ومن مَدَح خَصْمَه ثم ذكر غلبتَهُ له كانَ أبلغَ فى الافتخار به ، فاعرِفْ فرقَ ما بين المَوضعين . وقوله : « ولا تعجلتُهَا جُبناً ولا فَرَقا » يُؤَكّدُ ماذكرناه . وانتصاب « جُبْنًا » على أنّه مفعول له ، وهو الذى يُسَمَّى مصدراً لعلّةٍ . والمعنى : ولم أتكلّف مُجلتَها لضَعفِ قلبى ولا لخوفى من صاحبى . وضَرْبَةُ الجبان أعجَلُ وأسرع .

٩

وقال رَبِيعة بن مَقْرُوم الضَّبِّيّ[٤]

١ — ولَقَدْشَهِدْتُ الخَيْلَ يومَ طِرَادِهَا بِسَلِيمِ أَوْظِفَةِ القوائمِ هَيْكَلِ

اطِّراد الماء والسَّراب[٥] والكلام : اتِّساقُها على حدّ الاستقامة والمرادِ .

---

(١) هو الفند الزمانى ، أو امرؤ القيس بن عابس الكندى . انظر اللسان (دفنس) .

(٢) هو ربيعة بن الجحدر الهذلى . اللسان (محج) وشرح أشعار الهذليين للسكرى ٢٨٥ .

(٣) عجزه : * يمج بها عرق من الجوف قالس *

(٤) شاعر مخضرم ، ترجم له فى الشعر والشعراء ٢٧٩ والأغانى ١٩ : ٩٠ — ٩٣ والإصابة . وفى المبهج : « الربيعة : بيضة الحديد ، والربيعة أيضا : الحجر الذى يرتبع ، أى يشال : وأما مقروم فمفعول من قولك قرمت الشىء بأسنانى فهو مقروم ، أى مقطوع » .

(٥) فى الأصل : « والشراب » ، والوجه ما أثبتنا من م .

ويقال : جَدْوَلٌ مطّردٌ ، وبَلدٌ طَرّادٌ ، أي واسعٌ يطّرد فيه السّراب . وأراد بالخيل الفُرسانَ لا الأفراسَ ، ألاَ تَرى أنّه قال « يوم طِرَادِها » . والطِّرادُ من الفُرْسَانِ : حَمْلُ بعضهم على بَعْضٍ . وعلى هذا ما روى عن النبي صَلّى الله عليه وسلم ، وهو « يا خَيْلَ الله اركبي » . والمعنى حَضَرْتُهم يوم تَطَارُدِهِمْ بالرِّماح وأنا على فَرسٍ ضَخمٍ سليم الأوظفَة من العيوب . ولـ « شهدتُ » مَوْضِعَانِ : الحضورُ من قول الله تَعالى : ﴿ ولْيَشْهَدْ عذابَهُمَا طائفةٌ مِنَ المُؤْمِنِينَ ﴾ . وقوله عزّ وجلّ : ﴿ ما أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمٰوات والأرضِ ﴾ ، وحينئذ يتعدى إلى مفعول واحدٍ . والعِلمُ والتبيين ، على ذلك قول الله تعالى : ﴿ شَهِدَ اللهُ أنّه لا إلَهَ إلاّ هُوَ ﴾ ، وحينئذ يتعدّى إلى مفعولين . وقد يُقسَمُ به كما يُقْسَمُ بالعِلْمِ ، فيقال يشهدُ الله كما يقال يَعلَمُ الله . فأمّا شهادَةُ الشاهدِ فلا بدّ من القول فيها . والهَيْكَلُ أصله في البناء العظيم ، ثم وُصِفَ به الفَرَس .

٢ – فَدَعَوْا نَزَالِ فكنتُ أوّلَ نازلٍ وعَلامَ أَرْكَبُهُ إذا لم أَنْزِلِ

قوله « دَعَوا نَزَالِ » أي صاحوا : نزال نزال . ومنه قيل لتطريب النائحة في نِياحَتها : التّدَعِّي . وهذا كما قال الأعشَى :

* قالوا الطِّرَادَ فقلنا تلك عادَتُنا[١] *

وفي القرآن : ﴿ وآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العالمين ﴾ . ويجوز أن يكونوا جعلوا نَزَالِ على التوسّع هي المَدْعُوّةَ وإن كانت دُعِيَ إليها ؛ ويَشْهدُ لهذا الوجه قولُهم[٢] :

* دُعِيَتْ نَزَالِ ولُجَّ في الذُّعْرِ[٣] *

---

(١) عجزه : * أو تنزلون فإنا معشر نزل *

(٢) كذا في النسختين .

(٣) لزهير بن أبي سلمى ، في ديوانه ٨٩ . وصدره :

* ولنعم حشو الدرع أنت إذا *

وفى القرآن : ﴿ دَعَوْا هُنالِكَ ثُبورًا . لاَ تَدْعُوا اليومَ ثُبورًا واحدًا وادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾ . ونزالِ : اسْمُ لا نْزِلْ ، مَبنِىٌّ على الكسر ، معرفَةٌ مؤنّث معدول . والدلالة على تأنيثه قول زهير :

* دُعِيَتْ نَزَالِ ولُجَّ فى الذُّعرِ *

والمعنى تنادَوْا وقالوا نَزَالِ فكنتُ أوّلَ النازلين . ثم قال مظهرًا لترك التحمُّد بذلك ، وأنّه فيما فعله كمن أدّى واجبًا عليه : « وعلام أركبُهُ » . المعنى لأىِّ شىء أركب فرسى إذا لم أنزل إذا دُعِيتُ إلى النِّزال . و « ما » من « عَلاَمَ » حُذف ألِفُهُ لأنّه فى الاستفهام إذا اتّصل بحرف الجر يخفّف بالحذف[1] ، على ذلك بِمَ وَلِمَ وفيمَ وعَمّ ومِمّ ، إلا إذا اتّصل بذا فيقال بماذا ولماذا ، لأنَّه يصير ماذا كالشَّىء الواحد فلا يغيِّر « ما » ، وقوله « وعلام أركبُه إذا لم أنزِل » يجرى مجرى الالتفات ويقاربُهُ ، وفائدتهُ أنّه أسقط التحمُّد بما فعله به . وفى طريقته من جهة المعنى قولُ الآخَرَ :

ولا يَحْمَدُ القومُ الكرامُ أخاهُمُ الـ ... ـمتيدَ السِّلاحِ عنهم أن يمارِسَا

ومثل الأوّل قوله :

عَلاَمَ تقولُ الرُّمْحَ يُثْقِلُ سَاعِدِى ... إذَا أنا لم أَطْعُنْ إذا الخَيْلُ كَرَّتِ[2]

٣ — وأَلَدَّ ذِى حَنَقٍ عَلَىَّ كأنَّمَا ... تَغْلِى عَدَاوَةُ صَدْرِهِ فِى مِرْجَلِ

أَخرجَ التشبيهُ ما لا يُدْرَكُ من العداوة بالحِسّ إلى ما يُدْرَكُ من غَلَيَانِ

(١) وأحيانا لا يحذف ، وقرئ : « عما يتساءلون » . وأنشدوا لحسان :

على ما قام يشتمنى لئيم ... كخنزير تمرغ فى رماد

انظر حواشى البيان (٣ : ١٢٥) .

(٢) لعمرو بن معديكرب . الحماسية ٣٠ .

القِدْرِ ، حَتَّى تَجَلَّى ، فصارَ كالمشاهَد[١] . والألدُّ : الشديد الخصومة . كأنَّه لدَّ بالخصومة ، أى أُوجِرَ فَلُدَّ به . ولذلك كان اللَّدَدُ مصدر ألَدّ . ويقال فى معناه ألَنْدَدٌ[٢] . والحَنَقُ : شِدَّةُ الغَيظ ، يقال أحْنَقَهُ فَحَنِق ، يقول رُبَّ خَصْمٍ شديد الخصومة ذى غيظٍ وغضبٍ علىّ تغلى عداوته لى فى صدره غليانَ المِرجل بما فيه إذا كان على النار ، أنا دفعتُه عن نفسى . وجواب رُبّ هو صدر البيت الثانى . والحَنِقُ يجوز أن يكون من اللُّزُوق ، كأنّ الحِقد لزِق بصدره ، ومنه يقال أحْنَقْتُ الدابّةَ ، إذا ضَمَّرتَه .

٤ – أَرْجَيْتُهُ عَنِّى فَأَبْصَرَ قَصْدَهُ وَكَوَيتُه فوق النواظِر من عَلِ[٣]

ذكر بعض المتأخرين فى أرجَيْتُهُ ، أن الرِّواية الصحيحة « أوْجَيْتُهُ » وما عداه تصحيف . قال . وهو أفعلته من الوَجَى ، وإنما أوجب ذلك ليكون لِفْق قوله بزُعْمِهِ : « وَكَوَيْتُه » . والمعنى أذْلَلْتُهُ وردَدْتُه رازِحًا كرُزُوح الفَرَس الوَجِى . ثم أنشد قول طَرَفَةَ مُؤَنِّسًا به :

وقَوْمٍ تَنَاهَوْا عن أَذَاتِىَ بعدما أصاب الوجَى منهم مُشَاشَ السَّنابِكِ[٤]

قال الشَّيخ : ولقد قضيتُ العَجَبَ من هذا المُسْتَدْرِكِ ، ومن ضَلالِهِ عن طريق الرَّشادِ فيما قَصَدَهُ من المعنى ، ورواه فى الاستشهاد ، وذلك أنّ شعر طَرَفَةَ إنما هو :

---

(١) هذا ما فى م . وفى الأصل : « كالمشاهدة » .

(٢) ويقال يلندد أيضا .

(٣) ابن جنى : « أكثر من ترى يروى هذا البيت أرجيته بالراء ، فإذا تعالى شيئا رواه أوجأته ، وكلاهما تصحيف ، وإنما هو أوجيته بالواو ، أى ذللته وقهرته . كذلك رويناه وكذلك وجدته أيضاً فى شعر القبيلة » .

(٤) ديوان طرفة ٥٦ بهذه الرواية عينها فى نهاية القصيدة . قال صانع ديوانه : « ولم يرو الشنتمرى هذا البيت » .

ومازَالَ شُرْبِي الرَّاحَ حَتَّى أشَرَّنى صَدِيقى وحتَّى ساءنى بعضُ ذَلِكِ(١)
وحتَّى يقولَ الأقربُونَ نَصَاحَـةً دَعِ الغيَّ واصرِم حَبْلَهُ من حِبالكِ(٢)
وحتَّى تناهَوْا عن أذاتِيَ بعد ما أصاب الوَجَى منهم مُشَاشَ السَّنابكِ

فقوله : « حتى تناهَوْا » ليس مما فَسَّره واستشهد له بسبيلٍ ، إنما يُرِيدُ طرَفة أنّ أبْعَدَ غايته فى الخسارة ، وتمادَى فى تعاطى الصِّبا والجَهالة ، فلم يُصِخْ لناصحٍ ، ولم يَرْعَوِ لعاذلٍ ، حتَّى نفَضُوا أيديهم من إنابَتِه ، ويَئسوا من قَبُولِه وإعتابه ، فألقَوا حَبْلَهُ على غَارِبِهِ : وصاروا من بين ناسبٍ له إلى الشَّرّ ، ومسىء إليه فى القولِ ، وقاذفٍ إيَّاهُ بالغَىّ ، فأفْضَتْ بهم الحال إلى أنْ تناهَوْا بعدأن بَلَغ منهم العناء كلَّ مبلغ ، وأثّر فيهم الإعياء والإحْفَاء أشَدَّ تأثير . ألا تَرَى أنه جَعَلَ الوَجَى فى المُشَاشِ من السَّنابِكِ منهم . فهذا ما عليه فى الرواية ، والذَّهابِ عن طريقة الشاعر . وبَعْدُ فإنَّهُ لا يقال أوجَيْتُ الدَّابةَ عنِّى ويُراد الإحفاء ، ولم يُسْمَع فى التَّذليل ذِكر الحَفَى والوَجَى مُسْتَعارًا كما سُمِعَ السكُّ والوَسْمُ فيه . وبُعْد الغَوْصِ(٣) لا يُدْرَى على ماذا يَهْجمُ بصاحِبه . والرواية الصحيحة « أرْجَأْتُهُ » و « أَرْجَيْتُه » وهما لُغَتان ، والهَمْزُ أفْصَحُ . قد قُرِئ : ﴿ تُرْجِئُ من تشاء مِنْهُنَّ ﴾ و ﴿ تُرجِى ﴾ . ويُروى : « أوحَيْتُه » ، ويروى : « أزجيتُه » والمعانى تتقاربُ(٤) فى الكل . يقول : رُبَّ خَصْمٍ هكذا أنا وحَّيْتُه(٥) عن نفسى وصرفتُه ، وقد أبْصرَ رُشدَهُ ، وعرَف مقدارَ نفسِه ، فعاد إليه بعد أن كان يشتطُّ فيما له ، ويتغابَى عما عليه . والقَصْدُ : ما لا سَرَفَ فيه ، ولذلك قيل اقتَصِدْ فى

(١) ديوان طرفة ٥٥ واللسان (شرر) مع تحريف . أشره : نسبه إلى الشر .
(٢) الديوان : « ذر الجهل واصرم حبلها »
(٣) م : « الغرض » .
(٤) م : « والمعنى يتقارب » .
(٥) وحاه توحية : عجله .

كذا. وطريقٌ قاصِدٌ، إذا كان على حَدِّ الاستواء. ومن كلامهم: ضَلَّ عن قَصْد الطريق، كما قيل: ضَلَّ عن سواء السَّبيل. قال الراجز[1]:

إنّى إذا حارَ الجبانُ الْهُدَرَهْ[2] ... رَكِبْتُ من قصد الطريقِ مَنْجَرَهْ[3]

وقوله: «وكويّتُه فوق النّواظر»، يشبهه قول الآخر[4]:

ولَوْ غَيْرُ أخْوَالِي أرادُوا نقيصتى ... جَعَلْتُ لَهُمْ فوق العَرانينِ مِيسَمَا

أى كَوَيْتُهُ مِنْ عَلِ فوق نَاظِرِهِ، أى وَسَمْتُهُ بِسَمةٍ من الذّلّ اشتهر بها، ولم يمكنْه إخفاؤها. ويقال لمن يتوعَّد بالإذلال والتّشويه: لأَسِمَنَّك وَسْمًا لا يفارِقُكَ. ولذلك قال جرير:

لمّا وَضَعْتُ على الفرزدق مِيسَمِى ... وضَغَا البَعيثُ جَدَعْتُ أنفَ الأخطلِ

وكما يجعلون هذه السِّمة فى الجبين يجعلونها فى الأنف، ولذلك قال الأعشى:

* أَنْفَ مَنْ أَنْتَ وَاسِمُ[5] *

وفى القرآن: ﴿سَنَسِمُهُ على الْخُرْطُوم﴾. فإن قيل: لم أتى بقوله من عَلِ، وقد قال فَوْقَ النواظر ويُعْلَم منه أنَّهُ أعلى؟ قيل: إنّ التقدير كَوَيْتُه من علٍ فوقَ النواظر، أى من أعْلاه فوق ناظره، وفيه التّقديم والتأخير، ولو سكت عَلَى من عَلِ لكان يجوز أن يكون فوق النّواظر ودون النّواظر، لكنه بيّن أنّ قَصْدَهُ إلى الجبين بِميسمه. والمعنى شَهَرْتُه بإذلالى، ووَسَمْتُه بكيٍّ حيثُ يظهر للناظرين ولا يخفى. وانتصاب «فوقَ» يجوز أن يكون على البَدَلِ من الضمير فى كويتُه،

(١) هو الحصين بن بكير الربعى. اللسان (هدر).
(٢) الهدرة كهمزة: الساقط. ويروى: «الهذرة» بالذال المعجمة، وهو بالمهملة أجود
(٣) المنجر: الطريق المستقيم. اللسان (هدر، نجر). م: «منجره».
(٤) هو المتلمس. ديوانه نسخة الشنقيطى.
(٥) قطعة من بيت له يرو كاملا فى ديوانه ٥٧، بل روى على هذه الصورة الناقصة :
. . . . . . يغنيك واحمد لغيرها ... بشعرك واعلب أنف من أنت واسم

لأن « فَوْقَ » من الظُّروفِ المتمكنة . ويجوز أن تجعلَه ظرفاً تُرِيدُ كَوْنَتُه فى هذا المكان مما علا مِنْهُ . وإنما لم يَبْنِ من علٍ لأنّه جَعَلَهُ نكرةً ، كما تقُولُ أَتَيْته قَبْلاً أى أوّلا ، وأَنْتَ لا تَقْصِدُ إلى أنّه مُضَافٌ إلى مَعرِفَةٍ مخصوصةٍ ، فاعلمه . ومنه[1] :

* كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْل من عَلِ[2]

فالكسرة فى الموضعين كسرة إعراب ، وإن شئت جعلته معتلّ الآخِرِ لا مَنْقُوصاً كشَجٍ وقَاضٍ ، وجعلتَهُ فى النّيَّةِ مُضَافاً ، فيكون مَعْرِفَةً وتنوى ضَمّة البناء فى موضع لامه ، كما تنويها فى الياء من قَاضٍ وغازٍ إذا ناديت بهما واحدًا بعينه . وفى عَلٍ لُغَاتٌ كثيرةٌ ، وله نَحْوٌ فى البناء والإعراب لَيْسَ لأخواته من الغايات ، وليس هذا موضعَ شرحه .

١٠

وقال سَعْدُ بن نَاشِبِ بن مَازِنِ بن عَمْرو بن تميم[3] :

١ — سَأَغْسِلُ عَنّى العارَ بالسَّيْفِ جَالِبا   عَلَىَّ قضاءَ اللهِ ما كان جَالِبَا

القضاء ، أصله الحَتْمُ والإيجاب ، ثم يستعمل فى إكمال الصُّنْع والفَرَاغ من الشىء . ولهذا قيل قُضِىَ قضاؤُك ، أى فُرِغَ من أَمْرِكَ . وفى القرآن : ﴿ فقضاهُنّ سَبْعَ سَمَواتٍ ﴾ . ويروى : « قضاءَ اللهِ » بالرفع والنصب ، فإذا رفعتَه فإنه يكون

(١) م : « ومثله » . والبيت التالى لامرئ القيس فى معلقته .

(٢) صدره : * مكر مفر مقبل مدبر معا *

(٣) شاعر إسلامى ، كان من شياطين العرب ، وهو صاحب يوم الوقيط فى الإسلام بين تميم وبكر بن وائل . الشعر والشعراء ٦٧٧ والخزانة (٣ : ٤٤٤ — ٤٤٦) واللآلى ٧٩٢ — ٧٩٤ . وفى شرح التبريزى : أنه كان أصاب دما فهدم بلال داره . واشتقاق « ناشب » من قولهم رجل ناشب ، أى ذو نشب .

فاعلا لِجَالِباً عَلَيَّ ، وما كان جَالِباً في موضع مَفْعولِهِ[١] ، ويكون القضاء بمعنى الحكم . والتقدير : سأغسل العارَ عن نفسي باستعمال السَّيف في الأَعْدَاء ، في حال جَلْبِ حكمِ الله عليَّ الشيء الذي يجلبه . وإذا نَصَبَ القضاء فإنه يكون مفعولاً لِجَالِباً وفاعِلُهُ ما كان جَالِباً ، ويكون القضاء الموت المحتوم والقَدَر المقدور ، كما يقالُ للمَصِيدِ الصَّيْدُ ، وللمَخلُوق الخَلقُ . والمعنَى جَالِباً المَوْتَ عَلَيَّ جالِبُهُ . وذَكَرَ بعضُهم أنَّ « كان » من قوله ما كان جَالِباً في مَعنى صار . قال : ومثله :

بِتَيْهَاءَ قَفْرٍ والمَطِيُّ كأَنَّهُ ... قَطَا الحَزْنِ قد كانت فِرَاخًا بيوضُها[٢]

لأن المعنى قد صارت .

٣ ــ وَأَذْهَلُ عَنْ دَارِي وأَجعَلُ هَدْمَها ... لِعِرْضِيَ مِنْ باقِي المَذَمَّةِ حَاجِبَا[٣]

الذُّهول : تَرْكُ الشَّيء متناسيًا له ومتسلِّيًا عنه ، ومنه اشتقاق ذُهْلٍ . يقول : إذا ضاق المنزلُ بي حتى يصيرَ دارَ الهوان انتقلت عنه ، وأجْعَلُ خَرَابَهُ وقاية للنَّفس[٤] من العار الباقي ، والذَّمِّ اللاحق . وهذا قَرِيبٌ من قوله :

* وإذا نَبَا بِكَ مَنْزِلٌ فتحوَّلِ[٥] *

وهو ضدّ المعنى الذي يقصِدونه بالثَّبات فيه والصَّبر عليه ، من الإقامة في دار الحفاظ والافتخار به ، لأنّ الانتقال ثَمَّ هو الجالب للعار ، كما أن الأقامة هنا هو الجالب . فمن ذلك قوله :

(١) م : « مفعولة » .
(٢) البيت لابن أحمر في اللسان (كون) . ونسبه ابن يعيش في شرح المفصل إلى ابن كنزة . ويروى : « كأنها » .
(٣) انظر الإشارة إلى هدم بيته في ترجمته السالفة .
(٤) م : « لنفسي » .
(٥) لعبد قيس بن خفاف التميمي ، كما في حماسة البحتري ١٧٩ . وصدره :
* احذر محل السوء لا تحلل به *

وتُقيمُ فى دارِ الحِفَاظ بُيُوتَنَا زَمنًا ويَظعَنُ غَيْرُنا لِلأَمْرُعِ[1]

ومنه قوله :

يُقال مَحْبِسُهَا أَدْنَى لِمَرْتَعِها وإنْ تَعادَى بِبَكْءٍ كُلُّ مَحلُوبِ[2]

وفى ضِدِّه قولُهُ :

دَارُ الْهَوَانِ لِمَنْ رآها دارَهُ أَفَراحِلٌ عنها كمَن لم يَرحَلِ

وقول الآخر :

ولَسْنَا بِمُحتَلِّينَ دَارَ هَضِيمَةٍ مَخَافَةَ مَوْتٍ إن بِنا نَبتِ الدَّارُ

وانتصبَ « حاجبا » على أنه مفعولٌ ثانٍ لأَجْعَلُ ، لأنه بمعنى أُصَيِّرُ . والتقدير : أجعل هَدْمَهَا حاجِبًا لِعِرْضِى ، ومانِعاً من باقى الذّمّ . ولـ « جعلت » غيرَ هذا مواضعُ ، يكون بمعنى خَلَقْتُ وأنشأت فيتعدّى إلى مفعولٍ واحد ، كقول الله تعالى : ﴿ وجَعَلَ الظُّلماتِ والنُّورَ ﴾ ؛ ويكون بمعنى سَمَّيْتُ ، كقوله تعالى : ﴿ وجَعَلُوا الملائـكةَ الذينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمٰنِ إِنَاثًا ﴾ ؛ ويكون بمعنى ظَنَنْتُ ، تَقُولُ : جَعلتُه عَبْدًا وشَتَمْتُهُ ، أى ظَنَنْتُه ؛ ويكون بمعنى طَفِقَ فلا يتعدّى . تقول : جَعَلَ يُـكَلِّمُهُ ، أى أَقْبَلَ . وعلى هذا قوله :

جَعَلْتُ وما بِى مِنْ جَفاء ولا قِلًى[3] أزورُكُمُ يَوْمًا وأَهْجُرُكم شَهْرًا

٣— ويَصغُرُ فى عَيْنِى تِلادِى إذا انْثَنَتْ يَمِينِى بِإدْرَاكِ الذى كُنت طَالِبَا

أراد بقوله « يصغُر » صِغَر القدر وخفّته وتَزارَتَهُ فى الهمِّ والفِـكرِ .

(١) للحادرة الذبيانى فى المفضليات (١ : ٤٣) . و « للأمرع » ضبطت فى الأصل بضم الراء وفى م بفتحها ، وهما روايتان .

(٢) لسلامة بن جندل فى المفضليات (١ : ١٢٢) .

(٣) فى الأصل : « عن جفاء » ، والوجه ما أثبتنا من م .

وخصّ « التلاد » وهو المَالُ القديم ، لأنّ النفس بمثله أضَنُّ ، وبه أنْفَس ، وله أضْبَطُ . نبّه بهذا الكلام على أنّه يَخِفُّ على قَلْبِه تَرْكُ الدار والوَطن خوفاً من الذّام العار ، كذلك يقلُّ في عينه إنفاق المالِ عند انصراف اليدِ حائزةً للمطلوب ، جامعةً له . وجوابُ « إذا » قُدِّم عليه وهو قوله « يَصْغُرُ » ، فأمّا قوله « كنت طالباً » ، فقد حُذِف منه الضمير العائد إلى الذى ، والتقدير كنت طَالبَهُ .

٤ — فإنْ تَهدِموا بالغَدْرِ دارِي فإنّها تُراثُ كَرِيمٍ لا يُبَالِي الْعَوَاقِبَا

الهَدْمُ : القَلْعُ والتخريبُ ، ويسمَّى المهدوم هَدَمًا . قال :

* كأنَّهُ هَدَمَ في الجَفْرِ مُنْقَاضُ[١] *

وتوسعوا فيه فقيل للثوب الخَلَقِ هِدْمٌ ، وجمعه أهدَامٌ . وقيل عَجُوزٌ متهدّمةٌ أى هَرِمَةٌ فانِيَة . وتهدَّمَ عليه من الغَضَب ، كما يقال تهجَّمَ . والغَدْرُ : تَرْكُ الوفاء ، ومنه غادرتُهُ ، والغدير . وكأنَّ هذا الرجل كان أخلّ بداره لنائبةٍ نابتَهُ[٢] فصار يخاطِبُ أعداءهُ ويريهم قِلّةَ فِكْرِه فيما تجرى عليه أحواله من جهتهم ، وفيما تُفْضِي عواقبُ أمرِه إليه معهم ، فيقول : إنْ تخرِّبوا داري غدْرًا منكم فإنّها ميراث رَجُلٍ هكذا ، ويعنى بهِ نَفْسَهُ ، وسَمّى مِلْكَهُ ميراثاً وهو حَيٌّ ، والمعني أنّه سيُورَثُ ، وهذا تسمية الشَّيء المتنقّل في أيدى مُلاكه والمتصرّفين فيه على التشبيه : ميراثاً ، وإن لم يتنقَّل بالأسباب والأنساب . على ذلك قول الله عزّ وجل : ﴿ ولله ميراثُ السّموات والأرض ﴾ ، وقولُه : ﴿ وأورثَكُم أرْضَهُم وديارَهُمْ وأموالَهُمْ ﴾ . وتُراث ، أصله وُرَاثٌ ، والتاء فيه كالتاء في تُكَأةٍ وتُخَمَةٍ . وقوله : « تُرَاثُ كريمٍ » أراد بالكَرَمِ التنزُّهَ عن

(١) في الأصل : « منفاض » ، صوابه في م واللسان (هدم) . وصدره :

* تمضى إذا زجرت عن سوأة قدما *

(٢) انظر ما سبق في ترجمته من هدم بلال داره .

الأقذار ، والتَّباعُدَ مِن جوالِبِ العار . على ذلك قول الله تعالى : ﴿ وإذَا مَرُّوا باللَّغو مَرُّوا كِرَامًا ﴾ . وقوله : « لايبالى العواقبا » يقال : ما بَالَيْتُه بَالَةً وبالِيَةً ومبالاةً وبِلاء ، وما باليت به . وكأنه أُخِذَ من البَلاءِ ، واستعمل فى المفاخَرَةِ وتَعدَادِ الخِصال الحَسَنَةِ عند المُنافَرَةِ ، ثم كَثُر استعماله حتَّى صار يُقَالُ فى الاستهانة بالشَّىء . ويشهد لهذا الذى قلناه قولُ الآخر :

مَالِى أَرَاكَ قائمًا تُبَالِى وأنتَ قد مِتَّ من الهُزَالِ[1]

أى تفاخر .

٥ — أخِى عَزَماتٍ لا يُرِيدُ عَلَى الَّذى يَهُمُّ به من مَقْطَعِ الأمْرِ صَاحِبَا

يقال : ما له عَزْمٌ وما له عَزِيمَةٌ ، أى تَثَبُّتٌ وصبرٌ فيما يعزِم عليه . وحقيقة العزْم : توطين النَّفس وعَقْدُ القلب على ما يُرَى فِعْلُه ، ولذلك لم يَجُزْ على الله عزّ وجلّ . والاعتزامُ : لزوم القَصْدِ وتركُ الانثناء ، ولذلك قيل اعتَزَمَ الفرسُ على الجرى . يصف نفسَه بأنّه صاحب همٍ وأخو عَزَمَاتٍ ، مستبِدٌّ برأيه فيها غيرُ متّخِذٍ رفيقًا ، ولا مستنصرٍ أخًا وصديقًا . و « مَقْطَعُ الأمْرِ » أراد فَصْلَه والخروج منه . ويُرْوَى : « أخِى غَمَرَاتٍ » وهى الشدائد . ويُروى : « من مُفْظِعِ الأمرِ » وهو من فَظُعَ الأمْرُ وأَفْظَعَ ، فَظَاعَةً وإفْظَاعًا ، وهو فَظِيعٌ ومُفْظِعٌ . أو من أَفْظَعَنِى الأمْرُ فَفَظِعْتُ به ، أى أعيانى فضِقْتُ به ذرعا . وقوله : « صاحِبا » صِفَةٌ فى الأصل استُعْمِلَتْ استعمالَ الأسماء ، فلم يَجْرِ مَجْرَى أسماء الفاعلين ، ويَجرى على طَرِيقتِه قولُهم والِدٌ .

٦ — إذَا هَمَّ لم تُرْدَعْ عَزِيمَةُ هَمِّهِ ولَم يَأْتِ ما يأْتى من الأَمْرِ هَائِبَا

الهَمُّ : ما تُجِيلُ لفِعله وإيقاعه فِكرَكَ . والهِمَّةُ : اسم الحالة التى تكون

(١) أنشد الرجز فى اللسان (بلا) .

عليها فى ذلك . ويقال فى المَثَلِ لمن يُعَيَّر(١) بطول الأَمَل : « تَهُمُّ ويُهَمُّ بك » ، ومنه المُهِمَّات ، وهذا يخبر عن نفسه بأنه يتبع الرأى الأوّل . وهذا طريقةُ الفُتَّاكِ لأنّ الرجوع عن الرَّأْى إلى غيره طريقةُ من يتدبَّرُ العواقب فيترك(٢) الشَّىء إلى الشىء لما يرجُوهُ من حُسْنِ المآب . فقال : إذا هَمَّ هذا الرجل بشىء أنفذَ عزيمَتَهُ ولم يَرْدَعْهَا ، ولم يَفعل ما يفعله خائفاً . ومثله قول الآخر :

جَسُورٌ لا يُرَوَّعُ عِنْدَ هَمٍّ ولاَ يَثْنِى عزيمَتَه اتقّاء

ويقال : رَدَعْتُه فَارْتَدَعَ ، أى كَفَفْتُه ورددته رَدْعًا . ومنه الرُّدَاع فى العِلَّةِ وهو النُّكْسُ ، يقالُ رُدِعَ رَدْعًا ورُدَاعًا . والهَيْبَةُ تكون من الذُّعْرِ ومن الإجلالِ جميعاً ، ويقال للجبان هَيُوبُ وهَيُوبَةٌ ، والهاء للمبالغة ، وللمحتشَم مَهِيبٌ . وفى الحديث : « الإيمانُ هَيُوبٌ » . ويقال : تهيَّبْتُ الشىء وتهيَّبَنى بمعنًى ، لَمَّا كان لا يَلتَبِس ، ومثله من المقلوب كثير .

٧ ــ فَيالَ رِزَامٍ رَشِّحُوا بى مُقدِّمًا إلى المَوْتِ خَوَّاضاً إليه الكتائبا(٣)

ويروى : « الكرائبا » . الفاء من قوله « فيالَ رِزَامٍ » النِّيَّةُ بها استئناف ما بعدها وإن نُسِقَ بها جملةٌ على جملة . واللام من يال رِزَام ، هو لامُ الاستغاثة ، ورِزَامٍ ينجرُّ به وهم المدعوُّون . وأصل حركة لام الإضافة إذا دَخَل على ظاهرٍ الكسر ، ولهذا إذَا عُطِف على هذه اللام بلام أخرى كُسِرَت الثانية ، تقولُ : يالَزَيدٍ لِعمرو ، ولكن هذه فُتِحَتْ لكون ما بَعْدَها مُنادًى ، ووقوعِ المنادَى على هذا الحدّ موقعَ المضمرات ، فكما قيل لك وله ، قيل يالَزَيْد . وقوله « رشِّحوا بى مقدِّما » بكسر الدال بمعنَى متقدِّما ، فهذا كما يقال وَجَّهَ بمعنى توجَّه ، ونَبَّه بمعنى تنبَّه

(١) كذا فى النسختين . وليست « يغتر » .

(٢) فى الأصل : « فينزل » ، ووجهه من م .

(٣) ابن جنى : « هذا البيت شاهد على إعمال فعال إعمال اسم الفاعل » .

ونَكَّبَ بمعنى تَنَكَّب. وعلى هذا قولهم مُقَدِّمة الجيش، ومن فتح الدال فالمعنى على أنه يُقدَّم ليقيَهُم بنفسه. «خوّاضاً إليه الكتائبا»، انتصب الكتائب على أنه مفعول خوّاضٍ. ويُروى «الكرائب» وهي الشدائد جمع كَرِيبَة، والأصل في الكَرب: الغَمّ الذى يأخذ بالنَّفَس. والتَّرشيح أصله التَّنْبيت والتَّربية، ومنه قيل رَشَّحَتِ المرأةُ ولدَها إذا درَّجتْهُ في اللَّبَنِ، ثم قيل رُشِّحَ فلانٌ لكذا، توسُّعاً. ومعنى البيت: يا بنى رِزام هَيِّئُوا بى رَجُلاً يَتقدَّم إلى الموت ولا يَحيد عنه، مقتحِما الجيوش والشدائد غير متنَكِّبٍ ولا حائد. ويروى: «رَشِّحوا بى مُقْدِماً»، وتلخيصه: رَشِّحوا بترشيحكم رجلاً هذه صفتُه، فأقام الصِّفةَ مقام الموصوف.

٨ — إذَا هَمَّ أَلْقَى بيْنَ عَيْنَيْهِ عَزْمَهُ ... ونَكَّبَ عَنْ ذِكْرِ العواقِبِ جَانِبَا[١]

قوله: «ألقى بين عينيه عزمَه»، أى جعله بمرأًى منه لا يغفُل عنه، وقد طابق فى المعنى لَمّا قَابَل قولَهُ ألقَى بين عينيه عزمَهُ، بقوله: نَكَّبَ عن ذكر العواقب جانبا. ومثْله قول الآخَر:

* ولا ناظِرٌ عند الوَغَى فى العواقِبِ *

وانتصب «جانباً» على أنه ظَرْفٌ. وَنَكّب يكون بمعنى تنكَّب. والمعنى أنَّه إذا هَمَّ بالشىء جَعَلَهُ نَصْبَ عينيه[٢] إلى أن ينفُذ فيه ويخرج منه، ويصير فى جانبٍ من الفكرِ فى العواقب. ويجوز أن ينتصبَ جانباً على المفعول، ويكونُ نَكّب بمعنى حَرَّف. والمراد انحرفَ عن ذكر العواقب وطَوَى كَشْحَهُ دُونَهُ. وسمَّى المعزوم عليه عَزْمًا على عادة العرب فى وصف الفاعل والمفعول بالمصادِر.

(١) مثله ما أنشده له البكرى فى اللآلى ٧٩٣:

إذا هم ألقى بين عينيه عزمه ... وضم تصميم السريجى ذى الأثر

(٢) كذا ورد فى النسختين، بفتح النون، وهو من أخطائهم، والصواب ضم النون. وفى اللسان: «القتيبى: جعلته نصب عينى بالضم، ولا تقل نصب عينى»، يعنى بالفتح.

٩ – ولم يَسْتَشِر فى أَمْرِهِ غَيْرَ نَفسِهِ ولم يَرْضَ إلاَّ قائمَ السَّيْفِ صَاحِبَا

مِثلُ المِصراع الأول قول ابنِ هَرْمَةَ :

* ولاَ يَنْتَجِى الأَدْنَيْنِ فيما يُحَاوِلُ *

ويقارب الثانى قول الآخر :

* فَفِى السيفِ مَوْلًى نَصْرُهُ لا يُحَارِدُ *

والشاعر يصف استبدادَه وتفرّدَه عند ما يَدْهَمُه بما يأتيه[١] فِعْلاً ورَأْياً . وإنّما نَبَّهَ على الرأى بقوله : « لم يَسْتَشِرْ » ، وعلى الفعل بقوله : « ولم يَرْضَ إلا قائمَ السّيف صاحبا » . وانتصبَ قائم على أنّه استثناء مقدَّم . ألا تَرَى أن الأصل ولم يَرْضَ صَاحباً إلا قائم السيف . ولو أتى على هذا لـكانَ الوجْهُ أن يكون بَدَلاً ، فقدَّم المستثنى كما ترى .

١١

وقال تَأَبَّطَ شَرًّا[٢] :

١ – إذا المرءُ لم يَحْتَلْ وقد جَدَّ جِدُّه أَضَاعَ وقَاسَى أَمْرَهُ وَهْوَ مُدْبِرُ

قولُه « لم يَحْتَلْ » ذهب بعضُهم إلى أن الحيلة مأخوذة من قولهم حَالَ الشىء ، أى انقلبَ عن جهتِهِ[٣] ، كأنّ صَاحبَها يريد أن يستنبط ما يَحُولُ[٤] عند غيره

(١) هذا ما فى م . وفى الأصل : « وما يأتيه » .

(٢) هو ثابت بن جابر بن سفيان الفهمى ، وسمى تأبط شراً لأنه تأبط سيفا وخرج فقيل لأمه : أين هو ؟ فقالت : تأبط شراً وخرج ، وهذا أشهر ما قيل فى سبب تلقيبه . وكان أحد لصوص العرب المغيرين ؛ قرينا الشنفرى وعمرو بن براق . الشعراء ٢٧١ وشرح الأنبارى للمفضليات ١ – ٢ ، ١٩٥ – ١٩٦ والأغانى ١٨ : ٢٠٩ – ٢١٨ والاشتقاق ١٦٢ – ١٦٣ – والخزانة ١ : ٦٦ – ٦٧ واللآلى ١٥٨ – ١٥٩ .

(٣) م : « عن وجهة » . (٤) يحول بالحاء كما فى النسختين ، ولعلها « يجول » .

ولذلك قيل : فُلانٌ حُوَّلٌ قُلَّبٌ . وقولُه « جَدَّ جِدُّهُ » أى ازداد جِدُّه جِدًّا . ويكونُ مثلَ قولِه :

* حتى أُستَدقَّ نُحولُها *

المعنى ازداد دَقيقُها دِقَّةً ، ويجوز أن يكونَ المعنى صار غَيْرُ الجِدِّ جِدًّا بمآله[1] ، وهذا كما يُقال رِيعَ رَوْعُهُ ، وخَرجتْ خوارجُه ، وجُنَّ جُنونُه ، وقال الهُذَلِى :

* يُدْعَوْنَ حُمْسًا ولم يَرْتَعْ لَهُمْ فَزَعُ *

وإنما هو ريع أَمْنُهُ ، وخرجت دَوَاخِلُه ، ولم يَرْتَعْ لهم أَمْنٌ . فَسَمَّى الشىء بما آل إليه . وقولُه « أَضاعَ » يجوز أن يكون معناه وَجَد أمرَه ضائعاً ، ويجوز أن يكون بمعنى ضَيَّع . ويقال : ضاع الشىء ضَيْعةً وضَياعاً ، وتَرَكهم بضَيْعَةٍ ومَضِيعةٍ . وإذا أَخَذ الرجُلُ فيما لا يَعْنيه ، قيل : فَشَتْ عليه الضَّيْعة . ويقاربه قولهم :

* اتَّسَع الخَرْقُ على الرَّاقع[2] *

وقوله : « وهو مُدْبِرُ » يجوز أن يكون الضميرُ للأَمْر ، والمعنى قاسَى أمرَه ، أى شَقِىَ به وهو مُوَلٍّ فائتٌ . ويجوز أن يكون الضميرُ للمرء ، والمعنى عالَجَ أمرَه وكابَدَه مُدْبِراً فيه غيرَ مُقْبِلٍ ولا مَنْصورٍ ، ومعنى البيت إذا الرجُل لم يَطلُب رشده ولم يُنْفِذ الحيلةَ فى إصلاح أمرِه ، فى الوقت الذى يجب أن يَفعَلَه ،

(١) م : « بما آل إليه »

(٢) عجز بيت لشقران السلامى فى المجتنى لابن دريد ٧٨ ، أو لابن حسام الأزدى فى المؤتلف ٩٢ . وصدره :

* كنا نداريها فقد مزقت *

ونحوه قول أبى عامر جد العباس بن مرداس ، فى العينى (٢ : ٣٥١) :

لا نسب اليوم ولا خلة اتسع الخرق على الراتق

وقد صار الأمر جِدًّا لا شُبْهَةَ فيه ، عالَجَه وهو هكذا ، أو عالجه والأمر هكذا . ومثله :

ولكنَّ مَن لا يَلق أمراً يَنوُبه بِعُدَّتِه يَنزِلْ به وهو أعزَلُ

٢ـ ولكنْ أخُو الحَزْمِ الذى ليسَ نازِلاً به الخطْبُ إلاَّ وهْوَ لِلْقَصْدِ مُبْصِرُ

السائرُ عنهم فى مَثَلٍ قولُهم : « رَوِّئْ تحزُمْ ، فإذا روَّأْتَ فاعزِمْ » ، فيقول : صاحبُ الحزْم هو الذى يَستعدُّ للأمر قبل نزوله ، ويدبِّره قبل فوْتِه ، حتى إذا نزَل به يكونُ عارفًا بالقصة فيه ، سالكا للوجْهِ الذى يفصِلُهُ منه . وهذا كما قيل فى المَثَل : « قبْلَ الرِّماءِ تُمْلأُ الكنائنُ[1] » . والحزْمُ فى اللغة : الشَّدُّ والضبط ، ومنه الحِزَام ، والحَزْمة ، والحَيْزومُ ، والمَحْزِم : والخَطْب : الأمر المطلوب ، ويقال : خطَبْتُ الأمر فأَخطَبَ ، كما تقول طَلَبْتُه فأَطْلَبَ .

٣ـ فذاكَ قَرِيعُ الدّهرِ ماعاشَ حُوَّلٌ إذا سُدَّ منه مَنْخِرٌ جاشَ مَنْخِرُ

« ذاك » أشار به إلى أخى الحَزْم . و « قريعُ الدَّهْرِ » يحتمل وجهين : يجوز أن يكون فى معنى مختار الدهر ، ويكون من قَرَعْتُ الشيءَ أى اخترْتُه وخَصَصْتُه بقُرعَتى ، ويقال هو قَرِيعُهم وقريعتُهم وقِرِّيعهم بمعنًى واحد . ويجوز أن يكون بمعنى مَن قرَعَهُ الدهر بنوائبه حتى جرَّب وتبصَّر . ويكون قريع فى الوجهين فَعيلاً فى معنى مفعول . ولا يمتنع أن يكون المراد بقريع الدهر فَحْلَ الدهر ، ويكون فى هذا الوجه قريع فى معنى فاعل ، لأنه يَقرَعُ الناقة أى يضربها . وما تقدَّم أحسن . وقوله « ما عاشَ » فى موضع الظَّرْف ، والمعنى مُدَّةَ عيْشِه . وقولُه « إذا سُدَّ منه مَنْخِرٌ » مَثَلٌ للمَكروبِ المُضيَّقِ عليه ، وهذا كما استُعمل

---

(١) الكنائن : جمع كنانة ، وهى جعبة السهام .

فيه الخَنْقُ والخِنَاق . وأصل المنخر فى الأنف من النخير ؛ ويسمى النُّخْرة أيضاً . والجميع النُّخَر . والنخير : مدّ النَّفَس ، ومنه نَخِيرُ الحمار . وقيل نُخْرَتا الأنفِ : حَرْفاهُ . وجاشَتِ القِدْرُ : غَلَتْ . وجاشَ البحرُ : اهتاجَ ، وأصلُهُ التحرُّك فى الموضعين والاضطراب ؛ ومنه الجيش واحدُ الجيوش . والمعنى : لافتنانه فى الحِيَل لا يؤخَذُ عليه طريقٌ إلاّ نَفَذَ فى آخَرَ . و « الحُوَّل » : الكثير التحوُّل فى الأمورِ . ويقال هو قُلَّبٌ وحُوَّلٌ ، وفى معناه رَجُلٌ حَوِلٌ وحَوَالِيٌّ . قال ابن أحمر[1] :

أو يُنْسِئَن يَوْمِى إلى غَيْرِهِ أنّى حَوَالِيٌّ وأنّى حَذِرْ

ويقال : هو ذو حَوْلٍ وحَوِيل ، وفى المثل : « لو كان ذا حيلة تحوّل » . فأمّا قولهم : هو ذو مَحْلَةٍ[2] ، فهو فى معنى مَحَالَةٍ ، ولَيْسَ من بنائِهِ ، لأن الميم فى مَحْلَة أصلية ، وفى مَحَالَةٍ زائدة .

٤ ـ أَقُولُ لِلِحْيَانٍ وقَدْ صَفِرَتْ لَهُمْ وِطَابِى ويَوْمِى ضَيِّقُ الحَجْرِ مُعْوِرُ[3]

من كلامهم : « نعوذ بالله من صَفَرِ الإناء ، وقَرَعِ الفِناء » . وهذه الاستعارة من شُمول القَحْط وهَلاَكِ المال . ولِحيان : بَطْنٌ من هُذَيْل كان تَأَبَّطَ شرًّا راغَمَهُمْ وَتَرَهُم ، فكانوا يطلبون غَفلتَهُ ، حتى اتفَّق منه الصُّعودُ إلى الجبل الذى وصفَه ليشتار العسل ، ولم يكن له إلا طريقٌ واحد ، فجاءوا وأخذوا عليه ذلك الطّريق ، فقال : أقول لهم ، يعنى عند مخاطبتهِ إيّاهم وهو على الجبل . وقوله

(١) فى اللسان (حول) : « ويقال للمرار بن منقذ العدوى » . وروايته عند التبريزى : « أو ينسأن » .

(٢) ضبط فى م بضم الميم .

(٣) الحجر ، كذا وردت فى النسختين بتقديم الحاء وفتحها وهو الناحية . وتفسير المرزوقى يحتم هذه الرواية عنده . وفى مطبوعات الحماسة : « الجحر » بتقديم الجيم المضمومة . وفى شرح التبريزى : « وذلك أن الحشرة إذا لجأت إلى جحر ضيق لا منفذ له وصل إليها الطالب » . فتفسيره يعين روايته كذلك .

« وقد صَفِرتْ لهم وِطابى » يحتمل وجوهًا : يجوز أن يكون المعنى وقد خلا قلبى من ودِّهم . وبعضهم يستضعف هذا ويقول : ومتى كان يَودُّهم ؟ وهذا اللفظ كيف يفيد هذا المعنى . ويمكن أن يُقال فى ذلك إنَّما أراد وِطابَ ودِّى . وهذا كما قال بِشْر :

وإذْ صَفِرَتْ عِيَابُ الوُدِّ مِنكُمْ ولم يك بيننا فيهـا ذِمامُ[(١)]

كأنه تَبيّن منهم أنّهم لا يُبقُون عليه ، ولا يَرعَون ذِمامًا لَهُ ، فلا رِعَةَ ولا رِقةَ لديهم ، ولا بُقْيَا ولا محافظة عندهم ، فصار اعتقاده فيهم كما بانَ له اعتقادهم . فيه . فلهذا قال ما قال . ويجوز أن يكون المعنى أشرفَتْ نفسى ، بسببهم ولتعرُّضهم وهَمِّهم بانتهاز الفرصة لما أمكنهم ، على الْهَلاك . ويكون هذا من قوله :

* ولو أدركَتْهُ صَفِرَ الوِطَابُ[(٢)]

وفى طريقته قول الآخر[(٣)] :

هَرَقْنَ بساحُوقٍ جِفَانًا كثيرةً وأَدَّيْنَ أُخْرى من حَقِينٍ وحازرِ

وقال غيره :

ياجَفْنَة كنَضيحِ الحَوْض قد كُفِئَتْ بِثْنِي صِفِّينَ يعلو فوقها القُتَرُ[(٤)]

ويجوز أن يكون أشار بالوِطاب إلى الجسم ، أى كاد تفارقهُ الرُّوح . وهذا كما يقال : الإنسان[(٥)] : زِقٌّ مَنْفُوخٌ . ويجوز أن تكون الإشارة إلى

(١) فى المفضليات (٢ : ١٣٥) : « فإذ صفرت » .
(٢) لامرئ القيس فى ديوانه ١٦٠ ، وصدره :
* وأفلتهن علباء جريضا *
(٣) هو سلمة بن الخرشب الأنمارى ، كما فى المفضليات (١ : ٢٦) وانظر معجم البلدان (ساحقوق) .
(٤) عجز هذا البيت من م ، وهو ساقط من الأصل .
(٥) فى الأصل : « للإنسان » وأثبتنا ما فى م .

ظروف العَسَل التى اشتارها[1] لأنه لما تيقّن قَصْدَهم لِقَتْلِهِ وتركَهمْ مسامحتَه صَبَّ العسلَ على الجبل من الجانب الآخر وركِبَهُ متزلِّقاً عليه، حتَّى لِحَق بالسَّهْل. قولُه: «ويَوْمِي ضَيِّقُ الحجْرِ مُعْورُ»، أى ضَيِّقُ الناحية مُمْكِنٌ. ويقال فى الْحِجْرِ الحجْرةُ أيضا. وفى المَثَل: «يَرِبِضُ حَجْرَةً ويَرْتَعِي وَسَطًا». ومُعْوِرٌ، من أَعْوَرَ لكَ الشىء، إذا بَدَتْ لكَ عورَتُه، وهى موضع المخافة. قال الله تعالى فى الحكاية عن المنافقين لما قعدوا عن نُصْرَةِ النبىِّ صلى الله عليه وسلم: ﴿إنّ بيوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ أى واهيةٌ يجب سَتْرُها وتحصينُها بالرِّجال، وكما قيل يومٌ مُعْوِرٌ قيل مكان معورٌ، أى مَخُوفٌ. ويقال: عَوِرَ المكانُ إذا صار كذلك، وقرئ: ﴿إنّ بيوتَنَا عَوِرَةٌ[2]﴾. وقال بعضُهم: كلُّ ما طلبْتَه فأمْكَنَك فقد أعْوَرَكَ وأَعْوَرَ لَكَ. ومعنى البيت: أقول لهؤلاء القوم والحالُ هذا، وهو أنّى قد جعلتُ لنفسى طريقاً إلى الخلاص منهم أوْ أنِّى أشرفْتُ على الهلاكِ واليَوْمُ يوم شديدٌ عَسِيرٌ.

٥ ــ هُمَا خُطَّتَا إمَّا إسَارٌ ومِنَّةٌ وإما دَمٌ والقَتْلُ بالحُرِّ أَجْدَرُ

الخُطَّةُ مأخوذةٌ من الخطِّ، وهى تجرى مجرى القِصّة، وإن كان لها مواضع تنفرد بها، وحَذَف النون من «خُطَّتَا» إذا رَفَعْتَ «إمَّا إسَارٌ» استطالةً للاسم، كأنه استطال خُطَّتَا ببدَلِه وهو قولُه إما إسَارٌ، كما استطال الشاعرُ الآخرُ الموصول [بصلته، والموصوفَ[3]] بصفتِه فقال:

أَبَنِي كُلَيْبٍ إنَّ عَمَّيَّ اللَّذَا قَتَلَا المُلُوكَ وَفَكَّكَا الأَغْلَالا[4]

(١) كذا فى م. وفى الأصل: «الذى اشتاره». والعسل يذكر ويؤنث.

(٢) هذه قراءة ابن عباس، وابن يعمر، وقتادة، وأبى رجاء، وأبى حيوة، وابن أبى عبلة، وأبى طالوت، وابن مقسم، وإسماعيل بن سليمان عن ابن كثير. وقرأ الجمهور بإسكان الواو. تفسير أبى حيان فى (سورة الأحزاب).

(٣) التكلة من م.

(٤) البيت للأخطل فى ديوانه ٤٤. ونسب فى الضرائر للآلوسى ٦٨ إلى الفرزدق، وهو خطأ. وبنو كليب هم قوم جرير. وعما الأخطل هما: عصم بن النعمان، ودوكس بن الفدوكس.

فحذف النون من اللذا . ومثله فى الحذف قول الآخر(١) :

لها متنتـــان خظاتا كما أكبّ على ساعديه النمرْ

فحذف النون من خظاتا . وقول الآخر :

لنا أعنزٌ لُبْنٌ ثلاثٌ فبعضُها لأولادها ثِنْتا وما بيننا عنزُ(٢)

ويجوز أن يكون الحذف على وجه الحكاية ، كأنَّه قال : هُما خُطّتا قولِكم إمّا كذا وإمّا كذا ، فلما نَوَى ذلك حَذَفَ النونَ للإضافة . وكأنهم كانوا يُديرونَهُ على الخصْلَتين(٣) ، فأخذ يتهكّم عليهم ويحكى مقالتَهم ، ونحوُه قولُ الخليلِ فى قَوْلِه : ﴿ ثم لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كلِّ شيعةٍ أيُّهم أشدُّ على الرَّحمٰنِ عُتيًّا(٤) ﴾ ، قال معناه لَنَنْزِعَنَّ من المتشايعين الذى يقال لعُتُوِّه أيُّهم أشدّ ؛ فحَكَى . وقولُه :

* فأبيتُ لا حَرِجٌ ولا محْرُومُ(٥) *

وإذا جرَرْتَ « إمّا إسارٍ » يكون حذف النون لنيّة الإضافة ، والتقدير : هُمَا خُطَّتا إسارٍ ومِنّةٍ . والمعنى ليس [لى(٦)] إلا واحدةٌ من خَصْلَتَيْنِ اثنتين على زُعمِكم(٧) : إما استئسارٌ والتزامُ مِنَّتِكم إنْ رأيتم العفو ، وإمّا قتلٌ وهو بالحرِّ أجدر من التعرّض لما يُخزيه ويُكسِبه الذلّ . فهاتان الخصلتان هما اللتان أشار إليهما

(١) هو امرؤ القيس . ديوانه ١٤ .

(٢) أنشد هذا البيت التبريزى وابن جنى كذلك ، ولم ينسباه .

(٣) انظر مثيل هذا التعبير فيما مضى ، ص ٤٥ س ١٨ .

(٤) كذا وردت الآية بهذا الضبط فى النسختين ، وهى قراءة الجمهور ، وانفرد حمزة والكسائى وحفص بالقراءة بكسر العين والجيم والصاد فى «عتيا» و«جثيا» وصليا» . انظر تفسير أبى حيان (٦ : ٢٠٨) . والكلام بعد هذه الكلمة إلى «أشد» ساقط من م .

(٥) للأخطل فى ديوانه ٨٤ وسيبويه (١ : ٢٥٩) . وأنشده فى المخصص (٨ : ٦٩ ، ١٦ : ١١٠) . وصدره :

* ولقد أبيت من الفتاة بمنزل *

(٦) هذه من م .

(٧) الزعم : مثلث الزاى ، كما فى القاموس . وتكاد النسختان تجتمعان على ضم الزاى فى كل موضع ترد فيه هذه الكلمة ، كما هنا .

بقوله هما خُطَّتان ؛ وقد ثلَّثهما بخطّة أخرى ذكرَها فيما بعد . وفى هذا الكلام تهكّم وهُزْء . وقوله : « والقتل بالحرِّ أجدر » يسمَّى اعتراضا لوقوعه بين ما عَدّدَه من الخصال .

٦ – وأخْرَى أُصادِى النَّفسَ عَنْها وإنَّها لَمَوْرِدُ حَزْمٍ إن فَعَلْتُ ومَصْدَرُ

المصاداة : إدارة الرَّأى فى تدبير الشىء والإتيانُ به على أتْقَنِهِ ، ومنه يقال : إنّه لصَدَى مالٍ ، إذا كان حَسَنَ القيامِ به . يقول : وهاهنا خَصْلةٌ أُخرى أُدارِى نفسى فيها ، وأُداوِرها عليها ، وإنّها لَلموضِعُ الذى يَرِدُهُ الحزم ويَصدُر عنه إن فعلْتُ . وهذا إنَّما قَسّم الكلامَ هذه الأقسامَ لأنّه رآهم يبنون أمرَه عليها ، ولأنَّه نظر إلى جِهتَى الجَبَل فعلِمَ أنّه إنْ رَضِىَ الطريق التى عليها بنو لِحيَانَ لنفسه طريقًا كان فيها إحدى الحالتين : من الأسْرِ أو القَتْل ، على ما كانوا يزعمون ويقولون . وإن احتال للجهة الأخرى والحزمُ فيها ، لأنَّ خلاصه منها ، كان أمراً ثالثا . ثم اقتَصَّ ما فعله[1] . وقوله « وإنّها لموردُ حَزْمٍ » اعتراضٌ أيضا ، لوقوعه بين قوله وأخرى أصادى النفسَ عنها ، وبين تبيين كيفية مزاولته لها وشَرْحِها .

٧ – فَرَشْتُ لها صَدْرِى فزَلَّ عن الصَّفَا بِهِ جُؤْجُؤٌ عَبْلٌ وَمَتْنٌ مُخَصَّرُ

الفَرْش : البَسْط ، ثم توسّعوا فيه فقالوا : فَرَشْتُه أمرى ، وافترَش لسانَهُ فتكلَّمَ كيف شاء . وقوله «لها» الضمير للخَصْلةِ التى عبّر عنها بقوله « وأخرى » . يقول: فَرَشت من أجْل هذه الُخطّة صدرى على الصّفا . وهذا حين صَبَّ العسلَ فزَلِقَ [به] عن الصَّفَا . أى بصدْرِه صَدْرٌ ضخم ومَتْنٌ دقيق ، والصَدْرُ والمَتْنُ صَدْرُه ومَتْنُهُ ، ولـكن أخرجَه مخرجَ قولهم : لَقِيتُ بزَيْدٍ الأسَدَ[2] ، وزَيد هو

(١) م : « على ما فعله » .

(٢) هذا ما يسميه البلاغيون « التجريد » ، ويسمون الباء فى مثل هذا باء التجريد .

الأسد عندهم . وَوَضَع فرشت موضع أَلْقَيْتَ ووضَعْت . ويقال : فَرَشْتُ سالحتى بالآجُرّ ، وافترشت الشاة للذّبح إذا أضْجَعْتَها . وذكر بعضهم أنّه يجوز أن يكون الضمير من « لها » للصّفاة ، والكلمة مقلوبةٌ ، والمعنى فَرَشْتُها لصدرى . وفى هذا إضمارٌ قَبْلَ الذّكر والقلب ، وإذا كان كذا فالأوّلُ هو الوَجْه .

٨ـ فَخَالَطَ سَهْلَ الأَرْضِ لم يَكْدَحِ الصَّفَا   بِهِ كَدْحَةً والموْتُ خَزْيانُ يَنْظُرُ

الخلط أصله تداخل أجزاء الشّىء فى الشىء ، وقد تُوُسِّع فيه حتّى قيل : رَجُلٌ خَلِطٌ[1] ، إذا اختلط بالنّاس كثيراً . وجاء فى الحديث : « لا خِلاطَ ولا وِرَاطَ » ، وفى المثل : « ليس أَوَانَ يُكْرَهُ الخِلاطُ » . يقول : أمْهَلْتُ ولم يؤثّر الصّفا فى صدرى أثراً ، لا خَدْشًا ولا خَمْشًا ، والموتُ كانَ طَمِعَ فِيّ ، فلما رآنى وقد تَخَلَّصْتُ بقِيَ مُسْتَحْيِيًا ينظُر ويتحيّر . والواو من قوله « والموت » واوُ الحالِ . وهذا من فصيح الكلام ، ومن الاستعارات المليحة . وقد حُمِل قولُ الله عزّ وجلّ : ﴿ وأنتم حِينئذٍ تنظُرون ﴾ على أنْ يكون المعنى[2] تتحيّرون . وقد سَلَكَ أبو تمّام مَسلكَ هذه الاستعارة فقال :

* إن تَنْفَلِتْ وأُنُوفُ المَوْتِ راغِمَةٌ[3] *

ويقال إنّ الموضع الذى يقع عليه كان بينه وبين الطَّريق الذى عليه بنو لحيان أميالٌ عِدَّةٌ . وقوله « ينْظُر » يجوز أن يكون فى موضع الحال ويجوز أن يكون خَبَراً بعد خَبَر ، ويكون معناه فى مقَابَلَتِي . ويقال : بُيُوتُهم تَتَنَاظر ، إذا تقابَلَتْ ، لأنّ النَّظَر تَقَليبُ العين نحو المرئِيّ وفى مقابلته . لذلك صَحَّ أن

---

(١) كذا ضبط فى الأصل ، وضبط فى م بضم الخاء واللام ، وهما لغتان صحيحتان ولغة ثالثة « خلط » بكسر الخاء . وشاهد الأخير فى اللسان قوله :

وأنت امرؤ خلط إذا هى أرسلت   يمينك شيئاً أمسكته شمالكا

(٢) م : « بمعنى » . (٣) م : « إن تنقلب » . وعجزه فى الديوان ٩٨ :

* فاذهب فأنت طليق الركض يا لبد *

يقال للأعمى : نظَر إلىّ ، ويجوز أن يكون معنى يَنْظُر يَعلمُ حُسْنَ حِيلتى وغَنَائِى فيما يَدهَمُنى . وفُسِّر قولُه تعالى : ﴿ يُسَاقُونَ إلى المَوْتِ وهُمْ يَنظُرون ﴾ ، أى يعلمون ذلك ويتيقّنون . وقوله « لم يَكدَح الصَّفَا » قيل الكَدْح بالأسنانِ والحجَر دون الكَدْم ، ومنه قيل المكدَّح المكدَّمُ فى حمار الوحش ، لتعضيض بعضها بَعْضاً . وقوله « خَزْيَانُ » يجوز أن يكون من الخِزى : الهوانِ ، ويجوز أن يكون مِنَ الخزَايَة : الاستحياء .

٩ — فَأُبْتُ إلى فَهْمٍ ولم أكُ آيِبًا ‏ وكَمْ مِثْلُهَا فَارَقْتُها وهْىَ تَصْفِرُ[1]

يقولُ : رجعتُ إلى قبيلتِى فَهْمٍ ، وكِدْتُ لا أؤوبُ ، لأنِّى شافهْتُ التّلَفَ . ويجوز أن يُريدَ : ولم أكُ آيباً فى تقديرهم وظنِّهم . واختارَ بعضهم[2] أن يُرْوَى : « فَأُبْتُ إلى فَهَمٍ وما كِدْتُ آيبا » وقال : كذا وجدتُه فى أصلِ شِعْرِه . قال : ومثْلُه فى أنّهُ رَدَّ إلى الأَصْلِ وَوَضَع اسم الفاعل[3] موْضعَ الفعل قولُ الآخَر :

أَكْثَرْتَ فى العَذْلِ مُلِحًّا دائما ‏ لا تُكْثِرَنْ إنِّى عَسَيْتُ صَائما[4]

والمثل السائر : « عَسَى الْغُوَيْر أَبْؤُسا » . ولا أدرى لِمَ اختار هذه الرواية ؟ ألِأَنّ فيها ما هو مَرْفُوضٌ فى الاستعمال شَاذٌّ ، أم لأنّه غَلَبَ فى نَفْسِه أنَّ الشاعرَ كذا قالَهُ فى الأصْلِ ؟ وكلاهما لا يُوجِبُ الاختيار . عَلَى أنِّى قد نَظَرتُ فوجدتُ

---

(١) مثلها ، ضبطت فى الأصل بالجر ، وفى م بالرفع . وفى الخزانة (٣ : ٥٤١) أنه يروى بالجر والرفع والنصب . فالجر على أن كم خبرية ، والنصب على أنها استفهامية ويكون مثلها صفة لنكرة محذوفة تقديره كم مرة مثلها ، والرفع على معنى كم مرة وقع مثلها .

(٢) هو ابن جنى فى التنبيه على الحماسة . قال التبريزى : « وتكلم المرزوقى على اختيار أبى الفتح هذه الرواية رادا عليه ولم ينصفه » .

(٣) هذا ما فى م . وفى الأصل : « اسم الفعل » . والذى فى التنبيه : « فاستعمل الاسم الذى هو الأصل : المرفوض الاستعمال موضع الفعل الذى هو فرع » .

(٤) فى الخزانة (٤ : ٧٩) : « نسب إلى رؤبة بن العجاج ولم أجده فى ديوان رجزه »

أبا تَمَامٍ قد غَيَّر كثيراً من ألفاظ البيوت التى اشتملَ عليها هذا الـكتاب ، ولعلهُ لو أنشَرَ اللهُ الشُّعراء الذين قالوها لتبعوه وسَلَّموا له . ويُروَى : « ولم آلُ آيِباً » والمعنى لم أدَعْ جَهْدِى آيِباً وفى الإياب . والأول أحْسَنُ . وكم مِثْلِهَا ، أى كم مِثْلِ هذه الخُطَّة[1] فارَقْتُهَا بالخروج منها ، وهى مغلوبةٌ تَضْغُو[2] وأنا الغالب . وصَفِير الطائر معروف ، ومنه ما فى الدار صَافِرٌ ، أى ذو صفير .

١٢

وَقَالَ أَبُو كَبِيرٍ الهُذَلِيُّ[3] :

١٥ــ وَلَقَدْ سَرَيْتُ على الظَّلَامِ بِمِغْشَمٍ   جَلْدٍ من الفِتْيَانِ غَيْرِ مُثَقَّلِ[4]

يقال سَرَى يَسْرِى سُرًى ، وأَسْرَى إسرَاءً بمعنى ، وهو سَيْر الليل . وفى القرآن : ﴿ سُبْحَانَ الذى أَسْرَى بِعَبْدِهِ ليلا ﴾ . وعلى الظلام ، أى فى الظلام موضعه نَصْبٌ على الظَّرف . ويقال فَعَلْتُه ظَلَامًا ولَيْلاً فى مُقَابَلَةِ فعلتُه نهارًا . ويقولون : عِمْ ظَلَامًا وعِمْ صَبَاحًا ، وهذا كما جعلوا فى مقابَلة اليومِ اللّيلةَ . ويجوز أن يكون على الظلامِ فى موضِع الحالِ ، أى وأنا على الظلامِ ، أى راكبٌ له . يقول : ولقد سَرَيْتُ لَيْلاً برجُلٍ غَشُومٍ قَوِىٍّ من الرِّجالِ غَيْرِ منسوبٍ إلى الثِّقَلِ والـكسلِ فى الأُمورِ . فإن قال قائلٌ : إذا كان السُّرَى لا يكون إلا ليلاً

---

(١) وفى التنبيه : فأنت المثل حملا على المعنى ، لما كان المراد به الحال والصورة التى ذكرها » .

(٢) الضغاء : صوت الذليل المقهور . م : « تصفر » . وانظر بيت جرير فى ص ٦٦ .

(٣) اسمه عامر (أو عويمر) بن الحليس ، وهو مخضرم ذكره بعضهم فى الصحابة . الشعراء والشعراء بتحقيق الشيخ أحمد شاكر ٦٥٢ والإصابة والخزانة (٣ : ٤٦٦ — ٤/٤٧٣ : ١٦٥ — ١٦٧) والعينى (٣ : ٥٤ — ٥٧) واللآلى ٣٨٧ . قال التبريزى : « أحد بنى سعد بن هذيل » .

(٤) قصيدة هذه المقطوعة فى ديوان الهذليين (٢ : ٨٨ — ١٠٠) .

فلِمَ قال على الظلام ، ولم جاء فى القرآن : ﴿ أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْـلاً ﴾ و : ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْـلاً ﴾ ؟ قلتَ : المرادُ تَوَسُّط الليل والدخولُ فى معظَمه ، تقول : جاءَ فلانٌ البارِحةَ بِليلٍ ، أى فى معظَمِ ظُلْمَتِهِ وتَمَكُّنِ ذلك الوقتِ من لَيلَتهِ . والجَلْدُ : الصُّلب القوىُّ ؛ ومنْهُ الجَلَدُ من الأرضِ . وإنَّما قال « مِغْشَمٍ » لأنه جَعَلَهُ كالآلةِ فى الغَشْمِ ، ومِفْعَلٌ بناء لهذا المعنى ، ويريد به تَأَبَّطَ شَرًّا . وكان لأبى كَبِيرٍ مَعَهُ قِصَّةٌ معروفة(١) ، والأبيات مَقْصُورَةٌ عليها ، وناطِقَةٌ بها أو بأكْثَرِها . والغَشْمُ والاعتِسَافُ يتقاربان . ويقالُ غَشَمَ الوَالِى رَعِيَّتَهُ غَشْمًا وفى كلام بعضهم : « أَسَدٌ حَطُومٌ خَيْرٌ من سلطان غَشُومٍ » . ويجوز أن يكون معنى « غَيْرِ مُثْقَل » أى كان حَسَنَ القَبُولِ ، مُحَبَّبًا إلى القلوب .

٢ — مِمَّنْ حَمَلْنَ بِهِ وَهُنَّ عَوَاقِدٌ حُبُكَ النِّطَاقِ فَشَبَّ غَيْرَ مُهَبَّلِ

قولُه : وهُنَّ عواقِدٌ حُبُكَ » حكايةُ الحال وإن كان ذلك فيما مضى . ومثْلُه قوله تعالى : ﴿ وكَلبُهُم باسِطٌ ذِرَاعيْهِ بالوَصيدِ ﴾ . ويُرْوَى : « مِمَّا حَمَلْنَ به » أى هو من الحَمْلِ الذى حَمَلنَ به . والضميرُ فى حَمَلْنَ للنِّساء ولم يَجْرِ لَهُنَّ ذِكْرٌ ، ولـكن لمَّا كان المرادُ مفهومًا جازَ إضمارها . ويُرْوَى : « مِمَّنْ حَمَلْنَ به » ، والمعنى : هذا الفتى من الفتيان الذين حَمَلَتْ أمهاتُهم بهم وهُنَّ غيرُ مستعدَّاتٍ للفراشِ ولا واضعاتٍ ثِيَابَ الحَفْلَةِ(٢) فنشأ مَحْمُودًا مَرْضِيًّا ، لم يُدْعَ عَلَيْهِ بالهَبَلِ

---

(١) كان أبو كبير قد تزوج أم تأبط شراً ، وكان تأبط شراً يبدى الكراهة لأبى كبير ويرتاب به وهو صغير ، فلما كبر وترعرع خشى أبو كبير بأسه فاحتال ليقتله وخرج به فى غزوة ودفع به إلى بعض الأعداء ولكنه تمكن من الفتك بهم ، ثم حاول أبو كبير أن يغتاله فى نومه فكان يختبره بأن يرمى بحصاة إليه فيهب من نومه سريعاً ، فعل ذلك مراراً إلى أن عرف أنه لا يمكن اغترار ه فى نومه ، وكف عن عزمه ، وقال فى ذلك ما قال . انتهى ملخصا من التبريزى .

(٢) الحفلة : الاحتفال والجد ، يقال رجل ذو حفلة إذا كان مبالغاً فيما أخذ فيه ، وأخذ للأمر حفلته إذا جد فيه . يقول : غير متبذلات ملقيات ثيابهن .

والشَّكَل(١) . وإنما قيل : مِمَّنْ حَمَلْنَ به ، لأنه رَدَّ الضَّميرَ على لَفْظِ مَنْ ، ولوْ رَدَّ على المعنى لقال بهم . وفى القرآن فى موضع : ﴿ ومِنْهُم مَن يَستمِعُ إليك ﴾ ، وفى آخَر : ﴿ ومِنهم من يَسْتَمِعُون إليك ﴾ . وحُكى عن بعضهم : إذا أردْتَ أن تُنجبَ المرأةُ فَأَغْضِبْها عند الجِماع . وأنشد :

تسنَّمتُها غَضْبَى فَجَاءَ مُسَهَّدًا وأَنفَعُ أوْلاَدِ الرجالِ المُسَهَّدُ

وكذلك يقال فى ولد المذعورة : إنّه لا يُطاق . والحُبُك : الطَّرائق . والنِّطَاقُ : ما تَشُدُّ(٢) المرأةَ فى حَقْوِها . والرواية : « حُبُكَ الثِّياب » ، لأنَّ النِّطَاقَ قد جاء من بَعْدُ فى صِفَةِ أمِّ المُغْشَمِ فَتكرّر ، ولأنَّ النِّطاق لا يَكُونُ لَهُ حُبُكٌ وطرائق . وواحد الحُبُكِ حَبيكٌ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ والسَّماءِ ذاتِ الحُبُك ﴾ . وقال الباهِلِيُّ : الحُبْكَةُ والحِبَاكُ : الإزار أيضا . وقد احتبكَتِ المرأة . وذكر بعضهم أن المُهَبَّل : المعتوه الذى لا يتماسَك(٣) فإن صَحَّ ذلك فكأنّهُ من الإسراع ، يقال جَملٌ هِبلٌ(٤) .

٣ ــ ومبرَّأً من كلِّ غُبَّرِ حِيضَةٍ وفَسَادِ مُرْضِعَةٍ وداءٍ مُعْضِلِ(٥)

غُبَّرُ الحَيْضِ وغُبَّرُه : بَاقِيهِ قبل الطُّهْرِ . وكَذَلك غُبَّرُ اللَّبَنِ : باقيه فى الضَّرْعِ . وتزوّجَ رَجُلٌ من العَرَبِ بامرأةٍ(٦) مُسِنَّةٍ فقيل له فى ذلك ، فقال : « لَعَلِّى أتغبَّرُ منها وَلَدًا » . والحِيضَةُ والحَيضُ وَاحِدٌ . والغُبَّرُ يكون جَمع غَابِرٍ أيضاً . ولم يَرْضَ بلفظ التَّبرئة حتى أتى بلفظ الكلِّ مَعَهُ تأكيداً ، كأنّه نَفَى قليل ذلك

(١) كذا ضبط فى م . وضبط فى الأصل بالضم ، وهما لغتان .
(٢) م : « ما تشده » . (٣) م : « يتمسك » .
(٤) كذا ضبط فى الأصلين . ويقال أيضاً : هبل بكسر الهاء وفتح الباء .
(٥) حيضة ، بكسر الحاء فى النسختين فى متن البيت وشرحه ، وفى اللسان أنه الاسم من الحيض ، وأما الحيضة بالفتح فاسم المرة منه .
(٦) م : « امرأة » .

وكثيرهُ . وأضاف الفسَادَ إلى المُرْضِعَةِ لأنّه أرادَ الفسادَ الذى يكونُ من قِبَلِها . وهم يُضِيفُون الشيء إلى الشيء لأدنى مناسَبَةٍ . ويروى « مبرأً » بالنصبِ والجرّ ، فإذا نصبتَهُ فإنّه ينعطِفُ على « غيرَ مُهَبَّلَ » ، كأنه قالَ : شَبَّ فى هاتين الحالتين . وإذا جَرَرْتَهُ ينعطف على قَوْلِهِ « جَلْدٍ من الفتيان » كأنّه بمِغْشَمٍ جَلْدٍ ومبرّإ . والمعنى أن الأمّ حَملت به وهى طاهِرٌ ليس بها بَقِيَّةُ حَيْضٍ ، ووضَعَتْه ولا دَاءَ به استصحَبَهُ من بطنها فلا يقْبَلُ عِلاَجًا ، لأنَّ داءَ البَطْنِ لا يفارِق . ولم تُرْضِعْهُ أمُّهُ غَيلاً ، وهى أن تسقِيَه وهى حُبْلَى بعد ذلك . ويروى عن أمِّ تأبَّطَ شرًّا قالت : « ما وضَعْتُهُ يَتْنًا ، ولا أرضَعْتُه غَيْلاً ، ولا أبَتُّه مَئِقًا ، ولا رأيتُ بنفسى دَمًا . ولقد حَمَلْتُ به فى لَيْلَةٍ مظلمة وتحتَ رأسى سَرْجٌ ، وعلى أبِيهِ درعٌ » . وإنّما تريد بهذا الكلام الآخِرِ[1] ما تقولُ العربُ من أن المرأةَ إذا أُكْرِهَت على الوطء ، أو وُطِئت وهى مذعورة ، أنجبت وأذْكَرَت . الداء المُعْضِل : الذى لا دواء له كأنه أعضل الأطباء وأعياهم ، وأصل العَضْل المنع ، ومنه عَضَّلت المرأةُ إذا نَشِبَ ولَدُهَا فى بطنِها فلم يَخْرُج . وعَضَلْتُها : منعتها التزويج ظلما .

٤ ــ حَمَلَتْ به فى لَيْلَةٍ مَزْؤُودَةٍ كَرْهًا وَعَقْدُ نِطَاقِهَا لم يُحْلَلِ

الزَّأْدُ[2] : الذُّعر ، وقد زُئِدَ فهو مزؤود . والمعنى حملت الأمُّ بهذا المِغْشَم . ويُروى « مزؤودةً » بالنصب على الحال للمرأة ؛ ويروى « مزؤودةٍ » بالجر ، ويجوز فيه وجهان : أحدُهما أن تجعله صفةً لِلَيْلَةِ ، كأنّه لمَّا وقع الزُّؤُود والذُّعر فيها جعَلَهُ لها ، والأكثر فى المجاز والاتّساع أن يُنسَبَ الفعلُ إلى الوقت فيُؤْتَى به على أنه فاعل ، كما قيل : نهارُه صائمٌ ، وليلُه قائمٌ . وحَسُن هذا لأنّ الظَّرف قد يقدَّر

(١) م : « الأخير » .
(٢) يقال زأد بالفتح والتحريك ، وزؤد بالضم ، وزؤود كسرور .

تقدير المفعول الصحيح ، بأن يُنزع منه مَعْنَى فى ، كما قال الشاعر :

* ويَوْمٍ شَهِدْناهُ سُلَيْماً(١) *

فعلى ذلك تقول شُهِدَت الليلةُ ، وزُنِدَت اللَّيلة ، وليلةٌ مشهودة ومز.ودة . ويجوز أن يكون انجرارُه على الجِوار ، وهو فى الحقيقة للمرأة ، كما قيل : هذا جُحْرُ ضَبٍّ خَرِبٍ . وهذا ميلهم إلى الحَمْل على الأقرب ، ولأمْنِهم الالتباس . وانتصاب « كَرْهًا » على أنه مَصْدَر فى موضع الحال ، والتقدير كارهةً . ومعنى البيت بما تقدّم ظاهر . وقولُه : « عَقْدُ نِطَاقِهَا لم يُحْلَلِ » ، ابتداء وخبرٌ ، والواو للحال . وأظهر التَّضعيف فى قوله لم يُحْلَل ، وهو لغةُ تميم ، ووجه الكلام لَمْ يُحَلّ . والنِّطاق : ما تَنْتَطِق به المرأةُ : تشدُّ به وسَطَها للعمل . قال الأصمعىّ : كنّ فى القديم ينتطقن بخَيطٍ أو تِكَّةٍ . وذات النِّطاقين : أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنه . والمِنطَقَةُ أُخِذَت من هذا . والمعنى أُكرِهَتْ ولم تحُلّ نطاقَها . وحُكى عنها فى وصف ابنها قالت فيه : « إنّه والله شيطان ، ما رأيتُه قطُّ مستثقِلاً ولا ضَحِكاً ولا همَّ بشىء مذُ كان صبيًّا إلاّ فعلَه ، ولقد حَمَلْتُ به فى ليلةٍ ظلماء وإنّ نطاق لمشدود(٢) » .

٥ ــ فأَتَتْ به حُوشَ الفُؤادِ مُبَطَّنًا سُهُدًا إذا ما نامَ لَيْلُ الهَوْجَلِ

حُوشُ الفؤاد وحُوشِىُّ الفؤاد : وحشيُّهُ ، لحدَّته وتوقُّده . ورجُلٌ حُوشِىٌّ : لا يُخالِط الناس . وليلٌ حوشىٌّ : مظلم هائلٌ ، وكذلك إبلٌ حوشٌ وحوشِيَّةٌ أى وحْشِيَّةٌ . وهذا كما يقال : ليلٌ سُخَامٌ وسُخَامِىٌّ : أسْوَد . وقيل : الحُوشُ :

(١) كلمة « سليما » ليست فى م . والبيت بتمامه كما فى سيبويه (١ : ٩٠) والكامل ٢١ ليبسك :

ويوم شهدناه سليما وعامراً قليل سوى الطعن النهال نوافله

ورواية المبرد وابن جنى : « ويوما » .

(٢) كذا فى م والتبريز . وفى الأصل : « مشدود » .

بلاد الجن . مبطَّنا : خميص البطْن[١] . وقولُه « نامَ ليلُ الهَوْجَلِ » ، جعل الفعل لِّليل ، لوقوعه فيه . والمعنى نام الهَوْجَلُ فى ليله . والهوْجلُ : الثقيل الكَسْلانُ ذو الغفلة . يقول : أتت الأمُّ بهذا الولد متيقِّظًا حذِرًا ، حديدَ الفؤاد ذَكِيًّا ، يَسْهَرُ إذَا نامَ الثَّقيل البليد . والسُّهاد والسَّهَد[٢] : السَّهَر . ورَجُلٌ سُهُدٌ ومُسَهَّدٌ . ويقولون للملدوغ : سَهِّدُوه لا يَسْرِ فيه السّم . وقيل الهوْجَل : الأحمق لا مُسْكَةَ به . قالوا : وبه سُمِّيَ الفَلاَةُ لا أعلامَ بها ولا يُهتَدَى فيها : الهوْجَل .

٦– وإذا نَبذْتَ لَه الحَصَاةَ رأَيتَه فَزِعًا لوَقْعِهَا طُمُورَ الأَخْيَلِ[٣]

يقال : نبذْتُ الشيء من يدى ، إذا طرحتَهُ ، وتوسَّعوا فيه فقيل صبىٌّ منبوذٌ ، ونابذْتُ فلانًا ، إذا فارقتَه عن قِلًى . والحصى : صغار الحجارة[٤] . والشاعر إنما يحكى ما رآه منه ؛ وذلك أنّ أبا كبير ذُكر أنه كان أراد أن يغتالَه ، وكان يطلُبُ منه فرصةً ينتهزها فى نومِهِ أو غَفْلته مع أنه كان لا يجترئُ عليه ، فكان يَروز أحوالَه ليتمكَّن من مراده فيه . والمعنى إذا رميتَه بحصاةٍ وهو نائمٌ وجدتَه ينتبه انتباهَ مَنْ سمِعَ بوقعتها هدَّةً عظيمة ، فيطْمُرُ طُمُورَ الأخْيَل ، وهو الشِّقِرّاق . وانتصاب « طمورَ » بما دلّ عليه قولُه « فزِعًا لوقعتها » ، كأنه [رأيتَه[٥]] يَطْمُرُ طُمُوره ؛ لأنّ الخائف المتيقِّظ يفعل ذلك . والطُّمور : الوَثْب ؛ ومنه قيل فَرَسٌ طِمِرٌّ ، أى وثّابٌ . وذكر أبو العباس أن الطِمِرَّ فى وصف الفَرَس

(١) ابن جنى : « قوله مبطناً من ألفاظ السلب لا الإثبات . وأصل هذه الأحرف وهى بطن أن تجىء لإثبات البطن ، كالبطن والبطين والمبطان ونحو ذلك . ومبطن هنا أى خميص البطن ، فهو من سلب ذلك المعنى لا إثباته » .

(٢) ويقال سهد بالضم ، وسهاد كذلك .

(٣) رواه التبريزى : « ينزو لوقعتها » ، ثم نبه فى الشرح على رواية : « فزعا لوقعتها » .

(٤) م : « ضعاف الحجارة » .

(٥) هذه من م .

هو المُشْرِف ، ومنه قيل الموضع العالى : طَمَار . وفزِعًا انتصابه على الحال ، وجواب إذا قولُه رأيتَهُ . وقال بعضُهم : الأَخْيَل : الشاهِينُ . ومنه قيل تَخَيَّلَ الرَّجُل ، إذا جَبُن عند القتال فلم يتثبّت . والتَّخَيُّل : المُضِىُّ والسُّرْعةُ والتلوُّن .

٧ — وإذا يَهُبُّ من المَنَام رأيتَهُ كَرُتُوب كَعْبِ السَّاق لَيْسَ بزُمَّلِ

أصلُ هَبَّ تحرّك واضطرب ، ثم قيل هَبَّ من نَوْمِهِ هَبًّا[1] ، وهَبّتِ الريح هُبُوبًا ، وهَبَّتِ النّاقة فى سيرها هِبَابًا ، وهَبَّ التَّيْسُ هَبِيبًا . وأهْبَبْتُ السّيفَ : هَزَزْتُه . يقول : إذا استيقَظَ هذا الرجُل من منامه انتصب فى مضجعه سريعًا كانتصاب كَعب السَّاق فى الساق ، وهو ليس بضعيفٍ . وإنّما يعنى شهامَتَه وتشمُّرَه فى تلك الحالة . وكَعْبُ الساق مُنْتَصِبٌ أبدًا فى موضعه ، فلذلك شَبَّهَهُ به . والرَّاتب : القائم ، ومنه المراتب . وتحقيق الكلام : وإذا يَهُبُّ رأيت رُتُوبَه كَرُتُوبِ كَعْب الساق ، لكنّه حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه . وهذا التّشبيه يجرى مجرى التصوير . والزُّمَّل والزُّمَّال والزُّمَّيلَة ، كلّه الضَّعيف ، واشتقاقه من التلفُّفِ كأنّه متساقِطٌ لا مُتَشَمِّرٌ مُتَجرِّدٌ .

٨ — ما إنْ يَمَسُّ الأَرْضَ إلاّ جانِبٌ منه وحَرْفُ الساق طَيَّ المِحْمَلِ

إنْ ، زيد لتوكيد النفى ، ويبطُل عمل « ما » بانضمامه إليه فى لغة من يُعْمِله . وانتصب طَيَّ على المصدر بما دَلّ عليه ما قبله ، لأنّه لما قال ، ما يمسُّ الأرضَ منه إذا نامَ إلا جانِبُه وحَرْفُ السَّاقِ ، عُلِمَ منه أنّ الرَّجلَ مَطْوِيٌّ غير سَمِينٍ ، وهَضِيمِ الكَشْحِ غير ثقيل . والمعنى أنّه إذا نام لا يتبسّط[2] على الأَرْضِ ولا يتمكّن منها بأعضائه كلها ، فِعْلَ من يُرْخِيه نومُه ويَتمكّن منه ، حتّى لا يكاد يتجمّع

(١) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ، وإثباتها من م .
(٢) م : « ينبسط » .

ويتشمّر عند الانتباه إلا بعد مزاولةٍ وتهيُّؤٍ يُعْمِلُه فى كلِّ عضو . وهذا من أبياتِ كتاب سيبويه[١] . واحتجّ به بقوله « طىَّ المَحملِ » . وأراد بالمِحمل حمائل السَّيف ، وهذا كما يُقال : هو كالجديل ، وكالزِّمام . والمِحملُ والحِمالةُ بمعنًى .

٩ — وإذا رَمَيْتَ بِهِ الفِجَاجَ رَأَيْتَهُ ... يَهْوِى غوارِبَها هُوِىَّ الأَجْدَلِ

قال الخليل : الفَجُّ : الطَّريق الواسع فى قَبَل[٢] جَبَلٍ ونَحْوِهِ ، والجميعُ الفِجَاجُ . وغارِبُ كلِّ شىء : أعلاهُ ، ومنه غارِبُ البعير . والشّاعرُ يحكى فى هذا أيضاً عنه ما رآه منه عند استصحابه له ، فيقول : إذا وجَّهْتَه فى طُرُق الجبل[٣] رأيتَه يَقْصِدُ عَالِيَها قَصْدَ الصَّقْرِ . والهُوِىّ بضم الهاء ، هو القَصْدُ إلى أعْلَى ، وبفتح الهاء القَصْدُ إلى أسفل . على ذلك قولُه :

* هَوِىَّ الدَّلْوِ أسْلَمَهَ الرِّشَاءُ[٤] *

ولا تَخْتَرْ فى رواية البيت على الضَّمِّ . وأُنشِد فيه قوله[٥] :

كأنّ هُوِيَّهَا خَفَقَانُ ريحٍ ... خَرِيقٍ بينَ أعْلامٍ طِوَالِ[٦]

ويروى : « مخارِمَها » . والمَخارِمُ : جمع المَخرِم ؛ وهو منقطَعُ أنْفِ الجبل . والخَرْمُ : أنف الجبل ، وجَمْعُه خُرُومٌ . ومن فصيح كلامِهِمْ : « هذه يَمِينٌ طَلَعتْ

---

(١) كتاب سيبويه (١ : ١٨٠) .

(٢) ضبط فى الأصل واللسان بضمتين ، وليس بشىء . وقد ضبط فى م بالتحريك . والقبل ، بالتحريك : سفح الجبل . وفى اللسان : « يقال انزل بقبل هذا الجبل ، أى بسفحه » .

(٣) م : « الجبال » .

(٤) الدلو ، تذكر وتؤنث . ويروى : « أسلمها » . والبيت لزهير فى ديوانه ٦٧ . وصدره :

* فشج بها الأماعز وهى تهوى *

(٥) هذا ما فى م . وفى الأصل : « وأنشد قوله فيه » .

(٦) للأعلم الهذلى . اللسان (خرق) .

فى المخارِمِ » ، وهى التى تَجعل لصاحبِها منها مَخْرَجا . والأجْدَلُ ، مِن جَدَلِ الخَلْقِ .

١٠ ــ وإذا نَظَرْتَ إلى أَسِرَّةِ وجْهِهِ   بَرَقَتْ كَبَرْقِ العارِضِ المُتَهَلِّلِ

الخطوط التى فى الجبهة الأغلب عليها سِرَارٌ ويجمع على الأسِرّة ، والتى فى الكف الأغلبُ عليها سِرَرٌ و سُِرٌّ ويُجمع على الأسرار . قال :

أُنظر إلى كَفٍّ وأسرارِها   هَلْ أنت إن أوعدْتَنِى ضائرى[1]

وقد قيل : الأسِرّة : الطرائق . يقول : إذا نظرْتَ فى وجه هذا الرّجل رأيتَ أساريرَ وجهه تبرُق وتُشرِق إشراقَ السَّحابِ المتشقِّق بالبَرْقِ . يصفُه بحُسْنِ البِشْر وتَطَلُّق الوجْهِ فى[2] كلِّ حال . والعَارِضُ : ما يعرض فى جانبٍ من السماء من السَّحاب . وعلى ذلك العارضُ فى الأسنان ، ولهذا قيل العارضان لما يبدو من جانبيها . ويقال : تهلَّلَ الرجُل فَرَحًا ، واهتلّ ، إذا افترّ عن أسنانه فى التبسُّم .

١٣

قال آخر ، ويقال إنها لتأبَّطَ شَرًّا[3] :

١ ــ إنِّى لَمُهْدٍ من ثَنَائِى فقَاصِدٌ   به لابنِ عَمِّ الصِّدْقِ شَمْسِ بنِ مالِكِ[4]

لا يُقال فى الهديّة إلاّ أهديتُ . ويُقال فى العَروس : هَدَيْتُها وأهدَيْتُها

(١) البيت للأعشى فى ديوانه ١٠٧ واللسان (سرر) . وعجزه لم يرو فى م . وهو فى الأصل : « ضائر » بالروى المرفوع ، وهو خطأ .

(٢) الكلام بعده إلى نهاية شرح هذا البيت ساقط من م .

(٣) عند التبريزى : « وقال تأبط شرا » . وقد سبقت ترجمة تأبط شرا فى المقطوعة ١١ . وعبارة الإنشاد هذه وما بعدها من البيتين الأولين وشرحهما ساقط من م .

(٤) شمس ، بفتح الشين هى الرواية التى اعتمدها المرزوقى . وسيأتى تنبيه على رواية ضم الشين .

جميعًا . والأصل واحد ، لأنَّ المعنى على القَصْدِ والدّلالة ، فيقول : إنى أمدح ابنَ عمِّى الكريمَ الصادقَ فى الودِّ شَمس بن مالك ، بما أقْصِدُ به راغِبًا ، وأُنفِذُهُ إليه مُتْحِفًا . والمعنى : إنِّى فى غيبتى منه وحضورى له ، مولَعٌ بالثناء عليه ، فلا أُخْلِيهِ من المَدْحِ فى الحالتين جميعا . واللامُ فى قوله : « لابن عمِّ الصدق » يجوز أن يتعلّق بمُهْدٍ ، يقال : أهديتُ له كذا ، وعلى هذا تكون أعْمَلْتَ الفِعْلَ الأوّل ، وما أهْدَاه يكون محذوفًا لعِلْمِ السامع بأنه يُرِيدُ شِعْرَهُ وتقريظَهُ . وكان الأجْوَدُ أن يقال فقاصِدٌ إيَّاهُ به ، ويجوز أن يكون على قَوْلِ من يزيد « مِنْ » فى الواجب[1] أن يكون قوله ثانىَ مفعولَ مُهدٍ ، فيكون أهْدَاهُ مذكورًا . ويجوز أن يتعلّق اللام بقولِهِ فقاصدٌ ، يقال قَصَدْتُه بكذا وقصَدْتُ له به . وعلى هذا تكون قد أعْمَلْتَ الفِعْلَ الثانى ، وهو المختار إذا جَمَعْتَ بين فعلين عند أصحابنا البصْريين ، ويُقال هذا ثوبُ صِدْقٍ وأخو صِدْقٍ ، ووُضِع الصِّدْقُ موضع الفَضْلِ والصَّلاَح . والتّسمية بالشّمس كالتسمية بالبَدْرِ والهِلاَل . وذكر بعضُ المتأخّرين[2] أنه يروى « شُمْسِ بن مَالك » بضمّ الشين ، قال : ويكون هذا فى أنّه عَلَمٌ لهذا الرجل فقط ، كَحَجَرٍ فى أنّه عَلَم أبى أوسٍ الشاعِرِ ، وأبى سُلْمَى فى أنه عَلَمَ أبى زهير الشاعر . والأعْلام لا مضايقة فيها .

---

(١) الأكثر فى « من » أن تكون زيادتها بعد النفى ، كما فى قوله تعالى : « ما جاءنا من بشير » . وفى التنبيه لابن جنى : « وسيبويه لا يرى زيادة من فى الواجب وأبو الحسن يراه ويحكى عن العرب فى تصحيحه قولها : قد كان من مطر ، وقد كان من حديث فخل عنى ، أى كان مطر وكان حديث » .

(٢) يعنى بذلك ابن جنى . ونصه فى التنبيه : « ومن رواه شمس بضم الشين فيحتمل أن يكون جمع شموس سمى به ، منه قول الأخطل :

شمس العداوة حتى يستقاد لهم وأعظم الناس أحلاما إذا قدروا

ويجوز أن يكون ضم الشين على وجه تغيير الأعلام نحو معديكرب ... وغير ذلك مما غير عن حال نظائره لأجل العلمية الحادثة فيه . وليس فى كلام العرب شمس علماء إلا هذا الموضع ، ولا فى كلامهم حجر علماً إلا أبو أوس الشاعر ، ولا فى كلامهم سلمى بضم السين إلا أبو زهير ابن أبى سلمى » .

٢ ـ أَهُزُّ بِهِ فى نَدْوَةِ الحَىِّ عِطْفَهُ كَمَا هَزَّ عِطْفِى بالهِجَانِ الأَوَارِكِ

عِطْفُ كلِّ شىءٍ : جانبُه . ويقال ثَنَى عِطْفَهُ ، إذا أعْرَضَ وجَفَا . وكأنَّ القَوْسَ والرِّداء سُمِّيَا عِطَافًا لاشتمالِها عند التوشّح بهما على العِطْف . يقول : أُحَرِّكُ بالثَّناء جانبَهُ كما حَرَّكَ جانبى بعطيّته ، أى أَسُرُّهُ بذلك حتّى يرتاح ويطرب كما سَرَّنى حتَّى اهتززت . والهِجَان : الإبل البيض الكرام . والأَوَارِكُ : التى رَعَتِ الأَرَاكَ ، يُقَالُ أَرَكَتِ الإبل فهى أَرِكَةٌ . وقال ابن السكّيت : الأوارك التى تَرْعَى الأَرْك[1] ، وهو نَبْتٌ . والنَّدْوَةُ أصلُه الجَمع ، ويقال نَدَاهُم النّادى ، أى جَمَعَهم . وانْتَدَى القَوْمُ وتنادَوا ، إذا تجمّعوا . ومنه دار النَّدْوةِ . والنَّدِىّ : المجلس ، والجميع أَنْدِيةٌ . ويقع لفظُ هِجَانٍ للواحد والجمع ، يقال ناقةٌ هِجَانٌ ونُوقٌ هِجَانٌ ، ومثله دِرْعٌ دِلاَصٌ ، ودروعٌ دِلاَصٌ ، وذلك لأنّ فِعَالاً وفَعِيلاً يتشاركان كثيرًا ، وكما جُمِعَ فَعِيلٌ فِعَالاً كذلك جُمِعَ فِعَالٌ فِعالاً . ألا تَرَى أنَّ العدد والوزنَ فيهما واحدٌ وحرف المدِّ من كل واحدٍ بإزاء ما فى الآخَر ؟ فإذا كان كذلك حُمِل عليه ، إلاّ أنّ فِعالاً إذا كان جَمْعًا يُنْوَى بحركاته وألِفه أنّها حركات بنائه وهو جَمْعٌ لا واحِد ، كأنّ الكسرةَ فى أوّلِهِ الكسرةُ التى فى أول ظِرافٍ وكِرَامٍ ، لا الكسرة التى فى أول حِمَارٍ وإزارٍ ، وكذلك أَلِفُهُ فاعلَمْه .

٣ ـ قَلِيلُ التشكّى للمُهِمِّ يُصِيبُهُ كَثِيرُ الهَوَى شَتَّى النَّوَى والمسالِكِ

المُهِمّ يجوز أن يكون من الْهَمِّ الذى هو الحزْن ، ويجوز أن يكونَ من الهَمّ الذى هو القَصْد . يَقُولُ : هو صَبُورٌ على النوائب والعِلاَّت ، لا يكادُ يتألّم

(١) كذا ضبط فى الأصل بالفتح ، وضبط فى القاموس بالكسر .

مما يَغزُوه من المهمّاتِ . واستعمل لفظ القليلِ والقَصْدُ إلى نَفْيِ الكُلِّ ، وهذا كما يقالُ فُلاَنٌ قَلِيلُ الاكتراث بوعيدِ فُلاَنٍ ، والمعنى لا يكترث . وعلى ذلك قولُهم : قَلَّ رجُلٌ يقولُ كذا ، وأقلّ رجُلٍ يقول كذا . والمعنى معنى النفى ، وليس يرادُ به إثباتُ قليلٍ من كثير . فإن قيل : من أين ساغَ أن يُستعمل لفظُ القليلِ وهو للإثبات فى النفى ؟ قلتَ[1] : إنّ القليل من الشىء فى الأكثرِ يكون فى حكم ما لا يُعتَدُّ به ولا يُعرَّجُ عليه ، لدخولِه بخفةِ قدْرِه فى مَلَكَةِ الفناء ، والدُّروس والامِّحاء ، فلما كان كذلك استُعمل لفظه فى النفى على ما فى ظاهرِه من الإثباتِ محترزين من الرد ، ومُجْملين فى القولِ ، وليكونَ كالتعريضِ الذى أثَرُه أبلَغ وأنكَى من التصريح . وقولُه : « كثيرُ الهوَى » طابَقَ القليلَ بقوله كثيرٌ ، من حيث اللفظ لا أنه أثبت بالأوّلِ شيئاً نَزْرًا فقابلَه بكثير . والمعنى أنه كثيرُ الهمّ مختلفُ الوجه والطرُق ، لا يوقَف منه على مَدَى غَوْرِه فى الأمور ، ولا يَقِف به أمَلُه على فَنّ لا يتجاوزه[2] إلى الفنون . ويريدُ بالهوى الجِنْس وكذلك النوَى ، وهى وِجْهَتُه التى ينويها . ومثله قول الآخر :

. . . . باقٍ   عَلَى الحدثان مختلفُ الشُّؤون[3]

٤ ــ يَظَلُّ بِمَوْماةٍ ويُمْسِى بغيرِها   جَحِيشاً ويَعْرَوْرِى ظُهُورَ المَهالِكِ

المَوْماةُ : المَفازة ، ووزنه فَعْلَلَةٌ ، وجمعها موامٍ . وإنما قال « يُمْسِى بغيرها » ولم يقُل يَبيت ، لأنّ قصدَهُ إلى أن يصفَهُ بأنه يقطَع فى بياض نهاره مَفازةً ، ولو قال يبيت لم يتبين منه ذلك . فيقول : يقطع المفاوزَ لاكتساب المكارم ، فتراه

---

(١) كذا ضبط بفتح التاء فى النسختين فى أشباه هذا الموضع .

(٢) م : « فلا يتجاوز » .

(٣) صدره عن التبريزى : * شديد مجامع الكتفين باق *

يكون نهاره بمفازة فإذا[1] أتى عليه المساء تجده فى أخرى فريداً وحيداً — ويقال : حلَّ فلانٌ جحيشاً ، أى منفردًا — ويركبُ ظهور المهالك وللعاطب غير مستصحب رفيقاً ، ولا مستجمع سلاحًا . وهذا كما يقال : أعرورِيتُ الفرسَ ، إذا ركبته عُرْيًا . وكانت طباعهم أنَّ من كدَّ نفسه وابتذلها ، وتوحَّشَ فى المهالك ولزمها ، وتعرض للمعاطب ولم يتوقَّها ، كان ذلك أدْعى إلى ما يُنوَّهُ به ويميزه عن رجال جنسه . وانتصب « جحيشاً » على الحال ، وقولها بغيرها لا يجوز أن يكون مستقرًّا فاعله .

٥ — ويَسْبِقُ وَفْدَ الرِّيحِ من حيثُ يَنْتَحِي بِمُنْخَرِقٍ من شَدِّهِ المتداركِ

قوله « من حيث ينتحى » يجوز أن يكون للممدوح ، ويجوز أن يكون لوفْد الريح ، لأنَّ المراد أنه يسبقه وإن أعطاه مُهْلةً . ومعنى ينتحى : يقْصِد . والشاعر إنما يصف خفَّتَهُ وتشمُّرَهُ وجِدَّهُ وتيقُّظه ، فيقولُ : من حيث اعتمد فى السَّير جاء سابقاً للريح بعَدْوٍ له واسعٍ من عَدْوِه . المتدارك : المتتابع . وجعل العَدْوَ منخرقاً[2] لاتساعه . والمتدارك . المتلاحق . ويقال : أدْرَكَ فلانٌ عِدَّةً من أصحابه ، أى لحقهم وشاهد أيامهم . وأخذ أبو تمام هذا فزاد عليه وإن كان فى لفظة ركاكة ، فقال :

فَمَرَّ ولو يجارِى الريحَ خِيلَتْ لديْهِ الرِّيحُ تَرْسُفُ فى القُيُودِ[3]

٦ — إذا خاطَ عينيهِ كَرَى النَّوْمِ لم يَزَلْ له كالِئٌ من قَلْبِ شَيْحَانَ فاتِكِ[4]

الكَرَى : النوم الخفيف ، وكأنه مأخوذ من كَرَيْتُ ، إذا عَدَوْت عَدْواً

(١) هذا ما فى م . وفى الأصل : « فإن » .

(٢) م : « متحركا » ، والصواب ما فى الأصل .

(٣) يمدح أبا سعيد محمد بن يوسف الطائى . وقبله :

رآه العلج مقتحماً عليه كما اقتحم الفناء على الخلود

(٤) رواه التبريزى : « إذا حاص » ، وهى بمعنى خاط ، ثم نبه على رواية « خاط » .

شديداً . فقوله : « خاط عينيه » يريد مَرَّ فيه ، وليس يريد التمكُّن منه حتى يجعلَ أجفانه كالمَخيطة . ومنه قَوْلُه :

* حَتَّى تُخَيِّط بالبياض قُرُونى[1] *

وأضافَ الكَرَى إلى النَّوم كما يُضاف البعض إلى الجنْس ، كأنَّ النوم لجنس الفِعْل ، والكَرَى لِما كانَ على جهةٍ مخصوصةٍ . يقول : إذا نامَ النَّوْمَةَ التى أشارَ إليها لم يَزَلْ له رقيبٌ وحافِظٌ من قَلْبِ رَجُلٍ جادٍّ فى الأمور ، مفاجيءٍ عِرِّيضٍ ، وهذا الرَّجُل هُوَ هُوَ . كأنه يريد إذا نام عينُه لا ينامُ قلبُه . والشَّيْحَانُ والشَّائحُ والشِّيحُ : الحذِر الحازِم . قال الهُذلىّ :

* وشايَحْتَ قَبْلَ اليَوْمِ أنَّكَ شِيحُ[2] *

والفاتِكُ : الذى يفاجيءُ غيره بمكروهٍ أو قَتْلٍ . وفى الحديث : « الإيمانُ قَيَّدَ الفَتْكَ[3] » . وقال الدُّرَيْدى : هو الذى إذا هَمَّ بالشىء فَعَل .

٧ – ويَجْعَلُ عينيهِ رَبِيئَةَ قَلْبِهِ إلَى سَلَّةٍ من حَدِّ أَخْلَقَ باتِكِ[4]

يُرْوَى :

إذا طَلَعَتْ أولَى العَدِيِّ فَنَفْرُه إلى سَـلَّةٍ[5] . . ..

(١) ويروى : « تَخَيَّط » . والبيت لبدر بن عامر الهذلى ، فى اللسان والمقاييس (خيط) . وصدره :

* تالله لا أنسى منيحة واحد *

(٢) لأبى ذؤيب الهذلى فى ديوانه ١١٦ واللسان والمقاييس (شبح) . وصدره :

* بدرت إلى أولاهم فسبقتهم *

(٣) ويروى : « قيد الفتك » على المصدرية . وفى اللسان : « ومنه الحديث : أن رجلا أتى الزبير فقال له : ألا أقتل لك عليا ؟ فقال : فكيف تقتله ؟ فقال : أفتك به . فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قَيَّد الإيمان الفتك ، لا يفتك مؤمن » .

(٤) رواه التبريزى : « أخلق صائك » ولم يفسر الصائك ، وهو المتغير الريح . ثم روى رواية أخرى قال فيها « وهى أسلم الروايتين » . وهى كما رواها :

إذا طلعت أولى العدى فنفره إلى سلة من صارم اللرب باتك

(٥) انظر الحاشية السابقة .

وهى أسْلَمَ الروايتين . والعَدِيُّ : الرَّجّالة الذين يَعْدُون قُدَّام الخيل . وهو اسم صِيغ للجَمْع ، كالكَلِيب والضَّئِين . وعلى الرواية الأولى يقول : لا يَغْفُلُ قَلبُه عن التحفُّظ ، وعينُه دَيْدَبَانُهُ إلى سَلِّ سيفه . فإنْ قيل : كيف يكون العَيْنُ دَيذَبان القلب ، وهذا يقول إذا نام بعينه لم ينَمْ بقلبه ، أم كيف تَصِحّ هذه الرواية وفيها يتكرّر معنًى واحدٌ فى مصراعَى البيتين ، وهل الواجب فى هذ. إلاّ أن يقال إنّ القلبَ هو دَيذبان العين ، لأنّ العين نائمةٌ والقلب منتَبِهٌ ؟ قلتَ : إنّه وصَفَ حالتين ، بالمتقدِّم صِفةُ حال النّوم ، والثانى هو صفةُ حال اليقظة والمعنى أنّ العين رقيب القلب ، والمنتظر لإظهار ما يكرَهُهُ وتغييره ، فإذا كره القلبُ شيئا كان العينُ صاحبَه الذى يُظهره ، فهو ربيئَتُه إلى نَزْعِ السَّيْفِ وتجريدِه ، وإنكارِه ما أنكره وتغييره . والأَخْلَقُ : الأمْلَس . والباتِكُ : القاطع . وقوله « إلى سلةٍ » يجوز أن يكون إلى بمعنى مع ، كما تقول هذا إلى ذاك ، أى مع ذاك ، ويجوز أن يكون المعنى أنّها ربيئَته إلى أن يستلّ سيفَه ، وبعد ذلك فالعمَلُ للقلب ، ويكونُ إلى للانتهاء . وقوله : « من حَدِّ أخلَقَ » فيه تَوَسُّع ، لأن السَّيف يُسْتَلّ من الغِمْدِ فيصير مسلولاً . ألا تَرَى قولَه :

إذا سُلَّ من جَفْنٍ تأَكَّلَ أَثْرُهُ على مثلِ مِصحاةِ اللُّجَيْنِ تأَكُّلا(١)

وهذا جعَل الجفْنَ مسلولاً والسيف مسلولاً منه . ألا ترى قولَه : « إلى سَلّةٍ من حَدِّ أَخلَقَ » ، فهو فى ذلك كقولِهم : أدخلتُ الخُفَّ فى رِجْلى ، والقَلَنْسُوَةَ فى رأسى .

٨ ــ إذَا هزَّهُ فى عَظْمِ قِرْنٍ تَهلَّلَتْ نواجِذُ أفواهِ المَنَايا الضواحِكِ

مثله قول الآخر :

سَقَاهُ الرَّدَى سَيْفٌ إذا سُلَّ أَوْمَضَتْ إليه ثنايا الموتِ من كلِّ مَرْقَبِ

(١) لأوس بن حجر فى ديوانه ٢٠ واللسان (صحا) .

وإن كان هذا وصَفَ السيفَ وقوَّةَ صاحبه فى الضرْب . والمعنى أنه متى حرَّكه فى الضريبة ضَحِك الموت عِلماً بظفره بالمضروب . وذِكْرُ التهلُّلِ والناجذِ مَثَلٌ وتصويرٌ للمراد . وقوله « المنايا الضَّواحك » . أى التى من شأنها أن تضحك عند الظفَر بمطلوبها ، وإنما قال « فى عَظم قِرن » إيذاناً بأنه لا يتعرّض له إلا من يقارنه بأساً وشدَّة ، وكذلك هو لا يُعمل هذا السيفَ إلا فى عَظم من يقارنه حَزْماً ونَجْدةً . ونسبةُ التهلل إلى النواجذ مجاز وسَعَةٌ ، وهذا كما يقال سُرَّ فلانٌ بكذا حتى صار لكل سِنٍّ له ضَحِكٌ . وقد سُمِّيَتْ ما يبدو من الأسنان عند الضحِك الضواحِك .

٩ – يَرَى الْوَحْشَةَ الأُنْسَ الأَنيسَ وَيَهْتَدِى بحيثُ اهْتَدَتْ أُمُّ النُّجُومِ الشَّوابِكِ

قوله : « يرى الوحشةَ الأُنسَ » أى ذلك مذهبُه . وهذا كما يقال هو يرَى رأى أبى حنيفة ، أى يذهب مَذْهبَه . فيقول : أُنْسُ هذا الرّجُل التامّ فى التفرُّدِ الذى يعُدُّه غيرُه وَحشةً . وإتْباعه الأُنْسَ الأنيس تأكيدٌ وإظهارٌ للمبالغة . وهذا كما قيل : ظِلٌّ ظليلٌ ، وداهيةٌ دَهْيَاء . وهم يَبنون من لفظ الشىء ما يُتْبعونه به طريق التأكيد . وقوله : « يهتدى بحيث اهتَدَتْ » يصِفُ عِلمَه بالطُّرُق واستغناءه عن الدليل . وقد قيل فى « أُمِّ النجومِ » إنه الشمس ، وقيل هو المَجَرَّة . والمعنى أنه يهتدى بحيث تهتدى الشمسُ . ويُسمّى مُعظم الشىء أُمَّه . والشمسُ أعظمُ الكواكب . ويسمَّى جامع الأشياء أُمَّها ، يُعنَى[(١)] أنها تأوى إليه . والشَّوابك : المشتبكة . وإذا جعلت أُمّ النجومِ المَجَرَّة فيجوز أن يكون المعنى أنه يهتدى بالكواكب التى تجمعها ، فجَعَل الفِعْل لها لاجتماعها فيها . ويجوز أن يكون المعنى أنه يستغنى عن الدليل كما تستغنى تلك .

(١) م : « بمعنى » .

١٤

قال بعض بنى قَيْس بن ثَعْلَبَةَ ، ويقال إنها لبَشَامَةَ بن جَزْء[1] النَّهْشَلى :

١ — إنّا مُحَيُّوكِ يا سَلْمَى فَحَيِّينَا وإنْ سَقَيْتِ كِرَامَ الناسِ فاسْقِينا

يقول : إنَّا مُسَلِّمُون عَلَيْكِ أَيَّتها المرأة فقابلينا بمثْله ، وإن خَدَمْتِ الكِرامَ وسَقَيْتِهِمْ فَأَجْرِينا مُجْرَاهُم فإنّا منهم . والأصل فى التحية أن يقالَ حَيَّاكَ اللهُ ، ثم استُعْمِلَ فى غيرِهِ من الدُّعاء عند اللِّقاء . وأما قولُه :

ولَكُلُّ ما نالَ الفَتَى قد نِلْتُهُ إلا التَّحيهْ[2]

فالمراد به تحيّة المُلُوكِ خَاصَّةً ، وهو قولهُم : أبَيْتَ اللَّعْنَ ! وقيل فى سَقَيْتِ إنَّ معناهُ : إن دَعَوْتِ لأماثِلِ الناس بالسُّقْيَا فادْعِى لنا أَيْضًا . والأَشْهَرُ فى الدُّعاءِ أن يُقال فيه سَقَّيْتُ فُلاَنًا فيُثقَّل ، [والحجة فى التخفيف قول أبى ذؤيب :

سَقَيت به دارَها إذ نأت وصدَّقت الخالَ فيه الأَنُوحا[3]]

وعلى هذا يكونُ فى الكلامِ إضمارٌ ، كأنه قال : وإن سَقَيْتِ بظَهْرِ الغَيْبِ الكِرَامَ بالدُّعاء عند ذِكْرِهم فافعلى بنا مِثْلَهُ ، وقُولِى سَقَاكم الله . وقد فَصَلَ بعضُهم بين سَقَيْتُ وأَسْقَيْتُ بأنقال: أَسقيتُهُ : جَعَلْتُ له سُقْيَا يَفعل بها ماشاء ، وسقَيته : أعطيته ماءً لفيه . ومثلُه كَسَوْتُهُ وأَكْسَيْتُهُ ، لأن معنى كَسَوْتُهُ

---

(١) كذا فى النسختين . وعند التبريزى والمبرد ٦٥ والبغدادى (٣ : ٥١٥) : « حزن » . وكذلك عند ابن جنى فى المبهج . قال : « والحزن : الموضع الغليظ » . قال البغدادى : « والظاهر أنه إسلامى كما يظهر من شرح المبرد لأبياته » . أى لتنبيه على أنه أخذ بعض معانيه من شعراء إسلاميين . انظر الكامل ٦٥ — ٦٧ ليبسك . ونسب ابن قتيبة الأبيات فى الشعر والشعراء ٦٢٠ إلى نهشل بن حرى ، وفى عيون الأخبار (١ : ١٩٠) إلى بشامة .

(٢) لزهير بن جناب الكلبى فى اللسان (حيا) والمعمرين ٢٦ .

(٣) التكملة من م . والبيت لم يرو فى قصيدة أبى ذؤيب التى على هذا الوزن والرو . انظر ديوانه ١٢٩ — ١٣٦ لكنه نسب إليه فى اللسان (أنح) ، وفسر الخال فيه بأنه المتكبر .

أَلْبَسْتُهُ ، وأَكْسَيْتُه جَعَلْتُ لَهُ كِسْوَةً(١) ، وبعضُهم يجعلهما سواءً ، ويحتجُّ ببيت لبيد :

سَقَى قَوْمِى بَنِى مَجْـدٍ وأَسْقَى ... نُمَيْرًا والقبائلَ من هِلَالِ(٢)

وإذا فُصِلَ بينهما فى البيت لم يختلَّ به لفظا ولا معنًى ، كما أنه إذا سُوِّىَ بينهما لم يختلَّ معنًى ولا لفظا ، فكأنه لا حُجَّة فيه لواحدٍ من القَوْلَيْنِ . والقَصْدُ فى الدعاءِ بالسُّقْيا إلى أن يُمِدَّ اللهُ المدعُوَّ له بما يزيد فى نمائهِ ونَضارته . ألا تَرَى الآخرَ قال لما دَعا على ما تَسَخَّطَهُ(٣) :

إذا سَقَى اللهُ أرضاً صَوْبَ غادِيةٍ ... فلا سَقَاهُنَّ إلا النارَ تَضْطَرِمُ

فذكر ما يُحرِق ويَستأصِل .

٢ ــ وإنْ دَعَوْتِ إلى جُلَّى ومَكْرُمَةٍ ... يومًا سَرَاةَ كِرَامِ النَّاسِ فادْعِينَا

جُلَّى فُعْلَى ، أجراها مجرى الأسماء ويُرادُ بها جليلةٌ . كما يُرادُ بأفْعَلَ فاعِلٌ وفعيلٌ ، نحو قولِهِ تعالى : ﴿ وَهوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ ، أى هَيِّن ؛ وكما قال :

* فتلكَ سَبِيلٌ لَسْتُ فيها بأوْحَدِ(٤) *

أى بواحدٍ ؛ وكقولك : الله أكبر ، تريدُ كبير . يقول : إنْ أشَدْتِ بذكر خيار الناس بجليلةٍ(٥) نابَتْ ، أو مَكْرُمَةٍ عَرَضَتْ وسَنَحَتْ ، فأشيدى بذكرنا أيضاً . وهذا الكلام ظاهره استعطافٌ لها ، والقصدُ به التوصُّلُ إلى بيانِ

---

(١) ضبط فى النسختين بكسر الكاف ، ويقال كسوة أيضا بالضم .

(٢) وكذا روايته فى اللسان والتبريزى والديوان ١٢٧ . قال الطوسى : « مجد ابنة تيم بن غالب بن فهر بن مالك ، وهى أم كلاب وكليب ابنى ربيعة بن عامر بن صعصعة » . وفى م فقط : « بنى بدر » .

(٣) م : « ما يسخطه » .

(٤) صدره كما فى أمالى القالى (٣ : ٢١٨) :

* تمنى أناس أن أموت وإن أمت *

(٥) م : « بجليلة » .

شرفه واستحقاقِه ما يستحقُّه الأفاضل الأشراف ، والأماثل الكرام . ولا سَقْيَ ثَمَّ ولا تحيَّةَ ولا دُعاء ولا مَغاثةَ . ألا ترى كيف اشتغل بمقصوده مِن الافتخار فيما يتلو هذا البيت . وهم كما يتخلصون من التّشبيبات وغيرِها إلى أغراضهم على اختلافها(١) فإنهم قد يتوصَّلون بمبادئ كلامهم إلى أمثالها ، فتقلّ المؤونة ، وتخفّ الكُلْفة . ولهذا نظائرُ وأشباهٌ تجيء فيما بعد . والسَّرَاة فى الناس ، والشَّراة بالشين معجمةً فى المال والخيْلِ . وفى حديث أُمّ زرع(٢) : « فنَكَحْتُ بعدَهُ رَجُلاً سَرِيًّا ، رَكِبَ شَرِيًّا ، وأخذ خَطِّيًّا ، وأرَاحَ عَلَىّ نَعَمًا ثَرِيًّا » . والجُلَّى بالألف واللام : تأنيث الأجَلّ ، كما يقال الأكبر والكُبرى ، وكما قيل السَّبْعُ الطُّوَل جمع الطُّولَى . ولا يُحذف الألفُ واللام منه حينئذ ، لأنَّ أصْلَه يكونُ أفعَلَ الذى يَتِمُّ بمِنْ . ويقال لكلِّ ما عَلاَ شيئًا : جَلَّلَهُ ، ومنه الجَلاَلَة .

٣ــ إِنَّا بَنِي نَهْشَلٍ لا نَدَّعِي لِأَبٍ عَنْهُ وَلاَ هُوَ بالأَبْنَاءِ يَشْرِينا(٣)

نَدَّعِي : نَفْتَعِلُ من الدَّعْوَةِ . وقوله « عنه » تَعَلَّقَ به . ويقال ادَّعى فلانٌ فى بنى هاشمٍ ، إذا انتسبَ إليهم ؛ وادّعى عَنْهم ، إذا عَدَل بنسبِهِ عنهم . وهذا كما يقال : رَغِبْتُ فى كذَا ورَغِبْتُ عن كذا . وقوله : « لأبٍ » أى من أجْلِ أَبٍ ولمكان أَبٍ . وانتصاب « بنى » على إضمارِ فِعل ، كأنه قال : أَذْكر بنى نَهْشَل . وهذا على الاختصاص والمَدْح . وخبر إنّ « لا نَدَّعِي » . ولو رَفَعَ فقال : بنو نَهْشَلٍ ، على أن يكون خبر إنّ لكان لا نَدَّعِي فى موضع الحال . والفَصْل بين أن يكونَ اختصاصًا وبين أن يكون خَبَرًا صُرَاحًا : هو أنّه لو جَعَلَهُ خَبَرًا لَكَانَ قَصدُه إلى تعريف نفسِه عند المخاطَبِ ، وكان لا يَخْلُو فِعْلُهُ لِذلك من

(١) فى الأصل : « على اختلافهم » ، وأثبتنا ما فى م .
(٢) انظر حديث أم زرع فى أوفى رواياته عند السيوطى فى المزهر (٢ : ٥٣٢) .
(٣) التبريزى : « إن كان الشعر للقيسى فالرواية : إنا بنى مالك » .

خُمُولٍ فيهم ، أو جَهْلٍ من المخاطَبِ بشأنهم. فإذا جُعِل اختصاصًا فقد أَمِنَ هو الأمرين جميعا . فقال مفتخرًا : إنَّا نَذْكر من لا يخفى شأنُه ، لا نَفْعَلُ كذا وكذا . وإنَّما قُلتُ خبرًا صُرَاحًا ، لأنَّ لفظ الخبرَ قد يُستعار لمعنى الاختصاص، لكنه يُسْتَدَلُّ على المُرَادِ منه بقرائنه ؛ على هذا قولُه :

* أَنَا أَبُو النَّجْمِ وشِعْرِى شِعْرِى[1] *

ومعنى البيت : إنا لا نَرْغَبُ عن أبينا فننتَسِبَ إلى غيره ، وهو لا يَرْغَبُ عنا فيتبنَّى غيرَنا ويبيعَنا به ، لأنه قد رَضِىَ كلٌّ منا بصاحبه ، عِلْمًا بأن الاختيار لا يَعْدُوه لو خُيِّرَ فاختار . ويقال : شَرَيْتُ الشىء بمعنى بِعْتُهُ واشتريتُه جميعاً ، ومنه الشَّرْوَى ، وهو المِثْلُ .

٤ — إنْ تُبْتَدَرْ غايةٌ يوْمًا لمكْرُمَةٍ تلقَ السوابقَ مِنَّا والمُصَلِّينا

يقال : بادَرْتُهُ مكان كذا وكذا[2] ، وإلى مكانِ كذا . قال :

* فبادَرَهَا وَلَجَاتِ الخَمَرْ *

وكذلك يقال : ابتدَرنَا الغَايَةَ وإلى الغَايَةِ . وقولُه : « لمكرمةٍ » أى لاكتسابِ مكرمةٍ . ويجوز أن يكون اللامُ مُضيفةً للغاية إلى المَكْرُمَةِ ، كأنّه يريدُ تَسَابُقَهُم إلى أقْصاها . يَقُولُ : إن تُسْتَبَقْ نهايةُ مَجْدٍ أو غايَةُ مكرمةٍ تَرَ السابقينَ مِنّا والتَّالِينَ أيضا مِناً . وإنّما قال « المصَلِّين ولم يقل المُصَلِّيَات مَعَ السَّوَابق ، لأنّ قَصْده إلى الآدميّين ، وإن كان استعارَهُما من صفات الخيل . ويجوز أن يكون أخرجَ السابقَ لانقطاعِه عن الموصوف فى أكثر الأحوالِ ،

---

(١) الرجز ينطق بنسبته إلى قائله ، وهو أبو النجم العجلى .

(٢) وكذا الثانية ، ليست فى م .

ولنيابته عن المُجَلِّى وهو اسم الأوّل منها[1] إلى بابِ الأسماء تَجمعه على السَّوابق ، كما يقال كاهِلٌ وكواهلُ ، وغاربٌ وغواربُ . والمُصَلِّى هو الذى يتلو السابق فيكون رَأْسُه عند صَلَاهُ . والصَّلَوانِ : العظمان الناتئان من جانبى العَجُز . وقال الدُّرَيدى : هو العظم الذى فيه مَغْرِز عَجْبِ الذَّنَب . وقال بعض أهل اللغة : هما عِرْقان فى موضع الرِّدفِ .

٥ — لَيْسَ يَهْلِكُ مِنَّا سَيِّدٌ أَبَدًا ... إلاّ افتَلَيْنَا غُلَامًا سَيِّدًا فِينَا

نبّه بهذا الكلام على أنّ مَن يستحق السيادة فيهم يكثُر ولا يقلُّ ، فمتى دَرَجَ منهم رئيسٌ ترشَّح[2] لسدّ مكانِهِ واحدٌ . وهذا مثلُ قولِه :

وإنِّى من القوم الذين هُمُ هُمُ ... إذا مات منهم سيِّدٌ قام صاحِبُه[3]

والافتلاء : الافتطام والأَخْذُ عن الأمر ، ومنه الفَلُوّ . والمعنى هنا الترشيح والتهيئة والصرفُ عما عليه إلى الرِّياسة . و « أبداً » فى المستقبل بمنزلة قَطُّ فى المُضِىّ . والقصدُ أنهم كلَّ وقتٍ على ذلك ، فلا يحتاجون إلى الاستعانة بالأجانب دون الأقارب . والأَبَدُ : الدّهر ، وقيل سُمِّيت الوَحْشُ أوابِدَ لأنها تُعَمَّر على الدّهرِ ، حتى لا تموتُ إلا بآفة . وأن يكون من التأبُّد التوحُّش أحسَنُ ، وإن أمكن رَدُّ الكلِّ إلى أصلٍ واحد .

٦ — إنَّا لنُرْخِصُ يومَ الرَّوْعِ أنفُسَنَا ... ولَوْ نُسَامُ بها فى الأَمْنِ أُغْلِينَا[4]

---

(١) م : « منها » .

(٢) م : « رشح » .

(٣) البيت للقيط بن زرارة كما فى الحيوان (٣ : ٩٣) . ونسب إلى أبى الطمحان القينى فى الكامل ٣٠ والوساطة ١٥٩ . وذكر التبريزى أن البيت أيضا نظير قول أوس بن حجر :

إذا مقرم منا ذرا حدنا به ... تخمط منا ناب آخر مقرم

(٤) فى الكامل ٦٧ أنه أخذه من قول الأجدع الهمدانى :

« أُغلينا » الألف للإطلاق ، والنون ضمير الأنفُس ، ومعنى أُغلِينَ وُجِدَتْ غاليةً أو جُعِلَتْ غاليةً . وهو هكذا أجْوَد ، وليس يُريد أنهم مع الغلاءِ يمكّنون منها ، بل المرادُ قَطعُ المَقْدُرَةِ عنها . ومثْل هذا :

نُعَرِّضُ للسُّيــوفِ بكلِّ ثَغرٍ خُدُودًا لا تُعَرَّضُ للسِّبَاب[1]

فيقول : نَبتذل أنفسَنا فى الحروبِ ولا نصونُها ، ولو عُرِضَ علينا إذالتُها فى غيرها لامتَنَعْنا . وهذا لحِرْصِهِمْ على تخليد الذِّكر الجميل ، والأبانة عن مَحَلّ النفس فى الشجاعةِ . والرُّخْصُ فى السِّعر : سُهولتُه ولِينُه ، وهو من قولهم فيما أظن امرأةٌ رَخْصةً ، إذا كانت ناعمةً . وقولُه : « ولو نُسامُ بها » أى نُحمَل على أن نَسومَ بها . ويقالُ سامَ بسلعته كذا وكذا ، واستامَ أيضاً ، وأَغْلَى السَّوْمَ والسِّيمَةُ . وأَسَمْتُهُ أنا ، أى حَمَلْتُه على أن سامَ . ولا يمتنع أن يكون قولُهم : سُمْتُه خَسْفا ، أصله من ذاك وإن استُعْمِل فى المكروه ، ومنه قولُه تعالى : ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ ٱلْعَذَابِ ﴾ . وفى البيت طِباقٌ بذكر الإرخاص والإغلاء ، والرَّوْع والأمن ، فى موضعين ، وهو حسنٌ جيِّد .

٧ — بِيضٌ مَفارِقُنَا تَغلِي مَرَاجِلُنَا نَأْسُو بأموالنا آثارَ أَيْدِينَا

يُروى : « بِيضٌ معارفنا » ، وهى الوجوه . والمراد بذلك نَقاء العِرضِ وانتفاء الذَّمّ والعيْب . ويقال : امرأةٌ حسنةُ المعارِف ، أى الوجْهِ بما يشتمِلُ عليه . وقيل الأنْفُ وما والاهُ . وقيل : الحُسْنُ فى الأنف ، والمَلاَحةُ فى

= لقد علمت نسوان همدان أننى لهن غداة الروع غير خذول
وأبذل فى الهيجاء وجهى وإننى له فى سوى الهيجاء غير بذول

ومن القتال الكلابى حيث يقول :

أنا ابن الأكرمين بنى قشير وأخوالى الكرام بنو كلاب
نعرض للطعان إذا التقينا وجوها لا تعرض للسباب

(١) عند التبريزى : « إذا التقينا نفوسا » .

الأسنان . وواحدُ المعارفِ مَعْرَفٌ ومَعْرِفٌ(١) ، وكأنَّ الوجهَ سُمِّيَ بها لأنّ معرفةَ الأجسام وتمييزها تقع(٢) بها . والأشهر والأحسن « بيضٌ مفارقُنا » . ويجوز أن يكون أراد ابيضّت مفارقنا من كثرة ما نقاسى الشدائد . وهذا كما يقال أَمْرٌ يُشيبُ الذّوائب . وفى القرآن : ﴿ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴾ . و « تَغْلِى مراجلُنا » أى حروبُنا ، كقول الآخر(٣) :

تَفُورُ علينا قِدْرُهُم فَنُدِيمُها ... ونَفْثَؤُهَا عَنّا إذا حَمْيُها غَلاَ

ويجوز أن يكون المراد : ابيضّت مفارقُنا لانحسار الشّعر عنها ، باعتيادِنا لُبس المَغافر والبَيْض ، وإدماننا إيّاه ، ويكون هذا كما قال :

قد حَصَّتِ البيضةُ رأسى فما ... أَطْعَمُ نَوْمًا غَيْرَ تَهْجَاعِ(٤)

وتكون المراجلُ على هذا كنايةً عن الحروب أيضا . ويجوز أن يكون المراد : ابيضّت مفارقنا من كثرة استعمالنا للطِّيب ، ويكون كقول الآخر :

* جَلاَ الأَذفَرُ الأحوَى من المِسْكِ فَرْقَهُ(٥) *

ويكون على هذا معنى « تغلِى مراجلنا » أى قدورُنا للضِّيافة ، ويجوز أن يُرِيدَ : مَشِيبُنَا مَشِيبُ الكرام ، لا مشيب اللئام . وأنشد ابن الأعرابى فى نوادِرِه :

وشِبْتَ مَشِيبَ العَبْدِ فى نُقْرَةِ القَفَا ... وشَيْبُ كِرامِ النّاسِ فوق المَفَارِقِ

وعلى هذا يُحْمَلُ المراجلُ على أنّ المُراد بها قدور الضيافة . فأمّا قولُهُ : « نأسو

(١) ذكر فى اللسان والقاموس « المعرف » مفتوح الراء فقط .

(٢) هذه الكلمة من م ، وفى أصلها « يقوم » وكتب تحتها « تقع صح » إشارة إلى الصواب .

(٣) هو النابغة الجعدى ، كما فى اللسان (فثأ) ومقاييس اللغة (دوم) .

(٤) لأبى قيس بن الأسلت الأنصارى ، كما فى المفضليات (٢ : ٨٤) .

(٥) روى فى الكامل ١٠٣ ليبسك والبيان (٣ : ٣٠٥) :

جلا المسك والحمام والبيض كالدمى ... وفرق المدارى رأسه فهو أنزع

وانظر للخلاف فى نسبة الشعر الخزانة (٢ : ٥٣٢) .

بأموالنا آثارَ أيدينا » فإنما يريد ترَفُّعَهم عن القَوَدِ ودَفْعَ أطماع النَّاس عن مُقاصَّتِهم ، فيداوون جراحاتِهم ببذل الأُرُوشِ والدِّيات . والأَسْوُ : مداواة الجُرْح وإن استعمِل فى موضع الإصلاح . قال :

والأُساةُ الشُّفَاةُ للدَّاءِ ذى الرِّيـــبةِ والمُدْرِكون للأَوْغَامِ(١)

ويُقال للضارّ النّافع : يَشُجُّ ويأسُو . ومنه اشتقاق الإسوَة ، ويقال الأُسْوَةُ أيضا . ويُروى أنّ مُصْعبَ بن الزُّبير لما انهزمَ الناسُ عنه يومَ مَسْكَنَ جعل يُقاتِل ويتمثّل :

وإنَّ الأُولَى بالطَّفِّ من آلِ هَاشِمٍ تَأَسَّوْا فَسَنُّوا للكِرَام التأسِّيَا(٢)

وفى البيت مع حُسن المعانى التى بيَّنتُها توازُنٌ فى اللفظ مستقيم ، وسلامةٌ ممّا يجلب عليه التَّهجين .

٨ — إنِّى لَمِنْ مَعْشَرٍ أَفْنَى أَوائِلَهُمْ قَوْلُ الكُمَاةِ أَلَا أَيْنَ المحامُونا(٣)

يقاربه قول الخنساء :

* أَقَلَّتْ مُسَامَاةُ الرِّجَالِ عَدِيدَنا *

فيقول مفتخرًا إنِّى لمِن قومٍ أهلكَ أسلافَهُم قولُ الأبطال لَهُمْ ألا أين الذّابّون والمُحَامون ؟ فكانوا يتقدّمون ويفنَوْن . والكُمَاةُ : جمع الكَمِيّ ، وهو من قولهم كَمَى شهادتَه ، إذا كَتَمَهَا ؛ لأنَّ الشُّجاع يستغنى بالفَعَال ، عن الدَّعْوَى والمَقَال ، فكأنّه يستُر أمره وشأنه لوقت الحاجة ، ولأنّه إذا سَكَتَ دَلَّ على صِفَاتِهِ بلاؤُهُ .

٩ — لو كانَ فى الألْفِ منّا واحِدٌ فَدَعَوْا مَنْ فَارِسٌ خَالَهُمْ إِيّاه يَعْنُونا

---

(١) فى الأصل : « للأرغام » بالراء ، صوابه بالواو كما فى م . والأوغام : الترات ، واحدها وغم .

(٢) كذا ورد إنشاده فى النسختين . وفى اللسان والكامل ١٠ :

* تآسوا فسنوا للكرام التآسيا *

(٣) رواية التبريزى : « قيل الكماة » .

يعنى بقَوْلِهِ « فدَعَوْا » أعلنوا الاستغاثة بيَال فُلانٍ ، ومَن فَتًى ، وما أشبهه . ويقال خِلْتُهُ أخالُه خَيْلاً ومَخِيلةً وخَيَلاناً[1] . وهذا مثل قول طَرَفَةَ :

إذا القومُ قالوا من فَتًى خِلْتُ أنّنِي عُنِيتُ فلم أكْسَلْ ولم أتبَلَّدِ

وقد زاد هذا عليه بقوله « لو كان فى الألف مِنّا وَاحِدٌ » . لأنّ ذلك قال : إذا القومُ قالوا من فَتًى ، فنصب نفسه مع قومه ؛ وهذا جَعَلَهُ مُنضمًّا مع الكثرة إلى الغرباء . وإنما قال : « مَن فارسٌ » فنكّر ، كما قال طَرَفَةُ : « من فتًى » فنكّر . ولم يُعرِّف واحدٌ ، منهما ، لأنّ السُّؤال بالمنكَّر لشدة إبهامه يكون أشمَلَ لتناوله واحِدًا واحدًا لاسيَّما وليس القصد فى الاستفهام إلى معهودٍ معيَّن ، ولا إلى الجِنْس فيقال : من الفَتَى ، ومن الفارس . وفى هذه الطريقة قولُ الآخَر :

إذا القومُ قالوا مَن فتًى لعظيمةٍ فَمَا كُلُّهُمْ يُدْعَى ولكنّه الفتى

وبيت بشامة أجْوَد الثلاثة . وقد أحسن الفرزدق كلَّ الإحسان لمّا أشار إلى هذا المعنى فقال :

إذا ما قيل يا لَحُماةِ قَوْمٍ فَنَحْنُ بدَعْوَةِ الداعِى عُنِينَا

١٠ – إذَا الكُمَاةُ تَنَحَّوْا أَنْ يَنَالَهُمُ حَدُّ الظُّبَاتِ وصلناها بأَيْدِينَا[2]

إنّما قال حدّ الظُّبات – وظُبةُ : السّيف حَدُّه – لأنّه أراد المضارب بأسْرِها . وكما صَلَحَ أن يُقال أصابَتْهُ ظُبَةُ السيفِ صلح أن يُقَالَ حَدُّ الظُّبَة . وقيل الظُبَةُ : طَرَفُ السيف ، والشباةُ حَدُّ طَرَفِه . يقولُ : إذا الأبطالُ تباعَدُوا عن المصادمة والمكافحة ، مخافة أن ينالَهُم حَدُّ السيوف مَدَدْنا أبْوَاعَنَا إليهم بِها[3] أو وصلناها ، وفى هذا المعنى قوله :

(١) ضبط فى النسختين بكسر الخاء . وفى اللسان والقاموس « الخيلان » بالتحريك .

(٢) رواية التبريزى : « أن يصيبهم » .

(٣) فى الأصل : « بنا » ، والكلمة ساقطة من م .

إذَا قَصُرَتْ أَسْيَافُنَا كان وَصْلُهَا خُطَانا إلى أعـدائِنَا فَنُضارِبِ[1]

وقوله « تنحّوا أن ينالَهم » أى تنحوا أن ينالَهم ، ومخافةَ أن يُنالَهم ؛ فلمّا حُذِفَ مِنْ وَصَلَ الفِعْل فَعَمِل . وعلى هذا قولهم : تَحَصَّنَ فلانٌ أن يُطْلَبَ ، وقول الله تعالى : ﴿ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلّوا ﴾ . وقوله : « وصلناها بأيدينا » أى إذا عَجَزت جعلْنا وُصَلَها أيدِيَنا . وهذه الأبيات إذا تُؤُمِّلَت فكلٌّ منها غاية يدعُو إلى نفسه لَفْظًا ومعْنًى .

١١ ــ وَلاَ تَرَاهُمْ وَإِنْ جَلَّتْ مُصِيبَتُهُمْ مع البُكَاةِ على مَن مَاتَ يَبْكُونَا

يصف تعوُّدهم للثُّكْل ، وإلْفَهُم للمصائب والقتل ، وأنَّ قلوبهم قد مَرَنَتْ عليها حتّى قَسَتْ ، فلا يبكون مع البكاةِ على من قُتِلَ منهم . ومثله قول عمرو بن كلثوم :

مَعَـاذَ الإِلٰه أن تَنُوحَ نِسَاؤُنَا على هَالِكٍ أو أن نَضِجَّ من القَتْل

١٢ ــ وَنَرْكَبُ الكُرْهَ أَحْيَانًا فَيَفْرُجُهُ عَنَّا الحِفَاظُ وَأَسْيَافٌ تُوَاتِينَا

يجوز أن يكون هذا كما قال الآخر :

* فخالَفْنَا السُّيوفَ على الدهْرِ *

ويجوزأن يكون أراد بالسيوف رجالاً كأنّهم السيوف مضاءً ونفاذًا . والأوّل أولَى . وإنما يصِفُ خِطارَهُم بمُهَجِهم ، وركوبَهم المهالك ، ورمْيَهم بأنفسهم المَرامِيَ المُعْطِبَةَ . فيقول : إذا فعلْنا ذلك فى الوقت بعد الوقت ، وسَّعَتِ المضايقَ عَنَّا مُحافَظَتُنا على الكرم وصَبْرُنا على الشدائد ، واستعمالنا سُيُوفَنَا المطاوِعةَ لنا . ومعنى

(١) كذا جاءت الرواية فى النسختين . والمعروف فى رواية بيت قيس بن الخطيم :

إذا قصرت أسيافنا كان وصلها خطانا إلى أعدائنا فنضارب

وللأخنس بن شهاب التغلبى فى المفضليات (٢ : ٧) :

وإن قصرت أسيافنا كان وصلها خطانا إلى القوم الذين نضارب

يفرُجُه : يكشِفه ويوسِّعه . ويقال : فَرَج الله غَمَّه وفرَّجه ، بالتخفيف والتشديد . ومنه سمِّى ما بين القوائم : الفروج . وإطلاق لفظ الفَرج على العَوْرَةِ يجرى مجرى الـكنايات . وعلى هذا قيل : رجُلٌ فُرَجَةٌ ، إذا كان كشَّافًا لأسراره .

١٥

عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثى ، ويقالُ إنَّهُ للسَّمَوْءَل ابن عَادِيَا اليهودىّ :

١ ــ إذَا المرءُ لم يَدْنَسْ مِنَ اللُّؤْمِ عِرْضُهُ ‍ فكلُّ رِدَاءٍ يرتَدِيهِ جَمِيـــلُ

يقال : دَنِسَ دَنَسًا ، وَتَدَنَّسَ تَدَنُّسًا ، إذا تكلّفه . فيقول : إذا لم يتدنّس الرجلُ باكتساب اللُّؤْم واعتياده فأىُّ مَلْبَسٍ لَبِسَهُ بعد ذلك كان حَسَنًا جميلا . وذِكر الرِّداء هاهنا مُسْتَعَار ، وقد قيل : ردَّاه اللهُ رداءَ عَملِه ، فجُعِل كنايةً عن مكافأة العبْد بمـا يعمَله ، أو تشهيره به ، كما جَعَله هذا الشّاعر كنايةً عن الفِعْلِ نفسِه . وتحقيقه : فأىُّ عملٍ عَمِلَهُ بعد تَجَنُّبِ اللُّؤم كان حَسَنًا . واللؤم : اسمٌ لخصالٍ تجتمع ، وهى البُخْل واختيار ما تتَّقيه المروءة[٢] ، والصَّبرُ على الدنيَّة ، ودناءةُ النَّفسِ والآباء . وإذا يَتضمَّن معنى الجزاء ، والفاء مع ما بعده جوابه . وليس هذا من قول عمرو بن معديكرب :

ليس الجمـــــالُ بمئزرٍ ‍ فاعـلمْ وإنْ رُدِّيتَ بُرْدَا

---

(١) لم يذكر التبريزى النسبة الأولى فى صدر الإنشاد ، ولكنه ذكرها قبل تفسير البيت الأول . قال : « ويقال إنها لعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثى ، وهو إسلامى » . وهو السموءل ابن غريض بن عاديا ، المضروب به المثل فى الوفاء ، لأنه أسلم ابنه حتى قتل ولم يخن أمانته فى أدراع أودعها عنده امرؤ القيس . انظر الأغانى (١٩ : ٩٨ — ١٠٠) وابن سلام ١٠٩ . وهذا الإنشاد وما بعده من الكلام إلى البيت الثالث — ما عدا سطرا قبله — ساقط من م .

(٢) فى الأصل : « يتقيه » وعند التبريزى : « ما تنفيه » ؛ والمؤدى متقارب .

فيُعتقَد أنه يريد بالرداء الثيابَ بسبيلٍ ، فاعلمْه .

٢ – إذا المَرْءُ لم يَحْمِلْ على النَّفْسِ ضَيْمَهَا فلَيْسَ إلى حُسْنِ الثَّنَاءِ سَبِيلُ[١]

يقول : إذا المرء لم يَحْمِل ظُلْمَ نفسه عليها ، ولم يصبِّرها على مكارهها ، فليس له طَرِيقٌ إلى الثَّناء الحسن . وهذا يشير إلى كَظْم الغيظ ، واستعمال الحِلْم ، وترك الظُّلْمِ والبَغْى مع ذويه ، والصَّبر على المشاق ، وإهانة النفس فى طلب الحقوق ؛ لأنَّ مَنْ تعوَّد هذه الأشياء علا ذِكْرُه ، وحَسُنَ ثناؤه . ويقال : ضامَهُ ضَيماً ، وهو مَضِيمٌ ، إذا عَدَلَ به عن طريق النَّصَفَة واهتضمه . ومنه قيل : قعد فى ضِيم الجَبَلِ ، أى فى ناحيةٍ تَنْعدِل إليه[٢] . وكما استُعْمِلَ الضِّيمُ من ضَامَ ، كذلك استُعمل الهِضْمُ واحدُ أهْضَامِ الوَادى من هَضَمَ . ويَبْعُدُ من طريق المعنى أن يُرِيدَ بقوله « ضَيْمَهَا » ضَيْمَ الغَيْرِ لها فأضافَ المَصْدَرَ إلى المفعول ، لأنَّ احتمالَ ضَيْمِ الغَيْرِ لهم يأنفُون منه ، ويعدّونه تذلُّلاً .

٣ – تُعَيِّرُنا إنا قليلٌ عَدِيدُنَا فقُلْتُ لها إنَّ الكِرَامَ قَلِيلُ

يقال عَيَّرْتهُ كذا ، وهو المختار الحَسَنُ ، وقد جاء عَيَّرته بكذا . قال عَدِيٌّ :

أيُّهَا الشامِتُ المُعَيِّرُ بالدَّهْـ ـرِ أأَنْتَ المُبَرَّأُ الموفُورُ

والمعنى أنكرَتْ منَّا قلَّة عَدَدِنا فعدّته عاراً ، فأجبْتُها وقلتُ إنّ الكِرامَ يقِلّون . والكَرَم : اسمٌ لخصالٍ تُضادُّ خِصالَ اللُّؤمِ ، وقد ذكرناها[٣] . وهذا الاعترافُ الذى حصل منه إنما هو اعترافٌ بقلّة العدد لا بقلّة القَدْرِ والغَنَاءِ .

---

(١) التبريزى : « وإن هو لم يحمل » .

(٢) فى الأصل : « فى ناحيته يتعدك إليه » تحريف . وفى الحماسة : « فى ناحية تعدل إليه » .

(٣) فى تفسير البيت الأول ص ١١٠ .

ألا تَرَى أنه رَجَعَ عليه بالنّفى فى البيت الثانى فقال :

* وما قَلَّ مَن كانت بقاياه مِثْلَنَا *

على أن قولَه « إنّ الكرام قليل » يشتمل على معانٍ كثيرة : وهى وَلوعُ الدّهر بهم ، واعتيام الموت إيّاهم ، وقلة النَّسْل فيهم ، واستقتالهم فى الدّفاع عن أحْسَابِهِم ، وإهانتُهمْ كرائم نفوسهم مخافةَ لزوم العار لهم ، ومحافظتُهم على عِمارة ما ابتناه أسلافُهم . وكلُّ ذلك يقلّل العَدَد ، ويقصر المَدَد . وقليلٌ وكثيرٌ يوصف بهما الواحد والجمع .

٤ – وما قَلَّ من كانَتْ بقَايَاهُ مِثْلَنَا شَبَابٌ تَسَامَى لِلْعُلاَ وكُهُولُ

الهاء من قوله « بقاياه » راجعة إلى لفظ « مَنْ » لأنّ معناه الكثرة . ولو ردّ عليه[1] لقال بقاياهم . يقول : وما حصَلت القِلّةُ فى القَدْر والغَناء ، ولا لَحِقت الذِّلّةُ فى اللِّقاء والدفاع لأسلافٍ أخلافُهم نحنُ ، شبّانٌ وكُهُولٌ يتسامَون فى اكتساب المعالى ، ويترقَّون فى درجات الفضل . و « شبابٌ » مَصْدَرٌ فى الأَصْل ووُصِفَ به ، ولذلك لا يثنّى ولا يُجْمَع . يقال شَبَّ الصبىّ يَشِبُّ شَبَاباً . وقولُه « تَسَامى » أراد تَتَسَامَى ، فحذف إحْدَى التاءين استثقالاً للجمع بينهما . فإن قلتَ : هَلّا أُدغمَت كما أُدغِمَتْ فى أدّارك — والأصل تدارك ؟ قلت : ليس هذا موضعَ إدغام ، لأنّه فعل مضارع . ألا تَرَى أنه لو أُدْغِم لاحتيج إلى جَلْب ألف الوصْل لسكون أوّله ، وألفُ الوصل لا يدخل على الفعل المضارع . والكَهْل : الذى قد وخَطه الشيب ، ومنه اكْتَهَلَ النَّبْتُ ، إذا شَمِلَهُ النوْر .

٥ – وما ضَرَّنا أَنَّا قليلٌ وجارُنا عزيزٌ وجارُ الأكثرِينَ ذليلُ

فى هذا الكلام تعريض بعشيرة من جاذبه الكلام[2] . يقول : وما يضرّنا

---

(١) أى على المعنى . وفى م : « عليهم » .

(٢) م : « بالكلام » .

قِلّةُ عددنا وجارُنا فى عِزٍّ ، وجار من لهم العدَدُ والكثرة فى ذُلّ . وقوله : « وما ضَرّنا » يجوز أن يكون ما حَرْف نفى ، والمعنى لم يضُرّنا ؛ ويجوز أن يكون اسمًا مستفهَما به على طريق التّقرير ، والمعنى أىُّ شىء يَضُرُّنا . والواو من قوله : « وجارُنا عزيزٌ » واو الحال ، أى لا يضرُّنا ذلك والحال هذا . وكذلك الواو من قوله : « وجار الأكثرين ذليل » واو الحال . وإنّما صَلَح الجمع بين الحالين لأنّهما لذاتين مختلفتين ، ولو كانا لذات واحدةٍ لم يَصْلُح . والعِزُّ والعزازة استُعمل فى القُدرَة والمَنْع ، وفى الصَّلابة والشِّدّة . ويقال : تعزَّز اللّحم ، لأنّ الكلّ يرجع إلى أصل واحد ، كما أنّ الذُّل والذِّل الذى هو ضدُّه استُعْمِل فى الانقياد والسُّهولة واللِّين والوَطاءة ، إذ جميعُه يدعو إلى شىء واحد . وفى طريقته :

فجارُكَ عند بيتك لحمُ ظَبْيٍ وجارِى عند بيتى لا يُرامُ

وقول الآخر[1] :

* وهم يَمْنَعون جارَهم أن يُقَرَّدا[2] *

٦ ــ لَنَا جَبَلٌ يَحْتَلُّهُ من نُجِيرُهُ مَنِيعٌ يرُدُّ الطَّرْفَ وهو كَلِيلُ[3]

ومثله :

لنا هَضْبَةٌ لا يدخُلُ الذُّلُّ وَسْطَهَا ويأوِى إليها المستجيرُ ليُعْصَمَا

وأراد بذكر الجبل العِزَّ والسموّ . فيقولُ : لنا جبلُ عِزٍّ يدخُله من نُدْخِله فى جوارِنا ، ممتنعٌ على طالبِه ، يَرُدُّ لإشرافه وسُمُوّه طَرْفَ الناظر إليه وهو حسير .

(١) هو الحصين بن القعقاع ، كما فى اللسان (سنت ، ألس) .
(٢) صدره : * هم السمن بالسنوت لا ألس بينهم *
(٣) فى الأصل : « برد الط ف » ، صوابه فى م والتبريزى .

ومنيعٌ : اسم الفاعل من مَنُعَ مَنَاعَةً ومَنَاعًا(١) ، ومنه المَنَعَةُ . ويجوز أن يكون فعيلاً فى معنى مفعول ، أى ممنوع منه ، وكما استُعْمِل المنيع فى العِزِّ استُعْمِلَ أيضا فى العِفَّةِ ، فقيل امرأة منيعةٌ وممتنعةٌ(٢) أى عفيفَةٌ . وحَلَّ واحتلَّ بمعنًى . والطَّرْف : النَّظَرُ والعين جميعا . وقال الدُّرَيْدِىّ : طَرْف العين امتداد لَحْظِها(٣) .

٧ — رَسَا أَصْلُهُ تَحْتَ الثَّرَى وَسَمَا بِهِ إلى النَّجْمِ فَرْعٌ لا يُنَالُ طَوِيلُ

رَسَا الجَبَلُ : ثبتَ أصلُه فى الأرض . ومنه رسَت السُّفُن ، إذا انتهت إلى قَرار البَحر(٤) . والرُسُوُّ والرُّسوخ يتقاربان . والثَّرَى : النَّدَى . وما تحت الأرض ثَرًى . ويقال : ثرًى ثَرِىٌّ ، على المبالغة . يقول : ثبت أصلُ هذا الجبل — وهو يريد العزّ على ما بيّنت — تحت الأرض وارْتفَع به أعْلَى طويلٌ لا ينَال إلى محلّ النّجم . والمرادُ : عِزُّنا أصلُه تحت الأرض السّابعة ، وفَرْعُه عند النجم . ومعنى لا يُنال : لا يُوصَلُ إليه ولا يُحَصَّلُ مثلُه . وكما كان يقال فى الرّفيع الشّأن العالى القدْر : هو فى النجم وهو فى السُّكَاك ، وكان قصْده فى الفَرْع أنه مديدٌ حتّى اتّصل بالنجم ، زاده صِفَةً فقال طويل . وقد طَابَقَ الرسُوّ بالسُّمُوّ ، كما قابل الأصل بالفَرْع . ونقله أبو تمامٍ فقال :

لنـا نَبْعَةٌ فرعُها فى السماء وفى هامةِ الحوتِ أعْرَاقُها

٨ — وإنّا لقَوْمٌ ما نَرَى القَتْلَ سُبَّةً إذا ما رأتْهُ عَامِرٌ وسَلُولُ

كان وجه الكلام أن يقول : ما يَرَوْن القتل سُبّةً ، حتّى يرجع الضمير من

(١) هذا المصدر مما لم يرد فى المعاجم المتداولة .
(٢) م : « متمنعة » .
(٣) نبه التبريزى إلى أنه روى بيت آخر بعد هذا البيت فى بعض الروايات ، وهو :
هو الأبلق الفرد الذى سار ذكره يعز على من رامه ويطول
(٤) م « إلى قرار الأرض » ، والمؤدى واحد . وفى اللسان : « ورست السفينة ترسو رسوا : بلغ أسفلها القعر وانتهى إلى قرار الماء ، فثبتت وبقيت لا تسير » .

صفة القوم إليه ولا تَعْرَى منه ، لكنّه لمّا عَلِمَ أنّ المُرَادَ بالقَوْمِ هُمْ قال : ما نرى . وقد جاء فى الصّلة مثلُ هذا ، وهو فيه أفْظَع ، قال :

* أنا الذى سَمَّتْنِ أُمّى حَيْدَرَهْ[١] *

والوجه « سَمّته » حتّى لا يَعْرَى الصّلةُ من ضمير الموصول . قال أبو عثمان المازنىُّ : لولا صحّة موردِهِ وتكرُّره لرَدَدته . فَضَّل عشيرته فى الصَّبر على الموت ، والثّبات فى الحرب على عامرٍ وسَلُول ، وهما قبيلتان[٢] . فيقول : إذَا حَسِبَ هؤلاء القتل والقتال عارًا ومنقَصةً عدّها عشيرتى فخرًا ومكرُمةً . والسُّبّة : ما يُسَبّ به ، كما أن الُخدعةَ ما يُخدَع به . وأصل السَّب : القَطْع ، ثم اسْتُعْمِلَ فى الشَّتم . وهذا كما يقال : فلانٌ يُقَطِّع أعراضَ الناس . وقولُه : « ما نَرَى » أى لا نجعل ذلك مذهبًا .

٩ — يُقَرِّبُ حُبُّ الموتِ آجالَنا لَنَا وتَكْرَهُهُ آجالُهُمْ فَتَطُولُ[٣]

قوله : « يقرب حبُّ الموت » أى حبُّنا للموت . وجعل فى مقابلته : « وتكرهُه آجالهم » لأنّه يشتمل على ما يوفِّيها حَقَّها من اللّفظ . وإنْ كانت[٤] من حيث المعنى قد حَصَلَتْ : ويبعِّد بُغْضُهُمْ إيّاه آجالَهم . ويكون الشّاعر مُلِمًّا فى المصراع الأوّل بقول الآخر :

* رأيتُ الكريمَ الُحرَّ ليس له عُمْرُ *

لأنه يشير إلى أنهم يُغتَبَطون لاقتحامهم المنايا ، وحِرْصهم على ملابسة

(١) لعلى بن أبى طالب ، كما فى اللسان (حدر ، سندر) .
(٢) التبريزى : « يعنى عامر بن صعصعة . وبنو سلول هم بنو مرة بن صعصعة بن معاوية ابن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان » .
(٣) ب و : « يقصر حب الموت » ، كما سيأتى ، وكما عند التبريزى .
(٤) الضمير فى « كانت » للمقابلة . فى الأصل : « وهو وإن كانت » . م : « وهو وإن كان »

الحروب ، وأن أولئك يعمرّون لمجانبتهم الشرور ، وزهدِهم فى مجاذبة العدو[١] .
ويجوز أن يكون أضافَ الحُبَّ من قوله « حُبُّ الموت » إلى الفاعل ، فيكون المعنى : يقرِّبُ حُبُّ الموت لنا آجالنا ، ويكون هذا كقول طَرَفة :

أرَى الموتَ يعتامُ الـكِرامَ ويصطفِى عَقيلَةَ مالِ الفاحِشِ المتشـددِ

ويكون على هذا قوله « وتكرهه آجالهم » محمولا على أنه إذا كرهت آجالهم الموتَ فقد كره الموتُ آجالهم أيضاً . ألا ترى قول دُرَيد :

أبَى القَتْلُ إلا آلَ صِمَّـةَ إنّهُم أبَوْا غيرهُ والقَدْرُ يَجرِى إلى القَدْرِ

وقول مُتمم :

* أرَى الموت طَلاَّعًا على مَن تَرَفَّعَا[٢] *

وإذا كان كذلك فالتقابل فى هذا الوجه حاصلٌ أيضاً . وبعضهم روى : « يُقصِّرُ حُبُّ الموت » واختارهُ ، ليكون القِصَرُ بإزاء الطول . وهم لا يُراعون مثل هذا إذا تناسبت المعانى وتقابلت ، ويكون ذلك منهم كالمتبرئ[٣] من التكلّف . ألا تَرى أبا ذُؤَيْبٍ الهُذَلِيَّ قال :

وَشيكُ الفُصُولِ بَعيدُ القُفُول إلا مُشاحًا به أو مُشِيحَـا

وقد كان يمكنه أن يقول بطىء القفول فلم يُراع ذلك . وقد أحسَنَ عنترة كلَّ الإحسان فى سُلوكِ هذه الطريقة ، حين قال :

* ليْسَ الـكريمُ على القَنَا بمُحَرَّمِ[٤] *

(١) م : « محاربة العدو » .
(٢) م : « توقعا » . وفى المفضليات (٢ : ٧٠) :
فلا تفرحن يوماً بنفسك إننى أرى الموت وقاعاً على من تشجعا
(٣) م « كالمبرأ » .
(٤) صدره :
* فشككت بالرمح الأصم ثيابه *

١٠ ـ وَمَا مَاتَ مِنَّا سَيِّدٌ حَتْفَ أَنْفِهِ ولا طُلَّ منا حيثُ كان قَتِيلُ[(١)]

« حتفَ » انتصب على الحال ، ولم يُستعمل منه حُتِف ولا هو محتوف . وليس هذا مثل تبَسَّمَتْ وميضَ البَرْقِ[(٢)] ، فاعلمه . يقول : لم يَمُتْ رئيسٌ منّا على فراشِهِ ، بل مات ميتةً كريمةً فى الحرب تحتَ ظِلالِ السُّيوف والرِّماح ، ولا أُبطِلَ دَمُ قتيلٍ منّا حيث كان ، وعلى يدِ مَن اتَّفق . وهذا غاية ما يَتَحَمَّدُ به الفُتَّاكُ وأبناء الحروب ، حتَّى إنّ بعضهم اعتذَرَ عن مات على فراشه فقال :

بِحَمْدٍ من سِنانِكَ لا بِذَمّ أبَا قُرّانَ مُتَّ على مِثَالِ[(٣)]

وفى هذه الطريقة قولُه :

كُتِبَ القَتْلُ والقِتَالُ عَلَيْنَا وعلى الغانياتِ جَرُّ الذُّيولِ[(٤)]

وقوله : « مات حتف أنفه » يقال إنّ أوّل مَن تكلم به النبيُّ صلى الله عليه وسلم . وتحقيقُه : كان حتفُه بأنفه ، أى بالأنفاس التى خرجت من أنفه عند نُزوع الرُّوح ، لا دَفعةً واحدة . ويقال خُصّ الأنفُ بذلك لأنه من جهته ينقضى الرَّمَق . ويقال : طُلَّ دمه يُطَلُّ طَلًّا ، إذا أُهْدِر .

١١ ـ تَسِيلُ على حَدِّ الظُّبَاتِ نُفُوسُنَا وليست على غَيْرِ السيوفِ تَسِيلُ

يُروى : « تسيل على حدِّ السُّيوف نفوسُنا » . ولم يقل وليست على غيرها تَسِيلُ فى الروايتين ، لأنّهم يكررون أسماء الأجناس والاعلام كثيرًا ،

(١) التبريزى : « ويروى :

* وما مات منا سيد فى فراشه

وهذه الرواية رواية من يجعل القصيدة جاهلية » .

(٢) أى ليس من المنصوب على أنه مصدر مرادف .

(٣) المثال : الفراش . وفى قول الأعشى :

بكل طوال الساعدين كأنما يرى بسرى الليل المثال الممهدا

(٤) لعمر بن أبى ربيعة . الأغانى (٨ : ١٣٣) وزهر الآداب (٣ : ٧٦) وعيون الأخبار (٢ : ٤٩) .

ولا سيّما إذا قَصَدوا التفخيم بها . كما قال عَدِىٌّ :

لاَ أرَى الموتَ يسبقُ الموتَ شىءٌ نَغَّصَ الموتُ ذَا الغِنَى والفقيرا

وفى الرواية الثانية — وهى المشهورة — أضافَ الحدَّ إلى الظُّبَات . وهذا فيه وجهان : أحدُهما أن يكون أراد بالظُّبَاتِ السيوفَ كلَّها ثمّ أضاف الحدَّ إليها ، والمعنى : تسيل على حَدِّ السيوف دماؤنا وليست تسيل على غيرها . وهذا كما يُسَمَّى السيفُ كما هُوَ نَصْلاً ، وكما يُسَمَّى السَّهْمُ نَصْلاً كما هو . والثانى أن إضافة الحدِّ إلى الظُّبات كإضافة البعض إلى الكلّ ، ويكون التقدير : تسيل على الحدِّ من الظُّبَاتِ ، وتكون الظُّبَاتُ مَضَارِبَ السيوف . فإن قيل : كيف تبجّح بأن تكون دماؤهم تسيل على حَدِّ السيوف لا على غيره ؟ قلتَ : إنّ الدماء قد تُسال بالعِصِيّ وبغيرها مما لا يكون شَرَفًا ، فعَدّ القِتلةَ التى تكون بالسّيف أكرم . ألا تَرَى أنّ بنى أَسَدٍ يُسَمَّون « عبيد العَصَا » لمّا كان حُجْرٌ أبو امرئ القيس حينَ أوقع بهم قتلهم بها ، لتكون قِتلتهم ذميمة . وقد قُتل كثيرٌ منهم بالجلاميد والصُّخور ، ولذلك قال بعضهم :

جلاميدُ أملاءُ الأكُفِّ كأنها رءوسُ رِجالٍ حُلِّقَتْ فى المواسم[1]

وقال آخر[2] :

ولا نُقَــــاتِلُ بالعصىِّ ولا نرامى بالحجارهْ
إلاّ عُــــلالَةَ أو بُدَا هَةَ سابحٍ نَهْدِ الجُــزَارهْ

وإذا كان الأمْر على هذا فمعنى التبجّح أن تكون منيّتهم بالسيوف ظاهرة .

وأما قوله :

لو بأبانَيْنِ جاء يخطُبُهـا رُمِّلَ ما أنفُ خاطبٍ بدَمِ[3]

(١) انظر البيان (٣ : ١٥) والكامل ٣٣٣ ليبسك .

(٢) هو الأعشى . ديوانه ١٤٤ — ١١٥ .

(٣) لمهلهل بن ربيعة ، كما فى معجم البلدان (أبانان) .

فإنّ الفَحْل الهجِينَ إذا تعرّض للناقة الكريمة قُرِعَ أنفُه بالعصا وضُرِبَ وجْهُهُ بها ، فهو من ذاك مأخوذ .

١٢ ـ صَفَوْنا فلم نَكْدُرْ وأَخْلَصَ سِرَّنا إناثٌ أَطابَتْ حَمْلَنا وفُحُولُ[1]

أشار بهذا الكلام إلى كَرَمِ المَناصِب والمَناسِب ، وطيب المَنبِتِ والمَغرِس . فيقول : صَفَتْ أنسابُنا فلم يَشُبْها كُدُورَةٌ . وخَلَّصَ نِكاحَنا أُمّهاتٌ طَيِّبَتْ حَمْلنا ، وآباءٌ كَرَّمَتْ عُرُوقَنا . ويقال : كَدِرَ الماء يَكْدَرُ كَدَرًا وكُدُورا وكُدُورةً ، وهو أكدَرُ وكَدِرٌ . وفى ضِدّه صفا الماء يَصْفُو صُفُوًّا ؛ والصَّفاء الاسم . ومن أمثالهم : « خُذْ ما صَفَا وَدَعْ ما كَدِرَ » . والسِّرُّ : النِّكاحُ . وسِرُّ الشىء : خالصُه . ويجوز أن يكونَ قولُهم سُرِّيّةٌ فُعْلِيَّة من هذا .

١٣ ـ عَلَوْنا إلى خَيْرِ الظُّهُورِ وحَطَّنا لوقتٍ إلى خيرِ البطونِ نُزولُ

يصف تردُّدَهم فى شَرَف المَصْعَد والمنحدر ، وكرم العُنْصر والمتحوَّل ، كما ذكر طهارة المَنكِح والمولِد ، وجلالة المُعتَلَى والمستقَرّ ، فيقول : عَلَوْنا فى خير الظهور ، أى حصلنا فى أعلى المراتب من ظهور أكرم الآباء ، وحَدَرَنا منها لوقتٍ معلومٍ ـ يُشير إلى وقتِ الأطهار ـ نزولٌ إلى خيرِ البطون من أشرف الأمهات[2] . والمعنى أنّا كِرام الأطرافِ . وهـذه الأبيات إذا تُؤُمِّلت أدَّى التأمُّل منها إلى سلامة اللفظ والمعنى من كل مَعَاب[3] ، وحُصُولِ الفخامة والجلالةِ لها فى كل جانبٍ وبابٍ .

---

(١) نكدر ، ورد بفتح الدال فى النسختين ، ويجوز ضمها ، فإن ماضيها مثلث الدالّ كما فى القاموس .

(٢) أى نزول من ظهور آبائهم إلى خير بطون من أشرف أمهات .

(٣) معاب ، أى عيب ، وفى الاصل : « مصاب » صوابه فى م .

١٤ـ فنحنُ كماء المُزْنِ مافى نِصَابِنَا كَهَامٌ ولا فينا يُعَدُّ بَخِيلُ

ماء المطر أصفَى المياه عندهم ، فشبَّه صفاءَ أنسابهم بصفاء ماء المطر . والمُزنُ : السحابُ . وقوله : « ما فى نصابنا كَهَامٌ » ، أى ليس فينا كليل الحدِّ ، ولكن كُلٌّ منا ماضٍ نافذٌ ، ولا فينا بخيل فيُعَدّ . وهو نَفْىٌ للبخل رَأْساً ، وليس يريد أن فيهم بخيلاً ومع ذلك لا يعدُّ[1] . ومِثلهُ :

* ولا تَرَى الضَّبَّ بها يَنْجَحِرْ[2] *

أى ليس بها ضَبٌّ رأساً فينجحر ، ومثل هذا كثير . ويقال كَهَمَ وكَهُمَ يَكْهَمُ ويَكْهُمُ كَهَامةً ، فهو كَهَامٌ وكَهِيمٌ . يقال ذلك للرّجُل إذا ضَعُف ، وللسيْف إذا كَلَّ .

١٥ـ ونُنْكِرُ إنْ شِئنَا على الناسِ قَوْلَهُمْ ولا يُنْكِرُونَ القَوْلَ حِينَ نَقُولُ

هذا مثل قول الآخر :

وما يستطيعُ الناسُ عَقداً نَشُدّه ونَنْقُضُهُ منهمْ وإن كان مُبْرَمَا[3]

يصف رياستَهُم وعلوَّ كلامهم ونفاذَ حُكمهم ، ورجوعَ الناس فى المهمّات إلى رأيهم ، والاعتمادَ على تدبيرهم[4] ومَشُورتهم . فيقول : نُغَيِّرُ ما نُريدُ تغييرَه من قول غيرِنا ، وأحَدٌ لا يَجسُرُ على الاعتراض علينا ، والإنكارِ لقولنا ، انقيادًا لهوانا ، واقتداءً بحزمِنَا . وهذا كما قال الأعشى :

(١) لا يعد ، ساقطة من الأصل ، وإثباتها من م .
(٢) البيت لابن أحمر ، كما فى الخزانة (٤ : ٢٧٣) . وصدره :
* لا تفزع الأرنب أهوالها *
(٣) عند التبريزى : « نشده » و « وينقضه » .
(٤) فى الأصل : « فى تدبيرهم » ، وأثبتنا ما فى م .

* كُلٌّ سيرْضَى بأن يُلْقَى له تَبَعا[١] *

١٦— إذا سيِّدٌ مِنَّا خَلاَ قامَ سيِّدٌ قَؤُولٌ لِمَا قال الكِرَامُ فَعُولُ

يشبهه قول حاتم :

إذا مات منَّا سيِّدٌ قامَ بَعْدَهُ نَظيرٌ له يُغْنِى غَنَــاهُ ويَخْلُفُ

وقولُ عُرْوَةَ :

إذا ماتَ منهمْ سيِّدٌ قامَ بَعدَه عَلَى مجـدِه غَمرُ المروءة سيِّدُ[٢]

١٧—وما أُخْمِدَتْ نارٌ لنا دُونَ طارقٍ ولا ذَمَّنَا فى النازلينَ نَزِيلُ

أراد بقوله « نارٌ لنا » نار الضيافة . يقول : نُديم إيقادَها فلا تُطْفَأ دون طارقِ ليلٍ . والضيفُ إذا فارَقَنا حَمِدَنا ولم يَذُمَّنا ، لحُسْنِ توفُّرِ ناعليه ، واحتفالِنا عند سَوْق الخير إليه . والنَّزِيل ، كالرَّفيق والجليس والأَكيل . والطُّرُوق يَختَصّ باللَّيل . وسُمِّىَ النجم طارقاً لذلك .

١٨—وأَيَّامُنَا مَشْهورَةٌ فى عَدُوِّنا لها غُرَرٌ معلومةٌ وحُجُولُ

يقول : وقَعاتُنا مشهورةٌ فى أعدائنا معلومةٌ ، فهى بين الأيَّام كالأفراس الغُرِّ المُحَجَّلَةِ بين الخَيْل ، يُعرَف بلاؤُنا فيها ، وحُسْنُ آثارِنا عند النُّهوض لها . وهذا كما قال :

* ولَمَّا يَكُنْ يومٌ أَغَرُّ مُحَجَّلُ *

والتحجيل : أن يبيضَّ من الأوظِفة مواضعُ الحِجْلِ ، وهو القَيْدُ والخَلْخَالُ .

(١) كذا فى الأصل ، وفى م : « يلقى لها » ، وفى الديوان ٨٦ : « بأن يرعى له » . وصدر البيت :

* تلقى له سادة الأقوام تابعة *

(٢) عجز هذا البيت من م . والبيت لم يرو فى ديوان عروة .

فإذا ارتفع التّحجيل حتى يبلُغ الفخذين فما فَوْقُ فهْوَ التجويف . قال طُفَيْلٌ :

* شَمِيطُ الذُّنابَى جُوِّفَتْ فهى جَوْنةٌ[1] *

١٩ — وأَسيافُنا فى كل غَرْبٍ ومَشْرِقٍ بها من قِرَاعِ الدَّارِعِينَ فُلُولُ

مثله قولُ النابغة :

وَلاَ عَيْبَ فيهم غيرُ أن سيُوفَهُمْ بِهِنَّ فُلولٌ من قِرَاعِ الكتائب

يقول : قد تَفَلَّلَتْ سيوفُنا بما نضارب بها الأعداء ، فى مشارق الأرض ومغاربها . وقال : « من قِرَاعِ الدّارِعِين » ، لأن الغَرَض أن يكون عدوُّهم على غاية الاحتراز منهم ؛ وفى أكمل الاستعداد لهم . وقوله : « فى كل غَرْبٍ وَمَشْرِقٍ » ظَرْفٌ لِقراع الدّارِعِين . أى بأسيافنا فُلُولٌ من القِراع فى كل غربٍ ومَشْرِقٍ .

٢٠ — مُعَوَّدَةٌ أَلاَّ تُسَلَّ نِصَالُهَا فَتُغْمَدَ حتى يُسْتَبَاحَ قَبِيلُ[2]

مثله قَوْل الآخر[3] :

بأيْدى رِجالٍ لَمْ يَشِيمُوا سيوفَهُمْ ولَمْ تَكْثُر القَتلَى بها حين سُلَّتِ

---

(١) عجزه كما فى الديوان ٦٠ واللسان (شمط ، جوف)

* بنقبة ديباج وريط مقطع *

(٢) فى الأصل : « قبيل » ، وصواب الرواية من م والتبريزى ، وهو ما يقتضيه التفسير بعده .

(٣) هو سليمان بن قتة ، أو الفرزدق . ديوانه ١٣٩ واللسان (شيم) والكامل ١٧٤ ليبسك والعمدة (٢ : ١٥١) . وقال المبرد « وهذا البيت ظريف عند أصحاب المعانى، وتأويله لم يشيموا : لم يغمدوا . ولم تكثر القتلى ، أى لم يغمدوا سيوفهم إلا وقد كثرت القتلى حين سلت » . وقال ابن رشيق : « أراد لم يغمدوا سيوفهم إلا بعد أن كثرت بها القتلى ، كما تقول : لم أضربك و [أنت] لم تجن على إلا بعد أن جنيت على . وقال آخرون : أراد لم يسلوا سيوفهم إلا وقد كثرت بها القتلى . كما تقول : لم ألقك ولم أحسن إليك إلا وقد أحسنت إليك . والقولان جميعا صحيحان ، لأنه من الأضداد » .

وانتصبَ « مُعَوَّدَةً » على الحال . ويجوز أن ترْفَعَ على أن تكون خَبَر ابتداءٍ مُضْمر ، والعامل فيه إذا كان حَالاً ما يَدُلُّ عليه قولُه : « بها من قِرَاع الدَّارعِينَ فُلُولُ » . فيقول : عُوِّدَتْ سيوفُنَا ألّا تُجَرَّدَ من أغمادها فتُرَدَّ فيها إلا بعد أن يُسْتَباحَ بها قبائِلُ . ويقال : عَوَّدْتُه كَذَا فتعوّدَهُ واعتادَهُ . والعادةُ من العَوْدِ وهو الرُّجُوعُ ، ولذلك قالوا للمُوَاظِبِ على الشيء : هو معاوِدٌ له . وقولُه « فتَغْمَدَ » ، يُقال غَمدتُ السَّيفَ وأغْمَدْتُه ، وأصْلُه السَّتْر ، ومنه تغمَّدَهُ الله برحمته .

٢١ ـ سَلِي إنْ جَهِلْتِ النَّاسَ عَنَّا وعَنْكُمُ(١) وليْسَ سَوَاءً عَالِمٌ وجَهُولُ

يُرْوَى : «عَنَّا فتُخْبِري» . كأنّه استدلّ على تصحيح ما ادّعاها من الخصال التي عَدَّدَها بشهادة النّاسِ له وتصديقهم مَقَالَهُ . يقولُ : سَلِي النّاس عَنَّا إن جَهلتِ ما حَكَيْتُه من أفعالنا حتى تُخبَرِي فتؤمِني به وتَسْكُني إليه ، فليس العالمُ بالشيء كالمُخَمِّنِ أوالمُجَوِّزِ أوالشَّاكِّ أوالحادِسِ أوالمقَدِّرِ(٢) . والعِلْمُ قد يَحْصُل بإخْبارِ المخبرين كما يَحْصُل بالمشاهدة ، فلذلك دَعَاهَا إلى ما دَعَا من السُّؤَالِ والكَشْف . وقولُه : «فتُخبَرِي» ينتصب بأنْ مضمَرَةً وهو جواب الأمر بالفاء . والسَّواء يكونُ مَصْدَراً وَوَصْفًا في مَعْنَى مُسْتوٍ . يقال : هذا دِرْهَمٌ سَوَاءٌ ، أى مُسْتَوٍ ؛ وهذا دِرْهَمٌ سَوَاء أى استواءٍ ، كما تقولُ هذا دِرْهَمٌ تَمَاماً ، أى تَمَّ تَمَاماً . وفي القرآن : ﴿في أَرْبَعَةِ أيّامٍ سَواءً للسَّائلين﴾ أي مستويات ، وقرئ ﴿سَوَاءٍ(٣)﴾ على المصدر كأنّه قال : استواءً . حَكَى أبو الحسن الأخفشُ : هُمَا سَوَاءٌ وهما سَوَاءان .

(١) التبريزى : «عنا وعنهم» .
(٢) م : «أو المقلد» .
(٣) قراءة النصب على الحال هى قراءة الجمهور . وقرأها بالجر على النعت زيد بن على ، والحسن ، وابن أبي إسحاق ، وعمرو بن عبيد ، وعيسى ويعقوب . وقرأها أبو جعفر بالرفع ، أى هو سواء . تفسير أبي حيان (سورة فصلت) .

٢٢ ـ فَإنَّ بنِى الدَّيَّانِ قُطْبٌ لِقَوْمِهِم تَدُورُ رَحَاهُمْ حَوْلَهُمْ وتَجُولُ

القُطْبُ : الحديدة فى الطَّبَقِ الأسْفَلِ من الرحَى يدور عليها الطَّبَقُ الأَعْلَى . وسُمِّىَ قُطْبُ السَّمَاء لما يَدُورُ عليه الفَلَكُ . وعلى التشبيه قالوا : فُلَانٌ قُطْبُ بنى فُلَانٍ ، أى سَيِّدُهُم الذى يَلُوذون به ، وهو قُطْبُ الحَرْبِ .

١٦

الشَّمَيذَرُ الحَارِثىُّ :

قال الدُّرَيْدِىُّ : شميذر : دَابَّةٌ زعموا ، ولا أَحْسِبُهَا عَرَبيَّةً صحيحةً .

قال البَرقىُّ : هذا الشِّعر لسُوَيْدِ بن صُمَيْعٍ المَرْثَدِىِّ ، من بنى الحارث ، وكان قُتِلَ أَخُوهُ غِيلَةً فقَتَل قاتِلَ أخيهِ نَهَارًا فى بعض الأسْوَاقِ من الحَضَرِ .

١ ـ بَنِى عَمِّنَا لا تَذْكُرُوا الشِّعْرَ بَعْدَمَا دَفَنْتُم بِصَحْرَاءِ الغُمَيْرِ القَوَافِيَا

الصحراء : اسم للمكان الواسع ، وجَمْعُهُ صَحَارٍ وصُحْرٌ . قال :

* أَتِىٌّ مَدَّهُ صُحَرٌ ولُوبُ[(١)] *

وأَصْحَرَ القَوْمُ : بَرَزُوا إليها ، ومنه قيل لقيته صَحْرَةَ بَحرةَ ، أى عِيَانًا ومُبَارَزَةً . يقول : دَعُوا التَّفَاخُرَ فى الشِّعْرِ وبالشِّعر ، فإنّكم قَصَّرْتُم بصحراء الغُمَيْرِ ولم تُبْلُوا فيها فتنطلِق ألسنتكم لَدَى المساجَلة ، وتستجيب قوافِى الشعر لكم ، إذا أردتم نَظْمَها وإنشادَها ، عند المنافرَة والمحاكَمَة ، لأنّكم أَمَتُّمْ قوافىَ الشِّعر ودفنتموها . فكما أنَّ الميِّت لا يُجيب إذا دُعِىَ ، كذلك لا يُجِيبُكُم الشِّعر إذا أردتموه ، مع سُوءِ بلائكم ، وقُبح آثارِكُم . والقافية : آخر البيت المشتملُ على

(١) لأبى ذؤيب الهذلى فى ديوانه ٩٢ واللسان والمقاييس (صحر) . وصدره :
* سبى من يراعته نفاه *

ـما بُنِيَ عليه القصيدة . وقد يُسمَّى البيت كما هو قافيةً . قال :

وقَافِيَةٍ مِثْلِ حَدِّ السِّنَانِ تَبْقَى وَيَذْهَبُ من قَالَهَا[١]

قال الأخفش : وتسمَّى القصيدة بأسْرِهَا قافيةً . قال :

* فَمَنْ لِلقَوَافِى بَعْدَ كعب يَحُوكُها[٢] *

٢ـ فَلَسْنَا كَمَنْ كُنْتم تصيبُونَ سَلَّةً فَنَقْبَلَ ضَيْمًا أو نُحَكِّمَ قَاضِيَا

فى هذا الكلام تعريضٌ بقومٍ أشار إليهم بقوله : « كمن كنتم » ، وتصريحٌ للمخاطَبين ، ومُجَاهَرَةٌ[٣] بالقَوْلِ ، فهو يرميهم بالضَّعف وأنّهم إذا نالوا من العَدُوِّ شيئا نالُوهُ سَرِقَةً . فيقولُ : لسنا كالذين كنتم تنالونَهُمْ سَرِقَةً ، فنلتزِمَ لكم الضَّيم ، أو نَنْصِبَ حَاكِمًا يقضى بيننا وبينكم . وأشار بالضَّيْم إلى التغميض على ما يكون من سَرِقتهم . وكأنَّ القومَ الذين أشار إليهم وانتفى من أن يكون حَالُهُ كحالهم ، كانوا يقابِلُون سَرِقَتَهُم وتَجاسُرَهُمْ عليهم إمّا بالتغميض ، وهو التزامُ الضَّيْمِ عِنْدَهُ ، وإمّا بالمرافَعَةِ إلى الحاكِمِ ونَصْبِ المتوسّط ، والعَجْزُ فى حُكْمِه . وانتصاب « نقبل » على أنه جوابُ النّفى بالفاء . ويقولون : فى بنى فُلانٍ سَلَّةٌ ، أى سَرِقَةٌ . وانتصابُ سَلَّةً على أنه مَصْدَرٌ فى موضِعِ الحال ، والتقدير : تصيبونهم سالّينَ وساقين .

٣ـ وَلَكِنَّ حُكْمَ السَّيْفِ فِيكُمْ مُسَلَّطٌ فَنَرْضَى إذا ماأَصْبَحَ السَّيْفُ رَاضِيَا

يقولُ : مَتَى عَدَوْتُم طَوْرَكُمْ ، أو خَرَجْتُمْ من حَدِّكُمْ ، فإنّا نُسَلِّطُ السيفَ

---

(١) البيت للخنساء ، كما فى اللسان .

(٢) البيت لكعب بن زهير فى الشعر والشعراء ١٠٣ ، ١٠٧ . وعجزه :

* إذا ما مضى كعب وفوز جرول *

(٣) م : « ومجاهدة » .

عليكم ، ولا نَرْضَى إلا بحُكْمه فيكم . فَمَتَى رَضِيَ رَضِينَا[1] ، وفى طريقته قوله :

* ونَشْتِمُ بالأفْعالِ لا بالتَّكَلُّمِ *

٤ ـ وَقَدْ سَاءَنِى مَاجَرَّتِ الحَرْبُ بَيْنَنَا   بَنِى عَمِّنَا لو كانَ أمْرًا مُدَانِيَا

دَلَّ بقوله : « لو كان أمْرًا مُدَانيا » على أنه لم يسُؤْه ما جَنَتِ الحربُ بينهم ، لأنه وقع بالاستحقاق . ألا ترى أنه قال ساءنى ذلك لو كان الأمرُ المؤدِّى إليه أمرًا مُدَانِيًا ، وكنّا نَعرفُ للاحتمالِ فيه موضعا ، وللصَّبْر عليه مَجَالاً ومَذْهَبًا . فأمّا والشَّأن مُسْتَفْحِلٌ ، وتعدّيكم متفاقمٌ ، فإنه لا يَسُوءُنى . وقوله : « لو كان أمْرًا مُدَانيا » ، أراد لو كان الأمرُ أمرًا أَمَمًا لساءنى . وإذا كان كذلك فجواب لو متقدِّم ، وتلخيصه : لو كان ما تردَّدْنا فيه قريبًا لساءنى ما جنته الحرب بيننا ، ولكن الآن لم يَسُؤْ . وهذا تعظيم لما كان منهم إليهم ، وكالاعتذار عن الأخذ بالفَضْل عليهم ، وتَرْكِ الصَّفح عنهم .

٥ ـ فإنْ قُلْتُمُ إنّا ظَلَمْنَا فَلَمْ نكُنْ   ظَلَمْنَا ولكنّا أَسَأْنَا التَّقَاضِيَا

رواه بعضهم : « فإن تَزْعُموا أنّا ظَلَمْنَا » . والزَّعْمُ فى دَفْعِ الدَّعْوَى أبلغُ ، وإنما نبَّه بهذا الكلام على أنه لا يَعُدُّ ما عُومِلُوا به ظُلْمًا ، مع كوْنِ ابتدائه منهم ، وإن كان فيه سَرَفٌ . فيقولُ : إنِ ادّعيتُم علينا أنّا ظلمناكم فإنّا لم نظلمْكم ، مع عُدوانكم ، وسَبْقِكم إلى الشرّ وتهييجه ، ولكنّا أسأْنا فى تقاضيكم الحقّ ، وإيفائكم الجزاء ، حين استخرجْنا بالعُنْفِ والقَهرِ ، ومجاوزَةِ الأدنى من الأمرَيْنِ إلى الأقصَى . فكأنه سَمَّى ما عَدَّه أولئك ظلما سُوءَ تقَاضٍ . والظُّلْمُ قيل فيه : إنه وضْعُ الشىء فى غير موضِعِه ، ولذلك قيل للأرضِ الصُّلْبةِ إذا حُفِرَتْ : مظلومةٌ ، وللسِّقاء إذا تُنُووِلَ ما فيه قبل إدراكه : ظَلِيمٌ . وقيل : الظُّلْمُ :

(١) فى الأصل : « فمن رضى رضيناه » ، وأثبتنا ما فى م .

انتقاصُ الحق . قوله « فلم نَكُنْ ظَلَمْنا » إذا كانَ من حكم الجواب أن يكون طِبْقاً للابتداء ومبنيا عليه ، فمن الواجب عليه كان أن يقول : فإن قُلتم إنّا كنّا ظلمْنا . ألا تَرَى أنَّا نقولُ فى قولِ الله تعالى : ﴿ وما كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ ﴾ إنه كان جوابَ قائلٍ قال كان الله سيعذِّبُهُمْ . فنَفَى على حَدِّ الابتداء وطريقتِه ، لـكنَّ الشاعر حَذَفَ مِن الابتداء كُنَّا ، لأن ما فى الجواب يَدُل عليه .

١٧

وَدَّاك بن نُمَيْل المـازِنىُّ

قال البَرقىُّ هو وَدَّاك بن سِنَانِ بن نُمَيْلٍ(١) :

١ — رُوَيْدَ بَنِى شَيْبَانَ بَعْضَ وَعِيدِكُم تُلاَقُوا غَدًا خَيْلِى على سَفَوَانِ

رويْدًا : تصغيرُ إرْوادٍ ، وهو مصدر أرْوَدتُ فلاناً ، على طريق التَّرخيم ، وانتصابه بفعْلٍ مضمرٍ دَلّ عليه لفظُه . وأكثر ما يجىء تصغير الترخيم يجىء فى الاعْلاَم ، وقد يُجْعَلُ رُوَيْدًا اسْماً لارْفُقْ ، فَيُبْنَى حينئذ كما يُبْنَى أخَوَاتُهُ من أسماءِ الأفعالِ . على ذلك ما جاء فى المَثَلِ من قَوْلهم : « رُوَيْدَ يَعْلُونَ الجَدَدَ » . وقد تُزَادُ كاف الخطاب عليه فيقال : « رُوَيْدَكَ » ، على ذلك قولُهُمْ : « رُوَيْدَكَ الشِّعْرَ يَغِبَّ » . وقوله : « بعضَ وعيدِكم » انتصب بفعلٍ مُضْمَرٍ دَلَّ عليه رُوَيْدَ ، لأنَّ مع استعمالِ الرِّفْق كَفًّا عن بعض الوعيد ، فكأنَّه لما قال

(١) نميل ، وردت هكذا بالنون فى الأصل فى هذا الموضع وسابقه ، وهى رواية نص عليها التبريزى فيما يلى . ويبدو أن « وداكا » شاعر جاهلى ، ولم نعثر له على ترجمة . التبريزى : « وداك فعال من الودك والدكة ، وأصله الصفة ، ألا ترى أن فعلا بابه بالصفة ، وقلما توجد فى الأسماء . وفى الكتاب من ذلك الكلاء والجبان . قال أبو الفتح : وزادنا أبو على الفياد : ذكر اليوم . ووجدت أنا الجيار ، وهو السمان أو نحوه ، والصاروخ أيضا . وثميل : تصغير ثمل أو ثامل على الترخيم . ويقال فيه أيضا نميل بالنون » .

أَرْوِدوا يا بنى شيبانَ قال : كُفُّوا بَعْضَ الوعيد . وهذا تهكُّمٌ وسُخْرِيَّةٌ[1] .
وقوله : «تلاقوا» ، الجزْم على أنّه جوابٌ للأمر الذى دلّ عليه رُوَيْدًا . وإنّما جُعِلَ للأمْرِ الجوابُ لأنّه ضُمِّنَ معنى الجزاء والشَّرْطِ . وسَفَوانُ : اسمُ ماءٍ قالوا هو من البَصْرَةِ على أميَالٍ . ومعنى البيت مفهوم . وقولُه « غَداً » لم يُشِرْ به إلى اليوم الذى يَلِى يومَهُ ، وإنما دَلّ على تقريب الأمر ، فكأنه قال : تُلاقَوا خَيْلِى قريباً على هذا الماء[2] .

٢ـ تُلاقُوا جِيَادًا لا تَحِيدُ عن الْوَغَى إذا ما غَدَتْ فى المأْزِقِ المُتَدَانِى

الوَغَى ، أصله ، الجَلَبَةُ والصّوتُ ، وكذلك الوعَى بالعين غير معجمة . قال :

* كأنّ وَعَى الْخُمُوشِ بجانِبَيْها[3] *

وجِيَاد هاهنا : جمع جَوَادٍ ، يقال فَرَسٌ جوادٌ : عتيقٌ ، وخيلٌ جيادٌ : عِتاقٌ . وفى غير هذا المكان يكون جمع جَيِّدٍ . وتُلاقُوا بدل من تُلاقوا الأوّل . نَبَّهَ بهذا على أنّ المرادَ بالخيل الفُرْسانُ ، على عادتهم فى قولِهِم الخَيْلُ والرَّجْلُ . قال الله تعالى : ﴿ وأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ ﴾ ، ولهذا قال فيما بعده :

(١) السخرية ، وردت فى النسختين بتشديد الياء ، وهو مصدر سخر به ، كما فى اللسان ، ولم ترد فى القاموس . والسخرية بتخفيف الياء اسم منه .

(٢) ابن جنى : «وبنى شيبان منصوب على نداء المضاف البتة فى التوابين جميعا ، كقولك مع التنوين رفقا بابنى شيبان ، وكذلك حاله إذا بناه وجعله اسما للفعل فى الأمر كأنه قال : رويدكم يابنى شيبان ، أى انتظروا الأمر يابنى شيبان . فإن قلت : فهل تجيز أن تكون بنى شيبان مع كون رويد اسما للفعل مجرورا بإضافة رويد هذه إليه ، كما تتول فى الكاف والميم ، من رويدكم إنها مجرور بإضافة هذا الاسم المبنى عليه ويستدل على أنها اسم لا حرف خطاب بما حكاه سيبويه عنهم من قولهم رويدكم أجمعين وأجمعون ، فأجمعين توكيد للكاف والميم ، وأجمعون توكيد الضمير المرفوع فيه . فالجواب أن ذلك لا يجوز هنا ، من قبل أن هذه الأسماء المسمى بها الأفعال لا يؤمر بها الغائب ، وإنما هى موضوعة لأمر الحاضر » .

(٣) للمتنخل الهذلى ، كما فى اللسان (خمش ، وعى ، وغى) وديوان الهذليين (٢ : ٢٥) . وصواب الرواية « بجانبيه » لأنه فى صفة ماء . وعجزه :

* وعى ركب أميم ذوى زياط *

« تُلاَقُوهُمُ فتعرِفُوا كيف صَبْرُهُمْ » . ويجوز أن يكون أراد بالخيل الدوابَّ ، ووصفها بأنها لا تَجْبُنُ عن الوَغَى ، لِدَوَام مُمَارستها له ، وتعوّدِها إيَّاهُ . ثم خَبَّرَ فى قوله : « تُلاقوهم » عن أربابِها ، فيقول : أرْفُقُوا تُلاَقوا فُرْساناً كِرَامًا لا تَملُّ الحروبَ ولا تَعْدِلُ عنها إذا ابتكرَتْ فى مَضيقٍ منها ، تتلاحَمُ فيه الفُرسان وتتَدَانَى فيه الأبطالُ والشُّجعان . وإنّما قال ذلك لأنّه مع التدانى لا يكون إلاّ التّجالُد ، وعندهُ تَثْـكَلُ الأُمّهات . والمَأْزِقُ : المَضِيقُ ، وكانَّ أصلَهُ من الأَزْق فى الحرْبِ ، فهو مَفْعِلٌ منه .

٣ — تُلاَقُوهُمُ فتَعْرِفُوا كَيْفَ صَبْرُهُمْ عَلَى ما جَنَتْ فِيهِمْ يَدُ الحَدَثَانِ

قوله « على ما جنت » يريد على جنايةٍ . وموضعه نصبٌ على الحال ، والعامِلُ فيه تَعْرِفُوا . أو تُلاَقُوا . يقول : تُلاقُوا من بلائِهم ما يُسْتَدَلُّ به على حُسن صبرهم وثَباتِهم فى جِلاَدِهِم ، هذا مع تحامُل الزَّمان عليهم ، وسوء تأثير الدَّهر فيهم . وأصل الصّبر : الحَبْسُ ، ومنه قُتِلَ فلانٌ صَبْرًا . وحَدَثُ الدَّهْرِ وأحْدَاثُهُ وحَدَثانُهُ وحوادثه : نوازِلُهُ .

٤ — مَقَادِيمُ وَصَّالُونَ فى الرَّوْعِ خَطْوَهُمْ بِـكُلِّ رقيقِ الشَّفْرَتَيْنِ يَمَانِ

مَقَادِيمُ : جمع مِقدَامٍ . ويشبه هذا البيت قوله :

إذا قَصُرَت أسيافُنا كان وَصْلُهَا خُطَانا إلى أعدائنا لتضارُبِ[1]

وقد مرّ مثله ، لـكنّ فى هذا قَلْبًا ، وذاك أنه قال : وَصَّالُون خَطْوَهُمْ بكلِّ رقيقِ الشفرتين ، وكان الواجب أن يقول : كُلَّ رقيقِ الشفرتين بخَطْوِهِمْ . ألا تَرى أنه قال : إذا قَصُرَتْ أسيافنا وصلناها بخُطانا ؟ وقال الآخر :

(١) سبق البيت فى ص ١٠٩ .

* نَصِلُ السيوفَ إذَا قَصُرْنَ بخطْونا[١] *

ومثل هذا البيت فى القَلبِ بل فى تبيين جواز القلب ، وقول حُمَيْد بن ثَوْرٍ :

نَصِلُ الُخطَى بالسَّيفِ والسيفَ بالُخطَى ... إذَا ظنَّ أن السَّيْفَ ذا الأَثْرِ قاصِرُ

٥ ـ إذَا استُنْجِدُوا لم يَسْأَلُوا من دَعَاهُمُ ... لِأَيَّةِ حَرْبٍ أم بأيِّ مَكانِ[٢]

هذا مثل قوله :

لا يَسألون أخاهم حين يَنْدُبُهم ... فى النائبات عَلَى ما قَالَ بُرْهانا[٣]

والمعنى : إنّا لا نُطَالِب العِلَلَ على المستنجِد توصُّلا إلى دفعِهِ أو مَطْلِهِ ، ولكنّا نعجّل غَوْثَهُ على كلِّ حالٍ . والاستنجاد : الاستصراخ . ورجل مِنجَادٌ : مِغْوَان ، وقد أَنْجَدَنِى ، ويقالُ هُوَ نَجْدٌ من قومٍ أَنْجَاد . ومثله قولُ الآخر :

كُنَّا إذا ما أَتَانَا صَارِخٌ فَزِعٌ ... كَانَ الصُّرَاخُ له قَرْعَ الظَّنَابِيبِ[٤]

١٨

سَوَّار بن الُمضَرَّبِ السَّعْدِى[٥] :

من سَعْدِ بنى تَمِيم . وقال البَرْقِىّ : من سعد بنى كلاب .

١ ـ فَلَوْ سَأَلَتْ سَرَاةَ الحَىِّ سَلْمَى ... عَلَى أَنْ قد تَلَوَّنَ بى زَمَانِى

(١) لكعب بن مالك الأنصارى كما فى الخزانة ٣ : ٢٢ والسيرة ٧٠٥ — ٧٠٦ وشرح شواهد المغنى ١٢٢ . ونسبه ابن قتيبة فى الشعر والشعراء ٢٧٩ إلى ربيعة بن مقروم . وعجزه :

* قدما ونلحقها إذا لم تلحق *

(٢) م : « أم لأى مكان » .

(٣) البيت ٤ من الحماسية الأولى .

(٤) لسلامة بن جندل فى المفضليات (١ : ١٢٣) .

(٥) المضرب بتشديد الراء المفتوحة ، ذكر التبريزى أنه سمى بذلك لأنه شبب بامرأة فحلف أخوها ليضربنه بالسيف مائة ضربة ، فضربه فغشى عليه ، فسمى مضربا لذلك . وهو شاعر إسلامى ، ذكر المبرد فى الكامل ٢٨٩ ، ٦٦٦ أنه هرب من الحجاج ، وقال :

أقاتلى الحجاج إن لم أزر له ... دراب وأترك عند هند فؤاديا

وذكره الآمدى فى المؤتلف ١٨٣

سَرَاةُ الناسِ : خيارُهُمْ . وشَرَاة الإبل بالشين معجمةً : كرامُهَا . وقد مَرَّ ذِكْرُه(١) . وقال الخليل : السَّرْوُ : سَخَاءٌ فى مُرُوَّةٍ . وسَرَا يَسْرُو فهو سَرِىٌّ وقومٌ سَرَاةٌ ، ولم يجئ على فَعَلَةٍ غيرها . يعنى أن فَعَلَة يُختصُّ بها الصَّحيح فى الجمع دون المعتلّ ، وذلك كالفَجَرةِ والفَسَقَةِ . وتلوُّن الزَّمان يشير به إلى تصاريفِهِ بالخير والشّر ، والنَّفع والضَّر . فيقول : لو بَحَثَتْ هذه المرأة بالسُّؤال عن أحوالى على تَبَدُّل الأَبْدال ، وتغيُّر النَّفْع والضَّر بى فيما مضَى ، وتَنَقُّل الأحداث علىَّ مرةً بعد أخرى . وجواب « لو » يجىء من بعدِ قولِه : « أَنْ تَلَوَّنَ » ، وأَنْ إذا وُصِلَ بالماضى أفاد حَدَثًا ماضِيًا ، وإذا وُصِلَ بالمستقبل أفاد حَدَثًا مُستَقبلاً .

٢ — لَخَبَّرَها ذَوُو أَحْسابِ قَوْمِى وأعدائى فـكلٌّ قَدْ بَلاَنِى

قولُه : « لخبَّرها » جوابُ لو . وأَحْساب : جمع حَسَب ، وهو ما يُحْسَبُ ويُعَدُّ عند التفاخُر . يقول : لو سأَلتْ لأنبأها بخبرى أشرافُ قومى ، وأماثلُ أعدائى ، فكلٌّ منهم قد خَبَرَنى . يشير بهذا الكلام إلى أنّ زعماء قبيلته وذَوِى الشرف من رَهْطِه ، يَعترفون له بالفَضْلِ ، ويشهدُونَ له بما يَكْسِبُه جميلَ الذِّكر ، وأنّ أعداءه على ما قاسَوْا من وقَعاته بهم ، وكابدوا من بَدَرَاتِهِ فيهم ، لا يَجحدون تَبْرِيزَه ، ولا يُنكِرون تقديمَه . ومَن اعترَف له بالفضل مُواليه ومُعاديه ، وصَدَّقه فى دعواه أقارِبُه وأجانبُه ، فهو النهايةُ فى الكمال ، والغايةُ عند البحث عن الفَعَالِ . وقولُه : « فكُلٌّ قد بلانى » اعتراضٌ حَصَل بين خَبَّر ومفعولِه ، وهو قوله « بذبِّى الذم » ، والفاء دخلت معلّقةً لجواب الجملة بها .

٣ — بِذَبِّى الذَّمَّ عن حَسَبِى بِمالِى وزَبُّونَاتِ أَشْوَسَ تَيَّحَانِ

الباء من قوله « بذبِّى » تتعلق بقوله لخبَّرها . وكأنّ الإخبار بحسن دِفاعِهِ

(١) انظر البيت ٢ من الحماسية ١٤ .

عن حَسَبِهِ بمالِهِ ، وكَرَمِ مُحافظته على شرفه وحاله ، من تزكية ذوى الأحْسَاب من عشيرته وثنائهم عليه ، والإنباء بدفعِهِ مَعَرَّةَ الأشْوَسِ التَّيَّحان ، من إخبار أعدائه وشهادتهم له . فكما أَجْمَلَ فى الأوّل أجمل فى الثانى ، ثقةً بأن مسامع عند التفصيل يردُّ كُلاًّ إلى موضعه . وإنما خَصَّ ذوى الأحساب من قومِهِ لأنّ شهادتَهم أوجَه ، والتحاسُد لهم أشملُ ، والقَرِينَ بمُقَارِنِه أعلم . وقوله : «زَبُّونات» فَعُّولات من الزَّبْنِ ، وهو الدَّفع . والتَّيَّحان : العِرِّيض للقِدام ، وهو فَيعَلان بفتح العين ، ولا يجوز أن يُرْوَى بكسرها ، لأن فيعِلان لم يجئ فى الصحيح فيُبْنَى المعتلّ عليه قياساً . وفيعِلٌ كسيِّدٍ من الأبنية المختصةَ بالمعتَل . ومثْل تيَّحان هَيَّبانٌ ، وهما صفتان حكاهما سيبويه بالفتح ، ومثالهما من الصحيح قَيْقَبانٌ وسَيْسَبانٌ . وتيَّحانٌ ، مَن تاحَ له يَتُوحُ ويَتِيحُ لغتان ، إذا أشرف وتهيّأ . ورجُلٌ مِتْيَحٌ ، ويقال قَلْبٌ مِتْيَحٌ أيضاً . وأُتيح له كذا . ومثْلُ الزَّبُّون البَيُّوت ، وهو السَّقِيط[1] ، والهَمُّ المُبَايِتُ لصاحبه . يقال زَبَنَتْهم الحرْبُ ، وحَرْبٌ زَبُونٌ وطَحُونٌ . والزِّبْنِيَةُ واحد الزَّبانِيّ من هذا . وَفِعْلِيَةٌ من الأبنية التى تلزمُها الهاء . والأشْوَسُ : الذى يُعْرَفُ فى نظرِه الغَضَبُ والحِقْدُ ، ثم استُعمل فى المتكبِّر والمَهِيب .

٤ — وأَنِّى لا أَزالُ أَخَا حُرُوبٍ إذَا لم أَجْنِ كُنْتُ مِجَنَّ جَانِ

فى هذه الطريقة قول الآخر :

ولَمْ يَجْنِها لكنْ جَناها وَلِيُّهُ فآسى وآداه فكان كمن جَنَى[2]

ويُرْوَى : « وأنّى لا أزال أخا حُرُوب » فيعطف على بذبّى الذَّمّ ، ويكون موضِعُه جرًّا ، ويكون هذا مما شَهِدَ به الأعداء له أيضاً . فإن كسرت إنّى

---

(١) السقيط ما سقط من الندى على الأرض .

(٢) آداه : عاونه . وهذه رواية م . وفى الأصل : «وآذاه» بالذال معجمة .

فهو على الاستئناف والانقطاع عما قبله . والمعنى : إنِّى أَلْبَسُ الحروبَ وأمارِسُهَا دائمًا ، فإذا لم يكن لى من أحوالى وزمانى ما يبعثنى على مُجاذَبةِ الأعداء ومدافعتهم ، طلبت من قد شَقِىَ بمثل ذلك ، فدافَعْتُ دونه وحامَيْتُ عليه ، لأنى لا أصبِر على حالِ السلامة والسِّلْمِ . ومثله قول الآخر :

وما إنْ تراهُ الدَّهْرَ إلا مُغَرِّرًا بنفْسٍ أبَتْ إلا صِعَابَ المَرَاكِبِ

١٩

آخر[١] :

١ــ ولقَدْ شَهِدْتُ الخَيْلَ يَوْمَ طِرَادِهَا فَطَعَنْتُ تحْتَ كِنَانَةِ المُتَمَطِّرِ[٢]

يقال : تَمَطَّرَ الرَّجُل ، إذا أَسْرَعَ . ويقال مَطَرَ بِهِ ، وقَطَرَ به ، إذا بادر[٣] . وأراد بالخيل الفُرسان ، كأنَّه يخاطب بهذا الكلام مَن شَهِد معه المعركةَ ، فخبّره بمعاملته المتمطّرَ الذى عَهِدَهُ ، وقولُه : « تحت كِنَانَةِ » أشار به إلى المَقتَل . وهذا المتمطّرُ كأَنَّه كان بارَزَهُ ، أو أراد أن يُبادِرَ إلى أمْرٍ ، فحال بينه وبينه . والكِنانَةُ من الكَنِّ : السَّتْر ، لأنه يُصَانُ بها النَّبْلُ .

٢ــ ولَقَدْ رأيْتُ غَدَاةَ شُلْنَ عَلَيْكُمُ شَوْلَ المَخَاضِ أبَتْ على المُتَغَبِّرِ[٤]

يُروى : « ولقد رأيتُ الخيلَ شُلْنَ عليكُمُ » ، أى شائلة . والتقدير : وقد شُلْنَ . وأراد بالخيل هاهنا الدوابّ ، وهى تَشُولُ بأذْنَابها إذا اشتدّ عَدْوُها ؛

(١) التبريزى : « قال أبو رياش : هذه الأبيات لبعض بنى تيم الله بن ثعلبة ، يوم أوارة . وأوارة : موضع ، وهو الموضع الذى أحرق به عمرو بن هند بنى دارم » .

(٢) أشار التبريزى إلى رواية : « لبابة المتمطر » ، وقال : اللبابة : ثوب يتلبب به الرجل على ثيابه ، إذا تحزم لحرب » .

(٣) التبريزى : « والمتمطر : اسم رجل من لخم ، وهو من قولهم : تمطر الرجل ، إذا أسرع » .

(٤) ترتيب هذا البيت عند التبريزى ثالث الأبيات ، وثالثها هنا ثانيها عنده .

ويُستدَلُّ بذلك منها على قوة ظَهرِها . فيقول : لقد رأيتكم منهزمين والخيل تَعْدو عليكم رافِعةً أذنابَها ، رَفْعَ النُّوقِ الحَوامِلِ لها إذا طُلب حَلَبُ غُبْرِ لبنِها . والغُبْر : البقيّة تبقَى من اللّبن فى الضَّرْع . ويُقالُ تَغَبَّرْتُ الغُبْرَ ، كما يُقالُ تَحَلَّبْتُ المحلوب . والمخاضُ لا واحدَ لها من لفظها ، وهى اسم مفردٌ موضوع للنُّوق الحوامل ، والواحد من غير لفظها : خَلِفَةٌ . وقوله : « أَبَتْ على المتغبِّر » قَدْ معه مضمرة ، وهو واقعٌ موقع الحال . أراد : رأيتُ الخيلَ شائلةً أذنابَها عليكم شَوْلَ المخاضِ آبيَةً على المتغبِّرْ . ومن روى : « ولقد رأيت غَدَاةَ » فقد أضمر مفعول رأيت ، وهو الخيل . وساغ ذلك ، لأنّ قوله ولقد شهِدتُ الخيلَ — وإن أريد به الفُرسان — يدلُّ عليه .

٣ — ونُطَاعِنُ الأبْطَالَ عن أَبْنَائِنَا وَعَلَى بَصَائِرنا وإن لم نُبْصِرِ

ذَكَر الأبناء كِناية عن الحُرَم ، كما قال الآخر :

* نُقَاتِلُ الأبْطَالَ عن بَنينَا *

والبصائر : جمع بَصيرة ، وهو ما يستدِلُّ به الرجُل من رأيه وعَقْلِه على ما يَغيب منه . وعلى ذا سُمِّيَت الطَّريقةُ من الدم بصيرة ، لأنّهُ يُسْتدلُّ بها على الجُرْحِ ، وفُسر قوله :

رَاحُوا بصائرُهُم على أكتافِهِمْ وبصيرتى يَعْدُو بهَا عَتَدٌ وأَى[1]

على الوجهين جميعاً . فإذا جعلنها بصائر الرأى يكون المعنى خَلَّفُوا آراءهم وطرحُوهَا ، كما يقال تركْتُ الرّأى بموضع كذا وكذا ، وجَعَلْتُ غداً منى عَلَى ظَهرٍ[2] . ومعنى « وبصيرتى يعدُو بها عَتَد وأَى » أنّ رأيه معه نافِذٌ مستمرٌّ ،

(١) للأسعر الجعفى من قصيدة فى أول الأصمعيات طبع ليبسك . وأنشده فى اللسان (وأى) .
(٢) م : « بظهر » .

وإذا جَعَلْتَهَا بصائرَ الدَّمِ يكون المعنى أنّهم مهزومون مَكلُومُون[١] فى ظهورهم وأقفائهم ، فدماؤهم على أكتافهم . ومعنى « وبصيرتى يعدو بها عَتَدٌ وأى » فى هذا الوجه أن دَمِى سَالمٌ فى نفسى وفَرَسى يَعْدُو بى . ومعنى البيت : إنا ندافع عن حُرَمِنَا وحريمنا ، وعلى ما يعترض فى الوقت ، نَفْعَلُ ذلك وإن لم نُبْصِرْ عاقبة الأمر ، ولم نَتَتَبَّعْها بالفكر فيها ، وتأمُّل نتائجها ، فَنَعْلَمَ مَوَادَّها . وهذا شأنُ الفُتَّاك فيما يُمَشُّونه من أحكام الحرب وينفّذونه ، ويفْتِلُونه من أسباب الجذاب والنِّزاع ويُبْرِمونه . وقد قيل فى هذا البيت إنّه كما حُكِىَ عن مُسَيْلِمَةَ حين قال لبنى حنيفة : « قاتِلوا عن أحسابكم ، فأمّا الدينُ فلا دينَ » . وكأنّ المعنى على هذا : وعلى بصائرنا فى الحرب عند المحافظة على الشرف وإن لم نُبْصِر أمرَ الدين . وهذا بعيدٌ متعسِّفٌ ، وإذا تأمَّلْتَهُ ظَهَرَ لك . وفى الطريقة الأولى قول القُطَامِىّ :

وخَيْرُ الأمْرِ ما اسْتَقْبَلْتَ مِنْهُ وَلَيْسَ بأنْ تَتَبَّعَهُ اتِّبَاعا

وسمعت بعضَ أصحاب المَعَانِى يقول : المعنى إنّا نُقاتل الأبطالَ جَرْياً على عادةِ النّاسِ عند نَظَرِهم لدُنياهم ودينهم ، فى الذَّبِّ عن الحُرَمِ والعشيرةِ والشَّرَفِ ، وعلى الأديان والاعتقادات والبصائر ، وإنْ لم نُبصِرْ وجْهًا واحدا من هذه الوجوه نُقاتِلْ أيضاً ، لأنّ هَمَّنَا القتلُ والقتال . قال : فَحُذِفَ مفعولُ وإن لم نُبصِرْ لأنَّ المراد مفهوم . وكذلك حُذِفَ جوابُ إنْ ، لأنّ فيما تقدَّم دليلاً عليه .

(١) م : « مكلمون » .

٢٠

القَطَرِيُّ بن الفُجَاءةِ المـازِنِي (١)

١ ـ لا يَرْكَنَنْ أَحَدٌ إلى الأحجامِ يومَ الوَغَى مُتَخَوِّفًا لِحِمَامِ

قَصدُه إلى البعثِ والتحضيض، على التغرير بالنفس والتعريض. ألاَ تَرَى انه يحثُّ بهذا الكلام على ترك الفِكر فى العواقب، ورَفْض التحرُّز خوفًا من المعاطِبِ. ويُنبِّه على أن الحذَر لا يُنجِي من القَدَرِ، وأن الأَجَلَ إذا جاء لم تُغْنِ معه قُوَّة الأمل، فيقول: لا يَميلَنَّ أحدٌ إلى هَجْرِ الإقدامِ، والسكونِ إلى الإحجام فى الحرب مُتَخَشِّمًا من الموت. والإحجامُ: مطاوعةُ حَجَمْتُ أى كَفَفْتُ ودفَعْتُ. فهو كالإكْبابِ فى أنه لمطاوَعَةِ كَبَبْتُ. ويقال حَجَمْتُ البعير، إذا خَطَمْتَهُ بما يمنعه من العَضّ، ويُسَمَّى ذلك الشىء الحِجَامَ.

٢ ـ فَلَقَدْ أَرَانِي للرِّماحِ دَرِيئَةً مِنْ عَنْ يَمِينِي مَرَّةً وأَمَامِي

الدَّرِيئَةُ تُهمَز ولا تُهمَز، فتُجعل من الدَّرْء وهو الدَّفْعُ، ومن الدَّرْيِ وهو الخَتْل، ولهذا سُمِّيت الدابّة التى يختل بها الصيدُ ليُمْكِنَ فيُرمَى: دَرِيَّةً، والحَلْقةُ التى يُتعَلَّمُ عليها الطَّعن دَرِيئةً. ويُمكن حَمْل البيت عليهما جميعًا. فإذا جَعَلتَ الدَّرِيئة الحَلْقةَ يقول: لا يفعلنَّ ذلك أحدٌ وليعتبرْ بحالى، فاقد رأيتُ نفسى فى غير وقتٍ وحالٍ، وكأنى للرِّماح بمنزلة الحَلْقةَ التى يُتعلَّم عليها الطعن، فتأتينى الرِّماحُ من جوانبى كلّها ثم سَلِمْتُ. وإنما اقتصرَ على ذِكْرِ

(١) قطرى أحد زعماء الخوارج، خرج زمان مصعب بن الزبير لما ولى العراق نيابة عن أخيه عبد الله. وكانت ولاية مصعب فى سنة ٦٦ للهجرة، فبقى قطرى عشرين سنة يقاتل ويسلم عليه بالخلافة، وكان الحجاج يسير إليه جيشا بعد جيش فيهزمه، ولم يزل كذلك حتى توجه إليه سفيان بن الأبرد الكلبى فظهر عليه وقتـله سنة ٧٨. وقطرى: نسبة إلى موضع بين البحرين وعمان. وليس قطرى اسما له، بل اسمه جعونة بن مازن. وفيات الأعيان.

اليمين والقُدَّام لأنه يَعلم أن اليسار فى ذلك كاليمين . فأما الظَّهر فإن الفارس لا يُمكِّنُ منه أحداً . وإذا جَلعتَ الدَّريَّةَ الدابّة الموصوفة يكون المعنى : فلقد أرانى وقد اتُّقِيَ بى فصِرْتُ سُتْرةً لغيرى من الطَّعن ، كما تكون تلك الدابَّةُ سُتْرةً للصائد[1] والطعنُ يتناولُنى . وعلى هذا يكون معنى « للرِّماح » من أجل الرِّماح . والأوّلُ أحسنُ . وقوله : « مِنْ عن يمينى » مِنْ تَعلَّقَ بِفعْلٍ دلَّ عليه قولُه أرانى دَريئةً للرِّماح ، وهو تأتينى وما يَجرِى مَجْراهُ . وعَنْ من قولِهِ « عن يمينى » اسمٌ هاهنا ، وليس بحَرْفٍ . والمعنى من جانبِ يمينى ، ومثله قول الأعشى[2] :

* مِنْ عَنْ يمين الحُبَيَّا نَظرةٌ قَبَلُ[3] *

وقول الآخر :

* مِنْ عَنْ يمينِ الدَّارِ والحائطِ *

٣ ـ حَتَّى خَضَبْتُ بما تَحدَّرَ مِن دَمِي أَكْنافَ سَرْجى أو عِنانَ لِجَامِى

وقوله « أو عِنان لجامى » ، أو هاهنا ليست للشّك ، وإنما هى التى يُراد بها أحدُ الأمرين على طريق التعاقُب ، أى إمّا ذا وإمّا ذا . وتلك أن تريد الجمعَ ، لأن أصل « أو » الإباحة . وهذا كما يُسأل الرجل فيقال له : ما كان طعامُكَ فى بَلَدِك ؟ فيقول : الحنطة ، أو الأرز . والمعنى أحد هذين ، على أن يكون كلُّ واحد منهما بدلاً من صاحبه أو الجميع . ومعنى البيت : انتصبتُ للرِّماح حتى خَضَبْتُ بما سال من دمى إمّا عِنانَ لجامى وإمّا جوانبَ سَرْجى ، أى على

---

(١) فى الأصل : « للصيد » وأثبتنا ما فى م .

(٢) كذا . والصواب أنه القطامى ، كما فى اللسان (عنن) وديوان القطامى ٥ .

(٣) صدره : * فقلت للركب لما أن علا بهم *

حَسَب ما اتّفق من الطعن . فالعِنان لما سالَ من أعاليه ، وجوانب السَّرج لما سال مِن أسافله .

٤ ــ ثم انصرفْتُ وقد أصَبْتُ ولم أُصَبْ جَذَعَ البَصِيرَةِ قارِحَ الإقدامِ

الجذوعةُ قبل الإثناء بسَنَةٍ ، والدَّهْرُ لجِدَّته يُسمَّى جَذَعًا ، وكذلك يقال لمن يُرَى فى أمرٍ ما على حالةٍ واحدة : هو جَذَعٌ فيه . وانتصابُ « جَذَعَ البصيرةِ » على أنه حالٌ وهو نَـكِرَةٌ . والمعنى ثم انصرفت مع ما وصفْتُ من حالى واتّفق مع ضِيق المجال عَلَيّ ، وقد نِلْتُ ما أردتُ من الأعداء ولم ينالوا منِّى ما أرادوا ، وأنا على بصيرتى الأولى لم يَبْدُ لى فى الاقتحامِ ، ولا غَلَبَ فى اختيارى التَّطرُّف والانحراف ، بل صار إقدامى فى الحرب قارِحًا لطُولِ ممارستى ، وتكرُّر[1] مبارزتى ، وإن كان بَقِيَ رأيى فيه جَذَعًا . وهذا يريدُ به ما يَترقَّى فيه الإنسان من التدرُّب والتمرُّن عند مزاولةِ الأعمال ، ومن بقاء وَلُوعِهِ بها ، وحِرْصِهِ عليها على حَدِّه فى أوّل الشأن . وكما جَعَلَ هذا القُروح والجُذُوعة : البصيرة والإقدام ، قال أبو تمّـام :

* كَهْلُ الأَناةِ فَـتَى الشَّذَاةِ[2] *

فنقَلَه كما ترى . واقتدى به البحترىُّ فقال :

* إقدامُ غِرٍّ واعتزامُ مُجَرِّبِ[3] *

وقد أشار الأعشى إلى كلِّ ذلك فى قوله :

---

(١) فى الأصل : « وتكنه » ، وأثبتنا ما فى م .

(٢) هو بتمامه كما فى الديوان ٢٠٧ :

كهل الأناة فتى الشذاة إذا عدا للحرب كان القشعم الغطريفا

(٣) فى ديوان البحترى ٢٠ :

ملك له فى كل يوم كريهة إقدام ليث واعتزام مجرب

* تَمَهَّلَ فى الْحَرْبِ حَتّى امْتَهَنْ[(١)] *

وفى طريقته قَوْلُ أبى الغولِ :

وَلاَ تَبْلَى بَسَالَتُهُمْ وإنْ هُمْ صَلُوا لِلْحَرْبِ حِينًا بعد حِينِ[(٢)]

٢

الحَرِيشُ ، ويُرْوَى للعَبّاسِ بن مِرْدَاسٍ[(٣)] :

١ — شَهِدْنَ مَعَ النَّبِيِّ مُسَوَّماتٍ حُنَيْنًا وَهْىَ دَامِيَةُ الحَوَامِى

الحَوَامِى من الحِمَايَة ، وهى المَنع . وكما جَعلوا للحوافر حوامىَ سَمَّوا ما يُطْوَى به البئرُ من الحجارة وغيرها ليحمى جوانبها من التَّشَعُّثِ والتهدُّم : حَوَامِىَ . يَصِفُ خَيلاً فيقولُ : حضرتْ حُنينًا مع النبى ، صلى الله عليه وسلم وعلى آلِهِ ، مُغلَمَاتٍ وقد دَمِيتْ جوانبُ حوافرها لِكثرة العَدْوِ ، ولِمَا لحقها من التَّعَب . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم غَزَا هَوَازِنَ بوادى حُنَيْن ، ورئيسُ هوازنَ مَالِكُ بن عَوْفٍ النَصرىُّ ، وهو اليوم الذى قتل فيه دُرَيْد ابن الصِّمَّة الجُشَمِىُّ . وإنما قال « مُسَوَّماتٍ » لأنهم أَعلموا أنفسَهم بعلامَاتٍ ليَبِينَ بها فضلُ كلٍ منهم وبلاؤه . والسِّيَماءُ : العلامَةُ ، وقد فُسِّرَ قوله تعالى : ﴿ والخَيْلِ المُسَوَّمَةِ ﴾ على ذلك . وكذلك قوله تعالى فى موضع آخر : ﴿ سِيمَاهُمْ فِى وُجوههم مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ .

(١) كذا فى الأصل ، وفى م : « امتحن » . وفى الديوان ٢١ : « حتى اثخن » . واللسان (ثخن) : « حتى اثخن » . وصدره :

* عليه سلاح امرئٍ ماجد *

(٢) انظر الحماسية ٣ : ٤ .

(٣) التبريزى : « وقال الحريش بن هلال القريعى ، ويروى للجحاف بن حكيم بن عاصم » . والحريش هذا مختلف فى صحبته . انظر الإصابة ٢٠٨٣ . وأما العباس بن مرداس فهو صحابى من المؤلفة قلوبهم . انظر ترجمته فى الشعر والشعراء ٢٥٩ والأغانى (١٣ : ٦٢ — ٧٠) والخزانة (١ — ٧١ — ٧٤) والمرزبانى ٢٦٢ — ٣٦٣ . على أن الأبيات رواها الأعلم فى شرح الحماسة لخفاف بن ندبة . انظر الإصابة ٢٠٨٣ .

٢ ـ وَوَقْعَةَ خَالِدٍ شَهِدَتْ وَحَكَّتْ سَنَابِكَهَا على البَلَدِ الحرامِ

أصلُ الحكِّ صَدْمُ جسمٍ بآخَر وترديده عليه ليؤثِّر فيه . وتَوَسَّعوا فيه فقالوا : حَكَّ هذا الأمرُ فى صدرى ، لِمَا يَتَرَدَّد فى خاطرك . وهو يتحكَّك بفلانٍ أى يتعرَّض له ، حتَّى إنَّهم يقولون للشَّىء الخفىّ : هو حَكِيكٌ نَحِيت[١] . ويَعنى خالد بن الوليد بن المُغيرَة . وأشار بهذا إلى فتح مكّة ، وإنّما نسَبَها إلى خالدٍ لأنَّ النبى صلى الله عليه وسلم استَعمل خالدًا يومَ الفتح على الخيل فلقِيَ قريشاً بالخَنْدَمَةِ[٢] ، فقاتلهم وهَزَمهم . فيقولُ : وحضرَتْ أيضاً وقعةَ خالدٍ يومَ الفتح ، وحَكَّت أطراف حوافرها بأرضِ الحَرَم . والمُراد بيانُ طولِ مُمارستها للحروبِ والوَقَعات ، وتردُّدِها فى تَحَمُّل أعباء الشَّرِّ والمَشَقّات .

٣ ـ نُعَرِّضُ للسُّيوفِ بكلِّ ثَغْرٍ خُدُودًا ما تُعرَّضُ لِلَّطَامِ

مثْلُه :

نُهِينُ النُّفُوسَ وهُونُ النُّفو سِ يَوْمَ الكَرِيهَةِ أَوْقَى لَهَا[٣]

يقول : نبتذل فى الحروب أنفسنا طلباً لصيانتها ، ونَسْتَقْتِلُ فنتعرَّض ولا نَتَقَبَّض[٤] عنها ، بل نبذُل لها وجوهَنا التى هى حَرَمُ النُّفُوسِ ، ولو عُرِضَ علينا فى السِّلْمِ والسَّلامةِ بذلُها لِلِّطَام ، لأنِفْنَا منه وامتنعنا . والمعنى : نتاقى السيوفَ بخُدودِنا إذا كَسَبْنَا ذِكْرًا ، وإنْ صُنَّاهَا عن الأذى اليسير . وأكشَفُ من هذا وأشْرَفُ قولُ الآخَرَ :

(١) فى الأصل : « نخيث » ، صوابه فى م .
(٢) الخندمة : جبل بمكة .
(٣) للخنساء ، كما فى الحيوان (٦ : ٤٢٧) . على أن أقرب تمثيل له هو قول القتال الكلابى ، فى الكامل ٦٧ :
نعرض للطعان إذا التقينا وجوها لا تعرض للسباب
(٤) م : « نتقبض » .

ويبتذلُ النَّفْسَ المَصُونَةَ نَفْسَــهُ   إذا ما رأى حَقًّا عليه ابتذالَها[١]

٤— ولَسْتُ بخالعٍ عنِّ ثيابى   إذَا هَرَّ الـكُمَاةُ ولا أُرَامِى[١]

الثِّيابُ يَعنى بها السِّلاح ، وهذا كما يُسمّى بَزًّا . ألاَ تَرَى قَوْلَ الآخر :

* بَزُّ امرِئٍ مُسْتَبْسِلٍ حازِمِ[٢] *

وقول الهُذَلىّ :

* فَوَقَّرَ بزُّ ما هُنَالِكَ ضَائعُ[٣] *

يعنى السَّيف . وهَذا يحتمل وجهين : يجوز أن يكون المعنى لا أَنْزَعُ ثيابى وقتَ هَرِيرِ الأَبطال تشمُّراً وتَخَفُّفًا ثم لا أُبْلِي ولا أَجْتَهِد ، ولكن إذا وطَّنْتُ نفسى على الشَّرّ تقصَّيْتُ أبلغَ ما يكون منه بأبلغِ ما يكون من بَلائِى . وموضع « ولا أرامى » نَصْبٌ على الحال ، أى لا أفعل ذلك غَيْرَ مُرَامٍ . ويَعْنِى بالمُراماةِ مدافعةَ الخَصْمِ ومجاهَدَتَه بكلِّ ممكن ومُعْرِض . وليس يريدُ الرَّمْىَ بالنِّبال . وقد توسَّعُوا فى الرَّمْىِ والمراماةِ حتّى استُعمِل فى الافتخار ، واستُعير لتأثير الدَّهر والشَّيب ولِنَظَر المحبوبِ المُفْتَتِن . ويجوز أن يكونَ نَفَى الأمرين جميعاً فقال : لا أخلَعُ ثيابى تخفيفاً عن نفسى فى التَّوَلِّى والانهزام عند هَرِيرِ الشُّجْعَان ، ولا أُرامِى أيضاً ، يعنى الرَّمْىَ بالنِّبالِ ، ولـكن أتلَقَّى الشَّرَّ وأصْدِمُهُ بوجهى . ويشهد لهذا أوّل البيتِ التالِى له ، وإنّما قال ذلك لأنَّ المُرَامَاةَ تكون من بعيد فتُخطِئ وتصيب ، وعند المـكافحة[٤] تَتَشَكَّلُ الأمهات .

(١) هذا ما فى م . وفى الأصل : « نفسها » .

(٢) لأبى قيس بن الأسلت الأنصارى فى المفضليات (٢ : ٨٥) برواية : « حاذر » . وعجزه : * للدهر جلد غير مجزاع *

(٣) لقيس بن عيزارة الهذلى فى ديوان الهذليين (٣ : ٧٨) . وصدره : * فويل ام بز جر شعل على الحصى *

(٤) م : « المفاتحة » .

٥ – ولكِنى يَجُولُ الْمُهْرُ تَحْتِى إلى الغاراتِ بالعَضْبِ الْحُسَامِ

العَضْبُ : القَطْعُ والمَنع ، ثم قيل سَيْفٌ عَضْبٌ ، أى قاطِعٌ ، كما قيلَ ضَيْفٌ فى الضَّائف[1] . وقال الخليل : سُمِّيَ السيفُ حُسَاماً لأنه يحسِم العَدُوَّ عمّا يُرِيدُ من بلوغ عَدَاوته . وقوله : « بالعَضْبِ » ، أىْ ومَعِى العَضْبُ ، وهو فى موضع الحال . ومعنى البيت ظاهر .

٢٢

ابْنُ زَيَّابَةَ التَّيْمِى :[2]

مأخوذٌ من زَيَّبَ الرَّجُل[3] .

١ – نُبِّئتُ عَمْرًا غارزًا رَأْسَهُ فى سِنَةٍ يُوعِدُ أخْوَالَهُ

جَعَل غَرْزَ الرأس كنايةً عن الجَهْلِ والذَّهَابِ عما عليه وله من التحفُّظ . ونُبِّي وأُنْبِيءُ مما يتعدَّى إلى ثلاثة مفاعيل . فَعَمْرًا انتصب على أنه مفعول ثانٍ . وغارزًا ، انتصب عَلَى أنه مفعولٌ ثالث ، ورأسه انتَصَبَ من غارِزاً . وأرادَ بالسِّنَةِ : الغَفْلة ، وهى ما يحدثُ من أوائل النَّوْم فى العَين ولم يستحكِمْ بعد . وهذا من أحسن التَّشبيه وأبلغ التعريض . والإيعادُ إذا كان على ما وَصَفَ حقيقٌ بالتَّهجين . يَدُلُّ على ذلك قولُه .

---

(١) الضائف : الذى يضيف القوم ضيفا وضيافة ، أى ينزل بهم ويميل إليهم .

(٢) هو عمرو بن الحارث بن همام ، أحد بنى تيم اللات بن ثعلبة ، شاعر جاهلى ، وزيابة أمه . يقول فيها :

يا لهف زيابة للحارث ال صابح فالغانم فالآئب

وقال أبو رياش : هو فارس مجلز عمرو بن لأى . انظر اللآلى ٥٠٤ .

(٣) التبريزى : « زيابة اسم مرتجل للعلم ، وهو فعالة أو فيعالة أو فوعالة ، من لفظة الأزيب ، وهو النشاط » .

وَسْنَانُ أَقْصَدَهُ النعاسُ فرنَّقَتْ في عيْنِهِ سِنَةٌ وليس بنائمِ[1]

وقد فَصَل الله تعالى بينهما بقوله : ﴿لا تأخُذُه سِنَةٌ ولا نَوْمٌ﴾ . والفعلُ وَسِنَ يَوْسَنُ وسَنًا . وموضع « يُوعِدُ » نَصْبٌ على الحال . ومعنى « غارزا رأسَهُ » : مُدْخِلاً ؛ ومنه الغَرْزُ بالإبَر . ويقال : غَرَزَ فُلانٌ رِجْلَهُ في الغَرْزِ ، أي في الرِّكاب . وتوَسَّعوا حتَّى قالوا : اغترَزَ فلانٌ في ركاب القَوْلِ .

٢ — وَتِلْكَ منه غَيْرُ مَأْمُونَةٍ أن يَفْعَلَ الشيءَ إذا قالَهُ

هذا الكلام تَهكُّمٌ وسُخْرِيَّةٌ ، وفى طريقته قول الآخر :

وأما أخُو قُرْطٍ فلستُ بساخِرٍ فقولاَ ألا يا اسْلَمْ بمُرَّةَ سالما

قال هذا ومُرَّةُ مُعَرَّضٌ لكلِّ بلاء . « أن يَفعل » موضِعُهُ رَفْعٌ على البدل من قوله وتلك منه . والمعنى تلك الخَصْلَةُ لا يؤمَنُ وقوعُها من عَمْرٍو ، وهو فِعْلُهُ لما يقولُه .

٣ — الرُّمْحُ لا أَمْلأُ كَفِّي به واللِّبْدُ لا أَتْبَع تَزْوَالَهُ

هذا التمدّح منه تعريضٌ بخَصْمه وإزراءٌ بفروسيّته ، وإشارةٌ إلى أن أضدادَ هذه الأوصاف مجتمعة فيه . فيجوز أن يكون المعنى : إنّى لا أقتصِرُ مِن تعاطِى أنواعِ السلاح على الرُّمْح فقط ، ولكنِّى أجمع فى الاستعمال بينها . وهذا كما يُقال : مَلأَ كَفَّه من كذا[2] فليس فيه موضِعٌ لغيرِهِ . ويجوز أن يكون المعنى : [إنِّى أستعمل رمحى بأطراف أصابعى لحذقى واقتدارى ، ولا آخذه بجميع كفِّى[3]] . وهذا كما يقالُ : أقْبِصُهُ ولا أَقْبِضُهُ ؛ لأن القبصَ : الأخْذُ بأطراف الأصابع ، والقَبْضَ بالكَفِّ كُلِّها . ومثلُه قول الآخر[4] :

(١) نعدى بن الرقاع ، كما فى اللسان (رنق) .

(٢) فى الأصل : « من هذا » وأثبتنا ما فى م .

(٣) التكلة من م .

(٤) هو عبد يغوث بن وقاص الحارثى . المفضليات (١ : ١٥٦) .

* لَبيقًا بتصريف القَناةِ بَنانيا[1] *

وقولُه : « واللِّبد لا أُتبع تَزَوالَهُ » أراد : ألزم ظهر دابّتى ، وإنْ مالَ اللِّبدُ لم أَمِلْ معه . وهذا كما قال أبو النجم :

أَدْرَكَ عَقْلاً والرِّهانُ عَمَلُهْ ثَقْفٌ أعالِيــهِ وقارٌ أَسْفَلُهْ[2]

أى كأنه يُلْصِقُ الأسفل بظهر الفَرَس فلا يَزُول ولا يَميل .

٤ — والدِّرْعُ لا أَبغِي بها ثَرْوَةً كل امرِئٍ مُسْتَودَعٌ مالَهُ

لولا أنّ قَصْده فى التمدُّح إلى التعريض بالمختبِر عنه لكان لا معنى لهذا الكلام . ألا تَرَى أنّ قولَه : « والدِّرْع لا أبغى بها ثروة » وقد فُسِّر على أنه يجوز أن يكون المراد : لا أقتنى الدِّرع لكى اتَّجِرَ فيها فأَتموّل . وتَرْكُ التِّجارة فى الأسلحة ليس فيه كبير تَمدُّح[3] . ويجوز أن يكون المعنى : لا أعدُّها سبباً فى ارتفاق المَغانم فأُثْرِىَ ، ويكون كقول عنترة :

يُخْبِرْكِ من شَهِدَ الوقيعة أننى أَغْشَى الوَغَى وأعِفُّ عند المَغْنَمِ

وقوله : « كلُّ امرِئٍ مُسْتَودَعٌ مَالَهُ » ، يريدُ به : المال ودائعُ عند الناس ، ولا بدّ من ارتجاعها والتقاضى بها وإن أُمْهِلُوا مُدَّةً ، فلم أتَّجِرْ فى دِرْعِى أو لم أَلبَسْها لتَغَنُّم الأنفالِ بها ، والمالُ هذه حاله عند أربابِه . ويكون هذا كما قال الآخَرُ[4] :

وَمَا المـالُ والأَهْلُونَ إلاّ ودائعٌ ولا بُدَّ يَوْمًا أن تُرَدَّ الودائعُ

ويجوز أن يكون « ما » من قوله « مَالَهُ » بمعنى الذى ، فيكون المعنى : كلّ

(١) صدره : * وكنت إذا ما الخيل شمصها القنا *
(٢) م : « نقف » بالنون .
(٣) هذا ما فى م . وفى نسخة الأصل : « كثير تمدح » .
(٤) هو لبيد . ديوانه ٢٢ طبع ڤينا ١٨٨٠ .

امرئٍ مُرْتَهَنٌ بأجَلِه ، وبالذى كُتِبَ له ، ولا يمتنع أن يكون أشار بـ « ما » إلى ما يُقتنى من أغراض الدنيا . ويروى : « كلُّ امرئٍ مُسْتَوْدِعٌ مَالَهُ » بكسر الدال ، والمعنى أنّ ما يجمعه المرء بكسْبِه إذا جاء مَحْتُومُ القضاء يتركُه لغيره لا مَحالة ، فلِمَ أرغبُ فيه وفى ادّخاره ، وأزهدُ فى اكتساب المحامد والمَعالِى ؟ وهذا الكلام نهايةٌ فى التنقُّص ممن عَرَّضَ به ، وغايةٌ فى الطَّعن عليه ، والقَدْح فى عَادَته . ويُروى : « والدِّرْع لا أبْغِى بها نَثْرةً » ، وهى الواسعة . والمعنى : إنّى أكتَفِى من الدِّرْع ببَدنةٍ ، فلا أطلُب ما يفيضُ فَيْضًا ، ويجب مع هذه الرِّواية والتفسير أن يكون معنى المِصْرَاع الثّانى : كلُّ امرئٍ مُرْتَهَنٌ بأجله ، ومُمَهَّلٌ ليومه .

٥ — آلَيْتُ لَا أَدْفِنُ قَتْلَاكُمُ فَدَخِّنُــوا المَرْءَ وسِرْبالَهُ[1]

هذا البيت لم أَجِدْهُ فى نسخٍ كثيرة ، فيغلب فى ظَنِّى أنّه ليس من الاختيار . وعلى ما بِهِ فله قِصّةٌ مشهورةٌ زَعَمُوا . وهى أنه يُرْوَى فيه أنّ واحداً من المُخاطَبين كان أَحْدَثَ فى حَرْبٍ حضَرَها خَوْفاً على نَفْسه ، فعَرَّضَ الشاعرُ بهم وذَكَّرهم سوء بلائهم ، وضَعْفَ ثباتِهم . وإنّما يُريدُ أنهم إذا صُرِعُوا فى المعركة عُثِر منهم إنْ لم يُطَيِّبُوا على مِثل ما فَعَلَهُ ذلك الواحد المُعَرَّضُ به ، أو استُدِلَّ بالرّائحة عليه فافتضحوا . وهذا تهكُّمٌ أيضاً وتعييرٌ بالاتّفاق السيّئ . وآلَيْتُ معناه حَلَفْتُ ولفظُه لفظ الخبر ، والمعنى معنى القَسَم . وربّما قالوا : آليت على نَفْسِى .

---

(١) بين هذا البيت وسابقه بيت رواه التبريزى وهو :

إنَّكَ ياعمرو وتَرْكَ النَّدى كالعَبْدِ إذْ قَيّدَ أجمالَهُ

وقال : « قال ابن السكيت : أنت كالعبد اقتصر على موضع يرعى فيه ولا يتعزب بإبله . وقال غيره : أى إنك قد تركت الندى واكتساب الشرف به ، فلا تستفيد ، كالعبد يقيد أجماله وينام فيستريح . وطلب الشرف إنما يكون مع التعب » .

٢٣

الحارِثُ بن همَّام الشَّيْبَانِىُّ[(1)]

١ — أَيَا ابْنَ زَيَّابَةَ إنْ تَلْقَنِى لا تَلْقَنِى فى النَّعَمِ العَازِبِ[(2)]

النَّعَمُ يُذكَّرُ ويؤنَّث، والتذكير فيه أغلب. وفائدته فى الإفراد الإبلُ فى الأكثَر، وإذا جُمِعَ دَلَّت على الأزواج الثمانية[(3)]. يُعرِّضُ بأنَّهُ راعٍ فيقولُ: يا ابْنَ زَيَّابَةَ إنّك لا تجدنى راعيًا يبعد فى المَرْعَى بإبلِهِ. والمعنى أنت كذلك، ويُقالُ: مالٌ عازِبٌ وعَزَبٌ[(4)]، إذا بَعُدَ عن أَهْلِهِ. ورَوْضٌ عازِبٌ: بعيد المَطْلَب.

٢ — وتَلقَنى يَشْتَدُّ بى أَجْرَدٌ مُسْتَقْدِمُ البِرْكَةِ كالرّاكِبِ

قوله: «وتلقنى» عطَفَه على الجواب، لأنه يَصْلح أن يكون جَوَابًا. ألا تَرَى أنه لو قال: إن تَلْقَنِى تلقنى كذا، لَصَلَحَ؟ يقول: تلقانى يَعْدُو بى فَرَسٌ قصيرُ الشَّعَرِ، متقدِّمُ الصَّدْرِ، مُشْرِفٌ كالرّاكِب، [أى إشرافُه إشرافُ الراكب[(5)]] لا المركوب. ويَشْتَدُّ: يَفْتعلُ من الشّدّ، وهو العَدْو. ويقال: استَقْدَمَ وتَقَدَّمَ، واستأخر وتأخّر، بمعنًى. والبِرْكَةُ، كُسِرَ باؤها عند اتّصال الهاء بها، لولا ذلك لقيل بَرْكٌ بفتح الباء.

---

(١) الحارث بن همام بن مرة بن ذهل بن شيبان، شاعر جاهلى.

(٢) ابن زيابة، مضت ترجمته قريباً، وهو ابن الحارث بن همام. ولهذه المقطوعة استبعد بعضهم أن يكون ابن زيابة هو عمرو بن الحارث بن همام، وارتضى القول الآخر.

(٣) هى الضأن والمعز والإبل والبقر، ذكورها وإناثها. انظر الآيتين ١٤٣، ١٤٤ من سورة الأنعام.

(٤) كذا فى النسختين، والمعروف «العزيب».

(٥) التكملة من م.

٢٤
فأجابَهُ ابنُ زَيَّابَةَ

١ ــ يا لَهْفَ زَيَّابَةَ للحارثِ الـ صَّابحِ فالغــــانمِ فالآيبِ

يجوز أن يكون أورد هذا الـكلام ساخِرًا متهانِفًا ، ومستهزئًا متهكِّمًا ، فوصفه بهذه الصِّفات وكان الأمرُ بخلافه ، ويقرِّبُ هذا أنّ ما قَبْل هذه المقطوعةِ فى مثل هذه الطريقة . ويجوز أن يكون ذَكَر ما كان منه[1] على الحقيقة ، فهو يتحسَّرُ لـما رأى من فَلَاحِه فى غَزَاتِه ، وسلامتِه فى مآبه . ويقولُ : يا حَسْرةَ أُمِّى[2] من أجْل هذا الرَّجل فيما ارتفع له من المراد فى الغَزْو ، وجُمِعَ له من السلامة والوَفْرِ . والصابحُ ، يجوز أن يكون فى معنى مُصْبِحٍ ، كما قال :

* حين لاحَتْ للصابحِ الجوْزاء[3] *

والغارةُ وقتُها الغَدَاة ، فلذلك قال : للحارث المُصْبِح عندنا والغانِم منّا . والترتيب الذى يفيدُه الفاء جارٍ على سَنَنِه ، كأنه أرادَ للحارثِ الغازى نَحْوَنا والغانم منّا ــ والغُنْمُ بعد الغَزْو ــ فالآيبِ إلى قومِهِ ــ والأوْبَةُ بعد الاستغنام . ويجوز أن يكون الصابحُ من صَبَحْتُ القومَ ، إذا أتيتَهُمْ صباحًا . وفى المَثَل السائر « صَبَحْناهم فَغَدَوْا شأْمَةً[4] » . وهذا الوجْهُ أوْجَهُ وأجوَدُ . واعلم أن الصِّفة إذا جاءت للتبيين وإزالة اللَّبْس عن الموصوف ، فالوَجْهُ أن يُعْمَدَ

---

(١) هذا ما فى م . وفى الأصل : « أن يكون ذكر منه » .
(٢) فى الأصل : « ياحسرة بى » ، وفى م : « ياحسرة أى » .
(٣) لأبى زبيد الطائى . الحيوان (٥ : ٢٣١) والخزانة (٣ : ٢٨٣) . وصدره :
* أى ساع سعى ليقطع شربى *
(٤) ذكره الميدانى فى مجمع الأمثال وقال : « أى أوقعنا بهم صبحاً فأخذوا الشق الأشأم ، أى صاروا أصحاب شأمة ، وهى ضد اليمنة » .

إلى أخصِّها بالموصوف ، وأحقِّها بالبيان والشرح ، حتى تُغْنِي عن العُدُول عنها إلى غيرِها من الصِّفات . فإن اتَّفَق بعد ذلك لَبْسٌ حينئذٍ يُزال بما يُضَمُّ إليه . وإذا جاءت للتعظيم أو التهجين فإنه قد يُوالَى بين عِدَّةٍ منها بحروف النَّسَق ومِنْ دونِها : تقول : جاءني زيدٌ الظريفُ الكاتبُ الفاضلُ العالِمُ : وإن أتيت بالواو العاطفة متخلِّلةً له ساغ[1] ، فإن قيل : إذا كانت الصفةُ هي الموصوفَ ، والشيء لا يُعطَفُ على نَفْسِهِ ، فكيف جازَ عطفُ بعضِ الصفاتِ على بعض ؟ قلتَ : تغايُرُ المعاني الحاصلةِ بها وقوّةُ اتِّصالِ بعضِها ببعضٍ في بابَيِ الصِّلَة والصِّفَةِ ، سوَّغَ ذلك في ألفاظِها .

٢ — واللهِ لوْ لاقَيْتُهُ خالِيًا   لآبَ سَيْفَانا مَعَ الغالِبِ

أقسَمَ بالله فيقول : والله لو لقيتُه منفرِدًا عن أشياعه لحصَلَ سيفانا للغالب منّا . وذَكَرَ السَّيفينِ والمرادُ جميعُ ما معهم من بَزِّهما وسلاحِهما ، لعلوّ شأنهما . وجعَل الفِعْلَ للسَّيفين على المجاز . والمعنى : لو خَلَوْتُ به لقتلْتُه أو قتَلني .

٣ — أَنَا ابْنُ زَيَّابَةَ إنْ تَدْعُني   آتِكَ والظَّنُّ عَلَى الكاذِبِ

قوله : « والظنُّ على الكاذب » يجرى مَجْرى الأمثال ، ويكون مبنيًّا على ما قال لبيد ، وهو :

واكذِبِ النَّفْسَ إذا حدَّثْتَها   إنّ صِدْقَ النفسِ يُزْرِي بالأَمَلْ

والمعنى : كلٌّ منا يحدِّثُ نفسه ويَكذِبها ، ثم الظنُّ على من لا يتحقق أمَلُه . ويجوز أن يريد : أنا المعروف المشهور ، إنْ دَعَوْتني لمبارزتك جئتك ، فإن كنتَ تظنُّ غير هذا فظنّك عليك ، لأنك تُكَذِّبُ نفْسَك فيما تتوهّمه من قُعودي عنك ، أو نُكُولي عن الإقدام عليك . ويجوز أن يكون المعنى :

(١) هذا الصواب من م . وفي الأصل : « لما ساغ » .

إن تَدْعُنى أجِبْك ، فإن ظننت أن تكون الغالب فظنُّك عليك ، لأنك تكذِب نفسك .

٢٥

الأَشْتَرُ النَّخَعى(١) :

١ــ بَقَّيْتُ وَفْرِى وَانْحَرفتُ عن العُلاَ ... وَلَقِيتُ أَضْيافى بِوَجْهِ عَبُوسِ

الوَفْر : المالُ الكثير . والعَبُوس : الكُلُوح عن غَضَبٍ ، وتوسَّعوا فقالوا : يومٌ عَبُوسٌ ، أى شديدٌ . وهو جِبْسٌ عِبْسٌ ، فى اللئيم . وهذا من الأيمان الشريفة ، واللفظُ لفظُ الخبَر ، وظاهرُه الدُّعاء ، ومحصولُه القَسَم . فيقول : ادّخرتُ مالِى ولم أفرِّقه فيما يَكسِبُ لى حَمْداً ، فِعْلَ البُخلاء ، وزهِدْتُ فى اكتساب المعالى والمآثر زُهْدَ الأدنياء ، وتاقَّيت الأضياف(٢) بوجه رجلٍ كالحٍ إن لم أفعَل كذا . ومثلُه فى اليمين قولُ النابغة :

* إذًا فلا رَفَعَتْ سَوْطِى إلىَّ يَدِى(٣) *

٢ــ إنْ لم أَشُنَّ على ابنِ حَرْبٍ غَارَةً ... لم تَخْلُ يَوْمًا من نِهَابِ نُفُوسِ(٤)

شَنُّ الغَارَةِ مُعْجَمَةً ، وسَنُّها معجمةٍ : صَبُّها . وأصل جميعها فى الماء ،

(١) الأشتر : لقب له ، واسمه مالك بن الحارث بن عبد يغوث بن مسلمة بن ربيعة النخعى الكوفى . أدرك الجاهلية ، وكان من أصحاب على ، شهد معه الجمل وصفين وغيرها ، وكان ممن ألب على عثمان وشهد حصره ، وولاه علىّ بن أبى طالب مصر بعد صرف قيس بن عبادة عنها ، فلما وصل إلى القلزم شرب شربة عسل فمات سنة ٣٨ . ولقب بالأشتر لأن رجلا ضربه فى يوم اليرموك على رأسه فسالت الجراحة قيحاً إلى عينه فشترتها . الإصابة ٨٣٣٥ وتهذيب التهذيب ومعجم المرزبانى ٣٦٢ . التبريزى : « وفى الشعراء آخر يقال له الأشتر بن عامر ، أحد بنى عوف بن ولاد بن تيم اللات . ومنهم الأشتر الحامى الأزدى من بنى حامة من أزد عمان » .

(٢) م : « أضيافى » .

(٣) صدره : * ما قلت من سيىء مما أتيت به *

(٤) التبريزى : « ابن حرب ، يعنى معاوية بن أبى سفيان » .

ثمّ حمَلَ التوسُّع فيها . يقول : تَصَوَّرتُ بتلك الصورة التي ذكرتُها وأقسَمْتُ بها ، إن لم أُصبَّ على هذا الرجل خَيْلاً لا تخلو يَوْمًا من اختلاسِ نُفُوسٍ ، وانتهابِ آجال . وسَمّى الخَيْل غارَةً لمّا كانت من قِبَلِها تكون . وموضع « لم تخْلُ يَوْمًا » نَصْبٌ على الصفة للغارة ، أى خَيْلًا جَرَتْ عادتُها بذلك . والنِّهابُ يجوز أن يكون مصدرَ ناهَبْتُهُ ويُسْتَعْمَلُ في المُغاورة والمُباراة ، ويجوز أن يكون جَمْع النَّهبِ . وجوابُ « إن لم أُشُنّ » فيما تقدم .

٣ـ خَيْلًا كأَمْثالِ السَّعَالِى شُزَّبًا تَعْدو ببِيضٍ في الكَرِيهَةِ شُوسِ

الشُّزَّب[١] : الضُّمَّر . والشُّوس : جمع أَشْوَس . ويقال شَاسَ يَشُوسُ وشَوِسَ يَشْوَسُ ، إذا عُرِفَ في نظرِه الغضب أو الكِبْر . وانتصَب « خَيْلاً » على أنّه بدلٌ من غارَةً . وشَبَّهَ الخيلَ في ضُمْرِهَا وسُرعَةِ نَفَاذِها بالجِنّ . وانتصَب « شُزَّبًا » على أنّهُ صِفَةٌ للخيل ، لأنّ قولَهُ « كأمثالِ » ، أيضاً صِفَة . ويجوز أن يكون حَالاً للمُضْمَر في كَأَمْثَالِ السَّعالِي . والمعنى : خيلا تشابه السَّعالى في حَالِ شُزُوبِها وضُمْرِها . وقولُه : « تَعْدُو ببيضٍ » أيضاً صِفَةٌ ، إمّا لقوله شُزَّبًا ، وإما للأوّل تعْدُو برجالٍ كِرَام ، متكبِّرين في الحرب ، ذوى أَنفَةٍ . وإذا جُمِعَ بين مفرداتٍ وجُمَلٍ في الوصْفِ ، فالترتيب المختار تقديم المفردات على الجُمَل ، وقد جاء البيت على ذلك . والعَرَبُ تجْعَلُ البياضَ كِنايَةً عن الكَرَمِ ، كأنّها تُريد نقَاء العِرْض . على ذلك قولُه :

* أُمُّكَ بيْضَاء مِنْ قُضَاعَةَ . . .[٢] *

وكما فَعَلُوا هذا جَعَلُوا الغُرَّ كنايةً عن الكِرام ، وربَّما قالوا غُرّانٌ .

---

(١) هذا ما فى م والتبريزى . وفى الأصل : « الشزوب : الضمر » يقرآن على المصدرية .

(٢) البيت بتمامه كما فى شرح ديوان زهير ٥٢ واللسان (بيض) :

أمك بيضاء من قضاعة فى الـ بيت الذى يستكن فى طنبه

فأمّا قولهُم : « بيض الوجوه » فالمراد أنَّهم لم يفعلوا شيئاً يَشينُهم فيغيِّر لونَهم عند ذكره . وقد قالوا فى ضِدِّه : « أوْجُهُهُمْ كالحُمَم » ، و « سُودُ الوُجُوه » . وأما الشَّوَسُ فكما وُصِف به الرِّجالُ وُصِفَ به الخيلُ أيضا ، والمُراد به عِزّةُ النّفس . وقوله « فى الكريهة » لُلحوق الهاء بها أُلحق بباب الأسماء ، ويُستعمل فى نوازِل الدَّهر وشدائد الأمر . وهو ظَرْفٌ إن شئتَ لما دَلَّ عليه قَوْلُهُ « بيضٌ » من الكرم ، وإنْ شئت لقوله شُوسٌ . والكرم فى الكرائهِ : نزاهة النَّفس عن لوازم العار .

٤ — حَمِىَ الحديدُ عليهِمُ فكأنَّهُ ... وَمَضَانُ بَرْقٍ أو شُعَاعُ شُمُوسِ

شُعَاعُ الشَّمْس : انتشار ضوئِها . ويقال : أشَعَّتِ الشَّمسُ : انتشر شُعاعُها . يقول : حَمِيت الأسلحةُ يومَ الوَغَى لصبرهم وثباتهم ، وطول مُقامِهم . ثمَّ شَبَّهَ لمعانَها بوَمَضَان البَرْق أو شعاع الشمس ، وجَمع الشُّموس لاختلاف مطالعها . والوَمَضَان : مَصْدَر وَمَضَ ، وكذلك الوَمْض والوَمِيض . ويقال فى فِعله أَوْمضَ أيضا .

٢٦

مَعْدَانُ بن جَوَّاسٍ الكِنْدِىُّ[١] :

ودخَلَ هذان البيتان فى الباب لما اشتملَا عليـــه لفظاً ومعنًى من الفظاظة والقسوة .

---

(١) معدان بن جواس بن فروة بن سلمة بن المنذر بن المضرب بن معاوية بن عامر بن سلمة بن شكامة بن شبيب بن السكون بن السكونى الكندى ، وكان له حلف فى ربيعة . مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام ، ونزل الكوفة وكان نصرانيا فأسلم فى أيام عمر بن الخطاب ، وقام الزبير بن العوام بأمره . الإصابة ٨٤٣٥ ومعجم المرزبانى ٤٠٧ . على أن هذه الحماسية تنسب أيضاً إلى أبى حوط حجية بن المضرب السكونى ، وهو شاعر جاهلى فارس . نص على ذلك التبريزى ، وكذا الآمدى فى المؤتلف ٨٥ .

١ــإنْ كانَ ما بُلِّغْتِ عَنِّى فَلَامَنِى صَدِيقِى وشَلَّتْ من يَدَىَّ الأَنامِلُ[1]

قولُه « صديقى » يجب أن يُرِيدَ به الكثرةَ لا الواحد . وقال : شَلَّتْ يَدُهُ شَلَلاً . وهذا من الجنس الأوّل فى أنَّ لفظَه لفظُ الخبر ، والمعنى معنى الدُّعاء ، والمراد القسم . وقوله « فلامنى » لامنى فى موضع رفع على أنه خبر ابتداء محذوف ، كأنه قال : فأنا لامَنِي . والفاء مع ما بعده جواب إنْ . والمعنى : إن كان ما أُدِّىَ إليكِ عنّى حقًّا ففعلت ما استحققتُ به لَوْمَ الصديق ، واستَرْخَتْ أصابعى . فإن قيل : اليمين والشَّرط[2] كيف يصحّ ؟ قلت : هذا كلام مُبْطِلٌ لما ادُّعِى عليه ، نافٍ له ، فاليمين تناوَلَتْ نَفْىَ ما أُثْبِتَ فيه ، ودفعَ ما قُرِفَ به . ودَلَّ على ذلك فَحْوى الكلام . ويجوز فى « كان » أن يكون التامَّةَ لا الناقصَةَ ، فيكتَفِى بالفاعِل ولا يَحتاجَ أن يُضْمَر بَعْدَهُ « حَقًّا » . والمَعْنَى إنْ وقع ما بُلغْتِ عنّى وحَدَث . وتخصيصه للأنامل لأنّ أكثر المنافع بها . وجازَ إضمارُ خبر كان إذا جعلتها ناقصةً لأنّ فى الكلام والحال دليلاً عليه ، ولأنّ دخُولَه على المبتدإ والخبر ، فكما يُحذَفُ الخبر فى ذلك الباب يُحذف هنا .

٢ــوكَفَّنْتُ وَحْدِى مُنْذِرًا بِرِدَائِهِ[3] وصَادَفَ حَوْطًا من أَعادِىَّ قاتِلُ

وَحْدِى انتَصَبَ على المصدر ، وهو فى موضع التوَحُّد . وفى النَّحويين من يجعله وإن كان مَعْرفةً فى موضع الحال . يقول : وفُجِعْت بِمُنْذِرٍ وأُحوِجْتُ إلى أن أباشرَ تكفينَه وتجهيزَهُ بنفسى — وهذا مما يزيد المُصَابَ كَلْمًا ودَاءً — وصَادَفَ ابنى من أعدائى من لا يُبْقِى عليه[4] . وأَعَادِىَّ بَنَاهُ على الفتح لخفّته ،

(١) بلغت ، بخطاب المؤنثة كما فى النسختين . وعند التبريزى : « بلغت » بخطاب المذكر .

(٢) م : « اليمين فى الشرط » .

(٣) م : « فى ثيابه » . التبريزى « فى ردائه » .

(٤) التبريزى عن أبى محمد الأعرابى أن الصحيح نسبة الشعر إلى حجية بن المضرب . وأن المنذر هو أخو حجية ، وأن حوطا هو ابنه الذى كنى به . ثم روى عنه سبب الشعر =

ولأنه الأصل فى ياءِ الضمير إذَا حُرِّكَ . وعلى هذا تقولُ : هؤلاء بَنِيَّ ومعطِيَّ ، وهذا قاضِيَّ . وأعادِيّ يجوز أن يكون أفَاعِلَ وأضافَهُ ، ويجوز أن يكون أفاعيل كأبابيت وخَفَّفَهُ ، كما خَفَّفَ أثافٍ ثم أضافَهُ . ويجوز أن يكون لمّا رَامَ الإضافَةَ اجتمع ثلاث ياءاتٍ فَحَذَفَ مَدَّةَ أفاعيل .

٢٧

عامِرُ بن الطُّفَيْلِ الكِلابِيُّ(١) :

١ـ طلِّقْتِ إنْ لم تَسْأَلِي أَيُّ فارسٍ حَلِيلُكِ إذْ لاقَى صُدَاءَ وخَثْعَمَا

جعَلَ الإقسام عليها بما يضيِّق طريقها فى التجوُّز والإهمال ، لمَّا وَلاَّها البحثَ والسؤال . هذا إذا جعلْتَ الكلامَ دُعاء . يقولُ : بِنْتِ من زَوْجِكِ إن لم تُفَتِّشِي بالسؤال عن أحوالِهِ حين لاقَى هاتين القبيلتين ، هَلْ أَبلَى فى ملاقاتهما ، وكيف ثبَتَ فى وجوهِهما . ويجوز أن يكون طُلِّقْتِ وعيداً توعَّدَها به إن لم تَنتَهِ إلى مرسومِها(٢) . والحَلِيلُ : الزَّوج ، سمِّيَ بذلك لأنه يُحَالُّ

=» أن النعمان بن المنذر أغار على بنى تميم فنذروا به ومعه بكر بن وائل والصنائع من العرب ، وكان فيمن معه حجة بن المضرب ، وكانت أخته فكيهة بنت المضرب تحت ضمرة بن ضمرة ، فنذر بنو تميم بالنعمان بن المنذر فهزموه ، فاتهم النعمان حجية أن يكون أنذرهم فقال . . . » وأنشد البيت وما بعده .

(١) عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر بن كلاب العامرى ، وهو ابن عم لبيد ، وكان فارس قيس . وكان عامر أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال له : تجعل لى نصف ثمار المدينة وتجعلنى ولى الأمر من بعدك وأسلم ؟ فقال النبى صل الله عليه وسلم : « اللهم اكفنى عامراً واهد بنى عامر » . فانصرف وهو يقول : لأملأنها عليك خيلا جرداً ، ورجالا مرداً ، ولأربطن بكل نخلة فرساً ! فطعن فى طريقه فمات وهو يقول : غدة كغدة البعير ، وموت فى بيت سلولية ! الشعراء ٢٩٣ — ٢٩٥ والخزانة ١ : ٤٧٣ — ٤٧٤ والمؤتلف ١٥٤ والمرزبانى ٢٢٣ والأغانى ١٥ : ٥٠ — ٥٦ والنقائض ٦٥٤ — ٦٧٨ .

(٢) م : « مرسومه » .

صاحبته . وخَثْعَمُ هو خَثْعَم بن أنمَارٍ . والخثعمة : التلطُّخ بالدم . ويقال : كانوا تحالفوا فغمسوا أيديَهم فى دَمِ بعيرٍ نَحَرُوه واجتمعوا عليه فسُمُّوا خَثْعَمًا . ومفعول تَسْأَلِي محذوفٌ ، المراد تسألى الناس . وقوله « أىُّ فارس » هو المسألة ، وهو فى موضع المفعول أيضاً . وجواب الشرط مُقَدَّم ، كأنه قال : إن لم تسألى الناسَ عن هذه المسألة فأنتِ مطلّقةٌ من بَعْدُ ، أو فجعَل الله خاتمةَ أمرِكِ ذلك .

٢ — أَكُرُّ عليهمْ دَعْلَجًا وَلَبَانُهُ إِذَا ما اشْتَكَى وَقْعَ الرِّماحِ تَحَمْحَمَا(١)

أَجْمَلَ فى اقتصاص بلائه ، ثِقَةً بأنّ بحثَها واستقصاءها يأتى على تفاصيله . يقول : أَعْطِفُ فرسى دَعْلَجًا عليهم ، حالاً بعدَ حالٍ ، وكرًّا بعدَ فرّ ، وإذا اشتكى من كثرةِ وقوع الطّعن بصدره حمحم . وجعَل الفعل للصّدر على المجاز والسَّعةِ لكونِه موقِعَ الطعن . هذا إذا رَوَيْتَ : «ولَبَانُه» بالرفع ، لأن بعض الناس روى «ولبانَه» بالنصب ، كأنه فرَّ من أن يكون الاشتكاء والتحمحمُ للّبَان على كثرة نسبة الاشتكاء إلى الأعضاء الآلمة . فوقَعَ فيما هو أقبح ؛ لأن المرادَ أكرُّ عليهم فرَسى ، فلا معنًى لعطف اللّبَان عليه . وسمعت من يجعله من باب تكرير البعض من الكلِّ بالعطف عليه ، وإن كان داخلاً فيما دَخَلَ فيه على وجه الاختصاص وتفخيم الشأن ، كقولِه عزّ وجل : ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ ﴾ . قال : ووجه الاختصاص أنّ الذَّكَرَ بصدره ، كما أنّ الأنثى بعَجُزِه . والدَّعْلَجُ : المَرِحُ فى السَّيْر والتردُّدِ ، ويُوصَفُ به الفَرَسُ

(١) التبريزى عن أبى محمد الأعرابى : الصواب :

أقدِم فيهم دعلجاً وأكره إذا أكرهوا فيه الرماح تحمحما

والبيت لعبد عمرو بن شريح بن الأحوص بن جعفر بن كلاب ، فارس دعلج ، قاله يوم فيف الريح ، وليس هو لعامر بن الطفيل . وأنشده فى تصداق ذلك لمروان بن سراقة الجعفرى :

وعبد عمرو منع القياما ودعلجا أقدمه إقداما

والبعيرُ والحمارُ ، وذكر بعضهم أنه يقال فى الضَّبِّ الهائج أيضاً . [وقد أحسنَ عنترةُ كلَّ الإحسان حينَ سلكَ هذا السبيل فقال :

فازورَّ مِن وَقْعِ القنا بلَبَانِهِ وشكا إلىَّ بعَبرةٍ وتحمحُمِ(١)]

٢٨

زُفَرُ بن الحارثِ الكِلابىّ(٢) :

١ — وكُنَّا حَسِبْنا كلَّ بيْضاءَ شحْمَةً لَيالِيَ قارَعْنا جُذَامَ وحِمْيَرَا(٣)

حكى الأصمعىُّ فى الأمثال : « ما كلُّ بيضاء شَحْمَةً ، ولا كُلُّ سَوْدَاء تَمْرَةً » . والمعنى : ليس كلُّ ما أشبه شيئاً ذلك الشىء . ومعنى البيت : ظَنَنَّا لما التقينا مع جُذَامَ وحِمْيَرَ أنَّ سبيلَهم سبيلُ سائر الناس ، وأنَّا سَنَقْهَرُهم قَهْرًا قريبًا ثم وجدناهم بخلاف ذلك ، لكون أصلهم من أصلنا ، واجتماعِهم فيما تَمَيَّزْنا فيه عن سائرِ الناسِ مَعَنَا ، وجُذَامُ أبو هذه القبيلة فسمِّيت به ، وأصلُه الجَذْم : القَطْع ، وبه سُمِّىَ الداء المعروف جُذَامًا ، وقيل للمقطوع اليد : أَجْذَم . وحَكى بعضُهم : ما سَمِعْتُ لَهُ جَذْمةً ولا زَجْمَةً ، أى كلمةً ، لتقطُّع الصَّوت بها عند النُّطق . والقَرْعُ : ضَرْبُ الشّىء بغيره ، ثم توسَّعُوا فقالوا : قَرَعْتُ باطِلَه بحَقِّى ، وقَرَعَ الشاربُ جبهتَهُ بالإناء ، إذا استوفَى ما فيه .

٢ — فلمَّا قَرَعْنَا النَّبْعَ بالنبعِ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ أَبَتْ عيدانُهُ أن تَكَسَّرَا

بعضَه ، انتصب على البدل من النَّبْع . وجوابُ لمّا قولُه « أَبَتْ » .

---

(١) هذه التكلة من م .

(٢) زفر بن الحارث الكلابى ، أحد بنى عمرو بن كلاب ، كان قد خرج على عبد الملك ابن مروان وظل يقاتله تسع سنين ثم رجع إلى الطاعة . وكان سيد قيس فى زمانه ، وكان على قيس يوم راهط . وزفر من التابعين ، سمع عائشة ومعاوية ، وروى عنه ثابت بن الحجاج . الكامل ٥٣٣ والجهشيارى ٣٥ والمؤتلف ١٢٩ وشرح شواهد المغنى ٣١٣ .

(٣) التبريزى : « ليالى لاقينا » .

وتكسّرَ أصله تتكسّر . والشاعر اعترف بأنّ أصل أولئك نَبْعٌ ، كما أنّ أصلهم نَبْعٌ ، النَّبعُ خَيْر الأشجار التى يُتَّخذ منها القِسِيّ وأصلبها ، كما أن الغَرَبَ شرُّها وأرخاها ، فجعلت العرب تَضْرِبُ المثل بهما فى الأصل الكريم واللئيم ، حتى إنَّ بعض المُحدَثين قال :

هَيْهَاتَ أَبْدَى اليَقِينُ صَفْحَتَهُ وبَانَ نَبْعُ الفَخَارِ مِنْ غَرَبِهِ

فيقول : لما قَرَعْنا أصلَهم بأصلنا أبت العيدانُ من التكسّر . والمعنى أنّ كُلاًّ مِنّا أبى أن ينهزم عن صاحبِهِ . فالعيدان مَثَلٌ للرجال ، والنَّبع مَثَلٌ للأَصْلِ .

٣ — وَلَمَّا لَقِينَا عُصْبَةً تَغْلِبِيَّةً يَقُودُونَ جُرْدًا للمنيَّةِ ضُمَّرَا

يقال تغلِبِيٌّ وتغلَبِيٌّ ، والكسر أكثر ، ومن فَتَح فلتوالى الكسرات والياءين . وهذا كما قالوا : نَمَرِيٌّ فَرَدُّوا من فَعِلٍ إلى فَعَلٍ . يقول : لمّا لقينا جماعةً من بنى تغلب[1] يقودون للحَرْبِ خَيْلاً ضُمَّرًا قِصَارَ الشعور . وجواب لمّا فيما بعد ، وهو سقيناهم . وإنّما احتاج إلى الجواب متى كان عَلَمًا للظرف ، لأنّه يجىء لوقوع الشىء لوقوع غيره . وجَعَل الخَيْل جُرْدًا لأنّ العِرَابَ منها تكون كذلك . واللام من قوله « للمنيّةِ » يجوز أن يتعلّق بيقودون ، ويجوز أن يُتعلّق بقوله ضُمَّرا ، أى ضُمِّرَتْ لها .

٤ — سَقَيْنَاهُمْ كَأْسًا سَقَوْنَا بِمِثْلِها ولـكنَّهم كانُوا على المَوْتِ أصْبَرَا

يقول : قابلناهم بمثلِ ما بدءونا به من سَقى كأس الموت ، لكن القتل كان فيهم أعمّ ، ولهم أشمل . وجَعَل ذلك فيهم كالصَّبر منهم عليه[2] . ويقرُب أن

(١) التبريزى : « يعنى تغلب بن حلوان ، بن عمران بن الحاف بن قضاعة ، لأن الظافر فى يوم مرج راهط كان الكلب بن وبرة بن تغلب بن حلوان ، وليس لتغلب وائل هنا مدخل » .

(٢) ذهب التبريزى إلى أن هذا التفسير خطأ ، وأن المعنى أنه شهد لهم بالغلبة واعترف أنهم أهل صبر ، وقد أقر بهزيمة قومه فى قوله :

ولم تر منى نبوة قبل هذه فرارى وتركى صاحبىَّ ورائيا

يكون قول الله تعالى : ﴿ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴾ على هذا الوجه . كأنّ النّارَ حَقّتْ عليهم ووَجَبَتْ ، بما كان منهم من المعصية ، فجعل ذلك فيهم كالصَّبر منهم عليه ، ولذلك قال بعض المفسِّرين فى معناه : ما أعمَلَهُم بعمل أهل النار . كأنَّ إصرارَهم على ذلك العمل كالصَّبر منهم على النار . وردُّ الآيةِ إلى البيت وإجراء القول فيها على هذا الحدّ غريبٌ حَسَنٌ . وقوله : « أصْبَر » أى أصْبَرُ منّا ، وأفعل الذى يتمّ بِمِنْ يُحذف منه « من » فى باب الخبر دون الوَصْف . وساغ ذلك لأنّ الخبر كما يجوز حَذْفُه بأسْرِهِ لقيام الدلالة عليه يجوز حَذْف بعضِهِ أيضاً له

٢٩

عَمْرُو بنُ مَعْدِيكَرِبَ[١] :

حَكَى ابن الأعرابىّ : قالوا مَعْدِيكَرِبَ لأنّه عَدَا الفسادَ . والكَرب : الفَسَاد .

١ — وَلَمَّا رَأَيْتُ الخَيْلَ زُورًا كَأَنَّهَا جَدَاوِلُ زَرْعٍ خُلِّيَتْ فاسْبَطَرَّتِ[٢]

اسبطرّتْ : امتدّتْ ، والسِّبَطْر والسَّبطُ بمعنًى واحد . يقول : لمّا رأيت الفُرسان منحرفين للطَّعن ، وقد خَلَّوا أعنَّةَ دوابِّهم وأرسلوها ، وقرّطوا آذانَها بها ، فكأنها أنهارُ زَرْعٍ أُرْسِلَتْ مِيَاهُهَا فامتدّتْ بها . والتشبيه وَقَعَ على جَرْىِ الماء فى الأنهار لا على الأنهار ، كأنّه شبّه امتدادَ الخَيْلِ فى انحرافها عند الطَّعْنِ بامتداد الماء فى الأنهار ، وهو يطّرِدُ ملتويًا ومضطربًا . وكما وَصَفَ الخَيْلَ

(١) هو أبو ثور عمرو بن معديكرب الزبيدى ، كان من فرسان العرب المشهورين بالبأس فى الجاهلية ، وأدرك الإسلام وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ارتد بعد وفاته فيمن ارتد من اليمن ، ثم هاجر إلى العراق فأسلم ، وشهد القادسية وأبلى فيها . الشعر والشعراء ٣٣٢ والأغانى (١٤ : ٢٤ — ٣٩) والخزانة (١ : ٤٢٢ — ٤٢٦) وكتب الصحابة .

(٢) التبريزى : « أرسلت فاسبطرت » .

فى انحرافها بزُورٍ وُصِفَتْ أيضًا بنُكُبٍ ، فقال بعضهم :

* لِأَعْدَائِنَا نُكْبٌ إِذَا الطَّعْنُ أَفْقَرَا *

فالنُّكُبُ : جَمْعُ أَنْكَب ، وهو الذى ينحطُّ أحد مَنكِبيه عن الآخَر ، كما أنّ الزُّور جمع أَزْوَر ، وهو المُعْوَجّ الزَّوْر . وهذا من التشبيه الحسن الصائب . وقوله : « خُلِّيَتْ فاسبطرّت » جُعِلاَ للجداول على المجاز والسَّعة ، لأنّ المياه هى التى تخَلَّى وتمتدّ . وهذا كما يقال نَهْرٌ جارٍ ، وإنْ كان الماء هو الذى يجرى .

٢ — فَجَاشَتْ إِلَيَّ النفسُ أَوَّلَ مَرَّةٍ　　ورُدَّتْ على مَكْرُوهِهَا فاستقرّتِ(١)

فجاشت إلىَّ النفس أول مرة . اعترض بعضُهم فقال : لولا أنّه جَبُن لما جاشت إليه النّفس . قال : ومثلُه فى الرداءة قول عنترة :

إِذْ يَتَّقُونَ بِيَ الأَسِنَّةَ لَمْ أَخِمْ　　عَنْهَا ولٰكِنِّى تَضَايَقَ مُقْدَمِى

هَلاَّ قال كما قال العباس بن مرداس :

أَشُدُّ على الكتيبة لا أُبَالِى　　أَحَتْفِى كان فِيهَا أَمْ سِوَاها

قال الشيخ : وليس الأمر كما توَهَّمَ ، لأن ما ذكرَهُ عمرٌو وعنترة بيانُ حالِ النّفس ، ونفسُ الجبانِ والشُّجاع على طريقةٍ واحدةٍ فيما يَدْهَمُهَا عند الوهلة الأولى، ثم يختلفان : فالجَبَانُ يَرْكَبُ نفرتَه(٢) ، والشُّجَاع يدفعُها فيثبُتُ . فأمّا قول العباس ابن مرداس فليس ممّا ذَكَرَاها بسبيلٍ ، وإنّما هو بيانُ الحالة الثانية وما يعزِمُ عليه بعد الاعتصام والمراجعة والتمسُّك . فاعلمْه إن شاء الله . وقولُه : « أوَّلَ مَرَّةٍ » وذاتَ مَرَّةٍ ، لا يكونان إلاّ ظَرْفَيْنِ ؛ لأنّ مَرَّةً ليس باسْمٍ للزمان لازمٍ ، وإنّما هو مُدْخَلٌ عليه . فإذا قلتَ مرّةً فإنما حقيقتُها فَعْلَةً واحدةً ، ويجوز أن

(١) م والتبريزى : « فردت » بالفاء .

(٢) هذا ما فى م والتبريزى . وفى الأصل : « نفسه » .

يكون وقتًا واحدًا . ويجوز أن يكون الفاء فى « فجاشت » زائدةً ، فى قول الـكوفيين وأبى الحسن الأخفش ، ويكون جاشت جَوَابًا لِلَمَّا . والمعنى : لمّا رأيتُ الخَيْلَ هكذا خافَتْ نَفْسِي وثَارَتْ . وطريقةُ جُلِّ أصحابنا البصريين فى مثله أن يكون الجواب محذوفا ، كأنه قال : لما رأيتُ الخَيْلَ هَـكَذَا فجاشَتْ نَفْسى ورُدَّت على ما كَرِهَتْهُ فقرّتْ ، طَعَنْتُ أو أبْلَيْتُ . ويَدُلُّ على ذلك قولُه : « علامَ تقولُ الرمح يثقل ساعدى إذا أنا لم أَطْعُنْ » ، فحَذف طَعَنْتُ أو أبْلَيْتُ لأنَّ المراد مَفْهُومٌ . وهذا كما حذفوا جَواب لو رأيتَ زَيْدًا وفى يده السيف ! وعلى هذا الكلامُ على المذهبين فى قوله تعالى : ﴿حَتَّى إِذَا جَاءوهَا وفُتِّحَتْ[٢] أَبْوَابُها﴾ ، وفى قول امرئ القيس :

فَلَمَّا أَجَزْنَا سَاحَةَ الحَىِّ وانْتَحى ... بِنَا بَطْنُ خَبْتٍ ذِى قِفَافٍ عَقَنْقَلِ

وحذفُ الجواب فى مثل هذه المواضع أبْلَغ وأدلّ على المرادِ وأحْسَنُ ، بِدلالة أن المولى إذا قال لعبده : « واللهِ لئن قُمتُ إليك » وسَكَتَ ، تزاحَمَتْ عليه من الظُّنون المعترضة للوعيد ما لا يتزاحم لو نَصَّ من مؤاخذته على ضَرْبٍ من العذاب . وكذلك إذا قال المتبجِّحُ : « لو رأيتنى شابًّا » وسكتَ ، جالتِ الأفكار له بما لم تَجُلْ به لو أتى بالجواب .

٣ – عَلَامَ تَقولُ الرُّمْحُ يُثْقِلُ سَاعِدِى ... إِذَا أَنَا لَمْ أَطْعُنْ إِذَا الخَيْلُ كَرَّتِ

« ما » فى الاستفهام إذا اتَّصل بحرفِ جرّ يُحذف الألفُ من آخره تخفيفًا ، على ذلك فِيمَ وبِمَ ولِمَ ، إلاّ إذا اتَّصَلَ ما بذَا فقلت : بماذا ولماذا ، لأنه يُتْرَكُ على تمامِهِ[١] . وقوله : « تَقُولُ الرُّمْحُ » يُرْوى بفتح الحاء وضمّها ، فإذا

(١) وقد يترك على تمامه مع عدم اتصاله بذا . وقرأ عكرمة وعيسى : « عما يتساءلون » . وقال حسان : على ما قام يشتمنى لئيم ... كخنزير تمرغ فى رماد
انظر المغنى فى (ما) والخزانة (٢ : ٣٥٧) والبيان (٣ : ١٢٥) .

(٢) كذا فى النسختين . وقرأ عاصم وحمزة والكسائى وخلف والأعمش بتخفيف التاء وباقى القراء بتشديدها .

نَصَبْتَ فلأنك جَعَلْتَ تَقُولُ فى معنى تَظُنُّ . وهُم — عند الخطاب والكلام استفهام — يحملون القول على الظَّنِّ . على ذلك قَوْلُه :

* فَمَتَى تَقُولُ الدَّارَ تَجْمَعُنَا(١) *

أى متى تظنُّ ذلك فتقول ، فجعل القولَ يَدُلُّ على الظَّنِّ لَمَّا كان القَوْلُ تَرْجَمَةً عن الظَّنِّ . والخِطَابُ والاستفهام يحتملان ما لا يحتمل غيرها . وإذا رفعْتَ الرُّمْحَ فالقَوْلُ مَتْرُوكٌ على بابه ، والرُّمْحُ يرتفع بالابتداء ، والكلامُ حكايَةٌ ، وما بَعْدَ الْقَوْلِ إذا كان كَلاَمًا مُفيداً يُحْكَى . ومعنى البيت : على أىِّ شىء ولأىّ وجهٍ تقول : أَحمِلُ الرُّمْحَ فيُثْقِلُ ساعِدِى إذا لم أَعْمِلْهُ إذا حَصَلَ الكَرُّ من الخَيْلِ بعد الفَرِّ ، واشْتَدَّ عليهم الأمْر . والمعنى بأى حُجَّةٍ أَحمِلُ السِّلاَحَ إذا لَمْ أُبْلِ فى الحَرْبِ ولم أَسْتَعْمِلْهُ فى وَقْتِهِ . وهذا الكلامُ إسْقَاطٌ للتبجّح بالبَلاَءِ الذى كان منه أيضا . وقولُهُ : « إذا أنا لم أَطْعُنْ » أى لم يُثْقِل ساعِدِى الرمْحُ فى وقت تَرْكِى الطَّعْن زَمَانَ كَرِّ الخيل ، فإذا الأوّلُ ظَرْفٌ لقوله يُثْقِلُ ، وإذا الثانى ظَرْفٌ لقوله لم أَطْعُن .

٤ — لَحَا اللهُ جَرْمًا كُلَّمَا ذَرَّ شَارِقٌ وُجُوهَ كِلاَبٍ هَارَشَتْ فَازْبَأَرَّتِ

ازْبَأَرَّ : انتفش حتَّى ظهر أصولُ شعره . قال :

فهو وَردُ اللَّونِ فى ازبئرارِه وكميتُ اللَّونِ ما لم يزبئِرّ(٢)

كُلَّمَا انتصب على الظَّرْف ، و« وجُوهَ » انتصَبَ على الشَّتم والذَّمِّ ، والعامِلُ فيه فِعْلٌ مُضْمَرٌ وهو أَذْكُرُ . كأنّه شَبَّهَ وجوههم بوجوه الكِلاَبِ فى الحالة المذكورة . ويجوز أن يكون انتصابه على البَدَل من قَوْلِه « جَرْمًا » . ومعنى

---

(١) لعمر بن أبى ربيعة ، كما فى اللسان (قول) . وصدره :

* أما الرحيل فدون بعد غد *

(٢) البيت للمرار بن منقذ فى المفضليات (١ : ٨١) .

لَحَا الله : قَشَر الله ، أى فَعَل ذلك بهم غَدَاةَ كُلِّ يَوْمٍ ، أَذْكُرُ قَوْمًا يُشْبِهُون الكِلاَبَ إذا واثَبَت غيرَها وساوَرت ، فانتفشت وتجمَّعتْ للوثب ؛ وتلك الحالةُ من أحوالها أَشْنَعُ وأنكَر . وهذا تحقيقٌ للشَّبَهِ ، وتصويرٌ لقباحة المنظر . والذُّرُور فى الشمس أصلُه الانتشار والتفريق . قال :

* كالشَّمس لم تَعْدُ سِوَى ذرورِها *

أى طلوعِها وانتشار ضوئِها . قال الخليل : المهارشَةُ من الكلابِ وغيرها كالمُحارشَةِ . ويقال : فلانٌ يُهَارِشُ بين الكَلْبَيْن .

٥ — فَلَمْ تُغنِ جَرْمٌ نَهْدَهَا إذْ تلاقَيَا   ولَـكِنَّ جَرْمًا فى اللقاءِ ابْذَعَرَّتِ[1]

جَرْمٌ ونَهْدٌ : قبيلتان من قُضَاعة[2] . ومعنى ابذعرّت : تفرّقتْ . وأضافَ نَهْدًا إلى ضمير جَرْمٍ ، لاعتماده كان عليها ، واعتقاده الاكتفاء بها . والمعنى لم تَنْصُرْها فكانت تكتفى بها وتَغْنَى ، ولكنّ جَرْمًا انهزمت ، وهَامَتْ على وجهها فمَضَتْ ، واصطلت نَهْدٌ بنارِ الحرْبِ ، فمَسَّتْ حاجَتُها إلى من يؤازرها ، ويناهض الأعداء معها .

٦ — ظَلِلْتُ كأَنِّى للرِّماحِ دَرِيَّةٌ   أُقاتِلُ عن أبناء جَرْمٍ وفَرَّتِ

يقول: بقيتُ نهارى منتصباً فى وجوه الأعداء ، والطعنُ يأتينى من جَوَانبى ، وكأنى للرِّماحِ بمنزلة الحَلْقَةِ التى يُتَعلَّمُ عليها الطعنُ ، أَذُبُّ عن جَرْمٍ وقد هَرَبَت هىَ . ويجوز أن يكون : كأنِّى للرِّماحِ صَيْدٌ . فقد حكَى أبو زيد أنه يُقال

(١) رواية التبريزى : « إذ تلاقتا » .

(٢) التبريزى : وكانت جرم ونهد فى بنى الحارث بن كعب ، فقتلت جرم رجلا من بنى الحارث يقال له معاذ بن يزيد ، فارتحلت جرم فتحولوا إلى بنى زبيد قوم عمرو بن معديكرب ، فجاءت بنو الحارث يطلبون بدم صاحبهم ، فعبى عمرو جرما لبنى نهد ، وتعبى هو وقومه لبنى الحارث ، فكرهت جرم دماء بنى نهد نفرت ، وانهزمت بنو زبيد ، فلامهم عمرو » .

للصيد خاصةً ذَرِيّةٌ ، غيرُ مهموزةٍ ، ودَرَايَا ؛ كأن هذا من دَرَيْتُ أى خَتَلْتُ . فأمّا الدابة التى يُسْتَتَرُ بها من الصَّيدِ ، فإذا أُكْثِبَ رُمِىَ من خَلْفِها ، فذكَرَ أبو زيدٍ أنها تسمَّى دَرِيئَةَ الصيدِ ، بالهمز . قال : ويقال : دَرِأْتُها نحوَ الصَّيد وإلى الصيد وللصيد ، إذا سُقْتَها . وكأن هذا من الدَّرْءِ ، وهو الدفع . وقد تسمَّى تلك الدابّة الذَّرِيعة والسَّيِّقةُ والقَيِّدة . وأنشِدْتُ عن أبى العبّاس المُبَرِّدِ ، رحمه الله ، أنشدنيه حمزة بن الحسن ، قال : أنشدنيه على بن سليمان الأخفش عنه :

إذا نَصَبْنَا لقوْمٍ لا نَدِبُّ لهم كما تَدِبُّ إلى الوحشيّة الذُّرُعُ[1]

الذُّرع : جمع ذريعة ، كصحيفة وصُحُف . وإن جعلت « كأنى » فى موضع الحال فأقاتل فى موضع الخبر لِظَلِلت حينئذ .

٧ ــ فلو أنّ قومِى أنطقتنى رِماحُهم نَطقْتُ ولكنّ الرِّماحَ أَجَرَّتِ

النُّطق استُعمل فى الكلام وغيره ، ولذلك قيل مَنْطِق الطير ، ثم توسّعوا فقالوا : نَطَقَ الكتابُ بكذا . يقولُ : لو أنّ قومى أَبْلَوْا فى الحرب واجتهدوا لافتخرت بهم ، وذكرْت بلاءهم ، ولكنّ رماحَهم أجرَّت لسانى ، كما يُجَرُّ لسان الفَصِيل . وجَعَل الفعلين للرِّماح لأن المراد مفهومٌ فى أن التقصير كان منهم لا منها . والإجرار : أن يُشَقَّ لسانُ الفصيل للرماح فيُجعلَ فيه عُوَيْدٌ لئلاّ يرضَع أمه . وقد استُعمل الإجرار فى الرُّمح إذا تكسَّر فى المطعون . قال :

* أجِرَّهُ الرُّمحَ ولا تُهالَه[2] *

---

(١) أنشد فى اللسان (ذرع) :

وللمنية أسباب تقربها كما تقرب للوحشية الذرع

(٢) فى اللسان : « فتح اللام لسكون الهاء وسكون الألف قبلها . واختاروا الفتحة لأنها من جنس الألف التى قبلها ، فلما تحركت اللام لم يلتق ساكنان فتحذف الألف لالتقائهما » ... وقبله :

* ويهاً فداء لك يا فضاله *

وفى طريقه قوله : « أنطقتنى رماحُهم » قول الآخر[1] :

أقولُ وقد شَــدُّوا لسانى بِنِسْعَةٍ   أَمَعْشَرَ تَيْمٍ أَطْلِقوا عن لِسَانِيَا

لأنّ المعنى أحسِنوا إلىّ ينطلِقْ لسانى بشكركم .

٣٠

سَيَّارُ بنُ قَصيرٍ الطائىّ

١ — لو شَهِدَتْ أُمُّ القُدَيْدِ طِعَانَنَا   بمَرْعَشَ خَيْلَ الأرمَنِيِّ أَرَنَّتِ[2]

جواب لو ، «أرَنّت» . يقال رَنَّ وأَرَنَّ بمعنًى واحد . ومَرْعَش من ثغور أرمينيَة . وأُمُّ القُدَيد ، قيل هى امرأته . والخيل ينتصب من قوله « طِعَانَنَا » . ومعنى البيت : لو حَضَرت هذه المرأةُ مطاعنَتَنا بمَرْعَش خَيْل هذا الرّجل الأرمَنِيِّ لوَلْوَلَتْ وضَجَّتْ ، إشفاقًا علينا ، لكثرتهم وقلّتنا . والباء من قوله « بمَرْعَشَ » تعَلّقَ بطعاننا ، وهو ظَرْفُ مكان له قد عَمِلَ فيه . وإنما قلت هذا لئلا يُتوهَّم أنه تعلّق بشهِدَتْ ، وأنه فى موضع الحال للخيل أو المطاعنين ، فيكون قد فُصِلَ به بين الصِّلة والموصول ، وهما طعاننا وخيل الأرمَنِيِّ .

٢ — عَشِيَّةَ أَرْمِى جَمْعَهُمْ بلَبَانِهِ   ونَفْسِى وقد وَطَّنْتُها فاطمَأَنّتِ

لَبَان الفرس : صدره . ويقال : وطّنْت نفسى على كذا فتوطَّنَت ، أى حَمَلْتُها عليه فذَلّت . وانتصب « عَشِيَّة » على أنه ظَرْفٌ لطِعَانِنا . ويجوز أن يكون ظرفًا لِشَهِدَت ، ولا يجوز أن يكون ظرفًا لأرمى ؛ لأن أرمى أضيفت عشيَّة إليه ، والمضاف إليه لا يعمل فى المضاف . ومعنى البيت : عشِيَّةَ أَحمِلُ عَلَى القَوْمِ ولا أُبالى إن كانت عَلَىّ أوْ لِى ، لأنى وطّنت نفسى على الشر فألِفَته

(١) هو عبد يغوث بن وقاص الحارثى . المفضليات (١ : ٥٥)

(٢) أنشد هذه الأبيات ياقوت فى (مرعش) بدون نسبة .

وسكَنَت إليه . فمن روى : « ونفسىَ قد وطّنتها » يكون الواو للحال ، ونفسى يرتفع بالابتداء ، ووطَّنتُها فى موضع الخبر . ومن رَوَى : «ونَفْسِى وقد وطَّنْتُها» فإنّ نفسى يكون فى موضع الجر عطفاً على بلَبَانه ، أى أرمى جيشهم بنفسى وفرسى ، ويكون قد وطّنتها فى موضع الحال . وتحقيق الكلام : وقد وطّنتُها على الشر فسَكَنَت إليه ، ورضِيَت به . ومثلُه قول عنترة :

ما زِلْتُ أرْمِيهِمْ بقُرْحة مُهرِى ولَبَانِ لا وَكَلٍ ولا هَيَّابِ

وقول الآخر :

مازِلْتُ أرميهم بثُغرَةِ نَحْرِه وفارسِه حتى ثأَرتُ ابنَ وَاقِد[1]

٣– وَلاحِقَةِ الآطالِ أَسْنَدْتُ صَفَّها إلى صَفٍّ أُخرَى من عِدًى فاقْشَعَرَّتِ

إنما نَكَّرَ قولَه « عِدًى » لينبّه به على اختلافهم وكثرتهم ، وأنّ ذلك لتوفُّر فضائلهم ، وتظاهُرِ عزِّهم ورياستِهم ، إذْ كان الحسَدُ يتبع ذلك ، ولأنهم يَبْزُونَ مَن لا يَذِلّ لهم ، ولا يَهوَى هواهم . يقول : ورُبَّ خَيْلٍ قد لحقَت بطونُها بظهورها[2] ، وارتفعت جنوبُها إلا متونها ، أنا أَمَلْتُ صَفَّها إلى صَفِّ خَيْلٍ مِثْلِها من الأعداء ، فخافت لقلّتنا وكثرتهم . وأصل الاقشعرارِ تقبُّض الجلد وانتصابُ الشَّعر ، وقد تكلَّم الناسُ فى قول امرئ القيس :

* والقَلْبُ من خَشْيَةٍ مُقْشَعِرّْ[3] *

فقال بعضهم : الاقشعرار لا يصحُّ فى القلب ، لأنه يُخبَرُ به عما عليه شَعَرٌ ، ولا شَعَرَ على القلب . وقال غيرُه : إنما هو كناية عن الوَجَل ، ولمّا كان

(١) فى الأصل : «وبوجهه حتى» ، ولا يستقيم به الوزن . وهو من الطويل مع الخرم فى أوله . وأثبتنا ما فى م . (٢) م : «وظهورها» .

(٣) هو بتمامه ، كما فى الديوان ٩ :

فبت أكابد ليل التما م والقلب من خشية مقشعر

الاقشعرارُ يقع عنده كُنِيَ به عنه . وإذا كان كذلك فكأنه قال : والقَلْبُ من خَشْيَةٍ وَجِل .

٣١

بعضُ بنى بَوْلانَ من طَيِّءٍ(١)

بَوْلان فَعْلَان ، من قولهم رجُلٌ بُوَلَةٌ ، إذا كان كثير البَوْل . والبُوَال : داء يصيب الغنم فيبول حتى يموتَ .

١ — نحنُ حَبَسْنَا بنى جَدِيلَةَ فى نارٍ من الحَرْبِ جَحْمَةِ الضَّرَمِ

جَدِيلةُ من الجَدْلِ ، وهى فيما زعموا أمُّهم . والجَدْلُ : الفَتْلُ . قال الدُّرَيْدِى : جَدِيلةُ من قولهم امرأةٌ مجدُولةٌ ، إذا كانت قَضِيفَةً . ويقال ضَرِمَتِ النارُ ، إذا التهبت ، تضرَمُ ضَرَمًا . ولهذا ما تلتهب به النارُ سريعًا من الحطب قيل له الضِّرَام . فيقول : حبسنا هؤلاء القومَ على نارٍ من الحَرْبِ شديدة الالتهاب . والجَحْمَةُ : مَصدَرُ جَحِمَتِ النارُ فهى جاحمةٌ ، إذا اضطرَمَت ؛ ومنه الجحيم . قال : وُصِفَت النار بالجحيم لحُمْرَتِها ، ولذلك سُمِّيَت عَيْنُ الأسد(٢) جَحْمَةً ، لأنها تتراءى بالليل كأنها نار . وقال الدُّرَيْدِى : الجُحْمَةُ العين ، لغةٌ يمانيَّةٌ . وعين الأسَد خاصَّةً فى كلِّ اللغات الجَحْمَة .

٢ — نستَوْقِدُ النَّبْلَ بالحضيضِ ونَصْـ ـطادُ نُفُوسًا بُنَتْ عَلَى الكَرَمِ

قولُهُ « نَسْتَوْقِدُ النَّبل » من فصيح الكلام ، كأنه جَعَل خروج النار من

---

(١) التبريزى عن أبى محمد الأعرابى : « هذا الشعر لرجل من بلقين ، وسبب ذلك أن القين بن جسر وطيئا كانوا حلفاء، ثم لم تزل كلب بأوس بن حارثة حتى قاتل القين يوم ملكان ، فحبسهم بنو القين ثلاثة أيام ولياليها لا يقدرون على الماء، فنزلوا على حكم الحارث بن زهدم أخى بنى كنانة بن القين ، فقال شاعر القين يومئذ : نحن حبسنا » .

(٢) فى الأصل : « عين الشمس » تحريف ، صوابه فى م والتبريزى واللسان .

الحجَر عند صَدْمة النَّبل استيقادًا منهم . والوَقْدُ ، توسَّعُوا فيه حتَّى قيلَ قَلْبٌ وقادٌ . فإن قيل : هَلاَّ قال نستقدِحُ النّبْل ، فكان أصَحَّ ؟ قلتَ : الذى قالَه أفصح ؛ وقد قيل زَنْدٌ مِيقادٌ ، إذا كان سريعَ الوَرْيِ . وقال الخليل : كلُّ ما تلألأ فقد وَقَدَ ، حتى الحافر . يقول : تنفذ سهامُنا فى الرَّمِيَّة حتى تَصِلَ إلى حَضيض الجبل فتخرجَ منه النار لشدة رَمْيِنَا ، وقوة سواعِدنا ، ونصيد بها نفوساً مبنيّة على كَرَمٍ . أى نقتل الرؤساء ومن تَكْرُمُ نفسه وتَعِزُّ حياتُه . وقوله « بُنَتْ » أصله بُنِيَتْ ، فأخرجه على لغة طيِّئٍ ، لأنهم يقولون فى بَقِيَ بَقَى ، وفى رُضِيَ رُضَى . ولهذا قال بعضهم :

* على مِحْمَرٍ ثَوَّبْتُمُوه وما رُضَى[1] *

وقالوا فى بادِيَة : باداة ، كأنهم يفرّون من الكَسْرَة بعدها ياء إلى الفتحة ، فتنقلب الياء ألفاً . والحَضِيضُ : قرار الأرض عند سفح جَبَلٍ . والنَّبْلُ لا واحِدَ له من لفظه .

٣٢

وقال رُوَيْشِدُ بن كَثِيرٍ الطائىُّ :

١ – يأيُّها الراكِبُ المُزْجِى مَطِيَّتَه سَائِلْ بنى أَسَدٍ ما هذه الصَّوْتُ[2]

المَطِيَّةُ من المَطَا ، وهو الظَّهْرُ . ويقال مَطَاهُ وامتطاه ، إذا ركبه . ولِلحُوق الهاء به صار اسماً ، وقد مر مثلُه . ويُروى : بَلِّغ بنى أَسَدٍ » . وقوله : « ما هذه

(١) لزيد الخيل ، كما فى نوادر أبى زيد ٨٠ والأمالى (٣ : ٢٤) وشرح شواهد المغنى للسيوطى ١٦٥ . واللسان (أتم) . وصدره :

* أفى كل عام مأتم تجمعونه *

(٢) التبريزى : « هذه الأبيات شاذة فى الشعر القديم ، لأن العادة قد جرت إذا استعملوا هذا الوزن أن يكون اللين فيه كاملا ، وذلك أن يكون قبل الروى ألف أو واو قبلها ضمة ، أو ياء قبلها كسرة . وقوله : الصوت ، قد جاء بالواو وما قبلها مفتوح » .

الصوتُ » الجملة فى موضع المفعول ، وارتفع الصوت على أنه عطف البيان . يُخاطِبُ الراكبَ السائقَ لمطيّته بإعجال ، يسأله أن يُبلِّغ بنى أسَدٍ عنه عن طريق الفحص والاستعلام : ما هذه الجَلَبَةُ . وهذا الكلامُ تهكُّمٌ وسخريّة ، لأنه هو الذى أثار عليهم ما اهتاجوا له ، وجَلَبَ عليهم ما أشكاهم . وإنما قال ما هذه الصوت ، والصوت مُذكّر ، لأنه قَصَدَ به إلى الصيْحَةِ والجَلَبةِ . وهذا كما قال حاتمٌ :

أَمَاوِىَّ قد طالَ التجنُّبُ والهَجْرُ   وقد عَذَرَتْنِى فى طِلَابِكُم العُذْرُ

يريد المعذرة . وكما قال الآخر[1] :

وكان مِجَنِّى دونَ من كُنْتُ أَتَّقِى   ثلاثُ شُخُوصٍ كاعِبَانِ ومُعْصِرُ

فأنّث الشُّخوصَ لأنه قصد بها إلى النفوس . وحكى عن أبى عمرو ابن العَلاء أنه سَمِع بعضهم يقول : « جاءته كتابى فاحتقرها » . قال أبو عمرو : فقلت : أتقول جاءته كتابى ؟ قال : نعم ، أليست هى صحيفة ؟ وقد قيل : لمّا كانت الشُّخوصُ شُخوصَ النِّساء أنّث العدد . وقوله : « الراكبَ المُزْجِى » الراكب يقع على راكب البعير خاصةً ؛ لأن راكب الخيل يقال له فارس . والمُزْجِى ، يُقال زَجَا الشىء يزجو زَجْوًا وزَجَاء ، وأَزجَيْتُه أنا وزجّيْتُه ، إذا استحثثته . ومنه زَجَاء الخَرَاجِ . وفى هذا الكلام دَلالةٌ على أنه ليس يُقنِعُه ما أوقعهم فيه . ألا تَرَى أنه يتوعّد بالاستئصال إن لم يصح عُذرُهم . ويجوز أن يكون المراد بقوله « ما هذه الصوت » ما الذى يتأدّى إلىّ عنكم ، ويتحدّث به الناس من شانِكم وقصتِكم . ويقال : ذهَب صوت هذا الأمر فى الناس للتحدُّث به ، وذهب صِيتُ بنى فلانٍ فى الناس إذا ذُكِروا بالخير . فكأنّه على هذا يوهمهم

(١) هو عمر بن أبى ربيعة ، من قصيدته التى مطلعها :
أمن آل نعم أنت غاد فمبكر   غداة غد أم رائح فمهجر

أنّه لم يصحّ عندَه ما يُقال، وأنهم إن لم يقيموا المعذِرة والدّلالة على براءة الساحة حينئذ عاقَبَهم. وهذا المعنى فى نهاية الحُسْن (١).

٢ - وقُلْ لهُمْ بادِرُوا بالعُذْرِ والتَمِسوا قَوْلاً يُبَرِّئُـكم إنِّى أنا المَوْتُ

مفعول بادروا محذوف، كأنّه قال: بادِرُوا العِقابَ بالعُذر، أى سابِقُوه.
يقول: قُلْ لَهُمْ: سارِعوا بالعُذْر فيما ركبتموه واطلبوا قولاً يُبَرِّئُ ساحَتكم، إنِّى أنا حَتْفُكم إنْ لم تفعلوا، أى أقرِّب حَيْنَكم، وأسْعَى فى هلاككم إن لم تفعلوا. ويقال: لَمَسَ والتمسَ فى معنى طلب. على ذلك قولُ الله تعالى حاكيًا عن مستَرِقة السمع: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فوجَدْناها مُلِئَتْ حَرَسًا شديدًا﴾، أى طلبناها. وقال الشّاعر:

أَلامُ عَلَى تَبَكِّيهِ وَأَلْمَسُهُ فلا أَجِـدُهْ

و « يبرئكم » فى موضع الصِّفة للقول، أى قولاً مبرِّئًا لكم من الذنب.

٣ - إنْ تُذْنِبُوا ثم يأتينى بَقِيَّتُكُمْ فَمَا عَلَيَّ بذَنْبٍ عِندَكم فَوْتُ (٢)

قولُه « بذَنبٍ » أى بسبب ذَنْبٍ، وقد حَذَفَ المضاف وأقام المضَاف إليه مقامه، كأنَّه قال بجزاء ذَنْبٍ، ويقال: « لا فوتَ عليك فى كذا »، كما يقالُ لا بأس عليك. والمعنى: لايفوتك. وفى هذا الكلام إيذانٌ بأنّه مستعمِلٌ الأناةَ والحلم معهم، ثقةً بأنّهم لا يفوتونه. يقول: إن تُجْرِموا ثم يصحّ عندى تعمُّدُكم فى إجرامكم وتيقُّنكم ما يلحقكم من لائمةٍ وعيْب (٣) وأنكم أقدمتم مستهينين، ومن يأخذُكم نكيرُهُ غير حافلين، فما يفوتنى

(١) كذا فى م. وفى الأصل: « فى نهاية » فقط.
(٢) يروى أيضا: « تفيتكم » كما نص التبريزى. ويروى: « بقيتكم » كما سيأتى.
(٣) م: « وعتب ».

مكافأتكم ، ولا يُغنِينى مؤاخذتكم ومحاسبتكم . ورُوى: «ثم يأتينى بقيّتُكُم» وفُسِّر على وجهين : أحدُهما أنّ المعنى ثمّ تأتينى خيارُكم وأماثلكم ، يقيمون معذرةَ أنفسِهم ، ويبيِّنون أنّهم لم يساعدوكم لا بالرأى ولا بالفعل . وهذا كما يقال: فُلانٌ من بقية أهْلِهِ ، أى من أفاضلهم . والآخر أن يكون المعنى : ثمّ تأتينى بقيّتكم الذين لم يذنبوا متنصِّلين بأنهم قد فارقوكم وأسلموكم ، لعظيم جنايتكم ، وخلعوا رِبْقَةَ النُّصْرةِ والمعاوَنةِ لكم .

٣٣

أُنَيْف بن حَكَمٍ النَّبْهَانِى[1]

١ – جَمَعْنَا لَهُمْ مِنْ حَىِّ عَوْفِ بن مَالِكٍ كَتَائِبَ يُرْدِى الْمُقْرِفِينَ نَكَالُهَا

الكَتِيبَةُ من الجيش : ما جُمِع فلم ينتشر . وقوله : « يُرْدِى » مع ما بعدَهُ فى موضع الصِّفة للكتائب . يقول : جمعنا لهؤلاء القوم جُيُوشًا من خُلَّصِ العرب تُهلك عُقوبَتُها الذين فى نَسبهم هُجْنَةٌ أو إقرافٌ إذا بركوا عليهم. وهذا يجوز أن يكون تعريضًا بمنا بذِيه ووعيدًا لهم . والإقراف يكون من قِبَل الفحل ، والهُجْنَةُ من قبل الأمّ . وذَكَرَ المُقرفين ولم يذكر الهُجَناء لأنّهم وإن كانوا يأخذون مأخذَهم فى أنّه لا يَخلُصُ نَسَبُهُمْ ، [ولا يصفو سببُهم[2]] ، فنافيهم أشدّ نقدًا ، ومزيِّفهم أنكرَ دفعًا . وكان عَنترَة العَبْسِى هجينًا فقال :

إنِّى امرؤٌ من خَيرِ عَبْسٍ مَنْصِبًا شَطْرِى وأَحْمِى سائرى بالْمُنْصُلِ

[نافيًا للإقراف[3]] ، فجعل أحد شَطْرِيه من خير عَبْس ، وجعل الباقىَ يحميه من الذّم باستعمال السَّيف يوم الرَّوْع ، وحسنِ البلاء فى الحرْب ، حتّى

(١) التبريزى والمبهج : « أنيف بن زبان النبهانى » .

(٢) التكملة من م .

(٣) التكملة من م . وما بعده إلى « عبس » ساقط من م .

يُلْحِقَهُ بالْخُلَّصِ ، ولا تَقْعُدَ به هُجْنَتُه عن الدُّخُولِ فى زُمْرَةِ الصُّرَحاء .

٢ـ لَهُمْ عَجُزٌ بالْحَزْنِ فالرَّمْلِ فاللِّوَى　　وقد جاوَزَتْ حَيَّىْ جَدِيس رَعَالُهَا

الرَّعيل: قطعةٌ من الخيل متقدِّمَةٌ ، وتوسَّعوا فقالوا : أراعيلُ الرِّياح . ويقال: استَرْعَلَ فُلَانٌ ، أى خَرَجَ فى الرَّعيل الأول . يقول : سَوَابِق هذه الكتائب وأوائلُها قد جاوزت بلادَ طَسْمٍ وجَدِيسَ ، ولواحِقُها قد شُحِنَتْ بها هذه المواضع . وبين بلاد حَيَّىْ جديسَ والبقاعِ التى ذكرها مَسَافَةٌ بعيدة . واللِّوى ، حيثُ يرِقُّ الرَّملُ فيخرج السائر فيه إلى الحَزْن . وطَسْمٌ وجَدِيسُ : أمَّةٌ من العرب بادوا وانقرضوا . وقيل أراد بالحيَّيْن جَدَسًا[1] وجَدِيسًا ، وذَكَرَهُم والقَصْدُ إلى ديارهم وبلادهم ، ورتَّبَ المواضع الذى عدَّدَها بالفاء ، وجعل أعجاز الكتائب فيها تكثيرًا لها .

٣ـ وتَحْتَ نُحُورِ الخَيْلِ حَرْشَفُ رَجْلَةٍ　　تُتَاحُ لِغِرَّاتِ القُلُوبِ نِبَالُها

رَجْلَةٌ موضوعةٌ لأدنَى العدد ، بدلالة أنك تقول : ثَلاثَةُ رَجْلَةٍ . ومن عادتهم أن يُقَدِّمُوا الرَّجَّالة عند تعبئة الجيش ، ليستَنِدُوا إلى الفُرسَان . وقوله : « وتحت نُحورِ الخيل حَرْشَفُ رَجْلَةٍ » أراد قطعة من الرَّجَّالة . ومعنى تُتاحُ : تُقَدَّرُ وتُهَيَّأُ . ويقال : تَاحَ له كذا وَأَتَحْتُهُ أنا ؛ رَجُلٌ مِتْيَحٌ . وموضِعُهُ جَرٌّ على الصِفة لرَجْلَةٍ . فيقول : تحت صدور الدوابِّ قِطْعَةٌ من الرَّجَّالة تُقَدَّرُ نِبالُها للقلوبِ الغافِلة ، أى لا يُشْعَر بهم فإذا نبالُهم تَعمل هذا العمل . والحَرْشَف ، الأصل فيها أن تُستعمل فى الجراد ، ثم استُعير للجماعةِ من الرَّجَّالة على التَّشبيه ، وقال امرؤُ القَيْس :

كأنَّهم حَرْشَفٌ مَبْثُوثٌ　　بالجوِّ إذ تَبْرُقُ النِّعَالُ

---

(١) فى القاموس : « وجدس محركة : بطن من لخم ، أو هو تصحيف والصواب بالحاء المهملة »

وغِرَّاتٌ : جمع غِرَّة ، وهي صفةٌ ، يقال رجُلٌ غِرٌّ وغَرِيرٌ ، وجاريةٌ غِرَّةٌ وغَرِيرةٌ ، ومصدره الغَرَارة .

٤ ـ أَبَى لَهُمُ أَن يَعْرِفُوا أَنَّهُم بَنُوا نَاتِقٍ كانَتْ كَثِيرًا عِيَالُها

هذا الكلام من صفة الكتائب . و« أن يعرفوا » في موضع المفعول لِأَبَى ، وفاعِلُه قولُه «أنهم بنو ناتق» . وقولُه « كانت» من صفة الناتق . يقول: مَنَع لهم معرفةَ الضَّيم كثرتُهم وتَرادُفُهم . والناتق: المرأة الكثيرة الأولاد . وجَعَل العِيال كِنايةً عن الأولادِ ، وهو جمعُ عَيِّل ، كجَيِّد وجِيَاد . يقال : عند فلان كذا عَيِّلاً ، وهو مُعْيِلٌ ومُعَيَّلٌ[1] : كثير العيال . والفِعل من ناتقٍ نتقَتْ تَنْتِقُ نَتْقًا .

٥ ـ فلمَّا أَتَيْنَا السَّفْحَ من بَطْنِ حائلٍ بحيثُ تَلاقَى طَلْحُها وسَيَالُها

الباء من قول « بحيث » تَعلَّق بفِعلٍ دَلَّ عليه أتينا ، كأنه قال : حَصَلْنا بحيث تَلاقَى طلحها وسيالُها . وموضعُه من الإعراب نَصْبٌ على الحالِ للمضمرين في أتينا . والسَّفْحُ : أسفل الجبَل ، ولاشتهاره بما وُضع له أغْنَى عن إضافته إلى الجبل . والطَّلْحُ والسَّيالُ : شجَرانِ . فيقول : لما بلغنا أسفَلَ الجبل من بطن هذا الوادي بحيث التَقى هذان الجنسان من الشجر . وهذا إشارةٌ منه إلى موضِع العِراكِ والقِتال . وجوابُ لمَّا فيما بعده .

٦ ـ دَعَوْا لِنِزَارٍ وانْتَمَيْنَا لِطَيِّءٍ كأُسْدِ الشَّرَى إقدامُها ونِزَالُها

انتمينا : انتسبْنا ، أي قالوا يا لَنِزَارٍ ، وقلنا نحن : يا لَطَيِّءٍ ، مشابهين للأسود . وقوله « كأُسْد الشَّرَى » حذَف المضاف وأقام المضاف إليه مَقامه ، كأنه قال : وكإقدام أُسْد الشَّرَى إقدامُها ونِزالُها وجاز الحذفُ لأنه لا يلتبس

---

(١) كذا في الأصل . وفي م : « مُعَيَّل ومتعيل » ، وكلها صحيح .

وجهُ التشبيه بغيره . ومعنى « دَعَوْا لنزار » : انتسبوا إلى نِزار . وهذا الاعتزاء الذى أشار إليه قد يفعله الفارسُ عند الطعن والضرب أيضاً ، يقولُ الواحدُ منهم : خُذْها وأنا من بَنى فلان ، وأنا فلان بن فلان .

٧ ـ فلمّا الْتقَيْنَا بَيَّنَ السيْفُ بَيْنَنَا لِسَائِلَةٍ عَنَّا حَفِيٍّ سُؤَالُهَا

الإحفاء يكون فى السُّؤال عن الشَّىء ، ويكون فى طلب الشَّىء من الغير ، وهو المبالغةُ فيهما ، والذى بيّنه السّيفُ هو حُسْن بلاءِ أحدِ الفريقين وزيادَتُه فيما يُحْمَدُ من الصَّبرِ والثَّبَاتِ على صاحِبِه . وقد حَذَفَه من اللَّفظ لأنَّ المفاعيلَ تُحذف كثيراً إذا دَلَّ الدَّليل عليها . ومعنى قوله : « لسائلةٍ عَنَّا حَفِيٍّ سُؤَالُها » أنَّ الإحفاء فى السُّؤال والاستقصاء فى البحث ، ممّا يزداد معه بيِّنات الأحوال ، وجَليّات الأمور . وجَعَلَ الحَفِيَّ للسُّؤال على المجاز والسَّعَة . وفُسِّرَ قولُه تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾ : كأنَّ المعنى كأنك عالمٌ بها ، لمّا كان الإحفاء فى المسألة حقيقاً بأن يؤدِّىَ إلى العِلم بالمسئول عنه . والسَّائلةَ يجوز أن يريد بها قبيلةً ، ويجوز أن يريد بها امرأةً . وجَعَلَ قولَه « السَّيفُ » كنايةً عن أنواع السِّلاح ، بدلالة أنّه أعادَ ذكر استعمال السَّيف فيما بعده ، لمّا فَصَّل أحوالَهُم وفَسّر مقاماتِهم فقال : ولمّا عَصينا بالسُّيوف » .

٨ ـ ولمّا تدَانَوْا بالرِّماحِ تَضَلَّعَتْ صُدُورُ القَنَا مِنْهُمْ وَعَلَّت نِهَالُهَا

يقول: ولما تقارَبْنَا باستعمالِ الرّماح رَوِيَت القَنَا من دمائِهِمْ ، وصار النَّاهِلُ منها عَالًّا . والنَّهلُ : الشُّربُ الأوّلُ ، والعَلَلُ : الشُّرب الثانى كأنّهم عاوَدُوا الطَّعنَ وكرُّوا حالاً بعد حال . والتَّضَلُّع ، حقيقته أن يُستعمل فيما له ضِلعٌ ، وعند الارتواء تنتفخ الأضلاع ؛ واستعاره ها هنا . ويقال : تَضَلَّعَ شِبَعاً ، وتَحَبَّبَ رِيًّا . وخَصَّ الصُّدُورَ لأنَّ الطَّعن بها . ويقال عَلَّ إبلَهُ يَعُلُّ ويَعِلُّ ، فَعَلَّتْ

هِىَ . وإن شئت على هذا رَوَيْتَ : « وعَلَّتْ نِهالُهَا » ، وإن شئت رويت : « وعُلَّتْ » .

٩ ـ وَلَمَّا عَصِينَا بالسُّيُوفِ تَقَطَّعَتْ وسائلُ كانت قَبْلُ سِلْماً حِبَالُهَا

وَسَلْتُ إليه وَسِيلةً ، أى تقرَّبْتُ إليه بقُرْبَةٍ . ويقال تَوَسَّلْتُ أيضا . وفى القرآن : ﴿ وابْتَغُوا إلَيْهِ الوَسِيلةَ ﴾ . ويقال . عَصِيتُ بالسَّيف[1] ، إذا ضَرَبْتَ به ، وعَصَوْتُ بالعصا . وجَعَل انبتَاتَ الوسائل وانقطاعَ الأواخِىّ عند استعمال السُّيوف لأنَّ الأمر يَشْتَدُّ عندَهُ ، والقِناعَ يكشف مَعَهُ . ولهذا لمَّا استُوصِف عَمْرو بن معديكرب أنواعَ السِّلاح قال فى السيف : « عِندَهُ تَثْكَلُ الأمَّهاتُ » . وقولُهُ : « كانَتْ قَبْلُ سِلْماً حِبَالُها » ، يريد به أنّ حبال تلك الوسائل كانت مفتولةً على الصُّلْح[2] فتقطَّعت باستعمال السيوف ، لأنّ كُلاًّ منها صار واتِراً وموتوراً ، فسقطَ الملامةُ من بينهم .

١٠ ـ فَوَلَّوْا وأَطْرَافُ الرِّمَاحِ عَلَيْهِمُ قَوَادِرُ مَرْبُوعَاتُها وطِوَالُهَا

قَوْله : « وأطراف الرِّماح » فى موضع الحال للمضمرين فى ولَّوْا . وذَكَر الأطْرافَ لأنَّ الطَّعْنَ بها يقع ، وإن كانت الرِّماح بأسْرِها مَقْصُودَةً . يقول : انهزموا وأسِنَّةُ الرِّمَاحِ متمكِّنةٌ منهم ، ومُقْتَدِرَةٌ عليهم ، طِوَالُهَا وأوساطُها . والمَرْبُوع والمُرْتَبِع[3] : ما كان بين القصير والطويل ، ومنه رَجُلٌ رَبْعَةٌ . وإنّما قال ذلك لأنّ المنهزمين إذا مَنَحوا أكتافَهم لمن يَطْلُب أثرهم ويقصِد النِّكاية فيهم ، فتأثير الأسلحة على اختلافها متقارب . وارتفع « مربوعاتُها » على البَدَل من الأطراف . وهذا يُبيِّنُ أنّ القَصدَ بها إلى جميعها ، لا إلى بعضها .

(١) كذا جاءت هذه اللغة فى الأصل و م . ويقال أيضاً : عصاه يعصوه ، وعصاه يعصاه .

(٢) كذا فى م مع أثر تصحيح من الناسخ . وفى الأصل : « الصلاح » .

(٣) المرتبع ، بفتح الباء وكسرها ، كما فى اللسان (ربع ٤٦٣) ، وجاءت اللغة الأولى فى م ، والأخيرة فى الأصل .

٣٤

قال عَمْرُو بْنُ مَعْدِيكَرِب (١) :

١ — لَيْسَ الجَمَالُ بِمِئْزَرٍ فاعلمْ وإنْ رُدِّيتَ بُرْدَا

قوله « فاعلم » اعتراضٌ تأكّدَ به الكلام، ومثله قوله تعالى : ﴿ فلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجومِ . وإنَّهُ لَقَسَمٌ لوْ تَعلَمُونَ عَظِيمٌ . إنَّهُ لَقُرْآنٌ كريمٌ ﴾ ؛ لأن قوله « وإن رُدِّيت » متعلّقَ بما قبلَه تعلُّقٌ جواب القسَم بالقَسَم . يقول : ليس جمالُ المرءِ فيما يلبَسُه من الثياب وإن استَسرَى الملابسَ واختار أرضاها وأكملَها . وكانوا يأتزِرون ببُرْدٍ ويرتدون بآخر، ويُسَمَّيان حُلَّةً، وباجتماعهما كان يكمُل اللبُوس، حتى كانت خِلْعَة ملوكهم لا تعدُوهما . ولذلك سُمِّيَ من سُمِّيَ ذا البُرْدَيْن . قال :

أيا ابنةَ عبـــدِ الله وابنةَ مالكٍ ويا ابنةَ ذى البُرْدَين والفَرَسِ الوَرْدِ (٢)

وقولُه : « وإن رُدِّيتَ بُرْدًا » فى موضع الحال، كأنه قال : ليس جمالُكَ بمئزر مُرَدًّى مَعَهُ بُرْدًا . والحال قد يكون فيه معنى الشَّرط، كما أنّ الشرط يكون فيه معنَى الحال . فالأوّلُ كقولِك : لافعَلَنَّه كائنًا ما كان، أى إن كان هذا وإن كان هذا . والثانى كبيت الكتاب :

* عاوِدْ هَرَاةَ وإن مَعْمُورُها خَرِبا (٣) *

لأنّ الواوَ منه فى موضع الحال، كما هو فى بيت عَمْرٍو، وفيه لفظ الشرط ومعناه، وما قبله نائبٌ عن الجواب . والمعنى : إن خَرِبَ معمور هراةَ فعاوِدْها . وكذلك بيت عمرو، تقديره : إن رُدِّيتَ بُرْدًا على مئزرٍ فليس الجمالُ ذلك .

(١) سبقت ترجمته فى المقطوعة ٢٩ .

(٢) البيت لحاتم الطائى . وابنه عبد الله هى ماوية بنت عبد الله زوج حاتم . وذو البردين : عامر بن أحيمر بن بهدلة . انظر حواشى البيان (٣ : ٣٠٩ — ٣١٠) .

(٣) كتاب سيبويه (١ : ٤٥٧) .

٢ — إنَّ الجَمَالَ مَعادِنٌ وَمَناقِبٌ أَوْرَثْنَ مَجْـــدا

أراد أنّ جمال المرء فى أصوله الزّكيّة ، وأفعالٍ له كريمةٍ تورث المجد والشرف . والمَعْدِنُ ، هو من عَدَن بالمكان عَدْنًا وعُدُونًا ، إذا أقامَ . وكذلك عَدَنَتِ الإبلُ فى الحَمْضِ ، وقيل المَعْدِنُ اشتقاقُه من عَدَنْتُ الحَجَر ، إذا قَلَعْتَه . وإذا جمع الرجلُ بين الشرف الموروث والمستحدث المكسوب فهو النهايةُ . ومَناقِبُ الإنسان : ما عُرِف فيه من الخصال الجميلة ، والطَّرائق الحميدة ، والوحدة مَنْقَبةٌ . والنَّقِيبُ كأنه منه . قال الدُّرَيدِيّ : يقال نَقِبٌ بَيِّنُ النَّقَابةِ بالفتح ، مثل كَفِيلٍ بيّن الكَفَالة . فأما التعريف فمصدَرُهُ العِرافةُ بالكسر : والمَجْد : الشرف والرِّفعة ، وسُمِّيَت الأرض المرتفعة نَجْداً ونجداً به . ويجوز أن يكون أصله الكثرة ، يقال أَمجَدْتُ الدّابّةَ علفًا ، أى وَسَّعتُه لها .

٣ — أَعْدَدْتُ لِلْحَدَثانِ سَا بِغَةً وعَـــــدّاءً عَلَنْدَى

أَعْدَدْتُ واعتَدْتُ واحد ، والاسم العُدّة والعَتَاد . يقول : هَيَّأْت لنوائب الدَّهْرِ ، أى لدفْعِها دِرعًا واسعةً وفَرسًا ضخمًا جَيِّدَ العَدْو كثيره . والعَلَنْدَى أَلِفُهُ للإلحاق ، كسَفَرْجَل . وأصل الكلمة ثلاثِيٌّ ، والنون والألف زائدتان ، فهو من العَلْد . قال الخليل : هو الغليظ الشَّديد من كلِّ شىء . والدلالة على أن الألف للإلحاق أنك تقول للمؤنث عَلَنداةٌ ، وأنّك تنوِّن فتقول عاندًى . وذكر بعضهم أنَّ العَلَندَى : الضَّخم من الإبل والخيل جميعا ، وجمعه عَلانِد وإن شئت عَلادٍ ، كما قالوا فى حَبَنْطَى حَبَانِطُ وحَبَاطٍ . وفرسٌ عَدَّاءٌ وعَدَوَانٌ ، إذا كان كثير العَدو .

٤ — نَهْدًا وذَا شُطَبٍ يَقُـ ـدُّ البَيْضَ والأبدانَ قَدًّا

نَهْدًا ، أى فرسا غليظا . والنُّهود فى الثدى : بيانُ حجمه ونُتوُّه من هذا .

وسَيْفًا ذا شُطَبٍ : ذا طرائق ، يقطع البَيْض والدُّروع قَطْعًا . والقَدّ : القَطْعُ طُولًا ، والقطُّ : القطع عرضا . والبَدَنُ من الدرع : قدر ما يَسْتُر البَدَنَ . ويقال سَيْفٌ مُشَطَّبٌ : فيه شُطُوبٌ وطرائق .

٥ ــ وعَلِمْتُ أنِّى يَوْمَ ذَا لِكَ مُنَازِلٌ كَعْبًا ونَهْــــدَا

قوله : « يومَ ذاكَ » يجوز أن يُشَارَ بذلك إلى أَمْرٍ قد عَلِمَهُ السامعون ، وهو الحرْب ، لأنّ النِّزال يكون فيها . ويجوز أن يكون أشار به إلى السِّلاح الذى زَعم أنه أعَدَّه . ويومُ السِّلَاحِ : يوم الحرب . ويجوز أن يكون أشار به إلى الحَدَثان ، لأنه قد قال « أعدَدْتُ للحَدَثان » . ومعنى البيت : علمْتُ أنّ مُنَازِلٌ هؤلاء فأعددتُ لهم هذا السِّلاح ، لعلمى بالحاجة إليه . والحَازِمُ يتهيّأ للأمر قبــل وقوعه ، فكأنه قال : فَعَلْتُ ذلك بحزامتى[1] ، وعلمى بموارد الأمور ومصادرها .

٦ ــ قَوْمٌ إذَا لبِسُوا الحَدِيـ ـدَ تَنَمَّرُوا حَلَقًا وَقِدًّا

انتصب حَلَقًا على أنه بَدَلٌ من الحديد ، ويُرِيدُ به الدُّروع التى نُسِجَتْ حَلْقتين حلقتين . والقِدُّ ، أراد به اليَلَب ، وهو شبه دِرْعٍ كان يُتَّخذ من القدّ . ويروى : « خُلقًا وقَدًّا » ويكون انتصاب خُلُقًا على التمييز ، أى تشبَّهوا بالنَّمِر فى أخلاقهم وخِلَقِهم . ودَلّ على الخِلَق قوله قَدًّا . ومعنى الرواية الأولى أنهم إذا لبِسُوا الحديد الدروع واليلَب تشبَّهوا بالنَّمِر فى أفعالهم فى الحرب . ويجوز أن يُرِيدَ بتنمَّروا تلوّنوا بألوانِ النَّمر ، لطُول ثَباتِهم وملازمتِهم الحديد ، وحينئذ يصحُّ أن يكون انتصاب حلَقًا على التمييز . والمعنى الأوّل أجْود . فإن قيــل : كيف دخل قولُه : « وقِدًّا » بالعطف على حَلَقًا فى أن يكون بدلًا من الحديد

(١) م : « لحزامتى » .

وليس منه ؟ قيل : لمّا كان يُغْنى غَنَاء دِرع الحديد ، جاز أن يصحبه فى أن يكون بدلاً . وقوله « إذا لبِسُوا الحديد » ظَرْفٌ لتنمَّرُوا .

٧ ـ كلُّ امرئٍ يَجْرِى إلَى يوْمِ الهِيَاجِ بِمَا استَعَدَّا

هذا كما قيل فى المَثَل : « قبل الرِّماء تُملأ الكنائن(١) » ، فيقول : كلُّ رَجلٍ يَجرى إلى يوم الحرْب بمـا أعَدَّه واستعدَّه . والضمير من صلة « ما » محذوفٌ استطالةً للاسم . ويجوز أن يكون استعدَّ فعلاً ليوم الهياج لا لكل امرئٍ ، ويكون معناه بما كلَّفَ يوْمُ الهياج أن يُعَدَّ له . يقال : استعددته كذا ، أى سألته أن يُعِدَّ .

٨ ـ لمّا رأيتُ نِسَاءَنَا يَفْحَصْنَ بالمَعْزَاء شَدَّا

الأمعز والمَعْزَاء : الأرض الحَزْنَةُ ذاتُ الحجارة ، والجميع المُعز والأماعز والمَعْزاوات . والأصل فى المَعَز الصَّلابة . ويقال رجل ماعِزٌ ومَعِزٌ . ويُروى : « يَفْحَصْن » ، ومعناه يؤثّرن لشدّة العَدو فى المَعْزاء ، حتّى يصير به لآثارهن كالأفاحيص . ويقال : استَضْحَكَ فلانٌ حتى فَحَص برجلَيه . وقيل على التوسُّع : فحَصْتُ عن الأمر . وينتصب « شَدًّا » على أنْ يكون مفعولاً له ، كأنّه قال : يَفْحَصَن بالمَعْزَاء لشَدِّهنّ ويجوز أن يكون شَدًّا مصدرًا فى موضع الحال ، أى يفعلن ذلك بالمعزاء شَادّاتٍ . ويروى : « يَمْحَصْن » ، والمَحْصُ : العَدْو الشديد ، وينتصب شَدًّا على أنَّه مصدرٌ من غير لفظه ، كأنه قال يشدُدْن شَدًّا ويمْحَصْن مَحصًا . وجواب لَمَّا قولُه « نازلت » ، وسيجىء من بعده . وإنّما عَمِلت النِّساء ما ذَكَر إشفاقًا من الغارة والسِّباء .

---

(١) انظر ما سبق فى ص ٧٠٦ .

٩ — وبَدَتْ لَمِيسُ كأَنَّها ... بَدْرُ السَّماءِ إذا تبدَّى[1]

قولُه : « كأنَّها بدرُ السماءِ » في موضِع الحال للمرأة ، أي بَدَتْ مُشْبِهَةً البَدْر ، وقولُه : « إذا تبدّى » ظَرْفٌ لما دَلّ عليه كأنّ من معنى الفِعْل . يقول : وبرزَتْ هذه المرأةُ كاشفةً عن وجهها سافرةً ، كأنّها قد أرسلت نِقابها . ودَلَّ على هذا بقوله : « كأنّها بدرُ السَّماء إذا تَبَدَّى» . وإنما فَعَلَتْ كذلك لأحد وجهين : إمّا للتَّشبُّه بالإماء حتى تأمَنَ السِّبَاء ، أو لما تَداخَلَها من الرُّعب . وفي طريقته :

وَنِسْوَتُكُمْ في الرَّوْعِ بادٍ وُجُوهُهَا ... يُخَلْنَ إمَاءً والإماءُ حَرَائِرُ[2]

١٠ — نازَلْتُ كَبْشَهُمُ ولَمْ ... أَرَ من نِزَالِ الكَبْشِ بُدًّا

لا بُدّ يستعمل استعمالَ لا محالة ، وتحقيقه لا مَحِيدَ ولا معْدِل . ومنه قولُهم : استبدَّ فلانٌ بالأمر ، أي انفرَدَ به . والبَدَدُ والتَّبَدُّد : مَصْدَرُ الأَبَدّ . وهذا جواب قوله : « لما رأيتُ نساءنا يَفْحَصْنَ » . وكَبشُ الكتيبة : رئيسها[3] . فيقول : لمّا رأيت الأمْرَ على ما ذكرْتُ أنِفْتُ وقصدْتُ رئيسَ الأعداء وملاقاتَه ولم أجِدْ من ذلك بُدًّا . وإنّما قال : « نازلتُ كبشَهم » ليُرِيَ أنَّه ممن تدعوه نفسُه إلى مُجاهدة الرُّؤساء والتعرُّضِ لهم في الحرب ، وأنّه ممن لا يرضَى عن المبارَزة بالمنزِل الأدْنَى . والرَّئيسُ متى كان واثقا بنفسه طلبَ أمثالَه ، واستَغْنَى من مبارزة مَن لا يُؤْبَه له ، وتفادَى منها ، إلاَّ عند الضَّرورة .

(١) روى التبريزى بعد هذا بيتاً لم يروه المرزوقى ، وهو :
وَبَدَتْ مَحَاسِنُهَا الَّتِى ... تَخْفَى وكانَ الأمر جِدّا

(٢) البيت لسبرة بن عمرو الفقعسى . وهو من أبيات الحماسة .

(٣) ابن جنى : « أعاد لفظ الكبش دون ضميره لأنه موضع تفخيم وتعظيم ، وكان إعادة لفظ المعظم أوكد وأفخم » .

١١ — هُمْ يَنْذُرونَ دَمِي وأَنْـ ـذُرُ إنْ لَقِيتُ بأَنْ أَشُدَّا

يقول : هم يقولون لله علينا سَفْكُ دَمِ عمرو ، وأنا أقول لله عليَّ أن أحملَ عليهم وأبذُلَ نفسى لهم ، ثقةً بكفايتى واستهانةً بنذرِهم . ويقالُ فى الحَمْلة : شددنا عليهم شَدَّةً صادقةً ، وشدة غير كاذبةٍ ، إذا أرادوا المبالغة .

١٢ — كَمْ مِنْ أَخٍ لِيَ صالحٍ بَوَّأْتُهُ بِيَـدَيَّ لَحْدَا

بوَّأْتُه مُبَوَّأَ صِدْقٍ : أنزلتُه . والمَباءة : المَنزِل . وإنما فرَغَ من التبجُّح بالشجاعة ثم ذكر صبرَه على البلاء ، وتوطِينَ نفسه على اللأْواء ، فيقول : كم من أخٍ موثوقٍ به فُجِعْتُ بموته ، وأحوِجتُ إلى تولى دفنِهِ ، ومباشرةِ تجهيزه . وهذا إذا ابتُلِى به المرء كان أعظَمَ لجزَعِه ، وأنكَى فى قلبه .

١٣ — ما إن جَزِعْتُ ولا هَلِعْـ ـتُ ولا يَرُدُّ بُكَاىَ زَنْدَا(١)

الهَلَعُ : أفحَشُ الجزَع ، لأنه جَزَعٌ مع قِلَّة صبر . وقد فسَّره التنزيل فى قوله تعالى : ﴿ إنّ الإنسانَ خُلِقَ هَلُوعًا . إذا مَسَّهُ الشرُّ جَزُوعًا . وإذا مَسَّهُ الخَيْرُ مَنُوعًا . إلاَّ المُصَلِّينَ ﴾ . لأن المعنى أن الإنسان لا يصبر على ضَيْرٍ ، ولا على خَيْرٍ ، فكأنّه قال : ما حزِنْت عليه حُزنًا هيِّنًا قريبا ، ولا فظيعاً شديدا . وهذا نَفْيٌ للحُزْنِ رأسًا ، فهو كقولك : ما رأيتُ صغيرَهم ولا كبيرَهم . وقد أعطَى الترتيبَ حَقَّه لأنّه ارتقى فيه من الأدْوَن إلى الأعلى ، إذ كان قوله « ما إنْ جَزِعْتُ » وإن كان مستصلَحًا لجميع أنواعه مُفيداً للأدْوَان ، وقد جاء بعدَهُ « ولا هَلِعْتُ » ، وقوله : « ولا يَرُدُّ بُكَاىَ زَنْدَا » ، وكان بعضُ الناس

(١) أشار التبريزى إلى رواية ابن دريد :

ما إن جزِعت ولا هلِعْـ ـت ولا لطمت عليه خدا

يرويه : « ولا يرُدُّ بُكاى زَيْدًا » ، وزعَمَ أنه أخٌ له . ورأيت مَن زعَمَ أنه فتَّشَ عن نَسَبِ عمرٍو فلم يجد له نَسِيبًا[١] ولا شقيقًا يسمَّى زيدا . على أنّ قولَه « كم مِن أخٍ لِيَ صالحٍ » لا يلائمه — فيما يقتضيه سِياقُ اللفظ ونظام المعنى ، ومع إفادته الكثرة — أن يُقابَل بِوَلاَ يَرُدّ بكاى أخى زَيْدًا مع تخصُّصِه . فأما من روى « زَنْدَا » فبعض الشيوخ كان يقول : أراد ولا يَرُدّ بكاى شَرَرَة ، فذكَرَ الزَّنْدوأراد ما يَخرُجُ منه عند القَدْح . وأحسَنُ من هذا أن يكون ذكر الزَّندَ تقليلاً لعائدة الحُزْنِ لو تكلَّفَه عند ما دَهَمَه من الفَجيعة بالأخ المذكور . وهم يستعملون الزَّنْدَ فى هذا المعنى ، كما يستعملون الفُوفَ والنَّقير والقِطمِير والفَتيل . وحكى أبو زيدٍ أنهم يقولون إذا قلَّلوا مالَ الرجل : « زَنْدَان فى مُرَقَّعَة[٢] » . وهذا المعنى حسنٌ ، والشاهِدُ له قوىٌّ . ورأيت فى بعض النُّسخ : « ولا يردُّ بكاى رَدًّا » ، وهذا حسنٌ أيضا ، ويكون المعنى : ولا يرُدّ بكائى مردودا . والمعنى : ولا يُغنى بكائى شيئا . وفى كلام الناس : هذا الأمرُ أرَدُّ عليك ، أى أنفعُ وأجْدَى . وإنما عَقَّبَ نَفْىَ الجَزَع بهذا الكلام تنبيها على أنّ صبرَه عن تأدُّبٍ وتبصُّر ومعرفةٍ بالعواقب ، وحُسْنِ تأمُّل .

١٤ — أَلْبَسْتُهُ أثْوَابَهُ وخُلِقْتُ يَوْمَ خُلِقْتُ جَلْدَا

يقول : تولَّيت تكفينَه وتجهيزَه بنفسى ، وخُلِقتُ صبوراً حين خُلِقتُ . وهذا يريدُ به أنه جمع إلى الجَلاَدة المكتسَبة جَلادَة الخِلقَةِ والطبيعة .

١٥ — أَغْنَى غَنَاءَ الذَّاهِبِينَ عَدُّ للأعداء عَدَّا

قوله « الذاهبين » يجوز أن يريدَ بهم مَن انقرضَ من عشيرته وبذويه ، ويكون المعنى أنه المعتمَدُ عليه بعدهم ، ويجوز أن يريدَ بهم المتغيِّبين عن

(١) فى الأصل « نسباً » صوابه فى م .
(٢) المرقعة : كناثة أو خريطة قد رقعت . أمثال الميدانى .

المشاهدِ والمعاركِ . وقولُه « أَعَدُّ للأَعداءِ عَدًّا » يجوز أن يكون المعنى : يقال فيَّ للأعداء : خُذُوا فلانًا فإنه يُعَدُّ بكذا وكذا من الفرسان . ويقال إن عمرا كان يعدّ بألف فارسٍ . ويجوز أن يكون المعنى أُهَيَّأُ للأعداء مَعْدُودًا ، فيكون عَدًّا انتصابه على الحال ، وموضوعًا موضعَ المعدود ، وأُعَدُّ مستقبل أُعْدِدْتُ ، أى هُيِّئت . وفى الأول يكون مَصدَرًا لأُعَدُّ . والواحد لا يصح عَدُّه ولكنْ كأنه يقال فيه : إنه يقوم مقام كذا وكذا من العَدَد . ويروى « أَعُدُّ للأعداءِ » بفتح الهمزة ، ويحتمل وجهين من المعنى: أن يقول أعدُّ لهم وقعاتى وأيامِى عند المفاخرة والمنافرة عَدًّا ؛ وهذا معنى حَسَنٌ . والآخر أن يكون المعنى : أَعُدُّ لهم كلَّ ما يُحتاج إليه من عَدَدٍ وعُدَّةٍ ، وهذا يؤذِنُ بأنه يدبِّرُ أمرَ الحربِ ؛ ويُرْجَعُ إليه فى أسبابها والجمع لها وهذا يرجع معناهُ إلى معنى مَن يَروِى « أُعِدُّ للأعداء » بضم الهمزة وكسر العين . وفى هذه الرواية يجوز أن يكون عَدًّا مفعولاً به ، والمعنى : أُعِدُّ لها معدوداتها .

١٦ – ذَهَبَ الَّذِينَ أُحِبُّهُمْ ‏ ‏ ‏ وَبَقِيتُ مِثْلَ السَّيْفِ فَرْدَا

يقول : فُجِعْتُ بأَحبَّائى وبَقِيت منفرِداً بالسِّيادة ، فأَنا كالسَّيف لا يُجْمع اثنان منه فى غِمدٍ . ويجوز أن يكون : بقيت لنفاذى فى الأمور ومضائى كالسيف . وفرْدًا ينتصب على الحال ، أى منفرِدًا .

٣٥

وقال عمروٌ أيضاً :

١ – ولَقَدْ أَجْمَعُ رِجْلَىَّ بِهاَ ‏ ‏ ‏ حَذَرَ المَوْتِ وإِنِّى لَفَرُورْ[1]

هذا كلام من جَمَع إلى شجاعَتِه وإقدامه حَذَرًا وحَزَامَة ، وإلى جرأته وتهوُّره

(١) هذه المقطوعة رويها فى الأصل مقيد بالسكون ، وهى فى م مطلقة الروى بالضم . وقال التبريزى : « من الرمل الأول إذا أطلقت ، ومن الثانى إذا قيدت ، مردف فى الضربين جميعاً ، والقافية من المتواتر إذا أطلقت ، ومن المترادف إذا قيدت » .

رِفقًا وأَصَالَة ، ثم يكونُ عارفًا بوقت كلٍّ منها ، وبالحالة الموجِبة لاختياره بَعْضَها . وأَجْمَعُ رِجْلَيَّ ، أى أستَحِثُّ فَرَسِي . وهو من فصيح الكلام ، ومن العبارة التى تصوِّر المعنى . ومن لفظِهِ وبابِهِ قولُهم : جَمَعْتُ يَدِى على كذا[1] ، ورفَعْتُ يَدِى عن كذا . وحَذَرَ الموت ، انتصب على أنّه مفعولٌ له ، والضميرُ من قولِهِ : « بها » للفرس . والمعنى : أركُضُها وأستدِرُّ جريَها ، ذَهابًا فى الفِرار ، واحترازًا من الموت إذا كانَ الوقتُ وقْتَهُ ، وإنِّى لكثيرُ الحربِ إذا كان الهربُ أغْنَى ، وإلى مراغَمة العدوِّ أَدْعَى .

٢ — وَلَقَدْ أَعْطِفُهَا كارِهَةً حِينَ للنَّفْسِ مِنْ الْمَوْتِ هَرِيرُ

يقول : كما أهْربُ وقت الهرب فإنِّى أعطِفُ وقتَ العطف ؛ لأنَّ الكرَّ والفرَّ من شأنى ، والإقدامَ والإحجام عادتِى ودأْبِى . وأشار بقوله : «حين للنَّفس من الموت هَرِير » إلى شدة الأمر وتفاقُم الخطْب . أى أعْطِفُ الفَرَسِ وهى كارهةٌ فى الوقت الذى تَهِرُّ النفسُ وتضِجّ من شِدّة البَلْوَى . والهَرِير ، قيل هو دون النُّباح .

٣ — كُلُّ ما ذلك مِنِّى خُلُقٌ وبِكُلٍّ أنا فى الرَّوعِ جَدِيرْ

« ما » زائدةٌ . وأشار بقوله : « ذلك » إلى ما قدَّمَه من الكرِّ والفرّ . أى كلُّ ما وَصَفْتُ عادةٌ منّى وطبيعةٌ ، وبفعلِ كُلِّه أنا خَليقٌ فى الرَّوع . ويقال : هو جَدِيرٌ بكذا ، وجدير لكذا ، وجديرٌ أن ينال كذا ، ولقد جَدُرَ جَدَارَةً ، وأجْدِرْ به أن يفعَلَهُ . قال :

---

(١) فى الأصل : « على يدى » ، وأثبتنا ما فى م .

* جَدِيرُونَ يَوْمًا أن يَنَالُوا ويَسْتَعْلُوا(١) *

٤ — وإنْ صُبْحِ سَادِرًا يُوعِدُنِى مَا لَهُ فى النَّاسِ ما عِشْتُ مُجِيرُ

قال الدُّريدى : يقال أَتى فُلانٌ أمرَه سادرًا ، إذا جاءه من غير جهتهِ . يقول : وهذا الرّجلُ مع ما ذكرتُ من قِصَّتِي فى الحرب يتهدَّدُنى ساهيًا لاهِيًا ، ومَا لَهُ عاصِمٌ منِّى فى الناسِ ما عِشْتُ . وموضِعُ « ما عِشْتُ » ظَرْفٌ ، بيانُه أنَّ ما مع الفعل فى تقدير المصدر ، واسم الزمان محذوف معه ، كأنه قال : مدَّةَ عيشى .

٣٦

قَيْسُ بن الْخَطِيمِ الأوسِىُّ(٢) :

١ — طَعَنَتُ ابنَ عبدِ القَيْسِ طَعْنَةَ ثَائِرٍ لَهَا نَفَذٌ لَوْلاَ الشَّعَاعُ أَضَاءَها(٣)

الشَّعُّ والشَّعَاعُ : المتفرِّق . ومنه شَعَّ الغارَةَ ، وتَطايَرَ القومُ شَعَاعًا . يقول : طَعَنْتُ هذا الرجُلَ طَعْنَةَ طالبٍ بالدّم فاتِكٍ(٤) لا بُقْيَا معها ، ولا تقصيرَ

(١) لزهير فى ديوانه ١٠٣ . وصدره :

* بخيل عليها جنة عبقرية *

(٢) هو قيس بن الخطيم بن عدى بن عمرو الأوسى ، شاعر فارس ؛ كان له فى وقعة بعاث التى كانت بين الأوس والخزرج قبل الهجرة أشعار كثيرة ، كان بينه وبين حسان بن ثابت منافسة : كان حسان يذكر ليلى بنت الخطيم أخت قيس فى شعره ، وكان قيس يذكر عمرة امرأة حسان فى شعره . وذكره بعض المؤرخين فى الصحابة خطأ ، فقد ذكر أصحاب المغازى أنه قدم مكة فدعاه النبى صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام ، وتلا عليه القرآن فقال : إنى لأسمع كلاما عجيباً فدعنى أنظر فى أمرى فى هذه السنة ثم أعود إليك . فمات قبل الحول . انظر الإصابة ، والخزانة (٣ : ١٦٨ — ١٦٩) والأغانى (٢ : ١٥٤ — ١٥٩) ومعاهد التنصيص (١ : ٦٧) .

(٣) روى التبريزى هذه المقطوعة تسعة أبيات ، إذ روى بين البيتين الخامس والسادس بيتين آخرين سننبه عليهما فيما سيأتى .

(٤) م : « قاتل » .

فى المبالغة فيها ، لها نَفَذٌ ، أى خَرْقٌ ، لولا انتشار الدَّم لأضاءها . وأضاءها جواب لَوْلاَ ، والمبتدأ وهو « الشَّعَاع » خبرُه محذوف ، كأنّه قال : لولا الشّعَاع مانِعٌ لأضاءها النَّفَذُ . ومن رَوَى « الشُّعَاعُ » بضمّ الشين ، فإنه يُرِيدُ به نُورَ الشَّمس . والأوّل أَجْوَدُ وأشهر . ويقال : أَشَعَّتِ الشّمسُ ، إذا امتدّ نُورُها وانتشر .

٢— مَلَكْتُ بها كَفِّى فأَنْهَرْتُ فَتْقَها   يُرَى قائمًا مِنْ دُونِها ما وَرَاءها

يُروى : « يَرَى قائمٌ من دونها مَن وراءها » و« ما وراءها » ، ويُروى : « يَرَى قائمًا » أيضاً . ويقال : مَلَكْتُ العَجين وأَمْلَكْتُه ، إذا بالغْتَ فى عَجْنِهِ وشدّدت . وكان الأصمعىّ يمتنع من أَمْلكت ، فيكون المعنى شَدَدت بهذه الطعنةِ كَفِّى ووسَّعتُ خَرْقَها حتى يَرَى القائمُ من دونها الشيءَ الذى وراءها . وهذا التفسير فى ملَكتُ تفسير القدماء . ويجوز أن يكون معنى « ملَكت بها كفِّى » أى تمكّنت من فعلها ، فأطقْتُ تصريفَ كفِّى فى إيقاعها على مرادى . وهذا كما يقول[1] : أنا أَمْلِكُ هذا الأمر ، إذا كان قادراً عليه . وكأنه أشار بهذا الكلام إلى أن الطعنةَ لم تكن على دَهَشٍ واختلاس ، ولكن عن تمكُّنٍ واقتدار . ويروى : « يُرَى قائما مِن دونها مَنْ وَراءها » و « ما وراءها » ومن روى « مَن وراءها » فالمعنى يُرَى مَن وراءها إذا كان قائما مِن دونها . ووراء ههنا بمعنى خَلْف ، وإن كان يقع على الخَلْف والقُدَّام جميعا . ومِن دُونِها ، أى من قُدَّامِها . وبيت الأعشى على هذا ، وهو قوله :

* تُرِيكَ القَذَى من دُونِها وهى دُونَهُ[2]

أى تريك الخمرةُ فى الزجاجة القَذَى من قُدَّامِها ، وهى قُدَّام القَذَى ؛

(١) فى النسختين : « تقول » .

(٢) عجزه كما فى ديوان الأعشى ١٤٧ :

* إذا ذاقها من ذاقها يتمطق *

أى تريك الزُّجاجةُ ما خلفها من قدّامها لصَفاء الحُمرة فيها . ومعنى أنْهَرْتُه : وسَّعْتُه حتى جعلته كالنَّهر سَعَةً . والنهر نفسه سُمِّىَ بذلك لاتّساعه . ومنه المَنْهَرَةُ ، وهى فَضَاءٌ بين بُيُوتِ الحىّ يلقُون فيه كُنَاسَتَهُم . وفى هذا الوَصْف سَرَفٌ مُسْتَنْكر وخروجٌ عن القَصْدِ مُسْتَهْجَن . ويجرى مَجْراه فى الغُلوّ قول مُهَلْهِل :

فلوْلاَ الرِّيحُ أَسْمَعَ أَهْلَ حَجْرٍ   صَلِيلَ البَيْضِ يُقْرَعُ بالذُّكورِ[1]

واستعمل عنترةُ لَفظَ الإنهار مع اقتصادٍ فقال :

أَنْهَرْتُ لَبَّتَهُ بأَحْمَرَ قانِئٍ   ورَشَاشِ نافِذَةٍ على الأثوابِ

٣ — يَهُونُ عَلَىّ أنْ تَرُدَّ جِرَاحُها   عُيُونَ الأَوَاسِى إذْ حَمِدْتُ بَلاَءها

الأواسِى : النِّساء المداويات للجِراح ، والفِعْل منه أسَوْت . ويقال للرِّجال الآسُونَ والأُساةُ . وإنما ذَكَر النِّساءَ لأنهم يأْنَفُونَ من الصناعات ، ويعلّونها العَبِيد والإماءَ وحرائرَ النساء أحيانًا ، إذ لم يكُنَّ فى غايةٍ بعيدةٍ من الشَّرَفِ . وقوله « أن تَرُدّ » موضعُهُ رَفْعٌ على أنه فاعِل يَهُون . و « إذ حَمِدْتُ » ظَرْفٌ ليَهُونَ ، وهى حكاية حالٍ ماضية . والمعنى : يخفُّ عَلَىّ رَدُّ جِراح هذه الطعنة عيونَ النِّساء المداويات لها ، إذ حَمِدْتُ أثرى فيها . وبلاءها ، يجوز أن يكون المراد بلائى فيها ، ويجوز أن يريد ببلائها شدّتَها وفظاعتَها . والمصادر تُضاف إلى الفاعِلين والمفعولين جميعا .

٤ — ساعَدَنى فيها ابن عمرو بن عامرٍ   زُهَيْرٌ فأَدّى نعمةً وأَفاءها[2]

---

(١) انظر البيان (١ : ١٢٤) والحيوان (٦ : ٤١٨) ونقد الشعر ٨٤ ، والموشح ٧٤ ، والعمدة (٢ : ٧٠) والأغانى (٤ : ١٦٤) .

(٢) التبريزى : « خداش فأدى » . وروى من الخبر : أن خداش بن زهير كان للخطيم والد قيس عنده يد ، فدل قيسا على قاتل أبيه وأعانه عليه ومكنه من أن ينال ثأره . وقد ساق الآمدى فى المؤتلف ١٠٧ نسب خداش ، وهو خداش بن زهير بن ربيعة بن عمرو بن ربيعة بن عمرو بن عامر بن ربيعة بن عامر بن صعصعة .

يجوز أن ينتصب نعمةً على الحال ويكون مفعول أدَّى محذوفاً كأنه قال : فأدَّاها نِعمةً وَيدًا يَستحِق عليها شُكرًا ، ويجوز أن ينتصب على أنه مفعول أدّى ، ويكون المعنى : ساعَدَنى فى هذه الطعنة زُهير بن عمرو ، فأدَّى صنيعة كانت لى عندهُ بمُساعدته ، واتخذها مَغْنَماً لنفسِهِ أيضا . ويجوز أن يكون أفاءها من الفيء : الغنيمة ، وهذا قول أبى عبيدة . ويجوز أن يكون أفاءها من الفَىْء : الرجوع ، أى أدّاها ورجعها إلى مُصْطَنِعِها ، لأن الأيادى قُروضٌ فى الصالحين .

٥ — وكنتُ امرأً لاأَسمعُ الدَّهرَ سُبّةً أُسَبُّ بها إلاَّ كَشَفْتُ غِطاءها[1]

يُرْوَى « لا أَسمَعُ » و « لا أُسمَعُ » . ومن الغطاء قيل غَطَا الليلُ ، وغطا عليهم الشرُّ وغيره . يقول : كنت رَجُلاً لا أُعيَّرُ شيئاً طول الدَّهْر إلا بيَّنْتُ للناسِ براءةَ ساحَتى منه . وحقيقةُ « كشفْتُ غِطاءها » أى لم أترُك الشُّبَةَ ملتبسةً على سامِعِها ، فكان يتردّد بين تصديقها وتكذيبها ، بل أَبَنْتُ أمرَها[2] وأظهرتُ وجهَها ، حتى بان للناس اختلاقُ السابِّ بها ، وكِذَابُه فيها . والشُّبَةُ ، كالغُمَّةِ والغُصَّةِ وما أشبهها . وذهب بعضُهم إلى أن المعنى : إذا رُميت بعَيْبٍ كان حَقًّا عَلَىَّ مَحْوُه عن نفسى ، بما استأنِفُه من سَعْيِى . والأوّل أحسن .

٦ — مَتَى يأتِ هذا الموتُ لا تَبْقَ حاجةٌ لِنَفْسِىَ ، إلاّ قد قَضَيْتُ قضاءها[3]

---

(١) روى التبريزى بعده هذا البيت :

فإنِّى فى الحرب الضَّروس مُوَكَّلٌ بإقدام نفسٍ ما أريد بقاءَها

وقال فى تفسيره : « الضروس : الشديدة ، من ضرس البئر ، وهو طيها بالحجارة . ويروى : العوان ، وهى التى قوتل فيها مرة بعد مرة » . ثم روى بعد هذا البيت الزائد ، البيت رقم ٧ لرواية « إذا ما اصطبحت أربعاً » .

(٢) م : « بأن أبنت أمرها » .

(٣) روى هذا البيت عند التبريزى مؤخراً عن تاليه ، ثم روى بعدها :

يُرْوَى « لا يُلفِ حاجةً » على أن يكون الفعل للموت ، و « لا تُلفَ حاجةٌ » على ما لم يسم فاعله ، أى لا توجد . يقول : أجتهد فى إدراك الآثار[(١)] ، وطلب الأوتار ، قبل دُنُوِّ الأجل ، فمتى جاء الموت لا يجدْ حاجةً تتعلّق نفسى بها قبلُ إلاّ وهى مقضيَّةٌ . ومعنى « قَضَيْتُ قضاءها » أى فرَغْتُ منها كقضائى لأمثالها . وقوله « هذا الموت » يجوز أن يكون تصوُّرُه [حاضراً[(٢)]] لمعرفته بإدراكه لا محالة ، وأشار إليه . ويجوز أن يكون لدوام استقتاله وتحدّثه بمجيئه ، وكوْنه من همّه ، أشار إليه على جهة التقريب له .

٧ - إذا ما شَرِبْتُ أَرْبَعًا خطَّ مِئْزَرِى وأَتْبَعْتُ دَلْوِى فى السَّماحِ رِشَاءها[(٣)]

يقول : إذا شربْتُ أربعةَ أكؤسٍ جَررتُ مِئْزَرِى ، فأثَّرَ فى الأرض خُيَلاءَ وكِبرًا ، وتَمَّمْتُ ما بَقِىَ علىّ من السَّماح فى حال الصَّحْوِ ، كأنَّ معظَمَهُ فعَلَهُ صاحِيًا ، والباقى منه تمَّمَهُ فى حال السُّكْرِ . وهذا الكلام يجرى مجرى المثل للمعنى الذى بَيَّنْت . حَكَى الأصمعىُّ أنّهم يقولون : « أَتْبِـعِ الفَرَسَ لجامَها » ، و « أَتْبِـعِ الدَّلْوَ رشاءها » ، أى تَمِّمْ ما بقِىَ عليك من أمرك . وكأنه يُضربُ لمن جاد بالكثير وترَكَ القليل الحقير . وهذا أجود من قول عنترة العبسىّ ، وإن

— ثأرتُ عَدِيًّا والخطيمَ فلم أضِعْ ولايةَ أشياخٍ جُعِلتُ إزاءَها

وقال فى تفسيره : « ثأرته : طلبت بثأره ثأراً . والثأر : المصدر . والثأر : المطلوب بالدم ، سمى بالمصدر . يقال فلان الثأر المنيم ، أى هو الذى إذا قتل أنام طالب الدم عن الطلب . والمثئور به : المقتول . والثؤرة : المصدر على فعالة . قال الشاعر :

طللت به ثأرى وأدركت ثؤرتى بنى عامر هل كنت فى ثؤرتى نكسا

وقوله : جعلت إزاءها ، جعلونى أقوم بها . من قولك : فلان إزاء مال ، إذا كان يقوم بإصلاحه » .

(١) آثار مقلوب أثآر ، جمع ثأر . كما فى اللسان .

(٢) التكملة من م .

(٣) التبريزى : « إذا ما اصطبحت أربعا » كما سبق التنبيه .

كان مفضّلاً عند كثير من الناس على قول عمرو بن كُلثوم ، وقول عنترة :

وإذا انتَشَيْتُ فإنني مُستَهلِكٌ مَالِي وعِرْضِي وافِرٌ لم يُكْلَمِ
وإذا صَحَوْت فَمَا أُقَصِّرُ عن نَدًى وكَمَا علمْتِ شمائلى وتكرُّمِى

وبيت عمرو :

مُشَعْشَعَةً كأنَّ الحُصَّ فيها إذا ما الماء خَالَطَهَا سَخِينَا

لأنّ هذا قال : إنا نتسخّى إذا شربنا الخمر ممزوجة . وما قاله عنترة فى بيتين أشار إليه قيسٌ فى مِصْرَاع . وكان ابنُ الأعرابى يذهب فى قوله « سخينا » إلى أنه يقال ماء مُسَخَّنٌ وسَخِينٌ ، وإن كان فعيلٌ فى معنى مُفَعَّل قليلا . وانتصب عنده على أنه حال للماء . ويكون المراد على طريقته : كأنّ الحُصَّ فيها إذا مُزِجَ بماء سخين . وهذا لهَرَبه ممّا استقبحه الناسُ . وهو حَسَنٌ ، لكنَّهُ يقتضى أن يكون بلادُهم صُرُوداً[1] .

٣٧

الحَارث بن هِشَام المَخْزُومِىُّ[2] :

وهو أخُو أبى جَهْلٍ لعَنَهُ الله . وكان هرب يوم بدرٍ لمّا أنزَلَ الله تعالى النَّصْرَ على رسوله عليه السلام .

١ — اللهُ يَعْلَمُ ما تَرَكْتُ قِتَالَهُمْ حَتَّى دَلَوْا فَرَسِى بأَشْقَرَ مُزْبِدِ

(١) الصرود : البلاد الباردة ، يقابله الجروم ، وهى البلاد الحارة .

(٢) الحارث بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم ، كان شريفا مذكورا ، شهد بدرا مع المشركين وكان فيمن انهزم ، فعيره حسان بقوله :

إن كنت كاذبة الذى حدثتنى فنجوت منجى الحارث بن هشام
ترك الأحبة أن يقاتل دونهم ونجا برأس طمرة ولجام

فأجابه الحارث بهذه الحماسية ، ثم شهد أحدا مشركا أيضا ، ثم أسلم يوم فتح مكة ، واستشهد يوم اليرموك . الإصابة ١٥٠٠ والسيرة فى غير ما موضع .

أخذ يستشهد ربَّه ، وينتصل من هربه ، بأنه لم يأته إلّا بعد غلبة اليأس من نفسه عليه إن ثَبتَ ، وإلّا بعدَ أن ضُرِّج بالدّم الشامِل له ولفَرسه . ومثلُه قولُ مهلهل :

لَمْ أَرِمْ حَــوْمَةَ الـكتيبة حتّى ... حُذِىَ الوَرْدُ من دُمِىٍّ نِعَالا[1]

وهذا قاصِرٌ عن درجة ما تقدّم ، لأنّه يعتذر مما آثَرَه من الهرب فى وقته ، وذاك أوردَه موردَ المتبجِّح ، وأنّه خُلُقُه ومذهبُــه ، لِعلْمِه بمصادر الحروب وموارِدها . وقوله : « الله يعلم » لفظُه لفظ الخبَر ، والقصد إلى الحلِف ؛ لأنّه يستشهد ربَّه فيقول : علِم اللهُ ما تركتُ مقاتلتَهم ، حتَّى جرحونى فسال مِنّى على فرسى دمٌ أشقر كثيرٌ ، علاه زَبَد .

٣ — وعَلِمتُ أنّى إنْ أُقاتِلْ واحِدًا ... أُقْتَلْ ولا يَضْرُرْ عَدُوِّى مَشْهَدِى[2]

أراد : وحتى عَلِمْتُ . وإنما أَطلقَ لفظَةَ عَلِمْتُ لارتفاع الشُّبَه عن اعتقادِه ذلك[3] . وانتصب واحداً على الحال ، والمعنى منفرداً ، وواحِدٌ هاهنا صفةٌ ، والمعنى : وحتى تيقَّنتُ أنى إنْ ثَبَتُّ فى وجوههم ، وانتصب منفردًا لمقاتَلتهم قُتِلْت ، ولا يَضُرّ حضورى أعدائى . ونبه بقوله : «ولا يَضْرُرْ عدوِّى مَشْهدى»

---

(١) الدمى : جمع دم . وفى م : « من دماء » وهما بمعنى .

(٢) روى التبريزى بيتاً بين هذا وسابقه ، وهو :

وَشَمِمْتُ ريحَ الموتِ من تلقائهم ... فى مأزِقٍ والخيــل لم تتبدَّدِ

قال التبريزى : « ويروى : ووجدت . وهو مثل ، ومعناه أنه غلب ظنه أنه لو وقف قتل . والتلقاء ، مأخوذ من لقيت ، فيجوز أنه يستعمل فى معنى اللقاء . وعلى ذلك حملوا قول الراعى :

أملت خيرك هل تأتى مواعده ... فاليوم قصر عن تلقائك الأمل

وأكثر ما يستعمل تلقاء فى معنى نحو الشىء ، كما جاء فى الكتاب العزيز : تلقاء أصحاب النار . أى نحوهم » .

(٣) هذا الصواب من م والتبريزى . وفى الأصل : « لإيقاع الشبه على اعتقاده ذلك » .

أنه لو كان فى ثباته ضَرَرُ عدوٍّ لثبتَ فى وجهه، ولم يُبالِ بقَتْله. وقوله «عَدُوِّى» يفيد الكثرة وإن كان لفظُهُ موحَّدًا.

٣— فَصَدَدْتُ عنهمْ والأَحِبَّةُ فيهِمُ   طَمَعًا لَهُمْ بِعِقابِ يَوْمٍ سَرْمَدِ[1]

يقال: صَدَّ فُلَانٌ عنِّى، إذا صَرَفَ وجهَه صدودًا، وصددته أنا عن كذا صَدًّا. وحُكِىَ أصدَدْتُه، وليس بشىء. يقول: أعرَضْتُ عنهم ودماؤهم وأسَراؤهم فيهم، ولم أنَلْها ولم أظفَرْ بها. وهذا يدُلُّ على أنه كان موتورًا. وإنما حارَبَهم لطَلَبِ دماء كانت له فيهم. وقوله «الأحبّة» على هذا التفسير يجب أن تكون أحبَّتَهُم. ويجوز أن يريد بالأحبَّةِ أحبَّةَ نفسه، ويكون المراد: ودماء أحبّتى وأُسَرَاى فيهم. وقوله «طَمَعًا» انتصب على أنه مفعول له، وهو الذى يسمَّى مصدرًا لِعلَّة. والمعنى: فعلت ذلك لطمعى فى أن يُعقِبَ الله تعالى لى يومًا يُرْصِدُ الشرَّ لهم، ويمكّننى منهم، فأنتهزُ الفرصة وأروى الغُلّة[2]. ويقال: رَصَدْتُ فلانًا بالمكافأة، ورَصَدْتُ له أيضًا وأرصدته، وأنا مُرْصِدٌ لفُلانٍ بما كان منه حتى أكافئه. ويجوز أن يكون انتصاب «طَمَعًا» على أنه مصدرٌ فى موضِع الحال، والتقدير: صددت عنهم طامِعًا. والعقاب يجوز أن يراد به العاقبة، ويجوز أن يراد به المكافأة. يقال: أولاهُ خيرًا فعَقبَه بشرٍّ، عُقْبَةً وعِقابًا وعُقْبَى. وإذا كان للفَرس بعد انقطاع جريه جَمَامٌ قيل له عِقابٌ، وهو من ذَاكَ. ومن روى «يوْمٍ سَرْمَدِ» فالسَّرمد قال الخليل: هو دوام الزَّمان واتصالُه من الليل أو نهار، واستدلَّ بقوله تعالى: ﴿قُلْ أرأيتم إنْ جَعَلَ اللهُ عليكمُ اللَّيلَ سَرْمَدًا إلى يوم القيامة﴾، فيكون المعنى: بعقابِ يومٍ طويلٍ

(١) كان حقه أن يثبت فى المتن رواية «مرصد» لأنها الرواية التى جعلها أساسا فى التفسير، كما صنع التبريزى من جعله رواية «مرصد» أساسا فى المتن والتفسير.

(٢) هذا ما فى م. وفى الأصل: «غليل».

يتصل زمانُه ، ويمتدّ بلاؤه . وأيام الغمّ والمحنة توصف بالطُّول ، ولهذا قيل :
مَضَى لفلانٍ يومٌ كأيامٍ ، وشهرٌ كدهرٍ .

٣٨

قال الفَرّارُ السُّلمِى (١) :

١ — وكتيبةٍ لبّستُها بكتيبةٍ حتى إذا التبَسَتْ نفضتُ لها يدِى

هذا يتبجّح بأنه مِهْياجُ شرٍّ وأذًى ، وجمّاعٌ بين كتائبَ شتّى تتقاتل من دونه ، ثم يَخرج هو من بينهم غير مُبالٍ بما يُجْرُونَ إليه ، ولامفكّرٍ فيما يَنتج من الشرّ فيهم . فيقول : رُبَّ كتيبةٍ خلَطْتُها بكتيبةٍ ، فلما اختلطَتْ نفضْتُ يدى منهم ولهم ، وخلّيتُهم وشأنَهم . وكتيبة ، أُلحقَ الهاء بها لأنه جُعِل اسمًا ، وهو من كتَبْتُ أى جمَعْتُ . وتوسّعُوا فى النَّفض — وأصلُه الإلقاء والإماطة — فقيل : نفَضْتُ اليَدَ من فُلانٍ ولفُلانٍ أشدَّ النَّفض ، إذا وَكَلْتَه إلى نفسه ، يائسًا من رَجْعَتَه ، وفى ضِدِّه يقال : قبَضْتُ عليه كَفِّى ، وجمَعْتُ عليه يَدِى . وقد قالوا : نفَضْتُ الطريقَ أيضًا ، وفرّقتُ النَّفَضَةَ فى الطُّرُق . وذكر بعضُهم (٢) أنَّ قولَه : « حتى إذا التبَسَتْ نفَضْتُ لها يَدِى » و « بها يدى » ، المراد به قَنَّعْتُ فرسى بسَوْطِى ، كأنه لما ضربَ فرسَه إنما نفَضَ يَدَه . يَصِفُ سُرعةَ ضَربِه بالسَّوْط ، وأنه لا كُلفَةَ عليه به . قال : وهذه السرعة مستَحَبَّةٌ فى ضرب السَّوط ، كما يستحبُّ فى العمل بالسّلاح . ومن رَوَى « بها » يجوز أنْ

---

(١) الفرار شاعر مخضرم ، أدرك الجاهلية والإسلام ، واسمه حبان (ويقال حيان) بن الحكم . أعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم راية سليم يوم الفتح ثم نزعها منه وأعطاها يزيد بن الأخنس . وكان الفرار ممن شهد حنينا . وسليم ، بالتصغير : اسم قبيلته . انظر الإصابة ١٥٥١ .

(٢) يعنى بذلك ابن جنى ، والنص الذى نقله المرزوقى مثبت فى كتاب التنبيه لابن جنى .

يُريدَ المِخْصَرة . انتهَتِ الحكاية عنه . والتعجُّبُ من إدراكه لهذا المعنى يَمنَعُ من الكلام عليه . فسبحان من لا يحتاج إلى التفسير .

٢– فتَرَكتُهُم تقِصُ الرِّماحُ ظُهورَهُم من بَيْنِ مُنْعَفِرٍ وآخَرَ مُسْنَدِ

قوله « تَقِصُ » أى تَكْسِرُ فى موضِع الحال لهم . وكذلك قوله « من بين مُنْعَفِرٍ وآخر مُسْنَدِ » والعاملُ فى الأول تركْتُهُم ، وفى الثانى تَقِصُ . يقول : فارقتُهُم والرِّماح تختلفُ بالطعنِ بينهم ، وتكسر ظهورهم ، فهُمْ من بَيْنِ مصروعٍ أُلْقِيَ فى العَفَرِ ، وهو التُّراب ، وآخَرَ مطعُونٍ أو مجروحٍ ، وقد أُسْنِدَ إلى ما يُمسِكُه وبه رَمَق .

٣– ما كانَ يَنفَعُني مَقالُ نِسائِهِم قُتِلْتُ خَلْفَ رِجالِهِم لا تَبْعَدِ[1]

قول « ما كان » يجوز أن يكون ما استفهامًا وكان تجعَلُهُ الناقِصَةَ ، ويجوز أن يكون نَفيًا وتَجْعَل كانَ مؤكِّدَةً ، ونبَّهَ بهذا الكلام على أنّه لو ثبَتَ لم ينفَعْهُ الثَّبات . فيقول : أىَّ شيء كان ينفعنى قولُ النّوادِبِ لى لا تبْعَد وقد قُتِلْتُ . ومعنى لا تَبْعَد : لا تَهلِك . يقال بَعِدَ ، إذا هَلكَ ، وبَعُدَ ، إذا نأى . وكانوا يَدلّون بهذه اللّفظة عند النّدْبَةِ بها على مَسَاس الحاجة إلى حياة المندوب ، وقلّة الاستغناء عنه . وإذا كان كذلك فالوجه أن يُنْدَبَ به من كان محْمُودَ الحياة ، وعزيز الفِقْدان . وقولُهُ خَلْفَ رِجالِهِم » نَبَّهَ على أنّه لو ثبَتَ لكان يَدفعُ وجهَ الكتيبة ، ويصير واقِيًا لأصحابه ، وحائلاً بين الأعداء وبينهم ، فلا يمكنهم تجاوُزه إلّا وقد فَرَغوا منه . فلهذا قال « وقُتِلْتُ خَلْفَ رجالهم » . وموضع « لا تَبْعَد » وهو حكايةٌ ، رَفعٌ أو نَصْبٌ على أنّه بَدَلٌ أو مَفْعُولٌ من مَقَالِ نسائِهِمْ . وقوله وقُتِلْتُ ، فى مَوْضِع الحال للمضمَرِ فى يَنفعُنِي ، والعامِلُ فيه مَقَالُ أيضًا ، وخَلْفَ رجالِهِم حالٌ للمُضْمَرِ فى قُتِلت .

(١) التبريزى : « دون رجالها » .

٣٩

وقال بَعْضُ بنى أَسَدٍ[1] :

١ — يَدَيْتُ على ابنِ حَسْحَاسِ بنِ وهْبٍ بأَسْفَلِ ذِى الجِدَاةِ يَدَ الكَرِيمِ[2]

إنما عُدِّى يَدَيْتُ بِعَلَى ، لأنّه أُجْرى مجرى أنعَمْت . وهم يَحملون النَّظير على النّظير ، كما يحملون النقيض على النقيض . وقال الأخفش : يقال يَدَيْتُ عِنْدَه وأَيْدَيْتُ جميعا ، إذا اتّخذْتَ عندَهُ صنيعةً ، وإن كانَتْ أَيْدَيْتُ فى هذا المعنى أَشْهرَ من يَدَيْتُ ، لأنّ يَدَيْتُ اشتهر فى أَصَبْتُ يَدَهُ ، كما تقول : رأَسْتُه ووَجَهْتُه وصدَرْتُهُ ، إذا أصَبْتَ هذه الأعضاء منه . ومعنى هذا البيت : اتَّخذْتُ عند هذا الرجل بهذا المكان يَداً غَرّاءَ ، وصنيعةً شرِيفَةً ، مِثْلُها يَفْعَلُه الكِرَامُ . وقولُه : « يَدَ الكريم » نَبّهَ على هذا المعنى الذى ذكرناه ، ويجب أن يكون مصدر يَدَيْتُ يَدْيًا ، مِثل جَرَيْتُ جَرْيًا ، لكنه وضَعَ اليَد مكانه . فإن قيل : ما تُنكِر أن يكون اسمَ الحَدَثِ ، وقد حُذِف لامُهُ كما حُذِف من اسم العين ؟ قلت : اسمُ الحَدَث لم يَكْثُر كَثرةَ اسم العين ، وإذا كان حُذِف اللام من اسم العين حُذِفَ لكثرة الاستعمال ، فيجب أن يكون اسمُ الحَدَثِ الذى لم

---

(١) هو معقل بن عامر الأسدى . ذكر التبريزى من سبب الشعر « أن معقل بن عامر الأسدى أخا حضرمى بن عامر ، وهو فارس الدهماء ، مر يوم جبلة على ابن الحسحاس بن وهب الأعيوى وهو صريع . فحمله إلى رحله وداواه حتى برئ ، ثم كساه وأداه إلى أهله » .

(٢) الجداة ، بالدال المهملة فى رواية الأصل ومعجم البلدان . قال ياقوت : « موضع فى بلاد غطفان » . وفى م والتبريزى : « الجذاة » بالذال المعجمة . وذكر ياقوت أنها لغة فى « الجداة » بالدال المهملة ؛ ومهما يكن فالكلمة مفتوحة الجيم . لكن نقل التبريزى عن النمرى أن الرواية المشهورة « الجذاة » بكسر الجيم . وابن حسحاس ، نقل التبريزى أنه يروى : « ابن حساس » .

يكثر استعماله لا يجرى مجراه . وقوله : « ابن حَسْحاسٍ » من الحَسْحَسةِ ، وهو إحراق الجِلْد بالنار .

٢ — قَصَرْتُ له مِنَ الحَمَّاءِ لمّا شَهِدتُ وَغابَ عن دارِ الحَمِيم

القَصْرُ : الحَبْسُ والردُّ ، ومنه القَصْرُ والقُصَارَى : الغايةُ . والحَمَّاء : تأنيث الأحمّ ، وهو الأسود من كل شيء . والحُمَم : الفَحْمُ . وجارية حُمَمَةٌ ، أى سوداء . وهذا تفسير النِّعمة التى اتخذها عنده . فيقول : لمّا وجدته جريحاً ، وفى المعركة طريحاً ، قد غابَ عنه ذَوُوه والمشفِقُون عليه ، حَبَسْتُ عليه فَرَسى فأرْدَفْتُهُ . وجوابُ لمّا مقـدّم ، وهو قَصَرْتُ . كأنه قال : لمّا رأيته كذا حَبَسْتُ عليه فَرَسى . وحذف مفعول شهدتُ لأنه أمِنَ الالتباس . وقوله : « وغابَ عن دارِ الحميم » كان وجْهُـه أن يقول : لمّا شهدْتُه وغاب حَمِيمُه ، لـكنّ المعنى لا يُخيلُ[1] . والحَمِيمُ : القريب المُشْفِق . والحامّةُ : خاصّةُ الرَّجُل من أهلِه وولدِه ، ويقالُ هو الأحَمُّ من ذوى قرابته[2] ، أى الأخَصُّ .

٣ — أُنبِّئُه بأنَّ الجُرْحَ يُشْوِى وَأَنَّك فَوْقَ عِجْلِزَةٍ جَمُوم

هذا مما تَمَّمَ به الصَّنعة عنده ، بعد أن ارتَدَفَهُ ، وذلك أنه سـلّاهُ بقوله « الجُرْح يُشْوِى » ، ومَنّاه بقوله « وأنّك فوق عِجْلزةٍ جَمُومٍ » . ويقال : رَمَاهُ فأشْوَاه ، إذا أصاب غيرَ المَقتَل . والجَمُوم : الذى لا ينقطع جَرْيُه . والعِجْلِزة : الصُّلْبَةُ . وبِئْرٌ جَمُومٌ من هذا ، لأنّ ماءها يَغُورُ أحياناً ثم يَعُودُ ويَغْزُر . والمُرَادُ : أنّ تبليغَكَ المأمَنَ به سَهْـلٌ ، وأنّ ما بك[3] من الجُرْحِ هَيِّن .

(١) يقال أخال الشىء : اشتبه ، وهذا الأمر لا يخيل على أحد ، أى لا يشكل . اللسان .
(٢) هذا ما فى م . وفى الأصل : « من ذى قرابة » .
(٣) فى الأصل : « ما بان » ، صوابه من م والتبريزى .

٤ – وَلَو أَنِّى أشَاءُ لِكُنْتُ مِنْهُ مَكانَ الفَرْقَدَيْنِ من النُّجُوم

يُبَيِّن بهذا أنه تبرَّع بما فَعَل ، وأنه لم يَلزمْهُ لزومَ الواجب الذى لا يَسُوغُ الإخلالُ به ، فيقول : لو شئت لبعُدتُ منه بُعْد الفَرقدين من النُّجُوم السَّيَّارَة ، وهى التى يحلُّ فيها النَّيِّران ، والفَرْقدَان لاحُلول فيه[1] ، وهذا يجرى مجرى قَوْلِهِم : « هو مِنِّى مَنَاطَ الثُّرَيَّا » فى أن المراد به التَّبعيد ، ويجوز أن يريد بَعُدتُ منه بُعد الفرقدين ، ثم بيَّن أنَّ الفَرْقَدَيْنِ من النجوم ، فيكون من النجوم تبييناً ، كقوله تعالى ﴿ فاجتَنِبُوا الرِّجْسَ من الأَوْثانِ ﴾ . ويجوز أن يريد بالنُّجوم نباتَ الأرض ، لأنَّ كلَّ ما طَلَع فقد نَجمَ ، ويكون المعنى بُعْدَ الفَرقدين من الأَرْضِ ومنابتِها ، ويكون فى هذا المعنى شبه إلْغَازٍ فيضعُف .

٥ – ذَكَرْتُ تعِلَّةَ الفِتْيَانِ يَوْمًا وإلْحَاقَ المَلامة بالمُليمِ

بَيَّنَ بهذا الكلام أنه اتقى بما فَعَل تَوَجُّهَ الذَّمِّ إليه من الناس ، فيقول : أخطَرْتُ ببالى ما يَتعلَّل به الفتيانُ فى محافِلِهم ومجالِسِهم ، وتقبيحهم من أخبارِ الناس ما يُستحقُّ بفعله أو بتَرْكِه عندهم ذَمٌّ ، فيُلحِقُون بِهِ اللَّوْمَ ، ويهجِّنُونَهُ فى أحكام الفُتُوَّةِ . ومَصدرُ قوله « ذَكَرْتُ » الذُّكْر بضم الذال لأن هذا كان بالقَلْب ، والذِّكْرُ بكسر الذال باللسان . والمُليمُ : الذى يَأْتِى بما يُلاَمُ عليه . قوله « تَعِلَّةَ » مصدر علَّلْتُهُ ، فهى كالتَّقدمة والتكرمة . ويجوز أن يكون تسميتهم المُعَلِّلَ ، وهو يَوْمٌ من أيام العَجُوز ، من هذا ، كأنَّه يعلِّل النّاس بشىء من تخفيف البرد .

---

(١) نزل الفرقدين لتلازمهما منزلة المفرد .

٤٠

وقال الشَّدَّاخُ بنُ يَعمَرَ الكِنَانىُّ[1] :

١ — قاتِلِى القَوْمَ يا خُزَاعُ وَلَا يَدْ خُلْكُمُ مِنْ قِتَالِهِمْ فَشَلُ[2]

يُرْوَى « قاتِلُوا » و « قاتِلِى » على اللفظ مَرّة وعلى المعنى أخرى ، وجَعَلَ النَّهْىَ فى اللَّفظ للفَشَل ، والمُرادُ لا تفشلوا . وهذا بَعْثٌ وتحضيض ، فيقول : حارِبى[3] أعداءكِ[4] يا خُزَاعة ، ولا يتداخَلْكم الجُبْنُ والضَّعف منهم . وخُزاعة ، قال الخليل : هو من خَزَعَ عَن أصحابه إذا تخلف ، لأنّهم تَخَلّفُوا عن قَوْمِهِمْ بمَكّةَ أيّامَ سَيْلِ العَرِم .

٢ — القَوْمُ أَمْثَالُكُمْ لَهُمْ شَعَرٌ فى الرَّأْسِ لا يُنْشَرُونَ إن قُتِلُوا[5]

يبيّن بهذا الكلام أنهم ناسٌ كما أنّ خُزَاعَةَ ناسٌ ، فيقول : لا تَهابُوهُمْ فإنّ خِلقَتَهم كخِلْقَتِكم ، وإنّهم إذا قُتِلوا لم يَحْيَوْا مِنْ فَوْرِهم ، فيرجِعُوا إلى القتال . هذا

(١) الشداخ بن يعمر الكنانى ، شاعر جاهلى ، من بنى كنانة بن خزيمة . وكان من خبر هذه الأبيات كما روى التبريزى ، أنه كان بين بنى كنانة وخزاعة حلف على التناصر والتعاضد على سائر الناس ، فاقتتلت خزاعة وبنو أسد فاقتتلتها بنو أسد ، فاستعانت خزاعة ببنى كنانة ، فذكر الشداخ قرابة بنى أسد ، فخذل كنانة عن نصرة خزاعة ، وبهذا السبب انحدرت بنو أسد من تهامة إلى نجد غضبا على بنى كنانة إذ لم تنصرهم .

(٢) ابن جنى : « هذا الشعر من البحر المنسرح ، وإنشاده على هذا الظاهر يكسره ، وذلك أن أول المنسرح لا يجوز فيه فاعلن ، ويروى : فقاتلى ، وإذا روى هكذا كان وزنه مفاعلن ، وهذا جائز فيه ، لأنه خبن مستفعلن » .

(٣) م : « جازى » .

(٤) فى الأصل : « أعدائى » ، والوجه ما أثبتنا من م .

(٥) ابن جنى : « وضع الرأس موضع الرؤوس كقوله :

* فى حلقكم عظم وقد شجينا *

مبالَغةٌ في الاستحثاث و التَّجسير . وجَعَل قولَهُ : « لهُمْ شَعْرٌ في الرَّأسِ » بما بَعدَهُ ، تفسيرًا للماثلة وتَبْيِينًا . وجواب إن قُتِلُوا فيما تَقَدَّم عليه .

٣ ــ أَكُلَّمَا حَارَبَتْ خُزَاعَةُ تَحْـ ـدُونِي كأَنِّي لأُمِّهِم جَمَـــلُ

قولُه « كأنى لأمِّهم » في موضِع الحال ، أي تحدونى مُشْبِهًا جملاً لأمِّهِمْ . وكلّمَا ظَرفٌ لقوله تحدونى . وكأنَّه قال : تَحْدونى خُزاعة كلَّما حَارَبَتْ ، أي تسوقُنِي لِنَصْرِها والدِّفاع عنها ، كأَنى ناضِحٌ لأمِّهم يُسْتَقى عليه الماء ، فيُقال له أَقْبِلْ بالدَّلْوِ وأَدْبِرْ . وذَكَر الأمَّ تغليظاً للقول وتخشيناً . وقولُهُ « أَكلَّمَا » ، كأنَّه أَقْبَلَ على إنسانٍ بَعْد أن كانَ بَعَثَهُمْ وجَرَّأهم على قتالِ أعدائهم ، فقال على طريق الإنكار ما قال .

٤١

وقال الْحُصَيْنُ بن الْحُمامِ المرىُّ[1] :

١ ــ تَأَخَّرْتُ أَسْتَبْقِي الحَيَاةَ فَلَمْ أَجِدْ لِنَفْسِي حَيَاةً مِثْلَ أَنْ أَتَقَدَّمَا

يجوز أن يكون هذا مثل قَوْلِهِم : « الشُّجَاعُ مُوَقًّى » . وفى طريقته قولُ الآخر :

أَكانَ الجَبَانُ يَرَى أَنَّهُ سَيُقْتَلُ قَبْلَ انقضاءِ الأَجَلْ

(١) الحصين بن الحمام المرى ، من مرة غطفان ، وهو مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان ابن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان . والحمام ، بضم الماء ، قيل إنه عرق الخيل . وهو شاعر جاهلى مقل . قال أبو عبيدة : اتفقوا على أن أشعر المقلين فى الجاهلية ثلاثة : المسيب بن علس ، والمتلمس ، وحصين بن الحمام المرى . والشعراء ٦٣٠ والاشتقاق ١٧٦ والاستيعاب وأسد الغابة والإصابة ، والمؤتلف ٩١ والأغانى (١٢ : ١١٨ – ١٢٤) والخزانة (٢ : ٧ – ٣/٩ : ٢٥٢ – ٢٥٥).

فَقَدْ تُدْرِكُ الحادِثُ الجَبَانَ ويَسْلَمُ منها الشُّجَاعُ البَطَلْ

ومثلُه قولُ الآخَرِ (١) :

نُهِينُ النُّفُوسَ وهُونُ النُّفو سِ يَوْمَ الكَرِيهَةِ أَوْقَى لَهَا

ويجوز أن يقول : أَحْجَمْتُ مُسْتَبْقِيًا لِعَيْشى ، فلم أَجِدْ لنفسى عَيْشًا كما يكونُ فى الإقدام ، وذاك لأنَّ الأُحدوثَةَ الجميلة ، والنُّجْح عند الناس فى المَساعِى الحميدة ، إنما يكون بالتقدُّم لا بالتأخُّرِ ، وبالافتخار لا بالانحراف ، ومن ذَكِرَ بالجميل وتُحُدِّث عنه بالبلاء الحسَنِ حَيِيَ ذِكْرُه واسمُه ، وإنْ ذَهَبَ أثَرُهُ وجِسْمُه . وقولُهُ : « حَيَاةً مِثْل أن أتقدّم » معناه حياةً تُشْبِهُ الحياة المكتسبة فى التقدّم وبالتقدُّم .

٣ ـ فَلَسْنَا عَلَى الأَعْقَابِ تَدْمَى كُلُومُنَا ولكنْ على أَقْدَامِنَا تَقْطُرُ الدِّمَا (٢)

أراد : لَسنا بدامِيَةِ الكُلُومِ على الأَعْقَابِ . ولو لم يجعل الإخبارعن أنفُسِهم لكان الكلام لَيْسَتْ كُلُومُنا بداميَةٍ على الأَعْقَابِ . فيقول : نتوجَّه نحو الأَعْدَاءِ فى الحرْب ولا نُعْرِضُ عنهم ، فإذا جُرِحنا كانَتِ الجراحاتُ فى مُقدَّمِنا لا مُؤَخَّرِنا ، وسالت الدِّماء على أقدامنا لا على أعقابِنَا . وقولُه « تَقطُرُ الدِّما » إذا رُوِيَتْ بالتاء كان المعنى تقطُرُ الكُلُومُ الدَّمَ ، فيكون الدَّما مفعولا به . ويقال : قطرَ الدَّمُ وقَطَرْتَهُ ، وهذا وَجهٌ حَسَن ، وإن شئتَ جَعَلتَ الدَّمَ منصوبًا على التمييز ، كأنّه أراد تَقْطُرُ دَمًا ، وأدْخَلَ الألِفَ واللَّامَ ولم يعتدّ بهما ، كقول الآخر (٣) :

* ولا بِفَزَارَةَ الشُّعْرِ الرِّقَابا (٤) *

---

(١) هو الخنساء ، كما سبق فى حواشى ص ١٤٠ .

(٢) رواية ابن جنى : « الدما » بكسر الدال على أنه مقصور « الدماء » . وذكر ابن جنى فى روايته أيضا : « تُقْطِر الدِما » . من قولهم أقطرت الدم ، أى أسلته .

(٣) هو الحارث بن ظالم المرى . المفضليات (٢ : ١١٤) .

(٤) صدره : * فما قومى بثعلبة بن سعد *

ويجوز أن يُرْوَى « يَقْطُرُ الدَّمَا » بالياء ، ويكون الدَّمَا في موضع الرّفع على أنّهُ فاعِل يَقْطُر ، لـكنّهُ رَدَّه إلى أصله فأتى به مقصوراً وإن كان الاستعمال بحذف لامِهِ . ومثل هذا البيت قولُ القُطَاميِّ :

لَيْسَتْ تُجرّحُ فُرّاراً ظُهورُهم وفي النحورِ كُلُومٌ ذات أَبْلَادِ

٣ – نُفَلِّقُ هامًا من أُناسٍ أَعِزّةٍ علينا وهُمْ كانوا أَعَقَّ وأَظْلَمَا

يقول : نُشَقِّقُ هاماتٍ من رجال يَكْرُمونَ علينا لأنهم منّا ، وهم كانوا أسبَقَ إلى العُقوق وأوْفَرَ ظُلْمًا ، لأنهم بدءونا بالشّرّ ، وألجؤونا إلى القتال ، ونحن منتقِمون ومُجَازُون .

٤٢

وقال رجلٌ من بني عُقَيْلٍ(١) :

وحارَبَهُ بنو عمّهِ فقتل منهم :

١ – بكُرْهِ سَرَاتِنا ياآلَ عَمْرٍو نُغَادِيكُم بمُرْهَفَـةٍ صِقَــالِ

الـكُرْهُ بالضم : المشقّة ، والـكَرْه بالفتح الإكراه . وسَرَاةُ القومِ : خِيَارُهم . فيقول : بمشقّةِ رؤسائنا وكراهتِهم نبا كِرِكم بسيوفٍ مُحَدَّدة الحدّ(٢) مصقولةٍ ، وإنما قال « بكُرْهِ سَرَاتِنا » لأنّ الرؤساء يحبون التألُّفَ بين العشيرة وإصلاحَ ذات البين ، وتركَ التدابرِ والاختلاف ، إذْ كان عِزُّ الرئيسِ بأصحابه ، وحِشمتُهُ في نفوس مُنابذِيه بقوّةِ ذَوِيهِ وأقاربه . ويجوز أن يكونَ ذَكَرَ السَّراةَ والمراد الجميعُ . والمعنى : على كُرْهٍ منّا نقاتِلُـكُمْ ولـكنكم ألجأتمونا إليه . وتَجمع

(١) التبريزي : « عقيل : تصغير عقل أو عقل مصدر عقل ، ويجوز أن يكون تحقير عقيل تحقير الترخيم ، ويجوز أن يكون تصغير عقال وتصغير أعقل تصغير الترخيم منهما » .

(٢) م والتبريزي : « مرققة الحد » .

صقيلاً وهو فعيل بمعنى مفعول على صقالٍ وذلك على غير بابه، لأن التكسير على فِعَالٍ يكون فى الأصل فَعِيلٍ إذا كان بمعنى فاعِلٍ ، نحو ظَرِيفٍ وظِرَافٍ وكَرِيمٍ وكِرَامٍ ، ومثله قولُهم فَصِيلٌ وفِصَالٌ ، وساغ ذلك لاتفاقهما فى الزِّنة والوصفيَّة . ورُوِى : « بمُرْهَفَةِ الصِّقال » ، وتكون إضافةُ المُرْهَفَةِ إلى الصِّقال كإضافةِ البعض إلى الكلّ ، لأن المعنى بالمُرهفة[1] الحدُّ من الصِّقال ، أى من السيوف المصقولة[2] .

٢ — نُعَدِّيهنَّ يَوْمَ الرَّوْعِ عَنْكُمْ وإنْ كانت مُثَلَّمَةَ النِّصَالِ

قوله « نعدّيهن » أى نصرفهُنّ . ويقال : عَدِّ الهمَّ عنك ، أى اصرفه . والبيت يحتمل وجهين : أحدهما أن يكون المعنى نَصرِفُ السيوفَ عنكم إبقاءً عليكم ، وكراهيةً لاستئصالكم ، وإن كانت نِصَالُها قد تَفَلَّلَتْ من كثرة ما نُقَارِع بها الأعداء . ويجوز أن يكون المعنى : نصرفُها وإن تثلمت بكُمْ وفيكم ، لأن القدرةَ تُذهِبُ الحفيظة ، ولأن ما يَجْمَعُنا يدعو إلى البُقْيا ، والأخذ فيكم بالحُسْنَى .

٣ — لهَا لَوْنٌ من الهامات كابٍ وإنْ كانَتْ تُحادَثُ بالصِّقالِ

قولُه « من الهامات » أى من دماء الهامَاتِ ومن التأثير فيها . يقول : لهذه السيوف لَوْنٌ متغيِّرٌ قبيحٌ ، لكثرةِ ما يُسفَكُ بها الدِّماء ، وإن كانت يجدَّدُ صَقْلُها كلَّ يومٍ . والمحادَثةُ : إعادةُ الماءِ إلى السيفِ بالصَّقْل . وقد قال الحسن رحمه الله فيما حُكِىَ عنه من مواعِظِه : « حادِثوا هذه القلوبَ فإنها سريعةُ الدُّثور ، واقدَعوا هذه الأنفسَ فإنها طُلَعَةٌ » . وقولُه « كابٍ » من قولِهم كَبَا

(١) والتبريزى : « بالمرققة » .

(٢) وذكر ابن جنى أن الصقال هنا أيضا مصدر صقلت ، وتأويله : بمرهفة عند الصقال ، كما أن قوله « بضة المتجرد » معناه بضة عند المتجرد .

وَجْهُه ، إذا اربَدَّ [واسودّ] . وكَبَا نُورُ [الصُّبْح و[1]] الشمس ، إذا نَقَص وأظْلَمَ . وجوابُ إن كانَتْ فيما تقدَّم عليه ، والجملة فى موضِـع الصِّفةِ للمُرْهَفة .

٤ — وَنَبْكِى حِينَ نَقْتُلُكُمْ عَلَيْكُمْ وَنَقْتُلُكُمْ كَأَنَّا لا نُبَالِى

وَصَفَ حُسْنَ صَبْرِهم ، على ما يتَّفِقُ من نائبةٍ ، ويتجدَّدُ من عارِضِ حادثةٍ ، فيقول : نبكى قتلاكم إذا قتلناكم لما يجمَعُنا وإيَّاكم من الرَّحِمِ الماسَّة ، والقرابة الدانية ، ونقتلكم إذا أحوجتمونا إلى قتلكم ، كأنّا لا نبالى بما يمنع من ذلك ، أو يدعو إلى الجزَع له . وقولُه « نُبالِى » نُفاعِلُ من البَلاَءِ . فإذا قال لا أُباليه كأنه أراد : لا أحتفِلُ به فأُعادّهُ بلائى وبلاءه وأُفاخِره . هذا أصْلُه ، وقد مَضَى . وحكى سيبويه : ما أُباليه بالةً ، وذكر أن البالَةَ كالحانةِ ، وأن حُذِفَ ياؤه حَذْفَ تخفيف لا حَذْف قِياسٍ .

٤٣

وقال القَتَّالُ الكلابِىُّ[2] :

١ — نَشَدْتُ زِيَادًا والمَقَامَةُ بَيْنَنا وذَكَّرْتُهُ أَرْحامَ سِعْرٍ وَهَيْثَمِ

يقال : نَشَدْتُكَ اللهَ والرَّحِمَ ، وناشَدْتُكَ اللهَ ، أى سألتك بالله وبالرَّحِمِ .

---

(١) هذه من م .

(٢) القتال لقب غلب عليه ، واسمه عبد الله بن المجيب بن المضرجى بن عامر بن كعب بن عبد الله بن أبى بكر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة . وهو شاعر إسلامى . وكان من حديث هذا الشعر كما روى التبريزى وأبو الفرج أن القتال كان يتحدث إلى ابنة عم له ولها أخ غائب ، فلما قدم رأى القتال يتحدث إلى أخته ونهاه ، وحلف له لئن رآه ثانية ليقتلنه . فلما كان بعد ذلك رآه عندها ، فأخذ له السيف ، ورآه القتال فخرج هاربا وخرج فى أثره ، فلما دنا منه ناشده القتال بالله والرحم ، فلم يلتفت إليه ، فبينا هو يسعى وقد كاد يلحقه وجد رمحاً مركوزاً عند بيت ، فأخذه القتال ثم عطف عليه فقتله . وانظر ترجمته فى الأغانى (٢٠ : ١٥٨ — ١٦٦) والمؤتلف ١٦٧ والخزانة ٣ : ٦٦٧ — ٦٦٨ والشعر والشعراء ٦٨٦ — ٦٨٧ .

يقول : أقسَمْتُ على زيادٍ بالله وأهلُ المجلس بيننا حاضرُون ، ولِمَا يأتيه كُلٌّ منّا مُشَاهِدُون[١] ، وذَكَّرْته ما يجمعنى وإيَّاهُ من الرّحِمِ من جهة هذين الرجلين ، وإنّما ذَكَّرَهُ بهذا على زُعْمِهِ طَلَبًا للصُّلح ، أو استظهاراً بإقامَةِ الحجج عليه ، وإلقاء مغاليق البَغْى إليْه .

٣ ــ فَلَمَّا رَأَيْتُ أَنَّه غَيْرَ مُنْتَهٍ أَمَلْتُ لَهُ كَفِّى بِلَدْنٍ مُقَوَّمِ

يقول : لمّا وجدْتُه لا ينتهى بالقَوْل ، ولا يَرْعَوِى بالزَّجر ، حدرْتُ له كفّى برُمحٍ ليّنٍ منقَّفٍ فطَعَنْتُهُ . وقوله « أمَلْتُ لَهُ » ، أى من أجْلِهِ « كَفّى بلَدْنٍ » ، من فصيح الكلام ، وبليغ الكنايات .

٣ ــ وَلَمَّا رأيْتُ أنّى قد قَتَلْتُهُ نَدِمْتُ عليْهِ أىَّ سَاعَةِ مَنْدَمِ[٢]

يقول : لمّا بَانَ لى إتيانُ تلك الطّعنة عليه نَدِمْتُ فى وقْتٍ لم تنفع الندامة فيه ، لفوت الأمْرِ فى الإبقاء . وهذا فى إظهار التحسُّر به كقول الآخر[٣] :

* ودِدْتُ وأينَ ما مِنّى وِدَادِى[٤] *

وانتصب أىَّ ساعَةٍ على الظرف ، لأن أيًّا لما كان للبعض من الكلّ جُعِلَ حُكْمُهُ حُكْمَ المُضافِ إليه من جميع الأجناس .

(١) م : « شاهدون » .
(٢) هذا ما فى م والتبريزى . وفى نسخة الأصل : « فلما رأيت » .
(٣) هو عمرو بن معديكرب . اللآلئ ٦٣ .
(٤) صدره : * تمنانى ليلقانى قيس *

٤٤

قَيْس بن زُهَيْرٍ العَبْسِىُّ[1]

١ — شَفَيْتُ النَّفْسَ من حَمَلِ بنِ بَدْرٍ وسَيْفِى من حُذَيْفَةَ قد شَفَانِى

كان حَمَلُ بن بَدْرٍ قتل مالك بن زُهير أخا قيس ، فظفِر به وبأخيه حذيفةَ فقتلهما . يقول : اشتفيْتُ بقتل حَمل بن بَدْرٍ . ثم قال : وشفانى سيفى أيضاً من أخيه حذيفة ، لأنه أتى عليه لَمَّا أعملْتُه فيه . وهذا مما جَرَى بين عَبْسٍ وفَزَارة بسبب دَاحِس والغبراء .

٢ — فإنْ أكُ قد بَرَدْت بِهِمْ غَلِيلِى فَلَمْ أقْطَعْ بِهِمْ إلَّا بَنَانِى

يقول : إن سَكَّنْت لَوْعَتِى بمجازاتهم ، وبَرَّدتُ غُلَّتِى ، فإنِّى لم أقطع بهم إلاّ أطراف أصابِعِى . وذلك أن عِزِّى كان بهم ، وكانوا كالكفّ ، فلما ماتُوا وأعوَزَنِى التبجُّح بمكانهم[2] ، والاستعلاء على العدوّ بهم ، صِرْتُ كمن قُطِعَتْ أنامِلُهُ . ومن الأمثال فى هذه الطريقة : « بالسَّاعِدِ تَبْطِشُ الكَفّ » .

٤٥

وقال الحارِثُ بن وَعْلَةَ الذُّهْلِىُّ[3] :

الوَعْلَةُ : الصخرة المشرفة من أعلى الجبل .

---

(١) قيس بن زهير : شاعر جاهلى ، كان سيد عبس ، وكانت له ضلع كبيرة فى حرب داحس ، وهو صاحب داحس . انظر أمثال الميدانى (١ : ٢٥٠) والأغانى (٧ : ١٤٣/١٦ : ٢٣) والعقد وكامل ابن الأثير وغيرهما ، فى حرب داحس والغبراء .

(٢) التبجح : الافتخار .

(٣) شاعر جاهلى ، ذكر نسبه فى الأغانى (٢٠ : ١٣٢) والمؤتلف ١٩٧ قال « الحارث بن وعلة بن المجالد بن يثربى بن الديان بن الحارث بن مالك بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة » . وهو غير الحارث بن وعلة الجرمى . انظر المفضليات (١ : ١٦٢ — ١٦٣) .

١ ـ قَوْمِي هُمُ قَتَلُوا أُمَيْمَ أَخِي فإذا رَمَيْتُ يُصِيبُنِي سَهمِي

يقول : قَومى ، يا أميمة ، هم الذين فَجَعُونى بأخى ووتَرونى فيه ، فإذا رُمْتُ الانتصار منهم عاد ذلك بالنِّكاية فى نفسى ، لأنَّ عزَّ الرجل بعشيرته . وهذا الكلامُ تحزُّنٌ وتفجُّعٌ وليس بإخبار .

٢ ـ فَلَئِنْ عَفَوْتُ لأَعْفُوَنْ جَلَلاً وَلَئِن سَطَوْتُ لأُوهِنَنْ عَظْمِي

عَفَا عن المُذْنِبِ والذَّنب عَفْوًا ، إذا صَفَحَ . وحَذَفَ حرف الجرِّ فوصَلَ لأَعْفُوَنْ بنفسِهِ . والكلامُ تَحسُّرٌ وتوَجُّع . يقول : إنْ تركْتُ مؤاخذَتهم ، واطَّرَحْتُ طَلَبَ الانتقام منهم ، صَفَحْتُ عن أمْرٍ عظيم ، وإن سَطَوْتُ عليهم أضعَفتُ عَظْمِى ، وهدَدت رُكْنِى . والجَلَلُ يزعم أهل اللُّغة أنَّهُ من الأضداد ، يَقعُ على الصَّغير والكبير ، وهاهنا يُرادُ به الكبير . وكذلك فى قوله :

* ومِنَ الأَرْزَاءِ رُزْءٌ ذُو جَلَلْ[1] *

والسَّطْو : الأخذ بعُنف . وفى كلِّ واحدٍ من المِصراعين يمينٌ مُضْمَرَةٌ ، جوابها فى الأوّل لأَعْفُوَنْ ، وفى الثانى لأُوهِنَنْ . واللام من لئن فى الموضعين موطِّئة للقَسَم .

٣ ـ لَا تَأْمَنَنْ قَوْمًا ظَلَمْتَهُمْ وَبَدَأْتَهُمْ بالشَّتْمِ والرَّغْمِ

حَوّلَ الكلام عن الإخبار توَجُّعًا على عادتهم إلى الخطاب ، متوعِّدًا .

يقول : لا تَسْكُن إلى ناحية قوم اهتَضَمْتَهُم وبدأْتَهُم بسَبِّهِمْ واطِّراحهم ، وإسقاطِهم وتذليلِهم . وظَلمتَهم مع ما بَعدَه من صفة القوم . والرَّغْم مصدر رَغَمْتُ فلانًا إذا قلت له رَغمًا أو فَعلتَ به ما يَرغَم به أنفُه ويُذِلّه . والرَّغام : التُّراب ،

(١) للبيد فى ديوانه ص ١٧ . وصدره :

* وأرى أربد قد فارقنى *

وحكى الخليل : أرغمتُه : حملتُه على ما لا يقدِر على الامتناع منه .

٤ ــ أَنْ يَأْبِرُوا نَخْلاً لِغَيْرِهِمُ والقَــولُ تَحْقِرُهُ وقد يَنْمِى

موضع قولِه « أن يأبِرُوا » نصبٌ على البدَل من قومًا فى البيت الذى قبلَهُ ، كأنّه قال : لا تأمنْ أَبْرَ قومٍ ظلمتَهم وأوحشْتَهم نخلاً لغيرهم . ويقال : أبَرْتُ النخلَ وأبَّرْته ، إذا ألْقحتُهُ . وجعل هذا الكلام وعيدًا فى مفارقة القوم الذين وصَفَهم إيّاهم ، وتقويتِهم لأعدائهم بعــد الانتقال إليهم ، وإصلاحِهم الفاسد من فَخْرِهِم وأمْرِهم نُصرَةً لهم ، وجعل قَوْلَهُ « أن يأبِروا » كناية عن هذا المعنى ، كما قال طَرَفَةُ :

وَلِىَ الأَصْلُ الذى فى مثلِهِ يُصْلِحُ الآبِرُ زَرْعَ المُؤْتبِرْ

وقد قيل : أراد : لا تأمَنْ قومًا أسأت فى معاملتهم أن يتركوا أرضَهم وديارَهم ويَلحقوا بالأعداء فيَأْبِروا نَخيلهم ويتصرّفوا فى مِهَنِهم ، ليكونوا معهم عليكم . والأوّل أحسن وأغرب . وقوله « والقول تَحقِرُه وقد يَنمى » يجوز أن يكون ضرَبه مثلاً فى التَّهاوُن بما لا يجوز التهاوُنُ فيه ، ويجوز أن يشيرَ بالقول إلى ما يقوله فى شِعره هذا ، ويريد أنّه سيزداد بانضمام الفعل إليه .

٥ ــ وَزَعَمْتُمُ أنْ لا حُلُومَ لنــا إنَّ العَصَا قُرِعَتْ لذِى الحِلْمِ

زَعم زُعْمًا وزَعْمًا ومَزْعَمًا ، وأكثر ما يستعملُ فيه ما كان باطلاً أو فيه ارتيابٌ . ولذلك يقال : تَزَعَّم ، أى تكذّب ؛ وزَعَم فى غير مَزْعَمٍ ، أى طَمِع فى غير مَطْمَعٍ . و « أنْ لا حُلوم » أنْ فيه مخفَّفة من الثقيلة . أراد : زعمتم أنه لا حُلوم لنا . والهاء ضميرٌ للأمر والحديث ، و « لا حُلومَ » فى موضع الخبر . أراد : وزعمتم أنّ الأمر والشأن لا عقول لنا ، فإنْ كان الأمر على ما زعمتم فنبّهونا أنتم ، فإنّ عامِرَ بن الظَّرِب حَكَمَ العربِ كان يُقْرَعُ له العصا فينبَّه ، لما

كان يَزِيغُ فى الُحكْم لِكَبْرَتِه وسِنِّه . وهذا الكلام تهكُّم وسخريَّة . ومثله قولُك لمن أنكَرَ عليك ما لا يُشَكُّ فى صلاحه وصحّته : إنْ كان ذلك فاسداً فصحِّحه أنت . وهذا ظاهرٌ . وذو الحِلْم الذى قُرِعَ له العصا مختلَفٌ فيه ، فتدَّعيه اليمنُ وتقول : هو عَمْرو بن حُمَمَة الدَّوْسىُّ ، رَوى ذلك الشّعبىُّ عن ابن عباس رضى الله عنه . وتدّعيه مُضَرُ ، فتقول : هو عامرُ بن الظَّرِب العَدْوَانىُّ ، وإياه عَنَى ذو الإصبَع فى قوله :

ومِنْهُمْ حَكَمٌ يَقْضِى ولا يُنْقَضُ ما يَقْضِى

وتدّعيه ربيعة فتقول : هو قيس بن خالد الشّيبانى ، وهو جِدُّ بِسْطام بن قيس بن مسعود بن قيس بن خالد .

٦ ــ وَوَطِئْتَنا وَطْئًا عَلَى حَنَقٍ وَطْءَ الْمُقَيَّدِ نابِتَ الهَرْمِ

يقول : أثّرتَ فينا تأثير الحنِق الغضبان ، كما يؤثِّر البعير المقيَّد إذا وطئ هذه الشُّجَيرة . وخصَّ المقيَّدَ لأن وطْأته أثقل ، كما خصَّ الحنِقَ لأن إبقاءهُ أقلُّ . والهَرْمُ : ضَرْبٌ من الحمض ، يُقالُ جَملٌ هارِمٌ ، وإبلٌ هَوَارِم إذا رَعَت الهَرْم . وانتصب وطْءَ المقيَّدِ على البَدَل ، أى وطْئاً يُشْبه هذا الوطْءَ . ومما حُكِىَ عن العرب : « أعوذُ بالله من طِئَة الذليل » ، أى من أن يطأنى ، لأن وطأته أشدُّ ، لسوء مَلَكَتِه ، كما قال الآخر[1] :

* ولم يَغْلِبْكَ مِثْلُ مُغَلَّبِ *

وعلَى هذا قيل : ضَرَبتُه ضَربة الجبان ، وضبطته ضبطةَ الأعمَى .

٧ ــ وَتَرَكْتَنَا لَحْماً عَلَى وَضَمٍ لو كُنْتَ تَسْتَبْقِى مِنَ اللّحْمِ

(١) هو امرؤ القيس . ديوانه ١٧٧ . والبيت بتمامه :

وإنك لم يفخر عليك كفاخر ضعيف ولم يغلبك مثل مغلب

هذا مَثَلٌ يُضربُ فى الانقياد والذُّلِّ. ولذلك يقولون: «النِّساء لَحْمٌ على وَضَمٍ إلاَّ ما ذُبَّ عنه». يقول: تركتَنا لا دِفاعَ بنا، كاللَّحم على خِوَانِ الجزّار يتناوَلُه مَن شاء، لو كُنْتَ تترُكُ مِنّا بقيّة، وتطلب علينا بقيّة. والمعنى أنّك تَرُومُ استئصالَنا، فلستَ ترضى بالإذلال. وجواب لو فيما تقدّم عليه.

٤٦

وقال أَعْرَابِىٌّ

قَتَل أخوهُ ابنًا له فقدِّم إليه ليقتاد منه، فألقى السَّيف وهو يقول:

١ ـ أقولُ للنَّفس تأسَاءً وتَعْزِيَةً إحْدَى يَدَىَّ أصابَتْنِى ولم تُرِدِ

التّأساء: تَفعال من الإسْوَة. ويقال إسْوَةٌ وأُسْوَةٌ، فيُضَمُّ أوّله ويُكْسَرُ، وانتصابُه على أنّه مصدرٌ فى موضع الحال. أى أقول متأسّيًا بغيرى، ومسلِّيا لنفسى: جَنَى عَلَىَّ أخى الذى مَحَلُّه منى محلُّ إحدى يَدَىَّ، سهواً لا إرادةً لَمَسَاءتى وخطأً لاَ عَمْدًا. وقوله «إحدى يَدَىَّ» فى موضع المبتدأ و«أصابتنى» خَبَرُه، وقوله «ولم تُرِدْ» فى مَوْضِع الحال، والجملة فى موضع النَّصب على أنه مفعول لقوله أقول.

٢ ـ كِلاَهُمَا خَلَفٌ من فَقْدِ صَاحِبِهِ هَذَا أخِى حِينَ أدْعُوهُ وَذَا وَلَدِى

يقول: كلُّ واحدٍ من الأخ الواتر والابن المفقود يصلُح لأن يُرْضَى به عِوَضًا من فِقدانِ الآخَر، فإن اقتدت من الأخ منتصفاً للابن فقدتُهما جميعاً، فاستبقائى أخى هو على كلِّ حالٍ أقرَبُ وأعْوَد[1].

(١) أعود. أى أكثر عائدة؛ والعائدة: الفائدة.

٤٧

وقال إِيَاسُ بْنُ قَبِيصَةَ الطَّائىُّ[1] :

١ – ما وَلَدَتنى حاصِنٌ رَبَعِيَّةٌ لَئِنْ أنا مَالأْتُ الهَوى لاتِّبَاعِهَا

امرأةٌ حاصِنٌ وحَصَانٌ ، أى ممتنعة[2] عن الرَّفَثِ ، عفيفةٌ . ومصدره الحَصَانة والحُصْن ، وربعِيَّةٌ : منسوبةٌ إلى ربيعة : وهذا الكلام خبرٌ يجرى مجرى اليمين ، واللام من « لَئِن » يُؤْذِن بأن الكلام قَسَمٌ ، فيقول : لست ابنَ امرأةٍ من بنى ربيعة كريمةٍ عفيفة إنْ كنت شايَعْتُ الهوى وتابَعْتُهُ فى طَلَبِ امرأةٍ . والمعنى : لستُ لِرِشْدةٍ إن فعلتُ ذلك . ومالأْتُ ، مأخوذٌ من قولهم : هو مَلِىءٌ بكذا ، وقد مَلُؤَ يَملُؤُ مَلاءَة . وجواب الشَّرط فيما تقدم .

٢ – ألم تَرَ أنّ الأرضَ رَحْبٌ فسيحةٌ فهَلْ تُعْجِزَنِّى بُقْعَةٌ من بِقَاعِهَا

قال الخليل : البُقعة : قطعة من الأرض على غير هيئة التى إلى جنبها ، واستشهد الشاعر لنفسه فى إنكار ما انتفى من فعله بقوله : ألم تَرَ أنّ الأرض ، لأن ألم تَرَ وإن كان لَفْظُه لفظَ الاستفهام ، كلمةٌ يُوَاقَفُ بها المُخاطَبُ فى تحقيق الأمور ، وتثبيت الخطوب ، وربما صَحِبها معنى التعجُّب . فيقول : إنك تعلم أن الأرض واسعةٌ عريضةٌ ، وأنّ بِقاعَها لا تَنْبُو بى ، ولو نَبَتْ لم تُعجِزْنى ، فكما أنِّى فى هذا بهذه الصفة ، فكذلك أنا فى الأوّل . ومذهب هذا الكلام

(١) كان إياس هذا عاملا لكسرى على عين التمر وما والاها إلى الحيرة ، وقد جعله كسرى على رأس العرب فى يوم ذى قار ، الذى كان بين بكر بن وائل ، وبين الفرس وأحلافهم من تغلب وطيىء وضبة وتميم وبهراء وتنوخ ، وقد هزمت الفرس وأحلافها ، وقال فى ذلك رسول الله : « هذا أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم ، وبى نصروا » ، وفى أثناء عمالته بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم . الأغانى (٢٠ : ١٣٤ ، ١٣٨) والتنبيه والإشراف ١٥٨ ، ٢٠٧ – ٢٠٨ .

(٢) م : « متمنعة » .

مذهب قول القائل عند تحقيق أمرٍ وتصويره للمخاطَب : إن هذا حَقٌّ كما أنى حاضرٌ ، وكما أنك تسمع وتُجيب .

٣ — ومَبْثُوثةٍ بَثَّ الدَّبا مُسْبَطِرَّةٍ ‌ ‌ رَدَدتُ عَلَى بِطَائها من سِرَاعِها

يقول : رُبَّ خَيْلٍ متفرِّقةٍ ممتدَّةٍ فى وجه الأرض امتدادَ فِرَاخ الدَّبا وتفرُّقِها — والمعنى أنهم يمُوجُون فى انتشارهم ، كما أن الجراد إذا انبثَّتْ ماجَ بعضُها فى بعض — أنا رددت أوّلها على آخرها ، وحَبَسْتُ متقدِّماتها على متأخّراتها ، حتى لحِقَت الأعجازُ بالصدور ، واختلطت اللَّواحق بالسَّوابق . ويقال : هم يتهافَتُون تهافُتَ الفَراش ، ويتماوَجون تماوُج الجراد .

٤ — وأقْدَمْتُ والخَطِّىُّ يَخْطِرُ بيننا ‌ ‌ لِأَعلَمَ مَنْ جَبَانُها مِنْ شُجَاعِها

قولُه « والخطىّ » واوه واو الحال . واللام من « لِأَعلم » لام العلّة . يقول : تركتُ الإحجام ، وآثرتُ الإقدام ، ورماحُ الخطِّ تختلف بالطَّعن ، وتحكُم للشَّجاعة على الجُبْن ، لأتبيَّنَ الضعيفَ من القوىّ ، والمتقدّم من المتخلِّف . والمعنى فعلت ذلك لِيَبِينَ فضلى على غيرى .

٤٨

وقال رجل من بنى تميم[(١)]

وطَلَبَ منه ملك من الملوك فَرَساً يقال له[(٢)] سَكَابِ فمنعه إياها :

١ — أَبَيْتَ اللَّعْنَ إنَّ سَكَابَ عِلْقٌ ‌ ‌ نَفِيسٌ لا تُعَارُ ولاَ تُبَـاعُ[(٣)]

قولُه « عِلْقٌ نفيسٌ » أى مالٌ يُبْخَل به . وهذا كما يقال : هو عِلْقُ مَضِنَّةٍ .

(١) هو عبيدة بن ربيعة بن قحفان بن ناشرة بن سيار بن رزام بن مازن ، كما فى كتاب الخيل لابن الأعرابى ٦٢ حيث أنشد الأبيات . وفى همدان فرس يقال له سكاب ، فارسه الأجدع بن مالك . الخيل لابن الأعرابى ٩٩ — ١٠٠ .

(٢) كذا فى النسختين والتبريزى ، ذكر للفظ ، وأنث بعد ذلك للمعنى .

(٣) رواية ابن الأعرابى : « ليست بعلق يستعار ولا يباع » .

ويقال: عالَقْتُه بِعِلْقٍ وعِلْقِه، إذا خاطَرتَهُ بكرائم المال. يقول: مُنِعْتَ أن تفعل ما تَستحِقُّ به اللّعن، إنّ فرسى سَكَابِ مَتَاعٌ نَفِيسٌ، وعِلقٌ كريم، لا يُعْرَضُ للبيع، ولا يُبْذَلُ للإعارةِ. و «سَكَابِ» إذا أعربته منعته الصَّرْف، لأنه عَلَمٌ، فلحصول التعريف فيه والتأنيث مع كثرة الحروف يُمنَع الصرف. والشاعر تميمىٌّ، وهذا لُغَةُ قومه. وإذا بَنَيْتَهُ على الكَسْرِ أجريته مجرى حَذَامِ، لأنّه مؤنث معدول معرفةٌ، فلمشابهته بهذه الأوصاف دَرَاكِ ونَزَالِ يُبْنَى؛ وهذه اللّغة حجازيّة. واشتقاق سَكَابِ من سَكَبْتُ إذا صببتَ. ويقال فى صفة الفرس: هو بَحْرٌ وسَكْب. وقوله: أَبَيْتَ اللّعْنَ، تَحِيَّةٌ كان يُسْتَعْطَفُ بِهِ الملوك. وأَصْلُ اللَّعن: الطَّرْد. وقول الشاعر[1]:

ولَكُلُّ ما نَالَ الفَتَى قَدْ نِلْتُه إلا التَّحِيَّهْ

يعنى إلاّ أن يقال لى: أبيت اللعن، لأنّه تحيّة الملوك. وكأنّه قال: نِلتُ كلّ شىء إلا المُلك.

٢ — مفَدّاةٌ مُكَرَّمَةٌ عَلَيْنَا يُجَاعُ لها العِيَالُ ولا تُجَاعُ

يقول: لعزّتها على أربابها تُفَدَّى بالآباء والأمّهات، وتُؤثَر تكريماً لها على العيال عند الإضافة والإقتار، فيَجوّعُ العيال ولا تجوّع هده.

٣ — سَلِيلَةُ سَابِقَيْنِ تَنَاجَلاَها إذا نُسِبَا يَضُمُّهُمَا الكُرَاعُ[2]

يقول: هى وَلَدُ فَرَسَيْن سابقَيْن، إذا نُسِبَا ضَمَّ مَنَاسِبَهُمَا ومناصِبَهُما الكُرَاعُ، وهو فَحلٌ كريم معروف. وسَلِيلَةُ أُلحِقَ الهاء بها وإن كان فعيلاً

(١) هو زهير بن جناب الكلبى، كما سبق فى حواشى صفحة ١٠٠.

(٢) ابن الأعرابى: «يضمهما إذا نسبا».

فى معنى مفعول ، لأنّه جُعِلَ اسْمًا ، كما تقول هى قتيلة بنى فُلاَن . ومعنى سُلَّ : نُزِعَ . ويقال : نَجَلاَ ولَدَهُمَا وتناجلاه ، بمعنى واحد ، قال :

* إذْ نَجَلاَهُ فِنِعْمَ ما نَجَلاَ[1] *

وأصلُ الكُرَاع فى اللُّغة : أنفٌ يتقدَّم من الجَبَل ، فسُمِّى هذا الفحلُ به لِعظَمِهِ . وأمّا الكُرَاع الاسم الجامعُ للخيل ، فهو غَيْرُ ذَا .

٤ ــ فلا تَطْمَعْ أَبَيْتَ اللَّعْنَ فِيها ومَنْعُكَهَا بِوَجْهٍ يُسْتَطَاعُ

يقول : ارفَعْ طَمَعَكَ فى تحصيل هذه الفرس ، أبيْتَ أن تأتى ما تستحِق به اللّعن ، ودَفْعُكَ عنها يُقْدَرُ عليه بوجْهٍ ما وبحيلة ما . والمعنى : إنّى لا أُسْعِفُك بها استَبَعْتَهَا أو استَوْهَبْتَهَا ، ما وجدتُ إلى الردِّ طريقاً ، فلا تطمع فيه مادامت لى هذه الحالة . وقوله « ومنعُكها » أى منعُك عنها . ويقال مَنَعْتُكَ كذا ، ومَنَعْتُكَ عن كذا ، وأمّا المَنَعَةُ العِزُّ[2] فهو مصدرٌ كالحركة والجلَبة مِن مَنَع مَنَاعَةً ومَنَاعًا ، فهو مَنِيع .

٤٩

وقالت امرأةٌ من طَيِّئٍ[3] :

١ ــ دَعَا دَعْوَةً يَوْمَ الشَّرَى يَالَمَالِكٍ ومن لا يُجَبْ عند الحَفِيظَةِ يُكْلَمِ

يقولُ : استغاثَ هذا الرّجلُ فى يوم اجتماعنا بالشَّرَى ــ وهو مكانٌ معروف اتفقت فيه وقعةٌ فنُسب يومُها إليه ــ استغاثةً وقال : يالَمَالِكٍ ؛ ومَن لا يُجَب

(١) للأعشى فى ديوانه ١٥٧ . وصدره :

* أنجب أيام والداه به *

(٢) م : « العزة » . والمنعة تقال بفتح النون وإسكانها .

(٣) هى بنت بهدل بن قرفة الطائى ، أحد لصوص العرب زمان عبد الملك بن مروان ، كما سيأتى فى التفسير .

إذا استَصرَخ ، ولم يُغِثْ إذا استَنْصَر ، يُهتَضَمْ ويُجرح . وقوله « يا لَمالِكٍ » اللام فيه للإضافة ، وإنما فُتِحَ لأنّه دَخَل على ما هو واقعٌ موقع المضمر ، فكما يُفتح لام الإضافة مع المضمَر كذلك فُتح مع المُنادَى لوقوعه موقِعَهُ . فإن قيل : فما المدعوُّ ؟ قلتَ : : مالِك ، كأنّه قال : دُعائى لِـمالِكٍ . والحَفيظةُ : الخَصْلَةُ التى يُحفَظ الإنسانُ عندها ، أى يُغضَبُ . وكذلك الحِفْظَةُ . قال :

* وحِفْظَةٍ أَكَنَّها ضَمِيرِى[1] *

وقوله « يُكْلَم » كناية عن الغَلَبة أو القتل .

٢ ـ فياضَيْعَةَ الْفِتْيانِ إذْ يَعْتِلُونَهُ ... بِبَطْنِ الشَّرَى مِثْلَ الْفَنِيقِ الْمُسَدَّمِ

الفنيق : الفَحل المُفَنَّق لا يُرْكَب لـكرامته على أهله . والمُسَدَّم : الفحل الهائج الممنوع . ويقال : عَتَلَه يَعْتِلُه ويَعْتُلُه جميعاً ، إذا قادَه بعُنْف . ومعنى « يا ضَيْعةَ الفتيان » وإن كان لفظُه لفظَ النداء ، معنى الخبر ، كأنّه قال : ضَاعَ الفتيان جدًّا . فيقول على وجه التعجُّب والاختصاص : ما أضْيَعَ الفتيانَ فى ذلك الوقت وفى تلك الحالة . كأنَّه لـمَّا لم يُنصَر فى تلك الحالة ولم يَحْضُرْه فَتًى يُعينُه كان الفتيانُ ضائِعِين ، إذ كانوا يعْنُفون فى قَوْدِهم إيّاه ، وهو كأنّه فحل مشدود الفم خَوْفاً من صِيَالِهِ ، فلا يُناكر بنفسه[2] ، ولا يدَافع أحد دونَه . وذكر بعضهم أن هذا المقتولَ هو بَهْدَل بن قِرْفَة ، أحد بنى نبهان ، وأُخِذ بسبب دم ابن جَعْدَةَ المخزومى[3] فقُتل بالمدينة صَبْرًا . وما اقْتُصَّ فى الأبيات يدل على خلافه[4] .

---

(١) للعجاج فى ديوانه ٢٦ واللسان (حفظ) .

(٢) المناكرة : المحاربة والقتال .

(٣) هو عون بن جعدة بن هبيرة بن أبى وهب المخزومى ، كما ذكر التبريزى .

(٤) قال التبريزى : « بل الذى اقتص فى الأبيات يدل على صحته » . ثم نقل نصا طويلا من كتاب أخبار اللصوص للسكرى .

٣— أَمَا فى بَنِى حِصْنٍ مِن ابنِ كَرِيهَةٍ   من ٱلقَوْمِ طَلَّابِ ٱلتِّرَاتِ غَشَمْشَمِ

هذا الكلام بَعْثٌ وتحضيض لأبناء حِصْن . والغَشَمْشَم : الذى يركَبُ رأسه ولا يَهَابُ الإقدامَ علىَ شىء . والكلام لفظُهُ استفهامٌ ، والمعنى معنى التَّمنِّى ، كأنَّه يَبعثُ ويُحضِّضُ مَن يَطْلُب دمَه إذْ فاتَ نُصْرتَه حَيًّا . فيقول : أمَا فى هذه القبيلة ابنُ حَرْبٍ مُتَنَاهٍ فى طلب الدَّم وإدراكِ الثأر ، ظَلُومٌ غَشوم ، يركب الكرائهَ والأمورَ الصَّعبة ، غير مُرْعَوٍ ولا منْقبِض .

٤— فَيَقْتُلَ جَبْرًا بامرئٍ لم يَكُنْ لَهُ   بَوَاءً ولكن لا تَكَايُلَ بالدَّمِ[1]

جَبْرٌ هو القاتل لِوَلىّ هذه المرأة . ويقال : باء فلانٌ بفلانٍ يبُوء بواءً ، إذا ارتُضِىَ لقَتْلِهِ بدلاً منه . وأَبَأْتُ فلانًا بفلان ، أى قَتَلتُه . وانتصب « يقتُلَ » على أنه جواب التمنّى بالفاء ، والعامل فى الفعل أن مضمرة ، أى أمَا فيهم رجُلٌ هكذا فيَقتُلَ هذا الرجلَ برجل لم يكن له نظيرًا ، فيكون فى دمه وفاءٌ بدمه ، ولكنْ سقطت المكايلة فى الدماء منذُ جاء الإسلام ، فَلاَ يُقتل بدل الواحد إلاّ واحدٌ ، شريفًا كان أو وضيعًا .

٥٠

وقال بَعْضُ بنى فَقْعَس[2] :

١— رَأَيْتُ مَوَالِىَّ الأُولَى يَخْذُلُونَنِى   عَلَى حَدَثَانِ الدهرِ إذ يَتَقَلَّبُ

الموالى ها هنا : أبناء العم . والأُولَى فى معنى الذين ، ويخذلوننى من صِلَته . يقول : رأيتُ أبناء عمِّى هم الذين يقعدون عن نُصرتى على تقلُّب الزّمانِ ، وتصرُّف الحَدَثان . وقولُه « على حَدَثان الدَّهر » فى موضع الحال ، أى

(١) فى الأصل : « حبر » بالحاء المهملة فى المتن والشرح ، وأثبتنا ما فى م والتبريزى .

(٢) التبريزى : « قيل هو مرة بن عداء الفقعسى » .

يخذلونى مُقَاسِيًا لما يحدث فى الدّهر أوانَ تقلُّبه وتغيره .

٢ — فَهَلاَّ أَعَدُّونِى لِمِثْلِى تَفَاقَدُوا إِذِا الْخَصْمُ أَبْزَى مائلُ الرأسِ أَنْكَبُ(١)

قوله : « تفاقدوا » دعاء ، وقد اعترض بين أوّل الكلام وآخره ، ولكنّه أكّد ما يقتضيه فصَلَحَ لذلك . يقول : هَلاّ جعلونى عُدَّة لرجلٍ مثلى ، فقد بعضُهم بعضا وقد جاءهم الْخَصْمُ متأخِّر العَجُز مائل الرأس منحرفا . وهذا تصويرٌ لحال المُقاتل إذا انتصب فى وجه مقصوده ، وهو أبلغُ فى الوصف من كلِّ تشبيه ، ومثله قول الآخر(٢) :

* جاءوا بِمَذْقٍ هَلْ رَأَيتَ الذئبَ قَطّْ *

ألا تَرى أنه صوَّر لون المذْق لّمَا قال : هل رأيت الذئب قط ؟ وقوله : « إذِ الخصم » هو حكاية الحال المتوهَّمة ، وهو الرواية المختارة . وقد رُوِى : « إذَا الْخَصْمُ » والْجُمْلَة التى تبيّن بها إذَا هذه يجبُ أن يكون فيها فِعْلٌ ، وقد عَرِيَتْ منه هاهنا ، وأظُنُّ أنّ الأخفش جَوّزَ مثله . والمعنى : لِمَ أفاتونى أنفسَهم ، وهلا ادَّخرونى ليوم الحاجة إذا كان الخصم هكذا . وأراد بالْخصم الجِنس . وقال الأصمعىّ : البَزَى : تأخُّر العَجُز . وقال غيره : هو إشرافُ وسَط الظَّهر على الاسْت . والبيت يشهد للأصمعىّ . والنّكَبُ : شِبْه الميل فى المَشْى ومنه الأنكب من الإبل ، وهو الذى يَمشِى فى شِقّ .

٣ — وَهَلاَّ أَعَدُّونِى لمثْلِى تَفَاقَدُوا وفى الأرض مَبْثُوثٌ شُجَاعٌ وَعَقْرَبُ

الكلام فى « تفاقدوا » وأنّه دعاء واعتراض ، على ما مرّ . وإنَّما وكرّر

(١) إذا ، كذا ورد رسمها فى النسختين بالألف مع كسر الذال ، وذلك لتقرأ بالروايتين ، إذ وإذا . قال ابن جنى : « فمن رواه إذ حكى الحال المتوقعة كقول الله سبحانه : إذ الأغلال فى أعناقهم . ومن رواه إذا فهو كقوله آتيك إذا زيد قائم . وهذا جائز على رأى أبى الحسن ، وذلك أنه يجيز الابتداء بعد إذا الزمانية المشروط بها » .

(٢) قيل هو العجاج . الخزانة (١ : ٢٧٧) .

ما كرّره على وجه التأكيد ، وتفظيعاً للأمر . والمعنى : هلّا جعلونى عُدّةً لرجلٍ مثلى فى البأس ، فقد بعضهم بعضاً . وقد انتشر فى الأرض أعداءٌ كثيرة ، وأنواعٌ من الشر فظيعة . والشُّجاع : الحيّة . وكنى بالعقرب وبه عن الأعداء والشرّ . وارتفاع شُجاعٌ ، يجوز أن يكون على البدل ، ويجوز أن يكون على الابتداء ومبثوثٌ خبرٌ له قُدِّم عليه ، ويجوز أن ينصب مبثوث على الحال ، ويُجعل فى الأرض الخبرَ[1] . ولم يُثَنَّ مبثوث لأنّ القصد بالشُّجاع والعقرب إلى خيل الأعداء والشرّ ، فكأنهما شىءٌ واحد .

٤ – فَلَا تأخُذُوا عَقْلًا من القَوْمِ إنّنِى أَرَى العَارَ يَبْقَى وَالمَعَاقِلُ تَذْهَبُ

لك أن ترفعَ المعاقِل على الاستئناف ، ولك أن تحمله على ما قبلهُ فتعطِفهُ على العار . يقول : لا ترغبوا فى قبول الدِّية فإنه عارٌ ، والعار يبقى أثرُه ، والأموال تفنى . والمعاقِلُ : جمع المَعْقُلَة . والمَعْقُلَةُ والعَقْلُ : الدِّيةُ ، وأصله الإبل كانت تُعقَلُ بفناء وَلِيِّ المقتول ، وهو مصدرٌ وُصِف به . وحكى الأصمعىُّ : صار دَمُهُ مَعْقُلَةً على قومه ، أى صاروا يَدُونَهُ .

٥ – كأنّكَ لم تُسْبَق من الدّهرِ لَيْلَةً إذا أنت أدركتَ الذى كُنتَ تطلُبُ

يقول : مَن أدرك ما طلبه من الثأر فكأنه لم يُصَبْ ولم يُوتَرْ . وهذا بَعْثٌ وتحضيض على طلب الدّمِ والزُّهدِ فى الدّية . وفى طريقته قول الآخر[2] .

كأنّ الفتَى لم يَعْرَ يَوْمًا إذا اكْتَسَى ولم يَكُ صُعْلوكاً إذا ما تموّلا[3]

لكنّ هذا بَعْثٌ على طَلَب المال .

(١) ابن جنى : « فمن نصب فإنه وصف نكرة قدم عليها فنصب على الحال منها ، كقولك : * لمية موحشاً طلل قديم * »

(٢) هو جابر بن ثعلبة الطائى ، كما فى الكامل ٢٩٩ ليبسك . وفى الحماسية ٩٥ أنه جابر بن الثعلب .

(٣) التبريزى : « ولم يك فى بؤس إذاما تمولا » .

٥١

وقال آخَرُ :

١ ــ فَلَوْ أَنَّ حَيًّا يَقْبَلُ المالَ فِدْيَةً لَسُقْنَا لَكُمْ سَيْلاً من المال مُفْعَمَا

انتصب فِدْيةً على الحال من المال ، والمُراد به الإبلُ لا غير ، ونَكَّر قولَهُ « حَيًّا » وهو يقصد به قَصْدَ حَيٍّ بعينه ، لأنّ المراد كان مفهوماً عند من عَرَف القصّة ، فجعله كالتّعريض . وقوله « سَيْلاً مُفْعَمَا » والسَّيْلُ يُفْعَمُ به الشّيء ، يجوز أن يكون من باب هَمٌّ ناصِبٌ وما أَشبَهَهُ ، ويكون المعنى سَيْلاً ذا إِفْعَامٍ ، ولكنَّ أكثَر ما يجيء معنى النِّسبة فيما كان للفاعل ، كطالِقٍ ومُرْضِعٍ . ومثله قولهم نَخْلَةٌ مُوقِرٌ . ويجوز وهو الأجْوَدُ أن يكون عَبَّر عن الكثرة بقوله مُفْعَمُ كما عُبِّرَ في قولهم شِعْرٌ شَاعِرٌ وَمَوْتٌ مَائِتٌ عن التَّناهي بلفظ فاعل ، وإن كان الموت لايموت ، والشِّعر لايشعُرُ ، كما أنّ السَّيْلَ لا يُفْعَمُ . وقد قيل امرأةٌ فَعْمَةُ المُخَلْخَلِ ، أي غليظةٌ كثيرةُ اللَّحْم عليه . والمعنى : لو كانت معاملتُنا مع حَيٍّ يَرَى قَبول المال فداء لأرضيناه بالمال الكثير .

٢ ــ ولكنْ أَبَى قومٌ أُصِيبَ أَخُوهُمُ رِضَى العَارِ واختاروا على اللَّبَنِ الدَّما

يقول : ولكن امتنع قومٌ أصبْنَا صاحِبَهُم من الرضا بالدنيَّة ، وآثروا طَلَبَ الدم على قَبُول الدِّيَةِ . وجعل اللَّبَنَ كنايةً عن الإبل تؤدَّى عَقْلاً ، [لأنّه(١)] منها ، وكما نَكَّر حَيًّا في البيت الأول نكَّر أيضاً في الثاني قوله « أَبَى قَوْمٌ » ، والغَرَضُ بهما على حَدٍّ واحد ، ولا يجوز أن يكون « يَقْبَل المال فِدْيَةً » صِفَةً لقوله حَيًّا ، لأنه يَبقَى أنّ بلا خبر . فأمّا قولُه « أُصيبَ أخوهم »

(١) التكملة من م .

فهو صِفَةٌ لقوله قَوْمٌ . وقوله « رِضَى العارِ » العارُ فى موْضِع المفعول ، أى أبَوْا أن يَرضَوا العار خُطَّةً لأنفسهم .

٥٢

وقالت كَبْشَةُ أُخت عَمْرو بن مَعْدِيكَرِب[1] :

١ – أَرْسَلَ عَبْدُ الله إذْ حَانَ يَوْمُهُ إلى قَوْمِهِ لا تَعقلوا لهُمُ دَمِى

الشعر لـكبشة أخت عبد الله[2] . والـكلام بَعثٌ وتهييجٌ . وإنما تَـكَلَّمتْ به على أنه إخبارٌ عما فعله عبد الله وأقامَهُ من الوَصَاةِ عند الوفاة ، فتقول : راسل عبد الله بن معديكرب لما دنا أجَلُه قومَه وذويه ، بأن لا تَعْقِلوا دَمِى . وغَرَض كَبْشَةَ تحضيضُهم على إدراك الثَّأر ، وتركِ التباطؤ والتّـكاسُلِ فيه ، وإن كانت آمنةً من مَيْلهم إلى قَبُول الدِّية ، فغلَّظَت القولَ لتهتاج حمِيّتهم . ويقال عَقَلْتُ فُلانًا ، إذا أعطيتَ ديتَهُ . وجَعَل هذا المفعول الدَّمَ لأنَّ المراد مفهوم ، كأنه قال : لا تأخذوا بَدَلَ دَمِى عَقْلاً . ويقال عَقَلتُ عن فلانٍ ، إذا غَرِمْتَ عنه دِيَةَ جنايَتِهِ أو أرشَها .

٢ – ولا تأخذوا مِنْهُم إفالاً وأَبْكُرًا وأُتْرَكَ فى بيْتٍ بِصَعْدَةَ مُظْلِمِ

الإِفَالُ : جَمعٌ وواحدُهُ أَفِيل ، وهى صِغارُ الإِبِلِ ، والأبْـكُر : جَمع البَكْر ، وهو الفتىُّ منها . يقول : لاتأخذوا من قَتَلَتِى صِغارَ الإبل وبِكارَتَها ، فتتركونى فى قَبرٍ مُظلِم بصَعْدَةَ ؛ وهو مكان باليَمَن . وإنما جعَلَ قبرَهُ هكذا ، لأنهم كانوا يزعمون أن المقتول إذا ثأروا به أضاء قبره ، فإنْ أُهْدِرَ دَمُه أوقُبِلَتْ ديَتُهُ بقى

(١) سبقت ترجمة أخيها عمرو فى الحماسية ٢٩ . التبريزى : «كبشة اسم مرتجل علماً ، وليس بتأنيث كبش ، لأن ذلك لا مؤنث له من لفظه ، إنما هى نعجة » .

(٢) عبد الله أخو كبشة وأخو عمرو بن معديكرب .

قبرُهُ مُظلِماً . فإن قيل : لِمَ ذَكَرَ الإفالَ والأبْكُرَ وما يؤدَّى فى الدِّيات لا يكون منهما ؟ قُلْتَ : أراد تحقير الدِّيات ، وهذا كما يقول الرَّجُلُ إذا أراد تحقير أمْرِ خِلْعَةٍ فازَ بها إنسانٌ : إنما أُعْطِيَ خِرَقاً وفُلُوساً ! وإنْ كانت الثِّياب المُعطَاة كِسوةً فاخِرةً ، والمَالُ الموفَّر جائزةً سنيّةً . وانتَصَبَ « وأتْرُكَ » بإضمارِ أن وهو جَوابُ النَّهْى بالواو .

٣ ـــ وَدَعْ عَنْكَ عَمْرًا إنّ عَمْرًا مُسَالِمٌ وَهَلْ بَطْنُ عَمْرٍو غَيْرُ شِبْرٍ لِمَطْعَمِ

عَمْرو هو أخوها ، وكان يُعَدُّ بألفِ فارس ، ولم يكن ممن يُسالِم ولا سيَّما فى طلب دمِ أخيه . وإنما رَمَتْه بهذا الكلام لتهيِّج منه وتبعَثَهُ على التعجُّل فى دَرَكِ الثأر ، والتسرُّع فى الانتقام . وقولُهُ : « وهل بَطْنُ عَمْرٍو غير شبرٍ لمطعم » تزهيدٌ فى الدِّيَةِ ، وهذا كما رُوِى فى الخبر : « وهل بَطْنُ ابنِ آدَمَ إلاَّ شِبْرٌ فى شِبْرٍ » لمَّا أُرِيد تَزْهِيدُهُ فى الدنيا وحُطَامِهَا . أى ما يَصْنَعُ بالمال وجوفُه يمتلئُ باليسير . وعمْرٌو لم يكن ممَّن يميل إلى الدِّيَة ، كما لم يكن يميل إلى المسالمة ، ولـكنَّ المرادَ ما ذكرناه من التحضيض والحثّ .

٤ ـــ فإن أنْتُمُ لم تَثأرُوا واتَّدَيْتُمُ فَمَشُّوا بآذانِ النَّعَامِ المُصَلَّمِ

الصَّلْمُ : قَطْع الأذُن من أصلها ، ومنه الصَّيْلَمُ : الدَّاهِية المستأصلة . واتَّديتم ، معناه قَبِلْتُمُ الدِّيَةَ . يقال : ودَيْتُه فاتَّدى ، كما يقال وَهَبْتُهُ فاتَّهَبَ ، أى قَبِل الهِبَةَ . وفى الحديث : « هَمَمْتُ ألا أتَّهِبَ إلاَّ من قُرَشِيّ أو أنصارِيّ » ومثله قَضَيْتُه الدَّيْنَ فاقتضاه ، أى قَبِله وتوفَّرَهُ . وقوله : « فَمَشُّوا » أى امشُوا . وضَعَّفَ الفعل للتكثير . ومن روى « فمُشُّوا » بضم الميم فمعناه امسَحوا ؛ ويقالُ لمنديلِ الغَمَرِ : المَشُوشُ . والمعنى : إنْ لم تقتلوا قاتِلِى وقبِلتم دِيَتِى فامْشُوا أذلاءَ بآذانٍ مُجَدَّعةٍ كآذانِ النَّعامِ . ووصَف النَّعام بالمُصَلَّمِ تصويرًا لها ، وإن كانت

خِلْقَةً جميعها ذلك . ومن أحاديثهم عن البهائم : « ذهبت النّعامة تَطْلُب قَرْنَيْن فجُدِّعَت آذانُها[١] » . ومن روى « فمُشُّوا » فالمعنى امسحوا بآذانكم بجدَّعة مُثْلَةً بكم كآذان النّعام .

٥ ــ ولا تَرِدُوا إلا فُضُولَ نسائِكُمْ إذا ارْتَمَلَتْ أَعْقَابُهُنَّ من الدَّم

تَرَمَّلَ وارْتَمَلَ إذا تَلطَّخَ بالدم . قال :

* إنّ بَنِيَّ رَمَّلُونى بالدَّمِ[٢] *

ويجوز أن يكون هذا الكلام دعاء عليهم[٣] ، أى أحلّكم الله محلّ من ذا صفتُه . وعلى هـذا يكون قوله « فَمَشّوا » من البيت الأول أيضاً[٤] . وإن شئت جَعَلْتَهُ نَهْيًا ، وفمشّوا أمراً . والمعنى : إذا فعلتم ذلك فتأخَّروا فى المواطن كلها والمَناجع ، وتخلَّفوا عن المشاهد والموارد ، وألبَسُوا الذُّلَّ راضِينَ به ، فإنّ مآل أمركم[٥] مع تضييعكم دمَ صاحبكم إلى مثل ذلك . وكان عادتُهم إذا وَرَدوا المياه أن يتقدّم الرِّجالُ ثُمّ العضاريط والرُّعاةُ ، ثم النِّساء ، إذا صَدَرَتْ كلُّ فِرْقة عنه ، فكنّ يَغْسِلنَ أنفسهنّ وثيابَهنّ ويتطّهرن آمِنَات مما يزعِجُهن غيرَ مستعجلات ، فَمَنْ تأخَّرَ عن الماء حتى تَصْدُرَ النِّساء فهو الغاية فى الذُّلِّ . وجَعَلَ النِّساء مُرْتَمِلَات بِدَمِ الحيض تفظيعاً للشَّأن ، وتدنيساً للماء . والأعقاب واحدها عَقِبٌ ، وهو موخر الرِّجْل . يقال : وَلَّى على عقبَيه ، إذا انصرف راجعاً عن مطلوبه .

---

(١) انظر الحيوان (٤ : ٣٢٣ ، ٣٩٨) .
(٢) لأبى أخزم الطائى ، كما فى اللسان (رمل) .
(٣) فى الأصل : « عليه » وفى م : « عليكم » ، والوجه ما أثبتنا .
(٤) أى يكون على معنى الدعاء .
(٥) كذا فى م . وفى الأصل : « فإن مآلكم » .

٥٣

وقال عَنْتَرَة بن الأخرس المَعْنىُّ من طيِّءٍ[1] :

١ ـ أَطِلْ حَمْلَ الشناءةِ لى و بُغْضِى وعِشْ ماشِيتَ فانظرْ من تَضِيرُ[2]

يقال : شَنِئتُهُ شَناءة وشَنْئًا[3] وشَنَآنًا[4] ومَشْنَأَةً ، إذا كان بُغضًا مختلطًا بعداوةٍ وسوء خُلُقٍ ، كما أنّ الشَّنَفَ اسمٌ لِشِدَّةِ العداوة . يقول : أَدِمْ احتمال الضَّغائن والبُغْض لى ، وعِشْ مدّة مشيئتك فتأملْ من يضُرُّهُ ذلك . ويقال ضَارَهُ يَضِيرُهُ ، وضَرَّهُ يَضُرُّهُ بمعنًى واحد . وانتصب موضع ماشيت على أنه ظَرْفٌ . و « مَنْ » مفعول تضير ، لأنه استفهام فلا يَعْمَل فيه ما قبله . أى انظُر تضير مَنْ .

٢ ـ فمَا بِيَدَيكَ خَيْرٌ أَرْتَجِيهِ وَغَيْرُ سدودِكَ الخطْبُ الكَبيرُ[5]

بَيَّنَ وجه استهانَتِهِ به ، وقلّةَ مُبالاتِهِ ببَغضائه وعداوته . فيقول : لا نَفْعَ عِنْدَكَ أعلِّق رجائى به ، وغيرُ إعْرَاضِكَ هو الخَطْبُ الكبير ، فأما إعراضُكَ فأهونُ به وأحْقِرْ بكونه . وأرتجيه ، فى موضع الصِّفة للنَّفع ، أى نَفْعٌ مُرْتَجًى .

٣ ـ أَلَمْ تَرَ أَنَّ شِعْرَكَ سارَ عَنِّى وشِعْرِى حَوْلَ بَيْتِكَ ما يَسيرُ[6]

---

(١) ويعرف أيضاً بعنترة بن عكبرة ، وعكبرة اسم أمه . قال الآمدى فى المؤتلف ١٥٢ : « شاعر محسن وفارس » . والعنترة : واحدة العنتر ، وهو الذباب الأزرق ، فهو اسم منقول كما فى المبهج لابن جنى . والمعنى : نسبة إلى معن بن عتود .

(٢) رواية الآمدى : « حبل الشناءة » بالباء . قال التبريزى : « الرواية الجيدة : حمل الشناءة بالميم . ويروى : حبل الشناءة ، بالباء ، وهو استعارة حسنة أيضاً ، جعل للشناءة حبلا » .

(٣) هذه مثلثة الشين . (٤) الشنآن بسكون النون وفتحها .

(٥) وكذا رواية الآمدى . وفى م والتبريزى : « نفع أرتجيه » .

(٦) شعرك ، أى شعرى المقول فيك ؛ وشعرى ، أى شعرك المقول فىَّ . والأوفق رواية الآمدى والتبريزى : « إن شعرى سار عنى وشعرك » .

هذا تقريرٌ له فى بيان فَضْله عليه ، وسلامة عِرْضه من قَرْفِهِ إياه . يقول : أَلم تَعْلَمْ أن شِعرك الذى قلتَه فىَّ لم يَعْلَقْ بى ذَمُّهُ ، لأنه كان كَذِباً وزُورا ، وشعرى الذى قلتُه فيك يطوف حول دارِك وبيتك ولا يفارقُك ، لأنه كان صِدْقاً . ويجوز أن يكون المعنى : ألم تَرَ أن شِعْرِى الذى قلتُه فيك سَارَ عنّى ، لأنّ الرواة احتملوه استجادَةً له واستلذاذاً ، وشعرك الذى قلتَه فىَّ مُلاَزِمٌ لك لزُهْد الناس فيه لَمّا كان سَفْسَافاً . وساغَ الوجْهان جميعاً لأنّ المصدر يُضَاف إلى المفعول كما يُضَاف إلى الفاعل ، فعلى ذلك جاز أن يقول شعرُكَ ويريدُ شعرى القَول فيك . وروى بعضهم :

ألم تر أنّ شِعرى سارَ عنِّى وشِعرُك حوْل بيتِك ما يسيرُ

وهذا الراوى[1] صرّح بالتفسير الثانى .

٤ ــ إِذَا أَبْصَرْتَنِى أَعْرَضْتَ عَنِّى كَأَنَّ الشَّمْسَ مِنْ قِبَلِى تَدُورُ

فى طريقته قول أوس :

إذ يَشْزِرُونَ إلىَّ الطَّرْفَ عن عُرُضٍ كأنّ أعيُنَهُم من بِغْضَتى عُورُ

يقول : إذا رميتَنى ببصرك لم يمكنك مَلْؤه منّى بُغْضاً وعداوة ، حتى تُعْرِضَ عنى فعلَ الناظرِ إلى الشمس ، فكأن الشمس تدور من جهتى . فأما قول الآخَر :

* نَظَرٌ يُزِلُّ مَوَاطِئَ الأَقْدَامِ *

فهو صفةَ نظر المهيب المعظَّم . وفى نَظَر الناظرين على اختلافهم ما يستدلُّ به على أحوالهم ، وسنذكر ما يجىء عنه مُبَيَّناً من بَعْدُ .

(١) هذا ما فى م . وفى الأصل : « وهذه الرواية » .

(٢) صواب روايته : « نظراً » . وصدر البيت كما فى البيان (١ : ١١) .

* يتقارضون إذا التقوا فى موقف *

٥٤

وقال الأحوص بن محمد[١] :

١ ـ إنِّى عَلَى ما قَدْ عَلِمْتِ مُحَسَّدٌ أَنْمِى عَلَى البَغْضاءِ والشَّنآنِ

عَلِمتِ بمعنى عَرَفتِ ، ولهذا اكتفى بمفعولٍ واحدٍ . ومعنى البيت . إنى مرموقٌ محسودٌ على ما قد عَرَفتِهِ من أحوالى ، زائدٌ كلَّ يومٍ على بغضاءِ الناسِ وشنآنهم لى ، ويكون قوله « على ما قد عَلِمتِ » ، وقوله « على البَغْضَاءِ » جميعا فى موضع الحال . والعامل فى الأوّل قولُه مُحَسَّدٌ ، وفى الثانى أنمِى . ويجوز أن يكون على ما قد عَلِمْتِ من صِلَةِ مُحَسَّدٍ ، كما تقول حَسَدْتُه على كذا . وقال بعضُ الناس : الشنآن : بُغْضٌ يختلط به عداوة وسوء خُلُق ، فلهذا جاز الجمعُ بينه وبين البَغْضاء . وقال غيره : بل هُمَا بمعنى واحد ، واللفظان إذا اختلفا على اتفاقِ معناهما جاز الجمعُ بينهما تأكيداً . واحتجّ بقوله :

* وهِنْدٌ أتى من دُونِها النَّأْىُ والبُعْدُ[٢] *

قال : ولا خلاف بين أهل اللغة أنه لا فَصْل بينهما .

٢ ـ ما تَعتَرِينى من خُطوبِ مُلِمَّةٍ إلاّ تُشَرِّفُنى وتُعْظِمُ شَانِى

أضاف الخطوب إلى مُلِمَّةٍ لأنه أراد بها أوائلَ أمرٍ عظيمٍ ، وجوانب شَرٍّ

(١) هذه العبارة ساقطة من الأصل ، وإثباتها من م . وعند التبريزى : وقال الأحوص ابن محمد بن عاصم بن ثابت بن أبى الأقلح الأنصارى » . والأحوص : لقب له ، ومعناه الضيق العين ، واسمه عبد الله . وهو شاعر إسلامى أموى ، من شعراء المدينة ، وقد نفاه عمر بن عبد العزيز من المدينة لتهم وجهت إليه . الشعر والشعراء ٤٩٩ وابن سلام ١٣٧ ـ ١٤٠ والأغانى (٤ : ٤٠ ـ ٥٨) والخزانة (١ : ٢٣١ ـ ٢٣٤) .

(٢) للحطيئة فى ديوانه ١٩ . وصدره :

* ألا حبذا هند وأرض بها هند *

فظيع . وأصل الخَطْب الطَّلَب ، يقال خَطَبْتُ كذا فأخْطَبَنى ، كما تقول طَلَبْتُه فأطْلَبَنى ، فكأنه أراد أوائل مُلِمةٍ وأسباباً لها تَطْلُبُه . ويقال : هذا خَطْبُ أمرٍ عظيم ، وهذا خطبُ أمرٍ يسير . فيقول : ما يَطْرُقُ ساحتى أسبابُ نازلةٍ شديدةٍ إلاّ عَظَّمَتْ شأنى ، ورفعَتْ قَدْرِى ، لأنه يُعْرَفُ بلائى فيها ، وحُسْن مَخْلَصى منها ، فازددْتُ فى عيون الناس وقلوبِهم .

٣ — فإذا تَزُولُ تَزُولُ عن مُتَخَمِّطٍ تُخْشَى بَوَادِرُهُ لَدَى الأقْرانِ[1]

المتخمِّطُ : المُتَغَضِّبُ لَهُ سَوْرَةٌ والتهابٌ ، واستعير فى آذِىّ البحر وأمواجِهِ إذا التجَّتْ . قال :

* خَمِطِ التَّيَّارِ يَرْمِى بالقَلَعْ[2] *

يقول : إذا انكشفت تلك الخُطُوبُ والملِمَّات انكشفت عن رَجُلٍ متكبِّرٍ يُخَاف فلتاتُهُ وَبَدَرَاتُه عند نُظَرَائهِ فى البأس والشِّدَّة . والمعنى : إنَّ الدَّواهىَ إذا نَزَلت بساحتى لا تَلين لها عريكتى ، ولا تُحَصِّل عَلَىَّ تَذَلُّلاً لم يكن من قَبْلُ لِى . وقولُه : « تُخْشَى بوادره » فى موضع الصفة للمتخمِّطِ . ولم يَرْضَ حتَّى يَجعل البوادِر مَخْشِيَّةً عند أشباهه ، فكملت الصِّفة ، وتمكَّنت القافية .

٤ — إنِّى إذَا خَفِىَ الرِّجَالُ وَجَدْتَنِى كالشَّمْسِ لا تَخْفَى بكلِّ مَكَانِ

إنِّى إذا خَفِى مواقِعُهُم من قلوب الرؤساء ، ومواضعُهم من صدور المجالس فأنا بخلافهم . يصف اشتهارَه فى الأماكن وجلالَته فى النفوس ، فيقول : إذا غَشِىَ الرِّجَالَ خُمُولٌ ألْفَيْتَنِى فى شُهرتى ونباهتى كالشَّمس التى يَتَّصل شُعاعها بكلِّ مكان ، ويُعْرَف شأنُها فى كلِّ نفسٍ وكلِّ زمانٍ .

(١) ابن جنى فى التنبيه : « على الأقران » .
(٢) لسويد بن أبى كاهل اليشكرى فى المفضليات (١ : ٢٠٠) . وصدره :
* ذو عباب زبد آذيه *

٥٥

قال الفَضْلُ بن العَبَّاسِ بن عُتْبَةَ بن أبى لَهَب (١) :

١ — مَهْلاً بنى عَمِّنا مَهْلاً مَوَالِينا لا تَنْبُشُوا بيننا ما كان مَدْفُونَا

المَهْلُ والمَهَل والمُهْلَةُ تتقارب فى أداء معنى الرِّفق والسكون . ويقال : لا مَهْلَ لكَ ، ومالكَ من مَهْلٍ . قال :

يقولون مَهْلاً يا جَمِيـــلُ وإننى لأُقْسِمُ مَا بى عَنْ بُثَيْنَةَ من مَهْلِ (٢)

يقول : رِفْقًا يا بنى عمِّنا ، رفقا موالينا . وهذا التّـكرار يريد به التأكيد . ويجوز أن يكون هذا الـكلام تهكُّما ، ويجوز أن يكون رآهم ابتدءوا فى أمْرٍ لم يأمَنْ مَعَهُ من تفاقُم الشّأن ، واستفحال الخطب ، ما لا يَقْدِرُ على تلافيه ، فاسترفَقَهم لذلك . وقولُه : « لا تَنْبُشُوا بيننا » أى لا تُثِيرُوا ما كان مستورًا من الشّر . وذِكر الدَّفْن والنَّبش استعارةٌ فى الإظهار والـكتمان .

٢ — لا تَطْمَعُوا أن تُهِينُونَا وَنُكرِمَكُمْ وأن نَكُفَّ الأَذَى عنكم وتُؤذُونَا

يقال : طَمِع فلانٌ فى كذا طَمَعًا وَطَمَاعِيَةً وَمَطْمَعًا . وأوْصَل الفِعْلَ بنفسه من دون فى ، لأنَّ أن الخفيفة والشديدة إذا اتَّصل بها حروف الجرّ حَسُنَ حذفُها لطولِ الـكلام بها . تقول : أنا راغبٌ فى أن أَلْقَاكَ ، وطَامِعٌ فى أن يُحْسِنَ زَيْدٌ إليْكَ ، وحَرِيصٌ على أن أصِلَكَ . ولو قُلْتَ : أنا راغبٌ أن ألقاكَ ،

---

(١) هو المسمى بالأخضر اللهبى ؛ لقوله :

وأنا الأخضر من يعرفنى أخضر الجلدة من بيت العرب

وهو شاعر خبيث متمكن . معاصر للأحوص والفرزدق ، وكان يميل إلى الوليد بن عبد الملك منقطعاً إليه ، فلما مات الوليد جفاه سليمان وحرمه . الأغانى (١٥ : ٢ — ٩) والمؤتلف ٣٥ والمرزبانى ٣٠٩ واللآلى ٧٠٠ — ٧٠١ .

(٢) الشعر ينطق بنسبة قائله ، وهو جميل .

وطامِعٌ في أن يُحسن زيدٌ إليك ، وحريصٌ على أن أَصِلَكَ ، ولو قلت : أنا راغب أن ألقاك ، وطامع أن يحسن زيد إليك ، وحريص أن أصلك لجاز . ولو جَعَلْتَ مكان أن المصدر فقلتَ : أنا راغِبٌ في لقائك ، وطامِعٌ في إحسانِ زَيْدٍ إليك ، وحَرِيصٌ على صِلَتِكَ ، لم يجُزْ حذف حرف الجرّ . لا تقول : أنا راغب لقاءك ، وطامع إحسانَهُ إليك ، وحريصٌ صلتَك ؛ لأن ما كان يطول الكلام به لم يَحصُل . يقول : لا تُقَدِّروا أنكم إذا أهنتمونا قابلناكم ، بالإكرام ، وأنكم إذا آذيتمونا كفَفْنا عن أذاكم ، لأنَّ عزّتنا تَمْنَعُ من ذلك .

٣ــ مَهْلاً بَني عَمِّنا عَنْ نَحْتِ أَثْلَتِنا سِيرُوا رُوَيْدًا كما كُنْتُم تَسيرونا

هذا الكلام فيه تهكُّم فيقول رِفْقًا يا بنى عَمِّنا عن ثَلْبِنا ، والوقوع فينا ، وسيروا على هِينَةٍ[1] ووقارٍ ، وسكينةٍ وانخفاض ، على عادتكم المتقدِّمة ، وسنّتِكم المعهودة ، ودَعُوا ما استأنفتموه من الأَخلاق المنكَرة ، والسِّيَر الذميمة . والأَثْلَة : شجرةٌ تُجْعَلُ مَثلاً للعِرض ، فيقال : فُلانٌ يَنْحَتُ أَثْلةَ فلان ، إذا ذَمَّهُ وتنقّصه . وقوله « سيروا رُوَيْدًا » أراد سِيرُوا سَيْراً تَرُودُون فيه ، أى تَرْفُقُونَ فيه وتَسْكُنُون . « كما كنتم تَسِيرُونا » أى ارجِعوا إلى مثل سيرتكم الأولى ، وإلى طريقتكم المُثْلَى ، واتركوا ما ابتدعتموه ، فإنّا لا نحتمله ولا نُصَابِرُكم عليه . وروى بعضهم بَدَلاً من المِصْرَاع الثانى :

* مَهْلاً بنى عَمِّنا مَهْلاً موالينا *

ويُحمل التكرار فيه على أنه تَوَعُّد وتأكيد .

٤ ــ اللهُ يعْلَم أَنَّا لا نُحِبُّكمُ ولا نَلُومُكُمُ أَلاَّ تُحِبُّونا

استَشْهَدَ بربِّه فى انتفاء الحبِّ عن قلوبهم ، وذكر أنّهم لا يلومونهم إذا

(١) م : « هيبة » .

لم يحبّوهم. كأن المعنى أنّ القلوبَ مَجْبُولَةٌ على حُبِّ المُحْسِنِ وبُغْض المُسىء، فإذا ارتفَعَ التعامُل بالإحسان مما بينهم، وحَدَثَ التجاذُب بالإساءة فيهم، فالتَّحابُّ لا محالة ساقطٌ، والتباغُض حاصِل.

٥ — كلٌّ لَهُ نِيَّةٌ فى بُغْضِ صَاحِبِهِ بِنِعْمَةِ اللهِ نَقْلِيكُمْ وتَقْلُونَا

يقول: كلٌّ واحدٍ منا ومنكم من قبلُ وإلى الآنَ له نيّةٌ صادقة لصاحبه فى العداوة والبغضاء، وعقيدةٌ خالصة فى القطيعة والجفاء، فبحمد اللهِ ومَنِّهِ وجزيل مِنَحِه قد استمرّ أمرُنا على أنّا نبغضكم وتبغضوننا. وقوله «بنعمة الله» هو كما جاء فى القرآن: ﴿ ما أنْتَ بنعمةِ رَبِّكَ بمَجْنُونٍ ﴾. وقوله «نقليكم وتقلونا» إشارةٌ إلى الحال. وحَذَفَ المفعول من الثانى لأنَّ فى الكلام ما يدُلّ عليه. ويجوز أن يكون أراد وتقلونَنَا فَحَذَفَ الثَّانيةَ عن الإعراب، وهى لغة حجازية. ومثله:

* قَدْ رُفِعَ الفَخُّ فَماذا تَحْذَرِى[1] *

يريد تحذرين، وعلى هذا قولُ الآخر:

* إلَى من بالحَنِينِ تُشَوِّقِينِى *

وهذا يؤيِّد مذهب سيبويه فى تجويزه للشاعر حذف حركة الإعراب عند الضرورة.

(١) نسب فى حياة الحيوان للدمير إلى طرفة بن العبد. وقبله:

يالك من قبرة بمعمـــر خلا لك الجو فبيضى واصفرى

ونقرى ما شئت أن تنقرى

٥٦

وقال الطِّرِمّاحُ بن حَكِيم الطائىّ[(١)] :

١ — لَقَدْ زَادَنى حُبًّا لِنَفْسِى أَنَّنِى بَغِيضٌ إلى كلِّ امرئٍ غيرِ طَائِلِ

قوله «أننى بغيض» فى موضع الفاعل، والمعنى: زادنى تَباغُضِى إلى كل رجلٍ لا فَضْلَ فيه ولا خَيْرَ عنده ، حُبًّا لنفسى ، لأنَّ التمايز بينى وبينه والتباينَ ، هو الذى أدّاه إلى بُغضى ، ولو كان بيننا تشاكلٌ وتقارب لَمَا نبَا عنّى ولا أبغضَنى . وهذا الكلام تعريضٌ بمنابذٍ له . وقوله « غير طائل » هو من طَال عليهم يطول طَوْلاً . والطَّوْل : الفَضْل . وقال الخليل : يقال للشَّىء الدُّونِ الخسيس : هذا غير طائل ، والمذكَّر والمؤنَّث فيه سواء . ويقال : زِدتُ فضلاً كما يقال ازددتُ فضلا وزادنيه كذا .

٢ — وأنّى شَقِىٌّ باللِّئامِ ولا تَرَى شَقِيًّا بهم إلاّ كريمَ الشمائِلِ

قولُه « وأنى شقىٌّ » أصله أنّنى، لكنّه حذَف النون الأولى من أنّ تخفيفاً لأنّه اجتمع ثلاث نونات . وهو محمول فى الإعراب على أننى فى البيت الأول ومعطوف عليه ، فيقول : وزادنى حُبًّا لنفسى أيضاً شِقْوَتى باللِّئام حتى تَنَقَّصونى واغتابونى ، ثم قطع الإخبار وكأنّه أقبل على مُخاطَبٍ ملتفتاً إليه فقال : ولا تَرى أحداً يشقَى بهم إلاّ وهو كريم الطبائع ، مجانِب لهم بعِرضه وأصلِه ، وخُلُقِه وفعله .

---

(١) هو الطرماح بن حكيم بن نفر بن قيس بن جحدر ، شاعر خطيب ، وكان يعد فى المعلمين ، وهو من فحول الشعراء الإسلاميين وفصحائهم ، ومنشؤه بالشام ، وانتقل إلى الكوفة بعد ذلك ، وكان صديقا للكميت على ما كان بينهما من تباعد فى النسب والبلاد ، وكان يمدح خالد ابن عبد الله القسرى . الأغانى (١٠ : ١٤٨ — ١٥٣) والمؤتلف ١٤٨ ، والعينى (٢ : ٢٧٦ — ٢٧٨) والشعر والشعراء ٥٦٦ .

ويقال شَقِيتُ شِقْوَةً [وشَقَاوةً][1] وشَقَاء . والشمائل : الطَّبائع ، واحدها شِمَالٌ . قال :

* أَلُومُ وما لَوْمِى أخى من شِمَالِيَا *

ثم يقال : هو حسَن الشَّمائل ، والمراد به الهَيْئة والشَّكل .

٣ — إذَا مارآنى قَطَّعَ الطَّرْفَ بينه وبينى فِعْلَ العارف المتجاهِلِ

رجع إلى اقتصاص[2] الحال بينه وبين من عَرَّض به فيقول : إذا أبصرنى المُبَاغِضُ لى ارتدَّ طَرْفُه عنِّى ، وقطَّع نَظَرَه إلىَّ ، فِعْلَ مَن يَعْرِف الشَّىء ويتكلَّف جهلَهُ . وقوله « قَطَعَ الطرْفَ بينه » ، الطَّرْفُ : مصدر طَرَفْتُه ، إذا أبصرتَه . وعلى هذا قوله :

* تَحْسَبُ الطَّرْفَ عليها نَجْدَةً[3] *

وقد يراد بالطَّرف العين أيضاً فيكون اسما للجارحة والحدَث جميعا . وانتصب « فعلَ العارف » على المصدر مما دَلّ عليه قَطَّع الطَّرفَ بينه وبينى . والمتجاهِل : متكلِّف الجهل . وعلى هذا : تعامَى ، وتعارَجَ ، وتَخازر . وفى طريقته لفظاً ومعنًى قولُ الآخر :

* تَشَاوَسْ يزيدُ إنَّنى مَن تأمَّلُ *

٤ — مَلأْتُ عَلَيهِ الأرضَ حتَّى كأَنها من الضِّيقِ فى عَينيهِ كِفَّةُ حابِلِ

يقال : ملأْتُ عليه الأرضَ ، إذا ضيَّقتَها عليه . وملأْتُ منه الأرض ، إذا قُمْتَ وقعدتَ بذكره . والحابل: ناصِبُ الحِبَالة . ويقال حَبَلْتُ الصَّيْدَ واحتَبَلْتُهُ ، إذا أخذتَه ؛ وتوسعوا فيه فقالوا : احْتَبَلَهُ الموتُ بحبائله . والكِفَّةُ ، يجوز أن يريدَ

(١) هذه من م .

(٢) فى نسخة الأصل : « اختصاص » ، صوابه فى م .

(٣) فى الأصل : « علينا » صوابه فى م . وهو لطرفة فى ديوانه ٦٤ . وعجزه :

* يا لقومى للشباب المسبكر *

به الحفيرة التى ينصِبُ الحابِلُ فيها الحِبالة . ويجوز أن يُرِيدَ بها قُتْرَتَهُ ، ويجوز أن يريد بها عَين الحِبالةِ ، لأنَّها تُجعل كالطَّوْق . وهذا أقرب لأنّ الخليل فسَّر الكِفَّة على ذلك . وجاز إضافتها إلى الحابل كما يجوز إضافةُ نفْسِ الحِبالةِ إليه ، والمعنى : ضَيَّقَتْ عليه الأرضَ على اتِّساعِها ، لشدَّة بغضِه لى ، أى حتَّى كأنّها برُحْبِها فى عينيه كِفَّةُ حابِلٍ إذا اجتمع فيها مَعِى . وهذا يشير به إلى تضادِّ الطبْعَيْن ، وتبايُن الخُلُقَيْن ، وأنَّه لو أمكنَه لا نتفى وجودُه فى الأرض انتفاء الضدّ للضدّ ، قلةَ موافَقةٍ وكثرة مُخالَفة .

٥٧

وقال بَعضُ بنى فَقْعَسٍ (١) :

١ – وذَوِى ضِبَابٍ مُظْهِرِينَ عَدَاوَةً قَرْحَى القُلوبِ معاوِدِى الإفْنادِ

يقول : رُبَّ قَومٍ ذَوِى أحقادٍ وضغائن ، مجاهِرِين بعداوتى ، مراجِعِين حالاً بعد حالٍ قولَ الفُحْش فىَّ ، مُتَقَرِّحِى الأفئدة لشدّة الحسد والبُغْضِ لى ، فعلْتُ بهم كذا . وجواب رُبَّ فيما بعد . وذَكَر قَرَحَ القَلْبِ مَثَلاً فى العَداوة ، كما يُذكَر مرضُه مثلاً فى النِّفاق . على ذلك قول الله تعالى : ﴿ فى قلوبهم مَرَضٌ فزَادَهم الله مَرَضاً ﴾ . فأما ذِكر الصَّعَر والشَّوَس فهو من هذا الباب ، لكنَّه تصوير حال المباغِض أو المتكبِّر فى نظره ، أو إقباله أو التفاته ، وكذلك ما يشبهُه . وقوله « معاودى الإفناد » الإفناد بكسر الهمزة : مصدر أفنَدَ الرجل ، إذا أتى بالفَنَد . وإذا رُوِى « الأَفناد » بفتح الهمزة فهو جمع الفَنَدِ ، وهو الفُحْشُ والخطأ فى

(١) التبريزى : قال أبو محمد الأعرابى : الصواب أنه لمرداس بن جشيش ، أخى بنى سعد ابن ثعلبة بن دودان بن أسد بن خزيمة .

الرأى . ويقال فى اللوْم : فنّدْتُه ، لأنه يجمع تخطئة الرأى وذِكْرَ القبيح . والضِّباب : جمع الضَّبّ ، وهو الحِقْد . قال :

* يا رُبَّ ذِى ضِغنٍ وضَبٍّ فارِضٍ(١) *

ويقال : فلان خَبٌّ ضَبٌّ ، إذا كان مُنكراً فى المعاداة .

٢ ــ ناسَيْتُهُمْ بَغْضاءَهُمْ وتركْتُهُمْ   وهُمُ إذا ذُكِرَ الصَّدِيقُ أَعَادِ

يقول : رُبَّ قَوْمٍ هكذا أنا نَسِيتُ بُغْضَهم لى حتَّى نَسُوا أيضا — لأنَّ المُناساة تكون من اثنين فصاعِداً — وتركتُهم وهم من جملة الأعداء ، إذا مُيِّزَتْ بالذِّكر الأصدقاء . وقوله « الصديق » أراد به الجنس .

٣ ــ كَيْما أُعِدَّهُمُ لِأَبْعَدَ مِنْهُمُ   وَلَقَدْ يُجَاءُ إلى ذَوِى الأَحْقَادِ

يقول : لم أُكاشِفْهُمْ ، ولا أظهرتُ لهم عِلْمِى بعداوتهم ، بل استمررت فى مداجاتهم ومساترتهم ، وعركت بجَنْبِى ما بَدَرَ من هَفَوَاتهم ، طَلَباً لأنْ أُعِدَّهُمْ لمن هو أَبْعَدُ شأْوًا فى العداوة(٢) ، أو أشدُّ تأَخُّراً فى الالتحام والقَرابة . ثم قال : ولقد يُضطَرُّ الإنسان إلى نُصْرَةِ بنى الأعمام وإن كانوا مُنطَوِين على ضغائن ، فإذا قاتَلَ ببعضِهم بَعْضًا لاءَمَهُ ذلك ووافقه ، وحصلت الدَّبْرة(٣) على من حَصَل ، إذْ كان فيه تفانيهم ، واشتفاء الصُّدُور منهم . وهذا كما قيل لبعض حكماء العَرَب ما تقولُ فى ابن العم ؟ قال : عدوُّك وعدوّ عدوك .

(١) انظر الحيوان (٦ : ٦٦) ومجالس ثعلب ٣٦٤ واللسان (فرض) .

(٢) التبريزى عن أبى محمد الأعرابى أن الصواب : لأبعد قرابة منهم . قال : وهو مثل قول حضرمى بن عامر :

ولقد طويتكم على بللاتكم   وعلمت ما فيكم من الأذراب
كيما أعدكم لأبعد منكم   ولقد يجاء إلى ذوى الأنساب

(٣) الدبرة ، بالفتح : الظفر والنصرة ، كما اللسان (٥ : ٣٥٣) .

٥٨

وَقالَ يَزِيدُ بنُ الحَكَمِ[1] :

١ — دَفَعْنَاكُمُ بالقَوْلِ حَتَّى بَطِرْتُمُ ... وبالرَّاحِ حَتَّى كانَ دَفْعُ الأَصَابِعِ

يقول : دَرَّجناكم فى استبقائكم[2] ورتَّبْنا القول والفِعْل فى استفاءتكم وإصلاحكم ، فوعظناكم أوّلا باللّسان وضرب الأمثال فى الجِدال ، حتى أبطرَكم ذلك وزادكم إغراء ، فارتقينا من القَول إلى الدَّفع بالرّاح ، وتقبيح ما تأتونه بأحسن المَسّ ، فلما لم يُغْنِ شىء من ذلك عَدَلْنا منه إلى الدفع بالأصابع ، وما بينَ هذه المنازل من التفاوُت فى الخشونة واللِّيان معلومٌ عند ذوى الألباب . ومَرّ بى فيما قرأتُه من مجاوبات قُرَيْش ، أن بعضهم قال لآخر منهم مستضعِفًا لما أوردَهُ عليه : هذا دَفْعٌ بالرّاح ! فقال مجيبا : كلاّ إنّ معها الأصابع ! وقوله « حتى كان دَفْعَ الأصابع » انتصب دَفْع على أنه خبر كان ، واسمه مُضْمَر كأنه قال : حتى كان الدفعُ دفعَ الأصابع . ولك أن ترفعه على أن يكون اسمه ، وتضمر الخبر ، كأنه قال : حتى كان دفعُ الأصابع دَفْعَنا ، أو على أن يكون كان بمعنى حَدَث ، فتكتفى بالفاعل ، وهى التى تُسَمَّى كان التامّة .

٢ — فَلَمَّا رَأَيْنَا جَهْلَكُمْ غَيْرَ مُنْتَهٍ ... وماغَابَ مِنْ أَحْلاَمِكُمْ غيرَ رَاجِعِ

يقول : ولمّا وجدناكم لا ترعَوُون لمواعظكم ونُذُركم ، ولا يعاودكم ما عَزَبَ من بصائركم وعقولكم ، ولا يقف الجهلُ بكم على غايةٍ لا متجاوَزَ وراءها ، ولا يُغنِى ما استفرغنا فيه الوُسْع من رَدِّكم وزجرِكم ، رَاجَعْنا أنفسَنا

(١) التبريزى : « يزيد بن الحكم الكلابى » . وهذا غير يزيد بن الحكم الثقفى ، المترجم فى الأغانى (١١ : ٩٦ — ١٠٠) والخزانة (١ : ٥٤ — ٥٦) .

(٢) م : « درجنا فى استصلاحكم » .

مُنْـكِرِين ومتعجِّبين ، وأقبلنا نُباحِثُ عن أُصولِنا وفروعنا مُعتَزِين[١] ، لنقفَ على ما وَطَّأ لـكم مراكِبَ العُقوق ، وحسَّنَ فى آرائكم تخطِّىَ موانعِ الحقوق ، إلى نَكْثِ قُوَى العهود .

٣ – مَسِسْنَا من الآباء شَيْئًا وَكُلُّنَا إلَى حَسَبٍ فى قَوْمِهِ غَيْرِ واضِـعِ

قوله « مَسِسْنا » يجوز أن يكون بمعنى أَصَبْنا واختَبَرْنا ، لأن المَسَّ باليد قد يُقصَدُ به الاختبار ، ويجوز أن يكون بمعنى طلبْنا . وقد قال بعضُ الناس فى قول الله تعالى : ﴿ لا يَمَسُّه إلاّ المُطَهَّرُون ﴾ : إنّ المعنى لا يطلبُه . قال : واللَّمْس كالمسّ فى أنه يوضع فى معنى الطَّلَب . قال : وعلى هذا يُحمَل قولُ الله جلّ ثناؤه : ﴿ وَإنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا[٢] ﴾ . فمِن الأوّل قولُهم : مَسَّهُ الـكِبَرُ ، وأفضى الرّجل إلى امرأته إفضاءً مَسِيسٍ . ومن الثانى مَسَاسُ الحـاجة . فأما قولهم : به مَسٌّ من جُنون ، فيصحُّ أن يكون من الأوّل ومن الثانى جميعاً . وهذا كما يُقالُ : به لَمَمٌ من جُنُونٍ ، وأصلُه من اللَّمِّ وهو الجَمْع أو الإلمـام . وقوله « وكلُّنا إلى حَسَبٍ » أى يَنتَمِى وننتمى[٣] . فـ « إلى » تعلّق بهذا وما أشبَهه من المُضمَرات . وهذا كما يقال : أنا منك وإليك . وقولُه « كلُّنا » أى كلُّ واحدٍ منَّا ، يعنى أهلَ بيتِهم . ألاَ تَرَى أنه قال « إلى حَسَبٍ فى قومه » . ومعنى البيت : لمّـا اشتدَّ لَجَاجُهم وطال تمـادِيهم، وصاروا لا يَنزِلون عن مراكِبِ البَغْى ، ولا يَرْجِعونَ عن الذَّهاب فى طُرُق الفساد ،

(١) م : « معتبرين » .

(٢) وإنا ، وردت بكسر الهمزة فى النسختين . وقد اختلف القراء فى كسر همزة إن وفتحها فى اثنى عشر موضعاً من هذه السورة ، وهى سورة الجن ، فقرأ بعضهم بالكسر فى جميعها ، وبعضهم بالفتح فى جميعها ، وبعضهم بالكسر فى بعضها والفتح فى بعضها الآخر . إتحاف فضلاء البشر .

(٣) م : « أى ننتمى وننتهى » .

نَظَرْنا : أىُّ عِرْقٍ يقتضى مُنْكَرَ الخلاف معنا ، وما الذى يوجِب التدابُرَ من الأنساب والأسباب بيننا ، فلمَسْنا أطرافَ أبُوّتنا ، واستشفَفْنا جوانبها ، ووجدنا كلاًّ منّا ينتمى إلى حَسَبٍ يرفعُهُ ولا يضَعُه . ويقال : وضَعْتُه ، إذا حَطَطْتَ منه . وَوضُع الرجُلُ ، وهو وضيعٌ بيّن الضِّعة والضَّعَةِ . والتوضيعُ : التأنُّث والانكسار من هذا . ويقال : دابّةٌ حَسَنةُ الموضوع ، وضِدُّه المرفوع . وبَعيرٌ عارِفُ المُوَضَّعِ ، أى ذَلولٌ عند الرُّكوب .

٤ — فَلَما بَلَغْنَا الأُمّهَاتِ وَجَدْتُمُ بَنِي عمِّكُمْ كانوا كِرَامَ المَضَاجِعِ

جَعَل المضاجِعَ كنايةً عن الأزواج . وهذا كما يُكْنَى عنهنّ بالمفارش . قال :

سُجَراء نَفْسى غير جمعِ أشَابَةٍ حُشُدٍ ولا هُلُكِ المفارِشِ عُزَّلِ

يعنى أنّ أمهاتِهم عفائف . فيقول : لما تقصَّينا بالبحث والكشف أنسابَ آبائنا ، وعلائق[1] وُصَلِها فلم نجد فيها مَغمَزًا ، ولا إلى ما ذَمَمْنا من أخلاقِكم منها داعيًا ، عَدَلْنا إلى النظر فى أنساب أمهاتنا ، والتوصُّل إلى مكنون وشائجها ، ومجهول مواصلها ، فألفيتم أبناء عمِّكم كانوا كرامَ الفُرُش . وهذا من أحسن المعاريض ، لأن المراد : كانت أمهاتُنا أشرفَ من أمهاتكم ، فعلمنا أن ماخالفتمونا فيه ، وصرتم على حَرْفِ مباينةٍ لنا من أجْلِه ، شىءٌ يرجع إليهنّ . وإنما قال « وجدتم » ليكون كالتقرير لهم ، ويصيرَ ما ادُّعىَ من الفَضْل عليهم باتّفاقٍ منهم . وذكر بعضُهم أنه كان يجب أن يقول : وجدتمونا ، فوضع بنى عمكم مكان « نا » ، وهو أخصُّ من بنى عمكم ، بدلالة أن ما يكون للنفس أخصُّ مما يكون للغائب ، وإذا كان كذلك فقد وضع الأدْوَنَ موضعَ الأخص .

(١) م : « وعلق » .

وليس الأمر على ما قال، لأن الرَّجُلَ إنما يريد بني حكم الآباء ، وقد قدَّمَ ذكرَهم في قوله « مسِنسامن الآباء » . ألا ترى أنه قال : كانوا كرامَ المضاجع . وإذا كان الأمرُ على هذا ، كان الواجب عليه أن يقول : وجدتم آباءنا كانوا ، لا وجدتمونا .

٥٩

وقال جَابِرُ بن رَالاَن[١] :

١ — لَعَمْرُكَ مَا أَخْزَى إذا ما نَسَبْتَنِي ... إذَا لم تَقُلْ بُطلاً عَلَيَّ ومَيْنَا

لَعَمْرُكَ مبتدأ ، وخَبَره محذوف، فكأنه قال لعَمْرُكَ ما أقسِمُ به ، ولا يُستعمل في اليمين إلا بفتح العين ، وإن كان ضَمُّها لغةً فيه . و « أَخْزَى » يجوز أن يكون من الخِزْى : الهَوَانِ ، ويجوز أن يكون من الخَزَاية : الاستحياء . والبُطْل يُراد به الباطِلُ . والمَيْنُ : الكَذِبُ ، وقَدْ مَانَ ، وهو مَائِنٌ ومَيُونٌ . والمعنى : وبقائك ما أستحيي أو ما أهُونُ ولا أَذِلُّ متى ما ذَكَرتَ أسلافي وآبائي ولم تقلْ باطلا ، ولم تَدَّعِ عليّ زُوراً . وقوله « إذا ما نسبْتَنِي » ظَرْفٌ لقوله ما أخْزَى . و « إذا لم تَقُل » يجوز أن يكون بدلاً منه . ولولا أنه كرّر « إذا » لكان الكلام ما أخْزَى إذا ما نسبتني ولم تقلْ بُطْلاً ومَيْناً . ولا يجوز أن يكون العاملُ في إذا « ما نسبْتَني » لأن ذا قد أُضيف إليه وبُيِّن به ، والمضاف إليه لا يُعمل في المضاف . ويجوز أن يكون إذا الأولى بما اتَّصل به وماعمِلَ فيه الجملةُ في جواب إذا الثانية ، كأنّه قال : إذا لم تقُلْ بُطْلاً فلعَمْرُكَ ما أخْزَى إذا ما نَسَبْتَني . وانتصب « بُطْلاً » على أنه

---

(١) التبريزى : « جابر بن رالان السِنْبِسى » . ثم قال : « من همز رألان فهو فعلان من لفظ الرأل ، ومن لم يهمزه احتمل أمرين : أحدهما أن يكون تخفيف رألان ، كقولك في تخفيف رأس راس ، والآخر أن يكون فعلان من رولت الخبز في السمن ونحوه ، إذا أشبعته منه » .

مفعول لم تقل ، لأن القول يُحكى بَعده الجمل فيعمل فى مواضعها لا فى لفظها ، ويقع المُفردُ بعده — إذا كان معنى الجملة — منصوبا به .

٢ ــ ولكنّما يخزى امرُؤٌ يَكْلِمُ استَهُ قَنا قَوْمِهِ إذا الرِّماحُ هَوَيْنا[1]

هذا تعريض بالمخاطَب ، يقول : أنا لا أُخْزَى إذا ذُكِرَ مَسْعَاةُ آبائى على حَدِّهَا وحَقِّهَا ، إنّما يَخْزَى لذلك رَجلٌ هذا صفته ونَعْتُه ، وهو أنّه يَجرح استَه ، لكونه موليًا ومنهزماً ، رماحُ قومه إذا شُرِعَتْ للطَّعْن . وإنما قال « قَنَا قَوْمِهِ » لأنه أشار فى تعريضه إلى حالةٍ اتّفقت للمُخاطَب مع أبناء عمّه . وكلُّ جرحٍ صَغُر أو كَبُرَ فهو كلْم .

٣ ــ فإن تُبْغضُونا بِغْضَةً فى صدورِكم فإنَّا جَدَعْنَا مِنْكُمُ وَشَرَيْنَا

قوله « فى صدوركم » بما تَعلّق به فى موضِع الصفة للبِغْضَةِ . والمعنى : إن انطَوَتْ صدورُكم لنا على بِغْضَةٍ راسخةٍ فيها ، متمكّنةٍ منها فغيرُ مستنكَرٍ عندنا ولا مُستَطرَف من أحوالنا ، لأنّ ما ارتكبْناه فيكم من جَدْعِ الأنوف وبيع النفُوس بإذلالنا إيّاكم ، وبما أخذناه فى فدائكم ، يوجب البغضاء ، ويقتَضِى الشّنآن .

٤ ــ ونَحْنُ غَلَبْنَا بالجبال وعِزِّها ونَحْنُ وَرِثْنَا غَيِّثًا وبُدَيْنَا

يعنى بالجبال أجأً وسَلْمَى وهضابَهما ، ولذلك جمع . وقوله « وعِزّها » أراد وعزّ أربابها وسكّانها . ويجوز أن يريد العزّ الذى يحصل لهم عند التحصُّن بها . وطَيِّئ أبداً تفتخر بذلك ، لأنّهم إذا اعتصموا بها لم تتوصّل الأعداء إليهم فيها . وغَيِّثٌ وبُدَيْنٌ : قبيلتان[2] . يريد : وَرِثْنَا أحسابَهم ومفاخِرَهُم . وغيِّث :

(١) التبريزى : « تكلم استه » .

(٢) التبريزى : « وغيث وبدين : اسما رجلين من طيىء » .

فَيْعِلٌ من الغَوْثِ ، وفى بُطون طيِّئٍ بطنٌ يقال لهم الغَوْثُ ، ومنهم أبو زُبَيْدٍ الطائىّ .

٥ ــ وأَىُّ ثَنَايا المَجْدِ لَمْ نَطَّلِـع لَهَا وأَنتُم غِضَابٌ تَحْرُقُونَ عَلَيْنَا

الاستفهام هنا يجرى مَجرَى النَّفى ، كأنه قال : ما ثَنِيّةٌ من ثنايا المجد إلّا طَلَعْنَا لها . والثنيّ : فعيلة من ثَنَيْتُ ، أى عَطَفْتُ وصَرَفْتُ ، وكما استُعْمِلَتْ فى الجبال استُعْمِلتْ فى الأمورِ والخُطّات[1] . قال :

وثَنِيَّةٍ من أَمْرِ قومٍ وَعْرَةٍ فَرَجَتْ يَدَاى فكان فيها المَطْلَعُ

فلذلك ذكرها هنا مثلا ، والمعنى : إنّ مَطَالِعَ الشّرفِ على توعُّرِها أو تَسَهُّلِها ارتقَيْنَا إليها ، وأنتم تتهدّدوننا فى غضبكم ، والحَرْق : حَرْقُ أحَد النابين بالآخر . وقد حَرَقَ نابه يحرِقُ ويَحْرُقُ ، حَرْقاً وحُرُوقاً[2] ، من الغَيْظِ . وذكر الخليل : حَرِيق النَّاب كصريف الناب . و « فلان يَحْرُقُ عَلَىّ الأُرَّم » ويروى « الأُزَّم » . والأَرْم : الأكل ، والأَزْم : العضّ ، وهما جميعاً بالأسنان ، والمعنى يَحْرُق عَلَىّ أسنانَه . والمتوعِّدُ يفعل ذلك يُظهِر به شدّةَ الغيظ . واكتفى بقوله « يحرُقون » عن ذكر المفعول ، لأنّ المراد مفهوم . ويقال : اطّلَع عليه وله ، إذا أشْرَفَ . والمعنى إنّا رددنا على حَسَدِكم لنا ، وتغيُّظكم فينا ، قوّةً وشرفاً ، وعِزةً وكَرماً ، حتّى لم تُبقِ غايةٌ من المَجْدِ إلاّ ارتقينا إليها وعَلَوْناها .

(١) الخطاطات : جمع خطة ، وهذا ما فى م . وفى الأصل : « والخطاب » .

(٢) حرق ، هذه لازمة ومتعدية ، يقال حرق ناب البعير ، وحرق البعير نابه أيضا .

٦٠

وقال سَبْرَةُ بن عَمْرٍو الفَقْعسِى (١)

وعيّره ضَمْرةُ بن ضمرةَ النَّهشلىُّ كثرةَ إبله .

١ — أتَنْسى دِفَاعِى عَنْكَ إذْ أنْتَ مُسْلَمٌ   وَقَدْ سَالَ من ذُلٍّ عَلَيْكَ قَرَاقِرُ (٢)

لفظُه لفظ الاستفهام ، والمعنى معنى الإنكار . أى لِمَ تَنْسَى مُدافَعتى عنك حين كنتَ مخذولاً لا ناصرَ معك ، وقد امتدَّ سيل الذلِّ نحوك فسأل عليك . فإذْ ظَرْفٌ لدِفاعى . وقُراقِر : اسمُ وادٍ ، ويكون ذكره مثلاً . ومن كلامهم : « سال عليه الذُّلُّ ، كما يسيل السَّيل » . ولا يمتنع أن يكون لحقه ما لحقَه من الذل من ناحية قراقِر ، فلذلك خَصَّهُ . وقولُه « إذ أنتَ مُسْلَمٌ » يقال أسْلَمْتُهُ وسَلَّمْتُهُ ، إذا خَلَّيْتَ بينه وبين مَن يريد النِّكاية فيه . وأسلَمْتُ الصبيَّ فى حِرْفةٍ ، إذا أرْسَلْتَهُ فيها . وقوله « وقد سال » فى موضع الحال ، أى أسلمْتَ وحال ذلك .

٢ — ونِسْوَتُكُمْ فى الرَّوْعِ بادٍ وجُوهُهَا   يُخَلْنَ إماءً والإماءُ حَرَائِرُ

قولُه « ونسوتكم » مع خبَره جملةٌ انعطفت على قوله « وقد سال من ذُلٍّ »

---

(١) التبريزى : « ذكر أبو عبيدة أن سبرة بن عمرو قال هذه الأبيات فى منافرة عباد ابن أنف الكلب ومعبد بن نضلة بن الأشتر الفقعسى . . . . تنافرا إلى ضمرة بن ضمرة بن جابر بن قطعن بن نهشل بن دارم ، وبينهما مائة من الإبل خطر ، فقال عباد لضمرة : لك مائة من الإبل ، وتنفرنى على معبد . ففعل ، فهو أول من ارتشى من حكام الجاهلية » . وقد روى ياقوت الأبيات (فى قراقر) .

(٢) ذكر التبريزى عن أبى محمد الأعرابى أن الصواب : « وقد سال من نصر عليك قراقر » ، قال : يعنى نصر بن قعين بن الحارث بن ثعلبة بن دودان بن أسد بن خزيمة. يقول : دافعتهم عنك حين سال الوادى بهم عليك .

وهذا وصفُ الحالِ التى مُنِىَ بها حين نَصَرَه مخاطِبُه . والمراد : ونساؤكم تَشَبَّهْن بالإماء ، مخافةَ السِّبَاء ، حتى تبرَّجْنَ وبرزْن مكشوفاتٍ ناسياتٍ للحياء وإن كُنّ حرائر . وإنما قال هذا لأنهم كانوا يَقْصِدون بسَبْى من يَسْبُون من النساء إلحاقَ العار ، لا اغتنامَ الفداء والمال ، ولما كان الأمرُ على هذا فالحُرّة كانت فى مثل ذلك الوقتِ تتشبَّه بالأَمَةِ ، لكى يُزْهَدَ فى سَبْيِها . ومعنى و « الإماء حرائر » : واللائى يُحْسَبْن إماءً حرائرُ . ولو قال يُخَلْن إماءً وهنّ حرائر لكان مأخذُ الكلام أقربَ ، لكنَّه عدل إلى « والإماء حرائر » ، ليكون الذِّكر به أفخم ، والاقتصاص[1] أشنع وأعظم . وقال « بادٍ وجوهها » لتقدُّم الفعل ، وأنّ تأنيث الوجوه غير حقيقى ، ولو قال بادِيَةٌ وجوهُها لجاز . وفى هذه الطريقة قول الآخر :

وَخِمارِ غانيةٍ عَقَدْتُ برأسها أُصُلًا وكان مُنَشَّرًا بشمالها

٣ — أَعَيَّرْتَنَا أَلبانَها ولُحُومَهَا وذلكَ عارٌ يابنَ رَيْطَةَ ظَاهِرُ

يريدُ على وجه الإنكار والتقريع : لِمَ عيَّرتَنا ألبانَ الإبل ولحومَها واقتناء الإبلِ مُباحٌ لا محظورٌ فى القديم والحديث ، والانتفاعُ بلُحمانها وألبانها مُسَوَّغٌ غير مردودٍ فى الدِّين والعقل ، وتفريقُها فى المحتاجين إليها إحسانٌ ومعروف يَجلُبان[2] الحَمْدَ والشكر . وذلك عار ظاهرٌ ، أى زائلٌ . قال أبو ذؤيب :

وعَيَّرَها الواشُون أَنّى أُحِبُّها وتلك شَكاةٌ ظاهرٌ عنك عارُها

ومن هذا قولُك : ظَهَرَ فوق السَّطح ، وقولك : جعلتُهُ منِّى بظَهْرٍ ، وقوله تعالى : ﴿ اتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا ﴾ . ويجوز أن يريد بالظاهر أنّ الحال فى أنّ

(١) كذا فى م . وفى الأصل : « والقصاص » .

(٢) كذا ضبط بضم اللام فى النسختين ، وهى إحدى لغتين : ضم اللام وكسرها فى المضارع .

ذلك ليس بعارٍ ظاهرةٌ غيرُ مُلبِسَةٍ ولا خافيةٍ . ويقالُ عيَّرْتُه كذا وهو الأفصحُ ، وعيَّرْتُه بكذا . قال عديٌّ :

أيُّها الشَّامِتُ المعيِّرُ بالدَّهْـ ـرِ(١) ....

والواو من قوله « وذلكَ عارٌ » واو الحال ، أى أتعيِّرُنا والحال ذلك .

٤ — نُحَابِى بها أَكْفَاءنا ونُهِينُهَا ونَشْرَبُ فى أَثْمانِهَا ونُقَامِرُ

بيّن وجوه تصرُّفهم فيما عَيَّرَهم به ، فقال : نجعلها حِباءً لنظرائنا فنتهادى بها ، ونُسهِّلَ تمكن العُفاةِ والزُّوَّار منها ، بابتذالها وإهانتها — وحذَفَ ذِكْرَ مَن أُهِينَتْ له لأن المراد مفهوم — ونبيعها فنصرفُ أثمانَها إلى الخمر والإنفاق ، ونَضرِب بالقِداح عليها فى المَيسِر عند اشتداد الزَّمان ، فنفرِّقُها فى الضُّعفاء والمحتاجين إليها . وفى تَعْدادِ هـذه الوجوهِ إبطالٌ لـكلِّ ما أُوهِمَ أو ادُّعِىَ يَلحَقُ من العار فى اقتنائها وادِّخارها . وروى بعضهم : « نُحَايِى بها أكفاءنا » على أن يكون نُفاعِلُ من الحياةِ ، أى نعايِشُهم بها ونجامل ؛ وليس بشىء ، فلا تُعَرِّجْ عليه .

٦١

وقال آخر من بنى فَقْعَسٍ(٢) :

١ — أَيَبْغِى آلُ شَدَّادٍ عَلَيْنَا وما يُرْغَى لشَدَّادٍ فَصِيلُ

مخرجُ هذا الكلامِ مخرجُ الكلام المتقدّم ، فى أنه إنكار وتقريعٌ ، وفيه إشارة إلى ما يتضمنه قول الآخَر من التَّبخيل ، وهو :

(١) تمامه ، كما فى الأغانى (٢ : ٣٤ ساسى) : « أأنت المبرأ الموفور » .
(٢) التبريزى : « قال أبو هلال : هو لعمرو بن مسعود بن عبد مرارة » .

فَلَا واللهِ ما لَبَنِي بِرَبٍّ ولا لَحْمِي عَلَيَّ ولا سِلاَئِي[١]

أى ما لَهُم يَبْغُون علينا وحالُهم فى أنفسهم ما هو نهايةُ البخل والشُّوم ، والدِّقَّةِ واللوم ، حتى لا يُحْمَلَ فَصِيلٌ لهم على إرْغاء بأن يُفصَلَ بينه وبين أمِّه بنَحْرٍ أو هِبَةٍ ، ضَنًّا به ، وإشفاقاً عليه . أى إنهم لا يَسُوغ لهم البَغْيُ مع هذه الحال . ويجوز أن يكون قوله « وما يُرْغَى لشدّاد فَصِيلٌ » يراد به ما لهم فصيلٌ فيُرْغَى ، كما قال الآخر[٢] :

* ولا تَرَى الضَّبَّ بها يَنْجَحِرْ *[٣]

والمعنى : لا ضَبَّ بها فينجحر . يَرميهم بالفَقر والفاقة ، وضَعف المُنَّة ، وقصور الاستطاعة . ويقال : أَرْغَى فلانٌ فصيلَه ، وإذا حَمَلَه على الرُّغاء ، وأَرْغَى فُلَانٌ فُلاناً وأَثْغَى ، إذا أعطاه إبلاً وغنما . ورَوَى بعضهم : « وما يُرْغِي » بكسر الغين ، أى لا يُعمِل بالفصيل ما يَحْمِل أُمَّه على الرُّغاءِ له . وليس بشيء .

٢ — فإنْ تَغمِزْ مَفاصِلَنا تَجِدْنا غِلاَظًا فى أنامِلِ مَنْ يَصُولُ

هذا تعريضٌ وإيعادٌ ، فيقول : إنْ رُزْتمونا وجدتمونا غِلاظاً على مَن يصولُ علينا ، جُفَاةً عند من يَسُومُنا مكروها . والمعنى: لانُسْتَلان عند الامتحان . وجَعَل الغَمْز غَمْزَ للفاصل كنايةً عن الاختبار . وحُكِي عن بعضهم[٤] : « لا أُغْمَزُ كتَغماز التِّين » ، ولذلك صَلَح أن يقولَ اسْتَغْلَظْتَنَا فى أنامِلِهمْ . وخَصَّ الأنامل لأنَّ الانفتال عن الشيء والإقبال عليه بسلامتها من الآفات يَقْوَى .

(١) أى لا أجل اللبن بمنزلة المعظم المبجل ، أو المالك لى ، بل أبذله وأهينه للضيف .
(٢) هو عمرو بن أحمر ، يصف فلاة . الخزانة (٤ : ٢٧٣) .
(٣) صدره : * لا تفزع الأرنب أهوالها *
(٤) هو الحجاج ، قالها فى خطبة له بمسجد الكوفة . البيان (٢ : ٣٠٩) .

٦٢

وقال جَزْءُ بن كُلَيبٍ الفَقْعَسِيُّ :[1]

١ — تَبَغّى ابن كُوزٍ والسَّفَاهَةُ كاسْمِها لِيَسْتَادَ مِنَّا أَنْ شَتَوْنَا لَيَالِيَا

قوله « والسَّفاهةُ كاسمها » اعتراضٌ دخل بين تَبَغَّى ومفعولِه. والأصل فى السَّفَه : الخِفَّة . ويقال : زِمامٌ سفيه ، لاضطرابه ، كما يقال زمام عَيّار[2] . فيقول : تَطَلَّبَ هذا الرّجُل ما تطلّبه سفهًا ، وفعلُ السفاهةِ قبيحٌ كما أنّ اسمَها قبيح . وإنّما قال هذا لأنّ السفه كما تُنكِر العقولُ والقلوبُ ذاتَهُ وفعلَه ، كذلك تَمُجُّ الآذانُ والصُّدورُ اسمَه . فإن قيل ما اسمُ السّفاهةِ حتى قال : والسّفاهةُ كاسمها ؟ قلتَ : قولُه والسفاهة ، أراد ما يُسمَّى سفاهة ، أى المسمى بهذا الاسم ، كما أنَّ الاسمَ الذى هو السَّفَه قبيح . إلا أنّه لمّا لم يجِدْ إلى العبارة عن الذّات طريقًا إلا باسمه قال : والسفاهة . ويجوز أن يكونَ أراد بتَبَغَّى : أدخَلَ نفسَه فى البَغْيِ ، حين عَدَا طَوْرَه ، وَسامَنَا مواصلتَه ، كما يقال تشجَّع وتَمرَّأ . وقوله « ليستاد مِنَّا أنْ شَتونا لياليا » أتى بالفعل واللام ، لأنَّ تبغَّى مثل أراد . فكما قال الله عز وجلّ : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ ، وقال الشاعر :

* أرادتْ لِتَنْتَاشَ الرِّواقَ فلم تَقُمْ *

والمعنى يريدون إطفاء نور الله ، وأرادت انتياشَ الرِّواق — كذلك قال هذا :

---

(١) التبريزى : « قال أبو محمد الأعرابى : هو جرير بن كليب ، لا جزء . وقد ذكر جريرا فى المؤتلف ٧١ وقال : « جرير بن كليب بن نوفل بن نضلة الشاعر . كذا ذكر ابن حبيب فى كتابه الذى ذكر فيه شعراء القبائل ، ولم يذكر له شعرا ، ولا وجدت له فى قبائل بنى أسد ذكرا . وهو إسلامى » .

(٢) م : « عيال » كشداد . وكلاهما متجه . فالعيار : الكثير المجىء والذهاب . والعيال : المتبختر الميال .

تبغى ليَسْتَاد ، والمعنى تَبَغِّى الاستيادَ منا ومُراد الشاعر تطلُّبَ النِّكاحَ فى سادتنا من أجل أنَّا دخَلْنا فى الشِّتاء . والمعنى من أجل أنَّا افتقَرْنا واشتدَّ الزمان علينا فأثَّرَ فينا . قوله « أن شَتَوْنا » موضعُه نَصْبٌ ، أصلُه لأَنْ شَتَونا ، فلمَّا حُذِف الحرف الجارُّ وَصَل الفعلُ فَعمِل . ومعنى شَتَونا : قَحِطْنَا [1] وأقَمْنَا فى القَحْطِ ، كما تقول شَتَونا بمكانِ كذا . ويقال : اشْتَيْنَا ، إذا أُريد دَخلْنا فى الشتاء .

٢ — فما أَكبَرُ الأشياءِ عندى حَزَازَةً بِأَنْ أُبْتَ مَزْرِيًّا عليك وزَارِيَا

انتصب « حزازةً » على التمييز ، فيقول : ليس انصرافُك عنّا عَائبًا علينا حين لم نُسْعِفْك بمُرادِك ، ولم نُجِبْك لمَّا خَطَبتَ من خَطبتَ إلى ملتَمَسِك ، ومَعِيبًا عندنا حين عَدَوْتَ طَورك فتجاوزْتَ مستحَقَّك وقَدْرَك ، بشىءٍ يكْبُرُ عندى تقطيعه [2] فى الصَّدر ، وتأثيره فى النَّفس . أى إرغامُك وإسخاطك يَهون علينا . والباء الذى فى قوله « بأَنْ أُبْتَ » هو الباء الذى فى قولك ما زيدٌ بمنطلقٍ . ويقال : زَرِيْتُ عليه فِعْلَهُ ، إذا عِبْتَ عليه فِعلَه ؛ وأَزْرَيْتُ به ، إذا وضَعْتَ منه وقَصَّرْتَ به . وقوله « وزاريا » أى وزاريا علينا ، فحذف لأنَّ المراد مفهوم .

٣ — وإنّا عَلَى عَضِّ الزَّمانِ الذى تَرَى نُعَالِجُ من كُرْهِ المَخَازِى الدَّوَاهِيَا

يقول : إنَّا نقاسى هَرَبًا من المكروه [3] الشدائد ، ونصبر تفاديًا منها على العظائم [4] . هذا — ما ترَى من نكاية الحَدَثان ، وسوءِ تأثير الزَّمان ، وقَصدِه إيّانا بالمكاره والبلاء ، والمَفاقر والضَّرَّاء . وهذا تنبيهٌ على أنَّ محافظتَهم على

(١) ضبط فى الأصل بضم القاف ، وفى م بفتحها ، وكلاهما صحيح وإن كانت لغة الفتح أعلى وأكثر . ففى القاموس : « وقحط الناس كسمع ، وقحطوا وأقحطوا بضمهما قليلتان » .
(٢) م : « تفظيعه » .
(٣) م : « من مكروه المخازى » .
(٤) فى الأصل : « بجنى العظائم » ؛ وأثبتنا ما فى م .

الشّرف يمنعُهم من مناكحة مَن ليس بكُفْءٍ لهم ، وأنّ مُسَاعَفَتَهم إيّاه بما طلبَه مُخزِيةٌ عندهم . وقوله « على عضّ الزمان » موضعه موضع الحال . والمعنى : إنّا منكوبين وفقراء نفعل ذلك حَذَرًا من العار .

٣ – فَلاَ تَطْلُبَنْهَا يابْنَ كُوزٍ فإنّه غَذَا النّاسُ مُذ قَامَ النبىُّ الجَوارِيَا

يقول : لا تُطلبِ التزوُّجَ بالمرأة التى خطبْتَها يابن كوز ، فلك فى سائر النِّساء مندوحةٌ ، سِيَّمَا ومنذ بَعَثَ الله عزَّ وجل النبى عليه السلام ، وقام بأداء الرسالة عنه ، رَبَّى الناسُ البناتِ وتركوا وَأْدَهُنّ فكثُرن[1] . ويقال : غَذَاهُ يغذوه غَذْوًا ، وتغذّى بكذا . والغِذاء : الطَّعام والشَّراب .

٥ – وإنَّ التى حُدِّثْتَهَا فى أُنوفِنا وأَعْنَاقِنا من الإباء كما هِيَا

يقول : وإنّ النخوة التى أُبلِغْتَهَا ، والحميّة التى حُدِّثْتَها ، باقيةٌ فى أنوفنا حتى لا نشَمَّ بها مَرْغَمَةً ، وفى أعناقنا ورءوسنا حتى لا نَلويَهَا إلى مُخْزِيَةٍ ومَنْقَصَةٍ هى حاصلةٌ فيها كما أُبلِغْتَ ؛ فالامتناعُ مِن مِثل ما سُمْتَ معروفٌ منَّا ، ومأخوذ به فى عاداتنا ، فلا نستَطرِفُه . وقوله « فى أنوفنا » فى موضع المفعول الثالث لحدِّثْتَهَا . وقوله « كما هيا » فى موضع خبر إنّ ، وما زائدة . أراد كَهِيَ ، أى هى باقيةٌ بحالها ، مستمرّةٌ على طريقها . ويجوز أن يكون هى مبتدأ ، وكما فى

---

(١) التبريزى : « وأصل الوأد الثقل ، وذلك أنها كانت تثقل بالتراب . وأول من منع عن الوأد صعصعة بن ناجية جد الفرزدق ، وذلك أنه أضل ناقتين له فخرج فى بغائهما ، فلما أجنه الليل رفعت له نار فأمها ، فإذا شيخ وامرأة ماخض ، فسلم فرد الشيخ فسأله عن الناقتين ، فقال : وجدتهما وقد أحيانا الله بهما . ثم قال الشيخ لنساء كن عنده : إن جاءنا غلام فما أدرى ما أصنع به ، وإن جاءتنا جارية فاقتلنها ، ولا أسمعن صوتها . فجاءت جارية ، فاشتراها صعصعة بناقتيه وجمله الذى ركبه فى طلبهما ، وجعل ذلك سنة ، فكل من أراد أن يئد ابنة له جاءه فاشتراها منه بلقحتين وجمل ، فجاء الإسلام وقد فدى ثلثمائة موءودة ، فقال الفرزدق :

وجدى الذى منع الوائدات وأحيا الوئيــدة لم توأد

موضع الخبر . ويقولون : كما أنا كما أنت ، أى تشابهنا ، ويكون ما نكرةً غير موصوفة . ويجوز أن يكون حذف صفته كأنه قال : كما حُدِّثته أى كشىء حُدِّثته . وإنما خصّ « فى أنوفنا وأعناقنا » بالذِّكر لأنه يقال فى الكِبْر والصُّعوبة : فى أنف فلانٍ خُنزُوانةٌ ، وزمَّ فُلانٌ بأنفه ، وأنفُه أنفُ الليث ، وهو أَحْمَى أنْفاً من أن يَقبَل كذا . ويقولون : فى خدِّه صَعَرٌ ، وفى عنقِه صَوَرٌ وصَيَد ، وفى ناظره شَوَسٌ وَصَادٌ . قال يصف سُيوفاً .

* يُدَاوَى بها الصادُ الذى فى النَّوَاظِرِ *

٦٣

وقال زِيادَةُ الحارِثِى[1] :

١ ــ لَمْ أَرَ قَوْمًا مِثْلَنَا خَيْرَ قَوْمِهِمْ أَقَلَّ بِهِ مِنَّا على قَوْمِنَا[2] فَخْرَا

ينتصب قولُه « خير قومِهِمْ » على أنه بدلٌ من قوله « قوْمًا » . ويجوز أن يكون صفة . و « أقلّ » ينتصب على أنه مفعول ثان ، و « فخْرًا » ينتصب على التمييز . وقوله « به » الضمير منه يرجع إلى ما ذكره ودلَّ عليه من قوله « خير قومِهِم » يريد أقل بكونهم خيِّرين . ومثله قول القائل :

* إذا زُجِرَ السَّفيهُ جَرَى إليه[3] *

أى إلى السَّفه . وتقدير البيت : لم أرَ خيرَ قومٍ مثلَنا أقلَّ بذاكَ فخرًا منَّا

---

(١) شاعر إسلامى ، كان بينه وبين هدبة بن الخشرم مهاجاة ومناقضة ، وقد قتله هدبة فى قصة رواها أبو الفرج . وهو زيادة بن زيد بن مالك بن عامر بن قرة بن خنيس بن عمرو ابن عبد الله بن ثعلبة بن ذبيان بن الحارث بن سعد بن هذيم . الأغانى (٢١ : ١٦٩) .

(٢) التبريزى : « على قومهم » .

(٣) عجزه كما فى الخزانة (٣ : ٣٨٣) وأمالى ابن الشجرى (١ : ٦٨ ، ٣٠٥/٢ : ١٣٢ ، ٢٠٩) : * وخالف والسفيه إلى خلاف *

على قومنا . والمعنى إنّا لا نبغى على قومنا ، ولا نتكبَّر عليهم ، بل نَعُدّهم أمثالَنا ونظراءنا ، فنباسِطُهم ونوازِنُهم قوْلاً بقوْلٍ ، وفعْلاً بفِعْل .

٢ — وما ازدَهينَا الكِبْرِياءُ عَلَيْهِمُ   إذا كَلَّمُونا أن نُكَلِّمَهُمْ نَزْرا[1]

ينتصب قوله « نَزْرًا » على أنه صفةٌ لمصدر محذوف ، كأنه قال : نكلِّمهم كلاما نَزْرًا . والمعنى لا يستخفُّنا التكبُّر إلى أن نَتَعَلّى عليهم ، ونقلِّل الكلامَ معهم تَرَفُّعًا عن مساواتهم ، بل نباسِطُهم ونكاثرهم فى القوْل والسؤال ، إيناسًا لهم وتسكينا منهم . ويقال : زهاه وازدهاه بمعنًى . والأصل فى ازدهى : ازتهى ، لأنه افتعل من الزَّهو ، لكنه أبدل من التاء دالاً تقريبًا للحرف من الزاى . وقوله « أن نكلِّمهم » أراد لأن نكلِّمهم ، فحذف حرفَ الجر . و « أن » يُفعلُ به ذلك كثيرًا .

٦٤

وقال ابنهُ مِسْوَرٌ :

حين عَرَض عليه سعيد بن العاصِ سبْعَ دِياتٍ بأبيه[2] فأبَى . ويقال : هى لعَمِّه :

١ — أبَعْدَ الذى بالنَّعْفِ نَعْفِ كُوَيْكِبٍ   رَهينَةِ رَمْسٍ ذى تُرابٍ وجَنْدَلِ

---

(١) روى التبريزى بعده بيتا ، وهو :

ونحنُ بنو ماءِ السَّماءِ فلا نرى   لأنفُسِنا من دون مَملكةٍ قَصْرا

وقال فى تفسيره : « القصر هاهنا : الغاية . يقال قصرك أن تفعل كذا . وماء السماء : إمرأة كانت فى حسنها وصفاء بشرتها مثل ماء السماء فسميت به . وماء السماء الملك سمى بذلك لأنه كان للناس بمنزلة المطر فى جوده . يقول : نحن بنو ملك فلا نرى لأنفسنا غاية دون أن نكون ملوكا » .

(٢) انظر خبر مقتله فى الأغانى ، فى الموضع الذى سبقت الإشارة إليه .

ألف الاستفهام دخل هاهنا على معنى الإنكار ، وتناول الفعلَ الذى فى صدر البيت الثانى ، لأنّ ألف الاستفهام يطلُبُ الأفعال . والمعنى : أُذَكَّرُ بالإبقاء بعد المدفون بنَعْفِ هذا الجبل — وهو ما استقبلك منه — المَرْهُونِ فى قبرِ ذى تُراب وحجارة . والنَّعفُ ، اشتُقَّ منه انتَعَفَ له ، أى تعرَّض . والمناعَفَةُ : المعارضَةُ من رجلين فى طريقين يريد كلُّ واحدٍ سبْق الآخر . وقيل النَّعفُ : المكان المرتفع فى اعتراض . وقوله « رهينة » جعله اسماً فلهذا أَلْحَقَ الهاء بها . والرمْس : القبر . ويقال رَهَنْتُه رَهْناً بمعنى رَهَنْتُ عنده ، وأصلُه من اللزوم والدوام ويقال هذا لك رَاهِنٌ . والأصل فى الرَّمْسِ : التغطية ، يقال رَمَسْتُه بالتراب ؛ ومنه الرياح الرَّوامِس .

٢ — أُذَكَّرُ بالبُقْيَا على مَنْ أَصَابَنِى وبُقْيَاىَ أَنِّى جاهِدٌ غَيْرُ مُؤْتَلِ

يقول : أَأُسامُ الإبقاءَ على من وتَرَنى ؟ إبقائى عليه أَنِّى أجتهد فى قتله ، ولا أقصِّر . والإبقاء لا يكون الجَهْدَ ، ولكنّ المعنى : يكون هذا منِّى عِوَضًا من ذاك . ومثله قول الآخر[1] :

* تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ[2] *

والبُقْيَا : اسمٌ على فُعْلَى ، مبنىّ من الإبقاء وفى معناه ، والواو منه واو الحال ، ولو لم يأت به لكان الكلام على الاستئناف والإنقطاع مما قبله . ويقال : لا آلُوفى كذا ولا آتَلِى ، أى لا أقصِّر ، ولا آلُو كذا ، أى لا أستطيعُه .

٣ — فإلاَّ أَنَلْ ثَأْرِى من اليَوْمِ أو غدٍ بنى عمِّنا فالدَّهْرُ ذو متطوَّلِ[3]

(١) هو عمرو بن معديكرب . الخزانة (٤ : ٥٣) .

(٢) صدره : * وخيل قد دلفت لها بخيل *

(٣) ابن جنى : « يحتمل متطول هذا أمرين : أحدهما أن معناه ذو تفضـل وإيصال لى إلى بغيتى ، والآخر ذو متطاول ، أى فيه طول ، فإن تأخر ما أرومه الآن لم أيأس منه فيما بعد ، وهذا أظهر الوجهين ، لأن الشعر بمثله ورد كثيراً . وتكون هذه لغة فى تطاول الدهر ، وتطول يعتقب عليها تفاعل وتفعل ، كقولهم تكأده الأمر وتكاءده ، وتكايس وتكيس » .

يقول مُخْبِرًا عن صبْرِه وحُسنِ رِفْقِه فى طلب الأمور ، وأنّه لا يتسلَّطُ عليه الملاَلُ وإن تراخَى المطلوب ، وتدافَع الوقت فى الحصولِ ، فيقول : إن لم أدْرِكْ ثأْرى قريباً يا بنى عمِّنا ففى الدهر تطاوُلٌ ، والزّمان بتبديل الأبدال وتحويل الأحوال كافِلٌ ، وله ضامِنٌ ، وما يتعسَّر فى وقتٍ يتيسَّرُ فى آخَر . وذِكْر اليومِ والغَدِ إشارةٌ إلى تقريب الوقت فى المستقبل ، كما يقال فى الماضى : كان بالأمس يفعل كذا . ومُتَطَوَّلٌ : مصدرٌ مثل تَطَوُّلٍ .

٤ — فَلاَ يَدْعُنِى قَوْمِى ليومِ كريهةٍ لئن لم أُعَجِّلْ ضَرْبةً أو أُعَجَّلِ

جَزَم « يَدْعنى » بلا على أنّه دعاء ، والمعنى : لادُعيتُ لكشف مكروه ، ولا للدّفْع عن مظلومٍ ، إن لم أعجِّل ضَرْبةً لمن وتَرنى ، أو يعجِّلْها لِى . والمعنى : إنْ لم أقتله أو يقتلْنى . وهذا الكلام وإن كان لفظُه لفظَ الدُّعاء فالمعنى معنى القَسَم . وقوله : « أو أعجَّل » أراد : أو لم أعجَّل لمثلها ، فحَذَف . وفى هذا بيانٌ للتوعُّد بالإقدام ، والتسرُّع إلى القتل أو الاستقتال بعد الإمكان .

٥ — أنَخْتُمْ علينا كَلْكَلَ الحرْبِ مَرّةً فنحْنُ مُنِيخُوها عليكم بكَلْكلِ (١)

(١) روى التبريزى بعده ثلاثة أبيات ، وذكر ابن جنى أولها ، وهى :

يقولُ رجالٌ ما أصيبَ لهم أبٌ ولا من أخٍ أقبِلْ على المال تُعقَلِ
كريمٌ أصابته ذئابٌ كثيرة فلم يدرِ حتّى جِئْنَ من كلِّ مَدخلِ
ذكرتُ أبا أروَى فأسبلتُ عَبرةً من الدّمع ما كادت عن الدمع تنجلى

قال التبريزى : « يقول : يشيرون على بأخذ الدية ولم يصبهم ما أصابنى ، ولعلهم لو أصيبوا بما أصبت به لم تقنعهم الدية » . وقال : « ويروى : حتى جئْن من غير مدخل . أراد بالذئاب الأعداء . وقوله : حتى جئن من غير مدخل ، أى من مداخل كثيرة . ويقع فى بعض النسخ : ديات كثيرة » .

وقال ابن جنى فى تفسير أول الأبيات الزائدة : « عطف الثانى — يعنى كلمة أخ — على ما من عادته أن يزاد فى الأول . ألا ترى إلى جواز قوله : ما أصيب لهم من أب ؟ وهذا مثل قوله : بدا لى أنى لست مدرك ما ماضى ولا سابق شيئاً إذا كان جائيا » .

هذا الكلام تهدُّدٌ ، وضمانٌ فى أنَّه سيكافئهم على ما بدأوا . والمعنى : سنؤثِّر فيكم كما أثَّرتم فينا ، ونُنْزِلُ الحربَ بكم كما أنزلتموها بنا . ويقال : أَنَخْتُ البعير فاستناخ وبَرَكَ ، ولا يقال فناخ . وتقول فى شدة التأثير : بَرَكَ عليهم الدَّهرُ بكلكله ، ووطِئهم بمناسمه ، وأنْحَى عليهم بجِرانِه . وهذا جَعَل الكلكلَ هو المُناخ فى صدر البيت ، وفى العَجُز جَعل الحربَ مُنَاخَةً بكلكلها . وكلُّ ذلك أمثالٌ ، والمعنى مِن جميعِها ظاهر .

٦٥

وقال بعضُ بَنِى جَرْمٍ من طَيِّئٍ :

١ — إِخالُكَ مُوعِدِى بِبَنِى جُفَيْفٍ وَهَالَةَ ، إِننى أَنْهَاكِ هَالاَ

فى قوله « إخالُ » ضرْب من الاستهانة ، يقول : أحسَبُك تُهدِّدنى ببنى جُفَيفٍ وبِهالَة . ثمَّ أقبَلَ على هالَة فقال : إنِّى أزجُرُكِ عن التحكك بنا ، ونُصْرَةِ من ينابِذُنا . ومثل هذا الكلام يُسمَّى التفاتاً . والعرب قد تَجمع فى الخطاب أو الإخبار بين عِدَّةٍ ، ثم تُقبِل أو تلتفت من بينهم إلى واحدٍ لكونِه أكبرَهم ، أو أحسنَهم سَماعًا لما يُلقَى إليه ، أو أخصَّهم بالحال التى تَنطِق بالشكوى بينهم ، فتفرده بكلام . على هذا بيت الهُذَلى[1] :

* أحْيَا أَبَا كُنَّ يالَيلَى الأَماديحُ[2] *

فقال أبا كُنَّ ، ثم قال ياليلى . ويقال : خِلت أَخَالُ ، وإِخال طائيةٌ ، فكثر استعمالُها فى ألْسنةِ غيرِها ، حتّى صار أَخَالُ كالمرفوض . والهَالَةُ : الدّارة

(١) هو أبو ذؤيب الهذلى . ديوان الهذليين (١ : ١١٣) .
(٢) صدره : * لو كان مدحة حى أنشرت أحداً *
ويروى فى عجزه : * أحيا أبوتك الشم الأماديح *

حَوْل القَمر ، فى اللغة ، وإذا أنَّث خطابها فإنّه جعلها قبيلةً ، وإذا ذَكَّرها فعلى إرادة رجُلٍ هوأبو القبيلة ، وإذا جُمِع فعلى المعنى . وفى جميع ذلك قد صرَّف كلامه .

٢ ـ فإلاّ تَنْتَهِى يا هَالَ عَنّى أدَعْكَ لمن يُعادِينِى نَكَالاَ

يقول : إنْ لم تنزجرى عنّى ولم ترتدعى بكلامى ، أجعلْك لأعدائى عِبْرةً رادعة ، وعقوبةً زاجرة . والنَّكَال : اسم لما يُجعل عبرة للغير ، ويقال نَكَلَ يَنْكُلُ ، ونَكِلَ يَنْكَل لغتان ، الأولى تميميَّة والأخرى حجازية .

٣ ـ إذَا أخْصَبْتُم كُنْتُم عدوًّا وإن أَجْدَبْتُمُ كنتمْ عِيالاَ

يصفهم بالأَشَر والبطَر وسوء الحِفاظ ، والتعجُّل إلى الشّرّ ، فيقول : إذا نلتم الخير وطاوعكم الوُجْدُ خرجتُمْ لنا أعداء ، ثم إن أثّر فيكم الدّهْر ، أوْ ضَغَطَكم البؤس والضُّرُّ ، أوَيْتُم إلينا ، ولحقتم بجملتنا ، فاحتجنا إلى أن نُمَوِّنَكم .

٦٦

وقال آخر[(١)] :

١ ـ اللُّؤْمُ أكْبَرُ مِنْ وَبْرٍ ووالِدِهِ واللؤم أكْرَمُ من وَبْرٍ وما وَلَدَا

فضَّل اللؤمَ فى اللَّفظ عليهم وعلى أسلافهم ، والقصدُ به إلى تفضيله على أخلاقهم وأفعالهم وطباعهم ، لأنَّ الشَّرط تشبيه الأحداث بالأحداث ، والذَّواتِ بالذَّوات . وإذا كان كذلك فقد حُذف المضافُ وأقيم المضافُ إليه مَقامَه ،

(١) التبريزى : « قال أبو هلال : لم يذكر أبو تمام اسمه واسمه الحكم بن زهرة . قال الجمحى : زهرة أمه ، وهو الحكم بن المقداد بن الحكم بن الصباح ، أحد بنى مخاشن بن عصيم ، ثم أحد بنى زهرة بن قيس بن عمرو بن ثرملة بن مخاشن بن شمخ بن فزارة ، ويعرف بالحكم الأصم الفزارى . وقال أبو رياش : هو لعويف القوافى » . ونسب فى معجم المرزبانى ٢٧٨ إلى عويف القوافى .

كأنّه قال : اللؤم أكرم من أخلاق وَبْرٍ وأخلاق والدِه ، وقوله « ووالدِه » دخل فيه كلُّ أبٍ لهم ، كما دَخَل فى قوله « وما وَلَدَا » كلُّ وَلَدٍ لهم . واللُّؤم : خصالٌ مُنْكَرة ، إذا اجتمعتْ سُمِّيت لؤما ، كدناءه النّفسِ والآباءِ والبُخلِ مردَّدًا فيهم ، والنَّظَر فى الأمور التافهة المخزية . وَوَبْر فى اللغة : دُوَيْبَةٌ أصغر من السِّنَّور طحلاء اللون تَرجُن فى البُيوت(١) ، وجمعه وِبَارٌ . ويُسَمَّى بها ، ثم جُعِلت للقبيلة(٢) . فإن قيل : لِمَ لَمْ يقل : ومن وَلَدَا ؟ قلتَ : أشار إلى الجنس وما يقع للأجناس .

٢ — قَوْمٌ إذا ما جَنَى جانِيهمُ أَمِنوا ... من لُؤْمِ أَحْسَابِهِمْ أن يُقتَلوا قَوَدَا

يقول : همْ قومٌ إذا جَرَّ واحدٌ منهم جَرِيرةً أَمِن جَمِيعُهم ، لدقَّةِ أصولِهم ، وَلُؤْم أحسابهم ، أن يؤاخَذوا كلُّهم بها ، فكيف الواحد منهم . كأنّ القبيلةَ بأسْرِها لا يُعَدُّون بَواءً لِقتيلٍ فيُقتلوا به ، فالأَمْنُ الذى شَمِلهم عند اتِّفاق الجنايات منهم لهذا . والقَوَدُ : أن يُقتَل القاتلُ بالقتيل ، فيقال : أَقَدْتُه به . وإذا أَتى الرجل صاحبَهُ بمكروهٍ فانتقم منه بمِثْلِها ، قيل : استقادَها منه ، وهذا كما قال الآخَرُ :

* مَن ذا يَعَضُّ الكلْبَ إن عَضَّا *

ونقله أبو تمّام فقال :

أمَّا الهِجاءُ فَدَقَّ عِرْضُكَ دُونَهُ ... والمَدْحُ عنك كما عَلِمْتَ جَليل
فاذهَبْ فأنتَ طليقُ عِرْضِكَ إنَّهُ ... عِرْضٌ عَزَزْت به وأنتَ ذليلُ

٣ — اللُّؤْمُ دَاءٌ لِوَبْرٍ يُقتَلون به ... لا يُقتَلون بداءِ غيرِهِ أَبَدَا

أشار بهذا إلى أنَّ مطامعَهم الخسيسة تُرْديهم ، وإسفافَهم لما يعرّضهم للقتل

(١) ترجن هنا بالراء ، وهى تطابق تدجن بالدال وزناً ومعنى . والرجون والدجون : الإقامة .

(٢) التبريزى : « وبر بن الأضبط : قبيلة من كلاب » .

ويهلكهم ، فقال : هذا داؤهم لا يُقتلون إلا به ، ولأنَّ حَيْنَ كلِّ حائنٍ فيما يَغلِب به وعليه . ويجوز أن يريد أنّه لما ترفَّع القصاص عنهم عند وقوع الجرائر منهم ، كانت القِتلةُ الكريمة فيهم أزهد ، وعنهم أبعد ، ولا يموتون إلا بدائهم الذى هو اللؤم . والموت قد يُسمَّى قَتْلاً . وإنَّما أدخل هذه الأبياتَ فى الباب لقوله « قَومٌ إذا ما جَنَى جانيهم أمنوا » فلما ذَكَر من يجتهد فى إدراك الثَّأر من جهته تيسّر أو تعسّر ، ذكَر أيضا ما يُضادّه ممن يُرغَبُ عنه ويُزهَد فى النَّيل منه ، ترَفُّعاً عن مكافأته . وهذا عادتُه فى إتْباع الشَّىء بضدّه ، فاعلمْه .

٦٧

وقال آخر :

١ ــ أَلَا أَبْلِغَا خُلَّتِي رَاشِدًا وصِنْوِى قديمًا إذا ما اتَّصَلْ

قديمًا ، انتصَبَ على الظَّرْف لقوله خُلَّتِى . والمراد : أَبْلِغَا خَليلى قديمًا راشداً ، وصِنْوى إذا ما انتَسَبَ . والصِّنْوانِ : الفَرعان يَخرُجان من أصلٍ واحدٍ . ويقال للأخَوَينِ هما صِنوانِ ، تشبيهاً بذلك ، ولعمِّ الرجل صِنْوُ أبيه . ويقال صِنْوٌ ، وصِنوانِ فى التثنية ، وصِنوانٌ فى الجميع ، ولا يُعرفُ له نظير إلا قِنْوٌ . فيقول : راشِدٌ خليلى القديمُ ، ونسيبى القريبُ ، فأبلغاه عنى رسالةً . وفى جَمْعِه بين خُلَّتِى وصِنْوِى ، وتأخيره قديما إذا ما اتَّصل ، ما ذَكَره أبو العباس المبرِّد رحمه الله ، من أن العرب تَلُفّ الخبرَيْنِ لَفًّا ، ثم ترْمِى بتفسيرهما جملة ، ثقةً بأن السامع يَرُدُّ إلى كلٍّ ما لَهُ .

٢ ــ بأنّ الدَّقيق يَهيجُ الجَليلَ وأنّ العَــــزيزَ إذا شَاء ذَلّْ

الباء دخل للتأكيد ، وموضع أنّ مفعول ثانٍ من أَبلِغا . فيقول : أَبلِغاهُ

أنّ صغيرَ الأمورِ يجنى الكبير ، وأن العزيزَ من الرجال متى أراد عاد ذليلاً ، بأن يَعْدُوَ طَوْرَهُ ، ويشتغل بما لا يهمّه . ومثل هذا قولهم : « الشرُّ يبدؤه صغارُه » ، وقول شاعرهم(١) :

* الحرْبُ أوّلَ ما تكونُ فُتَيَّةٌ(٢) *

وقول الآخر(٣) :

* كم مَطَرٍ بَدْؤُهُ مُطَيْرُ(٤) *

٣ ـ وأنّ الْحَزَامَةَ أنْ تَصْرِفُوا لِحَيٍّ سِوَانا صـــدُورَ الأَسَلْ

هذا الكلام تحذيرٌ وإنذار . يقول : وأبلغاه أنّ الحزمَ فى صَرْف أعِنّة خيلكم إلى غيرنا ، فإنكم لا تقومون لنا إذا هيّجتمونا ؛ والرّأىَ فى أن تعدِلوا بصدور رماحكم إلى طعنِ مَن سوانا ، فإنكم لا تكمُلون لدِفاعنا ، ولأنّ الكَرْهَ لا يُخرج منّا إلا إباءً وامتناعا .

٤ ـ فإنْ كُنْتَ سيِّدَنا سُدْتَنَا وإنْ كُنْتَ للخَالِ فاذْهَبْ فَخَلْ

العرب تقول : « سيِّدُ القوم أشقاهم » . ولذلك قال شاعرُهم(٥) :

وإنّ سيادةَ الأقوامِ فاعْلَمْ لها صُعَداءُ مَطْلَعُها طَوِيلُ(٦)

---

(١) هو عمرو بن معديكرب . شروح سقط الزند ١٦٧٨ .

(٢) عجزه : * تسعى بزينتها لكل جهول *

(٣) هو أبو تمام . البيان والتبين (٣ : ٦٧) .

(٤) صدره : * رب قليل جنى كثيراً *

(٥) هو الأعلم الهذلى . ديوان الهذليين (٢ : ٨٧) والبيان (١ : ٢/٢٧٥ : ٣/٣٠٢ : ٢١٨) .

(٦) صعداء ، كذا وردت فى النسختين ، وكذا فى أصل ديوان الهذليين نسخة الشنقيطى وشرح السكرى لأشعار الهذليين ، ونسخة مكتبة فيض الله من البيان والتبيين . وضبط فى اللسان (صعد) بفتح الصاد وسكون العين ، وفسره فقال : « أكمة صعود وذات صعداء يشتد صعودها على الراقى » . وأما الصعداء بضم ففتح ، فهو التنفس بتوجع ، وهو المشقة أيضاً .

فيقولُ : إن رُمْتَ سيادَتَنَا مِن وجهِها ، وبالآلات التي يُحتاجُ إليها فى تحصيلها ، تمَّ لك ذلك ؛ وإنْ كنتَ للكِبْر فاذهَبْ فاحْسَبْ أنَّكَ سَيِّدٌ ، فإنك لا تكون. هذا إذا رويتَ « فَخَلْ » بفتح الخاء . وإن رويتَ « خُلْ » بضمِّها فالمعنى : اذهب وتكبَّرْ ، فإنّا لن ننقادَ لك ، واستعمالُ البَغْيِ والصَّلَف وَالكِبْر لا يزيدُنا إلاّ إباءً عليك ، وتمادياً فى اللَّجاج معك . والخال : الكِبْرُ . واختالَ الرجُلُ فهو مُخْتَالٌ وخَالٌ أيضاً . قال الشَّاعر :

* إذا تَجَرَّدَ لا خَالٌ وَلا بَخَلُ *

ويقال خَالَ يَخُولُ ويَخَالُ خَوْلاً وَخَالاً ، وفى الظنّ يُقَالُ خَالَ يَخَالُ لا غير . وقوله « فاذهب » أمرٌ من قولِكَ ذَهَبَ يقول كذا . وعلى هذا قول الشاعر :

* فاذْهب فما بِكَ والأيَّامِ من عَجَبِ[1] *

وكذلك قولُك لِلغريم : قُمْ فاعْطِني حَقِّي . فالأمر فى الحقيقة بالعطيّة لا بما سِوَاهُ . وأُجرِى مَجْرَاهُ قَوْلُهُمْ : أخذ يتمسَّك بكذا ، وطَفِق يتحدَّث بكذا ، وجعل يشتمنى . وخرجوا فى التوسُّع إلى أن قالوا : قام يَهْزَأُ بى ، وقَعَدَ يظنّ أنه أمير[2] . وليس القصْد إلى فعله القيامَ والقعود ، ولكن زيادةً كالتَّصوير للحال والتأكيد للقِصّة .

(١) البيت من أبيات سيبويه الخمسين التى لم يعرف لها قائل . انظر الكتاب (١ : ٣٩٢) والخزانة (٢ : ٣٣٨) والإنصاف ٢٧٣ . وصدره :

* فاليوم قربت تهجونا وتشتمنا *

(٢) م : « أمين » .

٦٨

وقال بَعْضُ بَنِى أَسَدٍ :

١ – كِلاَ أَخَوَيْنَا إِنْ يُرَعْ يَدْعُ قَوْمَهُ ذَوِى جَامِلٍ دَثْرٍ وَجَمْعٍ عَرَمْرَمِ

يقوله رجلٌ اقتَتَل فريقان من قومه على بئر ، فيقول : كِلاَ صاحبَينا إن يُفزَعْ يستغِثْ بقومٍ ذوى عَدَدٍ وعُدَّةٍ . والجامِلُ : الإبلُ ، وهو اسم صيغ للجمع . والدَّثْرُ : الكثير . والعَرَمْرَم : الجيش العظيم . وعُرَامُ الجيش : حَدُّهم وكثرتُهم . وانتصب « ذوى » على الحال . والجزاء مع جوابِه خبرُ المبتدأ ، وهو كِلاَ .

٢ – كِلاَ أَخَوَيْنَا ذُو رِجَالٍ كأنَّهم أُسُودُ الشَّرَى مِنْ كُلِّ أَغْلَبَ ضَيْغَمِ

يقول : كلُّ واحدٍ من صاحبينا مؤيَّدٌ برجالٍ كأنَّهم أسودُ هذه المأسَدَةِ ، من كلِّ ليثٍ غليظ العُنق ، شديد . وضَيْغَمٌ : فَيْعَلٌ من الضَّغْمِ ، وهو العضّ . وكِلا مُوحَّد اللفظ ، موضوع للمثنَّى ؛ لكنّ المرادَ به هنا كلٌّ واحدٍ .

٣ – فمَا الرُّشد فى أن تَشْتَرُوا بنعيمِكُم بَئِيسًا ولا أن تَشْرَبوا الماءَ بالدَّمِ

يدعوهم إلى المصالحة ، ويعرِّفهم أنّه لا خَيْرَ فى مَاء ، يَصِلُون إليه بإراقة دماء ؛ ويزهّدهم فى خِصْبٍ ونَعيمٍ ، يَحْصل عن عَيْشٍ بَئِيسٍ ، فيقول : ليس الصَّلاحُ والنَّجاحُ فى أن تستبدلوا بنعيمكم بُؤسًا ، وبسلامتكم هُلْكاً ، ولا أن تشربوا الماء بسَفْك الدِّماء . والبئيس ، يكون مَصْدَرًا كالبُؤْس ، ويوضع فى مقابلة النَّعيم كما فعلَهُ هذا ، ويكون صفَةً ، على هذا قول الهُذلىّ[١] :

وَمَعِى لَبُوسٌ للبئيس كأنّهُ رَوْقٌ بجبهةِ نِعاجٍ مُجْفِلِ

وهو الرّجل الشُّجاع ذُو البأس .

(١) هو أبو كبير الهذلى . ديوان الهذليين (٢ : ٩٨) .

٦٩

وقال حُرَيْثُ بنُ عَنَّاب (١) :

١ — تَعَالَوْا أُفاخِرْكُمْ : أأعْيَا وفَقْعَسٌ إلى المَجْدِ أَدْنَى أم عَشِيرَةُ حَاتِمِ

يقول : هَلُمُّوا أنافِرْكُم : أهؤلاء البطونُ أقربُ إلى المجد أم رَهْطُ حاتم ؟ وبنو أعيا : مِن بنى سعد بن قيس ، وبنو فقعس : حيٌّ من بنى أَسَد . وروى بعضهم : « أأعيار فَقْعَسٍ » ، يريد رؤساء فَقْعَسٍ . ورغم أنَّ أعيا لا يعرفه اسمَ قبيلةٍ ، وأنّ هذا تصحيف استدركه . فأما إنكاره لأَعْيَا قبيلةً فلا وجْهَ لَهُ لأنَّ بنِي أَعْيَا من قبائل سعد بن قيس ، وهو مَشْهُورٌ ذكره النَّسَّابُونَ وغيرهم ، وَوَهْب بن أَعْيَا بنِ طَرِيفٍ الأَسَدى ، معروفٌ ممدود فى الأعلام . وأمَّا من طريق النَّظم فلأَنْ تكون القبيلةُ مقابلةً بمثلها ، ومذكورةً فى المنافرة مَعَها — أحسَنُ من أن يُقابَلَ الأفراد بالقبيلة . و « أَعْيَار » إشارةٌ إلى الأفراد ، لأنَّهُ يُرادُ بها الرّؤساء . يقال : هو عَيْرُ قومِهِ ، أى سَيِّدهم . هذا وقد رجعنا إلى نُسَخِ مختلفات المصادر ، فوجدناها متوافقةً فى تحمُّلها « أَعْيَا وفَقْعس » . وإذا كان

---

(١) عناب ، بالنون ، كما فى م . قال ابن جنى فى المبهج . « اسم مرتجل غير منقول . وهذا أحد الأمثلة التى جاءت على فعال اسما لا صفة ، وهى الكلاء ، والجبان ، والفياد : ذكر اليوم ، والجيار فى الصدر وهو أيضاً الصاروج ، والعقار : أحد الأنبتة ، وعناب هذا الرجل والخطار : دهن طيب . ويجوز أن يكون عناب من العنب كتمار من التمر » . وحريث ، ذكره الآمدى فى المؤتلف ١٦١ وقال أحد بنى نبهان بن عمرو بن الغوث بن طيئ . شاعر محسن مكثر ، وهو القائل :

أترجو حيى أن تجيء صغارها بخير وقد أعيا حييا كبارها

فأخذه الفرزدق فقال :

أترجو كليب أن تجيء صغارها بخير وقد أعيا كليبا كبارها

وقال أبو محمد الأعرابى فيما نقله عنه التبريزى : « وهو فى عصر عمر بن الخطاب وبعد ذلك إلى زمن معاوية » .

كذلك لا يجوز العُدُول عمّا قاله الشّاعر إلى ما لم يقله . وقوله « أأعيا وفقعسٌ » استفهام فى الأصل نُقِلَ عن بابه ، والمعنى : أنافركم بالقضية التى تكون نتيجةَ هذا الاستفهام ، وقوله « أدْنى إلى المَجدِ » لم يُثَنّه وإن كان خَبَرًا عن اثنين ، لأنّه افعلُ الذى يتم بِمِنْ ، وقد دَخل عليه الاستفهام ، فيجب أن يستوى فيه الواحد والاثنان ، والمذكّر والمؤنّث . وهذا الكلام لو أتى به على وجهه لكان : أم عَشِيرةُ حاتِمٍ أدنى إلى المَجْدِ منهم ، لكنّه حَذَفَ إذْ كان المرادُ مفهوما . وإنّما جاء على حرف الاستفهام ليُبَصّرُوا ضَلاَلَتَهم . وفى طريقته بيت جرير :

هَلُمُّوا نُحَا كِمْكُمْ فَفِي الحُكْمِ مَقْنَعٌ ... إلَى الغُرِّ من آل البِطَاحِ الأَكارِمِ

والتقدير : أنافرُكم أيُّهم أمْجَد وأعْرَف . وحاتمٌ المذكورهو حاتم بن عبدالله الطائى . و « تَعَالَ » كان يقولُه من هو فى رابيةٍ للمتسفِّل ، لأنه تفاعَلَ من العُلُوّ ، فكثُر استعماله حتّى جرى مجرى هَلُمَّ ، فصار المتسفِّل يقوله عند الدُّعاء المُسْتَعْلِي .

٢ — إلى حَكَمٍ من قَيْسِ عَيْلاَنَ فَيْصَلٍ ... ومن آخَرَ حَيَّىْ ربيعة عَالِمِ

قيل : أراد بأحد الحكَمين عامر بن الظَّرِب[1] وبالآخر دَغْفَلا النَّسّابةَ . والفَيْصل : الذى يفصِلُ الأمور ، والياء دَخَلَتْهُ لتلحقه ببناء جعفر ، كما أنّ الضَّيْغَم فَيْعَلٌ من الضَّغْم ، والبناءانِ بحصول الياء فيهما صارا صِفَتَيْن بعد أن كانا مصدرَيْن ، لأنّ فَصْلاً من دون الياء مصدرُ فَصَل ، كما أنّ ضَغْمًا من دون الياء

(١) التبريزى : « وقال النمرى : الحكم من قيس عيلان عامر بن الظرب العدوانى ، والآخر الذى هومن حى ربيعة دغفل . وحيا ربيعة : بكر وتغلب ، ورجل واحد لا يكون من حيين ، وإنما يريد من أحد حيى ربيعة » . وقال أبو محمد الأعرابى معترضاً على ذلك : « كيف يكون الحكم من قيس عيلان هاهنا عامر بن الظرب ، وهو قبل الإسلام بمائتى عام ، ومتى لحقه حريث بن عناب وهو فى عصر عمر بن الخطاب وبعد ذلك إلى زمن معاوية ؟ ! وإنما عنى بالحكم من قيس عيلان هرم بن قطبة بن سيار بن عمرو الفزارى . والحكم من حيى ربيعة دغفلا النسابة . وحيا ربيعة : ذهل بن شيبان بن ثعلبة ، وذهل بن ثعلبة : وهو عم ذهل بن شيبان ، وعم الرجل أبوه » .

مصدر ضَغَمَ ، فلمَّا حَصَل الياء فيهما وُصِفَ بهما وأفادَا مبالغَةً فى المعنى . ألا ترى أنّ فَيْصَلاً يفيد ما لا يفيده فاصِلٌ ، وكذلك ضَيْغَمٌ يُفيد ما لا يُفيد ضاغِمٌ ، فاعلمْه .

٣ — ضَرَبْنا كُمُ حتى إذا قَامَ مَيْلُكُمْ   ضَرَبنا العِدَى عنكم بِبِيضٍ صوارِمِ

قام له بمعنى تَقَوَّمَ وتَرَكَ الخلاف ، وقام عليه بمعنى دَاوم ولازَم . وفى القرآن : ﴿ إِلَّا ما دُمْتَ عَلَيْه قائماً ﴾ . يقول : قَدَعنا كم(١) بالمكروه ، حتَّى إذا بانَ لنا فَيْئتكُمْ واستقامتكم ، حينئذٍ ذَبَبْنا الأعداء عنكم بسيوفٍ قواطع . والمعنى : نعاملكُم بمعاملةِ الأعداء ، فإذا استقمتم لنا وذهب الخلافُ عنكم ، ضممنا كم إلى أنفسنا ، وحَمَيْنَا عليكم مع الأولياء .

٤ — فَحُلُّوا بأَ كْنَافِي وأَ كْنافِ مَعْشَرِى   أَ كُنْ حِرْزَ كُمْ فى المَأْقِطِ المتلاحِمِ

فى جمعه للأكناف ظهورُ تَجَبُّرٍ فيهم ، وأخْذٌ بالتَّعَلِّى عليهم . يقول : انزِلُوا بجَنَابِى وجَنَاب عشيرتى ، وتحصَّنُوا بفِنائى وفِناء قومى أَ كُنْ كَهْفَكُمْ فى المَضِيق من الحرب المتلاصق . والمتلاحِم ، يجوز أن يكون من الَّلِحام ، لأنَّ كلَّ شىء كان متبايناً ثم تلازَمَ(٢) يُقالُ فيه : الْتَحَمَ وتَلاَحَم ، ويجوز أن يكون من المَلحَمَةِ ، لأن أهلها يتلاحمون فيها . يقال : لَحَمْتُه فهو لَحِيمٌ ، أى قتلتُه . قال الهُذَلِىُّ(٣) :

* فَلَا رَيْبَ أَنْ قَدْ كانَ ثَمَّ لَحِيمُ(٤) *

٥ — فَقَدْ كانَ أَوْصانِى أَبِى أَنْ أُضِيفَكُمْ   إِلَىَّ وَأَنْهَى عَنْكُمُ كُلَّ ظالِمِ

(١) م : « فرعناكم » ، أى علوناكم .

(٢) كذا فى الأصل ، وفى م : « تلان من » ، والأخيرة محرفة .

(٣) هو ساعدة بن جؤية الهذلى . ديوان الهذليين (١ : ٢٣٢) واللسان (حصر ، لحم) ومقاييس اللغة (ريب ، لحم) .

(٤) صدره : * فقالوا تركنا القوم قد حصروا به *

نَبَّه بهذا الكلام على استعلائه عليهم قديمًا وحديثًا ، وأنهم كانوا لهم كالخَوَلِ والتَّبَعِ ، وأن الأسلاف كانت تُوصِي الأخلافَ بهم لتطاوُلِ أيامهم في جَنبتهم ، واكتناف العناية بهم من ماضيهم وغابِرِهم .

٧٠

وقال إبراهيم بن كُنَيْفٍ النَّبْهَانِيُّ :[1]

١ ــ تَعَزَّ فإن الصَّبْرَ بالحُرِّ أجْمَلُ   وليسَ على رَيْبِ الزمان مُعَوَّلُ[2]

الخطاب بهذا الكلام للنَّفْس على طريق التَّسلية ، فيقول : تصبَّرْ فإنَّ الصَّبر بالرجل الكريم أحسَنُ من التخشُّع فيما لا يَحْسُن الخضوع فيه وله . والأصلُ في الصَّبرِ الحبْسُ ، ومنه قولهم : قُتِلَ فلانٌ صَبْرًا . وقولُه « وليْس على رَيْبِ الزمان مُعَوَّلُ » ، يريد به أنَّ الأحداثَ لا تقف على شيء بحُكم واحد ، ولكنها تتنقَّل وتتبدل ، فلا مُتَّكَل عليها ، ولا مُعتَمد على عَهدها ، فهي كما تُحْسِنُ تُسِيء ، وكما تُدْوِي تُدَاوِي ، وكما تَجْمَعُ تُفَرِّق . وقوله « تَعَزَّ » هو من عَزَا الرَّجُلُ وعَزِيَ الرجل ، إذا صَبَر عَزَاءً ، ورَجلٌ عَزِيٌّ أي صَبورٌ . وفي بناء تَفَعَّل زيادةُ تكلُّف ، ودلالةٌ على فرط تعمُّلٍ . والمُعَوَّل : المَحملُ والمتَّكَلُ .

---

(١) قال البكري في اللآلئ ٤٣٠ : « شاعر إسلامي » .

(٢) بعده عند التبريزي أبيات ثلاثة وهي :

فلو كانَ يُغْنِي أن يُرَى المرءُ جازعاً   لحادثةٍ أو كان يُغني التذلُّلُ

لكانَ التعزِّي عند كل مصيبةٍ   ونائبةٍ بالحُرِّ أوْلَى وأجْمَلُ

فكيفَ وكلٌّ ليس يَعْدُو حِمامَه   وما لامرئٍ عما قَضَى اللهُ مَزْحَلُ

والحرّ أصله الأعتقُ من كلّ شىء والأكرم ، ولذلك قيل لِمَا بدا من الوجه فى اللِّقاء : حُرُّ الوَجهِ . قال الشاعر(١) :

* لقد شانَ حُرَّ الوجهِ طَعْنةُ مُسْهِرِ(٢) *

٢ — فإنْ تَكنِ الأيامُ فينا تَبدَّلَتْ ... بِبُؤسَى ونُعْمَى والحوادِثُ تَفْعَلُ

قوله « والحوادث تفعل » يسمى اعتراضا ، ومثل هذا من الاعتراض يَزيد القصة تأكيداً ، وهو ها هنا حائلٌ بين الجزَاء وجوابه ، لأن جوابَ إنْ تَكُنْ قولُه « فما لَيَّنَتْ مِنَّا قَنَاةً صَلِيبَة » وحَسُنَ الكلامُ به جِدًّا إذ كان تأكيداً لما يقتصُّه من تحوُّل الأحوال ، وتحقيقاً لما شكاهُ من رَيبِ الزمان ، وبَعْثاً على التَّسلى ، وأَخْذِ النفسِ بالتأسِّى . فيقول : إن كانت الأيام دارت فينا بالنَّعماء مَرَّةً وبالبأساء أخرى — وهذا عادةُ الدهر وحوادثِه — فما غيَّرتْ منّا شيئا .

٣ — فما لَيَّنَتْ مِنّا قَناةً صَليبَةً ... ولا ذَلَّلَتْنَا لِلَّذى ليسَ يَجْمُلُ(٣)

ذِكْرُ القَناةِ مَثَلٌ ، وقد مَضَى الكلام فى مِثله . وأبين ما يُسْتَشْهَد به فى استعارتها للإباء والتشدُّد قولُه :

كانت قَنَاتى لا تلينُ لغامزٍ ... فألانَها الإصباحُ والإمساءُ(٤)

وهذا البيت بيانٌ لفائدة الصبر الذى دعاه إليه ، وبَعَثَ نفسَه عليه ، لأن

(١) هو عامر بن الطفيل . ديوانه ١١٩ والشعر والشعراء ٢٩٣ .

(٢) صدره : * لعمرى وما عمرى على بهين *

(٣) التبريزى : « التى ليس تجمل » .

(٤) فى الكامل ١٢٥ ليبسك : « وقال بعض شعراء الجاهلية » . والبيت مع قرين له فى الكامل وعيون الأخبار (٢ : ٣٢٢) . ونسبا فى زهر الآداب (١ : ٢٠١) إلى عمرو بن قميئة .

الصابر على الشدائد حَقيقٌ بألاّ يتذلَّلُ لما لا يحسُنُ به ، ولا تَجْمُل الأُحدوثة فيه عنه ، وألاّ يتليَّن لما كان يَتصلَّبُ له من قبلُ . فإن قال قائلٌ : فإذا كان غاية الصبر ومعناه هذا ، فإلى أىِّ شىء دعا نفسَه بقوله : تَعزَّ فإن الصبر بالحُرِّ أجمَلُ ؟ وقد خبَّرَ عن نفسِه بأنه آخذٌ بما هو حقيقتُه ؟ قلتَ : يجوز أن يكون معنى « تَعَزَّ » دُمْ على التَّعزِّى ، ويكون بناء الأمر لما هو الحال ، ولا يريد استئنافَه ، كما أن قولَ الله عزّ وجلّ : ﴿ يأيُّها الذينَ آمَنوا آمِنوا بالله ورسولِه ﴾ معناه دُوموا على الإيمان . ويجوز أن يكون أمر نفسَه فى المستقبل بما كان عادتهم فى المُسْتَقْدَم .

٤ – ولـكن رَحَلْناها نُفُوساً كَرِيمةً تُحَمَّلُ ما لا يُسْتَطاعُ فتَحْمِلُ[1]

يجوز أن يكون معنى رَحَلْنَاها رَحَلْنَا لها نفوساً ، والضمير للحوادث ، ويكون هذا كقولهم كِلْتُكَ وَكلْتُ لك ، وَوَزَنْتُكَ وَوَزَنْتُ لك ، ويكون نفوساً مفعولاً لرَحَلْنا . ويجوز أن يكون الضمير أعنى ضمير المنصوب فى « رحلناها » للنفوس ، على أن يكون مفعولا . وأتى بالضمير قبل الذِّكْر ، ثم جعلَ قولَه نُفُوساً بدلا منها ، على طريق التبيين . وقولُه « ولـكِنْ » حَرْفٌ يُستدرَك بها بَعْدَ النفى ، فيـكون المعنى ما تذلّلنا للنوائب ، ولـكن هيَّأنا لها نفوساً تأنف من الرِّضا بالدنيّة ، فلا تَنْسى كَرَمَها ، وتُكلَّفُ أمورًا لا تنهض بها فتتكلَّفها . وفى وصف النفوسِ بالـكرم إشارةٌ إلى الظَّلَف والعفّة ، والتَّأبِّى من المُخْزِيَةِ ، ومجانبة الريبةِ ، والنفور من كلِّ قبيحة . ولذلك قال الله عزّ

(١) بعده عند التبريزى :

وقَيْنا بِحُسْنِ الصَّبْرِ مِنّا نفوسَنا فصَحَّتْ لنا الأعراضُ والنّاسُ هُزَّلُ

وجلّ في صفة المختارين من عباده المزكِّين[1] : ﴿ والذينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وإذَا مَرُّوا باللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ . فأما قولُه « رَحَلْناها » في الاستعارة ، فكما يقال استَحْملتُ فلاناً نفسى ، وركِبَتْنى ظُلاماتٌ وما أشبهَهَا . وحُكى : هو يَرْحَله بما يَكرهُه ، أى يَرْكَبُه ؛ ولا رَحَلْتُكَ بالسيف ، أى لا عَلَوْتُك .

٧١

وقال آخَرُ :

١ — وكَمْ دَهَمَتْنِي من خُطُوبٍ مُلِمَّةٍ صَبَرْت عَلَيْها ثُمّ لم أَتَخَشَّعِ

يقول : مراراً كثيرة فاجأتنى خُطوبٌ شديدةٌ ، ونزلَتْ بى ، فحبَسْتُ نفسى عليها ، وتجلدت لها ، فلم يَظهَرْ فى مَناظِرِى خُشُوعٌ ، ولا بَدَا فى جوارِحى خُضوع . وموْضِعُ كم على هذا التأويل ظَرْفٌ . « ومِنْ » على طريقة الأخفش تكون زائدة ، لأنه يُجوِّز زيادة « مِنْ » فى الواجب ، ويَستدِلُّ من المسموع بقول بعضهم : « قد كان من مَطَرٍ فَخَلِّ عَنِّى » وبغيره . فكأنه قال : كم مَرّةً دهَمَتْنى خطوبٌ كثيرة . ويكون قولُه صَبَرْتُ عليها صفةً للخطوبِ . ويجوز أن يكون كم فى موضع الابتداء ، ومن خُطوبٍ هو بيانٌ له ، وقد فَصَل بينهما بخبرِه ، وهو دهمَتْنى ، وتقديره كم من خطوبٍ دهمتنى ، أى كثيرٌ من الخطوب . فأمّا فائدة العطف بثُمّ من قوله « ثُمّ لم أتَخَشّع » فهو إبانة الاستمرار فى الصَّبْر ، وإن طالت المُهْلة إلى أن انكشفت تلك الملمّات العارضة وانفرجت . ومعنى دَهَمَتْنى : فاجأتنى ، ومنه الدَّهْم ودَهْماء الناس .

٢ — فأدرَكْتُ ثأرِى والذى قد فعلتُمُ قلائِدُ فى أعناقِكُم لم تُقَطَّعِ

---

(١) المزكين ، كذا ضبطت بكسر الكاف فى النسختين ، أى الذين زكوا أنفسهم . وفى كتاب الله : « قد أفلح من زكاها » .

يقول : أَصَبْتُ ما طَلَبْتُهُ ، وتقاضَيْتُ به ممن كان لى عنده ثأرٌ أَوْ وِتْرٌ ، فاستنزلته عنه ، وما فعلتم من القُعودِ عن نُصْرَتى ، وخِذلانى فيما نابنى لِزَمُكُمْ ، فكأنّها قَلائد وأطواقٌ لا تَنحلُّ عنكم ولا تنقطع . وهذا تحقيقٌ للزوم العار لهمْ فيما أَتَوْا . ومثله قول بِشْر :

* وقَلَّدَهَا طَوْقَ الحمامةِ جَعْفَرِ *

يصفُ غَدْرَةً ارتكبوها . ومثلُه فى القرآن : ﴿ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ .

٧٢

وقال عُوَيْفُ القَوافِى(١) :

١ ـ ذَهَبَ الرُّقَادُ فما يُحَسُّ رُقَادُ ... مِمَّا شَجَاكَ ونَامَتِ العُوادُ(٢)

يقول : طارَ النَّومُ فلا يُعرفُ له أَثَرٌ ، مما دَهاكَ وحَزبَكَ ، ونام الذين كانوا

(١) عويف القوافى الفزارى ، وهو عوف بن معاوية بن عتيبة بن حذيفة بن بدر ، سمى عويف القوافى لبيت قاله ، وهو :

سأكذب من قد كان يزعم أننى ... إذا قلت شعراً لا أجيد القوافيا

وهو شاعر مقل من شعراء الدولة الأموية ، مدح الوليد وسليمان ابنى عبد الملك ، وعمر ابن عبد العزيز . البيان (١ : ٣٧٤) ومعجم المرزبانى ٢٧٧ ـ ٢٧٨ والأغانى (١٧ : ١٠٥) والاشتقاق ١٧٣ .

قال أبو رياش : « وكانت أخته عند عيينة بن أسماء فطلقها ، فكان مراغما لعيينة وقال : الحرة تطلق لغير بأس ! فلما أخذ الحجاج عيينة فحبسه قال عويف هذا الشعر » .

(٢) روى التبريزى بعده :

خبرٌ أتانى عن عيينةَ موجِعٌ ... كادت عليه تَصَدَّعُ الأكبادُ

بلَغَ النُّفوسَ بلاؤه فكأننا ... موتَى وفينا الرُّوح والأجسادُ

يَرجون عَثرةَ جَدِّنا ولو انهم ... لا يَدفعون بنا المكارهَ بادُوا

يعودونك ولم يَشْهَرُوا لك . والمعنى : إنّى اختُصِصْتُ فيك بما عَرِىَ منه عُوّادُك ، وتَحمَّلت من الجزَعِ ما سَقَطَ عنهم وخَفَّ عليهم . والرُّقادُ والرُّقود : النَّوم بالَّليل ، وعرّف الأوّلَ تعريف الجنس ، ونكَّر الثانى لأنّه أراد نوْعًا من الجنس ، كأنّ المرادَ : ذهبَ النومُ على اختلافه حتَّى ما يُرَى لنَوْعٍ منه مُخْتَصٍّ أثرٌ .

٢ – لَمَّا أتانى عن عُيَيْنَةَ أنّه أمْسَتْ عليه تَظاهَرُ الأقيادُ[(١)]

قوله « لمَّا أتانى » ظرْف لقوله « نَحَلَتْ له نَفسى » لأنّ لمّا إذا وليَهُ الفِعْل الماضى ، كان علماً للظرف ، وفُسّرَ بحين . والمعنى : حين تَساقَطَ إلىّ عن هذا الرجل وتأدَّى أنّهُ أُسِرَ وَقُيِّدَ بقَيدٍ بَعْد قَيْد ، فارَقَنى ما كنت أخامِرُهُ وأنطوى عليه من التنكُّر له ، وأزَلْتُ عن نفسى ما استجفيته فيه ، لأنّ الكريم يرقُّ لمثله من الكرام عند النَّوازل . ومعنى التظاهر : أنْ يَصير الشَّىءُ فوق الشىء فيَقْوَى . ويقال : ظاهَرَ بين ثَوبين ، إذ لبِسَ أحدَهما فوق الآخر . وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَظَاهَرا عَلَيْهِ ﴾ معناه تعاوَنا ، ومنه قولهم : هو ظَهْرٌ ظهيرٌ ، أى قوىٌّ فى الاستغاثة .

٣ – نَحَلَتْ لَهُ نَفسى النَّصيحَةَ إنّهُ عِنْدَ الشَّدائد تَذْهَبُ الأحْقادُ

يقول : أصْفَتْ عند ذلك نَفسى له النُّصْحَ ، لأنّ الضغائن تُفارِق عند الشدائد . وهذا الكلام هو بيان عِلّة مفارقة ضِغْنه ورجُوعه إلى سلامة الصَّدْر له . وقد ذكر فيما بَعْدَهُ ما يَدُلُّ على حسن الإنصاف من النَّفس ، والاعتراف بالفضل للغَير . ويجوز أن يُرْوَى « أنه » بفتح الهمزة ، والمعنى لأنَّه عند الشَّدائد . وإذا رُوِىَ بالكسر يكون على الاستئناف .

---

(١) التبريزى : « أمسى عليه » .

٤ – وذَكَرْتُ أَىَّ فَتًى يَسُدُّ مَكَانَه بالرِّفْدِ حين تَقَاصَرُ الأَرْفَادُ

مصدر ذَكَرْتُ فى هذا الذُّكْر بضم الذال، لأنّه بالقلب. وقوله «بالرِّفد»، يريد ببذْل الرِّفد، فحذَف المضاف. يقول: أَجَلْتُ فى فِكْرى، وقُلْتُ فى حديث نفسى: لو خَلِّى مكانه مَنْ كان يَسُدُّ مَسَدَّه، ومَن يُعْطِى عَطَاءه عند تقاصُر العطايا وتراجُع المعونات. وهذا إشارةٌ إلى زَمان الجَدْب والقَحْط وقتَ تَنَافُس النّاسِ فى المتملَّكات، والدَّفع عنها بإعْداد العِلّات. والمعنى: إنّ مِثْلَه لا يُوجَدُ ولا يُظْفَرُ به فى مثل ذلك الوقت، فإذا كان كذلك فكيف يَسْمَحُ المُنصِفُ به لدَهرِه، أو كيف ينطوى الصدْرُ على السُّلُوِّ عنه والخُلُوِّ منه، مع شدة الحاجة إليه. ويقال: رَفَدْتُ الرّجل رَفْدًا إذا أعطيتَه، ثم سُمِّىَ العطيّةُ رِفْدًا بكسر الراء، وجَمْعه الأرفاد. وأرفَدْتُه مَحْكِىٌّ لكنه ليس بالمتخيَّر. وتَقَاصَرُ، أصلُهُ تتقاصَرُ فحذف إحدى التاءين تخفيفاً، وهو فى موضع الجر بإضافة حين إليه.

٥ – أَمْ مَنْ يُهِينُ لنا كَرَائمَ مَالِهِ ولَنا إذا عُدْنا إليه مَعَادُ

أمْ هذه هى المنقطعة، والاستفهام دَخَل فى الكلام على طريق التوجُّع والتلهُّف لما جَرَى على عُيَينه المذكور. والمعنى: لو فقدناه مَن كان يبذُل لنا عقائلَ أمْوَاله، ومتى شئنا وجَدْنا عنده معادًا فلا يَمَلُّ السُّؤال، ولا يُغِبُّ النَّوال؛ وهذا الكلام تنبيهٌ على أنّه كان يُديم الإحسان، ولا يَحُولُ عطاءُ يومه دون عطاءِ غَدِه. وقوله «كرائمَ مالِهِ»، جَمْع كريمةٍ، وقد أُجْرِى مَجْرى الأسماء حتَّى جاء فى الحديث: «إذا جاءكم كريمةُ قومٍ فأكرموه[1]».

---

(١) قاله صلى الله عليه وسلم، فى إكرام جرير بن عبد الله لما ورد عليه فبسط له رداءه وعممه بيده. اللسان (كرم).

٧٣

وقال بِشْرُ بن المُغِيرَة(١) :

١ — جَفانى الأميرُ والمغيرةُ قد جَفا وأمْسَى يزيدُ لى قد ازْوَرَّ جانبُه(٢)

أراد بالأمير المهلَّب بن أبى صُفرَة . والمغيرةُ أخوه ، ويزيد ابنُه . وقائل هذا الشعر بِشر بن المغيرة ، وهو أحدُ الفُرسان المشْهرين(٣) ، فيقول : جفانى عَمِّى المُهَلَّبُ ، وأبى المغيرة ، وصار يزيد ابن عمى لاقتدائه بهم منحرِفاً عنِّى ، غير مائلٍ إلىّ . والازورار : الانحراف ، وهو من الزَّوَر : نُتُوٌّ أحَدِ شِقَّى الصدر واطمئنانِ الآخر : ويقال رَجُلٌ أزْوَرُ ، وامرأةٌ زوراء .

٢ — وكُلُّهُمُ قدْ نالَ شِبْعًا لبَطْنِهِ وشِبْعُ الفَتَى لُؤْمٌ إذا جَاعَ صاحِبُهْ

أراد بالكلّ الاتحاد لا الجميع . يقول : كلٌّ واحدٍ منهم قد نال من الدُّنيا وأعراضِها قَدْر ما يشبعه ويمكنه الاكتفاء به ، ثم قال : وشِبْعُ الإنسان لُؤْمٌ إذا لم يُشْرِكْ صاحِبَهُ فيه فبقى جائِعاً . أى هو كذلك فى ذلك الوقت ، وعلى تلك الحالة . والشِّبْعُ لا يكون لُؤمًا ، لكنَّ التفرُّد به من دون ذَوِيه على حاجةٍ منهم إليه يكونُه(٤) ، فرَمَى بالكلام على ما تَرَى لأنَّ المراد منه مفهوم . والفَرْقُ بين الشِّبْع والشِّبَع ، أن الشِّبْع بسكون الباء : القَدْر الذى يُشْبِـع ، والشِّبَع بفتح الباء :

---

(١) قال التبريزى : « ويروى أن اسمه كان بُسْراً » . وقال أيضاً : « وكان بشر بن المغيرة بخراسان مع المهلب فلم يوله شيئاً » .

(٢) يزيد . ضبطت فى الأصل بضمتين فى أعلى الدال وضمة فى وسطها لتقرأ بالصرف وعدمه ، وذلك مع كلمة « معا » فوق الضمتين .

(٣) م : « المشهورين » .

(٤) أى يكون لؤما .

الامتلاء من الطعام ، وقد استعمل الشِّبَع فى غير الطّعام فيقال : أشْبَعْتُ الثوبَ صِبْغاً ، وكذلك فى كلِّ ما وفّرتَه من القول وغيره ، حتّى قيل تَشَبَّع الرّجُلُ ، إذا تكَثَّر .

٣ — فيا عَمِّ مَهْلاً واتّخِذْنى لنَوْبَةٍ تُلِمُّ فإنّ الدهْرَ جَمٌّ نوائبُهْ[1]

قولُه « مَهْلاً » معناه رِفْقاً ودَعِ العجلة . ويحرَّكُ الهاء منه فيقال ائت كذا على مَهَلٍ ومَهْلٍ جميعا . ويقال : ما بى عن كذا مَهْلٌ ، أى إنِّى فيه مستعجِل . وفى هذا بعض التوعُّد والتطنُّز وإنْ كان ظاهرُه أنه يَستعطف المُهلَّب ويُعرّفُه أنَّ الدّهرَ ذو غِيَرٍ وذو ألوان فلا يُؤمَن بوائقُه ؛ وأنّه قد يُحتاج إلى المُسْتَغْنَى عنه لحادثةٍ تَحْدُثُ . فيقول : ادَّخِرْنى لِنَوْبةٍ تَنْزِل ، وهى المصيبة أو النَّكبة ، ولا تَطَّرِحْنِى اغتراراً بالأمْنِ ، فإنَّ الدّهْرَ كثيرالنوائب ، وشيكُ التحوُّل . وقولُه « يا عَمِّ » حَذَفَ الياء منه لوُقوعه موقعَ ما يُحْذَفُ فى هذا الباب ، وهو التنوين ، ولأنّ باب النّداء بابُ إيجاز ، ولأن الكسرة تَدُلُّ عليه .

٤ — أنَا السَّيْفُ إلَّا أنَّ للسَّيْفِ نَبْوَةً ومِثْلِىَ لا تَنْبُو عَلَيْكَ مَضارِبُهْ

يُفَضِّلُ نفسَه فى نفاذِه فى الأمور ومضائه ، على السَّيف ؛ فقال أوّلاً : أنا السَّيف ، أى أشْبِهُهُ ، ثم تَلاَفَى فقال : إلّا أن السَّيْفَ رُبَّما نَبا عن الضَّرِيبة وكَبا ، ومثلى لا تَكِلُّ ولا تَنْبُو حُدُودُه عن شىء تُلاقيه . وفى هذه الطريقة قول جرير :

وليس لسَيفى فى العظام بقيَّةٌ وللسَّيفُ أشوَى وقعةً من لِسَانيا

والمَضارِبُ : جمع مَضرِبٍ ، وهو الموضع الذى يُضرَبُ به من السيف .

---

(١) التبريزى : « جم عجائبه » .

٧٤

وقال بعض بنى فَقْعَس(١) :

١ - يأيُّها الرّاكِبانِ السّائِرانِ مَعًا قُولاَ لِسِنْبِسَ فَلْتَقْطُفْ قَوافِيها

الراكب : اسمٌ لمن ركب حيوانًا إلا الفرَس ، فإنه يقال لراكبه فارِسٌ متى أطلِقَ . ومَعًا ، انتصب على الحال ، ومعناه مُصْطحِبين ومجتمعين . فيقول : يأيها السائران المصطحِبان ، قولاَ لهذه القبيلة لتتركْ قولَ الشِّعر ، أو تتوقّفْ قليلا حتى تتباطأَ قوافيها عنّي(٢) . وفى هذا الكلام ضَرْبٌ من الاستهزاء بهم ، وإشارةٌ إلى التجبُّر والتعلِّى عليهم . والقَطوفُ من الدوَابِّ : الذى فى خَطْوِه بُطء مع تقارُب . وجعلَ فعلَ الأمرِ للقوافى على السَّعة والمجاز . وسِنْبِسُ هم المأمورون . وهذا كما يقال فى النَّهْى : لا أرَيَنَّكَ هاهنا ، والمخاطَبُ هو المنهِيُّ ، لأنّ المعنى : لا تكن هاهنا فأراكَ . ثم بيَّن هذا الشاعرُ الوجهَ الذى أوجَبَ منه اطِّراح الافتخار ورفضَ الهجاء له ، فقال :

٢ - إنِّى امرؤٌ مُكْرِمٌ نفسى ومُتَّئِدٌ مِن أن أُقاذِعَها حتى أُجازِيها

يقول : إنى رجلٌ أَرْبأ بقدْرى عن مكايلتهم ، وأترفَّع عن موازنتهم ، وأتوقَّف عن مُلاحاتهم ، طلبًا لمجازاتهم . والتقدير : لا أُقاذِعُها لكى أُجازِيَها ، لأنّ حتى الداخلةَ على الفعلِ مرّةً يكون بمعنى كَىْ ، ومرّة يكون بمعنى إلى أن .

---

(١) التبريزى : « وقال بعض بنى عبد شمس من فقعس » .

(٢) جعل « تقطف » هنا من القطاف وهو بطء الدابة . وأما أبو رياش فجعلها من قطف الثمرة بمعنى قطعها ، أى لتدع قول الشعر فيما بيننا وبينها . وأما النمرى ففسرها من القطف : جنى الثمرة ، أى إن فعلنا بهم شراً فهو جناية قوافيهم عليها . وهذا القول الأخير حسن جداً ، إلا أن ما بعده يدل على أنهم لم يجازوهم بعد ، لقوله : إنى امرؤ مكرم نفسى ومتئد . وعلى هذين المعنيين تكون « تقطف » متعدية . وعلى ما فسره المرزوقى تكون لازمة .

ويجوز أن يكون المعنى : لا أُقاذِعُها إلى أن أُجازِيَها ، أى أوّلاً أُجازيها فعلاً لأرى القُدرة عليها ، ثم حينئذ أجازيها بالكلام . والأول أحسن . ثم أخذ يقتصُّ ما كان منهم لمّا طلب مكافأتَهم بالفعل . والمُقاذعة : المُفاحَشة . ويقال قَذَعْتُه ، إذا رَمَيْتَه بالفُحْش . ومتَّئِدٌ : مُفتعِلٌ من التُّؤَدةِ ، وهى الرِّفق .

٣ — لمّا رَأَوْهَا مِنَ الأَجْزَاعِ طالِعَةً شُعْثًا فَوَارِسُهَا شُعْثًا نَوَاصِيهَا

يقول لمّا رأوا الخيلَ بارزةً لهم ومفاجئةً إياهم من أجزاعِ الوادى — وهى جوانبها — مُغبَرّةَ النَّواصى مغبرّة الفرسان . وجواب لمّا فيما بعده . ويقال شَعِثَ شَعَثاً وشُعوثةً ، وهو أَشْعَثُ وشَعِثٌ . وأضمرَ الخيل فى قوله « لما رأوها » وإن لم يَجْرِ لها ذِكْرٌ ، لأن الحالة الحاضرة تدلُّ عليه . ويجوز أن يكون تقدَّم ذكرها فيما تُرِكَ من أبياته .

٤ — لاذَتْ هُنَالِكَ بالأَشْعَافِ عالِمَةً أَنْ قد أَطاعَتْ بلَيْلٍ أَمْرَ غاوِيها

يقول : التجأتْ فى ذلك الوقتِ إلى قُلَل الجبال وأعالى الهضاب ، عارفة سوء اختيارها فى تحكُّكها بى ، وتعرُّضِها بالشِّعر لى ، وأنَّها قد ائتمرت لغواتها بلَيْلٍ . وذِكْر الليل هاهنا إشارةٌ إلى حَيْرَتها فيما أَتَتْه من تَرْكها الرَّشاد ، وقَبولها مَشورة الغُواة . والأَشْعافُ : جمع الشَّعَفَة ، وهى أعلى الجبل ، وأعلى كلِّ شىء ، ولذلك قيل شَعَفة القَلْب لرأسِه عند معلَّقِ النِّياط . وهنالك ظرف ، ويكون للزَّمانِ والمكان جميعا ، وزيادة اللام تكون للتأكيد فيه ، كأنّ البُعدَ فيما يُشار إليه بهُنالِكَ أبلغُ مما يكون فيما يشار إليه بهناك . وهذا على طريقة ما تقوله فى ذلك وذاك . وقوله « أنْ قد أطاعت » أن فيه مخفَّفة من الثقيلة ، أى عالمة أنها قد أطاعت . ويقولون لما لا يُعمَل بتثبُّتٍ وحُسن تدبُّر : « هذا

أمرٌ قد قُدِّرَ بليل » . وعلى هذا قوله تعالى : ﴿ بَيَّتَ طائفةٌ منهم غيْرَ الذى تَقُول ﴾ .

٧٥

وقال آخر فى ابن له :

١ ـ لا تعذُلى فى حُنْدُجٍ إن حُنْدُجًا ولَيْثَ عِفِرِّينٍ لَدَىَّ سَوَاءُ

يخاطب لائمة عذلتْهُ فى التوفُّر على ابنه حُنْدُجٍ واختصاصه إيّاهُ واستخلاصه ، وذكر الخليل أن حُنْدُجًا فى اللُّغة : رَمْلَةٌ طيّبة تُنْبِتُ ألوانًا من النبات . فيقول : لا تلوميني فى أمر حُندجٍ ، إنّ حُندجًا وليثَ هذه المَأْسَدَةِ متساويان عندى . وقد قيل فى ليث عِفِرِّين : إنَّها هى التى تصيد الذُّبابَ وثبًا ، فشبَّهه فى كَيْدِهِ ومكرِه به ، وقد وُصِف الخبيث المُنْكَر بالعِفْر والعِفْرِيَةِ وعَفَرْنَى ، ويقال أيضا للأسد عِفْرٌ وعَفَرْنَى . وقيل هو أشدُّ عَفَارَة ، واستعفَرَ فلانٌ . وحكى الأصمعى أنّ ليث عِفِرِّينَ دابّة كالحِرباء يتحدّى الراكبَ ويضرب بذنَبه[1] . وقيل عِفِرِّينَ : موضع نُسِبَ إليه ، وقيل عفِرِّين : فِعِلِّين من العَفَر ، وهو التُّراب ، لأنَّ عادة الأسدِ أنْ لا يصيب من فريسته حتى يُعفِّرَه ، يشهد لذلك قولُ الآخَر فى صفته :

* ولا نَالَ قَطُّ الصَّيْدَ حتى تَعَفَّرا[2] *

وذكر بعضُهم أنّ ليثَ عِفِرِّين كقولهم : لَيْثُ لُيُوثٍ ، لأنّه يقال للمُنكَر الداهية عِفِرٌ ، ويوصَف به الأُسود والرِّجال . ويكون على هذا عِفِرِّين جمع جَمْعَ السَّلامة كالأفْوَرِينَ ، ومرَّ بى أنَّ قولهم ليث عِفِرِّين يستعمَل فى المدح والذّمّ وسَوَاءٌ : مصدرٌ فى الأصل وُصِفَ به .

---

(١) م : « تتحدى الراكب وتضرب بذنبها » .

(٢) م « حتى يعفرا » .

٢ — حَمَيْتُ على العُهّارِ أطْهارَ أُمِّهِ وبَعْضُ الرِّجال المُدَّعِين جُفَاءِ

يُبيِّن فى هذا الكلام انتفاء الرِّيَبِ عن مشابهته له . وتقبُّلِه إيّاه ، وأنّه لا يُشَكُّ فى كونه من صُلبه ، فيقول : حَفِظْتُ أطهارَ أُمِّهِ عن الزُّناة ، لأنى اخترتُها من بيتِ العفّة ، وأُرومة الكرم ، ومَغْرِس النَّجابة ، والعِتق والشَّهامة[1] ودَعوَاىَ حقٌّ ، وبعض دَعاوَى المُدَّعِين كالذى يَعْلو السَّيلَ ويحتمله من سَقَطِ الأرض . والمراد بقوله : وبعض دَعَاوَى الرجال ، فحذف المضاف وأقامَ المضافَ إليه مقامه . والعَهْر والعُهُور : الفجور . ويجوز أن يريد بقوله « حَمَيْتُ على العُهّارِ » ما أراد امرؤالقيس بقوله :

* وأَمْنَعُ عِرْسِى أن يُزَنَّ بها الخَالِى[2] *

أى بِفَرْط غَيرتى وكال رُجوليّتى وتمام محاسِنى . وإنّما خَصَّ الأطهار لِمَا فى المَحيض من الاعتزال ، وكما قال الآخر[3] :

* دُونَ النِّساء ولو باتَتْ بأطْهَارِ[4] *

وذكر بعضُهم أنّ المراد بقوله جُفَاء : وبعضُ الرجال محمولٌ دعِىٌّ ، فهو كالجُفَاء لا يُعتدُّ به . والصَّحيح الأوّل .

٣ — فَجاءَتْ به سَبْطَ العِظَامِ كأنَّما عِمامَتُه بَيْنَ الرِّجَالِ لِوَاءُ

(١) قال أبو محمد الأعرابى : إنما وصف الشاعر ابن أمة . يقول : لم أسبها كما تسبب الإماء فجاءت به لرشدة . وإذا وقفت على قصة البيت عرفت مصداق ما قلته . أكتبنا أبو الندى قال : كان رجل من بنى جناب من بلقين عنده ابنة عم ، له منها ابن يقال له سيار ، وكان له ابن من أمة يقال له دملج ، فكانت الحرة إذا رأته يلطف دملجا ببعض اللطف لامته وغضبت ، فأنشأ يقول :

ألائمى فى دملج إن دملجا وشركة سيار إلى سواء
شغلت عن العشاق أطهار أمه وبعض الرجال المدعين زناء

(٢) صدره : * كذبت لقد أصبى على المرء عرسه *

(٣) هو الأخطل . ديوانه ١٢٠ وشرح شواهد المغنى ٢٢١ .

(٤) صدره : * قوم إذا حاربو شدوا مآزرهم *

يقول : جاءت الأمُّ بهذا الولد وهو تامُّ العظام مديدُ القامة ، فكأنَّ قامتَه رمح ، وكأنَّ عمامتَه إذا توسَّطَ الرِّجالَ لواءٌ محمول عليه . وأحسن صنعةً منه قولُ مسلمٍ ، وإن كان هذا سليما من العَيْب .

يَقُومُ مَعَ الرُّمْحِ الرُّدينيِّ قَامَةً وَيَقْصُرُ عنه طُوُل كلِّ نِجادِ

وفى طريقته قولُ الآخر[1] :

* يَكَادُ يُسَاوِى غَارِبَ الفَحْلِ غارِبُه[2] *

٧٦

وقال آخر[3] :

١ ــ إذا كانَ أولادُ الرِّجالِ حَزَازَةً فأنتَ الحَلاَلُ الحُلْوُ والباردُ العَذْبُ[4]

إذا يتضمَّن معنى الجزاء ، ولهذا احتاج إلى الجواب فجُعل بالفاء . فيقول : إذا كان الأولاد تقطيعاً فى الصدور وتحزيزاً فى القلوب ، لعقوقِهم واستعمالهم الجفاء فى موْضع البِرِّ معَ آبائهم ، فأنْتَ العَسَل مَشُوباً بالماء العذْب . وقد وصف بعضُهم كلاماً فقال : « هو السِّحْرُ الحلال ، والعَذْبُ الزُّلال » . ويشير الشّاعر إلى سهولة جانبِه ، وحُسن طاعته ، ودماثَة خُلقه . وقال الخليل : الحزازة : وَجَعٌ فى القلبِ من غَيْظٍ أو أذًى . والحَزَّاز أيضا كذلك ، وأنشد بيت الشَّمَّاخ :

(١) هو فرعان بن الأعرف ، يقوله فى ابنه منازل . الحماسية ٦٠٣ .

(٢) صدره : * لربيته حتى إذا آض شيظما *

(٣) قال أبو رياش : هو لأبى الشغب العبسى ، وقال أبو عبيدة : للأقرع بن معاذ القشيرى .

(٤) أول المقطوعة عند التبريزى :

رأيت رِباطاً حينَ تمّ شَبابُه وولَّى شَبابِى ليس فى بِرِّه عَتْبُ

قال : « ليس فى بره عتب ، أى ليش فيه فساد . قال أبو هلال : الوجه أن يقال إنه لا يمن بيره فينكر منه ذلك ، يقال عتبت على الرجل عتبا ، إذا أنكرت عليه شيئاً من فعله . ويجوز أن يقال : إنه يعم بالبر جميع أهله فليس يعتب عليه أحد منهم ، أو يقوم بجميع ما يحتاج إليه أبوه فلا يعتب عليه فى شىء » .

* وفى الصَّدر حَزَّازٌ من اللَّوْمِ حَامِزُ(١) *

٢ ــ لنا جانِبٌ مِنْهُ دَمِيثٌ وجانِبٌ   إذَا رَامَهُ الأَعداء مُمْتَنِع صَعْبُ

خاطَب فى الأوّل ثم عَدَلَ فى الثانى إلى الإخبار ، وهذا عادتُهم إذا افتنُّوا فى كلامهم ، نظموا أو نثروا ، لِمَا فى التحوّل من سهولةِ تجاوبِ الألفاظ ، وتلاؤُمِ طرائق النظام . فيقول : لنا مِن هذا الولد خُلُق سَجيح ، ومذهبٌ فى البرِّ فسيح ، فهو هَيِّنٌ لَيِّنٌ معنا ، وللأعداء منه إذا طلبوه أو جرّبوه جانبٌ خشِنٌ مِدْفَعٌ ، وطريق صعب مُتْلِفٌ ، وخُلُق وعْرٌ شَرِسٌ . ولم يقل وللأعداء جانب ولكنْ عَطَفَ الثانىَ على الأوّل ، بمعنى أنّ أحدهُما لاجتذاب الخير ، والآخر لدِفاع الشرّ . فكأنّ التقدير : ولنا منه جانب مُعَدٌّ للأعداء ذلك صفتُه ، فصار الجانبان لهم فى اللفظ ، والقسمةُ ثابتة فى المعنى . والدَّماثة : سهولة الخُلُق ولينُ الجانب . ويروى « ممتنِعٌ صَعْبُ » ، و « مَتْلَفَةٌ صَعْبُ » ، والمعنى ظاهر .

٣ ــ وتأخُذُه عند المكارِمِ هِزَّةٌ   كما اهتَزَّ تحت البارحِ الغُصُنُ الرَّطْبُ

البارحُ : ريحٌ حارةٌ تجىء من قِبَل اليمن . فيقول : تملّكه عند اكتساب المكارم أريحيّة يهتزّ عندها اهتزازَ الغُصْن الرَّطب ، الذى جرى الماء فيه ، إذا هبّت عليه البارح . و « كما اهتزّ » أراد كاهتزاز . وقوله « تحت البارح » حسَنٌ جدًّا ، لأنّ الريح تعلو الغُصُونَ فى مرورها . وقد نسبوا البارحَ إلى النجوم إذا ذكروا الأنواء . قال :

أيا بارحَ الجوزاء ما لَكَ لا تَرَى   عِيَالَكَ قد أمسوا مَرَامِيلَ جُوَّعا(٢)

(١) صدره فى ديوان الشماخ ٤٩ واللسان (حزز ، حمز) :
* فلما شراها فاضت العين عبرة *
(٢) انظر الأزمنة والأمكنة للمرزوقى (١ : ٢١٦) ومجالس ثعلب ٤٩٠ .

هذا يقوله بعض المتلصِّصة. وعِيالُها: السُّرّاقُ، وذلك أنّ البارِح تَحمِل الغُبار وتَدْرُس الآثار، فتَجسُر المتلصِّصة على السَّعى، وتُمكِنهم السرقة.

٧٧

وقال آخر[1]:

١ ــ وفارقْتُ حتَّى ما أُبالى مِنَ النَّوَى وإنْ بَانَ جيرَانٌ علىَّ كرامُ[2]

يُروى: «مَنِ انْتَوى» وهو افتَعَل من النَّوى، وهى الوِجهة المنويّة للقوم، أو البُعْد. يقول: أَلِفْتُ مفارقة الوَطَن والإخوانِ شيئاً بعد شىء، واعتدتُ التّباعُدَ عنهم يَوْماً بعد يوم، حتَّى لا أبالى مَن انتوى منهم أو نأى، وإنْ كَرُموا علىَّ عند المجاورة. ومن روى: «لا أُبَالِى من النَّوَى[3]» فمعناه لا أحتفل به، والأوّل أحسن. فإن قيل: كيف تعلّقَ «حتى» بفارقْتُ؟ وما معناه؟ قلتَ: أراد تكرَّرَت المفارقةُ علىَّ وقتاً بعد وقْتٍ، وحالاً بعد حَالٍ، إلى أن صِرْتُ لا أبالى بالفِراق. فمعنى حتَّى: إلى أنْ. وقوله «فَارَقْتُ» مُستصلَحٌ للقليل والكثير فانصرَف إلى الكثير، بدَلالة أنَّ المتمرِّن بالبلاء قديماً، والمتحكِّك به كثيرا، هو الذى يستهين به كثيراً، دون من مَارَسَهُ يسيرا، وعالجه حديثا.

٢ ــ فقد جَعَلَتْ نفسى فى النَّأْىِ تَنطوى وعيْنى على فَقْدِ الصـديقِ تَنامُ

جعلَتْ نفسى، بمعنى طَفِقَتْ وأقبلَتْ، ولذلك لا يتعدّى. فيقول: أخذَتْ نفسى تَصبرُ على النأْى، وتنطوى على الفِراق، فلا يظهر منها جزَعٌ، ولا تبوحُ بشَكْوٍ، وعينى تنام على فقَد الصديق منهم فلا تسهر، ولا تبكى

(١) التبريزى: «وذكر أنه لعبد الصمد بن المعذل، وقيل للحسين بن مطير».
(٢) التبريزى «ويروى: وفارقت حتى ما أحن من النوى».
(٣) كذا فى النسختين مع اتفاقهما فى صلب البيت أنه «ما أبالى».

فتذرِف . وهكذا النفسُ إذا وُطِّنَتْ على الشدائد ، وتمرَّنَتْ بالمصائب . وقوله «تنطوى» أصْلُ الطَّىِّ الثَّنْى والقَبْضُ ، ومنه الطاوى والطَّيَّان .

٧٨

وقال آخر[١] :

١ — رُوِّعْتُ بالبَيْنِ حتَّى ما أُرَاعُ له … وبالمصــــائبِ فى أهلِى وجيرانى

يقول : فُزِّعْتُ بالفِراق مرّةً بعد أخرى ، وثانيةً بعد أولى ، حتى صِرْتُ لا أُرتاعُ له ، وواظبَتِ المصائبُ علىّ واتَّصَلَتْ فى الأهْلِ تارةً ، والإخوان أخرى ، حتى صارت الرَّزايا بالإلْف كأنها مرازِئُ وعطايا . والكلام فى حتّى واتصالِه ومعناه على ما تقدّم .

٢ — لم يَترُكِ الدهرُ لى عِلقًا أَضَنُّ به … إلا اصــطفاهُ بِنَأْيٍ أو بهِجْرانِ

يقول : لم أدّخِرْ لنفسى عِلْقًا نافَسْتُ فيه إلا زاحمنى الدهرُ عليه فاستأثر به ، إما بإيقاعِ بُعدٍ بيننا ، أو إحداثِ هِجرانٍ توسَّطَنا . وأصــلُ العِلْق : المالُ الكريم ، وجمعه أعْلاقٌ وعُلُوقٌ . واستعارهُ هاهنا .

٧٩

وقال طُفيلٌ الغَنَوِىُّ[٢] :

١ — وما أنا بالمستَنْكِرِ البَيْنَ إنَّنى … بِذِى لَطَفِ الجِيرانِ قِدْمًا مُفَجَّعُ

(١) التبريزى : «قال أبو العلاء : هذا يروى لمؤرج السدوسى ، وكان مؤرج يكنى أبا فيد» .

(٢) هو طفيل بن عوف ، أو هو طفيل بن كعب الغنوى . كان من أوصف الناس الخيل وكان يقال له فى الجاهلية المحبر ، لحسن شعره . وطفيل شاعر جاهلى فحل كان أكبر من النابغة وليس فى قيس فحل أقدم منه . الأغانى (١٤ : ٨٥ — ٨٧) والخزانة (٣ : ٦٤٢ — ٦٤٣) والعينى (٣ : ٢٤ — ٣١) والاشتقاق ١٦٥ والمؤتلف ١٤٧ ، ١٨٤ والاقتضاب ٣٢٧ والشعر والشعراء ٤٢٢ .

يقال: نَكِرَ وأنكَرَ واستنكرَ بمعنًى واحدٍ. فيقول: أنِسْتُ بفراقِ الأحبّة بعد نَفْرَتِى[1]، وببُعْد ذوى اللَّطَفِ عَقْبَ[2] قَلَقى، وذلك لأنّى فُجِّعْتُ بالخلطاء والجيران قديماً، حتَّى صار كالعادة المألوفة. وقوله «بذى لَطَفِ الجيران» أراد بلطيف الجيران، أى باللطيف منهم. وقِدْمًا ظرف للمُفجَّع.

٢ — جَدِيرٌ بهم من كلِّ حيٍّ صَحِبْتُهُمْ   إذا أَنَسٌ عَزُّوا علىَّ تَصَدَّعُوا

يقول: أنا خَليقٌ بالبَيْن من كلِّ حىٍّ أجاورُهم إذا استوقَفْتُ قُرْبَهم، واستحليت السَّكُونَ معهم، حتَّى لا يَعِزُّ علىَّ أُناسٌ إلاَّ تفرَّقوا عن كَثَبٍ. والأنَسُ: الطَّائفة من النّاس. يقال: رأيت معه أنَسًا كثيراً، أى ناساً. تَصَدَّعوا: تفرَّقوا. ومنه يقال تصدَّعتِ الأرضُ بفُلانٍ، إذا تَغَيَّبَ هارِباً.

٨٠

وقال الرَّاعِى[3]:

١ — وَقَدْ قادَنِى الجيرانُ حِينًا وقُدتُهُمْ   وفَارَقْتُ حَتَّى ما تَحِنُّ جِمَاليا[4]

يقول: جَذَبنى الخلَطَاء زمانًا وجذَبتُهم، حتى كُنتُ فى حُكْم من لا يَصبِرُ عنهم، ولا ينفَكُّ منهم، كالقائد للشَّىء وهو مقودٌ له، لأنّ من كان هذه صِفتَه مع شىء فهو يلزمُه ولا يفارِقه. والآن فارقْتُهم فلا أَحِنُّ إليهم، ولا أنْزِعُ نحوهم.

(١) م: «نفرى».
(٢) كذا بسكون القاف فى النسختين، وهى لغة صحيحة.
(٣) الراعى لقب له، واسمه عبيد بن حصين بن معاوية، أو حصين بن معاوية النميرى؛ وإنما قيل له الراعى لأنه كان يصف الإبل فى شعره. وهجاه جرير لأنه كان اتهمه بالميل إلى الفرزدق. الأغانى (٢٠: ١٦٨ – ١٧٣) والمؤتلف ١٢٢ والخزانة (١: ٥٠٢ – ٥٠٤) والاشتقاق ١٧٩ والنقائض فى مواضع كثيرة. والشعر والشعراء ٣٧٧ – ٣٨١.
(٤) البيتان فى معجم البلدان (وهبين).

ونَسَبَ الحنينَ إلى جِمالِه وإن كان المُرادُ النَّفْس ، لأنَّها فى الحنين أقلُّ صَبْرًا حتَّى ربما تَهِيم على وجوهها ، وتَنِدُّ عنْ صواحبِها ، طَلَبًا للإلْف ، وجَرْيًا مع الهَوى . وعلى هذا قال مَن قال فى مخاطَبة راحلته وقد رآها :

فإنِّى مِثْلُ ما تَجِدِينَ وَجْدِى ولكنْ أصحبَتْ عَنْهمْ قَرُونِى(١)

٢ — رجاؤُكَ أَنْسَانِى تَذَكُّرَ إخْوَتِى ومَالُكَ أَنْسَانِى بِوَهْبِينَ مَالِيَا

يقولُ : أمَلِى فيك أنسانى الفكر فى إخوتى وأهل بيتى ، وطمعى فى مالك أنسانى مالى بوهْبِينَ . وهذا قاله لأنّه يُرى أنّ رجاءه فيه لتحَقُّقه صار مؤثِّرًا على ذكر وطنه وعشيرته ، وأنّ ما طَمِع فيه من مالِه لمّا كان أكثرَ ممّا ملكه بوهبين صار مُنْسِيًا له .

* * *

وهذه المقطوعات بما اشتملت عليه من الفظاظة والقَسوة ، وذِكر قلّة الفِكر فى الأوطان والأحبَّة ، وتناسِى العُهود والأذِمَّة ، ومفارقة الأماكن المألوفة . والحِلَلِ المورودة ، وشَكْوى النّفس إلى التنائى والغُرْبَةِ ، دَخَلَتْ فى باب الحماسة . وبمِثْلِ هذه المناسبة دخل فيه كثير من نظائرها . وسَنَدُلّ عليها إذا انتهينا إليها .

٨١

وقال آخر :

١ — وإنّا لَتُصْبَحُ أَسْيَافُنَا إذا ما اصْطَبَحْنَ بيَوْمٍ سَفُوكِ

يرْوَى « تُصْبَحُ » بفتح الباء على ما لم يسمَّ فاعله ، فيكون المعنى : إنّا لَتُسْقَى أسيافنَا الصَّبُوحَ بيومٍ سَفُوكٍ إذا ما اصْطَبَحْن . ومن روى « لَتُصْبِحُ » بكسر الباء فخبَرُ تُصْبِحُ فى الثانى ، وهو « منابرُهُنَّ بُطون الأَكُفِّ » . والمعنى : إنّا لتصير أسيافنا إذا شَربَتِ الصّبوح فى يوم سَفُوكٍ للدماء بهذه الحالة .

---

(١) فى اللسان (قرن) : « أسمحت عنهم قرونى » . والبيت لرجل من بنى كليب . انظر ص ٢٩٥ .

ونسْبَةُ السَّفْكِ إلى اليَوْمِ مَجازٌ لَمَّا كان يقعُ فيه ، فهو كقولهم : نَهارُهُ صَائِمٌ .

٢ ـ مَنَابِرُهُنَّ بُطُونُ الأَكُفِّ وأَغْمَادُهُنَّ رءوسُ المُلُوكِ

أراد أنها تُنْتَضَى فتَخْطُبُ واعظةً للأعداء زاجرةً ، ومُنْذِرَةً للكُماةِ محذِّرَةً ، لكنّ منابرَهُنَّ أكُفُّ الضاربين ، وأغمادها إذا أُغمدت رءوس المُلوكِ المعظَّمين . وهم يتبجَّحون بقتل الملوك وقِتالها . ويقرُبُ من هذا قولُه :

* يكونُ جَفيرَها البَطَلُ النَّجيدُ *

وقوله :

من عَهْدِ عادٍ كان معروفًا لنا أَسْرُ الملوكِ وقتْلُها وقتِالُها

والمنابرُ : مواضِع النَّبْر ، وهو الصوت ، لأنها نُصِبت للخطب والمواعظ والتحميدات .

٨٢

١ ـ لا يَمنَعَنَّكَ خَفْضَ العيشِ فى دَعَةٍ نِزَاعُ نَفْسٍ إلَى أَهْلٍ وأَوْطانِ (١)

يقول : لا يُزَهِّدَنَّكَ اشتياقُك إلى السَّكْن ، وحنينُك إلى الوَطن ، فى إيثار سَعَةِ العيش ورَغدِهِ مع الرّاحة والسُّكون . ويُرْوَى : « نُزُوعُ نَفْسٍ » والنزوع اشتهارُه فى الكَفِّ عن الشىء ، والنِّزاعُ فى الشوق ، وإن كان جائزاً وقوعُ أحدِهما موقعَ الآخر فى التشوُّق . ويقال ناقةٌ منازعٌ ونَزُوعٌ . وقد أنزَعوا ، إذا حَنَّتْ إبلُهم . والنَّزْعُ : الجَذْب ، ويقال : خَرَجَ نازعَ يَدٍ ، إذا خرَج عن الطاعةِ .

٢ ـ تَلْقَى بكُلِّ بِلادٍ إنْ حَلَلْتَ بها أَهْلاً بأَهْلٍ وجيرَانًا بجيرَانِ

(١) جعل التبريزى الرواية الأولى : « نزوع نفس » ، ثم نبه على رواية « نزاع » .

هذا تسليةٌ للنفس عن الأهل . يقول : تجدُ بكلّ بلد تنزِلُ به أهلاً بدلاً من أهلِك ، وجيراناً بدلا من جيرانِك . والعربُ تقولُ : هذا بذاكَ ، أى هو عِوَضٌ منه . وإنما ضَمَّنَ أبو تمّام هذه الأبياتَ بابَ الحماسة ، لما قدَّمتُه من أنها صادرةٌ عن قَسْوةٍ شديدةٍ ، وقلّةِ فِكرٍ فى التحوُّل عن الإلْف والعادة ، ولإنّ تَرْكَ الوطن والإخلال بالعشيرة يُضَمُّ إلى القتلِ وتَلف النفس ، فالصبر عليه كالصبر على القتل . ألا ترى قوله تعالى : ﴿ ولَوْ أنّا كَتَبْنا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أنفسَكم أَوِ اُخرُجوا من دِيارِكم ما فعَلُوه إلاّ قليلٌ مِنْهم ﴾ .

٨٣

وقال بعض بنى أَسَدٍ (١) :

١ – إلاّ أَكُنْ مِمّنْ عَلِمْتِ فإنّنى إلَى نَسَبٍ مِمّنْ جَهِلْتِ كَرِيمِ

يقول : إن لم أكُن ممن عرَفْتهم بالشرف ، فإنى أنتمى إلى شرَفٍ كريم ممن جهِلْتِهم . كأنه يريد : ليس الاعتبارُ بما تَعُدِّينه شرَفاً أو تعرفينَه نَسَبًا ، لكنّ الاعتبارَ بحصول الكَرَمِ على أىّ وَجْهٍ حصَل ، وحَوْزِ المَجْد وإنْ جَهِلَه من جَهِل . وقولُه « إلَى نَسَبٍ » يَتعلقُ بفعل مضمَرٍ ، كأنه قال : فإننى أنتمِى إلَى نسبٍ .

٢ – وإلاّ أَكُن كلَّ الجَوَادِ فإنّنى عَلَى الزّادِ فى الظَّلماءِ غيْرُ شَتيمِ

يقولُ : إن لم أكُن النهايةَ فى الجودِ فإنى لا أُشْتَمُ بسبب الزاد فى الليلة المظلمة ، فلا أُذَمُّ لصَرْفى الضيف عن نفسى بالعِلل الكاذبة فى الشَّتْوَةِ القَحِطة . وقد اشتَمَل قولُه «على الزادِ فى الظَّلماءِ» على ما بَيَّنّا وأكثرَ منه . وهذا الذى خَبَّرَ

(١) التبريزى : «قيل لعبد العزيز بن زرارة» .

به عن نفسه هو الجُودُ ، لكنه أراد أن يُرِيَ من نفسه تَرْكَ ادّعاء النِّهايات ، والأخذِ بالاقتصاد فى الحالات ، وإن كانَ تناهَى من حيث اقتَصَدَ . ويقال زَيْدٌ الشُّجاع كلُّ الشجاع ، والمعنى أنه الكاملُ فى معناه . ومن هذا الباب قولُه عزّ وجلّ : ﴿ وإنّا أو إيّاكمْ لَعَلَى هُدًى أو فى ضَلاَلٍ ﴾ . وهذا كلامُ من نظر لنفسه وغَيْرِه ، وتبيَّن ما عليه وله ، فأثبَتَ ما أثبَتَ فى أحسن مِعْرَضٍ ، ودفَع ما دَفع بألطفِ تعريضٍ . وتعلّق على من قوله : « على الزاد » بشتيم وإن كان مضافًا إليه ، لأنه أُجْرِيَ غير مَجْرَى لا ، لأنهما للنَّفْى ، فحُمِل الكلام على المَعْنى فكأنه قال : إنّنى على الزادِ لا أشتَمُ . ونزيد هذا شرحًا فيما بعدَه .

٢ — وإلاّ أكُنْ كلَّ الشُّجاعِ فإنّنى   بضَرْبِ الطُّلَى والهامِ حَقُّ عَليمِ

هذا كالبيت الذى قبله . يقول : إن لم أكُنِ النِّهايةَ فى الشّجاعة ، والمعنى إن لم يكن فِعلِى النهاية فيما يفعلُه الشجاع ، فإننى عالمٌ حقًّا بضرْب الرءوس والطُّلَى . والمتناهِى فى الشجاعة لا يَتعدّى فعلُه هذا ، لكنَّه سَلَكَ طريقته فيما قَبْلَهُ . الطُّلَى : الأعناق وأعراضها ، والواحدةُ طُلْيةٌ . والباء من قوله « بضَرْب الطُّلَى » تعلّق بقوله عليم .

فإن قيل : كيف سَاغَ ذلك والمُضاف إليه لا يعمل فيما قَبْلَ المضاف ؟ قُلْتَ : لمّا كان قَوْلُه « حَقُّ عَليم » لا زيادةَ فيه إلا التوكيد لم يُعْتَدَّ بالمضاف ، فحُمِل الكلام على المعنَى لا على اللّفظ ، فكأنّهُ قال : إنّنِى بضَربِ الطُّلَى عليمٌ جدًّا . ويجرى هذا المَجْرَى إجازتُهم لقول القائل أنتَ زَيْدًا غير ضاربٍ ، مع امتناعهم من إجازة أنت زَيْدًا مثْلُ ضاربٍ ، لما كانت مَعْنَى غَيْرٍ معنى لا ، فَحُمِلَ الكلام على المعنى لا على اللفظ ، حتّى كأنه قيل : أنْتَ زَيْدًا لا ضاربٌ . فاعلمه ، وبالله التوفيق .

٨٤

وقال عَمْرو بن شَأْس (١) :

١ — أَرَادَتْ عِرَارًا بالهَوَانِ وَمَنْ يُرِدْ عِرَارًا لَعَمْرِى بالهَوَانِ فقد ظَلَمْ

المُضْمَرَةُ فى أرادت رابَّةُ عِرَارٍ ، فقال والدُهُ عَمْرٌو : أرادت امرأتى إهانةَ عِرَارٍ والاستخفافَ به ، ومن يطلبْ ذلك فى مثلِهِ فقد وضعَ الشىء فى غير موضِعِه . فإن قيل : هل تَفْصِلُ بين قولِهِ أرادت عِراراً بالهوان وبين قوله لو قال أهانت عراراً ؟ قلتَ : بَلَى ، لأنَّ معنى أرادتْهُ بالهوان أرادت كونَهُ لها وصحبتَه إياها باستعمال الهوانِ معه ، فيجوز أن يكون الهوانُ واقعاً ، ويجوز أن يكون غيرَ واقعٍ . ومعنى أهانَتْه : ابتذلَتْهُ وأذَلَّته . فهو إخْبَارٌ لوقوع الفعل به فيما مضى . ويجوز أن يكون معنَى ظَلَمَ : تَحَيَّفَ حَقَّهُ وبَخَسَهُ .

٢ — فإنْ كُنْتِ مِنِّى أو تُرِيدِينَ صُحْبَتِى فَكُونِى له كالسَّمْنِ رُبَّتْ لَهُ الأَدَمْ

نَقَلَ الكلامَ عن الإخْبارِ إلى الخطاب ، على عَادَةِ تَفَنُّنِهم . يقول : إنْ كُنتِ تَهْوَيْنَ هَوَاىَ ، أو تُرِيدِينَ الكَوْنَ مَعِى ومصاحبتى ، وإن انْطَوَيْتِ فى حُبِّه على مُخَالَفَتِى ، فكُونِى له فى تَصَنُّعِكِ كأنكِ موافقةُ الظّاهِرِ للباطنِ ، جاريَةٌ معَهُ على الجَدِّ الواحد من حُسْنِ العِشْرَةِ ، وإظهارِ المَيل والمَوَدّة . والسَّمْنُ

(١) عمرو بن شأن الأسدى ، قال الجمحى : «كثير الشعر فى الجاهلة والإسلام ، وهو أكثر طبقته شعراً» . وأسلم فى صدر الإسلام وشهد القادسية . وقال ابن قتيبة : «وهو أبو عرار ، وفيه يقول عمرو لامرأته» . وأنشد الأبيات . الشعر والشعراء ٣٨٩ والجمحى ٤٦ — ٤٧ والمرزبانى ٢١٢ — ٢١٣ واللآلئ ٧٥٠ — ٧٥١ والأغانى (١٠ : ٦٠ — ٦٣) . وقال التبريزى : «هو مخضرم أدرك الإسلام وهو شيخ كبير ، وكانت له امرأة من قومه وابن من أمة سوداء يقال له عرار ، فكانت تعيره إياه وتؤذيه ويؤذيها ، فأنكر عمرو أذاها له» .

إذا رُبَّ نِحْيُهُ لم يتغير. يريد فلا تتغيَّرى أنتِ أيضاً. ومعنى رُبِّتْ له أى من أجْلِهِ، والأَدَمُ: جمعٌ، يقالُ أدِيمٌ وأَدَمٌ. وله نظائرُ قليلة: إهَابٌ وأَهَبٌ، وأفِيقٌ وأَفَقٌ، وعَمُودٌ وعَمَدٌ.

٣ــ وإنْ كُنْتِ تَهْوَيْنَ الفِرَاقَ ظَعِينَتِي فَكُونِي له كالذِّئْبِ ضاعتْ لهُ الغَنَمْ

يقول: وإن كنتِ تُؤْثِرِين مفارقتى وتميلين إلى التباين عنّى فأسِيئى عِشْرتَه وكونى له كالذِّئب ضاعتِ الغنم من أجل وُقوعه فيها. والمعنى عاشِرِيه عِشْرَتَهُ لها. ويجوز أن يريد بقوله « ضاعت له الغنم » فاتتْه الغنم بعد أن أمْكَنَتْه. والسَّبعُ إذا شارفَ فريسته ثم فَاتَهُ كان ذلك مُهَيِّجًا له، وداعِياً إلى الفساد فيما يُمكنه[1].

٤ــ وإلاَّ فَسِيرِى مِثْلَ ماسَارَ راكِبٌ تَجَشَّمَ خِمْسًا ليس فى سَيْرِهِ أَمَمْ

هذا كما يقال على طريق الوعيد أو إظهار الزُّهْد لمن يُؤْمَرُ شيئا: اعْمَل كذا وكذا وإلاَّ فَدَعْهُما ولا تَعْمَل أحدَهُما فلا حاجةَ لنا فيه. يقول: وإلاّ فلا تُحْسِنِى إليه وفارقينى مِن وقتِك. وهذا إظْهَارٌ لزهده فيها، واطّراح تَكَلُّفِ الاشتراطات مَعَها. ثم قال: ليكن سيْرُكِ سيْرَ الرّاكِبِ تكلَّفَ وُرودَ الماء لِخِمسٍ، وليس فى سيْرِهِ قَصْدٌ ولا قُرْبٌ. وقوله « مِثْلَ ما سار راكِبٌ » أى سيْرًا يُشابه سيْرَهُ. وقوله «تَجَشَّم» من صِفَةِ راكب. والأمَمُ: القربُ، ويقال أَمْرِى من أمرِكُمْ أَمَمٌ. ويُروَى: « ليس فى سيره يَتَمْ » أى إبطاء[2].

٥ــ فإنَّ عِرَارًا إن يَكُنْ ذَا شَكِيمَةٍ تُلاَقِينها منه فما أمْلِكُ الشِّيَمْ

يقول: إنّ عِرَاراً إنْ يكن ذا سوء خُلُقٍ تُمْنَيْنَ به وتَشْقَيْنَ بمقاساته، فإنى

(١) زاد التبريزى: «وهذا تهدد منه لها، وليس هو على حقيقة الأمر».

لا أملكُ تغيير الطبائع والخلائق. وكأنّه جوابٌ لاعتذارها من قلّة الملاءمة بينهما. والشّكيمةُ: الحدُّ والشِّدّة. ويقال: إنّه لشديدُ الشّكيمة، أى شديد العارضة. ويجوز أن يكون شَكيمةُ اللِّجام — وهى الحديدة المعترِضة منه فى الفم — مأخوذاً منه، والجميع الشكائم.

٦ — وإنّ عِرَارًا إن يكُنْ غيرَ واضحٍ فإنِّى أُحِبُّ الجَوْنَ ذَا المَنكِبِ العَمَمْ

يقول: وإنّ وَلَدِى عِراراً إن لم يكن وَضىء الوجه ممسوحًا بالجمال، فإنِّى أحِبُّه على سوادِه وتمام خَلْقِه. وهذا كأنه إسقاطٌ لقول من يُزَيِّفُ ابنَه ويُعَيِّرُه القُبحَ والدّمامةَ. وكان عِرارٌ هذا أحَدَ الفُضَلاء، وتوجَّه عن المُهَلّب بن أبى صُفْرة إلى الحجّاج رسولاً فى بَعض فُتوحه، فلما مَثَل بين يَدَى الحجّاج لم يعرِفْه، وازدراه، فلما استَنطقه أبانَ وأعرَبَ ما شاء، وبلغ الغاية والمرادَ فى كلّ ما سأل، فأنشدَ الحجّاجُ: «أرادت عِراراً بالهَوَان ...». الأبياتَ متمثّلاً، فقال عِرارٌ: أنا أيّدَ الله الأميرَ عِرارٌ! فأُعجِبَ به وبذلك الاتفاق. وفى هذه الطريقة قول المأمون لإبراهيم بن المَهدِىّ:

إن يكن للسَّوَادِ فيك نَصِيبٌ فبَيَاضُ الأخلاقِ منك نَصِيبى

والعميمُ والعَمَمُ: الطويل التامّ من كلّ شىء. والجون الأسود هاهنا، ويُجْعَل من الأضداد.

٨٥

وقال آخر (١):

١ — لولاَ أُمَيْمةُ لم أَجْزَعْ من العَدَمِ ولم أُقاسِ الدُّجَى فى حِنْدِسِ الظُّلَمِ

(١) التبريزى: «وهو إسحاق بن خلف».

يُرْوَى : « ولم أَجُبْ فى الليالى حِنْدِسَ الظُّلَمِ » . والمبتدأ بعد لولا يُحذَفُ خَبَرُه أبداً ، ويُستغنَى بجواب لَوْلاَ عنه . والتقدير : لولا أُمَيْمةُ مانعةٌ لم أَجْزَع . فيقولُ : لولا ابنتى أميمة لم أَخَفِ الفقر ولم أَرْحَلْ فى طَلَب المال ، ولم أركب الليل ، فكنت أجوبُ ظَلْماءه ، وأُكابدُ أهوالَه . والحِنْدِس : شدة الظُّلمة ، وقد اشتُقَّ منه الفعل ، فقيل : حَنْدَسَ الليلُ فهو مُحَنْدِسٌ(١) . ومعنى لم أجُبْ : لم أَقطع . وقاطِـع المواضع المُظْلمة كأنه قاطِعٌ للظُّلْمة . ومن رَوَى « ولم أقاسِ الدُّجى » يريدُ أهوالَها . وإضافة الحِنْدِس إلى الظُّلَم كإضافة البعض إلى الكلّ ، أى فى الشَّديد من الظُّلَم . ويقال تَحَنْدَس الرَّجُل(٢) ، إذا ضَعُف وسَقَط .

٢ — وزادنى رَغْبَةً فى العيشِ مَعْرِفَتِى ذُلَّ اليَتِيمةِ يَجْفُوها ذَوُو الرَّحِمِ

يقول : زادنى حِرْصًا على الدُّنيا ورَغْبةً فى العَيْشِ فيها ، عِلْمِى بذلِّ اليتيمة وقد جَفاها أقاربُها ، وأَطَّرَحَها أَهْلوها . وموضع « يَجفُوها » من الإعراب نَصْبٌ على الحال لليتيمة ، والعامِلُ فيه ذُلّ اليتيمة . والتقدير : زادنى مَعرفتى بذُلّ اليتيمة إذا جَفاها ذَوُوها رَغْبَةً فى العَيْش ومُهْلَةِ العُمْر .

٣ — أُحَاذِرُ الفَقْرَ يَوْمًا أن يُلِمَّ بها فَيَهْتِكَ السِّتْرَ عن لَحْمٍ على وَضَمِ

قوله « أن يُلِمّ بها » موضعُهُ نَصْبٌ على البَدَل من الفقر . والمعنى : أُحاذِر إلمامَ الفَقْرِ بها فيَكْشِفَ السِّتْرَ عَمَّن لا دِفاعَ به ، فتناوَلَهُ من شاء بما شاء . والعربُ تَقُولُ : « النِّساء لَحْمٌ على وَضَمٍ إلا ما ذُبَّ عَنْهُ » . والوَضَمُ : خِوَانُ الجزّارِ والخبّاز ، ومَوضِعُه مِيضَمَةٌ ، والجميع المَوَاضِم .

٤ — تَهْوَى حياتى وأَهْوَى مَوْتَها شَفَقًا والمَوْتُ أَكْرَمُ نَزّالٍ على الحُرَمِ

(١) هذا الفعل ومشتقه مما لم يرد فى المعاجم المتداولة .

(٢) ورد فى القاموس ، ولم يرد فى اللسان .

يقول : تحبّ ابنتى بقائى لها ، وأنا أودُّ مَوتَها إشفاقاً عليها ، وخوفاً من ابتذالٍ يَلْحَقُها ، وابتلاء بمن لا يَعرفُ لها ما يُعرَفُ لمثلها ، ثم قال : والموتُ أكرمُ نزّالٍ على الحُرَمِ ، كما قيل : « نِعمَ الخَتَنُ القَبْرُ » و « دَفْنُ البناتِ من المكرُمات » . وانتصب شَفَقًا على أنه مفعولٌ له .

٥ – أَخْشَى فَظَاظَةَ عَمٍّ أو جَفَاءَ أخٍ   وكُنْتُ أُبقِي عَلَيهَا منْ أذَى الكَلِمِ

هذا تفسير قوله « أَهْوَى مَوْتَها شَفَقًا » يريد : أُشْفِقُ من مغالَظَةِ عَمٍّ لها ، أو جَفْوَةِ أخٍ تَلْحَقُهَا ، وأنا كنت[1] أُبقِي عليها من إيذائها بالكَلِمِ فَضْلاً عن غَيْرِها من الأفعال . يقال : رَجُلٌ فَظٌّ ، إذا كان قاسِيَ القَلْب غليظَ القول . والكَلِمُ : جمع كلمةٍ . ومعنى : « أَذَى الكَلِمِ » الأَذَى الذى يَلحقُ من الكَلِم .

وهذه الأبيات مع ما يشبهها لمّا ضادّت ما قبلها فى تضمُّنها رِقة القَلْبِ ، والتعطُّفَ على الوَلَدِ والأَهْلِ ، أتبَعَها بها . وكلُّ ذلك كالعارِض ثم يَعُود إلى ما بنى عليه الباب . وهذا عادةُ أبى تمام فى أبواب هذا الاختيار . ويشبهها قول الآخر[2] :

لَقَدْ زَادَ الحياةَ إليَّ حُبًّا   بَنَاتِى إنّهُنّ من الضِّعَافِ
أُحاذِرُ أن يَرَيْنَ البُؤْسَ بَعْدِى   وأن يَشْرَبْنَ رَنْقًا بعد صافِ[3]
وأنْ يَعْرَيْنَ إن كُسِىَ الجَوَارِى   فَتَنْبُو العَيْنُ عَنْ كَرَمٍ عِجَافِ

(١) م : « وإنما كنت » .
(٢) هو أبو خالد القنانى ، كما فى الكامل ٥٢٩ ليبسك واللسان (كرم) .
(٣) الكامل : « أن يرين الفقر » .

٨٦

وقال خَطَّابُ بن المعلَّى[(١)] :

١ ـ أنزَلَنِي الدَّهرُ على حُـكْمِهِ من شَامِخٍ عَالٍ إلى خَفْضِ

يقول للدّهْرِ حُـكْمٌ مَعْرُوفٌ، وطَرِيقٌ مألوفٌ، فى رَفْعِ الوضيع، وحطِّ الرفيع، فأَجْرَى حُـكْمَه عَلَيَّ، وأنزَلَنِي عن رُتْبَةٍ عَالِيَةٍ إلى مَنْزِلَةٍ مُنْخَفِضَةٍ، والخَفْضُ: ضِدُّ الرَّفْع، وهو مَصْدَرٌ وُضِـع موضِـعَ المفعول. يريدُ إلى مكان منخفض.

٢ ـ وغَالَنِي الدَّهرُ بوَفْرِ الغِنَى فلَيْسَ لِي مَالٌ سِوَى عِرْضِى

يُرْوَى: عالَني « ومعناه غلبنى، ويروى: « غالنى » ومعناه أهْلـكنى بارتجاع عَوَارِيِّه من المال، واستلابِ ما كنتُ وُفِرْتُ[(٢)] به من العَتَادِ، فمالى مَالٌ سِوَى نَفْسى، وليس النَّفْس من المال فى شىء. ومَوْضِـعُ « سوى » نَصْبٌ على أنه استثناء خارجٌ، وهذا الاستثناء يتأكّد به انتفاء الغِنَى. ومثله قوله:

ولا عَيبَ فيهم غَيْرَ أنَّ سُيُوفهم بِهِنَّ فُلُولٌ من قِرَاعِ الـكَتَائِبِ[(٣)]

ويجوزأن يكون المعنى: ليس لى غِنًى سوى غنى نَفسِى، فحذَف المُضَافَ، والمعنى: إنّ نَفْسِى غَنِيَّةٌ فلا تَطْمَعُ فى المـكاسِب الوضيعة، ولا تتدنس بالمآكل الخبيثة. وقوله « بوفرِ الغِنَى » أى بِسَلْبِ وَفْرِ الغِنَى، فحذَفَ المُضَافَ. ويتعلّق الباء منه بقوله غَالَنِي. والوَفْرُ: كثرةُ المال، وأضافَهُ إلى الغنى، لأن المراد المال الذى يَحْصُلُ

(١) كذا باتفاق النسختين. التبريزى: « حِطان بن المعلى » وذكر عن اشتقاقه عن أبى العلاء: « حطان فعلان من الحط ».

(٢) م: « وقرت » بالقاف.

(٣) البيت للنابغة الذبيانى فى ديوانه ٦.

به الغِنَى . وهم يضيفون الشيءَ إلى الشيء لأدنى مناسبة بينهما ، سَوَاء كان له أو عَلَيْه ، أو معه أو فيه ، أو من أجْلِهِ ، أو مما يليه . ويجوز أن يكون مَوْضِع « بوَفْر الغِنى » نَصْبًا على الحال للدَّهْر ، كما تقول : فاتنى فُلانٌ بكذا ، والمعنى فَاتَنِي مستصْحِبًا لَهُ . ومثله : جاء فى أَطْمَارٍ ، أى لابِسًا لها . ويجوز أن يكون حملَ الـكلام على المعْنى ، فَعَدَّى غَالَنِي تَعْدِيَةَ فَجَعَنِي ، لأنه فى معناه ، فكأنه قال : فَجَعَنِى بوفر الغِنى وأصابنى .

٣ – أبـكانِىَ ٱلدَّهْرُ وَيارُبَّمَا أضْحَـكَنى ٱلدَّهْرُ بِما يُرْضِى

قولُه « بما يُرْضِى » يدُلُّ على أنه أضمَرَ مع قولِهِ أبكانى الدهرَ شيئا يكونُ فى مقابَلتِهِ ، وحذف لأنّ المراد مفهومٌ . والمعنى أبكانى الدهرُ بما يُسْخِط . وقوله « يارُبَّمَا » المُنادَى فيه محذوف ، كأنه قال : يا قومِ رُبَّما . وهذا النداء على وجْهِ التحسُّر والتوجع من معاملة الدهر وسوء تَنَقُّله . وقولُه « رُبَّما » « ما » هذه دخلتْ كافَّة لِرُبَّ عن العمل ، ومخرِجةً لها إلى أن تَصيرَ مشتركةً حتَّى جازَ وقوعُ أضحكنى بَعدُه . ومثلُه قولُه تعالى : ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الذين كَفَروا[1]﴾ . ومعنى البيت : أبكانى الدهر بما أسخَطَنى ، ويا قَوْمِ ربما أضحكنى الدهرُ فيما مضى بمـا أرْضانى . وفى طريقتِهِ قولُ الآخر[2] :

فإنْ تـكُنِ الأيّامُ أحْسَنَّ مَرَّةً إلىَّ فقد عادتْ لهُنَّ ذُنُوبُ

٤ – لولاَ بُنَيّاتٌ كَزُغْبِ القَطَا رُدِدْنَ من بَعْضٍ إلَى بَعْضِ

(١) قرأ نافع وعاصم وأبو جعفر بتخفيف الباء فى ربما ، والباقون بتشديدها . إتحاف فضلاء البشر ٢٧٤ . وقد وردت فى النسختين بتشديد الباء . ومما يجدر ذكره أن « رب » لم تقع فى القرآن إلا فى هذه الآية من سورة الحجر على كثرة وقوعها فى لسان العرب . تفسير أبى حيان (٥ : ٤٤٠) .

(٢) هو كعب بن سعد الغنوى . أمالى القالى (٢ : ١٤٩) .

بُنَيَّاتٌ في موضع المبتدأ ، وجاز الابتداء به لكونه محدوداً[1] بما اتصل به من الصفات . وجوابُ لوْلا « لكان لى مُضطرَبٌ واسعٌ » وهو أول البيت الذى يليه ، واستغنى به عن خبر المبتدإ ، والتقدير : لولا بُنَيّاتٌ صفاتهن هذه مانعةٌ لى لفَعَلْت . ومعنى البيت : لولا بُنَيّاتٌ لى صغيراتٌ كفراخ القَطَا التى عليها الزَّغَب — وهو الشَّعرُ اللَّيِّن اصغرهنّ — اجتمعنَ لى فى مُدَّةٍ يسيرةٍ ، فمِنْ ثانيةٍ بعد أولَى ، وواحدةٍ إلى جنب أخرى فكثُرنَ — لكان كذا . ومثله :

تجَمَّعْنَ مِنْ شَتَّى ثَلاَثًا وَأَرْبَعًا ... وواحدةً حتَّى اجتمَعْنَ ثمانِيَا

أى جِئْن متواليًا . ويُروى : « رَدَدْنَ مِن بعضٍ إلى بعضٍ » ، بفتح الراء من رَدَدْن وإضافة البعض ، والمعنى : قوَّسْنَنِى وحَنَيْنَ ظهرى . ويجوز فى الرواية الأولى أن يكون المعنى أنّ هذه البنات زُوِّجْن فرُدِدْنَ مع بناتٍ لهنّ صغار . ويقال : ابنتك مردودة ، أى مطلَّقةٌ . وإلى فى موضع مَعَ ، يقالُ هذا إلى ذلك أى معه . ويكون « من بَعضٍ إلى بَعضٍ » فى موضع الحال ، أى رُدِدْنَ مع غيرهن . وقد شبّه الحُطيْئةُ وغيرُه الأولادَ بزُغْبِ القَطَا ، فقال :

ماذا تقولُ لأفرَاخٍ بذِى مَرَخٍ ... زُغْبِ الحَوَاصِلِ لا ماءٌ ولا شَجَرُ

يجوز أن يُرَوى « رُدِدْن » على ما لم يسمّ فاعله . و « من بعضٍ إلى بعضٍ » مُضافَيْن . والمعنى : كُنّ فى صُلْبِى ، فلما ولَدْتُهنّ صِرْنَ فى كَبِدِى فهى تحترق عليهنّ لفرط شفقتى .

٥ — لكانَ لى مُضْطرَبٌ واسعٌ ... فى الأرْضِ ذاتِ الطُّولِ والعَرْضِ

المضطرَبُ يكون الاضطرابَ ، ويكون موضع الاضطراب . يقول : لوْلاَ خَوْفى من ضَياعِهِنّ وإبقائى عليهنّ ، لكان لى مَجَالٌ واسعٌ ، ومذهَبٌ فسيحٌ

(١) فى الأصل : « محذونا » ، صوابه فى م والتبريزى .

فى الأرض الطويلة العريضة . وإنما تلوّمْتُ والزِمْتُ مكانى هذا لهنّ وبسببهنّ .

٦ — وإنما أولادُنا بَيْنَنا أكبادُنا تمشى على الأرْضِ[1]

يقول : محلُّ أولادنا من أنفسنا فيما بيننا وإن كانت ماشيةً على الأرض محلُّ الأكباد من الأجواف . ويقال « الوَلَد فِلذَةٌ من الكبد » ، أى قِطعةٌ . وقولُه « تمشى على الأرض » فى موضع الحال للأولاد ، وبيننا ظَرْفٌ لتمشى . والتقدير : أولادُنا وهى ماشيةٌ على الأرض بيننا أكبادُنا . وقوله « إنما » يدخُل لتحقيق الشىء على وجْه مع نفى غيره عنه .

٨٧

وقال حيّان بن ربيعة[2] :

١ — لقد عَلِمَ القبائلُ أنَّ قومى ذوُو جِـدٍّ إذا لُبِسَ الحديدُ[3]

يقول : شَهِدَتِ القبائلُ أنَّ قومى يَجِدّون فى الحرب إذا تَدَجَّجَ أهْلُها فى الأسلحة ، ويُبْلُون فيها ولا يُقَصِّرُون . و « إذا لُبِس الحديد » ظَرْفٌ لقوله « ذَوُو جِدٍّ » كأنه قال : إنهم يجتهدون فى ذلك الوقت . وأنّ قومى مع ما بعدَه سَدَّ مَسَدَّ مفعولَىْ عَلِمَ .

(١) بعده عند التبريزى :

لو هبَّت الرِّيحُ على بعضهم لامتَنَعَتْ عَينِى مِن الغُمْضِ

(٢) التبريزى : « قال أبو هلال : هكذا قال أبو تمام . ونحن نقول : هو حيان بن عليق بن ربيعة الطائى ، أخو بنى أخزم ثم أحد بن عدى بن أخزم بن أبى أخزم بن عمرو بن ثعل . وفى نسخة أبى أحمد : جبار بن ربيعة ، وهو غلط ، وليس فيهم جبار بن ربيعة ، إنما هو جبار بن جزء بن ضرار ، ابن أخى الشماخ ، وجبار بن مالك بن حمار الشمخى من فزارة ، وجبار بن عمرو بن عميرة الطائى ، ويعرف بالأسد الرهيص . وأما جبار بن ربيعة فليس بمعروف ولا مذكور » .

(٣) التبريزى : « ويروى : ذوو حد . والحد : السلاح » .

٢ ــ وأَنَّا نِعْمَ أَحْلاَسُ الْقَوَافِي إذا اسْتَعَرَ التَّنافُرُ والنَشِيدُ

يقول : ويشهدون أيضاً أنَّه نِعمْ أصحابُ القوافى وأربابُها نحن ، إذا التهبَتْ نارُ التفاخُر والتناشُد والتحاكُم . والحِلْس ، أَصْلُهُ البَرْذَعَةُ وما يَلِي الظَّهْر تحت الرَّحْل ، ثم يُستعمل على طريق التَّشبيه على وجهين : يقال فى الذمّ : فُلانٌ كالحِلْسِ المُلْقَى ، فيمن لا غَناء عنده ولا كفايَةَ إذا حَزَبَهُ أمْرٌ . ويقال فيمن لَزِمَ ظهورَ الخَيْل : هم أَحْلاَسُها ؛ وهذا إذا مَدَحُوا بالفروسيّة . ثم قالوا : ما هذا من أَحْلاَسِ فُلاَنٍ ، أى ليس من آلاتِه . وقد مَرّ بى أيضاً أنه يقال للكِفْل الذى ليس بفارسٍ : هو كالحِلْس . وأَحْلاَسُ البيت : ما يُلْقَى تحت حُرِّ مَتَاعه :

٣ ــ وَأَنَّا نَضْرِبُ المَلْحَاءَ حَتَّى تُوَلِّيَ والسُّيُوفُ لنا شُهودُ[(١)]

يقول : وشهدوا أيضاً أنا نُضاربُ الكتيبةَ البيضاءَ لكثرة سلاحِها فنَغْلِبُهم حتى تُوَلِّيَ منهزِمَةً ، وسيوفُنا لها حاضِرةٌ نَكْتَسِحُهُم بها فى الهَرَب أيضاً ، والمَلْحَاء من المَلَحِ ، وهو البَيَاضُ . يقال : كَبْشٌ أَمْلَحُ . ويُرْوَى « نَضْرُبُ المَلْحَاءَ » بضمّ الراء . ويقال : ضاربْتُهُ فضَرَبْتُهُ أَضْرُبُهُ ، أى غَلَبْتُه فى الضِّراب .

٨٨

وقال الأَعْرَجُ المَعْنِيُّ[(٢)] :

١ ــ أَنَا أَبُو بَرْزَةَ إِذْ جَدَّ الْوَهَلْ[(٣)]

---

(١) م : « لها شهود » .

(٢) التبريزى : « معنى طيىء » . وقيل الصحيح أنها لعمرو بن يثربى » . والأعرج المعنى هو على بن عمرو بن سويد بن ريان الأعرح الطائى المعنى ، وقيل اسمه سويد بن على . وهو شاعر مخضرم . معجم المرزبانى ٢٥١ .

(٣) التبريزى : « ويروى : أنا أبو بردة » . وقد روى التبريزى الأشطار الخمسة الأولى بترتيبها هنا ، ثم روى بعدها الشطر السابع ثم شطراً آخر لم يروه المرزوقى ، وهو : =

٢ ـ خُلِقْتُ غَيْرَ زُمَّلٍ ولا وَكَلْ

يريد أنا الذى لِشهرته تُغنى كُنيتُه عن صفاته وذكر أحْوَالِه ، وقتَ اشتداد الخَوْف . فإن قيل : ما العامِلُ فى قَوْلِهِ « إذْ جَدَّ » ؟ قُلْتَ : ما دَلّ عليه قولُه أنا أبو بَرْزَةَ من المعنى الذى بَيَّنْتُه هو العامِلُ — ومثلُه :

* أنا أبو النَّجمِ وشِعرى شعرِى *

وقولُه « خُلِقْتُ غَيْرَ زُمَّلٍ » ، أى غير ضعيف ولا جَبَان يتّكل على غيره فيما يَنُوبُه . والزُّمَّل[1] والزُّمَّال والزُّمَّيْلة[2] : الضعيف . والوَكَلُ : الذى يتّكلُ على غيره .

٣ ـ ذَا قُوَّةٍ وذا شَبَابٍ مُقْتَبَلْ

٤ ـ لا جَزَعَ اليَوْمَ على قُرْبِ الأَجَلْ

٥ ـ المَوْتُ أَحْلَى عِنْدَنا من العَسَلْ

يقول : خُلِقْتُ قويًّا مُقْتَبَلَ الشباب ، لم تُبلِنى السِّنونَ ، ولم يُضْعِفنى ما مَسّنى من النّوائب والهموم . فإن قيل : ما الزِّيادة فى قوله « ذا قُوَّةٍ » على قوله « غير زُمّل » ؟ قلتَ : يجوز أن يكون ذا قوة مصروفًا إلى الرّأى ، وغير زُمّل مصروفًا إلى البِنْيَةِ . ويجوز أن يكون المراد بذا قوةٍ الجَلادَة ، لأنّه ليس من كان غير ضعيف كان جَلْدًا . واقتبالُ الشّباب : ألّا يُرَى أثَرٌ من الكِبَر معه .

وقوله « لا جَزَعَ اليوم » يقول : استَقْتَلْنا يومَنا ، فلا نجزع على دُنُوِّ الأجل

---

* نحنُ بنُو الموتِ إذا الموتُ نَزَلْ *

ثم الشطر الثامن ثم الشطر السادس .

(١) يقال بتشديد الميم وتخفيفها .

(٢) وهذا أيضاً بتشديد الميم وتخفيفها .

فيه إن دَنَا ، لأنَّ الموت إذا غشينَا فيما نطلبه ، أحْلَى طَعَمًا عندنا من طعم العسل ، وقوله « اليوم » ظرف لقرب الاجَل ، وعلى قُرْب الأجل ، خَبَرٌ لِلاَ . ويجوز أن تجعل اليَوْمَ خَبَرًا « على قرب الأجل » تبيينًا له أو حالاً . وإنْ جعلتَه خبرًا بعد خَبَرٍ ، كما تقول : هذا حلوٌ حامِضٌ ، جاز أيضا . وذكر بعضُ المتأخِّرين أنه لا يجوز أن يكون معنى « على » هنا معناها فى قَوْلِك جَزِعْتُ على كذا ، أى أشفقت عليه ، لأنّه غيرُ الغَرض المقصود . ألا تَرى أنّ معناها لا جَزَع اليومَ من الموت على أنّ الأجل قريبٌ منّا ، فإذا قَرُبَ منا فلم نَجزعْ منه فما ظنُّك بنا إذا بَعُدَ عنا . وأنا أقول : وإنّ من البيان لِسحراً ، وإنّ مِن الغَوْصِ على المعانى لِمثْـلِهِ دُرًّا .

٦ — رُدُّوا عَلَينا شَيْخَنا ثُمَّ بَجَلْ

٧ — نَحْنُ بَنى ضَبَّةَ أَصحابُ الجملْ

٨ — نَنْعَى ابنَ عفَّانَ بأَطْرافِ الاسَلْ

يعنى بالشيخ عثمان بن عفان رضى الله عنه . المعنى : إنّا طالبون بدَمِه ، فإذا أدركْنا ثأرَه فحسبُنا ذالك . وهذا معنى قولِه « ثم بَجَل » . وموضع بَجَل رَفعٌ على الابتداء وخبرُه مُضمَر ، كأنه قال : « ثم بَجَلُنا ذلك » ، أى حَسْبُنا ذلك . وثُمّ عاطِفةٌ لجلةٍ على جملةٍ . وقال لَبيدٌ :

* بَجَلِى الآنَ من العيْشِ بَجَلْ[1] *

وحكى الأخفش أنّ بَجَلْ ساكنةٌ أبدًا . يقولون بَجَلْك ، كما يقولون قَطْكَ وقَدْكَ ، إلاّ أنهم يقولون بَجَلِى ولا يقولون بَجَلْنِى كما يقولون قَطْنِى وقَدْنِى ،

(١) صدره كما فى ديوان لبيد ١٧ طبع ١٨٨١ :

* فمتى أهلك فلا أحفله *

وهو القياس مع مجيئه على السكون . وانتصاب « بنى ضَبَّةَ » بفِعْلٍ مُضْمَر ، والقصد فيه المدح والاختصاص . وخبر المبتدأ الذى هو نحنُ « أصحابُ » ، والتقدير : نحنُ — أذكُر بنى ضَبَّةَ — أصحابُ الجَمَل . وهذا الكلام يُنبِّه به على أنهم مُجِدّون فى طلب دم عثمان رضى الله عنه ، لأنّ الذين خرجوا مع عائشة رضى الله عنها وقاتلوا يومَ الجَمَلِ كان دعواهم طلَبَ الثأر . ولو قال نحن بنو ضَبَّةَ لكان يسقُط فخامةُ المدح وتعظيمُه ، وكان يصير أصحابُ صفةً وبنو خبرًا ، وكان يجوز أن يكونا جميعا خبرين ، ويجوز أن يكون أصحاب بدلاً من بَنُو . وقوله « نَنْعَى ابن عفان » كان عادتُهم إذا مات رئيسٌ فيهم عظيمُ الشأن والمَحلّ أن يطوفَ واحدٌ منهم على القبائل ، ويَصْعَدَ الرّوابيَ المطِلّة عليهم ، والآكامَ المرتفعة بعحالِّهم ويقول : نَعَاءِ فُلانًا ! يريدون تشهيرَ أمره ، وتعظيم الفَجْع به ، وربما أرّخوا بموته . فيقول : نحن نجعلُ بدَلَ هذا الفعل أن نطلُبَ دَمَه بأطرافِ الرِّماح . وهذا معنًى حَسَن .

٨٩

وقال آخر (١) :

١ — داوِ ابنَ عَمِّ السَّوْءِ بالنَّأْيِ والْغِنَى   كَفَى بالغِنى والنَّأْيِ عنه مُدَاوِيا

يقول : عالجْ ما بينك وبين ابن عمِّ السَّوْءِ من التضاغُن والتبايُن ، والتغايُظ والتحاسُد ، بالبُعْدِ منه ، والاستغناء عنه . ثم قال : وكَفَى بهما من مُداوٍ معه . وهذا يجرى مجرَى الالتفات ، وهو تنبيهٌ على أنهما الغاية فيم يُحْسَمُ به شرُّهُ ، ويُدْفَعُ به ضَيْرُه . وموضع بالغِنَى رفعٌ بكَفَى . ومداويًا يجوز أن يكون حالاً ويجوز أن يكون تمييزاً ، وهو أحسنُ ، ومثلُه : ﴿ كَفَى باللهِ شَهِيداً ﴾ . والكلام يجرى

(١) التبريزى : « وقيل إنه لرجل من بنى أسد » .

أيضا مجرى التأكيد فيما دَعا إليه ، والتحقيق لغَناء ما أشار به .

٢ ــ جَزَى اللهُ عَنَّا مُحِصَنًا ببلائه وإن كان مولاىَ القريبَ وخالِيا

مُحِصَنٌ المذكور ، هو ابن عمِّه الذى تأذَّى به فدَعا عليه . يقول : جَزَاه الله بفعله فِينا ، إنْ خيراً فخيراً وإن شرًّا فشرًّا ، وإن كان متصلَ النَّسَبِ بطَرَفَىْ أَبى وأُمِّى .

٣ ــ يَسُلُّ الغِنَى والنَّأْىُ أدواءَ صَدْرِه ويبدى التَّدَانى غِلْظَــةً وتَقالِيا

السَّلُّ : النَّزْعُ . والأدواء : جَمْعُ الداء . وهذا مِثلُ ما رُوى : « أَنْ مُرْ ذَوِى القَرابات أن يتزاوَرُوا ولا يتجاوَرُوا[1] » ، وزاد عليه أيضاً بما شَفَع النَّأْىَ[2] به من ذكر الغِنى . ونَبَّه أيضاً على أنّ فى التدانى تحاسُداً يبدو معه القِلَى والقَسْوَةُ لأن الكلام كالتعليل للأمْرَيْن اللذين رَغَّبَ فى أحدِهما وزَهَّد فى الآخر ، وهما التَّدانى والتنائى . والمثل السائر : « فَرِّقْ بين مَعَدّ تَحَابّ » مِثْلُ البيتِ .

٤ ــ أعانَ عَلَىَّ الدَّهْرَ إذْحَلَّ بَرْكُهُ كَفَى الدَّهْرُ لَوْ وَكَّلْتَهُ بِىَ كافيا[3]

هذا الكلام شِكَايَةٌ مما عامَلَه به مُحِصَنٌ ، وتصريح بأذاه ، فيقول : لم يَرْضَ بالقعود عَنِّى وإسلامى للدَّهْرِ حتَّى صار عوناً له علىَّ ، لمَّا أخذ يؤثِّر تأثيره ، ويلْقِى كَلْكَلَهُ وجِرَانَهُ . ثم قال مُنْتَقِلاً عن الأخبار عنه إلى مخاطبته ، إظهاراً للجزَعِ من فعله . لو اتَّخذتَ الدَّهْرَ وكيلاً واعتمدت عليه ، دون أن تُبَاشِرَ مَسَاءَتِى بِفِعْلِكَ لَكفاك . ومِثْلُ هذا القول ، أعْنِى كَفَى الدَّهْرُ ، يسمى التفاتاً . وقولُه « كافياً » يجوز أن يكون تمييزاً ، ويجوز أن يكون فى موضع المصدر ،

---

(١) هذا من كتاب عمر رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعرى . انظر مجمع الأمثال فى (فرق بين معد تحاب) .

(٢) فى الأصل : « الثانى » ، صوابه من م .

(٣) التبريزى : « ويروى : إذ حل بركه » . وكتب فى نسخة الأصل : « حل » بحيث تقرأ باللام والكاف أيضاً . وذلك بتقعير اللام وإلحاق علامة الكاف من جانبها الأيمن .

أراد : كَفَى الدَّهْرُ لو وكَّلْتَهُ بى كفايةً . واسمُ الفاعل يقع موقعَ المصدر كثيراً كما يَقَعُ المصدر مَوْقِـع اسم الفاعل . ومثلُه قول بِشْرٍ :

* كَفَى بِالنَّأْيِ من أسماءَ كَافِ[1] *

فقوله كافٍ فى أحد الوجوه مَصْدَرٌ لـكنه لم يَنْصِبْهُ ، وجعله كقول الآخر :

* كأنَّ أيْدِيهنَّ بالقاعِ القَرِقْ[2] *

فى ترك إعراب المعتل فى موضع النَّصْبِ أيضاً ، إذْ كان من العَرَب من يستثقل الفتحة فى الياء ، والتَّقدير : كَفَى النَّأْيُ من أَسْماء كافيا ، أى كِفَايَةً . وقد جاء فى المثل : « أَعْطِ القَوْسَ بارِيها » ، بسكون الياء فى باريها ، ولم يَرْوِ أَحَدٌ بَارِيَهَا بالفتح ، فليس يجوز إلاَّ ما حُـكِيَ ، لأنَّ الأمثالَ لا تُغَيَّر .

٩٠

وقال رَجُلٌ من بنى كُلَيْبٍ[3] :

١ — وحَنَّتْ ناقَتِي طَرَبًا وشَوْقًا إلى مَنْ بالحنينِ تُشَـوِّقِينِى

انتصب « طَرَبًا » على أنَّه مَصدَرٌ فى موضِـع الحال ، أو على أنه مفعولٌ له . وأوّل البيت خبَرٌ عن راحِلته ، وآخِرُه خِطَابٌ لها . وقوله « تُشَوِّقِينى » حذف نونه استثقالا لاجتماع نونين ، والأصل تشوِّقينني . ومثلُه فى الحذْف قول الآخر[4] :

* يَسُوء الفالِيَاتِ إذا فَلَيْنِى[5] *

---

(١) عجزه فى مختارات ابن الشجرى ٧٥ :

* وليس لحبها إذ طال شاف *

(٢) انظر اللسان والمقاييس (قرق) وإصلاح المنطق ٤٦٤ .

(٣) التبريزى : « من بنى كلب » .

(٤) هو عمرو بن معد يكرب ، كما فى اللسان (فلا) .

(٥) صدره : * تراه كالثغام يعل مسكا *

يريد فَلَيْتَنى . والمعنى : اشتَـكَتْ ناقَتى حانّةً لطَرَبِها وشَوْقِها . ثم أخذ يخاطِبُها مُنْـكِرًا عليها ما ظَهر منها فقال : تُشَوِّقيننى بحَنينِك إلى مَنْ ؟ أراد أنّه مع حصولِ اليأس يجبُ ألاّ تحِنَّ ولا تَشَوَّقَ . ويجوز أن يكون المعنى تعظيمَ المشتاق إليه ، فكأنّه قال : تشوقيننى إلى مَن بحنينِكِ ؟ أى إلى إنسانٍ وأىّ إنسان ؟ ومَنْ من قوله « إلى مَنْ » فى هذا الوجه يكون نَـكِرةً غير موصوفةٍ وإن كان الـكلامُ خَبَرًا ، وفى المعنى الأوّل يكون مَن استفهامًا . وتقول : مَرَرْتُ بمـا صَالحٍ ، ومَرَرْتُ بمَنْ كَريمٍ ، تريدُ بإنسانٍ كَريم . وقد حُمِلَ قولُه عزّ وجلّ : ﴿ مَثَلاً ما بَعُوضَةً ﴾ ، على أنّ معناهُ مَثَلاً شيئًا بَعُوضَةً . والطَّرَبُ : خِفّةٌ تعترى لعارِض سُرُورٍ أو همٍّ :

٣ — فانِّى مِثْلُ ما تَجِدِينَ وَجْدِى ولـكنْ أَصحَبَتْ عنهُمْ قَرُونى

هذا الـكلام اعترافٌ بالحُبّ ، وتسويغٌ لحنين الناقة وإنْ كَرِهَ التذكير الحاصلَ منه . والشَّجْوَ المُنْتَتِجَ عنه . وقوله « مثل ما تجدين » يجوز أن يكون خبرًا مقدّمًا والمبتدأ وَجْدِى ، فيكون التقدير : إنّى وَجْدِى مثلُ ما تجدين ، والجملةُ خبرُ إنّ . ويجوز أن يكون مِثلُ خَبَرَ إنّ ، وَوَجْدى بدلٌ من ياء الضمير المتصل بإنِّى ، كأنه قال : إنّ وَجْدى مثلُ ما تجدين . وما بمعنى الذى ، وتجدين من صلتِهِ ، والضمير العائد إليه محذوف ، كأنه قال : مِثلُ ما تجدينَهُ ، أى مِثلُ الوَجْدِ الذى تجدينَه . ويجوز أن يكون ما مَعَ الفِعْل فى تقدير مَصدَرٍ ، كأنه قال : إنّى وَجْدِى مِثْلُ وَجْدِكِ . والأصْلُ فى إنِّى إنّنى ، لـكنّه حُذِفَ نُونُه لاجتماع ثلاث نُونات ، ويجوز أن يكون لم يَأْتِ بنون العِماد كما لم يُؤْتَ به فى لَعَلِّى ولَيْتِى ، والمعنى إنّ وَجْدِى مِثْلُ وَجْدِكِ ، ولـكنْ تابَعَتْنِى نفسى باليأسِ منهم ، وأنتِ لا تَعرفين اليأسَ . والإصحاب : الانقياد . والقَرُون

والقَرُونَةُ : النَّفسُ . ويقولون : أَخَذْتُ قَرُونى من هذا الأمر ، أى رَفَضْتُهُ واطَّرَحْتُهُ .

٣ — رأَوْا عَرْشِي تَثَلَّمَ جانِبَاهُ فلمَّا أنْ تَثَلَّمَ أفرَدُونى

يقول : رأوْا عِزِّى قد تَهَدَّم جانباهُ ، وانهَدَّ رُكْنَاهُ ، فلما صار أَمْرِى كذلِكَ تَرَكونى وَحيداً ، وَقَعَدوا عن مشايَعَتِى ومُتَابَعَتى ، فدَعَتْنِى الحالُ إلى مفارقتِهم ، والتحوُّلِ عنهم . والعَرشُ : سَرِيرُ المُلكِ ، وقِوام أمْرِ الرَّجُل وعِزِّه ، فإذا زال قيل : ثُلَّ عَرْشُه وتَثَلَّمَ . وقد أَلَمَّ فى هذا بقولِ أَوْسٍ :

* وهمْ لِمُقِلِّ المالِ أولادُ عَلَّةٍ[1] *

وبقوله :

* بنو أمِّ ذِى المالِ الكثير[2] * (البيتان)

٤ — هَنيئًا لابن عَمِّ السَّوْءِ أَنِّى مُجَاوِرَةٌ بَنِى ثُعَل لَبُونى

أَنِّى فى موضِعِ الفاعل لهنيئاً ، ومجاوِرَةٌ ارتفع على أن يكون خَبَرَ أَنَّ ، ولَبُونى فى موضِعِ الرَّفع على أنها فاعِلَةٌ لمجاوِرَة ، وبنى ثُعَلٍ مفعولٌ به . والمعنى : لِيَهْنِئْ ابْنَ العَمِّ السَّوءِ بُعْدِى عنهم ، ومجاوَرَةُ لَبُونِى لغيرِهِمْ . واللَّبُون : الناقَةُ التى بها لَبَنٌ . ويجوز أن يرتَفِعَ مجاوِرَةٌ على أنه خَبَرٌ مُقَدَّمٌ ، والمبتدأ لبونى والجملة كما هى تكون خبر أنّ . ويجوز أن يكون لَبُونى بَدَلاً من الضمير المتّصِل بأَنّى ، والخَبَر مُجَاوِرَةٌ . والمعنى والتقديرُ أَنَّ لَبُونى مجاورةٌ بنى ثُعَلٍ . وهذا الكلامُ إنباءٌ أنَّ ما حَصَل من بُعْدِه عن العشيرة كانوا يتمنَّوْنَهُ ، فقال هَنَأَ اللهُ أبناء عَمِّى ما أرادُوهُ وفازوا به . ويجوز أن يكون وعيداً وتهكُّماً .

(١) عجزه : * وإن كان محضاً فى العمومة مخولا *

(٢) هو بتمامه :

بنو أم ذى المال الكثير يرونه وإن كان عبداً سيد الأمر جحفلا

٩١

وقال رَجُلٌ من بنى أسَد :

١ — وَمَا أنا بالنِّكْسِ الدَّنِيِّ ولا الّذى إذا صَدَّ عَنِّى ذوالمَوَدَّةِ أَحْرَبُ

النِّكْس أَصْلُهُ فى السِّهام ، و نُقِلَ إلى الضَّعيف من الرِّجال . يُقالُ نَكَسْتُه نَكْسًا ثم يُسَمَّى المَنكوسُ نِكسًا ، كما يُقالُ نَقَضْتُه نَقْضًا ثم يُسَمَّى المَنْقُوضُ نِقْضًا بكسر النون . كأنَّ السهم انكسر فُوقُه فنُكِس فسمِّىَ نِكْسًا . فيقولُ : ما أنا بالمُسْتَضْعَفِ اللَّئيم ، ولا الذى إذا انحرف عَنْهُ مَنْ يُوَادُّه دَعَا بالوَيْلِ والحَرَب فقال : واحَرَباهُ . وفى طريقته .

ولا أَقُولُ إذا ما خُلَّةٌ صَرَمَتْ يَاوَيْحَ نَفْسِىَ من شَوْقٍ وإشْفَاقِ[1]

ويجوز أن يكون مَعْنَى أحْرَبُ : أغْتَاظُ . ومنه قولُه :

* إنِّى إذَا الشاعِرُ المَغْرُورُ حَرَّبنِى *

وهذا أَسْلَكُ فى طريقة العربية ؛ وكان يجب أن يقولَ : ولا الذى إذا صَدَّ عنه ذُو المَوَدّة يَحْرَبُ ، حتَّى يكونَ فى الصلة ما يعودُ إلى الموصولِ ، لكِنهُ لَمّا كان القَصْدُ فى الإخبار إلى نَفْسِهِ وكان الآخِرُ هو الأوّل ، لم يُبَالِ بِرَدِّ الضمير على الأول وحَمْلِ الكلام على المعنى ، لأَمْنِه من الالتباس . وهو مع ذلك قبيحٌ عند النحويين ، حتى إن أباعثمانَ المازنىّ قال : لولا اشتهارُ مَوردِه وكثرتُه لرددتُه . ومثْلُهُ :

* أنا الّذى سَمَّتْنِ أُمِّى حَيْدَرَه[2] *

(١) لتأبط شراً . المفضليات (١ : ٢٦) .

(٢) لعلى بن أبى طالب ، كما فى اللسان (حدر ، سندر) . وقد سبق فى ص ١١٥ .

٣ ـ ولكنّنى إن دام دُمْتُ وإن يكنْ   له مَذْهَبٌ عَنّى فلى عنه مَذْهَبُ(١)

يقول : أملِكُ نَفْسى وودّى فى مصادقة الأخلاء ، فإنْ داموا لى على العَهْد دُمْت لهم ، ولَزِمتُ الوفاء معهم ، وإن رأوْا ذَهاباً عَنّى و مَيْلاً إلى غيرى ذهبْتُ عنهم ، ومِلتُ إلى غيرهم . ويُرْوَى : « ولـكنّنى ما دام دُمْت » ويكون موضعُ ما دام ظَرْفاً ، وخَبرُ لـكنَّ دُمْتُ . وفى الأولى يكون الجزاء وجوابه خَبَرًا . وفى طريقته قول لَبيد :

فاقْطَعْ لُبانَةَ مَن تَعرَّضَ وصْلُهُ   ولَخيرُ واصِـــلِ خُلّةٍ صَرّامُها

٣ ـ ألَا إنَّ خَيْرَ الوُدِّ وُدٌّ تَطَوَّعَتْ   به النَّفْسُ لا وُدٌّ أتَى وَهْوَ مُتْعَبُ

يقول : خير الوُدِّ ما جاء عفواً من غير جَهْدٍ ، ولا إكراه نفس وطَبْع ، بل يبعثه الميلُ ، ويَحْـكُمُهُ الخلوص ؛ فأما المُتْعَبُ من المَوَدّات ، المَشُوبُ بالتعمُّلِ والتـكلُّف ، فلا طائل فيه . ومثله قول بعضهم :

ولا خَيْرَ فى وُدِّ امرئٍ مُتَـكَارِهٍ   عَلَيْكَ ولا فى صَاحِبٍ لا تُوافِقُهْ(٢)

وقول الآخر :

إذا أنت لا يَثْنِيك إلا شَفاعةٌ   فلا خَيْرَ فى ودٍّ يكون بشَافِـعِ

٩٢

وقال أبو حَنْبلٍ الطّائىّ(٣) :

١ ـ لَقَدْ بلَانى عَلَى ما كانَ من حَدَثٍ   عِنْدَ اخْتِلَافِ زِجاجِ القَوْمِ سَيَّارُ

(١) كتب بخط مخالف قبل هذا البيت :

ولست إذا ولى الصديق بوده   بمكتئب أحنو إليه وأندب

(٢) أنشده التبريزى ، مع بيتين بعده ، وقال : « قالوا هو لمسلم بن الوليد » .

(٣) هو جارية بن مر ، أبوحنبل الطائى، شاعر جاهلى فارس . ذكره فى المؤتلف ٩٩ . التبريزى : « ويقال إن هذه الأبيات لعامر بن جوين ، حين أجار سيار بن موألة بن عامر =

ارتفع « سَيَّارٌ » بقوله بَلَانِى. واللام فى « لقد » تُؤْذِن بيَمينٍ . يقول: لَقَدْ خَبَرَنى هذا الرجل على ما اتّفق من حَدَثٍ ، واعترَضَ مِن شرٍّ ، فعَرَف حُسنَ بلائَى عند اختلاف القنا بالطَّعْن . وذَكَرَ الزِّجَاج ، والمُرَاد الرِّماحُ بكمالها ، ومثله قول الآخر[1] :

* الواطِئِين على صُدُورِ نِعَالِهِم[2] *

وإنما يُوطَأُ النَّعْل كُلُّها . ويقال : زَجَجْتُهُ بالرمْح ، إذا زَرَقْتَهُ .

٣ — حَتَّى وَفَيتُ بها دُهْمًا معَقَّلةً كالقارِ أَرْدَفَهُ من خَلْفِهِ قارُ

يقول : صَبَرْتُ لِمَا عَزَّ من أَمْرٍ ، وتَعسَّرَ من وفاءٍ وأَداءٍ ، لأَخرُجَ مما به تكَفَّلْتُ ، من العُهْدَةِ التى فيها دَخَلْتُ . وقد كان أبو حَنْبَل تَضَمَّن لسَيَّار إبلاً لَهُ بأعيانها أو شَرْوَاهَا ، أى مِثْلِهَا ، فيقول : أخذ سَيَّارٌ يَنتظِر ماذا يكون منِّى فيما تضَمَّنْتُ حَتَّى وفَيتُ بإبلِهِ سوداً مشدودةً بعُقُلِها ، كأنها فى سَوَادِها قارٌ عُولِىَ بقارٍ . وهذا يرادُ به تأكيدُ السوَادِ . ويقال رَدِفْتُهُ وأردفته ، إذا جئت بَعْدَهُ . ورَدِفَكُمْ ورَدِفَ لكم ، أى تَبِعَكم وجاء بَعْدَكُم . وانتصب « دُهْمًا » على أنَّهُ حَالٌ للإبل . وفائدة قوله « كالقار » تصويرٌ للإبل بألوانها . ومعنى لقد بلانى حَتَّى وفَيْتُ ، أى انتظَرَ ما يكون من البلاء فى وفائى عند ما ضَمِنْتُ ، وصار يُجَرِّبنِى إلى أنْ وفَيْتُ . وفائدةُ قَوْلِهِ مُعَقَّلَةً ، أنه سَلَّمَهَا فى مَبَارِكِها آمِنَةً .

— بن مالك بن تيم الله بن ثعلبه ، وكان سيار جاراً لرجل من بنى ثعل يقال له عدى بن أفلت ، فمر عامر بن جوين بعدى بن أفلت وقد قامره سيار بن موألة بالقداح فقمره عدى حتى غلق مال سيار ، فظعن الحى فقال سيار لتمينين له : تخلفا بأهلكما بعد الحى حتى ينزلوا ، فإذا نزلوا فانطلقا برحلكما حتى تفدا إلى رحل عامر بن جوين ، ففعلتا فجاء عدى بن أفلت فأراد أن ينقلهما ورحلهما ، فأبى ذلك عامر بن جوين وقال : قد جاورنى الرجل ! فلما خرج امرؤ القيس بن حجر عند عامر بن جوين فنزل على أبى حنبل جارية بن مر ، تهادى أبو حنبل وعامر الشعر ، فقال عامر : لقد بلانى . . . » .

(١) هو الأعشى . الكامل ٣٥ ليبسك واللسان (دفن) .

(٢) عجزه : * يمشون فى الدفنى والأبراد *

ويجوز أن يكون أراد إبلاً متقدماتُها ومتأخّراتها سُودٌ ، فلذلك قال كالقار أُردِفَ بِقارٍ ، ويجوز أن يكون أراد بالقَارِ جمع قَارَةٍ ، وهى الجبال ، فَشَبَّهها بها فى عظَمِها .

٣ — قَدْ كانَ سَيْرٌ فحُلُّوا عن حَمُولَتِكم إنِّى لِكلِّ امرِئٍ مِنْ جارهِ جَارُ

يقول : وجَبَ السَّيْرُ للخوف والحَذَر قبل هذا الوقت ، وأمّا الساعةَ وقد بَلَغتم المَأْمَن فى جِوَارى فحُلُّوا عن أجمالكم ، إنِّى لِكلِّ رجل منكم جارٌ بَدَلاً من جَارِهِ الأول . والعرب تقول : هذا من ذاك ، وهذا بذاك أى عِوَضٌ . وفُسّرَ قَوْلُ الشاعر :

لَيْتَ لَنَا من مَاءِ زَمْزَمَ شَرْبَةً مُبَرَّدَةً باتت على الطَّهَيَانِ(١)

على أنّ المعنى لَيْتَ لَنَا بَدَلاً من ماءِ زَمْزَمَ شَرْبَةً . ويقولون : فلانٌ لك من الجارِ جَارٌ ، ومن النديمِ نديمٌ ، ومن الأَكيل أَكِيلٌ . ويحتمل أن يكون معناه : إنِّى لِكُلِّ رَجُلٍ مُجِيرٌ ممن يجاوِرُه ، أى ممن يدانيه بسوء ، والأول أجود وأصوب . والحُمولة : جَمْعُ حِمْلٍ ، ودخلت الهاء فيه توكيداً لتأنيث الجمع . والحَمُولة : الأبل التى يُحمل عليها ، وهى فَعُولَةٌ كالقَتُوبةِ ، والرَّكوبةِ ، ولا يَجْرِى على الموصوف ، لا يقال دَابةٌ حَمُولة .

٩٣

وقال يزيدُ بن حِمَّانَ السَّكُونِى(٢) :

١ — إنِّى حَمِدتُ بَنِى شَيْبَانَ إذْ خَمَدَتْ نِيرَانُ قَوْمِى وفيهم شُبَّتِ النارُ

(١) للأحول الكندى كما فى معجم البلدان (الطهيان) . وهو اسم قلة جبل باليمن .
(٢ كذا فى النسختين . وعند التبريزى ومعجم المرزبانى ٤٩٣ أنه « يزيد بن حمار السكونى » . قال المرزبانى : « حليف بنى شيبان ، وكان له بلاء ورأى يوم ذى قار ، فقال يمدح —

الحمد : الثَّناء على الرجُل بما فيه من الخصال المرتَضَاةِ . وبهذا المعنى فارَقَ الشُّكر ، لأنَّ الشكر لا يكون إلا على صَنِيعةٍ . فيقول : لمّا رأيت بنى شَيْبانَ عند إمْحَالِ الأرض وإجْدابِهَا ، وإقْتَار الناس وإضاقتهم ، يوقدون نار ضيافتهم ويقيمونها ، وإن كانت نيران غيرهم خامِدَةً متْرُوكاً إشعالُها ، أثنَيْتُ عليهم ، ونشرتُ فضيلتهم . وقال « نيران قومِىَ » وإن أراد غيرَهم معهم ، تفضيلاً لهم على قومه ، وإيذاناً بالصِّدق فى مَخْبَرِه ، فبدأ بذكر قومِه وذويه . ويُروى : « نيران قوْمٍ » ، والأوّل أجْوَد .

٢ — ومِن تَكَرُّمِهم فى المَحْلِ أنَّهُمُ لا يَعْلَمُ الجار فيهمْ أنه الجارُ[١]
٣ — حتى يكونَ عزيزاً مِن نفوسِهِمُ أو أن يَبينَ جميعًا وهو مُخْتارُ[٢]

يقول : مِن تكلُّفِهم الكَرَم كأنهم لا يَرضَوْن فى مثل ذلك الوقت بما طُبِعوا عليه وجُبِلُوا ، حتى تكلَّفُوا أكثر منه ، أنّهم يُحِلُّون جارَهم من العناية به والاتحاف[٣] والإحسان إليه والاصطناع ، مَحَلاًّ يتشكَّكُ مِن بَعْدُ فى نفسه : هل هو جارُهم أم من صَميمهم . وعلى هذا يتعلّق حتى من قوله « حتى يكون عزيزاً » بالمعنى الذى دلَّ عليه قولُه لا يَعلمُ الجارُ فيهم أنه الجارُ ، أى يعاملونه بهذه المعاملة إلى أن يكونَ عزيزاً فيما بين ظهرانَيْهم ، أو يَختار مفارَقتَهم . والمعنى : ذلك له فيهم ، ما اعتزَّ بجوارِهم ، أو مالَ إلى فِراقهم . ويجوز أن يكون

= بنى شيبان : إنى حمدت . . . » . وقال التبريزى : هكذا قال أبو تمام — أى فى نسبة الشعر — والصحيح أنه عدى بن يزيد بن حمار ، بعد الألف راء ، بن عباد بن مسلمة بن عوف بن تراغم بن معاوية بن ثعلبة بن عقبة بن سكون . وعدى جاهلى ، ويعرف بالجون ، وكان نازلا فى شيبان » .

(١) المرزبانى : « لا يشعر الجار فيهم » .

(٢) المرزبانى : « فى نفوسهم » .

(٣) فى النسختين : « والالتحاف » ، ولم نجد لها وجها .

قوله « من نفوسهم » فى موضع الحال ، وعزيزاً خبر كان . وإنْ جَعلْتَ « عزيزاً » فى موضع الحال ومن نفوسهم خبرًا جاز . والمعنى : حتى يكون كأنه من أَصْلِهم ، كما قال الله عزّ وجلّ : ﴿ لقد جاءكم رسولٌ مِن أنفسِكم ﴾ ، والمعنى من جِنْسِكم ومن بِطانتكم . ويجوز أن يكون البيت مُضمَّنًا ، ويكون معنى لا يَعلَمُ الجارُ فيهم أنه جار ، أنَّ الجارَ لا يكون قد أحَسَّ بمجاورتِه لهم حتى يتفقَّدُوه هذا التفقُّد ، ويُحِلُّوه هذا المَحَلّ . وقوله « أو أنْ يَبِينَ جميعًا » انتصب جميعًا على الحال ، والمعنى أو أن يُفارِق وهو مجتمع الحال غيرُ مُنتشِرِها ، ومُختارٌ لذلك غيرُ مُضطَرٍّ إليه . ومِثلُ هذا بيتُ زهير :

ضَمِنَّا مالَهُ وغَدَا جَمِيعًا علينا نَقْصُه وله النَّماء

وقبل بيتِ زهيرٍ هذا قوله :

وجارٍ سار معتمِدًا إلينا أجاءَتْهُ المخافةُ والرجاء

فجاوَر مُكْرَمًا حتى إذا ما دعاهُ الضيفُ وانقطع الشِّتاء

ضَمِنَّا ما له وغدا جميعًا . . . .

فقد علِمتَ اشتمالها على ما ذكره هذا الشاعر وتفرُّدَها بما زاد عليه من المعنى . ويجوز أن يكون « حتَّى » بمعنى كَيْ ، فيكون المراد لا يَعْلَمُ الجار لحُسْنِ توفُّرِهم عليه ، وتوحُّدِهم إيّاه باتخاذ الصنائع لديه أنّه جارٌ ، لكَيْ يكونَ عزيزاً مُدّةَ مُقامِه ، أو يُفارِقَهم مُختاراً ، موفورَ المال ، مَصُونَ الحالِ .

٤ ــ كأنّهُ صَدَعٌ فى رأسِ شاهِقَةٍ من دَونِه لِعتَاقِ الطيرِ أَوْكَارُ[1]

يقول : كأنّ الجارَ لتمتُّعِه بهم ، وتعزُّزِه حين استظهر على الزمان بمكانه فيهم ، وعِلٌ احترز عن طُلّابه فى رأس قُلّةٍ شامخةٍ أوكارُ عِتاقِ الطير دونَه ، وهو

(١) فى معجم المرزبانى : « ودونه » .

أرفع منها وأحصن . فالتشبيه تناوَلَ ما ذكَرْتُ من التمنُّعِ والتحصُّن . ويَعْنى بعِتاق الطير : العِقْبانَ وما أشبَهَها من أحرار الطير ، وما يتَّخذ الوكُورَ فى الجبال . وإلى هذا أشار الهُذَلىّ[1] فى قوله :

حتى انتَهيْتُ إلى فِراشِ عَزيزَةٍ   سَوْداءَ رَوْثةُ أنفِها كالمِخْصَفِ

يعنى وكْرَ عُقابٍ . والصَّدَعُ والصَّدِيعُ : الفتىُّ من الأوعال ، وقيل هو المربوع وقد استُعمِل فى الرَّبْعةِ من الرِّجال .

٩٤

وقال آخر[2] :

١ – نزَلْتُ على آلِ المُهلَّبِ شاتِيًا   غريبًا عن الأوطانِ فى زَمَنٍ مَحْلِ[3]

يقول : أَوَيْتُ لمّا تغرَّبتُ عن أوطانى داخلاً فى الشِّتاء ، مُمتَحَنًا بالجَدْب والقَحط ، مُلْجَأً إلى الاستعانة على الزمان بغَيرى ، إلى آلِ المُهلَّبِ بن أبى صُفْرةَ ونزلْتُ فيهم . ثم أخذ يقتَصُّ ما رأى فيهم . ويقالُ زَمَنٌ مَحْلٌ ، وُصِف بالمَصْدَر ، وزمن ماحِلٌ وزمن مُمْحِلٌ . والأصلُ فى المحل : انقطاعُ المطر ويُبْسُ الكلإِ . ويقال أرضٌ مَحْلٌ وأرضٌ مُحُولٌ ، وُصِفَ بالجمع ، كأنه أُجْرِى على أقطاعِ الأرضِ ، كما يقال : ثوبٌ مِزَقٌ .

٢ – فما زَالَ بى إكْرامُهُمْ واقتفاؤهم   وإلْطافُهُمْ حتى حَسِبْتُهُمُ أهْلِى[4]

---

(١) هو أبو كبير الهذلى . ديوان الهذليين (٢ : ١١٠) .

(٢) هو بكير بن الأخنس ، كما فى البيان والتبيين (٣ : ٢٣٣) . على أن المقطوعة بدون نسبة فى ترجمة المهلب بن أبى صفرة من وفيات الأعيان ، وكذا فى عيون الأخبار (١ : ٣٤١) .

(٣) فى البيان : « فقيراً بعيد الدار » .

(٤) البيان : « إلطافهم وافتقادهم وإكرامهم » .

يقول : لم يزالوا يؤثرونني بالإحسان والحُسْنَى ، ويختصُّونني بإسداء الجميل والنُّعْمَى ، ويلتزمون لى من الإكرام والتَّقريب ، والإدناء والتَّرحيب ، حتَّى ظننتهُم عشيرتى ، وتَشكَّكْتُ فى اغترابى منهم ، وبُعد نَسَبى عنهم . ومن الاقتفاء القَفِيُّ ، وهو المكرَّمُ من الضيوف والسَّكْنِ ، والقَفَاوةُ . قال :

* يُعْطَى دَوَاءَ قَفِيِّ السَّكْنِ مَرْبُوبِ[1] *

٩٥

وقال جابر بن ثَعْلَبٍ الطائىُّ[2] :

١ — وقامَ إلَىَّ العاذلاتُ يَلُمْنَنِى يَقُلْنَ أَلاَ تنفكُّ تَرْحَلُ مَرْحَلا[3]

يقول : انتصبَ اللوائمِ عاتباتٍ علىّ ، سائقاتٍ العُنْف إلىّ قائلاتٍ : ألا تزالُ تَرْحَل ارتحالاً فلا تَسْتَقِرُّ بك دار ، ولا يُقرِّبُ لَكَ مَزَارٌ ، ولا يُحَطُّ عن راحلةٍ رَحل . ومَرْحَلاً انتصب على المَصْدَر ، كما تقولُ : أما تنفكُّ تَخْرُجُ مَخْرَجًا وتَبْعُدُ مَبْعَدًا . ومعنى تَرْحَلُ تشدُّ الرَّحْل . وموضع « يَلُمْنَنِى » موضِع الحال ، « وَيَقُلْنَ » فى موضع البَدَل من يَلُمْنَنِى .

٢ — فإنَّ الفَتَى ذا الحَزْمِ رامٍ بِنَفْسِهِ جَوَاشِنَ هَذَا اللَّيْلِ كَىْ يَتَمَوَّلا

فى الكلام اختصار ، كأنّه قال : فأَجبتهنَّ فقلت : إنَّ الفتى الحازمَ يُحَمِّلُ نفسَهُ المشَقَّات ، ويَرْمِى بنَفْسِهِ المَتالِف الصَّعبات ، ويمتطى الأهْوَال ، كَىْ ينالَ

---

(١) لسلامة بن جندل السعدى ، كما فى اللسان (قفا) . وصدره :

* ليس بأسفى ولا أقنى ولا سغل *

(٢) التبريزى وابن جنى : « جابر بن الثعلب » . وفى الكامل ٢٩٩ ليبسك : « جابر بن ثعلبة » . وانظر ما سبق فى ص ٢١٥ .

(٣) التبريزى : « ويروى : ألا يا ارحل لأهلك مرحلا » .

الأمْوَال ، غَيْرَ مُفَكِّرٍ في ظلمة لَيْلٍ ، ولا مُسْتَصْعِبٍ لِرُكُوبِ خَطْبٍ . وقوله : « جواشِنَ هذا الليل » يَعْنِى صُدُورَها وأوائِلَها . واللَّيْلُ بإزاء النهار في الاستعمال ، والليلةُ بإزاء اليَوْم . والإشارة بـ « هذا » على طريق التَّقريب . وهم يستعيرون الجَوَاشِنَ والهَوادِىَ والصدورَ والنُّحورَ والأَعْنَاقَ والرُّءوسَ لأوائِلِ الأمور ، كما يَسْتَعِيرُونَ الأَعجازَ والأَدبارَ والأَعقابَ والأذناب لأواخرها .

٣ — وَمَنْ يَفْتَقِرْ فِي قَوْمِهِ يَحْمَدِ الْغِنَى ‏ وَإِنْ كَانَ فِيهِمْ وَاسِطَ الْعَمِّ مُخْوَلا[1]

افْتَقَرَ فِعْلُ مُفْتَقِرٍ وفَقِيرٍ جميعًا ، استُغْنِى بِهِ عن فَقِر . يقولُ : مَنْ نَالَهُ الفَقْرُ بين عشيرته وأهْلِيهِ حَمِدَ الغِنَى ، وصار عِندهُ المطلوبَ والمتمنَّى ، وإن كان مَعْطُوفًا عليه مُكْرَما ، ومُعَمًّا فيهم مُخْوَلاً . وقولُه : « واسِطَ العَمِّ » سِطَةُ الحَسَب : كَرَمُهُ ، والفِعْلُ منه وَسَطَ . قال :

* وَقَدْ وَسَطْتُ مالِكًا وحَنْظَلاَ[2]

ويقال : فلانٌ وسِيطٌ في قَوْمِه : جَليلٌ ، وفُلانٌ واسِطُ القَوْمِ ، وهو أَوْسَطُهُمْ أي أشْرَفُهم .

٤ — كَأَنَّ الْفَتَى لَمْ يَعْرَ يَوْمًا إِذَا اكْتَسَى ‏ وَلَمْ يَكُ صُعْلُوكًا إِذَا مَا تَمَوَّلاَ

هذا الكلام بَعْثٌ على التَّجْوَال ، وتَحْضِيضٌ في اكتساب المال ، فيقول : إذا اقْتَنَيْتَ بَعْدَ فَقْرِكَ ، واكْتَسَيْتَ عن عُرْيِك ، فكأنك ما كنت قط فَقِيرًا ولا عُرْيَانًا . والمعنى : إنّ من استبدلَ بعُسْرِهِ يُسْرًا ، ونال عَقْبَ ضِيقِه

---

(١) ضبطت « مخولا » بفتح الواو فقط في النسختين ، وهي لغة صحيحة . يقال أخول الرجل وأخول ، بالبناء للمعلوم والمجهول ، فهو مخول ومخول بكسر الواو وفتحها . ومثله المعم والمعم ، وهو الكثير الأعمام . ورواه ابن جنى :

ويزرى بظرف المرء قلة ماله ‏ وإن كان أقوى من رجال وأحولا

(٢) أراد : وحنظلة . وهي القبيلة . والرجز لغيلان بن حريث . اللسان (وسط) . وبعده :

* صيابها والعدد المجلجلا *

رخاء ، فكأنه ما سُبِقَ إليهما ، ولا زوحِمَ فيهما . وفى طريقته ما بَعْدَهُ ، وهو : « ولم يَكُ فى بُوسٍ » . والصُّعْلُوك : الفقير .

٥ — ولَمْ يَكُ فى بُوس إذا باتَ لَيْلَةً يُناغِى غزَالاً سَاجِىَ الطَّرْفِ أكْحَلاَ[1]

يقول : وإذا استمتع لَيْلَةً بمناجاةِ إنْسانٍ كأنه غزالٌ فى طَرْفِهِ فَتَرٌ ، وفى عَيْنِه كَحَلٌ ، فكأنه ما كان ذا بُوسٍ قَطُّ . أى تُعَفِّى النَّعْمَةُ على آثارِ الضُّرِّ ، وتَمْحُوها حتى تُنْسَى . وقولُهُ « ولم يَكُ فى بُوسٍ » قد مرَّ الكلام فى حذف النون منها تخفيفاً . والمناغاة : المغازلة ، وأصلُهُ من النَّغْيَةِ ، وهى الصوت اللطيف ، والنَّغْمة الحسنة الخفيَّةُ ، ولذلك يُفسَّرُ المُنَاغاةُ على المُسَارَّةِ . والساجى : الساكن ؛ يقال لَيلٌ سَاجٍ . قال :

* يا حَبَّذَا القَمْرَاءُ وَاللَّيْلُ السَّاجْ[2] *

٩٦

وقال بعض بنى طيٍّئ :

١ — إنْ أَدَعِ الشِّعْرَ فَلَمْ أُكْدِهِ إذْ أَزَمَ الحَــقُّ عَلَى البَاطِلِ

قوله « إذْ أَزَمَ » ظرفٌ لقوله أَدَعِ . وتقدير الكلام : إنْ أدعِ الشِّعْر إذْ أزم الحقُّ على الباطل فلم أُكْدِهِ . ويريد بالحق كَبْرَتَهُ وشيخوخته ، وما أخذ به النَّفسَ عِندَهُ من مراعاة الحقِّ ، والرجُوع عن الهزْلِ إلى الجدّ . وأراد بالباطل الصِّبا واللَّهْوَ وما يَتْبَعُهُمَا مما يُعَدّ سَفها وقوله « فَلَمْ أُكْدِه » أصله منْ حَفَرَ

(١) التبريزى : « فاتر الطرف » ، ثم أشار إلى رواية « ساجى الطرف » . وأنشد بعده بيتا لم يروه المرزوقى ، وهو :

إذا جانبٌ أعياك فاعمِد لجانب فإنك لاقٍ فى بلادٍ مُعوَّلاَ

(٢) فى الأصل : « ساجى » ، صوابه من م واللسان (قمر) . وبعده :

* وطرق مثل ملاء النساج *

فأَكْدى ، إذا بَلَغَ الكُدْيَة ، فتعذَّرَ عليه الحَفْرُ وَإنْبَاطُ الماء . والكُدْيَةُ : مَكانٌ صُلْبٌ يُعْيِي الحَافِرَ . ويقال أيضاً : حَفَرَ فأَجْبَلَ ، إذا بَلَغَ جَبَلاً . وتوسَّعُوا فيه فقالوا : أَكْدَى فى الشِّعْرِ والعَطَاء . وفى القرآن : ﴿ وأعْطَى قليلاً وأَكْدَى ﴾ . وقالوا أيضاً : فلانٌ بَلغ الناسُ كُدْيَتَهُ ، أى كان يُعْطِى ثم أَمْسَكَ . ومعنى البيت : إن تَرَكْتُ الشِّعْرَ حين تَحَلَّمَتُ[1] وارْعَوَيْتُ ، وَصار الحقّ عاضًّا على بَطَالَتِى ، والحِلمُ[2] مانعًا من جَهَالَتِى ، فلم أَتْرُكْهُ عن عَجْزٍ لاحِقٍ ، وإفحامٍ حاصِلٍ . والأَزْمُ : العَضُّ ، وتُوُسِّعَ فيه ، فقيل : « نعم الدواء الأَزْمُ » ، يريدون الحِمْيَةَ .

٢ — قَدْ كُنْتُ أُجْرِيهِ عَلَى وَجْهِهِ وَأُكْثِرُ الصَّدَّ عَنِ الجَاهِلِ

يقول : كنتُ أُجْرِى الشِّعرَ على حَقِّه وكُنْهِه ، وأقرِضُه مستمرًّا فيه على حَدِّه أيَّامَ شَبابى ، وقَبْلَ ارتِدَاعى ، ومع ذلك كنتُ أُكثِرُ الإعراضَ عن الجُهَّال ، وأتَصَوَّنُ عن مكايَلَتِهم وموازَنَتِهم . وهذا يجرى مَجْرَى قول الآخَر :

إنِّى امرُؤٌ مُكْرِمٌ نَفْسِى ومُتَّئِدٌ مِن أنْ أُقاذِعَها حتى أُجازِيَها[3]

والمعنى أرْبَأُ بقَدْرِى عن مقارضة الشعراء ، ومجاذبة السُّفهاء ، ولكن إنْ دَعَتِ الحالُ معهم ، والضَّجَرُ بهم ، إلى المجازاة مع مراجعة الحِلْم ، فبالفِعْل لا بالقوْل ، وعلى هذا كنتُ قبلَ هذا الأَوَانِ مع الجُهَّال .

٩٧

وقال آخر :

١ — زَعَمَ العَوَاذِلُ أنّ ناقَةَ جُنْدَبٍ بِجُنُوبِ خَبْتٍ عُرِّيَتْ وأُجِمَّتِ[4]

(١) فى الأصل : « تحكمت » ، صوابه فى م .

(٢) فى الأصل : « والحكم » ، صوابه فى م .

(٣) من الحماسية ٧٤ . ص ٢٦٧ .

(٤) « جنوب » فى النسختين بضم الجيم : جمع جنب . وعند التبريزى بفتح الجيم .

يقول : قال اللوائم عاتِبَةً على جُنْدَب ، ومُنْكِرَةً لتودُّعه ومَيْلِهِ إلى الراحة والخَفْض وتَرْكِ السَّفَر : إنّ ناقتَهُ حُطَّ عنها رَحْلُها ، وأُزيلَ كَلاَلُها ، فهى جامَّةٌ بجُنُوب خَبْتٍ : والخَبْت ، أصله ما اطمأنّ من الأرض(١) . ويقال أَخْبَتَ الرجُلُ ، إذا صار فى الخَبْتِ ؛ وتُوُسِّعَ فيه فقيل للمتأله الخاشع : هو مُخْبِتٌ .

٢ — كَذَبَ العَواذِلُ لو رَأَيْنَ مُنَاخَنَا   بالقادِسِيَّـةِ قلْنَ لَجَّ وَذَلَّتِ

أبْطَلَ قولَهُنَّ فذكر أنَّهُنَّ لَوْ رَأَيْنَ مَنزِلَنا ومَبْرَكنا بهذا البلد ، لقُلْنَ لَجَّ جُنْدَبٌ فى السَّيْرِ وذَلَّتِ النَّاقَةُ . ويجوز أن يكونَ قولُه « مُنَاخَنا » لم يُشِرْ به إلى إناخةٍ وإلى موضعٍ لها ، وإنما يكون كقولِهِ :

* فإنّ المُنَدَّى رِحْلَةٌ ورُكُوبُ(٢)

فيكون المعنى : لو رَأَيْنَ ما جُعِلَ بَدَلاً لناقتنا فى موضعِ الإناخَةِ لقُلْن ذلك . ومثله :

* تَعْليقُها الإسراجُ والإلجامُ *

أى جُعِلَ الإسراجُ بدلاً مما كان يُعلَّق عليه . ويَقرُبُ منه قوله :

لمّا تذكَّرْتُ بالدَّيْرَيْنِ أَرَّقَنِى   صوتُ الدَّجاجِ وقَرْعٌ بالنواقِيسِ(٣)

وإنما شاهَدَ وقتَهُما فذكَرَهُما به ، ولم يكن ثَمَّ دَجاجٌ ولا نَواقيس .

---

(١) ذكر ياقوت أن « خبت » علم لصحراء بين مكة والمدينة وماء لكلب ، وقرية من قرى زبيد باليمن .

(٢) لعلقمة الفحل فى المفضليات (٢ : ١٩٤) واللسان (ندى) . وصدره :

* ترادى على دمن الحياض فإن تعف *

وركوب : مصدر ركب ، ويروى : « وركوب » بفتح الراء ، وهو اسم هضبة . وفى اللسان : « رحلة وركوب : هضبتان » .

(٣) لجرير فى ديوانه ٣٢١ والحيوان (٢ : ٣٤٢) .

٩٨

وقال الرَّاعِي[1] :

١ ـ كَفَانى عِرِقَّانُ الكَرَى وكَفَيْتُه ... كُلُوءَ النُّجُومِ والنُّعاسُ مُعانِقُه[2]

عِرِقّان : اسم صاحبه . فيقول : نام هذا الرجلُ وكفانى الاشتغالَ بالنوم ، وكلأتُ النجومَ وارتقبْتُها ، وكفَيته السهر ، وقد لازَمَ النُّعاسَ وعانَقَهُ . فإن قيل : كيف كَفاهُ الكَرَى ؟ قلتَ : هذا على مطابقةِ الكلامِ ، فلما قال كفَيْتُه مُراعاةَ النجوم ونُبْتُ عنه فيها ، قال : كفَانى الكَرَى ، وإن كانت نيابةُ ذلك عنه فى الكرَى لا يَصِحُّ . ويُرْوَى : « كفانىَ عِرْفَانَ الكَرَى وكفَيْتُه » ، أى معرفة الكَرَى ، وليس بمُرْتَضًى .

٢ ـ فَبَاتَ يُرِيهِ عِرْسَهُ وَبنَاتِه ... وَبِتُّ أُرِيهِ النَّجْمَ أَيْنَ مخافِقُهْ

هذا تطنُّزٌ من القول[3] ، لأن الساهرَ لا يَعْلَمُ من حال النائمِ أنه يَحلُمُ أو لا يَحلُمُ . وإنما نَبَّهَ بهذا الكلامِ على استحكامِ نوْمِهِ وتلَذُّذِه به ، إذ كانت الأحلام لا تحصُلُ للنائم إلا عند ذلك . ولمّا قال بات يُرِيه النومُ امرأتَهُ وأولادَه ، قال فى مقابَلتِهِ على الطريقة التى فى البيت الأوّل : وبِتُّ أُرِيهِ النَّجْمَ . وهذا الجنْس يَكثُر فى كلام البُلَغاء ، ومثله قولُ الله عزّ وجلّ : ﴿ فمنِ اعْتَدَى عليْكُمْ فاعْتَدُوا عليه ﴾ . و ﴿ إنما نحْنُ مُسْتهزئُونَ . اللهُ يَستَهزِئُ بهم ﴾ . وقول الشاعر[4] : * دِنَّاهُمْ كما دَانُوا *

---

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٨٠ .

(٢) التبريزى : « قال أبو العلاء : ويروى عُرُقُنَّان . مسمى بالعرفان ، وهو دويبة ، وقيل ضرب من الجراد » .

(٣) التطنز ، أراد به السخرية والتهكم . والمعروف « الطنز » .

(٤) هو شهل بن شيبان . انظر ما مضى فى ص ٣٥ .

وقد مَرَّ جميعُه مُسْتَقْصًى .

٩٩

وقال آخَرُ :

١ ــ فَلَسْتُ بِنَازِلٍ إلاَّ أَلَمَّتْ بِرَحْلِي أو خَيَالَتُهَا الكَذُوبُ[(١)]

حَذَفَ مفعولَ نازلٍ لأنّ المرادَ مفهومٌ ، كأنّه قال : لا أنزِلُ مَنْزِلاً . ومِثْلُه قولُ الله عزّ وجلّ : ﴿ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هذا ﴾ ، أى العذاب . والإلمامُ : زيارةٌ لا لَبْثَ معها . يقول : لا أُنزِلُ مَحَلاًّ إلا رأيتُ هذه المرأةَ مُلِمَّةً برَحْلِي ، أى متصوِّرةً لى بهذه الصورة ، تشوُّقًا مِنِّى وتَحَفِّيًا . هذا فى حالِ اليقظة وعند فراغ البال والاشتغال بحال النفس . أو رأيتُ خيالتَها الكَذُوبَ القليلةَ الوَفاء إذا نِمْتُ . ويقال خَيَالٌ وخَيَالَةٌ ، كما يقال مَكانٌ ومَكانَةٌ . وجعَلَها كذوبًا لَمّا لم يَتحقّق فِعْلُها وقوْلُها . والمعنى : إنِّى لا يُخْلِينى منها لا النَّوم ولا اليقظة ، ولا يَلفِتُنى عنها لا الرَّخاء ولا الشِّدة ، وفى هذه الطريقة قول امرئ القيس :

تَنَوَّرْتُها من أَذْرِعاتٍ وأَهْلُها بيَثْرِبَ أَدْنَى دَارِها نَظَرٌ عالِ

وقال الأصمعىّ فى قول الآخر :

أَلْبِسَ بصيرًا مَن رأى وهو قاعِدٌ بمكّةَ أهلَ الشام يَخْتَبِزُونا

هو على التَّشوُّف والتَّحَفِّى .

٢ ــ فَقَدْ جَعَلَتْ قَلُوصُ أُبْنَىْ سُهَيْلٍ مِنَ الأَكْوَارِ مَرْتَعُهَا قَرِيبُ[(٢)]

(١) ابن جنى : « عطف على المضمر المرفوع المتصل بغير توكيد ، ولو أكد فقال ألمت هى لكان حسنا ، غير أن الكلام طال بقوله : برحلى ، فناب طوله عن توكيده ، كما أن قول الله تعالى : ما أشركنا ولا آباؤنا ، لما طال الكلام فيه بلا » .

(٢) البيت من شواهد الخزانة (٤ : ٩٢) . ويروى : « ابنى زياد » .

جَعَلَتْ هاهنا بمعنى طَفِقَتْ وأقبَلَتْ ، ولذلك لا يتعـدّى . والقَلوص : الفَتِيَّةُ من الإبِل ، ومَرْتَعُها قريب فى موضع الحال[1] . يقولُ : أقبَلَتْ قَلوصُ هٰذين الرجلين قريبةَ المَرْتَع من رِحَالِهم ، قصيرةَ المَسْرَح فى رواحِهم ، لأنه لِمَا لحقَها من الـكَلاَلِ والإعياء ، لم تَقْدِر على التباعُد فى المَرْعى والارتياد .

٣ — كأنَّ لَهَا بِرَحْلِ القَوْمِ بَوًّا وَمَا إنْ طِبُّهَا إلَّا اللُّغُـوبُ

يقول : كأنّ لهذه الناقةِ ولَدًا بِرَحْلِ القومِ ، تَتَعطَّف عليه ، ولا تتباعد عنه ، وما داؤها إلا الإعياء . ومثلُ هذا قولُ الآخَرِ :

من الـكَلاَلِ لا يَذُقْنَ عُودَا لا عُقُلاً تَبْغِى ولا قُيُودَا

والطِّبُّ أصـلُه العِلْم ، والمراد به هاهنا الداء الذى يُعْلَم ويُعْرَف . والبَوُّ ، أصلُه : جِلْدُ فَصِيلٍ يُحْشَى تِبْنًا لتدُرَّ الأُمُّ عليه .

١٠٠

وقال آخر[2] :

٦ — إنْ كنتُ لا أرْمى وتُرْمَى كِنَانَتِى
تُصِبْ جانِحَاتُ النَّبْلِ كَشْحِى ومَنْكِبِى[3]

---

(١) التبريزى : «وقال أبو العلاء : ويروى : فقد جعلت قلوص ابنى سهيل . وكثير من الناس يرفع القلوص ، وهو وجه ردىء ، لأن القائل إذا قال جعلت وهو يريد المقاربة لم يكن من إتيانه بالفعل ... وليست جعلت فى هذا الوجه فى معنى المقاربة ، وإنما هى بمعنى صيرت فلا تفتقر إلى فعل ، ويكون قوله مرتعها قريب ، جملة فى موضع المفعول الثانى» .

(٢) التبريزى : «وقال آخر وضرب بنو عم له اسمه حوشب — والحوشب : العظيم البطن — ويقال إن هذا لجندل بن عمرو» .

(٣) م : «جانحات» فقط . وكتبت فى نسخة الأصل كما أثبتنا لتقرأ «جانحات» و«جائحات» بوضع همزة تحت النون ، وكتب فوقها كلمة «معا» .

هذا مَثَلٌ . والمعنى : إذا لم أُقصَد فى خاصٍّ أمرِى ، ثم قُصِدْتُ فيمن يَشْمَله عِنايتى ، عاد ذلك القَصْدُ بالشرّ والمَساءةِ علىَّ ، وصرتُ كأنى أنا المقصودُ . و « الجائحاتُ » : المائلاتُ ، ورَوَى بعضهم « جائحاتُ النَّبْلِ » وهى المستأصِلات المُهلِكات . ويقالُ جاحَهُ واجتاحَهُ بمعنًى . وليست هذه الرواية بجيِّدة ، لأن الغرضَ ما ذكرْتهُ من أنّ من يَمَسُّه أمرُه إذا قُصِد كان كنَفْسه . فإن قيل : فلِمَ خَصَّ الجائحاتِ ؟ قلتَ : المرادُ فيما ضربَ المَثلَ له : إنِّى رُميتُ[1] إذا رُمِيتِ الجَعْبَةُ المعلَّقة[2] علىَّ ، لأن بعضَ السِّهامِ يصيبه وبعضها يصيبنى . وإذا كان كذلك فلا بد من ذكر الجائحات . و « النَّبْلُ » : اسمٌ صِيغَ للجمع . والكِنانَةُ : ما يُغَطَّى به الشىء فى الأصل ، واختُصَّ بها الجَعْبة وهو من الكَنِّ ، كالسِّتارةِ من السَّتْر . وفى القرآن : ﴿ وقالوا قُلُوبنا فى أَكِنَّةٍ ﴾ . وقد فُصِل بين كَنَنْتُ واكتَنَنْتُ ، فجُعل اكتنَنْتُ لما يُضْمَرُ فى القَلْبِ من الحديث والسرّ ، وكَنَنتُ لما يُستَرُ بشىء . وذكر الدُّريدىُّ أن الكِنانَةَ لا يكون إلا للنَّبْل ، ويكون من أَدَمٍ ، فإذا كانت من خَشَبٍ فهو جَفِيرٌ ، وإن كانت من قطعتين مقرونتين فهى قَرَنٌ ، والجَعْبَةُ تكون للنَّبْل والنشَّاب جميعا .

٢ ــ أَفِيقُوا بَنِى حَزْنٍ وأَهْواؤنا مَعًا وأَرحامُنا موصولةٌ لم تُقَضَّبِ[3]

يقول : اصحوا بَنِى حَزْنٍ من سَكْرةِ جَهْلِكم ، وانتبهوا من رَقْدةِ

(١) م : « إنى مرى » . (٢) فى الأصل : « المعلقة » ، صوابه فى م .

(٣) روى قبله التبريزى :

فقلْ لبنى عمى فَقَدْ وأبيهمُ مُنُوا بهَرِيت الشِّدقِ أشوسَ أغلبِ

وفى تفسيره : « الهرت : سعة الشدق . ويقال منى له كذا ، أى قدر له كذا . وقوله : منوا ، أى بلوا بمن هذه صفته ، وهى من صفات الأسد » . وروى بعده :

ولا تَبعثُوها بعد شدِّ عِقالها ذميمةَ ذِكرِ الغِبِّ فى المتعقبِ

وفى تفسيره : « هذا مثل ، أى لا تبعثوا الحرب بعد السلم » .

غفلتِكم ، الأهواءُ بعدُ متفقةٌ ، وأسبابُ الرّحِمِ موصولةٌ ، لم يتسلّط عليها العُقوق ، ولم يقطَعْها الجفَاء والنُّبُوُّ . والمعنى : كُفُّوا عما أنتم عليه من سيِّئات التقاطع والتدابُر ، قبل تفاقُمِ الخَطْبِ ، واستفحال الشأن . والقَضْبُ : القَطْعُ ، ومنه قيل للسيفِ المِقْضَبُ والقَضِيب . وقولُه « معًا » فى موضِع الخَبَر ، أى مجتمعةٌ .

٣ ــ فإنْ تَبْعَثُوها تَبْعَثُوها ذَميمَةً قَبيحةَ ذِكْرِ الغِبِّ للمُتَغَبِّبِ

يقول : إن هَيَّجتُمُ الحَرْبَ هيّجتُمُوها مذمومةً قبيحة ذِكْرِ العاقبةِ لمن يتتبّع العواقِبَ فيتدبّرُها ، ويتعهدُ المصايرَ فيتأمَّلها . ويقال تغبَّبْتُ الأمرَ كما يقال تعقَّبتُه ، أى تفقَّدْتُ عاقبته وغِبَّهُ . والغِبُّ أصلُه فى ورود الماء والزِّيارة ، وهو يَنُوبُ فى أسماء الأظْماء وغيرِها عن الثِّلْثِ . فأما قولهم : زُرْ غِبًّا تزْدَدْ حُبًّا » فالمُهلةُ فيه أوسَعُ .

٤ ــ سآخُذُ منكم آلَ حَزْنٍ لحوْشَبٍ وإن كان مَوْلًى لى وكنتم بَنى أَبِى

إنما قال هذا لأن بنى عمِّه ضربوا مولًى له ، فيقول : سأنتقِمُ منكم يا آلَ حَزْنٍ وإن كنتم بنى أعمامٍ ، وكان حَوْشَبٌ مولَى محالفةٍ وجِوارٍ . وفى طريقته قول الآخر :

فإن غَضِبَت فيها حَبيبُ بنُ حَبْتَرٍ فخُذْ خُطَّةً تَرْضاكَ فيها الأباعِدُ

وروى بعضُهم : « وإن كان موْلاىَ وكُنْتُمْ » ، والبصريُّون لا يجوِّزون مدَّ المقصور ، لأنه إدخالُ زيادةٍ على كلامِهم ، ويجوّزون قَصْرَ الممدود ، لأنه حذْفٌ للتخفيف ، وردٌّ إلى الأصل[1] . وحوْشَبٌ عند النحويِّين أنه

---

(١) التبريزى : ويروى : « وإن كان مولاى وكنتم بنى أبى . على الزحاف الذى هو الكف ، وليس فى الحماسة بيت مكفوف غيره . ويروى : مولى لى ، فعلى هذا يسلم من الزحاف . والأولى أشبه بطريقة الشعراء . ألا ترى أنهما معرفتان مضافتان : مولاى وبنى أبى » . قلنا : والرواية بالكف هى رواية ابن جنى فى التنبيه .

[ممّا[١]] لم يجئ إلا بزيادة الواو ، وأنه مثلُ كوكب . وحَكَى الخارزَنجىُّ أن حَشَبًا اسمُ رجُلٍ ، وأنه يقالُ أحْشَبَنى كذا ، أى أحشَمَنى[٢] .

١٠١

وقال جَمِيلٌ[٣] :

١ — أَبُوكَ أَبُوكَ أَرْبَدُ غَيْرَ شَكٍّ أَحَلَّكَ فى المَخَازِى حَيْثُ حَلاَّ

ارتفع أبوكَ بالابتداء ، وكرَّره تأكيداً ، وأَرْبَدُ بدَلٌ منه ، وخَبَرُ المبتدأ أَحَلَّكَ . وانتَصَبَ « غيرَ » على المَصدرِ ، وهو مما يؤكَّدُ به ما قبله . ومِثلُه حَقًّا وما أشبَهَهُ . والمعنى أنّ لُؤْمَ أبيه موروث ، وأنه اقتداءً بَسلَفِه قد أنزَل ابنَه مَنزِلَه فى المخازى والقبائح ، حَقًّا لا مِرْيةَ فيه .

٢ — فَمَا أَنْفِيكَ كَىْ تَزْدَادَ لُؤْمًا لِأَلْأَمَ من أبيـــك ولا أَذَلاَّ

يقول : لا أبرِّئُكَ من أبيك طَلَبًا لأنْ أنْسُبَك إلى من هو أَلْأَمُ منه وأذَلُّ لتزدادَ ذُلاً ولؤما ؟ لأنَّ أباكَ النهايةُ فى هذين . وانتَصَبَ « لُؤمًا » على التمييز ، واللام من « لألأم » تَعلَّق بفعْل مُضمرٍ ، كأنه قال : ما أَنفيك من أبيك وأدعُوكَ لألأمَ منه ، لأنهُ إذا نَفاه من أبيه فقد جعله لغيرِه . ويجوز أن يُحمَلَ الكلام فيه على المعنى ، فيُتَصَوَّرَ أَنْفِيكَ بأَدْعُوكَ ، ويُعدَّى تعدِيَتَهُ . ومِثْلُهُ

---

(١) هذه من م فقط .

(٢) م : « أحشبنى كذا فى معنى أحشمنى ، أى أغضبنى » .

(٣) عند التبريزى وابن جنى : « وقال آخر » وعكس الأمر فى المقطوعة التالية ، إذ نسبها التبريزى إلى جميل ، على حين نجد عبارة الإنشاد فيها فى النسختين : « وقال آخر » . وهو جميل بن عبد الله بن معمر ، أحد عشاق العرب المشهورين ، وصاحبته بثينة ، وهما جميعا من عذرة . وجميل شاعر إسلامى معاصر لجرير والفرزدق وكثير عزة . الشعر والشعراء ٤٠٠ — ٤١٢ والأغانى (٧ : ٧٢ — ١٠٤) والمؤتلف ٧٢ ، ١٦٨ وابن سلام ٢٠٨ والخزانة (١ : ١٤٣ — ١٤٦) وابن خلكان فى رسمه .

قولُ الله عزّ وجلّ : ﴿هَلْ لَكَ إلى أن تَزَكَّى﴾ . وعلى هذا يُحمل قول الفرزدق :

* قَدْ قَتَلَ اللهُ زياداً عَنِّى[١] *

لمّا كان مَعْنَاهُ صَرَفَهُ اللهُ عَنِّى . ومن أبيات الكتاب[٢] :

إذا تَغَنَّى الحمامُ الوُرْقُ هيَّجَنِى ولو تَعَزَّيْتُ عَنْها أُمَّ عَمَّارِ[٣]

لأنه تُصَوِّرَ هَيَّجَنِى أنه ذَكَّرَنى ، فعُدِّى تعديتَه .

١٠٢

وقال آخر[٤] :

١ ــ أبوكَ حُبَابٌ سَارِقُ الضَّيْفِ بُرْدَهُ وجَــدِّىَ يا حَجَّاجُ فارِسُ شَمَّرَا

يقول : أبوكَ الذى سَرَقَ بُرْدَ ضَيْفِهِ وغَدَرَ به وخانه ، وجدّى فارس هذا الفَرس المعروف . وسارِق الضيف بُرْدَهُ ، أصله سارِقُ بُرْد الضَّيْف ، لـكنه أضَافَهُ إلى الضَّيف بناء على قولهم سَرَقتُ الضَّيْفَ بُرْدَهُ ، والمراد سَرَقتُ من الضَّيف ، لـكنه لما حَذف الجارّ تخفيفاً وصَل الفِعْل فعمل فيه ، ثم أضاف اسم الفاعل إليه . وعلى هذا يقال اخترتُ الرِّجالَ زَيداً : وشَمَّرُ فِعْلٌ فى الأصل سُمِّى به الفَرَسُ ، لأنه ليس فى الأسماء شئٌ على فَعَّلٍ . ومثله خَضَّمُ ، وهو لَقَبٌ للعَنْبَرِ بن مازِن[٥] . وحُبَابٌ يجوز أن يكون بَدَلاً وسارق الضيف خَبَرًا ،

(١) ديوان الفرزدق ١٨١ . قاله حين خرج من المدينة بعد موت زياد . وقبله :

* كيف ترانى قالبا مجنى *

(٢) كتاب سيبويه (١ : ١٤٤) .

(٣) للنابغة الذبيانى من معلقته فى رواية جمهرة أشعار العرب ٥٣ . والرواية فيها : « ولو تغربت » ، وكذا فى كتاب سيبويه .

(٤) كذا فى النسختين . وعند التبريزى وابن جنى : « قال جميل » .

(٥) التبريزى : « وشمر اسم فرس ينشد بفتح الشين وكسرها ، فإذا فتحت الشين فهو مسمى بالفعل الماضى ، كما سمى الرجل خضم لكثرة أكله ... وإذا كسرت الشين فهو اسم فعل ، مثل الإمر والهلع ، ويجب أن يكون على هذا الوجه اسم فرس أنثى ، وهو علم المؤنث كامرأة نسميها بقنب ودنب . هذا ما ذكره أبو العلاء فى هذه الكلمة » .

ويجوز أن يكون حُبابٌ خَبَرًا وسارِقُ الضيف صفَةً ، وهذا أجود حتى يكون في مقابلة فارِس شَمَّر . كأنَّ المرادَ : أبوك المعروف بذا الاسم ، وجَدِّى المعروف بِذَا . ورواه بعضهم « فارِس شِمَّر » بكسر الشين ، وقال : هو عَلَمٌ مؤنث مثل امرأة تُسَمِّيها قِنَّب ودِنَّب .

٢ــبَنُو الصَّالحِين الصَّالحُونَ ومن يَكُنْ لآباءِ صِدْقٍ يَلْقَهمْ حَيْثُ سَيَّرَا

كما فضَّل جَدَّه على أبيه في البيت الأوّل فضَّل نفسه عليه في البيت الثاني . والمعنى أنَّ المرء يتقيّل أباه ، فإذا كان جَدِّى صالحًا فأنا صالح ، وإذا كان أبوك صالحًا فأنت صَالحٌ . وقوله « ومن يَكُنْ لآباء صِدْقٍ » يُرِيدُ من كان وَلَدَ آباء كِرامٍ عُرِف بهم حيث ذهب ، ولقيهم أنّى سارَ وظَعَن . واللام دَخَلَ في قولِهِ لآباء صِدْقٍ لهذا المعنى . ومِثَالُه :

لئِنْ كانَ للقَبْرَيْنِ قَبْرٍ بِجِلَّقٍ وقَبْرٍ بصَيدَاءَ التى عِنْدَ حَارِبِ(١)

أى إن كان وَلَدَها . وصِدْق يُضَاف إليه الواحد والجمع ، والمؤنث والمذكَّرُ ، ويُرَادُ به المَدْح . فإذا قُلْت ثَوْبُ صِدْقٍ ورجال صِدْقٍ ، فالمعنى نِعْمَ الشيء ذاك ، أى هو صادِقٌ فيما يُحْمَدُ فيه لا كاذبٌ . وإذا أَرَدْتَ أن تجعلَهُ نعتًا فتحتَ الصَّادَ منه فقلتَ : هو الرَّجُل الصَّدْق ، ويُثَنَّى ويُجْمَع ويُؤَنَّث . قال :

* مَقْذُوذَةُ الآذانِ صَدْقاتُ الحَدَقْ(٢) *

٣ــ فإنْ تَغْضَبُوا من قِسْمَةِ اللهِ حَظَّكُمْ فَلَلَّهُ إذْ لم يُرْضِكُمْ كان أبْصَرَا

يقول : إن تسخّطتم ما قَسَمَهُ الله ، تَعالَى جَدُّه ، لَكُم ، وجعلَه نصيبَكم ،

(١) للنابغة الذبياني في ديوانه ص ٣ .
(٢) لرؤبة في ديوانه ١٠٤ واللسان (صدق) .

فَلَتْهُ كانَ أعْلَمَ بكم وبقدر استحقاقكم ، لمَّا لم يَرَكم أهلاً لأكثر منه . والمعنى : إنّ ما حَصَلتُم عليه من البَخْس في القِسْمَةِ ، والنَّقْصِ من المَقْدُرَةِ . والتأخُّر في المنزلة ، حِكْمَةٌ من الله عزّ وجَلّ ونَصَفَةٌ ، ولو زاد مستحقُّكُمْ عليه لأعطاكم ، فإنّه العالِمُ الحكيمُ في أفعالِه وأقضيته . والبصير في صفة الله ، تحقيقُه العَالِمُ .

١٠٣

وقال أبو النَّشْنَاش[1] :

١ ـــ إذَا المَرْءُ لم يَسْرَحْ سَوَامًا ولم يُرِحْ ... سَوَامًا ولم تَعْطِفْ عليْهِ أقَارِبُهْ[2]

يُقالُ سَرَحْتُ الماشيَةَ ، إذا أخرجْتَهَا بالغَدَاةِ إلى المرعَى ؛ وأرَحْتُها ، إذا رددْتَهَا بالعشيّ . فإن قال قائل : لِمَ قال « ولم يُرِحْ سَوَامًا » والنَّكِرَةُ إذا أُعِيدَ ذِكْرُهَا يَجِبُ تعريفُها ، بدلالة أنّك تقول رأيت رجلاً بمكان كذا ، فقال لي الرجل كذا ؟ قلتَ : يجوز أن يكون نَكَّرَهُمَا لأنّه تَصَوَّرَ المُرَاح بما دَخَلَهُ من التناقُص والتزايد ، [بالأخذ[3]] منه والرَدِّ إليه غيرَ المَسْرُوح ، وإذا كان كذلك فالثّاني غير الأول . ويجوز أن يكون السَّوَامُ الثاني غير الأول ، وذلك أنّ المُكْثِرِين منهم كانوا يأمرون رِعاءَهم بأن يقتَضِبوا قِطعةً من المال كيفَ اتفقت[4] ، ليحبسُوهَا على الحُقُوق العَارِضة ، سِوَى المُؤَن اللازمة ، فكانت الغادية لما يقيمونها من النُّوَبِ

(١) كان أبو النشناش من لصوص بني تميم ، وكان يعترض القوافل في شذاذ عن العرب بين طريق الحجاز والشام ؛ فظفر به بعض عمال مروان فحبسه وقيده ، ثم هرب فلقي في طريقه غرابا على شجرة بان ، ينتف ريشه ، فلجأ إلى رجل من بني لهب فقال له : إن صدقت الطير يعاد إلى حبسه وقيده ويقتل ويصلب . فقال أبو النشناش هذه الأبيات . الأغاني (١١ : ٤٢-٤٣) .

(٢) الأغاني : « ولم يبسط له الوجه صاحبه » .

(٣) التكملة من م والتبريزي .

(٤) في الأصل : « اتفقتها » ، صوابه في م .

فى ذلك غير الرائحة ، والرائحةُ غير الغادية . وإذا كان كذلك فالسؤال ساقط .
والمَعْنَى : إذا الرَّجُل لم يَكُنْ ذا مَالٍ يُسْرَحُ بَعْضُه ويُرَاحُ عليه بَعْضُهُ ، على حَسَبِ ما يتّفق ، ولم يَكُنْ لَهُ أقاربُ يتعطَّفُون عليه ويَرَون من الفُروض(١) الواجبةِ الإحسانَ إليه ، فالمَوْتُ خَيْرٌ لَهُ . وجَوَاب إذا فى البيت الثانى . ويجوز أن يكون المُرَاد بقوله ولم تَعْطِفْ عليه أقاربُه تَعَطُّفَ النُّصْرَةِ والإعزاز ، فيكون المعنى إذا لم يكن غنِيًّا ولم يكن مؤيَّدًا بذويه فيعتزُّ بهم ، فالموتُ أَصْلَحُ لَهُ من الحياة . وهذا المعنى أحسَنُ .

٢ — فَلَلْمَوْتُ خَيْرٌ للفَتَى من قُعُودِهِ عَدِيمًا ومِنْ مَوْلًى تَدِبُّ عَقَارِبُهْ(٢)

فللموت جواب إذا ، لتضمُّنِهِ معنى الجزاء . يقول : إذا الرجل لم يَكُنْ على ما وصفتُ فورُودُ المَوت عَلَيْهِ خَيْرٌ له من قُعُوده راضيًا بفَقْرِه ، وبإفضال مَوْلًى يؤذيه بالمَنِّ ، ولا يُخَلِّصُ النعمةَ عِنْدَهُ من الشّوائب . ودبيبُ العقارب كِنَايَةٌ عن فِعْلِ الأذَى والتَّحمُّدِ بالكلمات المُكدِّرة . وانْتَصَبَ « عديمًا » على الحالِ . ويجوز أن يكون المعنى فى قولِهِ « ومِنْ مَوْلًى تَدِبُّ عقاربُه » أن يَحْصُل الفسادُ بين العشيرة ، والتّدابُرُ والاختلاف ، فكُلٌّ يَقْصِدُ صاحبَه بالمَسَاءة ، ويَبْغِى له الغوائل . وهذا المَعْنَى يَتَلَفَّقُ مع المعنى الثانى فى البيت الذى قَبْلَه .

٣ — ونائِيَةِ الأرْجاءِ طَامِسَةِ الصُّوَى خَدَتْ بأبِى النَّشْنَاشِ فيها رَكائِبُهْ(٣)

انجرّت « نائية » بإضمار رُبَّ ، والواو داخلةٌ للعطف ، ولم يَصِرْ بدلاً من رُبَّ .

(١) م : « الفرائض » .
(٢) الأغانى : « تعاف مشاربه » .
(٣) الأغانى : « ودوية قفر يحار بها القطا » . وبعد البيت عند التبريزى :

لِيَكْسِبَ مَجْدًا أو لِيُدْرِكَ مغْنَمًا جزيلا وهذا الدّهْرُ جَمٌّ عَجائبُهْ

وعند أبى الفرج :

ليدركَ ثأرًا أو ليكسِبَ مغنمًا ألا أن هذا الدّهرَ تترى عجائبُهْ

بدَلالَة وُقوع الفاء العاطفة موقِعَه وبلْ فى نَحْوِ :

* فَمِثْلِكِ حُبْلَى قد طرَقْتُ[١] *

و : * بَلْ بلَدٍ ذِى عُقَدٍ وإخْبَابِ[٢] *

يقول : ورُبَّ مَفازةٍ بعيدة الأطراف ، دراسةِ الأعلام ، سارت بأبى النشناش فيها رواحِلُه يَطْلُبُ المالَ ، ويَكْتسبُ المَجْدَ . وهذا الكلامُ تَبَجُّحٌ منه بأنَّهُ لم يَتَّخِذ الفقرَ ضجيعا ، ولا الدَّعَةَ حَلِيفًا ، بل رَمَى بنفسه نحو المرامى المُتلِفَة ، وطَوَّحَهَا فى المَوَامِى المُعْطِبَة . والأَرْجاء واحِدُها رَجًا . والطَّامِسُ : الدَّارِس . ويقالُ طَمَسَ وطَسَمَ . والصُّوَى : الأعلام ، والواحدة صُوَّةٌ ، ومِثْلُه قُوَّةٌ وقُوًى . ومعنى خَدَتْ : أسْرَعَتْ ، ومَصْدَرُه الخَدَيان . والركائبُ : جَمْع الرَّكُوبة ، وهى المركوبة ، ولا يَتْبَع الموصوف ، بل يُسْتَعْمَل على انفرادِها ، ومِثْلُها الحَلُوبَةُ .

٤ ــ وسائلَةٍ بالغيْبِ عنِّى وسائلٍ ومَن يَسأَلُ الصُّعلُوكَ أين مذاهِبُهْ[٣]

يقول : رُبَّ رجُلٍ وامرأة سألاَ عنِّى بظَهْرِ الغيْبِ ، لما تداخَل القلوبَ من هَيبتى ، والإشفاقِ من وَقعَتى . ثم قال مستفهمًا على طريق الإنكار : ومَن يسأل الصعلوكَ ، أى يجب ألاّ يُسألَ الصعاليكُ عن مذاهِبِهم وطُرُقهم ، لأنها لا تُعْلَم ، إذ لم يكُن يستقِرّ بهم موضعٌ ، ولم يكن يَحْويهم بَلَدٌ ومَذهَبٌ يلزَمونَه أو يختصُّون به . وكان وَجْهُ الكلامِ أن يقولَ : ومن يَسألُ عن الصُّعلوك ليكون وَفْقَ قوله « وسائلةٍ بالغَيْبِ عَنِّى » ، لكنه عَدَلَ عنه إلى ما قالَهُ تأكيداً للمراد ، وذلك أنه إذا كان سؤالُ نفسِه عن مَذهَبِهِ مُنْكَرًا لاستبهامه عليه ، فسؤال غيره عنه أبعدُ من الصواب .

(١) لامرئ القيس فى معلقته ، وهو بتمامه :

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع فألهيتها عن ذى تمائم محول

(٢) فى م : « بل بلدة » فقط . وعند التبريزى : « بل بلد » فقط .

(٣) الأغانى : « وسائلة أين ارتحالى » .

٥ ــ فلم أرَ مِثلَ الفَقْرِ ضاجَعَهُ ٱلْفَتَى ولا كَسَوادِ الليــلِ أَخْفَق طالِبُهْ

يُرْوَى « مِثلَ الهَمِّ » ، هو مَصدَرُ هَمَمْتُ بالشيء ، أى إذا همَّ يجب عليه أن يُنفذَه ولا يؤخِّرَه . ويقول : لم أرَ كالفقر يتخذه الفتى ضَجِيعا ، أى يَرْضَى به وبلزومه له ولم أرَ كسوادِ الليل أكدى رَاكِبُه والطالبُ فيه . والمعنى : يجب ألا يحصُلَ واحدٌ منهما ، لا الرِّضا بالفقر ، ولا الإخفاق مع رُكوب الليل . ويقال ضَجَع ضَجْعًا وضُجُوعًا واضطجع بمعنًى واحد ، ومنه قيل للعاجز الضُّجْعِيُّ والضجْعَةُ . وتُسمَّى الكواكبُ التى لا تسير : الضَّواجع . والإخفاقُ : أن يَغزُوَ فلا يغنم ، أو يرجوَ فيَخيب . قال عنترة :

فيُخْفِقُ مَرَّةً ويُصِيبُ أُخْرَى ويَفْجَعُ ذا الضــغائن بالأَرِيب

وقولُه « أَخفَق طالبُه » ، أى الطالب فيه . وهذا من إضافة الشيء إلى الشيء لكونه فيه .

١٠٤

وقال آخر(١) :

١ ــ ألاَ قالَتِ ٱلخنْساء يومَ سُوَيْقَــةٍ
عَهِدْتُكَ دَهْرًا طاوِيَ الكَشْحِ أَهْضَمَا

يقول : قالت هذه المرأة يومَ اجتماعنا فى سُوَيْقَةٍ : عهدتُك زمانًا ممتدًّا صغيرَ البطنِ ، مطويَّ الكَشْحِ والجنْبِ . وإنما أنكرتْ سِمنَهُ وكثرةَ لحمه ، فأجابها بالبيت الثانى . والهَضَمُ : انضمامُ الضلوع ، وتقارُب الجَنْبَيْن .

٢ ــ فإمَّا تَرَيْنِي اليَوْمَ أصْبَحْتُ بادِنًا لَدَيْكِ فقَدْ أُلْفَى على البُزْلِ مِرْجَما

(١) وردت هذه الحماسية عند التبريزى بعد المقطوعة التالية إذ تقدمت المقطوعة التالية عليها عنده .

يقول : إن كنتِ تريْنني اليَوْمَ — وهو إشارةٌ إلى يومِهِ وما يَقْرُبُ منه — أصْبَحْتُ مُثْقَلَ النفس ، مُبَدَّنَ الخلْقِ لديك ؛ أى فى مَنْظَرِكِ ومُعْتَقَدِكِ ، فإنى إذا رَكِبتُ البُزْلَ وُجِدتُ عليها مِرجما . والمِرْجَمُ : الذى كأنه آلةٌ فى رَجْمِ الأرض بأخفاف الإبل ووطء الأقدام . وينتصب « مِرْجما » على الحال . وقيل المِرْجَمُ فى السَّفَرِ : البعيد فى الغاية . وكما قيل رَجُلٌ مِرْجَمٌ ، قيل يَدٌ مِرْجَمٌ ، ورِجْلٌ مِرْجَمٌ ، ولسانٌ مِرْجَمٌ ، قال الشاعر :

* شَدِيدُ الرِّجَامِ باللسان وباليدِ *

و « إمَّا » ، فى أكثر الأحوال يلزَمُ الفعلَ الواقع بعده إحدى النونَيْن الثقيلة والخفيفة ، لأنَّه كما أُكِّدَ حرفُ الشرط بـ « ما » أُكِّدَ الفعل المشترَطُ به بالنُّون أيضاً . وهاهنا جاء خالياً من النون .

١٠٥

وقال آخر[١] :

١ — ألاَ قالَتِ العَصْمَاءُ يَوْمَ لَقِيتُها أرَاكَ حَدِيثًا ناعِمَ البالِ أفْرَعَا[٢]

هذا فى طريقة ما قبْلَهُ . فيقول : قالت هذه المرأة لما التقيت معها : أعلَمُكَ عن قريبٍ ناعِمَ الحالِ ، تامَّ شَعَر الرأس ، لم يتسلَّطْ عليك صَلَعٌ ، ولا حدثَ انحسارُ شَعَرٍ ، ولا شُحُوبُ لَوْن ، فكيف تغيّرتَ مع قُرْب الأَمَدِ . وانتصب « حَدِيثاً » على الظرفِ . وناعمَ البال ، مفعولٌ ثانٍ من أراكَ . والأفرعُ : التَّام شعر الرأس ، وجَمْعُه فُرْعَانٌ . والأصْلَعُ خِلافُه .

(١) انظر ما سبق من الكلام على الترتيب فى الحماسية السابقة ، وقد روى هذه الحماسية صاحب الخزانة (١ : ٤٨٢) ، وذكر أن أحداً لم يعرف نسبتها .

(٢) وقع هذا العجز فى شعر متمم بن نويرة فى قصيدته التى رثى بها مالكا :

تقول ابنة العمرى مالك بعدما أراك حديثاً ناعم البال أفرعا

المفضليات (٢ : ٦٨) .

٢ ـ فَقُلْتُ لَهَا لا تُنْكِرِينِي فَقَلَّمَا يَسُودُ الفَتَى حَتَّى يَشِيبَ ويَصْلَعَا

يقول : أجَبْتُهَا وقُلت : لا تستنكِري ما رأيتِ من شُحُوبِ لوني ، وانحسار الشعَرِ عن رأسي ، فما ينالُ الفتى السِّيادة حتى يستبدِلَ بشَبِيبَتِهِ شَيْبًا ، وَوُفور شعره[1] صَلَعًا ، وإلا بعد استحكامِ الرأي ، واستنفاد العُمْر في اكتسابِ المَجْدِ . وقَوْلُه « قَلَّ ما » يفيد النَّفي هنا ، وما تكون كافة لقلَّ عن طلب الفاعل ، وناقلةً له عن الاسم إلى الفعل ، فإذا قلت : قلَّ ما يقوم زيدٌ فكأنك قُلْتَ ما يقوم زيدٌ . يَدُلّ على ذلك أنّهم قالوا : قَلَّ رَجلٌ يقول ذاك إلا زَيْدٌ ، وأجرَى مجرى ما يقول ذاك إلا زيد ، وقالوا أيضاً : أقلُّ رجلٍ يقول ذاك إلاّ زيد . وأنهم أجرَوْا خِلافَهُ مجراه ، فيقول : كَثُرَ ما يقول زيد . وعلى ذلك بيت الكِتَاب :

. . . . وقَلَّ ما وِصَالٌ على طول الصُّدُودِ يدوم[2]

ويجوز أن يكون « ما » من قَلَّ ما يسود الفتى ، مع الفعل في تقدير المَصدَر ، كأنه قال : قَلَّ سِيَادَةُ الفتى ، أي ينْزُرُ استكمالُها إلاّ مَعَ هذه الحالة . ومِثلُه قولُ لَبِيدٍ :

قَلَّ ما عَرَّسَ حَتَّى هِجْتُهُ بالتَّباشِيرِ من الصُّبْحِ الأُوَلْ

لأنه ليس يريد نَفيَ التَّعْرِيسِ رأساً ؛ إذْ كان يعتادُه قُطّاعُ الفَلاَةِ ، ورُكَّابُ الظلام ، بل يريدُ عَرَّس تَعريسًا قليلا فَهِجْتُهُ . ويقال : صَلِعَ صَلَعًا وصُلْعَةً ، وهو أَصْلَعُ وَصَلِيعٌ .

٣ ـ ولَلْقَارِحُ اليَعْبُوبُ خَيْرٌ عُلاَلَةً من الجَذَعِ المُرْخَى وأبْعَدُ مَنْزَعَا

هذا مَثَلٌ ضَرَبَهُ في تفضيل نفسه على شيخوختِهِ وقد أدَّبَهُ الكِبَرُ ، ونازَعَ

(١) في الأصل : « ووفور شيبه » ، صوابه في م .

(٢) في الأصل : « وصال يدوم على الصدود » ، صوابه في م وسيبويه (١ : ١٢ ، ٤٥٩) . ونسبة سيبويه إلى عمر بن أبي ربيعة ، والشنتمري إلى المرار الفقعسي . وصدره : * صددت فأطولت الصدود وقلما *

الدَّهْرَ وأبناءهُ أطرافَ الخطُوبِ ، ومرائر السِّيادة والعُلُوِّ على الأحداث الذين لم يجربوا الأمور ، والأغمار الذين لم يُجاذِبُوا الشدائد ، فيقول : للفرسُ المُتَناهى فى القوّةِ والسِّن ، الذى يجرى جِريَةَ الماء سُهُولَةً ونفَاذًا ، خَيْرٌ إبقاء وأبْعَدُه غَايةً من ابن سنتين وهو مُهْمَل لم يُسْتَغْنَ به فى رُكوب ونزُول ، ولم يُرَضْ[١] بإسراجٍ وإلجام . واليعبوب : الفرس الكثير الجرى[٢] ، والجَدْوَلُ الكثير الماء . والعُلالة : البقيّة من الجَرْى وغيره ، وهاهنا يريد الجَرْى . قال الشاعر[٣] :

إلاّ عُــلالةَ أو بُدَا هَةَ سابحٍ نَهْدِ الجُزَارَهْ

فالبَداهةُ : أوّل الجَرْىِ ، والعُلالةُ : آخِرُه . وقولُه « من الجَذَعِ المُرْخى » يُرْوَى المُرخى بكسر الخاء ، والإرخاء : لِين فى العَدْو . قال :

* وإرْخاء سِرْحانٍ وتقريب تَتْفُلِ[٤] *

وإذا رُوِىَ بفتح الخاء فهو المُرْسَلُ المُهْمَل النَّزوع إلى الغاية . وانتصاب « عُلالة » و « مَنْزَعًا » على التمييز .

١٠٦

وقال شبيب بن عَوانة[٥] :

١ — قضىَ بيننا مَرْوانُ أَمْسِ قضيَّةً فما زادَنا مَرْوانُ إلا تَنائِيَا

---

(١) م : « ولم يؤدب » .

(٢) كذا فى م . وفى الأصل : « الكريم الجرى » .

(٣) هو الأعشى . ديوانه ١١٤ .

(٤) لامرئ القيس . وصدره :

* له أيطلا ظبى وساقا نعامة *

(٥) التبريزى : « قال أبو هلال : ورواه بعض علماء البصرة الكروس الطائى ؛ وهو الكروس بن زيد بن الأخزم بن مصاد بن معقل بن مالك بن عمرو بن ثمامة بن مالك بن جدعاء بن ذهل بن رومان بن جندب بن خارجة بن سعد بن فطرة — وفطرة هو جديلة — . وخاصم ابن عم له إلى مروان بن الحكم ، فحبسه مروان .

يقولُ : قَضَى بيننا هذا الرجل بحكومةٍ تَسخَّطْناها ، ولم نَرْضَ بها ، إذ لم يُقْصَد بها صَـلاحُ ذاتِ البَين ، ولا تلافى جَمْعِ الشَّمْل ، فازددنا بها تَبايُنًا عن الاصـلاحِ والمراجعة واختلافًا وتنائيًا عن الالتئام والموافقة وتَباعُدًا وقوله « أمْسِ » تقريبٌ لزمانِ فِعْلِه ، ولم يُرِدِ اليومَ الذى وَلِىَ يوْمَه . وهذا كما تقول : فلانٌ بالأَمْسِ يَفعل كذا وأَمْسِ مَعرِفةٌ ، وإنما بُنِىَ لتضمُّنه معنى الألف واللام .

٢ — فلو كنتُ فى الأرْضِ الفضاءِ لَعِفْتُها ولـكن أَتَتْ أَبوابُه من وَرائيا[1]

يقول : لو كنت بالبَدْوِ لرددْتُ حكومتَه وأبديْتُ كراهتى لها ، ولـكنى كنت أسيرًا إذ كنتُ فى الحَضَرِ حاصلاً فى داره ، وداخلاً تحت مَلَـكَتِه . ومعنى « أتَتْ أبوابُه من ورائيا » أى حالت مَسالِحُه ومراصِـدُه بينى وبين مرادى . ووراء بمعنى قُدَّامَ هنا ، ومِثْلُه فى القرآن : ﴿وكانَ وَرَاءهُمْ مَلِكٌ﴾ .

١٠٧

وقال جميل[2] :

١ — فَلَيْتَ رِجالاً فيكِ قد نَذَرُوا دَمِى وهَمُّوا بِقَتْلِى يا بُثَيْنَ لَقُونِى

فيكِ أى فى معناكِ وبسببك . وقولُه « قد نَذَرُوا » من صِـفة رِجالاً ، ولقُونى خَبَر لَيْتَ . والمعنى تمنَّيتُ أنّ رجالا فعلوا فى معناكِ ما فعلوا من الهَمِّ بقتلى ، وعَقْدِ النَّذْرِ فى سَفْكِ دمى ، التقوا معى ، ماذا كانوا يفعلون . وفى هذا الـكلام إيهامٌ أنهم لا يَجْسُرون على التعرُّض له ، وفيـه استهانةٌ بأقوالِهم

(١) م والتبريزى : « بالأرض الفضاء » .

(٢) فى الأصل : « وقال آخر » وأثبت ما فى م . وعند التبريزى : « وقال جميل بن عبد الله بن معمر العذرى » . وقد سبقت ترجمة جميل فى الحماسية ١٠٢ .

ومكايدهم ، وإن كانوا قد بَذَلوا من القولِ ما بَذَلوا ، وأَضمرُوا فيه ما أضمروا . وقد فسَّرَ تهيُّبَهم له ، ونُكوصَهم عن الإقدام عليه في البيت الثاني .

٢ – إذا ما رَأَوْنِي طالعًا من ثَنِيَّةٍ يقولون مَنْ هذا وقد عَرَفُونِي

يقولُ : إذا ما أبصرونى[1] مُقْبِلاً عن عَقَبَةٍ ، طالعًا عليهم من طريقٍ إليهم مُفْضِيَةٍ ، يتساءلون فيما بينهم بقولهم : مَنْ هذا ، وإن كانوا عارفين بى . أى يتجاهلونى جُبْنًا وإحجاما .

٣ – يقولون لى أَهْلاً وسهلاً ومَرْحَبًا ولو ظَفِرُوا بى ساعةً قَتَلُونى

نَبَّهَ بهذا الكلام على تملّقهم وإظهارِهم بالنِّفاق ما لا يوافقُ باطِنَهم ، عَجْزًا وضَعْفَ كيدٍ . والمعنى يستقبلوننى بالتأهيل ويتلقَّوْننى بالترحيب عند الالتقاء ، ولو أُعْطُوا الظَّفَر لأَتَوْا علىّ وما أبقَوْا .

٤ – فكيفَ ولا تُوفى دِماؤُهُمُ دَمِى ولا مالُهُم ذو كَثْرَةٍ فَيَدُونى[2]

يقال : أَوْفَيْتُهُ وَوَفَيْتُ له بكذا وأَوْفَيْتُ ، وفى هذا بيانُ عُذْرِهم فى تَرْكِ الوَفاء بالنَّذْرِ ، وتعجُّبٌ من أفعالهم عند اختلاف أحوالِهم . فيقول : كيف يُقدِمون علىّ وليس فى دمائهم كلِّهم وفاءٌ بدمى ، ولا فى مالِهم اتّساع ، فإذا عَجَزَت دماؤهم عن دمى فكيف يُعْطُونَ دِيَتِى .

ويقال وَدَيْتُهُ أَدِيه دِيَةً وَوَدْيا .

(١) فى النسختين : « أبصروا بى » .
(٢) التبريزى واللسان (نده) : « ذو ندهة » . والندهة ، بفتح النون وضمها : كثرة المال .

١٠٨

وقال يحيى بن منصور[(١)] :

١ – وَجَدْنا أبانا كان حَلَّ ببَلْدَةٍ ... سِوًى بَيْنَ قَيْسٍ قَيْسِ عَيْلانَ والفِزْرِ

سِوًى في موضع جَرٍّ على أنه صفةٌ لبَلْدَةٍ . والمعنى وجَدْنا أبانا حَلَّ ببلْدَةٍ متوسِّطة لديار قيس بن عَيْلان وسَعْدِ بن زَيْدِ مَنَاةَ . والمعنى حَلَّ بين مُضَرَ ونأى عن ربيعة ، لأنّ قَيْسًا والفِزْر من مُضَر . والفِزْر : لَقَبٌ لسَعْد بن زيدِ مَنَاةَ . وقال الأخفشُ : سِوًى وسَوَاء في معنى العَدْل . وفى القرآن : ﴿ إلى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بيننا وبَيْنَكم ﴾ . وفى موضع آخر : ﴿ اجْعَلْ بيْننا وبينَك مَوْعِدًا لا نُخْلِفُهُ نحْنُ ولا أنتَ مكانًا سِوًى[(٢)] ﴾ ، أى مكانًا عَدْلًا .

٢ – فلما نَأَتْ عَنَّا العشيرةُ كُلُّها ... أَنخْنا فحَالَفْنا السُّيوفَ على الدَّهْرِ

٣ – فَمَا أسْلَمَتْنا عِنْدَ يَوْمِ كَرِيهَةٍ ... ولا نَحْنُ أغْضَيْنا الجُفُونَ على وِتْرِ

يقول: لما خَذَلَتْنا عَشِيرَتُنا — وهم رَبِيعة — فيما نابَتْنا، وتباعَدتْ بنُصرتِها ومَعُونتِها عنَّا ، وتَرَخَّصَتْ في القُعودِ عن مُساعدتنا ، اكتفينا بأنفُسِنا فأقَمْنا بدار الحِفاظ والصبْر ، واتَّخَذْنا سُيُوفَنا حُلَفاء على الدَّهْرِ ، فَمَا خَذَلَتْنَا فى يوم حَرْبٍ وعند مُدَافَعَةٍ وجَهْد ، ولا نحن غَمَّضْنا[(٣)] جُفوننا على وِتْرٍ وحِقْدٍ . والمعنى : إنَّا وسيوفَنا توافَيْنَا فيما عليه تَعاقَدْنا ، وتوازرنا فيما له تحالَفنا[(٤)] ، فَبَلَغْنَا نحن أقصى

(١) التبريزى : « وقال يحيى بن منصور الحنفى . قال أبو رياش : هذا غلط من أبى تمام . يحيى بن منصور من ذهل ، وهذه الأبيات لموسى بن جابر الحنفى » .
(٢) كذا بكسر السين فى النسختين . وهى إحدى القراءات ، وقرئ « سوى » بضم السين فى أخرى . تفسير أبى حيان (٦ : ٢٥٣) .
(٣) م : « أغضينا » .
(٤) فى الأصل : « وتوازنا له له تحالفنا » ، صوابه فى م .

المبالغ فى طلَب الأوتار ، وانتهت هى إلى أبْعَدِ النهايات فى المعاونة والإخْلاب . وهذا مثلٌ ضربه لاستقلالهم فيما نَهضُوا فيه بعدَدِهم وعُدَّتهم ، وبلائهم وصَبرهم واستغنائهم عن القاعِدِين عن التَّحمُّل معهم والذَّبِّ عنهم من عشيرتهم . وقولُه : « أنَخْنَا » كِناية عن الإقامة والثَّباتِ فى وجوهِ الأعداء ، إلى أن وصلوا إلى المراد .

١٠٩

وقال أبو صَخْرٍ الهُذَلىّ[(١)] :

١ — رَأَيْتُ فَضِيلَةَ القُرَشِىِّ لَمَّا ‏ ‏ رَأَيْتُ الخَيْلَ تُشْجَر بالرِّماحِ[(٢)]

جعل القُرَشِىَّ جِنساً لا عَينًا . والمعنى : رأيْتُ فَضيلَةَ القرشيِّين حين قِسْتُهم إلى غيرهم عند اشتجار الخيل بالرماحِ ، وانتظامِها بها للطَّعْنِ المختلِفِ بينهم ، المتردِّدِ فيهم . وجوابُ لَمَّا مُقدَّمٌ ، وهو « رَأَيْتُ » فى صدرِ البيتِ . يريد : عند هذا الأمرِ بَانَ فَضْلهم على النّاس ، وقولُه « تُشْجَرُ » كُلُّ شىء دَخَل بعضُه فى بعض فقد تَشَاجَرَ ، ومنه سُمِّىَ المِشْجَبُ مِشْجَرًا ، وتشاجَرَ القومُ بالرِّماحِ : تطاعَنُوا .

٢ — وَرَنَّقتِ المَنِيَّةُ فَهْى ظِلٌّ ‏ ‏ عَلَى الأبْطَالِ دانِيَةُ الجَناحِ

(١) هو عبد الله بن سلم السهمى الهذلى ، شاعر إسلامى ، من شعراء الدولة الأموية ، كان متعصباً لبنى مروان مواليا لهم ، وله فى عبد الملك وأخيه عبد العزيز مدائح كثيرة ، وروى أبو الفرج خبراً طريفاً له مع عبد الله بن الزبير إذا حبسه فى سجن عارم ، بعد مقاولة أدبية بينهما ، ثم أطلق سراحه . الأغانى (٢١ : ٩٤) والخزانة (١ : ٥٥٥) .

(٢) مما هو جدير بالذكر أن هذه المقطوعة لم ترد فى أشعار الهذليين أو دواوينهم . وذكر التبريزى رواية أخرى أيضاً ، وهى « فضيلة » بهيئة التصغير ، جعله علما ، وقال : « رأيت فضيلة ، أى ضربت رئته . ويجوز أن يكون من رؤية العين ، أى رأيته فى مشتجر الرماح ، وكان شهد هذا الشاعر وفضيلة الحرب ، فعاد ولم يعد فضيلة ، فسئل عنه فجمجم فى الجواب » .

انعطَفَ « رَنَّقَتْ » على الفِعْلِ الذى تَنَاوَلَهُ لَمَّا . فيقول : ولمّا استدارت المَنيَّةُ وحَلَّقَتْ على رءوس الأبطال ، فهى ظِلٌّ دانيَةُ الجَنَاحِ من قِمَمِ رءوسهم . وهذا مثلٌ . والمعنى : لَمَّا أشرَفتِ المَنيَّةُ عليهم إشرافَ الطَّائرِ على ما يريد انكدارَه عليه ، بانَتْ فضيلتُهُمْ . ويقالُ : رَنَّقَ الطائرُ فى الهواء ، إذا حَلَّقَ واستدار ، وجَعَل للمَنيَّة ظِلًّا تحقيقاً[1] للاستعارَة من الطائرِ ، لأنه يُوقِعُ ظِلَّهُ فى تلك الحالة . وجعل الجناح دانياً تأكيداً لِطَمَعِ المَوْتِ فى الفوزِ بالأرواح الاختلاس . وكذا الطَّائر فى التَّحليق عند الانقضاض . وارتَفَع « دانيَةُ الجناحِ » و « ظِلٌّ » جميعاً على أن يكونان خَبرين لقوله هى ، كما تقول : هذا حُلوٌ حامِضٌ . ويجوز أن يكون دانيةُ صفَةً للظِّلّ ، وأنَّثها على المعنى . ويجوز أن يُرْوَى « دانِيَةً » بالنَّصْبِ على أن يكونَ حالاً .

١١٠

وقال بَعْضُ بنِى عَبْسٍ :

١ – أَرِقُّ لأَرْحَامٍ أَرَاهَا قَرِيبَةً ... لِحَارِ بنِ كَعْبٍ لا لِجَرْمٍ وراسِبِ

يقولُ : يَرِقُّ قلبى بما تَمَلَّكَهُ[2] من الرحمة ، فانعَطَفَ[3] من أجْلِ أواصِرَ أراها قريبَةً مشتبكةً بيننا ، من جهةِ الحارث بن كَعْبٍ ، لا من جهة جَرْمٍ وراسِبٍ . والحارث بن كَعْبٍ فى نِزَارٍ ، وجَرْمٌ وراسِبٌ من قضاعَةَ ، وهُمْ من اليمن ، وكان الحارث بن كعب انتقلَتْ إلى اليمن ، ولم تكن منهم ، فلهذا قال ما قال .

---

(١) فى الأصل : « تخفيفا » ، صوابه فى م .

(٢) م : « بما يملكه » .
(٣) م : « فأتعطف » .

وقيلَ : عَيْسٌ وَضَبَّةُ والحارثُ بن كَعْبٍ إخوةٌ لأمّ [ورخَّم الحارث فى غير النداء وذاك فى الشعر جائز(١)] .

٢— وأنَّا نَرَى أقدامَنَا فى نِعالِهِمْ وآنُفَنَا بين اللِّحَى والحَوَاجِبِ(٢)

ذَكَرَ المشابهَ الحاصلةَ بينهم تأكيداً للقُرْبَى والقَرابةِ ، المُوجِبَة لما ذَكَرَ من الرِّقَّة والشَّفَقة ، على ما حَدَثَ فيهم من وقوع الفُرْقَةِ ، وسُقُوطِ التَّجَاوُرِ والخُلْطَةِ . فيقولُ : أرِقّ للرّحِمِ القريبة ، ولأنَّا نَرَى أقدامَهم فى النِّعال كأقدَامنا(٣) ، وآنُفَهُم بين لحاهم وحواجبهم كآنُفنا . وقال بين اللِّحَى ولم يَقُلْ لحاهُمْ ، لأنّه بإضافةِ الأقدام والنِّعال اكتفى . وذَكَرَ الأطرافَ لأنها تَظْهَرُ للعُيُونِ ، والمَشَابِهُ تَعَلَّقُ بها أكْثَرَ .

٣ — وأَخْلاَقَنَا إعطاءَنا وإباءَنا إذا ما أَبَيْنَا لا نَدُرُّ لماصِبِ

جَعَل الشبَه فى البيت الأوّل فى الخَلْق وهاهنا فى الخُلُق ، تأكيداً للأمر . وكان يجب أن يقولَ وأخْلاَقَنا أخلاقهم ، فاعْتَمَد على أنّ العطف على قوله أقدامَنا يَدُلُّ ويُغْنِي — لما يُفيدُه من الاشتراكِ — ما يُغْنِى فى قَوْلِهم قام زيدٌ وعَمْرٌو ، وإنّ زَيْدًا مُنطلِقٌ وعَمْرٌو . فكأنَّهُ قال : وأنّا نرى أَخْلاقَنا كأخلاقِهم ، إذا أَعْطَينَا أو أبَينَا . ثم ذَكَرَ ما دَلَّ على تَشَدُّدِهم بعد الامتناع فقال : وإذا أبينا لا نَتَسَهَّلُ

---

(١) التكملة فى م . ونحوها فى التبريزى . وقال ابن جنى : « رخم حارثا فى غير النداء كقوله :

* وأضحت منك شاسعة أماما *

وغيره . وسبب جواز ذلك عندى فى الضرورة كثرة ما تنادى هذه الأسماء ، فإذا نوديت رخمت كثيراً ، فلما ألف فيها ذلك وكان فيه أيضاً ضرب من التخفيف جنحوا إليه عند الضرورة » .

(٢) م : « فإنا نرى » .

(٣) فى الأصل : « كأقدامهم منا » ، صوابه فى م .

لمن يُرِيدُ قَهرَنَا . وأَصْلُ العَصْبِ الشَّدّ ، ومنه العِصابَةُ . وضَرْعُ الحَلُوبَةِ إذا اشتدَّ الزمانُ بها ، وساء خُلُقُها فرفَعَتِ اللَّبَن ، يُشَدُّ ويُحْتَلَبُ وإن ضَجِرَتْ ، لِمَسَاسِ الحاجة ، واستيلاء الفاقة . وهذا الكلامُ مَثَلٌ هاهنا . ومثلُ البيت قول الآخر[١] :

لا يُخْرِجُ الكَرْهُ مِنّى غَيْرَ مَأْبِيَةٍ ولا ألِينُ لِمَنْ لا يَبتَغِى لِينِى

يُرِيدُ : إنّ الإكراه لا يزيدنا إلا امتناعاً ، والاقْتِسَارَ لا يُحَصِّل منّا إلاّ إباءً . ويُشْبِهُ من حيث النَّظْمُ قوله : « إذا ما أَبَيْنَا لا نَدُرُّ لِعاصِبِ » الالتفاتَ . ألا تَرَى أنَّهُ تَرَكَ ما كان يَطْرُدُهُ من القَوْلِ وصار كأنَّهُ التَفَت فقال ذلك .

١١١

وقال بَعْضُ شُعَرَاء حِمْيَر[٢] :

١ — مَنْ رَأَى يَوْمَنَا ويَوْمَ بَنِى التَّيْـــمِ إذا الْتَفَّ صِيقُهُ بِدَمِهْ

ذُكِرَ أنها قيلت فى وقْعَةٍ كانت بين حِمْيَرٍ وعَبدِ مَنَاةَ وكَلْبٍ ، وكانت على حِمْيَرَ ، وقُتِل فيها عَلْقمة بن ذى يَزَن . وقولُه « من رأى » لفظه استفهامٌ ، ومعناه التفظيع والتعظيم . وأراد باليوم الوقْعة ، لولا ذلك لما صَلَحَ أن يكونَ إذا ظَرْفاً له . ومثله قولُه تعالى : ﴿ فإذَا نُقِرَ فى النَّاقُورِ . فذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عسيرٌ ﴾ . ألا تَرَى

(١) هو ذو الإصبع العدوانى . المفضليات (١ : ١٦١) .

(٢) ذكر التبريزى عن أبى رياش خبر هذه الأبيات ، وهو خبر طويل آثرنا الإشارة إليه . وملخصه أن الحرب وقعت بين حمير وصحار ، فظهرت عليهم صحار ، وقتلوا ملكا من ملوكهم يدعى « ذا ثات » ، فجمعت حمير لصحار ، فارتحلت صحار من البيداء فلحقت ببلاد معد فثارت حمير إلى كلب تتطلبهم بدم الملك — وكلب إخوة صحار — فاستنجدت كلب بتيم الرباب فأنجدتهم على حمير ، ثم ظعن بنو تيم من البيداء فلحقوا ببلادهم وخلوا بيوتهم بينهم وبين حمير ، ثم صارت حمير إلى التيم وعدى وعكل بنى وبرة ، فظهرت بنو عبد مناة وكلب على حمير وقتلت التيم علقمة بن ذى يزن ، فقال بعض شعراء حمير هذه الأبيات .

أنَّ فى قوله ﴿ يوم عسيرٌ ﴾ معنى فِعْلٍ ، فصار يومئذ ظَرْفًا له ، كأنّه قال : فذلك النَّقر يومئذ نَقْرُ يومٍ عسير . فيقول : مَن شاهَدَ يومَنا مع بَنِى التَّيْم حين التفَّ غُبارُ الجوِّ بالدّم ، وتَنَدَّى به وابتلّ ، حتّى قَلَّ . والصِّيقُ : الغُبار الجائل فى الجوّ . وأضافَهُ إلى اليَوْمِ لِكَوْنِه فيه ، والتفافِهِ كان برَشاش الدَّم القاطِرِ من الجراح . ويُقال صِيقَةٌ أيْضًا : قال [رؤبة[١]] :

* يَتْرُكْنَ تُرْبَ الأَرْضِ مَجْنُونَ الصِّيَقْ *

وصِيَقٌ : جمع صِيقَةٍ .

٢ — لمّا رَأَوْا أنّ يَوْمَهُمْ أشِبٌ   شَدُّوا حَيَازِيمَهُمْ على ألَمِهْ

قوله أشِبٌ أى كثيرُ الجلَبَة ، ضَيِّقُ الاختلاط ، والمكانُ الأشِبُ فيه شَجرٌ مُلتفٌّ . وجوابُ لَمَّا «شَدُّوا» . يقول : لَمَّا أَحَسَّ بَنُو التَّيم بفظاعة الأمر واختلاط الشأن ، وتضايُق المجال والمَكَرّ ، وطَنُوا أنفُسَهم على الألَم ، وشدّوا حيزومَهم للجَهْدِ ، وتَهَيَّئُوا للصَّبر على ما ابتُلُوا به وشَقُوا له . والحَيْزوم : الصدر ، لأنّه موضِعُ الحَزْمِ والعَزْمِ ، لاشتماله على القلب الذى هو موضعُهُما . ويُسمّى حَزِيمًا أيضًا ، كأنّه الموضع الذى يُشَدُّ بالحِزَام . والحِزْام من الحَزْمِ أيْضًا . وشَدُّ الحيازيم مَثَلٌ للصَّبْرِ على ما لحِقَهم . ورُوى عن أمير المؤمنين عليه السلام :

حَيَازِيمَكَ   للمَوْتِ   فإنّ المَوْتَ لاقِيكَ[٢]

يُرِيدُ : اُشْدُدْ حيازيمك .

٣ — كأنّما الأُسْدُ فى عَرِينِهِمُ   ونَحْنُ كاللَّيْلِ جَاشَ فى قَتَمِهْ

---

(١) التكملة من م والتبريزى وانظر ديوان رؤبة ١٠٦ .

(٢) يروى أيضاً : « اشدد حيازيمك للموت » ، وهو أكثر ما جاء فى الخزم . انظر العمدة (١ : ٩٢) والأغانى (١٤ : ٣٣) .

يقول : إنّ هؤلاء القَوْم يتمنّعون على الأعداء ، ويبْطِشون بهم ، تَمَنُّعَ الأُسْد فى أَجَمِها وبطْشِها منها ، ونحنُ كاللّيل ، يريدُ نَحْنُ فى كَثْرتنا وهَوْلنا وإحاطتنا بهم ، وإدراكِنا إيّاهم كاللّيل إذا جَاشَ ظُلْمَتُه ، وتراكَمَ سَوادُه . والقَتامُ والقَتَمُ والقُتْمَةُ ، يجيء فى الظُّلْمَةِ والغُبار والرِّيح ، وجاء الفعل منه فقيل قَتِمَ يَقْتَمُ قَتَماً وقَتامًا . وذَكَرَ بعضُهم أنّه أراد بالقَتَم القَتامَ فحذَفَ الالِفَ ، كما قال غَيْرُه ورواه قُطْرُبٌ :

أَلاَ لا بَارَكَ اللّهُ فى سُهَيْلٍ إذا ما الله بارَكَ فى الرِّجال

ومَصْدر ما كان على فَعِلَ الفَعَلُ فى الأَكْثَرِ ، فلا أدرى لِمَ أنكَره حتّى اعتذر بما ذكره . والعرينُ : الأَجَمَةُ ، أَجَمَةُ الأسد ، ثم يُسَمَّى مُقْتَتَل القَوْمِ عَرِيناً . ويُقال للرّجُل : هو عِرْنَةٌ لا يُطاق ، إذا كان خبيثًا وقولُه « عرينهم » موضِعُهُ موضع الحال ، والأُسْد خَبَرُ مبتدإ محذوفٍ ، كأنه قال كأنّما هم الأُسْدُ فى مُقتَتَلهم ، ونحن كاللّيل فى هَوْلنا وإدراكِنا ، ويكُونُ قولُه جَاشَ فى قَتَمِهْ ، فى موضِع الحال أيضا ، والأَجْوَدُ أن يكون قَدْ مَعهُ مُضْمَرةً ، أى كالليل وقد جَاشَ .

٤ — لا يُسْلِمُونَ الغَدَاةَ جارَهُمُ حتى يَزِلَّ الشِّرَاكُ عن قَدَمِهْ

مَدَحَهُم بحُسْنِ المُحاماةِ على الجار . وتَرْكُ الإسلام له مدَّةَ بقائه فيهم . وقولُه « الغَدَاةَ » أشار بها إلى غَداة اللِّقاء ، أو صَبَاحِ الغِوَار . وقولُه « حتى يَزِلَّ الشِّرَاكُ عَن قَدَمِهْ » فيه قَلْبٌ ، والأصل زَلَّتِ القَدَمُ عن الشِّراك . وهذا مَثَلٌ لموته ، لأنه لا يَلْبَسُها بعدهُ . واحتَمَلَ الكلامُ القَلْبَ لأن المعنى لا يُخِيل[1] كما لا يُخِيل فى قولهم : أدخلتُ الخُفَّ فى رِجْلِى ، والقَلَنْسُوَةَ فى

(١) لا يخيل : لا يشتبه ولا يلتبس . وفى اللسان : « وأخال الشىء : اشتبه . يقال : هذا الأمر لا يخيل على أحد ، أى لا يشكل » وفى الأصل : « لا يجبل كما لا يجبل » ، صوابه فى م .

رأسي . وهذا كما يُقال هُريق جِفانُهُ ، وصَفِرَ وِطابُهُ ، وطُوِيَ حَصِيرُه ، وخَلَّى مكانَهُ . والمعنى لا يُسْلِمُون الجارَ إلى أن يمُوتَ فيهم . ويجوز أن يكون الهاء من قَدَمِهْ راجعًا إلى الشِّراكِ ويكونُ الكلامُ مَثَلاً لتفظيع الأمْرِ ، وهذا كما يقالُ : « زال السَّرْجُ عن المَعَدِّ[1] » و « بَلَغَ الحِزَامُ الطُّبْيَيْنِ » وما أشْبَهَهُما . والمعنى إلى أن يَزْلَقَ الرَّجُلُ عن مَقَرِّه فلا يثبتُ في النَّعل ، والمعنى إلى أن يَبْلُغَ الأمر كلَّ مَبلغٍ فَظِيعَ .

٥ – ولا يَخِيمُ اللَّقاءَ فارِسُهُمْ حتَّى يَشُقَّ الصُّفُوفَ من كَرَمِهْ

يقول : ولا يَجْبُنُ عن اللقاء فارِسُهُمْ فيُحْجِمَ ، ولا يَضعُفُ دونَهُ فيَحَارَ ، بل يُقْدِمُ إقْدامًا تُخْرَقُ[2] الصُّفوفُ به عِزَّةَ نَفْسٍ ، وكَرَمَ عِرقٍ . واللقاء ينتصبُ على المفعول ، الأصل عن اللقاء ، فلمّا حَذَفَ حرفَ الجرّ تخفيفاً وَصَلَ الفِعْلُ فَعَمِلَ . ويجوز أن يكون ظرْفاً كَمطلع الشَّمس ، أراد وقت اللقاء . وقولُه « حَتَّى يَشُقَّ الصُّفُوف » يريد إلى أن يَشُقَّها كَرَمًا منه ، كأنَّه لا يرضَى بأدْوَنِ المنزِلَتَيْن في اللِّقاء لنفسه ، بل يَأبَى إلاّ النِّهاية والغُلوّ . ويُقالُ خامَ الرَّجلُ يَخيم ، إذا كادَ كَيْدًا فلم يُفْلِحْ فيه ، أو تقدَّم في الحرب فنَكَص ولم يَظفَرْ . قال الشاعر ، وأنشدَهُ الخليل :

رَمَوْنِي عن قِسِيِّ الزُّورِ حَتَّى أخامَهُمُ الإلٰهُ بهـا فَخَامُوا[3]

ويجوز أن يكون قولهُم خَيَّمَ بالمكان ، إذا أقام ، والخَيْمَةُ واحِدةُ الخيام ، منه أُخِذَا .

٦ – وما بَرِحَ التَّيْمُ يَعْتَزُونَ وَزُرْ قُ الخَطِّ تَشْفِي السَّقِيمَ مِن سَقَمِهْ[4]

(١) المعد : واحد المعدين ، وهما موضع دفتي السرج .
(٢) م : « يخترق » .
(٣) أنشده في اللسان (خيم) .
(٤) كذا جاء البيت في الأصل بالخزم ، أي بزيادة حرف في أوله . وفي م والتبريزي : « مابرح » .

ما بَرِحَ وما زالَ بمعنًى ، وليس هذا من البَرَاحِ من المكان . ألا ترى أن الله قال : ﴿ لا أبرَحُ حتى أبلُغَ مَجْمَعَ البَحْرَيْنِ ﴾ ، ومُحَالٌ أن يبْلُغَ هـذا الموضِـع ، وهُوَ لم يَبْرَحْ من مكانه . وكأنّ الـكلِمَةَ فى اللغة تدُلُّ على معنى المجاوَزة ، ولذلك قيل :

* أبْرَحْتَ رَبًّا وأبْرَحْتَ جارا[1] *

أى جاوزْتَ ما يكون عليه أمثالُكَ من الخِلالِ المَرْضِيَّةِ . والمَعنى : ما زال بنو التَّيْمِ ينتسبون ويَدْعُونَ بيالفُلانِ مُعْتَزِين ، أو بخُذِ الطَّعنةَ وأنا فلانٌ مُدّعِين ، والرِّماح المحمولة من الخطِّ الزُّرْق فى ألوانها تَشْفِى المتكبِّرَ من كِبْره ، والعَدُوَّ المُخاتل من دَائِه . وقوله « السقيم » يجوز أن يكون كنايةً عن المُنافِق المُداجِى ، كما قال الله تعالى لمّا وصَفَهم : ﴿ فى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ . ويجوز أن يكونَ يُرَادُ به الصَّلِفُ التَّيَّاه ، كما يُقال عند صفته : فى طَرْفِهِ شَوَسٌ ، وكما جاء فى صفة السُّيوف :

* يُدَاوَى بها الصَّادُ الذى فى النَّوَاظِرِ[2] *

ويجوز أن يكون المعنى : والرِّمَاحُ فى اختلافها تَشْفِى الموتورِينَ من أوتارِهم وذُحُولِهم . وجَعَل الفِعلَ للرِّماح على المجازِ والسَّعَةِ . وقولُه « وزُرْقُ الخطِّ » الواوُ واو الحال . ويَعْتَزُون خَبَرُ ما بَرِحَ .

٧ – حَتّى تَوَلَّتْ جُمُوعُ حِمْيَرَ فَالْـ ـفَلُّ سَرِيعٌ يَهْوِى إلى أَمَمِهْ[3]

يريدُ : ما زالوا بهذه الحالة إلى أن انهزمت جيوش حِمْيَر ، فصارَ المَفْلُولُ المُنهزِمُ مُبَادِرًا فى السُّرْعَةِ إلى مَقْصِده . وقولُه الفَلُّ مَصْدَرٌ فى الأصْل وَصِفَ فى

(١) الأعشى فى ديوانه ٣٧ . وهو بتمامه :

تقول ابنتى حين جد الرحيل * لى أبرحت ربا وأبرحت جارا

(٢) سبق فى ص ٢٤٤ . (٣) التبريزى : « والفل » .

وهو مَوْضُوعٌ موضِعَ المفعول ، ولذلك جازَ أن تَقُولَ رَجُلٌ فَلٌّ وقَوْمٌ فَلٌّ ونِسْوَةٌ فَلٌّ . ومِثْله رَجُلٌ فَرٌّ ، إلا أنه موضعٌ موضع فارٍّ ، ويقع للواحد والجميع .

٨ — وَكَمْ تَرَكْنَا هُنَاكَ من بَطَلٍ تَسْفِي عليه الرِّياحُ في لِمَمِهْ

مَوْضِعُ كَمْ نَصْبٌ على المفعول من تَرَكْنَا . يَقولُ : وكثيرًا تركْنا في تلك المعركة من الأبطال وهم مُصَرَّعُون مُعَفَّرُون في تلك المَعْرَكة ، بادُون للضياء والظُّلْمَةِ ، تأتى الرياحُ بسَفاهَا وتَجعلُهُ في لِمَمِهِمْ ولِحَاهُمْ . وأشار بقوله هنالك إلى مُعتَرَكِ القومِ ومُزدَحَمِ الطَّعنِ والضَّرب .

١١٢

وقال حَسَّانُ بْنُ نُشْبَةَ[١] :

١ — ونَحْنُ أَجَرْنا الحَيَّ كَلْبًا وقد أَتَتْ لَهَا حِمْيَرٌ تُزْجِي الوشِيجَ المُقَوَّما[٢]

يقول : أدخَلْنَا في جوارنا هذه القبيلة ، وضَمِنّا لها الذَّبَّ عنها وسلامتها على ما يعرِضُ لها ، وقد قَصَدَتْ لَهَا حِمْيَرُ بعَدَدِها وعُدَّتِها ، تَسُوقُ نَحْوَها الخيلَ المُطَهَّمةَ ، والرِّماحَ المُثقَّفةَ . والوَشِيجُ أَصلُهُ عُرُوقٌ ، ثمَّ جُعِلَ للرِّماح أَنْفُسِها . وجَعَلَها مثقَّفةً ، لِيُري عنايتهم بإعْدَاد الآلة لزمان المُقاتَلَة .

٢ — تَرَكْنا لهم شِقَّ الشِّمالِ فأصبَحوا جَمِيعًا يُزَجُّونَ المَطِيَّ المُخَزَّمَا

(١) التبريزي : « وقال حسان بن نشبة العدوى في ذلك — أي في الحرب التي سبق الكلام عليها — أخو بني عدى بن عبد مناة بن أد . قال أبو محمد الأعرابي : هذا الاسم مصحف ، والصواب جساس بن نشبة ، مثل عساس . قال جرير يهجو جخدب بن خرعب التيمي :

أجخدب أشبهت التي كان بظرها كطرثوث أرض غير ذات أدماس

لقد شهدت تيم على أم جخدب وكان سراة التيم رهط جساس

يعني جساس بن نشبة التيمي » .

(٢) م والتبريزي : « نحن أجرنا » بالخرم في أوله .

لَهُمْ يمنى لِحُمْيَر . والعرَبُ تجعلُ الشمالَ كنايةً عن الشؤم . فمن أمثالِهم :

* صَبَحْناهمُ فغَدَوْا شأْمَةً *

ويقولون : خَلَّيناهمْ والجانبَ الأشْأَمَ ، وخَلَّيناهم والناحية الشُّؤْمَى . فكأنهم يقولون ذلك للمنهزم وإن كان مأخَذُهُ فى الشِّقِّ الأيمَنِ ، لأن الشؤمَ معه والإدبارَ ، أىَّ طريقٍ أخَذَ ، ومَسْلَكٍ توجَّه . وهذا كما يقال : فُلانٌ مِنّى باليمين ، وفلانٌ بالشِّمال ، وفلانٌ بعَلياءَ عندى ، وفلانٌ فى المهابط ؛ إذا جَعَلْتَ مَنْزِلتَهُ عَلِيَّةً أو مُتسفِّلةً . ومعنى البيت : خَلَّينا لهم فى الانهزام شِقَّ الشُّؤْمِ وجانِبَه ، فأصبَحوا يُزَجُّون مَطاياهم مُخزَّمَةً حَسْرَى كالَّةً[1] لا يُبقى على وَجاها ، ولا يُتَّقى حَفاها والخَزْمُ : الشَّدُّ والقَطْعُ . ويقال شِراكٌ مخزُوم ، أى مقطوعٌ .

٣ — فلمَّا دَنَوْا صُلْنا فَفَرَّقَ جَمْعَهُمْ سَحابتُنا تَنْدَى أَسِرَّتُهُمْ دَمَا[2]

يقولُ ، لمّا قَرُبوا فى الالتقاء ، صُلْنا عليهم وبطَشْنا بهم ، فبَدَّدَ شَمْلَهُم جيشنا الذى كأنه سَحَابةٌ تَنْدَى طَرائقُها دَمًا . جعَلَ السحَّابةَ تَرشحُ بالدَّم لمَا كَثُرَ سَفْكُهم له . وتَنْدَى فى موضِعِ الحال . وانتصَبَ دَمًا على التمييز . ويقال : نَدِىَ يَنْدَى نَدًى . والأسِرَّةُ : الأوساط والطرائقُ ، واحدها سِرَرٌ ، ويستعمل فى بطون الأوْدِيةِ أيضا .

٤ — فغَادَرْنَ قَيْلاً من مَقَاوِلِ حِمْيَرٍ كأنَ بخَدَّيْهِ من الدَّم عَنْدَمَا

يقولُ : تَرَكَتِ الخيلُ فى تَجْوَالِها منهم رئيسًا مَصْرُوعًا ، قد سالَ الدَّمُ على خَدَّيهِ فكأنهما خُضِبا بالعَندمِ ، وهو دَمُ الأَخَوَين . والمِقْوَلُ بلغة أهل اليَمَن : القَيْل ، والمَقاوِلُ والمَقاوِلَةُ جَمْعُه ، وهُمُ الأقوال والأقيالُ . وقَيْلٌ مُخَفَّفٌ

(١) كذا فى م ، وفى الأصل : « فالة » .

(٢) م والتبريزى : « تندى أسرتها » .

من قَيْلٍ ، فهو من الواو أيضا ، ومعناه هو الذى يَنفُذُ قولُه ، ويُعْتَمَدُ أمرُه ونَهيُه . ووُصِفَ به الملك كما وُصِفَ بالهُمَام ، لمّا كان إذا هَمّ بالشىء فَعَل ، لا يُرَدُّ ولا يُدْفَع . وقيل للسان مِقْوَلٌ لمّا كان آلةً فى القَوْل .

٥ ـــ أَمَرَّ على أفواهِ من ذَاقَ طَعْمَها مَطاعِمُنَا يَمْجُجْنَ صَابًا وعَلْقَما

يقولُ : صارت مَطاعِمُنا مُرَّةً على أفواهِ من ذَاقَها ، حتى إنها تَمُجُّ بعدَ ذَواقِها صَابًا وعَلقماً ، والصَّابُ : شَجَرةٌ لها لَبَنٌ إذا أصابَ العينَ حَلَبها . والعَلْقَمُ : شَجَرٌ مُرٌّ ، وقيل هو الحنظَلُ . حُكِيَ أن العَلقمة المَرارة . ويقال عَلْقَمَ الحنظَلُ . إذا أدْرَكَ مَرَارَتُه . وقولُه : « يَمْجُجْن » حَالٌ للأفواه ، والتقدير أمَرَّ مُطَاعِمُنَا على أفواه الذائقين طَعْمَها ، ماجَّةً صَابًا وعَلْقَماً ، أى إذا ذاقت رَمَتْ بما هو كهذين . والمعنى : إذا خُبِرْنا حُصِلَ منا على ما هو كذلك . وجاز فى « طَعْمَها » الإضمارُ قبل الذكْر ؛ لأن الكلامَ يحتَمِلُ نِيَّةَ التقديم والتأخير ، لما كان رُتْبَةُ الفاعِلِ وهو مَطَاعِمُنَا التقديم ، ورتْبةُ المفعول وما يَجْرِى مَجْراه التأخير ، وهو على أفواهِ من ذَاق طَعْمَها . وفى طريقة هذا البيتِ قول الآخر[1] :

فإنْ تَغمِزْ مَفَاصِلَنَا تَجِدْنَا غِلاَظًا فى أناملِ من يَصُولُ

والطَّعْمُ : الذوْق ، والمَطاعم : جَمْعُ المَطْعَمِ . ويقال هو حَسَنُ المَطْعَمِ ، أى طَيِّبُ الطعَامِ .

١١٣

وقال فى ذلك أيضاً :

١ ـــ وإنّى وإنْ لَمْ أَفِدْ حَيًّا سِواهُمُ فِداءٌ لِتَيْمٍ يَوْمَ كَلْبٍ وحِمْيَرَا

يقول : أنا وإن كُنْتُ أَرْبًا بقدرى ، وأَرْفَعُ نفسى أن أجْعَلها فِدَاءً لغيرى ،

(١) هو عمرو بن مسعود . انظر الحماسية ٦١ .

أفدِى تَبِماً بها ؛ لِمَا كان منهم من حُسنِ البلاء يومَ اجتماعِ كَلْبٍ وحِمْيَرَ للقتال . وجَوَابُ الشرط ، وهو قوله « إن لَمْ أَفْدِ » قد اشتمل عليه الكلام ، لأن المعنى : [إن[1]] لم أَفْدِ غيرهم ترفعاً ، فإنى أَفْدِيهم تَشَكرًا .

٢ ــ أَبَوْا أنْ يُبِيحُوا جارَهُم لعدوِّهم وقد ثارَ نَقْعُ المَوْتِ حتى تَكَوْثَرا[2]

أَبَوْا ، الفِعْلُ لبنى التَّيْم . يقول : امتنعوا من أن يُخَلُّوا بين جيرانِهم قبيلة كَلبٍ وبين أعدائِهم حِمْيَرَ ، وقد ارتفع غُبارُ الموتِ حَتَّى التَفَّ فى الجوّ . وأراد بالجار والعَدُوّ الكثرة ، إذْ كان المُراد بِهِمَا القبيلتين ، وإنما أضافَ النَّقْع إلى المَوْتِ تَهْوِيلاً ، ويجوز أن يُرِيدَ بالموت الحَرْبَ . وتَكَوْثَرَ : تَفَوْعَلَ من الكَثْرَةِ ، يريد تراكُمَ الغُبارِ والتفافَهُ . وهذا الذى أشار إليه بقولِه تكوثر من التَّراكُم ، جعلَه بعضهم كالسحاب ، وجَعَلَهُ بعضهم يَسُدُّ عَينَ الشمس حتى ظهرت له الكواكب ، وحتَّى صار النَّهار بسببه كالليل . وتجاوز المتنبِّئُ[3] جميع ذلك ، حتى بلغ حَدًّا من الإفراط مُسْتَشْنَعًا فقال :

عَقَدَتْ سَنابِكُها عَلَيْها عِثْيَرًا لو تَبْتَغِى عَنَقًا عليه أَمْكَنَا[4]

وإذا أردتَ بالموتِ المنيّةَ يكون المُراد : كأنَّ المَوْت أثارَ الرَّهَجَ فى سَلْبِ النُّفوسِ حتى كَثُفَ فى الهواء . وهذا مَثَلٌ .

٣ ــ سَمَوْا نَحْوَ قَيْلِ القَوْمِ يبتدرُونَهُ بأسيافِهِمْ حَتَّى هَوَى فتَقَطَّرا

يعنى بَنى تَيْمٍ . يقول : ارتفعوا نحوَ رئيس القَوم مُسْتَبِقينَ إليه بأسيافِهم، فتناولُوه حتى سَقَطَ . ومعنى تَقَطَّر : وقَعَ على أَحَد قُطْرَيْهِ . والقُطْرانِ : الجانبان .

(١) بها يلتئم الكلام ، وليست فى إحدى النسختين .

(٢) التبريزى : « ويروى: تكورا . من كور العمامة ، والمعنى واحد » .

(٣) كذا بالهمز فى الأصل ، وبالتسهيل فى م .

(٤) رواية الديوان بشرح العكبرى : « عليها أمكنا » .

وفى الكلام اختصارٌ، كأنّه قال : ابتدروه بالأسياف وضَرَبُوه حتّى سقط ، فحذَفَ ضربوه . وموضع يبتدورنه نَصْبٌ على الحالِ ، وتعَلّقَ حَتّى بالمحذوف الذى بَيّنتُهُ .

٤ــوكانوا كأنْفِ اللّيْثِ لاشَمَّ مَرْغَمًا ولا نَالَ قَطُّ الصَّيدَ حتّى تَعفّرَا[١]

الأسَد أَحْمَى الحيوان أنفًا ، ويبلغ من عُجْبه بنفسه أنّه لا يتواضع لأكل صَيْدِ غيره . ونُسِبَ الأنفَةُ إلى الأنْف كما يُنسَبُ الحَمِيَّةُ إليه . يقالُ : هو أَحْمَى أنفًا من فُلانٍ ، وآنَفُ أَنْفًا مِنْهُ ، وحَمَى فلانٌ أنفَهُ من كذا ، أى أَنِفَ منه ولم يَرْضَ بِهِ . وحَسُنَ فى الكِنَايَةِ عن الإباء والتصوُّنِ عن الدَّناءة والمَذَلَّة قوله : « لا شَمَّ مَرْغَمًا » بَعْد ذِكْرِ الأنف . فيقول : وكان بنو التَّيْمِ فى التَّمَنُّع كاللّيث الذى لا يُغْمِضُ عَلَى قَذًى ، ولا يَشَمُّ مَرْغَمًا ومَذَلاًّ ، ولا يَصْبِرُ لشىءٍ على هَوَانٍ ، ولا يَعْطِفُ على مَكْرَهٍ وصَغَارٍ ، ولا يَنَالُ الصَّيْدَ قَطُّ حتى يَكُونَ هو المُعَفِّر . والعَفَرُ : التُّرَاب . هذا إذا رَوَيْتَ « قَطُّ الصَّيْدَ حتى تعفَّرَا[٢] » وقال ذلك لأنّه فيما يتصيَّده لا يَرضى بالاختلاس ، ولا يعتمد على صَيْدِ غيره والإصابَةِ مِنْهُ . ويُرْوَى : ولا نَالَ قَطَّ الصَّيْدِ حتى تَعَفَّرَا[٢] » . والقَظُّ : ماءُ الكَرِش . ويُقال افتَظَظْتُ الكَرِشَ ، إذا استخرجت ذلك الماء منه . والمعنى : ولا نَالَ الفَظَّ من بَطْنِ الصَّيْدِ حتَّى يتعفّر أى يسقط فى العَفَر ويتمكّن منه . والأسَدُ يبدأ من الصَّيْدِ بحَشْوِ بَطْنِه ، فلذلك خَصّ الفَظَّ . والثَّميلةُ خِلافُ الفَظّ ، لأنه اسمٌ لما يبقى فى البطن من العَلَف والرُّطْبِ . وقَطُّ فى الماضى كأبدًا فى المستقبل ،

---

(١) م فقط : « يعفرا »

(٢) م : « يعفرا » . وزاد التبريزى رواية : « قَنَصَ الصَّيد » عن عبد السلام البصرى .

وهو مَعْرِفَةٌ مَبْنِيٌّ كأمس ، وأبداً نكِرَةٌ كَغَدًا . ولا نَالَ ولا شَمَّ فى مَعْنَى لم يَشَمّ ولم يَنَلْ . ومثلُه قولُه تعالى : ﴿ فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صَلَّى ﴾ .

١١٤

وقال هِلاَلُ بن رَزِين(١) :

١ — وَبالبَيْدَاءِ لَمَّا أَنْ تَلاَقَتْ بِهَا كَلْبٌ وحَلَّ بِهَا النُّذُورُ

يقولُ : لمّا تلاقت كَلْبٌ وحِمْيَرُ بالبَيْداء وأدركوا الأوتار ، فَحَلَّ بها النُّذور وسقطت الأَقْسَامُ عن الحالفين بها لإدْرا كِهِم الآثار(٢) . وجوابُ لما يجوز أن يكون ما دَلَّ عليه قولُهُ « فحَانت حِمْيَرُ » أو قولُه » وحَلَّ بها النُّذُور » . ويجوز أن يكون قولَه « أَجَادَتْ وَبْلَ مُدْجِنَةٍ » ، وهو أول البيت الرابع ، وعند من يُجَوِّز زيادَةَ الحُروف فى مثل هذا المكان يكون « حَلَّ بها النُّذور » أو « فحانَتْ » الجوابَ ، فيكون الفاء والواو مُقْحَمَةً ، وهكذا يقولون فى قَوْلِ اللهِ تَعَالَى : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءوهَا وَفُتِّحَتْ أَبْوَبُهَا ﴾ عندهم الواو زائدة ، والمُراد فُتِحَتْ(٣) ، وقول امرئ القيس :

* فَلَمّا أَجَزْنا سَاحَةَ الحَيِّ وانْتَحَى(٤) *

---

(١) التبريزى : أحد بنى ثور بن عبد مناة بن أد » . وعند ابن جنى : « وقال هلال بن رزين الربابى » . وذكره المرزبانى فى المعجم ٤٨٢ وقال : « هلال بن رزين أحد بنى ثور بن عبد مناة بن أد . جاهلى . يقول فى وقعة كانت لبنى عبد مناة وكلب على حمير » . وأنشد بعض هذه الحماسية .

(٢) كذا فى الأصل ، وهو على القلب ، حكاه يعقوب ، والمألوف فى جمع ثأر أثآر كما فى م .

(٣) كذا ورد فى النسختين بتخفيف التاء هنا وتشديدها فى التلاوة قبلها . وقراءة التخفيف هى قراءة عاصم وحمزة والكسائى وخلف ووافقهم الأعمش ، والباقون بالتشديد . إتحاف فضلاء البشر ٣٧٧ .

(٤) عجزه : * بنا بطن خبت ذى حقاف عقنقل *

يقولون : المراد انتحى ، والواو زائدة .

٢ — فَحَانَتْ حِمْيَرٌ لما التَقَيْنَا وكانَ لَهُمْ بِهَا يَوْمٌ عَسِيرُ[(١)]

يقول : هَلَكَتْ حِمْيَرُ عند الالتقاء ، لأنّ الدَّبْرة كانت عليهم لا لَهُم ، وكان لَهُم بالبيداء يَوْمٌ صَعْبٌ . ويقال : يَوْمٌ وَأَمْرٌ عَسِرٌ وعَسِيرٌ ، والفِعْلُ مِنه عَسُر بالضم وعَسِر بالكسر ، ويقال هو العُسْرُ واليُسْر ، والعُسْرَى واليُسْرَى .

٣ — وأَيْقَنَتِ القبائِلُ من جَنَابٍ وعامِرَ أن سَيَمْنَعُها نَصيرُ[(٢)]

يقول : وتيقَّنَتْ جَابٌ وعامرٌ بطونُ بنى كَلبٍ[(٣)] أنّه سَيَذُبُّ عنها نَصيرٌ ظَهيرٌ ، ومُعِينٌ قَوِيٌّ . ويعنى بالنَّصير بنى التَّيْمِ . وجَعَلَ اللَّفْظَ نَكِرَةً ليكونَ أبلَغَ فى تعظيم النُّصْرَةِ ، لأنّه أَرَادَ نصيرٌ من النُّصّار ، أى كامِلٌ فى معناه . وجَعَلَهُم كُلهم نَصِيرًا لا نُصّارًا . لاتفّاق كلمتهم وأهوائهم . وقوله «أنْ سَيَمْنَعُها» أن مُخَفَفَةٌ من الثقيلة ، واسمه محذوف ، يريدُ : أنّه سيَمْنَعُها والسّين فى الفعل لئلاّ تلتبس المُخَفَّفة بالنّاصبة للفِعْل . والهاء الذى أظهرتَهُ ضَمير الأمر والشأن .

٤ — أَجَادَتْ وَبْلَ مُدْجِنَةٍ فدَرَّتْ عليهم صَوْبَ سَارِيةٍ دَرُورُ[(٤)]

---

(١) المرزبانى : «تحابت» .

(٢) ابن جنى : «ويروى وعامر . عطفاً على القبائل . ولم يصرف عامر لأنه عنى بها القبيلة ... وقد يجوز أن تكون الرواية : وعامرٍ أن . على تخفيف الهمزة وإلقاء حركتها على تنوين عامر» .

(٣) التبريزى : «وقال أبو رياش : يعنى عامر الأجدار ، وهم بطن عظيم من كلب ، وإنما لقب بالأجدار لأنه ولد فى أصل جدار ، وهو أخو عامر بن صعصعة لأمه . وجناب بن هبل بن عبد الله من كلب» .

(٤) التبريزى : «ويروى : صوب سارية — يعنى بالرفع — قال أبو رياش : أنت صوب لأنه أراد الدفعة» . وقد نبه إلى هذه الرواية ابن جنى ، بل جعلها الرواية الأولى .

يُقالُ : هذا يَوْمُ دَجْنٍ ، أى يَوْمُ إلباحِ غَيمٍ . والدُّجُنَّة : الظُّلمة ، وليلةٌ مِدْجَانٌ . فيقول : أتت سحابَةُ الجيش بمَطرٍ جَوْدٍ ، فوَبلَتْ وَبْلَ مُدْجِنَةٍ — أى سَحَابَةٍ لها ظَلامٌ ، لكثافتها وقُرْبِها من الأرض — فصَبَّتْ عليهم المَنايا دَرَّ سارِيَةٍ ، أى سَحَابةٍ تَسْرِى لَيْلاً . والدَّرُور ، هى الكثيرة الدَّرّ . ويرتفع على أنّه فاعل دَرَّتْ . وصَوْبَ مَصْدَرٌ من غير لَفظِه ، كأنَّه قال صَابَتْ دَرُورٌ صَوْبَ سَارِيَةٍ . وجَعَلَ ما فى العَجُز من هذا فى مقابلة ما فى الصدر ، من قولِه « أجادَتْ وَبْلَ مُدْجِنَةٍ » كأنه قال : أجادت الخيلُ وَبْلَ مُدْجِنَةٍ فدَرّت درور الموت دَرَّ سارية ، فالسَّارية بإزاء المُدْجِنة لا غير . وكلُّ ذلك مَثَلٌ لتكثير الشَّر ، وتفظيع البلاء والقتل . وفى هذه الطَّريقة قول النابغة :

ومُعَلَّقِينَ على الجِيادِ حُلِيَّها حَتَّى تَصُوبَ سَمَاؤهم بقِطَارِ

وذكر بعضهم أنّ أجادَتْ ودرّت فِعْلاَن جُمِعَا للدَّرُور ، فهو كما يُقال قَامَ وقَعَدَ زَيْدٌ . قال : والدَّرُور : حَرْبٌ تَدُرُّ بالدِّماء . ويُقالُ : جادَتْ وأجادت بمعنًى واحدٍ ؛ والمُرَادُ جَادَتْ دَرُورٌ فَدَرّت عليهم كوَبْلِ مُدْجِنَةٍ ، وكصَوْبِ سَارِيَةٍ . والأوَّلُ أقْرَبُ وأكشف وأصَحّ .

٥ — فوَلَّوْا تَحْتَ قِطْقِطِها سِرَاعًا تَكُبُّهُمُ المُهَنَّدَةُ الذُّكُورُ

يقول : انهزمَت حِمْيَرُ مُسْرِعين تحت صِغَار البَرَدِ ، ولم يصبروا إلى كِبَاره ، والسُّيُوفُ الهِنْدِيّة تُسْقِطُهُمْ لوجوههم . ويُقالُ هَنَدتُ السيفَ ، إذا نسَبْتَهُ إلى الهِنْدِ . وقال أبو عمرو : وهَنَّدتُ السَّيف ، إذا أحْدَدْتَهُ . وذَكَر الدُّرَيْدِى فى القِطْقِطِ أنَّه ضَرْبٌ من المَطَرِ ، ولم يَحُدَّهُ . وموضِعُ « تَكُبُّ » نَصْبٌ على الحال ، وما قدّمناه فى القِطْقِطِ قول الخليل .

١١٥

وقال جَزْءُ بن ضِرَارٍ[(١)]:

١- أَتَانِي فَلَمْ أُسْرَرْ بِهِ حين جَاءَنِي حَدِيثٌ بأَعْلَى القُنَّتَيْنِ لَعَجِيبُ

تقديره: أتانى حديثٌ عجيب بأعلى القُنَّتَين[(٢)]، فلم أُسْرَرْ به حين جاءنى. وإنما استَعْجَبَ من الحديث لتضمُّنِه ما كَرِهَهُ، فكان يَرُدّه بما يَقْوى فى أملِهِ من ضِدّه. وقد اجتمع فِعْلَانِ أتانى وجاءنى، فأعمل الأول. ومثله قول الآخَر[(٣)]:

وَلَمْ أَمْدَحْ لأُرْضِيَهُ بشعرى لَئيماً ....[(٤)]

٢- تَصَامَمْتُهُ حَتَّى أَتانِي يَقِينُه وأَفْزَعَ منه مُخْطِئٌ ومُصِيبُ[(٥)]

تصاممتُه، أراد تصاممت عنه، حتَّى أتانى يقينه، أى الجليُّ الواضِحُ منه. وأفْزَعَ يجوز أن يكون معناه صَادَفَ الفَزَعَ فلا يقتضى مفعولا، ويجوز أن يكون أفْزَعَ الغَيْرَ فيكون مفعوله محذوفاً. ومعنى البيت: تكلّفتُ الصمم عن

---

(١) جزء بن ضرار، أخو الشماخ بن ضرار، قال ابن حجر فى الإصابة ١٢٨١: «ذكره المرزبانى فى معجمه وقال: هو شاعر مخضرم. وهو القائل يرثى عمر بن الخطاب:

جزى الله خيراً من أمير وباركت يد الله فى ذاك الأديم الممزق».

وانظر الأغانى (٨: ٩٨).

(٢) التبريزى: «القنتان: جبل أسود مشرف بعض الإشراف».

(٣) هو ذو الرمة كما فى التنبيه لابن جنى.

(٤) تمامه كما فى التنبيه:

* لئيما أن يكون أصاب مالا *

وعند التبريزى: «أن يقال أصاب».

(٥) جعل التبريزى الرواية الأولى عنده: «وأفرع» بالراء المهملة، وقال: «وأفرع معناه صادف الفرع، وإذا كان هكذا فلا يقتضى مفعولا. ويجوز أن يكون معناه أفرع الغير، فيكون مفعوله محذوفا».

ذلك الخبَر حتَّى جاء ما لم يمكن رَدُّهُ ، لكونِ الشُّبَهِ[1] منتفيةً عنه ، واتفق المخطئ والمصيب على تصحيحه ، وصادَفَا الفَزَع فيــه ، أو أفزَعا الغير منه .

ومثل قوله « تصامته » فى انحذاف حرف الجر[2] منه قول الآخَر :

* وأُخفِى الذى لولا الأُسى لقَضَانِى[3] *

يريد : لَقَضَى علىَّ . وفى القرآن : ﴿ وإذا كَالُوهم أو وزَنُوهُمْ ﴾ ، يريد كالُوا عليهم أو وزنوا عليهم . وأضاف اليقين إلى ضمير الخبر لأنه يريد المُتيَقَّنَ منه .

٣ـ وحُدِّثْتُ قَوْمِى أَحْدَثَ الدهرفيهم وَعَهْدُهُمُ بالحادثاتِ قَرِيبُ

٤ ـ فإنْ يَكُ حَقًّا ما أتانى فإنَّهُمْ كِرَامٌ إذا ما النَّائباتُ تَنُوبُ

قوله « حُدِّثت » يتعدى إلى ثلاثة مفاعيل ، فالأول قام مَقامَ الفاعل وضميره التاء ، والثانى قومى ، والثالث أَحْدَثَ الدهر فيهم أَحْدَاثًا . وكما قال الآخر[4] :

* وإن تُــكَلِّمْكَ تَبْلَتِ[5] *

يريد تَبْلتْ كَلَامَها . ويجوز أن يكون أَجْرَى قولَهُ « أَحْدَثَ الدَّهْرُ فيهم » مَجْرَى نَــكَى الدَّهْرُ فيهم ، فاستغنى عن المفعول . وقوله : « وعَهْدُهُم بالحادثات قريب » يجوز أن يكون من جملة ما بُلِّغ وأُنبِئَ به ، ويجوز أن يكون الواو للحال ، كأنه نَــكَى الدهْرُ فيهم وحالُهم قُرْبُ العهدِ بحوادِثِه ، ويجوز أن يكون جارياً مجرى الاعتراض بين ما قبله وما بعده ، وحقيقة معناه تصديقه لما خُبِّر به ،

---

(١) م : « الشبهة » .

(٢) م : « بحذف حرف الجر » .

(٣) لرجل من بنى كلاب ، كما فى الكامل ٢١ ليبسك . وصدره :

* نحن فتبدى ما بها من صبابة *

(٤) هو الشنفرى . المفضليات (١ : ١٠٧) .

(٥) البيت بتمامه :

كأن لها فى الأرض نسياً تقصه على أمها وإن تكلمك تبلت .

وأنّ قومَه من الكِرام الذين لا يَسْلَمُون على الدّهر ، بل يُولَعُ بالتأثير فيهم كما قال :

أرَى الدَّهرَ يَعْتَامُ الكِرامَ ويَصطفِي عَقِيلَةَ مَالِ الفَاحِشِ المُتَشَدِّدِ(١)

وإذا عُزِلَ هذا الاعتراض يكون الكلام : وحُدِّثْتُ قومى أحْدَثَ الدّهر فيهم ، فإنْ يكُ حَقًّا ما أتانى . ومعنى البيتين : أنبِئْتُ أنّ قومى نَكَى الدهر فيهم ، وحَمَل أثقالَهُ عليهم ، فإن كان ما بُلغْتُ حَقًّا من إخناء الدهر عليهم ، وسوء تأثيره فيهم ، فإنَّ أخبارَهم كريمةٌ فى النّوائب إذا نابتهم ، ونفوسَهم عزيزة تَأْبَى الانقياد لما لا يَحْسُنُ ، والمُطاوَعَةَ فيما يَشِين ولا يَزِين . وجواب « فإن يَكُ حَقًّا » ما دَلَّ عليه قولُه فإنَّهم كِرَامٌ ، لأنَّ معناهُ فإنهم يَصْبِرُونَ صَبْرَ الكِرَامِ . ومثلُه قوله تعالى : ﴿ إنْ تُعَذِّبْهُمْ فإنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ ؛ لأنَّ المعنى : فإنّك تملكُهم وتَقْدِر عليهم .

٥ – فقيرُهمُ مُبْدِى الغِنَى وغَنِيُّهم لَهُ وَرَقٌ للسائلين رَطِيبُ

يقول : محتاجُهم متجمِّلٌ ، وبما لا تنَالُه مَقْدُرته ولا يَنْهَضُ وُسْعُه متكثِّرٌ ، وظاهِرُه الغِنَى اكتفاءً بما يملِكُهُ ، وتَصَنُّعاً لمن يَرْمُقُه ؛ وغنيُّهم له إفْضَال على العُفاةِ ، ومعروفٌ عند السؤّال ، يَحْيَوْنَ فى جَنابه ، ويعيشون فى كَنَفِهِ وظلاله . وقولُه « له وَرَقٌ » مَثَلٌ ضَرَبه للنَّدَى ، وأصله هاهنا ورق الشَّجَر ، وبه عَيْشُ المال : الإبلِ والغنم . وإذا لم يَمنَعوا من الوَرَق عاشَ الناسُ فى فِنائهم . هذا الأصل ، ثمّ يتمثَّلُ به بَعْدُ لِغَيْرِهِ من ضروبِ المنافع ، ووجوه المرازئ . وسَلَكَ فى هذه الاستعارة والتمثيل مَسْلك زهير حيث يقول :

وليس مانعَ ذى قُرْبَى ولا رَحِمٍ يَوْماً ولا مُعْدِماً من خابِطٍ وَرَقَا

---

(١) البيت لطرفة فى معلقته .

ويقال : وَرَّقَتِ[1] الشَّجرةُ وأَوْرَقَت، وشجرة وَرِيقةٌ ، إذا كَثُر ورقُها والوِراقُ : زَمنُ خروجِ الوَرَق ، كالصِّرَام والجِدَاد .

٦ — ذَلُولهُمُ صَعْبُ القِيَادِ وصَعْبُهُمْ ذَلُولٌ بحقِّ الرّاغِبين رَكُوبُ[2]

يقولُ : مَن كان سَهْلَ الجانب منهم تراه متعسِّرًا إذا سِيمَ الضَّيْمَ ، مُتَصَعِّبًا في الْتِزام الظُّلْم والجوْرِ ؛ والأبِيّ الخَشِنُ الخُلق منهم مُعْتَرِفٌ بحقِّ الراغبين ، يُرْكَبُ به ولا يمنَعُ ، ويُقَادُ له ولا يَأْبَى . وقولُه رَكُوبٌ ، هو في معنى مفعول هاهنا . والذَّلُولُ : الوطِيء الظَّهر ، والذُّلّ والذِّل يَرْجعان إلى السُّهولة والوَطاءة ، وإنْ كان كلٌّ تفرَّد بمعنًى يتميّزُ عن صاحبه بما يُضادّه . ألا ترَى أنّ ضِدَّ الذُّلّ بالضم العِزّ ، وضد الذِّل بالكسر الصُّعُوبة .

٧ — إذا رَنَّقَتْ أَخلاقَ قوْمٍ مُصيبَةٌ تُصَفَّى بها أَخلاقُهُم وتَطِيبُ[3]

يقول : إذا كَدَّرَتِ المصائب أخلاق الناس فتغيّرتْ ، حتى لا يصير عليها مَحْمِل ، ولا إليها من النوائب مَلْجَأٌ ، فإن أخلاقَ هؤلاء تُصَفَّى بها [ولها[4]] وتطِيب عند تَحَامُلها ؛ كأنهم كلما ازدادوا امتحانًا بالدهر ازدادوا طَلاقَةً وهَشَاشةً ، ولِينَ مَعْطِفٍ ولُدُونةً ، ونُهُوضا بالاعباء ، وصَبْرًا لدَى الّلأْواء . ويقال ماء رَنْقٌ ورَنَقٌ ، وما في عيشِه رَنقٌ أي كَدَر .

٨ — ومن يَغْمُرُوا منهمْ بفَضْلٍ فإنَّهُ إذا ما انْتَمَى في آخرِينَ نَجيبُ

أَصْلُ الغَمْر التّغطية ، ومنه قولهم : دخَل في غُمَار الناس . والنَّجيبُ : الكريم من الناسِ والخيلِ والإبل ، ولذلك قيل للمختار من كلِّ شيء المُنْتَجَب ، وقد نَجُبَ الرجُلُ نَجَابَةً ، وأَنْجَبَ : أتَى بأولادٍ نُجَباء . يقول : والمَغْمُورُ

(١) ضبط في الأصل بتشديد الراء ، وفي م بفتحها فقط . وهما لغتان صحيحتان .

(٢) م : « لحق الراغبين » . (٣) التبريزي : « تصفى لها » . (٤) هذه من م .

الخامِلُ منهم ، لظُهور الفضل عليه ، إذا انتَسَبَ فى قومٍ آخرين عُدَّ نَجيبًا .
ومثله قولُ الآخر[١] :

يَسُودُ ثِنَانَا مَنْ سِوَانا وَبَدْؤُنَا يَسُودُ مُعَدًّا كُلَّها ما تدافِعُهْ

وإن كان هذا زائدًا على ذلك . وحذَف مفعول « يَغْمُروا » لأنه لا يَلتَبِسُ . أراد ومن يَغْمُرُوه ، أى المفضول[٢] فيهم إذا انتمَى فى غيرِهم كان فاضِلا .

١١٦

وقال القُطامىّ[٣] :

١ — من يكُنِ الْحِضارَةُ أَعْجَبَتْه[٤] فأَىَّ أُنَاسِ بادِيَةٍ تَرَانَا

الحِضَارةُ تُكْسَر منه الحاء وتُفتح ، وكذلك البداوة تُكسر منه الباء وتُفتح . والمُراد بالحِضارة أهل الحِضارة ، فحُذِف المُضاف ، يدُلّ على ذلك قوله « فأىَّ أُناس باديةٍ » ، لأن التفضيل إنما يصحّ بين الحضريِّين والبدويِّين . وأىّ هذه تُضافُ إلى النَّكِرة ، ولا تُضاف إلى أكثر من الذى جَعَلْتَه خبرًا ،

---

(١) هو حجر بن خالد الثعلبى ، كما سيأتى فى الحماسية ١٧٠ .

(٢) فى الأصل : « المقصود » ، صوابه فى م .

(٣) القطامى ، بضم القاف وفتحها : لقب غلب عليه . قالوا سمى به لقوله :

يحطهن جانباً فجانبا صك القطامى قطا قواربا

واسمه عمير بن شييم التغلبى ، شاعر إسلامى مقل ، وله ديوان مطبوع . وكان قبل إسلامه نصرانيا ، وكان الأخطل يعجب به كثيراً . وكان يمدح زفر بن الحارث الكلابى لأنه كان أسره ثم من عليه ووهب له مائة ناقة ورده إلى قومه . الشعر والشعراء ٧٠١ — ٧٠٥ وابن سلام ١٢١ — ١٢٢ والاشتقاق ٢٠٤ — ٢٠٥ والمؤتلف ١٦٦ والمرزبانى ٢٤٤ — ٢٤٥ والأغانى (٢٠ : ١١٨ — ١٣١) والخزانة (١ : ٣٩١ — ٣٩٤ / ٣ : ١٨٨ — ١٩٠ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ .

(٤) م والتبريزى : « من تكن » بالتاء .

لأنك تريد صِفَتَه . ألا تَرَى أنك تقول مَرَرْتُ برجُلٍ أىّ رجل ، وأىُّ رجلٍ أخوكَ إذا جعلته خبرًا يكون مَخْرَجِ الكلام المَدْحِ والتعجُّب ، كأنك قلت : نهايةٌ فى الرجوليَّةِ أخوكَ . فعلى هذا قوله فأىّ رجالِ بادِيَةٍ . فيقول : مَن أعجبهُ رجال الحضَرِ ؛ فأىُّ رجالِ بَدْوٍ نحن ، إذا حُصِّلَتِ الرِّجال . والمعنى : أىُّ أُناسٍ نحن وإن كنّا من أهل البَدْوِ . والمراد التمدُّح والتعجُّبُ .

٢ ــ ومَنْ ربَطَ الْجِحَاشَ فإنّ فينا   قَنًا سُلُبًا وأَفْراسًا حِسَانَا[١]

يقول : ومن ارتَبَط الحُمُر واقتناها ، وكان عيْشُه منها ، فإنّا أربابُ الغَزوِ ، وآلاتُنا رِمَاحٌ طِوالٌ ، وخَيْلٌ رائقة عِتاقٌ . والجحشُ من أولاد الحُمُر كالمُهْرِ فى الخيل ، والجمع الجحاش والجِحَشَةُ . والسُّلُبُ : الطوال ، والواحد سَلوبٌ .

٣ ــ وكنَّ إذا أَغَرْنَ على جَنابٍ   وأَعْوَزَهُنَّ نَهبٌ حَيْثُ كانَا

يقالُ : عَوِزَ الرَّجُل كذا عَوَزًا ، مثل عَدِمَ ، وأَعْوَزَهُ الدهر : أفْقَرَهُ . وأعْوَزَ الرجلُ : ساءت حاله ، وهذا لا يَتعدَّى . يقول : كانت هذه الخيل إذا أغارت على ما حوْلَها من القبائل فبدَّدَتْ شَمْلَها ، وخَوَّفَتْ آمِنَها ، وصارت تأخذ حِذْرَها ، وتتقيها بالبُعْدِ عنها ؛ حتى أَعْوَزَها النَّهْبُ حيث كان النهبُ ، لمعاوَدَتِهم الغارة وقتاً بعد وقتٍ ، وإدامتهم إيّاها ، وإلحاحهم بها . وقوله « إذا أَغَرْنَ » ظَرْفٌ لقولهِ أَغَرْنَ من البيت الذى يليه ، وهو جوابٌ له ، والجملة خَبَرُ كُنّ .

٤ ــ أغرْنَ من الضِّبابِ عَلَى حُلُولٍ   وضَبَّةَ إنَّه مَنْ حانَ حانَا

(١) أشار ابن جنى فى التنبيه إلى رواية « سلبا » بالتحريك . قال : « ومن روى سلبا وصفه بالواحد ، كقول الله سبحانه : من الشجر الأخضر ، وأعجاز نخل منقعر . ومن قال سلباً وصفه بالجمع ، كقول الله تعالى : وينشئ السحاب الثقال . وقد جاء الشعر بهما جميعاً ، وذلك فيما كان بينه وبين واحده الهاء » .

٥ – وأَحْيانًا على بَكْرٍ أخِينَا إذا ما لم نَجِــدْ إلاَّ أَخَانَا

الضِّبابُ يشتمل على ضَبَّةَ وضُبَيْبٍ، وحِسْلٍ وحُسَيْل، فلذلك سُمُّوا الضِّبَاب. يقولُ: أغارت على أقاربهم وعلى الحِلاَّت النازلة حَولَهم وفيهم، لأنّ من قُدِّر له الحَيْنُ فقد أدرَكَهُ. والمعنى: إنهم لاعتيادهم الغَارة لا يَصْبِرُون عنها، حَتّى إذا أعوزَهُمُ الأباعِدُ عَطَفُوا على الأقارب. ألا تَرَى أنه تَمّمَ ذلك بقولِهِ:

وأحيانًا على بَكْرٍ أخِينَا إذا ما لم نَجِدْ إلا أخانا

وقوله: «إنّه من حان حانَا» يُسَمَّى الالتفات، كأنّه التفَتَ إلى إنسانٍ فقال: إنَّهُ من هَلَكَ بغَزْوِنا فقد هَلَكَ. وقولُه «على بَكْرٍ» تَعَلَّقَ بفعلٍ مضمَرٍ دَلَّ عليه ما تقدَّم فيما قبله، كأنَّه قال: وأحيانًا أغَرْنَ على بَكْر.

١١٧

وقال الأعْرَجُ المَعْنِيُّ(١):

١ – أَرَى أمَّ سَهْلٍ ما تَزَالُ تَفَجَّعُ تَلُومُ وما أَدْرِى عَلاَمَ تَوَجَّعُ

يقول: أرى هذه المرأة تتفجّع تارةً وتتوجّع أخرى، تَعْتِبُ عليَّ وتلُومُ، وما أدْرِى من أى شيء شَكْواها، وفى أمْرٍ توجَّهَ عليَّ عَتْبُها، لأنِّى لا أتعاطَى مُنْكَرًا فاستحقَّ به ذلك: وقد مَرَّ الكلامُ فى عَلاَمَ وأشباهِهِ(٢). وقولُه: «مازال» يريدُ به اتِّصال تلك الحالة منها، لأنَّ مازال لدوام الماضى، وما يزال هو مُسْتَقْبَلُ مازال، فيصير لامتداد الحال. فإن قيل: أليس زال ضِدَّ دام

(١) التبريزى: وهو رجل من الخوارج». وذكره المرزبانى فى المعجم ٢٥١، وقال: «عدى بن عمرو بن سويد بن زبان الأعرج الطائى المعنى، وقيل سويد بن عدى، وهو مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام» وذكره ابن حجر فى الإصابة ٣٧١٣، ٦٤٠٩. وأنشدا له:

تركت الشعر واستبدلت منه إذا داعى صلاة الصبح قاما
كتاب الله ليس له شريك وودعت المدامة والندامى
وحرمت الخمور وقد أرانى بها سدكا وإن كانت حراما

(٢) انظر ص ١٩٥.

فكيف يُفيدُ وهو للنَّفْي معنى الدوام ؟ قُلْتَ لمّا دَخَل ما النافيةُ عليه تَغَيَّرَ معناهُ إلى الإيجاب ، لأنّ نَفْيَ النَّفْي إيجاب ، فعاد إلى معنى الدّوام . وقوله : « تَلُومُ » فى موضع الحال ، أى تفجَّعُ لائمةً ، وقوله : « وما أَدْرِى عَلَامَ » ، يريدُ وما أدرى ما يقتضى هذا السُّؤال .

٢ ــ تَلُومُ عَلَى أَنْ أُعْطِىَ الْوَرْدَ لِقْحَةً وما تَسْتَوِى والوَرْدَ سَاعَةَ تَفْزَعُ

يقول : تعيبُ علىَّ فى إيثارى فَرَسِى الوردَ بلبن لِقْحَتِى ــ وهى النّاقة التى بها لَبَنٌ ــ وما تَسْتَوِى هِىَ مع الورد ساعة الفزَع ووقت الغارة . وقوله « والوَرْدَ » منصوب على أنّه مفعولٌ مَعَهُ . يريد : لا تَسْتَوِى هى مع الورد . ولو أراد ما تستوى هى وما يستوى الورد لم يكن يجوز إلاّ الرفع ، والعاملُ فى هذا المعمول[1] لا يعمل بتوسُّط الواو بينهما . وإذا أردت تجريد الفعل على ما يدلُّ عليه قوله تستوِى ، يكون تقديره إذا أظهرتَهُ عاملاً فيه : وما تُساوى الوردَ . وعلى هذا قولهم : استوى الماءُ والخَشَبَةَ لأن المعنى سَاوَى الماءُ الخَشَبةَ . فإن قيل : كيف قال ولا أدرى عَلَامَ توجَّعُ ، ثم أتبَعَهُ بقوله تَلُومُ على أن أُعطِىَ الورد لِقحةً ، وهل كذّبَ نفسه ؟ فالجواب أنّ قولَه ما أدرى إنكارٌ وتفظيعٌ للشّأن ، والمتضجِّرُ بالشّىء يقول ذلك وإن كان عالماً . وروى بعضهم « والوَرْدُ » بالرفع وكان الأجود أن يقول : وما تستوى هى والورد ، لأنّ عطفَ الظّاهرِ على المُضْمَر المرفوع ضعيفٌ حتّى يُؤَكَّدَ . ويكون المعنى : وما تَستوى أمُّ سَهْلٍ وفَرَسى فى ذلك الوقت ، لاختلاف غَنائهما ، ولأنّ قُصَارى تلك الهرَبُ والدَّهَش ، وغَنَاء فرسى كونُه عُدَّةً للدِّفاع والذّبّ . والأوّلُ أجْودُ وأفصح وأسلم .

٣ ــ إذا هِىَ قامَتْ حاسِرًا مُشْمَعِلَّةً نَخِيبَ الفؤادِ رأسَها ما تُقَنَّعُ[2]

(١) م: « المفعول » . (٢) التبريزى : « رأسها ما يقنع » ثم أشار إلى الرواية الأخرى .

هذا بيانُ الحالِ ساعةَ الفزع ، وموضع إذا نَصْبٌ على أنه بَدَلٌ من ساعَةَ تَفْزَعُ ، ويكون على ذلك قوله « هنالك يجزيني الذى كنت أَصْنَعُ » من البيت الذى يليه مُنْقَطِعًا ، وإن كان بيانَ عِلّة إيثاره باللّبن وانتفاء المساواة بينه وبين المرأة . والمعنى : ما تُساوى هذه المرأةُ الفرسَ إذا هى قامت بلا قِناعٍ ، جَادّةً فى العَدْوِ ، مَنْخُوبَةَ القَلْبِ ، طائرة اللُّبّ ، لا خِمار عليها ولا قِناع ، لدَهَشِها فى احتمارها ، وذَهابها عن عادتها وإلفها . وقوله « مشمعلةً » أى جَادّةً فى العَدْو . وانتصبَ «رأسَها» لأنه مفعولٌ مقدّمٌ . ويجوز أن يكون « إذا هى قامت» استئناف كلامٍ ، وحينئذٍ يكون جوابُ إذا قوله هنالِكَ يجزيني الذى كنت أَصْنَعُ .

٤ — وقُمْتُ إليه باللِّجَامِ مُيَسَّرًا هُنالِكَ يَجزِيني الذى كنت أَصْنَعُ

يقول : وقُمْتُ إلى فرسى فى تلك الحال ، مُهَيِّئًا له باللِّجام ، للدِّفاع والقتال . ثم قال : فى ذلك الوقت يجزيني ما أعامِلُه به السّاعةَ من إيثارٍ باللّبَن ، وتضمير وصَنْعة . وقوله « مُيَسَّرًا » أى مهيَّئًا . وفى القرآن : ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ . هنالك إشارةٌ إلى الوقت ، ويستعمل فى المكان . ويقال هناك أيضا فيهما . والعامِلُ فيه هاهنا يجزيني .

١١٨

وقال حُجْرُ بن خالدٍ[١] :

١ — كَلْبِيَّةٌ عَلِقَ الفؤادُ بذِكْرِها ما إنْ تَزَالُ تَرَى لها أَهْوَالاَ

(١) التبريزى : « وقال حجر بن خالد بن محمود بن عمرو بن مرثد بن مالك بن ضبيعة ابن قيس بن ثعلبة » . وحجر شاعر جاهلى كان معاصراً لعمرو بن كلثوم ، وكان أنشد شعراً بين يدى النعمان بن المنذر ، فأحفظ عمرو بن كلثوم ، فلطمه عمرو فى مجلس الملك ثم اقتص منه حجر ، وأجار الملك حجراً ، فقال حجر ، أبياتاً يمدح بها النعمان ، رواها الجاحظ فى الحيوان (٣ : ٥٨) . وانظر الحماسية ٧١٨ .

يقول : عَلِق الفؤادُ بذكرِ امرأةٍ كلبيّةٍ ، لا تزال تُقاسى من أجْلِها أهوالاً ، وتتحمّل مَشَقّاتٍ . قوله « عَلِق الفؤاد بذكرها » يجوز أن يكون أراد عَلِق ذكرُها بالفؤاد فقَلَبَ ، لأن المراد مفهومٌ ، ويكون كقول الآخر :

* عَلِقَ الأحشاءَ من هِنْدٍ عَلَقْ *

وكما يقال عَلِق بقلبه عَلاقَتَه . ويجوز أن يكون جَعَل الفؤادَ تابعًا للذِّكْر فكأنّه تعلّق به . وكلُّ شيء وقَعَ موقِعَهُ قيل عَلِق معالِقَهُ . وجعل صدر البيت على الإخبار عنها ، ثمّ نَقَل الكلامَ إلى مخاطبةِ نفسه . ويجوز أن يكون استمرَّ فى الإخبار عنها ويكون المعنى : عَلِقَهَا الفؤادُ فلا تزالُ هى تُقاسى أنت بسبَبِها أهوالاً . و « إنْ » من قوله « ما إنْ » زِيدتْ لتأكيد النفى .

٢ — فاقْنَىْ حَيَاءَكِ لا أبالكِ إننى فى أرضِ فارِسَ مُوثَقٌ أحْوَالاَ

أقبل يخاطب المرأة فقال : ألزمى حياءكِ ، أى لا تفعلى ما يُقالُ نُسِىَ الحياء معه وأُطْرِحَ ، إننى محبوسٌ فى أرض فارسَ سِنِينَ لا أبالَكِ . وقولُه « لا أبالَكِ » بَعْثٌ وتحضيض ، وليس بنفْىٍ للأُبُوّةِ ، وخَبَرُ لا محذوف ، لأنّ المعنى لا أَبَاكِ ، ودخلت اللام مؤكِّدةً للإضافة ، لأنّ هذه إضافةٌ لا تُخَصِّصُ ، فساغَ تأكيدها باللام ، ولو كانت الإضافةُ مخصِّصةً لكان لا يَعملُ فى أبالَكِ . وتقدير الخبر : لا أبالك موجود . ويقال : قَنِىَ يَقْنَى ، واقْنَىْ : أمْرٌ منه . وقنا يَقْنُو . قال المتلمِّسُ :

* كذلك أقْنُو كلَّ قِطٍّ مُضَلَّلِ [1] *

وإنّما قال إننى مُوثَقٌ ولم يكن قد أُسِرَ وأوثق ، لعلمه بما يُؤَول إليه فى

(١) صدره : * فألقيتها بالثنى من جنب كافر *

مَقْصَدِهِ أَمْرُهُ ، كأنه لما وطَّنَ نفسه على ترك التَّحَامِى والاتقاء علم أنَّ أَحْسَنَ العاقبتين فيه الأسر ، فذكره . ويكون هذا كقول الآخر :

* قد يَتِمَتْ بِنْتِى وآمَتْ كَنَّتِى *

فهذا وجهٌ ، ويجوز أن يكون قال هذه الأبياتَ بعد الأَسْرِ .

٣ — وإِذَا هَلَكْتُ فلا تُرِيدى عاجِزًا غُسًّا ولا بَرَمًا ولا مِعْزَالَا

ليس قَصْدُهُ فى هذه الوَصَاةِ إلى أن يَبْعَثَها على تَخَيُّرِ الرِّجال ، أو يرشدَها لوجوه الانتخاب(١) ، وإنما المراد : اطلبى مثلى . وهو يعلم أنَّها لا تظفر بمن يُماثله أو يقاربه . والغُسُّ : الضَّعيف . قال :

* فَطَعْنَةُ لا غُسٍّ ولا بِمُغَمَّرِ(٢) *

والبَرَم : الذى لا يَدْخُل مع القوم فى المَيْسرِ ، لضيق صدرِهِ وتبرمه بما يلتَزَمُ فى مثله . والمِعْزال : الذى لا يحمل السِّلاح ، ويتناهى اعتزالُه ورَفْضُه إياه . والأعزلُ مثله . ومثل هذا قول ابن أحمرَ :

فإمَّا زَالَ سَرْجٌ من مَعَدٍّ وأَجْدِرْ بالحوادث أن تكونا
فَلاَ تَصِلِى بِمطْرُوقٍ إذَا ما سَرَى فى القوم أَصْبَحَ مُسْتَكِينا
إذا شَرِبَ المُرِضَّةَ قال أَوْكِى على ما فى سِقائِك قد رَوِينا

٤ — واسْتَبْدِلِى خَتَنًا لأَهْلِكِ مِثْلُه يُعْطِى الجَزِيلَ وَيَقْتُلُ الأَبْطَالَا

يقال : اعتاضِى منِّى لأَهْلِكِ خَتَنًا مثلَ ذلك الختن ، يُعطِى عطاءً جَزْلاً ، ويقتُلُ الأَبْطالَ بَطَلاً فبطلا . ومثله يرتفع بالابتداء ، وما بعدَهُ فى مَوضع الخبرِ لَهُ ، والجملة فى موضع الصِّفة للخَتَن ، ولا يجوز نصب « مِثْلُه » .

(١) م : « الانتجاب » .
(٢) لزهير بن مسعود ، فى اللسان (غسس) . وصدره :
* فلم أرقه إن ينج منها وإن يمت *

٥ — غَيْرَ الجديرِ بأن تكونَ لَقُوحَهُ رَبًّا عليه ولا الفصيلُ عِيَالَا

هذا أيضاً من صِفَةِ الخَتَن . يقول : لا يكون خليقاً بأن يكون مملوكاً لماله[1] لا مالكاً ، ويَحُلُّ الفصيلُ منه مَحَلَّ العيال لا مَحلّ المال . وهذا كما قال الآخر :

فَلاَ واللهِ ما لَبَنِي برَبٍّ ولا لَحْمِي عَلَيَّ ولا سِلاَئِي[2]

واللَّقُوحُ صِفةٌ ، يقال ناقةٌ لَقُوحٌ إذا كان بها لَبَنٌ ، وجمعُه لُقُحٌ . قال الخليل : فإذا أرادوا استعمالها على حدِّ الأسماء قالوا لِقْحَةٌ ، يقال : هذه لِقْحَةُ فُلان ، للنّاقة الحلوب — ولا يقال ناقةٌ لِقْحةٌ — والجميعُ لِقَاحٌ .

١١٩

وقال ابن رُمَيْضٍ العَنْبَرِىُّ[3] :

١ — باتوا نِياماً وابنُ هِنْدٍ لم يَنَمْ

٢ — بَاتَ يُقَاسِيها غُلَامٌ كالزَّلَمْ

يقول : مَكَثَ الناسُ نائمينَ في ليلهم ، وهذا الرّجل لم ينَمْ ، لأنه كان يَبِيتُ للغارة ، ثم قال « بات يقاسيها » ، أى يُعانى الغارةَ كيف يُوَقِّتُها ويُدَبِّرُها متى

(١) فى الأصل : « بماله » ، وأثبتنا ما فى م .

(٢) سبق البيت فى ص ٢٤٠ .

(٣) هو رشيد بن رميض ، بهيئة التصغير فيهما . فى الأصل : « ربيض » ، تحريف صوابه فى م والعنبرى ، كذا وقع فى نسختى المرزوقى ، والصواب « العنزى » ، نسبة إلى بنى عنز ابن وائل ، أو بنى عنزة . انظر تاج العروس (٥ : ٣٧) ، والأرجح أنه من بنى عنزة . انظر أمالى القالى (٢ : ١٢٦) وتحقيق اسمه فى حواشى الحيوان (٥ : ٤٣٤) وسمط اللآلى ٧٢٩ . وقال التبريزى : قال أبو رياش : هذه قالها فى غارة الحطم ، وهو شريح بن شرحبيل بن عمرو ابن مرثد ، أغار على اليمن فقتل وليعة بنى معديكرب ، أخا قيس ، وسبى بنت قيس بن معديكرب أخت الأشعث بن قيس ، فبعث الأشعث يعرض فى فدائها بكل قرن من قرونها مائة من الإبل ، فلم يفعل الحطم ، وماتت عنده عطشاً » .

يأخُذ فيها ، غُلامٌ مُدْمَجُ الخلقِ خفيفٌ ثَقْفٌ مُشمِّرٌ ، كأنه قِدْحٌ . يعنى ابن هِنْدٍ .
والزَّلَمُ بفتح الزَّاء وضمِّها : القِدْحُ كان يُسْتَقْسَمُ به . قال الله تعالى : ﴿ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ﴾ . ويجوز أن يكون المُضمرين فى باتوا المغارُ عليهم .

٣ ــ خَدَلَّجُ السَّاقَيْنِ خَفَّاقُ القَدَمْ

٤ ــ قَدْ لَفَّها اللَّيْلُ بِسَوّاقٍ حُطَمْ

يصفه بأنَّه غليظ السَّاقَين ، ولوطْئِه الأرضَ صَوْتٌ ، ولقَدمه خَفْقٌ ، وهو سُرْعَة الخَطْوِ مع ضَرْب الأرض بها ، كأنَّه يشير بهذا إلى ثباته وقُوّته فى العمل والسَّير ، وشدّة بلائه وصبْرِه على الكدِّ . وقوله « قد لَفَّها » يريد الإبل . وجَعَل الفِعْل لِلَّيل على المجاز . والمعنى : جَمَعها بِرَجُلٍ مُتناهى القُوّةِ ، عنيف السَّوْق ، يَكْسِرُ الطرائد بَعْضًا[1] على بعضٍ ، لقلّة رِفْقِهِ وكثرة عَسْفِه ، ولأنَّه قليل الفِكْرِ فيها إذْ كانت حُصِّلَتْ بالغارة ، فإن سَلِمَتْ فهى غُنْمٌ ، وإن تَلِفَتْ فليستْ بغُرْمٍ ، فالعِوَضُ منها بالقُرْبِ . وقولُه « حُطَمْ » بناء للمبالغة ، وهو من الحَطْمِ الكَسْر .

٥ ــ لَيْسَ بِراعِى إِبِلٍ ولاَ غَنَمْ

٦ ــ ولا بجَزَّارٍ على ظَهْرِ الوَضَمْ

يقول : لا يَرْفُق هذا الرجل بوَسائقه رِفْقَ الرُّعاةِ ، ولا رِفْقَ الجَزَّارِ ، وذلك أن الراعى مُكْتَرٍ لاستصلاح مَرْعِيِّه ، وحفْظ ما ضُمَّ إليه بجَهْدِه ، والجَزَّارُ لا يستَهْلِكُ مَالَهُ ولا يَعْنُفُ عُنْفَ مَن لا يُبالِى به . وهذا صِفَةُ المِغْوار

(١) م : « بعضها » .

القليل الفِكْر فى فَسَاد ما يَحْوِيهِ منها ، الذَّاهب عن استبقائها ، لا يبالى كيف استوسقت ، وعلى أىِّ حَالةٍ تَحصَّلَتْ .

١٢٠

وقال جَعْفَرُ بن عُلبَةَ الحارثىُّ[١] :

١ — ألا لا أُبالى بَعْدَ يَوْمِى بسَحْبَلٍ ... إذا لم أُعَذَّبْ أن يَجىءَ حِمَامِيَا[٢]

يقول : اشْتَفَيْتُ من أعدائى يومَ سَحْبَلٍ — وهو اسم وادٍ — وأدركتُ آثارى[٣] عنـدهم فلا أُبالى بدُنُوِّ موتى بَعْدَهُ إذا لم يُعَذِّبْنِى الله تعالى تبارك اسمُهُ ، إذ كنت نِلْتُ أُمْنِيَّتى ، وقَضيتُ مَأْرُبَتى . والذى تناوَلَه قولُه « لا أُبالى » هو أن يجىء حِمَامِيَا . ويقال لا أُبالى كذا ولا أُبالى بكذا . وإذا لم أُعَذَّبْ ظَرْفٌ للا أُبالى ، أى لا أُبالى بالموت إذا سَلِمْتُ من عذاب الله عزّ وجلّ . وإنما أَتَى بإذا رجاءَ أن يكون الأمر كذلك . وقد مَضَى القوْلُ فى أُبالى وأصله وما استَقَرَّ عليه فى الاستعمال ، وأنّ قَوْلَهُم لا أُباليه بالَةً أصله عند سيبويه بالِيةً فخُفِّف . وقد ذهب غيرُه إلى أنها مقلوبة ، ويقول فى بالةٍ إنها فَعْلَةٌ ، وإن أَلفها منقلبة عن واو ، وأن أُبالى كانَ أُباوِلُ أى لا أُكاثر ، ثم وُضع موضع لا أَحْفِلُ ولا أَكترث . وللترجيح والنَّظر فى المسألة موضعٌ غير هذا .

٢ — تَرَكْتُ بِجَنْبَىْ سَحْبَلٍ وتِلاَعِهِ ... مُرَاقَ دمٍ لا يَبرحُ الدَّهرَ ثاوِيا

أخذ يقتصّ ما هوَّن عليه الموتَ من فِعْله ، فيقول : تركت بجانِبَىْ هذا الوادى

---

(١) سبقت له الحماسية الرابعة . التبريزى : « وقال جعفر بن علبة الحارثى حين لقى بنى عقيل » .

(٢) التبريزى : « يوم بسجل » .

(٣) الآثار : جمع ثار بالقلب ، ومثله الأثآر .

ومسايل مياهه مَصْوبَ دَمٍ ، يلزم ذلك المكان على مرور الأيام فلا يبرح . وقوله « ثَاوِيَا » مِن ثَوَى بالمكان ، إذا أقام . يقال ثَوَى وأَثْوَى جميعا . وقوله « مُرَاقَ دَمٍ » يجوز أن يريد موضعا أُرِيقَ به دَمٌ ، كما يجوز أن يريد به دَمًا مُرَاقًا ، ولكنه إذا أريد به الموضع يكون لا يبرحُ من صفة الدّم ، ويجوز أن يريد به رجلاً أريق دمه ويكون كقولك هو حَسَنُ وجْهٍ . وذكر بعضُهم أن المراد مُراق دَمٍ لا يزال ذكرُه باقيا على الدّهر لحذَف المضاف . والتِّلاع : جمع تَلعةٍ ، وهى أرضٌ مرتفعة يتردَّد فيها السَّيل إلى بطن الوادى . ومن الاستعارة الحسنة : فلانٌ لا يُوثَقُ بسَيلِ تَلْعَتِه ، إذا كان غير صَدوقٍ فى أخبارِه .

٣ — إذا ما أَتَيْتَ الحارثيّاتِ فانْعَنِى لهُنَّ وخبِّرْهُنَّ أَنْ لا تَلاقِيَا

هذا كلامُ رجل يونسُ أحِبَّتَهُ من نفسه لاستقتاله ، أو لأنه مُنِيَ بما لم يَرْجُ الخلاصَ منه . فقال : إذا زُرْتَ نساءَ بنى حارثة فاذْكُرْ موتى لَهُنَّ ، وأعلمهنَّ أنه لا التقاء بينى وبينهن . فقولُه « أن لا تلاقِيا » أن مخفَّفَةٌ من أنّ الثقيلة ، واسمه مُضْمَرٌ ، وتلاقِيَا نَصْبٌ بلا وخَبَرُهُ محذوف ، المرادُ لا تلاقِيَ لنا ، والهاء فى أنه ضمير الشأن والأمر ، والجملة خَبَرَ أنْ . وهذا البيت مع ما بَعْدَهُ لمالك بن الرَّيْبَ[(1)] فيما أظن ، وانضمّا إلى أبيات جَعفر بن عُلبَةَ على سبيل الغلط .

٤ — وقَوِّدْ قَلُوصِى فى الرِّكابِ فإنّها سَتُضْحِكُ مَسْرُورًا وتُبْكِى بواكِيَا

يقول : وأَكثِرْ قَوْدَ ناقتى حالاً بعد حالٍ ، فإنّ الأعداءَ يَشْمَتُون إذا استدلُّوا بها ويضحكون سروراً ، والأصدقاء ذواتُ الشَّفقة يغتمُّونَ فيبكون توجُّعًا[(2)] . وهذا الكلام تحزُّنٌ وتحسُّرٌ . وقوله « ستُضْحِكُ مسروراً وتُبكى

(١) انظر الخزانة (١ : ٣١٧ — ٣١٩) . (٢) كذا فى النسختين .

بواكيا » من باب وصْف الشيء بما يؤول إليه ، ومثلُه قولهم : خرجَت جوارحُه . وقول الفرزدق :

* قَتَلْتَ قتيلاً لم يَرَ الناسُ مِثْلَهُ *

والقَلُوص ، قال الخليل : هى الناقة الباقية على السَّير ، لا تزال قلوصًا حتى تَبزُلَ(١) . وإنما سمِّيت قَلُوصًا لطُول قوائمها ولم تَجْسُمْ بَعْدُ .

١٢١

وقال آخر(٢) :

١ ــ لَعَمْرى لَرَهْطُ المَرْءِ خَيْرٌ بَقِيَّةً عليهِ وإنْ عالَوْا به كلَّ مَرْكَبِ

خَبَرُ « لعَمرى » مُضمَرٌ ولا يجوز إظهارُه ، وهو قَسَمٌ ، ولا يجوز أيضاً فيه إلاّ فتح العين ، ولَرَهْطُ جوابُه . والرَّهْطُ يقع على ما دون العشَرة ، ولهذا دَخَل عليه من الأسماء أسماء الآحاد فقيل ثلاثةُ رَهْطٍ . ومثْله نَفَرٌ ، ولو كان يقع على الكثير لما جاز لك فيه ألا ترى أنك لا تقول ثلاثُ إبلٍ . وانتصابُ « بقيّةً » على التمييز ، وموضع « وإن عالَوْا به » نَصْبٌ على الحال للرهط ، وجوابُ الشَّرط فيما دلَّ عليه قولُه « خيرٌ بقيّةً » . وقوله « كلَّ مَرْكَبِ » يريدُ به كلَّ مَرْكَبٍ مذمومٍ . وعالَيْتُ بفلانٍ بمعنى أعليْتُه . ومعنى البيت : وبَقائى ، لَعِتْرَةُ الرّجلِ أحسنُ إبقاءً عليه ، وأكثرُ حشمةً له ، وإن أركبُوه مراكب صعْبَةً مكروهة ، وأنزلوه منازلَ حَزْنَةً مذمومةً .

٢ ــ مِنَ الجانبِ الأقصَى وإنْ كان ذاغِنًى جَزِيلٍ ولم يَخْبُرْكَ مِثْلُ مُجَرِّبِ

تعلّق « من » بقوله خَيْرٌ بقيّةً ، لأنَّ معناه أفْعَلُ الذى يَتِمُّ بِمِنْ . يقول : هُمْ

---

(١) البازل : التى استكملت الثامنة وطعنت فى التاسعة .

(٢) هو خالد بن نضلة ، كما فى الحيوان (٣ : ١٠٣) والبيان (٣ : ٢٥٠) .

أحْسَنُ إبقاء عليه من الغريبِ الأبعَدِ ، وإن كان الرجل محتشما فى نفسِهِ غنيًّا ، ومُعَظَّماً مَهِيبًا . وقوله « وإن كان ذا غنًى » فى موضع الحال أيضاً . والجانب يرادُ به الجِنْس لا واحِدٌ بعيْنِه . وقوله « ولم يُخبِرْكَ مثلُ مُجَرِّب » يجرى مجرى[١] الالتفات ، وهو توكيد للخبر الذى أورده ، وتحقيقٌ لما أنبأ به وشرَحَهُ ، وأنَّ ما قالَهُ قالَهُ عن تجربةٍ وخبرةٍ ، لا عن سماعٍ وخَبَر .

٣ — إذا كنتَ فى قوْمٍ ولم تكُ منهُمُ فكُلْ ماعُلِفْتَ من خبيثٍ وطيِّبِ

هذا الكلام تحذير من الاغترار بالأجانب ، والاستنامة إلى ناحيتهم ، وبَعْثٌ على طلَبِ موافقتهم وترْكِ الخلاف عليهم ، بعد الحصول فيهم ، وأنَّ استعمال الإدلال معهم ، والأخذ بالمضايقَةِ فى إيفائهم والاستيفاء منهم غيرُ واجبٍ . ويروى : « فى قوْمٍ عِدًى لَسْتَ منهم » ويكون معنى لست منهم : وأنت لاتهوَى هواهُم . والعِدَى يقع على الواحِدِ والجميع ، يقال رجلٌ عِدًى ، وقومٌ عِدًى ، أى بُعُدٌ غرباء . وقوله « كُلْ ما عُلِفْتَ » مَثَلٌ . ومثله .

* ولا تَطْعَمَنْ ما يَعْلِفُونَكَ *

وكأنَّ العَلفَ مختصٌّ بهذا المعنى ؛ فإنِّى لم أجِدْه فى غيره .

١٢٢

وقال البُرْجُ بن مُسهِر[٢] :

١ — فَنِعْمَ الحَىُّ كَلْبٌ غير أنَّا رأينا فى جِوَارِهِمِ هَنَاتِ

(١) فى الأصل : « مثل » وأثبتنا ما فى م والتبريزى .

(٢) هو البرج بن مسهر بن جلاس ، أحد بنى جديلة ثم أحد بنى طريف بن عمرو بن ثمامة بن مالك بن جدعاء بن ذهل بن رومان . وهو من معمرى الجاهلية . وكان قد جاور كلبا أيام حرب الفساد فلم يحمدهم . المؤتلف ٦١ وشرح التبريزى على الحماسة فى هذه المقطوعة . وانظر لحرب الفساد شرح التبريزى والأغانى (١١ : ١٢٧) والميدانى (٢ : ٣٥٨) .

هذا الكلام تهكُّمٌ وسخريّةٌ . وجاز أن يأتى به بلفظ المدْح لأنه بما بَعْدَهُ تبيَّنَ الغَرَضُ ؛ فيكون أبْلَغَ فى الهزْء . والهنَات : الأمور المنكرة ، ولا تُسْتعمل إلا فى الشَّر(١) ، وهى جَمْعُ هَنَةٍ ، وإنما يُكْنَى بها عن المَحقَّرات ، كأنه يُرِى الإبقاء والمجامَلة ، ويُجرى الأمر على المَداجاة وترْكَ المجاهرَة . وقد يُجْمَعُ هَنَةٌ على هَنَوَاتٍ ، فمن ردَّ اللام فى الجمع رَدَّهُ فى النِّسْبَة أيضاً ، ومن لم يَرُدَّهُ فهو فى النِّسبة بالخيار ، إن شاء قال هَنِىٌّ وإن شاء قال هَنَوِىٌّ . فيقول : قبيلة كلبٍ محمودةٌ فى الأحْيَاءِ ، غيرأنَّا مُنِيناَ فى جوارِهِمْ بدواهٍ وبُلِيناَ بمُنْكَرَاتٍ. والاستثناء فى هذا المكان يكون منقطعاً . وكان فارَقَ قومَهُ طيِّئاً مُرَاغِمًا وجاوَرَ كلْبًا فلم يَحْمَدْ جِوَارَهُم ففَارقهم ذامًّا لهم .

٢ ــ ونِعْمَ الحىُّ كَلْبٌ غيرَ أنَّا رُزِينَا من بَنِينَ ومن بَنَاتِ

يريد مثلَ ما أرادَ فى البيت الأول من السخريَّةِ . ومعنى رُزِيناَ : أُصِبْنَا ببنين وبَنَاتٍ . ويقال فلانٌ مُرَزًّأٌ فى ماله فيكون مَدْحًا ، وفلانٌ مرزًّأٌ فى أهْلِهِ فيكون تَرَحُّمًا وتوجُّعًا . ومثل هذا التهكم قول الآخر(٢) :

فِدًى لِسَلْمَى ثَوْبَاىَ إذْ دَنِسَ الْ قَوْمُ وَإِذْ يَدْسُمُونَ مَا دَسِمُوا

فالتَّفْدِيةُ هاهنا كالمدح بنِعْمَ ثَمَّ . وقوله « من بنينَ » مِنْ دَخَل للتَّفْضِيل ، كأنَّه قال : رُزِيناَ أناساً من بنينَ ومن بنَاتٍ ، ومفعولُ رُزِينا محذوف ، ويجوز أن يكون ذاد مِنْ فى الواجب على ما أجازه الأخفش وحكاه عنهم من قولهم : « قد كان من مطرٍ نخلٌ عَنِّى(٣) » ، فيكون المرادُ رُزِينا ببنين وبَناتٍ .

(١) ذكر التبريزى أن بعض المحدثين ، قد استعملها فى الخير ، وهو قوله :

وعشرة محمودة تحتها مساعدات وهنات عذاب

(٢) هو الجميح الأسدى . المفضليات (١ : ٤٠) .

(٣) كذا فى م . وفى الأصل : « على ما أجازه الأخفش وحكاه عنه كان من مطر » ، وفيه تحريف ونقص .

٣ – فإنّ الْغَدْرَ قد أَمْسَى وأَضْحَى مُقِيماً بَيْنَ خَبْتَ إلى الْمَسَاتِ[1]

يقول زاريًا عليهم ومبيِّنًا : إنهُ نالَهُم ما نالَهُم لأن الغَدْرَ مُقيمٌ فيما بين ديارهم ، ومما انطوَى عليه أحشاؤهم : وفائدة قوله أَمْسَى وأَضْحَى بيانُ اتصالِ الوَقْت . وقوله « فإنّ الغَدْر » الفاء رَبطَ الجُملةَ التى بعدَها بما تقدَّم ورتَّبَها عليه ، كأنه قال : قاسَوْا ما قاسَوْهُ فى جِوارِهم فإنَّهم غادرونَ . وخَبْتٌ والمَسَاتُ : ماءانِ لـكَلْبٍ . يقولُ : الغَدْرُ مُقيمٌ فى كَلْبٍ بين هذين ، أى فى أوّل ديارِهم وآخرِها .

٤ – تَرَكْنا قَوْمَنَا من حَرْبِ عَامٍ أَلاَ يا قَوْمِ للأَمْرِ الشَّتَاتِ

هذا الكلام اقتصاصٌ لحالِهِ ، وإظهارٌ للتأسُّفِ على مجاوَرَةِ كلبٍ ، والتندُّم على ما اتّفق من مفارقة العشيرة : وقوله « يا قوم للأمرِ الشَّتَاتِ » تعجُّبٌ . والشّتاتُ : مَصْدَرٌ وُصِفَ به . واللام فى الأمرِ لام الإضافة ، لـكن فائدته ما ذكرناهُ من التعجُّب ، وأُتِيَ به مع المَدْعُوِّ . وقد يقالُ يا لَزَيْدٍ فيكون المُنادَى محذوفًا . وهذه اللام تدخل مفتوحةً فى المُنادَى ويُراد به الاعتزاء[2] ، كقولك يا لَبَكْرٍ ويا لَتَميمٍ . فيقول : انتقلنا عن قوْمِنا وفارقناهُم مُنذ زمن الحرْبِ التى اتّفقت بيننا عامًا أوّلَ . ثمّ أخذ يستعطفهم ، ويتذمَّمُ من مراغمتهم ، ويُظهر الحاجةَ إليهم فقال : يا قوْمِ أَقبِلُوا لما تشتّت من أمرِنا ، واختلَّ من حالِنا . وقوله « من حَرْبِ عامٍ » جعَلَ مِن بَدَلَ مُنذُ ، لأنه فى المكان مثلُه فى الزمان ، كما قال زُهَيْرٌ :

---

(١) المسات ، كذا ضبط فى النسختين بفتح الميم ، وضبطه ياقوت بضمها .

(٢) الاعتزاء : الادعاء والانتماء فى الحرب ، ومثله التعزى . وفى الحديث : « من لم يتعز بعزاء الله فليس منا . أى من لم يدع بدعوى الإسلام فيقول يالله أو ياللإسلام أو ياالمسلمين » .

* أَقْوَيْنَ مِن حِجَجٍ ومِن دَهْرِ[١] *

٥ — وأَخْرَجْنَا الأَيَامَى من حُصُونٍ بها دارُ الإقامةِ والثَّباتِ

يقول : أَخْرَجْنا النِّساءَ اللاتى صِرْنَ أَيَامَى من مقرِّ عزِّهِنّ ، ودار أَمْنِهِنّ ، إلى جِوَارِ كُلَاب ، حتى اتّفق عليهنّ من الأعداء ما اتّفق ، ومن حُلولِ الرّزايا ومقاساةِ الهَنَاتِ بهنَّ ما أَقْلَق . وَوَصَفَ النِّساء بما آلَ إليه أَمرُهُنَّ من الإِيمَةِ ، وإنْ كُنّ وقت الإخراج ذَوَاتِ بُعولٍ . ومثْلُه قولُ الآخَرِ[٢] :

* سَتُضْحِكُ مسْرُورًا وتُبْكِي بَوَاكِيا[٣] *

وفى القرآن : ﴿ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾ . وأَيَامَى : جمع أَيِّمٍ ، ويقع على الرجُل والمرأة . والفِعل منه آم ، أى بَقِيَ بلا زَوْجٍ . وهو من الفِعل فَيْعِلٌ ، وجَمْعُهُ أَيايم على فياعل . وأَيَامَى مقلوبٌ كأنه قُدِّمَ اللامُ على العين فصار أَيَامِي على فيالِع ، ثم فرُّوا من الكسرة وبعدها ياء إلى الفتحة ، فانقلبت أَلِفًا .

٦ — فإن نَرْجِعْ إلى الجَبَلَيْنِ يَوْمًا نُصَالِحْ قَوْمَنَا حتى المَمَاتِ

هذا إظهارُ رَغْبَةٍ فى الرُّجوع إلى العشيرة ، ومعاودة الوَطنِ والمحَلَّة . يقول : إن اتّفَق لنا عَوْدَةٌ إلى بلادنا تركْنا الخلاف على ذَوِينا ، وأقمنا بها إلى انقضاء الأجل ، واستنفاد المَهَل . ويعنى بالجَبَلَيْن أجأ وسَلْمَى : جَبَلَىْ طيِّئٍ[٤] . وقوله « حتّى المَمات » أراد به إلى حين الممات ، فحَذَفَ المضافَ . والمماتُ يكونُ مصدراً ، وإن جعلْتَه اسْمًا للحين فلا حذْف .

---

(١) صدره كما فى الديوان ٨٦ طبع دار الكتب :
* لمن الديار بقنة الحجر *

(٢) هو مالك بن الريب . الأمالى (٣ : ١٣٨) والخزانة (١ : ٣١٩) . وانظر الأغانى (١١ : ١٤٢) .

(٣) صدره : * وعطل قلوصى فى الركاب فإنها *

(٤) وكان أجأ لبنى ثعل ، وسلمى لبنى نبهان .

١٢٣

وقال موسى بن جَابِرٍ(١) :

١ — لا أَشتَهِى يا قَوْمِ إِلَّا كَارِهًا بَابَ الأَميرِ ولا دِفَاعَ الحاجِبِ

يصفُ بهذا الكلام مَيْلَهُ إلى البَدْوِ ، وتفضيلَهُ رِجَالَهُ على رِجَالِ الحضَر ، فيقول : لا أتمنَّى ورودَ بابِ الأمراء ، ومُدافعةَ الحُجَّاب ، ولا أُعلِّقُ شَهوتِى بهما إلا على كَرْهٍ وعن داعيةٍ عارِضَةٍ ؛ إذ كُنْتُ أَلِفْتُ الصَّحَارِى والبَرَارِى ، وصاحَبْت بها مَن لا تملكنى معه حِشْمَةٌ ، ولا يَصُدُّنى دونَهُ عِزَّة . وانتصَب « كارِهًا » على الحال .

٢ — ومن الرِّجَالِ أَسِنَّةٌ مَذْرُوبَةٌ ومُزَنَّدُونَ شُهُودُهُمْ كالغائِبِ

يقولُ : مِن الرجالِ رجالٌ كالأَسِنَّةِ المطرورة ، أى يمضون فى الأمور ويفصلونها نفاذَ الأسنة ؛ ومنهم مزنَّدون . والمُزَنَّد : المُبَخَّل المُقَلَّل . وقيل الزَّنْد ضُرِبَ به المثل فى القِلَّة . يقال : « زَنَدانِ فى مُرَقَّعَةٍ(٢) » ، ثم قيل هو مُزَنَّدٌ مشتقًّا منه . وقولُهُ « شهودُهم كالغائب » أى لا غَناء عندهم ، ولا دِفاعَ بهم ، فحضورهم كغيبتهم . وأراد بالغائب الكثرةَ لا التَّوحيد . وكان من حقِّ التقسيم أن يقولَ :

---

(١) هو موسى بن جابر بن أرقم بن مسلمة بن عبيد الحنفى اليمامى ، شاعر نصرانى جاهلى كثير الشعر ، فيما ذكر الآمدى والمرزبانى ، وكان يلقب أزيرق اليمامة ، ويعرف بابن ليلى وهى أمه . وكان يقال له أيضاً : ابن الفريعة ، كما يقال لحسان بن ثابت . وقال أبو العلاء فيما نقله عنه التبريزى : « موسى منقول من العبرانية ، ولم أعلم أن فى العرب من سمى موسى زمان الجاهلية ، وإنما حدث هذا فى الإسلام لما نزل القرآن وسمى المسلمون أبناءهم بأسماء الأنبياء على سبيل التبرك » . وقول أبى العلاء هذا معترض بما ذكره المرزبانى فى معجمه ٣٧٦ . وانظر المؤتلف ١٦٥ .

(٢) انظر ما سبق فى ص ١٨٠ .

ومنهم مزنَّدون ، لـكنه اكتفى بمِن الأوّل . ومثله قول الله تعالى : ﴿ منها قائمٌ وحَصِيدٌ ﴾ . وسمعتُ أبا عليٍّ الفارسيَّ رحمه الله يقول : كلُّ صِفَتَيْن تتنافَيَان وتتدافعان فلا يصحُّ اجتماعهما لموصوفٍ لا بُدّ لإضمار مِنْ مَعَهُما إذا فُصِّل جُملةً بهما ، متى لم يجئْ ظاهرا ، ثم أنشَدَ :

وما زَوَّدونى غَيْرَ سَحْقِ عَبَاءَةٍ وخَمْسِ مِىءٍ منها قَسِىٌّ وزائفُ[1]

وقال : يريد ومنها زائف . وهذا كما تقولُ زَيْدٌ مُنْطَلِقٌ وعَمْرٌو ، والمعنى وعمرو منطلق ، فحذف اكتفاء بالخبر عن الأول ، وعلْماً بأنّ المنعَطِف ذلك حَاله . قال : فإن أمْـكن اجتماعُ الصِّفتين لموصوفٍ واحد استُغنِى عن إضمار مِن ، ذلك كقولِك صاحباك منهما ظريفٌ وكريمٌ .

٣ – مِنْهُمْ لُيُوثٌ لا تُرَامُ وبَعْضُهم مِمّا قَمَشْتَ وضمَّ حَبْلُ الحاطِبِ

يقول : من الرجال رجالٌ كالأسود عِزّةً وأَنَفَةً ، لا يُطلب اقتسارهم واهتضامُهم ، ومنهم متقاربون كالقُماش واللفائف ، جُمِعُوا على ما اتّفق من شىء إلى شىء . كأنّه لم يُقْنِعْه ذلك التشبيه وتلك القسمة ، فاستأنفهما على وجهٍ آخر . وقولُه « وبعضهم مما قَمَشْتَ » ينوب فيه ذكر البعض عن قوله « ومنهم » ، لأنّ مِن للتبعيض فاستغنى به . وقوله « وضمَّ حبلُ الحاطبِ » كقول الآخر :

* وكلُّهُمْ يَجْمَعُهُمْ بَيْتُ الأَدَمْ[2] *

قال الأصمعىّ : لأنّ بيتَ الأَدَم يجمع الجيِّد والردىء ، على تقارب بينهما ، ففيه من كل جِلْدٍ رُقْعَةٌ . وكذلك الحاطب يجمَعُ فى حبله[3] الجيّد والردىء ،

(١) البيت لمزرد ، كما فى اللسان (سحق ، قسا ، مأى) .
(٢) قبله فى اللسان (أدم) :
* الناس أخياف وشتّى فى الشيم *
(٣) فى الأصل : « صدره » ، صوابه فى م والتبريزى .

والرَّطب واليابس ، على تَدَانٍ بينهما . فإنْ قِيل : وما الفائدة فى إعادة التَّقسيم والتشبيه ؟ فالجواب أن يقال : كأنهُ صَنَّفهم(١) فى الأولى من حيث اختلفوا عنده فى الأعمال والأخلاق ، وعلى توهُّمِ تباعدٍ بينهم ، بدلالة قوله من الرِّجال أَسِنَّةٌ ومنهم مزنّدُون لا يُعْتَدُّ بحضورهم . وبين الصفتين تفاوتٌ عظيم ، وتباينٌ شديدٌ . وصَنَّفَهُم فى الأخرى من حيث اختلفوا فيها على توهُّم تقارُبٍ بينهم ؛ لأنّ فيمن يُقْمَشُ من لا يُبايِنُ المباينةَ الفاحشة ، ولا يُخالِفُ المخالفةَ المنكرة .

١٢٤

وقال آخر :

١ ــ أقولُ لنفسى حين خَوَّدَ رَأْلُها مكانَكِ لمَّا تُشْفِقِى حين مُشْفَقِ

يقال : خَوَّدَ رَأْلُه ، للمذعور المرتاع : والرَّأل . فَرخ النَّعام . وهذا مَثَلٌ. والتخويد : ضَرْبٌ من السَّيْر سريع . والتَّخويد والوَخْد والخَدْىُ متقاربةُ المعنى ، فى أنها تفيد ضروبًا من المشى ، ويُوصَفُ بجميعها النعام . ويقال فى هذا المعنى « زَفَّ رَأْلُه » ، لأن الزَّفيف ضربٌ من العَدْوِ سريعٌ أيضاً . وفى هذه الطريقةِ قولُهُم « طار طائره » . ويقولون : « هو أنفرُ من نَعَامٍ » ، و « أشْرَدُ من ظَلِيم » . ومعنى البيت : إنى أُثَبِّتُ نفسى عند ما يَبدَهُ من ذُعْرِ الحرب ، ويَفْجأ من روعة القتال ، فأخاطب نفسى إذا هَمَّت بالإحجام ، أو وُسْوِسَ إليها وجوبُ الانهزام : اَلزَمِى مكانَكِ لم تُذْعرِى وقت ذُعْرٍ . وقوله « مكانَكِ » أَمرٌ ، وهو موضوعٌ موضعَ الفعل الذى عَمِل فيه ، ومكتَفًى(٢) به عنه ، فهذا إيجابٌ . وقوله « لما تُشْفِقِى حين مُشْفَقٍ » تأنيسٌ ، أى لم تخافى وقتَ مخافةٍ .

(١) كذا فى م . وفى الأصل : « وصفهم » .
(٢) كذا فى م . وفى الأصل : « ومكتف » .

فهما كلامان . والإشفاق : الذُّعْرُ ، وقد يختلط بالنُّصْح ويتجرّد عنه . قال الله تعالى : ﴿ إنَّا كُنَّا قَبْلُ فى أَهْلِنا مُشْفِقِين ﴾ .

٢ — مكانَكِ حتى تَنْظُرِى عَمَّ تَنْجَلِى   عَمَايَةُ هذا العارضِ المتألِّقِ[1]

يقول : أستَأْنى وأترفَّقُ ، وأقول فى تلك الحالة ، تماسَكِى يا نَفْسُ واحفظى مكانَكِ إلى أن يتبين لكِ عن أىِّ شىء تنكشف لك ظلمةُ هذا العارض المتشقق بالبَرْق . والعارضُ ، أصلُه فى السَّحاب ، وهاهنا أراد به الجيش . وجعل التألُّق مثلاً للمَعان الأسلحة . ويقال ائتلق البَرْق أى تلألأ ، وتألَّق . والعَمَايةُ : الظلْمَة والهَبْوَة . ويروَى : « غَيَاية هذا العارض » وهى فى طريق العَمَاية لأنهما من الغَىِّ والعَمَى ، وقد تُوُسِّع فيهما . وإنما طلبَ من النَّفس الصَّبرَ إلى ذلك الوقت ، لأنَّ مَن ثَبَتَ فى الحرب إلى انكشاف الحال فيه فقد أعطاها حَقها .

١٢٥

وقال موسى بن جابر[2] :

١ — وقلت لزيدٍ لا تُتَرْتِرْ فإنّهمْ   يَرَوْنَ المَنَايا دُون قَتْلِكَ أو قَتْلِى[3]

التَّرترة : العَجَلة . وحكى الدُّرَيدِىُّ أنها كثرة الحركة[4] ، فهى كالتَّلْتَلة . ورُوِىَ الحديث : « تَلْتِلوهُ ومَزْمِزُوهُ » بالراء[5] واللام جميعاً . ويُرْوَى

(١) ذكر التبريزى أن بعد البيتين :

وكونى مع التالى سبيل محمد   وإن كذبت نفس المقصر فاصدقى
إذا قال سيف الله كروا عليهم   كررنا ولم نحفل بقول المعوق

(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٢٣ .

(٣) كذا فى الأصل . وفى م والتبريزى : « قلت لزيد » بالخرم .

(٤) انظر الجمهرة (٢ : ١٣) .

(٥) فى النسختين : « بالزاى » ، تحريف .

« لا تُبَرْبِرْ » ، والبَرْبَرَةُ : كثرة الكلام ، وكذلك الثَّرثرة بالثاء ، ورَجُلٌ ثرثارٌ . ويقال : ما أكثَرَ بَرْبَرتهم ، إذا ماجُوا فى الكلام . ومنه سُمِّىَ البَرْبَر : جِنْسٌ من المغارِبَةِ[1] ، وكذلك البَزْبَزَة بالزاى : كثرة الحركة . وقد رُوِىَ : « لا تُبَزْبِزْ » . ويقال ما أكثر بَزبزتهم ، ورجل بَزْبازٌ وبَزَابِزٌ ، إذا كان يكثُرُ حركاتُه ويخِفُّ[2] فيقول : لا تَعْجَلْ يا زَيْدُ ، أو لا تُكثِر كلامَكَ ولا تَضْطَرِبْ ، فإنَّ القومَ يَرَون الصبر على المنايا ويخِفُّ عليهم ويقلّ عندهم إذا ثبت فيه قَتْلُكَ أو قَتْلِي لهم[3] . وانتهَزُوا فى تحصيل أحدهما فُرَصهم . ويكونُ « يَرَوْنَ » فى هذا الوجْه من الرَّأى ، كما يقال فلانٌ يرَى فى دينِهِ أو فى مروّتِهِ كذا ، أى يتَّخِذه مَذْهَبًا ويدومُ عليه . ويجوز أن يريد يرَوْنَ المنايا : يُقَاسُون الشَّدَائد ، ويذوقون المنايا ، ولم يَصِلُوا بَعْدُ إلى قتْلِي أو قَتلِكَ . ويكون معنى « دون قَتْلِكَ » كما يقال « دُونَ هذا الأمر خَرْطُ القَتَاد » ، وكما قال بِشْرٌ :

* ومِنْ دُونِ لَيْلَى ذو بَحَارَ ومَنْوَرُ[4] *

ومعنى يَرَى كما يُقال لو عَلِمْتَ ماذا رأيتُ من فلانٍ ، يراد أىَّ شىء مارَسْتُ وكابَدت . والكلام فى المعنى الأول تصويرٌ لحال القوم فى عداوتهم ، ونَهْىٌ عن المعاجلة[5] مَعَهُم ، وبَعْثٌ على مصابرتهم ومحاذرتهم . وعلى المعنى الثانى يكون تثبيتاً لصاحبه وتشجيعا ، وتسكينا منه وتصبيراً ، فيكون مثل قَوْله :

---

(١) ومنه سمى البربر ، إلى هنا ساقط من م .

(٢) م : « إذا كان تكثر حركاته وتخف » .

(٣) أى إذا ثبت لهم . وكلمة « لهم » فى م نقط .

(٤) صدره كما فى معجم البلدان (٢ : ٦٥) :

* لليلى على بعد المزار تذكر *

وبحار فى النسختين بفتح الباء ، وهى لغة فيه نص عليها ياقوت ، وأورد لغة أخرى ، وهى كسر الباء . وقد جاء مصروفا فى م وممنوعا من الصرف فى الأصل .

(٥) كذا فى م . وفى الأصل : « المعالجة » ، تحريف .

* أقولُ لنفسي حين خَوَّدَ رَأْلُهَا[١] *

وكأن أبا تمامٍ تَصَوَّرَ هذا المعنى ، فلذلك ألحق الأبيات بمـا يليها .

٢ — فإنْ وَضَعُوا حَرْباً فَضَعْها وإن أبَوْا فَعُرْضَةُ عَضِّ الحَرْبِ مِثْلُكَ أو مِثْلِي

يقول : إن حَطُّوا الحرب أو اطَّرَحُوها ، وراموا المسالمة والمتارَكَةَ فيها ، فاتَّبِعْهُمْ فى ذلك واقْتَدِ بِهِمْ ، وإن أبَوْا إلا الشَّرَّ فالقَوِىُّ على عِضَاضِ الحَرْبِ والصَّبُور على لزامِهَا مِثْلُكَ أو مثلِى ، والمعنى : أنا وأنت . وهذا كما يقال : مثلُه لا يعْتَاض منه ، والمَعْنِى هو لا يُعْتَاضُ منه . ويقول : فلانٌ عُرْضَةُ الشَّرِّ ، إذا كان قوياً عليه .

٣ — وإنْ رَفَعُوا الحَرْبَ العَوانَ التى تَرَى فَشُبَّ وقُودَ الحَرْبِ بالحَطَبِ الجَزْلِ

جَعَل الرَّفْع فى مقابلة الوَضْع من البيت الأول ، والمعنى : إنْ هَيَّجُوها . والعَوَانُ : التى قُوتِلَ فيها مَرَّةً بعد أخرى ، فتقادَمَ وتطاول لَبْثُها ، واتَّصل هيجانُها ، واتَّسَعَ نَفَيانُها . وهذا على التَّشبيه بالعَوَان من النِّساء . فهو كما وصفها غيرُه — لَمَّا أراد ابتداءها وجِدَّتها — بأنَّها فَتَاةٌ وبِكْرٌ ، فقال :

الحَرْبُ أوّلَ ما تكونُ فُتَيَّةٌ تَسْعَى ببزَّتِها لِكُلِّ جَهُولِ[٢]

وقد استعملوا البِكْرَ والعَوانَ فى الحاجات أيضا ، فقال : هى بِكْرُ حَاجَاتى ، وحاجتى بِكْرٌ ، وحاجَتُكَ عَوَانٌ . يقول : وإن أجَّجُوا نار الحَرْبِ العَوَان التى تشاهِدُ واستجاشُوا لها ، وأثاروا كوامِنَهَا ، فاستَجِشْ أنْتَ أيضاً وأوْقِدْ نارَهَا بالحطبِ الغليظ الجزْل .

(١) البيت الأول من الحماسية السابقة . وقد روى فى م كاملا .
(٢) لعمرو بن معديكرب . انظر شروح سقط الزند ١٦٧٨ .

١٢٦

وقال أيضاً :

١ — إذا ذُكِرَ ابنا العَنْبَرِيَّةِ لم تَضِقْ ذِراعى وأَلْقَى باسْتِهِ مَنْ أفاخِرُ[1]

قوله : « لم تَضِقْ ذراعى » مَثَلٌ ، ويقال ذَرْعِى . قال الخليل : الذِّراعُ اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يُسَمَّى يَدًا من الرُّوحانيين[2] . يقول : إذا ذُكِرَ هذان الرَّجلان من آبائى اتَّسَعَ نِطاق افتخارى ، ورَحُبَ مَجالى وباعِى ، ولم تُعْيِنِى غَلَبَةُ من أساجِله ، ولم يَقْعُدْ بى ذكرهما عن الارتقاء فى الفخر إلى ما لا يَطْلُعُ له مَن أُوازِنُهُ وأُكايِلُه ، حتى ألقاه باستِهِ دون وَجْهِهِ لتولِّيه وإعراضِه . وذِكْرُ الاست تقبيحٌ لفعله عند النُّكوصِ والانهزام ، وتشنيعٌ عليه فى التولِّى والإدْبار .

٢ — هِلالانِ حَمَّالانِ فى كُلِّ شَتْوَةٍ من الثِّقْلِ ما لا تستطيعُ الأباعِرُ

يقول : هما فى الاشتهار واعتلاء الشَّأن ، واستضاءة الناس بنورهما ، والانتفاع بمكانهما ، بمنزلة هلالَيْن ؛ ويتكلَّفانِ عند كُلِّ جَدْبٍ ومَحْلٍ ، من الأثقال والأعباء ، ما لو صارت أجْرامًا لَعَجزَ عن النهوض بها وتحمُّلِها البُعْرانُ . فإن قيل : إذا كان قَصْدُه فى تَحَمُّل الأثقال إلى قِرَى الضَّيف ، ونَحْر الجزور وقِسْمَتِهَا فى المَيْسِرِ ، والصَّبر على المُؤَنِ ، والنُّهوض بالكُلَفِ ، فكيف قال حَمَّالَانِ من الثِّقَل ما لا يستطيع الأباعِرُ ؟ وكيف مَثَّلَ ما يَثقل على القُلوب من الغَرامات والحقوق ، بالأوقار التى تثقُل على الظُّهور ؟ قلتَ : إنّما يريدُ أنَّ تلك المُؤَن والتكاليفَ التى يلتزمها ، ويَسْعَى بها وفيها ، لو جُسِّمَتْ ثم حُمِلَتْ ، لكانت

(١) فى الأصل : «من يفاخر» ، وصواب الرواية المتساوق مع التفسير من م والتبريزى .

(٢) فى اللسان (ذرع ٤٤٨) : « من الروحانيين ذوى الأبدان » .

الجِمالُ لا تستقلُّ بها ، ولا تَقْوَى عليها[١] ، فهذا وَجْهٌ . ويجوز أن يكون لمتاقال حَمّالَانِ فى كل شَتْوَةٍ من الثقْل ، جَعَلَ لِفقَهُ مالا تستطيع الأباعر ، إذْ كانت الجِمَالُ وأشباهُها هى التى لحمل الأثقال خلِقَتْ[٢] ، وبها اشتهرتْ ، وليكون فى اللفظ توافُقٌ ، مع الأمن من عارضِ الالتباس . ويكون هذا كما قال غيره[٣] :

ألا هَلَكَ امرؤٌ ظَلَّتْ عليـــه ... بِجَنْبِ عُنَيْزَةٍ بَقَرٌ هُجُـــودُ

سَـــمِعْنَ بمَوْتِهِ فَظَلِلْنَ نَوْحًا ... قِيَامًا ما يَحِلُّ لهنَّ عُودُ

ألا ترى أنَّه لمّا كان قد كَنَى عن النساء بقوله « بقرٌ هجود » عَبَّرَ عن إمساكهنّ عن الطعام تحزُّنا بقوله « ما يَحِلُّ لهن عود » إذْ كانت البَقَرُ وما يجانسها من البهائم تعتلف العُود وما يكون كالعُودِ . وليس ذلك إلّا لِطَلَبِ الموافقة فى اللفظ ، مع الأمْنِ من اللَّبْس . فأمّا قولُ لَبِيدٍ :

فإذا جُـــوزيتَ قَرْضًا فاجْزِهِ ... إنمـا يَجزِى الفَتى ليس الجَمَلْ

فمعناه إنّما يَعْرِفُ النِّعَمَ وما يَجب لهـا من شُكْرِ المُنعِمِ أربابُ العقول وذوو التَّمييز ، لا البهائم . فمتى أُزِلَّت إليْكَ نِعْمَةٌ فكُنْ من المجازاة عليها بمَرصَدٍ ، فإنّ معرفةَ ذلك والأخذَ به من تمـام العقل ، ويوجبهُ المميِّزون وأولو الحِجَى ، لا غيرهُم ممّا لا تمييز له ، ولا معرفة بذلك عنده . وذكرَ الجَمَل مُكتفِيًا

(١) م : « يحملها » .

قال التبريزى : « هذا قول المرزوقى . وقال النمرى : أى هذان الرجلان يحملان من أعباء المغارم وأثقال الصنائع ما لو أنه يوزن لم تستطع حمله الإبل ، وهى أثقل الحيوان حملا ، وأكثره صبرا . قال أبو العلاء : قد تأول النمرى له معنى قد يجوز مثله ولكنه بعيد ، وإنما ينبغى أن يحمل الشىء على ما كثر ، وذلك أنه ذهب إلى أن هذين الممدوحين يحملان من قرى الأضياف ومن نحر الإبل ما لا تستطيعه الأباعر ، أى إنها لا تقوى عليه لأنه يهلكها » .

(٢) كذا فى م . وفى الأصل : « هى التى تحمل الأثقال لما خلقت » .

(٣) هو امرأة من بنى حنيفة ترثى يزيد بن عبد الله بن عمرو الحنفى . المفضليات (٢ : ٧٢) .

وإن كان القَصْدُ جِنْسَه أو أجناسَ مِثْله . وفى طريقةِ ما نحن فيه قول أبى تمّام إلّا أنّه فَصَلَ بين المنزلتين ، وهو :

والصَّبْرُ بالأرْوَاحِ يُعْرَف فَضْلُهُ ‏ صَــبْرُ الملوك وليس بالأجسامِ

١٢٧

وقال(١) :

١ — أَلَمْ تَرَيَا أَنِّى حَمَيْتُ حَقِيقَتِى ‏ وبَاشَرْتُ حَدَّ المَوْتِ والمَوْتُ دُونَهَا

الحقيقة : الخصلة التى يحِقُّ على الإنسان حمايَتُهَا . وقال الخليل : الحقيقة : ما يصير إليه حَقُّ الأمر ووجوبُه . وقوله « أَلَمْ تَرَيَا » تقريرٌ للغير على ما كان من بلائه . يقول : ألم تَعلَمَا أنّى ذَبَبْتُ عَمّا يَجِبُ علىَّ الذَّبُّ عنه ، وباشرت الموت بنفسى ، والموتُ دونَ حماية الحقيقة . يريد أنَّ المحافظةَ على الشرَفِ أشقُّ من اقتحامِ الموتِ والاستقتال ، لأنه يَحتاج أن يُصْبَرَ فيه من المكارِه على ما لا يُحَدُّ ولا يُحْصَرُ ، ويُتَكلَّفُ له من المشاقِّ ما لا يُعَدُّ ولا يُضبط . فهذا وجْه . والضَّمير من قوله « دُونَهَا » يرجع إلى ما دَلَّ عليه حَمَيْتُ من الحِماية والحِفْظِ . ويجوز أن يكون قولُه « والموت دونها » أى قريبٌ من الحقيقة التى دفَعْتُ عنها أو من الحماية التى التزمْتُها ، وحائلٌ بينى وبينَها ، ويكون هذا بيانًا لكيفية مباشرَته لحدِّ الموت ومشافهَته إيّاه على سَمْتِ القُرْب ، والواو من قولِهِ « والموتُ » واو الحال . وإذا جَعَلتَ المعنى الأول فيكون الكلامُ بيانًا لتفضيل حماية الحقائق على مباشرةِ المَنَايَا .

---

(١) كذا فى م . وعند التبريزى : « وقال أيضاً » . وعبارة م والتبريزى تدل على أن الحماسية لموسى بن جابر . وفى الأصل : « وقال آخر » .

٢— وجُدْتُ بِنَفْسٍ لا يُجادُ بِمثْلِهَا وقُلْتُ اطمئِنّى حين ساءتْ ظُنُونُها

يصف ابتذالَهُ نفسَه فيما تعنّاه على حاجَةٍ من العشيرة إلى بقائها ، وحُلولها من القلوب محلّ ما يُضَنُّ بها ، فيوجِبُ صيانتَها . يقول : تسخَّيتُ بنفسٍ لا يُتَسَخَّى بمثلِها كرمًا وعِزّةً ، وشَرَفًا وأُبّهَةً ، وقلْتُ تثبيتًا لها : اسكُنِي واصبِرِى عند استيلاء الرُّعب عليها ، واختلاف الظُّنون بها . وهذه إشارةٌ إلى ما يلحق النّفسَ فى الأوّل من الالتقاء[1] ، للوهلة العارضة ، والفجعة المروّعة . ومِثلُه :

أقولُ لنفسى حين خَوَّدَ رَأْلُها مكانَكِ لَمَّا تُشْفَقِى حين مُشْفَقِ[2]

٣— وما خَيْرُ مَالٍ لا يَقِى الذَّمَّ رَبَّهُ ونَفْسِ امرِئٍ فى حَقِّهَا لا يُهِينُها[3]

لفظُه لفْظ الاستفهام ، والمعنى معنى الإنكار الذى يَجرى مَجْرَى النَّفْى . يقول : أىُّ خَيْرٍ فى مالٍ لا يصون صاحبَهُ من ذمٍّ وعارٍ ، ولا يحميه من لُحُوقِ تَهْجِينٍ وشَنَارٍ ؟ وأى شىء غَنَاء نَفْسٍ لا يبتذلها صاحبُها فى استيفاء حقوقها ، ولا يُتعِبُها فى الدِّفاع دون حقائقها ؟ وهذا الكلامُ تبرُّؤٌ من التحشّد[4] بما كان منه من إنفاق المالِ ، وابتذال النَّفْسِ . ومثلُه قول الآخر :

ويَبتَذِلُ النَّفْسَ المصونَةَ طائعًا إذا ما رَأَى حَقًّا عليه ابتذالَها[5]

(١) م : « فى أول الالتقاء » .
(٢) انظر الحماسية ١٢٤ .
(٣) التبريزى : « بنفس امرئ » .
(٤) هذا ما فى م . وفى الأصل : « التحمل » ونراه تحريفا .
(٥) م : « المصونة نفسه » ، وقد سبق البيت فى ص ١٤١ برواية م .

١٢٨

وقال :

١ — ذَهَبْتُمْ فَلُذْتُمْ بالأميرِ وقُلْتُمُ ... تَرَكْنا أَحادِيثًا ولَحْمًا مُوَضَّعَا(١)

يخاطِبُ قومَه ويلومُهم على ما كان منهم من القعود عن نُصْرَته ، والنُّكوص عن مشايعتِه ، واعتلالهم عند اعتذارِهم من ذلك بالمعاذير المَشُوبَةِ بالكذِب ، التجأْتُم إلى الأمير وقُلْتُم تَرَكْنا قوْمَنا يقولون ولا يَفعلون ، وعند تَسَلُّط الأعداء عليهم لا يمتنعون منهم ولا يدافعون ، فهم كاللحم المُبَضَّع على خِوان الجزّار ، تمتدّ الأيدى على توضُّعِه إليه ، وتتعلّق الأطماع بتناوله وأخذه(٢) . ويكون هذا كقول الآخَر :

رَضُوا بصفاتِ ما عَدِمُوه جَهْلاً ... وحُسْنِ القَوْلِ من حُسْنِ الفِعَالِ

هذا إذا رَوَيْتَ « تَرَكْنا » بفتح التاء ، وإن رَوَيْتَ بضم التاء كان المعنى : ادّعيتم علينا فيما نابنَا ، وعندما هَمَمْتُم به من مفارقتنا وخِذْلاننا ، أنَّا تُرِكْنا أحدوثةً للناسِ قبيحةً ، يقومون ويقعدون بذِكْرِنا ، وأذلّاء متضمين لا دِفاعَ بنا ، ولا امتناع من مَذَمَّةٍ فى طباعِنَا . والموضَّع : المُقطَّع المُفرَّق فى مواضع(٣) .

٢ — فمَا زادَنِى إلاّ سَنَاءً وَرِفْعَةً ... وما زادَكُم فى الناسِ إلا تَخَضُّعَا

يقول : لم يَزِدنى فِعلكم وقولُكم عند اعتلالكم فى مفارقتكم إلاّ ارتفاعَ

(١) أشير فى هامش نسخة الأصل إلى أنه فى نسخة أخرى : « مبضّعا » . والمبضع : المقطع
(٢) كذا فى م . وفى الأصل : « تمتد الأيدى إليها ، وتتعلق الأطماع بتناولها وأخذها »
(٣) كذا فى م . وفى الأصل : « والمبضع : المقطع المفرق » .

مَحَلٍّ ، وسُمُوِّ حالٍ ، وجَلالةَ قَدْرٍ ، ولم يَزِدْكم فى الناس إلا تراجُعًا وتذلُّلاً ، وتصوُّرًا بالقبيح وتسقُّطًا ، لأنَّ مَن لا يَصْلُح لعشيرته وأقْرَبيه ، وفصيلته وذَويه ، لم يَسْكُن إليه البعيد الذى يُؤْوِيه ، والمُسْتَعان به لما يرجّيه .

٣— فَمَا نفَرَتْ جِنِّى ولا فُلَّ مِبْرَدِى   ولا أَصْبَحَتْ طَيْرِى من الخَوْفِ وُقَّعَا

وهذا يحتمل وجوها : يجوز أن يريد لم يَنخزل — لما أتيتم وأخبرتم — أصحابى الذين هم كالجن ، ولا فُلّ لسانى الذى هو كالمِبْرَدِ ، ولا ذُعِرَ جأشى فصار طَيْرى واقعةً . ويكون الأوّل كقول الآخر :

* عَلَيْهِنَّ فِتْيانٌ كَجِنَّةِ عَبْقَرٍ *

وتشبيه اللِّسان بالْمِبْرَد وحَدِّ السيف أكثرُ من أن يُحتاجَ له إلى شاهدٍ . وقد قيل فى « نفرَتْ جِنّى » إنه مَثَلٌ لقَلَتاته وبَدَراته ، ويكون هذا كما وصف امرؤ القيس فرسَه بالمرح وحِدَّةِ القلب فقال :

* به طائفٌ من جِنَّةٍ غَيْرِ مُعْقِبِ *

وإنَّ ذِكْرَهُ الْمِبْرَدَ مَثَلٌ لصلاحِه ، وإنّ ذِكرَهُ الطير مثلٌ لصيته وذِكره الذاهبِ فى الناس . ويجوز فى هذا الوجه أن يريد به ذكاءه ونشاطه وشهامتَه ، فقد قيل فى ضِدّه : هو ساكِنُ الطائر ، وكأنّ على رءوسهم الطَّير . ويجوز أن يشير بالجِنِّ إلى ما يدّعيه الشُّعراء من أنّ لكلِّ واحدٍ منهم تابعًا من الجن يستعين به فيما يَحزُبُه ، ويُجعلُ المُرادَ بالْمِبْرَد فى هذا الوجه اللسان لا غير . ويجوز أن يريد بالطَّير سَرَاياه وطوائفَ خيْلِه التى يطيِّرُها للغارات والارتباء ، وتجسُّس[1] الأخبار وغيرِها .

(١) م : « وتحسس » بالحاء المهملة ، وكلاهما بمعنى واحد ، وهو البحث .

١٢٩

وقال حُرَيْث بن جَابِر[١] :

١ ــ لَعَمْرُكَ ما أنْصَفْتَنِي حِينَ سُمْتَنِي هَوَاكَ مع المَوْلَى وأنْ لا هَوَى لِيَا

العَمْرُ والعُمْر لغتان ، ولا يُستعمل فى القَسَم إلاّ بفتح العين . وأنْصَفْتَنِي : أعطَيْتَنِي النَّصَفَةَ والنِّصْفَ . ويقال انْتَصَفْتُ من فُلَانٍ ، أى استوفَيْتُ حَقِّى منه كاملاً حتَّى صرت أنا وهو على النِّصف سواءً . ومعنى سُمْتَنِي : جَشَّمْتَنى خُطّةً من الشَّرِّ . ويقال أيضا : سَام فُلَانٌ فُلَانًا ، إذا داوَمَ عليه وألحَّ فى شىء . يقول : وبقائك ما أعطيتَنى النَّصَفَةَ حين عَرَضْتَ علىّ الرِّضا بأن يكون لكَ هَوًى مع مَوْلَاكَ ، حتَّى تنتقم لَهُ وتَذُبَّ دونه ، وألاَّ يكون لِى هَوًى مع مَوْلَاىَ وأُخَلِّىَ بينه وبين أعدائه . قولُهُ « وأن لا هَوى لِيَا » أراد : وأنَّهُ لا هَوَى لِيَا .

٢ ــ إذا ظُلِمَ المَوْلَى فَزِعْتُ لِظُلْمِهِ فَحَرَّكَ أحشائِى وهَرَّتْ كلابِيا

يُبَيِّنُ كيفَ يتعَصَّبُ لمَوَاليه ، وكيف يأنَفُ من اهتضام يَلْحَقُهُمْ ، يقول : إذا اهتُضِم حليفٌ لى أو ابنُ عَمٍّ ، ذُعِرْتُ لامتهانه واهتضامه ، فاضطربَ أحشائى ونبحَتْ كلابى . والمعنى : لم أعْتَدِ المضيمة فيمن يتَّصِلُ بِى ، وينسبَّبُ إلىّ ، فإذا اتفق وقُوعُها صارت كلابِى تَنْبحُ ، وأُخذَتْ نفسى تَقْلَق . فيجوز أن يكون تحركتْ أحشاؤه لوَجيبِ قلبه وخفقانه ، ونبحَتْ كلابُه لتهيُّئِه للانتقام ، وتدجُّجه فى السِّلاح له ، وتجمُّع أصحابه وإعدادِهِم الخَيْل والرَّجْل لإغاثته . والكلبُ يُنكِرُ أصحابَه إذا رآهم بهذه الأحوال فينبحُ . أنشدَ الأصمعى فى مثلِهِ :

---

(١) التبريزى : « وقال حريث بن جابر بن سرى بن مسلمة بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع بن ثعلبة بن الدئل بن حنيفة بن لجيم بن صعب بن على بن بكر بن وائل » .

أُناسٌ إذا ما أنكَرَ الكلبُ أهْلَهُ حَمَوْا جارَهُمْ من كل شنعاء مُظْلِمِ[١]

ووجهٌ آخر ، وهو أن يكون تحرَّكت أحشاؤه لاضطرابه فى جَمْع من يَجْمَع ، وإعدادِ ما يُعِدُّ ، والمتسرِّع فى الشىء يلحقُه ذلك ، ومثله .

أشارَتْ له الحرْبُ العَوَانُ فجاءها يُقعْقِعُ بالأقراب أوّلَ من أتَى

فقعقعة الأقرابِ كتحرُّك الأحشاء وأكثرُ . ويكون معنى فَزِعْتُ أغَثْتُ على هذا . ومثلُه قوله :

* حَلَلْنَا الكَثِيبَ من زَرُودَ لِنفزَعَا[٢] *

أى لنُغيث . ويجوز أن يكون أرَاد بالكلام الأصحابَ ، ويكون مثل قول الهُذَلِىّ[٣] :

ولا هَرَّها كَلبِى لِيَبْعُد نَفْرُها ولو نَبَحَتْنِى بالشَّكَاةِ كِلاَبُهَا

فقد فُسِّرَ فى بعض الوجوه على هذا . وكذلك قول تأبّط شرًّا :

* لَيْلَةَ صَاحُوا وأغرَوْا بِى كلابَهُم[٤] *

فُسِّرَ على ذلك أيضاً.

١٣٠

وقال البَعيثُ بن حُرَيْث[٥] :

١ — خَيَالٌ لأمِّ السَّلْسَبِيل ودُونَهَا مَسِيرَةُ شَهْرٍ للبريدِ المُذَبْذَبِ

(١) روى فى الحيوان (٢ : ٧) مع نسبته إلى طفيل الغنوى : « شنعاء مظلع » . وفى الأمالى (١ : ٥٥) : « مضلع » ، وقال : « ويروى مفظع » .

(٢) للكلحبة العرنى فى المفضليات (١ : ٣٠) . وصدره :

* وقلت لكأس ألجميها فإنما *

(٣) هو أبو ذؤيب . انظر ديوان الهذليين (١ : ٨٠) .

(٤) عجزه فى المفضليات (١ : ٢٦) : * بالعيكتين لدى معدى ابن براق *

(٥) هو البعيث الحنفى ، كما فى المؤتلف ٥٦ . وهو البعيث بن حريث بن جابر بن سرى بن مسلمة بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع بن ثعلبة بن الدئل بن حنيفة بن لجيم . وقد سبق ترجمة والده حريث بن جابر فى الحماسية السابقة .

خبر الابتداء محذوف ، كأنّه قال : خَيالٌ لهذه المرأة أتانى أو زارنى ، وبينى وبينها مسيرة شهرٍ للبَريد لِلُسْرِعِ المتعجِّل . كأنّه استَطْرَفَ من الخيال ما كان يستطرِفُهُ من المرأة لو زارتْ . وقوله « البريد الُمذَبْذَب » كما يُقالُ للسائق الحاثِّ طَارِدٌ . ألا تَرَى قولَه يصِفُ فَرَسًا :

* ويَسْبِقُ مطروداً ويلْحَقُ طاردا *

لأنَّ المذبذَبَ والُمذبَّبَ الأصل فيهما واحدٌ ، يَرْجِعُ إلى الطَّرْدِ والاستعجال . والُمسْرِع الُمسْتَعْجِل يتذبذَبُ ، أى يضطرب . فأمّا قولُه تعالى : ﴿ مُذَبذَبِينَ بيْنَ ذلك ﴾ فهو من صفة المنافقين ، ومعناه مطرودين بين المؤمنين والكافرين ، فليسوا بمقبولين عند واحدة من الفرقتين . ومثلُ ذَبَّ وذَبْذَبَ ، كَبَّ وكَبْكَبَ . فإن قيل : لم نَكَّر فقال خيالٌ لأمِّ السلسبيل ؟ قلتَ : يجوز أن يكونَ كان يرى خَيالَهَا على هيئاتٍ مختلفة ، فاعتقَدَ لاختلاف هيئته أنّه عِدَّةُ خَيَال ، فلذلك نكَّرَهُ ، كأنه قَصَدَ إلى واحدٍ منها ، ومثله :

خَيَالٌ لزَينبَ قَدْ هَاجَ لِي   نُكَاسًا من الحبِّ بعد اندِمَالِ(١)

٢ – فَقُلْتُ لَها أَهْلاً وَسهلاً وَمرْحَبًا   فرَدَّتْ بتأْهيلٍ وسَهْلٍ وَمَرْحَبِ

حكى ما دارَ بينه وبين الخيالِ . والخيالُ يُذَكَّرُ ويُؤَنَّثُ . ونبّه بكلامِهِ على أنّهُ أظهر لها قبولاً حَسَنًا ، وبِشْرًا وطَلَاقَةً ، فِعْلَ المتشوِّفِ لها ، المتشوِّقِ إلى لقائها ، وأنه تلقاها بالترحيب والتأهيل ساعة طلوعها ، فأجابته بمثل ذلك . وانتَصَبَ أَهْلاً بفِعْلٍ مُضْمرٍ كأنّه قال أتَيْتَ أَهْلاً لاَ غُرَباء ، وَسَهلاً مِنَ المنازِلِ لا حَزْنًا ، ورَحْبًا من الأماكن لا ضَيِّقًا : والتأهيل : مصدر أَهَّلْتُهُ أى قلتُ له أهْلاً . وكان يجب أن يقول فردّت بتأهيل وتسهيل وترحيب ، لو أتى

(١) لأمية بن أبي عائذ فى ديوان الهذليين (٢ : ١٧٣) برواية : « خيال لجعدة » .

بالكلام على حدٍّ واحدٍ ، لكنَّه أتى فى بعضه بحكاية اللفظ ، وفى بعضه ببناء الأخبار . وقال سيبويه : إذا قال الرّادُّ وبك أهْلا ، فإنَّما يقول : أنت عندى بمنزلة من يقال له هذا لو جئْتنِي . وإنما قال هذا لأنَّ الحال لا تقتضى من الزّائر أن يُصَادِفَ الْمَزُورَ عندَهُ ذلك ، فحمل الكلامَ — وقد اعتيد فيه ما ذَكَرَهُ — على أنه يُرَادُ لو جئتنى لكنتَ بهذه المنزلةِ .

٥— مَعَاذَ الإِلٰهِ أن تَكُونَ كظَبْيَةٍ   ولا دُمْيَةٍ ولا عَقِيلَةِ رَبْرَبِ

معاذَ انتَصَبَ على المصدر . والمعنى أستعيذُ بالله أو أعوذ به معاذًا . كأنه أنِفَ وصار يَرْبأ بصديقته أن تكون فى الحُسْنِ بحيث تشبَّهُ بالظَّبْيِ أو الظبْيَةِ أو بالصورة المنقوشةِ ، أو بكريمةٍ من بَقَرِ الوَحْشِ ، إذ كانت هذه الأشياء عنده دونَها ، وقاصِرَةً عن رُتْبَتِها . وقد سَلَكَ من المتقدمين امرؤ القيس هذه الطريقة فقال :

كأنَّ دُمَى سَقْفٍ على ظَهْرِ مَرْمَرٍ   كسا مُزْبِدَ السَّاجوم وَشْيًا مُصَوَّرَا[1]
غرائرُ فى كِنٍّ وصَوْنٍ ونَعْمَةٍ   يُحَلَّيْنَ ياقوتًا ودُرًّا مُفَقَّـــرا

فشبَّهَ الدُّمَى بالنِّساء لا النِّساء بالدُّمى . ومما يستحسن من هذه الطريقة قول أبى تمـام :

كأنمـا جَادَ مَغْنَاهُ فَغَـيَّرَهُ   دُمُوعُنَا يَوْمَ بانوا وهى تَنْهَمِلُ

لأنَّه شَبَّهَ الأمطارَ المغيِّرَةَ لرُسُومِ الدِّيار بدموع العُشَّاقِ . فى إثْرِ الأحْبَابِ يومَ الفِراق . والعقيلة : الكريمة من النِّساء [والدُّرِّ[2]] وكلِّ شيء . والرَّبْرَبُ : القطيع من البقر .

(١) مزبد الساجوم ، مبيض لها فى نسخة الأصل ، وإثباتهما من شرح ديوان امرئ القيس ٩٢ — ٩٣ . والساجوم : اسم واد . والمزبد : الذى علاه الزبد . وفى م : « مزبد الساجور » ، تحريف .

(٢) هذه من م .

٤ ــ ولـكنّها زادَتْ على الْحُسْنِ كُلِّهِ كَمالا ومِن طِيبٍ على كلِّ طَيِّبِ

يقال : زدتُه فزاد وازداد جميعاً . وكَمالاً ينتصب على التمييز ، والمعنى أنها يزيد حُسْنُها على كلِّ حُسْنٍ كَمالاً ، لأنَّه لا حُسْنَ إلا وتدخُلُه نَقيصَةٌ ، سِوَى حسنِها . وكذلك كلُّ الطَّيِّب يتخلّله خَطيطة إلاّ طِيبَها . و « من طِيبٍ » أى وزادَتْ من طيبها على كلِّ طَيِّبٍ طيباً . والغَرَض أن يبيِّنَ لم أنكر لها[1] تشبيهها بغيرها ، فقال : هى تترفَّع عن ذلك : إذْ كانت جامعةً للمحاسِن ، مستحِقَّةً للوَصْفِ بالـكمال ، وإذْ كان كل واحدٍ من تلك الأشياء استبَدَّ بصفَةٍ دون صِفَةٍ ، ويَتفرَّدُ بنوعٍ دون نوع .

٥ ــ وإنَّ مَسِيرِى فى البِلادِ ومَنْزِلِى لَبِالمنزِلِ الأقْصى إذا لم أقَرَّبِ

يقول : مكانى الذى أسير فيه من البلاد ، وموضعى الذى أنزل فيه ، لَأَبْعَدُ المنازل ، وأوضع المساير ، إذا لم يلحقْنى فيها تقريبٌ وتعظيم . وقولُه « أقرَّب » بمعنى أُكرَّم وأُدْنى ، على طريق الإعظام . وليس يريد تقريب[2] المسافة به . ويجوز أن يكون المعنى إذا لم أُقرَّب كنت بمنزلة المطرودِ المنفِىّ ، وإن كنت مقيما دانياً . وكان الواجب أن يقول لبالمَنْزِلِ والمسير ؛ فاكتفَى بأحدهما . وآثَرَ المنزلَ بالذِّكر لأنّ النّزول لا يكون إلا بعد السير . ودَلَّ بهذا الكلام على أنّه لا يرْضَى فى متَصرَّفاته إلاّ بما يَقْضِى بتبجيله ، ويُفضى إلى اصطفائه والرفع منه ؛ وأنّه لا يصبر على الهوان والجفاء حيثُ سار ونَزَلَ ، بل يَطْلُبُ إكرامَهُ وإلّا انتقل وتَحوَّل .

٦ ــ ولَسْتُ وإن قُرِّبْتُ يَوْمًا ببائعٍ خَلَاقِى ولا قومى ابتغاءَ التَّحبُّبِ

---

(١) كلمة « لها » ليست فى م .

(٢) م : « تقليل » .

يقول : لستُ وإن أُدنيت وبُجِّلتُ ببائع نصيبي من شَرَفي ، وموضعي[1] من عشيرتي ، طلبًا للتحبُّب إلى من أجاورُهُ وأعاشِرُهُ ، أو تهالكا في تعليق الطَّمع بمن أرجوه وآمُلُه . والخَلاقُ : الحظُّ والنَّصيب من الصّلاح . ويقال : ما لفُلانٍ خَلاقٌ ، إذا لم يكن له رغْبةٌ في الاستصلاح واكتساب الخير . وانتصب « ابتغاءَ التَّحَبُّبِ » على أنه مفعولٌ له .

٧ — وَيَعْتَدُّهُ قومٌ كثير تِجارَةً ... ويَمنعني من ذَاكَ دِيني ومَنْصِبي

يقول : وَيَعُدُّ ما تبرَّأتُ منه وأنِفْتُ من فعله كثيرٌ من الناس تجارةً رابحة ، وصفقةً مفيدة نافِعَةً ، وأنا يدفعني عنه ويزهِّدني فيه شرفي وديانتي . وهذا القول يجوز أن يكون تنزيها لنفسه ، وتزكية لفَعَالِهِ وخُلُقه فقط ، وأن يكون القصد منه التعريض بغيره . وهذه الأبيات وإن كان في جملتها[2] ما ليس من الباب فإنّه كرِهَ تبديدها لسلامتها من العَابِ ، ووفورِ حظِّها من الانتخاب .

٨ — دَعَاني يزيدٌ بعد ما ساء ظَنُّهُ ... وعَبْسٌ وقد كانا على حَدِّ مَنْكَبِ

ما قَدَّمَهُ تَوَصُّلٌ إلى بيان مراعاته أمْرَ العشيرة ، والتعطُّفَ على القريب وقتَ الحاجة ، والتمسُّكَ بما يوجبه الكَرَمُ والحرِّية . يقول : دعاني هذا الرجلُ وصاحبُه مستغيثَين ، بعد سوء ظنّه بعشيرته وبي لما أسْلَفَ من الشرِّ ، وقَدَّمَ من العُقوق والإيذاء ، وقد كانا أشرَفا على حَدِّ الهلاك . هذا إذا رويْتَ بفتح الكاف مَنْكَب ، والمعنى : شافَهَا حَدَّ الشرِّ وحَرْفَهُ ، ولا يأمنان اقتحامَهُ وتوسُّطَه . ويقال أصابَهُ نَكْبٌ من الدَّهرِ ومَنْكَبٌ ونَكْبَةٌ ونُكُوبٌ كثيرةٌ ، ومنه قيل حافرٌ نَكِيبٌ ومنكوبٌ ، إذا أثَّرَ فيه حجرٌ أو غيره .

---

(١) م : « أو موضعي » .

(٢) كذا في م . وفي الأصل : « من جملتها » .

ويروَى « على حَدِّ مَنْكِبِ » بكسر الكاف ، والمعنى : كانا مُهاجِرَينِ لى . يقال : فلانٌ معى على حَدِّ مَنْكِبٍ ، أى كلما رآنى ٱلتوَى ولم يتلقنى بوجهه ، وتنكَّبَ عنِّى ؛ أى اجْتَنَبَنى . والمَنكِبُ من كلِّ شىء : جانِبُه وناحيَتُه . ومثله قولُهم : فلانٌ يلقانى على حَرْفٍ ؛ وهو منحرفٌ عنى ومتحرِّفٌ . ويجوز أن يريد بقوله « بعد ما ساء ظنُّه » بعد تَسَلُّط اليأس والقنوط من الحياة عليه .

٩ — وقد عَلِما أنَّ العشيرَةَ كلَّها سِوَى مَحْضَرِى من خاذِلِينَ وغُيَّبِ

دَلَّ بهذا الكلام على الضرورة الداعية إلى الاستعانة به ، والاستظهار بدعوته وإجابته . يقول : استغاثا بى متيقِّنَين أنَّ كلَّ عشيرتهما إذا لم أحْضُرْ من بين شاهدٍ لا يَنْصُر ، وغائبٍ لا يَحضُر وأنّ الكفاية لا توجد إلاّ عندى ، والنُّصرَة لما لا تَحْصُل إلاّ بسعْيى . وقولُه « من خاذلين وغُيَّبِ » أراد ومِنْ بين غُيَّبٍ ، فاكتفى بمِن الأوّل عن الثانى ، وقد مرّ القول فى مثله مشروحًا . ومعنى سِوَى هاهنا معنى بَدَلٍ ومكانٍ . وذكر المحضَر والمراد النَّفْس ؛ كأنه قال : وقد علما أنّ العشيرة كلَّها بدلاً منِّى ومكانى ، من خاذِلٍ وغائبٍ .

١٠ — فكُنْتُ أنا الحامِى حَقِيقَةَ وائلٍ كما كانَ يَحْمى عن حَقائقِها أَبِى

يقول : أعَنْتُهما على ضعف رجائهما ، وتسلّط الظنون السيِّئة عليهما ، جاريًا على الغاية الموروثة عن أسلافى ، ومقتديًا فى الذَّبِّ عن العشيرة ، والمواظبة على حماية الحقيقة ، بآبائى . ويقال : حَميت الحقيقة وحَمَيْتُ عن الحقيقة ، وهو يَحْمِى عليه ويُحامِى عليه .

١٣١

وقال المُثَلَّم بن رِيَاح(١) :

١ ــ مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّي سِنَانًا رِسَالَةً وَشِجْنَةَ أَنْ قُومَا خُذَا الحَقَّ أودَعَا

يقول : مَن يؤدِّى عنى رسالةً إلى هذين الرجلين ، بأن ارضَيَا الحقَّ وقومَا واستوفياه ، أو اتركاه فالكما غيرُه وإن تسخَّطْتُمَاهُ . وهذا تَوَعُّدٌ واستهانَةٌ . وقولُه « أنْ قُومَا » أن مخفَّفَة من أن الثقيلة والمراد : أنَّهُ قُومَا . ومثله قولُهُمْ فى : أمَا أنْ جزاكَ الله خيراً ، ويجوز أن يكون أن المفسِّرة ، كأنه فَسَّرَ الرِّسالة بقُومَا خُذَا الحقَّ . ومثلُه قولُهُمْ : أتفخَرُ عَلَيَّ أَنْ أصحابُكَ أكثر من أصحابى . وأن هذه تجرى مَجْرى أىْ فى أنَّهُ يُفَسَّرُ به . ولو قال قوما وخذا الحقَّ ، فأتى بحرف العطف كما قال الله تعالى : ﴿ قُمْ فأنْذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ كان أفصح . وقد جاء مثلُه بغير العاطف كثيراً . وقوله « قوما » ليس المراد به فِعْلَ القيام ، لكنه وُصْلَةٌ فى الكلام ، وقد بُيِّنَ فيما مضى أمثالُه . ويجوز أن يكون قوله خُذَا الحق على طريق التهكُّم والسخرية . أى إنْ قَدَرْتُما على أخذ الحقِّ المُدَّعَى فَخُذَا . ويجوز أن يكون المعنى : تَرْكُكما ما سمّيتماهُ حقًّا ، وطلبكما له عندى سواء على الحقيقة .

٢ ــ سَأَكْفِيكَ جَنْبِي وَضْعَهُ ووِسَادَهُ وأَغْضَبُ إن لَمْ تُعْطِ بالحقِّ أَشْجَعَا(٢)

---

(١) التبريزى : «المثلم بن رياح بن ظالم المرى» . وقال المرزبانى فى المعجم ٣٨٦ : « المثلم بن رياح المرى جاهلى ، وله يقول سنان بن أبى حارثة وأجار عليه :

من مبلغ عنى المثلم آية وسهلا فقد نفرتم الوحش أجمعا
هم إخوتى دنيا فلا تقربنهم أبا حشرج وافسح لجنبك مضجعا

فأجابه المثلم :

من مبلغ عنى سنانا رسالة وشجنة أن قوما خذا الحق أودعا »

(٢) قال التبريزى : « هو أشجع بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان » . وقال أيضاً : « قال أبو هلال فى قوله إن لم تعط بالحق : هكذا روى ، وهو تصحيف ــ

يقول : أكفيك ما يَمُسُّنى ويخصُّنى ، ولا أضايقك فيما يرجِع نفعُه وضَرُّه إلىّ . وذِكر وضع الجَنْب والوسادِ مأخوذٌ من المَثَلِ السائرِ فى المعتَنِى بالشّىء المتعهِّد له ، وهو قولهم : « أمٌّ فَرَشَتْ فأَنامَتْ » : والمعنى : لا أُكلِّفُك عنايةً بأمرى ، ولا أؤاخذك بمصالح أسبابى : ومتى لم تناوِل مَولاى أشجَعَ الحقَّ ، ولم تُعامله فيما بينكما بالحقّ والعَدْلِ ، غَضِبْتُ له وانْتقمتُ ؛ لأن فى تضييع حقِّ المولى والأَخْذ بالتغميض فيه لازِمَ العارِ ، وفى استعمال التَّغابِى فيما يتعلّق بى واطِّراحى المُناقشة والمشاحَّةَ فيه باقِىَ الصِّيت والجمال . قوله « إن لم تُعْطِ بالحقِّ » قيل فيه مفعولُ تُعْطِ الثانى محذوفٌ ، ومعنى بالحق : بالعَدْلِ والإنصاف . كأنّه قال : تُعْطِ أشْجَعَ ما يَجِبُ له بالحق . وقيل أراد بتُعْطِ تُعامِلْ فعدَّاه تَعدِيتَه . وقيل بالحقِّ هو المفعول الثانى ، لكنه زاد الباء فيه تأكيداً ، كما قال الآخر[1] :

* سُودُ المحاجِرِ لا يَقرأْنَ بالسُّوَرِ[2] *

ويغلب فى نفسى أنّ الشاعِرَ قال وأغضبُ إن لم تعطِيا الحقّ أشجعا ، لأنه بَنَى الرسالة على أن تكون متوجهةً نحو اثنين : سِنَانٍ وشِجْنَة . ومخاطَبتُهُ من بَعْدُ أحدَهما فى قوله سأكفيك ، على عادتهم فى الافتنان والتصرُّف ، لا يمنع من الرجوع إلى ما بَنَى كلامَهُ عليه من ذكر الاثنين . وهذا ظاهرٌ لمن تأمّلَهُ .

— قبيح ، والصحيح : وأغضب إن لم يغضب الحق أشجعا . يقول : سأكفيك أمرى كله ولا أحملك شيئاً ، وأغضب لك ولحقك إن لم يغضب له أشجع » .

(١) هو الراعى النميرى ، أو القتال الكلابى ، إذ ورد فى شعر لكل منهما . الخزانة (٣ : ٦٦٧) .

(٢) صدره : * هن الحرائر لاربات أخمرة *

٣ – تَصِيحُ الرُّدَيْنِيَّات فينا وفيهِمُ صِيَاحَ بَنَاتِ الماء أَصْبَحْنَ جُوَّعَا

يريد : تختلف الرِّماح المنسوبة إلى هذه المرأة[1] بينَنا وبينهم بالطَّعْنِ ، فصياحها كصِيَاح بنات الماء إذا جاعت . وهذا كما حكى الآخَرُ وَقْعَ الْقَنَا والسَّيْفِ عند الطَّعن والضَّرْبِ ، فقال :

* والطَّعْنُ شَغْشغةٌ والضَّرْبُ هَيْقَعَةٌ[2] *

ويَعْنِي ببنات الماء طيورَ الماء . وهذا كما يقال فى الوحش : بناتُ الفَلاَ ، وللنوائب : بنات الدَّهْر .

٤ – لَفَفْنَا البيوتَ بالبيوتِ فأصْبَحُوا بَنِي عَمِّنَا من يَرْمِنَا يَرْمِنَا مَعَا

يقول : استأنفْنا حالةً جامعةً لنا ولعشيرتِنا ، فاستبدلْنَا بالتبايُن اجتماعاً ، وبالتَّزايُل اختلاطاً ، وبالتنافر تأنُّسًا ، وبالتَّشارد تألُّفًا ، حتّى صِرْنَا يَدًا واحدةً على المنابذين ، ولسانا واحداً على المخالفين ، فمن رَمَى واحِداً مِنّا فقد رَمَى جميعَنا . هذا إذا رويت : « من يَرْمِنَا يَرْمِنَا مَعَا » . ومن روى : « من يَرْمِهِمْ يَرْمِنَا مَعا » يكون المعنى فى اجتماع الكلمة أبين . وفى هذه الطَّريقة قولُ الآخرِ[3] :

فأمْسَى كَعْبُهَا كَعْبًا وكَانَتْ من الشَّنَآن قد دُعِيَتْ كِعَابَا

(١) هى ردينة ، واسم زوجها سمهر ، كانا يقومان الرماح بخط هجر ، فنسبت إلى كل منهما . اللسان (سمهر ، ردن) .

(٢) البيت لعبد مناف بن ربع الهذلى . اللسان (شغغ ، هقع ، عول ، عضد) وبقية أشعار الهذليين ص ٣ . وقد سبق الاستشهاد به فى ص ٣٧ . وعجزه :

* ضرب المعول تحت الديمة العضدا *

(٣) هو معاوية بن مالك بن جعفر بن كلاب . المفضليات (٢ : ١٥٨) .

١٣٢

وقال آخر (١) :

١ ــ يازِمْلُ إِنِّى إِن تَكُنْ لِى حَادِياً أَعْكِرْ عليكَ وإِن تَرُغْ لا تَسْبِقِ (٢)

يقولُ : إنْ تَخَلَّفْتَ عنِّى حتى يكون مكانك مكان الحادى من البعير أَعْطِفْ عَلَيْكَ . وإن تَقَدَّمْتَنى هارباً حتّى تصير كالهادى لى مستعملاً الخداع والرَّوَاغَ معى لم تَفُتْنِى . والمعنى : إنِّى أُدْرِكُكَ على كل حالٍ . وقد أحسنَ النَّابغةُ فى قوله :

فإنّكَ كاللّيلِ الذى هو مُدْرِكِى وإن خِلْتُ أنّ المنتأى عنك واسِعُ

ويقال عَكَر واعتَكَر بمعنى عَطَفَ ، وإنّه لَعَكّارٌ فى الفِتَن ، إذا كان ثابت القَدَم .

٢ ــ إِنِّى امرُؤٌ تَجِد الرجَالُ عَدَاوتِى وَجْدَ الرِّكابِ من الذبابِ الأزْرَقِ

يقول : إنِّى رَجُلٌ ينال أعدائى من عداوتهم لى ما ينال الإبلَ من الذُّباب الأزرق ، وهذا الجنس من الذُّباب يتأذى به الإبلُ تأذِّىَ الحُمُر بالنُّعَر أو أشدّ . وعداوتى ينتصب على المفعول . كأنّه قال : يجد الرِّجال من عداوتى ، فحذف

(١) عند التبريزى فقط : « وقال ابن دارة » . وابن دارة هو سالم بن مسافع ابن يربوع ــ ويربوع هو دارة ، وإنما سمى دارة لأن رجلا من بنى الصادر قتل ابن عم ليربوع ، فقتله به وأخذ ابنته ، ثم أرسلها فأتت قومها ، فسألوها عن قتل أباها فقالت : غلام كأن وجهه دارة القمر . انظر الخزانة (١ : ٢٩١) والأغانى (٢١ : ٥٠) .

(٢) زمل هذا ، هو زميل بن أبير ، أحد بنى عبد الله بن مناف ، قاتل ابن دارة . وفى ذلك يقول :

أنا زميل قاتل ابن داره وغاسل المخزاة عن فراره .

وكان سالم وزمل جميعاً فى صدر الإسلام ؛ أدركا زمان معاوية .

حَرْفَ الجرّ ووصل الفِعْل فعَمِلَ . يَدُلّ على ذلك قولُه . « وَجْد الرِّكَابِ من الذُّباب » . ومثله :

* أستَغْفِرُ اللهَ ذَنْباً لست مُحْصِيَهُ[1] *

وقوله « عداوتى » يجوز أن يكون مُضَافًا إلى الفاعل ، أى عداوتى لَهُم ، ويجوز أن يكون مضافًا إلى المفعول ، أى عداوتهم لى ومعنى تَجِدُ تَحْزَنُ ، ولذلك كان الوَجْدُ مَصْدَرَهُ . ويجوز أن يكون تجد بمعنى تَعْلَمَ ، ويكون عداوتى المفعولَ الأول ووَجْدَ الرِّكاب المفعول الثانى . والمعنى : إنّ عداوتهم لى تُقْلِقُهم وتُنَزِّيهم ، فيعلمُها الرِّجالُ مثْلَ وَجْدِ الرِّكابِ من هذا الجِنْس من الذُّباب ؛ أى ينالون منها ما ينال تلك منهم . ويحصل فى البيت تجنيسٌ حينئذ .

١٣٣

وقال الحُصَيْن بن الحُمَام[2] :

١ — فَقُلْتُ لهم يَا آلَ ذُبْيَانَ مالَـكُمْ تَفَاقدتُمُ لا تُقْدِمُون مُقَدَّمَا

يقول : قلتُ لهؤلاء القوم : ما لكم تُحجِمُون ولا تُقدِمون ، فَقَدَ بعضكم بَعْضًا ولا اهتَدَى أحدُكم إلى الآخَر . وهذا الكلام تَضَجُّرٌ منه بهم لمَّا تخاذَلوا ولم يكونوا عند الظَّنِّ فيهم . وَوَضَعَ مُقَدَّمًا موضع الإقدام ، وساغَ ذلك لأنَّ مصادِرَ الكلمات الصَّادرة عن أصْلٍ واحدٍ يوضَعُ بعْضها مَوْضِعَ البعض لدَاعٍ يَدْعُو إذا لم يَكُنْ ثَمَّ مانِعٌ . وإنما قُلْتُ هذا لأنَّ قَدَّم يكون مرّةً متعدّيًا ،

(١) هو من أبيات سيبويه الخمسين التى لا يعرف لها قائل . سيبويه (١ : ١٧) والخزانة (١ : ٤٨٦) . وعجزه :

* رب العباد إليه الوجه والعمل *

(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ٤١ .

ومرة يكون بمعنى تقدَّم ولا يتعدَّى ، ومُقدَّمًا هاهنا مصدر ما لا يتعدَّى ، فهو مِثْلُ تَقَدُّم لو قاله ، ومنه مُقَدِّمةُ الجيش ، يُرَادُ متقدِّمَتُه . وقوله « تفاقَدْتم » اعتراضٌ بين ما لَـكُم وبين لا تُقْدِمون ، وهو دعاء عليهم . ومثله فى الأمرَيْن جميعاً قولُ الآخر(١) :

إن الثمـــانينَ وبُلِّغْتَها قدأحوجَتْ سَمْعِى إلى تَرْجُمانْ

وإن كان هذا دُعاء خَيْر .

٢ — مَوَاليكُمْ مَوْلَى الوِلَادَةِ مِنْهُمُ وَمَوْلَى اليَمِينِ حابِسًا مُتَقَسَّمَا

إنَّما قَسَم المَوَلَى هذه القِسْمَة لأنَّ المولَى له مواضع فى استعمالهم ، منها المَوْلى فى الدِّين : وهو الوَلِيُّ . على ذلك قول الله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بأنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وأنَّ الكافرينَ لا مَوْلَى لَهُم ﴾ ، وقول النبيّ عليه السلام : « من كُنْتُ مَوْلَاه فعَلِيٌّ مَوْلاهُ » ، وقوله عليه السلام : « مُزَيْنَةُ وأسْلَمَ وغِفارٌ مَوَالِي الله ورسوله » . ومنها العَصَبَةُ وبنو العَمّ ، وهو الذى سماه الشَّاعِر مَوْلَى الوِلادة . ومنها الحليف ، وهو من انضمّ إليك واعتزّ بعزِّك وامتنع بمَنْعِك ، وهو الذى سَمَّاهُ مَوْلَى اليمين ؛ لأنَّه يُقْسِمُ له عند الانضمام بذلك ، وهو المُعْتَقُ لكَ ينتسب بنسَبِك ، وأنت مَوْلَاهُ وذاكَ مَوْلاكَ . وهم يقولون : إنَّ المَوْلَى لا يَـكادُ يَفْضُلُ الصميم ، قال :

وليس أُبَيْرُكُمْ كأُبَيْرِ سَوْء وما جُعِلَ المَوَالِي كالصَّمِيم

يقول تَدَارَكُوا الذين ينتسبون بالوَلاء ، ولاء النَّسبِ ، وولاء الحِلْفِ والنُّصْرَةِ ، فَـكُلٌّ منهم ذو حَبْسٍ على الشَّرّ متقسِّم الحال ، ، متوزِّع المال مُغَارٌ عليه ، فما لَـكُمْ لا تَمْتَعِضُون ولا تُنْـكِرُون .

وقولُه : « حابِسًا » فى معنى مَحْبُوسٍ ؛ لَـكِنَّه أخرجه مَخْرَجَ النَّسَب ؛ أى

(١) هو عوف بن محلم الخزاعى . الأمالى (١ : ٥٠)

ذو حَبْس ، وانتصابه على الحال . وقوله « مواليكم » على هذا انتصب بفعلٍ مُضْمَرٍ ، كأنه قال : أغيثوا مواليكم وتداركوا . ويُرْوَى « حابِسٌ قد تُقُسِّما » . وقيل هو اسمُ عَلَمٍ ، وارتفاعه على أنّه بدلٌ من مولى اليمين ، وقد تُقُسِّما فى موضعِ الخبَر . واكتفى بالإخبار عن المَوْلَيَيْنِ لأنَّ الموالى انقسموا إليهما .

٣ــوقُلْتُ تَبَيَّنْ هَلْ تَرَى بَيْنَ وَاسِطٍ ... وَنَهْيِ أَكُفٍّ صَارِخًا غَيْرَ أَعْجَمَا[1]

يُرْوَى « فارِسًا غَيْرَ أَخْرَمَا » ، كأنَّه أقبل على واحد منهم فقال : تأمَّلْ هل تَرَى بين هٰذين الموضعين فارساً غيرَ مُنْقَطع . المعنى : أنهم يتواترون أرْسَالاً فى الصُّرَاخِ غير متجمِّعين له ، بل يَتْبَعُ بَعْضُهم بعضًا فى أرضِكم ودياركم يستنصرون فلا يُنصَرون ، فما لَكم لا تأْنَفُون . ومن رَوَى : « صَارِخًا غَيْرَ أَعْجَمَا » فمعناه مستغيثاً لا يُجَابُ ، فكأنه أعجم لا يُفهمُ قولُه . يريد : تَبَيَّنْ فإنك لاتَرَى إلا فارساً أخْرَمَ ، أو صارخًا أعْجَمَ . والأعجم : الذى لا يُفْصِح . والصارخ والصَّرِيخ واحد ، ويقال صرخ فَأَصْرَخْتُهُ ، أى استغاث فأغثته . وفى القرآن : ﴿ما أنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ والصَّرْخَةُ تُستعمل فى الفزَع والمصيبة . وفى المَثَل «لَهُ صَرْخَةُ الحُبْلَى» . والخَرْمُ : القطع ، ومنه أخْرَمُ الكتِف ، وهو مَحَزٌّ فى طرف عَيرها[2] .

٤ــمن الصُّبْحِ حَتَّى تَغْرُبَ الشَّمْسُ لا تَرَى ... من الخَيْلِ إلَّا خَارِجيًّا مُسَوَّمَا

أى ابتدأ الأعداء يغيرون ويَنْهَبُون ، وهؤلاء يصرخون ويستغيثون ، من

---

(١) التبريزى ومعجم البلدان : « ونهى الأكف » ، ونص ياقوت على أن النهى بالكسر ويفتح . وذكر التبريزى فى بعض رواياته : « غير أخزما » ، وقال : « وصارخ ، قبل مغيث . وأخزم : جبل . ومعنى البيت على هذا أنه ليس بين هذين الماءين مفزع إلا هذا الجبل » .

(٢) فى الأصل : « غيرهما » ، وفى م : « غيرها » . والوجه ما أثبتنا . والعير ، بفتح العين المهملة : كل عظم ناتئ .

وقت الغَدَاةِ إلى أن غابَتِ الشَّمس ، فلا تَرَى من الخيل إلا ما خَرَجَ بنفسه لا أوَابِيَةَ له كَمِثْلِهِ ، وقد أُعْلِمَ بعلامة ليعرفَ بلاء صاحبه . وقوله : « من الصُّبْحِ » ، وُضِعَ مِنْ فيه موضع مُنْذُ ، لأنَّ مُنْذُ فى الأزمنَةِ بمنزلة من فى الأمكنة . ومثله قول زهير :

* أَقْوَيْنَ من حِجَجٍ ومن دَهْرِ (١) *

وقال الأصمعِيُّ : الخارجِيُّ : كلُّ مُتناهٍ فى جنْسه ، فائقٍ نُظَرَاءه فى معناهُ . والمُسَوَّمُ من السِّيما ، وهى العلامة ، وفى القرآن : ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ ﴾ .

٥ — عَلَيْهِنَّ فِتْيَانٌ كَسَاهُمْ مُحَرِّقٌ وكَانَ إِذَا يَكْسُو أَجَادَ وأَكْرَمَا

يقول : على هذه الخيل رِجَالٌ كَسَاهُمْ مُحَرِّقٌ ، أى دروعهم وسائر أسلحتهم مما كان يكسوهم ، ويَجْعَلُهُ خِلْعَةً : وكان مُحَرِّقٌ إذا كسا الأسْلِحَةَ أتى بها جيِّدةً كريمة . ومُحَرِّقٌ : لقَبٌ لعمرْو بن هنْدٍ ، وكان أحْرَقَ قَوْمًا من تميم حين أجَّج النارَ بأُوَارة ، فلُقِّبَ به ، وقال بعضُهم : لُقِّبَ بذلك لأنه كان إذا عاقب عاقبَ بالنار . وقوله « إذا يَكْسُو » اعتراضٌ بين الفعل وهو يَكْسُو وبين المفعول به وهو « صفائحَ بُصْرَى » من البيت الثانى . ويقال أجَادَ الشىء بمعنى جاء به جَيِّدًا ، وبمعنى جَوَّدَهُ . وكذلك أكْرَمَهُ يكون بمعنى أتى به كريما ، وبمعنى كَرَّمَهُ . وقد توسعوا فى كَسَا وإن كان أصل الكُسوة اللِّباس ، فقيل : اكتسَى الأرضُ بالنَّبات ، على التشبيه ، فقال رُؤْبَةُ يصِفُ الثَّورَ والكلاب :

* وقَدْ كَسَا فيهنَّ صِبْغًا بَرْزَغَا *

أى كَسَا الكلابَ دَمًا طريًّا . وقال بعضهم فى وصف نبالٍ :

* وزُرْقٍ كَسَتْهَا رِيشَها مَضْرَحِيَّةٌ *

(١) صدره : * لمن الديار بقنة الحجر *

أى قُذَذُها من ريش مَضْرَحِيّ . فعلى هذا قوله « كسام مُحَرَّق » .

٦ـ صَفَائِحَ بُصْرَى أَخْلَصَتْهَا قُيُونُها ومُطَّرِدًا مِنْ نَسْجِ دَاوُدَ مُبْهَمَا

صفائح انتصب على أنه مفعولٌ ثانٍ من كَساهم مُحَرِّقٌ . وبُصْرَى : قَرْيةٌ بالشام تُطْبَعُ بها السُّيوف . فيقول : كساهُم مُحَرِّقٌ سُيُوفًا بُصْرِيَّةً ، اتخذَها طَبّاعُوها من خالصِ الحديد ، ودُرُوعًا لَيِّنةً سهلةً سَلِسَةً ، متتابعة السَّرْدِ ، تَطَّرِدُ ولا تختلف ، داودِيَّة . والصفائح : جمع صفيحة ، وهى كلُّ سيفٍ عريضٍ أو خشَبةٍ عريضة . ويقال سيف مُصْفَحٌ أيضًا ، أى عريض ، كأنه زِيدَ فى صَفْحَتَيْه ، أى جانِبَيْه . ويقال أصفَحَ بسيفه ، أى ضَرَب بصَفْحِه . ومعنى أخلَصَتْها : أتَتْ بها خالصةَ الحديد . واستعمِل الكِسْوَةُ فى السيفِ كما يستعمَلُ فيه البَزُّ . قال :

* فوُفِّرَ بَزٌّ ما هُنَالِكَ ضائعُ(١) *

يريدُ السيفَ . ووصَفَ الدِّرْع بالاطِّراد لتتابع سَرْدِها على حَدٍّ واحد ، لا اختلاف فى حَلَقِها ، ولا تفاوُتَ فى نَظْمِها . وجَعَلَها مُبْهَمًا لإحكامِها .

٧ـ فلما رَأَيْتُ الصَّبْرَ قَدْ حِيلَ دُونَهُ وَإِنْ كَانَ يَوْمًا ذَا كَوَاكِبَ مُظْلِمَا(٢)

يقول : لما رأيتُ الأمرَ مُستفحِلاً ، والخَطْبَ عظيما مُستفظَعًا ، والصبرَ عامًّا لنا كُلِّنا ، مغلوبًا عليه ممنوعًا ، صَبَرْنا نحن من بين أصحابنا على عادتِنا المعهودة مِنَّا ، ووطَّنَّا أنفُسَنا على الشرّ . ويجوز أن يريد بقوله « لما رأيتُ الصبرَ قد حِيلَ دونه » لما رأيتُ الوقتَ وقتًا يُعالُ فيه الصبرُ ، ويُحالُ بين طالبيه وبينَه .

---

(١) لقيس بن عيزارة الهذلى ، فى ديوان الهذليين (٣ : ٧٨) . وصدره :

* فويل ام بز جر شعل على الحصى *

(٢) م : « ولما رأيت » . التبريزى : « ولما رأينا الصبر » .

وقولُه « وإن كان يومًا ذا كواكبَ مُظْلِمًا » اعتراضٌ بين لمّا وجوابِه ، وهو شَرْطٌ فى وقوع الصبرِ منهم يُترجِم عن الحال . أى صَبَرْنا وإن كان اليومُ يومًا مُظلِمًا تُرَى فيه الكواكب ظُهرًا ، لانسداد عين الشَّمس بغُبار الموت . وجوابُ الجزاء استُغْنِيَ عنه بجواب لمّا . وروى بعضُهم : « وأَنْ كان يومًا » بفتح الهمزة على أن يكون أنْ مخفَّفة من الثَّقيلة ، والمرادُ وأنه كان اليومُ يومًا ذا كواكب . وهـذا الرّاوى لعلّه لم يعرف الاعتراضاتِ والفصاحةَ فيها ، والتبَس المعنى عليه أيضاً .

٨ ــ صَبَرْنَا وكانَ الصَّبْرُ مِنَّا سَجِيَّةً ... بأَسْيَافِنَا يَقْطَعْنَ كَفًّا ومِعْصَمَا(١)

يقول : حمَلْنا أنفُسَنا على المكروه ، وحبَسْناها فى مجالِ الموت والشرّ ، وكان ذلك مِنّا عادةً وطبيعةً . وقوله « أسيافنا » يجوز أن يتعلّق الباء منه بصَبَرْنا ، واعترَض بينهما قولُه « وكان الصبرُ منا سجيّةً » ، إذ كان أرادَ أن يُبيِّنَ أنّ ذلك الفِعْل ليس بمُستبدَعٍ ولا مُستنكَرٍ من أخلاقِهم . ويجوز أن يتعلق بما دَلّ عليه « وكان الصبر منا سجيَّةً » . ويَقطَعْنَ فى موضِـع الحال للأسياف على الوجهين جميعاً . وفى طريقته قول نَهْشَل بن حَرِّيّ :

وَيَوْمٍ كأنّ المُصْطلِينَ بحَرِّهِ ... وإن لم يكن نارٌ قُعُودٌ على جَمْرِ
صَبَرْنَا لَهُ حتى يَبُوخ وإنما ... تفرَّج أيامُ الكريهة بالصَّبْرِ

٩ ــ نُفَلِّقُ هَامًا من أُناسٍ أعِزَّةٍ ... عَلَيْنَا وهم كانوا أَعَقَّ وَأَظْلَمَا

يقول : نُشَقِّقُ هامَاتٍ من رجالٍ يَكرُمون علينا ويَعِزّون ، لما يجمَعُنا وإيّاهُم من الأحوال الوكيدة ، والحُرَم القويّة بالأنساب والأسباب ، وهم كانوا

(١) ابن جنى : « يريد أكفا ومعاصم ، فوضع الواحد موضع الجمع . . . وجاز ذلك لأنها إنما يقطعها كفا كفا ، ومعصما معصما ، فتصور هذه الحال فوحّد » .

أشدَّ عقوقًا وأتمّ ظلمًا ، بما اطَّرحوه من مراعاة الحقوق ، وبدءوا به من تناسِى العُهود ، واستعجَلُوه من البَغْى ، وسَلَكُوه من سَنَن الغَىِّ . ويروى أن يزيد ابن معاوية لا رحمه الله[1] تمثَّلَ بهذا البيت لمّا وُضِع بين يديه رأسُ الحسين ابن علىّ رضى الله عنهما .

١٠ ـ ولمّا رَأَيْتُ الوُدَّ ليس بنافِعِى عَمَدْتُ إلى الأمْرِ الذى كان أحْزَمَا

١١ ـ فَلَسْتُ بمُبتاعِ الحياةِ بِذِلّةٍ ولا مُرْتَقٍ من خَشْيةِ المَوْتِ سُلَّمَا

قوله « إلى الأمْرِ الذى كان أَحْزَمَا » جُعِلَ الحزْمُ للأمرِ كما جُعِل له العَزْمُ فى قوله تعالى : ﴿ فإذَا عَزَمَ الأَمْرُ ﴾ ، فكلٌّ ذلك مجازٌ واتساعٌ . وصَلَح أن يريد بقوله أَحْزَمَ ، أحْزَمَ من غيره ، لوُقوعِه خبَرًا ، لأنه كما يجوز حذف الخبر بأسرِه إذا دَلَّ دليلٌ عليه ، كذلك يجوز حذف ما يتمُّ به منه إذا لم يلتبس بغيره ، ولم يختلَّ الكلامُ بسببه . وقوله « لمّا رأيتُ الوُدَّ » حَذَفَ المُضاف فيه وأقام المضافَ إليه مَقامَه ، كأنه قال : لما رأيت مُراعاة الوُدِّ ومحافَظَتَه ، أو إظهار الود وإبقاءه . ومعنى البيت : لما رأيتُهم لا يَرْتَدِعُون عن ركوب الرأس ، والمجاذبة إلى أقصَى ما فى الطَّوْق من اللَّجَاج والشرّ ، قصدْتُ إلى ما كان أجْمَعَ للحَزْمِ معهم من مكاشفتهم ، وتَرْكِ الإبقاء عليهم ؛ لأن ظهور التَّعادِى والتكاشُف خيرٌ من رُكوبِ الغُرُورِ[3] مع التشابُك . ويُلاحظ هذا البيتَ قولُ الآخَر :

إذا حاجةٌ عَزَّتْكَ لا تَسْتَطِيعُها فَدَعْهــا لأُخْرَى لَيِّنٍ لك بابُها

وقوله « فلستُ بمبتاع الحياةِ بسُبَّةٍ[2] » ، يقال ابتاعَ الشىءَ بمعنى اشترى ،

(١) م : « لعنه الله » .

(٢) الرواية فى متن البيت : « بذلة » . أما رواية « بسبة » فقد أشار إليها التبريزى .

(٣) كذا فى النسختين . والوجه « الغرر » .

وإن كان بِعْتُه بمعنى اشترَيْتُه وبِعْتُه جميعًا . والسُّبَّةُ : الخَصْلَةُ التى يُسَبُّ بها ، فهى كالهُجْنَة والعُرَّة[1] . يقول : فَعَلْتُ ذلك ، فإننى لست ممن يَطْلب العَيْش مع الذُّلِّ ، ولا مِمَّن يَرْتقى فى الأسباب خوفًا من الموت ، بل المِيتَةُ الحَسَنَةُ على ما يتعقَّبُها من الأُحدوثة الجميلة آثَرُ عندنا ، وأَوْقَعُ من هَوَانا ، من العيشة الذَّميمة على ما يُخالِطُها من الرِّضَا بالدَّنِيَّة .

١٣٤

وَقَالَ بَشَامَةُ بن الغَدِيرِ[2] :

١ — وَلَقَدْ غَضِبْتُ لِخِنْدِفٍ ولِقَيْسِهَا ... لَمَّا وَنَى عن نَصْرِهَا خُذَّالُهَا

خِنْدِفُ . لَقَبُ ليلى امرأةِ الياسِ بن مُضَرَ ، لقولها لزوجها يومًا : ما زِلْتُ أُخَنْدِفُ فى آثارِكُمْ — والخَنْدَفَةُ : مشيةٌ كالهَرْوَلَةِ — فقال لها : وأنتِ خِنْدِفٌ . فلزِمَهَا ، فصارت مُضَرُ نسلين : أحدهما ولد قَيس بن عِيلان ، والآخر خِنْدِفٌ . ويُرْوَى أنَّ رجلا على عَهْد الزبير بن العَوّام ظُلِم . فنَادَى : يالَخِنْدِفَ[3] . فخرج الزُّبير وبيده السَّيف ، وهو يقول : خَنْدِفْ أيُّها الخندِف ، والله لئن كنتَ مظلوما

(١) فى الأصل : « والعسرة » وفى م : « والغرة » ، والوجه ما أثبتنا ، والعرة بوزن الهجنة : ما يعترى المرء من جنون .

(٢) جعل التبريزى هذه الحماسية لبشامة بن حزن : وقال : « قال أبو هلال : فى الشعراء رجلان يقال لهما بشامة ، أحدهما بشامة بن الغدير ، وهو عمرو بن هلال بن سهم بن مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان . . . والآخر بشامة بن حزن النهشلى ، وهذا الشعر له . وقال الآمدى : هو لبشامة بن الغدير » . وابن الغدير خال زهير بن أبى سلمى ، كما فى المؤتلف للآمدى ص ٦٦ . وقد سبق لبشامة بن حزن الحماسية رقم ١٤ .

(٣) كذا فى الأصل . وفى م والتبريزى : « خندف إليك أيها المخندف » ، وصواب هذه الأخيرة : « أخندف إليك أيها المخندف » ، كما فى اللسان (خندف) ، وقال : « يقول : يا من يدعو خندفاً أنا أجيبك وآتيك . قال أبو منصور : إن صح هذا من فعل الزبير فإنه كان قبل نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن التعزى بعزاء الجاهلية » .

لأنصُرَنَّكَ . يقول : غَضِبْتُ لِنَسْلَىْ مُضَرَ خِنْدِفٍ وقَيْسٍ ، لما ونى عن معاونتها والنُّهُوض لها نُصَّارُها . ويقال وَنَى يَنِي وَنْيًا ، وهو وانٍ . وإنَّما قال : «خَذَلْهَا» ولم يَقُلْ نُصَّارُهَا ، لأنَّه وصفهم بما آل إليه أمرُهُم . وهذا كما يُقال قَتَلْتُ قَتِيلَ بنى فلان ؛ وقد مَضَى له أشباهٌ وأمثال . فكأنَّ الشاعر تبرع بما كان منه من المدافعة دُونهم والمقاتلة عنهم ، فلذلك تحمَّد به . وقال غَضِبْتُ لهم لما رَأَيتُ من وَجَب نُصْرَتهم عليه خَذَلَهم . وجواب لَمَّا وَنَى ، ما هو صدر البيت .

٢ — دَافَعْتُ عن أعْرَاضِها فَمَنَعْتُها وَلَدَىَّ فى أمثالِها أمْثَالُهَا

هذا تفسير للغضب الذى ذَكَرَهُ وبيان نتيجته . والعِرْض : النَّفْس ، ويُسْتَعْمَل فى الحسب . يقول : ذَبَبْتُ عَنْهَا ومنعت الأعداء منها ، وَلَدَىَّ فى أمثالِها من القبائل أمثال هذه النُّصْرة . هذا وَجه ، ويجوز أن يريد ولدَىَّ فى أمثال هذه النصرة أمثال هذه القصيدة . والقرائن التى تسوِّغ رَدَّ الضميرين إلى جميع ما ذكرناه حاضرةٌ فى الكلام قوية .

٣ — إنِّى امرؤٌ أَسِمُ القصائدَ للعِدَى إنّ القصائد شرُّها أَغفالُهَا

هذا يمكن الاستدلال به على صحَّة المعنى الثانى ، ومعنى «أَسِمُ القصائد» : أعْلِمُهَا بما يصير كالسِّمَةِ عليها ، حتى لا تُنْسَبَ إلى غَيرى ، وحَتَّى يُعْرَفَ منها السبب الذى خَرَجتْ عليه ، فَمَنْ سَمِعَهَا عرف قصتها ؛ ولهذا قال إنَّ القصائد شَرُّها أغفالها ، أى شَرُّ الشعر ما لا مِيسَمَ لقائله والمَقُول فيه عليه . ويقال دَبَّةٌ غُفْلٌ ، إذا عَرِىَ من الأعلام . وسمعتُ من يقول فى البيت إنه مقلوبٌ ، والمرادُ أَسِمُ العِدَى بقصائدى ، كما قال الآخر[١] :

(١) هو المتلمس . ديوانه ص ١ نسخة الشنقيطى بدار الكتب والكامل ١٥٨ ليبسك .

* جعَلتُ لهُ فَوْقَ العَرَانينِ مِيسَمَا[1] *

والأوّل أكشَفُ وأَصحّ ، بدِلالةِ أن المُفْل جعَلَه من القصائد ، فكذلك الموْسومُ يجب أن يكون منها[2] .

٤ — قومِي بنُو الحرْبِ العَوانِ بِجَمْعِهِمْ والْمشْرَفيَّةِ والْقَنَا إِشْعَالُهَا

يُرْوَى « والَمشْرَفيّةِ بالجرِّ » ويكون معنى البيت قَوْمِي إخوانُ الشرِّ الفظيع ، وأبناء الحرب التى قوتل فيها مرّةً بعد أُخرَى ، فصارَتْ عوانًا بعد أن كانت بِكْراً ، أى رُفِعَتْ من حَالٍ إلى حَالٍ أشدَّ منها ، ويكون هذا مثلَ قولِ الآخَر :

فلسنا من بنى جَدَّاءِ بِكْرٍ ولكِنّا بَنُو جَدٍّ النِّقَالِ

وعلى ما ذكرنا يتمُّ الكلام بقوله العَوانِ ؛ ثم قال « بجمعهم » أى باجتماع قومى واجتماعِ آلات الحرب اشتعلت نارها . والباء من بجمعهم يتعلّق بقوله إشعالها . ويروَى « والمشرَفيّةُ » بالرّفع ، ويكون على هذه الرِّواية تمام الكلام عند قوله بجمعهم ؛ لأن الباء منه حينئذٍ يتعلّق بقوله العَوَانِ[3] . والمعنى : قومى بنو الحرب التى عُوِّنت ، أى صارت عوانًا بهم ، وباجتماع جيشهم ؛ ثم استأنف الكلام ؛ فقال : « والمشرفيّةُ والقنا » ، والمُراد واشتعال نارها بالرِّماح والسُّيوف المَشْرَفية .

---

(١) صواب الرواية : « جعلت لهم » . وصدر البيت :

* ولو غير أخوالى أرادوا نقيصتى *

(٢) التبريزى : « قال أبو العلاء : أى أجعل فيها شيئاً تشهر به وتعرف ، كما تعرف الناقة بسمتها . وأما الشعراء اليوم فيجعلون الموسوم من الشعر ما ذكر فى قافيته اسم الممدوح ، كقول الأعشى :

فآليت لا أرثى لها من كلالة ولا من حفى حتى تلاقى محمداً .

(٣) ابن جنى : « والقنا إشعالها ، أى ذوات إشعالها ليكون الثانى الأول ، وهذا واضح . والباء فى بجمعهم حال من قومى ، أى قومى فى حال اجتماعهم بنو الحرب . وعمل فيها ما فى بنى الحرب العوان من معنى الفعل . ألا تراه فى معنى صبر ومقدمون » .

وهذا الكلام — أعنى والمشرفية — وإن استُؤنِفَ به فمن صفة الحرب . وقيل فى المشرفية إنَّها نسبت إلى المشارف ، وهى قُرًى معروفة تُجْلَب منها وتُطبع بها .
ويقال: أشعلتُ النَّار فى الحطَبِ ، وأشْعلتُ الخيلَ فى الغارة ، وأشعلته غَضَباً .

٥ — مازَالَ معروفاً لمُرَّةَ فى الوَغَى عَلٌّ القَنا وعَليهمُ إنْهالُهَا

ما زال لدوام الماضى ، وارتفع عَلٌّ القنا على أنّه اسمه ، وخبرُه معروفاً . والمعنى : سَقْىُ الرِّماح عَلَلًا بعد نَهَلٍ عادَةٌ معروفةٌ لهم ، فيما تقادم من الأيام إلى الآنَ إذا حضروا الحرب . والعَلُّ والعَلَلُ : الشَّرْبةُ الثَّانية ، ويقال : عَلَّ إبلَهُ يَعُلُّهَا فعَلَّت هى . وأنْهَلْتُ الإبلَ ، إذا سقيتَها أوّلًا ، فنَهِلَتْ ، إذا شرِبَت فى أوَّل الورود حتّى رَوِيَت . ومثل هذا البيت قول الآخر :

نَهِلْنَا مِنْ دِماءِ بَنِى أُوَىٍّ وأَنْهَلْنَا القَنَا حَتَّى رَوِينَا

وتوسَّعُوا فى الاستعمال حتى سَمَّوا منازل السَّفْرَ على المياه مَنَاهِلَ . وإنما قال : « وعليهم إنهالُها » لأنّه كأنه جعل ذلك واجبا عليهم .

٦ — من عَهْد عَادٍ كان مَعْرُوفاً لنا أَسْرُ المُلُوكِ وقَتْلُها وقِتَالُهَا

وَضَعَ مِنْ فى قولِهِ « من عَهْدِ عَادٍ » موضع مُنْذ لقوّتها وكثرةِ تصرُّفها وتمكُّنها فى باب الجرّ ، وأداء معنى الابتداء ، ومِثلُه قول الله تعالى : ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ على التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ ﴾ ، وقولُ الرَّاجز :

من غُدْوةٍ حَتَّى كَأَنَّ الشَّمْسَا بالأُفُقِ الغربىِّ تُطَلَى وَرْسا

ومعنى البيت أنّه نبَّه على مجاذبتهم للملوك والعِلْيَة ، لا للأذناب والسَّفِلَةِ . والقِتال فى ترتيب الفِعْل مُسَابِقٌ[1] للأَسر والقتل ، لكنَّه لم يُبالِ بتأخيره فى ترتيب اللفظ ، لأنَّ الواو لا يُوجِبُ فى العَطْفِ ترتيباً ، إنما هو مَوْضُوعَةٌ للجَمْع

(١) كذا فى النسختين .

فقط ، وتَبَجَّح أيضاً بأن ذلك قديمٌ فيهم(١) منذ زمن عادٍ لا حَدِيثٌ .

١٣٥

وقال أَرْطَاةُ بنُ سُهَيَّةَ(٢)

١ — ونَحْنُ بَنُو عَمٍّ على ذَاكَ بيننا زَرَابِى فيها بِغْضَةٌ وَتَنافُسُ(٣)

يقول : نحن أبناء عَمٍّ ، وعلى ما بيننا من القُرْبَى وَالقرابةِ فُرِشَتْ بيننا بُسُطُ شَرٍّ تشتمل على تباغُضٍ وتحاسُدٍ . وذِكْر الزرابىّ مَثَلٌ هاهنا ، وهى البُسُطُ ، واحِدُها زرْبيَّةٌ وزِرْبِيٌّ(٤) ، وقال أبو عبيدة : وهى فى لغةٍ أخرى الشَّوَاذَكين(٥) : وأنشد لذى الرُّمَّة :

تَرَدَّيْتَ مِن أفوافِ نَوْرٍ كأَنَّهَا زَرَابِيُّ وَارْتَجَّتْ عليكَ الرَّوَاعِدُ

وفى القرآن : ﴿ ونَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ . وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ : أى مفرّقة فى المجالس . ويقال : اطْوِ بساط الشرّ بينى وبينك . ويقولون أيضاً : أعطانى فلانٌ فى بِسَاط كلامه كذا ، أى فيما بَسَطَ منه . وقال الخليل فى الزرابىّ : إنَّها

---

(١) فى الأصل : « قديماً منهم » ، وأثبتنا ما فى م .

(٢) ذكر ابن جنى فى المبهج أن الأرطاة واحدة الأرطى ، وأن سهية تحقير سهوة ، يقال فرس سهوة ، إذا كانت سهلة الجرى . وسهية أم أرطاة غلبت على نسبه . وأبوه زفر ابن عبد الله بن مالك . وأرطاة شاعر إسلامى فى دولة بنى أمية لم يسبقها ولا تأخر عنها ، وقيل أدرك الجاهلية وعاش إلى خلافة عبد الملك بن مروان . وهو من بنى مرة بن عوف بن سعد ، وكان ممن وفد على عبد الملك بن مروان وكان عمره إذ ذاك مائة وثلاثين سنة . الأغانى (١١ : ١٣٤ — ١٤٠) والاشتقاق ١٧٦ — ١٧٧ والإصابة واللآلى ٢٩٩ : ٦٣٠ .

(٣) التبريزى : « قيل إنها فى ديوان أرطاة : زرانب على مثال غرائب ، فكأنه جمع زرنبة ، فجعل العداوة زرنبة لأنها تزرب فى القلب ، أى تدخل » . وأنشده أبو الندى « زآنب » وهى القوارص ، قال أبو الندى : ولا أعرف لها واحداً .

(٤) بتثليث الزاى فيهما ، كما فى اللسان .

(٥) كذا ورد هذا اللفظ . ولعل له صلة بكلمة « شادكونه » الفارسية ، بمعنى ما ينام عليه الإنسان من حشية ونحوها . انظر معجم استينجاس ٧٢٢ .

القُطُوعُ الحِيرِيّة الرّقيقة . وفى كلام بعض الفصحاء : « فُرِشَت بيننا قُطُوعُ النَّمائم » . فعَلَى هذا استعمل هذا الشاعر الزّرابىّ . فأما قوله « على ذاك بيننا » ، فإنما أشار بذلك إلى ما جَمَعَهم من سببِ العمومة ونَسَبِها . ويُرْوى : « على ذاتِ بيننا ، زرابىُّ » كأنه أراد بذاتِ بينِهم خالِصَةَ النَّسب والقَرابة ، ثم جعل فوقها ما قد غَمَرَها وسترها من زرابىِّ الفساد . ويُروى :

. . . . . . على ذاكَ بيننا تَنَاءٍ وفينا بِغْضَةٌ وتنافسُ

والمعنى : وعلى ما يجمعنا من الرَّحِم ينأى بعضُنا عن البعض ، ومع ذلك بيننا تدابُرٌ وتباغُضٌ ، وتهاجُر وتقاطُع . كأنهم جعلوا التنائىَ مداواةً فى إزالة ما بينهم فلم ينفع .

٢ – ونَحْنُ كَصَدْعِ العُسِّ إن يُعْطَ شَاعِبًا يَدَعْهُ وفيه عَيْبُهُ مُتَشَاخِسُ

العُسُّ : القَدَحُ الضخْمُ . والشَّعْبُ ، يستعمل فى الجمع والتفريق . ويقال أيضاً : تفرّق شعبُهم . والشاعِبُ هاهنا : مُصْلِح القِدَاح . يقول : استحْكم الفسادُ بيننا حتى لا يَقْبل صُلْحًا ولا صَلَاحا ، وتفاقَمَ الانصداع حتى لا يلتحم تبايُنًا وتدافُعًا ، فلن تعودَ الحالُ إلى ما كانت وإن أَمسَكْنا عن إثارة الشرّ والزيادة فيه زماناً ، وتصنَّعْنا فى الاحتمال والمُقاربة إبقاءً على الحظّ من المراجعة وإِدْنَاء ، بل يكونُ ما بيننا كالشَّقّ فى القَدَح ، إن أُعْطِىَ شاعِبًا تركَهُ والعَيْبُ ظاهر فيه ، غير مُنْكَتِمٍ ولا خافٍ . والمتشاخِس : المتفاوتُ المُتَبايِنُ . ومنه قولُهم : تشاخَسَت أسنانُه من الكِبَر ، إذا احتلفَتْ . قال الخليل : هو أن يسقط بعضُها ويميل بعضُها . وقيل الشَّخْسُ فى الأصل فتْح الفم للتثاؤُب . ويجوز أن يريد بقوله « وفيه عَيْبُه » : ومَعِيبُه هكذا . وفى طريقته قول الآخَر :

ومِنَ المَوَالِى ضَبُّ جَنْدَلَةٍ نَخِرُ المَوَدَّةِ ظاهِرُ الغِمْرِ

وقد أَحسَنَ أَبَانُ اللاَّحِقِيُّ فى مُزْدَوِجَتِه حينَ قال :

وإنمـا مـــودَّةُ الأشرار   فى وَهْيِها كمَثَلِ الفَخَّارِ
يصيبُه أَدْنَى يَدٍ فينكَسِرْ[1]   وليس يُرْجَى شَعْبُه إذا جُبِرْ

٣ — كَفَى بَيْنَنَا أَلَّا تُرَدَّ تَحِيَّةٌ   على جَانِبٍ ولا يُشَمَّتَ عَاطِسُ

يُرْوَى « يشمَّت » بالشين والسِّين ، وهما بمعنًى واحد ، وسمعْتُ أبا علىّ الفارسىّ يقول فى اشتقاق التَّسميت بالسين غير معجمة — وهو قولُك للعاطِس : يَرْحمك الله — فقال : كأنّه إذا عَطَسَ لحقَته نَفْضَةٌ فى جسمه ، فإذا دعا الداعى له فكأنه رَدَّه إلى سَمْتِه وهَدْيِه . وقال فى التشميت بالشين معجمة : كأنّه التثبيت من الشَّوامِت وهى القوائم[2] . يقول : يكفيك من الشَّرِّ الرَّاتب بيننا أنّه لا تُرَدُّ تحيَّة الواحِدِ مِنَّا — يريد جَوابَ تسليمه — وإن كان الالتقاء معه عن عُفْرٍ كالالتقاء مع الأجانب والغُرباء ، وأنَّه إذا عَطَسَ واحِدٌ لا يُتلقَّى بالدُّعاء له على ما استمرَّ وعُرِف من عَادَةِ الناس فى تَنَادِيهم وتجاورهم[3] . وقوله « كَفَى بيننا » هو بينَ الذى كان ظَرْفًا ، فنقله إلى باب الأسماء . ومثله قولُ الله عز وجل : ﴿ لقد تَقطَّعَ بَيْنُكُم[4] ﴾ وقال الشاعر[5] :

كأَنَّ رِمَاحَهُمْ أَشْطَانُ بئرٍ   بَعيدٍ بين جَالَيْها جَرُورِ

ويجوز أن يُرْوَى « أن لا تُرَدُّ » بالرفع ، وكذلك « ولا يُشَمَّتُ » على أن

---

(١) كذا فى الأصل ، وفى م : « أدنى أذى » .

(٢) قال ابن جنى : « وذلك أن القائمة هى التى تحمل الفرس ونحوه ، وبها عصمته ، وهى قوائمه . وكأنه إذا دعا له فقد ثبت أمره وأنهضه وأحكم دعائمه » .

(٣) كذا فى النسختين ، بالجيم .

(٤) وردت فى الأصل بفتح النون والاستشهاد يقتضى ضمها كما فى م . والأولى قراءة نافع، وحفص والكسائى وأبى جعفر ، وقرأ الباقون بالضم . إتحاف فضلاء البشر ٢١٣ فى سورة الأنعام.

(٥) هو مهلهل . انظر الكامل ٢١٢ ، ٣٥٢ ليبسك . وانظر القصيدة بتمامها فى أمالى القالى (٢ : ١٢٩ — ١٣٣) .

تَجْعَلَ أن مُخَفَّفَةً من الثقيلة. ويكون المراد أنه لا تُرَدُّ تحيةٌ . ومثله قوله تعالى : ﴿ أفَلَا يَرَوْنَ أن لا يرجع ﴾ ، بالنصب والرفع .

١٣٦

وقال عَقِيلُ بنُ عُلَّفَةَ[١] :

١ – تَنَاهَوْا واسألوا ابنَ أَبِي لَبِيدٍ أَأَعْتَبَهُ الضُّبَارِمَةُ النَّجِيدُ

يقول : كُفُّوا عما أنتم عليه من تهييج الشّر ، وأمسكوا عن الشّر فى تأريث نار الحرب ، واسألوا هذا الرجل : هَلْ أرضاه الأسدى القوىُّ الغليظ الشديد لمَّا تحكّك به ، وهل وقّاه ما استحقَّهُ عليه . كأنَّه جَعَل إنزاله الشّوء به والزّيادةَ عند تـكرُّههِ له إعْتَابًا ، على التهكم والسُّخريَّة . ومثله فى ذلك قول بِشْرٍ :

غَضِبَتْ تَمِيمٌ أَنْ تُقَتَّلَ عَامِرٌ يَوْمَ النِّسَارِ فَأُعْتِبُوا بالصَّيْلَمِ

والضُّبارِمَةُ ، قال الخليل : هو الجرىء على الأعداء . وسمى الأسَدُ ضُبارِمًا . قال : ويُقال هو الأسَدُ الوثيقُ الخَلْقِ ، المـكتنز اللحم . ويجوز عندى أن يكون من معنى المُضَبَّر لا من لفظه ، فيكون من باب دَمِثٍ ودِمَثْرٍ ، ودُلامِصٍ ودِلاصٍ وسَبِطٍ وسِبَطْرٍ . والنَّجِيد : ذو النَّجْدةِ ، وهى البأسُ والشِّدَّة .

(١) هو عقيل بن علفة بن الحارث المرى . شاعر مجيد من شعراء الدولة الأموية ، وكان معروفا بكبره واعتزازه بنفسه . وانظر أخباره فى الأغانى (١١ : ٨١ – ٨٩) وابن سلام ٢١٤ والخزانة (٢ : ٢٧٨ – ٢٧٩) . وعقيل ، بفتح العين ، قال ابن جنى فى المبهج : « اسم مرتجل ، ويمكن أن يكون فعيلا بمعنى مفعول ، أى معقول ... والعلف : ثمر الأراك، الواحدة علفة » .

٢ — ولَسْتُم فاعِلينَ إِخَالُ حَتَّى يَنَالَ أَقاصِيَ الحَطَبِ الوَقُودُ

حَذَفَ مفعولَ قولِهِ فاعلين ، وهو ما دَلَّ عليه قوله فى البيت قبله « تَنَاهَوْا » كأنّه قال : ولَسْتُمْ فاعلين التَّنَاهِيَ . يقولُ : ما أَرَى أنّكم تنتهون إلى مارَسَمْتُ ، أو تَقْبَلُون كلامِي الذى إليه أشَرْتُ ، حَتَّى يَعْظُمَ الخَطْب ، وَيَبْلُغَ البلاءُ أقصَى مبالِغِ الجُهدِ ، فيتعدَّى الأقاربَ إلى الأباعد ، وَيتأدَّى من السَّقيم إلى البرىء . وذِكْرُ الحَطَب والوَقود هاهنا مَثَلٌ لتفاقم الشّأن واستفحاله ، واتّساع المكروه واشتماله . وقد مَضَى القولُ فى « إِخَالُ » وكَسْرِ الهمزة منه .

٣ — وأَبْغَضُ من وَضَعْتُ إلىَّ فيه لِسَانِى مَعْشَرٌ عنهم أَذُودُ

يقول : إنِّى متعطِّفٌ على عشيرتى وإن كانوا مُسِيئين إلىّ ، متكرِّمٌ معهم وإنْ كانوا متحاملين عَلَىَّ ، فأَبْغَضُ إنسانٍ أذْكُرُه وأتناوَلُه بلسانى مُتَنَقِّصًا له ، قومٌ أَذْفَعُ عنهم فى وَقْتِى ، وأُحامِى عليهم فى ظاهِرِ أَمْرِى . وفى البيت تقديمٌ وتأخيرٌ ، وأصْلُ ترتيبه : أبغَضُ مَن وَضَعْتُ لِسَانِى فيه إلىَّ قَوْمٌ هكذا شأنى معهم . وهذا تنبيهٌ على أنَّ الرشاد فى المحافظة على حُرَمِ ذوى الرَّحِمِ وإن كانوا مُنابِذِين . فمَنْ مِنْ قوله « أبْغَضُ مَنْ » نَكِرةٌ موصوفَةٌ ، وصِفَتُهُ وضَعْتُ لسانى فيه الجملة . وقد فَصَلَ بين بَعْضِها والبعض الآخر بقولِهِ « إلىّ » وهو أجنبىٌّ منها . وهذا فى الصفة أقْرَبُ منه فى الصِّلة ، فاحتمالُه فيه أَقْرَبُ . ومِثْلُ هذا قولُ جرير :

فَلَوْ شَاءَ قَوْمِي كان حِلْمِيَ فِيهِمُ وكان على جُهَّالِ أعدائِهِم جَهْلِي

ومعنى أذُود : أَدْفَعُ ، ومنه سُمِّىَ اللسانُ المِذْوَدَ ، وهذا كما سُمِّىَ المِفْصَلَ .

٤ — ولَسْتُ بِسَائِلٍ جَارَاتِ بَيْتِي أَغُيَّابٌ رِجَالُكِ أَمْ شُهُودُ

يحتمل وجهين : أحدُهما أن يتبجَّح بتعفُّفه فى جَارَاته ، وأنّه لا يتطلَّبُ

مفارقة القَيِّمِينَ بهنّ ، مبرصِّدًا للتمكّن منهنّ ، فيكون ذلك باعثًا للسُّؤال عن رجالهنّ ، ليغتنم الخَلْوَةَ بِهِنَّ . والثانى أن يريدَ رَفْعَ الطَّمَعِ عن جيرتِهِ ، وقلّةَ الفِكْرِ فى تتبُّعِ أحْوَالِهِم ، عند حضورِهِم وغيبتهم ، إذْ لم يكن هَمُّه فى النَّيْلِ منهم ، ومشاركتِهِم فيما يتجدّد لهم من خَيْرٍ ، فِعْلَ المُسِفِّ للمطامع الدنيّة . ويكون هذا كما قال الآخر :

وإذا أتى من وجْهِهِ بِطَرِيقِهِ ... لم أطَّلِعْ مِمَّا وَرَاءَ خِبَائِهِ

وهذا أوْجَه ، لأنّ ذِكر العِفّة قد جاء من بَعْدُ .

٥ — ولَسْتُ بصادِرٍ عن بيتِ جارِى ... صُدُورَ العَيْرِ غَمَّرَهُ الوُرُودُ[1]

هذا يَشْهَدُ لما اخترْنَاهُ فى تفسير ما قَبْلَهُ ، فيقول : وإذا دَعَانِى الجار إلى بَيْتِهِ يُكْرِمُنِى بِبِرِّهِ ، ويُشْرِكُنِى فى خَيْرِهِ ، لا أَنْصَرِفُ عنه والطَّمَعُ فيه بحالِهِ ، والاستغنام للحقير من مَالِهِ وطَعَامه على حَدِّهِ ، انصرافَ العَيْرِ عن الماء وقد غَمَّرَهُ الورود . والتَّغمير كالتَّصريد ، وهو شُرْبٌ دون الرِّىّ ومنه الغُمَرُ : القَدَحُ الصَّغير ، وقال الخليل : يُتَكَايَلُ به الماء فى المَهَامِهِ . وأنشد :

تَكْفِيهِ حُزَّةُ فِلْذٍ إنْ أَلَمَّ بها ... من الشِّوَاءِ ويُرْوِى شُرْبَهُ الغُمَرُ[2]

وقيل فى غَمَّرَهُ معناه أرواهُ من الغَمْر : الماء الكثير ، فيكون المعنى : إنّى لا أَتهَالَكُ على طامه فِعْلَ المَنْهُوم الخسيس الهِمَّة فاتَضَلَّعُ ، لكنى آكُلُ أكلاً كريمًا . وهذا المعنى أقْرَبُ عِنْدِى .

٦ — ولا مُلْقٍ لِذِى الوَدَعَاتِ سَوْطِى ... أُلاعِبُهُ وَرِيبَتَهُ أُرِيدُ

(١) التبريزى : « قال أبو رياش : البيتان الأخيران لابن أبى نمير القتالى ، من بنى مرة ، جاء بهما أبو تمام صلة فى هذه الأبيات ، وليسا منها » .

(٢) لأعشى باهلة يرثى أخاه المنتشر بن وهب . اللسان (غمر) وإصلاح المنطق ٥، ٩٨ و ٣١٦ . وقصيدته فى حماسة ابن الشجرى ١٠ والأصمعيات ٣٣ ليبسك .

هذا مثلُ قولِ الآخر[١] :

لا آخُذُ الصِّبْيَانَ أَلْثَمُهُم والأمْرُ قد يُغرِى به الأمْرُ

وفى طريقته أيضاً قول الآخَر :

أُحِبُّ صَبِيَّ السَّوْءِ من أَجْلِ أُمِّهِ وأبغضُه مِنْ بُغْضِها ، وهو حادِرُ[٢]

أى حَسَنُ الخَلْق : يَصِفُ عِفَّتَه فيقول : لا أُلقِى سَوْطى بين يَدَىِ الصبىّ الذى فى عُنُقِه عُوَذٌ وتمائم لصِغَره ، أُلاعِبُه فى الظاهرِ ، وأُضمِرُ التودُّدَ إلى أُمِّهِ وأطلُب الخلْوَة بها لاشتغاله . وهذا إذا رَوَيْتَ : « ورَبَّبته أُريدُ » ، وقولُه أُلاعِبه فى موضع الحـال . ويُرْوَى : « وربيتَه » وهو أكْشَفُ . ورأيتُ من يَقْصُرُ الأبياتَ الثلاثة على صِفة العفّة عن الجارات ، وأن يكون كلّ بيتٍ منها لمعًى أحسنُ وأوْلَى .

١٣٧

وقال محمَّد بن عبد الله الأزدىّ[٣] :

١ — لا أَدْفَعُ ابنَ العمِّ يَمْشِى على شَفًا وإنْ بَلَغَتْنِى من أَذاهُ الجَنادِعُ

الشَّفَا : حَرْفُ الشىء . ويمشى فى موضِـع الحال . والبيت يحتمل وجهين : أحدهما أن يكون المعنى إذا أَشْفَى ابنُ عمّى على بلاء وشَرٍّ يُخاف عليـه منه ، ويُخْشَى عَطَبُه فيه ، فإنى لا أَدفَعُ فى صدرِه تحامُلا عليه ليقتحمه ، ولا أَزُجُّ به فيه لأغْرِقه . ويجوز أن يريدَ : إذا انحرَفَ عنى مهاجرًا لِى ومشَى على جانبٍ من المؤَانسة معى لا أنفره ، ولا أُتمِّم استيحاشَه بما أُثيرُ من كوامن غيظه ، وإن

(١) هو مسكين الدارمى . أمالى القالى (١ : ٤٥) .

(٢) أنشده فى اللسان (حدر) شاهداً على أن الحادر : الغليظ .

(٣) المبهج : «قد قالوا الأزد والأسد ، وكأن الزاى يدل من السين ، وكلاهما علم مرتجل» .

بلغَتْنى الدواهى عنه ، وقاسيتُ الشدائد من التأذِّى به . أى لا أنتهزُ الفرصةَ فى مكاشفته وإن اتصل بالسُّوء تعرُّضُه ، ودام فيما يَعِنُّ اعتراضُه . والجَنادِعُ فى الأصْل تُستعمل فى هوامِّ الأرض ، تُستعمل كناية عن ضروب المَكاره وأنواع الأذى . ومن قولهم[1] : « بَدَت جَنادِعُه واللهِ جادِعُه » . وهذا كما استعاروا العقاربَ فقالوا : دَبَّتْ عقاربُه . وقال الخليل : الجَنادع : جَنادب فى جِحَرة الحشرات يخرُجْن إذا كان الحافرُ يبلغ أقصاها . ومنه قيل فى المثل : « جاءت جَنادعُ الشرِّ » ، أى أوائله . واستعمل فى الكلام أيضا فقيل جنادعُ القوْلِ لِمَا يَسُوء منه . ويجوز فى قوله « يمشى على شَفًا » وَجْهٌ آخر حَسَنٌ ، وهو أن يكونَ يمشى فى معنى يَنِمُّ ويَحطبُ . وفى المَثَل : « هو أضْرَبُ من مشَى بشفَةٍ[2] » . وكأنه مأخوذٌ من قوله تعالى ﴿ مَشَّاء بِنَمِيمٍ ﴾ ، ويكون على هذا قولُه « على شَفًا » متعلِّقًا بمضْمَر ، كأنه قال : يَفعَل ذلك كائنًا على شَفًا أو حاصلا ؛ والمعنى مُنْحَرِفًا : أى لا أدفعُهُ عن التَّحريش والنَّميمةِ قَهْرًا وعُنْفًا ، ولكن أعْطِفُه بالحُسْنَى .

٢ــ ولكنْ أُواسِيهِ وأَنْسَى ذُنُوبَهُ لِتَرْجِعَهُ يومًا إلىَّ الرواجِعُ

قولُه « أواسيه » أى أجعلُه إسْوَةَ نفسى ، فأقاسمه مالِى ومِلْكى : يقول : لكنِّى أتناسَى ذُنوبَه وهَفواتِه ، وأتغابَى جرائمَه وزَلاتِه ، وأُحْسِنُ التأنِّىَ فى أثناء ذلك لمواساته ، عند ما أنتظر من فَيْئَتِهِ وعَطْفَتِه ، حتَّى يرُدَّه إلى ما كان عليه من قَبْلُ دَوَاعى الأحوالِ ، وتَشَابُكُ الأرْحام ، ورواجِعُ العَقِبِ ، ولواحِقُ النَّسَبِ . وهذا الذى وَصَفَهُ هو الغاية فى الإبقاء والاستبقاء .

٣ــ وَحَسْبُكَ من ذُلٍّ وسُوءِ صَنيعَةٍ مُنَاوَاةُ ذِى القُرْبَى وإنْ قيلَ قاطِعُ

(١) م : « ومن كلامهم » .
(٢) كذا فى م والتبريزى . وفى الأصل : « هو أخرب » ، بالخاء .

يقول : كافيك مِن سُوء الفِعْل واكتساء الذُّلِّ ، أن تُناوِئَ أقاربَكَ وإن كانوا قاطِعِينَ عاقِّينَ ، مُهاجِرِينَ مُصارمين . وإنّما قال « من ذُلّ » لأنَّ عِزَّ الرّجُلِ بعشيرته ، ومن أماتَ نفسَه الحظَّ منهم فقد ذَلّ . والمُناواةُ أصلُها الهَمْز ، واشتقاقها من النَّوْء : النُّهُوض . كأنَّ المتعادِيَيْن يُناهِضُ كلٌّ صاحِبَهُ إما بنَفْسه ، وإما بعقيدته ونيَّتِه . وقوله « سُوءِ صنيعةٍ » جَعَلَ الصَّنيعة اسما فهى كالكريهة . وقوله « وإن قيل قاطِعُ » ارتَفَعَ قاطعُ على أنَّهُ خَبَرُ ابتداءٍ مُضْمَر ، كأنَّهُ أراد وإن قيل هُوَ قاطع . وفى طريقته قول الحطيئة :

فأبقُوا لا أبَا لَكُمُ عليهِمْ[1] فإنَّ مَلامَةَ المَوْلَى شَقَاء

وروى بعضهم : « وأنْ قيل » بفتح الهمزة ، كأنَّهُ يَعْطِفُهُ على قولِهِ مُناواةُ ، والمعنى حَسْبُكَ من الأمْرَيْنِ المذكورين مُناوَاةُ الأقارب ، وقول الناس هو قاطِعٌ عاقٌّ . والأوّل أجْوَدُ وأشْبَهُ بما اقتصَّهُ وتَصَرَّفَ فيه .

١٣٨

وقال آخرُ :

١ – إن يَحْسُدُونى فإنِّى غَيْرُ لائِمِهِمْ قَبْلِى من النّاسِ أهْلُ الفَضْلِ قد حُسِدُوا[2]

الضمير فى « يحسدونى » لطائفةٍ من الناس خَصَّهم بالإخبار عنهم ، وقَصَدَهم بالكلام . فيقول : إنْ نافَسُونى وحَسَدونى ، ورَمَقُوا النِّعْمَةَ عَلَىَّ بعيْنِ التَّسَخُّطِ . فإنِّى لا ألومهم ولا أعْتِب عليهم ، إذْ كان التَّنافُسُ والحَسَدُ يَتْبَعَان الفَضْلَ ،

---

(١) وكذا فى الديوان ٢٧ . وفى م : « عليكم » تحريف . وبعده :

فإن أباهم الأدنى أبوهم وإن صدورهم الكم براء

(٢) الابيات فى أمالى القالى (٢ : ١٩٨) وعيون الأخبار (٢ : ١٠ – ١١) . ورواية عيون الأخبار :

* إن تحسدونى فإنى لا ألومكم *

وإذْ كانَ من قَبْلَنا اعتادَ بعضهم من بَعْضٍ مِثْلَ ما نراه بسبب الفضل . وقد أحْسَنَ كلَّ الإحْسَانِ من قَالَ :

وإذا سَرَحْتَ الطَّرْفَ حَوْلَ قِبابِهِ   لم تَلْقَ إلا نِعْمَةً وحَسُودا[1]

فأمّا قولُه « قَبْلِى من الناسِ أهْلُ الفَضل قد حُسِدوا » . فمِثْلُهُ قول عُمَر بن أبى ربيعة :

* وقديماً كانَ فى النّاسِ الحَسَدْ[2] *

وقَبْلِى جَعَله لغواً ، ومن الناس تَبْيِينٌ ، وقد حُسِدوا خبر المبتدأ .

٢ــفَدَامَ لِى ولَهُمْ ما بِى وما بِهِمُ   وماتَ أكْثَرُنا غَيْظاً بما يَجِدُ

هذا الكلامُ دُعَاءٌ لنفْسِه وعليهم ، على طريق التَّسَلِّى وقلّة الاحتفال ، ولأنّ الحاسِدَ يَرْفَعُ الخاملَ من الفَضْل ويُنَوِّهُ به . فيقول : أدَامَ اللهُ لى ما أنا عليه من الفَضْلِ ، ولَهُمْ ماهم عليه من الحَسَد ، وماتَ أكْثَرُنا لغَيْظِه بما يَجِدُ . وقولُه « وماتَ أكثرُنا » الأكْثَرُهم الحَسَدَةُ ، لأنّه ــ وإن أدْخَلَ نَفْسَهُ فيمن أضَافَ الأكْثر إليه ــ واحِدٌ . وقوله « بما يَجِدُ » حَذَفَ المَفْعولَ ، والمعنى بما يجِدُهُ فى نفْسه من الحَسَد ، أو بمـا يَجِدُهُ من النِّعمة والفَضْلِ عند المَحْسُود . وحَدَّثنى أبو عبد الله حَمْزَةُ بن الحسن قال : سمعت أبا الحسن علىّ بن مهدىّ الكِسروىّ يقول : أنا قد تتبَّعتُ من دواوين الشُّعراء قديمِهم ومُحْدَثِهم فوجدتُ أبا تمَّامٍ الطائىَّ متفرِّداً بمعنى قوله :

وإذا أرادَ اللهُ نَشْرَ فَضِيــلَةٍ   طُوِيَتْ أتاحَ لَهَا لِسَانَ حَسُودِ

لَوْلَا التخوُّف للعواقب لم يزَلْ   للحاسِدِ النُّعْمَى على المَحْسُودِ

(١) فى م : « فإذا سرحت » .

(٢) صدره فى الديوان ٧٦ :

* حسد حلته من شأنها *

غير مَسْبُوقٍ إليه . وعندى أنَّه أخذه من فَحْوَى هٰذين البيتين وإن كان زاد عليه .

٣ــ أنا الذى يَجِدُونِى فى صُدُورِهِم لا أَرْتَقِى صَدَرًا مِنْهَا ولا أَرِدُ

قَوْلُهُ « يجدُونِى » كان يجب أن يقولَ يجدوننى ؛ لأنَّ الفِعْل فى موضِع رَفْعٍ ، لـكنه حَذَفَ النون تخفيفاً . وكان يجب أن يَقُولَ لَوْ جَرَى على حُـكْمِ الصِّلَةِ : يجدونَهُ ، حتَّى يكُونَ فى الصِّلة ضمير يَعُود إلى الّذى . وإنّما جازَ أن يجىء وليس فيه ما يَعُودُ إلى الذى وإن كان صِلَةً لَهُ ، لأنَّ الذى خَبَرُ أنا ، وهو والمبتدأ شىء واحِدٌ ، فلما كان الأول والثانى شيئاً واحِدًا لم يُبَالِ أن يَرُدَّ الضمير الذى يجب رجُوعُه إلى الثانى إلى الأوّل . ومِثْلُ هذا ما نُسِبَ إلى أمير المؤمنين عليه السلام :

* أنا الذى سَمَّتْنِ أُمِّى حَيْدَرَهْ[1] *

فقال سَمَّتْنِ ولم يقل سَمَّتْهُ . وقد مَضَى القولُ فى مثلِهِ فيما تقدّم مُسْتَقْصًى ، ومعنى البيت : أنا الذى صِرْتُ غُصَّةً فى صُدورِهِم قد نَشِبَتْ فَلاَ تَصْدُرُ ولا تَرِدُ ، أى صارت لازِمَةً لا تَسُوغُ ولا تؤوبُ . وقولُه « صَدَرًا » مَصْدَرٌ فى مَوْضِعِ الحال . و « لا أَرْتَقِى » إن جعلْتَ فى صدورهم لَغْوًا يكون فى موضع المفعول الثانى ، وإن جعلْتَ فى صدورهم مفعولا ثانيا كان لا أَرْتَقِى حالا .

١٣٩

وقال آخر :

١ ــ الشَّىءُ يَبدؤُهُ فى الأَصْلِ أَصْغَرُهُ وَلَيْسَ يَصْلَى بِكُلِّ الحَرْبِ جَانِيها

يَبْدَؤُهُ أى يبدأُ منه ، فحذف حرف الجر وَوَصل الفِعْلَ فَنَصَب . يقول :

---

(١) سبق الرجز فى ص ١١٥ .

أوائلُ الأمور ضعيفةٌ ، ومبادئُها صغيرةٌ حقيرة ، ثم تَسْتَحْكِم على مَرّ الأيام وتَصَرُّف الأحْوَالِ فتعظُم . وهذا كما قال الأخَر(١) :

الحربُ أوّلَ ما تكونُ فُتَيَّةٌ تَسْعَى بزِيِّنَتها لِكُلِّ جهولِ

وفى طريقته قولُ الآخَرِ(٢) :

* كم مَطَرٍ بَدْؤُهُ مُطَيْرُ(٣) *

وقولُه «وليس يَصْلى بنار الحرْب جانيها» يروَى : «بِجُلِّ الحرب» والمعنى : لا يَصْطَلِي بنار الحَرْبِ ومُعْظَمِهَا مَن يكتسبُها ويوقِدُها فقط ، بل يحصُل بالمشاركة فيها ويُمْنَى بِبَلْوَاهَا ، مَن لم يَنْقُل خَطْوَته فى بَعْثِها ، ولم يَسْعَ فى تهييجها .

٢ــ والحَرْبُ يَلحَقُ فيها الكارِهونَ كما تَدْنُو الصِّحَاحُ إلى الجَرْبَى فتُعْدِيها

يقولُ: شَرُّ الحَرْبِ يُعْدِى إعداءَ الجَرَبِ ، فترى الكارِه لها يَلتَحِقُ بها(٤) وإن كان غيرَ حازِمٍ لها ، وتَلْقَى البعيدَ منها يصطلِي بحرِّها وإنْ لم يُذْكِها(٥) ولم يُشَيِّعْ مَوقِدَها . وفى هذا التشبيه خروجُ المُشَبَّه من الكُمُونِ إلى الظُّهُورِ ، ومن الخَفَاءِ إلى البرُوز ، حتى يَتَجَلَّى لِمُتَأَمِّله والمُفَكِّرِ فيه على بُعْدِه فى التصوُّرِ تَجَلِّيَ القريبِ فى العُرْفِ والاعتياد . وهذا هو غاية المراد من التَّشبيهات .

٣ــ إنِّى رأيتُكَ تَقْضِى الدَّيْنَ طَالِبَهُ وقَطْرَةُ الدَّمِ مَكْرُوهٌ تَقاضيها

هذا البيتُ يصلُحُ أن يكون مدْحًا ، فيكون المعنى : إنى رأيتُكَ تخرُجُ إلى الْمُدِينِين سَرِيعًا من دَيْنِهم عليك ، غيرَ مُدافِعٍ بما فى ذِمَّتِكَ لهم ولا مُماطِلٍ ،

(١) عمرو بن معديكرب . شروح سقط الزند ١٦٧٨ .
(٢) هو أبو تمام . البيان والتبيين (٣ : ٦٧) .
(٣) صدره : * رب قليل جنى كثيراً *
(٤) م : « يمتحن بها » .
(٥) فى الأصل : « يدركها » والوجه ما أثبتنا من م .

فإذا طُولِبْتَ بِدَمٍ أو نُوزِعْتَ فى ذَحْلٍ ، شَقَّ تقاضيك به وتعذَّرَ ، وتَصَعَّبَ نيلُه من جِهَتِك وتعسَّرَ . فعَلَى هذا قولُه « مكْرُوهٌ تقاضيها » ، معناهُ مرُوهٌ تقاضيك بها . ويصْلُحُ أن يكون ذَمًّا ، فيكون المعنى : إنى رأيتُك بأهْوَنِ سَعْيٍ وأقرَبِ طلَبٍ تخرُجُ من الأوتار والدماء إلى طُلاَّبِها ، فلا كُلْفَةَ فى نَيْلِها وإدراكِها من جِهَتِك ، والتَّقاضِى بالدَّم عَسِرٌ صعبٌ إلا إذا كان عِندَك وَقِبلَك ، فما ذلك إلاَّ لضَعْفِ كيدِكَ ومَهانةِ نفْسِك ، وقُصورِ آبائك . والدِّين فى هذا الوَجه يُرَادُ به الوِتْرُ والدَّمُ . وقولُه « مكروهٌ تقاضيها » يعنى تقاضى غيرِكَ بها . ومثْلُ قولِهِ مكروهٌ تقاضيها فيما أُضيفَ إليه قولُ لَبيدٍ :

* با كَرْتُ حاجَتَها الدَّجاجَ بسُحْرَةٍ(١) *

لأنّ المعنى باكَرْتُ حاجَتِى إليها .

١٤٠

وقال شُرَيْح بن قِرْوَاشٍ(٢) :

١ — لَمَّارأَيْتُ النَّفْسَ جاشَتْ عَكَرْتُها على مِسْحَلٍ وأىُّ ساعَةِ مَعْكَرِ

يقولُ : لما تحرَّكَتْ حَمِيَّتِى وغَلَبَ(٣) نَفْسِى ، حتى كادَتْ تثورُ من مَقرِّها فتجرى أنَفَةً وامتعاضاً ، عَطَفْتُها على صاحبِي مِسْحَلٍ وفى أىِّ وقتٍ مَنْعطَفٍ فعَلْتُ ذلك . وهذا تفظيعٌ للشأن ، وتفخيمٌ للأمر . فإذا رَوَيْتَ « وأىُّ ساعة مَعْكَرٍ » بالرفع يكون مبتدأ وخبره محذوف ، كأنه قال : وأى ساعة مَعْكَر

(١) من معلقته . وعجزه :

* لأعل منها حين هب نيامها *

(٢) كان من سبب هذه الأبيات ما رواه التبريزى عن أبى رياش قال : لقى شريح بن مسهر أخو بلحارث بن كعب ، مسحل بن شيطان بن جذيم بن رواحة ، فطعن مسحلا فصرعه . فحمل شريح بن قراوش على شريح بن مسهر فطعنه فصرعه واستنقذ مسحلا : وقال هذه الأبيات .

(٣) كذا فى النسختين ، أى غلبت نفسى .

ومَكَرٍّ تلك الساعةُ . وإذا رويتَه بالنصب يكون ظَرْفًا ، ويكون العامل فيه مضمرًا ، كأنه قال : وعَكَرتُ أىَّ وقتٍ مَعْكَرٍ . ومعنى عَكَرَ : عطف . ويقال : هو عَكَّارٌ فى الفِتَن . وجواب لَمَّا « عَكَرتُها » .

٣ — عَشِيَّةَ نازَلْتُ الفَوارِسَ عِنْدَهُ وزَلَّ سِنَانِى عن شُرَيْحِ بن مُسْهِرِ

عشية انتصبَ على أن يكون بدلاً من قوله وأىَّ ساعة مَعْكَرٍ إذا نصبْتَ أيًّا ، وإن رَفَعْتَه فانتصابُ عَشِيَّةَ على أن يكون ظَرْفًا والعامل فيه فعْلٌ مضمرٌ دَلَّ عليه ما قَبْلَهُ ، كأنه قال عَكرتُ عشيَّةَ . ولا يكون العامِل نازَلْتُ ، لأنه مضافٌ إليه وبَيَانٌ للوقتِ ، والمضافُ إليه لا يَعمل فى المضافِ . فيقول : عَطَفْتُ عليه ذابًّا عنه ومدافعًا دونه ، عشيَّةَ منازَلَتِى الفُرسان بحَضْرته ، وحين زَلَّ سِنَانُ رمحى عن ابن مُسْهِرٍ ، وإنما زَلَّ السِّنان عنه وسَلِمَ من طَعْنَتِه لأنه كان لبِس دِرْعًا تحت ثيابه وهو لا يشعُر ، فكأنه يعتذر ويتلهَّفُ .

٣ — وأُقْسِمُ لَوْلَا دِرْعُهُ لَتَرَكْتُهُ عليه عَوَافٍ من ضِبَاعٍ وأَنْسُرِ

قولُه أُقْسِمُ يَمِينٌ ، والمحلوف به محذوف ، وهو لفظةُ الله . ولكثرة مجيئِها مع أُقْسِمُ صار وهو محذوف كالمنطوقِ به ، وجوابُ القَسَم استُغْنِىَ عنه بحديث لولا ، لأنه فيه . والمعنى أنه بَيَّنَ العُذْرَ فيما اتَّفَقَ عليه ، فقال لولا دِرْعُه التى استظهر بها ، وظاهَرَ بثوبه فوقها ، لتركْتُه بطَعْنَتِى مقتولًا ، وعوافى السِّباع والطير تأتيه وتنالُ منه . ويقال عفَاهُ واعتفاه بمعنًى واحد .

٤ — وهَلْ غَمَراتُ المَوْتِ إلا نِزالُكَ الْ كَمِىَّ عَلَى لَحْمِ الكَمِىِّ المُقَطَّرِ

هذا الكلام بيانُ ما تكلَّفه عند التعطُّف على مِسْحَلٍ ، وتصويرٌ لِهَوْلِ ما رَكِبَهُ وعاناه من عظيمِ البلاء فى نُصْرته . ولهذا جعل النَّفْى بلفظ الاستفهام ، فقال : وما شدائدُ الموت إلا منازلتُكَ الكمىَّ فوق لحم الكمِىّ ، أى فوق جِيَف

القتلى . ولولا أنّ هَلْ فى طريق النفى هاهنا لما جاء بعده إلّا . والمُقَطَّرُ : المُلْقَى على أحد قُطْرَيْهِ ، وهما الجانبان . ولقَطّر اختصاصٌ بالعبارة عن الإسقاط والصَّرْع . على ذلك قول عمْرو بن مَعْدِيكَرِبَ :

* ما قَطَّرَ الفَارِسَ إلّا أنَا[1] *

ومن المَحْكِيِّ عنهم فى المعنى الذى قَصَدَهُ هذا الشّاعر ، أنه سُئِل بعضُهُم : ما أشدُّ ما رأيتَه فيما زاولْتَه من الحروب ؟ فقال : « الزَّلَقُ على العَلَق » . وفى طريقته قولُ الآخر :

يَطَأْنَ مِنَ القَتْلَى ومنْ قِصَدِ القَنَا شَرِيجًا فما يَجْرِينَ إلَّا تَوَهُّمَا[2]

١٤١

وقال طَرَفَةُ الجَذِيمِىُّ[3] :

١ – يارَاكِبًا إمَّا عَرَضْتَ فبَلِّغَنْ بَنِى فَقْعَسٍ قولَ امرئٍ ناخِلِ الصَّدْرِ[4]

(١) صدره كما فى شرح شواهد المغنى ٢٤٥ .

* قد علمت سلمى وجاراتها *

(٢) م : « إلا تقحما » .

(٣) ذكره الآمدى فى المؤتلف ١٤٦ ، وقال : « أحد بنى جذيمة بن رواحة بن قطيعة ابن عبس بن بغيض ، شاعر فارس » ، وتصحف على صاحب القاموس فجعله طرفه الخزيمى ، وقال : « من بنى خزيمة بن رواحة » . وقال ابن جنى فى المبهج : « الطرفة : واحدة الطرفاء ومثله قصبة وقصباء ، وحلفة وحلفاء . . . . . وجذيمة : علم مرتجل وليس منقولا . ويجوز أن يكون من جذمت يده أى قطعتها ، فيكون اسماً كالنطيحة والذبيحة . وقال ابن جنى فى التنبيه : « طرفة الجذيمى جذيمة عبس ، ويقال الجذمى » . وبهذه النسبة الأخيرة ورد فى المؤتلف

(٤) قال أبو رياش : كان من خبر هذه الأبيات أن جذيمة بن رواحة بن ربيعة بن الحارث بن مازن بن قطيعة بن عبس – هو ابن فقعس بن طريف بن عمرو بن قعين بن الحارث ابن ثعلبة بن دودان بن أسد بن خزيمة . وذلك أن حية بنت مالك بن مرة كانت تحت فقعس فمات عنها فخلف عليها رواحة ، فولدت جذيمة على فراشه . فزعموا أنها تزوجته وهى حبلى بجذيمة فولدته لثلاثة أشهر ، فجله جذيمة يطلب بميراثه من أبيه فقال له أعيا بن طريف : ما أعرفك ولا لك عندى ميراث . فقال له : ويحك أعطنى ولو بكراً أستحق به النسب . فمنعه ... وثبت جذيمة فى بنى عبس » .

يخاطِبُ واحداً من الركبان غيرَ مُعَيَّنٍ ، ويكلِّفُهُ إن عَرَضَ ابنى قَمْعسٍ أن يُبَلِّغَهم عنه قولَ رجُلٍ ناخِلِ الصَّدرِ ناصح الجَيْبِ ، صادِقِ الوُدِّ . وإنما نَكَّرَ المدعُوَّ لأمْرين : أحدهما شدّة اهتمامه بالرسالة وتحميلها رسولاً كائنًا من كانَ . والثانى أنّه أراد أنْ يضع رسالةً ظاهرها أنها أودِعَتْ متحمِّلاً ، علماً بأنَّ الرسالة بنفسها إذا ضُمِّنَت الشِّعْرَ وعُقِدَتْ به ستبلُغ على أفواه الرُّوَاة . وقولُه « نَاخِلِ الصدر » يريدُ مُصَفِّي ما فى الصَّدر ، فحذف المُضاف . أو يريد ناخل الصَّدْرِ لما يَعنيه فجعل الفعل للصَّدر توسُّعاً ، والمعنى أنّه موافق الظّاهر للباطن . ويقال : نَخَلْتُ الوُدَّ والنُّصْحَ لفلانٍ ، إذا أخلصتهما .

٢— فواللهِ ما فارقْتُكُم عن كَشَاحَةٍ ولا طِيبِ نَفْسٍ عنكمُ آخِرَ الدَّهْرِ

يقول : أحْلِفُ أنّى لم أُوثِرْ فراقَكم لعداوةٍ لازمةٍ لِكَشْحِى ، وبغضاء متمكِّنةٍ من طويّتى ، ولا لِسُلُوِّ نفسٍ عنكم وسخاء قلب بكم آخر الدّهر . وهذا الكلامُ إظهارُ مَيْلٍ إلى إصلاح ذات البين لو تساعَدَت الأحوال ، ومَعْذِرَةٌ أقامها فيما قَصَدَهُ من مُرَاغمتهم ، وآثَرَهُ فى مهاجرتهم ومفارقتهم ، وإبانَةٌ عن الأمرِ فى أنَّ الباعث على ما اتفق لم يكن من سُوء خَلْقٍ ، وانطواء على حَسَدٍ وقطيعةٍ . وإنما قَرَنَ السُّلُوَّ بقوله آخر الدهر ليُرِىَ أن ذلك التقدير ليس بحاصِلٍ ولا واقعٍ أبداً ، وهذا كما يقال لا أفعل كذا ما دامت السموات والأرض .

٣— ولكنّنى كُنْتُ امرأً من قبيلةٍ بَغَتْ وأَتَتْنِى بالمظالم والفَخْرِ

هذا كَشْف العِذْرة وذِكْر السَّببِ الموجب للمجانبة والفُرْقة ، فيقول : ولكننى كنت رَجُلاً من قبيلةٍ خرجت عن طريق التَّواصُل إلى طريق التَّقاطع بما استعملته من البَغْى والشِّقاق ، وتعاطَتْهُ معى من الظُّلم والعِناد ، حتَّى تَداعَتْ مبانِى التَّواشُج والتَّحابّ ، وانفصمتْ عُرَى العلائق بيننا والتَّوادّ ، وعِيلَ

الصبْرُ ، بما لحق من الهَضْم ، وحَرِجَ الصَّدرُ ، لِمَا تلاحَقَ حالًا بعد حالٍ من الاستخفاف والذُّلّ .

٤ — فإنِّى لَشَرُّ النّاسِ إنْ لم أُبِتْهُمُ على حَالةٍ حَدْباءَ نابِيَةِ الظَّهْرِ [1]

انتقل عن الخطاب إلى الإخبار حين توعّدهم ، وإنْ كان الكلُّ من جملة الرِّسالة . ويروَى : « لِشَرِّ الناس » بكسر اللام ، والمعنى أنا ابنُ شرِّ الناس ، كما قال النابغة :

* لئن كان للقبرين قبرٍ بجلّقٍ [2] *

والكلام لفظه لفظ الخبر والمعنى معنى القسم . وهذا من الأيمان الشريفة . ويروى : « لَشَرُّ الناس » . والمعنى : أنا شَرُّ الناسِ إنْ أحمِلْ هؤلاء القَوْم بياتًا على حَالَةٍ مُنكرةٍ ، وخُطَّةٍ صعبة ، لا يُستقَرُّ عليها ، ولا يُثبَتُ على ظَهْرِها .

وفى هذه الطريقة قولُ الآخَر [3] :

لَقَدْ حَملتْ قيسُ بنُ عيلانَ حربَنا على يابِسِ السِّيساءِ مُحدَوْدِب الظَّهْرِ

فقوله نابية الظهر مثل قول هذا مُحْدَوْدِب الظهر ، أى ظَهْرُها يجفو لِنُتُوِّه ونُبُوِّه فيقلق راكبها ولا يَقِرُّ ، وجوابُ الجزاء الفاء فى قوله وإنى لَشرُّ النَّاسِ .

٥ — وحتى يَفِرَّ النّاسُ من شَرِّ بيْنِنا ونَقْعُدَ لا نَدْرِى أَنَنْزِعُ أم نَجْرِى

تَعَلّق حَتّى بفعلٍ مضمرٍ ، كأنّه قال : وأُديمُ ذلك لهم حتّى يَفِرَّ الناسُ ، أى إلى أن يفِرَّ الناسُ . والمعنى : إنّى لا أزالُ أتمَادَى فى اللَّجاج والشَّرّ ، وأترقَّى فى دَرجاتِ النِّزاع والحْرب ، حتّى يَستقِيلَ النّاسُ من مشاركتِنا وملابستنا فيما نُزاوله ، ويستَعْفُوا من التوسُّط بيننا وردّنا عَمَّا نقتحمه ، ويَنفُضُوا أيديَهم من استطلاحنا

(١) كذا ورد فى الأصل وفى م والتبريزى والمؤتلف : «على آلة» . والآلة : الحالة أيضا .

(٢) عجزه : * وقبر بصيداء التى عند حارب *

(٣) هو الأخطل ، ديوانه ١٢٩ واللسان (سيس) .

ونتحيَّر نحن أيضاً ونرتبك إذا توسَّطْنا أُمُورَنا ، فلا نَدْرِى أُنْقِصرُ ونَـكُفُّ ، أم نجْرِى فَنَنفُذُ . وهذا إلمامٌ بما سارَ به المَثَلُ فى قصة السالئة للسَّمْن ، وبقول الشاعر[٢] :

وكُنْتُ كذاتِ القِدْرِ لم تَدْرِ إذْ غَلَتْ أَتُنْزِلُها مُذْمُومَةً أم تُذِيبُهَا[٢]

وفى المثل السائر : « اختَلَطَ الخاثِرُ بالزُّبَّاد[٣] » . وقولُه « لا نَدْرِى » فى موضع الحالِ .

١٤٢

وَقَال أُبَىُّ بن حُمَام المُرِّىُّ[٤] :

١ — تَمَنَّى لِيَ المَوْتَ المُعجَّلَ خَالِدٌ ولاخَيْرَفِيمَنْ لَيْسَ يُعْرَفُ حاسِدُهْ

٢ — فَخَلِّ مَـكَانًا لَم تَـكُنْ لِتَسُدَّهُ عَزِيزاً على عَبْسٍ وذُبْيَانَ ذَائِدُهْ[٥]

يقول : وَدَّ لِيَ الموتَ الوَحِىَّ السريعَ الإتيانِ خالدٌ ، حَسَدًا منه وبُغْضاً ، ومُنافَسَةً فى الرِّياسة وحِقْدًا . ثم قال مُتَسَلِّيًا : ولا خَيْرَ فيمن لا حاسِدَ له ، لأنّ الحَسَد من توابِـع الفضل ومسبَّباته . ومثل هذا قولُ الآخر :

إن يَحْسُـدُونى فإنى غـير لائمهم
قَبلِى من الناسِ أهلُ الفَضْل قد حُسِدُوا[٦]

وقد شرح القول فيه . وقوله « فخَلِّ مَقامًا » أقبَلَ على خالدٍ مُبَكِّتًا له

(١) هو بشر بن أبى خازم . المفضليات (٢ : ١٣١)
(٢) رواية المفضليات : « فكانوا كذات »
(٣) الزباد ، كرمان : ما لا خير فيه .
(٤) التبريزى والآمدى : « العبسى » قال التبريزى : وحمام هو ابن جابر بن قراد بن مخزوم بن مالك بن غالب بن قطيعة بن عبس » . ومثله عند الآمدى فى المؤتلف ٩١ .
(٥) التبريزى والآمدى : « فخل مقاماً » .
(٦) من الحماسية ١٣٨ .

ومُقصِّرًا به ، يعرِّفُه أنه يَحسُدُه فيما لا يَصْلُحُ له ولا يُستَكْفَى مِثلُه فيه ، فقال : أَتْرُكُ مقامًا تَزِلُّ قَدَمُك عنه ، وتسقُطُ رُتْبَتُك دُونه ، وأُنسَ مكانًا لا تسدُّه بكفايتك ، ولا تقوم فيه بغَنائك ، [ويعزّ المدافعُ دونه على طوائف عبس وذبيان — وإنما يريد رياسة العشيرة(١) —] وخَلِّ القيام بأمرِ عَبْسٍ وذُبْيان ، إذْ لَسْتَ من رجالِ ذلك . وقوله « لِتَسُدَّه » اللام فيه لام الجحود ، وهى لام الإضافة ، والفعل بعده ينتصب بأن مُضْمَرَةً ولا يُظْهَرُ البَتَّةَ .

١٤٣

وقال أيضًا :

١ — لَسْتُ بِمَوْلَى سَوْءةٍ أُدَّعَى لَهَا فإنّ لسَوْءاتِ الأُمُورِ مَوَالِيَا

مَوْلَى سَوْءةٍ : مُتَوَلِّيها وصاحبها . ويجوزُ أن يكونَ مِنَ الوَلْيِ : القُرْب أى لا أقارِبُها(٢) ولا أدانيها : وقوله « أُدَّعَى » من الدِّعاوةِ والدِّعْوَةِ ، وهى النِّسْبة . يقول : لا أَتَعاطى قبيحًا ، ولا أتولَّى مُخْزِيَةً فأُنْسَبَ إليها ، وأُعْرَفَ بها ، فإنّ لمقابح الأمور أَرْبابًا غيْرِى . وهذا انتفاء من الأَدْناس ، وتبرُّؤٌ من المقابح ، وتعريضٌ بأن ما يتنزّه عنه حاصلٌ فى مُجاذِبِه وملازِمٌ له .

٢ — ولَنْ يَجِدَ النّاسُ الصديقَ ولا العِدَى أَدِيمِى إذا عَدُّوا أَدِيمِىَ وَاهِيَا(٣)

(١) التكملة من م .

(٢) م : « أقارفها » . والمقارفة : المقاربة والمداناة .

(٣) ابن جنى : « زاد لا مؤكدة للنفى ، وفاصلة بين معنيين ، وذلك أنه لو قال : ولن يجد الناس الصديق والعدى أديمى واهيا لم يكن فيه دليل أنه لا يجد بعضهم دون بعض ، وإنما فيه من الدليل أنه لا يجدونه كذلك كلهم ، فقد يجوز أن يجده واهيا بعضهم ، كما أنك إذا قلت ما جاءنى الناس كلهم ففيه نفى مجىء الكل وليس فيه نفى مجىء البعض . فإذا قلت ما جاءنى الصديق والعدو جاز أن يكون قد جاء بعض أولئك . فإذا قلت ما جاءنى الصديق ولا العدو لم يجز أن يكون جاءك أحد منهم . فهذا هو الفرق ، وهو أمدح ، لأنه لم يطلع أحد منهم على ضعفه » .

يقولُ : إنى صحيحُ الأصل ، تقىُّ العرض ، فلو تعاوَنَ فى الـكَشْفِ عمَّا أدَّعيه والبحثِ دونَه أصدقائى وأعدائى ، ومن يرَى التغميضَ على ما يُنـكِرُه ، أو التشهيرَ والتنديد بمـا يثيرُه ، لمـا وجدوا غميزةً ، ولا ظَفِروا بنَقيصة . وذِكْرُ الأديم مَثَلٌ للعَرض والأصل . والعَدُّ والإحصاء كنايةٌ عن الفَحْص والتنقير .

٣ ــ وإنّ نِجارِى يا ٱبْنَ غَنْمٍ مُخَالِفٌ نِجَارَ اللِّئام فابغِنى مِنْ وَرَائيا

النِّجَارُ : الأصل . وهذا تعريضٌ بالمخاطَب ، يقول : أصلى مخالِفٌ لأصول الأدنياء ، فاطلبْنى للمُفاخرة إذا غبتُ عنك [أو فُتُّكَ(١)] . فأما إذا حَضَرْتُ فإنك لا تقاوِمُنى ولا يستقيم لك مساجَلتى . هذا إذا جعَلْتَ وراء بمعنى خَلْف ، فإن جعلتَهُ بمعنى قُدّام يكونُ بمعنى أبغِنى إذا تقدَّمْتَنى . ومَن طَلَبَ من تخلَّفَ عنه مِن قُدّامٍ لا يُدْرِكُه . والـكلام على هذا يكون تهكُّمًا وسُخْرِيَّةً . فالمعنى فى الأوّل والثانى : إنك لا تَلْحَقُ شَأْوِى فاطلُبْنى طَلَبَ المعَذِّر واليائس(٢) . ويجوز أن يكون يُرِيدُ : إنى كريمُ الأصل ، رفيع المَحَلّ ، علىُّ الرُّتبة ، ومن كان كذلك لا يُظفَرُ به ، ولا يُضْطادُ مِثْلُه [إلاّ(٣)] بالخضوع له والانقياد بالتذلُّل بين يديه ، فأبغِنى وأنت تابعٌ لى ، وواطئٌ عَقِبِى ، حتى تنالَنى ، وإلا لم تَبْلُغْ مُرادَكَ منِّى . ويقالُ : فلانٌ من وراءِ فلانٍ ، إذا كان ناصرًا له ، وتابِعًا . وأنشد ابن السِّـكِّيت :

لعَمْرُكَ ما كان ٱلقَرَنْبَى ورَهْطُهُ بِعَمِّى ولا خالِى ولا مِنْ ورائيا

وقال : المَعْنَى ولا ناصرى . فأما قولُهم الله من ورائك ، فالمعنى طالبُكَ ومُترصِّدٌ لمكافأتك . فعَلَى القولِ الأخير يكون من ورائى فى موضع الحال لضمير الفاعل فى أبْغ .

(١) التكملة من م . (٢) التبريزى : « كبعض الرجال » .
(٣) المعذر : المقصر المتوانى من غير عذر . ومنه : « وجاء المعذرون » .

٤ – وسِيَّانِ عِنْدِي أنْ أَمُوتَ وأنْ أُرَى كَبَعْضِ رِجالٍ يوطِنُونَ الْمَخَازِيَا

ارتفع سِيّانِ على أنه خبر مُقَدَّم لقوله « أن أَمُوتَ وأنْ أُرَى » ، والمعنى : مِثْلَانِ عندى مَوتى وأن أُرَى كمن يَألفُ المخازىَ ويَرْضاها وطَناً ومأوًى ، ولا يأنَسُ إلاّ بها ، ولا يَرْجِـعُ إلّا إليها . وهذا تَعْرِيضٌ بالُمخَاطَبِ أيضاً . والسِّىُّ : المِثْلُ . قال :

فإيّاكُمْ وحَيَّـةَ بَطْنِ وَادٍ هَمُوزِ النّابِ ليس لـكُمْ بِسِىٍّ(١)

٥ – ولَسْتُ بِهَيَّابٍ لمن لا يَهَابُنِي ولَسْتُ أرَى للمَرْءِ ما لاَ يَرَى لِيَا

يقول : لاأحتشِمُ مَن لا يحتشمنى ، ولا أتهيَّبُه إذا لم يتهيَّبْنى ، ولا أرى من إعظام المرء وإجْلَالِهِ ما لا يَراهُ لى ، لـكنِّى أُوازِنُ الناسَ فى أفعالِهم ، وأجازيهم على قدر استحقاقهم . وقوله « ما لا يرى ليا » حَذَفَ مفعول يَرَى تخفيفاً ، وهذا الحذفُ سائغٌ إنْ جَعَلْتَ ما مَعرِفةً فكان ما بعدهُ صِلةً ، أو جعلته نكرة فكان صِفة .

٦ – إذا المَرْءُ لم يُحْبِبْكَ إلا تَـكَرُّهًا عِرَاضَ العَلُوقِ لم يكنْ ذاكَ باقيا

انتصب قوله « تكرُّها » على أنه مَصْدَرٌ فى موضِـع الحـال ، والتقدير إلا متكرِّهًا . وانْتَصَبَ « عِرَاضَ العَلُوقِ » على أنه مصدرٌ مما دَلّ عليه قوله « لم يُحْبِبْكَ إلا تَـكَرُّهًا » ، لأنّ المعنى إذا الرّجلُ عارَضَك فى الُحبِّ عِراضَ العَلُوق لم يكن ذلك الُحبُّ باقياً ولا ثابتاً . والعَلُوق ، هى المرأة التى تَرأَم ولدَها وتَلسُنُهُ حتّى يأنسَ بها ، فإذا أرادَ ارتضاع اللّبنِ منها ضَرَبَتْهُ وطردَتْهُ . قال :

(١) للحطيئة فى ديوانه ٦٩ واللسان (سوا) .

وما نَحَنِي كَمِناجِ العَلُو قِ ماتَرَ من غِرَّةٍ تَضْرِبِ(١)

ويشْبِهُ البيتَ الذى نحن فى تفسيره قولُ الآخَرِ(٢) :

أمْ كيف ينفعُ ما تُعطِى العَلُوقُ به رِئْمانَ أنفٍ إذا ما ضُنَّ باللَّبَنِ

١٤٤

وقال عَنْتَرَةُ بن شَدَّادٍ(٣) :

١ — يُذَبِّبُ وَرْدٌ على إثْرِهِ وأمْكَنَهُ وَقْعُ مِرْدًى خَشِبْ

هذا وَرْدُ بن حابِسٍ طَلَبَ نَضْلَةَ الأسَدِى بوِتْرٍ كان له عِندَهُ(٤) . فيقولُ : تَسَرَّعَ هذا الرجل فى إثْرِ الهارب منه ، واستحثَّ فَرَسَهُ فى لَحاقه ، فمكَّنَهُ منه عَدْوُ فَرَسٍ صُلْبٍ كأنَّه مِرْداةٌ . والمِرْدَى : صَخرة يُكسر بها النَّوَى وغيرُه . ومعنى خَشِبٍ خَشِنٌ . ويقال خَشَبْتُ الشىءَ خَشْبًا فَخَشِبَ . والخَشِبُ(٥) من السَّيف(٦) : الذى بُدِئَ طَبْعُه فلم يَلِنْ بَعْدُ . وقوله « وَقْعُ مِرْدًى » هو من وقَمْتُ الحديدَة ،

---

(١) للنابغة الجعدى فى اللسان (علق) . وقد روى فى الأصل : « تضرب » بالرفع ، وصوابه بالخفض لأنه جواب الشرط كما فى م ، وعليه نبه ابن برى . اللسان (علق) . وقبله :

وكان الخليل إذا رابنى فعاتبته ثم لم يعتب

(٢) هو أفنون التغلبى . اللسان (علق ، رأم) والبيان والتبيين (١ : ٩) والمفضليات (٣ : ٦٢) وخزانة الأدب (٤ : ٤٥٦) .

(٣) كذا فى الأصل . وفى م والتبريزى : « وقال عنترة » فقط . ويبدو أن هذا الأخير هو النص الصحيح . وقال التبريزى : « قال أبو هلال : يعنى عنترة بن معاوية بن شداد بن قراد بن مخزوم بن مالك بن قطيعة بن عبس ، وكنيته أبو المغلس . وفى الشعراء جماعة يقال لهم عنترة منهم هذا ، ومنهم عنترة بن عكبرة الطائى ، وهو عنترة بن الأخرس ، وقد مرّ ذكره . ومنهم عنترة بن عروس مولى ثقيف ، وكان مولدا فى بلاد أزد شنوءة : شاعر راجز » . وانظر الحماسية ٥٣ والمؤتلف والمختلف للآمدى ١٥١ — ١٥٢ .

(٤) التبريزى : « وقيل ورد : اسم فرسه » .

(٥) فى الأصل : « والخشيب » ، والوجه ما أثبتنا من م .

(٦) كذا فى النسختين ، كأنه جعل السيف جنسا ، أو لعل : « من » مقحمة .

إذا ضرَبْتَهَا بالميقَعَةِ ، كأنَّ الفَرَسَ كان يَضربُ الأرضَ بحوافِره ضَرْبَ الحديد بالميقعَةِ . ومن هذا قول الهُذَلىِّ ساعِدَةَ :

وحَوَافِرٌ تَقَعُ البَرَاحَ كأنَّمَا أَلِفَ الزِّمَاعَ بها سِلاَمٌ صُلَّبُ[1]

[فمعنى تقع البراح ، أى تقرعه . وروى الجمحى هذا البيت :

. . . . كأنّما ألف[2] الزِّماع ردى سِلام صُلّب[3]]

وقال : رَدَى صخرَةٍ ، شَبَّهَ الأنف بها ، فعلى هذه الرواية يَحْصُل التوافُق بين بَيْتَىْ عَنْترة وساعِدَة الهُذَلِىّ فى اللفظ أيضا .

٢ — يتَابِعُ لا يَبْتَغِى غَيْرَهُ بأَبْيَضَ كالقبَس المُلْتَهِبْ[4]

التتابُع والمتابعةُ يستعملان فى اطِّراد الشَّىء واستمراره على حَدٍّ واحدٍ . على هذا قولهُ :

* وَعُرَاضَةُ السِّيَتَيْنِ تُوبِعَ بَرْيُهَا *

ومفعول يُتابع محذوفٌ ، ويجوز أن يكون الفعل للرّجُل ويجوز أن يكون للفَرس . كأنّ المرادَ : يتابِع الرّكضَ أو العَدْوَ . وموضع لا يبتغى نَصْبٌ على الحال . والباء من قَوْلِهِ « بأبيض » يجوز أن يُرِيدَ به سَيْفاً . والقَبَسُ : النار . شَبَّهَهُ بها فى بَرِيقها ولمعانها ويجوز أن يريد به رجُلاً كريما ، ويكون على هذا « يتابع » للفرس . وشَبَّهَهُ بالنار لذكائه ونفاذه . واستعمالُ البياض فى الكَرَم ونقاءِ العِرْضِ كثيرٌ معروف ، على ذلك قولُ الآخَرِ[5] :

(١) ديوان الهذليين (١ : ١٨٦) .
(٢) فى الأصل ، وهو هنا م : « كافا أنفسه » . (٣) هذه التكملة من م .
(٤) جعل التبريزى الرواية الأولى : « تتابع » وقال : « أى تمادى هذا الرجل لا يبتغى غير نضلة . والتتابع فى الشر دون الخير . ويروى : يتابع ، ومفعول يتابع محذوف » .
(٥) هو ابن قيس الرقيات . ديوانه ٨٣ .

* أُمُّكَ بَيْضَاءُ من قُضَاعَةَ[1] . . . . *

فأما مَعْنَى قوله « يبتغى غَيْرَه » فيجوزُ أن يكون أن هِمَّتَهُ كانت موكولةً به لا بشىء من الغنائم والأموَالِ . وكأنَّه أَلَمَّ بقوله :

* أَغْشَى الوَغَى وأَعِفُّ عند المَغْنَمِ[2] *

ويجوز أن يُرِيدَ أنَّ قَصْدَه فى الطَّلَبِ كان إليه لا إلى غيره من النَّاس .

٣ — فَمَنْ يَكُ فى قَتْلِهِ يَمْتَرِى   فإنَّ أبا نَوْفَلٍ قد شَجِبْ

أضَافَ المَصْدَرَ فى قَتْلِهِ إلى المفعول . يقول : مَنْ شَكَّ فى قتل وَرْدٍ لِنَضْلَةَ فَلْيُزِلِ الشَّكَّ عن نفسه ، وليَدَعِ الارتياب إلى غيرِهِ فإنه هَلَكَ لا مَحَالة . وأبو نَوْفَلٍ : كنية نَضْلَةَ . وفى الكلامِ تَهَكُّمٌ وإظهار شَمَاتة . ويقال شَجَبَ بفتح الجيم ، إذا هَلَكَ ، فهو شَاجِبٌ ، وشَجِبَ بكسر الجيم فهو شَجِبٌ ، لغتان .

٤ — وَغادَرْنَ نَضْلَةَ فى مَعْرَكٍ   يَجُرُّ الأسِنَّةَ كالمُحْتَطِبْ

النون ضمير الخيل . يقول : تَرَكَتِ الخَيْلُ هذا الرجل لمَّا انكشفت عنه وهو فى مُزْدَحَمِ الحَرْبِ جارًّا للأسنَّة المكسورة فيه عند الطعْن ، كأنّه جامع حَطَبٍ . ويقال أَجْرَرْتُ فُلانًا الرُّمحَ فَجرَّهُ ، أى كسرْتُه فيه لمَّا طعَنْتُه فصار يجرُّه . وأنشد أبو زَيْدٍ :

* أَجرَّهُ الرُّمْحَ ولا تُهالَهْ[3] *

وحكى بعضهم أن المحتَطِبَ : دُوَيْبَةٌ تمرُّ على الأرْضِ فيَعْلقُ بها العِيدانُ .

(١) هو بتمامه كما فى الديوان وما مضى فى حواشى الحماسية ٢٥ : ٣ :
أمك بيضاء من قضاعة فى الـ * بيت الذى يستكن فى طنبه
(٢) لعنترة فى معلقته . وصدره :
* يخبرك من شهد الوقيعة أننى *
(٣) سبق إنشاده فى البيت السابع من الحماسية ٢٩ ص ١٦٢ .

ويكون المعنى يجُرُّ الأسنّةَ كما تجُرُّ هذه الدُّوَيْبَّةُ العيدانَ . وهذا تصويرٌ للخفيّ بالجَلِيّ .

١٤٥

وقال عُرْوَةُ بن الوَرْدِ[١] :

١ - لَحَى اللهُ صُعْلُوكاً إذا جَنَّ لَيْلُه مُصَافِي المُشَاشِ آلِفًا كلَّ مَجْزِرِ[٢]

لَحَى الله : كلمةٌ تُستعمل في السَّبِّ ، وأصله اللَّوْم والقَشْرُ أيضاً . والصُّعلوك : الفقير . يقول : زاد الله كلَّ فقيرٍ يرضى من عَيشه بأن يطُوفَ في المَجَازر إذا أظلَمَ عليه الليلُ ، ويلتقط المُشاشَ منها كأنه يصافيها ويلازمها حُبًّا لها - فَقْرًا[٣] . وإنما قال هذا على وجْه الإنكار . أي لِمَ يقنعُ بذلك ، ومالَهُ يُسِفُّ لمثلِ هذا المَطْمعِ الخسيس ولا يطلبُ مَعالىَ الأمور . والمُشاش : كلُّ عَظْمٍ هَشٍّ دَسِم ، والواحدُ مُشاشةٌ . وقولُه « مُصافِي المُشاش » نَكرةٌ ، وانتصبَ على أنه صفةٌ لقوله صُعْلوكاً . وإضافته ضعيفةٌ ، لأن المشاشَ أُشيرَ به إلى الجنْس ، ولا يَحصُل التخصيص بالإضافة إليه . وعلى هذا قولهم : قَيْدُ الأوابد ، وَدَرَكُ الطَّريدةِ وما أشبهُ . وكان يجب أن يحرِّكَ الياء من مُصافي بالفتح ، فسكَّنَه لأن منهم من يُجْرِي الفتحةَ في مِثله من المعتلِّ مجرى سائر الحركات فلا يُثْبِتُها .

٢ - يَعُدُّ الغِنَى من نَفْسِه كلَّ لَيْلَةٍ أصابَ قِرَاهَا من صَدِيقٍ مُيَسَّرِ

(١) التبريزي : « سمى بالعروة من الشجر ، وهو ما لاييبس في الشتاء فتستغيث به الإبل في الجدب » . وعروة : شاعر جاهلي فارس من بنى عبس ، كان يلقب عروة الصعاليك ، لجمعه إياهم وقيامه بأمرهم . انظر الأغاني (٢ : ١٨٤ - ١٩٠) واللآلئ (٨٢٣ - ٨٢٤) والخزانة (٤ : ١٩٤ - ١٩٦) والشعر والشعراء ٦٥٧ .

(٢) رواية الديوان : « مضى في المشاش » .

(٣) فقرا ، مفعول « زاد » في أول هذه العبارة .

يقول : لِفَرَحِه بما يَنالُه من كَسْبِه الدَّنِيّ ، ورضاهُ عن أيّامِه بعَيْشِهِ اللئيم يَعُدُّ – إذا أصابَ القِرَى لَدَى صديقٍ وُلِدَت له شِياهٌ فاتَّسَع اللَّبنُ عنده وفى رَحْلِه – الغِنَى مَحُوزًا لَهُ ، ومحصَّلاً عنده ، فلا غَضاضةَ تلحقه ، ولا أنَفَةَ تقبضُه . والمُيَسِّرُ ضدُّ المجنِّب ، يقال يَسَّرَ الرَّجُل ويَسَّرَتْ غنمُه . وجَنَّبَ الرجُل ، إذا قَلَّتِ الحَلُوبة فى إبلِهِ وغنمه . قال :

* وكلُّ عامٍ عليها عامُ تَجنيبِ[1] *

وقولُه « أصابَ قِرَاهَا » أضافَ القِرَى إلى الليلة على المجازِ ، والمرادُ قِرَاهُ فيها .

٣ – يَنَامُ عِشَاءً ثم يُصْبِحُ ناعِسًا يَحُتُّ الحَصَى عَن جَنْبِهِ المُتَعَفِّرِ[2]

يقول : ينامُ هذا الصُّعْلوكُ لدناءة هِمَّته ، وقماءة معيشته ، واستيلاء الكسل على نفسه ومكسَبِه قُبُلَ اللَّيل[3] ، لأن هِمَّتَه[4] فى راحَتِه ونومِه ، وحِرْصِه على ما يَسُدُّ جَوْعَتَه به . ثم يأتى الصَّباحُ عليه وهو ناعسٌ بَعْدُ ، غير قاضٍ حاجَتَه من الرُّقاد ، ولا ضَجِرٍ فى مَضجَعِه بالتساقط والانجدال ، يَنفى عن جَنْبِه ما لَصِق به من الحَصَى والتُّراب ، ونَشِبَ فيه من دُقاقِ الحصى . وذلك لأنه نامَ بلا وِطاء . وقوله « يَحُتُّ الحصى » أى يُسْقِطُه ، فهو قريب مِن يَحُطُّ . والعَفَرُ : التراب . ويقال عَفَّرْتُه فتَعَفَّرَ .

---

(١) للجميح الأسدى فى المفضليات (١ : ٣٣) وصدره :

* لما رأت إبلى قلت حمولتها *

(٢) الديوان : « ثم يصبح طاويا » .

(٣) م : « ومكسبته . وقبل كل شىء : أوله .

(٤) كذا على الصواب فى م . وفى الأصل : « لأن نهمته » .

٤ ــ ولكنّ صُعْلُوكاً صَفيحَةُ وَجْهِهِ   كَضَوْءِ شِهابِ القَابِسِ المُتَنَوِّرِ (١)

صَفْحةُ الرّجُل وصَفِيحته : عُرْضُ وجهِه . يقول : ولكنّ فقيرًا مُشْرِقَ الوَجه صافىَ اللوْنِ ، لا يتخشّع لفقرِهِ ، ولا يتذلّلُ إذا أثّرَ الدهرُ فيه ، فكأنّ ضوْءَ وجهِه ضَوءُ نار القابس المتنوِّر . والقابس هاهنا ذو القَبَس معناه . والقَبَسُ : النار ، ويكون القابسُ الطالبَ . ويقال : أقْبِسْنى نارَكَ . والمتنوِّر : المتفعِّل من النار . ويقال تنوّرْتُ النار ، أى نظرْتُ إليها واستضأْتُ بنورها . ومنه قول امرئ القيس :

تنوّرْتُها من أذرِعاتٍ وأهْلُها   بيَثْرِبَ أدْنَى دارِها نَظَرٌ عالِ

وموضع « صفيحةُ وجهه » مع خَبَرِه نَصْبٌ على أن يكون صفةً لصُعْلوكاً وخَبَرُ لكنّ يجىءُ فيما يجىءُ من بَعْدُ . وقوله « صفيحة وجهه » حَذَفَ المُضافَ منه لأنّ المرادَ ضوءُ صفيحه وجهه كضَوْءِ شِهابٍ ، فأقام المضاف إليه مَقامَه .

٥ ــ مُطِلاًّ على أعدائه يزجُرُونَهُ   بِسَاحَتِهِمْ زَجْرَ المَنِيحِ المُشَهَّرِ

يقالُ : أطَلَّ على كذا ، إذا أوفَى عليه . والمَنِيحُ ، قال الخليل : هو الثّامنُ من القِداح . وقال أبو عَمْرٍو : المَنِيحُ والسَّفِيحُ والوَغْدُ قِدَاحٌ لا أنْصِباءَ لها ، وإنّما يُكَثَّرُ بها القِداحُ فهى تُجَالُ أبدًا ، وقال الأصمعىُّ : المنيح الذى لا يُعتَدُّ به . فيقولُ : ولكنّ الفقيرَ الوضىءَ الوجْهِ ، الذى يبذُل جُهْدَه ويبتذِلُ نفسَه فى طلب غِناه ، ويُقْصِرُ سَعْيَه على ما يبلغ به عُذرَه فيُشرِفُ على أعْدائِهِ غازِيًا ومُغيرًا ، وهم يزجرونهُ حالاً بعد حَالٍ ، ويكُرُّ هو عليهم وقتًا بعدَ وقتٍ يُزجَرُ هذا القِدْحُ فى خروجه ومع ذلك يُرَدّ . وخَبَرُ لكنّ بَعْدُ لم يَجِئْ .

(١) بين هذا البيت وسابقه عند التبريزى :

يُعِينُ نِسَاءَ الحَىِّ ما يستعِنّهُ   ويُمْسِى طليحًا كالبعيرِ المحَسَّرِ

٦ — إذَا بَعُدُوا لا يَأْمَنُون اقترابَهُ تَشَوُّفَ أهلِ الغائبِ الْمُتَنَظَّرِ (١)

يقول : هذا الفقيرُ لا يَقْعُدُ به عن طَلَبِ الأعداء والإغارَةِ عليهم والنَّيْلِ منهم بُعْدُ الغَزَاةِ وتنائى الدّار ، فهم لا يأمنونَهُ وإن شَحَطُوا ، بَلْ يتشوَّفونَهُ تَشَوُّفَ الغائب المُتَنَظَّر ، أى كما يُتَشَوَّفُ غائبٌ دَنَا قُفُولُه ويُنتظَرُ . وانتصب « تشوُّفَ » على المَصْدَر فيما دَلّ عليه لا يأمَنون اقترابَه ، ومفعول تَشَوُّفَ محذوفٌ ، كأنّه قال تَشَوُّف أهل الغائب رُجوعَهُ .

٧ — فذلك إن يَلْقَ المَنِيَّةَ يَلْقَهَا حَميداً وإنْ يَسْتَغْنِ يَوْمًا فأجْدِرِ

يقولُ : ذلكَ الصُّعْلُوكُ إنْ أدْرَكَهُ الأجَلُ ، قَبْلَ نيلِ الأمَل ، لَقِيَهُ محموداً ، إذ كانَ قَدْ فَعَلَ ما وَجَبَ عليه ، وأقامَ عُذْرَه فى مطلوبِهِ باستفراغ الوُسْعِ فى السَّعْيِ لَهُ ، وإذْ كانَ التَبِعَةُ فيما فَاتَ على من يَملكُ العَوَاقبَ دُونَهُ . وإن نَالَ الغِنَى يَوْمًا فما أخْلَقَهُ بذلك . وقولُه « إن يَلْقَ المنيَّةَ » خَبَرُ قولِه ولـكنّ صُعْلُوكاً لو انفرَدَ عَنْ قوله فذلك ، لـكنّه لما تراخَى الخبرَ عن المُخبَر عنه وتباعَدَ المقتضِي عن المقتضَى له أتى بقولِه فذلك ، مُشيراً به إلى الصُّعلوك . فصار إن يَلْق خبراً عنه . وساغ ذلك لأنّ المراد بالأول والثانى شىء واحد ، ومما أُجرى هذا المجرى لحصول مثل هذا التراخى فيه قولُ الله عز وجل : ﴿ألم تَعلَموا(٢) أنَّه من يُحَادِدِ اللهَ وَرَسُولَه فإنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ﴾ ، فأعاد أنّ فى قولِه « فأنّ » كما تَرى .

(١) الديوان : « فإن بعدوا » .

(٢) هذه قراءة الحسن والأعرج . وقراءة الجمهور : « ألم يعلموا » بالياء . انظر تفسير أبى حيان (٥ : ٦٤) .

١٤٦

وقال عَنْترهُ بن شَدّادٍ العَبْسِي(١) :

١ – تَركْتُ بَنِي الهُجَيم لَهُمْ دَوارٌ   إذا تَمْضِي جماعَتُهم تَعُودُ

البيت يُرْوَى على وجهين : أحدُهما :

تركتُ بنى الهُجيم لَهُ دَوَاراً   إذا يَمضِي جماعَتَهمْ يعودُ

ويكون الضمير فى قوله له للفرس ، ويمضى فِعْلٌ لَهُ ، وجماعتهم ينتصب على المفعول ، لأنّ يمضى هذا يتعدّى ، ومعناهُ يُجاوِزُهم . ويكون المعنى : تَرَكْتُ هؤلاء القومَ لفرَسى مَطَافاً بمنزلة الدَّوَار — وهو صَنَمٌ كانوا يحجُّونه — يطُوفُ حَوْلَ ذلك الصَّنَم ، إذا نَفَذَهم وخرقَ صفوفَهم ودار عليهم عادَ إلى مثل فعلِه الأوّل ، وإلى مكانِه الأوّل . ويُشْبِه هذا البيتَ بيتُ الأعشَى فى المعنى واللّفظ ، وهو :

تَطُوفُ عليهم وتَمْضِيهِمُ   كما طَافَ بالرُّجْمَةِ المُرتَجِمْ

وجاء فى الحديث حُجَّةً لتَعدِّى يمضى ، فى صِفَةِ المَحْشَر : « يَمْضِيهِم الدّاعى ويَنفُذُهم البَصَرُ » .

والثانى أن يُرْوَى :

تَركْتُ بنى الهُجَيم لهم دَوَارٌ   إذا تَمضى جَماعَتُهم تَعُودُ

والمعنى : تركتهم يطوفون حَولَ قتلاهم كما يُطاف على ذلك الصَّنَم ، أو ذلك النُّسُك ، فإذا انقَضَتْ جماعَةٌ منهم عادت الأخرى للنِّظارة(٢) . وقوله «جماعتُهم» يريد جَماعةٌ منهم ، فأضافَ البعضَ إلى الكُلِّ ، وليس يريد جُمْلَتَهم ، فهو فى

(١) سبقت له الحماسية ١٤٤ .

(٢) كذا وردت الكلمة بضبطها فى الأصل . وهى ساقطة من م .

حكم النَّكِرات. وموضعُ « لهم دَوَارٌ » نَصْبٌ على الحال، وقوله « تَعُودُ » فاعِله مضمر، وهو جماعة أخرى، فاكتفى بذكر الأولى عنها.

٣ــ تَرَكْتُ جُرَيَّةَ العَمْرِيَّ فيه شَدِيدُ العَيْرِ مُعْتَدِلٌ سَدِيدُ[(١)]

يفتخر بأنه أصابَ المذكور، لمّا رماه بسَهْمٍ مُحكَمِ النصل، مُقَوَّمِ القِدْح، صُلْبِ العَيْرِ، سديد الوَقْعِ. وموضع قوله « فيه شديدُ العَيْرِ » نَصْبٌ على الحال. والعَيْرُ: النَّاتئ من وسط النصل. وقد أقيم الصِفَةُ مَقَامَ الموصوف، لأنَّ المُرَادَ به سَهْمٌ شديد العَيْرِ. ولولا ما حَصَلَ من الاختصاص بإضافة الشديد إلى العَيْرِ لَمَا جاز ذلك فيه، لأنَّ الصفة لا يقوم مَقام الموصوفِ حتى يَدُلَّ عليه دَلالةً قويةً. فأمّا إذا كانت عامّةً في أجناس، فلا يجوز ذلك فيه. لو قُلتَ مَرَرْتُ بطَوِيلٍ، وأنت تريدُ رَجُلاً، لم يَحْسُنْ، لأنَّ الطويل يكونُ في غير الرجال كما يكون في الرجال. ولو قُلْتَ مررتُ بكاتِبٍ، يَحْسُنُ إذْ كانت الكتابة مُخْتَصَّة.

٣ ــ فإنْ يَبْرَأْ فلَمْ أَنفِثْ عَلَيْهِ وإنْ يُفْقَدْ فحُقَّ له الفُقُودُ

كان من رموزهم أنّ الواحد إذا رمى بسهْمٍ وأراد سلامة الرَّمِيَّةِ منه رَقَى سَهْمَهُ بعُوذة ونَفَثَ فيه، ثمَّ رَمَى به، وإذا أراد هلاكَهُ لم يفعل ذلك. ومثل هذا قول الآخر[(٢)]:

فلم أَرْقِهِ إن يَنجُ منها وإنْ يَمُتْ فَرَمْيَةُ لا غُسٍّ ولا بِغُمَّرِ[(٣)]

وقولُه « فحُقَّ له الفقُود » المبتدأ محذوف، كأنه قال فَهوَ حَقٌّ له الفُقود،

---

(١) التبريزى: « إنما قال العمرى لأن المجيم ابن عمرو ». ورواية التبريزى: « معتدل شديد » بالتبين.

(٢) هو زهير بن مسعود، كما في اللسان (غسس). وقد سبق الاستشهاد بعجز البيت في ص ٣٥٣.

(٣) فيما سبق وفيما سيأتي في الصفحة التاليــة: « فطعنة لاغس ». ونخشى أن تكون الرواية التبست على المرزوقى.

لأنّ الفاء يُجْلَبُ في الجزاء إذا كان الجواب بالابتداء والخبر ، ولو قُصِد إلى أن يكون الفعل جواباً لا يُسْتَغْنَى عن الفاء . وبعض من يدْفَع هذه الطريقة يقول لا رُقْيَةَ ولا نَفْثَ ، إنَّما كَنَوا عن الإبقاء بمثل هذا الكلام . وقوله : « وإن يُفقَد » فهو مِثْل قَوْلِه « فَطَعْنَةٌ لا غُسٍّ » . والمعنى : إن يَبْرَأْ فليس ذلك من بُقْيَاى ، وإن يهلِكْ فواجِبٌ لأنّ المصابَ بمثله يَهلِكُ لا مَحالة .

٤ — وما يَدْرِى جُرَيَّةُ أَنَّ نَبْلِى يَكونُ جَفِيرَها البَطَلُ النَّجيدُ

يُرْوَى : « وهل يَدْرِى جُرَيَّةُ » . والمعنى لا يعلم أنه كما أنى أصبتُهُ فدأبى وعادتى أن تكون الأبطال النُّجَدَاء لِنَبْلِى بمنزلة الجُعْبَة ، أُصِيبُهُمْ أبداً بها . وفى ذكره البَطَلُ النَّجيد إلمامٌ بقول الآخر(١) :

. . . . ونَصْ طَادُ نُفُوسًا بُنَتْ عَلَى كَرَمِ(٢)

ويقول الآخر(٣) :

من عَهْدِ عَادٍ كان مَعْرُوفًا لَنَا أَسْرُ المُلُوكِ وقَتْلُهَا وقِتالُها

وأخذ أبو تمّام هذا المعنى فقال :

فَلا تَطْلُبُوا أَسْيَافَهُمْ فى جُنُونِهِا فَقَدْ أُسْكِنَتْ بَيْنَ الطُّلَى والجَماجِمِ(٤)

ويجوز أن يُرِيد بالبَطَل النَّجيد جُرَيَّةَ بعينه ، ثم يجوز أن يكون مُتَهَكِّمًا فيما وَصَفَهُ به ، ويجوز أن يكون مادِحًا له ، لأن مدحَ خَصمه وقتَ غَلَبِه رَاجِعٌ إليه .

(١) أحد بنى بولان ، من طيئ . الحماسية ٣١ .

(٢) صدره : * نستوقد النبل بالحضيض ونصـ *

(٣) هو بشامة بن الغدير . الحماسية ١٣٤ .

(٤) كذا فى م والديوان ٣٨٧ . وفى الأصل : « ولا تطلبوا » .

١٤٧

وقال قَيْسُ بن زُهَيْرٍ العَبْسِىُّ سيِّدُ بَنِى عَبْس[1] :

١ — تَعلَّمْ أَنَّ خَيْرَ النَّاسِ حَيًّا   على جَفْرِ الهَبَاءَةِ لا يَرِيمُ[2]

يُرْوَى « أنْ خَيرَ النّاسِ حَيًّا » ، والمعنى هو حَىٌّ ، وقولُه « على جَفْرِ الهَبَاءَةِ » خَبَرُ أنَّ . ويروى : « مَيْتًا » وإعرابه على ما ذكرناهُ فى حَيًّا . ويروى : « مَيْتٌ » وارتفاعُهُ على أنّهُ خبر أنّ ، و « على جَفْرِ الهَبَاءَةِ » فى مَوْضِعِ الصفة له . ومعنى تَعَلَّمْ : اعْلَمْ . ولا يقال فى جوابِهِ تَعلَّمتُ ، استُغْنِىَ عنه بعَلِمتْ . ويَعْنِى بخير الناس حَمَلَ بنَ بَدْرٍ . وجَفْرُ الهباءة : بئرٌ قريبَةُ القَعْرِ ، وماؤها كثيرٌ مَعِينٌ . وكان حملٌ انهزم فى وَقْعَةٍ بين عَبْسٍ وذُبْيان ، فلما انتهَى إلى الهباءة أمِنَ لبُعْدها عن الطَّلَب ، فرَمَى بنفسه إلى الماء ليبترد ، فاتفق لَحَاقُ قَيْس به مع عِدَّةٍ من ذَوِيه ، فقُتِلوا عن آخرِهم .

٢ — ولوْلاَ ظُلْمُه مازلتُ أَبْكِى   عليه الدهرَ ما طَلَعَ النُّجُومُ

أشار بالظُلْم إلى ما جرَى بينهم فى أمرِ داحِسٍ والغبراء ، وإنكارِهِ السَّبْقَ ، وركوبِهِ البَغْىَ . وقولُه « ما طَلَعَ النُّجُومُ » ينتصب على أنه بدَلٌ من الدهر . والمعنى : لولا ما أسلَفَه من الظُّلْم لاقتضى ما يجمعنى وإيّاه من الأحوال والذِّمم ،

---

(١) قيس بن زهير العبسى شاعر جاهلى فارس . وهو صاحب داحس ، وكانت الغبراء فرس حذيفة بن بدر الفزارى ، وقد أجرى السبق بين الفرسين فوضع حمل بن بدر أخو حذيفة كمينا يصدون داحسا عن الغاية ، وحدث خلاف أيهما السابق ، فنشبت الحرب بسبب ذلك بين عبس وفزارة ، واستمرت أربعين عاما قتل فيها خلق كثير . انظر العقد والأغانى (٧ : ١٤٣/ ١٦ : ٢٣) والكامل ٣٤٣ والميدانى (١ : ٢/٣٥٩ : ٥١) .

(٢) جعل التبريزى الرواية الأولى : « أن خير الناس ميت » ثم نبه على روايتى « حيا » و « ميتا » .

والتّشاجُرِ والرَّحِمِ — البكاءُ عليه مدّةَ الدهر . وقولُه « ما طَلَع » بمنزلة المَصْدر ، وقد حَذَف اسم الزّمان معه . والمراد بذكر الدّهر الكثير والمبالغة والتأبيد . وقد بيَّنَه بقوله « ما طَلَعَ النجومُ » ، لأنه على ذلك يصحُّ أن يكون بدلاً منه . فمعْنَى « عليه الدهرَ » عليه طَوالَ الدَّهرِ[1] ، وامتدادَ الدَّهرِ .

٣ — ولكنّ الفتى حَمَلَ بْنَ بَدْرٍ   بَغَى والبَغْيُ مَرْتَعُهُ وَخِيمُ

يقول : استعمَلَ البَغْيَ واستَوْبَلَ العافية ، واستذمَّ المَرْتَع ، ومَن بُغِيَ عليه فإنه يُنْصَرُ . ويقال : بَغَى الرَّجُل على فُلانٍ ، أى جارَ . وبَغَى الفَرَسُ فى عَدْوِه ، وهو فرَسٌ باغٍ ، وذلك إذا اختالَ ومَرِحَ . وإذا استُعْمِلَ فى الفخار والاستطالة فهْوَ من هذا . والوَخامةُ : الثِّقَلُ يَعرِضُ من الطَّعام . يقال وخُمَ وخامَةً فهو وَخيمٌ وَوَخْمٌ ، أى لا يُسْتَمْرَأ .

٤ — أظُنُّ الحِلمَ دَلَّ عَلَى قَوْمِى   وقد يُستَجْهَلُ الرَّجُلُ الحليمُ[2]

يقولُ : احتمالى من عَشِيرتى ، واستعمالُ الحلم معهم ، هو الذى جسَّرهُم علىَّ فيما أظنّ ، ودَلَّهُم على قَصْدى واهتضامى على ما يتبيَّن . ثم قال « وقد يُستَجهَلُ الرجلُ الحليم » أى إذا أُحْوِجَ الحليمُ وأُحرِجَ[3] فقد يَتكلَّفُ ما لا يكون معهوداً فى طَبْعِه ، ولا موجوداً من خُلقِه . وإنما نَبَّهَ بهذا الكلام على أنه يتحلَّمُ عن الأَدْنَيْنِ ، ويَصْبِرُ على أذاهم ، وأنه لمَّا عِيلَ صَبْرُه وحُمِّلَ فوقَ ما فى وُسْعِه ، خرجَ عن المعتادِ منه إلى غيره .

---

(١) كذا فى م . وفى نسخة الاصل : « طول الدهر » .

(٢) أنشده بعد التبريزى :

وَمَارَسْتُ الرِّجالَ ومارَسُونى   فمُعْوَجٌّ علىَّ ومُستَقِيمُ

(٣) فى الاصل : « وأخرج » ، والصواب ما أثبتنا من م .

١٤٨

وقال مُساوِرُ بن هِنْد[1] :

١ — سائِلْ تَمِيمًا هَلْ وَفَيْتُ فإنّني   أعددتُ مُكْرُمَتِي لِيَوْمِ سِبَابِ

يقول : سائل تميما هل كان منّى وفاء بما تضمّنته لجارى ، فإنى رجلٌ نظّارٌ فى أعقابِ الأحاديث ، مُهتمٌّ بإعداد المكارِم ليومِ النِّفار ، شديدُ النِّزاع فى مجالس الفَخَار . كأنه يقرِّرُ خصماءَهُ على ما كان من وفائه ، ليُسْقِطَ التَّبعة عنه فيه ، ويُنبِّهَ على أنه يُراعِي أفعالَه فيُخلِصُها ممـا يُعَدُّ سَيِّئَةً وسُبَّةً وَوَصْمةً فى حَسَبه .

٢ — وأَخَذْتُ جارَ بَنِى سَلامةَ عَنْوَةً   فَدَفَعْتُ رِبْقَتَهُ إِلَى عَتَّابِ

عَتّابٌ هذا كان معتصِما بحبله ، ومستظهِرًا بذِمَّته ، فلحِقَه من بنى سلامة اهتضامٌ فى أمرٍ ، فجاء مُساوِرٌ ومكَّنَه من جارِهم ، وأعطاه رِبْقَتَه ليتحكَّم فيه ، ويشتفِيَ لِما لحقَهُ منهم . وهذا الكلامُ بيانٌ لكيفية وفائه والخروج إلى جارِه مما كان تضمّنَ لَه . وقولُه « عَنْوَةً » أى قَهْرًا ، وهو مَصدرٌ فى موضع الحال . ويقال : أخَذَ بَلَدَ كذا عَنوةً ، أى قَهْرًا بالسيف . والرِّبْقةُ : الحَبْلُ يُشَدُّ فى عُنُقِ البَهْم ، وقد توسَّعُوا فيه فقالوا : خَلَع فلانٌ رِبقةَ الإسلام . وقولُه « فدفعتُ رِبْقَتَه » ، هو كما يُقال دفَعتُ مَقادَتَه .

٣ — وجَلَبْتُه من أهْلِ أَبْضَةَ طائعًا   حتّى تحكَّمَ فيه أهلُ إرَابِ

---

(١) هو المساور بن هند بن قيس بن زهير بن جذيمة العبسى . شاعر فارس مخضرم، أدرك النبى ولم يجتمع به ، ويقال إنه ولد فى حرب داحس قبل الإسلام بخمسين عاما . الإصابة ، والخزانة (٤ : ٥٧٣) والشعر والشعراء ٣٠٧ . وفى المبهج أن « مساور » منقول من اسم الفاعل . وأما هند فعلم مرتجل .

الماء من « جَلَبْتُه » ترجع إلى دار بنى سَلامة. وأَبْضَةُ: اسم ماء. وقولُه « جَلَبْتُه طائعا » تنبيهٌ على أنه وإن لزِمَه لجارِه الانتقام له من خصمه ومهتَضِمِيه فقد تبرّع له بما لم يكُنْ عليه، وتكلف فيه ما لم يَلزَمْه. وإرابُ: موضع، وقيل إرابُ: ماءٌ لبنى العَنْبَر. وأُبْضَةُ: ماءٌ لطيِّء. والأَبْضُ كالعقْل، ومنه المَأْبِضُ فى الرِّجْلِ. وقيل للغرابِ مُؤْتَبِضُ النَّسا، لأنه يَحْجِل فكأنه مأبوض.

٤ — قتلوا ابْنَ أُخْتِهم وجارَ بُيُوتِهِمْ   من حَيْنِهِمْ وسَفَاهَةِ الألبابِ

يشَهِّر بفَعْلتهم الذميمة ويُندِّدُ، فيقول: قطَعُوا الرَّحِم ونقَضُوا العَهد، وارتكَبوا ما كان محظورًا فى الدِّين والمرُوَّة، والعهد والذِّمَّة، فقتلوا جارَهم وابْنَ أختِهم، بخِفّةِ عقولهم، واقتراب هلاكهم. والسَّفَهُ: الخِفّةُ فى الأصْل، ومنه قيل زِمامٌ سَفِيهٌ، إذا كان كثير الاضطراب، ومنه قيل: تسفَّهَتِ الرِّيح الغصْنَ، وتسفَّهْتُه عن مالِه. واللُّبُّ: العقْل، والفِعْلُ منه لَبَّ يَلَبُّ. وقالت صَفِيّةُ بنت عبد المُطَّلب[1]: « أضرِبُه لكَىْ يَلَبّ، ويقُودَ الجَيْشَ ذا الجَلَب[2] ».

٥ — غدرَت جَذِيمَةُ غَيْرَ أَبى لم أَكُنْ   أبَدًا لأُولِفَ غَدْرَةً أَثوابى

عَيَّرَهم باستعمال الغَدرِ وتَرْكِ الوفاء للجار، ثم بَرَّأ ساحتَهُ من تعاطِى مثل فعلهم، ونَزَّه نَفْسَه عن ارتكاب نظيرِ ما ارتكبوه. فأما قولُه « لم أَكُنْ لأُولِفَ » فاللامُ فيه لام الجحود، وانتصابُ الفِعْل بأَنْ مضْمرة بينه وبين اللام. وموضع « لأولِف » نَصْبٌ على أنّه خبر كان، وانتصاب غَيْرَ على أنّه استثناء

---

(١) فى الأصل: « عبد الملك »، صوابه فى م واللسان (لبب). وكانت قد ضربت الزبير فقيل لها: لم تضربينه ؟ .

(٢) ويروى: « ذا الجَلَب ».

مُنْقَطِعٌ . وَذَكَرَ الثَّوْب على عادَتِهِم فى الـكِنَايةِ عن النَّفس . وعلى هذا قوله :

نُبِّيتُ أنَّ دَمًا حَرَامًا نِلْتَهُ ... فَهُرِيقَ فى ثَوْبٍ عَلَيْكَ مُحَبَّرِ

وقد قيل معنى قولِهِ تعالى : ﴿ وثيابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ ، أى نَفْسَك . ويقولون على هذه الطريقة : فُلانٌ غَمْرُ الرِّدَاء ، وعَفِيف الْحُجْزة ، والمراد النفسُ . وعلى هذا قول النّابغة :

* رِقَاقُ النِّعَالِ طَيِّبٌ حُجُزَاتُهُمْ[1] *

وقَوْل الهُذَلِىّ[2] :

تَبَرَّأُ مِنْ دَمِّ القَتِيلِ وبَزِّهِ ... وقَدْ عَلِقَتْ دَمَّ القَتِيلِ إزارُهَا

٦ — وإِذَا فَعَلْتُمْ ذلـكم لم تَتْرُكوا ... أَحَداً يَذُبُّ لَـكُمْ عن الأحْسَابِ

الخِطَابُ يُوَجِّهُ إلى جَذِيمة وهو منهم ، ولذلك جَعَلَ لهم أحْسَابًا يُحْتَاجُ إلى الذّبِّ عَنْها ، ويَنْصَحُ لهم بالإبقاء عليها ، وتَرْكِ الأَفعَالِ التى تَدْعو إلى البَرَاءةِ منهم ومنها ، لـكنَّه أَخرجَ نَفْسَهُ مما عَصَبَ من الذَّمِّ بهم ، وألزمهم من ذَمِيمِ القَوْلِ فى شِيَمِهم وطُرُقِهم ، فقال : إذا رَكِبتم من شَنِيع الغَدْر مثلَ ما أنْـكَرْتُهُ اشْتَهرَ أمرُكُم ، وانتفى النَّسيب والغريب من مُلاَبستكم ، وخُلِّىَ بين القَادِحِ فى أحْسَابِكم وأعراضكم وبينَـكُم ، فلا يَذُبُّ عنكم ذَابٌّ ، ولا يُدافع دونكم مُدافِـع ، وتفرَّدْتم بالعار اللاحق ، والتَّهجين العائد .

(١) : عجزه : * يحيون بالريحان يوم السباسب *

(٢) هو أبو ذؤيب الهذلى . ديوان الهذليين (١ : ٢٦) .

١٤٩

وقال العباس بن مِرْدَاس[1] :

١ - أَبْلِـغْ أَبَا سَلْمَى رَسُولاً يَرُوعُهُ ... وَلَوْ حَلَّ ذا سِدْرٍ وأَهْلِي بِعَسْجَلِ

٢ - رَسُولَ امرِئٍ يُهْدِى إِلَيْكَ نَصِيحَةً ... فَإِنْ مَعْشَرٌ جَادُوا بِعِرْضِكَ فَابْخَلِ

يخاطب بقَوْلِه « أَبْلِـغْ » صاحباً له ، يقولُ أَدِّ إلى أبى سَلْمَى رسالةً تُفَزِّعُهُ على ما بيننا من البُعْد ، وعلى استيطانه ذا سِدْرٍ ونزولِ أهلى بعَسْجَلٍ . وذو سِدْرٍ : موضع فيه السِّدْر ، وهو شَجَرُ النَّبْقِ . وعَسْجَلٌ : موضعٌ من حَرَّةِ بنى سُلَيْم ، وبينهما مسافَةٌ بعيدةٌ . والرَّسُولُ يقع على المُرسَلِ والرِّسالة جميعاً ، ويَجرى مَجْرَى المصادر ، فيقع على الواحد فما فَوْقَهُ ، ومجازُ « لوحَلَّ » مَجازُ الشَّرْطِ ، فهو يفيدُ معنى إنْ ، كأنَّه قال : أَبْلِغْهُ ذلك فإنِّى لا أَدَّخِرُهُ نُصْحِى ، وإن بَعُدَ عَنِّى وعَنْ عَشِيرَتِى . وانتصب « رسول » من البيت الثانى على أنّه بدلٌ من رَسُولاً يرُعْهُ . ونَقَل الكلام فى البيت الثانى عن الإخْبار إلى الخطاب ، لتكون الوَصَاةُ أنجع ، والرِّسالة أَبْلغَ . وإنّما قال « رَسُولاً يَرُعُهُ » لما فيه من التّحذير . فيقول : أَدِّ إليه رسالةَ رَجُلٍ مُتَنَصِّحٍ متقرِّبٍ ، وعلى ما يكون فيه صلاحُه وخلاصُه مُنَبِّهٍ . وقوله « فإنْ مَعْشَرٌ جادوا بعِرْضِك » تَعْرِيضٌ بمن كان يَغُشُّه ويخونُه ، ويداجيه فيما استشاره فيه فلا يَصْدُقُه . وارتفع « مَعْشَرٌ » بفِعْلٍ مُضْمَرٍ « جادُوا » تفسيره ؛ لأنَّ إنْ بالفِعْلِ أوْلَى ، والمَعْنَى : إنْ عَرَّضَكَ مَن لا يُهِمُّه سَلامَةُ عِرْضِكَ لما فيه ذَهَابُ النفس وتَلَفُ المُهجَةِ ، وتَسَخَّى بك

---

(١) هو العباس بن مرداس السلمى الصحابى ، أسلم قبل فتح مكة بيسير . وأُمه الخنساء الشاعرة ، وكان العباس من المؤلفة قلوبهم . الخزانة (١ : ٧٣) والإصابة ، والأغانى (١٣ : ٦٢ — ٧٠) والمرزبانى ٢٦٢ — ٢٦٣ واللآلى ٣٢ — ٣٣ والطبرى (٣ : ١٣٦ — ١٣٧) والشعر والشعراء ٢٥٩ — ٢٦٠ ، ٧٢٢ — ٧٢٥ .

وبما يجمعك وإيّاه من أسباب المودّة واللُّحْمَة ، فابْخَلْ أنت به وتَمَاسَكْ ، قبْلَ فَوْتِ الْوَقْتِ ، وانظُرْ ليومِكَ وغَدِكَ قُدَّامَ تَوَلّى الأَمْرِ .

٣ — وإن بَوَّءوكَ مَبَرَّكاً غيْرَ طائلٍ غَليظاً فلا تَنْزِلْ به وتَحَوَّلِ

يقال : بَوَّأْتُه مُبَوَّأً صِدْقٍ ، أى أحْلَلْتُه . والمَبَاءةُ : المنزل . يقولُ : وإنْ حَمَلوكَ على مَرْكَبٍ غيرِ وطِيءٍ يَسُومونَك فيه خسفا ، وأنْزَلوكَ منزلاً خَشِناً حَزْناً يؤثِّر فى ثَفِنَاتِ الإبل فيُدْمِيها ، ويَسْتَوْعِرُه الرَّكْبُ فلا يَرَونَهُ منزلاً لها ، فلا تَرْضَ به ، وانتقِلْ عنه . وهذا مَثَلٌ لِمَا عَرَّضُوهُ لَهُ ، ويَبْعَثُه بِضَرْبِهِ إيَّاه على مُحاذرتِه ، وتَصوُّرِ الأمر معهم بصورته . وقولُه « غيرَ طائل » يجب أن يكونَ من الطَّوْلِ : الفضْلِ ؛ يقال : طالَ عليهم طَوْلاً فهو طائلٌ . والمعنى : لا خَيْرَ فيه فيطُولَ على غَيْرِه . ومِثْلُ هذا البيت قولُ امرئ القيس :

هُوَ المُنْزِلُ الآلافَ من جَوِّ ناعِطٍ بنِى أَسَدٍ حَزْناً من الأرضِ أوْعَرَا

وقولُه « فلا تنزل به » الفاء [مع ما[1]] بعده جَوَابُ الشَّرْطِ فى قوله وإن بَوَّءوك . وموضع فلا تَنْزِلْ رَفْعٌ على أنَّهُ خبر مبتدإ محذوف ، كأنه قال : فأنت لا تنزل به .

٤ — ولا تَطْعَمَنْ ما يَعْلِفُونك إنَّهُمْ أتَوْكَ على قُرْبَاهُمُ بالمُثَمَّلِ[2]

أخْرَجَ ما قَدَّمَه من التمثيل لكيدهم وسُوء دِخْلَتِهم ، وما يجب عليه من الأخذ بالتحرُّز معهم ، وتَرْكِ الاستناخة فى المَبْرَك[3] الذى اختاروه ، والمُبَوَّأ الذى أعدُّوه ، فى مِعْرَضٍ آخَر . والمعنى : وما يُعَدُّ قِرًى لك فتجنَّبْه ولا تتناولْه ، فإنهم هيَّئُوا لك به سَمًّا قاتِلاً فلا تَطْعَمْهُ والمُثَمَّل ، هو السَّمُّ الذى قد خُلِطَ به

(١) التكملة من م .
(٢) سبق الاستشهاد بصدر البيت فى ص ٣٥٩ .
(٣) كذا فى م . وفى الاصل : « المنزل » .

ما يقوّيه ويُهَيِّجُه ، ليكون أنفذ . ويقال للصُّوفة التى توضع فى الهِناء عند[١] طَلْىِ البعير به . الثَّمَلَةُ ، وهو مما ذَكَرْتُ . قال الرَّاجز[٢] :

* كما يُلاَثُ فى الهِنَاءِ الثَّمَلَهْ[٣] *

وقوله « أتَوْكَ على قُرْباهُم » يجوز أن يريد به على تقرُّبهم وتنصُّحِهم ، ويجوز أن يريد به على قَرابتهم وتشابُك الأحوال بينك وبينهم . وإنما تنقَّلَ فى المَثَلِ بعدَ المَثَل تأكيدًا للقول عليه فى محاذرتهم[٤] ، وإنذارًا فى الرُّكونِ إليهم ، والاستنامة إلى ناحيتهم .

٥ — أَبَعْدَ الإزارِ مُجْسَدًا لكَ شاهِدًا أُتِيتَ به فى الدَّارِ لم يَتَزَيَّلِ

هذا الكلام وإن كان لفظه لفظ الاستفهام فهو تقريعٌ وإنكارٌ ، وتنبيهٌ وإنذارٌ ، فيما يُضرِبُ المخاطَبُ عنه ، ويَغفُلُ دونَه ، مع كَوْنِه أعدلَ شاهدٍ على سوءِ نيَّتِهم ، وخُبْثِ طوِيَّتِهم ، ومع خروجه عن حيِّز الاستدلال عليه إلى المشاهدةِ ، ومن خَلَلِ الخَفاءِ والتشكُّك إلى ظاهرِ الضرورة . فيقول : أتغترُّ بهم ، أو تَستريبُ بما أحذِّرُك منهم ، بعد ظهور أمرِهم وانكشاف قصْدِهم ، وبعد ما أُتِيتَ به فى الدارِ من الإزارِ المتلطِّخِ بدم ابنِ عمِّك ، وقد يَبِس عليه ولم يتزَيَّلْ عنه . فقولُه « بعدَ الإزار » يتعلّق بفِعْلٍ مُضْمَرٍ قد دَلَّ عليه خبيثات القِصَّة المحكيّة[٥] . والمُجْسَدُ : الثَّوْبُ المُشْبَعُ صِبغًا . والجِسَادُ : الزَّعفران . ومعنى لم يتزَيَّل : لم يفارق الدَّم ، ولم يَنْفَكَّ مما خالطهُ منه .

---

(١) م : « بعد » ، تحريف .

(٢) هو صخر بن عمير ، كما فى اللسان (ثمل) .

(٣) فى اللسان : « كما ثلاث بالهناء » . وقبله :

مفوثة أعراضهم مموطلة فى كل ماء آجن وسمله

(٤) فى الأصل : « محاذبتهم » ، صوابه من م .

(٥) كلمة « قد » و « خبيثات » من م .

٦ــ أراكَ إذاً قد صِرْتَ للقوْمِ ناضِحًا ... يُقالُ له بالغَرْبِ أَدْبِرْ وَأَقْبِلِ

الناضح : البعير الذى يُسْتَقَى عليه الماء . والنَّضَحُ من الحِياض(١) : ما قَرُبَ من البئر فيُفْرَغُ الماء من الدَّلْوِ فيه ، وهذا الكلامُ صدر عمَّن نَصَحَ جُهْدَهُ وبَيَّنَ لموعوظِهِ رُشدَه ، فلمَّا لم يُتَلَقَّ بالقَبول قولُه جعله قضيَّةً منه على المُخاطبِ ، بسوء الاختيار ، وركوب الاغترار ، وأظهر أنه قد صار من التضجُّرِ به ورَفْعِ الطمع عنه وعن صَلاحِه ، فى حكمِ اليائس من فلاَحِه ، والمُمسِك عن وعظِه وإبلاغه ، لكونه فى حكمِ المُسخَّرِ لهم حتى لا رَأْيَ له ولا اعتبار ، ولا تدبُّر ولا اختيار . فقال : أراكَ قد صِرْتَ معهم بمنزلة البعير الذى يُستَقَى عليه ، طاعةً وانقيادًا ، فيقال له أَدْبِرْ وأَقْبِل بالغَرْب . والمعنى تُسامُ ما تُسامُ فتلتزِمُه وتنقادُ ، فِعْلَ ذلك البعير . ومعنى « يُقالُ له » أى يُحْمَلُ على ذلك . والتصرُّف فى القوْلِ على وجوهٍ كثيرة من المجاز .

٧ــ فَخُذْهَا فَلَيْسَتْ للعَزِيزِ بخُطَّةٍ ... وفيها مَقالٌ لامرئٍ متذلِّلِ

هذا الكلامُ خُروجٌ عن(٢) عُهدةِ ما يفعله المخاطَبُ ، وبَراءةٌ إليه مع الإنكار عليه والتنبيه على موضع الخطأ فيه ، فيقول : وكَلْتُك إلى نفسِك ، ونَفضْتُ يدى من مُراجعتِك ، فارْضَ بما عليه تُدارُ ، وابْذُلْ ما تُراوَدُ عنه وتُسامُ ، عالما أنّ مثلَه لا يَرضى به عزيزٌ ، ولا يلتزِمُه آنِفٌ ؛ وفيه مع ذلك نَظَرٌ وجدالٌ لمن يتذلَّلُ : هل هو خُطَّتُه أيضاً . والمعنى : إنك تركَبُ ظَهْرًا لا يقتعده المتكلِّف للذُّلِّ فكيف العزيز . ويجوز أن يكون المعنى : فيها للناس ، إذا تذاكَرُوا الأحوالَ والخُطَطَ ، نَظَرٌ وكلامٌ مبسوطٌ : هل يَرْضَى بمثله المتذلِّلُ

(١) كذا فى النسختين . وفى اللسان : « النضح » .
(٢) م : « من » .

أو لا . ويجوز أن يريد : إنّ الذّليل يتكلّم فيمن يرضاها خُطّةً ويُعيِّره إيّاها ، فكيف يكون خُطّةً للعزيز . وهذا الوجه أبلغُ الوجوه الثلاثةِ وأدقُّها .

١٥٠

وقال العباس بن مِرْداس[1] :

١ — أَتَشْحَذُ أَرْماحًا بأيْدِي عَدُوِّنا وتَتْرُكُ أرْماحًا بهِنَّ نُكايِدُ[2]

هذا مَثَلٌ . والمعنى : أتعينُ أعداءنا علينا ، لأنَّ مَنْ أحَدَّ سلاحَ العدوِّ الذى يقاتل به ، وترَكَ سِلاحَ صاحبِه الذى يكايدُه فقد أعانَه عليه . وإنّما خَصَّ من بين العُدَدِ الرِّماح لأنها كأنّها أخَصُّ بهم . وقولُه « وتتركُ أرْماحًا » أراد وتتركُ شَحْذَ أرْماحٍ ، فحذَف المُضافَ . ويجوز أن يكون كَنَى بالأرماح عن الرِّجال . والمعنى : أتهيِّج أصحابَ عدوِّى[3] عَلَىَّ ، وتسدِّدهم نحوى ، وتتركُ أصحابِى الذين بهم أُكايِدُ ، فلا تُقوِّى فى القتال والصَّبر رأيَهم ولا تُمِرُّ فى الثَّبات عزائمَهم ، ومن المعروف قولُهم : فلانٌ سَيْفِى ورُمحى ، فى الذى يستظهر به عند مُلاقاةِ الأعداء وفلانٌ تُرْسِى وجُنَّتِى ، فيمن يُتَّقَى به من الأسواء . وإنما قال فى هذا الوجه أرْماحًا بأيدى عدوّنا لأنّه إذا كَنَى عنهم بما يكُونُ آلةً جعلها باليد . ويقال شحَذْتُ السِّكِّين ، إذا أحددْتَه . والباء من قوله « بأيدى » يتعلّق بمضمر ، كأنّه قال أرْماحًا مستقرّةً وحاصلةً بالأيدى . والعدوُّ يقع على الواحد وعلى الجمع . وفى القرآن ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لى ﴾ .

٢ — عَلَيْكَ بجار القوْمِ عَبْدِ بن حَبْترٍ فَلاَ تَرْشَـدَنْ إلاّ وجارُكَ رَاشِدُ

(١) التبريزى : « وقال أيضاً » .

(٢) التبريزى : « بهن تكابد » . وفى تفسيره : « والمكابدة : معالجة الأقران . يقال كابدت الشيء مكابدة وكباداً ، إذا قاسيته فى مشقة . والكبد : الشدة .

(٣) فى الأصل : « رسولى » ، وأثبتنا ما فى م .

هذا الكلامُ بَعْثٌ وتحضيضٌ على مراعاة العهود والذِّمم ، وصيانة الجار من الاهتضام ، وإن لام فيها اللَّوائم . فيقول : أَنتصِفْ لجارِك وانتقم له بأن تؤثِّر فى جار القوم ، فإنك لا تكون راشدًا إلاّ وقد رَشَدَ جارُك معك . ويقالُ رَشِدَ يَرْشَدُ ، ورَشَدَ يَرْشُدُ ، لغتان . والباء من قوله : « بجار » يتعلّق بعليك ، لأنّ معنى عليك خُذْ . ويقال خُذْ كذا وخُذْ بكذا . يقال أيضاً عليك كذا وبكذا . ودخول النون الخفيفة فى قوله « تَرْشَدَنْ » لأنه ليس بواجبٍ فهو يجرى مَجْرى الأمرِ والنَّهْى والاستفهام .

٣ــ فإنْ غَضِبَتْ فيها حَبيبُ بنُ حَبْتَرٍ فَخُذْ خُطَّةً يَرْضاكَ فيها الأباعدُ

الضمير فى « فيها » للفَعْلةِ والخُطّة . ألا ترى قولهُ « فخذ خطةً يرضاك فيها الأباعد » . والمعنى : إن تَسخَّطَ ما تتكلّفُه لجارك من الذَّبِّ عنه والانتقام له هؤلاء القومُ فلا تُبال بهم ، وخُذْ فى أمره ما يَحمَدك الأباعدُ دون الأقارب ، فإنّ الأخبار إذا انتشرت عنك بالوفاء استَرْجَحَك الأجانب . وخَذْلُ الجار وتسليمُه إيثارًا لهوى الأقارب ، ومُجانَبةً لكراهتهم ، يجلب الذمَّ ويُلحِق العار .

٤ــ إذا طالَتِ النَّجْوَى بغَيْرِ أُولِى القُوَى أضاعَتْ وأَصْغَتْ خَدَّ مَنْ هو فاردُ

هذا بيان الرَّأى فى قَبول ما أشار به ، وترك التَّعريج على غيره . والعامل فى « إذا طالت » أضاعَتْ ، وهو جوابه أيضاً . فيقول : إذا طالت المناجاةُ وامتدَّت الاستشارة مع غيرأرباب الآراء القويّة ضَيّعتِ المستشيرَ وأمالت خَدَّه ، وصار فى الانفراد بما يعانيه بمنزلة مَنْ لا ناصرَ له ولا مُشيرَ ، لوقوع التشاور على غير حَدِّه ، وتقصير المُشيرِ فى القيام بواجبه ، وقد جمع بين فعلين فى قوله «أضاعت» و « أصْغَتْ » فأعْمَل الثانى ، وهو المختار عند أصحابنا البصريِّين . ويجوز أن يكون مفعول أضاعت غير « خدّ مَنْ » لحذْفَهُ ، كأنّه قال أضاعت رَبَّها . وكان

الحكمُ فى هذا الوجه أن يقول لو أظهر المفعول : وأصفَتْ خدّه لكونه فارداً وحيداً ، لكنّه لما كان الآخِر هو الأول وقد حذفه ، لم يُبال بإظهاره ، لأن الذى هو فاردٌ ربُّ النجوى لا غير . ومعنى إصفاء الخدّ الإذلالُ والانحرافُ للفتُور والخجل . والقُوَى : جمع قوة ، وأصلها طاقات الحَبْلِ ، ثم استُعملت فى الآراء والعزائم . وأصل النَّجوى المُسارّة ، فاستُعيرت للمشُورة لأنّها فى أكثر المواضع تَقَعُ بها . ويقال : فلانٌ نَجِيُّ فلانٍ ، وتناجَوْا فيما بينهم وانْتَجَوْا ، وهم نَجْوَى ، وصْفٌ بالمصدر . وفى هذه الطريقة قول الآخر :

ومَنْ لا يكُنْ ذا ناصِرٍ يَوْمَ حَقِّهِ ... يُغَلَّب عليه ذو النَّصير ويُضْهَدِ

٥ — فحارِبْ فإنْ مَوْلاكَ حارَدَ نَصْرُهُ ... فَفِي السيف مَوْلًى نَصْرُهُ لا يُحَارِدُ

يقول : حارِبْ من قَصَدَ جارَكَ وأعان عليه ، ولا تَقْعُدْ عن نُصْرَتِهِ والانتصار له ، فإنْ لم يعاونْكَ فيما تَرُومُهُ مواليك ، وتأخّروا عن النُّهُوض مَعَكَ ، فاستعِنْ بالسَّيف ، فإنّ فيه مَوْلًى لك لا يَخْذُلُك ، ولا يتباطأ عنك . وهذا كما قال غيره[1] :

* أنَخْنَا فَحَالَفْنَا السيوفَ على الدَّهْرِ[2] *

والُمحاردة أصلها فى قِلَّةِ اللَّبَن ، واستعير فى قِلَّة الموازرة والمظاهرة . وقوله « فإنْ مَوْلاكَ » ارتفع مولاك يفعل مُضْمَرٍ ما بَعْدَهُ . [تفسيره ، لأن إن بالفعل أولَى[3]] .

---

(١) هو يحيى بن منصور . الحماسية ١٠٨ .
(٢) صدره : * فلما نأت عنا العشيرة كلها *
(٣) التكملة من م . وانظر ما سبق فى ص ٤٣٣ س ١٦ — ١٧ .

١٥١

وقال أيضاً :

وهذه الأبيات تُعَدّ من المُنصِفَات(١) :

١ — فَلَمْ أَرَ مِثْلَ الحَيِّ حَيًّا مُصَبَّحًا ولا مِثْلَنَا يوم التَقَيْنَا فَوَارِسا

أشار بالحى إلى قوم معهودين . يقول : لم أر مُغَاراً عليه كالذين صبَّحناهم ، ولا مُغِيراً مثلنَا يوم لَقِيناهم . فقسَم الشهادة قَسْمَ السَّواء بين أصحابه وأصحابهم ، وتناوَلَ بالمَدْحِ كلَّ فِرْقةٍ منهم . وانْتَصَبَ قولُه « حَيًّا مُصَبَّحًا » على التَّمييز ، وفيه دَلَالَةٌ على جواز قول القائل : عندى عشرون درهما وَضَحًا(٢) . وكذلك قولُه فوارِساً تمييز وتبيين . ويجوز أن يكون الأول والثانى فى موضع الحال ، والمُصَبَّحُ الذى يُؤْتَى صُبْحاً للغارة ، ويستعمل فى الخير أيضا ، يقال : صَبَّحَكَ اللهُ بخَيْر . فإن قيل . لِمَ قال فوارس والتَّمييز يُؤْتى به مُوَحَّدَ اللفظ . قلت : إذا لم يَتَبَيَّنْ كثرةُ العدد واختلافُ الجنس من المميَّز يُؤْتى بالتمييز مجموعَ اللفظ متى أُرِيدَ التنبيهُ على ذلك . وعلى هذا قول الله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ﴾ ، كأنّه لما كانت أعمالهم مختلفةً كثيرةً ، نَبَّهَ على ذلك بقوله : أَعْمَالاً

(١) المنصفات : القصائد التى أنصف قائلوها فيها أعداءهم ، وصدقوا عنهم وعن أنفسهم فيما اصطلوه من حر اللقاء ، وفيما وصفوه من أحوالهم من إمحاض الإخاء . ويروى أن أول من أنصف فى شعره مهلهل بن ربيعة حيث قال :

كأنا غدوة وبنى أبينا بجنب عنيزة رحيا مدير

ومن المنصفات قول الفضل بن العباس بن أبى لهب :

لا تطمعوا أن تهينونا ونكرمكم * وأن نكف الأذى عنكم وتؤذونا

انظر الخزانة (٣ : ٥٢٠ — ٥٢١) .

(٢) الوضح : النقى الابيض .

ولو قال عَمَلاً كان السّامع لا يَبْعُدُ فى وهمه أن جُرْمَهم[١] كان لجنسٍ واحد من أجناس المعصية ، أو لعملٍ واحدٍ من الأعمال الذَّميمة . فكذلك قوله « فوارِسَ » جَمَعَهُ حتَّى يكون فيه إيذانٌ بالكثير .

٢ ــ أَكَرَّ وَأَحْمَى للحقيقة مِنْهُمُ وأَضْرَبَ مِنَّا بالسُّيوفِ القَوانِسَا

المصراع الأول ينصرف إلى أعدائه وهم بنو أسد ، والمصراع الثانى إلى عِتْرَتِهِ وأصحابه . والمراد : لم أرَ أحسَنَ كرًّا ، وأبلغ حمايةً للحقائق منهم ، ولا أضْرَبَ للقوانس بالسُّيوف منا : وانتصب القوانِسُ من فِعْلٍ دَلَّ عليه قوله « وأَضْرَبَ منا » . ولا يجوز أن يكون انتصابه عن أَضْرَبَ لأنَّ أَفْعَلَ الذى يَتِمّ بِمِنْ لا يَعْمَلُ إلاَّ فى النَّكِرَات ، كقولك : هو أحسن منك وَجْهًا . وأفعلَ هذا يجرى مجرى فعل التعجُّب ، ولذلك تَعَدَّى إلى المفعول الثانى باللام ، فقلتُ ما أضْرَبَ زَيْدًا لعمْرٍو . وقول الله تعالى : ﴿ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالاتِهِ[٢] ﴾ ، موضع حيث نَصْبٌ مما دَلّ عليه أَعْلَمُ . والقَوْنَسُ ، قال الدريدى : هو أعلى البَيْضَةِ وقال غيره : قَوْنَسُ الفَرَس : ما بين أُذُنيه إلى الرَّأس . ومثله قَوْنَسُ البيضة من السِّلاح .

٣ ــ إذا ما حَمَلْنَا حَمْلَةً نَصَبُوا لَنَا صُدُورَ المَذَاكِى والرِّماحَ الدَّوَاعِسَا

يُرْوَى : « إذا ما شَدَدْنَا شَدَّةً[٣] » . يقول : إذا حَمَلْنا عليهم ثَبَتُوا فى وجوهنا ، ونَصَبُوا صدور الخيلِ القُرَّحِ ، والرماحَ المُعَدَّةَ لذلك[٤] .

(١) فى الاصل : « جمرتهم » ، والصواب فى م .
(٢) هذه هى قراءة جمهور السبعة . وقرأ ابن كثير وحفص : « رسالته » بالتوحيد . تفسير أبى حيان (٤ : ٢١٦ – ٢١٧) .
(٣) جعلها التبريزى الرواية الأولى ، وما قبلها الرواية الثانية .
(٤) م : « للدفع » .

و الدَّعْس : الدَّفع فى الأصل ، ثم يُستعمل فى الطَّعن وشدَّة الوطْء والجماع . والذَّكاء : ضِدُّ الفَتَاء . ويقال فَرَسٌ مُذَكٍّ ، إذا تَمّ سِنُّه وكَمَلَ قوّته . وفى المثل : « جَرْىُ المُذَكِّيات غِلَابٌ » . ويقال « غِلاءٌ » . ويقال : فَتَاء فلان كذكاء فلان وكتذكية فلان ، أى حَزَامَتُه على نقصان سنه كحزامة ذاك مع استكماله لِسِنِّه . وقال زهير بن أبى سلْمَى :

يُفضِّلُهُ إذا اجْتَهَدَا عَلَيْهِ تَمَامُ السِّنِّ منه والذَّكاء

٤ — إذا الخَيْلُ جَالَتْ عن صَرِيعٍ نَكُرُّها عَلَيْهِم فَمَا يَرْجِعْنَ إلاَّ عَوَابِسَا

يقول : إذا الخَيْلُ دَارَتْ عن مَصْرُوعٍ مِنّا كَرَرْنَا عليهم لنصرع منهم مثلَ ما صرعوا منا . ويجوز أن يريدَ : إذا جالَتِ الخَيْلُ عن صَرِيعٍ منهم لا يُقْنِعُنَا ذلك فيهم ، بل نَكُرُّها عليهم لمثله[1] ، وإن كَرِهَتِ الكَرَّ لشدة البأس فلم تَرْجِعْ إلا كوالح . والعامل فى قوله « إذا الخيل » نَكُرُّها ، وهو جوابُه أيضاً . وإلاّ عَوَابِسًا فى موضع الحال ، وقولُه « الخيلُ » ارتفع بفعل مُضْمَرٍ ما بَعْدَهُ تفسيره .

١٥٢

وقال عبد الشَّارِق بن عبد العُزَّى الجُهَنِىّ[2] :

١ — أَلاَ حُيِّيتِ عَنَّا يا رُدَيْنَا نُحَيِّيها وإنْ كَرُمَت عَلَيْنا

(١) فى الاصل : « لميله » ، صوابه فى م .

(٢) فى الاصل : « وقال عبد الشارق » ، والتكملة بعده من م . وزاد التبريزى بعده « وهى من المنصفات » وانظر ما سبق من الكلام على « المنصفات » فى الحماسية السابقة . وعبد الشارق ، كما يظهر من تسميته : شاعر جاهلى . قال فى المبهج : « الشارق اسم صنم لهم ، ولذلك قالوا : عبد الشارق كقولهم عبد العزى ، وكلاهما صنم . ومثله عبد يغوث وعبدود ونحو ذلك : ويجوز أن يكون الشارق من قولهم عبد الشارق ، وهو قرن الشمس ، كقولهم لا أكلمك ما ذر شارق ، أى ما طلع قرن الشمس ، فقولهم إذا : عبد الشارق كقولهم عبد شمس . وأما العزى فهو اسم صنم ، وهو تأنيث الأعز » .

هذا على كلامين . و« ألاَ » افتتاحٌ[١] . والتحيّة ،قال بعضهم : هى الوَدَاعُ ها هنا ، يقول : ألا أَبْلغتِ وَدَاعَنا يارُدَيْنــةُ . ثم قال : نحيِّيها ، أى نُوَدِّعُها وإن عَزَّت[٢] علينا مفارقتُها . ويجوز أن يكون دعا لرُدَينــةَ مبتدئاً فقال : جَزَاكِ اللهُ عَنَّا ، أى تَوَلَّى الله ذلك من دُونِنا ، ثم راجَع نفْسَه فقال : نَفْعل ذلك على فَخامةِ موقِعِها منّا ، وجلالَةِ مَحَلِّها من قُلوبِنا ، إذ كُنَّا لا نَقدِرُ لها على غير ذلك . وقوله « نُحَيِّيها وإن كَرُمَتْ » يسمَّى التفاتاً ، كأنه التفتَ إلى من معه فقال ذلك .

٢ ــ رُدَيْنَةُ لوْ رَأَيْتِ غَدَاةَ جِئْنا على أَضَمَاتِنا وقد اُحْتَوَيْنا

توصَّلَ بمخاطبتها إلى اقتصاص الحال التى يريدُ شَرْحَها ، فأخذ يُبَاثُّها فيقول : لو رأَيْتِنا غَداةَ جئنا على حَزَازَاتٍ فى النَّفس ، واحتراقاتٍ فى الجَوْف والصَّدْر ، من الغَيْظ والحِقْد ، وقد حَوَيْنا أموالَ أعدائنا ، واستبَحْنا حَرِيمهم ، ومَلأْنا أيدينا من غنائمهم . هذا إذا رَوَيْتَه بالحاء غير مُعْجَمَةٍ . وروى بعضهم : « اُختَوَيْنا » بالخاء المعجمة ، ويكون افْتَعَل من الخَوَى ، والمعنى : خَوَتْ أفئدتنا من الوُدِّ ، كقول الآخر[٣] :

وإذْ صَفِرَتْ عِيَابُ الوُدِّ مِنْــكُمْ ولم يَكُ بَيْنَنا فيهــا ذِمامُ

وأَجْوَد منها « وقد اُجْتَوَيْنَا » بالجيم ، وهو اُفتَعَل من الجَوَى ، كأنه يريدُ ما اشتملَ الجوانحُ عليه من العَداوة حتى صار جَوًى . والأَضَمُ : الغَضَب . ومع ذكر الأَضَمِ اُجتَوَى بالجيم أَشْبَهُ ، وهو أَقْرَبُ . وجوابُ لو محذوفٌ ، لأنّ الأفعال التابعةَ لهذا البيت جميعُها مقصورٌ على بيان القِصّةِ ، وشَرْحِ أحوال الوَقْعةِ .

---

(١) أى ألا : أداة لافتتاح الكلام . وفى الاصل : « والافتتاح » ، صوابه فى م .
(٢) فى الأصل : « كرمت » ، صوابه فى م .
(٣) هو بشر بن أبى خازم . المفضليات (٢ : ١٣٥) .

وقد بيَّنْتُ فيما تقدَّم أنَّ حَذْف الجواب من مِثْل قولِ القائل : لو رَأَيْتَ زيدًا وفى يده السَّيْفُ ، أَدَلُّ على التهويل والتفخيم من إثباته .

٣ ـــ فأرسَلْنا أَبا عَمْرٍو رَبِيئًا فقالَ أَلاَ انْعَمُوا بالقَوْمِ عَيْنَا

يقول : توجَّهنا نحوَهم وأَنفذْنا مِن قِبَلنا من ارْتَبأَ لنا ، فعادَ مبشِّرًا وقال : قَرُّوا عَيْنًا واستَبْشِرُوا ، فقد أَقبَلُوا . وهذا ممَّا يُترْجِمُ عن محبَّتهم لملاقاة الأعداء ، وحِرصِهم على القتال ، وتشوُّقهم للمجاذبة والنِّزاع ، حتى عَدُّوا قُرْبَهم بِشَارَةً ، والالتقاء معهم غنيمة . وهذا عندى أَبلغُ من قول الآخر :

يَســـتعذِبُونَ مَنايَاهم كأَنَّهمُ لا يَيأَسُونَ من الدنيا إذا قُتِلوا[1]

ومن قوله :

* لقاء أَعادٍ أَم لقاء حبائبِ *

وقولُه « عَيْنًا » انتصبَ على التمييز ، وهو من باب ما نُقل الفِعْل عنه وَوُضِـع النَّـكِرةُ فيه موضع المَعْرفةِ ، لأنّ الأصل فى قَرِرْت به عَيْنًا : قَرَّت عينى . ومِثْلُه قولُهم : يتَصَبَّبُ عَرَقًا ، ويتفَقَّأُ شَحْمًا . وفى القرآن : ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ .

٤ ـــ ودَسُّوا فارِسًا مِنْهُمْ عِشَاءً فلَمْ نَغْدِرْ بفارِسِهِمْ لَدَيْنَا

يقول : وجَّهوا فارسًا ليَنْدَسَّ فى أثناء خيلِنا ، ويَعْرِف سرَّنا وعَلَنَنا ، ويقفَ على عَدَدِنا وعُدَّتِنا ، فيرجعَ إليهم بواضح الأحوال والأخبار ، فخلَّيناه والانصرافَ إليهم ، ولم نَستعمِل غَدرًا فى احتباسه عندنا ، وطَىِّ أخبارنا عنهم .

(١) « يستعذبون منا » هى من هامش نسخة الأصل فقط مع علامة إلحاق ، وهذه العبارة ساقطة من م . وبقية حروف الكلمة ، وهى « ياهم » من « مناياهم » هى تكملة ضرورية وليست فى النسختين . ويبدأ الاستشهاد فى النسختين بكلمة « كأنهم »

وأصل الدَّسِّ : إخفاء الشىء تحت غيره . وفى القرآن : ﴿ أَمْ يَدُسُّهُ فى التُّرَابِ ﴾ ويقال[١] : اندسّ إلى فلانٍ ، أى أتاه بالنَّمائم . فإن قيل : ما فائدة ذِكر الغَدْر هاهنا والفارس الذى أنفذوه جاسوسًا[٢] لم يكن اتخذَ[٣] منهم أمانًا ، ولا اشترط عليهم شرطا يوجِبُ سلامتَهُ به مع مخالطته لهم . قلتَ : كأنّ المرادَ لم نَستعمِل مَكْرًا باحتباس الرّسول ، إذ كان فى منعه من الانصراف إليهم انطواء أخبارنا عنهم ، فيكون كالغَدْرِ بهم وبه . ويجوز أن يكون ذلك الفارس الذى ظَهَر لهم ثِقَةً بالمعرفة بينه وبينهم ، فعَدَّ ظهورَه أخْذًا للأَمان عليهم . ويجوز أن يكون سَمَّى تركَ أقربِ الأمْرَين إلى الكرم والوفاء معه غَدْرًا ، ثمّ برَّأَ ساحَتَه منه .

٥ – فجاءوا عارضًا بَرِدًا وجِئْنَا كمِثْلِ السَّيْفِ نَرْكَبُ وَازِعَيْنا

يقول : تَسَارَعُوا مُقْبلين نحونا ، وكأنهم فى كثرتهم وتعجُّلهم قطعة من السَّحاب فيها بَرَدٌ – وَوَجْهُ التشبيه أنّ لهم حَفيفًا وَوَقْعًا شديداً متهافِتاً ، كما يكون لذلك السَّحاب – ونحن لكثرتنا وإتياننا على ما يَعترض فى طريقنا كالسَّيل الذى لا يُبْقِى ولا يَذَر . ومعنى « نَرْكَبُ وازِعَيْنا » أى لا نَنْقادُ لمن يريد ضَبْطَنا ، ولا نُطاوع من يَطْلُبُ كَفَّنا من الجيشَين جميعا . ولم يُثَنِّ « وازِعَيْنا » لأنه يشير إلى رجلين ، لكنه أراد الكثرةَ والجِنْس بالوزاع ، ثم ثَنَّى مبيِّناً اختلافَ الطائفتين من الخَيْلَيْن . ولا يجوز أن يُرْوَى « وازِعِينا » بكسر العين لما يَحْصُل من العيب بالسِّنَادِ مع ارتفاع الضرورة[٤] .

---

(١) فى النسختين : « ويقول » .

(٢) م : « داسوسا » فاعول من الدس . وقد أشير فى نسخة الأصل إلى أنها كذلك فى نسخة أخرى . والمعروف ، كما فى مادة (دسس) من المعاجم : « الدسيس » .

(٣) م : « أخذ » .

(٤) فى التذبيه : « وقد رواه بعض الرواة : وازعِينا ، فركب قبح السناد لضيق طريق المعنى الأول عليه . والقول فيه ما ذكرته » .

٦ــ فنادَوْا يا لَبُهْثَةَ إذ رأَوْنا فقلْنا أحْسِنِى ضَرْبا جُهَيْنَا

يقول : لمَّا شارفْناهُم استغاثوا ببنى بُهثَةَ مُعْتَزِين إليهم ، ومستَمِدِّين منهم ، فاسْتَتَرْنَا نحن أيضًا فى مقابلةِ ما فعلوا بنى جُهَيْنَةَ ، وهَزَزْناهم للضَّرْبِ فيهم ، والإيقاع بهم . وإنّما يستعملون الاعتزاز فى مثل هــذه الحالة تهويلاً للأمر ، وتكثيراً للعشيرة ، ليستشعرَ كلٌّ من الفريقين الرُّعْبَ من صاحبه ، والتهيُّب له . واللام من « يا لَبُهْثَةَ » لام الجرّ ، وتعلقت بيا : حَرْفِ النِّداء . ولا يجوز أن يقالَ تعلَّقتْ بالفعل الذى دلّ عليه يا ، لأنَّ ذلك الفعل لما لم يَخرجْ إلى الوجود سقط حكمه . وفتِحَتْ لوقوع المُنادَى موقع المضمر . وبُهْثَةَ مَدْعُوَّةٌ ، والجارّ مع المجرور فى موضع نصب لأنَّه منادًى . وقوله أحْسِنِى ضَرْبًا » يجوز أن يكون ضَرْبًا مفعولا به من أَحْسِنِى ، ويجوز أن يكون فى موضع الحال أى ضارِبَةً . ويُرْوى : « أحْسِنِى مَلًا » ، ومعناه خُلُقًا . والمرادُ مخالَقَةَ(١) أهل الحرب والمستنصرين ؛ وهذه رواية أبى زيد . وقال ابن السِّكِّيت : معناه أحْسِنِى تمالُؤًا أى تعاوُنًا . ويقال مالأْت على فُلان ، وكأنه من قولهم رَجُلٌ مَلِىءٌ ، وقد مَلُؤَ يَمْلُؤُ مُلاءَةً ومَلَاءً .

٧ ــ سَمِعْنَا دَعْوَةً عن ظَهْرِ غَيْبٍ فَجُلْنَا جَــــوْلَةً ثُمَّ ارْعَوَيْنَا

يقولُ : قَرَعَ أسماعَنا فى أثناء التهيُّؤ والتطالُع دَعْوَةٌ تأدَّتْ من مكانٍ غائبٍ عن عيوننا ، فَدُرْنَا دَوْرَةً ثم رجَعْنا إلى أماكننا . وهذا يجوز أن يكونوا خافوا السكَمِينَ فجاءوا ليتأمَّلوا ، فلما أمِنوا رَجَعُوا . ويقال : ارعَوَى عن الجَهْلِ ارعِوَاء ورَعْوَى حسنة ورُعْوَى ، أى رَجَعَ . ويقال : فَعَلَ فُلانٌ كذا بظَهرِ الغَيبِ ، وأتانى خَبَرٌ عن ظهرِ الغَيبِ .

(١) كذا على الصواب بالقاف عند التبريزى . وفى النسختين : « مخالفة » .

٨ ـ فَلَمَّا أَنْ تَوَاقَفْنَا قَلِيلاً أَنَخْنَا لِلْكَلاَكِلِ فَارْتَمَيْنَا(١)

هذه المواقَفَةُ التى أشار إليها ، يجوز أن تكون للتَّعْبِيَة والتهيئَةِ ، ويجوز أن تكون لتَدَاعِى الأبطال والمبارزة ، واعتراضِهم بين الصَّفَّين للمطاعَنة . وقوله « قليلا » يجوز أن يُريدَ به زَمَانا قليلاً ، فيكونُ ظَرْفا ، ويجوز أن يريد بِهِ(٢) : تواقُفاً قليلاً ، فيكون صفةً لمصدرٍ محذوف . والصفات تَنُوبُ عن المصادِرِ والظروفِ كثيراً . وجوابُ لمَّا « أَنَخْنَا » ، ومفعولُه محذوف . والمعنى : إنّا بَعْدَ المطارَدَةِ نزلْنَا ، وأَنَخْنَا للصُّدور فتناضَلْنَا .

٩ ـ فَلَمَّا لم نَدَعْ قَوْسًا وسَهْمًا مَشَيْنَا نَحْوَهُمْ وَمَشَوْا إِلَيْنَا

١٠ ـ تَلأْلُؤَ مُزْنَةٍ بَرَقَتْ لأُخْرَى إِذَا حَجَلُوا بِأَسْيَافٍ رَدَيْنَا

يقول : لمَّا مَلِلْنَا الطِّرَاد والرِّماء ، بإفْناء النِّبال وتَعْطِيلِ القِسِيِّ لانقطاع الأوتار ، مَشَى بَعْضُنَا إلى بَعْضٍ للكفاح والجِلاَدِ ، طلباً للاشتفاء ، كأنَّهم تَنَقلوا فى دَرجِ القتال ومراتبِهِ ، حتّى بَلَغُوا أعلاها وأَصْعَبَها ، وأولاها بدَرَكِ الثَّأر وأحَقِّها . ولهذا لمّا سأل عمر بن الخطّاب رضى الله عنه عمْرو بن مَعْدِيكَرِبَ عن أنواع السِّلاح ، وانتهَى إلى ذكر السيف ، قال « عِنْدَهُ تَثْكَلُ الأمّهات » . وانتصَبَ

(١) م : « وارتمينا » . وقال ابن جنى : « لك أن تجعل اللام صلة إلى المفعول توكيدا كقول الله سبحانه : قل عسى أن يكون ردف لكم ، وكقوله : إن كنتم للرؤيا تعبرون ـ غير أن هذا قدم فيه المفعول فحسن زيادة اللام لإعانة الفعل . وقرأت على محمد بن الحسن عن أحمد بن يحيى لابن ميادة :

وملكت ما بين العراق ويثرب ملكا أجار لمسلم ومعاهد

أى أجار مسلما ومعاهداً ، فكأنه قال : أنخنا الكلاكل ، فزاد اللام من حيث ذكرنا ـ ويجوز أن يكون اللام خبر مبتدأ محذوف يدل عليه قوله أنخنا ، فكأنه لما قال أنخنا قال : إناختنا للكلاكل » .

(٢) كذا فى م وفى الأصل : « أن يكون به » .

« تلألُوءَ مُزْنَةٍ » على أنه مَصْدَرٌ ممـا دلّ عليه « مَشَيْنَا نحوهم ومَشَوْا إلينا » ، لأنَّ فى ذلك تلألُؤَ السِّلاح من الجانبَين جميعا ، ووميضَ كلٍّ واحدةٍ من الطَّائفتين جميعاً للأخرى . وقولُه « إذا حَجَلُوا بأسْيَافٍ رَدَيْنَا » ، أى إذا كان مشيُهم إلينا حَجْلاً كان مَشْيُنَا إليهم رَدَياناً . والرَّدَيان فَوْقَ الحجَلان ، لأنَّه مَشْىُ الحمار بينَ آرِيِّهِ ومُتَمَعَّكِه ، فهو أسْرَعُ من الحجَلان ، إذْ كان فى الحجلان تقارُب الخطْو كمشْى المقيَّد ووَثْبَتِهِ . فيقول : تلألأَ نا لوفورِ أسلحتِنا ، وبَريقِ دُروعِنا وبَيْضِنا ، وإيماض أعيننا ، تلألُؤَ سحابةٍ بَرَقَتْ لسَحَابَةٍ أُخْرَى قابَلَتْهَا . وقال أبو زَيدٍ : هذا من رَدَيَان الجوارى إذا لَعِبْن[1] تَرْفع إحداهُنّ رِجْلاً وتَخْطُو بأخرى خُطوتَين ، ثم تضعُها وتَرفع الأخرى ، تفعل ذلك مِرَاراً . قال : والغُرَاب يَرْدِى ويَحْجِل .

١١ – شَدَدْنَا شَدَّةً فقَتَلْتُ منهم ثلاثَةَ فِتْيَـةٍ وَقَتَلْتُ قَيْنَا

١٢ – وشَدُّوا شَدَّةً أخرى فجَرُّوا بأرْجُلِ مِثْلِهم ورَمَوْا جُوَيْنَا

يَقُولُ : حَمَلْنَا عليهم حَمْلَةً مُنكرة[2] ، فأصَبْنا منهم ثلاثةً من الفتيان ، وقَتلتُ قَيْناً . وقَيْن : اسمُ رجُلٍ كان مشهوراً فيهم بالبأس والنَّجْدَةِ ، فلذلك عَيَّنَ عليه . وقولُه « ثلاثةَ فِتْيَةٍ » فِتْيَةٌ من أبنية القليل ، كغِلْمةٍ وصِبْيَةٍ ، ولذلك أضافَ الثّلاثةَ إليها . وبناء الكثير الفِتْيان . و « شَدُّوا شَدَّةً أخرى » ، يقول : وحملوا حَمْلَةً فأصابوا منَّا مِثْلَ ما أصبْنَا منهم ، وارْتُثَّ من قَتلاَنا مثلُ ما ارتُثَّ من قتلاهُمْ ، ورمَوْا جُوَيْناً أخِي . قوله « بأرْجُلِ مثلهم » لو قال أمثالِهم لجاز ، وفى القرآن : ﴿ ثُمَّ لا يَكُونوا أمْثالَكُمْ ﴾ ، وفى موضعٍ آخر :

(١) فى نسخة الأصل : « نعين » ، صوابه فى م .

(٢) هذه الكلمة ساقطة من م .

﴿ يَرَوْنَهم مِثْلَيْهم رَأْىَ العَيْن ﴾ ، وفى موضع آخر : ﴿ إنَّكُمْ إذاً مِثْلُهُم ﴾ . وهذه الأبيات تُسمَّى المُنْصِفةَ ، لِمَا تقابَلَ فيها من صِفات الجيشَيْن على وَجْه التعادُل ، وسَنَن التصادُق . إن قيل ما فائدة قوله « شَدَّةً أُخْرَى » ، ولم يكن قد تقدّم لهم أولَى؟ قلت : يجوز أن يكون أرادَ تَوَالِى بيننا حَمْلَتان : الأولى منّا ، والأخرى منهم ، لأنَّ قَصْدَهُ اقتصاصُ الحال الدائرة بينهم . ويجوز أن يكون أراد أن يبين أنهم كانوا السابقين والمبتدئين ، فوصَف شَدَّتهم بالأخرى لِيُعْلَمَ أنَّ المتقدم فى الذِّكر كانت الأولى .

١٣ – وكَانَ أَخِي جُوَيْنٌ ذَا حِفَاظٍ وكان الْقَتْلُ لِلْفِتْيَانِ زَيْنَا

١٤ – فآبُوا بالرِّماحِ مكَسَّرَاتٍ وأُبْنَا بالسُّيوفِ قد انْحَنَيْنَا

نَبَّهَ على أنه بحُسْنِ محافظتِه على الشَّرَف ، وجميل مدافعَته دون العشيرة ثَبتَ حتَّى قُتِل ، وأنّ قِتْلَتَهُ كانت قِتْلَةً محمودةً تَزِينُ ولا تَشِين . وقولُه : فآبوا بالرِّماح مكسَّرات ، وأُبْنَا بالسيوفِ مُنحَنِيَاتٍ ، جعَل فيه أعلى الصفتين لنَفْسه وذَويه[1] ، وإن كان الظاهر من قَصْدِه فى الوَصْف الجَرْىَ على سَنَن النِّصْف ، يَشْهد لذلك ما رَتَّبَهُ زهيرٌ فى قوله :

يطعَنُهم ما ارْتَمَوا حتى إذا اطَّعَنُوا ضاربَ حتى إذا ما ضاربُوا اعتَنَقا

ألا تَرى أنه جعَل الطَّعنَ فوقَ النَّضْل ، والضِّرابَ فوقَ الطِّعان ، والعِناقَ فوق الكِفاح . وكذلك فعَل فى الرَّدَيانِ والجَلانِ ، وفى وَصْفِ أخيه بحُسْن الحِفَاظ عند قوله « ورمَوْا جُوَيْنَا » فى مقابلَةِ « وقَتَلْتُ قَيْنَا » . وأمّا قول الآخر[2] .

---

(١) كذا فى م . وفى الأصل : « لنفسه من ذويه » .

(٢) هو الحصين بن الحمام المرى . المفضليات (١ : ٦٣) .

نُطَارِدُهُم نَسْتَنقِذُ الجُرْدَ كالقَنا ويَسْتَنقِذُونَ السَّمهرِىَّ المُقَوَّمَا

فليس من التناصُفِ فى شىء ؛ إذ كان المعنى : إنَّا عِند الطِّعانِ نُذْوِيهم عن ظُهور الدَّوَابّ ، فنَغنَمُ دوابَّهم ونفوز بها ، وهم يستنقذون رِماحَنا لأنا نكسِرُها فيهم إذا طَعَنَّاهم ، ونُجرُّها إياهم فيفوزون بها . فيقول : انصرَفوا وقد تكسَّرَتْ رماحُهم بالإجْرارِ ، ورَجَعْنا وقد تَثَنَّتْ سُيُوفُنا بإعمالنا إيَّاها فى البَيْضِ والدُّروع وقتَ الجِلاد .

١٥ — فباتُوا بالصَّعيدِ لَهُمْ أُحَاحٌ ولو خَفَّت لنا الـكَلْمَى سَرَيْنَا

يقول : بقُوا ليلَهم يئِنُّون على الصعيدِ ، وهو وجه الأرض ، ولو ساعَدَتْنا الطائفة المجروحةُ مِنَّا ، وقَدَرَت على السُّرَى لسَرَيْنَا ، لـكنَّ كُلاًّ منَّا اضطُرَّ إلى الإقامةِ والتلوُّم ريثَمَا يَثُوبُ إليه القُوَى بَعْدَ لُحُوقِ الجَهْدِ ، ومشارفَةِ الرَّدَى . وقد قيل إن الأحاح العطش ، والمشرف من الجراح على الهلاك يَعْطش . وقد قيل إنّ الاحَاحَ شِدَّة الوَجْـدِ من الغيْظ حتى يُسْمَعَ له من الصَّـدْرِ صوتٌ ، وهو على مثال الأدْواء والأصـوات جميعًا ؛ لأنّ فُعَالا يَكْثُر فيهما . والـكَلْمَى : جمـعُ كَلِيمٍ ، وفَعْلَى يكونُ جَمْعًا لمـا كان من الزَّمانة والضَّرَرِ وأنواع البَلايا . وأبنيةُ واحدِهِ تختلف

١٥٣

وقال بِشْرُ بنُ أُبَىّ [١] :

١ — إنّ الرِّباطَ النُّـكْدَ من آلِ داحِسٍ كَبَوْنَ فما يُفلِحْنَ يَوْمَ رِهَانِ

(١) التبريزى : « وقال بشر بن أبى حمام العبسى ، ابنى زهير بن جذيمة . ويروى : بشير » . وفى المؤتلف ٦١ « بشير بن أبى جذيمة العبسى ، بضم الباء تصغير بشر » . وقد سبقت ترجمة « أبى بن حمام » فى الحماسية ١٤٢ .

يُرْوَى « أَبْيَنَ فَلاَ يُفْلِحْنَ[١] » ، ويُرْوَى « كَبَوْنَ » أى سَقَطْنَ لوجوهها . قال :

* فــكَبَا كما يَــكْبُو فَنِيقٌ تارِزٌ[٢] *

وهذا الـكلام تَضَجُّرٌ بما اُنْتَتِج بين أَبَنَىْ بَغيضٍ عَبْسٍ وذُبْيانَ من الشرِّ ، فى الرِّهانِ على داحسٍ والغَبْراءِ ، ودُعاءٌ على داحسٍ ونســلِهِ بألاّ تُفْلِحَ فى خِطارٍ ، وأن تَأْبَى النَّجاحَ فى سِباقٍ ، فقال : إنّ الخيــلَ المربوطة المشائيم من آل داحسٍ وداحِسًا ، أَبَت السَّبْق فى حَلْبَــةٍ وميدانٍ ، والفَلاَحَ يومَ خِطارٍ ورِهان . والمعنى : لا جعَــل الله لها ذلك ، فقد تَرَدَّدْنا من البَلاءِ فى عَمَاياتٍ لا انكشافَ لها . وخبَرُ إنّ « جَلَبْنَ بإِذْنِ الله » وقولُه « كَبَوْنَ فما يُفْلِحْنَ » أو « أَبْيَنَ فلا يُفْلِحْنَ[٣] » اعتراضٌ بين إنّ وخَبَرِه . والمعنى مَعْنى الدُّعاء ، فهو كما يقال إنّ زَيْدًا خَذَلَهُ الله فعَل كذا . ومثله فى الاعتراض بالدُّعاءِ قولُ الآخر[٤] :

. . . . ما لَـكُمْ تفاقَدْتُمْ لا تُقْدِمُون مُقَــدَّما[٥]

ويجوز أن يكون الـكلام كله إخبارًا متجرِّدًا[٦] عن الدُّعاء ، فيكون معنى كَبَوْنَ وأَبْيَنَ ، أنه حصَل لهنّ ذلك . والنُّــكْدُ : جمعُ أَنْــكَد . والرِّباط :

(١) كذا فى النسختين ، ورواية التبريزى : « أبين فما يفلحن » . وانظر ما سيأتى فى الحاشية التالية .

(٢) لأبى ذؤيب الهذلى فى ديوان الهذليين (١ : ١٥) . وعجزه :

* بالخبت إلا أنه هو أبرع *

(٣) كذا فى الأصل . وفى م : « فما يفلحن » .

(٤) هو الحصين بن حمام المرى . الحماسة ١٣٢ .

(٥) صدره : * فقلت لهم يا آل ذبيان مالكم *

(٦) أشير فى هامش نسخة الأصل إلى أنها فى نسخة أخرى : « مجردا »

مصدر رابَطْتُ ، ولذلك وقَع على الواحدِ والجَمْع . والآلُ ، ذَكَر البَصريُّون أنه فى معنى الأهل ، لا فَرْقَ بينهما ، وأنّ تصغيره أُهَيْلٌ ، وهذا يُؤْذِن بأنّ أصل أَلِفِه هاء . وحكى ثَعلبٌ عن شيوخِه أنّ الأهل ، القرابةُ ، مُتَّبِعًا كان أو غيرَ مُتَّبِع ، وأنّ الآلَ المُتَّبِعُ وإنْ لم يكُنْ ذا قَرابةٍ ، فهما لمعْنَيَيْن . قال : وحكى الكسائى فى تصغير الآلِ أُوَيْلٌ ، وفى تصغير الأَهْلِ أُهَيْل .

٢ – جَلَبْنَ بإذن الله مَقْتَلَ مَالِكٍ وَطَرَّحْنَ قَيْسًا مِن وَرَاءِ عُمَانِ

أخذ يعتدُّ الخصالَ المكروهةَ الحاصلة بها ، فيقول : جَلبَ سَبْقُ دَاحِسٍ بعِلْمِ الله تعالى قَتلَ مالك بن زُهَيْر ، وتطريحَ قَيْسِ بن زُهَيْر من أرض العَرَب إلى عُمَان . وكان قَيْسٌ نَذَرَ ألاَّ يَنْظُرَ فى وَجْهِ غَطَفَانىّ أبداً ، فدعاه ذلك إلى مراغمة العشيرة ، والتباعُد فى الغُرْبَةِ . وقولُه « بإذن الله » من قَوْلِكَ أذِنْتَ بالقَوْمِ . وفى الحديث : « ما أَذِنَ اللهُ لشىء[1] » . وقَصْدُ الشَّاعِرِ أن يَذْكُرَ ما أعْقَبَ سَبْقَ دَاحِسٍ من الشَّرِّ ، وأُلْحِقَ من الشؤم . وقوله « جَلَبْنَ » جعَلَ اللَّفظ للآل ، والمُراد دَاحِسٌ ، لكنّه لما جعَلَ الدُّعاءَ لآله استمرّ فى الإخبار على حاله ولم يغيِّر . ويشبهه قول الآخر :

إنّ ابْنَ ضِرَارٍ حِينَ أَنْدُبُهُ زَيْدًا سَعَى لى سَعْيًا غَيْرَ مَكْفُورِ

أراد : إنّ ابن ضِرَارٍ زيداً ، فذكر الآل والمراد غيره . وهم فى كثير من المواضع أقاموا الوَالِدَ مَقَامَ الوَلَد والولَد مقام الوالد ، والعشيرةَ مقام الواحِدِ منها ، والواحد مقام العَشيرة ، لأغراض مختلفة ، حين أَمِنوا الالتباس . ومِمَّا يُجانِسُ هذا زيادتهم « ذو » و « حىّ » . أنشد أبو زيد :

(١) تمام الحديث ، كما فى اللسان : « ما أذن الله لشىء كأذنه لنبى يتغنى بالقرآن » . وقد فسر الأذن ، بالتحريك ، أنه الاستماع .

يا قُرَّ إنَّ أباكَ حَيَّ خُوَيْلِدٍ   قد كُنْتَ خائفَه على الإحْمَاقِ[1]

وقال الشمّاخ :

* فأُدْمِجَ دَمْجَ ذى شَطَنٍ بديع[2] *

والقصْدُ إلى خُوَيْلِدٍ وإلى شَطَنٍ .

٣ — لُطِمْنَ على ذاتِ الإصَادِ وجَمْعُكُمْ   يَرَوْنَ الأذَى من ذِلَّةٍ وهَوَانِ

الملطومُ داحِسٌ ، فجرى على ما بَنَى عليه الكلامَ من الإخبارِ عن نَسْلِهِ وآله . وكان حُذَيفةُ بن بَدْرٍ أرْصَدَ فِتْيَانًا لهُ من بنى فَزَارَةَ لمّا تغالَقَ هو وقَيْسٌ على الفرَسَيْنِ فى موْضِعٍ من ذات الإصَادِ لُقِّبَ بشِعْبِ الحَيْس — كَحَيْسٍ أكلوه فيه — وقال لهم : إن جاء دَاحِسٌ متقدِّمًا سابقًا فالطِموه ونَهْنِهُوهُ عن الغاية حتّى تتقدَّمَهُ الغَبْرَاء ، فمرَّ بهم دَاحِسٌ مُبَرِّزًا وفعلوا به ما رَسَمَ لهم حتّى تخَلَّفَ عن الغبراء ، فاجتهَدَ داحس وتكَلَّفَ من العَدْوِ ما لَحِقَ بها ، وتقدَّم عليها ثانيًا فجاء سابقًا . وقولُه « وجَمْعُكُم يَرَوْنَ الأذَى » ، يخاطِبُ به بنى عَبْسٍ ، وإنَّما يصِفُ ما نيلَ منهم وركبهم من الهَضِيمة فى فرَسهم لمّا لُطِمَ ، وفى أنفسهم حين مُنِعُوا ما استُحِقَّ له . واللَّطْمُ : الضَّرْبُ فى الخدِّ ، ثم قيل فرَسٌ لَطِيم تشبيهاً بذلك . وهذا كما يقال هو مَمْسُوحٌ بالجمال مسْحًا . وذات الإصَادِ يُرِيد البُقْعَةَ التى فيها الإصاد ، ويقال هى رَدْهَةٌ بين أَجْبُلٍ . والردهة كالحُفَيْرَةِ[3] يجتمع فيها الماء ، والجميع الرِّدَاهُ .

٤ — سَيُمْنَعُ مِنْكَ السَّبْقُ إنْ كُنْتَ سَابِقًا   وتُقْتَلُ إن زَلَّتْ بك القَدَمَانِ

---

(١) نوارد أبى زيد ١٦١ .

(٢) صدره فى ديوان الشماخ ٦١ :

* أطار عقيقه عنه نسالا *

(٣) م : « كالحفرة » وأشير فى الأصل إلى أنها فى نسخة « كالنقرة » .

هذا يحتمل وجهين : أحدهما أنَّه جعل الخطاب لصاحب الفَرَس على المجاز والسَّعة ، والمقصود الفَرس ، فيقول : تُمْنَعُ منْ السَّبْقِ إن سَبَقْتَ — وهذا إشارة إلى ما كان منهم من لَطْمِ داحِسٍ . وقد قُدِّمَ ذِكْرُه — فإن خَفَّتْ قَدَمَاكَ بِكَ وبَرَزْتَ ثانياً أُبِيَ عليك . ويكون قَوْلُهُ « زَلَّتْ بك القَدَمان » على ما فَسَّرْنَاهُ من قولهم قِدْحٌ زَلول ، إذا كان خفيفاً . فهذا وَجْهٌ . والثانى أن يُتْرَكَ الخطاب على ظاهره وحَدِّهِ ، فيكون المَعْنَى : سَيُمْنَعُ منك المُتَّفَقُ عليه من الخطَرِ بسَبْقِ فَرَسك ، فإن لم يَثْبُتْ قَدَمَاكَ عند التَّقاضى به ، وفى الدفاع عن نفسك فيما يُرَادُ من ظُلْمِكَ ويرام من هَضْمِكَ قُتِلْتَ أيضاً . وهـذا أقْرَبُ وأشبه بالقِصَّة .

١٥٤

وقال غَلَّاقُ بن مَرْوَانَ(١) :

١ — هُمُ قَطعُوا الأرْحَامَ بينى وبَيْنَهُمْ وأَجْرَوْا إليها واستَحَلُّوا المَحَارِمَا

قَطَعُوا بالتخفيف يَصْلُح لقليل الفِعْـل وكثيره ، فإذا ثَقَّلْتَ لم يَـكُنْ إلاَّ للتَّـكثير أو التكرير . والشّاعرُ يَصِفُ ما أَجْرَى إليه القَومَ فى سَبْقِ داحِسٍ من قطيعة الرَّحِمِ ، وانتهاك المَحْرَم ، واستِحْلَالِ المَحْظُورِ المحرَّم ؛ ويَقتَصُّ ما تَنَقَّلُوا فيه وتدرّجوا إليه حَالاً بعد حَالٍ ، وشيئا بَعْدَ شيء . وقوله « أَجْرَوْا إليها » الإجراء يُسْتَعْمَلُ فى المُنْـكَرِ المذموم ، ومفعولُهُ محذوف ، كأنَّهُ أجرَوا

---

(١) التبريزى : « غلاق بن مروان بن الحكم بن زنباع » . المبهج : « يكون علاق فعالا من غلق الرهن فهو غلاق ، كعلم فهو علام ، وسلم فهو سلام . ويجوز أن يكون من من أغلق الباب ونحوه ، وهذا أقلها لعزة فعال من أفعل ، إنما جاء منه أسأر فهو سآر ، وأدرك فهو دراك ، وأجبر فهو جبار . وأقصر فهو قصار . وقرأ بعضهم : يا قوم اتبعونى أهدكم سبيل الرشاد . ومروان : علم مرتجل » .

فِعلَهُم إليها ، والضمير فى « إليها » للقطيعة ، لأنّ الفِعْلَ يَدُلُّ على مَصْدَرِه . وهذا كما يُقال : مَن كَذَبَ كان شَرًّا له ، أى كان الـكَذِبُ شَرًّا له .

٢ — فياليْتَهُمْ كانوا لِأُخْرَى مَكانَها ولَمْ تَلِدِى شيئاً من القَوْمِ فاطِما

البيتُ على كلامَيْن : صَدْرُهُ إخبارٌ ، وعجزُه خطابٌ لفاطمة ، وهى أختٌ لهم . ومِثْلُه فى أنّه كلامَيْن قوله تعالى : ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا واستَغْفِرِى لذَنْبِكِ ﴾ . والشاعِرُ قَصْدُهُ إلى إظهار التوجُّع من الحال ، فيقولُ متمنِّياً : بِوَدِّى إنْ يكونوا لوُصْلَةٍ وقَرَابَةٍ غير وُصلتهم وقرابتهم ، حتَّى لا يَبلغ الجفاءُ من جهتهم مَبَالِغَهُ فى نُفُوسِنا ، لأنَّ ظُلْمَ ذَوِى القُربى أَشَدُّ تأثيراً . والشَّرُّ إذا وَرَدَ على الإنسان من مَظِنَّةِ الخيرِ كان أَنفَذَ تحزيزاً . فقولُه « كانوا لأخرى مكانَهَا » أى لِقَرَابَةٍ أخرى مكان هذه القرابة ؛ أو لِأَرْحامٍ أخرى مَكانَ هذه الأرحام . وقوله « لم تَلِدِى شيئا » تمنّى ارتفاع الوُصْلَةِ كما تَمَنَّى فى الأوّل انقطاعَ القرابة ؛ كأنّه وَدَّ بعد استبدالهم بالتناصُرِ تَدَابُراً ، وبالتَّواصُلِ تقَاطُعاً ، أنَّهم كانوا منهم غُرَباءَ . وقوله « فيا لَيْتَهُمْ » المُنادَى محذوف ، أراد يا قَوْمِ لَيْتَهُم .

٣ — فَمَا تَدَّعِى من خَيْرِ عَدْوَةِ دَاحِسٍ فَلَمْ تَنْجُ منها يا ابْنَ وَبْرَةَ سالِما

يَذُمُّ ما أَحْمَدُوه من سَبْقِ داحِسٍ وتبريزه ، ويُسَوِّئُ رأيَهم فى تبجُّحِهم ، ويعرِّفُهم قُبْحَ عاقبةِ ما اختاروه ، وسوءَ مَغَبَّةِ ما شَرَعُوا فيه . وإنّما قال « ما تَدَّعِى » لأنّ أصحاب الغَبراء كانوا يملّون[1] سَبْقَ دَاحِس وينكرونه ، فلهذا علّقَ ما حكاهُ عَنه بالدَّعْوَى . وقولُه « من خير عَدْوَةِ » أى من نَفْعِه وسَنَاءِ ذِكْرِه . وقوله « فلم تَنْجُ منها » رَدَّ الضمير على المضافِ إليه وهو العَدْوَة . يريدُ : لم يَرْجِعْ

(١) هذا ما فى م . وفى الأصل : « لأن أصحاب الغبراء لأنهم كانوا يعللون » .

إليك منها حذوى ، ولا ارتفع الأمر فيه كفاً . ولمّا فاتت الغنيمة فيه لم تحصُل لك السلامة أيضاً .

٤ — شأمْتَهم بها حيّىْ بغيضٍ وغرّبتْ أباكَ فأوْدَى حَيْثُ وَالَى الأعَاجِمَا

قال أبو زيد : يقال شَأمَ فلانٌ أصحابَهُ ، إذا أصابهم الشُّؤم من قِبَلِهِ . « بها » يريد بالمذوقة ، وهذا تفسير قوله : فلَمْ تَنجُ مِنْهَا يا ابْنَ وَبْرَةَ سَالِماً . يقول : أوقعتهم بمدوتها والخطار عليها الشُّؤمَ في حيّىْ بَغيضٍ : عَبْسٍ وذُبيانَ ، وأخرج أباك — يعني قيس بن زُهَيْرٍ — إلى تَرْكِ أرْضِ العَرَبِ ومهاجرتِها . يعني حين أُخْرِج[١] وأُزعِجَ إلى بلادِ العجم ، حتى صار يُواليهم بها ، إلى أن مات غريباً بين ظهرانيهم . وأشار بقوله « حَيْثُ » إلى عُمان وما وَرَاءه .

٥ — وكانتْ بنو ذُبيانَ عِزًّا وإخْوَةً فَطِرْتُمْ وطاروا يَضْرِبُونَ الجَمَاجِمَا

يقول : كان بنو ذبيانَ لكم يا بني عَبْسٍ مَلَاذاً وعِزًّا ، وعَتَاداً وظَهراً ، لما يجمعكم وإيّاهم من الأُخوّةِ ، فاطّرحتم مَوَاتَّ التمازُج والتّشابُكِ ، وتعاديتموها إلى التّجاذب والتقاتُل . وهذا تحسيرٌ للمُخاطَبِ فيما انتقل عنه من موالاة العشيرة ، والإبقاء على الأحوال الجامعة ، وتلهيفٌ فيما انتقلوا إليه من [illegible] ، وبسط الأذَى والشرّ ، وتنبيهٌ على ما يتعقّب أحوالَهم إن [illegible] من التفانى والتهالك . وكان الواجب أن يقول : فطِرْتُمْ [illegible] وطاروا يضربون ، فاكتفى بالإخبار عن إحدَى الفرقتين ؛ إذ قد [illegible] الأخرى [illegible] . ومعنى طِرتم : تسرّعتُم ، كما قال :

* [illegible] إليه زرافاتٍ ووُحْدَانا[٢] *

[illegible]

٦ــ فأضحَتْ زُهَيْرٌ فى السِّنِينَ التى مَضَتْ وما بَعْدُ لا يُدْعَوْنَ إلَّا الأشائما

أنّثَ الفِعْلَ لأن المُراد بذكر زهَيْر القبيلةُ بأسْرِهَا ، ومعنى يُدْعَوْن يُسَمَّوْن ، كما قال ابن أحْمَر :

* وكنتُ أدْعُو قَذَاهَا الإثْمِدَ القَرِدَا[1] *

يريد أسَمّى ، ولذلك تعدَّى إلى مفعولين ، فيقول : صار أسلاف بنى زُهَيْر ابن حُذَيْفة وأخلافُهم لا يُسمَّوْن قديماً ولا حديثاً إلّا المشائم . والأشائم : جمع أشْأم . ويقال : جَرَتْ لَهم طَيْرٌ أشائمُ ، أى جَرتْ لهم بالشُّؤْمِ . وقال زهير :

* فتُنْتِجْ لَكُمْ غِلْمَانَ أشْأَمَ[2] *

أى غلمان أمرٍ أشْأَم . وقوله « فى السنين » يجوز أن يكون ظرْفا لأضْحت ، ويجوز أن يكون ظرفا لقوله « لا يُدْعَوْنَ » . وقولُه « وما بَعْدُ » يراد به وفيما بعد فيكون ما معطوفاً على السّنين . ويجوز أن يكون موضع « ما » نَصْبًا على أن يكون معطوفاً على موضِع فى السِّنينَ لا على لفظِه ، لأنَّ موضِعَهُ نَصْبٌ لكونه ظَرفاً . ويجوز أن يُجْعَلَ مَا صِلَةً ، كأنّه فى السِّنينَ الماضيةِ وبعدها . ويجوز أن يُرْوَى : «ومن بَعْدُ لا يُدعَونَ » ، وهو حَسَنٌ . وذكر بعضُهم[3] أنّ ما من قوله « وما بَعْدُ » لا يجوز أن يكون إلّا صلةً وزائدةً[4] لأنَّ بَعْدُ لَمّا جُعِلَ غايةً ودخَلَهُ النُّقْصَان بحذْفِ ما كان مُضَافًا إليه امتنع من أن يكونَ مبنيًا على شىء وخَبَرًا عنه ، وإذا امتنع من ذلك امتنع أن يكون صلةً لموصول ، لأنّ الذى يكونُ

(١) صدره ، كما فى اللسان (دعا) :
* أهوى لها مشقصا جشرا فشبرقها *
(٢) تمامه : فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم
(٣) هو ابن جنى فى التنبيه .
(٤) نص التنبيه : « ينبغى أن يكون ما من قوله : وما بعد ، زائدة ... » الخ .

صِلةً من الظروف والجُمَل هو ما جاز أنْ يكون خَبَرَ المبتدأ . وليس الأمر على ما قاله ، ألا ترى أنّ قوله عزّ و جلّ : ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا من الله وِمنْ قَبْلُ ما فَرَّطْتُمْ في يُوسُفَ﴾ . معناه : ومن قبل الذى فرّطتم فى يوسف ، أى قدَّمْتُمْ . ويجوز أن يُرادَ : ومن قبلِ تفريطكم ، فيكون ما مع الفِعْل فى تقدير مَصْدَرٍ . وعلى الوجهين جميعا ما فى مَوْضِع رَفْع ومن قَبْلُ خَبَرُه . وذكر أبو إسحاق الزَّجّاجُ فى ما من الآية ثلاثة أوجهٍ ، ما ذكرْنَا أحَدُهَا . وإذا كان الأمْرُ على هذا فما ذَكَرَهُ هذا القائل غير صحيح ، لأنى قد أرَيْتُكَهُ بَعْد وهو غايَةٌ خَبَرًا ، وكَوْنُه صِلَةً تابِعٌ لكونه خَبَرًا ، فاعْلَمْهُ .

١٥٥

وقال المُسَاوِرُ بن هِنْدٍ(١) :

١ — أَوْدَى الشَّبَابُ فَمَالَهُ مُتَقَفَّرُ وفَقَدتُ أَتْرَابى فأيْنَ المَعْبَرُ(٢)

يقول : أَدْبَرَ الشبابُ وولَّى(٣) ، فهو فائتٌ لا يُتَتَبَّعُ(٤) ، ومطلوبٌ لا يُلحَقُ ، وعَدِمْتُ نُظرائى وأقرانى ، فأيْنَ بقائى بَعْدهم ، وكيف خَلاصِى ممّا اخترَمَهم وأفناهم . وهذا الكلام توجُّعٌ وتحسُّرٌ لما تَقَضَّى من شبابه ، وعُنفوان عُمْرِه(٥) وتَقَدَّم من أقْرَانِه ولِدَاته . أى إذا خَلَوْتُ منهم ، وصِرْتُ عائشاً فى

---

(١) سبقت له الحماسية ١٤٨ .

(٢) التبريزى : « وأكثر الناس ينشد : وفقدت أصحابى » .

(٣) هذا ما فى م . وفى الأصل : « وقل » مع الإشارة إلى أنها فى نسخة أخرى : « وولى » .

(٤) م « لا يتبع » .

(٥) أشير فى الأصل إلى أنها فى نسخة : « أمره » .

غَيْرِهِم فَكَمْ عَسَى أن أبْقَى بَعْدَهُمْ . ويقال غَبَرَ إذا مَضَى ، وغَبَرَ إذا بَقِي . ويريد[(١)] بالمَغْبَرِ هنا البقاء ، ويقال : اقتفرتُ الشَّيء وتقفّرته ، إذا تتبّعته .

٣ــ وَأَرَى الْغَوَانِيَ بَعْدَمَا أَوْجَهْنَنِي أَعْرَضْنَ ثُمَّتَ قُلْنَ شَيْخٌ أَعْوَرُ

الغوانى : جمع غانيةٍ ، وهى التى تَسْتَغْنِي بزوجها عن الرِّجال ، وقيل هى التى تَستغنِي بمحاسنها عن التزيُّن بالحلِيّ . وقال أبو عبيدةَ : هى المتزوّجة ، وأنشد لجميل بن مَعْمَرٍ :

حَبَبْتُ الأيامَى إذْ بُثَيْنَةُ أَيِّمٌ فلما تَغَنَّتْ أَعْلَقَتْنِى الْغَوَانِيَا

وأنشد ابنُ الأعرابيّ :

* أَزْمَانَ لَيْلَى كَعَابٌ غَيْرُ غَانِيَةٍ[(٢)] *

والشاعر يقول متشكِّيًا من الشَّيْبِ المُعْتَاض من الشَّباب ، ومن الضعف التابع لصحّة الجسم ، ومن السقوط والانحطاط بعد الجاهِ عند الغانيات : أرى النِّساء بعدما كُنَّ يجعلنَ لى عِنْدَهُنَّ جاهًا أعْرَضْنَ عنى واطّرَحْنَنِي ، وأبدلْنَنِي بالحمد ذَمًّا ، وبالتسمية تَلْقيبًا ونَبَزًا[(٣)] ، فمتى ذُكِرْتُ عِنْدَهُنَّ قلن هو شَيْخٌ أَعْوَرُ . وقوله « أَوْجَهْنَنِي » من الوجاهة : المَنزلة . يُقَالُ وَجُهَ وَجَاهةً ، ووجَّهَنى السلطان وأَوْجَهَنى : جعل لى جاهًا ومنزلة . ورَجلٌ مُوَجَّهٌ وَوَجِيهٌ . وقوله « شيخٌ » ارتفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، وقد مَضَى القولُ فى التاء من ثُمَّتَ ورُبَّتَ ، وأنه علامة التأنيث للقصّة . وجُعِلَتْ تاءً مفتوحة فَرْقًا بينها وبين التى تَلحَقُ الفعل والاسم .

(١) أشير فى الأصل إلى أنها فى نسخة : « ويراد » .

(٢) لنصيب ، كما فى اللسان (غنا) . وعجزه :

* وأنت أمرد معروف لك الغزل *

(٣) النبز ، بالفتح : التلقيب ، وبالتحريك . اللقب .

٣ــ ورأَيْنَ رَأْسِي صَارَ وَجْهًا كُلُّهُ إلاّ قفَاىَ وَلِحْيَةٌ ما تُضْفَرُ(١)

يقول مستمرًّا فى تكلُّفِ الجزَع إثْرَ ما تولَّى من الشَّبَاب ، وباسِطًا مَعْذِرَةَ النِّسَاء فيما استحْدَثْنَ له : رأينَنى قد صَلِعْتُ وانحسر الشَّعْرُ عن رأسى حتَّى صَار كُلُّهُ كوجهى ، إلا قفَاىَ فإنَّ به نَبْذًا مِن الشَّعرِ ، وإلا لحية لا تُقام مَقام الذُّؤابة فى الضَّفرِ والتَّجمُّلِ . فقوله « لِحْيَةٌ مَا تُضْفَرُ » تَحَسُّرٌ على ما عَدِمَ فى رأسه من الضَّفَائر وإن كانت اللِّحية لم يُعْتَدْ ضَفْرُها . وقولُه « كُلُّه » ارتفَع على أنَّه توكيدٌ لْلمُضْمَرِ فى صار ، أو على أنه اسم صارَ ، أو على أنه يرتفع بفعله وفعلهُ ما دَلَّ عليه قوله « وَجْهًا » كأنَّ المراد توجَّه كُلُّهُ ، ويكون كقولك رأيتُ زَيْدًا قَيْسِيًّا أبوه ، أى تَقَيَّسَ أَبوه ، ومررت بِسَرْجٍ خَزٍّ صُفَّتُهُ(٢) .

٤ ــ وَرَأَيْنَ شَيْخًا قد تَحَنَّى صُلْبُهُ يَمْشِي فَيَقْعُسُ أو يُكِبُّ فَيَعْثُرُ(٣)

يقول : ورأَيْنَ شيخاً منحنِىَ الصُّلْبِ ، مُحْدَوْدِبَ الظَّهْرِ ، يمشى مِشْيَةَ القُعْسَان إذا استَمَرَّ فى المشى ، أو يتعثَّر فيسقط لوجهه . وكان الواجب أن يقول : أو يَعْثُر فيُكِبُّ ، لأنَّ العِثَار قَبْلَ السُّقُوط للوجه ، لكنَّه لم يُبَالِ بتغيير الترتيب ، لأمْنِهِ من الالتباس ، وهذا دون ما يجىء فى كلامهم من القَلْبِ ، مثل قوله :

* كما أَسْلَمَتْ وَحْشِيَّةٌ وَهَقَا *

(١) ابن جنى : « يروى كله بالرفع والنصب . فالنصب على أنه توكيد للرأس . والرفع على أنه توكيد للضمير فى صار . والوجه الرفع ، وذلك أنه ليس يريد أنهن رأين رأسه كله ، وإنما يريد أنهن رأين رأسه قد صار كله وجها . وقد يجوز أيضاً أن يكون كله إذا رفع اسم صار ، حتى كأنه قال : ورأين رأسى صار جميعه وجها . ... وقد يجوز أن يكون كله صفة أو تأكيدا ، وهو أولى من أن يباشر به العامل ، ألا تراه أخا ما لا يباشر العامل أبدا ، وهو أجمع وأجمعون » . (٢) الصفة : هنة كالمرفقة فوق السرج ، بمنزلة الميثرة للرجل .

(٣) يقعس ، كذا ضبطت بضم العين فى الأصل ، وهى رواية أبى هلال كما نص التبريزى . وضبط فى م . بفتح العين . التبريزى : « ويروى : يقعش . أى يضطرب . ومنه تقعوشت الخيمة ، إذا سقطت » .

وكقول امرئ القيس :

* كما زَلَّتِ الصَّفْوَاءُ بالْمُتَنَزِّلِ[١] *

ويقال : قَعِسَ يَقْعَسُ ، إذا صار أَقْعَسَ خِلْقَةً فيه ، وقَعَسَ يَقْعُسُ قَعَسَانًا إذا مَشَى مِشْيَةَ الأَقْعَسِ تكلُّفًا ، ومثله عَرِجَ يَعْرَجُ وَعَرَجَ . ويقالُ : أَكَبَّ زَيْدٌ فلا يتعدَّى ؛ وكَبَّهُ اللهُ لوجهه ، وهذا على العكس مما عليه أكثرُ الأفعال . ومثلُهُ أَقْلَعَ الغَيْمُ وقَلَعَهُ اللهُ .

٥ ــ لَمَّا رأيتُ الناسَ هَرُّوا فِتْنَةً عَمْياءَ تُوقَدُ نارُها وَتُسَعَّرُ[٢]

إنما قَدَّمَ ما اقتصَّهُ من ضَعْفِه وكِبْرَتِه ، لِيُرِيَ العُذْرَ فيما يَعْجِزُ عنه من النهوضِ فى الفتنة التى ذكرها ، فيقول : لَمَّا وجدتُ الناسَ قد كَرِهُوا ما تَرَدَّدُوا فيه من فِتْنَةٍ لا يُهْتَدَى لوجْهِها ، ولا يُقْتَدَرُ على كَشْفِها ، تَسْتَعِرُ نارها وتتلهَّبُ ، ويُبْتَعَثُ شرُّها فَتَشْتَمِلُ . ويَعنى بهذا فتنةَ ابن الزُّبير وعبد الملك . وجوابُ لَمَّا منتظَرٌ ، وهو هنا محذوف يدُلُّ عليه الكلام ، كأنه قال : انقَبَضنا عن النهوضِ فيها والحَرَاكِ ، لننظُرَ ماذا تكون . والفِتنةُ العمياء : التى لا يُهْتَدَى فيها لوجهِ أمرٍ ، وفَصْلِ شأن . والتَّعْميةُ : التلبيس . ويقال : هو فى عُمْيانه[٣] ، أى عَماهُ ، مَصْدَرٌ كالطُّغْيان .

٦ ــ وتَشَعَّبوا شُعَبًا فكلُّ جزيرةٍ فيها أَميرُ المؤمنين ومِنْبَرُ

شَعَبْتُ يكون بمعنى جَمَعْتُ وبمعنى فَرَّقْتُ . ويقال التَأَمَ شَعْبُهم ، إذا اجتمعوا بعد تفرُّق ؛ وتفرّق شَعْبهم ، إذا تبدَّدُوا بعد تجمُّع . والشُّعْبةُ : الطائفة ، وجمعها شُعَبٌ . يقولُ تفرَّق الناس فِرَقًا ، فصار الاختلاف لازِمًا

(١) صدره : * يزل الغلام الخف عن صهواته *

(٢) م : « فتسعر » بالفاء . (٣) هذه الكلمة مما لم يرد فى المعاجم المتداولة .

لأهوائهم ، والتباينُ مُقْترِناً بآرائهم ، فى كلِّ جزيرة أميرُ المؤمنين ومِنْبَرٌ ، يدْعو إلى نَفسِه ويَخْطُبُ على مِنْبَرِه لِجَذْبِ(١) الأمرِ إليه . وقولُه « أميرُ المؤمنين » لفظه مَعرفةٌ للإضافة المعتادة فى هذه اللَّفظة المألوفة على الحدِّ الذى تَرى ، لكنَّ التنوين مَنْوِىٌّ ، وإذا كان كذلك كان فى حُكْمِ النكِرات . وإنما ساغ ذلك لأنّ قوله « أمير المؤمنين » يُشارُ به إلى الحال ، أى فيها أمير على المؤمنين ، واسمُ الفاعل إذا أُريدَ به الحال أو الاستقبال كانت إضافَتُه على وجه التخفيف لا على وَجهِ التعريف ، ويصير التّنوين الذى هو الأصل مُنَوِيًّا فيه ، وعلى هذا قولُه : ﴿ عارِضٌ مُمْطِرُنَا ﴾ لأنّ التقدير مُمطِرٌ لنا . وكذلك قوله عزّ وجلّ : ﴿ هَدْيًا بالِغَ الكَعْبةِ ﴾ . وعَنَى بذلك ابنَ الزُّبير ونظراءه ممَّنْ كان يَطْلُب الخلافةَ فى أيام عبد الملك بن مَرْوَان . وهذا البيت منعطِفٌ بما فيه على قوْلِه « هَرُّوا فِتْنَةً » .

٧ ــ ولَتَعْلَمَنْ ذُبْيَانُ إنْ هِيَ أعرضَتْ أنَّا لَنَا الشَّيْخُ الأغَرُّ الأكْبرُ(٢)

يقول على وجْهِ التَّوعُّد : لَتَعْلَمَنَّ هذه القبيلةُ إن تَوَجَّهَتْ نَحْوَنَا أنّا لنا هذا الرَّئيس المشهور الشّأن ، العظيم الأمرِ . ويُقالُ : عَنَى به زُهَيْرَ بن جذيمةَ العَبْسِيّ . وقيل هو قيس بن زُهَيْر . ويُرْوَى « إنْ هِيَ أدْبرَتْ » . والمعنى : إن وَلَّتْ وأعْرَضَتْ ، فإنّها سَتَعْلَمُ أنّا نَكتَفِى من دونهم . ويجوز أن يكون المُرَادُ بأدْبَرَتْ : تركت الحق . وجواب إنْ فى قوله : « لَتعْلَمَنْ ذُبيَانُ » . وقد مَضَى مِثْلُه .

٨ ــ ولنا قَنَاةٌ من رُدَيْنَةَ صَدْقَةٌ زَوْرَاء حامِلُها كذلك أزْوَرُ

---

(١) هذا ما فى م . وفى الأصل : « بجذب » .

(٢) فى الأصل : « إن هى أدبرت » ، والوجه ما أثبتنا من م والتبريزى ، كما يدل عليه سياق الشرح .

قوله : « من رُدَيْنَةَ » أى من رِمَاح ردينة ، وهى امرأةٌ كانت تبيع الرِّماح ؛ فحذف المضاف . والصَّدْقَةُ : الصُّلْبة ، والعربُ تَذْكُر القناةَ وصلابتَها واعوجاجَها ، وأنَّها لا تلين ولا تقبل التَّقويم والتَّثقيف ، ضاربةً بها المثلَ فى الخِلاف والإباء ، والامتناع والتَّعَسُّرِ على من يُريدُ إكْرَاهَهم ، والتَّصَعُّبِ على من يُريدُ[1] تليينَهم أو الغَضَّ منهم . والمعنَى : قَنَاتُنَا لا تَستقيمُ لمُقَوِّمٍ ، وحامِلُها لا ينقاد لمجتذِبٍ . وعلى هذا قول عمرو بن كلثوم :

عَشَوْزَنَةٌ إذا غُمِزَتْ أَرَنَّتْ تَشُجُّ قَفَا الْمُقَوِّم والجبينا[2]

وقولُ الآخر[3] :

كانَتْ قنَاتى لا تَلينُ لغامزٍ فألانَها الإصباحُ والإمْسَاء

وهذا الشَّاعر لم يَرْضَ بذكرِ القَنَاةِ وما جرَت به العادة من وصْف اعوجاجِها ، حتَّى عَقَّبَهُ بقولِه « حامِلُها كذلكَ أَزْوَرُ » ، فزاد على مَن تَقَدَّمَ كما ترى ، وإنما أراد التأكيد والمبالغَة وتبيين قوّة الامتناع على مَن يطلب اقتسارَهُم . وهذا كما يَصفون المتكبِّر بالشَّوَسِ والصَّعَر والصَّيَد . وقولُه : « حامِلُها كذلك » من صِفَة القناة ، وارتفع حاملها بالابتداء ، وقد أخبَرَ عنه بخَبَرَين : كذلك ، وأَزْوَرُ . وقولُهُ « كذلك » إذا وَقَعَ هذا الموقع لا يُغيَّر ، بل يكون المذكَّر والمؤنَّث على حال واحدة[4] . وأنشد أبو زيد :

---

(١) م : « يطلب » .

(٢) المقوم ، هى فى م : « المثقف » . وقد أشير فى نسخة الأصل إلى أنها فى نسخة أخرى : « المثقف » .

(٣) هو شاعر جاهلى كما فى الكامل ١٢٥ ليبسك .

(٤) الحق أن هذه إحدى اللغات ، وإلا فهناك لغة المطابقة التى تطابق فيها الكاف المخاطب إفراداً ، جمعاً وتذكيراً وتأنيثاً ، وهى أفصح اللغات . انظر همع الهوامع (١ : ٧٦ — ٧٧) وشرح ابن يعيش على المفصل (٣ : ١٣٥) وشرح التصريح (١ : ١٢٨) طبع ١٣٤٤ والمغنى (١ : ١٥٥) طبع ١٣٤٨ .

أمَا أقاتلُ عن دِينِي على فَرَسٍ ولا كَذَا رَجُــلاً إلَّا بأصحابِى[١]

والمَعْنَى ولا كما أنا الساعةَ راجِلًا .

١٥٦

وقال عُرْوَة بن الوَرْد[٢] :

١ — قلتُ لِقَوْمٍ فى الـكَنِيفِ تروَّحُوا عَشِيَّةَ بِتْنَا عِنْدَ مَاوَانَ رُزَّحِ

تقدير البيت : قلتُ لقوم رُزَّحٍ عشيَّةَ بِتْنَا عند مَاوَانَ فى الـكنيف : تروَّحوا . والمعنَى بَعَثْتُهم على السَّيْر فى الرَّواح ، وإن كانوا مُتَسَاقِطِى القُوَى[٣] كالِّينَ ، لا حَرَاكَ بهم ، ولا نُهُوضَ يُقِيمُهم ، هَزَلَى لتأثيرِ السَّفَرِ فيهم ، وظهورِ أَثَرِ الشُّقَّةِ عليهم . وواحد الرُّزَّح رَازِحٌ[٤] ، ويقال رَزَحَ البعيرُ رُزُوحاً ،

---

(١) فى نوادر أبى زيد ص ٥ وكذا عند التبريزى : « بأصحاب » ، بدون إضافة . وقد تكلم أبو زيد على البيت ، ونسبه إلى حيى بن وائل .

(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٤٥ . وكان من خبر هذه الأبيات كما فى ديوانه ص ٨٨ والتبريزى عن أبى رياش : « تتابعت على معد سنوات جهدن الناس جهداً شديداً ، وكانت غطفان من أحسن معد فيها حالا ، وترك الناس الغزو لجدوبة الأرض ، وكان عروة فى تلك السنين غائبا فرجع مخفقا قد ذهبت إبله وخيله ، وجاء إلى قومه وقد عنن بعضهم عليه عنة ، فندب منهم رهطا فخرجوا معه فنحر لهم بعيرا وحملوا سلاحهم على بعير آخر وقدّد لهم بعيرا فوزعه بينهم وخرج يريد أرض قضاعة ، وقصد قِبل أرض بنى القين ، فمر بمالك بن حمار الفزارى وقد نفد ما معه فقال له مالك : أين تنطلق بفتيانك هؤلاء تهلكم ضيعة ؟ قال : إن الضيعة ما تأمرون به : أن أقيم حتى أهلك هزالا . فقال : إن أطعتنى رجعت على حرسين — وهما جبلان فى أرض بنى فزارة — فكان طريقك حتى تأتى قومى فتكون فيهم . فقال : فما أصنع بمن كنت عودتهم إذا جاءونى واعتر ونى ؟ قال تعتذر فيعذرونك إذا لم يكن عندك شىء . قال : لكن أنا لا أعذر نفسى بترك الطلب . فقال عروة يذكر شدة حال أهل الكنيف ومن بماوان ، وقيامه بأمرهم حتى صلحوا ، وندبه إياهم حتى خرجوا معه » .

(٣) م : « ساقطى القوى » . (٤) الكلام بعده إلى « رزاح » ساقط من م .

إذا أعْيَا، وإبِلٌ رَزْحَى، وقَوْمٌ رِزَاحٌ[1] أى مَهَازِيلُ ساقِطُون. والكَنيف: الحظيرة من الشَّجَر.

٢ — تنَالُوا الغِنَى أو تبلُغُوا بنفوسِكم إلى مُسْتَرَاحٍ من حِمَامٍ مُبَرِّحِ[2]

قوله «تنالوا» جواب الأمر من البيت الأول، وهو تَرَوَّحوا. والمعنى: سيروا واجتهدوا تنالوا الغنى، وتَبْلُغوا حَدًّا من الطَّلَب يُفْضِى بكم إلى الموت المُريح الباسط لعُذْرِكم[3]. والمُبَرِّح: المُلِحّ الشديد، ومن هذا وصف الرِّيح بالبارِح. ويقال: بَرَّح بِىَ الحُبُّ، أى اشتدّ؛ وبَرَّحَ بِى فلان، إذا آذى؛ وأبْرَحَ الرَّجلُ، إذا أتى بالبَرْح، والبَرْح يكون الشدةَ ويكونُ العَجَبَ، ومنه قول الأعشى:

* أبْرَحْتَ رَبًّا وأبرَحْتَ جارًا[4] *

٣ — لِيَبْلُغَ عُذْرًا أو يُصِيبَ رَغِيبَةً ومُبْلِغُ نفسٍ عذرَها مِثْلُ مُنْجِحِ

قوله «لِيَبْلُغَ» تفسير ما قدَّمهُ. ويشير بقوله «عُذْرًا» إلى قاطِع المَوْت لأنَّ المجتهد فى طَلب الشىء إذا حَال أجلُه دون أَمَلِه فقد أعْذَرَ، إذْ كان قد فعل ما عليه[5]. وقولُه «أو يصيبَ رَغِيبَةً» إشارةٌ إلى نيلِ الغِنَى. والرُّغْب: اتِّساع الشَّىء، ومنه بَطْنٌ رغيبٌ. وقولُه «ومُبلغ نفسٍ عُذْرَها مِثْلُ مُنْجِحٍ» أى من أعْذَرَ فيما يَطْلُبُه، أصابَهُ أو فاتَهُ، فقد أنجَح. وهذا الكَلامُ وإن كان ظاهرُه

(١) هذا الجمع لم يرد فى المعاجم المتداولة، وبدله «رزاحى» بفتح الراء مع قصر آخره.

(٢) الديوان: «من عناء مبرح».

(٣) م: «إلى موت يريحكم ويبسط عذركم».

(٤) هو بتمامه فى ديوان الأعشى ٣٧:

تقول ابنتى حين جد الرحيل * ل أبرحت ربا وأبرحت جارا

(٥) م: «إذا كان ما عليه قد فعل».

وظاهرُ صَدْرِ البيت الأوّل أنَّه يتكرر به المعنى الذى قدمه فيه ، فليس الأمر كذلك ، لأنَّه ذَكَرَ فى الأوّل إبلاغَ النّفس من المَوْتِ حَدًّا يُرِيحُهُ ، ولم يُبيِّن من فَعَل ذلك : هل أَنْجَحَ أولا . وفى الثانى بَيَّنَ أنّ المُعْذِرَ فى طَلَبِ الشىء كالمُنْجِح ، وأنّه إذا استَغرَقَ وُسعَه فى طَلَب ما يَهُمّ به ثم حالَ دونَهُ حائلٌ فقَدْ أعْذَر . وفى طريقته قَوْل أبى تمام :

لِأَمْرٍ عليهمْ أن تَتِمّ صُدُورُهُ وَليسَ عليهم أن تَتِمّ عَواقِبُه

١٥٧

وقال أبو الأبْيَض العَبْسىّ(١) :

١ — ألا لَيْتَ شِعْرِى هَلْ يَقُولَنْ فَوَارِسٌ وقَدْ حَانَ منهم يومَ ذاكَ قُفُولُ

قولُه « شِعرى » اسم لَيت ، وخَبرُه مُضمرٌ استُغنىَ عنه بمفعول شِعْرِى . وليت شِعْرِى لا يجىء إلاّ هكذا ، كما أنّ لولا يجىء أبدًا مَحْذُوفَ خبر المبتدأ الذى بَعْدَهُ ، وقد استُغْنِيَ عنه بجوابه ، وذلك كقولك لولا عبد الله لَفَعَلْتُ . وقولُه « هَلْ يَقُولَنْ فَوَارِسٌ » سَدَّ مَسَدَّ مفعول ليتَ شِعْرِى . ومعنى الكلام ليتَ عِلْمِى وَاقعٌ : هل يَقَع هذا القَوْلُ من الفُرْسَانِ فى تلك الحال ؟ ومفعول « يَقُولَنْ » أول البيت الثانى ، وهو قولُه « تَرَكْنَا » ، واعتَرَضَ بينهما قَوْلُه « وقد حَانَ منهم يَوْم ذلكَ قُفُولُ » ، وموضِعُهُ نَصْبٌ على الحال ، والذى تَمَنّى عِلْمَهُ أنَّهُ هَلْ يُقْتَلُ ، فإذا انْصَرَفَ الأبْطَالُ عنه قالوا هذا القَوْلَ أولا . وتحقيق الكلام : ليتنى عَلِمتُ ما يقتضى هذا السّؤالُ من الجواب ، لأنّ ذاكَ يُهِمُّه

(١) التبريزى : « قال أبو هلال : وكان فى أيام هشام بن عبد الملك ، وخرج مجاهداً فى بعض الوجوه فرأى فى المنام كأنه أكل تمراً وزبداً ودخل الجنة . فلما كان من الغد أكل تمراً وزبداً وتقدم فقاتل حتى قتل » .

لا نَفْس السُّؤال . وقولُه : وقد حَانَ منهم قُفُولٌ ، أى رُجُوعٌ عن المَعْرَكة إلى ديارِهم وحَيِّهِم ، كأنَّهُ كان هَمَّ بالاستقبال ، ووَطَّنَ نَفْسَهُ من مُصادمةِ العَدُوِّ[١] ، ومصادَمَةِ القِتَال على ما غَلَّبَ اليأْسَ من الانصرافِ عنهم ، لتَعَرُّضه لِمَا لا يَسْلَمُ مَعَهُ من يُلَابِسُهُ ، فتَكلَّمَ بذلك . وقولُه « يَوْم ذاك » إشارةٌ إلى يوم ملاقاةِ الأعدَاء . فإن قيل : هل تُقَدِّر فى الكلام بعد الاستفهام شيئاً لأنَّكَ إذا استَفْهَمْتَ عن شىء كان ما تَسْتَفْهِم عنه وخِلافُه سَوَاءً عندك ، وإلاّ لم تكن مُسْتَفْهِمًا ؟ قُلتَ : مَعْنَى الاستِفهام هَلْ يَقُولَنْ فوارِسٌ كذا ، وهل زَيْدٌ عِنْدَكَ ، عَلَى « أَوْ » أو « أَمْ » وَلَوْلا ذلك لامتنع الاستفهام . وسنَشرح الكلام فيما يقتضيه هذا الموضع فى البيت الذى بعده .

٢ — تَرَكْنا ولم يُجْنَنْ من الطَّيْرِ لَحْمُهُ ‍ ‍ ‍ ‍ أَبَا ٱلأَبيَضِ العَبسِيَّ وهو قَتيلُ[٢]

يقول : ليتنى عَلِمْتُ هل يقولون فى مُنْصَرفِهِم تَرَكْنا أبا الأبيض مصرُوعاً متروكاً بالعَرَاء ، تَعفُوهُ[٣] سِباعُ الطير وتأْكلُ من لحمِه ، غير مستُورٍ عنها ولا ممنوعٍ منها . وقد اعتَرَضَ بيْنَ تَرَكْنا ومفعولِهِ وهو أبو الأبيض بقوله « ولم يُجْنَنْ من الطيرِ لحمُهُ » ، وموضعُه نَصْبٌ على الحال . فإن قيل : فما المُقَدَّر بعد الاستفهام هنا من حرفَى العطف : أم ، وأوْ ، وكيف يكون معنى الكلام مع ذلك المقدَّر ؟ قُلْتَ : المعنى على أَوْ ، بدلالة أنه يُجابُ مثل هذا الكلام بنَعَمْ أَوْ لا ، إذ كان المبنِىّ على ليتنى عَلِمتُ هل يَقَعُ ذلك منهم . فأمّا تقدير أَمْ وهى عاطفةٌ فلا يصحُّ فى مثل هذا الموضع ، كما لا يجوز اللّفظ بها على جهة المعادلة . وقد قال أبو العبّاس :

---

(١) كذا على الصواب فى م . وفى الأصل : « على مصادمة العدو » .

(٢) التبريزى : « ولم نُجْنِنْ » .

(٣) تعفوه : تعتريه . وهذه رواية م . وفى نسخة الأصل : « تقفوه » .

لا يَكونُ أَمْ بَعْدَ شيء من حروف الاستفهام سِوَى الألف إلاّ على كلامين . وأما تقدير أم المنقطعة فبعيدٌ ، لأنه لو قُصِدَ لم يكن بُدٌّ من ذِكْرِه وذِكر المُستَفْهَم به عنه بعده . فاعلَمْهُ .

٣— وَذِى أَمَلٍ يَرْجُو تُرَاثِى وإنَّ مَا ‏ يَصِيرُ له مِنِّى غَدًا لَقَلِيلُ

يقول : رُبَّ إنسانٍ يُعَلِّقُ طَمَعَه بميراثى ، ويرجو تحصيله بَعْدِى ، والذى يَنالُه منه غَدًا — يُشِيرُ إلى يَوْمِ مَوْتِه — قليلٌ غير كثير . والمَعْنَى : إنّى لا أَذْخَرُ مالى بل أُتْلفه فى اكتساب المحامد ، فلا يكون لى تُرَاثٌ إلا سلاحى وما لا بُدَّ للفارس منه .

٤— وما لِى مالٌ غيرُ دِرْعٍ حَصِينَةٍ ‏ وأَبيَضُ من ماءِ الحَدِيدِ صَقِيلُ[(١)]

٥— وَأَسْمَرُ خَطِّىٌّ الْقَنَاةِ مُثَقَّفٌ ‏ وأَجْرَدُ عُرْيَانُ السَّرَاةِ طَوِيلُ

نَفَى أن يكون له مالٌ يَدَّخِره[(٢)] طولَ حياته ، ويرِثُه الوارث بعدَ مماته إلاّ دِرْعَهُ وبَيْضَتَهُ ، وسَيْفاً مَصْقولاً طُبِعَ من خالِص الحديد ، ورُمْحًا حُمِلَتْ قَنَاتُه من الخَطِّ — وهو جزيرةٌ بالبَحْرَين — وفَرَسًا قصيرَ الشَّعْرِ مُنْجَرِدَ الظَّهْرِ من اللَّحْمِ ، مُشْرِفَ الهامَةِ ، طويل القامَةِ . المِغْفَر : حَلَقٌ يَتَقَنَّعُ بها المتسلِّحُ ، وكذلك الغِفَارَةُ . وقال الخليل : المِغْفَرُ : رَفْرَفُ البيضةِ . وأصلُ الغَفْرِ التغطية والسَّتر . وقوله « غير دِرْعٍ » يجوز رفعُه ، وهو الوَجْه ، على أن يكون بدلاً ، ويجوز النَّصْب على الاستثناء .

٦— أَقِيهِ بِنَفْسِى فى الْحُرُوبِ وأَتَّقِى ‏ بِهادِيهِ إِنِّى لِلْخَلِيلِ وَصُولُ

---

(١) م والتبريزى : « غير درع ومغفر » . وأشير فى حواشى الأصل إلى أنها فى نسخة « ومغفر » .

(٢) م : « يذخره » .

هذا معنًى شريفٌ حسَن . يقول : أحْفَظُ مَقاتِل فرَسِى بفخذى ورِجْلى ، وأتّقِى فيها(١) يأتينى بعُنقِه . والمعنى : من أراد أن يصيب مَقتَلى جَعَلْتُ بينى وبينَهُ عُنُقَ دابّتى ، كما أنّ من أراد مَقتَلَ فرَسى أجعلُ بينه وبينَهُ فَخِذَىَّ ورِجْلَىَّ . ثم قال : « إنّى للخَليل وَصُولُ » أى لا أخذُلُهُ فى الشدائد ولا أنتفعُ به إلاّ وأنفعُه . وهذا مَثَلٌ . والعربىُّ يُسمّى(٢) سلاحَهُ ومَرْكوبَه خَليلاً ، على ذلك ما أنشدَه الأصمعىُّ ، وهو :

وإنّى كما قالتْ نَوَارُ إنِ اجتَلَتْ عَلَى رَجُلٍ ما شَدَّ كَفّى خَليلُها

١٥٨

وقال قَيْس بن زُهَيْر العَبْسِىّ(٣) :

١ — لَعَمْرُكَ ما أضَاعَ بَنُو زِيَادٍ ذِمَارَ أبِيهمُ فيمن يُضِيعُ

اللامُ من « لَعَمْرُكَ » لام الابتداء ، وخبر المبتدأ محذوفٌ ، كأنهُ قال : لعمرُكَ قَسَمِى . يقول : وبقائك ما ضَيّعَ لهؤلاء العصابةُ من حقِّ أبيهم وشَرَفِ أسلافهم ، ما يوجب التذمُّرَ عند المحافظة عليه فى جُملة من يُضِيعُ حُقوقَ آبائهم ، وما أثّلوهُ من مَفاخِرِهم ومحاسِنِهم ؛ بل حافظوا عليه بما ضمُّوا مما استحدثوه واطّرَفوه إليه . وحَذَفَ مفعول يُضِيع كأنه قال : فيمن يُضِيع الذِّمَارَ . ويُقالُ : فلانٌ حامى الذِّمار ، أى إذا ذَمِرَ وغَضِبَ حَمِىَ . وهذا كما يُقالُ ، هو ثَبْتُ الخَبَارِ ، أى إذا حَصَلَ فى الخَبَار ثبت . وقولُه « ما أضاعَ » تهكّمٌ

(١) م : « بما » .
(٢) فى النسختين : « والعرب تسمى » .
(٣) سبقت ترجمته فى الحماسية ٤٤ . والتبريزى : « وقال قيس بن زهير فى بنى زياد الربيع ، وعمارة ، وأنس ، وكان يقال لهم الكملة » .

أو تعريضٌ ؛ لأنّ الذين أخبر عنهم أَشْهَرُ أمرًا وأعظمُ شأنًا مِن أن يُقالَ فيهم ذلك .

٢– بَنُو جِنِّيَّةٍ وَلَدَتْ سُيُوفًا صَوَارِمَ كُلُّهَا ذَكَرٌ صَنِيعُ

يَعْنِي ولَدَ زياد بن عبد الله بن ناشِبٍ العَبْسِيّ ، يقول : هم بنو امرأةٍ كأنّها فى فَضْلِها ودَهَائها منَ الجِنّ . وهذه المرأة هى فاطمة بنت الخُرْشُبِ الأنمارِيّةُ ، وهى إحْدَى المُنْجِبات من العرب ، وكانت قد رأت فى مَنَامِها كأنّ[1] قائلاً قال لها : « أَعَشَرَةٌ هِدَرَةٌ[2] ، أَحَبُّ إليكِ أم ثلاثة كعَشَرَةٍ » فلما انتبهت اقتصّتْ رؤياها على زوجها فقال لها : إن عاوَدَكِ فَقُولى : بل ثلاثةٌ كعشرةٍ . فرجعت إلى المنام ورأت مثل ما رأَتْ من قبل ، فجعلت تَقُولُ فى الجواب : بل ثلاثة كعشرة . فولدت بنين ثلاثة[3] صَارَ كلٌّ منهم أبًا لقبيلة ، ومُعَظَّمًا فى قومه وعشيرته ، وهم ربيع الحُفَاظ ، وعُمَارة الوَهّاب ، وأنَس الفَوَارس . وكما جعل الأم جِنّيّةً لخروجها فيما أَتَتْ به عن المعتاد [من الإنس[4]] جعل الأولاد سيوفًا . ومعنى البيت : هم أولاد امرأة ولدَتْ رجالًا كأنهم فى النَّفاذ سُيُوفٌ

(١) كذا فى م . وفى الأصل : « أن » .

(٢) ضبطت فى الأصل بالتحريك ، وفى م بكسر الهاء ، وفيها لغة ثالثة وهى ضم الهاء وفتح الراء ، أى ساقطون ليسوا بشىء . وفى اللسان : قال ابن سيده : والفتح أقيس ، لأنه جمع هادر مثل كافر وكفرة . وإما هدرة – أى بكسر ففتح – فلا يكسر عليه فاعل من الصحيح ولا المعتل ، إلا أنه قد يكون من أبنية الجموع . وأما هدرة – أى بضم ففتح – فلا يوافق ما قاله النحويون ، لأن هذا بناء من الجمع لا يكون إلا للمعتل دون الصحيح نحو غزاة وقضاة ، اللهم إلا أن يكون اسماً للجمع . والذى روى هدرة بالضم إنما هو ابن الأعرابى . وقد أنكر عليه » .

(٣) وهذا يوافق السجع قبله . والحق أنهم أربعة ، أو أنهم صاروا فيما بعد أربعة وهم المسمون بالكملة . والرابع هو قيس الحفاظ . وأما ربيع فالمعروف فى لقبة ، أنه « ربيعة الكامل » . انظر شروح سقط الزند ٢٠٥١ والاشتقاق ١٦٩ .

(٤) التكملة من م .

قواطع ، كلُّ واحدٍ منها ذَكَرُ الحدِّ ، مَصْنُوع صقيلٌ . و « صَنِيعٌ » كما استُعْمِل فى السَّيْف استُعْمِل فى الخيل . يقال صَنَعْتُ الفَرَس ، إذا ضَمَّرْتَه .

٣– شَرَىٰ وُدِّى وشُكْرِى من بَعِيدٍ لآخِرِ غالِبٍ أبداً رَبِيع

يقال : شَرَيْتُ الشَّىءَ بمعنى اشتريت وبِعْتُ جميعا ، وكذلك بِعْتُ يَصْلُح للأمرين ، ومن شَرَيْتُ الضَّرْوَى ، وهو المِثْلُ ، لكن لامُهُ وهو ياء قُلِبَتْ واوًا ، لأنّ فَعْلَى إذا كان اسماً ولامُه ياء يُفْعَلُ به ذلك ، فَرْقاً بين الاسم والصفة . وعلى هذا قولهم الفَتْوى . فيقول : اشترى ربيعُ الحَفَاظِ على بُعْدِه مِنّى ، وُدِّى له ، وثَنَائى عليه وعلى آخِرِ رُجُلٍ يبقى من بنى غالب أبداً[1] . وقوله « من بَعِيدٍ » فى موضع الحال . وإنَّما قال هذا لأنَّه ناله إحسانه ووجَبَ عليه شُكْرُهُ وبينهما مَسَافَةٌ وبُعْدٌ .

(١) وكذا وردت العبارة بتمامها عند التبريزى مما يدل على اعتماده اعتماداً كبيراً على المرزوقى وزاد التبريزى : «وإنما شكر الربيع بن زياد لقيامه معه ، ونصرته إياه فى حرب داحس . وذلك أن الربيع قد كان ساوم قيساً على درع له ، والربيع راكب وقيس راجل ، فلما وضعها على قربوسة ركض فرسه فمضى بها ، فلما انتجعوا أخذ قيس بن زهير بزمام أمه فاطمة بنت الخرشب يريد أن يرتهنها بدرعه فقالت : أين ضل حلمك يا قيس ؟ أترجو الصلاح فيما بينك وبين بنى زياد ، وقد ذهبت بأمهم يمنة ويسرة ، وقال الناس ما شاءوا ، وحسبك من شر سماعه ! فذهبت مثلا . وعلم قيس أنها صدقت ، فأرسلها وأغار على إبل الربيع فاستاقها وكان هذا بينهما . فلما قتل حذيفة مالك بن زهير ظن قيس أن الربيع لا يقوم معه بطلب ثأر أخيه لما بينهما من الشحناء . فلما قام معه قال قيس :

* شرى ودى وشكرى من بعيد *

أى كان يبنى وبينه بعد فألق العداوة وراء ظهره ونصرنى ، للرحم والقرابة . وغالب من عبس . وقال أبو هلال وروى هشام بن محمد بن السائب الكلبى هذه الأبيات لحاتم . وكان قد جاور حاتم زمن الفساد بنى زياد عبد الله بن عبس ، فأحسنوا جواره ، فقال فيهم هذه الأبيات » .

١٥٩

وقال هُدْبَةُ[1] :

١ ــ إنِّى من قضَاعَةَ مَنْ يَكِدْهَا   أَكِدْهُ وَهْىَ مِنِّى فى أَمَانِ[2]

ليس يريد بهذا الكلام نسبة نَفْسِهِ إلى قُضَاعَةَ فقط ، بل يريدُ اختصاصَه بهم ، وتعصُّبَه لهم . وهذا كما يقال : أنا من فُلاَن وإلى فُلان ، أى ابتدائى منه وانتهائى إليه ، فيقول : إنِّى مُنْتَمٍ إلى قُضَاعة أَهْوَى هَوَاها ، وضَلْعِى معها ، فمَنْ عَادَاهَا أو نابَذَهَا عاديْتُهُ ونَابَذْتُه ، وهى آمنةٌ من مَكْرُوهى وأذَاى ، إذ كُنْتُ أنعَطِفُ عليها فيما يَنُوبُها ، وأغْتَفِرُ زَلاَّتِها فيما يتفق مِنها . وهذا الكلام فى التنبيه فى الاختصاص ، والإبانَةِ عن الطاعة والإخْلاص ، من أَبْلَغِ كلام وأَكْرَمِ إيناس . ألا تَرَى أنه فَصَّلَ ما أَجْمَلَ ، وفَسَّرَ ما أَبْهَمَ بقوله « من يَكِدْها أَكِدْهُ وهى مِنِّى فى أمَان » ؟ وهذا صفة جوارح الإنسان مع جملته وأبعاضِه مع كُلِّهِ ، بدَلالةِ أنَّه يدافع من يريد إصابة أحدها ، ثم هى آمِنَةٌ من جنايته عليها ، أو على شىء منها .

٢ ــ ولَسْتُ بشاعِرِ السَّفْسَافِ فيهم   ولَكِنْ مِدْرَهُ الحَرْبِ العَوَانِ

---

(١) التبريزى : « هدبة بن خشرم » . المبهج : « هدبة واحدة الهدب ، وهى للثوب وللأرطى ... ... والخشرم : جماعة النحل ، وهو أيضاً الثول والدبر » . وهدبة ابن خشرم بن كرز شاعر عذرى ، وكان صاحب زيادة بن زيد العذرى فى سفرة ، فلم يزل يطلب غرته حتى قتله ، وعلى المدينة يومئذ سعيد بن العاص ، وكان ولى دمه أخوه عبد الرحمن زيد ، فمكنه منه سعيد فقتله . انظر الأغانى (٢١ : ١٦٩ ــ ١٧٧) ومعجم المرزبانى ٤٨٣ واللآلى ٢٤٩ ــ ٢٥٥ ، ٦٣٩ ــ ٦٤٠ والخزانة (٤ : ٨١ ــ ٨٧) والشعر والشعراء ٦٧١ ــ ٦٧٦ .

(٢) روى التبريزى خبر هذه الأبيات مسهباً فى نحو تسع صفحات تصور ما كان بينه وبين زيادة بن زيد من عداء ومكايدة .

يقول : ليس مَحَلِّى منهم وفيهم محلَّ شاعرٍ يُسَفْسِفُ القَرِيضَ ، ثم يقف دُونَ غايته باليدِ واللِّسان . والسَّفْسَاف : ما لا خَيْرَ فيه من الأفعال والأقوال : وفى الحديث : « إنَّ الله تعالى يحب معالىَ الأمور ويُبْغِضُ سَفْسَافَهَا » . والعَوَانُ من الحرب : التى قُوتِلَ فيها مرّةً بعد أخرى . فإن قيل : أين عَجُز البيتِ مِنْ صَدْرِه فى النظام ، وهلَّا قال بعد ما نَفَى عن نفسه من الشّعر الرّكيك : ولكنّى شاعرُ المتخيَّرِ الرصين ؟ قلتَ : إنَّما المُراد[1] التنبيهُ على فَضْلِهِ فيهم[2] وطَوْلِهِ ، وعلى كفاية بيانه ، وعلى غَناء سِنانه . والحرب كما تقع بالضِّرَابِ والطِّعان تقع بمجاذبة الحِجَاج عند النِّفار والفَخَار . وآثر أن يقول : « ولكن مِدْرَه الحَرْب » ليدخل تحته الأمْرَان جميعا . وقيل : المِدْرَه هو السَّيِّد الذى يُدْفَعُ به الشَّرُّ فينتظم به أمورُ الحَرْبِ ، ويقوم بأسباب الصِّحاب . وذَكَرَ بعضُهم أنه من دَرَه عَلَيْنَا ، أى طلع . وقيل إنه من دَرَأ أى دَفَعَ ، وأنَّ الهاء فيه بَدَلٌ من الهمزة . ويجوز أن يكون الكلام تعريضاً بإنسان نَفَى عن نفسه حَالَهُ وَأَنبأَ أَنَّ الأمر[3] بخلافه .

٣ — سَأَهْجُو من هَجَاهُمْ مِنْ سِوَاهُمْ وأُعْرِضُ مِنْهُمُ عَمَّنْ هَجَانِى

قوله « من سواهم » يتعلَّق مِنْ بِهجَاهم[4] ، وموضعه نَصْبٌ على الحال . ويحتمل معانِىَ : يجوز أن يريد به مخالطاً لغيرهم ؛ لأنَّ مِن هذه تكون للملابسة ؛ على ذلك قولهم : أنت مِنِّى فرسخين ، أى أنت مُخَالِطى . يقوله الدَّليل والخفير[5] . ويكون للولاء والنُّصْرَة ، على ذلك قول النابغة :

(١) م : « إنما أراد » .
(٢) كذا فى م ، وفى الأصل : « منهم » . (٣) م ، « أمره »
(٤) م والتبريزى : « من سواهم يتعلق بمن هجاهم » .
(٥) كذا فى م والتيمورية . وفى الأصل : « يقوله الدليل الحقير » .

إذا حَاوَلْتَ فى أَسَدٍ فُجُورَا فإنِى لَسْتُ مِنْكَ وَلَسْتَ مِنِّى

فيكون معنى « مِن سوَاهم » ناصراً لغيرهم . وتكون للنَّسْل والولادة . يقول هُمْ مِنْ أَبٍ واحِدٍ وبعضهم من بعض ، فيكون المعنى منتسِبًا إلى غير أصْلِهِم . وعلى هذا قوله « وأُعْرِضُ منهم » يتعلق مِن بهجانى ، ويكون الكلام فى موضعه ومعناه على الحدّ الذى بيّناه . من تعرض لهم بمكروهٍ أو ذَكَرهم بسوء فإنِّى أدافِعُهُ عنهم ، وأعارضُه دونهم ، وأقاتله عن تناوله منهم ، ومن تَعَرَّض لى منهم فإنِّى أُعْرِض عنه ، وأَصْفَحُ عن غَيِّه فلا أؤاخِذُه بِه ، صِيَانَةً لهم ، ومحافظة على ما يجمعنى وإيام .

١٦٠

وقال عَمْرو بن كُلثوم[١] :

١ — مَعَاذَ الإلٰهِ أَنْ تَنُوحَ نِسَاؤُنَا على هَالِكٍ أو أَنْ نَضِجَّ من القَتْلِ

مَعَاذ الله ، من المصادر التى لا تكون إلا منصوبةً ، وُضِعَتْ موضِعًا واحداً من الإضافة على ما تَرَى ، ولا يتصرف . والعياذ فى معناه ومن أصله ، وهو يتصرّف مرفوعاً ومنصوباً ومجروراً ، وبالألف واللام . وانتصب معاذ الإلٰه على إضمار فِعْلٍ تُرِكَ إظهاره . ويقولون : عائذاً بالله من شَرِّها ، فيجرى مَجْرَى عِياذاً بالله ، كأنه قال : أعوذ بالله عائذاً وعِيَاذاً . ومن أبيات الكتاب :

(١) ليس فى حاجة إلى ترجمة . وشهرته شاعراً من شعراء المعلقات شهرة ظاهرة . وهو تغلبى من بنى عتاب ، وهو قاتل عمرو بن هند ملك الحيرة . انظر ترجمته بإسهاب فى الأغانى (٩ : ١٧٥ — ١٧٨) والخزانة (١ : ٥١٧ — ٥٢١) وشرح شواهد المغنى للسيوطى ٤٤ — ٤٥ والشعر والشعراء ١٨٥ — ١٨٨ .

أَلحِقْ عَذابَكَ بالقَوْمِ الذين طغَوْا وعائذاً بك أن يَغْلُوا فيُطْغُونى[1]

ويُقال : عُذْتُ بالله عَوْذاً ومَعَاذاً وعِياذاً . ويقالُ : أَفْلَتَ منه عَوَذاً بفتحتين ، أى عائذاً ، وأتَيْتُهُ عَوَذاً . وهذا الكلامُ تبرُّؤٌ من إظهار الجَزَع على قَتْلاهُم ، واستعمالِ البكاء والضِّجَاج فى بَلْواهم ، وتَصَبُّرٌ على نوائب الدَّهر ، وانتفاء من تكرُّهِ القَتْل . يقولُ : نعوذُ بالله من نَوْح نسائنا على مُتَوَفًّى منا مفقُودٍ ، ومن ضجيجنا من القَتْلِ والقِتال ، وكيف يكون أحدُ هٰذين مِنَّا وقد تعوَّدَتْ نساؤنا الثُّكْل ، ونشأْنا فى ممارسة الحَرْب ومزاولتها . وفى طريقته قولُ الآخر[2] :

إذا ما أَتَتْنى مِيتَتِى لمْ أُبالِها ولم تُذْرِ خالاتى الدُّمُوعَ وعَمَّتى

٣ — قِرَاع السُّيُوفِ بالسُّيُوف أَحَلَّنَا بأَرْضٍ بَرَاحٍ ذى أَرَاكٍ وذى أَثْلِ

الأصلُ فى البَرَاح الأرضُ التى لا بناء فيها ولا عُمْرَانَ . والْمُقَارَعةُ : مُضارَبةُ القومِ فى الحرب . وكلُّ شىء ضربْتَهُ بشىء فقد قَرَعْتَه . وهذا على حَذْفِ المضاف ، كأنه قال قِرَاعُ أصحاب السُّيوفِ بالسُّيوفِ . أخبَرَ عن نفسه وذويه بأنّ صَبْرَهم فى دارِ الحفاظ هو الذى أنزلَهم بأرْضٍ واسعةٍ ذاتِ أَثْلٍ وأَرَاكٍ ، وصَرَفَهم عن الانتجاع وتَطَلُّب الخِصْبِ فى المَظَانّ[3] . وهذا صريحُ ما قاله غيرُه[4] ، وهو :

* أَنَخْنَا فَحالَفْنَا السُّيوفَ على الدَّهْرِ[5]

---

(١) كتاب سيبويه (١ : ١٧١) واللسان (عوذ) . وقد نسب فيهما إلى عبد الله ابن الحارث السهمى . وانفرد اللسان برواية : « أن يغلوا » .

(٢) هو الشنفرى الأزدى . المفضليات (١ : ١١٠) .

(٣) هذا ما فى م . وفى الأصل : « والظان » .

(٤) هو يحيى بن منصور . الحماسية ١٠٨ .

(٥) صدره : * فلما نأت عنا العشيرة كلها *

والأراكُ : شجرٌ تُتّخذ منه المَساويك . ويقال : إبلٌ أَوَارِكُ ، إذا اعتادَتْ أَكْلَها . والأثْلُ أيضاً : شجرٌ . وهذا كما قال الآخر(١) :

وتَحُلُّ فى دارِ الحِفَاظِ بُيُوتُنا زَمَنًا ويَظْعَنُ غيرُنا بالأَمْرُعِ(٢)

ونَبّهَ بذِكْرِ الأرض البَرَاحِ على أنّهم غير محتجِزين(٣) بحُصُونٍ ولا قِلاعٍ ، ولا ممتنعين بهِضابٍ ولا جِبالٍ . والأَثْل والأَرَاكُ يَنْبُتانِ فى السَّهْلِ أكثر ، فوَكَّدَ بذكرهما المُرَادَ ، وجَعَل البَرَاحَ بدلاً من قوله « بأرْضٍ » ولذلك قال « ذى أَرَاكٍ » ولم يَقُلْ ذاتِ .

٣ — فما أَبقَتِ الأيامُ مِلْمَالِ عِنْدَنا سِوَى جَذمِ أَذْوَادٍ مُحذَّفَةِ النَّسْلِ

أراد بالأيام الوَقَعات . وقولُه « مِلْمَالِ » أرادَ من المال ، فجعَلَ الحذْفَ بدلاً من الإدغامِ لمّا التَقَى بالنون واللام حَرْفان متقابلان ، الأوّل مُتحرِّكٌ والثانى ساكنٌ سكونًا لازمًا . والمعنَى : ما بَقّى تأثيرُ الحوادِث ونَكَباتُ الأيامِ عندنا من أُصولِ المال ومقتنياتِها ، إلاّ بَقَايا أَذْوَادٍ قطَع الضُّرُّ نَسْلَها ، وتمكّنَ الهُزَالُ وسوءُ الحال منها ، فهى على شَرَفِ فَنَاءٍ وذَهابٍ . والجِذْمُ : الأصلُ . والأذْوَادُ : جمع الذَّوْد ، والذَّوْدُ يقع على ما دون العَشَرَة . وقال أكثر أهل اللُّغة : إنها تَقَعُ على الإناث دون الذُّكورِ . وبعضهم يجوِّز وُقوعَها على الذكور أيضاً . وما فى البيت يَشْهَدُ للأوّل .

٤ — ثَلاثةُ أَثْلاثٍ فأَثمانُ خَيْلِنَا وأقواتُنا وما نَسُوقُ إلى العَقْلِ(٤)

(١) هو الحادرة الذبيانى . المفضليات (١ : ٨) .
(٢) المفضليات : « ونقيم » . م والمفضليات : « للأمرع » .
(٣) م : « محتجرين » بالراء المهملة .
(٤) فى الأصل : « وأقواتها » . تحريف . ورواية التبريزى : « إلى القتل » .

أراد : أموالُنا ثلاثة أثلاث ، فيرتفع الثلاثة على أنه خَبَرُ مبتدأ محذوف ، وما بعدَها تفسيرٌ لها وتفصيل(١) . ونَبَّهَ بما أَوْرَدَ وقَسَم على الوجوه التي انصرَفَتْ إليها أموالُهم فأَفْنَتْها ، والطُّرُقِ التي توزَّعَتْها فقلَّلتها ، فقال : افترَقَتْ أموالُنا فِرَقًا ثلاثًا(٢) ففِرقةٌ منها صرَفْناها إلى أثمانِ خَيْلِنا لأنّا غزّاؤون ، ومُعالِجُو حُرُوبٍ ، فلا نستغني عنها ؛ إذ كان جدُّنا وهَزْلُنا منها وبها . وفِرقةٌ منها حَبَسْناها على أقواتِنا ومعايشنا ؛ لأنّ العُفَاةَ والزُّوَّار كانت تنتابُنا وتتناوَبُ علينا حتى تستَغْرِقَها ، لأنّ إقامَتَنا بدارِ الحِفاظ [شغَلَتْنا(٣)] عن الغَزْوِ واجتذاب الزّيادة إليها . وفرقةٌ منها وجَّهناها إلى الدِّيات ، وأرُوش الجِنايات التي كَسَبَتها أيدينا ، واجترحَتْها رِماحُنا ، إذ كنا لعِزِّنا ومَنْعَتِنا لا يُطْمَعُ في الاقتصاص منّا . ومثْل هذا قولُ الآخرِ(٤) :

* نأسو بأموالنا آثار أيدينا(٥) *

---

(١) ابن جني في التنبيه : « أي أموالنا ثلاثة أثلاث ؛ فحذف المبتدأ وحذفه أيضاً فيما بعد في قوله : فأثمان خيلنا . أي فثلث أثمان خيلنا ، أو فأثمان خيلنا ثلث وكذا وكذا . وجاز أن يقدره على : ثلث أثمان خيلنا . فيبتدئ بالنكرة ويخبر بالمعرفة ، من حيث كان الغرض إنما هو ثلث أموالنا من ذي ناحية تناولناه . ويجوز أن تعتقد زيادة الفاء فإن ذلك كثير في الشعر والقرآن . فيبدل أثمان وأقوات وما نقود ، من ثلاثة أثلاث . أي مالنا أثمان خيلنا وأقواتنا وما نقود إلى القتل . وقال ثلاثة أثلاث ولم يقل ثلاثة أقسام من قبل أن الأقسام قد تكون متساوية وغير متساوية ، فأراد صحة القسمة ، واعتدال المساهمة » .

(٢) م : « ثلاثة » ، وكلاهما صحيح . فإن العدد إذا تأخر عن المعدود جاز فيه المطابقة وعدمها . انظر حاشية الصبان على الأشموني ، في أوائل (باب العدد) .

(٣) التكملة من م .

(٤) هو بشامة النهشلي . الحماسية ١٤ .

(٥) صدره : * بيض مفارقنا تغلي مراجلنا *

١٦١

وقال المُثَلَّم بن عَمْرٍو[1] :

١ — إِنِّى أَبَى اللهُ أَنْ أَمُوتَ وَفِى صَدْرِىَ هَمٌّ كَأَنَّهُ جَبَلُ

يقول : يأبَى الله عزّ وجلّ لِيَ الاخترام وفى نفسى هَمٌّ عَظِيمٌ لا أَسْعَى فى إمضائه وتنفيذه . ويَعْنِى بذلك دَمًا يَطْلُبُهُ ، أو حِقْدًا يَنْقُضُهُ ، أو مُنًى من عَدُوِّهِ[2] يُدْرِكُهُ . وهذا الكلامُ وعِيدٌ وإيذانٌ بأنه مجتهدٌ فى الطَّلَب ، ورَاجٍ أَلاَّ يَحُولَ الأَجَلُ بينَهُ وبين الأَمَلِ ، بمَا عَوَّدَهُ اللهُ من الصُّنْع والظَّفَر بالمَطْلوب . والواو من قوله « وفى صَدْرِى » واوُ الحال . وموضِع « كأنّه جَبَل » صِفَةٌ للهَمّ . والهَمُّ يجوزُ أن يَكُون مَصْدَر هَمَمْتُ بالشىء ، ويجوز أن يكون واحِدَ الهُمُوم .

٢ — يَمْنَعُنِى لَذَّةَ الشَّرَابِ وإِنْ كانَ قِطَابًا كَأَنَّهُ العَسَلُ

هذا من صِفَةِ الهمّ . يقول : يَصُدّنى ذلك الهمُّ عن التَلَذذ بالشَّراب ، وإن طاب وصار مِزَاجًا كالعَسَل يُستحلَى ولا يُتَكَرَّه . ومثله لأبى ذُؤَيْب :

* فَجَاءَ بِمَزْجٍ لم يَرَ النَّاسُ مِثْلَهُ[3] *

---

(١) التبريزى : « المثلم بن عمرو التنوخى » ، ثم قال : « تنوخ هم أولاد تيم الله بن أسد ابن وبرة » . المبهج : « تنوخ اسم للقبيلة ، يجوز أن يكون فعولا من تنخ بالمكان ؛ أى أقام به . ويجوز أن يكون تفعل من الإناخة » . وقد ذكره الآمدى فى المؤتلف ١٨١ والمرزبانى فى معجمه ١٨١ . وأنشد الآمدى هذه الأبيات ، ثم قال : « وهذه الأبيات فى أشعار هذيل للبريق بن عياض الهذلى » . وتقول : إن هذه الحماسية فى بقية أشعار الهذليين ص ٢٥ منسوبة للبريق بن عياض .

(٢) م : « علو » .

(٣) عجزه فى ديوان الهذليين (١ : ٤٢) واللسان والمقاييس (مزج ، ضحك) :

* هو الضحك إلا أنه عمل النحل *

جَعَلَ ما يُمزَج به مَزْجًا . ورواية الأصمعى « مِزْجًا » بكسر الميم . فالمِزْج كالمزاج والقِطَاب ، سَمَّاه بما يُستصلح له من ذلك أو يُفعلُ به من بَعْدُ . وإنّما قال هذا لأنّ الواحد منهم إذا أُصيب بمن يَمَسُّه أو وُتِرَ فيمن يَقرُب منه ويختصُّه ، كان يَعْقِد على نَفْسِه نَذْرًا فى مجانبةِ بعض اللّذَّات أو أكثرها ، من معاقَرة الشَّراب أو مجامَعَة النِّساء أو ما يجرى مجراها ، إلى أن ينالَ المراد ، ويحصِّل المُرتاد . ويقال قَطَبْتُ الشرابَ ، أى مَزَجْتُهُ . ويُروى : « وإن كان رُضَابًا » . ويجوز أن يريد به ماءَ فَمِ محبوب . ويجوز أن يريد ماءً مَحَلُّه فى جنسه ذلك المحلُّ من الشَّرَابِ .

٣ — حتى أَرَى فارسَ الصَّمُوتِ عَلَى أَكْسَاءِ خَيْلٍ كأنَّها الإبلُ[(١)]

حَتَّى تعلَّقَ إن شئت بقوله أَبَى الله ، وإن شئت تعلَّقَ بيمنعُنى ، والتقدير فى الوجهين : يأبَى الله موتى حتى أَرى هـذا الأمرَ ، أو يمنعنى الهمُّ الالتذاذَ بالشَّرَاب حتى أَراه وأُشاهِدَه . والصَّمُوت : اسمُ فَرسِـه[(٢)] . ويعنى بفارسه نفسَه . وأَكساء الخيْـل : أدبارها . ويقال هو يكْسَؤه ويَدْبُرُه ويَذْنُبُه ، أى يكونُ فى أثَرِه . وحكى الخليل أَكسأْتُهُ الخيـلَ . والمعنى : لا يكون ذلك حتى أرى نفسى تَرْكُضُ فى أدبار خيْلٍ منهزمةٍ وتَسُوقُها ، كما تُساق الإبلُ . وقيل شبَّهَها بالإبل فى عِظَمِ خَلْقِها وإشرافها . والكلام على هذا يُرادُ به خيلٌ مخصوصةٌ يتوعّدها ويعيِّن عليها .

---

(١) التبريزى « ويروى : كأنها أبل ، بضم الهمزة والباء ، وهى جمع أبيل . والأبيل : العصا والخيل تشبه بالعصى فى ضمرها وصلابة لحمها . قال امرؤ القيس :

* كأنها هراوة منوال * » .

(٢) التبريزى : يجوز أن يكون اسم فرس ، أو اسم حى من العرب » .

٤ — لا تحسبَنِّى مُحَجَّلًا سَبِطَ الـــسَّاقَيْنِ أَبْكِي أَن يَظْلَعَ الجَمَلُ

هذا توعُّدٌ وتعريض بالخاطب . المحَجَّل ، يجوز أن يكون مأخُوذًا من الْحَجْل الذى هو القَيْد ، ومن الْحِجْل الذى هو الخَلْخَالُ ، ويجوز أن يكون من الحجَلة . والمعنى : لا تظنَّنى إنسانًا مُتْرَفًا مُنَعَّمًا لا غَنَاءَ عِنْدَه ، ولا كفاية لديه ، ولا رأىَ يُسْتَنَد إليه ، ويعوَّل فى المهمّات عليه ، فهو فى العجز كالممنوع المُقَيَّد ، وكالمرأة المخَلْخَلة ، وكالمخدَّر الملازم للحجال والفُرُشِ يجزع — لضعف نُهُوضِه ، وسقوط قُوَاهُ ، وسوء بصيرته — من ظَلْع جَمَلِه فَضْلًا من غيره . وقوله « أَبْكِي أن يَظْلَعَ الجَمَل » صَرَف الكلامَ إلى الإخبار عن نفسه ، ولو قال « يبكى أن يَظْلَعَ » لَتَرَكَ الاستمرار فى صفة المحجَّل جاريًا على حَدِّهِ ، غير متحوِّل عنه ، وكان الكلام أحسَنَ فى قِرَانِ النَّظْم .

٥ — إِنِّى امرُؤٌ من تَنُوخَ ناصِرُه مُحْتَمِلٌ فى الحُروب ما احتَمَلوا(١)

قوله « من تَنُوخ » أى أَنْتَسِب إليها ، وأَهْوَى هَوَاهَا . و« ناصِرُهُ » نَكِرَة لأن إضافته إضافة تخفيف لا إضافة تعريف ، والتَّنوين منوىٌّ فيه ، أراد : ناصرٌ له . وقوله : « ما احتملوا » أراد : ما احتملوه ، فحذَف المفعولَ لطول الصِّلَة . والمعنى : إِنِّى مخالطُهم وناصرٌ لهم ، وصابرٌ على ما يَصْبِرون عليه ، وناهضٌ تحت العِبء الذى ينهضون فيه .

(تم القسم الأول من شرح المرزوقى للحماسة)

---

(١) التبريزى : « قال أبو هلال : ويروى ناصرهم ، أى ناصر لهم . قال : وهذا الشعر فى أشعار هذيل للبريق بن عياض الهذلى . وقال : إنى امرؤ من هذيل » .

شرح ديوان الحماسة

لأبي علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي

ــــ - ٤٢١

نشره

أحمد أمين　　　　عبد السلام هارون

القسم الثاني

دار الجيل

بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

١٦٢

وقال عبد الله بن سَبْرَةَ[1] :

١ — إذا شَالَتِ الجَوْزاءُ والنَّجْمُ طَالِعٌ فكُلُّ مَخاضَاتِ الفُرَاتِ مَعابِرُ

٢ — وإنِّى إذا ضَنَّ الأَميرُ بإذْنِهِ عَلَى الإذْنِ من نَفْسِى إذا شِئتُ قَادِرُ

أراد بالنَّجم الثُرَيَّا ، وأكثر ما يعترض هذه اللفظةُ فى استعمالهم مُعَرَّفًا يُرَادُ به الثُريّا لا غير ، ألا تَرَى قول الهُذَلِىّ[2] :

فَوَرَدْنَ والعَيُّوقُ مَقْعَدَ رابِئِ الـ ـضرَباءِ خَلْفَ النَّجْمِ لا يتتلَّعُ

والجوزاء سُمِّيت بذلك لأنّ وَسَطَها أبيض . وجَوز كلِّ شىء : وسَطُه . والوَقْتُ الذى يشير إليه يشتدّ فيه الحرّ . لذلك قال ساجِعُهم : « إذا طلع النَّجْمُ ، فالصَّيْفُ فى حَدْم ، والعُشْبُ فى حَطْم » . فكأنّ قائلَ هذا الشعرِ استأذَنَ صاحبَهُ فى الانتقال إلى البَدْوِ فلم يأذَنْ له ، فأخَذَ يتشكَّى[3] عن مُرادِه بهذا

---

(١) عبد الله بن سبرة الجرشى ، منسوب إلى جرش ، وهو موضع باليمن . قال أبو رياش : « كان عبد الله بن سبرة هذا أحد فتاك العرب فى الإسلام ، وكان رجل من الروم يقال له سعد الطلائع يأتى صاحب الصوائف ، فيقول سعد لصاحب الصائفة : ابعث معى جندا أدلهم على عورات الروم ، فيتوغل بهم وقد جعل لهم كمينا من الروم فيقتلون ، فأكثر ، فقال يوما لصاحب الصائفة : ابعث معى رجلا من أصحابك فإنى قد عرفت غرة لهم . فانتدب عبد الله بن سبرة ومضى معه حتى انتهى إلى غيضة فقال لعبد الله : ادخل . فقال له عبد الله : أنا الدليل أم أنت ؟ فأبى وعرف عبد الله ما أراد فقتله ، وخرج عليه بطريق من بطارقتهم فاختلف هو وعبد الله ضربتين فضربه عبد الله فقتله ، وضربه الرومى فقطع إصبعين له » .

(٢) هو أبو ذؤيب ، ديوان الهذليين (٢ : ٦) .

(٣) م : « يتسلى » : والوجه ما فى الأصل .

الكلام ويتوجَّدُ[1] . ويقول : إذا تَنَاهَى الحَرُّ وارتفعت الجوزاء فى أوّل الليل إلى كَبِد السماء ، وطَلَع الثرَيَّا عند السَّحَر ، فكلُّ مَخاضةٍ من جوانب الفُرَات مَعْبَرٌ لى أهرُبُ فيه ؛ لأنّ نُضُوبَ الماء ونقصانَه يكون فى ذلك الوَقتِ .
وقوله « والنَّجْم طالعٌ » لو وَلِيَهُ « إذا » فقيل إذا النجم طالعٌ ، لم يَصْلُحْ ؛ لأنّ الجملةَ التى يُبَيَّن بها إذَا لا بُدّ فيها من فِعلٍ ، لما يتضمَّن من معنى الشَّرْط والجزاء . تقول آتيك إذا زيدٌ يَأمُرُ[2] . ولو قلتَ آتيكَ إذا زيدٌ أميرٌ لم يَصْلُح ؛ لكنّه لما انعطَفَ على قوله « شالَتِ الجَوْزاء » حَسُنَ حَمْلاً على المعنَى ، كأنّه قيل : وطَلَع النجمُ . وهذا إذا كان الواو فيه للعطف ، ويجوز أن يُجْعَلَ الواوُ واو الحال ، يُرِيدُ إذا شالَتِ الجوزاء فى حال طُلُوع النجم . والعاملُ فى « إذا » ما دَلَّ عليه قولُه : « فكلُّ مخاضات الفُرات معابر » . وقولُه : « وإنى إذا ضَنَّ الأميرُ » ، يقول : إذا تمنَّع الأميرُ من الإذْنِ لى ، وصدَّنى الوقتُ عن مُرادى ، ولم أَقْدِر على جَوازِ المَسالح والمَرَاصِد ، لكونها مشحونةً بالمُرْتَبِين[3] فيها ، انتظرتُ غَيْضَ الماء وجَزْرَه فى الفُرَاتِ ، وإمكانَ المخاضاتِ من العُبُور والذَّهاب ، فحينئذ آذَنُ لنَفْسى وأَهرُبُ . وإنما قال ذلك لأنّ المَشارعَ لا تُضْبَطُ كما تُضْبَطُ الجُسُورُ ومَضايقُ الطُّرُق .

١٦٣

وقال الربيع بن زيادٍ العبسى[4] :

١ — حَرَّقَ قَيْسٌ علىَّ البلا ... دَ حَتَّى إذا اضطَرَمَتْ أَجْذَمَا

---

(١) يقال توجد فلان أمر كذا ، إذا شكاه ، وهم لا يتوجدون سهر ليلهم : لا يشكون ما مسهم من مشقته . م : « ويتوعد » .

(٢) يقال أمر كفرح وكرم ، أى صار أميرا .

(٣) تسهيل المرتبئين .

(٤) الربيع بن زياد العبسى : أحد الكملة . انظر ما سبق فى حواشى الحماسية ١٥٨ فى القسم الأول .

يقول : ألْهَبَ قيس بن زهير البلادَ علىَّ ناراً تتوهَّجُ ، فلمَّا استعَرَتْ وتأجَّجَتْ هرَب وتركَنى أصْطالِى بها وإنما قال هذا لأنّ قيْسًا ترك أرض العَرَب وانتقل إلى عُمَان بعد إثارة الفِتَن واهتياجِ الشر ، فى سَبْق داحس . والإجذام : الإسراعُ فى السَّيْر ، وجعلَه مَثلاً لانزوائه ونَفْضِه اليَدَ مما كانَ لابَسَه وتولاّهُ من إيقاد نار الحرْب بين الفريقين .

٢ — جَنِيَّةُ حَرْبٍ جَنَاها فما تَفَرَّجَ عنـه وما أسْـلمَا

جَنِيٌّ : فَعِيلٌ فى معنَى مفعول ، لـكنَّه ألْحَقَ الهاء به لأنّه جعلَهُ اسماً ، كما أُلحق بالبَنِيَّة وهى الـكعبة ، وبالذَّبيحة والنطيحة . وهذا اعتدادٌ على قَيْسٍ بما جَنَاهُ[1] ، وتحمُّدٌ بما أتاهُ ، وامتنانٌ بأنه لمْ يقعُد عن نُصْرَتِه ، ولم يَخذُلْهُ وقت حاجته ، ولم يُخَلِّه للأعداء وقت إقامَتِه ، ولا تَرَكَ النيَابةَ عنه واعتناقَ الأمرِ بعد غيبته ، بل نهَضَ فى الشرّ والقتال ما اتَّصلَ نهوضُه ، وتفرَّدَ بالدِّفاع عنه عند فُتُورِه ونُفورِه . وقوله « فما تفَرَّجَ عنه » ، أى ما تفَرَّقَ عنه ولا تَكَشَّفَ .

٣ — غَدَاةَ مَرَرْتَ بآل الرِّبا بِ تُعْجَلُ بالركْضِ أنْ تُلْجِمَا

أقْبَلَ يخاطِبُ بعد ما كان يُخبِرُ ، على عادتهم فى تصاريف كلامهم ، وقولُه « غَدَاةَ مَرَرْتَ » ظَرْفٌ لما دَلَّ عليه أجْذَمَا . أى هَربتَ فى ذلك الوقت والأوان . و « تُعْجَلُ » فى موضِع الحال . والمعنى : اجتزت بآل هذه المرأة مُسْتَعْجَلاً بركْضِ الأعْداء[2] فى أثَرِكَ ، حتّى لم تَتّسِع لإلجام دابَّتِكَ ، ولم تأمَنْ رَيْثَ إصْلاَحِ أمْرِكَ ، والتهيُّؤ لنجاتك . وقولُه « أن تُلْجِم » فى موضع النَصب من تُعْجَلُ ، وكان الواجب أن يَقُولَ تُعْجَلُ بالرَّكْضِ عن أن تُلْجِمَ ، فحَذَفَ

---

(١) م : « فيما جناه » .

(٢) م والتبريزى : « تركض الأعداء » .

الجارّ ووصَل الفِعل فعَمِل . وفى القرآن : ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَامُوسَى ﴾ .

٤ — وكُنَّا فوارِسَ يَوْمِ الهَرِيـ ـرِ إذْ مالَ سَرْجُكَ فاسْتَقْدَما[1]

يومُ الهَرِيرِ معروف[2] . وإنما قال كنا فُرسانَ هذا اليوم ، لِمَا كان عُرِفَ من جميل بلائهم ، وحُسْن ثباتهم فيه ووقائهم ، وليذَكِّرَ بتبريزهم حين نَكَصُوا على أعقابِهم ، وقَصَّرُوا عن شَأْوِهم . وذِكْرُ مَيْلِ السَّرْجِ مَثَلٌ ، وقولُ جرير يَشْهَدُ لذلك ويَكْشِفُه ، حين قال :

قُلْ للجَبَانِ إذا تأخَّرَ سَرْجُـهُ هَلْ أَنْتَ من شَرَكِ المنيَّةِ نَاجِ

والمراد اضطرابُ الأمرِ وفَشَلُ الرأى وتمكُّنُ الخوف والدَّهَشِ من المنهزم ، ونزولُه عما يَهُمُّ بركوبه . وفى طريقته قول الآخر :

لاَ تَجْعَلُونَا إلَى مَوْلَى يَحُلُّ بِنَا قَدَ الحِزَامِ إذا مَا لِبْدُهُ مَالاَ

وكما جَعَلَ الحزامَ مَثَلاً لتدارُكِ الأمرِ وتلافِى فاسِدِه على الوجه الذى تَرَاهُ ، جَعَلَ تَركَ شَدِّ الحزام عند ما يَطْرُق أو يَنُوبُ مَثَلاً للتحَزُّم والتجمُّع قبل نُزول الخَطْبِ ، حتَّى إذا بَدَتْ أعنَاقُهُ لا يَحتاج إلى استئنافِ شىء لتَمام أُهْبتِه . وعلى ذلك قولُ امرئ القَيْس :

أَقْصِرْ إلَيْكَ من الوَعِيـدِ فإنَّنِى مِمَّا أُلَاقِى لا أُشُـدُّ حِزامِى

فتأمَّلْ ما فتَحْنَا مُبْهَمَهُ تَنَلْ كلَّ فائدةٍ ، وتَظْفَرْ بكلِّ غنيمة . ويقال : استَقْدَمُ بمعنى تَقَدَّم ، وفى ضِدِّه استأخر بمعنى تأخَّرَ . والمعنى : كنا فُرسانَ هذه الوقعةِ فى هذا اليوم المشهور ، حين كُنتَ للشَّرِّ مُعْوِرًا ، وعلى شَفَا البَلَاءِ مُوفيًا .

---

(١) التبريزى : « فكنا » .

(٢) انظر الأغانى (١١ : ٥٥) ومعجم البلدان فى رسمه .

٥ — عَطَفْنَا وَرَاءَكَ أَفْرَاسَنَا وَقَدْ أَسْلَمَ الشَّفَتَانِ الفَمَا

يقول : تعطّفنا عليك فى ذلك الوقت ، ودافعنا دونك ، وقد كَشَرَت الأسنانُ وأسلمتها الشفاه ، تقلّصًا عنها ويبوسةً حادثةً فيها . وذِكْرُ الفم كناية عن الأسنان ؛ كما يُقالُ فضّ الله فاهُ . ويقال فى هذا المعنى ذَبَّتْ الشِّفاهُ[1] . ومثلُهُ قولُ عنترةَ :

* إذْ تَقْلِصُ الشَّفَتَانِ عَنْ وَضَحِ الفَمِ[2] *

والواو من قَوْلِهِ قد أسْلَمَ الشفتان واو الحال . والاستعارة بإسلام الشفتين فى نهاية الحُسْن .

٦ — إذَا نَفَرَتْ من بَيَاضِ السُّيُوفِ قُلْنَا لَهَا أَقْدِمِي مُقْدَمَا

يقولُ : إذا جَبُنَتْ خَيْلُنَا وحادَتْ عن تلألُؤ السيوف وبريق الشّمس وشُعَاعِها فى السّلاح ، وهَرِير الأبطال وتداعيها ، أكْرهْنَاهَا على الإقدام . وذِكْرُ القَوْلِ ها هنا كنايةٌ عن الفعل ، وهذا كما يقال قال برأسِه كذا ، إذا حرّكه ، وقال بسَوْطِه ، إذا أشار به . والمُقْدَم والإقدامُ بمعنًى . وحقيقة الكلام إذا نَفَرَتْ قَدَّمْنَاها تقديما .

١٦٤

وقال الشَّنْفَرَى[3] :

١ — لاَ تَقْبُرُونِي إنَّ قَبْرِي مُحَرَّمٌ عليكُمْ ولكن أبْشِرِي أُمَّ عَامِرِ

(١) ذبت : ذبلت وجفت من العطش أو غيره .

(٢) صدره : * ولقد حفظت وصاة عمى بالضحى *

(٣) الشنفرى : شاعر جاهلى من بنى الإواس بن الحجر بن الهنو بن الأزد بن الغوث . انظر أخباره فى الأغانى (٢١ : ٨٧) . والشنفرى اسمه ، وقيل لقب له ، ومعناه العظيم الشفة . وهو ابن أخت تأبط شرا ، وكان أحد الثلاثة العدائين .

يقال : قَبَرْتُ الإنسانَ ، إذا دفَنْتَه ؛ وأقْبَرْتُه إذا جَعَلْتَ له مَوْضِع قَبْر . وفى القرآن : ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فأَقْبَرَهُ ﴾ . والشَّاعر كأنَّهُ نَبَّهَ بهذا الكلام على أنَّه مِمَّنْ يُقْتَل ويُتْرك بالعَرَاء لا يَرْثِى له شَقِيق ، ولا يرثيه[1] نسيبٌ ولا رفيقٌ ، فيأتيه عَوَافِى السباع والطّير . فخاطَبَ أصْحابَهُ وقال : لا تدفنونى إنَّ دَفْنِى مُحَرَّمٌ عليكم ، يريهم استغناءه عنهم حيًّا وميّتاً ، ورِفْعَةَ نفسِه عن الاستنامَةِ إليهم والاعتماد عليهم ، وذهابَه عنهم فِعلَ الجانِبِ لهم ، البعيد منهم . ثم قال « ولكن أبْشِرِى أمَّ عامر » ، أى ولكنِ الضَّبُع تأكُلُ لحى فأبْشِرى أمَّ عامرٍ ، جَعَلَهُ كما هُوَ لَقَبُ الضَّبُع[2] . وموضِعُه من الإعراب مبتدأ والخبر محذوفٌ ، وهو يأكلنى وتَتَولّى أمْرِى ونحوُهُ . وهذا فى أنه جُملةٌ جُعِلَتْ لقَباً وفى أنّ شَرْطَها أن تُحْكَى ، كتأبّط شَرًّا وما أشبهه . وإنما جُعلت لَقَباً لها لأنَّ العادَةَ فى اصطيادِ الضَّبُع أن يُقْصَدَ وِجارُها ويُحْفَرَ وهى تتأخَّر شيئاً شيئاً . والصائدُ يقول : أم عمْرٍ ليست ها هنا ؟ أبْشِرِى أمَّ عَامِرٍ بشَاءٍ هَزْلَى ، وجَرَادٍ عَظْلَى ؛ خامِرِى أمّ عامر ليست ها هنا ؟ فلا يزالُ يَحْفِرُ الوِجَارَ ، ويكرِّر هذا الكلامَ ؛ والضَّبُع تتأخَّر حتّى تبلُغ أقْصَى وجارِها فتخرجَ حينئذٍ بأغْلَظِ عُنْفٍ . ولمَّا كان الأمْرُ [على هذا[3]] فى اصطيادها لقبَها ببعض ما تُخاطَبُ به فى تلكَ الحال ، فكأنَّهُ قال : لا تَقْربونى إذا مِتُّ فقد حَرَّمْتُ دَفْنى عليكم ، ولكنَّ الذى يُقَالُ لَهُ أبْشِرِى أمَّ عامِرٍ ولىُّ أمْرِى دونَكم . فهذا وَجْهٌ حَسَنٌ إليه يَذْهَبُ الحُذّاق من أصحاب المعانى . وحكى سيبويه عن الخليل فى قول الأخطل :

ولقد أبيت من الفتاةِ بمعزلٍ فأبيتُ لا حَرِجٌ ولا محرومُ

---

(١) كذا فى م . وفى الأصل : « ولا يرثه » .

(٢) الصواب « كنية الضبع » .

(٣) التكلة من م .

أنه قال أبيتَ الذى يقال له لا حَرَجٌ ، فحَكَى . ثم قال : يقوّيه فى ذلك قول الأخْطلِ :

على حينِ أنْ كانَتْ عُقَيْلٌ وشائظًا وكانَتْ كِلاَبٌ خامِرِى أمَّ عامِرِ (١)

لأنه أراد كانت كِلاَبٌ التى يقال لها خامِرِى أمَّ عامرِ ، فحكى ذلك الكلام وكَنَى به عن الضَّبُع . ويحتمل أن يكون البيت على كلامَين ، كأنّه قال : لا تدفنونى ، مخاطِباً أصحابه ورفقاءهُ ، وليس يُريدُ نَهْيَهُم عن ذلك ؛ ولكن يريد كَشْفَ حالِهِ لهَم ، وبيانَ عاقِبَةِ أمْرِه فيهم . ثم أقبَلَ على الضَّبُع فقال : أبْشِرِى يا أمّ عامِرٍ ، فإنَّكِ تأكُلِينَ مِنِّى . ويكونُ هذا فى تحويل الكلام عن شىء إلى آخر ، كقول الله عزّ وجلّ : ﴿ يوسُفُ أعْرِضْ عن هذا واستَغْفِرِى لذَنْبِكِ إنَّكِ كُنْتِ من الخاطئين ﴾ ، فاعْلَمْ ذلك تنتفعْ به إن شاء الله . ويقال بَشَّرْتُه فأبْشَرَ ، كما يُقال فَطَّرْتُه فأفطَر . ويقال بَشَرْتُه بالتخفيف بمعنى بَشَّرْتُهُ ، فاستَبْشَر . وحُكِىَ أبْشَرْتُه أيضًا .

٢ـ إذا احْتَمَلُوا رَأْسى وفى الرأس أكْثَرِى وغُودِرَ عندَ المُلْتَقَى ثَمَّ سائِرِى

إذا ظَرْفٌ لقَوْلِهِ تَقْبُرُونى ، أو لِما دَلّ عليه اللَّفْظُ والحال ، وقد جُعِل خَبَرًا للمبتدأ الذى بَعْدَ لَكِن ، وهو قَوْلُهُ أبشِرى أمَّ عامرٍ (٢) مَن يأكُلُنِى أو يَتَوَلَّى أمْرِى . ويجوز أن يكون ظَرْفًا لقَوْلِهِ أبْشِرِى فى القَوْلِ الثّانِى . وإنما قَالَ « وفى الرَّأسِ أكْثَرِى » لأنَّ الحواسَّ خَمْسٌ ، وأرْبَعٌ منها فى الرأسِ : البَصَرُ للمرئيات ، والأذن للمسموعات ، والأنف للمشمومات ، والفَمُ للمَذُوقات . وقد اعتَرَض به بين المعطوفِ والمعطوف عليه ، وساغَ ذلك لأنّه يُسَدِّدُ المعنى المطلوب

(١) الوشائظ : الدخلاء فى القوم ليسوا من صميمهم . والبيت فى اللسان (وشظ) .
(٢) أى الذى يقال له أبشرى أم عامر هو الذى يأكلنى أو يتولى أمرى . انظر ما سبق فى ص ٤٨٨ س ١٤ — ١٧ .

ويؤكِّدُه . وقولُه « وغُودِرَ عند المُلتَقَى ثَمَّ سائرى » ، يروى بفتح الثاء ويكون ظرفا وإشارة إلى المعركة ومزدَحَم الناس . والتقدير وغُودِرَ ثَمَّ سائرى حيث التَقَى القَوْمُ بعد أن حُمِلَ رأسُه لشُهْرَته ، أو ليُعْلَمَ به إتيانُ القَتْلِ عليه . ويُروى « ثُمَّ » بضم الثاء ويكون حرفَ العطف عُطِفَ به سائرى على المُضْمَر فى غُودِرَ ، والمعنى غودِرَ رأسُهُ ثُمَّ سائرُهُ حَيْثُ التَقَى القَوْمُ للنِّظارة . والأولى أجْود . وإنَّما ضَعُفَت هذه لأنَّ عَطفَ الظاهر على المضمر المرفوع ضَعِيفٌ حَتَّى يُؤَكَّدَ . وتأكِيدُه : وغودِرَ هو عند الملتَقَى ثُمَّ سائرُهُ . ويجوز أن يكونَ سائرى فى موضِع النَّصْب معطوفًا على رأسى ، كأنَّه احتملوا رأسَه ثم سائرَهُ ، فيكون أقْرَبَ . وكان الشَّنْفَرَى أحَدَ الخُلَعاء الذين تبَرَّأ عشائرُهم منهم وأسْلمُوا بجرائرهم ، ولهذا قال فى نَفْسِه :

طَرِيدُ جِنَاياتٍ تَيَاسَرْنَ لَحْمَهُ عَقِيرَتُهُ لأَيِّها حَمَّ أَوَّلُ[1]

ومن أجْلِ ذلك كَشَفَ القِناعَ مَع قومه ، وأخذ يتفادى منهم ويقول : لا تَقْبُرُونى إن قبرى مُحَرَّمٌ عليكم . فإن قيل : أين جوابُ إذا ؟ قلتَ : إنْ جملتَه ظَرْفًا لقوله لا تقبرونى فذاك جوابُه ، وكذلك إن جملتَه ظَرْفًا للخبر المقدّر . والسائر : الباقى من الشىء ، وهو من السُّؤْر ، وأسْأَرْتُ فى الإناء .

٣ — هُنَالِكَ لا أَرْجُو حَيَاةً تَسُرُّنى سَجِيسَ اللَّيالى مُبْسَلاً بالجرائرِ

أشار بقوله « هنالك » إلى الوقت الذى يتناهى فيه الأَمَد ، ويدنُو فيه الأجَل ، لا إلى الوَقْتِ الآتى بَعْدَ القتل ، وهو ظَرْفٌ لِلاَ أَرْجُو . والمعنى : فى ذلك الوقت لا أطمع فى حياةٍ سارَّةٍ لى ، وأنا مخذولٌ مُسْلَمٌ بجرائرى فى القبائل ، لا يُرَى إلا شامِتٌ بى ، أو طالبٌ للانتقام منِّى . وقولُه « سَجِيسَ الليالى » يُرادُ

(١) البيت من لاميته التى يقال لها « لامية العرب » .

به امتدادُه وسلاسَتُه فى الاتصال وهو اسم الفاعِلِ من سَجُسَ[1] . وقد أحْكَمْنا القولَ فيه فى كتابِنا الأزمنة[2] . وهو ظَرْفٌ لقولِه مُبْسَلاً بالجرائر . وانتصب مُبْسَلاً على الحال . والجرائر : جَمْع الجريرة . وأُبْسِلوا : أُسْلِمُوا . وفى القرآن ﴿ أُولٰئِكَ الذين أُبْسِلُوا كَسَبُوا ﴾ .

١٦٥

وقال تأبَّطَ شَرًّا :

١ ــ وَقالوا لها لا تَنْكِحِيهِ فإنّه ... لِأوّلِ نَصْلٍ أنْ يُلاَقِيَ مَجْمَعَا

كان تأبّطَ شرًّا خطَبَ امرأة عبسية ، فأرادت إجابته وَوَعَدَتْ مُناكَحَتَهُ ، فلما جاءها أظهرَتِ الزُّهْدَ ، وأَخْلَفَتِ الوَعْدَ ، واعتلّت بأنَّ الرغْبَةَ فى شَرَفِه وفَضْلِه كما كانت لكنَّهُ قيل لها ما تَصْنَعِين برجُلٍ يُقْتَل عَنْكِ قريباً ، لأنّ له فى كل حَيّ جنايةً ، وعنده لكلِّ إنسانٍ طائلة ، فتَبْقَيْنَ أيِّمًا ! فانصرف تأبّط شرًّا وقال هذه الأبيات .

وقولُه « أن تُلاَقِيَ » يجوز أن يكون موضِعُهُ رَفعًا بالابتداء ، وخَبَرُهُ لأوّلِ نَصْلٍ ، والجملة فى موضِعِ خبر إنّ . [والتقديرُ : إنّ[4]] تأبّطَ شَرًّا مُلاقاتُهُ مَجْمَعًا لأوّلِ نَصْلٍ يُجرَّدُ . ويجوز أن يكون « يُلاقى » فى موضِعِ النصبِ على أن يكون بَدَلاً من الهاء فى « إنّه » ، كأنّه قال إنّ ملاقاتَهُ مَجْمَعًا لأوّلِ نَصْلٍ . والهاء فى فإنّهُ يجوز أن يكون لتأبّطَ شرًّا ، وهو الأجود فى الوجهين . ويجوز أن

---

(١) ابن جنى : « يقال سجس الماء إذا فسد وتغير . ومنه عندى قولهم : لا أكلمك سجيس الدهر ، أى امتداده . والتقاؤهما أن الشىء إذا طالت مدته فى غالب الأمر تغير وفسد ، كأنه قال : لا أكلمك إلى آخر المدة التى يتغير فيها الدهر » .

(٢) الأزمنة والأمكنة (١ : ٢٩٣) . وهذا نص صريح فى أن المرزوقى ألف شرح الحماسة بعد تأليفه كتاب الأزمنة .

(٣) سبقت ترجمته فى الحماسية ١١ .

(٤) التكملة من م .

يكون للأمر والشأن فى الوجه الأوّل ، ويكون تفسيرُه الجملة . ويجوز أن يكون فى موضع الظَّرْف ، أىْ زَمَنَ أن يُلاقِى مُجَمَّعًا . والمعنى هو لأوّل نَصْلٍ إذا لاقى مُجَمَّعًا ، أى يُقْتَلُ بأوّلِ نَصْلٍ يُعمَل[١] فى ذلك الوقت . ويُرْوى « أن يُلاقِىَ مَصْرَعا » ، والمَصْرَع يجوز أن يكون مَصْدَرًا ، ومكانًا ، وزمانًا . وانتصابه يجوز أن يكون على أنه مفعول يُلاقِىَ ويجوز أن يكون مفعولُ يُلاقى محذوفًا ويكون مَصْرَعًا فى موضع الحال ؛ كأنه قال أن تلاقِيَه ذا مَصْرَعٍ ، أى مصروعًا ، فحَذف المُضافَ .

٢ ــ فَلَمْ تَرَ مِنْ رأىٍ فَتِيلًا وحاذَرَتْ تَأَيُّمَهَا من لابِسِ اللَّيْلِ أَرْوَعَا

يقول : لم تَرَ هذه المرأة من الرأى لمَّا قَبِلَتْ مَشُورة الناسِ و تمنَّعَتْ من منا كحتِى مايوازى فَتيلًا ، أى ما يغنى غناء فتيل . وقد حَذِرَت بَقاءَها أيِّمًا من رَجُلٍ رَكَّابِ اللّيل لا يفارقه فِيمَا يَهُمُّه ، فكأنَّه لبأسِهِ ذَكِىُّ القَلْبِ شَهْمٌ . والقتيل والنَّقير والقِطْمير يُضْرَبُ المَثَلُ بها فى حَقَارَةِ الشىء . والأَرْوَعُ يكون الحديدَ القَلْب المُرَوَّعَ الفؤاد ، ويكون الجميلَ . وقولُه « وحاذَرَتْ » فى موضِع الحال والأجْوَد أن يُضْمَرَ معها « قَدْ » أىْ لم تَرَ فَتيلا من الرأى مُحاذِرة .

٣ ــ قَليلُ غِرَارِ النَّوْمِ أَكْبَرُ هَمِّه دَمُ الثَّأْرِ أَوْ يَلْقَى كَمِيًّا مُسَفَّعَا

هذا من صفة لابِس الليل . فإن قيل : ما معنى قليل غِرَارِ النَّوْم ؟ وإذا[٢] كان الغِرارُ القليلَ من النَّوم ، بدِلالة قولهم ما نَوْمُهُ إلا غِرَارًا[٣] ، فكيف جاز أن تقول قليل غرار النوم ، وأنت لا تقولُ هو قليلُ قليلِ النوم ؟ قلتَ : يجوز أن يُرَادَ بالقليل النَّفْى لا إثْباتُ شىء منه ، والمعنى : لا ينَامُ الغِرَارَ فكيف

(١) يعمل ، من الإعمال لا من العمل . وفى م : « يعمد » .
(٢) فى الأصل : « وإنما » ، صوابه فى م .
(٣) م : « إلا غرار » بالرفع ، وهو الأصوب . وقد أنشدوا فى الشاذ :
وما الدهر إلا منجنونا بأهله وما صاحب الحاجات إلا معذبا

ما فَوْقَهُ ؟ ويجوز أن يكون المعنَى نومُه قَليلُ ما يقِلُّ من النَّوْم ، أى نَوْمُه قليلُ القليل ، يريدُ به أنَّهُ مُسَهَّدٌ ، وأن أ كبَرَ(١) ما يَهتمّ له طالبُ دَمِ الثأر ، أو ملاقاةُ كَمِيٍّ مُسَفَّعِ الوَجْهِ ، لدَوَامِ تبَذُّلِه للسَّمائم ، وتَسيَارِه فى الهَوَاجِرِ . والكَمِيُّ : الذى يَكْمِى شَجَاعتَهُ لوقتِ الحاجة إليه ، وقيل هو الذى يَتَكَمَّى فى سِلاحِه ، وقوله « أوْ يَلْقَى » أنْ مُضْمَرَةٌ بين أوْ والفِعْل ، ولولا ذلك لم يَجُزْ عَطْفُ الفِعل على الاسم ، لاختلافهما . وإذا أُضْمِرَ « أنْ » يَصيرُ حرفُ العطفِ ناسقًا اسمًا على اسم ، والتقدير : أ كبَرُ همِّه دَمُ الثّأر أو لقاء كَمِيٍّ . ومثل هذا قولُه تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أنْ يُكَلِّمَهُ اللّهُ إلا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً ﴾ ، والتقدير : أو أن يرسل رسولا ، حتّى يكون أنْ مع الفِعْل فى تقدير مَصْدَر مَنْسُوق على قَوْله وَحْيًا ، إذ قد امْتَنَعَ أن يُحْمَلَ على أن يُكَلِّمَ .

٤ — يُعَاصِمُهُ كُلٌّ يُشَجِّعُ قَوْمَهُ ... ومَا ضَرْبُهُ هَامَ العِدَى لِيُشَجَّمَا(٢)

يجوز أن يكون قولُه « يُعاصِمُه » صفة لكَمِيًّا مُسَفَّعا ؛ لأنَّ مِثْلَهُ من الأفْعَالِ يكون صِفَةً للنَّكِرَةِ وحَالاً للمعرفة ، ويكون الثناء على خَصْمِه الذى همُّه ملاقَاتُهُ ، كالثَّنَاء عليه . ويجوز أن يكون راجعاً إلى الأوّل ، وداخلاً فى صفاتِه فيتْبَعَ قوله قليلُ غِرَارِ النوم . ومعنى يُعاصِمُهُ : يقاتله . وأصله الضَّرْبُ بالسَّيف والرَّمْىُ . ويقال مُصَعَ بذَنَبِهِ ، إذا حَرَّكَهُ . ومَصَعَ الطائر بذَرْقِهِ ، إذا رَمَى به .

(١) كذا فى م وهو الأوفق . وفى الأصل : « أكثر » .

(٢) التبريزى : « ويروى : كلٌّ يُشَجِّعُ يومَه
ويروى : كلٌّ يشجِّعُ نَفْسَه
ومن روى : كل يشجع قومه بالنصب فالمعنى راجع إلى ما ذكرناه أيضاً ، لأن شجاعته فى نفسه شجاعة قومه ، فكأنه بإقدامه فى الحروب كسب لقومه ذكر الشجاعة فيهم ، ونسبها إليهم »

وقولُهُ « كلٌّ » أى كلُّ واحدٍ من الناس ، فَأَفْرَدَ وهو فى النِّيَّة مضافٌ . ومعنى البيت : إنَّ كلَّ مَن قاتَلَ هذا الرَّجُل قاتلَهُ طَمَعًا فى أن يَنْسُبَه قَوْمُه إلى الشَّجاعة ، وليتبجَّح به عند أقرانِه[1] ، ويذهب به صِيتُه فى الناس . وليس قَتْلُهُ للشُّجعان وضربُهُ هامَ الأعْدَاء لمثل ذلك ، لكنه طَبْعٌ منه ، وجَرْيٌ على عادته . وقوله « يُشَجِّع قومُه » أى لأن يشجعه قومه ، والمفعول محذوف بدلالة قوله[2] :

* ألاَ أيُّهذا الزَّاجرِى أحْضُرَ الوَغَى *

يُرِيدُ أن أحْضُر ، يدلُّ على هذا ما بَعْدَه ، وهو :

* وأن أشْهَدَ اللَّذَّاتِ هل أنْت مُخْلِدِى *

٥ ـ قَلِيلُ ادّخارِ الزَّادِ إلاّ تَعِلَّةً فقد نَشَزَ الشُّرْسُوفُ والْتَصَقَ المِعَا

قولُه « إلا تعِلَّةً » من عَلَّلْتُهُ بكذا ، فهو كالتَّقدمة من قَدَّمْتُ . والشَّراسيف : مَقَاطُ الأضْلاعِ[3] ، ولا ينْشُز إلاَّ للهُزَالِ . وذِكْرُ القِلَّةِ هاهنا مقصودٌ به إلى النَّفْى لا غير ، بدلالة مجىء الاستثناء بعده ، وإذا كان كذلك لم يثبت القليلُ به . والمعنى : ما يَدْخَرُ من الزَّادِ إلا قدراً يتعلّل به ، فقد أثَّرَ الطَّوَى فيه حتى هُزِل ، فترَى رءوس أضلاعه شاخصةً ، وأمعاءه بجنبيه ملتصقة ، لقِلَّة طُعْمِه ، واتِّصال ممارسته للشَّدائد . وعلى هذا قول الله عزّ وجل : ﴿ قليلاً ما تُؤمِنُونَ ﴾ و ﴿ قليلاً مَا تَذَكَّرُون ﴾ .

٦ ـ يَبِيتُ بِمَغْنَى الوَحْشِ حَتَّى أَلِفْنَهُ ويُصْبِحُ لا يَحْمِى لَهَا الدَّهْرَ مَرْتَعَا

قوله « يبيت بمغنى الوحش » ، أى استمرّت هذه الحالة به ، واتصلت منه

(١) التبجح : الفخر . (٢) هو طرفة ، فى معلقته المشهورة .

(٣) مقاط : جمع مقط . وفى الأصل : « مقابل » ، تحريف . وفى م : « مقط »

ودامت ، لأن الأماكن سِواه ضاقَتْ عنه ، ومجامع الإنْس تكرَّهَتْهُ فَلَفَظَتْهُ ، فألِفَ القِفار ولزِمَ مرابِعَ الوحش ومساكنَهَا ، حتى أنِسَتْ به وسكَنَتْ إليه ، وعَدَّتْهُ واحداً منها ، وصار هو أيضاً على تعاقب الزمان وتَصَرُّفِ الأحوال لا يَحْمِي من أجْلِهَا مَرْعًى ، ولا يُراعِي من مَرَادِها مَأْوًى ، لأن هِمَّتَه مصروفَةٌ إلى غَيْرِهَا ، ونفسِه مَشْغُولَةٌ بسواها ، فلا نَفرَتُها مِنْهُ تَقْبِضُها عنه ، ولا صَيْدُهُ لهَا يَجْعَلُهَا من همه . ومِثْلُ هذا قول الآخر(١) :

عَلَامَ تَرَى لَيْلَى تُعَذِّبُ بالمُنَى ... أخا قَفْرَةٍ قد كان بالغُول يأنسُ(٢)

وأضْحَى صَدِيقَ الذِّئب بَعْدَ عَدَاوَةٍ ... وبُغْضٍ وربَّتْهُ القِفَارُ الأمالسُ(٣)

٧ــ على غِرَّةٍ أَوْجَهْرَةٍ من مُكَانِسٍ ... أطَالَ نِزَالَ القَوْمِ حتَّى تَسَعْسَعَا(٤)

تَعَلَّقَ قولُه « عَلَى » بقولِهِ « لا يَحْمِي » . والمعنَى : لا يحافِظُ لها ولا يترقبُها ، لا على غَفْلةٍ منها واغترارٍ منه إياها ، ولا بمجاهَرةٍ لها ولا مكاشفة دونَها ، بل أطالَ مزاولةَ الغارات ومُنازلةَ الكُماة مُنْذُ تَرَعْرَعَ ، إلى أنْ وَلَّى شبابُهُ وتَسَعْسَع . وهذه إشارةٌ إلى ما تنقّل فيه على تغيُّر الأحوال ومُضِيِّ الأوقات ، من اكتساب المداوات وإيقاع الوقَعات ، وتهييج الغارات . وقوله « تَسَعْسَعَ » من قولِكَ تَسَعْسَعَ الليلُ أو النهار ، إذا أدْبَر . وفى الحديث : « تَسَعْسَعَ الشَّهْرُ » .

(١) هو عبيد بن أيوب العنبرى ، أو عبيد بن ربيعة التيمى . انظر الحيوان (٦ : ١٦٨) وحماسة البحترى ٤١١ .

(٢) الحيوان : « أخا قفرات كان بالذئب » .

(٣) فى الحيوان :

وصار خليل الغول بعد عداوة ... صفيا وربته القفار البسابس

(٤) رواية التبريزى : « أو نهزه من مكانس » . وفى الأصل : « نزاع القوم » والتفسير بعده يقتضى ما أثبتنا من م والتبريزى . وقد أشار التبريزى أيضا إلى رواية : « تشعشعا » ، قال : « من قولهم رجل شعشاع ، أى حلو خفيف ، أى صار لبقا بالنزال مايح الطعان والضراب ، لطول عادته لذلك » .

والمُـكانِس : المُلازِم للـكِناس . ويُقال كَنَسَ الظَّبْىُ فهو كانسٌ ، إذا أوَى إلى كِناسِه . قال لبيد :

تسلُب الكانسَ لم يوأرْ بها شُعْبَةُ السَّاقِ إذا الظِّلُّ عَقَلْ[1]

ويُقالُ للكِناس المَكْنَسُ . تقال : ظَبْىٌ كَنِسٌ[2] ، إذا لزِمَ كِناسَهُ .

٨ ـ ومَنْ يُغْرَ بالأعْداءِ لا بُدَّ أنّهُ سَيَلْقَى بهم من مَصْرَعِ الموت مَصْرَعَا[3]

قوله « لا بُدَّ » يجرى مَجْرى لا مَحالَةَ ، وهو من البَدَد مصدر الأبَدّ ، وهو سَعَةُ ما بين اليَدِ والجَنْبِ ، كأنّ المراد لا سَعَةَ فى ذلك ولا تَجَوُّز . وكان الواجب أن يقول : لا بُدَّ من أنهُ سَيَلْقَى ، فَحَذَفَ مِنْ . فإذا قُلْتَ : لا بُدَّ من كذا ، فانتصاب بُدّ بلاَ ، وخبَرُه من كذا . ولم يتعلّق مِنْ ببُدَّ كما تَعلّق بخَيْر من قولك لا خَيْرَ منه لك ، لأنه لو كان كذلك لَنُوِّنَ بُدٌّ ولم يَجُزْ غَيْرُهُ : يقولُ : من أُولِـعَ بمنابذة الأعداء ، وغَرِى بِمضارّتهم لا بُدّ أن يَلْقَى بهم يَوْما من الأيَّام مَصْرَعاً من مَصارع الموت ، لأنّه كما يَرَى فيهم يُرَى بِهم . ويقال : غَرِىَ بكذا وأُغْرِى به ، وقد رُوِى « يَغْرَ » بفتح الياء ، و « يُغْرَ » بضمّها . والمَصْرَعُ هاهنا مَصْدَرٌ ، وقد يكون فى غير هذا اسماً للمكان والزّمان . وعلى طريقة هذا البيت المَثَلُ السائر : « من يَرَ يوْمًا يُرَ به » . وجواب الجزاء فى ضمن قولِهِ لا بُدَّ أنه سيَلْقَى ، والتقدير من يَغْرَ بالأعداء فهو سيَلْقَى بهم مَصْرَعَ الموْت ، لا بُدَّ من ذلك .

٩ ـ رَأَيْنَ فتًى لا صَيْدُ وَحْشٍ يُهِمُّهُ فلَوْ صافَحَتْ إنْسًا لصافَحْنَهُ مَعَا

---

(١) ن لأصل : « يورا » ، وفى م : « يوره » ، والوجه ما أثبتنا ، وهى إحد روايتى البيت ، كما فى اللسان (وأر) . ويروى : « لم يوأر » ، وهى رواية الديوان ١١ طبع ١٨٨١ .

(٢) كذا فى النسختين . والمعروف « كانس » .

(٣) فى الأصل : « من مصرع القوم » ، صوابه فى م والتبريزى .

رَجَع إلى ذِكر الوحش بعد أن اعترض بين الكلام فيها بقوله : « أَطالَ نِزالَ القوم » ، و بقولِه « ومن يُغِر بالأعداء » . وهو يريدُ أن يبيّنَ سَبَبَ أُنسِها به ، وزوالَ نِفارها منه بأَشْفَقِ مما قدَّمَه . فيقول : رَأَتِ الوَحْشُ به فتًى صَيْدَ الوَحْشِ مما ليس يَخطُر ببال ، ولا يَعُدُّه من جملة الأشغال . فلو مَكَّنَتْ من نفسِها إنسًا لمكَّنَتْ هذا . فقولُه « لا صيْدُ وَحْشٍ يُهِمُّه » من صِفةِ الفتى ، ونَفَى بقوله لا الفِعْلَ ، فلذلك لم يكرّر لا مرّتين كما تقولُ لا عَبْدٌ لك ولا جارية . وإذا كان كذلك فقد أَضْمَرَ بَعدَ لا فِعْلاً ، وجعَل الصيد يرتفع به ، ويكون الفعل الظاهر بَعدَهُ تفسيراً ، كأنّه قال لا يُهِمُّه صيدُ وَحْشٍ يُهِمُّه . والمصافحةُ أصلُها فى مماسّة صَفحة إحدى اليدينِ للأُخرى عند السلام ، فاستعارها للتمكين والاستسلام . وقولُه « مَعًا » فى موضِع الحال ، أى مجتمِعةً ومصطحِبةً . والفائدة فى ذكر الإتيان بلفظةٍ تُفيد العموم ، فكأنّ المراد الوحشُ على اختلاف أجناسِها .

١٠ — ولكنَّ أربابَ المَخَاضِ يَشُقُّهُمْ إذا افتَقَروهُ واحدًا أَوْ مُشَيَّعَا

١١ — وإنّى وإنْ عُمِّرْتُ أَعْلَمُ أنّنى سَأَلْقَى سِنَانَ الموْتِ يَبرُقُ أَصْلَعَا

قولُه « المَخَاض» هى النُّوق الحوامِلُ ، وهو اسمٌ صِيغ للجماعة منها ، ولا واحِدَ لها من لَفظِها ، وإنما خَصَّها لأنّ التنافُسَ فيها أكثر ، وأربابَها بها أَشَحّ . والشاعرُ تَرَكَ قِصّةً إلى قِصّة ، فكأنّه قال : لا يُهِمُّه طِلابَ الوَحْشِ ، ولكن يُهِمُّه قصْدُ أرباب الإبِل فى أموالِهم ، فهو يؤذيهم ويفزّعهم ، ويُضْنيهم إذا تتبَّعُوا أثرَهُ . وقد أغار عليهم واستاق إبلَهم مُنفرِدًا عن أصحابه ، أو محتفلاً بهم مُعانًا بتشييعهم . وهذا بيانُ ما قَدَّمَه فى قولِه « أطالَ نِزالَ القوْم حتى تَسَعْسَعا » .

وانتصَب واحداً على الحال، والعاملُ فيه اقتفروه، أي منفرداً. ويقال اقتفرتُ للوحش(١) إذا تتبعتَ أثرَهُ. ومعنى يَشُقُّهُمْ، يهزلهم ويكدّ عيشهم. ومشيّعا: معه شيعةٌ. يريد أنه لا يبالى كيف سقط عليهم وأنه يشُقُّهم على كل حالٍ.
وقولُه « وإني وإنْ عُمِّرت » بيانُ قولِهِ « ومن يُغْرَ بالأعداء »، كما أنّ قوله « رَأيْنَ فتًى » بيان قولِهِ « يبيتُ بمَغْنَى الوَحْش حتى أَلِفْنَهُ »، لأنه فسَّرَ كلّ بيْتٍ من الأبيات الثلاثة ببيتٍ. فيقول: أنا وإن أُطيلَ عُمْرِى، ومُدَّ من نفسِى بما يَلْحَقُنى من واقِيَةِ الله تعالى على ما أجترِحُه وأختاضُه(٢)، أتيقَّنُ أنى سألْقَى أَجَلى، وأُوَافِي مَصْرَعِى إذا دَنا الحِينُ المعلوم، بالحَيْنِ المحتوم، وتَرَاءى سِنَانُ الموتِ لى بارِزاً بارِقًا، أى السِّنان الذى يكون به الموتُ، فلا أختارُ لنفسى إلاّ ما لا يكسبنى عاراً. وفي الـكلام مع هذا الذى ذكرناهُ التَّسلِّى التامّ، والرِّضا بالمقدور. وجواب الشرط فى قوله أعلَمُ أنّى، وهو على إرادة الفاء، ويجوز على نيَّةِ التقديم والتأخير.

١٦٦

وقال بَعْضُ بنى فَقْعَس(٣):

١ — دَعَوْتُ بَنِى قَيْسٍ إلَىَّ فَشَمَّرَتْ خَنَاذِيذُ مِنْ سَعْدٍ طِوَالُ السَّوَاعِدِ(٤)

يقول: استغثت بهؤلاء القَوْمِ وندبْتُهُم إلى نُصْرَتى والدِّفاع دونى، فخفَّتْ لى رجالٌ كأنّهم فحولٌ ممتدَّةُ القامات، مبسوطة الأيدى بالضَّرب والطَّعن.

---

(١) فى الأصل: « الرجل »، صوابه فى م والتبريزى.
(٢) كذا فى م. وفى الأصل: « وأعتاصه ».
(٣) فى الحيوان (١ : ١٣٤): « بعض التيسيين من قيس بن ثعلبة ». وفى البيان (٢ : ١١): « قول التيسى ».
(٤) دعوت بنى قيس، هذه رواية الأصل وم والتبريزى. وفى الحيوان والبيان: « دعوت بنى سعد ».

ويجوز أن يريد بالطُّول الاقتدار والغَلَبة ، كما يُقالُ فى السَّلاطةِ : هو طويل اللِّسان. والخناذيذ : الكِرام من الخيل ، فاستعارَها للكِرام من الرِّجال كما يُستعار القُرُوم المَصَاعِبُ لهم . ومن زَعَمَ أنّ الخناذيذ : الخِصْيَان أو الفحولة ، فقولُه بعيدٌ عن الصواب ؛ يَشْهَدُ لما ذكرناهُ من أنّهُ الكِرامُ قولُ الشاعِرِ(١) :

* وَخَنَاذِيذَ خِصْيَةً وَفُحُولاَ(٢) *

والطِّوال ، يكون جَمْعَ طويل وطُوَالٍ جميعا . ومفعول شَمَّرَتْ محذوف ، والمُراد ، رفَعَتْ ذُيُولَها ، وتهيّأت مجتمعة ومتخفّفة للقتال . وكما قيل هم طِوَالُ الأَيْدِى والسواعِد فى الجرىء المُقْدِم ، المُسْتَعْلِى المُقْتَدِر ، قيل فى السخاء : هم بُسُطُ الأَيْدِى والأكُفِّ ، وقيل هو شديد السَّاعِدِ للقوىِّ الجَلْد .

٢— إِذَا مَا قُلُوبُ القَوْمِ طَارَتْ مَخَافَةً مِنَ المَوْتِ أَرْسَوْا بالنُّفُوسِ المَوَاجِدِ

انتصب مخافَةً على أنه مفعولٌ له . وجواب إذا « أرسوْا » . والمعنَى : إذا تمكّن الرُّعْبُ من القُلوبِ والصُّدور حتّى طاشتْ [له(٣)] الألباب ، وطارَتْ له الأفئدة ، ثَبت هؤلاء القَوْم فى مواقفِ التّدافُع والتحارُب بنفوس كريمةٍ لا تُغْضِى على قَذى ، ولا تصبرُ على أذًى ، فهى آبيَةٌ للدَّنِيّات ، صابِرةٌ عند النّائبات . وقوله «أرْسَوْا» مفعولُه محذوف ، كأنّه قال أرْسَوْا قُلوبَهُمْ بالنُّفوس الكريمة . ويجوز أن يكون الباء من بالنفوس زائدةً للتأكيد(٤) ، كما قال :

---

(١) هو النابغة الذبيانى ، كما حقق ابن برى . ويروى لخفاف بن عبد قيس البرجمى . اللسان (خنذ) . وفى الحيوان (١ : ١٣٣) أنه خفاف بن ندبة .

(٢) صدره : * وبراذين كابيات وأتنا *

(٣) هذه من م .

(٤) وقال ابن جنى فى التنبيه : « يجوز أن تكون الباء هاهنا حالا من الضمير فى أرسوا ، أى أرسوا ونفوسهم معهم ، كقولك خرج بثيابه ، أى وثيابه عليه » .

* سُودُ المَحَاجِرِ لا يَقْرَأْنَ بالسُّوَرِ[1] *

والمعنى أَرْسَوُا النُّفوس ، أى أثبتوها إثْبَاتاً لا تَحَلحُلَ معه ولا تَمَوُّج . على هذا قولهم : الجبال الرَّاسيات ، وهو راسِى الدَّعائم . والمَوَاجِدُ : جَمْعُ مَاجِدَةٍ ، وأصْلُه الكَثْرَةُ ، يقال أمجدتُ الدَّابَّةَ العَلَفَ ، إذا أكثَرْتَهُ لها .

١٦٧

وقال سَعْدُ بن مَالِكٍ[2]

١ — يا بُوسَ للحَرْبِ الَّتى وَضَعَتْ أَرَاهِطَ فاسْتَراحُوا

اللام من قوله «يا بُوسَ للحرب» دَخَلَتْ لتأكيد الإضافة فى هذا الموضع ، وهى إضافةٌ لا تخصِّص ولا تُعَرِّف . وهذه اللام لا تجىء على هذا الحدِّ إلا فى بابَيْنِ : أحدها بَابُ النَّفْى بلاَ ، وذلِكَ مِنْهُ فى قولِكَ لا غُلاَمَىْ لك ولا أَبَالَكَ وما أشْبَهَهما ، والثانى بابُ النداء فى قولِكَ يابُوس للحرب ، وإنَّما المعنى يابوس الحرب . ألا تَرَى أنَّه لو لم يُرِدِ الإضافَةَ لنوَّنَ يابوسَ فى النَّصب ، لكونه نكرةً ، أو كان يجعله مَعْرِفَةً مبنيَّةً على الضَّمِّ . وقد أتى الشاعر فى بابِ النَّفْيِ على أصْلِهِ فى الإضافَةِ فقال :

---

(١) البيت يروى لشاعرين متعاصرين ، أحدهما الراعى النميرى ، والآخر القتال الكلابى . انظر الخزانة (٣ : ٦٧٧ — ٦٦٩) . وصدر البيت :

* هن الحرائر لا ربات أحمرة *

(٢) هو سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة ، جد طرفة بن العبد ، كما ذكر التبريزى . وهذه الحماسية يتوعد سعد يعرض فيها بالحارث بن عباد ، وكان قد عرف باعتزال الحرب ومجانبتها ، ولم يستنه إلى خوض غمارها فى آخر الأمر إلا ما رواه أبو رياش ، ومؤداه أن ابن أخيه واسمه بجير بن عمرو بن عباد — عرض له مهلهل على غرة فقتله وقال له : بؤ بشسع نعل كليب ! فقيل للحارث بن عباد : إن ابن أخيك قد قتل دية لشسع نعل كليب ، فلم يهتج لذلك

أبِالموتِ الذى لا بُدَّ أنّى مُلاقٍ لا أباكِ تخوّفينى(١)

والذى يَدُلُّ على أنّ هذه الإضافة لا تخصِّص أنَّ لا قد عَمِلَ معها ، وهو لا يَعْمَلُ إلاّ فى النّـكِرات . ومَعْنى البيتِ أنّهُ على وَجْه التعجُّب دَعَا بُوسَ الحرْب التى حَطَّتْ أراهِط وأذَلّتْهُم حتى استسلموا للأعداء ، وألِفوا وضْعَ الحرْب(٢) ، وحالفوا الراحة ، وآثرُوا السلامَةَ . وهذا الكلامُ فيه مع القَصْد إلى التعجُّب تهَكُّمٌ وتعبيرٌ ؛ كأنّه أراد : ما أبْأَسَ الحرْبَ التى فَعَلَتْ ذلك . وقوله « فاستراحوا » فيه تهكُّمٌ وبيانٌ لاستغنائهم ذلك(٣) ، ومَيْلِهِم إليه ؛ كأنّهم عَدُّوا نَفْضَ اليَدِ من مجاذبةِ الأعْداءِ ومراقبتِهم والاحترازِ من مكايدِهم ، لظهور عجزهم ، وتصوُّرِهم بصورةِ مَن لا يُحتَفَلُ لَهُ ، ولا يُستظهر عليه ، ولا يُتّقى مِنه — سَلامَةً ورَاحَةً ، وإن كان سُقُوطًا ومهانَةً . وكل ذلك لخروجهم عن مَلَـكَةِ العِزّةِ ، واطّراحِهم قِناع الحميَّةِ . وأراهِطُ جَمْعٌ ، يقال رَهْطٌ وأَرْهُطٌ وأراهِطُ . والرّهْطُ يَقَعُ على ما دون العشرة — ولذلك جاز أن يُضَافَ ما دون العَشَرَةِ من أسماء الآحاد إليه — وفارَقَ الخيْلَ والغَنَم والإبِل(٤) .

٢ — والحَرْبُ لا يَبْقَى لِجَا حِمِهَا التَّخَيُّـ ـلُ والمِرَاحُ

= وتريث حتى يتحقق من الخبر بنفسه ، وأرسل إليه المهلهل : إنى إنما قتلته بشسع نعل كليب ! فجمع قومه وأعد للحرب عدتها ، وكان يوم التحالق بين قومه بكر بن وائل وإخوتهم تغلب . وانظر العقد (٥ : ٢٢٠ — ٢٢١) .

(١) البيت لأبى حية النميرى ، كما فى اللسان (أبى) .

(٢) أى ترك الحرب .

(٣) م : « بيان الاستغناء منهم لذلك » .

(٤) أشبع التبريزى الكلام على : « وضعت أراهط » قال : « وليس الوضع هاهنا ضد الرفع ، وإنما المراد أنها تركتهم فلم تكلفهم القتال فيها . وإنما يعنى سعد بن مالك الحارث بن عباد ومن كان مثله فى اعتزال الحرب . وقد روى أن الحارث لما حارب مع بنى بكر بعد قتل بجير قال : أترانى ممن وضعته الحرب ؟ فهذا يدل على النصب . ومن رفع أراهط فالمعنى يابؤس للحرب التى وضعتها أراهط . وهذا اللفظ هو الأصل لأن قولك ترك بنو فلان الحرب هو واجب الكلام ، وقولك تركت الحربُ بنى فلان مجاز واتساع » .

يقال : جَحَمَتِ النارُ فهى جاحِمَةٌ ، إذا اضطرمَتْ ؛ ومنه الجحيم . وهذا الكلام جارٍ مَجْرى ما قَبْلَهُ ، وفيه إزْراءٌ بالذين ذَكَرَهُمْ ، وإيهامٌ بأنّهم كانوا أصحابَ خُيَلاءَ وبَطَرٍ ، ومرَاحٍ ونَزَقٍ ، فلم تَثْبُتْ أقْدَامُهُمْ عند اللِّقاء ، ولا صَبرَتْ أنفُسُهُمْ أوَانَ الكِفَاح ، فقال مُعَرِّضاً : لا يبقى لنار الحرب كبرياءُ المتكبِّرين ، ولا نشاط المَرِحين ، بل يستبدلون بهما اللِّين والكسل ، والانخزال والفشَل ، والصبر على الامتهان ، والاستسلام عند الامتحان . وقوله «لا يبقى لجاحمها التخيُّل» يجوز أن يريدَ به صاحبَ التخيّل ، فحَذَفَ المضاف وأقام المُضَاف إليه مقامه ، وحينئذٍ يكون البَدَلُ فى إلاّ الفتَى — وهو أوّل البيت الذى يليه منه ، وَجْهَ الكلام ومختارَهُ ؛ لأنَّ الثانىَ يكونُ من الجنس الأوّل ، وفى الوجه الأوّل لا يكون من جنْسه ، والاختيار فى المستثنى بعده النَّصْبُ .

٣ — إلاَّ الفَتَى الصَّبَّارُ فى النَّجَدَاتِ والفَرَسُ الوَقاحُ

قوله « إلاّ الفتى » ارتفع على أنه بَدَلٌ من التخيُّلُ ، وهذا لُغَةُ تميم ، ولُغة سائر العَرَب النَّصْبُ فيما كان استثناء خارجاً وإن كان جائياً بعد النَّفى ، لأن كونَهُ ليس من الأوّل يُبَعِّدُ البَدَلَ فيه . والنَّصْبُ كان جائزاً على كُلِّ وَجْهٍ . والنَّجَدَاتُ : الشَّدائد . والصَّبْرُ أَصْلُه الحَبْسُ ، وفَعَّالٌ بناء المبالغة ، ولا يجوز أن يكون اسمَ الفاعل من صَبَّرَ ، لأن اسم الفاعِل من صَبَّرَ مُصَبِّرٌ . يقول : لكن [لا] يَبْقَى لمُلابَسة الحربِ والصَّبْرِ على شدائدها [إلاَّ الفتى[1]] الحسَنُ الثَّباتِ فى الكرائه ، والفَرَسُ الصُّلْبَةُ على الجِرَاء . ويقالُ فَرَسٌ وَقَاحٌ ، وحافِرٌ وقاحٌ ، وهو وَقِحُ الوَجْهِ ؛ ومصدره القِحَةُ .

(١) التكملة من م .

٤ – والنَّثْرَةُ الحَصْدَاءِ والْـ بَيْضُ المُكَلَّلُ والرِّماحُ

عَدَّدَ الآلاتِ التي يحتاج إليها الفَتَى الصَّبَّارُ في النَّجَدَاتِ عند مِرَاسِ الحرب، ودِفاعِ الشَّرّ. فالنَّثْرَةُ: الدِّرْعُ الواسِعَةُ المُحْكَمَةُ السَّرْدِ، ويُقال فيها النَّثْلَةُ باللام أيضاً. والحَصْدَاءُ: الجَدْلاءُ، ومَصْدَرُهُ الحَصْدُ. يقال حَصِدَ يَحْصَدُ حَصَداً، وأَحْصَدْتُهُ وهو مُحْصَدٌ. يقال ذلك في الأوتاد والحبال والدُّروع إذا أُحْكِمَتْ وفُتِلَتْ. ويُقالُ هو حَصِيدٌ ومُسْتَحْصِدٌ أيضاً. وقَوْلُه «البَيْضُ المُكَلَّلُ» يَعْنِي بالمسامير، كأنَّها غُشِّيَتْ وسُمِّرت. والمعنى إنما يَبْقَى على صِلاءِ الحَرْبِ ومزاولتِها مَنْ كانَ في نَفْسِه يَرْجِعُ إلى قُوَّةٍ وجَلَدٍ، ومن صَبْرِه يَعْتَمِدُ على أَبْلَغِ أَمَدٍ، ومن سِلَاحِه يَثِقُ بأتَمِّ عُدَدٍ. ولم يَصِفِ الرِّماحَ، ويَعْني أقومَها لا محالة.

٥ – والكَرُّ بَعْدَ الفَرِّ إذْ كُرِهَ التَّقَدُّمُ والنِّطَاحُ

بَيَّنَ ما يَحتاج إليه الصَّبَّارُ من الأفعالِ في الحرب، كما بَيَّنَ الآلاتِ التي من شَرْطِه (استصحابُها[1]) فكأنَّه قال: ويَبْقَى لِجاحِمِها الكَرُّ بَعْدَ الفَرِّ في وَقْتٍ يُكْرَهُ فيه الإقْدامُ والتقدُّم، والنِّطَاحُ والتَّجَرُّدُ. وبعضهم يروى هذا البيت في غير هذا الموضِع[2]، والصواب هذا الترتيب. وجَعَلَ النِّطاحَ بين الكِباش مَثَلاً للمبالَطَة بين الفرسان.

٦ – وتَسَاقَطَ التَّنْوَاطُ والـ ذَّنَبَاتُ إذْ جُهِدَ الفِضَاحُ[3]

هذا ينعطف على قوله وضَعَتْ أراهط فاستراحوا. يقول: وتَسَاقَطَ الدُّخلاء

(١) هذه من م.

(٢) أي يرويه بعد البيت التالي، وممن فعل ذلك التبريز.

(٣) التبريزي: «وتساقط الأوشاظ» ثم أشار إلى رواية «التنواط». ولم يفسر الأوشاظ صريحاً. وفي اللسان: والوشيظ: التابع والحلف، والجمع أوشاظ».

والهُجَناء الذين نِيطُوا بصميم العَرَب فلم يكونوا منهم . والتَّنواطُ مَصْدَرٌ فى الأصل ، كالتَّرداد والتَّكرار ؛ وكأنّ المُراد ذَوُو التَّنواط ؛ فحُذِف المُضَافُ وأُقيم المضاف إليه مَقَامَهُ . ويجوز أن يكون وُصِفَ به كما يوصَفُ بالمصادِر . وذَكَر بعضُهم أنّ التَّنواطَ ما يُعَلَّقُ على الفرَس من إدَاوَةٍ وغيرها ؛ لأنّ كلّ ذلك قد نِيطَ به ، ثم أُطْلِق تشبيهاً على الدُّخَلاء . وقد استُعْمِلَ هذه اللفظةُ فى الدَّعِىّ ، فقيل : هو مَنُوطٌ . وقال الشّاعر[1] :

وأنْتَ دَعِىٌّ نِيطَ فى آلِ هاشِمٍ كما نِيطَ خَلْفَ الراكِبِ القَدَحُ الفَرْدُ

فعلى هذا يجوز أن يريد بذوى التَّنواط الأَدْعياء . وقوله الذّنَبَاتُ ، يريدُ التُّبّاع والعُسَفَاء . ويقال الذَّنائب والأذناب أيضاً . وكما قيل هذا تشبيها بِذُنابة الوادى[2] ، قيل فى الرؤساء الذَّوائب ، لأنّهم الأعْلَوْن . وذكر بعضُهم أنّ الذَّنَبَاتِ لا يُقال فى النّاس ، وإنّما يُقال لهم أذناب ، ثم أنشد :

قَوْمٌ هُمُ الأنفُ والأذنابُ غَيْرُهُمُ ومن يُسَوِّى بأنفِ الناقةِ الذّنَبا[3]

ومن حيث جاز الأذنابُ واستعارتُها جاز استعارةُ الذَّنَبَةِ والذُّنَابَةِ والذَّنائب والذَّنَبات ، ولا فَصْل . وقولُه « إذ جُهِد الفِضاح » معناهُ بُلِغ بالفضيحة جَهْدُهَا ولم يُرْضَ بالعَفْوِ منها . وفى الوقت الذى أشار إليه ، لا يَثْبُتُ إلّا من يَرْجِعُ إلى كَرَمٍ مُتَنَاهٍ ، وحِرْصٍ على المحافظة على الشّرفِ بالغٍ .

٧ — كَشَفَتْ لَهُمْ عَنْ سَاقِهَا وَبَدَا مِن الشَّرِّ الصُّرَاحُ

أخَذ يقتصُّ ما جَرَى عليهم . وقولُهُ « كَشَفَت لهم عن ساقِها » مَثَلٌ يُضرَبُ لشِدَّة الحرب ، وإنّما أهْلُها فى ذلك الوقت يكشفون عن الساق ، فجعل الفِعل

(١) هو حسان بن ثابت يهجو أبا سفيان بن الحارث . ديوانه ١٦٠ واللسان (نوط) .
(٢) الذنابة بضم الذال وتكسر أيضاً .
(٣) البيت للحطيئة . ديوانه ص ٦ .

لها ، والمُراد انكشفت الحرب لهم عن تَشَمُّرِ أهلِها واشتدادها . وقد قليل : الساق اسْمٌ للشدّة ، وفُسِّر عليه قولُه تعالى : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾ فقيل : المعنى يوم يكشَفُ عن شِدّة . وكذلك كشفت الحربُ عن ساقِها ، معناهُ أبْرَزَت عن شِدّتِها . وقولُه « وبدا من الشّرِّ الصُّرَاح » أى الخالص الذى لا يمتزج به خَيْرٌ ولا يُرْجَى بَعدهُ صَلاَحٌ . ويقال : صَرِيحٌ وصُرَاحٌ ، كما يقال طَوِيلٌ وطُوَالٌ ، وعريضٌ وعُراضٌ . ويقال : صَرَّحَتِ الخمرةُ ، إذا انكشفت عنها زُبدتُها .

٨ — فالهَمُّ بيضاتُ الخدو رِ هُنَـاكَ لا النَّعَمُ المُرَاحُ

أقْبَلَ يَصفُ ما امتُحِنوا به فى الحُرَمِ إذا تُرِكَ حَدِيثُ المَالِ والبَلاَءِ فى النُّفُوس . وقولُه « فالهَمُّ بيضاتُ الخُدُورِ » يجوز أن يُرَادَ به ما يُهْتَمُّ له فى ذلك الوَقْتِ : الحُرَمُ والنِّساء المُخَدَّرَاتُ اللاتى كأنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكنونٌ صيانةً وجَمالاً ، لا الإبلُ المُرَاحةُ من مَرَاعِيها . كأنه سَمَّى ما يُهتَمُّ له هَمّا . ويجوز أن يكون المعنى ما يُهَمُّ به : النِّساء لا الإبل . والمراد أنّهم كانوا يغتنمون سِبَاءَ النِّساء وإلحاقَ العارِ بسببهنّ ، لا اغتنام الأمْوَال . وتُشَبَّهُ المرأةُ بالبيض لتلألُئِها وزَوال الحُجوم عنها . وقال الخليل : بَيْضَةُ الخِدْرِ هى الجارية المُخَدَّرة الجميلة . وإنما قال المُرَاحُ لأنّ النَّعَم مُذَكَّرٌ . ويقال سَرَحْتُ الماشيةَ بالغَدَاةِ ، وأَرَحتُها بالعَشِيّة .

٩ — بِئْسَ الخَلاَئفُ بَعْدَنَا أوْلاد يَشْكُرَ واللِّقَاحُ

أولاد يَشْكُر ، هم من جملة من وضَعَتْهُ الحربُ . فيقول : إذا خَلَّفْنا من لا دِفاع به من الرِّجال والأموال ، فَبِئس الخلائف بعدنا . جعلَ أولاد يشكرَ كاللِّقاح — وهى الإبل بها لَبَنٌ — فى حاجتها إلى من يَذُبُّ عنها ، ويُحامِى عليها . ورواه بعضُهم : « واللقاح » بفتح اللام ، وهم بنو حنيفة ، وكانوا لا يَدِينُون للمُلوكِ . ويكونُ الكلامُ على هذا تَهَكُّمًا .

١٠ — مَنْ صَدَّ عَنْ نيرانِها ... فأنا ابنُ قَيْسٍ لا بَرَاحُ[1]

يقول : مَن أَحْجَمَ عن الحَرْبِ وكَرِهَ الاصطلاءَ بنارها والصَّبر على بلواها ، وعَجَزَ عن الثبات فى وجُوهِ أبنائها ، فأنا ابن قَيْسٍ لا بَرَاحَ لى فيها ولا انحراف . ومعنى « فأنا ابن قَيْسٍ » فأنا المشهور بأبيه ، المستَغْنِي عن تطويل نَسَبِه . فقولُه لا بَرَاح ، الوَجْهُ فيه النَّصْبُ ، ولكنَّ الضرورة دَعَتْه إلى رَفْعِها . وقال سيبويه : جَعَلَ لا كَلَيْسَ هاهنا فرفَعَ به النَّكِرة ، وجعل الخبر مُضْمَراً . ومثله :

* بِيَ الجَحِيمَ حِينَ لا مُسْتَصْرَخُ[2] *

كأنهما قالا : حين ليس عندى مُستصرَخٌ ولا بَرَاحٌ عندى فى الحَرْب .

---

(١) هذا آخر المقطوعة عند المرزوقى . وروى التبريزى بعده خمسة أبيات . وهى :

١٠ — صبراً بنى قيسٍ لها ... حتّى تُرِيحوا أو تُراحُوا

١١ — إنّ المُوَائلَ خوفَها ... يَعتاقُه الأجلُ المتاحُ

١٢ — هيهاتَ حالَ الموتُ دُو ... نَ الفَوتِ وانتُضِيَ السِّلاحُ

١٣ — كيفَ الحياةُ إذا خَلَت ... مِنّا الظواهرُ والبِطاحُ

١٤ — أينَ الأعِزَّة والأسِــنّةُ ... عند ذلك والسَّماحُ

وقال فى شرح البيت الأول : « أى اصبروا لهذه الحرب حتّى تقتلوا أعداءكم فتريحوهم من شدتها أو يقتلوكم فيريحوكم من ذلك » . وفى شرح الثانى : « الموائل : الذى يطلب الموئل . خوفها أى خوف الحرب . ونصب الخوف بالموائل . ويعتاقه ، أى يشغله الأجل عن النجاء فيقع فيما يكره منها . والمتاح : المقدر . وهو كما يقال : لا يغنى عما هو واقع التوقى » . وقال فى شرح الثالث : « أراد أن الموت قد حال دون أن يفوت الرجل فيذهب عن هذه الحروب منهزما . يريد أنه ليس إلا القتل أو الغلب » . وفى شرح الرابع : « الظواهر : أعالى الأودية والبطاح : بطونها . وهو من نوادر الجمع ، واحدها أبطح وبطحاء » .

(٢) للعجاج فى ديوانه ١٤ . وقبله ، وهو أول الأرجوزة :

* والله لولا أن تحش الطبخ *

وهذا يقِلُّ فى الشِّعر ولا يَكْثُر . وجعل غيرُهُ بَرَاحٌ مبتدأً والخبرَ مُضمَرًا ؛ وإنما يَحْسُنُ ذلك إذا تكرَّر ، كقول القائل : لا دِرْهَمٌ لى ولا دينارٌ ، ولا عَبْدٌ لى ولا أَمَةٌ . إلاَّ أنهُ جُوِّزَ للشاعر الرَّفْعُ فى النكِرَة بعد لا وإن لم يكرِّرْ ، لأنَّ أصْـلَ ما يُنْفَى بلا الرفع ، فكأنه من باب ردِّ الشىء إلى أصله . ويقال ما بَرِحْتُ من مكان كذا ، أى ما زُلْتُ بَرَاحًا وبرُوحًا . وما بَرِحْتُ أفعَلُ كذا بَرَاحًا ، أى أقمتَ على فِعلِهِ ، مثل ما زِلتُ أفعَله . والبَرَاحُ الأوَّلُ فى المكان ، والبَرَاحُ الثانى فى الزَّمان ، ولا بُدَّ له من خَبَر .

١٦٨

قال جَحْدَرٌ ، وهو رَبيعةُ بنُ ضُبَيعةَ[١] :

١ — قد يَتِمَتْ بِنْتِي وَآمَتْ كَنَّتِي

٢ — وشَعِثَت بَعْدَ ادِّهانٍ جُمَّتِي[٢]

٣ — رُدُّوا عَلَىَّ الخَيْلَ إنْ أَلَمَّتِ

٤ — إنْ لم أُناجِزْها فَجُزُّوا لِمَّتِي

٥ — قد عَلِمَتْ والِدَةٌ ما ضَمَّتِ

٦ — ما لَفَّفَتْ فى خِرَقٍ وَشَمَّتِ[٣]

٧ — إذا الـكُماةُ بالـكُماةِ الْتَفَّتِ[٤]

(١) جحدر ، قال ابن جنى فى المبهج : « هو الجعد القصير من الناس ، وهو صفة منقولة » . وجحدر هو ربيعة بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة بن ضبيعة ، كما ذكر التبريزى .

(٢) م : « بعد الدهان » . التبريزى : « بعد الرهان » وهذه الأخيرة محرفة .

(٣) قال التبريزى : « ويروى : ولففت » .

(٤) بعده عند التبريزى :

* أَمُخدِجٌ فى الحربِ أم أَتمتِ *

هذا توجعٌ وتحسُّرٌ. والمرادُ إنى قد استَقْتَلْتُ ، وكانت هذه الأمور من اليُتْمِ والأَيْمَةِ والتشعُّث قد اتفقتْ وَوَقعت . وإنما قال هذا لأنه كان قد سِيمَ في يوم تَحْلاَقِ اللِّمَمِ أن يَحْلِقَ الشَّعَر ، إذ كانوا جعلوا ذلك شعارًا لهم[1] ، وهذا اليومَ من أيام بَكْرٍ وتَغْلِب[2] . وكان جَحْدَرٌ هذا حَسَنَ اللِّمَّة غَزِلاً ، متبَجِّحًا بجماله وَوَفْرَتِه عند النِّساء ، فسأل — لكراهته ما سامُوهُ — الإعفاء منه ، منتظرين ما يكون من بلائه ، وتشهير نفسه بين الصَّفَّين بعلامةٍ تُمَيِّزه وآثار تُشرِّفه ، وحَمَلاَتٍ على الأعداء تدُلُّ على غنَائه ، ومقاماتٍ تَشهَدُ بوفائه ؛ فإنْ لم يَفِ بذلك حينئذٍ تُجَزُّ لِمَّتُه عُقوبةً وتنكيلاً ، ففي جَزِّ اللِّمَّة إذلالٌ ؛ ولذلك كان يُفعَل بالأسير عند المَنِّ عليه . ثمّ ذكَر ما نشأ عليه وتُفرِّسَ فيه[3] من وَقتِ الولادَةِ إلى الإيفَاع ، من الغَنَاء والكِفاية ، والذَّكاء والشَّهامة ، فقال : قد عَلِمَتْ والدتى أىَّ ولَدٍ تَضُمُّهُ إلى نَفْسها بى ، وأىَّ إنسانٍ تلفُّ فى القُمُطِ حين لَفَّتْنِى ، وأىَّ فارسٍ تَشَمُّهُ بشمِّى ، إذا تراكَمَتِ الاهوالُ ، وتداعت الأَبطال ، وضاقَ الكَرُّ والمَجَالُ ، وتلاحَقَتِ الرِّجالُ بالرِّجال ، فهذا سبب توطينه النفس على القَتل ، [ووجْه الشَّرْطِ فى مناجزة الخيل[4]] . وقوله « يَتِمَتْ » مصدرُهُ اليُتْمُ . قال الدُّرَيْدِىُّ : اليَتِيم الفَرْدُ ، لذلك سُمِّىَ الذى يموتُ أَحدُ والديه

---

(١) كانت بكر بن وائل — وهم قوم جحدر — قد حلقت رءوسها استبسالا للموت ، وجعلوا ذلك علامة بينهم وبين نسائهم . وكان الحارث بن عباد قد اقترح يوم تحلاق اللمم أن يشترك النساء فى هذه الحرب ، وأن تحمل كل امرأة إداوة من ماء تتقلدها ، وهراوة تمسكها ، فإذا مرت المرأة على صريع قد حلق رأسه عرفته فسقته من الماء ونعشته ، وإذا مرت على صريع لم يحلق رأسه ضربته بالهراوة فقتلته وأتت عليه . وكما حلقت بكر رءوسها قطعت ثمار سياطها — وهى عذباتها — وذلك رأفة بالخيل أن تعقر أو يؤثر بها أثر قبيح عند شدة القتال ، والذى أشار بذلك هو عامر بن تيم اللات بن ثعلبة ، فسمى لذلك « مقطع الجذم » .

(٢) م : « من وقعات بكر وتغلب » .

(٣) م : « وتقدس فيه » ، تحريف .

(٤) هذه التكملة من م .

يتيمًا ، كأنه أُفْرِدَ ، وقيل اليَتيم في الناسِ من الأبِ والأمِّ ، ومن البهائم من الأمِّ . وقولُه « آمَتْ » مَصْدَرُه الأَيْمَةُ والأُيُومُ . والأَيِّمُ : التي لا زَوْجَ لها . والكَنَّةُ ، قال الخليل : هي امرأةُ الأخِ أو الابن . ويَشْهَدُ لما قالَهُ قول الشاعر[1] :

هِيَ ما كَنَّتِي وتَزْ عُمُ أنِّي لها حَمُو[2]

ويَعْنِي جَحْدَرٌ بالكَنَّةِ امرأةَ نفسه ، كأنّه من حيث كانت كَنَّةَ قومِهِ أضافَها إلى نَفْسِه .

والشَّعَثُ والشُّعُوثة : اغبرارُ الشَّعَرِ وتلبُّدُه .

وقولُه « رُدُّوا عليَّ الخيْلَ » يريدُ اصرفوا وُجُوهَا إليَّ .

والمناجَزَةُ : المعاجَلةُ بالقِتال[3] ، ومنه إنجازُ الوَعْدِ ، ونَجَزَ الشيءُ .

وقوله « ما لَفَّفَتْ في خِرَقٍ » بَدَلٌ من قولِهِ ما ضَمَّتْ ، والتكرار على هذا الوجه تفخيمٌ للقِصَّة .

---

(١) هو عقيل ثقيف ، كما في اللسان (حما) .

(٢) من مجزو الخفيف . وقبله في اللسان وشرح التبريزي :

أيها الركب سلموا واربعوا كي تكلموا
وتقضــوا لبــانة وتحيــوا وتغنموا
خرجت مزنة من الـ ـبحــر ريا تجمجم

وقد روى التبريزي قصة لهذا الشعر استمان فيها الحارث بن كلدة طبيب العرب بوسائل العلاج النفسي .

(٣) كذا في النسختين . والوجه : « المعاجلة » . وفي اللسان : « وتناجز القوم : تسافكوا دماءهم ، كأنهم أسرعوا في ذلك » .

١٦٩

وقال شَمّاسُ بن أَسْوَدَ(١) :

١ ـ أغَرَّكَ يومًا أن يُقالَ ابن دَارِمٍ ... ونُقْعَى كما يُقْعَى من البَرْكِ أجْرَبُ

لَفْظُهُ لفظ الاستفهام ، والمعنى معنى التوبيخ والتقريع . ويقالُ غَرَّهُ ، إذا غَشَّهُ وخَتَرَهُ(٢) بما يَجِبُ السكونُ إليه والإيمان به . ويقال : ما غَرَّكَ مِنِّى ، أىْ لِمَ وثِقْتَ بى ؟ وما غرَّكَ بى ، أى لم اجترَأْتَ علىّ ؟ وماغرَّكَ عنِّى ، أى لم غَفَلْتَ عنى ؟ فيقول : اغتَرَرْتَ بقوْلِ الناس فِيكَ هو ابنُ دارِمٍ وإن أُخِّرَ مَنزِلَتُكَ ، وأقْصيتَ فى نفْسِك كما يُقْعَى البَعير الجَرِبُ من البَرْكِ مَخافةَ الإعداء ، وكان حُكْمُ مِثْلِكَ ألاّ يُقْنِعَه نَخامةُ الذِّكْرِ مع سقوط القَدْر ، ولا يَسْكُن من الناس إلى تسميتهم إياهُ بأحَبِّ أسمائه إليه وهذا فِعْلُهم به . قولُه « ابنُ دارِمٍ » يجوز أن يكون مبتدأ وخَبَرُهُ محذوفٌ ، وأن يكون خبرًا والمبتدأ محذوف ، والمُضْمَر فى الوجهين أنتَ أو هو . ويقال بَعِيرٌ جَرِبٌ وأَجْرَبُ ، والبَرْكُ : جمع بارِكٍ ، كتاجِرٍ وتَجْرٍ .

٢ ـ قَضَى فيكُم نَوْسٌ بما الحَقُّ غيرُهُ ... كذلكَ يَخْزُوكَ العزيزُ المُدَرَّبُ(٣)

---

(١) التبريزى : « شماس من الفرس الشموس ، وإنما يريدون أنه أبى عزيز . وهذا أشبه من اليوم الشامس ، وإن كان ذلك جائزاً » . وقد نسبه التبريزى فقال : « شماس بن أسود الطهوى » . وذكر أنه يقول الشعر لحرى بن ضمرة بن ضمرة بن جابر بن قطن بن نهشل بن دارم . وكان قيس بن حسان بن عمرو بن مرثد قد أخذ بكرا من إبل عمرو بن عمران ، جار حرى بن ضمرة ، فانتقم له حرى بأن أخذ من إبل قيس بن حسان ثلاثين بعيرا ، فانطلق قيس إلى أخواله بنى مجاشع يستعديهم ، فمشوا إلى بنى نهشل وطلبوا أن يرد إليه جرى الإبل ، فلم يقبل ، فطلبوا منهم خلعه فخلعوه ، وأخذه بنو مجاشع فضربوه وأخذوا منه أكثر مما أخذه .

(٢) خترة : غشه وخدعه . وفى م : « خبره » .

(٣) التبريزى : « قيس » بدل « نوس » ، وقال : « روى أبو هلال : قضى فيكم نوس » .

نَوْسُ هذا المذكور كان له جارٌ ، واهتَضَمَهُ ابن دارمٍ واستاقَ مالَهُ ، فلما جاء الصريخُ نَوْسًا ذهَبَ فى أثَرِ ابن دارمٍ وارتجَع مالَ جارِهِ منه ، وسَلَبُهُ ما صَحِبَه من مالِ نفسِهِ ، وأبانَ يَدَهُ منه بضَرْبةٍ تناوَلَهُ بها ، فلهذا قال : حَكَمَ فيكم نَوْسٌ عند الانتقام لجارِهِ منكم بحكومةٍ جائرة خارجةٍ عن الاقتصاد إلى الاشتطاط . ثم قال « كذلك يَخْزُوك » أى يَسُوسُكَ الرجُلُ الجَلْدُ العزيزُ المجَرَّبُ . وهذا الكلام ، أعْنِى كذلك يَخْزُوك ، يَجْرِى مَجْرَى الالتفات ، كأنّهُ التفتَ إلى غيرِهم نخاطَبَهم مُبَكِّتًا لهم ومُقَرِّعًا بذلك . ولا يمتنع أن يكون صَرَفَ الكلام عن خِطاب الجماعة وأقبَلَ يخاطِبُ الواحد . ويقال خَزَاهُ يَخْزُوهُ ، إذا كَفَّهُ عن المكروه وحَبَسهُ على مُرِّ المُرَادِ . قال لبيد :

* واُخْزُها بالبِرِّ للهِ الأجَلّْ[1] *

٣ ــ فأَدِّ إلى قَيْسِ بن حَسَّانَ ذَوْدَهُ وما نِيلَ مِنْكَ التَّمْرُ أوْ هُوَ أَطْيَبُ

يُخَاطِبُ ابن دَارِمٍ متوعِّدًا ومُعَيِّرًا ، ويقول : اخْرُجْ مما فى ذِمَّتِك من ذَوْدِ قيس بن حَسَّان إليه ، وحَالُكَ إذا رُمْتَ ظُلْمَ غيرِكَ أنَّ ما يُنالُ مِنْكَ كالتَّمرِ فى الحَلاوَةِ أو أَطْيَبُ . والمعنى : إنَّ تعَرُّضَكَ لأخْذِ مالِ قريبٍ منك أو بعيدٍ عنكَ ، معَ ضَعْفِ المُنَّةِ فى سُقُوط العزّةِ[2] ، لا يُجْدِى عليك نَفْعًا ، ولا يَسُوقُ إليك غُنْمًا ، فازْهَدْ فيما عِنْدكَ له ، ورُدَّهُ قبْلَ أنْ تَستَوْبِلَ عاقِبَتَهُ ، وتَستَوخِمَ مَغَبَّتَهُ . والوَاوُ من قَوْلِهِ « وما نِيلَ » ، واو الحالِ ، كأنّه قال أدِّهِ وأنتَ إذا أُكِلْتَ مُسْتَطَابٌ . وقَوْلُهُ « أوهو أطيب » أى أَطْيَبُ من التَّمْر .

(١) صدره فى ديوان لبيد ١٢ طبع ١٨٨١ والمقاييس واللسان (خزا) :
* غير أن لا تكذبنها فى التقى *

(٢) م : « وسقوط العزة » .

والحَذْفُ من الخَبَر جائِزٌ ، وقد مَضَى مِثْلُهُ . وأَوْ هى أوِ الإباحَة ، وقد نُقِل إلى الخبَر .

٤ــ فإلّا تَصِلْ رِحْمَ ابنِ عَمْرِو بنِ مَرْثَدٍ ... يُعَلِّمْكَ وَصْلَ الرِّحْمِ عَضْبٌ مُجَرِّبُ

يقول : إنْ لم تَصِلْ رَحِمكَ مُخْتارًا لَهُ ، ومُعَفِّيًا أثَرَ المُعقوق به ، ومُزِيلًا عن نفسك سِمَةَ الجاهل الذى يَدْخُل فيما لا يُمْكِنُهُ الخروج منه ، والآكِلِ ما لا يَقدِرُ على استمرائه ، عَلَّمَكَ صِلةَ الرَّحِمِ والخروجَ من العُقُوق ، سَيْفٌ قاطِعٌ لا يُبْقِى عليك ولا يَألُو تأديبك . وفى طريقته السائرة قولُهم : « الطَّعْنُ يَظْأَرُ[1] » ، ومن الشِّعرِ قَوْلُ زُهَيْرٍ :

ومن يَعْصِ أطْرَافَ الزِّجَاجِ فإنّه ... مُطِيعُ العَوَالِى رُكِّبَتْ كُلَّ لَهْذَمِ

١٧٠

وقال حُجْرُ بْنُ خَالد[2] :

١ــ وَجَدْنَا أَبَانَا حَلَّ فى المَجْدِ بَيْتَهُ ... وأَعْيَا رِجالاً آخَرِينَ مَطَالِعُهْ

قَوْلُه « حَلَّ فى المَجْدِ بَيْتَه » فى موضع المفعول الثانى لوجَدَ ، لأنّه بمعنى عَلِمَ . والبيت لا يَحُلُّ ولكن يُحَلُّ فيه ، لكنّهُ رَمَى بالكلام على السَّعَة والمجاز ، لأنَّ المعنى لا يَختَلُّ . ويقولون : فُلانٌ عَالِى المكان ، لأنّه إذا عَلاَ مكانُه فقد عَلاَ هو . وقال الآخر :

* وحَلَّتْ بُيُوتى فى يَفاعٍ مُمَنَّعٍ *

فيقول : عَلِمْنَا بالاختبار[3] فى طِلاَبِ العُلُوّ ، والاجتهاد فى مَنَالِ أقْصَى

(١) أى يعطف على الصلح . ويروى : « الطعن يظئره » . انظر مقاييس اللغة (ظأر) .
(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ١١٨ من القسم الأول .
(٣) كذا فى م . وفى الأصل : « بالاختيار » .

السُّمُوّ ، تَمَكَّنَ بَيْتُ أبينا من ذِرْوَةِ المجد والشَّرَفِ ، فَمَحَلُّه فائتٌ لا يُلْحَقُ ، ومَطْلَعُهُ مُعْجِزٌ لا يُمكِن ، إذْ كان مَدَاهُ الغايَةَ التى ليس وراءها مُسْتَشْرَفٌ لناظِرٍ ، ولا مَنَالٌ للاحِق .

٢ — فَمَنْ يَسْعَ مِنّا لا يَنَلْ مِثْلَ سَعْيِهِ ولكن مَتَى ما يَرْتَحِلْ فهو تابِعُهْ

يَقُولُ : من طَلَبَ نَيْلَ مَكَانِهِ ، أو الارتقاء إلى درجتِهِ ، بسَعْيٍ يَتَكَلَّفُهُ ويَجْهَدُ فيه نَفْسَهُ ، وقَفَ دُونَهُ وقَعَدَ به طَوْقُهُ ، وكان أقصَى غايَتِهِ بعد استفراغ مجهودِهِ ، أن يكون تابعاً له ، وواطِئاً عَقِبَه ؛ فأمّا مُسَامَاتُه(١) فى مَدَارِجِه ، أو مُسامَتَتُه فى مَطَالِعِهِ ، فلا سبيل إليه ، ولا مَطْمَع فيه .

وقد سَلَكَ الأعْشَى هذا المَسْلَكَ فقال :

* كُلٌّ سَيَرْضَى بأنْ يُلْقَى له تَبَعَا(٢) *

وذِكر الارتحالِ حَسَنٌ فى الاستعلاء(٣) مع ذِكر السَّعْى . وقد قيل : « لولا السَّعْىُ لم تكن المَسَاعِى » .

٣ — يَسُودُ ثِنَانا مَنْ سِوَانا وبَدْؤُنَا يَسُودُ مَعَدًّا كُلَّهَا ما تُدَافِعُه(٤)

الثِّنَى : مَنْ دون الرئيس ، لكنه يَلِيهِ فى الرُّتْبَة . والبَدْء : السَّيِّدُ غَيْرُ مُدَافَعٍ عن أوّليّة سيادتِهِ ، فكأنّ المراد بهما الأوّل فى الرِّياسة والثانى . وأصلُه من

(١) م : « مساواته » .
(٢) صدره فى الديوان ٨٦ : * تلقى له سادة الأقوام تابعة *
(٣) م : « الاستعارة » . ولكل وجه .
(٤) يروون أن حجر بن خالد لما أنشد هذا البيت رفع عمرو بن كلثوم التغلبى يده فلطمه فى حضرة الملك ، فغضب الملك وقام ابن كلثوم ، فلما كان الليل دخل حجر على عمرو قبّته فلطمه فنادى : ياالتغلب ! فامتلأت الأرض خيلا ، ثم نادى مناد من فوق قصر الملك : يا حجر بن خالد ، إنى لك جار ! فتصدعت خيل التغالبة . وأنشأ حجر مديحا فى الملك ، رواه التبريزى والجاحظ فى الحيوان (٣ : ٥٩) ، أوله :

سمعت بفعل الفاعلين فلم أجد * كفعل أبى قابوس حزما ونائلا

ثَنَيْتُ الشَّيْء . وفى حديث النبيّ صلّى الله عليه وسلم : « لا ثِنَى فى الصَّدَقة » . والمَعْنَى أنَّها لا تؤخَذُ فى السنة مرتَيْنِ . ويُقالُ ثَنَيْتُ الشَّيء ثَنْياً ، ثم يُسَمَّى المَثْنِيُّ ثِنْياً وما ثُنِيَ به هو أيضًا ثِنْياً . وعلى هذا الضِّعْفُ ، يُقالُ ضَعَفْتُ الشيء مُخَفَّفًا فى معنى ضاعَفْتُ ضَعْفاً ، ثم يُسَمَّى المَضْعُوف ضِعْفاً بالكسر ، والمَضْعُوف به ضِعْفاً أيضًا . قال لبيد :

* وَعَالَيْنَ مَضْعُوفاً وفَرْداً سُمُوطُهُ[1] *

والبَدْء : العَظْم المنفصل مما عليه من اللَّحْمِ ، كأنَّه من هذا . قال :

* أَغْلَتِ الشَّتْوَةُ أَبْدَاءَ الجُزُرْ[2] *

ومعنى البيت : المغمور فينا إذا حَصَلَ فى غيرنا سادَهُم وعَلاَهُم ، والرئيس منَّا تُسَلَّمُ له الرِّياسة على قبائلِ مَعَدٍّ كُلِّها ، غيرَ مُعارَضٍ فيها ، ولا مُدافَعٍ [عنها[3]] .

٤ — ونَحْنُ الذين لا يُرَوَّعُ جارُنا وبَعْضُهُمُ للغَدْرِ صُمٌّ مَسامِعُهْ

يَصِف عزَّهم ومنْعتَهم ، وعَهْدَهم ووفاءهم ، وأنَّ المُجاوِرَ لهم ، والمعتَصِم بحَبْلِهم ، يَبْقَى آمِناً معهُم غيرَ مذعورٍ ، وموفورًا غيرَ مسلوبٍ . ثم قال مُعَرِّضًا بغيره : وبَعضُ الناس لما يَستَعْمِلُه من الغَدرِ ، ويشتَهِرُ به من تضييع الذِّمار ، ولكونه مُنطوِيًا فيما يأتيه على الإصرارِ ، يُصِمُّ مَسامِعَهُ عن ذِكر العار ، فلا يُبالى بذَمِّ الناسِ له ، ولا يَأْنَفُ من تهجينهم أفعالَهُ . وفى طريقته قول الآخر[4] :

(١) عجزه : * بِجُمان ومرجان يشك المفاصلا *

(٢) لطرفة فى ديوانه ٧٣ واللسان (يسر ، بدأ) . وصدره :
* وهم أيسار لقمان إذا *

(٣) هذه من م .

(٤) أنشد الجاحظ فى البيان (٣ : ٣٣٣) البيتين التاليين مع ثالث بعدهما ، وروى عن أبى عبيدة أنها من الشوارد التى لا أرباب لها . وانظر عيون الأخبار (٢ : ٢٩) وديوان المعانى (١ : ١٨٢) وأمالى القالى (٣ : ٨٣) وخزانة الأدب (٣ : ٦٦٠) والصناعتين ١٠٣ ومحاضرات الراغب (١ : ١٥٠) .

إنْ يَجْبُنُوا أوْ يَغْدِرُوا أوْ يَبْخَلوا لا يَحْفِلوا

يَغْدُوا عليك مُرَجَّلِينَ كأنَّهُمْ لم يَفْعَلوا[1]

وكان وجه الكلام أن يقول لا يُرَوَّعُ جارُهم، حتى يرجعَ من الصِّلَةِ إلى الموصول الذِّكْرُ؛ لكنهُ لما كان المقصودُ بقوله نحنُ والذين شيئاً واحداً لم يُبالِ برُجوع الضمير إلى كلٍّ واحدٍ منهما. وقد مَضَى مِثلُه

٥ — نُدَهْدِقُ بَضْعَ اللَّحْمِ لِلْباعِ والنَّدَى وبَعْضُهُمُ تَغْلِي بذَمٍّ مَنَاقِعُه[2]

الدَّهْدَقَةُ: الصَّوْتُ[3]. والبَضْعُ: القَطْعُ. أى نتولَّى ذلك كَرَمًا مِنَّا على اعتِسافٍ وسوء تَأَتٍّ: ويجوز أن يكون البَضْعُ جمعَ بَضْعَةٍ[4] فيكون المعنى: إنَّا نُقَلِّبُها فى القُدُور، فلِعِظَمِها يُسْمَعُ لها فى التقلُّبِ صوتٌ. والمَناقِع: جمع المِنْقَعِ والمِنْقَعَةِ، وهى القُدُور الصِّغار، وقيل هى الأتوار[5] الصغيرة. وقيل المَناقِعُ واحِدُها، وأصلُه ما يُنْقَعُ فيه الشيء، فاستعارَه للقُدُورِ. فأمّا قولُهم مُنْقَعُ البُرَمُ فقد قيل فيه ما ذَكَرْنا وغيرُهُ. وقد رُوِيَ مِنْقَعُ البِرَمِ، بكسر الميم، وفُسِّرَ على وعاء القِدْرِ[6] وذِكْرُ الباعِ مَثَلٌ، والمراد الكَرَمُ. فعلى الطريقة الأولى يكون معنى البيت: يُسْمَعُ لِقَطْعِ اللِّحَام بأيدينا دَهْدَقةٌ، لِقِلَّة رِفْقِنا فيه وسوء حِذْقِنا به، كما قال الآخر[7]:

(١) بعده: كأبى براقش كل يو م لونه يتخيل

(٢) التبريزى: «ومن روى: الباغ، بالغين منقوطة أراد الباغى، فحذف الياء».

(٣) التبريزى: «ندهدق: نغلى. والدهدقة: الصوت».

(٤) البضعة بالفتح، قال فى اللسان: «وأخواتها بالكسر مثل القطامة، والفلذة، والفدرة، والكسفة، والخرقة، وغير ذلك مما لا يحصى».

(٥) التور بفتح التاء: إناء من صفر أو حجارة كالإجانة.

(٦) هذا ما فى م. وفى الأصل: «دعاء القدر».

(٧) هو شقران مولى سلامان. انظر الحماسية ٦٩٨ وشروح سقط الزند ٥٩١. وعند الجاحظ فى البيان (٣: ٣٠٩) أنه ثروان مولى بنى عذرة.

جُفاةُ المَحَزِّ لا يُصيبون مَفْصِلاً ولا يَأْكُلُونَ اللَّحْمَ إلاَّ تَخَذُّمَا[١]

على الطريقة الثانية يكون المعنى : تَغْلِى قُدُورُنا بِقَدَرِ اللَّحم ، فإذا قلَّبناها فيها إقامَةً لخدمة الضَّيْفِ ، واكتِساباً للحَمْد ، ورَغْبَةً فى ابتناء المَجْدِ ، تقَلَّبَتْ ولها صَوْتٌ ، لِعِظَمها واتِّساع قدورها[٢] . وبعضُ الناس — وهذا تعريضٌ بالغَيْرِ — تَغْلِى قدورُه التى كأنَّها مناقِعُ فى الصِّغَرِ بذمٍّ الناسِ له . فقولُه «بذمٍّ» فى موضِع الحالِ ، تقديره : تَغْلِى مذمومةً .

٦ — ويَحْلُبُ ضِرْسُ الضَّيْفِ فينا إذا شَتَا سَدِيفَ السَّنَامِ تَشْتَرِيهِ أصابِعُهْ

يُرْوَى «ضِرْسُ الضَّيْفِ» بالرفع على أن يكون فاعلاً ، وسديفَ بالنَّصْبِ على أن يكون مفعولاً ، وهو الجَيِّدُ . وبعضهم يَنْصِبُ الضِّرْسَ ويرفعُ سَدِيفَ السَّنَامِ ، والمعنى لا يَلْتَبِس فى الوجْهَيْن . يقول : وإذا اشتدَّ الزَّمان ، وأَسْنَتَ الناسُ ، فإنَّ الضيفَ فينا يأكلُ سَدِيفَ السَّنام ، من الإبِلِ السِّمان ، على ما تختاره أصابِعُهُ فى الجِفَانِ . والسَّدِيفُ : قِطَعُ السَّنَامِ . وقيل هو شَحْمُ السَّنَامِ . ومعنى إذا شَتَا ، إذا أَمْحَل . وذِكْرُ الحَلَبِ كنايةٌ عن الأَكْلِ . والمعنى : إنَّا لا نَرْضَى بنَحْرِ الكسيرات المهزولات ، بل نَعْتَبِط خِيارَ الإبلِ وكرائمها عند حُلول الضِّيفان . وتَشْتَرِيهِ : تختارُه ، يقالُ استَشْرَيت[٣] الشىء أيضاً . والشَّرِىُّ : الخِيَارُ من كلِّ شىء . وموضِعُ تَشْتَرِيه نَصْبٌ على الحال

(١) التخذم : قطع اللحم بالسكين . فى الأصل : « تجذما » وفى م : « تخدما » كلاهما محرف عما أثبتنا . يقول : هم سادة نشئوا على السيادة ، وعودوا أن يكونوا مخدومين لا خادمين ، فليس لهم بصر بجزر الإبل وتفصيل أعضائها . والعرب تعد الجهل بجزر الإبل مدحا والمعرفة به ذما . انظر شروح سقط الزند .

(٢) م : « قدورنا » . والمؤدى واحد .

(٣) فى الأصل : « استريت » ، والوجه ، ما أثبتنا من م .

للسَّديفِ ، والعاملُ فيه يَحْلُبُ ، كأنه قال تَحْلُبُهُ الضِّرْسُ[1] مختارًا بالأصابع .

٧ — مَنَعْنَا حِمَانا واستباحَتْ رِمَاحُنَا حِمَى كلِّ قَوْمٍ مُسْتَجِيرٍ مَرَاتِعُهْ[2]

يقول : إذا أَحْمَيْنَا[3] مكانًا ذَبَبْنَا أعداءنا عنه ، ولا يَجْسُرُ أحدٌ منهم على دخولِه ، ومتى شئنا استبحنا أَحْمِيَةَ الناس لعِزِّنا وفَضْلِ قُوَّتِنا ، ولاستسلام القبائل لنا ، وإن كانت الأحميةُ مستجيرةَ المراتع . وقولُه « مُسْتَجِيرٍ مَرَاتِعُهْ » الهاء يرجع إلى حِمَى كل قَوْمٍ ، والمعنى الحِمَى الذى قد استجار مراتعُه بالمتنِع القويّ ، وتعزَّزَ بالظَّهْرِ الظَّهِير . وهذا إشارةٌ إلى إيلاف الجِوَار ، كأنها تجْمَعُ بين جِوَارَيْن فى حَيِّها وحَيِّ غيرها ، تَستظهرُ بأحَدِهما على الآخَر . وجَعَل الفِعْل للمراتع مجازاً ، أى تَسْتَبيحُ الحِمَى الذى هذا صِفَتُه . ويجوز أن يكون أراد الحِمَى الذى قد أدخَلَ على قَوْمِه[4] الضعفاء من الأجانب فى الجِوَار . ويقالُ : استجار ، إذا تَضَمَّنَ الإجارَةَ وطَلَبَ من غيره المجاورة ، واستجار أيضاً إذا طَلَبَ أن يُدْخَل فى الجِوَار ويُحامَى عليه . ويقالُ استَجَرْتُ فُلانًا وبفلانٍ ، والمفعول محذوف .

---

(١) الضرس مذكر ، ويؤنث كما ورد هنا . وأنكر الأصمعى تأنيثه ، وقال فى قول دكين : * ففقئت عين وطنت ضرس *

« إنما هو : وطن الضرس ، فلم يفهه الذى سمعه » .

(٢) أشار التبريزى إلى رواية « مستحير » بالحاء المهملة ، قال : وكأنه يريد التفاف العشب من الكثرة وفرط الحماية له » .

(٣) كذا فى الأصل . وفى م : « حمينا » ، وهما لغتان . وفى إصلاح المنطق ٢٥٣ : « حميت المكان وأحميته : جعلته حمى لا يقرب ومنعت الناس منه » .

(٤) فى النسختين « عن قومه » .

١٧١

وقال أيضاً :

١ — لَعَمْرُكَ ما أَلِيَّاءُ بنُ عَمْرٍو بذى لَوْنَيْنِ مُخْتَلِفِ الفَعَالِ[1]

وصَفَهُ بأنه ثابتُ القَدَمِ بحُسْنِ الوفاء ، محافِظٌ على الذِّمار ، باقٍ على طريقةٍ واحدةٍ فى الشِّدَّة واللِّيان . فيقول : وبقائك ما هُوَ بذى لَوْنَيْن[2] يخالفُ باطِنُه ظاهِرَه ، ولا يوافِقُ مَقالُهُ فَعالَهُ ، يتنقَّل فى الأهواء ، ويتلوّن تلوُّن الأوقات ، فهو على أن يُجيبَ كلَّ ناعِقٍ ، ويَتَّبِعَ كلَّ قائدٍ وسائقٍ ، إنْ ضَمِنَ لم يَفِ ، وإن وَعَدَ لم يُنْجِز .

٢ — غَداةَ أَتاهُ جَبَّارٌ بإدٍّ مُعَضِّلَةٍ وحَادَ عن القِتالِ[3]

جَبَّارٌ : رجل . والإدّ : المُنْكَر من الأمْر الشديدُ . وفى القرآن : ﴿ لقد جِئْتُمْ شيئاً إدًّا ﴾ . وقد أُفرِدَ هاهنا عن موصوفِهِ فأُجْرِىَ مَجْرَى أسماء الدَّوَاهِى . والمُعَضِّلَةُ : الداهيةُ العَسِرَةُ الضَّيِّقَةُ . ومنه قولُهُمْ : هو عُضْلَةٌ من العُضَل ، وداء عُضَالٌ : الذى غَلَبَ وأَعْيَا . وقوله « غداةَ أتاهُ » ظَرْفٌ للفِعْلِ الذى دَلَّ عليه قولُه «بذى لونين مختلِف الفَعَال» ، كأنه جَلَبَ عليه هذا الرَّجُلُ أمراً مُنْكَرًا ، ضيِّقاً عَسِرًا ، ثم خَلَّاه يَصْلَى بنارِه ويقاسى مَكْرُوهه ، ويماصِعُ خُصَماءَهُ فيه ويجاذبهم ، وهَرَبَ هو .

---

(١) وكذا رواية ابن جنى . وانفرد التبريزى برواية : « أَلياء بن عبد » .

(٢) م : بذى وجهين » .

(٣) التبريزى « ويروى : غداة أتاه جَبَّارٌ بعبدٍ مُغَفِّلَهُ . ومعناه أن جباراً جاءه بعبد مغفله ، كأنه يستغفله ، وحاد هو عن القتال لقتله ألياء . ويروى جَبّار بن عَبدٍ مغفَّلَه . كأنه استغفله لما أتى جبار ألياء » .

٣ــ فَفَضَّ مَجَامِعَ الكَتِفَيْنِ مِنْهُ بأبْيَضَ ما يُغَبُّ عن الصِّقَالِ

الفَضُّ : الكَسْرُ والتَّفريق ، ويقال انفضّ القَوْمُ ، إذا تفرّقوا . يقول : فَصَلَ مَجْمَعَ كتِفَيه بضربةٍ من سَيْفٍ يُحَادَثُ بالصَّقْلِ ، ولا يتغافَلُ عَنْهُ . والإغبابُ : أن تَرِدَ الإبلُ الماء غِبًّا . ويقالُ أغَبَّ القَوْم ، إذا صارت إبلهم كذلك . وليس يريدُ بِنَفْي الإغْبَاب أن يَدُلَّ على صَقْلِ السَّيْفِ كلَّ يَوْم ؛ ولكنَّ المُرَاد أنه لا يُهْمَلُ صقلُهُ زَماناً ممتداً ؛ إذ كان صاحِبُهُ يستعمِلُه كل يوم . وعلى هذا ذِكْرُ الغِبِّ فى المَثَل السائر : « زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا » .

٤ ــ فَلَوْ أنَّا شَهِدْنَاكُمْ نَصَرْنَا بذى لَجَبٍ أزَبَّ من العَوَالِى

يقول : لو حَضَرْنا كم لنَصَرْناكم وجاهَدْنا معكم بجَيْشٍ لَهُ جَلَبَةٌ وصوتٌ ، أزبّ لكثرة الرِّماح فيه . أى تُشْبه كثرةُ الرماح فيه والتفافُها كثْرَةَ شعر الأزَبِّ . وهذا على طريق الاستعارة ، لأنَّ أَصْلَ الزَّبَب فى الشَّعر . وفى المَثَل : « كلُّ أزَبَّ نَفُورٌ » ، يعنى البعير الكثير الشَّعر على الوجه والعُثْنُون ، لأن ما حَوَالَىْ عَيْنَيْهِ من الشعر يُخَيِّلُ إليه المَناظِرَ على خلاف ما تكون عليه فينفِر . والعوالى : جمع عالية ، ويُرَاد بها جِنْسٌ من الرماح .

٥ ــ وَلَكِنَّا نأيْنَا واكْتَفَيْتُمْ ولا يَنْأَى الحَفِىُّ عن السُّؤَالِ

يُرْوَى « واكْتَفَيْنَا » . يقول : بَعُدْنَا عنكم فاستقللتُم بأنفسكم واستغنيتم عَمَّنْ يعاضِدُكم فى كلِّ ما يدهَمُكم ، فلم تدعُكم حاجَة إلى مجاورتنا ، ولا ألجأتكم الضَّرورة إلى التكَثُّر بنا . والرَّجُل اللطيف البارُّ بصاحِبِهِ لا يَبْعُدُ عن تَنَسُّم الأخبار واستنشائها لمن يُهِمُّهُ أمْرُهُ ، وإن بَعُدَ بنَفْسِهِ ومكانه . ومن رَوَى « واكْتَفَيْنَا » كان المعنى اكْتَفَيْنَا فى البُعْدِ عَنكُم فلم نَحْتَجْ إليكم . والقَصْدُ

فى الرِّوايتين أنه لم يَكُنْ بإحدى الجنبتين افتقارٌ إلى الأخرى ، فصار ذلك سَبَبًا فى التنائى ، وعُذْرًا بيِّنًا[1] فى التَّأَخُّرِ عن المعاوَنَةِ والمكانَفَةِ . ودَلَّ بقوله : « ولا يَنأى الحَفِيُّ » على أنَّ القُلُوبَ فى التَّعَطُّفِ والخُلوص ، على ما يُوجِبه الوِدَادُ ولم يغيِّرْهَا البعاد . ويقال فلانٌ حَفِيٌّ بفلان ظاهِرُ الحِفْوَةِ ، أى البِرّ .

١٧٢

وَقالَ حَسَّانُ بن عُلْبَةَ[2] :

١ ـ إذَا كُنْتَ مِنْ سَعْدٍ وأمُّكَ مِنْهُمُ غَرِيبًا فلا يَغْرُرْكَ خَالُكَ من سَعْدِ

يقول : إذا كنتَ بعيداً عن وطَنِك وذَويك من قِبَل أبيكَ ، وحاصِلاً فى بنى خالِك ، ضَارِبًا فيهم بسهمِ الخُؤُولةِ ، لـكَوْنِ أمِّك منهم ، فلا تَغْتَرَّ بهم ، ولا تَعتمد على قرابتك فيهم ، فإنَّ التشابُكَ الموثوقَ به المُسْتَصْلَحَ لإعْدَادِه ، إذا كان الالتحام بالأُبُوَّةِ لا بالأُمُومَةِ . فأما الخؤولة فمُشَابِهَةٌ للغُرْبَةِ ، بعيدةٌ من القُرْبَى والقُرْبةِ ، والمكانَفةِ والنُّصْرَةِ . وهذا المعنى قد كَشَفَهُ غيرُهُ فقال :

بَنُونَا بَنُو أبنائِنَا وبَنَاتُنَا بَنُوهُنَّ أبناءُ الرِّجالِ الأباعِدِ[3]

---

(١) فى الأصل وم والتيمورية : « بيننا » .

(٢) كذا فى النسختين . وعند التبريزى وابن جنى فى كتابيه : « غسان بن وعلة » . وقال التبريزى فيه : « أحد بنى مرة بن عباد » وفى محاضرات الراغب (١ : ١٧٧) : « حسان بن وعلة » . ونسب الجاحظ الشعر فى الحيوان (٣ : ١٣٧) إلى النمر بن تولب . قال ابن جنى : « غسان : علم مرتجل . ويجوز أن يكون من أحد شيئين إما من قولهم فلان غس ، أى ضعيف . . . فإن كان من الغس فهو فعلان ، وإن كان من الغسن وهو خصل العرف فهو فعال . وينبغى أن يكون فعلانا لامتناعهم من صرفه » .

(٣) قال العينى : « هذا البيت استشهد به النحاة على جواز تقديم الخبر ، والفرضيون على دخول أبناء الأبناء فى الميراث ، والفقهاء كذلك فى الوصية ، وأهل المعانى والبيان فى التشبيه . ولم أر أحدا منهم عزاه إلى قائلة » . وفى الخزانة (١ : ٢١٣ ـ ٢١٤) أن قائله الفرزدق .

قَوْلُهُ « فى سَعْدٍ » يجوز أن يكونَ خَبَراً ، ويُجْعَلَ غريبا مُنْتَصِباً على الحالِ ، ويكونُ العامِلُ فيه كُنْتُ ، أو العامِلَ فى الظّرف . ويجوز أن يُجعل فى سَعْدٍ لَغْواً ، ويُجْعَلَ غريبا خَبَر كان . وقولُه « فلا يَغْرُرْكَ » جَعَل النَّهْىَ فى اللفظ للخال ، والمعنى لا تَغتَرَّ بخالك من سَعْدٍ ، لأنَّ المَنهِىَّ هو المُخاطَب . ومِثْل هذا قولهم : لا أرَيَنَّك هاهنا . وقول الآخَر[1] :

* إنَّ الرِّيَاضَةَ لا تُنْصِبْكَ للشِّيبِ[2] *

٢ــ فإنّ ابْنَ أُخْتِ القَوْمِ مُصْغًى إناؤُهُ   إذَا لم يُزَاحِمْ خَالَهُ بأبٍ جَــلْدِ

يقول : ابن أخت القوم منحوس الحظّ ، منقوص الشِّرْب ، مُمَال الإناء والحوْضِ مَتَى لم تنجدْه أُبُوَّةٌ يَشْتَدُّ بها أمومته ، وعُمومَةٌ يَتأَيَّدُ بها خؤولَتُه[3] . وهذه الأمثال مضروبةٌ للهضيمة تَلْحَقُ فلا يتحرّكُ لدَفْعِهَا الأخوال وإن كان بين ظهرانَيْهم ، ولأنَّ الحَمِيَّةَ إنما يَبعثُها تَراقدُ بنى الأعمام ، أو المنتسبين إلى الآباء ، وَجَواب إذا لم يُزاحِم مُقَدَّمٌ ، وهو ظَرْفٌ لإصغَاءِ الإناء . واستعارة الإناء هاهنا كما قال زهير :

وَمَنْ لا يَذُدْ عَنْ حَوْضِهِ بسِلاحِه   يُهَدَّمْ ومَن لا يَظْلِمِ الناسَ يُظْلَمِ

ومن هذه الطريقة قولُه :

يا جَفْنَةً كنَضِيحِ الحوضِ قد كُفِئَتْ   بِثَنْيِ صِفِّينَ يعــلو فوقَها القَتَرُ

وإنْ كان فى الـكَفْءِ ما لَيْسَ فى الإصْغَاء ، فاعلَمْهُ .

(١) هو الجميع الأسدى . المفضليات (١ : ٣٢) .

(٢) فى الأصل : « لا تنضيك » ، وصوابه فى م والمفضليات والخزانة (٤ : ٢٩٦) . صدره : * ولو أصابت لقالت وهى صادقة *

(٣) م : « تشيد » و « تؤيد » بدل « يشتد » و « يتأيد » .

١٧٣

وقال بَعْضُ بَنِى جُهَيْنَةَ(١) :

١ – أَلاَ هَلْ أَتَى الأَنْصَارَ أَنَّ ابْنَ بَحْدَلٍ حُمَيْداً شَفَى كَلْباً فَقَرَّتْ عُيُونُهَا(٢)

هذا الاستفهامُ طريقهُ طريق التمنّى وإظهارِ المَيْلِ إلى أن يَكونَ الأنصارُ شَرِكُوهُ فى العِلْمِ بالحالة التى يقتصُّها . ويجوز أن يكون أخْرَجَ الكلام على هذا لِيُبْلَغُوا . فيقول : هل تأدَّى خَبَرُ حُمَيْد بن بَحْدَلٍ فيما كان من نَصرهِ كَلْباً على قَيْسٍ ، وإقرارِه عُيُونَهُم منهم ، وشفائه قُلُوبَهم مما كان تَدَاخَلَها من عَدَاوَتِهِم ، واهتاج فيها من نار حُقُودِهِم .

٢ – وأَنْزَلَ قَيْسًا بالهوان ولم تَكُنْ لِتُقْلِعَ إلاَّ عِنْدَ أَمْرٍ يُهِينُهَا

يقول : وأَحلَّ حُمَيْدٌ قبيلةَ قَيْسٍ بمَحَلِّ الذُّلِّ والامتهان ، والهَضْمِ والهَوَان ، حتَّى كَفُّوا عن مجاذَبةِ كَلْبٍ والتعرُّض لهم بالسّوء . ثم قال : ولم تَكُنْ قَيسٌ تَنزَجِر وترتدِع إلاّ عند ما يُسقِطُها ، ويُنْزِلها بدار الرَّغْمِ ويُسْخِطُها ، لفَرْطِ لجاجِها ، وتأبِّيها وجِماحِها . واللامُ من « لِتُقْلِعَ » لام الجحُود .

(١) المبهج : « فى وقعة لكلب مع فزارة . جهينة اسم مرتجل من الجهن ، وهو غلظ الوجه ، وكأنه تحقير جهنة أو نحوها . والفزارة : أم الببر » . وفزارة ، بنو ذبيان بن بغيض ابن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان . وكلب ، بنو وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة . وجهينة ، بنو زيد بن سود بن أسلم بن الحاف بن قضاعة .

(٢) التبريزى : « ويروى : الأشراف . والأمصار » لما كانت فتنة ابن الزبير ، وكان عبد الملك بن مروان يقاتل مصعب بن الزبير ، وكانت قيس زبيرية ، كان أبناء القيسيات من بنى أمية يفخرون على أبناء الكلبيات بما تفعل بهم قيس فى البدو والحضر ، فبحث خالد ابن يزيد بن معاوية عن رجل من الكلبيين ليمحو ذلك العار ، فانتدب لذلك حميد بن بحدل خال يزيد بن معاوية ، وكتب له خالد بن يزيد عهداً على لسان عبد الملك بن مروان بأخذ الصدقة من قيس حتى يتمكن من النكاية . وقد استغل حميد هذا السلطان فأوغل فى النكاية بقيس – ولا سيما ببنى فزارة – إيغالا سجله هذا الشعر .

٣ — فقدْ تُرِكَتْ قَتْلَى حُمَيْدِ بن بَحْدَلٍ   كثيراً ضَوَاحِيها قليلاً دَفِينُها[1]

هذا بيانٌ لِمَا حَلَّ بقَيْسٍ. يَقُولُ: تُرِكت القَتْلَى الذين أبادهُم حُميد ابن بَحْدَل بالعَرَاء، فقد كَثُر بوارِزُهم للشَّمس، وقلَّ دفائنهم فى الأرض. وإنما يُفَظِّعُ بما يَصِفُ ما دُفِعَ إليه قَيْسٌ وابتُلِيَ به. والضَّوَاحِي: جمع ضاحِيَةٍ، وهى الظَّواهِرُ، والفِعل منه ضَحِيَ يَضْحَى عند الكوفيين، ولُغَةٌ أخرى ضَحَى يَضحَى، وهذا أَفْصَحُ. وفى القرآن: ﴿وأنَّكَ لا تَظْمَأُ فيها ولا تَضْحَى﴾. وأضَافَ قَتْلَى إلى حُميد لأنَّه المُوقِعُ بهم، القاتل لهم.

٤ — فإنّا وكَلْبًا كاليَدَيْنِ مَتَى تقَعْ   شِمالُكَ فى الهيجا تُعِنْكَ يمِينُها

هذا الكلامُ تحمُّد[2] وتنبيه على أنّ ما يجمعهم وكَلْبًا فى نهاية القوَّةِ والاستحكام، فلا يَعْرِضُ فيه فُتُورٌ، ولا يتسلَّطُ عليه كَلَّةٌ ولا قُصُورٌ، فهم كاليدين إذا دُفِعت إحداهما إلى شِدَّةٍ أعانتها الأُخْرَى. وجَعَل الفُضْلى من اليدين — وهى اليمين — مَثَلاً لأنفسِهم.

١٧٤

وقال المُنَخَّلُ اليَشْكُرِىُّ[3]:

١ — إن كُنتِ عاذِلَتِى فَسِيرِى   نحوَ العِرَاقِ ولا تَحُورِى[4]

---

(١) التبريزى: «قوله قليلا، لم يرد أن القليل منهم دفنوا، أراد أنه لم يدفن منهم أحد. ومثله:
قليلا على ظهر المطية ظله   سوى ما نفى عنه الرداء المحبر».

(٢) هذا ما فى م. وفى الأصل: «تحمل».

(٣) هو المنخل بن مسعود بن عامر بن ربيعة بن عمرو اليشكرى. وهو قديم جاهلى. وكان يشبب بهند أخت عمرو بن هند، وكان يتهم بامرأته أيضاً، كما كان يتهم بالمتجردة امرأة النعمان بن المنذر. وكان للنعمان منها ولدان كان الناس يقولون إنهما من المنخل. ولما قال النابغة قصيدته فى وصف المتجردة قال المنخل: ما يعرف هذا إلا من جرب. فكانت تلك السعاية سبباً فى هرب النابغة ولحاقه بآل جفنة الغسانيين. انظر الأغانى (١٨: ١٥٢ — ١٥٦) والمؤتلف ١٧٨ والشعراء ٣٦٤ — ٣٦٦.

(٤) التبريزى: «إنما قال ذلك لأن النعمان بن المنذر كان يكرمه ويقربه، ودار النعمان بالحيرة، والحيرة من العراق».

يَسْتَعْفِي من لومها وتفريعها فى تبذير المال وإتلافه ، وترْكَ الادّخار منه ليومِه وغدِه ؛ فيقولُ : إن كان دأْبُكِ إدمانَ عَذْلِي ، والاستمرارَ فى توبيخى ، ففارقيني وخُذِى طريقَ العراق لا رَدَّكِ اللهُ . قولُه « لا تَحُورى » دُعاء عليها ، من قولِك حَارَ أى رَجَع . ومنه قولُ الناس : « نعوذ بالله من الحَوْر بعد الكَوْر » ، لأنّ النقصان تَراجُع . ويجوز أن يكون « سِيرى » دُعاء أيضاً ، كأنه قال فَسَيَّرَكِ اللهُ ولا رَدَّكِ !

٢ ــ لا تَسْأَلِي عن جُلِّ مَا لِي وانظُرى كَرَمِي وخِيرِي[1]

قال الخليلُ : الخِيرُ : الهيْئَةُ . يقولُ : اترُكى البحثَ والفَحْص عن ذخائرى ومَعاظِمِ مالى ، ولكن [اعلمى[2]] شَرَفى وكَرَمِي وحُسْنَ هَيْئتى وخُلُقِي . وقولُه « وانظُرى » معناه واعلمى . وعلى هذا قولُه تعالى : ﴿ يُسَاقُونَ إِلَى الموْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ ، أى يَعْلَمون ذلك ويتيقّنُونه . والعَربُ تَضع عِبارات طُرُق العِلْم فى موْضِع العِلْم . يقولون : سَمِعْتُ كذا ، بمعنى عَلِمْتُه . وعلى هذا قولُنا : سَمِعَ اللهُ لمن حَمِده . ويقولون : ذُقْتُ الشيءَ بمعنى عَلِمْتُه وخَبَرْتُه . ويقال : شَمِمْتُ رائحة الفَضْل من فُلانٍ ، أى عَلِمْتُه .

٣ ــ وفَوَارِسٍ كأُوَارِ حَــــرِّ النارِ أَحْلاسِ الذُّكُورِ

يقولُ : ورُبَّ فُرْسانٍ يشتعِلون ليلاً ونهارًا ، ذكاء وحَمِيَّةً ، وبأسًا ونَجْدَةً ، اشتعالَ النار ، ويلزمون ظهور الذُّكور من الدوابِّ اللزومَ الشديد ، إذ كان ذلك شأنَهم ودأبهم . وجَواب رُبَّ منتظَر . وقولُه « كأُوَارِ حَرِّ النار » ، الأُوَار : التوهُّج والالتهاب ، ولهذا أضافَه إلى الحَرِّ . ويقال وأَرَتِ النارُ ، إذا

(١) فى الأصل : « واسألى كرمى » . والتفسير بعده يقتضى ما أثبتنا من م والتبريزى .
(٢) التكملة من م .

توهَّجَتْ ، ومنه الإرةُ . وإذا كان كذلك فالأصْلُ فى أُوَارٍ وُؤَارٌ ، فإما أن يكون قد قُلب ، فقدم الهمزة ، وإما أن يكون لُيِّنَ الهمزة ثم أُبْدِلَ من الواو المضمومة التى هى فاء الفِعْل هَمْزَةً ، كما فُعِل فى وُقِّتَ إذا قيل أُقِّتَ ، فصار أُوَارًا . وقوله « أحْلاسِ الذكور » ، الحِلْس : كل شيء وَلِيَ الظَّهْرَ تحت الرَّحْل . وحَكى ثَعْلَبُ عن ابن الأعرابىّ أنّ الأحلاسَ البُسُطُ ، واحِدُها حِلْسٌ ، قال : ومنه الخبر : « إذا ظَهَرَت الفِتَنُ فكُنْ حِلْسَ بيْتِك » . وأَنْشَدَ :

نَوَّمْتُ عَنْهُنَّ غُلامًا جِبْسَا   وقد تَغَطَّى فَرْوَةً وحِلْسَا

ومنه استَحْلَسَ الأرضُ بالغياثِ ، والأرضُ بالظلام . ولما أدَّى الحِلْسُ معنى اللزوم صَحّ الوَصْفُ به . وعلى هذا أسماء الأجناس إذا ضُمِّنَتْ مَعانِيَ الأفعال .

٤— شَدُّوا دَوَابِرَ بَيْضِهِمْ   فى كلِّ مُحْكَمَةِ القَتِيرِ

٥— واستَلأَمُوا وتَلَبَّبُوا   إنَّ التَّلَبُّبَ للمُغِيرِ

قوله « شَدُّوا دوابِرَ » ، هو جَوَابُ رُبَّ . والمعنى : رُبَّ فرسانٍ هذا صفتهم استَعَدُّوا . والمعنى استَعَدّوا مَعِى أوْ لِى مغيرينَ أو مُدَافِعِينَ ، بأن شَدُّوا مآخير المَغَافِرِ فى جيوب دُرُوعٍ مُحْكَمَةٍ رءوسِ المسامير ، ضَيِّقَةِ السَّرْدِ . والدوابر ، واحِدَتُها دابِرَةٌ وهى المآخير ، وتُستعمل أيْضًا فى الحوافر والمخالب . ومنه قَطَع الله دابِرَتَهم ، لأنّ سِبَاعَ الطُّيُور إذا قُطِعَتْ دوابِرُها تعطّلت عن الكَسْب . و « اسْتَلأَموا » ، أى لَبِسُوا اللُّؤَم ، وهى جَمْعُ لأْمَةٍ . وفَعْلَةٌ وفُعَلٌ قليل ، ومثْلُهُ نَوْبَةٌ ونُوَب . وهى من الملاءمة المطلوبة فى نَظْم الحَلَق وسَرْدِها . ولمَّا كان الواو العاطفة لا تُوجِبُ شيئًا من الترتيب لم يبال بتأخير واستَلأَمُوا ، وإن كان لُبس الدُّروع مُقَدَّمًا على لُبْسِ البَيْض ، وشدُّوا دوابِرَها

فيها . وقوله « إنّ التَلبُّبَ للمُغِير » يَجْرِى مَجْرَى الالتفات . والتَلَبُّب : التَحَزُّم ، وقيل هو الانتطاق والتَّجَرُّد . ويمكن الاستشهاد بهذا على أنّ الفَوارِسَ المَوْصوفين كانوا مُغِيرين .

٦ــ وعلى الجيادِ المُضْمَرَا ... تِ فَوَارِسٌ مِثْلُ الصُّقُورِ

الواو من قوله « وعلى الجياد المُضْمَرَات فوَارِسٌ » واوُ الحال ، كأنّه قال شَدُّوا دوابِرَ بَيْضِهِم والحال ذا . يُرِيدُ : رُبَّ فُرْسَانٍ تَشَمَّرُوا واستَعَدُّوا مَعِى للغَارَةِ أو الدِّفاع للمغيرين ، وبإزائنا خَيْلٌ هكذا . يقول . وعلى الجيادِ العِتاقِ المُسَوَّمَةِ المصنوعة ، فُرْسَانٌ كأنّهم فى حِدَّةِ نَظَرِهم وارتفاع ناظِرِهم وطموحهم ، صُقُورٌ فى حَالِ ما تُخَلَّى للصَّيْدِ . وسَمِعْتُ من يَقُولُ . إنّ جَوَاب ربَّ لم يَجِىءْ بَعْد ، وإنما أعَادَ ذِكْرَ الجياد لتباعُد رُبَّ عنه بما حَالَ بينهما ، وجوابُه أقْرَرْتُ عَيْنِى من أولئك . وهذا البيت لم يَدخُل فى الاختيار ، أعْنِى أقْرَرْتُ عَيْنِى(٢) .

٧ــ وإذا الرِّيَاحُ تَنَاوَحَتْ ... بجوانبِ البيتِ الكَسِيرِ

٨ــ أَلْفَيْتَنِى هَشَّ اليَدَيْـ ... ـنِ بِمَرْىِ قِدْحِى أَوْ شَجِيرِى

أخذ يتبجّحُ بالسَخَاء والتكَرُّم ، كما يتبجّحُ بالثَّبات والتشجُّع . وهذه الفصولُ تفسيرُ قولِه « وانْظُرِى كَرَمِى وخِيرِى » . فيقول . وإذا تقابَلَتِ الرِّياحُ أوانَ الشِّتاء ، ووقتَ الجَدْبِ والإمحال ، حتّى زَعْزَعَتْ جوَانبَ البيت العظيم

(١) بعده عند التبريزى :

يَخْرُجْنَ من خَلَلِ الغبا ... رِ يَجِفْنَ بالنَّعَمِ الكثيرِ

أقررتُ عينى من أولـ ... ـئكَ والفوائحِ بالعبيرِ

وقال : « يقال وجف يجف ، إذا أسرع ، وجيفا . وأوجف إيجافا كذلك » .

(٢) نص التبريزى : « وليس فى المختار ، وهو يروى بعد قوله : يخرجن » .

الـكسور والأركان ، ألفيتنى هكذا . ويُقالُ بَيْتٌ كَسِيرٌ إذا كان عَظِيم الـكَسْر ، كما يُقال رَجُلٌ جَسِيمٌ بدِينٌ ، إذا كان عظيم الجسم والبَدَن . وكَسْرُ البَيْتِ وكِسْرُهُ بالفَتْح والـكَسْرِ : جانِبُه . وتفسير الـكَسْر على هذا أبْلغ وأحْسَنُ من أن يُجْعَل فى مَعنى المَهدَّم والمـكسور . وعلى مابه فقَدْ يُفسَّرُ عليه . وقوله « أَلْفَيْتَنِى » جوابُ إذا . يَقُولُ : تَجِدُنى فى ذلك الوقت خفيفَ اليد بمَسْح القِدَاح ، وعند حُضُور الأيْسَار ، نَشِيطاً فى إجالتها ، حريصاً على فَوْزِها وتحمُّلِ الـكُلَف فى إدارَتِهَا . وقوله « أو شَجِيرى » الشجير : الغريب . ويقال : نَزَلَ بينهم شجيراً ، أى غريبا . وإنما يَعْنِى قِدْحاً يَتَبَرَّكُ به ، فيستعار من الغَيْر ، فإذا أجالَهُ الياسِرُ مع قِدَاحِه كان كالشَّجير فيما بينها والدَّخِيل . والهَشّ الخفيف . ويُقال استَهَشَّنِى الشىء ، أى استَخَفَّنِى . ومنه هُوَ يَهَشُّ إلى إخوانه .

٩– ولقد دَخَلْتُ على الفَتَا ةِ الخِدْرَ فى اليومِ المَطِيرِ

١٠– الـكاعِبِ الحَسْناء تَرْ فُلُ فى الدِّمَقْسِ وفى الحَرِيرِ

ذكر أنَّ أوقاتَهُ منقسمةٌ(١) بين الجِدّ والهَزْل ، وأموالَهُ(٢) متوزَّعةٌ بين لوازم الحقوق ، ولواحِق الفُضول ، فيقول : ولقد أَعطيتُ الصِّبَى حَقَّهُ ، وأقمتُ للهوَى رَسْمَه ، وسَعيتُ فى البَطَالةِ أوقاتَها وأعطيتُ الخسارَة مَقاودَها ، فدخلتُ على الفتاةِ المُخدَّرةِ فى أطيب أوقاتِ اللّذّة ، وهو ما أشار إليـه بقوله « فى اليوم المطير » . ثمَّ وَصَفَ الفتاة فقال : كانت ناهِدَة الثَّديين ، حَسَنَةَ الخِلْقة ، موفَّرَةَ الحظّ من النَّعْمَةِ والنِّعْمَة ، فهى تتبختر فى مَلابس الحرير [المتلوّنة على أجناسها المختلفة ، والدِّمَقْس : الحرير(٣)] الأبيض ، ولهذا قال امرؤ القَيْس .

(١) م : « مقتسمة » .
(٢) كذا على الصواب فى م . وفى الأصل : « وأقواله » .
(٣) هذه التكملة من م .

* وشَحْمٍ كَهُدَّابِ الدِّمَقْسِ المُفَتَّلِ *

وإذا كان كذلك فقولُه « وفى الحرير » ينصرف إلى سائر الألوان ، ويشتمل على جميع الأجناس ، فكأنَّهُ قال : تَرْفُلُ فى أجناس الحرير ، الأبيضِ منها وغيرِ الأبيض يُريدُ أنّ مَعارِضَها من تلك الأجناس .

١١— فَدَفَعْتُهَا فَتَدَافَعَتْ مَشْىَ القَطَاةِ إلى الغَدِيرِ

١٢— وَلَثِمْتُهَا فتنفّسَتْ كَتَنَفُّسِ الظَّبْيِ العَقِيرِ(٢)

قوله « فتدافعت » هو مطاوَعةُ دافعت ، ومُطاوَعةُ دفَعت اندفَعَتْ ، إلاّ أنه يوضَعُ كلٌّ موضِعَ صاحبه . فيقول : هززتُها لُمساعَدَتى ، وبَعَثْتُها لتَسعَى مَعِى فانبعثت وأسمَحَتْ وهى تمشى مَشْىَ القَطَاةِ إذا وَقَعَتْ على الغدير ، ومَشَت نحو الماء . وهذه المِشْيَةُ فيما يقال أحْسَنُ المَشْى ، لأَمْنِها ومرورِها بالورود ، وعُجْبِها بالخَلاء ، وانتَصَب « مَشْىَ » على أنه مَصْدَرٌ من غير لَفْظِه لأن معنى تدافَعَتْ مَشَت ، والقَصْدُ إلى التشبيه لأنّ المعنى مَشَتْ مِشْيَةً تُشْبِه تلك المِشْيَةَ . وسيبويه يُضْمِر فى مثل هذا الموضِعِ فِعْلاً من لَفظِ المَصْدر إنْ وَجَدَهُ ، وإلاّ قَدَّرَه ، ويَجعَلُ الظاهر دليلاً عليه . وقولُه « ولثمتها(٣) » يُريدُ . وقَبَّلْتُها فتنفّست . ومنه اللثام ، لأنّه فى الفم كاللِّثام فى الأنفِ . والمعنى أنى لَثِمْتُها فلَحِقَها من ذلك تَعب ، فتنفّست له تنفُّساً كتنفُّس الظَّبْى إذا عُقِر . ويقال إنه فى تلك الحالة يتنفَّسُ تنفُّسًا ممتدًّا طويلا ؛ فَشَبَّهَ تنهُّدَها به . ويُروى . « كتنفُّسِ الظَّبْى

(١) صدره : * فظل العذارى يرتمين بلحمها *

(٢) هذه رواية م . وهى ما يتساوق مع التفسير التالى . وفى الأصل : « البهير » . وهى رواية كتلك . على أن الرواية التى اعتمدها التبريزى فى متن الحماسة : « الغرير » ونبه على الروايتين الأخريين ، فهن ثلاث روايات .

(٣) فى الأصل : « فلثمتها » وهو مخالف لنص البيت . والوجه ما أثبتنا من م .

«البَهِير» ، والمعنى قريبٌ ، لأنّ البُهْر : النَّفَس العالى . وفى طريقة قوله « ولثمتها فتنفَّسَت » قولُ طَرَفَةَ العَبْدِىّ[1] :

تَحْسِبُ الطَّرْفَ عليها نَجْدَةً   يا لَقَوْمِ للشَّبابِ المُسبَكِرّ

لأنّ المعنى فى الموضعين التنبيهُ على تناهى الموصوف فى النّعمة والرِّقّة .

١٣ — فَدَنَت وقالت يا مُنَــــخَّلُ ما بجسمِكَ مِن حَرُورِ[2]

١٤ — ما شَفَّ جسمى غَيْرُ حُـــبِّكِ فاهْدَئى عَنِّى وسِيرِى

١٥ — وأُحِبُّهـــا وتُحِبُّنِى   ويُحِبُّ نَاقَتَها بَعِـــيرِى[3]

(١) كذا جاءت نسبة طرفة فى النسختين ، ولعله سهو ، فإن المعروف فى نسبة طرفة « البكرى » لا « العبدى » . على أن الكلمة ساقطة من التيمورية .

(٢) التبريزى : « ويروى : من غرور ، وقيل هو قلة اللحم » .

(٣) روى التبريزى بعده خمسة أبيات ، ضمن تفسير الأول منها بيتا سادسا لم يرو فى الحماسة وهى :

١٦ — ولقد شربتُ من المدا   مةِ بالصَّغير وبالكبيرِ

١٧ — فإذا انتشيتُ فإنّنى   ربُّ الخورنقِ والسَّدِيرِ

١٨ — وإذا صحَوتُ فإنّنى   ربُّ الشُّويهةِ والبعيرِ

١٩ — يا هنــدُ مَن لمتيَّمٍ   يا هندُ للعانى الأسيرِ

٢٠ — يمكُفنَ مثل أساود الـ   تَّنُّومِ لم تُعكفْ بزورِ

وقال فى تفسير البيت ١٦ : « يعنى بصغير ماله وكبيره ، ولم يرد إناء صغيرا وإناء كبيرا . والذى يحقق هذا قوله :

وشربتُ بالخَيْــلِ الإنا   ثِ وبالمطهَّمةِ الذُّكورِ

وهذا مثل قول الآخر :

شربت بقيراط وأسكرت صحبتى   ورحت ولى عند التجار حساب

قيراط : اسم ناقته . وقيل : أراد بالصغير الدرهم ، وبالكبير الدينار » .

ثم فسر البيت ١٩ بقوله : « هى هند بنت المنذر بن ماء السماء ، وهى عمة النعمان =

قوله « فَدَنَتْ » أراد به دُنُوَّ الشفقة ، والتقرّبَ بحسْنِ العَطْفَة ، لا قُرْبَ المَسَافةِ . والمعنى : تأمّلَتْ تغيُّرَ لونى ونُحُولى ، فاعتقدتْ أنّهُ من مُلازمَة تَبَذُّلٍ ، ومُقَاسَاةِ تَعَمُّلٍ ، فأعارتْنِي شفقتها وقَالَتْ : ما الذى بجسمك من حَرُورٍ ، أى من أثَرِ الحَرُور . وقد اختُلِف فى السَّمُوم والحَرُور ، فمنهم من جَعَل السَّمُوم بالنَّهار والحَرُور بالليل ، ومنهم من يقول على العَكْسِ مما ذكرتُ . وقال الخليل : السَّمُوم الرِّيح الحارّة ، لَيْلاً هَبَّتْ أو نهاراً . والحَرُور : حَرُّ الشمس . وقوله « ما شَفَّ جِسْمِى » يقول : أجَبْتُها مُبْطِلاً اعتقادَها ، ومُكَذِّباً ظَنَّها ، وراجِعاً بالعَتْبِ عليها ، وقُلتُ : ما أنْحَلَ جِسْمِى ولا أثَّرَ فى لَوْنى إلا حبُّك ، فاشْكُنِي عنِّى وسيرى . ومعنى سيرى هَوِّنى عليك الأمْرَ . وعلى نَحْوٍ من هذا يُحْمَلُ قول الله تعالى : ﴿ وانْطَلَقَ المَلَأُ مِنْهُمْ أنِ امْشُوا واصْبِرُوا على آلهتكم ﴾ إذْ لم يَكُن [ثَمَّ[(1)]] مَشْىٌ ولا انطلاقٌ . ويجوز أن يكون سِيرِى أمْرًا بالسَّيْر ، فقد قال فيما تقدم :

= ابن المنذر ، وكان المنخل يتهم بالمتجردة امرأة النعمان ، وكانت فاجرة ، وكانت ولدت له غلامين يقال إنهما ابنا المنخل . فذكر بعض من يحدث أن النعمان كان له يوم يركب فيه فيطيل ، وله إبان يعرف فيه مجيئه ، وأن المنخل كان يأتيها فيكون عندها حتى إذا جاء النعمان آخرجته ، فجاءها ذات يوم وقد ركب النعمان ، فلاعبته بقيد جعلته فى رجله ورجلها ، فهما على حالهما تلك إذ دخل النعمان قبل إبانه الذى كان يجىء فيه ، فوجدهما على حالهما ، فأخذه فدفعه إلى عكب صاحب سجنه — رجل من لخم ، صاحب الفرات — ليعذبه » .

وقال فى تفسير البيت ٢٠ : « يقع فى بعض النسخ . يجوز أن يكون فى صفة النساء ، فيكون من قولهم . عكفت المرأة شعرها وعكّفته ، أى ألزمت بعضه بعضا وجعلته ضفائر . وإذا كان كذلك أحتمل أساود التنوم وجهين : أحدهما أن يكون أراد هذا الشجر لأنه يسود كله ، والآخر يريد بالأساود جمع الأسود من الحيات ، لأن غدائر النساء تشبه بها . هذا إذا وقع هذا البيت عند وصفه النساء ، وإن وقع عند وصفه الخيل فمعناه أن الخيل تجىء بالفوارس. فكأنها تعكفها كعكف الشعر ، وهى يعنى مذكرات ، فهو محمول على الجماعات ، ويكون قد وصف الرجال بالأساود من الحيات ، لأن الرجل قد يوصف بأنه كالحية ، إذا كان شجاعا يخشى الشر » .

(١) هذه من م والتيمورية .

فَدَفَعْتُها فتـــدافعَتْ مَشْيَ القَطَاةِ إلى الغَدِيرِ

وقوله : وأحبُّها وتُحِبُّنى ، هو بيان تَطَاوُلِ الألفة بينهما ، وتَواصُل الصُّحبة فى أيامهما ، حتى صارَت لامتداد الملازمةِ كما حَصَلَ التحابُّ بينهما حَصَلَ التألُّف بين بعيريهما ، فإذا اتَّفَقَ التباعُدُ والافتراق ، وتَسَلَّطَ على كلٍّ واحدٍ منهما الاشتياق ، أقبلَ البعيران يتحابّانِ ، ويتجاذبان الوَجْدَ والنزاع كما يفعل المتحابان .

١٧٥

وقال بَاعِثُ بن صُرَيْمٍ (١) :

١ — سَائِلْ أُسَيِّدَ هَلْ ثَأَرْتُ بوائِلٍ أَمْ هَلْ شَفَيْتُ النَّفْسَ من بَلْبَالِها

٢ — إذْ أَرْسَلُونِىَ مائحًا بِدِلائِهمْ فَمَلأْتُهـا عَلَقًا إلى أَسْبَالِها

أُسَيِّدُ أراد به قبيلة(٢) ، ولما مَنَعَهُ الصَّرْف . وهـذا الاستشهاد هو تصويرٌ للحال وتَطَرُّقٌ إلى الإخبار . وإنّما يفتخر بأنّه قَتَلَ قاتِلَ وائل ، وأدركَ ثأره ، لمَّا اعتَمَدَ فى طَلَبِ دَمِهِ ، واعتَقَد أنَّ إدراكَ شفاءِ النفوس من جهته وبه . والبَلْبَالُ : الحُزن . وقوله « أمْ هل » الاستفهام بأمْ دون هَلْ ، لأنَّ أمْ هذه هى المنقطعة ، ولا يجوز أن يكون(٣) العاطفةَ . لأن تلك تَجىء عَدِيلَةَ الألف . وقوله « شَفَيْتُ النَّفسَ » يجوز أن يريدَ به نَفْسَهُ ، ويجوز أن يُرِيدَ به الكثرةَ والجنس، كأنّهُ يريد أنه شَفَى الموتورين فيه ، وأزَالَ ما خامَرَهم من لَذْعِ المصيبة ، وألَمِ الفجيعة . وقولُه « إذْ أرسلونى » إذْ ظَرْفٌ لقوله ثَأَرْتُ ،

---

(١) شاعر جاهلى ، ساق التبريزى نسبه : باعث بن صريم بن تميم بن ثعلبة بن عمرو ابن حبيب بن كعب بن يشكر . وانظر ما سيأتى من خبره فى الشرح .

(٢) هم أسيد بن عمرو بن تميم . الاشتقاق ١٢٣ والمعارف ٣٧ ومختلف القبائل ومؤتلفها ٤٥ .

(٣) كذا بالياء فى النسخ بالنظر إلى الحرف . ونحوه كثير فى كلام المرزوقى .

أو لقَولِه شَفَيْتُ . والمائح : الذى يدخُل البئرَ فيملأُ الدَّلْوَ عند قلّة الماء فيها ، والحاجةِ إلى الغَرْف من قَعرِها . وإنّما جَعَلَ نَفْسَهُ مائحًا لينبِّه على أنّ طالبَ دمِ الواترين كان متعسِّرًا متعذِّرًا ، كما أنَّ الاستقاء على الوجه الذى ذَكَرَهُ يكونُ شاقًّا مُتْعِبا . فهذا وَجْه عُدوله عن المَتْح إلى المَيْح . وقوله « فملأْتها عَلَقًا إلى أسْبالِها » ، انتصبَ عَلَقًا على التمييز . وأسبالُها : أعاليها ، ومثلُه[1] الأَصْبار ، وسَبَلَةُ الرَّجُل منه . واختار بعضُهم أن يرويه « إلى إسبالِها » بكسر الهمزة ، مصدرأَسْبَلَ، وليس بشىء . والمعنى: ملأْتُ دِلاءهم من دمِ واتريهم[2] . وجعَلَ[3] لهم دلاءً لاشتراكهم فى الدم وطلبه ، ولنيابَتِه عن كُلّ أوليائه . ولما استعارَ الدِّلاء والمَيْح لما ذكرته كَنَى عن فِعْلِه وتصرُّفه بالمَلْء .

وذكر بعضُهم أنّ وائلاً المقتول هو وائل بن صُرَيم الغُبَرى أخو باعِثٍ الشاعِر ، وله قِصَّةٌ . وهى أنّ عمْرو بن هِنْدٍ بَعَثَهُ ساعيًا على بنى تميم ، فكان جالِسًا على شَفِيرِ بِئرٍ يَجْمَع الصَّدَقَات[4] ، فدفعوا فى صَدْرِه وأَسْقَطُوهُ فى البئر ، ثم رَجَمُوه بالحجارةِ حتّى قتلُوه ، وأخذوا يرتجزون على طريق التهكُّمِ والاستهزاء :

* يأيُّها المائحُ دَلْوِى دُونَكا[5] *

فاتَّصَلَ خَبَرُهُ بأخيه باعِثٍ ، فسَارَ فى بنى غُبَرَ وآلَى أنّه لا يُمْسِكُ عن مقاتلتهم حتّى يملأ دَلْوًا من دماء بنى تميم ! فَفَعل[6] ، حتّى كانت المرأة تقولُ :

---

(١) فى الأصل والتيمورية : « ومنه » ، صوابه فى م .

(٢) م : « واترهم » .

(٣) هذا الصواب من م . وفى الأصل : « وجعلت » .

(٤) كذا فى م والتيمورية . وفى الأصل : « لجمع الصدقات » .

(٥) البيت من شواهد الخزانة (٣ : ١٥ — ١٨) . وروى البغدادى عن ابن الشجرى فى أماليه أن الرجز لرؤبة . وبعده :

* إنى رأيت الناس يحمدونكا *

(٦) التبريزى : « فقتل ثمانين رجلا وأسر جماعة وقتل رجلا منهم يقال له قمامة فذبحه حتى ألقى دلوه فخرجت ملأى دما » .

« تَعِسْتِ غُبَرٍ ، ولا سُقِّيتِ المَطَر ، ولا لُقِّيتِ الظَّفَر(١) » . قال : فهذا معنى « إذْ أرْسَلُونى مائحًا بدلائهم » ، وهذا حَسَنٌ ، والأوّل محمولٌ على طُرُقِهم وعاداتهم . ومثله قول الآخَر :

مَخَضْتُ بِدَلْوِهِ حتّى تَحَسَّى ذَنُوبَ الشَّرِّ ملأَى أو قُرَابَا

٣– إنِّى وَمَنْ سَمَكَ السَّماءَ مَكانَها والبَدْرَ لَيْلَةَ نِصْفِهَا وهِلالَها

٤– آلَيْتُ أثْقَفُ منهم ذا لِحْيَةٍ أبداً فتنظُرُ عَيْنُه فى مَالِهَا

أقسَمَ بمن سمك السماء ، وهو الله عزّ وجلّ . ومعنى سَمَكَ رَفَع ، ومنه سُمِّىَ عَمُودُ البيت المِسْمَاكَ . وجواب القَسَم فى آليتُ أثْقَفُ ، وهو خَبَرُ إنّ أيضًا . وقوله « ليلةَ نِصْفِها » أضاف النِّصف إلى السماء لمّا كان استكمال البَدْرِ عند انتصاف الشهر فى السَّماء ، فلاجتماعهما فى ظهور البَدْرِ كاملاً فى السماء سَاغَتِ الإضافَةُ بينهما ، على عادتهم فى إضافة الشىء إلى الشَّىء لأدْنى مناسَبَةٍ تَحْصُل بينهما . وعلى هذا قول الآخر :

* ضَــوْءُ بَرْقٍ ووابِـلُهْ *

إذْ كان أضافَ الوابِل إلى البَرْق لاصطحابهما . وأبْعَـدُ منه قول الآخر :

نَحْنُ صَبَحْنَا عامِراً فى دارِهَا عَشِيَّةَ الهِلاَل أو سِرَارِها(٢)

وأضافَ السِّرَار إلى العشيَّة لاعتقاده أنّ استمرار القَمَر فى العشيّات ، كما أنّ طُلُوعَهُ فيها . وعلى هذا الكلام فى إضافَةِ قولِهِ « وهِلالَها » وإن كان إضافة الهِلاَل إلى السماء أبْيَنَ أمْرًا ، وأقْرَبَ مُتَصَوَّراً . فالتقدير ليلةَ كمالِهِ فى نِصفِ الشَّهْرِ ، وليله إهْلاَلِهِ . و « مكانَها » انتَصَبَ على الظَّرْف ، والمَعْنَى حَلَفْتُ بالله

(١) بعده عند التبريزى : « وعدمت النفر » .

(٢) بين الشطرين فى المقاييس (سر) واللسان (سرر) :

* جردا تعادى طرفى نهارها *

الذى رفَعَ السماء فى مكانها بلا عَمَدٍ — وجَعَل البَدْرَ فيها كاملاً عند انتصاف الشَّهْرِ ، وهِلالاً عند أوّلِه فى لَيلتَيْهما — إنّى لا أَثقَفُ من هؤلاءِ القَوْمِ مُلْتَحِياً أَبَدًا ناظراً عينُه فى مَالِه ، وراجِعًا من مَقْصِدِه إلى أهْلِهِ ودَارِه . أى إذا ثَقِفْتُه قَتَلْتُه حتّى لم تَنْظر عَيْنُهُ فى ماله ، ولم يستقرّ بعده فى دارِه وقَرَارِه . وقوْلُه « أثقَفُ » هو الجواب ، وحُذِف مَعَهُ لا لأنّه أَمِنَ التباسه بالواجِب ، إذْ لَوْ أراد الواجِب لَقَالَ لأثقفَنَّ ، فلما كانت صيغةَ الواجِب بما يَلزَمُها من اللام وإحْدَى النونين الثقيلة أو الخفيفة لم يُبَالِ بحذْف حَرْف النَّفْى . ومِثْلُه قول الآخر[1] :

فقلت يَمِينَ اللهِ أبْرَحُ قاعِداً وإن ضَرَبوا . . . . .[2]

لأن المُرَاد لا أبْرَحُ . فإن قيل : إذا كان القَسَم يتناول ما ذَكَرتَ من قوله لا أَثقَفُ فما معنى قوله آلَيْتُ ؟ وهل يَصِحّ أن يُقالَ إنى حَلَفْتُ والله لا أفعل كذا ؟ قُلْتَ إنّ قولَهُ آلَيْتُ دَخَلَ مؤكِّداً للقَسَمِ على أحَدِ وجهين : (أحدُهُما) أنّه لمّا تطاول الكلام باليمين وبَعُدَ ما بَيْنَ إنّ وخبرِه ذكر آليْتُ ، ثم أتى بما هُوَ الجواب ، ليكون كالمُعيدِ لليمين ، والمُجَدِّدِ لما خافَ من دروس رَسْمِها . و (الثانى) أنَّه لما كان آلَيتُ لو اكْتَفَى به مُغْنِيًا عن ذِكْرِ المُقْسَمِ بِهِ صار كتكرار اليمين ، فَجَرَى مَجْرَى قولِه [لو قال[3]] واللهِ واللهِ ، وما أشْبَهَهُ . فأما قَوْلُه « فتنظر عينُه فى مالها » فلفظُه لَفظُ الجواب ، والمعنى معنى الحال ، والصِّفةِ للنَّكِرةِ التى قَبْلَه ، كأنه قال : لا أظْفَرُ أبَدًا بذى لحيةٍ إلاَّ لم تَنْظُر عينُه فى مَالِه . ومِثْلُهُ من أبياتِ الكتاب[4] قولُ الفرزدق :

---

(١) هو امرؤ القيس . ديوانه ٥٨ .

(٢) وإن ضربوا ، لم ترد فى م . والمشهور فى رواية العجز :

* ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى *

(٣) هذه من م .

(٤) كتاب سيبويه (١ : ٤٢٠) والخزانة (٣ : ٦٠٧) .

وما قامَ مِنَّـــا قائمٌ في نَدِيِّنَا فينطبقُ إلا بالذى هو أَعْرَفُ

لأنّ المعنى ناطِقاً . فإن قيل : هَلْ يجوز أن يكونَ جَوَاباً ؟ قُلتَ لا ، وذاك أنّ المَعْنَى يَفْسُدُ ويَنْعَكِسُ ، لأنّ التقدير حينئذٍ يكون لا أَثْقَفُه ، فكيف يَنظُرُ ؟ أي لَوْ ثَقِفْتُهُ لَنظَرَ ، لأنّ في وَجْهِ الجواب يَتعَلّقُ وقوعُ الثانى بوُقُوع الأول ، ويمتنع بامتناعه ، وفى هذا خروجٌ عمَّا يَقْصِدُهُ المتَـكَلِّمُ . ومثْلُه في باب الواو :

لا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وتَأْتِيَ مِثْلَهُ [عارٌ عليك إذا فعلتَ عظيم[1]]

لأنّ المعنى آتياً مِثْلَهُ .

٥ ــ وخِمَارِ غَانِيَةٍ عَقَدتُ برأْسِها أُصُلاً وكان مُنَشَّرًا بِشِمالِها[2]

تَبَجَّحَ في هذا البيت بأنه يغيث المذعورين فيُؤْمِنُهم . والغانيةُ : التى تَسْتَغْنِي بجمالِها عن الحَلْي ، وقد مَضَى القَوْلُ مُسْتَقْصًى فيه . ومعنى البيت : رُبَّ امرأةٍ تبَرَّجَت متبرِّزَةً من خِدْرِها حَاسِرَةَ الرأس ، مُطَارَةَ القِناع ، منشورةَ الخِمار ، لِمَا استَولَى عليها من الخوفِ ، وامتَلَـكَها من الرَّوْع والغارَةِ الطالِعَة ، والخيل العَادِيَة ، حتَّى كأنَّ خِمارَها طُولَ نهارِها منشورٌ على شِمالِها ، وهى لا تَشْعُرُ أنِّي أنا آمَنْتُها وحَفِظْتُ عليها صِيَانةَ نَفْسِها[3] ، رددْتُ إليها عازِبَ عقلِهَا حتَّى اختَمَرت وأَمِنَتْ ما كانت تَقْلَقُ لها ، وسَتَرَتْ وَجْهَهَا . وإنَّما قال أُصُـلاً ، لأنَّ الغارة كأنَّها وَقَعَتْ أوّل النهار ، ولُحُوقُه للإغاثة والتَّدَارُكُ بعَقِبِها ، فَحَصَل الأمْنَ عَشِيَّةً . وفى طريقته لعنترة :

(١) التكملة من م . والبيت لأبى الأسود الدؤلى . انظر شرح شواهد المغنى ١٩٤ . ويروى بعض أبيات القصيدة للمتوكل الليثى . حماسة البحترى ١٧٣ .

(٢) التبريزى : « يقول : إنها سبيت فلحقها عشيا بعد أن يئست لأن الغارة تكون بالغداة ، فلما رأته اطمأنت فلاثت خمارها برأسها . ومعلوم أن باعثاً لم يل عقد الخمار ، وإنما كان السبب فى أن عقدت المرأة » .

(٣) م والتيمورية : « وأذكرتها صيانة نفسها » .

ومُرْقِصَةٍ دَفَعتُ الخَيْلَ عَنهاَ وقد هَمَّتْ بإلقاء الزِمَامِ[1]

٦ – وعَقيلةٍ يَسْعَى عَلَيْهَا قَيِّمٌ مُتَغَطرِسٌ أَبْدَيْتُ عن خَلْخَالِهَا

لما قَدَّم فى البيت الأوّل قَدّم أتَى فى الثانى بما يُضادُّه ، ليُرِىَ أنَّه كما يَدْفعُ الشَّرَّ والبَلاَء يوقِعُه أيضاً ، حتّى يَكُونَ جامعاً للضَّرِّ والنفْع ، كافياً فى الدِّفاع والوِقَاع ، فيقولُ : ورُبَّ كريمةِ حَيٍّ ، بَعْلُها أو ذو مَحْرَمِها القائمُ بأمْرِهَا متكَبِّرٌ أَنِفٌ ، يرَى صيانَتَها عن التَّكَشُّفِ دِيناً ، وحِفْظَها عنِ التبذُّل كَرَماً ، أنا أخْرَجْتُها من خِدْرِها ، وأحْوَجْتُها إلى العَدْوِ وطَلَب التَّمَلُّسِ[2] مُشَمِّرَةً عن ساقِهَا ، مُبْدِيَةً خَلْخَالَها ، مُذِيلَةً مَصُونَهَا . أى كما آمَنْتُ خوَّفْتُ ، وكما سَكَّنْتُ أقْلَقْتُ .

٧ – وكَتِيبَةٍ سُفْعِ الوُجُوهِ بَوَاسِلٍ كالأُسْدِ حِينَ تَذُبُّ عَنْ أَشْبَالِهَا

٨ – قَدْ قُدْتُ أَوَّلَ عُنْفُوانِ رَعِيلِها فلَفَفْتُها بِكَتِيبةٍ أَمْثَالِهَا

يَذْكر أنه يَجْمَع بين الجيشين العظيمين مدبِّراً لهُمَا ، ومُرْسلاً أحدَهما على الآخَر ، وأنه على ذلك يكون للتقدُّمَ والمشاهِدَ ، والمُرَتِّبَ والمُصَادِم . فيقولُ : رُبَّ كتيبةٍ قد تعَوَّدَتِ الغاراتِ والصَّبْرَ على الإبْعادِ فيها ، فاسْوَدَّتْ ألوانُها بما تقاسيه من التَّعَب ، وتُدِيمُ لُبْسَهُ من الأسلحة ، وكأنَّها فى بأسها ونَجْدَتها ، وما تأوى إليه من قُوَّتِها وشِدَّتها ، الأُسْدُ إذا ذَبَّتْ عن جِرائِها ، ودفَعَتْ عن خِيسِها[3] ، أنا قُدْتُ أوائلها فخَلَطْتُهَا بأمْثالِها ، وقابَلْتُها بنظائرِها من أولى العَدَدِ والعُدَّة ، والجَلَدِ والشِّدَّة . فإن قيل : لِمَ قال « أوَّلَ عُنْفُوان رعيلِها » والعُنْفُوان هو

(١) هذا ما فى م والتيمورية . وفى الأصل : « ومرفضة » .

(٢) هذا الصواب من التيمورية . والتملس : التملص والتفلت . وفى الأصل : « التماسر » وفى م : « التلمس » كلاهما محرف .

(٣) الخيس ، بكسر الخاء : أجمة الأسد . وهذا الصواب من التيمورية . وفى الأصل وم : « جنسها » .

الأوّل ، على ذلك قولهم فَعَلْتُ كذَا فى عُنْفوَانِ الشَّباب ؟ قلتَ : كأنَّهُ أراد قُدتُ سوابِقَ أوائلِها ؛ فأضافَ الأوّلَ إلى العُنْفُوان لذلك . وكما قاد الأوائل والسَّوابق فقد قاد الأواخِرَ واللَّوَاحِق ، ولكن جَعَلَ القَوْدَ لِمَنْ وَلِيَه ، وجَعَل ما بَعدهم كالتَّابِع . يُرِيدُ أنَّهُ تَقَدَّمَ وَوَطِئَ عَقِبهُ الأعيانُ والأفراد ، ثم احتَفَّ بهم غيرهم . وحقيقة العنفوان اعتَنَفْتُ الشيء ، أى استأنَفْتُهُ . والرَّعيلُ من الخيل والرِّماح : أوائلُها . وقَوْلُه « بكتيبةٍ أمثالِها » ، لَوْ قال مِثْلِها لجاز ، ولكنَّه جَمَع على معنَى طوائف الكتيبة ، لاختلافها .

١٧٦

وقال الفِنْدُ الزِّمانىّ(١) :

١ — يا طَعْنَةً ما شَيْخٍ كبيرٍ يفَنٍ بالِ
٢ — تُقِيم المأْتَمَ الأعْلَى على جُهْدٍ وإعْوَالِ

ما مِنْ قولِهِ « ما شَيْخٍ » زائدةٌ ، أراد طَعْنةَ شَيْخٍ ، وهذا اللفظ لفظ النداء ، والمعنَى معنى التعجُّب والتفخيم ، كأنه أراد : ما أَهْوَلَها من طعْنَةٍ ، ويالَها من طَعْنةٍ بَدَرَت من شيخ كبيرِ السِّنِّ ، فانِى القُوَى ، بالِى الجسم . واليَفَنُ : الشيخُ الهَرِم . [قال الأعشى(٢)] :

وما إنْ أرَى الموت فيما خَلاَ يُغادِرُ من شارِخٍ أو يَفَنْ

ويجوز فى قولِهِ يا طَعْنَةً ما شيخٍ ، أن يكونَ المُنَادَى محذوفًا ، فيكون التنبيه بـ « يا » متناولاً غير الطعنة ، وينتصب على هذا طَعْنَةً بِفِعْلٍ مُضْمَرٍ ، كأنه أراد : يا قَوْمِ أَذْكُرُ طَعْنَةَ شيخٍ . كما قال :

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية الثانية بالقسم الأول .
(٢) التكملة من م والتيمورية .

فياشاعِرًا لا شاعِرَ اليومَ مِثْلُهُ جريرٌ ولكنْ فى كُلَيْبٍ تَوَاضُعُ[(١)]

وقولُه « تُقيمُ المأْتَمَ الأعْلَى » من وَصْفِ الطعنةِ ، فكأنّه كان تفاوَلَ بها رئيسًا ، فلذلك وَصَفَ المأْتَمَ بالأعْلَى . والمأتمُ أصْلُهُ أن يَقَعَ على النساء يجتمعْن فى الخير والشرّ ، واشتقاقُه من الأَتْم ، وهو الضَّمُّ والجَمْع ، ومنه الأَتُومُ وهى [المرأة[(٢)]] التى صارَ مَسْلَكاها مَسْلَكًا واحدًا ، وأراد بالمأتمِ هُنا الاجتماع للرَّزيئة ، وهو ببِنْيتِهِ مَصْدَرٌ وُصِفَ به . ويجوز أن يُرادَ به أَهْلُ المأتمِ ، فحُذِفَ المُضافُ كما يقال جاءَ المَجْلِسُ ، والمُرادُ أهل المجلس . وقوله « الأعْلَى » يرادُ به الأفظع شانًا . وَوَصَفَ الطعنة بأنها تقيمُ الجَمْع على مُجاهَدَةٍ وبَلاَء ، وإسرافٍ فى الصِّياح والعُوَاء ، أى تُدِيمُ ذلك لهُ . والعَوِيل والعَوْلَةُ : صوتُ الصَّدْر .

٣ ــ ولولا نَبلُ عَوْضَ فى خُضُمَّاتى وَأَوْصَالِى[(٣)]

٤ ــ لَطَاعَنْتُ صُدُورَ الخَيْلِ طَعْنًا ليس بالآلى

يعتذِرُ من رِضا نفْسِه بتلك الطعنة الواحدة . وعَوْضُ اسمٌ للدهرِ معرفةٌ مبنىٌّ ، وكما يُبْنَى على الفتح فقد يُبنى على الضمّ ، والضمُّ فيه حكاه الكوفيّون[(٤)] . ويقال لا أفعلُه عَوْضَ العائضين . وإنما بُنِى لتضمُّنِه معنى الالِفِ واللام والخُضُمَّةُ : ما غَلُظَ من الساعد والذِّرَاع ، ويُبْدَلُ من ميمه الباء ، فيقالُ خُضُبَّةٌ . وقد رُوِى هذا البيت ، وهو :

---

(١) البيت للصلتان العبدى . انظر الخزانة (١ : ٣٠٤ - ٣٠٨) .

(٢) هذه من م والتيمورية .

(٣) وقع فى متن التبريزى : « فى حظباى » لكنه فى التفسير يفسر « خضماتى » ثم يعقب على ذلك بالتنبيه على رواية « حظباى » . التبريزى : « وقوله حظباى ، أى جسمى . ويقال إن الحظبى عرق فى الظهر » .

(٤) ويروى بالكسر أيضاً كما فى اللسان . وكلمة « عوض » فى متن البيت ضبطت فى الأصل والتيمورية بالفتح ، وبكسرتين تغييراً لأجل الشعر فى م . والفتح أعلى لغة فى اللغات الثلاث .

يُذرِى بأرْعاشٍ يَمينَ المُؤْتَلِي خُضُمَّةَ الذِّراع هَذَّ المُخْتَلِي(١)

بالميم من « خُضُمَّة » والباء جميعاً . ويعنى بِنَبْل الدهر تأثيره فى مفاصل الشيوخ . وعلى هذا قول الآخر :

رَمَتْنى بَنَاتُ الدهرِ من حيثُ لاأرَى فكيفَ بمَنْ يُرْمَى وليس برَامِ(٢)

ومعنى البيت الأوّل : لولا رَمَيَاتُ الدهر فى مَفاصِلِى ومجامِعِ أعضائى ، ومُسْتَغْلَظِ عَضُدى وذِراعى ، لكان تأثيرى وبلائى فى الحرْب أكثر مما كان ، ولشَفَعْتُ تلك الطعنةَ ولم أتركْها وِترًا . وقولُه « لطاعَنْتُ صُدُورَ الخيْلِ » أراد بالخيل الفُرسان أى لولا ما قَدَّمْتُ من العُذْرِ لدافَعْتُ بالطَّعْنِ أوائلَ الخيْل ، طعناً لا تقصيرَ فيه ولا قُصُورَ . وخَصَّ الأوائل منهم لتقدُّمِه . ويجوز أن يُريدَ بالصدور الرؤساء والأكابر . وهم يتبجَّحُون بمجاذَبة العِلْيَة . ألا تَرَى قول الآخر(٣) :

من عَهْدِ عادٍ كان معروفًا لنا أسْرُ الملوك وقَتْلُها وقِتَالُها

وكما استعملوا الصُّدُورَ فى الأماثل والجِلَّةِ استعملوا فى الأراذِل والسَّفِلَةِ الأعجازَ . وهذا كما قالوا : الرُّءوس والأذناب ، وكما قال :

* ومن يُسَوِّى بأنْفِ الناقةِ الذَّنَبَا(٤) *

---

(١) للعجاج فى ديوانه ٥٢ – ٥٣ واللسان (خضم) . والهذ : سرعة القطع . وفى النسختين واللسان : « هذا » ، صوابه فى الديوان والتيمورية . وفى اللسان : « المختلا » تحريف .

(٢) البيت لعمرو بن قميئة . المعمرين ٦٢ ، ٨٩ ومعجم المرزبانى ٢٠٠ والخزانة (١ : ٣٣٨) . والمقاييس (٢ : ٣٠٦) . وفى الأصل : « ويمشى بنات » ، صوابه فى م والتيمورية والمراجع السابقة .

(٣) هو بشامة بن حزن . انظر الحماسية ١٣٤ .

(٤) البيت من مشهور شعر الحطيئة . وصدره :

* قوم هم الأنف والأذناب غيرهم *

يقال : أَلَوْتُ فى الأمرِ آلُو ، أى قَصَّرتُ . وجَعَل التقصير للطَّعْنِ على المَجَاز .

٥ — تَرَى الخَيْلَ على آثا رِ مُهْرِى فى السَّنَا العالى[(١)]

٦ — ولا تُبْقِى صُرُوفُ الدَّهْـــرِ إنســـانًا على حالِ

قوله « على آثار مُهْرِى » موضِعُهُ نصبٌ على الحال ، والمعنى تابعين لى . و « فى السَّنَا » فى موضِع المفعول الثانى لِتَرَى ، ومَعنى فى السَّنَا قال بعضهم : النُّورُ العالى : يُرِيد به بريقَ السِّلاح ، كأنهم يقدِّمونه ويتَّقُون به . وهذا مَعْنًى ، وأجْوَدُ منه وأعلى أن يكون المعنى : تَرَى الفُرسانَ إذا تَبِعَتْ أثَرِى ووطئت عَقِبِى ، فى مَجْدٍ عالٍ قاهرٍ ، له نورٌ يستضاء به . ويكون هذا فى طريقة بيت الأعشى :

* كلٌّ سَيَرْضَى بأن يُلْقَى له تَبَعَا[(٢)] *

وشَرْحُهُ بأنهم يَرْضَوْن برياستى عليهم ، ويَعُدُّون اتِّباعهم لمراسِمِى ، واحتذاءهم لآثارى مما يَعلو به سَنَاهُم ، ويَسْمو به عُلاهُم . وقوله « ولا تُبْقِى صُرُوفُ الدَّهْرِ » تَسْلِيَةٌ لنفسِه فيما صار إليه من ضَعْفٍ بعد قُوَّةٍ ، وهَرَمٍ بعد شَبِيبَةٍ ، حتى رَضِىَ بأدْنَى المنزلتَيْن فى مُمارَسةِ الحرْب ، ووقفَ عند أقْصرِ السَّعْيَيْنِ فى مُلابَسَةِ الضَّرْبِ والطَّعْنِ . وقولُه « على حال » فى موضع الصِّفَةِ لإنسانًا ، وتَعَلَّق عَلَى بمُضْمَر ، كأنَّه قال : لا تُبْقِى حوادِثُ الدَّهْرِ إنْسانًا قائما ، أو ثابتًا على حالٍ ، بل تُبَدِّلُ وتُحَوِّلُ ، وكما تُعطِى تَرْتَجِعُ .

---

(١) التبريزى : « ويروى : فى الثبا العالى . والأصل العالية ، ولكن ذكره على اللفظ لأن ثبا مثل زلم ، وهى جمع ثبة وهى الجماعة . وقال بعضهم : الثبا هاهنا : مجالس الأشراف » .

(٢) صدره فى ديوان الأعشى ٨٦ :

* تلقى له سادة الأقوام تابعة *

٧ — تَفَتَّيْتُ بِهَا إِذْ كَـ رِهَ الشِّكَّةَ أَمْثَالِى[١]

٨ — كَجَيْبِ الدِّفْنِسِ الوَرْهَا ءِ رِيعَتْ بَعْدَ إِجْفَالِ

الشِّكَّةُ : ما يُلْبَسُ من السِّلاح ، وقد شَكَّ الرَّجُلُ فى السِّلاح ، إذا لَبِسَهُ يَشُكُّ شَكًّا ، وهو شَاكٌّ . يقول : تَكَلَّفْتُ بهذه الطَّعْنَةِ وإحداثِها فِعْلَ الفِتْيَانِ وأبلَيْتُ بها بلاءَ الشُّبَّان ، فى وَقْتٍ يَكرَهُ فيه حَمْلَ السِّلاح أمثالِى من الرِّجال الشُّيُوخ ، فكيف استعمالُها . ومِثْلُ تفَتَّيْتُ : تَشَجَّعْتُ وتَكَيَّسْتُ . وقوله « كجيبِ الدِّفِنْس » شَبَّهَ اتِّساعَ الطَّعْنَةِ وسُرْعةَ خروج الدّم منها باتِّساع جيبِ المرأة الحمقاء ، ونَزْوِها فى رَوْعِهَا ، واضطرابِها فى متخرِّق قميصها . والدِّفْنِسُ : الحَمْقَاء . والوَرْهَاء : المتساقِطَةُ العَقْل ، الضعيفة التَّماسُك ، ومعنى ريعَتْ أُفْزِعَتْ بَعْدَ استعجالٍ فى العَدْوِ ، وإسراعٍ فى السَّعْى . وخَصَّ جَيْبَ الوَرْهَاء لأنَّ عَادَةَ مِثْلِهَا أن تُخْرِجَ اليَدَ مِنْه ، فيتَّسعَ [خَرقُه[٢]] وجَعَلَها مُرَوَّعةً لتَنْدَفِعَ فى الإجفال وتَنْزُوَ . والإجفَالُ والجَفْلُ واحِدٌ ، وكلُّ هاربٍ من شىء مُسْرِعٍ مُجْفِلٌ وجَافِلٌ . ومنه جَاءَ جُفَالَةٌ من النّاس ، أى جماعةٌ كَثِيرةٌ مُسْرِعَةٌ . ويُشْبِه هذا قولَ الآخر[٣] :

مُسْتَنَّةٍ سَنَنَ الفَلُوِّ مُرِشَّةٍ تَنْفِى التُّرَاب بقاحِزٍ مُعْرَورِفِ[٤]

لأنَّ نَزْوَ الدَّمِ من الطَّعنةِ شَبَّهَهُ هذا بنَزْوِ المُهرِ واستِنانِه ، كما شَبَّهَهُ ذلك

---

(١) التبريزى : « ويروى : الشَّكة — أى بالفتح — وعنى بها طعنة انتظم بها رجلين على فرس فى حرب البسوس » .

(٢) التكملة من م والتيمورية .

(٣) هو أبو كبير الهذلى . ديوان الهذليين (٢ : ١١٠) واللسان (رشش ، قحز ، عرف) .

(٤) فى الأصل : « مفروورق » ، صوابه فى م والتيمورية والمراجع السابقة .

بِعَدْوِ المجنونةِ عَنْ ذُعْرٍ. وقد سَلَكَ آخَرُ هذا المَسْلَكَ فقال فى معنى هذا ولفظه :

كَجَيْبِ الدِّفْنِسِ الوَرْهَا ءِ رِيعَتْ وهى تَسْتَفْلِي[1]

ومَعْنَى تَسْتَفْلِى تَطْلُبُ فَلْىَ شَعَرِهَا ، وقد أَخْرَجَتْ يَدَهَا من جيبها فذُعِرَتْ فى تلك الحالة ، فلم تَصْبِرْ لتَرُدَّ اليَدَ إلى جَوْفِها ، ولم تَرْفُق بجَيْبِها فمزَّقَتْهُ وسَمَّتْهُ . وهذا كأنَّهُ لَمَّا قَصَدَ بَيَانَ سَعَةِ الطَّعنة جعل التَّشبيهَ بالجَيْبِ فى حَالةِ إخْراج الحمقاء يَدَهَا منه مُسْتَفْلِيَةً ، فزادَ على الأوَّل هذه الزِّيادة الغامضة المَأْخَذِ اللَّطيفةَ الموقِع ، وإن كان قَوْلُه « بَعْدَ إجْفَالِ » قد اختَصَّ بما اختَصَّ . ويُشْبِهُ هذا فى الزِّيادة على المعنى وقد استقرَّ قولَ امرئ القيس :

أَوْ تَيْسِ أَظْبٍ بِبَطْنِ وَادٍ يَعْــدُو وقد أَفْرِدَ الغَزَالُ

لأنَّه زاد فيه إفرادَ الغَزال ، فدَلَّ على شِدَّة الخوف وخِفَّة العَدْوِ . فأما قولُ أَوْسٍ :

وفى صَــدْرِهِ مِثْلُ جَيْبِ الفَتا ةِ تَفْهَقُ حِينًا وحينًا تهِــرّ

فَهْوَ وإنْ زادَ التقسيمُ قاصِرٌ عَنْهُمَا .

١٧٧

وقال رَبِيعَةُ بنُ مَقْرُومٍ[2] :

١ — أَخُوكَ أَخُوكَ مَنْ يَدْنو وتَرْجُو مَوَدَّتَهُ وَإِنْ دُعِىَ اســتجابَا

قولُه أخُوكَ مبتدأٌ ، وكرَّرَهُ على وجْهِ التأكيد[3] ، ومن يَدْنو فى موضِــع

(١) للفند الزمانى ، أو امرئ القيس بن عابس الكندى . اللسان (دفنس)

(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية التاسعة .

(٣) ابن جنى : « وإن شئت جعلت الثانى خبراً عن الأول . . . ثم أبدل من يدنو وترجو مودته ، من أخوك الثانى » .

الخبرَ . ومعنى البيت : مُخالِصُكَ فى الأُخُوَّةِ والوُدِّ من يُقرِّبُ مَكانَهُ مِنْكَ[1] ، ويَحْسُنُ شَفَقَتُهُ عَلَيْكَ ، وتَطْمَعُ فى إثْمَارِ ودِّه لكَ ، وإن استغنت[2] به لمُلمَّةٍ تنزل ، أو نائبةٍ تَطْرُقُ ، أغاثَكَ باذِلاً مَقْدُورَهُ فى نُصْرَتِهِ لكَ . ويجوز أن يكونَ قوله ، « من يَدْنو » أراد بِهِ قُرْبَ النُّصْحِ والشَّفَقَةِ ، لا تَقَارُبَ الدَّارِ والمسافةِ ، كما يُقال فلانٌ أَدْنى إليك من فُلانٍ .

٢ — إذَا حَارَبْتَ حَارَبَ من تُعَادِى　　　وزَادَ سِلَاحُه مِنْكَ اقْتِرَابَا

يجوز أن يكونَ هذا الكلام مُتَّصِلًا بما قَبْلَهُ ، والضمير فى حارَبَ لأُخُوكَ ومن تُعَادِى فى مَوْضِعِ المفعول من حَارَبْتَ ، ويكونُ المعنَى : إذا حاربْتَ من تُعَادِى حَارَبَ هذا المُوَاخِى لكَ معكَ ، وزادَ نُصْرتَهُ وعُدَّتَه منك قُرْباً ما دُمْتَ مُحارباً . ويجوز أن يكون مُنْقَطِعاً مما قَبْلَهُ ، ويكونَ مَثَلًا مَضْرُوباً ، فيقول : إذا كاشَفْتَ عَدُوَّكَ وأبْدَيْتَ صَفحةَ ما تُضمِرهُ من السُّوءِ لَهُ بَعَثَهُ ذلك على مكاشَفَتِكَ ، وازدادَ عُدَّتُهُ من الكَيْدِ وغَيْرِهِ مِنْكَ دُنُوًّا . وإذا جَامَلْتَهُ وداجَيْتَه بَقِىَ على ما ينطوى عليه مسائِرًا لا مُجاهِراً .

٣ — وكُنْتُ إذا قَرِينِى جاذَبَتْهُ　　　حِبَالِى مات أو تَبِعَ الجِذَابَا

هذا مِثْلُ قَوْلُ عمرو بن كُلْثُوم :

مَتَى نَعْقِدْ قَرِينَتَنا بحَبْلٍ　　　نَجُذَّ الحَبْلَ أو نَقِصُ القَرِينا

وجعل الجذاب للحبال على المجاز . وقوله أو تَبِعَ الجِذابَ» يريدُ أو انجذَبَ وَتَرَكَ الطِّمَاحَ والإباء . ومعنى البيت : إذا جاذَبَنِى قرينٌ لى حَبْلًا بينى وبينَهُ ،

---

(١) نظر له التبريزى بقول الأعشى :

فإن القريب من يقرب نفسه　　　لعمر أبيك الخير لا من تنسبا

(٢) م : « استعنت » .

فإمّا أنْ ينقطع دون شَأْوِى فى الجِذَاب فيَهْلِكَ ، وإما أن يَتَّبِعَ صاغراً فينقادَ . وخبرُ كان فى إذا أو جَوَابِه .

٤ – فإنْ أَهْلِكْ فَذِى حَنَقٍ لَظَاهُ عَلَيَّ يَكَادُ يَلْتَهِبُ الْتِهَابا[1]

هذا الكلامُ تَسَلٍّ عن العَيْش بَعْدَ قضاء حاجَتِهِ ، وإدراك ثأره ، وإرغام عَدُوِّه ، ولولا ما تَيَسَّرَ له من ذلك وتَسَهَّلَ لكان لا يَسْهُلُ عليه انقطاعُ العُمْرِ ، ولو مَاتَ مَاتَ بغُصَّة . فيقول : إن أَمُتْ فَرُبَّ رجلٍ ذى غيظٍ وغضبٍ تكادُ نار عداوتِهِ تتوقّدُ توقُّدًا ، أنا فعلْتُ به كذا . وقولُه «لظَاهُ» فى موضع المبتدأ ، و « يكاد يلتهبُ » فى مَوْضِع الخبرَ ، والجملة فى موضِع الصفة لذى حَنَقٍ ، وانجرَّ ذى حَنَقٍ بإضمار رُبَّ ، والمجرور برُبَّ يَقَع موصوفًا فى الأكثر وجواب رُبَّ فيما بعده ، والفاء من قَوْلِهِ « فَذِى حَنَقٍ » مع ما بَعْدَهُ جوابُ الجزاء . فإن قيلَ : إنّ الفاء فى جَوَابِ الجزاء إنّمَا يجىء إذا خَالَفَ الجملةُ التى تكونُ جزاءَ الجملةَ التى تكون شَرْطاً بأن تكون مبتدأً وخبَراً ، فكيف يكون تقديرُهُما بعد الفاء هاهنا ؟ قُلْتَ : يكون التقدير : إنْ أَهْلِكْ فالأَمْرُ والشَّأنُ

---

(١) ابن جنى : « ذى مجرورة برب مضمرة ، أى فرب ذى حنق ، وحذفها العلم بموضعها كقول الآخر :

رسم دار وقفت فى طلله كدت أقضى الغداة من جلله

أى رب رسم دار . وهذا يدفع قول أبى العباس أن الواو فى نحو قوله :

* وبلد تحسبه مكسوحا *

هى التى جرت بلد لما خلفت رب وكانت عوضاً منها . ألا ترى أنه قال : فذى حنق ، أى فرب ذى حنق . ولا يقول أحد إن الفاء عوض من رب . وكذلك قول الهذلى :

فحور قد لهوت بهن عين نواعم فى المروط وفى الرياط

وقال الآخر :

* بل بلد ملء الفجاج قتمه *

ولا أحد يدعى أن بل عوض من رب . فإذا صح هذا وثبت فى الفاء وبل كانت الواو محمولة على حكمه » .

رُبَّ ذِى حَنَقٍ بهذه الصِّفَةِ فَعَلْتُ به كذا. فقوله « رُبَّ ذِى حَنَقٍ » خَبَرٌ للمبتدأ الذى أظهرناه.

٥ – مَخَضْتُ بِدَلْوِهِ حتَّى تَحَسَّى ذَنُوبَ الشَّرِّ مَلْأَى أو قُرَابا[1]

هذا جوابُ رُبَّ. فيقولُ: رُبَّ إنسانٍ هكذا، أنا حَرَّكْتُ بِدلوِه التى أدْلاها فى الأمْرِ الذى خُضْنا فيه، حتَّى ملأْنُها. وجَعَل الدَّلْوَ كنايةً عن السَّبب الذى جاذَبَهُ فيه، والطَّمَع الذى جَرَّأه عليه، قال: فَتَحَسَّى دَلْوَ الشَّرِّ مملوءةً أو قريبةً من الامتلاء. وقُرابُ المَلْءِ: أن يُقارِبَ الامتلاء، ويقال قِرَابٌ بكسر القاف وقُرَابٌ بضمّها. والمعنى: جَعَلْتُ شِرْبَهُ من الشَّرِّ شِرْبًا مُرْوِيا.

وقد استعمل أبو تَمَّام الدَّلْوَ على الطَّريقة التى استَعْمَلَها ربيعةُ فقال:

أَلْقَوْا دِلاَءً فى بُحُورِكَ أَسْلَمَتْ تَرَعَاتِها الأَكْرَابُ والأَوذامُ[2]

واسْتَعْمَلَ غيره دَلَوْتُ فى معنى الاستخراج فقال:

---

(١) روى التبريزى بعده ثلاثة أبيات، وهى:

٦ – بمثلِى فاشهَدِ النَّجوَى وعالِنْ بِىَ الأعداءَ والقومَ الغضابا

٧ – فإن المُوعِدىَّ يرونَ دونِى أُسودَ خَفِيَّــــةَ الغُلْبَ الرِّقَابا

٨ – كأنَّ على سواعِدِهِنَّ وَرْسًا عَلاَ لونَ الأشاجعِ أو خضــــابا

وقال فى تفسير الأول: « أى جاهر بمثلى الأعــداء وكاشفهم ليكفوا عنك، فمثلى يصلح لدفع المكاره، وكشف النوائب ». وقال فى تفسير الثانى: « يريد الغلب رقابا، وانتصابه على التشبيه بالضارب الرجل ». قال فى الثالث: « أى كأن على سواعد هذه الأسود الورس أو الخضاب، من كثرة ما افترست الفرائس. والأشاجع: عروق ظاهر الكف، والواحد أشجع ».

(٢) الترعات: الممتلئات. وفى الأصل وديوان أبى تمام ٢٨١: «ونزعاتها»، تحريف. وفى الأصل: « والأوذاما »، صوابه فى م والتيمورية والديوان. والبيت من قصيدة له فى مدح المأمون، مطلعها:

دمن ألم بها فقال ســلام كم حل عقدة صبره الإلمام

فقد جَعَلْتُ إذا ما حاجتى نَزَلَتْ ... بباب دارك أَدْلُوها بأقْوَامِ(١)

فكأنّ المُراد أنّ هذا المُعَادِىَ المتلئَ غيظاً لمَّا ألقَى دَلْوَه يَسْتَقِى بها الماء من بِئرِىَ مَلَأْتُهَا شَرًّا وجعلتُه سُقْيَاه(٢) .

١٧٨

وقال سَلْمَى بن رَبِيعَةَ(٣) :

١ – حَلَّتْ تماضِرُ غَرْبَةً فاحْتَلَّتِ ... فَلْجًا وأَهْلُكَ باللِّوَى فالحَلَّتِ(٤)

تُمَاضِرُ : امرأتُه وكانت قد فارقَتْهُ عاتِبَةً عليه فى استهْلاكِهِ المال ، وتَعريضِه النَّفسَ للمَعَاطِب فلحِقَتْ بقومِها ، وأخَذَ هو يَتَلَهَّفُ عليها ويتحَسَّرُ فى أَثَرِها وأثَرِ أولاده منها ، فيقول : نَزَلَتْ هذه المرأةُ بعيدةً منكَ ، فاحْتَلَّتْ فَلْجًا وأَهْلُكَ نازلونَ بين هذين الموضعين . وهذا الكلام تَوَجُّعٌ . وفَلْجٌ على طريقِ البَصْرَةِ ، والحلَّة : مَوْضِعٌ من الحَزْنِ ببلادِ ضَبَّةَ ، واللوَى: رَمْلٌ متَّصِلٌ به

(١) البيت لهمام الرقاشى ، كما فى البيان (٢ : ٣/٣١٦ : ٤/٣٠٢ : ٦٥) برواية : « حتى جعلت » .

(٢) فى الأصل : « أو جعلتها معناه » ، صوابه فى م والتيمورية .

(٣) سلمى ، بفتح السين والميم ، كذا فى الأصل والتيمورية ، وورد مهمل الضبط فى م . وكذلك ضبطه القالى فى الأمالى (١ : ٨٢) وكذا ضبط فى نوادر أبى زيد ١٢٠ قال : « وقال سلمان بن بيعة الضبى ، أو سلمى » قال أبو الحسن : هكذا وقع فى كتابى : سَلَمَى ، وحفظى سُلَمِىّ » . وقال البكرى فى اللآلئ ٢٦٧ : « هكذا رواه أبو على : سَلَمى ، ولم يختلف الرواة أنه سُلَمِىّ . وهو سلمى بن ربيعة بن زبان بن عامر ، من بنى ضبة ، شاعر جاهلى » . التبريزى وابن جنى فى التنبيه : « من بنى السيد بن ضبة » . والأبيات فى الخزانة (٣ : ٤٠٢) ونوادر أبى زيد والأمالى . ونسبها الأصمعى فى الأصمعيات ١٨ لعلباء بن أرقم . ويفهم من صنيع الجاحظ فى الحيوان (٥ : ٧٤) أنها لعمرو بن قميئة .

(٤) كذا رسمت بالتاء المبسوطة فى الأصل والتبريزى ومعظم المراجع . وكتبت فى م والتيمورية بالتاء المعقودة ورسم إلى جوارها تاء مبسوطة . وضبطت فى م والنوادر والتنبيه لابن جنى بكسر الحاء .

رَقيقٌ . وبين المواضع الذى ذَكَرها تبَاعُدٌ . إن قيل لِمَ قالَ حَلَّتْ ، ثم قال احتَلَّتْ ، وهلاَّ اكتفَى بأحدِهما ؟ قُلتَ : نَبَّهَ بالأول أنَّها اختارَتِ البُعْدَ منهُ والتغرُّب[1] عنه ، وبالثانى الاستقرار ، فكأنَّهُ قالَ : نَزَلَتْ فى هذه الغَرْبَةِ فاستوطَنَتْ فَلْجًا . وفَلَجٌ بفتح اللام : مَوْضعٌ . وفَلْج بسكون اللام : ماءٌ .

٢— وكأنَّ فى العينَيْنِ حَبَّ قَرَنْفُلٍ أَوْ سُنْبُلاً كُحِلَتْ به فانْهَلَّتِ

يقول : أَلِفتُ البكاءَ لتباعُدِها ، فساعدتِ العَيْنان وجادتا[2] بإسالةِ دَمْعهما غزيراً متحلّبا ، واكِفاً مُنْهَمِلاً ، فكأنّ فى عَيْنَىَّ أحَدَ هذين المهيِّجَيْنِ الحالِبين للعيونِ . وقَوله « كُحِلَتْ » إخْبارٌ عن إحدى العَيْنَيْنِ ، وسَاغَ ذلك لما فى العِلْمِ من أنّ حالتَيْهما لا تفترقان . وعلى العَكْسِ من هذا قول امرئ القَيْس :

وعَيْنٌ لَهَا حَدْرَةٌ بَدْرَةٌ شُقَّتْ مآقِيهما من أُخرْ[3]

لأن امرأ القيس وَحَّدَ فى الابتداء ثم ثَنَّى عند رَدّ الضَّمِير ، على أنَّهُ متى اجتمع شيئان فى أمْرٍ لا يفترقان فيه اجتزَى بذِكْرِ أحَدِهما عن الآخَر . وفى طريقة هذا البيت قَول ابن هَرْمة :

وكأنَّمَا اشْتَمَلَتْ مَوَاقِى عَيْنِهِ يَوْمَ الفِراقِ على يَبِيسِ الخِمْخِمِ[4]

٣ — زَعَمَتْ تُمَاضِرُ أنّنِى إمَّا أَمُتْ يَسْدُدْ أُبَيْنُوهَا الأَصَاغِرُ خَلَّتِى

زَعَمَ يتردَّدُ بين الشَّكّ واليقين ، وهاهنا يريدُ بِهِ الظَّنّ . وأَنَّنِى مع الجزَاءِ

---

(١) هذا الصواب من م والتيمورية . وفى الأصل : « والتقرب » .

(٢) فى الأصل : « وجالتا » ، صوابه فى م والتيمورية .

(٣) كذا فى النسخ ، على الخرم فى أول العجز . ورواية الديوان ١٦ والتبريزى : « فشقت » على الإتمام .

(٤) المواقى : جمع الماق ، وهى لغة فى موق العين ، وهو حرفها الذى يلى الأنف . وفى م : « مآقى » وهذه جمع مؤق ومأق . اللسان (مأق) .

والجواب نائبٌ عن مفعولَيْه . يقول : ظَنّتْ هذه المرأةُ أنّهُ إن نَزَل بى حادِث قضاء الله عَزّ وجلّ ، سَدَّ مكانى ورَمَّ ما يتشعَّثُ من حَالِهَا بِزَوالِى أبناؤها الأصاغرُ . ويريد بهذا الكلام التوَصُّلَ إلى الإبانة عن مَحَلّه ، وأنه لا يُغْنِى غَناءَهُ من النّاسِ إلاّ القليل . وقَوْلُه « أُبَيْنُوها » تصغير أبناء مقصوراً عند أصحابنا البصريّين[(1)] ، وهو اسمٌ صيغ للجَمْع كأَرْوَى[(2)] ، وأُثَأْب[(3)] ، وأَضْحَى[(4)] فهو على أَفْعَل بفتح العين . وعند الكوفيين هو تصغير أَبْنٍ ، مِثْلُ أَدْلٍ على أَفْعُلٍ بضم العين . ويقال : سَدَّ فُلانٌ مَسدَّ فلان ، وسَدَّ خَلَّتَه ، وناب مَنَابَهُ ، وشَغَل [مكانَه[(5)]] بمَعْنًى . فإن قيل : كيف سَاغَ أن يقول يَسْدُدْ خَلّتِى ، وإذا مات لم تَكُنْ له خَلّةٌ . قُلتَ : أضافَها إلى نَفْسه لمّا كان يَسُدُّها أيّامَ حياته ، فكأنّه قال : الخَلّة التى كنت أسُدُّها . وهذا من إضافة الشّىء إلى الشىء على المعتاد فيهما . ومثلُه قولهم : شِهاب القَذْفِ ، فأضيفَ الشّهاب إلى القَذْفِ لَمّا كان من رَمْى الرامى . ووجوهُ الإضافاتِ واسعةٌ كثيرة ، وكذلك متعلّقاتُها[(6)] .

٤ — تَرِبَتْ يَدَاكِ وهَلْ رأيتِ لقومِهِ مِثْلِى عَلَى يُسْرِى وحِينَ تَعِلّتِى

أقبلَ عليها يوبِّخُها ويخطِّئُ رأيَها ، ويكذِّب ظَنَّها ، ويقبِّح اختيارها ، فى إفاتة نفسها الحظَّ منه ، ويدعو عليها بالفَقْر والبَأْساء ، والخيبة فى الرّجاء ، فيقول :

(١) ابن جنى : « ذهب سيبويه إلى أن الواحد المكسر من هذا الجمع أبنى على وزن أفعل مفتوح العين ، بوزن أعمى ، ثم حقر فصار أبين كأعيم ، ثم جمع بالواو والنون » ، وساق بعد ذلك كلاماً مسهباً .

(٢) الأروى : اسم جمع الأروية ، وهى الأنثى من الوعول . قال ابن برى : « أروى تنون ولا تنون . فن نونها احتمل أن يكون أفعلا مثل أرنب ... وأما أروى فيمن لا ينون فوزنها فعلى » .

(٣) الأثأب : جمع أثأبة ، وهو ضرب من عظام الشجر .

(٤) أضحى هنه بالتنوين : جمع أضحاة ، وهى لغة فى الضحية .

(٥) التكملة من م والتيمورية .

(٦) وكذلك متعلقاتها ، ساقطة من م .

صار فى يَدِكِ التُّراب ، وهل رأيت لقومه مَن يُماثلنى فى حالَتَى السَّرّاء والضَّرّاء واليُسر والعُسْر ، والغِنَى والفَقْر ، حتَّى تَمَلَّقى منكِ رجاءكِ فىَّ بغيرى إذا أخلَيْتُ مكانى . وتَرِب يُستعمل فى الفَقر والخيبة لا غير ، وأتْرَب يُستعمل فى الغِنَى والفَقْر جميعاً ، فإذا أُريدَ به الغِنَى فالمعنى صار له من المال بعَدَدِ التُّراب ، وإذا أريد به الفَقر فالمعنى صار فى التُّراب ، كما يُقال أَسْهَلَ إذا صَارَ فى السَّهْلِ . وقد يجوز أن يكون مثل أقلّ ، والمعنَى : صار مالُكِ قليلاً من المالِ . وأضاقَ : صارَ فى حالِ ضِيقٍ . وقوله « حِين تَعِلَّتِى » المعنَى وحين اعتَمدتُ على إقامة العلّة بحصول الفقر . وعلى هذا قوله :

* قليلُ ادّخارِ المالِ إلّا تَعِلَّةً *

أى قَدْرَ ما يُقامُ به العِلّةُ . وقوله « لقَوْمِهِ » أضمر قبل الذِّكْر ، لأنَّ الكلام يَحتمل نِيَّة التقديم ونيَّة التأخير .

٥ — رَجُلاً إذا ما النائباتُ غَشِينَهُ أَكْفَى لمُعْضِلَةٍ وإنْ هِيَ جَلَّتِ

انتَصبَ « رَجُلاً » على أنّه بدلٌ من مِثْلِي ، كأنه قال : هل رَأَيْتِ لقومِهِ رَجُلاً أَكْفَى للشدائد وإن عَظُمَتْ عند طُروق النَّوائب وغِشْيان الحوادِث مِنِّى . فحذفَ مِنِّى لأنَّ المُراد مفهومٌ . ويُرْوَى « أَكْفَى لمُعْضِلَةٍ » وهى الدَّاهيةُ الشديدة ، يقال أعْضَلَ الأمْرُ إذا اشتدَّ . يُرْوَى « لمُضْلِعَةٍ » وهى التى تَضُمُّ الاضلاعَ بالزَّفَرَاتِ وتَنَفُّسِ الصُّعَداء حتى تكادُ تَحْطِمُها .

٦ — ومُنَاخِ نَازِلَةٍ كَفَيْتُ وفارِسٍ نَهِلَتْ قَنَاتِى من مَطَاهُ وعَلَّتِ

أخذ يُعدِّدُ ما كانت كفايتُهُ مقسومةً فيه ، ومصروفةً إليه . وقوله « ومُناخِ » مَصْدر أَنَختُ . وكَفَيْتُ يتعدَّى إلى مفعولين وقد حذفَهُمَا ، كأنَّه قال : كَفيتُه

العشيرةَ . يقولُ : وربَّ نازلةٍ أناخَتْ ، أنا دَفَعْتُ الشرَّ فيها[١] ، وكفَيْتُ قَوْمى الاهتمامَ بها ؛ وربَّ فارسٍ سقيتُ رمحى من دم ظهره العَلَلَ بعد النَّهل . وخَصَّ الظَّهر ليُعْلَمَ أنه قد وَلّى وأَدْبَرَ[٢] .

٧ ــ وإذَا العَذَارَى بالدُّخَانِ تَقَنَّعَتْ   واسْتَعْجَلَتْ نَصْبَ القُدُورِ فَمَلَّتِ

أقبلَ يَعُدُّ خِصالَ الخيرِ المجموعَةَ فيه ، بعد أن نَبَّهَ على أنه لا يَقُومُ مَقَامَهُ أَحَدٌ ، فكيف من طَمِعَ[٣] فى نيابتِهِ عنه بعدهُ . والعذَارى : جمع عَذْرَاء ، وأصلُه العَذَارِىُّ بتشديد الياء ، فالياء الأولى مُبْدَلَةٌ من المَدَّةِ قَبْلَ الهمزة ، كما تُبْدَلُ فى سِرْبَالٍ إذا قُلْتَ سرابيلَ ، فلما انقلبت المَدَّة ياء لانكسار ما قبلها وكان الأصلُ فى همزة التأنيث ألفا عادَ إلى أصْلِهَا لزوال الألف قَبْلها ، فأبْدِلَ مِنْهُ ياء ثم أُدْغِمَ الأولى فى الثانية فقيل عذارِىُّ ، وكذلك فى صحراء صحارِىُّ ، ثم حُذِفَتْ إحدى الياءين تخفيفاً فقيل عَذَارِى وصَحَارِى ، ثم فَرُّوا من الكسرة وبعدها ياء إلى الفتحة فانقَلَبَت ألِفاً فقيل عذارَى وصحارَى . ويقال : عَذَرَ المرأة وأعْذَرَهَا ، إذا ذَهب بعُذْرَتِها ، وهو أبو عُذْرِهَا وأبو عُذْرَتِها . فيقول الشاعِرُ : وإذا أبكار النِّساء صَبَرَتْ على دُخانِ النّار حتّى صار كالقِناع لوجهها ، لتأثير البَرْد فيها ، ولم تَصبِرْ على إدراك القُدُور بعد تهيئتها ونَصْبها ، فَشَوَت فى المَلَّةِ قَدْرَ ما تُعَلِّلُ به نَفْسَها من اللحم ، لتمكُّن الحاجةِ والضُّرِّ منها ، ولإجداب الزَّمان واشتداد السَّنةِ على أهلها أحسَنْتُ . وجوابُ إذا فى البيت بَعْدَه . وخَصَّ العَذَارَى بالذِّكْرِ لفَرْط حيائهِنَّ وشِدَّة انقباضهن ، ولتصوُّنِهِنَّ عن كثيرٍ مما يَتَبَذَّل فيه

(١) م والتيمورية : « أنا دفعت شرها » .
(٢) م والتيمورية : « أنه أدبر عنه وولى » .
(٣) م والتيمورية : « طمعت » .

غيرُهُنَّ . وجعل نَصْبَ القُدُورِ مفعول استَعْجَلَتْ على المجازِ والسَّعَةِ . ويجوز أن يكون المرادُ استعجلَتْ غيرَها بنصب القُدُورِ وفى نَصْبِها ، فحَذف .

٨ — دَارَتْ بأرزاقِ العُفَاةِ مَغَالِقٌ بِيَدَىَّ من قَمَعِ العِشَارِ الجِلَّةِ

قولُه « أرزاق العُفَاة » كلامٌ شريفٌ ، وتقدير البيت : دارَتْ بيـدىَّ مغالِقُ بأرزاق العُفاة من قَمَعِ العشار الجِلَّةِ ، فَفَصَلَ بالفاعِلِ بين الأرزاق وبَيْنَ من قَمَعِ العِشار . والعُفَاة : جمع العافِى ، والجمعُ على فُعَلَةٍ يَختصُّ بالمُعْتَلّ دون الصحيح . يقول : وإذا صَارَ الزَّمَانُ كذا دَارَتِ القِداحُ فى المَيْسِرِ بيَدَىَّ لإقامة أرزاق الطُّلاَّبِ من أسنِمَةِ النوقِ المَسَانّ الـكبار الحوامل ، التى قَرُبَ عهدها بوضْع الحمل ، وكلُّ ذلك يُضَنُّ بها ، ويُتَنَافَسُ فيها ، وإنما سُمِّيت القِداح مَغَالِقَ لأن الجُزُرَ تَغْلَقُ عندها وتَهلِكُ بها . والقمع : قِطَعُ السَّنام ، الواحدةُ قَمَعَةٌ : والقَمِيعُ : ما فوق السَّنَاسِنِ من السَّنَام . وبعيرٌ قَمِعٌ : عظيم القَمَع . ويقال سَنَامٌ قَمِعٌ ، أى عَظِيمٌ قد تمكَّنَ فيه الشَّحْمُ . والعِشارُ : جَمْع عُشَراء ، وهى التى قد أتى عليها من حَمْلِها عَشرةُ أشْهُرٍ ، وتستصحب هذا الاسم فتُسَمَّى به بعدَ وضعها الحملَ بأشهُرٍ . كأنّهُ نبَّهَ على أنّه يَعتَبِطُ صِحاحَ الإبل وخِيَارَها ، لا كسيرَها وهَزلاها .

٩ — ولقد رَأَبْتُ ثَأَى العَشِيرَةِ بيْنَهَا وكَفَيْتُ جانِيَهـا اللَّتَيَّـا والَّتى

الثَّأَى : الفَسادُ . يقالُ ثَأَى الجُرْحُ يَثْأَى ثَأًى . والرَّأْبُ : الشَّعبُ والإصلاح . يقول : وكما ظَهَرَ غَنَائى فى تلك الأبواب فلقد سَعَيْتُ فى إصلاح ذات البَيْنِ من العَشِيرةِ ، ورَدِّ التعطُّف الذاهب عنها إليها ، ولَمِّ شَعَثِها ، وضَمِّ نَشْرِها ، وكَفَيْتُ مَنْ جَنَى منها الجنايةَ الصَّغيرةَ والـكبيرة ، بالمال والنَّفْس ، والجاهِ والعِزِّ . وقولُه « جانِيها » إن فتحْتَ الياء كان واحداً وإن أدّى معنى

الجمع ، وإن سَكَّنت الياء جاز أن يكون جمعا سالما وأن يكونَ واحداً قد حُذِفَ فتحتُها . وقولُه « اللَّتيَّا » تصغير التى ، فجعلهما اسمين للكبيرة من الدَّواهى والصغيرة ، ولهذا استغنَيَا عن الصِّلةِ وانتقلا عن كونهما وُصْلَتَيْن . ويذهبُ بعضُهم إلى أنّ صلتيهما محذوفتان لدلالة الحال عليهما .

١٠ — وصَفَحْتُ عن ذى جَهْلِها ورَفَدْتُها نُصْحى ولمْ تُصِبِ العَشِيرةَ زَلَّتى

١١ — وكَفَيْتُ مَوْلاىَ الأَحَمَّ جَرِيرَتى وحَبَسْتُ سائمتى على ذى الخَلَّةِ

قوله « وصَفَحتُ عن ذى جَهْلِها » ، يصِفُ نفسَه بالحِلْم معهم ، وكَظْمِ الغيظ فيهم ، ومَنْع سُفهائهم . يقول : وعَفَوْتُ عن جاهِلِها فلم أُوَاخِذْهُ بما بَدَرَ منه من هَفْوةٍ أو زَلَّةٍ ، ثم بَذَلتُ نُصْحى لعشيرتى ، وحَسَّنْتُ لهم عِشرَتى مِقْدارَ جُهدِى ، ولم أُجرَّ عليهم جَرِيرتى ، ولم أُوسِعْهم زَلاَّتى . وقد ألمَّ فى هذا بقول الآخَر(١) :

* إذا المَرْء لم يحمِلْ على النَّفسِ ضَيْمَها *

وفى طريقته قول الآخر :

ولو شاء قوْمى كان حِلْمِىَ فيهمُ وكان على جُهّالِ أعدائهم جَهْلِى

وقوله « وكَفَيتُ موْلاىَ الأحَمَّ جريرتى » ، أى لم يؤاخَذُوا بجرائرى ، بل كنتُ المُدَاوِى لها والخارجَ منها . ويروَى : « الأحَمَّ إضاقَتِى » فيكون مِثْلَ قوْلِ الآخر(٢) :

أبُو مالكٍ قاصِرٌ فَقْرَهُ على نفسِهِ ومُشِيعٌ غِنَاهْ

---

(١) هو السموءل بن عاديا . الحماسية ١٥ .

(٢) عجزه : * فليس إلى حسن الثناء سبيل *

(٣) هو المتنخل الهذلى . ديوان الهذليين (٢ : ٣٠) .

والشاعرُ يقول : وكما لم يَشْمَل أباعِدَ ذَوِيَّ رَفْطِي زَلاَّتي ، كذلك لم يَنَلْ الأدانِيَ جِنَاياتي ؛ ثم إذا نِلْتُ خيراً أشْرَكْتُ ذوِي الحاجةِ منهم فيه وحَبَسْتُ مالي الرَّاعِيَةَ عليهم ، حتى لا يَتميَّزُوا عنِّي في التصرُّف والتناول . وقوْلُه « الأحَمّ » ، يريد الأخصّ والأمَسّ ، وهو أفعَلُ من الحميم ، ولهذا قال الشاعر وإن كان في ضِدّ هذا المعْنَى :

* ومَوْلاكَ الأحَمُّ لهُ سُعَارُ[1] *

أي لَهَبُ الجُوع ، ومنه قولهم : كيفَ السَّامَّةُ والحامَّةُ .

١٧٩

وقال أُبَيُّ بن رَبِيعَةَ[2] :

١ — وخَيْلٍ تلافيْتُ رَيْعانَها بِعِجْلِزَةٍ جَمْزَى المُدَّخَرْ

رَيْعان كُلِّ شَيْء : أوَّلُه ، وأكثر ما يُسْتَعْمَلُ في الشَّباب والخَيْل . والرَّيْعُ فَضْلُ كلِّ شيء ، ومنه رَيعُ الحِنْطة إذا زكَتْ ، ورَيْعُ الدُّروع : فُضُولُ أكامِها على الأنامِل . والعِجْلِزَةُ : الفرس الشديدة الخَلْقِ ، ورُبَّما وُصِفَتْ به النَّاقةُ . وبعضُهم يَحْكِي فيها : عَجْلَزَةٌ ، بفتح العين واللام . يقول : رُبَّ خيلٍ مُغِيرَةٍ تَدَارَكْتُ أوائلَها طارِداً للوَسَائق ، وأنا على فَرَسٍ صُلْبَةٍ تَجْمُزُ فيما تَدَّخِرُ من جَرْيِها . ومن عَادَةِ عِتاق الخَيْل أن تُبْقِيَ من عَدْوِها بقيَّةً لوقت الحاجة إليها ، فمتى استُحِثَّتْ بعد الكَدِّ والعمَل أعْطَتْها . ولذلك قال كَلْحَبَةُ العُرَيْنِيُّ :

---

(١) صدره في اللسان (سعر) :

* تسمنها بأخثر حلبتها *

(٢) التبريزي : « أبي بن سلمى بن ربيعة بن زبان الضبي » وقد سبقت ترجمة أبيه في الحماسية السابقة .

فَأَدْرَكَ إِبْقَاءَ العَرَادَةِ ظَلْعُهَا وقَدْ جَعَلَتْنِي من حَزِيمَةَ إِصْبَعَا[1]

فقولُه إبقاء العَرادة كقوله هاهنا « المُدَّخَرْ » . وجَمَزَى مِثْلُهُ وكَرَى وهو صِفَةٌ . وجَعَل الجَمْزَ لِمَذخورِ الجَرْى على المجاز ، لأنّ الجمْزَ ومَذْخورَ الجَرْى جميعا للفَرس . والحقيقة أنها تَجْمُزُ فى مُدَّخَر الجَرْى . وليس هذا كقولهم هو حَسَنُ الوجه ، وكريمُ الأب ، إذا كانَ الحُسْنُ والكَرَمُ فى الحقيقة للأَبِ والوَجْهِ ، ولكن هو كما يُقالُ فُلَانٌ ثَبْتُ الغَدَر ، نَزِقُ المَجالِ ، قَمُوصُ الخَبَارِ ، وما أَشْبَهَهُ .

٢— جَمُومِ الجِرَاءِ إِذَا عُوقِبَتْ وإِنْ نُوزِقَتْ بَرَّزَتْ بالحُضُرْ

يقال بِئْرٌ جَمُومٌ ، إذا كان ماؤُها ينقطع ويَعود سريعاً . ومعنى قوله « جَمُومِ الجِرَاء إذا عُوقِبَتْ » أى جَرْيُهُ يمتدُّ ولا ينقطع إن طُلِبَ عَقْبُها لمسابقتها[2] فيه ، فكأنَّه لا آخِرَ لجَرْيِهَا ، كالبئر الجمُوم . و « إن نُوزِقَتْ » أى إنْ غُولِبَتْ فيما يُستَنْزَقُ من سيرها سَبَقَتْ بِمَذْوِها . وكما سُمِّىَ آخرُ الجَرْى العَقْبَ سُمِّىَ آخرُ الشهر به ، فقيل جِئْتُ فى عَقْبِ الشَّهر ، إذا جِئْتَ بعد ما مَضَى ، وجئْتَ فى عَقْبِه وعَقِبِه ، إذا جئْتَ وقد بقِيَتْ منه بقيّةٌ . ويُقالُ : عاقَبْتُ الفَرَسَ ونازَقْتُهُ ، كما يُقالُ طاوَلْتُ زَيْدًا وفاضَلْتُهُ ، وذلك إذا غالَبْتَهُ فى الطُّولِ والفَضْل . ومعنى بَرَّزَتْ : تَقَدَّمَتْ . والحُضْرُ : العَدوُ . ويُروى « عُوفِيَتْ[3] » أى إنْ طُلِبَ عَفْوُها ، وليس بجيِّدٍ . ألا تَرَى أنَّه قيل : « أوَّلُ الجَرْى نَزْقَةٌ ، وآخِرُهُ عَقْبَةٌ » .

---

(١) فى الأصل : « من جريمة » صوابه فى م والتيمورية و المفضليات (١ : ٣٠) .

(٢) م : والتيمورية « بمسابقتها » .

(٣) لم يذكر التبريزى هذه الرواية .

٣ – سَبُوحٍ إذا اعتَزَمَتْ فى العِنانِ   مَرُوحٍ مُلَمْلَمَةٍ كالحَجَرْ[1]

أراد بها أنها تَسْبَحُ في جريها إذا اعتزمَتْ في العِنان ، أى انتَحَتْ فى العَدْوِ وهى مُلْجَمَةٌ كثيرة النَّشاط ، مجتمعةُ الخَلْقِ صُلْبَةٌ كأنها حَجَرٌ . والاعتزام : لُزُوم القَصْدِ فى الحُضْرِ وغيرِه وتَرْكُ الانثناء . وقد اعتَزَمْتُ الطريق . ويقال اعْتَزَمَ الفَرَسُ على الجَرْى إذا مَرَّ جامحًا . وقولُهُ « فى العِنان » فى موضع الحال ، كما يُقال : جاء فُلانٌ فى جُبَّةٍ ، أى وعليه جُبَّةٌ . واللَّمْلَمَةُ : جَمْعُكَ الشىء ، وهو مِثْل اللَّمِّ فى المعنى وإن لم يَكُنْ من لفظِهِ عندنا . ورواه بَعْضُهُم « إذا اعتَرَمَتْ[2] » بالراء غير مُعْجَمةٍ ، وجَعَلَهُ من العُرَام ؛ وليس بشىء .

٤ – دُفِعْنَ على نَعَمٍ بالبِرَا   قِ مِنْ حَيْثُ أَفْضَى به ذُو شَمِرْ

هذا جَوَابُ رُبَّ إذا جَعَلْتَ قوله « تلافَيْتُ رَيْعانَها » من صِفَةِ « وخَيْلٍ » حَمْلاً على ما يجىء عليه المجرور برُبَّ فى الأكثر ، من لُزوم الوَصْفِ له ؛ وقد جاء غير موصوفٍ وإن قَلَّ . وعلى هذا يكون تلافَيْتُ الجوابَ ودُفِعْنَ من صِفَةِ الخَيْلِ . والمعنى دُفِعَتْ هذه الخيلُ وأُرسِلَتْ على إبِلٍ واقفةٍ بالبِرَاق من حيث أدّاهُ إلى الفضاء ذُو شَمِرٍ ، وهو مكانٌ[3] . قولُه « أفْضَى به » الضميرُ للنَّعَم ، وهو يُذَكَّرُ ، يُقال هذا نَعَمٌ واردٌ . والبِرَاق : جمع بُرْقَةٍ ، وهو موضع فيه حجارةٌ بيضٌ وسُودٌ ؛ ومثلُه جَبَلٌ أبْرَق . أى لمَّا حَصَل بالفضاء تُلُقِّيَتْ[4] بالخَيْلِ وشُنَّتِ الغَارة عليه .

---

(١) ضبطت الكلمات بالرفع فى الأصل على القطع ، وبالجر على الإتباع فى م والتيمورية .

(١) رواية التبريزى : « إذا اعترضت » .

(٣) ذكره البكرى فى معجم ما استعجم . وروى البيت وأخطأ فى نسبته إلى سلمى ابن ربيعة .

(٤) كذا فى النسختين . وفى التيمورية : « فلقيت » .

٥ — فَلَوْ طَارَ ذُو حَافِرٍ قَبْلَهَا   لَطَارَتْ ولٰـكِنَّهُ لم يَطِرْ

رَجَعَ إلى صِفَةِ الفَرَس لمَّا رَكَضَها في إثْرِ الخيلِ المُغِيرَةِ عَلَى النَّعَم الذى وصَفَه، يقول: لو أنَّ ذوات الحوافر[1] جُعِل فى قدرتِها الطَّيرانُ بآلةٍ تَخُصُّها لطارَتْ هذه الفَرَس، وكانت الأَوْلَى بذلك، لما فيها من النَّجابة والعِتْق، ولٰـكنَّ الطَّيَران خُصَّ به ذو الجَنَاح.

٦ — فَمَا سَوْذَنِيقٌ على مَرْبَإٍ   خَفِيفُ الفُؤادِ حَدِيدُ النَّظَرْ

٧ — رَأَى أَرْنَبًا سَنَحَتْ بالفضاء   فبادَرَها وَلَجَاتِ الخَمَرْ

يقولُ: ما شَاهِينٌ واقِعٌ على مَحْرَسَةٍ ذَكِىٌّ شَهْمُ النَّفْس، بَعيدُ النَّظَر حَدِيدُ العَيْن، سريعُ الإدْراك، رأى أَرْنباً سَنَحَتْ. ومعنى سَنَحَتْ عَرَضَتْ، يُقالُ منه سَنَحَت الحاجةُ. والأَرْنَبُ: الأُنثَى من الأرانِب. والذَّكَرُ خُزَزٌ. والكلام بعدُ مشغولٌ بصفة السَّوْذَنيقِ. أى رأى أرنباً اتَّفقَتْ بالعَرَاء واعترضَتْ فسابقها إلى مَداخِل الخَمَر، ثم رَجَع عليها فى طريقِها لئلاَّ تفوتَهُ — بأسْرَعَ من فَرَسِى. والوَلَجَاتُ: جَمْعُ وَلَجَةٍ، وهى موضِع الوُلُوج، وموضِع ولَجاتٍ نَصْبٌ على أن يكونَ مفعولَ بادَرَهَا. والخَمَر: ما وَارَاكَ من الشَّجَر[2].
ويقال: بادرْتُ مَكَانَ كَذَا، وإلى مَكانِ كذا.

٨ — بِأَسْرَعَ مِنْهَا ولا مِنْزَعٌ   يُقَمِّصُهُ رَكْضُهُ بالوَتَرْ

قولُه «بأسْرَعَ» خَبَرُ «ما». يقولُ: ما سَوْذَنيقٌ هذا وصفُه بأسرعَ من فَرَسى، ولا سَهْمٌ يَنْزِيه رَكْضُ الوَتَرِ به. والمِنْزَعُ: السَّهْمُ. ويقالُ: نَزَعْتُ فى القَوسِ نَزْعًا، وانتَزَعْتُ له بِمِنْزَعٍ، ونَزَعْتُ، أىْ بسَهْمٍ. وفى المَثَل:

(١) فى الأصل: «الجناح» صوابه فى م. وفى التيمورية: «الحافر».
(٢) م والتيمورية: «من شجر».

« قَادَ السَّهْمُ إلى النَّزَعَةِ » فى معنى رَجَعَ الحَقُّ إلى أَهْلِهِ . ويُقَمِّصُ ، أى يُحَرِّكُ . ويُقالُ قَمَّصَ البَحْرُ بالسفينة ، إذا حَرَّكَها بالمَوْجِ ، حتّى كأنَّها بَعِيرٌ يَقْمِصُ . قال :

* يُقَمِّصُ بالبُوصِيِّ مُعْرَوْرِفٌ وَرْدُ[1] *

وإنما جَعَلَ الرَّكْضَ للوَتَرِ لأنه هو الذى يَزُجُّ بالسَّهم ويَدْفَعُه فكأنّه يركُضُه[2] ، وهذا يُشْبِهُ القَلْبَ لانّ الرَّكْضَ للوَتَرِ وقد جَعَلَهُ للسَّهم ، فهو كقولِ الآخَرِ :

* ما أَمْسَكَ الحَبْلَ حَافِرُهْ *

وما أَشْبَهَهُ . ويُمْكِنُ أن يُتْرَكَ على ظاهِرِه ، فيجعل السَّهْمَ راكِضاً من حيثُ كان راكِباً للوَتَرِ . والرَّكْض : تحريكُ الفارِسِ رِجلَيه على الفَرَس عند الاستحْثَاثِ ، وإذا كان كذلك فكأنَّ السهمَ هو الذى يَرْكُضُ الوَتَرَ وإن كان الحفزُ للوَتَر .

١٨٠

وقال زَيْد الفَوَارِس[3] :

١ — تَأَلَّى ابْنُ أَوْسٍ حَلْفَةً لِيَرُدَّنِى   عَلَى نِسْوَةٍ كَأَنَّهُنَّ مَفَائِدُ

---

(١) الحطيئة فى ديوانه ١٩ . وصدره :

* وهند أتى من دونها ذو غوارب *

(٢) هذا الصواب من م والتيمورية . وفى الأصل : « يرفضه » .

(٣) شاعر جاهلى . وهو زيد الفوارس بن حصين بن ضرار الضبى ، كما هو عند التبريزى . ذكره الآمدى فى المؤتلف ، ولم يرفع نسبه . وله ذكر فى يوم بزاخة ، وشهد يوم القرنتين ومعه ثمانية عشر من ولده يقاتلون معه وهو فارسهم ، ولهذا قيل له زيد الفوارس ، وكان يقال له أيضاً « فارس الرباب » ، ويقال له « الرديم » أيضاً ، لأنه كان إذا وقف فى الحرب ردم ناحيته ، أى سدها . انظر الخزانة (١ : ٥١٧) وبلوغ الأرب للآلوسى (٢ : ١٢٧ — ١٣٨ ، ١٨٩) .

آلَى الرَّجُل وائْتَلَى وتَأَلَّى بمعْنًى واحد. وهذه الأبنية من الأَلِيَّةِ، وهى اليمين. و« حَلْفَةً » انتصَبَ على أنه مَصْدَرٌ من غير لفظِهِ. وقَوْلُهُ « ايَرُدُّنِى » يُرْوَى بفتح اللام وضَمِّ الدَّالِ، على أن يكونَ اللامُ لامَ اليمين. وذكرَ سيبَوَيْهِ أنّ لامَ القَسَمِ يَلْزَمُهَا إحْدَى النونين الثقيلة أو الخفيفة، وقال أيضًا: وقد يُحذَفُ النُّونُ فى الشِّعْرِ. وهـذا المَوْضِـعُ بالروايةِ الثانية جاء على ما سَوَّغَهُ. وقد جاء أعْجَبُ من هذا وأبْعَدُ فى الاستعمال، وهى حَذْفُ اللام وإثبات النون. قال:

وقَتِيلَ مُرَّةَ أَثأَرَنَّ فإنهُ ... فِرْغٌ وإنّ أخاهُمُ لم يُقْصَدِ[1]

والمفائد: جمع المِفْأَد، وهى المَساعير والسَّفافيدُ. والفَأْدُ فى اللغة: التحريك، وقيل إنّ الفؤادَ منه اشتُقَّ، لأنه يَنبِضُ. ومعنى البيت: حَلَفَ الرجُلُ حَلْفَةً ليأْسِرَنِّى ثم يُمَنُّ علىَّ فيَرُدُّنى على نِسْوَةٍ كأنَّهُنَّ مساعير، لاحتراقهن وَجْداً بى وغمًّا علىّ، ففَعَلْتُ أنا به مِثْلَ ما هَمَّ به فِىَّ. وقد قيل: إنّ ابن أوسٍ كان مأسوراً فحَلَفَ أنه يُنجِّيه زَيْدُ الفَوَارِسِ ويَفُكُّ أَسْرَه، ويَرُدُّه على نِساءٍ هُنّ من الوَجْدِ به بهذا المَحَلِّ، فاقتصّ ابنُ أَوْسٍ قِصَّتَه فيما كان يرجوه من جِهَتِه. ثم ذكَر أنه كان عنـد الظَنِّ به، وأنه حَقَّقَ أَمَلَهُ. ويمكن الاستشهادُ للخبرَيْنِ والمعنَيَيْن على اختلافهما ممّا يَشْتَمِلُ عليه الأبياتُ التى بعدَهُ. وقد قيل فى الوَجْهِ الأوّل أنه أرادَ بالنِّسوةِ حُرَمَ ابنِ أوسٍ، وأنه شَبَّهَهُنّ بالسفافيد لسوءِ أحوالِهِنّ، وتأثير الضُّرِّ والجَهْدِ فيهن، وعلى هـذا يكون هَجْوًا وتعييرًا لابن أوسٍ، وأنّ أَهْلَهُ وأولادَهُ من الفَقْرِ بهذا المَحَلِّ. فأمّا من رَوَى « لِيَرُدَّنِى » فالمعنى حَلَفَ

(١) البيت لعامر بن الطفيل فى ديوانه ١٤٥، وهو من شواهد الخزانة (٤: ٢١٦). وقتيل، يروى بالأوجه الثلاثة. وقتيل مرة هو أخوه حنظلة بن الطفيل، كما فى شرح الديوان. ويروى « فرع » بفتح الفاء وآخره عين مهملة.

لهذا الأمر ، وجوابُ القَسَم يكون محذوفاً مقدَّراً ، ويُستدَلُّ عليه بما ذَكَرَهُ . وقال بعض المتقدِّمين : تقولُ حَلَفَ لَيَفْعَلَنّ ، فإذا حَذَفْتَ النون كسَرْتَ اللاّم وأعمَلْتَها إعمالَ لام كَيْ ، والموْضِعُ موضِعُ القَسَم والمعنى مَعْناه . وأنشدَ :

إذا قُلْتُ قَدْنِى قال باللهِ حَلْفَةً لِتُغْنِيَ عَنِّى ذا إنائِكَ أجْمَعا[1]

وقيل مِثل تألَّى ليرُدَّنى : أرادَ ليفعَلَ كذا . وفى القرآن : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بأفْوَاهِهِمْ ﴾ ، كأنَّ الفِعْلَ دَلَّ على المَصْدَر ، واللام مع الاسم المجرور به فى موضِع الخبَر لذلك المصدَر المبتدإ ، كأنه إرادتى كذا .

٢ – قَصَرْتُ له مِنْ صَدْرِ شَوْلَةَ إنّمَا يُنَجِّى من الموْتِ الكريمُ المُاجِدُ

أخذ يَذْكُرُ أنه كَذَبَ نفسَه فيما حَدَّثَها به ، وأنه استعمَلَ البَغْىَ فنُصِرَ عليه ، فقال : قَصَرْتُ عليه فَرَسِى شَوْلَةَ وأسَرْتُه ، لأنّ الكريمَ يُنَجِّى نفسَه ، ويُنْهِضُ حِيلَتَهُ إذا جَدَّ جِدُّهُ[2] وكاد عَدوُّه يَغلِبُه وتعلو عليه يدُهُ . هذا إذا جعلت ابن أوْسٍ هو الذى حَدَّثَ نفْسَه وأكدّ طَمَعَه ويمينَهُ بأنه سَيَأْسِرُ الشاعرُ . فأمّا إذا جعلْتَ ابن أوْسٍ أسيراً وراجيًا أنه سيفُكُّ زَيْدُ الفوارسِ إسارَهُ ، ويحُلُّ عِقاله ، فالمعنى فى « قَصَرْتُ له من صَدْرِ شَوْلَةَ » أنه بيَّنَ كيف حقَّقَ رجاءه ، ومن أين وصَلَ إلى تخليصه . وفى قوله « إنما يُنَجِّى من الموْتِ الكريمُ » أنه خَلَّصَ نفسَه لمَّا عَلَّقَ الرَّجاءَ به ، وجعَل يَحلِفُ أنّ خَلاصَهُ بسَعْيِه وتعطُّفه ، لأنه بعَثَه ذلك على أن يكون عند ظَنِّه به .

٣ – دَعَانِى ابْنُ مَرْهُوبٍ عَلَى شَنْءِ بَيْنِنَا فَقُلْتُ له إنّ الرِّماحَ مَصَايِدُ

حَوَّل كلامَهُ إلى قِصَّةٍ أُخْرَى فقال : استغاثَ بى هذا الرَّجُلُ على ما بيننا من عَدَاوَةٍ وبَغْضَاء ، فأجَبْتُهُ بعد أن هَوَّنْتُ عليه ما خافهُ أوَّلاً ، وصَغَّرْتُ فى

(١) من قصيدة لحريث بن عناب ، فى مجالس ثعلب ٦٠٤–٦٠٧ ، والخزانة (٤ : ٥٨٣) .
(٢) فى الأصل : « جاء جده » ، صوابه فى م والتيمورية .

هاجِسِه ما أَكبَرَهُ ثانياً ، وبَيَّنْتُ أن الرِّماحَ حبائلُ الرِّجال الكِرام فى الحَرْبِ ومصايِدُهُم ، فلا تُبَالِ بالمَوْتِ إذا كانَ على وجْهٍ لا يتعقَّبُهُ عارٌ ، ولا يصحَبُهُ هوان . وكما جَعَلَ هذا الشاعرُ الرُّمْحَ آلةً فى صَيْدِ الأبطالِ ، جَعَلَ غيرُهُ الصَّيْدَ له لا به ، فقال :

وإنّى لَمِنْ قَوْمٍ تَصِيد رِماحُهُمْ   غَداةَ الصَّباحِ ذا الحُدُورةِ والحَرْدِ

وقوله « على شَنْءٍ بَيْنِنَا » فى موضع الحال ، يقال شنِئْتُهُ أشنَؤُهُ شَنْئًا ومَشْنَأَةً وشَنَآنا .

٤ — وقُلتُ لَهُ كُنْ شِمَالِى فإنّنى   سَأَكْفِيكَ إنْ ذَادَ المَنِيَّةَ ذَائِدُ

يقول : تعَطَّفْتُ عليه وأخَذْتُ بالفضل مَعَهُ بعد استنصاره ، وإظْهارِ حاجَتِهِ وإذْعَانِهِ ، ورسَمْتُ له الكَوْنَ فى الجانب الأيسرِ مِنّى ، واثِقاً بِحسنِ مُحافظتى ، وجميل مُدَافعتى ، ومُعْتَمِداً من جِهَتى على أنى سأكفيه المحذورَ إن دَفَعَ الموتَ دافعٌ . والمُرَادُ : إنْ فَعَلَ أحَدٌ من الناسِ ما لا يُطَاقُ من دفعِ المحتومِ فَعَلْتُهُ أنا مَعَكَ ، اعتناءً بأمْرِكَ ، وإيثاراً لصيانتك ، وتحرِّياً للمحاماةِ عليكَ . وإنّمَا قال « كُنْ عن شِمالِى » لأنّه موضعُ المُعَانِ المَنْصُورِ ، واليمينُ مَوْضِعُ النَّاصِرِ . يقالُ : أنا على يمينك وعن يمينك ، أىْ ناصِرُكَ .

١٨١

وقال الوَقَّادُ بْنُ المُنْذِرِ(١) :

١ — لَقَدْ عَلِمَتْ عَوْذٌ وبُهْثَةُ أنّنى   بِوَادِى حُمَامٍ لا أُحَاوِلُ مَغْنَمَا

(١) كذا فى النسخ . وعند التبريزى وابن جنى : « الرُّقاد بن المنذر بن ضرار الضبى » . قال ابن جنى : « هذا فى الأصل مصدر قد يرقد رقاداً ، ودخول اللام عليه وهو علم يمكن فيه حال الصفة كالحارث والطفيل . وهذا إنما هو على جريان المصدر صفة نحو قولهم هذا رجل رقاد ، أى راقد ، كقولهم هذا رجل عدل ، أى عادل » . والظاهر أنه شاعر جاهلى .

بُهْثَةُ من سُلَيْمٍ ، بَطْنٌ مِنهم ، والبُهْثَةُ في اللغةِ : وَلَدُ البَغِيِّ . والبَهْثُ البِشْرُ وحُسْنُ اللِّقاء . والحمامُ ، بضمّ الحاء : حُمَّى الإبل والدَّوابّ . وفى طريقةِ هذا البيت قولُ عنترة :

يُخبِرْكِ مَنْ شَهِدَ الوَقِيعَـةَ أَنَّنى أَغْشَى الوَغَى وأَعِفُّ عِند المَغْنَمِ

المعنى : واللهِ قد عَلِمَ هاتانِ القبيلتان أنى فى هذه الوَقْعَةِ الوَاقِعةِ بهذا الوادى لم أشْتَغِلْ باجترار المَنَافع(١) ، واحتواء المغانم ، وإنما قَصَرتُ سعيي على طَلَب الثَّار ، وإدراك الأوتار .

٢ — ولـكنَّ أَصحابى الَّذينَ لَقِيتُهُمْ تَعَادَوْا سِرَاعًا واتَّقَوْا بابن أَزْنَما

أرادَ بالأصحاب من لاقَاهُ من الأعْدَاء . ومعنى تَعَادَوْا سِرَاعًا : تبادَرُوا مُسْرِعين وتسابَقُوا ، وهذا من العَدْوِ . ويجوز أن يَكُونَ من عَادَى بَيْنَهُمَا ، أى وَالَى ، فيكون المعنى توَالَوْا . ومن هذا قولُهم : تَعَادَى القومُ ، أى مات بعضُهم فى إثْرِ البَعضِ . وقوله « واتقَوا بابن أَزْنَمَا » ، يريدُ جَعَلُوهُ بيْنِي وبَيْنَهُم ، وهذا الرجل الذى استَجَنُّوا به كأنّه كانَ مِدْرَهَ الـكتيبة . وإنَّما ثَبَتَ فى وجهِ القومِ يَشْغَلُهم ليَسْلَمَ أصحابه ، ويأخُذُوا المُهْلَةَ فى الفِرار . وفى الحديث : « كُنَّا إذا احمَرَّ البَأْسُ اتَّقَيْنَا برَسُولِ الله صَلَّى الله عليه وسَلَّمَ » .

٣ — فرَكَّبْتُ فيهِ إذْ عَرَفْتُ مَكَانَهُ بِمُنْقَطَعِ الطَّرْفاءِ لَدْنًا مُقَوَّمَا

يقول : طعنتُه لمَّا عرَفْتُ مَحَلَّهُ من أصحابه ، وموضِعَهُ من البَلاء والمُحَامَاةِ فيهم ، برمحٍ لَيِّنٍ مُثَقَّفٍ ، عند مُنقطَعِ الطَّرْفاء . والطَّرْفاء : شجرٌ . ومُنْقَطَعُه : المـكان الذى يَخلُو منه على اتِّصاله بمنابته . وقال الأصمعيُّ : واحدُ الطَّرفاء طَرَفَةٌ

(١) فى الأصل : « باحتراز » ، صوابه فى م والتيمورية .

كَقَصَبَةٍ وقَصْبَاء . والباء من قوله « بِمُنقَطَعِ » يتعلَّقُ بقوله « رَكَّبْتُ » على ما فسَّرْنَاهُ . وكان لا يمتنع أن يكون معنى قولِهِ عَرَفْتُ مكانَهُ ، عَرَفْتُ مَوضِعَهُ ومَقَامَهُ ، لأنَّ الرئيس يُخْفِي مكانَهُ ويُخْمِل نفسَه كثيرا ، وحينئذٍ يتعلَّقُ الباء من قولِهِ بمنقطَعِ الطَّرْفاء بقولِهِ مكانَهُ ، ولكِنَّ قولَهُ « واتَّقَوْا بابن أَزْنَمَا » يأبَى إلَّا القَوْلَ الأَوَّل .

٤ — وَلَوْ أَنَّ رُمْحِى لم يَخُنِّى انكِسَارُهُ جَعَلْتُ لَهُ صَالِحِى القَوْمِ توءَمَا[1]

نِسْبَةُ الخيانة إلى الرُّمْحِ لمَّا انكَسَر كَنِسْبةِ العَجْزِ إلى الحبلِ إذا لم يَصِلْ ، من قَوْلِهِمْ حَبْلٌ عاجِزٌ . والتَّوْءَمُ ، زِنَتُهُ فَوْعَلٌ ، واشتقاقه من الوَأْمِ ، والتاء فيه مبدلَةٌ من الواو ، وكأنَّ الوَلَد واءَمَ فى الإتيان غيرَه ، أى وافَق . وكما توسَّعوا فيه هاهنا فأُخرِج إلى باب غير باب الولد والولادة ، تُوُسِّعَ فيه فى قوله :

قالت لنا ودَمْعُها تُؤَامُ كالدُّرِّ إذْ أَسْلَمَهُ النِّظامُ[2]

وقد أحكمتُ القولَ فيه وفى تصريفه وجَمْعِهِ فى شَرْحِ كتاب الفَصِيح . فيقول : لولا أنَّ رُمْحِى خانَنِى حين أَعْمَلْتُه فى هذا الرَّجُل فانْكَسر ، لجعلتُ له نَظِيرًا من أشرافِ القَومِ وزُعمائهم حتَّى يصير معه كتَوْءَمَيْنِ . وخَصَّ الصَّالحِينَ منهم لأنَّهم يتبجَّحُون بقتل الملوك والرُّؤساء . فإن قيل : لِمَ ذَمَّ الإِجْرَارَ فى الطَّعْنِ وهم يحمدونَهُ حتَّى عَدَّ انكسارَ الرُّمْحِ خيانةً منه ؟ قالَ : الإجرار فِعْلُ الطاعن ، وهو محمودٌ ، وإنما ذَمَّ من الرُّمْحِ ضَعْفَهُ وقلَّةَ ثباته فى العمل ؛ وليس ذلك من الإجْرارِ فى شىء .

---

(١) التبريزى : « من صالح القوم »

(٢) الرجز فى إصلاح المنطق ٣٤٥ واللسان (تأم) بدون نسبة .

٥ — ولَوْ أن فى يُمْنَى الكَتِيبَةِ شَدَّتى إذًا قَامَت العَوْجاءِ تَبْعَثُ مَأْتَمَا

كأنَّه خَفِى عليه مكانُ واتره فلم يَعلَمْ أهو فى المَيْمَنَةِ أم فى المَيْسَرَة ، فأَخَذَ يتلهَّفُ على ما فاتَهُ منه . والشَّدَّةُ : الحَمْلَة ، فيقول : لو اتَّفقتْ حَمْلَتِى فى يُمْنَاهَا بَدَلاً من يُسْرَاهَا ، لقَامَتْ أُمُّهُ وقد ثَكِلَتْهُ تَهِيجُ المَأْتم ، وتَبْعَثُ على النَّوْحِ عليه النَّوائح ، ولكنْ ذَهابُ مَقامِه عن عِلْمِى هو الذى نَجَّاهُ منِّى . وجَعَلَها عَوْجاءَ إمَّا على طريق السَّبِّ ، كما قال :

كَمْ عَمَّةٍ لكَ يا جَرِيرُ وخَالَةٍ فَدْعَاءُ قد حَلَبَتْ علىَّ عِشَارِى[1]

فيكون العَوَجُ فى تلك لتفاوُت خِلْقَتِها ، وزوالها عن سَنَن الاستقامة ، كالفَدَعِ فى هَذِه . وإما أن يكونَ أراد أنَّها مَضْرُورةٌ مَجْهُودَةٌ مُعْوَجَّةُ الوَجْهِ ، مهزولَةٌ . وإمَّا أن يكونَ العَوْجاء لَقَبًا لهَا ، والمَأْتَم : أصْلُهُ فى الضَّمِّ والجَمْع .

١٨٢

وقال أيضاً :

١ — إذَا المُهْرَةُ الشَّقْرَاءُ أَرْكَبَ ظَهْرُهَا فَشَبَّ الإلٰهُ الحَرْبَ بينَ القَبائِلِ

رُوِى « أَرْكَبَ ظَهْرُها » . ويقال أَرْكَبَ المُهْرُ ، إذا حان أن يُرْكَب واسْتُصْلِحَ للإسراج والإلجام . وجَعَلَ الفِعلَ للظَّهر على التَّوسُّع إذْ كانَ موضعَ الرُّكوب ، ويكونُ أَرْكَب كما يُقالُ أَجَزَّ الحَضْرُ ، وأَحْصَدَ الزَّرْعُ . ويُرْوَى : « أَدْرَكَ ظَهْرُها » المَعْنَى بَلَغَ حَدَّ الرُّكوبِ والانتفاعِ به ، وهذا كما يُقالُ أَدْرَكَ الثَّمَرُ ، إذا أَمْكَنَ الانتفاعُ به . فيقولُ : إذا بَلَغَ فَرَسِى هذا الحَدَّ فَهَيَّجَ اللهُ نارَ الحرب ، وأَقامَ سُوقَ التَّغاوُر بين القبائلِ ، حتَّى أتوصَّلَ بها إلى ما كنتُ

---

(١) البيت للفرزدق يهجو جريراً ، فى ديوانه ٤٥١ .

أُرِيدُه وأَنتَظِرُه . وارتفاعُ المُهْرَةِ بِفِعْلٍ مُضْمَرٍ بعد إذا ، يكونُ الظاهرُ تفسيرَهُ .

٢ ــ وَأَوْقَدَ نَاراً بينهم بِضِرَامِهَا   لَهَا وَهَجٌ لِلْمُصْطَلِي غَيْرُ طَائِلِ

هذا من جملة الدُّعاء . والكلامُ يَدُلُّ على استعجالِه بحصول الحالة المُتَمَنَّاةِ فيقول : وأَجَّج بينهم نار الشَّرّ بما يلهبُها حتَّى يصيرَ لها وَهَجٌ لا خَيْرَ فيه لمن يدنو منه ويَصْطَلِي به . وخَصَّ الضِّرام لأنَّهُ يُسْرِعُ ذَهابُ النّار فيه فيعلو لَهَبُها . إن قِيلَ : لِمَ كَرَّر طلبَ اتِّقاد النّار فى البيت الأوّل والثانى ؟ قلتَ : الأوّلُ أراد به نارَ الحربِ ، والثانى أراد به نار الخِلافِ والشَّرِّ المُنْتَتِج عن النَّمائم والوشايات ، حتّى أنَّ من دَخَلَ فيهم طَالِباً لإيقاع صُلْحٍ وصَلاحٍ بينهم لم يَقْدِرْ على إزالَتِه ، وكان خَلِيقاً بأن يَشْقَى شَقَاوَتَهُمْ ، ويدخُلَ مَداخلَهُم . وقد مَرَّ القَولُ فى طائلٍ ، وأنّه من الطَّولِ . ويقال : ما حَلِيتُ من هذا الأمرِ بطائلٍ .

٣ ــ إذَا حَمَلَتْنِي والسِّلاحَ مُشِيحَةٌ   إلى الرَّوْعِ لَمْ أُصْبِحْ على سِلْمٍ وائِلِ

المُشِيحُ والشائحُ والشَّيِحُ واحِدٌ . قال :

* مُشِيحٌ فَوْقَ شَيْحَانٍ[1] *

يعنى رَجلاً على فَرَسٍ . وقالَ :

* وشَايَحْتَ قَبْلَ القَوْمِ إنَّكَ شِيحُ[2] *

فيقُولُ : إذا جَالَ تَحْتِي وعليَّ سِلاحِي قاصداً إلى الحرب فَرَسٌ جادَّةٌ ، لم أُصَالِحْ وائِلاً ، ولم أرْضَ منها إلَّا بالشِّفاء والاشتفاء . والمُشَايَحةُ : المُحاذَرَة . والمُشِيحُ : الحازِمُ .

(١) عجزه فى اللسان (شيح) :

* يدر كأنه كلب *

(٢) لأبى ذؤيب الهذلى فى ديوان الهذليين (١ : ١١٦) واللسان (شيح) .
وصدره :   * بدرت إلى أولاهم فسبقتهم *

٤ — فِدًى لِفَتًى أَلْقَى إِلَيَّ بِرَأْسِهَا تِلَادِى وأَهْلِى من صَدِيقٍ وجَامِلِ

قولُه « أَلْقَى إِلَيَّ برأسها » أى وَهَبَها لِى ومكَّنَنى من قيادِها بنَفسِى . وذِكْرُ الرأس كما يُقالُ : هو يرتبط كذا رَأْساً وكذا ظهراً . وذِكْرُ الإِلْقاءِ كما يُقالُ : أَلْقَى إليه مقاليدَ الأمور . والمعنى : أَفْدِى بمالِى القَديم وأَهْلِى المُصادِقِين فتًى مكَّنَنِى من هذه المُهْرَةِ وملَّكَنِيها . وقوله « من صَدِيقٍ وجامِلٍ » دخلَ مِن علَى طريق التبيين ، فالصَّدِيقُ تفسيرُ الاهْلِ ، والجامِلُ تفسيرُ التِّلاد . وكأنَّ هذا الرجُلَ ينتظر إمكانَ الفُرصَةِ من أعدائِه لِينتهزها فى وقته ، ويَتمَنَّى اهتياجَ الشَّرِّ فى النّاسِ وتداعِى القبائل بالاوتارِ ، وتناهُضَهُم للقتال عند تكامُلِ عُدَّته ليجدَ طريقاً إلى مكاشَفَةِ مَن يُرِيدُ مُكاشَفَته ، وتسبُّباً إلى إدراك ما يُرِيدُ إدراكَهُ ، فلهذا عَلَّقَ الدُّعاء بإركاب المُهرِ ، وأجَّلَ الزَّمانَ فى ابتغاء المطلوب . وخَصَّ الصَّدِيقَ من أقاربه وذَوِيهِ لأنَّ النَّفسَ أَضَنُّ بهم ، كما خَصَّ الجامِلَ وهو ذكورُ الإبل وإناثها لأنَّها هى المالُ المُختارُ من الأزواج الثَّمانية . ويُروَى : « من صَدِيق وحَامِلٍ » بالحاء ، فيكون من تفسير الاهْلِ خاصَّةً ، كأنَّهُ يُرِيدُ وأَهْلِى من مُصَادِقٍ لى وبَارٍّ بى . ويقال : حَمَلَهُ على كذا مَرْكَباً ، إذا أعطاهُ . كأنَّه قال : كُلُّ من حَمَلَنِى على فرسٍ من أهلى فهو فداء لمن حَمَلَنِى على هذا المُهْرِ ؛ لأنَّهُ يَقَعُ دونَهُ فى القَدْرِ والمكانةِ .

١٨٣

وقال شَمْعَلَةُ بنُ الأَخْضَرِ (١) :

١ — ويَوْمَ شَقِيقَةِ الحَسَنَيْنِ لاقَتْ بَنُو شَيْبَانَ آجالاً قِصَارا

(١) هو شملة بن الأخضر بن هبيرة بن المنذر بن ضرار الضبى . شاعر فارس وأبوه الأخضر أحد سادات ضبة وفرسانها وشعرائها . المؤتلف ١٤١ . والأبيات التالية رواها الآمدى فى كتابه .

الشقيقةُ : رملةٌ تُشَقُّ من مَعاظِمِ الرَّمْل ، وهى فى الأصل صفةٌ فجُعِلَتْ اسمًا وأُلْحِقَ به الهاء . وقد قيل فيها إنها رَمْلةٌ بين رَمْلَتَيْن ، والحَسَنان قيل هُما رَمْلَتانِ ببلاد بنى تَميمٍ ، وقيل حَسَنٌ كَثِيبٌ ضُمَّ إليه قِطْعَةُ أَرْضٍ تقرُبُ منه فقيل حَسَنانِ ، كقولهم الكوفَتان والحِيرَتان . وهذه الأبيات فى مقتل بِسْطامِ ابن قيْسٍ ، قِيلَتْ عَلَى طريق التَّشَفِّى وإظهار الشَّماتة . يُرِيدُ : لاقَى بنو شَيْبانَ يومَ اجتماعِنا بهذا المكان آجالاً غير مُمتَدَّةٍ ، متقاصِرَةً عن الغايةِ التى كانت آمالُهم تنزِعُ إليها ، ويَعِدُهُم اغترارُهم بها .

٢ — شَكَكْنا بالرِّماحِ وهُنَّ زُورٌ صِماخَىْ كَبْشِهم حتى استدارَا[1]

الشَّكُّ : النَّظْم . يقول : انتَظَمْنا بالرِّماح والخَيْلُ مُنحرِفَةٌ للطعن صِماخَىْ رئيسِهم — يَعْنِى بِسطامًا — حتى دِيرَ به فسَقَط . وكان بِسطامٌ أغارَ فى بنى شَيبان على بنى ضَبَّةَ ، واستاقَ إبِلَها ، وكان رجالُ الحىِّ غائبين ، فلمّا أَحَسُّوا بذلك رَكِبُوا إثْرَهُ ، فلما لحِقُوه أخذَ بِسطامٌ يعرقِبُ الإبِلَ ، فقالوا : يا بسطام ما هذا السَّفَهُ ، إمّا أن تكونَ لنا أو لك ! ثم أُصِيبَ صِمَاخه — والصِّماخُ هو الخَرْقُ الباطِنُ الذى يُفضِى إلى الرَّأسِ — وقاتِلُ بِسطامٍ هو عاصم ابن خليفة الضَّبِّىُّ ، ويقال إنه كان مضعوفًا ، وفى ذلك اليوم رَأَتْهُ أُمُّهُ يَسُنُّ سِنَانَ رُمحِهِ فقالت : ما تُرِيدُ بهذا ؟ قال : أُريدُ أن أَقتلَ به بِسطاما ! فقالت الأُمُّ متعجِّبَةً ومُستنكِرةً : « اُسْتُ أُمِّكَ أَضيَقُ من ذاك ! » . وحُكِىَ أنه أَدْرَكَ الإسلام وأَسْلَمَ ، فكان إذا وَرَدَ باب عمر رضىَ اللهُ عنه يقول : عاصِمُ بن

(١) بين هذا البيت وتاليه عند الآمدى :

تَرَى الشَّقْراءَ تَرْفُل فى سَلاها وقد صار الدِّماءُ لها إزارا

كما رفَلَتْ وطاف بها العَذَارَى فتــاةُ الحىِّ بُردا مستعارا

خليفة ، قاتلُ بسطامِ بنِ قيْسٍ بالباب ! مُفتخِرًا . ومعنى « استدَارَ » ، أخذهُ دُوارُ الموْتِ . وقوله « شَكَكْنَا بالرِّماح » والشكُّ كان من واحدٍ منهم وبرُمْحٍ ، على عادتِهم فى نسبة الفِعل إلى القبيل وإن كان من أحدِهم ، لاشتراكِهم فى الرِّضا به ، وتجمُّعِهم لإيقاعِه . على ذلك قولُ الله تعالى : ﴿ فعقَرُوا الناقَةَ ﴾ وما أشْبهه .

٣ ــ فخَرَّ على الألاءَةِ لمْ يُوَسَّدْ وقَدْ كان الدِّماء له خِمارا

الألاءة : شجرةٌ حسنة المَرْأى ، قبيحةُ المُخْتَبَر ، ولهذا شُبِّه به كلُّ مَن قصُرَ مَخبَرُه عن مَنْظَرِه . قال :

فإنَّكُمُ ومَدْحَكُمُ بُجَيْرًا أبا لَجَإٍ كما امتُدِحَ الألاءُ[(١)]
يَرَاهُ الناسُ أخْضَرَ من بَعيدٍ وتَمْنَعُه المَرَارَةُ والإباء

ومعنى خَرَّ على الالاءة ، أى مالَ عليها لمَّا أُصيبَ . والمرادُ بالبيتِ : سَقَطَ بِسطامٌ لمَّا طُعِنَ على الألاءة وهو غيرُ مُوَسَّدٍ ، قد غُشِّيَ رَأْسُه ووجْهُه بالدم . قوله « لم يُوَسَّد » فى موْضِع الحال ، وهو بَيانٌ لِكوْنِه مقتولاً ، وأنَّ خُرُورَهُ كان لذلك . وعلى هذا قولُه تعالى : ﴿ خرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾ وما أشْبَهَهُ . والخَمَرُ والخِمَارُ : كلُّ ما غطَّاكَ .

١٨٤

وقال حُسَيْلُ بن سَجِيح[(٢)] :

١ ــ لقَدْ علِمَ الحيُّ المُصَبَّحُ أنَّنِي غَدَاةَ لَقِينَا بالشُّرَيْفِ الأَحَامِسَا

يقول : صَبَّحْتُهُ مُشَدَّدًا ومُخَفَّفًا ، إذا قصدتَه للغارة صباحا . وفى المَثَل :

(١) لبشر بن أبى خازم ، كما فى اللسان (ألا) .

(٢) التبريزى : « حسيل بن سجيح الضبى » . وحسيل بالتصغير كما فى النسخ والمبهج وشرح التبريزى . وأما سجيح فضبط فى النسخ بفتح السين ، وفى المبهج وشرح التبريزى بهيئة التصغير . قال التبريزى : « كان بنو ضبة انتجعوا أرض بنى عامر بالشريف ، فطلبتهم بنو عامر ، فسار حسيل فى أخريات بنى ضبة فمنع بنى عامر من النيل منهم » .

« صَبَحْنَاهُمْ فغَدَوْا شَأْمَةً[1] »

والأَحَامِسُ لقبٌ لبنى عامر ، وجُمِعَ جمعَ الأسماء وإن كان صفةً فى الأصل فهو كالأَبْطَح والأَجْدَلِ وأشباههما ؛ وقد تقدَّمَ القولُ فيه . والشاعر يقول : تيقَّنَ الحىُّ المُغَارُ عليهم صَبَاحاً أنى غداةَ لَقِينا بَنى عامرٍ بالشُّرَيف — وهو مَوْضِعٌ بِنَجْدٍ ، وكذلك الشَّرَفُ — أَبْلَيْتُ . وهذا الكلامُ منه استشهادٌ بمن دَافَعَ عنهم . وخَبَرُ أنّ فيما بَعْدَهُ ، وهو قولُه « جَعَلْتُ لَبَانَ الجَوْنِ » . وغداةَ لَقِينَا ظَرْفٌ له . فإن قيل : هَلاَّ جعلته ظَرْفاً لعَلِمَ أو لِلَقِينَا ؛ قلتَ : لا يجوز أن يَكُونَ ظَرْفاً لعَلِمَ ، لأنه إذا جُعِلَ كذلك صَارَ أجنبيّاً ممّا دَخَلَ فى صِلَةِ أَنّ ، وحائلاً بينه وبين خَبَرِه ، والفَصْلُ بين الموصول وما فى صلته بالأجنبى منه غير جائز . ولا يجوز أن يكون ظَرْفاً لِلَقِينَا ، لأنه مضافٌ إليه ، والمُضاف لا يجوز أن يكون عامِلاً فى المُضَاف .

٢ — جَعَلْتُ لَبَانَ الجَوْنِ للقَوْمِ غَايَةً مِن الطَّعْنِ حتى آضَ أَحْمَرَ وَارِسَا[2]

جَعلتُ ها هنا تعدى إلى مفعولين لأنه بمعنى صَيَّرْتُ . واللَّبانُ : الصَّدر من الفَرَس . والوَرْسُ : صِبْغٌ أحمر معروف . وثَوْبٌ وَرِسٌ ووارِسٌ . وأَوْرَسَ الرِّمْثُ ، إذا اصفَرَّ ثَمَرُه ، فهو وارِسٌ ، وهو أحد الحروف التى جاءت على أفعل فهو فاعِلٌ ؛ ولا يقال مُورِسٌ . ورُبَّما[3] فُسِّرَ الوَرْسُ على الزَّعْفران . يقول : ثَبَتُّ فى وجوه القوم فصيَّرْتُ صَدْرَ فَرَسى للطَّعْنِ ومَوقِعاً ، حتى صار لسَيَلان الدّمِ عليه أحمرَ كالوَرْس .

(١) المثل عند الميدانى (١ : ٣٦٧) .
(٢) التبريزى : « وروى ، غابة . أى صار كالأجمة من كثرة ما انكسر من الرماح فيه » .
(٣) فى الأصل : « وإنما » صوابه فى م والتيمورية .

٣– وَأَرْهَبْتُ أُولَى القَوْمِ حَتَّى تَنَهْنَهُوا ... كَمَا ذُدتَ يَوْمَ الوِرْدِ هِيماً خَوَامِسَا

يقول : خَوَّفْتُ أوائِلَهُم حتّى كَفُّوا وتَنَكَّسُوا ، كما تَكُفُّ إبلاً عِطاشاً ورَدَتْ لخِمْسٍ ، فازْدَحَمَتْ على الماء يَوْمَ الوُرُودِ . والهِيم : التى بها الهُيَام ، وهو داء يصحبه العطش الشديدُ . جعلَ أوائلهم تتبادَر وتزدَحم حرصاً على القِتال ، مبادرة الهيم وازدحامها على الماء وَرَدَتْ لِخِمْسٍ . وهذا التّشبيه من باب التصوير ، وقد تَقَدَّمَ القَوْلُ فى شَرْحِهِ . وقوله : « تَنَهْنَهُوا كما ذُدتَ » يجوز أن يكون أراد حتَّى ذُدْتُهُمُ كما ذَدت ، فوضَع تَنَهْنَهوا بدله ودالاً عليه . ويجوز أن يكون أراد : كما نَهْنَهْتَ يَوْمَ الوِرْد إذا ذُدتَ هِيما ، فوضع ذُدتَ موضعَهُ . ويجوز أن يكون المراد : أرْهَبْتهُم كما أرهبتَ ، فوضع ذُدت مَوْضِع أَرْهَبْتَ ، وهذا أقرب .

٤– بِمُطَّرِدٍ لَدْنٍ صِحَاحٍ كُعُوبُهُ ... وذِى رَوْنَقٍ عَضْبٍ يَقُدُّ القَوَانِسَا

٥– وَبَيْضَاءَ من نَسْجِ ابْنِ دَاوُدَ نَثْرَةٍ ... تَخَيَّرْتُها يَوْمَ اللّقَاءِ المَلاَبِسَا

الباء من قوله « بمُطَّرِدٍ » تعلَّقَ بقوله أَرْهَبْتُ . فيقول : خَوَّفْتُهُم بالبُرُوزِ لهم ، ومعالَنَةِ ذوى الحِشمةِ بالتَّنَكُّرِ معهم ، والشَّدِّ عليهم برُمحٍ مُسَوًّى لَيِّنٍ صحيح الكُعُوبِ والأنابيب ، وسيفٍ ذى ماء ، قاطِعٍ نافِذٍ فى القَوَانِس ، لا يَنْبُو ولا يَرْتَدِع . ومعنَى الاطِّراد فى الرُّمْحِ تقوُّمُه وتَوافُقُ أنابيبه عند الهَزِّ . والقَوَانِس : أَعْلَى البَيْضِ ؛ وقَوْنَسُ الفَرَسِ منه ، وهو العَظْمُ الذى تحْتَهُ العُصفوران . هكذا قال أبو عبيدة . وقال الأصمَعىُّ : هو والعُصْفُورَانِ سَوَاء ، والقَدُّ : القَطْعُ طُولاً ، فإنْ كان عَرْضاً فهو القَط . وقولُه « وبيضاء من نسجِ ابن داوُدَ » فإنَّهُ عَنَى به دِرْعاً ، والمُرادُ تَعْدَادُ عُدَّتِه واحِداً واحِداً . أى أرهبتُهُمْ بدِرْعٍ نقيّة اللَّون من الصَّدَأ داوُدِيَّةٍ واسِعَةٍ ، اخترْتُها من الملابِس يومَ

اللِّقاء . وإنّما قال « من نَسْجِ ابن دَاوُد » كما قال الآخر[(١)] :

* ونَسْجُ سُلَيْمٍ كلَّ قَضَّاءَ ذائِلِ[(٢)] *

وللعَرَبِ عادةٌ معروفَةٌ فى إقامَةِ الأبِ مَقامَ الابنِ ، والابنِ مَقامَ الأبِ ، وتسميةِ الشَّىء باسم غيره إذا كان من سَبَبِه . والأعلامُ لا يدخُلها المجازُ ، ولكن تُستَعارُ إذا حَصَل بها القصدُ وأُمِنَ معها اللبْسُ عند الذِّكر . وانتَصبَ اللابِس على المفعول ، لأنَّ الفِعلَ بعد انحذافِ حرفِ الجرّ منه وَصلَ إليه فنصبه . وأصْلُها تخيَّرتُها يومَ اللِّقاء من اللابِس . ومثله قولُه تَعالى : ﴿ واخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لميقاتِنا ﴾ . والمُرادُ : اختار موسى من قومه ، ومثلُ هذا من الحذف لا ينقاس .

٦— وحِرْمِيَّةٍ مَنسُوبَةٍ وسَلَاجِمٍ خِفَافٍ تَرَى عَنْ حَدِّهَا السَّمَّ قَالِسا

يريدُ : وبقَوْسٍ مُتَّخَذَة من شَجَر الحِرْم[(٣)] ، لها نَسَبٌ لجَوْدَتِها وعِتْقِ نجارِها ، حتَّى يُقالُ فيها : مَلَكَها فلَانٌ ، وورِثَهَا فلانٌ ، واتخذَها فلان ، وهى القَوْس التى من شأنِها كَيْتَ وكَيْتَ ، وبِنِصالٍ طِوَالٍ خِفافٍ تَقْلِسُ حُدُودُها السّمَّ وتَرْشَحُهُ ، لأنّها أُمْهِيَتْ به وشُرِّبَتْهُ . والقَلْسُ : القَيْءُ ، يقالُ قَلَس قَلْسا ، ثم يقال للدَّسْعَةِ تخرجُ إلى الفمِ القَلَسُ ، بتحريك اللام . والسَّلاجِمُ : الطِّوال ، وأرادَ بها النَّبْلَ كما هِيَ ، ويقال حِرْمٌ وحَرَمٌ . وانتصَبَ قالِسًا على الحال للسَّمّ ، كأنّه قال : تَرَى السّمَّ ذَا قَلْسٍ ، أى مَمْجُوجًا بِهِ مُلقًى من جوانِبِ حُدودِها .

---

(١) هو النابغة الذبيانى . ديوانه ٦٤ واللسان (قضض ، ذيل) .

(٢) صدره : * وكل صموت نثلة تبعية *

(٣) ياقوت : الحرم : أحد الحرمين ، وهما واديان ينبتان السدر والسلم يصبان فى بطن الليث فى أرض اليمن .

٧ ــ فَمَا زِلْتُ حَتَّى جَنَّنِي اللّيْلُ عَنْهُمُ ... أُطَـــرِّفُ عَنِّى فَارِساً ثم فَارِساَ

يُرْوَى « أطرِّف فُرْسَانًا وأُلْحِقُ فارِسا » . يقول : لم أزَلْ بياض ذلك اليوم أدفعُ فى جوانبِ مَجَالِي وأطْرَافِ أَرْضِى ، الفارسَ بعد الفارسِ ، إلى أن تَغَشَّانى الظَّلامُ فَحالَ بينى وبينهم ، وسترَ كلاًّ مِنّا عَنْ صاحِبِه . ومَعْنَى أطرِّفُ أجْعَلُهُ منِّى فى طرَفٍ ، وموضِعُهُ من الإعْرَاب نَصْبٌ على أن يكون خَبَر ما زال . وأراد بقوله « فَارِساً ثم فارساً » المداومةَ والاتِّصال . أى لم أَفْتُرْ عَنْ دِفاعِهِمْ وقتاً واحِداً بعد وَاحِدٍ . وهذا كما يُقال : جاءنى بنو تميم واحداً فواحداً ، أى تَوَالَوْا أفْرَاداً . ومن رَوَى « أطَرِّفُ فُرْسَانًا وأُلْحِقُ فارِساً » فالمعنى أسُوقُ فُرسانًا وأذُودهُمْ عنِّى ، وقد أُلْحِقَ فى الطَّرْدِ الواحد بَعدَ الواحد فأصيبُه .

٨ ــ ولا يَحْمَدُ القَوْمُ الكِرَامُ أخاهُمُ الْــ ... ـمَتيدَ السِّلاحِ عَنْهُمُ أَنْ يُمَارِسَا

هذا الكلَامُ تَبرُّؤٌ من التحَمُّد بما فَعَلَ إلى الناس ، وتَرْكٌ للتَّبَجُّح بالدِّفاع حينَ دافع ، وإظهارٌ لأنّ مَذْهَبَ الكرام ذلك وأنّ الواجب فى اعتقادِهم ألَّا يُحْمَدَ الواحدُ منهم إذا قاتلَ دُونَهم ، أو مارسَ الشِّدَّةَ فيهم ولَهُمْ ، مَتَى كان تامَّ السِّلاحِ ، مُزَاحَ العِلَلِ ، إذْ كان ذلك دَأْبَهُم ودينَهُمْ ، وإذْ كان سبيلُه فيما يأتيه كمن يُؤَدِّى الفَرضَ الذى لا يحتمل التَّضجيع ، والحَتْمَ الذى لا يَسُوغُ التجوُّز فيه والتأويلُ . وقوله « عَنْهُم » يَتَعَلَّق بالعتيدِ السِلَاح ، ولا يجوز أن يَتعلَّق بيمارِس ، لأنَّه لو كان كذلك لكانَ فى صِلَةِ أَنْ ، فلم يجُزْ تقدُّمُهُ عليه . ويكونُ المعنى : أَخاهُمُ المُعِدَّ السِّلَاح عنهم ، النائِبَ مَنابَهُمْ . ومعنى أخاهُمْ الواحِد منهم ، كما يقالُ : يا أخا بَكْرٍ أو تميمٍ .

١٨٥

وقال مُحْرِزُ بن المُكَعْبَرِ (١) :

١ – نَجَّى ابنَ نُعْمَانَ عَوْفًا من أَسِنَّتِنَا إيغَالُهُ الرَّكْضَ لمَّا شالَتِ الجِذَمُ

قال الخليلُ : الإيغالُ : الإمعانُ فى السَّيْرِ مع دُخُولٍ فيما بين جِبالٍ أو فى أرضِ العَدُوِّ . وقال غيره : هو الإسراعُ فى إبْعَادٍ . يقولُ : أنقَذَ هذا الرَّجُلَ من رماحِنا استعجالُهُ فرسَهُ ، واستحثاثُه بالرَّكْضِ إيَّاهُ ، لمَّا رُفِعَتْ بَقَايَا السَّوْطِ تُخَوِّفُ بها الخَيْلُ ، ويُسْتَدَرُّ منها العَدْوُ . وهذه إشارةٌ إلى وقت الانهزام وجِدِّ الطَّالبين فى اللَّحاقِ . والرَّكْضُ ينتصبُ على أنَّه مفعولٌ من الإيغال ، كَمَا يُقَالُ أبْعَدَ السَّيْرَ ، وأسْرَعَ السَّيْرَ . ويجوز أن يكون مصدراً موضِعَ الحال ، كأنَّه قال إيغالُه راكِضًا . وأُدْخِلَ الألف واللام على حَدِّ دخولِهما فى قوله :

* فأرْسَلَهَا العِرَاكَ (٢) *

و : * أَوْرَدَهَا التَّقْرِيبَ والشَّدَّ مَنْهَلا *

وما أشبهه . وجِذْمُ كلِّ شىء : أصْلُه ؛ يقالُ جذَمْتُ الشىء ، إذا قطعتَهُ . والجِذْمَةُ : القِطْعَةُ من الحَبْلِ وغيرِهِ .

---

(١) هو محرز بن المكعبر الضبى ، من ولد بكر بن ربيعة بن كعب بن ثعلبة بن سعد ابن ضبة بن أد بن طابخة بن الياس بن مضر . قال الأنبارى : « ولم يلحق يوم الكلاب » وفى العقد فى يوم الكلاب الثانى : « وقال محرز بن المكعبر الضبى ولم يشهدها » . والمكعبر ضبط فى أصول شرح المفضليات بكسر الباء ، ويؤيده ما فى اللسان : ويقال كعبره بالسيف ، أى قطعه . ومنه سمى المكعبر الضبى ، لأنه ضرب قوماً بالسيف » . وأجاز التبريزى تبعاً لابن جنى فتح الباء وكسرها منه . وانظر المفضلية رقم ٦٠ .

(٢) قطعة من بيت للبيد فى ديوانه ١٢١ واللسان والمقاييس (عرك) . وهو بتمامه :

فأوردها العراك ولم يذدها ولم يشفق على نغص الدخال

٢ — حَتَّى أَتَى عَلَمَ الدَّهْنَا يُوَاعِسُهُ وَاللهُ يَعْلَمُ بِالصَّمَّانِ ما جَشِمُوا

الدَّهْنَا ببلاد تَميمٍ. وقال الخليلُ: الدَّهْنَا موضعٌ رَمْلٌ كُلُّه، والنَّسَبُ إليه دَهنَاوِيٌّ. ومعنَى يُواعِسُه يَسيرُ في وعْسَائه، وهي الرَّملةُ اللَّيِّنَةُ، والسَّير فيها يَصْعُب. ويقالُ: وَعَسْتُ المكانَ وَعسًا، إذا وَطِئْتَهُ وطأً شديدًا، ويُسَمَّى الأَثَر الوَعْسَ. وسُمِّيَ ضربٌ مِن سَيْرِ الإبل المُوَاعَسَةَ من هذا. وحقيقةُ قَوْله « يُوَاعِسُهُ » يُوَاعِسُ إليه أو فيه، أي يَمُدُّ سَيْرَهُ إليه وفيه. والصَّمَّانُ: الأرضُ الصُّلْبَةُ، واحِدَتُهُ صَمَّانَةٌ، وموضِعُ ما من قَوْلِهِ ما جَشِمُوا نَصْبٌ على المفعول مِن جَشِموا، فيقول: أوغَلَ الرَّكْضَ حتَّى بَلَغَ جِبالَ الدَّهْنَا، مُوَاعِسًا في رَمْلِهِ، واللهُ يَعْلَمُ أيَّ شيءٍ تَكَلَّفَهُ هو وأصحابُه من السَّير في الصَّمَّان. وموضِعُ يواعِسُهُ نَصْبٌ على الحال، ويجوز أن يكون مَوْضِعُ ما مِنْ قَوْلِهِ ما جَشِمُوا نصْبًا على المفعول من فِعْلٍ دَلَّ عليه، والله أعْلَمُ. ومِثْلُهُ في القرآن: ﴿ اللهُ أعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالاتِه[1] ﴾. وقد تقَدَّم القول فيه.

٣ — حتَّى انْتَهَوْا لِمِياهِ الجَوْفِ ظاهِرَةً مَا لَمْ تَسرْ قَبْلَهُمْ عَادٌ ولا إِرَمُ[2]

الجوْفُ وادٍ. وظاهِرَةً انْتَصَبَ على أنَّه ظَرْفٌ، ويقال: وَرَدَ الماء ظاهِرَةً، إذ وَرَدَ نِصفَ النَّهار؛ واشتقاقُه من الظَّهيرة. وأظْهَرْنَا: صِرنا في الظَّهيرة: وقد جُعِل اسْمًا لهذا الظِّمْءِ. وقوله « ما لَمْ يَسِرْ » أراد سيرًا لم يَسِرْهُ قَبْلَهُمْ أحدٌ، أو انتهاءً لم يقدر عليه إنسانٌ. وعلى هذا يكونُ ما في موضع

(١) هذا ما في م والتيمورية، وهو الوجه. انظر ما سبق في ص ٤٤١ س ١٢. وبدلها في الأصل: « هو أعلم بمن يضل عن سبيله ».

(٢) وضعت نقطتان فوق الحرف الأول من « يسر » ونقطتان تحته ليقرأ بالتاء والياء، وذلك في نسخة الأصل. وأما في م والتيمورية والتبريزي فالرواية « تسر » بالتاء.

التبريزي: « وأبو هلال: عاد وإرم واحد فجعلهما اثنين. وظاهرة، أي مظهرة. ويجوز أن يجعل ظاهرة حالا للمياه ».

النَّصْب على أنّه مصدرٌ ممّا دَلّ عليه حتّى انتَهَوْا ، وتلخيص الكلام : حتّى ساروا إلى مياهِ هذا الوادِي نِصفَ النَّهارِ سَيْرًا لم يَسِرْ مِثْلَهُ واحِدَةٌ من هاتين الأُمّتَين ، والمعنى أنّهُم حَمَلَهم الرُّعْبُ الذى تَدَاخلَهم ، والاجتهادُ فى الخلاص من الهزيمة المستولية عليهم ، على أن يقطعوا ما بين المكانَيْن المذكورين فى يَوْمٍ وليلةٍ ، لأنّهم كانوا فى اليوم الأوّل بالصَّمّان ، وفى اليَوْم الثانى بالدَّهْنَا ، وذلك شاقٌّ مُسْتَبْعَدٌ وُقُوعُه .

١٨٦

وقال عامرُ بن شَقِيقٍ[١] :

١ — فإنّكِ لو رَأَيتِ ولَنْ تَرَيه أَكُفَّ القَوْمِ تَخرِقُ بالقُنِيِّنَا[٢]

يخاطِبُ امرأةً مُفَظِّعًا للشأن الذى مُنُوا به ، ومُهَوِّلاً للأمرِ الذى دُفِعُوا إليه ، فيقول : لو رأيتِ ولا أراكِ اللهُ مِثْلَه مَشْهَدَ القومِ وأَكُفُّهُم تَخْرَقُ بالرِّماحِ لرَأَيتِ أمرًا هائلاً . وجوابُ لو محذوفٌ ، كما يقال : لو رأيتَ زيدًا وفى يده السَّيف . وقد مرَّ القولُ فى أنّ تَبقِيَةَ الإبْهام فى مثل هذا المكان بترك الجواب أبلغ فى الإفهام . وقوله « ولَنْ تَرَيْه » دعاء ، وأَكثرُ ما يقعُ الدُّعاء يقع بلا ، وبلَنْ يجىء قليلاً ، تقولُ : لن يُبارِكَ اللهُ فى كذا وتريدُ الدعاء ، كما تقولُ لا بارَكَ الله . وفَسَّرَ قُطرُبٌ قولَ الله تعالى : ﴿ رَبِّ بمـا أَنعَمْتَ عَلَيَّ فلَنْ

(١) ابن جنى فى التنبيه : « عامر بن شقيق الضبى » . التبريزى : « عامر بن شقيق ، من بنى كوز بن كعب بن بجالة بن ذهل بن مالك » .

(٢) روى التبريزى قبل هذا البيت :

أَلاَ حَلَّتْ هنيدةُ بطنَ قَوٍّ بأقواع المَصامة فالعُـونا

وقال : « قو : موضع . وأقواع : جمع قاع . والمصامة : موضع » . ونبه التبريزى على أنه يروى : « تخرق بالقلنا » ، وهو جمع قلة .

أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾ على أنَّهُ دعاء . ويجوز أن يكون قوله « وأنْ تَرَيْه » إخبارًا بأنها وقد فاتَها رُؤْية ذلك فيما مضى لا ترى مثله فى المستأنَفِ فظاعةً وشَناعةً ، وأنّ الخَطْبَ بلَغَ حَدًّا خَرَجَ به عن المعتاد المستجاز . وقولُه « تُخْرَقُ بالقُنِينا » أى تُثْقَب ، ومنه خَرَقْتُ الأرضَ واخترقتُها ، وريحٌ خَرِيقٌ . ويُروَى : « تَخْرُقُ » بفتح التاء وضمّ الراء ، وله وجْهان : أحدُهما أن يكون من الخُرْق : ضدّ الرِّفق ، كأنّ الأكُفّ كانت تَخْرُقُ فى الطَّعْن ولا تَرْفُقُ ، لشدّة الأمر ؛ وهذا حَسَنٌ . والثانى : أن يكون من الخَرْقِ ، كأنها تُشَقِّقُ بالطعنِ مُلتئِم الأحوالِ ومتواصِلَها وتُمَزِّقُها ، كما قال : ﴿وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ . وهذا الوجه أغرَبُ ويكون المفعولُ محذوفًا ، لأنّ الكلام يدُلُّ عليه . ومن روى « تُخْرَقُ » فالمعنى تُنْظَمُ . وإن جعلتَ الفِعْل للفاعل فروَيتَ « تَخْرُقُ » جاز أيضًا على أن يكون المفعولُ محذوفًا ، والمرادُ كأنها تَنْظِمُ مطعونِين فى شَدّةٍ وَحَمْلةٍ . والقُنِين : جمعٌ سالمٌ ، وهو نادرٌ ، وأكثر ما يجىء مِثلُه فى المنقوص كظُبَةٍ وظُبِين ، وثُبَةٍ وثُبِين ، كأنّه يجعل هذا البناء فى جَمْعِه جَبْرًا له[1] مما نقَصَ منه . ويجىء أيضًا كثيرًا فى أسماء الدَّواهى ، كالذُّرَبِين ، والأَقْوَرِين ، والفُتَكْرِين[2] ؛ كأنه بلَغَ بها رتبةَ الناطقين تهويلاً . وقد حُكِىَ كسر القاف من القِنِين وحينئذ يكونُ كَعِصًا وعِصِىّ ، ويكونُ وَزْنُه فُعُولاً والنونُ بدلٌ من لامِ الفِعْل . ويُحمَلُ على هذا الوجه سِنِينَ فى جَمْع سَنَةٍ .

٢ — بِذِى فِرْقَيْنِ يومَ بَنُو حُبَيْبٍ نُيُوبَهُمُ علينا يَحرُقُونا

قوله « بذى فرقين » يجوز أن يتعلّق بقوله لو رأيتِ ، ويجوز أن يتعلق بقوله تُخْرَقُ بالقُنِين ، كذلك قولُه « يومَ بنو حُبَيْبٍ » يجوز أن يكون ظَرْفًا

(١) م والتيمورية : « جبرانا له » . (٢) الفتكرين ، بكسر الفاء وضمها .

لكلّ واحدٍ من الفعلين لأنهما ظَرْفان : أحدهما للمكان والآخر للزمان . وأضاف اليومَ إلى الكلمة التى بعدَهُ لأنّ الأزمنة تضافُ إلى الجُمَل من الابتداء والخبر ، والفِعل والفاعل ، تبييناً لها . ويقال : هو يَحرُقُ أنيابَه ، إذا حَكّ بعضَها ببعضٍ تهديداً . ويقالُ أيضاً : هو يَحرُقُ عليه الأُرَّم ، وَيعلُكُ عليَّ الأُرَّم ، أى يصرفُ بأنيابه تغيُّظا . وحَكَى فيه الأزّم بالزاء أيضاً . والأزْمُ : العضُّ . ويقالُ حرَقَه بالمِبرَدِ ، إذا بَرَدَه . وحَكَى أبو حاتم : فُلانٌ يَحرُق نابُه علىَّ ، برفع الناب . قال : لأنه هو الذى يَحرُقُ . وبيتُ زهير[1] يَشهَدُ لذلك . وأنشد :

أَبَى الضَّيْمَ والنُّعمانُ يَحرُقُ نابُهُ عليه فأفضَى والسُّيوفُ مَعاقِلُه

٣ ـ كَفَاكِ النَّأْىُ مِمَّنْ لَمْ تَرَيْهِ ورَجَّيْتِ العَواقِبَ لِلبَنِينا

كأنه وَكَلَها إلى الاعتبار بعد ما فاتَها من مشاهدة الحال ، ودَعاها إلى الاستدلال ، والاكتفاء فيه بما آل إليه أمرُها فى أعِزَّتِه مع غَيبَتِهم عنها . فيقول : أغناكِ بُعْدُكِ إذا نَظَرْتِ واعتَبرتِ عن الاستكشاف والسؤال ، وإنْ تَلَهَّفتِ لما تُدرِكيه من مساقِطِهم ، ولم تُشارِفيه من مصارعِهم ، وحالُكِ أنَّكِ عَلَّقتِ رَجاءَكِ بالأولادِ ، وبأن يُحْسِنَ اللهُ العُقْبَى لهم إذا بلغوا طَلَبَ الأوتار ، ورأوا السعىَ فى دَرَكِ الثار ، وقَطَعتِ طمعَكِ فى الآباء ومَلَكَكِ اليأسُ منهم . وقولهُ « ورَجَّيْتِ » قد مَعَهُ مُضْمرةٌ ، لأنّ الماضى بتقدير قد معه يقع موقع الحال . وضَعَّفَ عينَه للتكثير ، كأنها كانت تكرِّر الرّجاء وتُجَدِّدُه مع كلِّ حادثةٍ ، وعند كل مُهِمَّة .

---

(١) م : « وبيت النابغة » . وليس كذلك . والبيت التالى فى ديوان زهير ١٤٣ .

١٨٧

وقال أبو ثُمَامَةَ بن عارمٍ(١) :

١ — رَدَدْتُ لِضَبَّةَ أمْوَاهَها وكادَتْ بلادُهُمُ تُسْتَلَبْ

يقول : اعتَنَيتُ بضَبَّةَ ، فأعَنْتُها على مُجاذِبِها ومُنازِعِها ، وحَفِظْتُ لها وعليها مياهَها وبلادَها ، ومراعِيَها ومَرادَها ، بعد أن شارَفوا التسليم والاستسلام ، والمُلايَنَةَ والانقياد ، حتى كادوا يُغلَبون عليها ، ويُمنَعُون من حقوقِهم فيها ، لما يَظهرُ على صفحات أحوالهم من التخاذُلِ ، ويَبنُون أمورَهم عليه فى التهاوُنِ والتَّواكُل .

٢ — بِكَرِّ المَطِيِّ وإنْعَابِهِ وبالكُورِ أرْكَبُهُ والقَتَبْ

الباء من قوله « بكَرِّ » تَعلَّقَ بردَدتُ . ويُرْوَى : « بكَرِّى المَطِيَّ » ؛ وساغ الوجهان لأنَّ المصدر يضاف إلى المفعول كما يضاف إلى الفاعل . ومُرادُه أن يُبيِّن كيفَ كانت نيابَتُهُ عنهم ، ومُدافعته دُونهم ، وكيفَ جاذَبَ أعداءَهُم وجادَلَ عنهم ، حتى تَوَصَّلَ إلى قمعهم ، ونزع أيديهم عمَّا أنشَبُوهَا فيه من أملاكهم ، وردِّهم دونَ ما سَوَّغُوهُ من اهتضامهم . والقَتَبُ أخفُّ من الكُور . وإنَّما ذَكَرَ هذه المراكب ليُبيِّنَ تَطاوُلَ الأَمَدِ بينه وبينهم ، وتَحمُّلَ أنواعِ المشاقِّ اللاحقة فى نزاعهم ، وليدُلَّ على كثرة مقاقلاتهم(٢) ، واختلافِ التَّردُّدِ فى مجالسهم وأماكنهم .

---

(١) التبريزى : « أبو ثمامة بن عازب الضبى » . ثم قال : « وقيل ابن عارم ، وقيل ابن غارب » .

(٢) هذا ما فى م . وفى الأصل : « ملاقاتهم » . وفى التيمورية : « مناولاتهم » وهذه محرفة عما فى م .

٣ ــ أُخَاصِمُهُمْ مَرَّةً قَائِمًا وأَجْثُو إذا ما جَثَوْا للرُّكَبْ

انتصبَ قائمًا على الحال؛ ونَبَّهَ بما أَوْرَدَهُ على امتداد المجاذبةِ، وتكرُّرِ المُحاجَّةِ، وعلى اختلاف الهيئات وتغيُّرِ الأوقات، وكلُّ ذلك بحسب اشتداد سَوْرَة الخصام ولينها؛ وأنَّهُ تَكَفَّلَ بالأمرِ معهم تَكَفُّلَ من تَعَيَّنَ عليه الفَرضُ في مُرَادَّتِهِمْ، فابتَذَلَ نَفْسَهُ معهم، ووطَّنها على مُصابَرَتِهم[1]، فإن قاموا قامَ معهم، وإن بركوا باراهمُ في بُرُوكِهِمْ، لئلاَّ يكونَ مُخِلاًّ بِمَعْرِضٍ يخرجون فيه، أو تاركاً لشيءٍ من نَصَبِهم. ويقال: جَثَا لرُكْبَتِهِ، إذا سَقَطَ.

٤ ــ وإنْ مَنْطِقٌ زَلَّ عن صَاحِبِي تَعَقَّبْتُ آخَرَ ذا مُعْتَقَبْ[2]

فَصَلَ بَيْنَ إنْ والفِعْل بقوله «مَنْطِقٌ»، ولو ظَهَرَ تأثيرهُ بالجزْم لم يَجُزْ ذلك فيه. وارتَفَعَ بِفِعْلٍ هذا الظاهر تفسيرُهُ. فإن قيل: فإنْ في أيِّ الفِعْلَيْنِ عَمِل؟ وهل تَقُولُ إنَّهُ عَمِل فيهما جميعاً؟ قُلْتَ: أمّا عمله فيهما فغير سائغ، لأنَّ أداةً واحِدَةً لا تَجْزِمُ شرطين في حالةٍ واحدةٍ، لكنّ الفِعْلَ المُضْمَرَ لما لم يَظهر صار في حُكمِ ما لم يُعتدَّ به، وإن كان الاسمُ يرتفع به، حتى صار التقدير: وإنْ زَلَّ مَنطِقٌ زَلَّ عن صاحبي. وقد رُوِي «تَعَقَّبْتُ» و«تَعَرْقَبْتُ»، ومعنى تعقَّبْتُ تتبَّعْتُ وطَلَبْتُ عَقْبَه؛ ومثله اعتَقَبْتُ. وقيل المُعتقَبُ أَخْذُ عُقْبَةِ الشيء، وهي آخِرُهُ. ومعنى تَعرقَبْتُ: عَدَلْتُ عنه وأَخَذْتُ في غيرِهِ. ويقال تعرقبتُ الفَرَسَ، إذا رَكِبْتَها من خَلْفِها. وعراقيبُ الأمور: التباساتها وطَلَبُ الحِيَلِ والحُجَجِ فيها، وأَنْشَدْتُ:

---

(١) في الأصل والتيمورية: «مصايرهم»، صوابه في م.

(٢) التبريزي: «ومن روى: معتتب، جعله من العتبة وهي الدرجة، أي آخذ في طريق فيه درج أعتتب فيها حتى أغلب. أي آخذ بحجة بعد حجة، كما يرتقي في الدرجة عتبة بعد عتبة».

فلا يَعْدَمْكَ عُرْقوبٌ للأْيِ إذا لم يُعْطِكَ النِّصْفَ الخَصِيمُ[1]

والمعنى : لا يَعْدَمْكَ حِيلَةٌ لالتواءِ خَصْمٍ عليك . وقال آخرُ :

* إذا حَبَا قُفٌّ له تَعَرْقَبَا *

أى عَدَلَ عنه فالتوَى . ومِثْلُ تعقَّبتُ فى إفادَتِه طلَبْتُ عَقْبَهُ وعُقباهُ : تفقدْتُ الشيءَ وتَمَهَّدْتُه ؛ لأن المعنى طلبْتُ فَقْدَهُ وعَهْدَه ، أى نَظَرْتُ هل فقدتُه وهل بَقِىَ على عَهْدِه . ومعنى البيت : إن بَدَرَتْ من واحدٍ منهم كلمةٌ لم يوفَّقْ فيها للصواب ، أو خِفْتُ عَوْدَها بغيرِ صَلاحٍ عَدَلْتُ عنها وطلَبْتُ مكانَها أُخرى ذاتَ مُتتبَّعٍ ، فأَعقَبْتُها بها .

٥ — أَفِرُّ من الشَّرِّ فى رِخْوِهِ فكيفَ الفِرارُ إذا ما اقترَبْ

قولُه فى « رِخْوِهِ » أى تَرَاخِيه . وهو رِخْوٌ ، أى مُستَرْخٍ . كأنه أرادَ : أهرُبُ منه ما لم يتشدَّدْ . ونَبَّه بهذا الكلام على أنه يَتفادَى من الشَّرِّ ما أمكن ، وأنه لا يَستعمِلُ البَغْىَ ولا يبتدئُ الخَصْمَ ، فإن جاء منه مالاَ مَعدِلَ عن اقتحامه ورُكوب البلوَى فيه ، ولا مُعَوَّلَ إلا على الصّبرِ على شدائدِه وتَوَسُّط الأَذَى العارض له خاضَهُ[2] مُتلقِّيًا لمكارِهه بمُدّته ، مُجاذِبًا للمنازعِين بأقصَى ما فى طوقِه وقوّتِهِ ، إلى أن يتحصَّلَ له الفَلَجُ والظَّفرُ ، أو يَتحصَّنَ عن لَوْم اللائمين بما يُقيمُه من العُذْرِ فى المُجاهدةِ والتثبُّت . ومثلُه قول هُدْبَةَ ابن خَشْرَمٍ :

ولا أَتَمَنَّى الشَّرَّ والشَّرُّ تارِكِى ولكنْ متى أُحْمَل على الشَّرِّ أَرْكَبِ

(١) رواية اللسان (عرقب) : « لوأى » بدل « للأى »

(٢) فى جميع النسخ : « خاصة » ، تحريف .

١٨٨

وقَالَ أَبُو ثُمَامَةَ أَيْضًا :

١ — قُلتُ لمُحْرِزٍ لما التَقَيْنَا … تَنَكَّبْ لا يُقَطِّرْكَ الزِّحَامُ

نَكَّبَ وتنَكَّبَ بمعنًى واحدٍ . ويقول هو أنكَبُ عن الحقِّ ، ومنه الرِّيح النَّكْباء ، لعُدُولها عن مهابِّ الرِّياح الأبع . وهذا الكلام تهكُّمٌ واستهزاء ، كأنَّه يرميه بأنّه لم يُباشِر الشّدائد ، ولم يُدفَع إلى مضايِق المجامع . فيقول : انحرِفْ مُتماسِكاً لا يُسقِطْك تزاحُم الناس . والتَّقطير : الإلقاء على أحد القُطْرين ، وهما الجانبان ، وكأنَّه يَخاف عليه أن يُداس بالقوائم ، كما يُخاف على الصِّبيان والنِّساء ، لقلّة غَنائِه ، وضَعْف ثباتِه . وهذا فى بابه أبلَغ ما مَرَّ بى . وفى طريقته قول حَجْلِ بن نَضْلَةَ :

جاء شَقِيقٌ عارِضاً رُمْحَهُ … إنّ بنى عَمِّك فيهِمْ رِمَاحْ

وقول سَبْرَةَ بن عَمْرٍو الفَقْعَسِىّ :

لاَ شيء يَعْدِلُهَا ولكنْ دُونَهَا … خَرْطُ القَتَادِ تَهاب شوكَتَها اليَدُ

وفى هذا تعريضٌ أيْضًا . ومن التَّعريض ما أُنشِدتُه عن اليَزِيدى [قال(١)] : أنشدنى الأصمَعِىُّ :

فَدَعْ شَوْكَ السَّيَال فلا تَطَأْهُ … وخُضْ إنْ خُضْتَ ماءً غيرَ غَمْرِ

وقول الآخر :

فأَرْضَكَ أَرْضَكَ إنْ تَأْتِنَا … تَنَمْ نَوْمَةً ليس فيها حُلُمْ

---

(١) هذه من م والتيمورية .

٢ ــ أَتَسْأَلُ السَّوِيّةَ وَسْطَ زَيْدٍ   أَلَا إِنَّ السَّوِيّةَ أَنْ تُضَامُوا

يُخاطِبُهُ مُقرِّرًا ومتوعِّدًا . والتقرير بألف الاستفهام ولا حرفَ نَفْيٍ مَعَهُ يكون فيما لا يُثبَتُ ولا يُستَجازُ كَوْنُهُ . والسَّوِيّةُ : الإنْصَافُ ؛ وهى من الاستِوَاءِ كالجرِيةِ والدَّنيَّةِ والخطيئة . وزَيْدٌ : قَبيلةُ المُخاطَب . فيقول على وجه الإنكار والهُزْء : أتَسْأَلُ إنصافَكَ وأنت وسطَ رَهطِك وفيما بين عشيرتك ومحلِّ عِزِّكَ . ثم قال : إنَّ من السَّوِيَّةِ اهتضامَكُمْ وضَيْمَكُم ، وهذا من باب إبدالِ الشىء من الشَّىء . كقول الآخر[1] :

* تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ[2] *

والضَّرْبُ لا يكون تحِيَّةً . والمعنى : أنَّهم يُعْطَون بَدَلَ الإنصافِ الظُّلْمَ ، لأنَّهم لا يَستحقُّون غيرَهُ ، ولأنّ النَّصَفَةَ لا تُصْلِحُهُم ولا توافِقُهُم .

٣ ــ فَجَارُكَ عِند بَيْتِكَ لَحْمُ ظَبْيٍ   وجَارِى عِنْــدَ بَيْتِى لا يُرَامُ

يَصِفُهُم بسُوء الوفاء ، وقلَّة المحافظة على عَقْدِ الجِوار ، فيقول : جارُكَ كالصَّيْدِ لمن يَطْلُبُهُ ، وبعَرَضِ الأكل والاستباحة لمن يريدُهُ ، وهذا وهو فى فنائِكَ ، وغيرُ مُفَارِقٍ لدارِكَ ، لضَعْفِ حِشمتك[3] وسقوطِ هِمَّتِكَ ، واستخفاف النّاس لِـقَدْرِكَ ووزنِكَ ؛ وجَارِى لا يُطْلَبُ ولا يُطْمَعُ فيه لتَحَصُّنِ مكانِهِ فى فِنـائى ، وتعزُّزِهِ بى ، ما دَامَ مُتَمَسِّكاً بحَبْـلِى ، أو مُعْتَصِماً بحِلْفِى . وإنما قال ذلك لأنَّ النِّزاع بينهما كان بسبب جارٍ . وإضافَةَ اللَّحْمِ إلى الظَّبْىِ فى نهـاية الموافقة للمعنى الذى يَقْصِدُهُ ، والغَرَضِ الذى كان يَرْمِيه . وقد جاء اللَّحْمُ غيرَ مُضَافٍ إلى اسم الصَّيد فى الـكناية عن الذُّلِّ والاهتضام . على هذا قَوْلُهم : هُوَ

(١) هو عمرو بن معديكرب الزبيدى . الخزانة (٤ : ٥٣) .
(٢) صدره : * وخيل قد دلفت لها بخيل *
(٣) هذا ما فى م والتيمورية . وفى الأصل : « جسمك » .

لَحْمٌ مُوَضَّعٌ، وهو لَحْمٌ على وَضَمٍ . وقد استُعْمِل الشَّحْمُ في مثْل ذلك ، على هذا قولُه :

* لِمَنْ كُنْتُ فيهِ شَحْمَهُ وأطايبَهْ *

وقولُ الآخر :

فَلَا تَحْسَبَنِّى يا ابْنَ أَزْنَمَ شَحْمَةً تَزَرَّدَهَا طَاهِى شِوَاءٍ مُلَهْوَجِ

وقد قال آخر سالكاً هذه الطريقة في الكناية :

* ولَسْتُ خَلَاةً لِمَنْ أَوْعَدَنْ[1] *

وقالوا في الذَّليلِ : هو قَنَعٌ، وهو قَنَعٌ بِقَرْقَرٍ ، وهو بَيْضَةُ البَلَدِ .

١٨٩

وقال عبدُ الله بن عَنَمَةَ[2]

١ — أَبْلِغْ بَنِي الحارثِ المَرْجُوَّ نَصْرُهُمُ والدَّهْرُ يُحْدِثُ بَعْدَ المِرَّةِ الحَالَا

قَوْلُهُ « والدَّهْرُ يُحْدِثُ » اعتِرَاضٌ حَصَلَ بينَ أَبْلِغْ بنى الحرثِ وبين مفعولِه الثانى : وهو قَوْلُه ، « إنَّا تَرَكْنَا فَلَمْ نَأْخُذْ بِهِ بَدَلًا » .

ومِثْلُهُ مِمَّا قد دَخَلَ الاعتِراضُ بينَهُ وبين المفعول قول أبى النَّجْمِ :

وبُدِّلَتْ والدَّهْرُ ذو تَبَدُّلِ هَيْفًا دَبُوراً بالصَّبَا والشَّمْأَلِ

وفى القرآن قوله عَزَّ وجَلَّ : ﴿ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بينَكُمْ وَبَيْنَهُ

(١) للأعشى فى ديوانه ص ٢٢ . وصدره :

* وحولى بكر وأشياعها *

(٢) التبريزى : « عبد الله بن عنمة الضبى ، وهو من بنى غيظ بن السيد » . وعبد الله هذا من شعراء المفضليات ، له المفضلية ١١٤ ، ١١٥ . وهو عبد الله بن عنمة بن حرثان بن ثعلبة بن ذؤيب بن السيد بن مالك بن بكر بن سعد بن ضبة بن أد بن طابخة بن الياس ابن مضر . هكذا ساق البغدادى نسبه فى الخزانة (٣ : ٥٨٠) ولعل فيما ذكر البغدادى خطأ أو نقصاً . وهو شاعر إسلامى مخضرم شهد القادسية . انظر الإصابة ٦٣٣٤ .

مَوَدَّةٌ يا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيماً ﴾ ، لأنَّ قولَهُ يا ليتني معفولُ لِيَقُولَنَّ ، وكَأَنْ لم يَكُن اعْتِرَاضٌ . وكذلك الدَّهْرُ ذو تبدُّلٍ اعتراضٌ .

وقولُه « المَرْجُوَّ نَصْرُهُمْ » فيه تَعْيِيرٌ وتَقْرِيعٌ كما أنه[1] فى قولِهِ « والدهرُ يُحْدِثُ بعد المِرَّةِ الحالَا » هُزْؤٌ وسُخْرِيٌّ . وهؤلاء القوم كانوا تركوا عشيرتَهم وانتقلوا عنهم لِلَوْثَةٍ حَصَلَتْ بينهم إلى بنى الحارث طَمَعًا فى نَيْلِ مَا يَفُوتُهُمْ مِنْهُمْ من جِهَتِهم ، فلمَّا لم يجدوهم عند الظَّنِّ بِهِمْ تَنَدَّمُوا ، فأخذَ هذا الشاعرُ منهم يَرْمِي بهذا الكلام مُعَيِّرًا ومُتَلَهِّفًا ، فيقولُ : أَبلِغْ هؤلاءِ القَومَ الذين رُجِيَ مَعُونتُهم وطُمِعَ فى نُصْرَتِهِم وذَبِّهم — والدَّهْرُ ذو غِيَرٍ وتَلَوُّنٍ ، فيتعقَّبُ فيه الشِدَّةَ لِينٌ ، والقُوَّةَ ضَعْفٌ ، والعِزَّةَ ذلٌّ — رسالتِي إليهم . وإنما تُبُيِّنَ من قولِهِ الحالَ ، وإن كان واحِدَ الأحْوال ، الضَّعْفُ ، والمعنى الذى ذَكَرْتُهُ لقولِهِ يُحْدِثُ بَعْدَ المِرَّةِ . وحَكَى بَعْضُهم أنّ هذا كما يُقال تَرَكْتُهُ بحالٍ ، للمُشْرِف على الشَّرِّ أو الهلاكِ ، والمراد بِحالٍ سَوْءٍ ، فكذلك هنا يُرِيدُ والدَّهْرُ يُحْدِثُ الحالَةَ المُنْكَرَةَ بعد المِرَّة . وقيل أيضاً الحال : التُّرابُ اللَّيِّنُ والحَمْأَة ، فاسْتِعَارَةُ للضَّعْفِ واللِّينِ .

٣ — إنَّا تَرَكْنَا فَلَمْ نَأْخُذْ بِهِ بَدَلَا عِزًّا عَزِيزاً وَأَعْمَاماً وَأَخْوَالَا

يَقُولُ : أَدِّ إليهم أنَّا بمُفَارَقَةِ قَوْمِنا تَرَكْنا أقارِبَ من جهة الآباء والأمّهات ، متناصِرَةً على دِفاعِ حوادِثِ الدَّهْرِ متعاوِنَةً ، وظَهْراً ظَهِيراً ، وعِزًّا مُتَنَاهِيًا قَوِيًّا ، ولم نَعْتَضْ مِنْهُمْ ما فيه طائلٌ . قولُه « وأعْمَاماً وأخْوَالاً » أى تَرَكْناهُمْ وهم من البِرِّ والشَّفَقَة على ما يكونُ عليه الأعْمَامُ والأخْوَال ، وفيما يُرْجَى من الوُفُورِ بهم والتَّأَيُّدِ بمكانِهِمْ . وقولُه « عِزًّا عِزِيزاً » ، من شأنِهِم أن يَشْتَقُّوا

(١) فى النسخ « أن » ، ولا يستقيم إعراب العبارة .

من لَفْظ الشيء الذى يُرِيدُون المُبالغةَ فى وصفِه بِناءٍ يُتْبِعُونَهُ به تأكيداً وتنبيهاً على تَناهِيهِ فى مَعْناه . على ذلك قولُهُمْ : ظِلٌّ ظَلِيلٌ ، وداهِيَةٌ دَهْيَاءُ ، وشِعْرٌ شَاعِرٌ .

٣ — قد كُنْتُ آخُذُ حَقِّى غَيْرَ مُهْتَضَمٍ وَسْطَ الرِّبَابِ إذَا الوادِى بِهِم سَالاَ

هذا الكلامُ توجُّعٌ وتَلَهُّفٌ فى إثْرِ ما فَاتَهُ من قومِهِ ، بما حَصَل من فسادِ ذاتِ بينِهم ، حتَّى صاروا إلى التَّبايُن ، والتَّمايُز بالأبدَانِ والتَّهاجُر . فيقول : كُنْتُ أتقاضَى بحُقُوقِى بين ظَهْرَانَيْهِم فأقتضيها وأستوفيها غير مهضومٍ ولا مَهِينٍ إذا جاءوا مُحْتَفِلِينَ تمتلئ منهم الطُّرُق والفِجَاجُ ، وتَسِيلُ بهم المَذَانِبُ والتِّلاَعُ . ومِثْلُ قولِهِ « إذا الوادى بِهِم سَالاَ » قولُ الآخَرِ [1] :

* وسَالَتْ بأعْنَاقِ المَطِىِّ الأبَاطِحُ [2] *

٤ — لاتَجْعَلُونَا إلى مَوْلًى يَحُلُّ بِنَا عَقْدَ الحِزَامِ إذا ما لِبْدُهُ مَالاَ

المَوْلَى فى البيتِ : النَّاصِرُ أو الوَلِىُّ لاغَيْرُ . وكأنه أقْبَلَ على قومِهِ يستعطِفُهُم ، ويشكو إليهم ما لاَقوهُ من غَيْرِهِم . فيقولُ : تَلاَفَوْا أمْرَنَا ولا تَـكِلُوهُ إلى ناصرٍ يُؤْثِرُ صلاحَ حالِهِ وإنْ فَسَدَ حَالُنَا ، ويَرُومُ انتعاشَهُ وإن سَقَطْنَا ، ويُسَوِّى لِبْدَهُ إذا اعْوَجَّ وزَالَ عن مَقَرِّه بِنا . وهذا تَعْرِيضٌ لمن كانوا انتقلوا إليهم . كأنهم كانوا يُهِمُّهُم ما يختصُّ بأنفُسِهِمْ ، ثم لا يَحْفِلُونَ بما يَخْتَـلُّ من شَأْنِ هؤلاءِ أو يَنْحَلُّ من عَقْدِهِم .

وفى هذه الطريقة قول الآخر :

---

(١) هو كثير عزة ، أو يزيد بن الطثرية ، او عقبة بن كعب بن زهير . معاهد التنصيص فى (شواهد الاستعارة) .

(٢) صدره : * أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا *

وكُنَّا فَوَارِسَ يَوْمَ الهَرِيرِ   إذا مَالَ مَرْجُكَ فاسْتَقْدَمَا(١)

وأفْصَحُ من هذا قول ابنِ أحمر :

فَإمَّا زَالَ مَرْجٌ عَنْ مَعَدٍّ   وأَجْدِرْ بالحوادِثِ أَنْ تَكُونَا

١٩٠

وقال ابن عَنَمَةَ أيْضًا :

١ — مَا إنْ تَرَى السِّيدُ زَيْدًا فى نُفُوسِهِمِ   كَمَا يَرَاهُ بَنُو كُوزٍ ومَرْهُوبُ(٢)

السِّيدُ : قَبيلَة ، وكذلك كُوزٌ ومَرْهُوبٌ . وقولُه « ما إنْ » إنْ زِيدَتْ لتأكيد النَّفْى . وذكَرَ سِيبَوَيْهِ أنَّ ما الحجازيَّةَ إذا قُرِنَ بإنْ هذه يَبطل عملُه ، يقولُ : بنو السِّيدِ لا يَقْسِمُونَ لِزَيدٍ من التعظيم ، ولا يُوجِبُونَ له فى نُفُوسِهِم من الحُرْمَةِ والتَّبْجيل ، ما يُوجبُهُ ويقْسِمُهُ بَنُو كُوز ومَرْهُوبٌ . والضَّميرُ على هذا من قوله « فى نُفُوسِهِم » يكونُ للسِّيدِ . ولا يمتنِـعُ أن يكونَ الضَّميرُ لِزَيدٍ لأنَّه قَبيلةٌ أيضًا . وهذا كَمَا يُقَالُ : لَكَ فى نَفْسِكَ حَقٌّ ومَنزلَةٌ . كأنَّ زَيْدًا كان له إذا راجع نَفْسَهُ من التَّوجيهِ والإدْلال ، والتَّخَصُّص والاعتزاز فى بنى كُوزٍ ومَرْهُوبٍ ، ما لا يكادُ يَجِدُهُ فى بنى السِّيد .

٢ — إنْ تَسْأَلُوا الحَقَّ نُعْطِ الحَقَّ سائِلَهُ   والدِّرْعُ مُحْقَبَةٌ والسَّيْفُ مَقْرُوبُ

يقول : إنْ وقَفْتُم عندما يَثْبت من حَقِّكم ، ورضيتم بما لا نَجْحَدُهُ من واجبِكم ، ولم يُخَيِّلْ [إليكم(٣)] أنَّ طَلَبَ ما فَوْقَه أعْوَدُ عليكم ، خَرَجْنا منه

(١) للربيع بن زياد العبسى . الحماسية ١٦٣ .
(٢) هذه الأبيات هى المفضلية رقم ١١٥ . وانظر الخزانة (٣ : ٥٧٦ — ٥٨٠) .
(٣) التكملة من م والتيمورية .

إليكم من غيرِ إباء ولا امتناع ، ولا اهتِيَاجِ حَرْبٍ أو إعْمَالِ سِلَاحٍ . وقولُه « والدِّرْعُ مُحْقَبَةٌ » أى مشدودةٌ فى الحقائبِ ، لأنّه أرادَ بالدِّرْعِ الجِنْس . والاحتقاب والاستحقاب : شَدُّ الحقيبة من خَلْفٍ . وكذلك قولُه « والسَّيْفُ مَقْرُوبٌ » أى متروكةٌ فى قُرُبِها ؛ لأنَّه أرادَ السُّيُوف . ويقال : قَرَبْتُ السَّيْفَ وأقربْتُهُ ، وغَمَدتُه وأغْمَدتُه . وقال أبو زيدٍ : القِرَابُ : غِشاء يكون السَّيْفُ مُغْمَداً فيه . واحتجَّ بقوله :

يَا رَبَّةَ البَيْتِ قُومِى غَيْرَ صَاغِرَةٍ ضُمِّى إليكِ رِحَالَ القَومِ والقُرُبا(١)

٣ ـ وإنْ أَبَيْتُمْ فإنَّا مَعْشَرٌ أُنُفٌ لا نَطْعَمُ الخَسْفَ إنَّ السَّمَّ مَشْرُوبُ(٢)

يقول : إنْ عدوتُمْ طَوْرَكُمْ ، وتجاوزتُم فى الطَّلب حَقَّكم إلى ما ليس لكمْ ، فإنَّ أَنفَتَنا تمنعُ من احتمالِكُم ، والتزام شهوتِكُمْ ، وحَمِيَّتَنا تأبى الرِّضَا بالتَّحكم ، والصَّبرَ على الاقتسار والتَّهَضُّم ، فلا نَطْعَمُ الخسْفَ وإن شَرِبنا السَّمَّ . والخسْفُ : أن يحمِّلكَ إنسانٌ ما تكْرَهُهُ . ومن الصَّنعة الحسنةِ مقابَلَته الطَّعْمَ بالشُّرْب ، واستعارتُه إيَّاهما فى تجرُّع الغُصَّةِ ، وتوطين النَّفسِ على المَشقَّةِ ، عند إزالة المَذَلَّةِ ، وردّ الكريهة . وأُنُفٌ : جمع أَنُوفٍ . والمَعْشَرُ : الجماعة أمرُهُم واحِدٌ ، ويقال : جاء القومُ مَعْشَرَ مَعْشَرَ ، أى عَشَرةً عَشَرةً .

٤ ـ فازْجُرْ حِمَارَكَ لا يَرْتَع بِرَوْضَتِنَا إذاً يُرَدُّ وقَيْدُ العَيْرِ مَكْرُوبُ(٣)

هذا مَثَلٌ . والمعنى : انقَبِضْ عَنِ التَّعَرُّض لنا ، والدُّخول فى حُرْمتِنا ،

(١) لمرة بن محكان . الحماسية ٦٧٥ .

(٢) المفضليات : « لا نطعم الذل » .

(٣) التبريزى عن أبى محمد الأعرابى : « إنما معنى قوله ازجر حمارك ، يعنى به فرس زيد الفوارس ، واسمه عرقوب ، فكنى عنه بالحمار على سبيل التهكم والهزء . وقوله : وقيد العير مكروب ، أى إنهم يعقرونه ، والعقر أضيق القيود » ، وانظر لإعراب هذا البيت الخزانة (٣ : ٥٧٦) وسيبويه (١ : ٤١١) .

ورَعْيِ سَوَامِكَ روضتنا؛ فإنَّكَ إن لم تَفعَلْ ذلكَ ذَمَمْتَ عاقبةَ أمرِكَ، وعُدْتَ خاسِرَ الصَّفْقَةِ وخيمَ الرِّتْعَةِ. جَعَلَ إرسالَ الحِمارِ في حِماهُمْ كِنايةً عن التَّحكُّكِ بهم، والتَّعَرُّضِ لمساءتِهم. ولا حِمارَ ثَمَّ ولا رَوْضَ(١). وقال ابن الأعرابيّ: أراد اكْفُفْ لِسانَكَ. قولُه «إذاً» قال سيبويه: هو جوابٌ وجزاءٌ، فالابتداء الذي هو جزاؤُه محذوفٌ مُستَدَلٌّ عليه مما في كلامِه، كأنَّهُ قال فإنَّهُ إن رَتَعَ رَجَعَ إليك وقد ضُيِّقَ قيدُهُ، أي مُلِئَ قَيْدُهُ فَتْلاً حتى لا يَمْشِيَ إلاَّ بِتَعَبٍ، كأنَّهُ يُضْرَبُ أو يُسْتَعْمَلُ حتى يَرِمَ جِسْمُه ويؤدِّيَ الوَجَعَ منه إلى موضِعِ حافِرِه فيضيق عليه القَيْدُ.

٥ — إنْ تَدْعُ زَيْدٌ بَنِي ذُهْلٍ لِمَغْضَبَةٍ نَغْضَبْ لِزُرْعَةَ إنّ الفَضْلَ مَحْسُوبُ

يقول: إن غَضِبَ بنو ذُهْلٍ لِزَيْدٍ وامْتَعَضُوا من ضَيْمٍ يَرْكَبُها، وأغاثُوها إذا استجارَتْهم، غَضِبْنَا لِزُرْعَةَ، وانتَقَمْنا له مِمَّن يهتضِمُهُ، إنّ الفَضْلَ معدود. فالمعنى: إنَّه لا فَضْلَ لكم علينا فقد عددنا مالَكم، فلم نَجِدْ زِيادةً لكم، ولا استظهارًا يوجِبُ لكم التَعَلِّيَ والتَّغلُّب. وإذا كان الأمر بيننا على التساوى فلا استبداد ولا احتكام. ويُروَى: «إنّ القِبْصَ مَحْسُوبُ(٢)»، وهو العَدَدُ الكثير، ويكون الكلام مَثَلاً. ويقال إنّهم لفى قِبْص العَدَدِ وفى قِبْصِ الحصَى، أى فى أكثر ما يُستطاع عَدَدُهُ من كَثْرَتِه، والمرادُ: إنّ الأعداد الكثيرة تُضْبَطُ وتُحْصَرُ، فكيفَ ما بيننا من تَفاوُتٍ(٣) وتفاضُلٍ، أو تَساوٍ وتمادُلٍ.

٦ — ولا يَكُونَنْ كَمُجْرَى داحِسٍ لَكُمُ في غَطَفَانَ غَدَاةَ الشِّعْبِ عُرْقُوبُ

كان التَّنازُعُ بينهم فى رِهانٍ وقَعَ على عُرْقوبٍ، وهو فَرَسٌ لهم. فيقول:

(١) انظر ما سبق فى الحواشى. (٢) وهذه هى رواية المفضليات.
(٣) فى جميع النسخ: «تقارب».

لا يكُونَنْ جَرْىُ عُرْقوبٍ عليكم فى الشُّؤم كجَرْىِ داحسٍ فى غَطَفان غَدَاةَ شِعْب الحَيْسِ . بقوله « عُرْقوب » ارتفع على أنَّهُ اسمُ لا يكونَن ، وقد حَذَف لمُضافَ وأقامَ المضافَ إليه مَقامَه ، لأنّ المراد : ولا يكونَنَّ مَجْرَى عُرْقوبٍ كمَجْرَى داحسٍ . وقولُه « غَدَاةَ الشِّعب » ظَرْفٌ لقوله كمُجْرَى . وجعَل النَّهْىَ فى اللَّفظ لعُرْقوبٍ وهو فى المعنى لهم . حَذرَهُم استعمالَ اللَّجَاج لئلاّ يتأدَّى الأمرُ إلى مثل ما تأدَّى فى رِهانِ داحسٍ والغَبْراء . ومثْلُ هذا من النَّهْى قولهم : لا أُرَيَنَّكَ هاهنا .

١٩١

وقال الأخْضَر بن هُبَيرةَ[(١)] :

١ — أَلاَ أَيُّهٰذَا النابحُ السِّيدَ إنَّنى على نَأْيِها مُسْتَبْسِلٌ من ورائها[(٢)]

وَصْفُ أىٍّ بذا غيرُ جارٍ على سَنَن ما يُجْلَبُ له الصِّفاتُ ، لأنّ الصِّفَةَ شرحُ الكلامِ وتبيينُه ، ومُزِيلُ اللَّبْسِ عنهُ ، وإذا كانَ أىٌّ وذا مُبهمَيْن فالانشراح غير حاصلٍ بهما ، لكنَّهُ لمّا كان المُعوّل على ما يَتْبَعهُ من المُعرَّفِ بالألف واللام صار ذا كأنّه لا اعتدادَ به فى الشَّرح . فيقول : أيها المتعرِّض لبنى السِّيدِ والمُتنقِّصُ لهم ، والناحتُ أَثْلَتَهم ، إننى على بُعْدِها منِّى مُدافعٌ عنها وذابٌّ ، مع تغيُّبهم دُونها ، قضاءً لحقِّ الشَّرَفِ ، وذَهابًا مع النَّصَفةِ . ويقال بَسَلَ واستَبْسَلَ وتَبَسَّلَ بمعْنًى . وقال الخليل : استَبْسَلَ الرَّجُل ، إذا وَطَّنَ نفسَه على الموت

---

(١) هو الأخضر بن هبيرة بن المنذر بن ضرار بن عمرو بن مالك بن كعب بن بجالة بن ذهل بن مالك بن بكر بن سعد بن ضبة ، والمقطوعة رواها التبريزى لولده الفضل بن الأخضر ، ثم نقل عن أبى هلال أنها للأخضر ، وانظر للأخضر المؤتلف ٣٤ .

(٢) التبريزى عن أبى هلال : « من عادة كلاب الأعراب أن تنبح السحاب لأنه يؤذيها بمطره ، وإذا رأت القمر ظنته قطعة سحاب فنبحته أيضاً ، وليست تضره ، فجعل هذا مثلا للذى ينال من الشريف ، ويقع فيه ولا يضره » .

واستَيْقَنَ به(١) . وقد استعار أبو ذُؤَيبٍ النُّبَاحَ للتعرُّضِ والإيذاء ، كما فعل هذا ، فقال :

ولا هَرَّها كَلْبِي لِيُبْعِدَ نَفْرَها ولو نَبَحَتْنِي بالشَّكَاةِ كِلابُها

وقولُه « على نَأْيِها » موضِعُه نَصْبٌ على الحال ، لأنّ المعنى أستبسِلُ من ورائها بعيدةً .

٢ — دَعِ السِّيدَ إنَّ السِّيدَ كانتْ قَبيلَةً تُقَاتِلُ يَوْمَ الرَّوْعِ دون نِسَائِهَا

يقول : اتْرُكْ ذِكر هؤلاء القَوْم ولا تَطْلُبْ عَيْبهم ، فإنَّها قبيلةٌ ذاتُ أَنَفٍ وإباء ، فما لَحِقَهم منذ كانوا عارٌ في حُرْمَةٍ ، ولا أصابَهُم سِبَاءٌ عند غارة ، بل كانت تَحْفَظُ على عِلَّاتِها نِسَاءَها ، وتَبْتَذِلُ عند الفَزع مَصُوناتِ نفُوسها ، وهذا تَعْرِيضٌ بالمُخَاطَبين وأنَّهم بخلاف ذلك .

٣ — عَلَى ذَاكَ وَدُّوا أَنَّنِي فِي رَكِيَّةٍ تُجَذُّ قُوَى أَشْطَانِها دُونَ مَائِهَا

ذَاكَ من مِثْل هذا الموضع لا يُثَنَّى ولا يُجْمَعُ ولا يُؤَنَّثُ(٢) ، ويُشار به إلى المُقْتَصِّ من الحال . يقول : وعلى ما ذَكرتُه فيهم ، ومَعَ مُحافَظتي على ما يَجِبُ عَلَيَّ لهم ، ليسوا إلَيَّ بأوِدَّاء ، بل يتمنَّون أني في بئرٍ تُقْطَع طاقاتُ حِبالها دونَ الوصول إلى مائها لبُعْدِ قَعْرِهَا . وهذا الكلام إعلامٌ بأن تعصُّبه لهم ، ليس عن مُصادقةٍ بينهم توجب إعارَةَ الشَّهادة فيهم ، أو مواخاةً تؤلِّفُهُم وتَعْطِفُ أَواصِرَهُم عليهم ، لكنَّه رأى حقًّا فقاله ، وتَحمَّل صِدْقًا فأدّاهُ . وقوله «دون مائها» في موضع الحال لأنّ دونَ للقاصر عن الشَّيء . والتقدير : تُجَذُّ القُوَى قاصِرَةً عن الماء .

---

(١) في الأصل : « إذا وطن على الموت واستيقن » والتكلمتان من م والتيمورية .

(٢) الحق أن هذا أحد المذاهب في استعمال كاف الخطاب المصاحبة لأسماء الإشارة ، ومنهم من يستعملها استعمال الكاف الاسمية فتطابق أحوال المخاطب من إفراد وتثنية وجمع وتذكير وتأنيث . انظر همع الهوامع (١ : ٧٦) وشرح المفصل (٣ : ١٣٥) .

١٩٢

وقال سِنانُ بن الفَحلِ[١] :

١ ــ وَقالُوا قَدْ جُنِنْتَ فَقُلْتُ كَلَّا وَرَبِّى ما جُنِنْتُ ولا انْتَشَيْتُ[٢]

كانَ الواجبُ أن يَقُول قالُوا جُنِنْتَ أو سَكِرْتَ ، فاكتفَى بذكرأحدهما لأنَّ النفى الذى يَتعَقَّبُ فى الجوابِ يَنْظِمهما . ومِثْلُ هذا قول الآخر[٣] :

فَمَا أَدْرِى إذا يَمَّمْتُ وَجْهاً أُرِيدُ الخَيْرَ أَيُّهُمَا يَلِينِى

لأنَّ المُرادَ أُرِيدُ الخيرَ وأَتجنَّبُ الشَّرَّ أيُّهُمَا يلينى ، فاكتفَى بذكر أحدِهما لأنَّ ما بعده يُبَيِّنُهُمَا : ولِكَلَّا موضعان : أحدُها أن يكون للرَّدْعِ والزَّجْرِ ، وحينئذ يصحُّ الاكتفاء به والوَقْفُ عليه . والثانى أن يكون للتنبيه كأَلاَ ، وحينئذ يحتاج ما بَعْدَهُ إلى ما يتم به . وسيبويه قَصَرَ تفسيره على أنَّه للرَّدْع والزَّجر . والشَّاعرُ أراد قال النَّاس فِيَّ لمّا أظهرْتُ إنكارى ، وتشدّدت فى إبائى ، وتَحَفظْتُ عند ما عُرِضَ وجُشِّمَ ، واستنكفتُ مِمَّا سِيمَ وكُلِّفَ : إنَّه قد جُنَّ أو سَكِر . فزجَرتُهم وردعتهم ، وحَلفتُ بالله نافياً لما نُسِبْتُ إليه ووُسِمتُ به من الجنون والسُّكْر جميعاً . ثم أخَذَ يبَيِّنُ كيف استَنْكَرَ ما دُفِع إليه ، واشمأزَّ مِمَّا عُرِض عليه حتى قيل فيه ما قيل . والانتشاء والنَّشْوَةُ : [السُّكْر[٤]]

---

(١) التبريزى : « سنان بن الفحل أخو بنى أم الكهف ، من طيئ » . وفى الخزانة (٢ : ٥١٣) : « سنان بن الفحل شاعر إسلامى فى الدولة المروانية » .

(٢) الخزانة : « قال أمين الدين الطبرسى فى شرح الحماسة : قد عيب على أبى تمام إيراد مثل هذه الأبيات فى باب الحماسة ، والبكاء على الظلم ضعف وعجز . والوجه فيه أن يكاده كان لمطالبتهم ما ليس لهم ولا سبيل له على الاعتناف والمغالبة فعل أهل الجاهلية ؛ إذ لا يراقب دين ولا يرهب سلطان » .

(٣) هو المثقب العبدى . المفضليات (٢ : ٩٢) .

(٤) التكملة من م والتيمورية .

٢ـ ولكنّى ظُلِمتُ فكدتُ أبْكى من الظُّلْمِ المُبيِّنِ أو بَكَيْت

لكن استدراكٌ بعدَ نفْى . وهذا الكلامُ بيانُ ما أنكَرَ منهُ حتّى قيل إنّه جُنّ . وذَكَر البكاءَ ليُرِىَ أَنفَتَهُ وامتعاضَهُ ، وإنكارَهُ لِمَا أُرِيدَ ظُلْمُهُ فيه واغتياظَه . فأمّا العَرَبُ فإنّها تَنْسُبُ أنفُسَها إلى القَساوةِ ، وتُعيِّرُ من يبكى لذلك .
[قال مهلهل(١)] :

يُبْكَى علينا ولا نَبْكى على أحَدٍ لَنَحْنُ أَغْلَظُ أكبادًا من الإبلِ

يقول : لكنْ عُرِضَ عَلَىّ ضَيْمٌ لم آلَفْه ، واستنزَلتُ عن حَقّ لى طَالَ مُلازَمَتِى له ، فشارَفْتُ البكاءَ أو بَكَيْتُ . كل ذلك لاستنكافى مما نَدَبُونى إليه وتعجُّبى مِمّا راوَدُونى عليه .

٣ ــ فإنَّ الماءَ ماءُ أبِى وجَدِّى وبِئْرِى ذو حَفَرْت وذُو طَوَيْت

صَرّح بما أُريدَ غَصْبُه عليه فقال : هو ماءٌ موروثٌ عن الرسلافِ وحِمًى معروفٌ بى وبهم ، سَلّمَهُ النّاسُ لنا على مَرِّ الأيّام ، وبِئْرٌ تَوَلَّيْتُ استِحْداثَها وحَفْرَها وطَيَّها . وقوله « ذو حَفَرْتُ » ذو لُغةٌ طائيّةٌ فى معنى الذى . يقولون : هذا ذُو قال ذلك ، ورأيتُ ذُو قال ذَلكَ ، ومررْتُ بذُو قال ذلك ، فيَحتاجُ من الصِّلَةِ إلى مِثلِ ما يحتاجُ إليه الذى ، لكنّها تَقعُ فى لُغتِهِم للمُذَكّر والمؤنّث. ولهذا صَلُحَ أن يقولَ « وبِئْرِى ذو حَفَرْتُ » ، والبِئْرُ مؤنّثةٌ .

٤ ــ وقَبْلَكَ رُبَّ خَصْمٍ قد تَمالَوْا عَلَىَّ فما هَلِعْتُ ولاَ دَعَوْتُ

نَبّهَ على حُسْنِ ثَباتِه فى وجْه الخصوم ، وتَمَرُّنِه بمجاذبتهم قديمًا وحديثًا ، وتحكُّكِه بهم على احتفال منهم فى مناوأته سالفًا وآنفًا ، فيقول : وقد بُليتُ قبلكَ بقوم لُدٍّ تألَّبُوا علىّ وتعاونوا ، فلم أَجْزَعْ لِمَا مُنِيتُ بهم جزَعًا فاحشًا ،

(١) التكملة من م والتيمورية .

ولا استَنصرتُ عليهم غيرى عند دِفاعِهم استنصارًا مكروهًا . والهَلَعُ : أفحشُ الجزَع . وتَمَالَوْا ، هو تَفَاعَلوا من قولِهم هو مَلِئٌ بكذا . فإن قيل : كيف قال هَلِعْتُ ، وقد قال فيما قبلَهُ : « فـكِدْتُ أبكى من الظُّلْمِ المُبَيَّن أو بَكَيْتُ » وهل الهَلَعُ إلا البكاء والجزَع ؟ قلتَ : إنّ الهَلَع هو الجزَع الفاحش الذى يظهر فيه الخضوعُ والانقياد ، فهذا هو الذى انتضَح منه[1] ، وزَعَمَ أنه لا يَظهر عليه . والبكاء الذى ذَكر أنه شارَفَه أو كاد يشارِفه قد بَيَّنَّا أنه كان منه على طريق الاستنكاف والامتِعاض ؛ فإذا كان كذلك فإنّه لم يكُنْ عن تخشُّعٍ وتذلُّلٍ ، ولا انقيادٍ واستسلامٍ ، وسَلِمَ الكلامُ من التناقُض والفَساد .

٥ — ولـكِنِّى نَصَبْتُ لَهُمْ جَبِينى وَأَلَّةَ فارِسٍ حـتى قَرَيْتُ

يقول : ولـكِنِّى صَبَرْتُ لهم ، وانتَصَبْتُ فى وجوههم ، وهَيَّأتُ عُدَّتى وسِلاحى لدفعِهم ، دارِئًا فى نُحُورِهم ، مُحَلِّئًا لهم عن وُرُودِهم ، فِعْلَ الفارسِ الذابِّ المانع يوم الحِفاظ ، [حتّى[2]] خلَّصْتُ من غَصْبهم حَقِّى ، وقَرَيْتُ الماء من دُونِهم فى حوضِى . والأَلَّةُ : الحربة ، وجمعها إلَالٌ ، وأصْلُه البَرِيقُ واللَّمَعَانُ . والقَرْىُ : الجَمْعُ .

١٩٣

وقال جابر بن حَرِيش[3]

١ — ولقد أَرَانا يا سُمَىَّ بحائِلٍ نَرْعَى القُرِىَّ فـكامِسًا فالأصْفَرَا

(١) انتضح من الأمر ، بالضاد المعجمة : أظهر البراءة منه ، وفى جميع النسخ : « انتصح » تحريف .

(٢) التكملة من م والتيمورية .

(٣) الظاهر أنه شاعر طائى .

٢ـ فالجِزْعُ بَيْنَ ضُبَاعَةٍ فرُصَافَةٍ فعُوَارِضٍ جَوُّ البَسَابِسِ مُقْفِرَا [١]

٣ـ لا أرضَ أكثرُ مِنْكِ بَيْضَ نَعامَةٍ ومَذَانِبًا تَنْدَى ورَوْضًا أخْضَرَا [٢]

٤ـ ومُنَيَّنًا يَحْمِى الصِّوَرَا كأنَّهُ مُتَخَمِّطٌ قَطِمٌ إذا ما بَرْبَرَا [٣]

٥ـ إذ لا يَخَافُ حُدُوجُنَا قَذْفَ النَّوَى قَبْلَ الفَسَادِ إقامَةً وتَدَيُّرَا

قولُه « أرَانَا » حكايةُ الحال ، وما يستمِرُّ ويتَّصل من الأفعال إذا أُرِيدَ فيه الإخبارُ عن الماضِى قد يُؤْتَى بلفظِ المُسْتَقْبَل فيُوضَع مَوْضِعَ بناء الماضِى . على ذلك قَوْلُه :

ولقَدْ أمُرُّ على اللئيمِ يَسُبُّنِى فمَضَيْتُ ثُمَّتَ قُلْتُ لا يَعْنِينِى [٤]

ألَا تَرى أنّه قال أمُرُّ ، ثم قال فمَضَيْتُ ثُمَّتَ قُلْتُ . كذلك هذا قال ولقد أرَانَا ، ثم جاء فى آخِرِ الأبيات فقال : إذ لا يَخَافُ حُدُوجُنَا قَذْفَ النَّوَى . فإنْ قيل : كيف جاز أن يقول أرانى وأرانا ، وأنت لا تَقُولُ أضْرِبُنا ولا أضْرِبُنِى؟ قلتَ : أفْعَالُ الشَّكِّ واليقين يجوز ذلك فيها وإن امتَنَع فى غَيْرِها ، لأنَّ تأثيراتِها فى المفعول الثانى من المفعولَيْن ، إذْ كان الشَّكُّ واليقين يتعلَّقَان به لا بالأوّل ، فصار لذلك المفعول الأوّل كأنّه غير الثانى ، وكاللغو الذى لا تأثيرَ لَهُ فى حُصُولِ الفائدة ، فجَرَى الثَّانى من الأوّل لذلك مَجْرَى الأجنبيّ . وإذا قُلْتَ أضْرِبُنِى أو أضْرِبُنا لم يَصِرْ أحَدُ الضَّمِيرَيْن كالأجنبىّ من الأوّل لا لَفظًا ولا مَعْنًى ، والمُعتادُ فى الفاعِل والمَفعول مغايَرةُ الثّانى للأوّل ، فلما كانَ الأمْرُ على ذلك لم

(١) التبريزى : « ويروى : رضافة ، بالضاد منقوطة » وأشار أيضا إلى رواية : « حو البسابس » ، قال : « والحو : جمع أحوى ، وهو الأسود ، والمراد به النبت » .

(٢) م : « لا روض » .

(٣) التبريزى : « ويروى : مغبيا ، أى ثورا له غبب » . م : « يحمى الصوار » .

(٤) لرجل من بنى سلول ، كما فى الخزانة (١ : ١٧٣) .

يَجُزْ فيه ما جاز فى الأوّل . يُبَيِّنُ هذا أنّك لو قُلْتَ ضَرَبْتُ نَفْسى أو أضْرِبُهُ نَفسى لَصَلُحَ ، للتّغايُر الحاصِل فى اللّفظ ، فاعْلَمْهُ .

وقولُه حائل : اسم وادٍ . والقَرِىُّ : مجرى الماءِ إلى الرّوضةِ ، وكَامِسٌ والأصْفَرُ : مكانانِ . وضُبَاعَةُ ورُصَافَةُ : جَبَلان ، وكذلك عُوَارِضُ[1] . وجَوّ البَسابِسِ أى داخِل البَسابِس ، وهى المفاوِز الواسعة الخالية . والجَوُّ : الهَواء بين السّماء والأرضِ أيضاً . والمُقْفِرُ : الصائرُ فى القَفْرِ ، وهو المكان الخالِى . وانتَصَبَ جَوَّ على الظّرْفِ ، ومُقْفِراً على الحال .

ومعنى الأبيات : كُنّا نَرَى أنفسَنا يا سُمَيَّةَ بهذا الوادى ، ونحن ننتقل فى هذه المراتع التى ذكرتُها ، ونَتَحَوّلُ[2] بين هذه المناجع التى عدَدتها الحاصلةِ [فى] جَوّ الأرضِينَ المستوية ، وفى أثناء الأرضين المُقْفِرة ، ولا أرضَ أكْثَر خِصْبًا من أرضِكِ وخَيْرًا ، وأندى مذانِبَ وتِلاَعًا ، وأحْوَى لبيضِ النَّعام ، وأجْمَعُ لخضر الرياض التى يستوطِنها الوحوش من البقر وغيرِها ؛ وثَوْرُهَا يحفظ قطيعَهُ وكأنه لنشاطه إذا جَأَرَ فحلٌ متفضِّبٌ أيامَ أمنًا عاديَةَ النَّوَى . وبائقة الدّهر والأذَى ، ولم تَخَفْ نِسَاؤنَا من تَرَامِى الغُرْبَةِ ، وتقاذُفِ الشُّقَّةِ ، ولم يَقَع بين العشائر حَرْبُ الفَسَاد ، وضرر التّهاجُر والبِعاد ، ونحن مُتَدَيِّرُون ومقيمون ، وفى أنواع النِّعْمَةِ والنَّعْمَةِ متردّدون ، ولدار السّلامة والخَفْض مستوطنون .

وهذا الكلام تَحَسُّرٌ فى إثْرِ أيّام السَّلاَمَةِ ، وتَشَكٍّ من أيام الفِتْنة .

وقولُه « إذْ لا يَخَافُ » ظرفٌ لقولِه ونقد أرانا . وقولُه « قَبْلَ الفَسَادِ » بَدَلٌ منه ، والمَذَانِبُ : مسايِلُ المياه . ومَعْنَى « أكْثَرُ منك بَيْضَ نَعَامَةٍ » أكْثَرُ من أرضِك ، فحذَف المُضَاف ، وانتَصَبَ « بَيْضَ » على التّمييز . وقولُه

---

(١) التبريزى : « وعوارض : جبل عليه قبر حاتم الطائى » .

(٢) نتحول ، الحاء المهملة فى جميع النسخ .

« ومذانبا » انتصبَ على أنّه معطوفٌ على بيض نَعامَةٍ ، وتَنْدَى فى موضع الصــفة المذانب ، أى نَدِيَّة ، وكذلك « ورَوْضاً » و « معيّناً » . المُعَيَّنُ : الثَّور الـكبير العين ، والصِّوَار : القطيع ، واشتقاقه من صُرْتُه أى قطعتُه . والحُدُوج : المراكب ، ونَسَبَ الخوفَ إليها مجازاً ، لأنَّ المرادَ بها النِّساء ، وقولُه « متخمِّطٌ » شَبَّهَ الثَّور بِفحلٍ له سَوْرَةٌ وجَلَبَةٌ ، لاهتياجِه وغَضَبِه ، ومنه قيل للبحر إذا التَطَمَتْ أمواجُه : هو خَمِطُ التَّيَّار . والقَطِمُ : الهائج . وبَرْبَرَ : صَوَّت . وقَذْفُ النَّوَى : رَمْيُه . وقوله « قَبْلَ الفَسَادِ » يريدُ قبلَ حربِ الفَسَادِ ، وإنَّما سُمِّيت بهذا الاسم لأنَّ بَعْضَهُم كان يَشربُ فى قِحْفِ رأسِ صاحِبه إذا قَتلَه ، ويخصِفُ نَعلَهُ بأُذُنه ، إظهاراً للتَّشفِّى . وانتصَبَ « إقامةً على أنّه مصدر لِعلَّةٍ ، ويجوز أن يكون فى موضع الحال ، فتقدير الأوّل : لا تَخافُ قَذْفَ النَّوَى لإقامَتِنا وتدَيُّرنا ، وتقدير الثانى : لا تخافُه مقيمين ومتديِّرين . ويقال ما بالدار دَيَّارٌ ، ودارِىٌّ ، ومنه قوله :

* لَبِثْ قليلًا يَلْحَقِ الدارِيُّونْ[(١)]

والأصل فى تَدَيَّرَ الواو ولـكنّه بَنَوْهُ على دَيَّارٍ ، لإلْفِهِم له بكثرة تَرَدُّدِه فى كلامهم .

١٩٤

وقال إيَاس بن مَالكٍ[(٢)] :

١ — سَمَوْنا إلى جَيْشِ الحَرُورِىِّ بَعْدَمَا ... تَنَاذَرَهُ أعْرَابُهُم والمُهَــاجِرُ

(١) الرجز فى المقاييس واللسان (دور) . وقد فسر الدارى بأنه رب النعم والمال ، سمى بذلك لأنه مقيم فى داره .

(٢) هو إياس بن مالك بن عبد الله بن خيبرى المعنى الطائى ، شاعر من شعراء صدر —

يقولُ : سَمَتْ أبصارُنا ونفوسُنا ، وارتفعَتْ هِمّاتُنا إلى محارَبةِ الحَرُوريّةِ — وهم فِرقَةٌ من الخوارج — بعد اشتداد شَوْكتِهم وتكاثُفِ عُدَّتِهِم ، وحين تحامَى جَيشَهم بادِى الناس وحاضِرُهمْ ، حَذرَ ناحِيَتِهم وقَصْدَهم عربَهم ومُهاجِرَهُم . وأراد بالمهاجِرِ من ترَكَ البَدْوَ وانْتقَلَ إلى الأمْصارِ .

٢– بِجَمْعٍ تَظَلُّ الأُكْمُ ساجِدَةً لهم وأعْلامُ سَلْمَى والهِضابُ النَّوَادِرُ[(١)]

الباء من قوله « بِجَمعٍ » تعلَّقَ بِسَمَوْنا ، يُرِيد قَصَدناهم بجيشٍ كثيفٍ يلحِقُ الحزْنَ بالسَّهل ، ويُسَوِّى الهِضابَ بالأرض إذا سارَ عليها لِكَثْرَته . وهذا كما قالَ الآخر :

* تَرَى الأُكْمَ مِنهُ سُجَّداً للحوافر[(٢)] *

وأصل السُّجود الخضوع ، كأنها تَصِيرُ لها تُرَاباً . والأُكْمُ : جَمْعٌ ، يقالُ أَكَمَةٌ وأَكَمٌ ، وإكامٌ وأُكُمٌ[(٣)] . وسَلْمَى : أحدُ جبلَىْ طيِّئ . والهِضابُ : جمعُ هَضْبَةٍ ، وهى ما انبسَط على الأرضِ من الجبال . والنَّوادرُ : المرتفِعةُ ، وكلُّ شىء زالَ عن مكانِهِ فقد نَدَرَ ؛ ومنه نَوَادِرُ الكلام . وجعلَ لسَلْمَى أعلاماً لامتدادِهِ واتِّصالِ جبالٍ به .

٣– فَلَمَّا ادَّرَكْنَاهُمْ وقد قَلَّصَتْ بِهِمْ إلى الحَىِّ خُوصٌ كالحَنِىِّ ضَوَامِرُ

ادَّرَكَ : افْتَعلَ من الإدراك ، وهو فى معنى أدْرَكَ . وقَلَّصَتْ : ارتفعتْ .

= الإسلام . وكان من خبر الشعر أن جيشاً لنجدة الحرورى عليهم رجل يقال له أبو عمرو كان يغير على العرب ، وفعل ذلك ببنى أسد وطيىء حتى مر ببنى معن ففعلوا ذلك بهم ومضوا ، ثم إن بنى معن تذامروا ، وحرض بعضهم بعضاً على القتال ، وأقبلوا فى أثرهم ومعهم كتاب من النبى صلى الله عليه وسلم فأخرجوه واستقبلوا القبلة وحملوا عليهم فهزموهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، فذلك حيث يقول إياس هذه الأبيات . وقد زعموا أن قائل هذه الأبيات مروان بن عبد الله ابن حى . والأبيات ٥ – ٧ فى اللسان (قدر) منسوبة إلى إياس .

(١) م والتيمورية والتبريزى : « ساجدة له » .

(٢) أنشد هذا العجز فى اللسان (سجد) . (٣) يقال بضم الكاف وسكونها .

وقد كُنِيَ عن طول القوائم بالتَّقايص فقيل فى وصفِ الفَرَس مُقَلِّصٌ ، والمرادُ ذلك . ويقال للمُشَمِّر : هو مُقَلِّصُ أسفَلِ السِّربالِ ، كما قيل هو مَشقوقُ ذيلِ القميصِ . والحَنِيُّ : القِسِيُّ ، سُمِّيتْ بذلك لانحنائها ؛ فهو فَعِيلٌ بمعنى مفعول ، فيقولُ : حين لِحَقْناهُمْ كانت خَفَّتْ بهم وشَمَّرَتْ إلى الحَيِّ خَيْلٌ غائرةُ العيونِ ، لاحِقةُ البطونِ ، كأنَّها فى ارتفاع جنوبها قِسِيٌّ مَأْطُورَةٌ . ولمّا يقتضى جَوَاباً ، وهو فيما يجىء من بَعْدُ . والواو من قَوْلِهِ « وقَدْ قَلَّصَتْ بهم » واو الحال .

٤ — أَنَخْنَا إِلَيْهِمْ مِثْلَهُنَّ وزَادُنَا جِيَادُ السُّيُوفِ والرِّماحُ الخَوَاطِرُ

يجوز أن يكون معنى إليهم عندهم ، فقد حُـكِى : لا تَذْكُرْ فلانًا إلىَّ بسوء ، أى عندى . ويجوز أن يكون معناه الانتهاء ، ويكون المراد : أَنَخْنَا إلى فِنائهم وبإزائهم . وأَنَخْنَا هو جوابُ لَمَّا . يقول : لمّا أدركناهم ثمَّ سامَيْنا جَيْشَهم بمثلِهِ عَدَداً وعُدَّةً ، وجازَيناهم بأشباههم فُرسانا ورَجَّالةً ، وزادُنا سُيُوفٌ مُنْتَخَلَةٌ[1] ورِمَاحٌ لَدْنَةٌ مُثَقَّفةٌ . وإنَّما قال « أَنَخْنا » لِمَا استمرّت به عادتُهم من ركوبِ الإبلِ وقَوْدِ الخَيْلِ إلى المُغَارِ ، إبقاء عليها ، وإعداداً لوقت الحاجة إليها . والخواطِر من الخطْر ، وأصلُه التحرُّكُ .

٥ — كِلاَ ثَقَلَيْنَا طامِـعٌ بغَنِيمةٍ وقد قَدَّرَ الرحمٰن مَا هُوَ قَادِرُ

« كِلاَ ثَقَلَيْنَا » أى كلُّ واحدٍ من جماعَتَينا . والثَّقَلُ : الجماعة . والثَّقَلان : الجنُّ والإنس . وقال الخليلُ : ثَقَلُ الرَّجُل : حَشَمُه ومتاعه . وقوله « بغَنيمةٍ » ، أى بسبب غنيمةٍ . والمعنى : كلُّ واحدٍ من الغَارَيْنِ[2] طَمِـعَ فى اغتنام صاحِبِه ،

(١) فى الأصل : « متنحلة » وفى م : « منتحلة » ، صوابه ما أثبتنا من التيمورية . والمنتخلة : المختارة ، ومنه قول يزيد بن عمرو بن الصعق ، فى اللسان (فرش) :

نعـاوِرهم بقضب منتخـله لم تعد أن أفرش عنها الصقله

(٢) الغار : الجمع الكثير من الناس ، وقيل الجيش الكثير . ومنه قول الأحنف : « وما أصنع به إن كان جمع بين غارين من الناس » .

أى يَعدُّه غنيمةً ، لِثقَتِه ببأسه ونَجْدَتِه . والله عزَّ وجلّ قد قَدَّرَ مِن الإظفار وإعطاء الفَلَج والغَلَبةِ ما قَدَّرَه ، لا رادَّ لحكمه ، ولا مُعقِّب لأمرِه . ويقال قَدَرتُ من التقدير ، قَدْراً وقَدَراً . و «ما هو قادِرُه» إن شئتَ جعلتَ ما موصولاً بمعنى الذى ، وإن شئتَ جعلتَه موصوفاً بمعنى شيئاً . وعلى الوجهين وجَبَ أن يَقُولَ ما هو قَادِرُهُ ، فحَذَفَ الضَّمير تخفيفا .

٦— فلَم أَرَ يَوْمًا كان أَكثَرَ سَالِبًا ومُستَلَبًا سِرْبالَه لا يُناكِرُ

قوله « كان أكثَرَ سَالباً » من صِفَةِ اليومِ ، والمُفضَّل محذوفُ الذِّكر ، كأنه قال مِن ذلك اليَوْم . وانتَصبَ « سربالَه » على أنّه مفعول ثانٍ من مُسْتَلَباً . و « لا يُناكِرُ » فى موضع الصِّفة له ، كأنّه قال وأكثرَ مستلَباً ذا صفتُه . ومعنى لا يناكِر : لا يَقْدِرعلى الامتناع . يُقالُ نَاكَرَنى ، أى دافَعَنى ومانَعَني . يقول : ما رأيتُ يوماً حَصلَ فيه من السَّالبِينَ والمسلوبِينَ مثلَ ما اجتَمع فى ذلك اليوم ولا وقْعَةً أظهرَ حالاً وأكشَفَ أمراً فى قُوَّةِ غالِبِها وضَعْفِ مغلوبِها ، واستسلام المقهور المسلوب واستعلاء القاهر السالب ، من تلك الوقْعة .

٧ — وأكثَرَ مِنّا يافِعًا يَبْتَغِى العُلَى يُضَارِبُ قِرْنًا دَارِعًا وهو حَاسِرُ

فى هذا أيضاً حَذْفٌ وإيجازٌ كما كان فى البيت الأول ، كأنه قال : ولم أَرَ قَوْمًا كان أكثرَ شابًّا يطْلُبُ الصِّيتَ والذِّكْر ، ويعِفُّ عن الغنيمة فى الرَّوْع ، فيضارِبُ نَظِيراً له فى البأس مستلئِماً ، وهو ينازِلُهُ حاسِراً متجرِّداً — من قَومِنا . وقولُه «وهو حاسِرٌ» حالٌ للمُضمَرِ فى يُضارب ، ويُضارِب ويبتغى جميعاً صفتان لقولِه يافِعاً ، وعلى هذا قد حَذَف حَرْف العطف من قولِه يُضارِبُ ، لأنّ الجُمَلَ حَقُّها إذا وُصِفَ بها النَّكِراتُ أن يُنْسَقَ بعضُها على بعض بحرف

العطف . ويجوز أن يكون يُضارِبُ فى موضِع الحال مما فى يبتغى . واليافع : الشابُّ المُتَناهِى الشَّبَابِ ، والفِعْل منه أَيْفَع الغُلَامُ وتَيَفَّع . وبابُ يَفَع مقصورٌ على الارتفاع والإشراف فى الجَبَل والأرضِ وغيرهما . ويقالُ غُلَامٌ يَفَاعٌ ويَفَعَةٌ ويافِعٌ ، ولا يُقالُ مُوفِعٌ . وجَعَلَ القِرْنَ دَارِعًا وصاحِبَه حاسِراً ، تفضيلاً له عليه . وقد يوصَفُ الممدوح بلبس الدِّرْع ويُرادُ به حَزَامَتُه وتحرُّزُه ، كما يُوصَفُ بضِدِّه ويُرَادُ وجُرْأته .

٨ ــ فمَا كَلَّتِ الأيدى ولا انْأَطَرَ القَنَا ولا عَثَرَتْ مِنَّا الجُدودُ العَوَاثِرُ

نبَّهَ بهذا الكلام على تَساعُدِ أحوالِهم فيما تردَّدوا فيه ، وتناصُرِ أسبابهم عندما لابَسوه ونَهَضُوا له . وإمكانُ الفُرَصِ فيما يُقرِّب التمكُّنَ من العَدُوِّ ، وارتفاعُ العِلل من مُوجِبات القَهْرِ والعُلُوِّ . فيقول : قَوِيَتْ أيدى المقاتلين منّا فلم يَمَسَّها لُغُوبٌ ، وَوَفَتِ الأسلحة بمواعيدها من البقاء فلم يَخُنْ رُمْحٌ [منها[1]] بانكسارٍ وفُتورٍ ، ولا سَيْفٌ بنُبُوٍّ وكُلُول ، ولا خَذَلَتْنا جدودُنا فمالَتْ إلى تَعَثُّرٍ أو سُقوطٍ . وإذا توازرت هذه الأسبابُ وتعاوَنَتْ ، لحصَل الجِدّ والجَدّ ، وانزاحت العِلَلُ فى الدَّواعى والآلات ، كان الكَمالُ فى نَيْلِ المُرَادِ . وقوله « انأطر » فى معنى انعطف وتَثَنَّى . يُقال أطَرْتُه فانأَطَرَ ، ومنه إطار[2] الباب والمُنْخُل . وقولُه « ولا عَثَرَتْ منا الجُدُود العواثر » ، مثل قول الآخَرِ[3] :

* ولا ترَى الضَّبَّ بِهَا يَنْجَحِرْ[4] *

لأنه لم يُثبِتْ لأنفسِهم جدوداً من شأنها أن تَزِلَّ وتَعثُرَ ثمَّ نَفَى ذلك عنها

(١) هذه من م والتيمورية .
(٢) فى الأصل : « إطارات » وأثبتنا ما فى م والتيمورية .
(٣) هو ابن أحمر . الخزانة (٤ : ٢٧٣) .
(٤) صدره : * لا تفزع الأرنب أهوالها *

فى ذلك اليوم ، بل أراد أنّهم لا جدودَ لهم بهذه الصفة ، كما أنّ الشاعر الآخَرَ أراد لا ضَبٌّ فينجحر . ومعنَى الكلام : كان الغَلَبُ لنا وتعثّرت جدودُ غَيْرِنا .

١٩٥

وقال الأَخْرَمُ السِّنْبِسىّ[١] :

١ — أَلاَ إنَّ قُرْطاً على آلَةٍ ... أَلاَ إنّني كَيْدَهُ ما أَكِيدُ[٢]

يقال : فلانٌ لى على حالةٍ وعلى آلةٍ ، إذا تنكّرَ وتغيّرَ عما كان يُعْهَدُ عليه من قَبْلُ . وهذا يَجْرى مَجْرَى الكِنايات . ويُقال أيضاً : حَصَلَ فُلانٌ لنا على لَوْنٍ ، يُرادُ على لون مذموم . فيقول : إنّ هذا الرجل تحوّلَ عما كان يجرى عليه مَعِى ، إلى أمرٍ أُنكِرُهُ ولا أعْرِفُهُ ، ألاَ إنّنى أكيدُ كَيْدَهُ ، أى أقابلُ كَيْدَهُ لى بِكَيدٍ مثله . وما زائدةٌ ، وتلخيصُه : أكيدُه كَيْداً يُماثل كَيْدَه لى . وهذا كما يُقال ضربَهُ ضَرْبَ غريبةِ الإبل . والمعنى : أقتدِى به فيما تنطوى لى عليه ويعاملُنِى به ، لا أبتدئه بمَسَاءةٍ ، ولا أعاجِلُهُ بمَكرٍ وخِيَانةٍ ، بل أُقَلِّدُه البَغْيَ ، وأنتظر من جِهَتِهِ الحؤول والنَّكْثَ ، ثم أجازيه كَيْلَ الصّاع بالصّاع .

٢ — بَعِيدُ الوَلاءِ بَعِيدُ المَحَلِّ مَنْ يَنْأَ عَنْكَ فَذَاكَ السَّعِيدُ

يَذُمُّ قُرْطاً فيقول : هو بعيدُ النُّصْرَةِ والمُوَالاة ، أى بطيئُها ، بعيد الدار والمَسْكَن ؛ يعنى تدانيها . ثم قال : مَن بَعُدَ عنك فقد سَعِدَ جَدُّهُ . نقَل الكلامَ عن الإخبارِ إلى الخِطَابِ على عادَتِهِم فى افتنانهم ، وكأنّه التفت إليه يُرِيه الزّهادة .

---

(١) الأخرم ، بالخاء المعجمة بعدها راء مهملة . وفى الأصل والتيمورية : « الأحزم » ، وأثبتنا ما فى م والتبريزى . التبريزى : « قال أبو هلال : إن سنبس امرأة عمرو بن الغوث ابن طيىء ولدت له ثعل ونبهان ، فهم ينسبون بها » وفى القاموس إن سنبس بن معاوية بن جرول ، أبو حى من طيىء .

(٢) التبريزى : « قرط : رجل من سنبس » .

فى مجاوَرَتِه ، والاستغناء عن معونَتِه ، واكتفاءهم بأنفسهم دونه ، فقال ذلك بعد ما أخَذَ فى وصفه .

٣ — وعِزٌّ المَحَلِّ لَنَا بَائِنٌ بَنَاهُ الإلٰـهُ ومَجْـــدٌ تَلِيدُ

الهاء من قولِه « بَناهُ الإلٰـهُ » يجوز أن يكون للعزّ ، ويجوز أن يكون للمحلّ . فإذا جعلته للعِزّ فالأجْوَد أن ينعطف مَجْدٌ على الإلٰـه ، كأنّ العِزّ حَصَل للمَحَلّ بالله تعالى وبمجْدِ الآباء . وإذا جَعَلْتَهُ للمحلّ يجوز أن يَرْتَفِع ومَجْدٌ بالابتداء ، ويكونُ الكلام مُنقطِعاً والخبرُ محذوفاً ، كأنّه قالَ : ولنا مَجْدٌ تَليدٌ . وبناهُ الإلٰهُ فى موضع الحال للمحلّ ، والأجود أن يُضْمر مَعَهُ قَدْ . وإنما يفتخر بأنّ بلادهم حصينَةٌ ، وديارهم عزيزةٌ . وذلك أن بِلاد طيّئٍ يكتَنِفها جبلاهُمْ أجأٌ وسَلْمَى ، فلا تَسْتَمْطِرُهم الغَارَات ، ولا تهجُم عليهم سوابق الفَلَتات والنَّزَوات . فيقول : عِزُّنا فى دارنا ظاهِرٌ للناس غيرُ خافٍ ، آثَرَنَا الله تعَالَى به ، ولَنَا مَجْدٌ مُتَوَارَثٌ . وأصْلُ المَجْدِ الـكَثْرةُ . والتَّالِدُ والتَّليد : القديم .

٤ — ومَأْثُرَةَ المَجْدِ كانَتْ لَنَا وأَوْرَثَنَاهَا أَبُونا لَبِيـــدُ(١)

مَأْثُرَةٌ : مَفْعُلَةٌ من أَثَرْتُ الحديثَ ، إذا رَفَعْتَه ونَسَبْتَهُ . يريد : أنّ العِزّ اجتمع لهم مُـكْتَسَباً وموروثاً ، وتالداً وطريفاً ، ومُخَوَّلاً من عند الله تعَالَى تَخْوِيلاً ، فلهم بذلك صِيتٌ فى النّاس يُؤْثَر ، وذِكْرٌ على مَرِّ الأيّام يُخَلَّد ، وثناءٌ يَتّصِل ولا ينقطِع ، وسَنَاءٌ يستمرّ ولا يَقِفُ ، كما كان لأبيهم لَبيد .

٥ — لَنَا بَاحَةٌ ضَبِسٌ نَابُهَا يَهُونُ على حَامِيَيْها الوَعِيـــدُ

البَاحَةُ : السَّاحةُ . والضَّبِسُ : الشديد . ويقال هو ضَبِسٌ شَرِسٌ ، فى الحريص

(١) هو لبيد بن سنبس بن معاوية بن جرول بن ثعل بن عمرو بن الغوث بن طيىء . نهاية الأرب (٢ : ٣٠٠) والأغانى (١٤ : ٩٠) .

الشديد. والنّابُ: سيِّد القوم. وأراد بالحاميَيْن جَبَلَىْ طَيِّئٍ[1]، والضميرُ منها يعودُ إلى السَّاحةِ. ويجوز أن يريدَ بالناب واحد الأنياب، وجَعَلَهُ مَثَلاً للشِّدَّة. وذكَر البَاحةَ والمُرَادُ أهلَها، كما قال الآخر[2]:

وإنْ مُقْرَمٌ مِنّا ذَرَا حَدُّ نَابِهِ　　تَخَمَّطَ فِينَا نَابُ آخَرَ مُقْرَمِ

يقول: لنا ساحةُ دارٍ رئيسُها والمُدافِعُ عَنْها شَكِسُ الخُلق، شديد الإباء على الأعداء، يَهُونُ وعيدُ المتوعِّدين على النّازلين فى جوانب جَبَلَيْها، المانِعَيْن مِنْهَا. وقَوْلُه «على حامِيَيْها» حذَف المضاف وأقام المضاف إليه مقامَهُ.

٦ ـ بِهَا قُضُبٌ هِنْدُوانِيَّةٌ　　وعِيصٌ تَزَاءَرُ فيه الأسودُ

٧ ـ ثمانونَ ألفًا ولم أُحْصِهِمْ　　وقد بَلَغَتْ رَجْمَهَا أو تَزِيدُ

نَبَّهَ بهذا الكلام على أنّ ديارَهُم تَحْوِى العَدَدَ والعُدَّة، فرجالُهم أُسُودٌ فى مَأْسَدَتِها تَزْئِرُ فيها[3]، وسلاحهم الهِنْدُوانيةُ يستعملونها[4]. والعِيصُ: الأصل الكريم، ومَنَابتُ كرائم الأشجار الملتفّة، ومنه قولُهم «أعْياصُ قُرَيشٍ» لكِرامهم. وقوله «ثمَانُونَ ألفًا» هو تبيين كَمِّيَّة ما أشار إليه، وتفصيلُ ثَروتِهم بعد الإجمال، فقال: هو ثمانون ألفًا، ولستُ أقول هذا عن إحصَاءٍ وعَدٍّ، أو ضَبْطٍ بعد حَصْرٍ، لكنَّهُ رَجْمٌ مِنّى وحَدْسٌ، فهم يَبْلُغونه أو يزيدون عليه. وتحقيق قولِه «لم أُحْصِها»، لم أضْبِط كَثْرَتَهَا. والحَصَاةُ تُستعمل فى الكَثْرة والعَقْلِ. وقَوْلُه «وقد بَلَغَتْ رَجْمَهَا»، أى رَجْمِى لها، أُضِيفَ المَصْدر إلى المفعول.

(١) التبريزى: «وقيل حامياها: جانباها الأمنعان منها مثل حوامى الحصن، وهى البروج. وقيل: حامياها: الخيل والسلاح.
(٢) هو أوس بن حجر. ديوانه ص ٢٧.
(٣) يقال هذا الفعل من باب ضرب ومنع وسمع.
(٤) الهندوانية بضم الهاء وكسرها، مع ضم الدال: منسوبة إلى الهند على غير قياس.

١٩٦

وقال عبد الرحمٰن المَعْنِىُّ[١] :

١ — قد قَارَعَتْ مَعْنٌ قِرَاعاً صُلْبَا

٢ — قِرَاعَ قَوْمٍ يُحسِنُونَ الضَّرْبَا

٣ — تَرَى مع الرَّوْعِ الغُلاَمَ الشَّطْبَا

٤ — إذا أَحَسَّ وَجَمًا أو كَرْبَا

٥ — دَنَا فَما يَزْدَادُ إلا قُرْبَا

٦ — تَمَرُّسَ الجَرْباءِ لاقَتْ جُرْبَا

أصلُ القَرْعِ الضَّربُ على الشَّيء الصُّلب . ومَعْنٌ : قَبيلة . يريدُ أنَّها ضَارَبَتْ أعداءها ضِرَاباً شَديداً ، ودافعَتْهُمْ دِفاعاً مَرْضِيًّا ، ضِرَابَ قَومٍ لهم نِيقةٌ[٢] حسنةٌ فى القتال ، وأخْذَةٌ عجيبةٌ فى اللِّقاء ، يهتدُون للغِلاَب والاعتلاء أحسنَ اهتداء ، ويتأَتَّوْن للقِراع من أقْرَب غايةٍ وإلى أبعدِ انتهاء ؛ تَرَى عند اهتياج الفَزَعِ الغلامَ التامَّ القامةِ منهم ، القليلَ اللَّحم ، المطاولَ عند مبارزة الخصم متى أدْرَكَ وَجَمًا ، أو أحَسَّ شِدَّةً وضيقاً ، يُقْدِم ولا يُحْجِمْ ، بل يَزْدَاد على حَدِّ الجِذَاب مُصَادَمَة ، وعلى طول المِرَاس مكافَحةً ومكافَأةً ، فيَحتكّ بالأبطالِ فى المواقِف احتكاكَ الإبلِ الجَرْبَى فى المعاطِن .

(١) شاعر إسلامى ، قال هذه الأرجوزة فى لقاء بنى معن الحرورية ، كما نص التبريزى . وانظر أول الحماسية السابقة . التبريزى : « قال أبو هلال : هذا الشاعر يعرف بمرقس — بفتح الميم والقاف ، والسين غير معجمة — أحد بنى معن بن عتود ، ثم أحد بنى حى بن معن » .

(٢) النيقة ، بالكسر : اسم من التنوق بمعنى التأنق . وهو التجود والمبالغة .

قوله « ترَى مع الرَّوْع » أى عند حصول الرَّوع لا يتأخَّر عنه ، فهو معه يَقُومُ بقيامه ، ويهتاج باهتياجه .

وقوله « إذا أحَسَّ » ظَرْفٌ لقولِه دَنَا . وانتصَبَ « تحَكُّك[1] » على أنه مَصْدَرٌ من فِعْلٍ دَلَّ عليه قولُه « فما زِدادُ إلاَّ قُرْبا » .

وقوله « لاقَتْ جَرْبَى » يجوز أن يكون جمعَ أجرب وجَرِبٍ كأَحْمَقَ وحَمِقٍ وحمقَى . ويجوز أن يكون مقصوراً من جَرْباء ، والشاعِر أن يَقصُرَ الممدود . أى تحَكُّكَ الجَرْباء لاقَتْ جَرباء مِثلَها . ويجوز أن يُرْوى « جُرْبَا » بضمّ الجيم ، فيكون كأَسْوَدَ وسُودٍ ، وأقلَفَ وقُلف .

١٩٧

وقال عبَيدُ بن مَاوِيَّةَ[2] :

١ — ألا حيِّ لَيْلَى وأَطْلاَلَهَا ... ورَمْلَةَ رَيَّا وأَجْبَالَهَا

يخاطبُ نفسَه مُظهِراً للتَّجلُّد ، ومتبجِّحًا بأنَّ الشدائد لا تُنْسِيه الأحِبَّةَ ولا تَفْتَاتُه عن التَّسليم عليها ، والوقوف على منازِلها ومساءلتها[3] ، وأنَّهُ مَتَى مُنِيَ بها أهَمَّهُ أمرُها أشدَّ مما كان قبلُ ، ولم يَلْهَ عَنها ؛ فيقول : سَلِّمْ عَلَى هذه المرأة وعلى ديارها ، وعلى رِمَالِ رَيَّا والجبال المحيطة بها ، وإن طَرَقَكَ من الحوادِثِ ما يَشْغَلُ عن مِثْله .

٢ — وأَنْعِمْ بما أَرْسَلَتْ بالَهَا ... ونَالَ التَّحِيَّةَ مَنْ نَالَهَا

قوله « بما أرْسَلَتْ » أى بَدَلاً مما أرْسَلَتْ . وما مع الفِعْل فى تقدير مصدر ، يعنى بإرْسَالِها . وتقول العَرَبُ : هذا بذاك ، أى عِوَضٌ منه ، وهذا لك من ذاك

---

(١) كذا فى جميع النسخ . والوجه « تمرس » كما هو نص الشعر فى جميعها .

(٢) عبيد ، ضبط بفتح العين وكسر الباء فى الأصل . وضبط بالتصغير فى م والتبريزى .

(٣) هذه الكلمة من م والتيمورية .

فى معناه . وعلى هذا قول الشاعر[١] .

لَيْتَ لَنَا من مَاءِ زَمْزَمَ شَرْبَةً مُبَرَّدَةً بَاتَتْ على الطَّهَيَانِ

أى عِوَضاً من ماء زَمْزَم . والبَالُ والخَلَدُ يُستعملان على طريقة واحدة ، يقولون : وَقَعَ فى خَلَدِى كذا ، وسَقَطَ على بالى وخَطَرَ بِبَالِى . والمعنى : قل أنعمَ الله بالَهَا ، جوَاباً لتحيَّتها ، وجزَاءً على مُرَاسلتها . وقوله «ونَالَ التحيّة مَنْ نالها» يحتمل وجهين . يجوز أن يكون المعنى : وأصاب المُلكَ من أصابَ هذه المرأة . وهذا الكلام تفخيمٌ لشأن المرأة وتعظيم لخطبها . ويقال نِلْتُ كذا أنَالُ نَيْلاً . والتَّحيَّةُ : المُلكُ ، ومنه التحيات لله . وقيل فى قول الشاعر[٢] :

ولَكُلُّ ما نالَ الفتى قد نِلْتُهُ إلا التَّحيَّهْ

إنَّه أراد به تحيّة المَلِك ، وهو قولهم فى مخاطبته : أبيتَ اللَّعْن ، والمَعنَى معنًى واحدٌ . ويجوز أن يكون نال بمَعْنَى أنَالَ . قال أبو زيد : يقال نُلْتُهُ أنُولُه[٣] نَوْلاً ونَوَالاً ، أى أعْطَيْتُهُ . وعلى هذا يكون الكلامُ [دعاء . والمعنى : أنالَ اللهُ التَّحيَّةَ[٤]] من أنَالَ هذه المرأةَ تحيّتى . كأنَّه يدعو نَفْسها إلى إهداء التحيّة إليها على بُعدِها . وفى الوجه الأوّل يجوز أن تكون المرأة قريبةً .

٣ — فإنِّى لَذُو مِرَّةٍ مُرَّةٍ إذَا رَكِبَتْ حَالَةٌ حَالَهَا

المِرَّة : القُوّة والفَتْل ، ومنه قولُهم : استمرَّت مَرِيرَتُه ، واستمرّ عِذَارُه ، فى الإباء والتَّمنُّع . ولم يَرْضَ بأن جعَل لِنَفسِهِ مِرَّةً حتّى وصفَها بأنها مُرَّةٌ ، يعنى فى فم ذائقها ، وعند تجربة مُزَاولها . وهذ التَّجنيس حَسَنُ المَوْرِدِ . والضميرُ من

(١) هو الأحول الكندى ، أو يعلى بن الأحول . انظر اللسان (مطا ، طهى) ومعجم البلدان (طهيان) والخزانة (٢ : ٤٠٤) وشروح سقط الزند ٤٠ .

(٢) هو زهير بن جناب الكلبى . انظر المعمرين ٢٦ .

(٣) فى الأصل والتيمورية : « أنوله » صوابه فى م .

(٤) التكلة من م والتيمورية .

قوله « حالَهَا » يعودُ إلى الحالة ، كأنَّهُ أضافَهُ إليها لما كانت تَليها ، وجعَلَها مَرْكوبَها . فيقول : افْعَلْ ذلك واصْرِفْ همّك إليها ، وإلى الدُّعاء لها ، وطَلَب السُّقْيا لديارها ، ولا تُبالِ بما يَعِنُّ ويَعْرِض من مزاحمة عَدُوّ ، أو مراغمة حَسودٍ ، فإنِّي لَذُو قُوّة لا تَسْتَجْلِبها الفِرقُ المنابِذَةُ ، إذا تراكمت الأمورُ ، وتراكبت الأحوالُ والوجوهُ ، فخَفِيتْ مواردُها ومَصادِرُها ، والْتَبَسَتْ فُصُولُها ووُصولُها .

٤ — أُقَدِّمُ بالزَّجْرِ قَبْلَ الوَعِيدِ لِتَنْهَى القبائلُ جُهَّالَهَا

يجوز أن يكون أُقَدِّم بمعنى أتقدَّم ، ويكون الباء من « بالزَّجْرِ » في موضعه . ومثله نَبَّهَ بمعنى تَنَبَّهَ ، ووَجَّهَ بمعنى توجَّه ، ونَكَّبَ بمعنى تَنَكَّبَ . ويجوز أن يكون قَدَّم ضِدّ أَخَّرَ ، ووجَبَ أن يَقُولَ : أُقَدِّم الزَّجْرَ ، فجَعَلَ الباء زائدةً للتأكيد ، كما جاء في قولِهِ : ﴿ تُنْبِتُ[1] بالدُّهْنِ وصِبْغٍ للآكِلِينَ ﴾ لذلك . ومثله قول الشاعر[2] :

* سُودُ المَحاجِرِ لا يَقْرَأْنَ بالسُّوَرِ[3] *

ومعنى البيت : أَزْجُرُ المُتعرِّض لي قَبلَ أن أتوعَّده ، وأعظُه بالنَّهْيِ والتحذير قبل تخشين الجانب له ، لكي يَنْهى حُكماء القبائل سُفهاءها ، وليكون مِنّي تَدرُّجٌ في مؤاخذَتِهم ؛ فأبْتَدِئُ بالزَّجْرِ ، ثم أرْتَقِي إلى الوعيدِ ، ثم إلى الإيقاع .

(١) هذا رسم نسخة الأصل والتيمورية . وهي مهملة الضبط في م . وهذه القراءة هي التي يصح الاستشهاد بها على زيادة الباء ، وهي قراءة ابن كثير ، وأبي عمرو ، وسلام ، وسهل ، ورويس ، والجحدري . وقرأ الجمهور : « تنبت » بفتح التاء وضم الباء . انظر تفسير أبي حيان .

(٢) هو الراعي النميري ، أو القتال الكلابي الخزانة (٣ : ٦٦٧) .

(٣) صدره : * هن الحرائر لا ربات أحمرة *

٥ — وقافيَةٍ مِثْلِ حَدِّ السِّنانِ تَبْقَى وَيَذْهَبُ مَن قَالَهَا

٦ — تَجودتُ فى مَجلِسٍ واحدٍ قِرَاها وتِسْعِينَ أمْثَالَهَا

القافية : آخر البيت المشتمل على ما يجب على الشّاعر مراعاته وإعادتُه فى كل بيتٍ ، سُمّى بذلك لأنّه يَقْفُو ما قَبْلَهُ . وهم يُسَمُّون البيت بأسْرِه قافيَةً ، لاشتماله على القافية ، والقصيدةَ بأبياتها قافية ، لاشتمالها على الأبيات المقفّاة . وهذا توسُّعٌ منهم ، كما يسمُّون القصيدة كلمةً ؛ والحقيقةُ ما قدَّمْتُه . والأَوْلَى بهذا الشاعرِ عندى أن يريد بالقافية البيت ، لأنّ نَظْمَ تسعين بيتاً غيرُ مستنكَر فى العُرف والعادةِ من المقتدرين ، الجيدين المُفْلِقين ، ذوى البَدائه العجيبة ، والخواطر السَّريعة ، ولو أرادَ القصيدة لبَعُدَ عن المعتاد . فيقول : رُبَّ قافيَةٍ تَنفُذُ نَفَاذَ السِّنان ، وتَرْويه لجودَتِها[1] الرّواةُ فلا تَخْلُقُ على مَرّ الأيّام ، ولا تُبْليه[2] السُّنونَ والأعوام ، بل تَبْقَى مع اللَّيل والنَّهار بقاء الظُّلَمِ والأنوار ، وإنْ دَرَجَ قارِضُها ، ومَضَى مُنْشِئُها ، أنا تَجَوَّدْتُها فى مَجْلِسٍ واحدٍ مع تسعينَ من نظائرها . يريدُ أنّه لسانُ قومِه ، ومِذْرَه عشيرَتِهِ . ومعنَى تَجوّدتُ : اخترتُ عند الجمع جَيِّدَها . وهذا كما يقال : تَنَقَّيْتُ الشيء وتَخيَّرْتُه . وقوله « وتسعين » أراد مع تسعين ، فيكونُ انتصابُه على أنّه مفعول معه كقولِه تَعَالَى : ﴿ فأَجْمِعُوا أمْرَكُمْ وشركاءَكُمْ ﴾ ، لأنّ المرادَ مع شركائكم . ويجوز أن تكون الواو عاطِفَةً منه ، كأنه قال : قِرَاها وقِرَى تسعين تُمَاثِلُها . وقِرَى يجوز أو يكونَ من قَرَيْتُ الماء فى الحوضِ ، ويجوز أن يكون من قَرَوْتُ الأرضَ إذا تَتَبَّعْتَه . ويجوز أن يَكُون القِرَى ما يُطْعَمُ الضَّيْف ، فاستعاره كما قال :

---

(١) فى الأصل : « وترويه بجودتها » وأثبتنا ما فى م والتيمورية .

(٢) كذا فى جميع النسخ . وكأن المرزوقى أجرى الضمير مرة على الشعر ومرة على القصيدة .

* قِرَى الهَمِّ إذا ضافَ الزِّمَاعَ *

كأنّ القوافيَ لمّا توارَدَتْ أحسَنَ القيام بها ، وجَوَّدَ القِرَى لها .

١٩٨

وقال ابن رَالانَ السِّنْبِسِيُّ[١] :

١ — لمّا رَأتْ مَعْشَرًا قَلَّتْ حَمُولتُهُمْ قالت سُعَادُ أهذا مالُكُمْ بَجَلاَ

الحمولة : الإبل التي يُحْمَلُ عليها . والحُمُولة بالضم : الأحمال . يقول : حين رأتْ هذه المرأةُ فقرَنا وقِلّةَ إبلنا قالت مُنْكِرةً ومُتَعَجِّبةً : أهذا مالُكم فحَسْب . و « بَجَلاَ » في موضع الحال ، والمعنى أهذا مالُكم مُكْتَفًى به . والأصلُ في بَجَلْ البناء على السكون ، ودَعَتِ الضرورةُ إلى تحريكه فحرّكَهُ بالفتح ، وكان الواجب إذا حُرِّكَ الكَسْرَ فيه . ومِثْلُه قول الآخر[٢] :

* ونَعَمْ إن قُلْتُمُ نَعَمَا[٣] *

لأنّ نَعَمْ أيضاً مبنيٌّ على السُّكون فحُرِّكَ آخره للضرورة بالفتح كما ترَى . وقد يُضافُ بَجَلْ لكونه اسمًا كما يضافُ قد إذا كان بمعنى حَسْب . قال :

* بَجَلِي الآنَ من العَيْشِ بَجَلْ[٤] *

---

(١) رالان بترك الهمز في النسخ . وهو جابر بن رالان ، سبقت له الحماسية ٥٩ص ٢٣٤ .

(٢) هو الطائي الكبير ، كما ذكر ابن جني في التنبيه ، يعني بالكبير أبا تمام . والبيت التالي في ديوانه ٣٠٥ .

(٣) تمامه :

تقول إن قلتم لا لا مسلمة لأمركم ونعم إن قلتم نعما

وقبله :

فخرا بني مصعب فالمكرمات بكم عادت رعانا وكانت قبلكم أكما

(٤) للبيد ، كما في اللسان والمقاييس (بجل) . وصدره :

* فتى أهلك فلا أحفله *

وفى قَدْ جاء :

* قَدْنِيَ من نَصْرِ الخُبَيْبَيْنِ قَدِى[1] *

والمال عندهم الإبل ، ولهذا يطلقون فيقولون : المالُ فى الرِّعى[2] ، لاشتهار لفظة المال عندهم بها .

٢ ــ إمَّا تَرَى مالَنا أضحَى به خَلَلٌ فقد يكونُ قديمًا يَرْتُقُ الخَلَلا

الخَلَلُ الأوّل النَّقصُ ، والخَلَلُ الثانى الفُرْجَةُ بين الشيئين حتى يصحّ الرَّتْق معه . وفى الكلام اختصارٌ ، لأنّ المعنى أجْبَنَاها بأنْ قُلنا : إن كُنْتِ تَرَيْنَ اختلالَ حالنا وانتقاصَ مالنا ، وظهورَ الفاقة والفَقْر على [صفحات[3]] ظواهرِ نا ، فقديمًا كان يُسَدُّ الخَلَلُ بمالِنا ، وتُرْتَقُ الفُتُوقُ بها ، وتُرَدُّ عاديةُ الشَّرّ بتفريقها . وقوله « فقد يكون » جَعَلَ اللَّفظ مستقبلاً وإن أراد المُضِيّ ، لاستمرار الحال على طريقةٍ واحدة ؛ وقد مَضَى مِثلُهُ . ويجوز أن يكون حَكَى الحالَ ، كقوله تعالى : ﴿ وكَلْبُهُمْ باسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بالوَصِيدِ ﴾ .

٣ ــ قد يَعلَمُ القومُ أنّا يَوْمَ نَجْدَتِهم لا نَتَّقِى بالكَمِىّ الحاردِ الأَسَلا

قولُه « قد يعلمُ القومُ » الكلامُ فى استعمال لفظ المستقبل هو على ما قدمناه فى قوله « فقد يكون قديما » من البيت الذى قبله . فيقول : قد اشتَهَر من شأنِنا يومَ البأسِ والشِّدَّة ، ووقتَ احتماء الوطيس والتهاب النّائرة ، أنّا لا نُحْجِم فنَتَّقِى رِماحَ الأعداء بالشُّجعان ، ولكن غيرُنا يتّقِى بنا فنتقدَّم إذا تأخّر ، ونستبسلُ

---

(١) لحميد الأرقط . الخزانة (٢ : ٤٥٣) . والخبيبان هما عبد الله ومصعب ابنا الزبير . وهو تغليب سماعى ، إذ أن عبد الله بن الزبير يكنى أبا خبيب باسم ولده . ويروى : « الخبيبين » بصيغة الجمع كالأشعرين ، يراد به عبد الله بن الزبير وأصحابه .

(٢) الرعى ، فعل بمعنى مفعول ، وهو ما يرعى .

(٣) هذه من م والتيمورية .

إذا تحرَّز . والحارد : المجتمِع الخَلْقِ الشَّدِيدُ المَهِيبُ ، الذى يُحْسَبُ من عِزِّه غَضْبانَ .

٤— لكِنْ تَرَى رَجُلاً فى إثْرِهِ رَجُلٌ قد غادَرَا رَجُلاً بالقَاعِ مُنْجَدِلاَ

هذا تصويرٌ لما أثبتَ من أفعالِهم فى الإقْدام ، لَمَّا نَفَى عن أنفسِهم الإحجامَ ، فيقُولُ مُخاطِباً واحداً من النّاسِ : لكنّنا تتهافت و نتتابع[1] حِرْصًا على القتالِ ، حتّى تَرَانا من بين طاردٍ وقاتِل ، وكارٍّ وفارٍّ ، وطالبٍ ومطلوبٍ . وقد تَرَكا صريعاً ساقطاً على الأرض ، كأنَّ أحدهما صَرَع قتيلاً والآخر يَتْبعه لينالَ منه . ويجوز أن يكون معنى « قد غادَرَا » قد غادر كلُّ واحدٍ منهما رَجُلاً مصروعًا ، كما يقال : كَسَانَا الأمير حُلَّةً ، والمعنى كسا كلَّ واحدٍ منّا . وكقول الله تعالى : ﴿ فاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ﴾ . وفى هذه الطريقة قول الآخر[2] :

وهَلْ غَمَرَاتُ الموتِ إلاّ نِزالُكَ الـ كَمِيَّ على لحم الكَمِيِّ المُقَطَّرِ

والقاعُ : المستوِى من الأرض . والمُنْجَدِلُ : المصروع . والجَدَالَةُ : الأرضُ ، كأنَّ معنَى جَدَلْتُهُ : أَصَبْتُ الجَدَالَةَ به .

١٩٩

وقال قَبِيصَةُ بن النَّصْرَانِىِّ الجَرْمِى[3] :

١— لَمْ أَرَ خَيْلاً مِثْلَهَا يَوْمَ أَدْرَكَتْ بَنِى شَمَجَى خَلْفَ اللُّهَيْمِ على ظَهْرِ[4]

أراد بالخَيْلِ الفُرسان لا الأفراس ، كما رُوِى : « يا خيلَ اللهِ ارْكَبِى » .

(١) كذا فى جميع النسخ بالباء .
(٢) هو شريح بن قرواش العبسى . الحماسية ١٤٠ .
(٣) التبريزى : « قبيصة بن النصرانى الجرمى من طيىء » .
(٤) شمجى ، بفتحات ، من بنى الغوث بن طيىء . الاشتقاق ٢٣٠ .

وقَوْلُهُ « على ظَهْر » فى موضع الصِّفةِ لقوله « خَيْلاً » ، كأنّه قال لم أَرَ فُرْسَاناً تُماثِلُها على ظَهْرٍ يومَ أدْرَكْتُ هذه القبيلةَ خَلْفَ هـذا الجَبَل . وقوله « على ظَهْر » يحتمل وجهين : أحَدُهما أن يكون المعنَى لم أرَ خَيْلاً على ظَهْرِ الأرض ، كما جاء فى التّنزيل : ﴿ ما تَرَكَ على ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ ﴾ . والثانى أن يكون المعنَى : لم أَرَ خَيْلاً على ظهور الدّوابّ ، لكنّه قَصَد الجِنْس فوَحَّدَ كما يُقال هو يَرْتبط كذا رأساً من الدوابّ ، وكذا ظَهْرًا منها . وذَكَرَ بعضُهم أنّ ظَهْرًا اسم ماء ، كأنّه قال خَلْفَ هذا الجبل على هذا الماء . وهذا إذا ثَبت يُسَلَّمُ للسّماع . وذَكَرَ بعضُ أصحابِ المعانى أنّ قَوْله « على ظَهْرٍ » يجوز أن يكون فى موضع الحال للمُضمَر فى أدركْت ، أى يومَ أدركْتُهُمْ قاهِرَةً لَهُمْ ، وعلى قَهْرٍ وغَلَبةٍ فيهم ؛ من قولك ظَهَرتُ على فلانٍ ظُهوراً وظَهْرًا . وفى القرآن : ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ .

٢ — أَبَرَّ بأيْمَانٍ وأَجْرَأَ مُقْدَمًا وأَنْقَضَ مِنَّا لِلّذى كان من وِتْرِ

ولمّا أراد بالخيلِ أصحابَهُ وفُرْسانَ جَيْشِهِ ساغَ أن يقولَ « وأَنْقَضَ مِنَّا » . ويشبه هذا ما يجىء من صلة الذى فى مثل قوله :

* أنا الذى سَمَّتْنِ أُمِّى حَيْدَرَهْ[1] *

فقال سَمَّتْنِ والوَجهُ سَمَّتْهُ . وبابُ[2] الصِّلاتِ والصِّفات تتداخل وتتشابه . فيقولُ : لم أَرَ أَوْفَى بالنذور والأقسامِ إذا عَقَدْناها والتزمناها ، وأجرأَ إقداماً وثباتاً فى وجوه الأعداء إذا ناصَبْناها وكاشَفْناها ، وأَسْعَى فى نَقْضِ الأوتار وإدراكِ الذحولِ بعد إبْرَامِها وتَعَقُّدِها مِنّا . ونَقْضُ الوِتْر هو حَلُّ عَقْدِهِ باشتفاء

(١) لعلى بن طالب ، كما سبق فى ص ٤٠٧ وحواشى ص ١١٠ .

(٢) كذا فى جميع النسخ ، وهو جائز فى العربية .

النَّفْسِ من الواتر الذى يُبْرِمُه . وكان الشَّريفُ الأَنِفُ منهم إذا أُصِيبَ وَوُتِر يَنْذُرُ أنّهُ لا يَشْرَبُ خَمْرًا ولا يَقْرَب امرأةً ، أو لا يَغْسل رأسًا ، وما يَجْرِى هذا المَجْرَى مما يَكْرُثُ النَّفْسَ إذا أَخَلَّتْ به ، حَتَّى ينَال الوِتْرَ . لهذا قال امرؤ القيس بعد تأثيرِهِ فى بنى أَسَدٍ ونَيْلِهِ مُنَى النَّفْسِ فيهم :

حَلَّتْ لِيَ الخَمْرُ وكُنْتُ امرأً عَنْ شُرْبِهَا فى شُغُلٍ شَاغِلِ
فالْيَوْمَ أُسْقَى غَيْرَ مُسْتَحْقِبٍ إثْمًا من اللهِ ولا وَاغِلِ

فأمَّا قَوْلُ الأَعْشَى :

فَأَظْعَنْتَ وِتْرَكَ فى دَارِهِمْ وَوِتْرُكَ من قَبلِهِم لم يُقِمْ[١]

فهو فى طريقةِ قوله نَقَضْتُ الوِتْرَ منه .

٣ــعَشِيَّةَ قَطَّعْنَا قرائنَ بَيْنِنَا بأسْيَافِنا والشاهِدُونَ بَنُو بَدْرِ

أضافَ القرائنَ إلى بيننا لأنَّه جعَلَهُ اسمًا ونقله من باب الظُّروف . وعلى هذا قراءةُ من قرأ : ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنُكُمْ[٢]﴾ بالرَّفْع ، والمعنى وَصْلُكُمْ . ولَكَ أن تَرْوِى « قرائنَ بَيْنَنَا » فلا تُضِيفَ وتَترُكَ بيننا فى بابه ظَرْفًا ، كما قد قُرِئَ : ﴿لقد تَقَطَّعَ بينَكُمْ﴾ بالنَّصب . ويَعْنِى بالقَرائن الأرْحامَ والأواصِر . وانتَصبَ « عَشِيَّةَ » على أنَّهُ بَدَلٌ من قَوْلِهِ « يَوْمَ أدركَتْ بنى شَمَجَى » فيقول : لم أَرَ خيلاً تماثِلُها عَشِيّة أرسلْنا دوابَّنا على أعدائِنا ، وأَوْقَعْنا أَنْفُسَنَا عليهم ، فقطعنا باستعمال السّيوف الوُصَلَ الجامعةَ لنا ، والأسبابَ النّاظمة لشَتاتنا ، وبنو بَدْرٍ حاضِرُونَ لَنَا ، ومتوسِّطُون لما نُثيرُهُ بَيْنَنَا ، والمشاهدون لبَلائنا ، والمصدِّقُون لِمَا نَدَّعِيه من فِعلِنا .

(١) فى الديوان ص ٣٠ :

فأظعنت وترك من دارهم ووترك فى دارهم لم يقم

(٢) هذه هى قراءة جمهور القراء . وقرأ نافع والكسائى وحفص : « بينكم » بالفتح على البناء أو على النصب . تفسير أبى حيان (٤ : ١٨٢) فى سورة الأنعام .

٤ – فَأَصْبَحْتُ قَدْ حَلَّتْ يَمِينِي وأَدْرَكَتْ بَنُو ثُعَلٍ تَبْلِي ورَاجَعَنِي شِعْرِي

يقولُ : أتى عَلَيَّ الصَّبَاحُ ثَانِيَ ذلك اليوم ، وقد حَلَّ نَذْرِى ، وأدْرَكَ قَوْمِي ذَحْلِي ، وانْطَلَق بالفخرِ لِسانِي ، فصِرْت خَفِيفَ الظَّهْرِ بعد أن كُنتُ مُثْقَلا بِعِبْءِ الوِتْرِ ، وكانَ الشِّعْرُ هَاجَرَنِى وفارقَنى مُدَّةَ السَّعْى فى نَيْلِ المطلوب من إمكان فُرْصَةٍ أنتهزُها ، ثم رَاجَعَنِي . وهذا ضِدُّ قولِ الآخر(١) :

فَلَوْ أنَّ قَوْمِي أنْطَقَتْنِي رِمَاحُهُمْ نَطَقْتُ وَلَـكِنَّ الرِّماحَ أَجَرَّتِ

٢٠٠

وقال أَدْهَمُ بن أبى الزَّعْرَاء(٢) :

١ – قد صَبَّحَتْ مَعْنٌ بِجَمْعٍ ذِى لَجَبْ
٢ – قَيْسًـــا وعُبْدَانَهُمُ بالمُنْتَهَبْ
٣ – وأَسَـــدًا بِغَارَةٍ ذَاتِ حَدَبْ
٤ – رَجْرَاجَةٍ لم تَكُ مِمَّـــا يُؤْتَشَبْ
٥ – إلاَّ صَـــمِيماً عَرَبًا إلى عَرَبْ
٦ – تَبْكِي عَوَالِيهِمْ إذَا لم تَخْتَضِبْ
٧ – من ثُغَرِ اللَّبَّاتِ يَوْمًا والحُجُبْ

(١) هو عمرو بن معديكرب . الحماسية ٢٩ .

(٢) شاعر طائى معنى من شعراء مخضرمى الدولتين : وأبوه سويد بن مسعود بن جعفر بن عبد الله بن طريف بن حبى بن عمرو بن سلسلة بن غنم بن ثوب بن معتود . المؤتلف ٣١ . يقوله هذه الحماسية فى وقعة « المنتهب » ، وهى قرية فى طرف سلمى أحد جبلى طيئ كانت عندها وقعة بين طيئ وحلفائهم بنى بدر بن فزارة بقيادة معدان بن عبيد بن عدى ، وبين قيس وأسد بقيادة أمية بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان ، فهزم القيسيون أقبح هزيمة .

يُرْوَى : « الألبابِ » .

قوله «قدصَبَّحَتْ مَعْنٌ بجَمْعٍ »، الجَمْعُ : المجتمعون: والجُمَّاعُ : المُتفرِّقُونَ . ومَعْنَى صَبَّحَتْ ، أى أَتَتْ قَيْسًا صَباحًا بكَتيبةٍ لَهَا جَلَبَةٌ وصَوْتٌ ، لكَثْرَتِها . والعُبْدَانُ يُكْسَرُ أولُه ويُضَمُّ ، وهو جمعُ عَبْدٍ ، يُقَالُ عَبْدٌ وأَعْبُدٌ وعَبِيدٌ وعِبَادٌ وعِبِدَّى ومَعْبُودَاء وعُبُدٌ ، فَعِبْدَانٌ جمع عَبِيدٍ . والمُنتَهَبُ ، قيل هو اسمُ مكانٍ ، ويجوز أن يكونَ المرادُ به الانتهاب أو مَوْضِع الانتهاب . ومعنى البيت أَغَارَتْ هذه القبيلةُ وقصدتْ بجَيْش عظيمٍ ، بنى قَيْسٍ وعَبِيدَهُمْ بهذا المَوْضِع . ويَعْنِي بالعَبِيدِ الرُّعَاةَ والعُسَفَاءَ الذين يكونونَ مع الإبِل . كأنَّهُم فى أَحْوِيَتِهِمْ ، وفى مَوْضِعٍ كانَتْ أمْوَالُهُمْ حاضِرَةً ، غير عَازِبَة ولا غائبَة .

وقولُه « وأَسَداً بغَارَةٍ » ، يَقُولُ : وصَبَّحَتْ أَسَداً بخَيْلٍ ذاتِ اعتلاء ومَوَجانٍ ، تَتدافَعُ فى سَيْرِها ولاتستقيم ، لكَثْرَتِها ، ولم يكونوا أَشَابَاتٍ وفِرقًا جُمِعتْ من شىء إلى شَىْء . وقوله « ذاتِ حَدَبْ » يجوز أن يكونَ مصدر الأحْدَب ، ويكون وَصَفَ الغارةَ بالحَدَب كما قيلَ آلَةٌ حَدْبَاء ، وَعِزَّةٌ قَعْسَاء ، كأنَّهُ يَنْبُو ظَهْرُهَا عَمَّنْ يُرِيدُ رُكُوبَهَا واقتسارها . ويجوز أن يراد به الارتفاع والكَثْرة . وقال الخليلُ : الحَدَبُ حَدُورٌ فى صَبَبٍ ، يعنى العَقَبَةَ . قال : ومعه حَدَبُ الرِّيحِ وحَدَبُ الرَّمْلِ . وفى القُرآن : ﴿ وهُم مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴾ . فأمّا قوله « بغارَةٍ » فالعَرَبُ تُسَمِّى الخَيْلَ غَارَةً لأَنَّهَا مِنْ قِبَلِها تَكُون ، وهذا من باب تسميَةِ الشىء بما يكونُ من سببه . والغَارُ بلا هاء يستعملُ فى الجمع الكثير ، وفى الحديث : « ما ظَنكَ بِرَجُلٍ جَمَعَ بَيْنَ هٰذَيْنِ الغَارَيْنِ[1] » .

وقولُه : « رَجْرَاجَةٍ » يقال كَتِيبَةٌ رَجراجةٌ ، أى تَضْطرِبُ وتَمُوجُ من

(١) فى اللسان (غور) : « ومنه قول الأحنف فى انصراف الزبير عن وقعة الجمل : وما أصنع به إن كان جمع بين غارين من الناس ثم تركهم وذهب » .

كثرتِها . وامرأةٌ رَجْرَاجَةٌ ، أى تترجرجُ من بُدْنِها ونَعْمَتِها[1] . وقولُه « مما يؤتشَبْ » يقال أَشَبْتُهُ وائتشَبْتُهُ ، أى جَمَعْتُهُ من وجوهٍ مختلفة لا خَيْرَ فيها . وأصل الأَشَبِ الالتِفافُ . ويقال غَيْضَةٌ أَشِبَةٌ . وتَوَسَّعُوا فيه فقالوا : عِنْد فُلاَنٍ أُشَابَةٌ من المال ، أى مِمَّا كَسَبَهُ من الحَرام وما لا خَيْرَ فيه .

وقولُه « إلاّ صميماً » ، يقال هو من صميمِ قَوْمِهِ ، إذا كان من خالصتهم ومَحْضِ أصلِهم ؛ ومنه قَوْلُهم : صميمُ الرَّأْس والسّاق ، للعظْم الذى به قِوَامُ العُضو ، وتوسَّعُوا فقالوا : جاءَ فى صميمِ الصَّيف أو الشِّتاء . وانتَصَب صميماً على أنَّه استثناءٌ خَارِجٌ . وجَعَلَ قَوْلَه « عَرَباً إلى عَرَبْ » بَدَلاً منه . ومعنى إلى عَرَبْ : مع عَرَبْ ، كما يقولون : هذا إلى ذاكَ .

وقولُه « تَبْكِى عَوَالِيهِمْ إذا لم تَخْتَضِبْ » فعاليَةُ الرُّمْح وغيره أعْلاَهُ ، وقيل العاليَةُ القَنَاةُ المستقيمة . وقَوْلُهُ « إذا لم تَخْتَضِبْ » يقال خَضَبَ الرَّجُلُ شَعْرَهُ ، واختَضَبَ . ولا يُذكَرُ الشَّعَرُ معه ، وقد يكون اختَضَبَ فى مطاوعة خَضَبَ . ومعنى البيت : لكنّهم كانُوا خُلَّصًا عَرَباً مع عَرَبٍ ، عَوَّدُوا رِمَاحَهُم أن تُسْقَى دِمَاءَ الصُّدُور والقُلوب ، فإذا انقَطَعَ شِرْبُها عنها تَبْكِى تَحَسُّراً عليه ، وَوَجْداً به . وهذا مَثَل .

ويَعْنِى بثُغَرِ اللَّبَّاتِ : هَزَمَاتِ التَّرَاقِى وحُجُبَ الأفئدة . ويقالُ لَبَبٌ ولَبَّةٌ ، ولذلك رُوِىَ : « مِنْ ثُغَرِ الألباب » و « اللبات » . والمعنى أنهم بُصَرَاءُ بالطَّعْنِ فلا يصيبون إلاّ المَقْتَل .

---

(١) البدن ، بضم الباء وفتحها : البدانة ، وهى السمن والجسامة .

٢٠١

وقالَ بُرْجُ بْنُ مُسْهِرٍ الطائىُّ(١) :

١ — إلَى اللهِ أشْكُو مِنْ خَليلٍ أَوَدُّهُ ثَلاثَ خِلالٍ كُلُّهَا لِىَ غَائِضُ

جَعَلَ شَكْوَاهُ إلى الله عزّ وجلّ ، ليأسه من معونة المخلوقين فيما يتألَّمُ منه ويتضَجَّرُ به . يقولُ : أشْكُو ثلاثَ خِلالٍ من صديقٍ لى أَمِيلُ إليهِ ، وأُخْلِصُ الوُدَّ له ، وكُلُّ واحدة من تلكَ الخِلالِ يَهْزِلُنِى ويَنْقُصُ من لحمى ، ويَكسِرُ من نشاطِى . ويُقَالُ غَاضَ المَاءُ وغِضْتُه أنا ، وفى القرآن : ﴿ وغِيضَ الماءُ ﴾ فهى من باب فَعَلْتُ الشَّىءَ فَفَعَلَ(٢) . قال الشَّاعر :

* فلا رَاكِدٌ يَجْرِى ولا هو غَائِضُ *

٢ — فمِنهنَّ ألاَّ تَجْمَعَ الدَّهرَ تَلْعَةٌ بُيُوتًا لَنَا يا تَلْعَ سَيْلُكِ غامِضُ

يجوز أن يُرْوَى « تَجمَع » بالنَّصْبِ والرّفع ، فإذا نصبْتَ فلأَنَّ أنْ قَبْلَهُ هى الناصيةُ للفِعْل ، وإذا رُفِع فأَنْ تكونُ مُخَفَّفَةً من الثقيلة ، أرادَ أنّه لا تَجْمَعُ ، والهاء ضميرُ الأمرِ والشأنِ . ومِثلُه فى القرآن : ﴿ أفَلاَ يَرَوْنَ ألاَّ يَرْجِعُ إليهم قَوْلاً ﴾ ، قُرِئَ يرجع بالرّفع والنّصْب ، حَمْلاً على الوجهين المذكورين . والتَّلْعَةُ : أرضٌ مرتفعةٌ يترَدَّدُ فيها السَّيْلُ إلى بطن الوادى . ويقال : فُلانٌ لا يوثَقُ

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٢٢ . قال أبو رياش : « كان سبب هذه الأبيات أن البرج بن مسهر بن جِلاس بن الأرت الطائى — واسم الأرت خالد — كان هو وعمه أبو جابر يشربان ، وكانت امرأة أبى جابر جالسة ، فانتشى البرج فقبلها ، ثم رأى عمه وقد رآه فاستحيا وكف وقال : « ياعمى غلبنى الشراب ! قال : أو لم أرك حين رأيتنى كففت واستحييت ، ولو كان الشراب غلبك لم تستحى ! اذهب فوالله لاتجمعنى وإياك محلة ولا غزوة ، ولا نجتمع فى بلد ، ولا أكلمك أبداً . فقال هذه الأبيات » .

(٢) هذا . وقال ابن جنى فى التنبيه : « أى ناقص لى ونائل منى . من غضت الماء أى نقصته . وقيل فى غائض : إنه أراد غائظ فأبدل الظاء ضادا .

بَسيْلِ تَلْعَتِه ، إذا كانَ غيرَ صَـدُوقٍ فى أخبارِه . وبابُ التّلع كله يدُورُ على الإشرافِ والارتفاع . وقوله « يا تَلْعَ سَيْلُكِ غامِضُ » يسمّى نُقّادُ الكلام مثلَهُ التفاتًا ، فهو مثلُ قول جرير فيما حُـكِى عن الأصمعىّ :

مَتَى كانَ الخيامُ بذى طُلُوحٍ سُقِيتِ الغَيْثَ أيَّتُهَا الخِيَامُ

وصَلَح ترخيمُ تَلْعَةٍ وإن كانَ نَكِرة ، لأنه قَصَـدَ بها فى النّدَاء إلى واحـدةٍ بعينِها . ومعنى البيت : من تلك الخِلالِ التى أتألّمُ منها أنّى وإيّاهُ لا نَجْمعُ طول الدّهرِ فى مكانٍ ، ولا يَحوى بُيوتَنا تَلْعَةٌ من التّـلاع . ثم التَفَتَ مُظْهِرًا التَّضَجُّر ، ومُبْدِيًا ، التوجُّع إلى التَّلْعَةِ ، فقال : لا جرى فيكِ سَيْلٌ ، ولا ظَهَرَ بِكِ خِصْبٌ ، ولا سُقِيَ لَكِ عَهْدٌ . وهذا كأنّه للموضِـعِ الذى لا يتّفق له مع صديقِهِ المذكورِ فيه الْتقاءٌ على قُرْبِهِ وجَوازِ كون ذلك فيه — ذَنْبًا ، فأقبَـلَ يدْعو عليـه تَضَجُّرًا به . ومن عادة الناس النّظَرُ فى الدّيار وما يَسْنَحُ فيها من اجتماع الأحِبَّةِ أو افتراقِهم ، وانتظامِ شَمْلِهم فيها أو انبتاته . وقد وَرَدَ الخبرُ بمثل ذلك أيضًا .

٣– ومنهنَّ ألاَّ أستطيعَ كلامَهُ ولا وُدَّهُ حتّى يَزُولَ عُوَارِضُ

يجوز أن يُرْوَى « أستطيعُ » بالرّفع والنّصْب على ما تقدّم فى البيت قبله . وقوله « ولا وُدَّهُ » إنْ قيل كيف قال لا أستطيعُ وُدَّهُ ، وقد قال فى البيت الأول من خَليلٍ أوَدُّهُ ، فأثبتُ الوُدَّ ؟ قلتَ : إنمـا يعنى لا أستطيعُ مُقْتَضَى وُدِّهِ ومُوجبَهُ ، فَحذَفَ المضاف . وقوله « حتى يَزولَ عُوارِضُ » ، معناهُ حتى كان ما لا يكونُ . والمرادُ بالبيت : ومن تلك الخِلال ما عَرَضَ بينى وبينه من إعراضٍ مُتّصِلٍ وهَجْرٍ دائم ، فلا أقدرُ على مفاوَضتِهِ فيما يَعِنُّ من خيْرٍ وشَرٍّ ، ولا أُطِيقُ مُباثّتَهُ ما يَنتقِل فيه من محبوبٍ أو مكروهٍ ، ولا أستطيعُ مُوادَّتَهُ

ومخالَصَته بحسب الأحوال المتشابكة بيننا ، ما ثبَتَ عُوارِضٌ —وهو جَبَلٌ— ودامَ للدَّهْرِ مُتَّصَلٌ .

٤ —ومِنْهنَّ ألا يَجْمَعُ الغَزْوُ بَيْنَنَا وفى الغَزْوِ ما يُلْقَى العَدُوُّ المُبَاغِضُ

وَجْهُ جَوَازِ الرَّفْعِ فى يَجْمَعُ والنَّصْب على ما تَقَدَّم . وقد رَتَّبَ الشّاعِرُ فى هذه الأبيات مسبِّبات للَودّة ونتائجها ، وما يوجِبُه غِرَاسُ المِقَةِ وآثارُها ، أحسنَ تَرْتيبٍ ، فابتدأ عند ذكر انتفائها وامتناعها بتعذُّر الاجتماع بالأبدان فى المجَالِسِ والمَحَالّ ، لأنَّهُ الأوّل والأصْلُ فى انعقادِ الوِداد ، ثم أتْبَعَهُ بما يَصْحَبُ الاجتماعَ للتألُّفِ ، حتّى لا يَنْفكّ منه من التَّوَانُسِ والتَّساوُل ، والمُخَالَقَةِ والإلْطَاف ، لأنَّه تِلْوُ الأوَّل وثانيه . ثم أردفَ المقدّمتين بنتيجتهما من التَّماوُن والتَّساعُد ، والاهتمام والشَّفقة عند ما يَحْدُثُ ويتجدّد من صغيرٍ وكبيرٍ ، ومَرْدودٍ ومقبولٍ ، فيقولُ : ومن تلك الأحوال أنَّ التَّشارُكَ فى جَوالب الدّهر بيننا رُفِضَ ، والتألُّبَ على الأعداء من مقاصِدِنا سَقطَ ، فلا يُؤلِّفُ بيننا مراعاةُ عزٍّ ، ولا عمارةُ وُدٍّ ، ولا يَنْظِمُ نوانا اجتِـذابُ مَحْمِدَةٍ ، ولا دِفاعُ مَظْلِمَةٍ . ثم قال : « وفى الغَزْوِ ما يُلْقَى العَدُوُّ » ما صِلَةٌ ، والمعنى : وفى العِزِّ يُحتاج إلى الصَّديقِ المُخَالِص ، إذْ كان إنَّمَا يُلْقَى فيه العَدُوُّ المُبَاغِض . فهذا وَجْهٌ . ويجوز أن يكون المعنى : وفى الغَزْوِ قد يُلْقَى العَدُوُّ المُبَاغِضُ فكيف الصديقُ المُوَادّ . والأوّل أشْبَهُ وأجوَدُ .

٥ — ويَتْرُكُ ذا البَأْوِ الشَّديدِ كأنَّهُ من الذُّلِّ والبَغضاء شَهْبَاء مَاخِضُ

أخذَ يُبَيّنُ مَسَاسَ الحاجة فى الغزْوِ إلى ائتلاف الأودّاء ، وتعاوُن الأشِدّاء ، فيقول : وإذ كان الغزوُ يَتْرُكُ المتَـكبِّر الذاهبَ بنفسه مذاهِبَ ذَوِى الجَبْرِيّةِ والعِزِّ ، وكأنَّهُ مما لَزِمَهُ من الذُّلِّ والبُغْضِ للخلاف والحَرْب ، وتَنَاسِى الاعتلاء والقَهْر ، ناقةٌ شَهْبَاء أثَّرَ وجعُ الوِلادة فيها فَضَعُفَتْ وسَقَطَتْ . وإنَّما

خَصّ الشَّهباء بالذِّكر لأنّها أنعَمُ الإبِل وأرقّها، وأقلّها صبراً وأضعفُها.

والمَخَاضُ: وجع الوِلادة، ويستعمل فى أنواع الحيوان. والطّلْقُ لا يكونُ إلّا فى النِّساء.

٦ — فَسَائِلْ هَدَاكَ اللهُ أىُّ بَنِى أبٍ من النّاسِ يَسْعَى سَعْيَنَا ويُقَارِضُ

أخذ يستعطِفُ الصّديق الذى شكاهُ، ويستميلُ بِقَلبِه، فقال: سَلْ أرشَدَكَ الله للخَيْرِ وصِلَةِ الرَّحِم، وعَدَلَ بك عن سبيل الضلال والقطيعة: أىُّ قَوْمٍ من النّاسِ يسعَى فى مَنْعِ قُوَى التّشَابُك من الانبتات، وصَونِ عُرَى التّواصُلِ عن الانفصام، سَعْيَنَا؛ أو يُقارِضُ ذوى القرابات، وإخوانَ الوداد والمصافاةِ، فى حالَتَى السَّرّاء والضَّرّاء، مُقَارَضَتَنَا؛ ثم توفَّرْ علينا بمثل ما يقتضيه الخِبرةُ والمَعْرِفَةُ، وعلى ما يَبْعَثُ عليه البَحْثُ والمُسَاءلة.

٧ — نُقَارِضُكَ الأَمْوَالَ والوُدَّ بَيْنَنَا كأنَّ القُلُوبَ رَاضَهَا لكَ رَائِضُ

فى الكلام إلمامٌ بالعَتْبِ[1]، وإظهارٌ للاستجفاء؛ لأنّه أخذ يُبَيِّنُ تمامَ ميلهم إليه، وحُسْنَ احتمالهم منه، وأنّهم على جفائه لا يمنعونهُ مالاً، ولا يَمذُقُونَ لهُ وُدًّا، وكأنَّ قلوبَهُم جُبِلَتْ على حُبِّه، وأشرِبَتْ مودَّتَهُ، فمتى رَامتْ سَلْوَةً أو نُبُوًّا أُدِيرت إلى عادته[2] الأُولَى، وعُطِفَتْ على مَحَبَّتِهِ القُدْمَى.

٨ — كَفَى بالقُبُورِ صارِماً لو رَعَيْتَهُ ولَكِنَّ ما أغْلَنْتَ بادٍ وخافِضُ

قوله «بالقبور» فى موضع الرفع على أن يكون فاعِلَ كَفَى، وانتَصَبَ «صارِماً» على الحال أو التمييز. ولما كان القَصْدُ بذِكْرِ القُبُورِ إلى ما يُؤَدِّى

(١) م: «بالعيب».
(٢) هذا الصواب من م والتيمورية. وفى الأصل: «إعادته».

إليها ، وهو الأجَلُ المضروب ، صَلَحَ أن يقولَ « صارِماً لو رَعيْتَهُ » . ويقالُ رَعيْتُ النُّجُومَ وراعيْتُها ، إذا راقَبْتها . وقولُه « وخافضٌ » أراد به مُنْخَفِضٌ لـكنه أخرَجَهُ مَخْرَجَ النسبة كأنه قال وذو خَفْضٍ[١] . يقول : لو انتظرْتَ الموتَ ، وصَبَرْتَ على المُجاملة مُدَّةَ العَيْشِ ، لـكان يكفيك عند حُصُولِه ما تَعَجَّلْتَه من الصُّرْمِ ، ولـكنّ ما أظهَرتَهُ من البُغْضِ تمـكّنَ من نَفسك وقلبكَ ، واستولَى على فِعْلِك وقولك فلمْ تَملِكْ معهُ صَبْرًا ، ولم تُطِقْ بما يجمعنا رِفْقًا ، فهو باطنٌ ظاهرٌ ، مُسَرٌّ مُعلَنٌ . وإنما قال هذا لأنّ الإنسان قد يُظْهِرُ خِلافَ ما يَنطوى عليه أو دُونه ، ما دامَ يَملِكُ زِمامَ تَجَمُّلِهِ وتَستره ، وصارَ الغَلَبةُ لِعقْلِه وإرادته . فإذا كان ما يَنْبَعُ منه عن مَعِينٍ[٢] فى القَلْبِ كَنِينٍ ، وعِرِقٍ مَكِينٍ ، قد امتَلَكَ النَّفْسَ وغَلَبَ المُسْكَةَ والصَّبْرَ ، فذلك النِّهايةُ لا يُقْدَرُ على سَتْرِه ، ولا يُهْتَدَى إلى دفعِه . وفى القرآن ما فيه هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ قد بَدَتِ البَغْضاءُ من أفْواهِهِمْ وما تُخْفِي صُدورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ .

٢٠٣

وقال قَبيصة بن النَّصرانى[٣] :

١ ــ ألم تَرَ أنّ الوَرْدَ عَرَّدَ صَدْرُهُ وحادَ عن الدَّعْوَى وضَوْءِ البَوارِقِ[٤]

---

(١) ساق التبريزى هذه العبارة بدون نسبة على غالب عادته ، ثم قال : « هكذا ذكره بعضهم . والجيد ما ذكره أبو العلاء ، وهو أنه لم يذكر خافضا مقابلا به قوله باد ، ولكنه خبر معطوف على خبر ، كما يقال إن فلاناً مكرم لك وكثير المال . يريد : إن هذا الذى بدا منك خافض لنا عند الناس ، أى ناقص منزلتنا فى الشرف والعز » .

(٢) هذا ما فى م والتيمورية . وفى الأصل : « معبى » ، محرف .

(٣) سبقت له الحماسية ١٩٩ . لكن ذكر أبو محمد الأعرابى أن هذه الأبيات للأعرج المعنى . وكان من قصة الشعر أن الأعرج المعنى حاد به فرسه يوم قتلت بنو جديلة سبعة إخوة له يوم ناصفة ، وهو قوله :

وأخرجنى من فتية لم أرد لهم فراقا وهم فى مأزق متضايق

(٤) التبريزى : « وروى : عَسَّرَ بصدره . وهو أجود الروايتين » .

التَّعريدُ : تَرْكُ القَصدِ وسُرعةُ الانهزام[1] . والمُرَادُ بالدَّعْوَى قولُ الكُمَاةِ مَن يُبارِزُ ! وخُذْها وأنا فلانٌ ! وأنا الذى من شأنِهِ كذا ! وأشباهه . والبَوَارِقُ ، جمع بارِقةٍ : السُّيوف وسائر الأسلحة .

وقائل هذه الأبيات يعتذر من إحْجَامِ اتَّقَى ، وتأخُّرٍ عن الزَّحْفِ ظَهَرَ للناسِ من فِعْلِهِ ، فأخذَ يُوَرِّكُ بالذّنْبِ على فَرَسِهِ[2] ، وإنَّ نَفْرَتَهُ كانت السَّببَ فى نُكُوصه ، فقال على طريق التَّلهُّف والتَّوجُّع : أما تعلم أن فَرَسِى الوَرْدَ انحرَفَ عن القَصْدِ صَدْرُه ، وتَوَلَّى إلى غير الوجهة التى أُريدَها وجهُهُ ، لنُفُورِهِ عن تداعى الأبطال ، ونُكُولِهِ عن لمعانِ السُّيوف والرِّماح .

٢ ــ وأخْرَجَنِى من فِتْيَةٍ لم أُرِدْ لَهُمْ فِرَاقًا وهُمْ فى مَأْزِقٍ مُتَضَايِقِ

قوله « وأخْرَجَنِى » معطوفٌ على ما اعتلَّ بِهِ من نُفُورِ الفَرَسِ ، ومَعْدُودٌ فيما أَمَّهُ من جِنايتِه عليه . والواو من قوله « وهم فى مَأْزِقٍ » واوُ الحال ، والأزْقُ : الضِّيقُ فى الحربِ ، ومأْزِقٌ مَفْعِلٌ منه . وقال « مُتَضَايِق » لأنَّ ضِيقَ المَكَرِّ فى المعارك يحصلُ شيئًا بعد شىء . فيقولُ : فَرَّقَ بينى وبين فِتْيانٍ أحْبَبْتُ السكونَ معهم ، وأوْجَبْتُ على نفسى مُمَالأتَهم ومساعدتَهم ، فى وقتٍ كُنتُ خَلِيقًا بالثَّباتِ معَهُم ، وإظهار البلاء فى نُصْرَتِهم ، وكانوا مدفوعين منه إلى ضَنْكِ مَجَالٍ مِثْلِى يُسْتَدْعَى له ، ويُسْتَنْهَضُ للإعانة[3] فيه .

٣ ــ وعَضَّ على فَأْسِ اللِّجَامِ وعَزَّنِى عَلَى أَمْرِهِ إذْ رَدَّ أَهْلُ الحَقَائِقِ

هذا بيانُ جِماحِ فرسِهِ وتأبِّيه عليه ، فيقولُ : رَكِبَ رأسَهُ وغَلبنِى على أمْرِه ،

---

(١) التبريزى : « وقوله عرد صدره ، أى عرد هو ، كما تقول ولى وجهه . والتعريد : العدو ، ومنه سميت العرادة لأنها ترمى بالحجر المرمى البعيد » .

(٢) فى اللسان : « ورك فلان ذنبه على غير توريكا ، إذا أضافه إليه وقرفه به » .

(٣) م : « للإغاثة » .

فلمّا كرَّ أهلُ الحقائق لم أَقْدِرْ على الكَرِّ معهم(١) ، ولا مَلَكْتُ رَدَّ فَرَسِي مع رَدِّهم . وأَهْلُ الحقائق هم الذين يَبْلُغُونَ فيما يَلُونَهُ ما يَحِقُّ ويَجِبُ . ويُقالُ حَقَّقْتُ العقدةَ ، إذا شَدَدْتَها .

٤ — فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا بَلَوْتُ بَلاءَهُ وأَنَّى بِمَتْعٍ من خَليلٍ مُفَارِقِ

يُروى : « وأَبْنَا تَمَتَّعْ » . وله ، الضمير للفرس . كأنّه كان يخاطبه متحسِّراً ويُبَاثُّه مُتَلَهِّفا ، ويقول بعد أن مُنِيَ منه بما مُنِيَ ، وابْتُلِيَ من نَفْرَتِهِ وركوب رأسِهِ بما ابْتُلِيَ : من أَيْنَ لِي الاستمتاع من خليل فارَقْتُهُ ، وكيفَ أساعِدُهُ وأَتحمَّلُ عنه ثِقْلاً وقد باعدتُ بيني وبينَه . فقولُهُ « وأَنى بِمَتْعٍ » فى موضع المفعول لِقُلْتُ . ويقالُ مَتَعَ بكذا واستَمتَع ، ومَتَّعَهُ اللهُ به وأَمْتَعَهُ . ومن رَوَى : « وأَبْنَا تَمَتَّعْ » يدخل وأَبْنَا فى جملة ما اتَّصَلَ بلمَّا ، ويكون المعنَى : ولمّا بَلَوْتُ بلاءَهُ وأَكْرَهَنِي على مرادِهِ ، فانْصَرفْنا من مَقْصَدِنا ، قُلْتُ له مُقَرِّعاً ومُتوجِّعاً : الآنَ تَمَتَّعْ من أجلِ خليل بَعَّدتَ بينى وبينه . كأنْ تَفَجُّعَهُ امتدَّ أوَّلا وآخِراً ، وقبل الأَوبةِ وبَعْدَها وجوابُ لمَّا فى الوجهين قوله فقلتُ بما اتصَلَ به .

٥ — أُحَدِّثُ مَنْ لاقَيْتُ يَوْماً بَلاءَهُ وهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّنِي غَيْرُ صَادِقِ

يقال حَدَّثْتهُ كذا وبكذا ، فيُحْمَلُ على خَبَّرْتُهُ كذا وبكذا ، ونَبَّأْتُهُ كذا وبكذا . قال الهُذَلِيُّ :

* ولكن خَبَّرُوا قَوْمِي بَلاَئِى *

وقال الآخر :

* وأُنْبِئْتُهُ أَنّ الفِرَارَ خَزَايَةٌ *

يقولُ : أَبُثُّ فى النّاسِ قِصَّتِي وقصة فَرَسِي ، وأُخْبِرُ كُلَّ من لاقَيْتُهُ بجنايتِهِ

(١) التبريزى : « ولم أقدر على الكر إذ رد أهل الحقائق خيلهم إلى القنا طائنة إذ عصاف »

علَيَّ وبَلائِهِ مَعِى ، وهم بحَسَدِهم وسوء رأيِهِم يُوَجِّهُونَ الظِّنَّةَ إلىَّ ، ويُسَلِّطُونَ التُّهمَةَ علىّ ، فأنا بَيْنَ تكذيبٍ وتعييرٍ معهم وفيهم .

٢٠٣

وقال أيضاً[١] :

١ — هَاجِرَتِى يا ابْنَةَ آلِ سَعْدِ
٢ — أَأَنْ حَلَبْتُ لِقْحَةً لِلْوِرْدِ

يُرْوَى « هَاجَرْتِنِى » على الخِطَاب ، والكلامُ به ظاهر الاستقامة . ويُرْوَى « هَاجِرَتِى » ، والمعنى أنتِ هاجِرَتِى[٢] . وقال « يا ابنةَ آلِ سَعْد » يجوز أن يريد يا ابنة سعد فزادَ الآلَ كما يُزَادُ لَفْظَةُ حَيّ وذُو . ومثلُه قول الآخر ، أنشدَهُ ابن الأعرابىّ :

إنّ ابنَ آلِ ضِرَارٍ حِينَ أَنْدُبُهُ   زَيْدًا سَعَى لِىَ سَعْياً غيرَ مَكْفُورِ

أراد إنّ ابن ضِرار . وهذا بابٌ واسِعٌ مُخْتَلِفٌ . ويجوز أن يكون جَعَلَها ابنةَ الآلِ إعظاماً لها ، كما يقال يا ابنة القوم ، وقد تقدم القول فى الآل وحَقيقَتِهِ . واللِّقْحةُ : النّاقةُ الحلُوب ؛ ويُوصَف به ، لا يُقالُ ناقَةٌ لِقحةٌ ، بل يَجْرِى مجرى الأسماء . يقولُ : صَارَمْتِنِى أيتُها المرأةُ حين آثَرْتُ فَرَسِى الوَرْدَ بِابْنِ لَقُوحِى ، فَأَخْرَجَ قولَه « أأنْ حَلَبْتُ » مَخْرَجَ التّقريع والتّوبيخ ، وإن كان لَفْظُهُ لَفظَ الاستفهام ، لأنّ المُرَادَ به : أَلِأَنْ حَلَبْتُ ، أى ألِهذَا الشّأنِ كان مِنْكَ الهِجْرانُ لِى .

٣ — جَهِلْتِ من عِنَانِه المُمْتَدِّ
٤ — ونَظَرِى فى عِطْفِهِ الأَلَدِّ

---

(١) كذا فى نسخة الأصل والتبريزى . وفى م : وقال خفاف بن ندبة » .
(٢) كذا . والأوفق أن يكون المعنى : ياهاجرتى .

٥ – إذَا جِيادُ الخَيْلِ جاءتْ تَرْدِى

٦ – مَمْلوءةً من غَضَبٍ وحَرْدِ

قولُه « جَهِلْتِ من عِنَانهِ » يجوز على مذهب أبى الحسن الأخفش أن يكون زاد « مِنْ » فى الواجبِ ، أراد جَهِلْتِ عِنَانَهُ ، ويكونُ قولُه ، « ونَظَرِى » فى موضِعِ النَّصْبِ عَطْفاً عليه إن شِئْتَ . ومما حَكاهُ من الحجّةِ لَهُ القولُ بعضِهم : « قَدْ كانَ من مَطَرٍ » ، « قد كان من شَىْءٍ فَخَلِّ عَنِّى » . وعلى مذهب سيبويه يكون فيه وَجْهَانِ : أحدُهُما أن يكونَ الكلامُ مَحْمُولًا على المعنَى ، لأنّ الجهلَ نَفْىُ العِلْمِ ، كأنّه قال بَدَلَ جَهِلْتِ : ما عَلِمْتِ وما عَرَفْتِ . والثانى أن يكون حَذَفَ مفعول جَهِلْتِ كأنَّهُ قال جهلْتِ من عِنانِه الطَّويلِ مَدْلُولَهُ من العِتْقِ والنَّجابة ، لأنَّ الذى جهلْتهُ ذلك ، إذْ كان امتدادُ عُنُقِه يُدْرَكُ مُشَاهَدَةً . والشَّاعِرُ أقبلَ يُبَيِّنُ عُذْرَهَا فيما أنكرتْه وعذْرَ نفسِهِ تفقُّدِه فرسَهُ فقال : جهِلْتِ ما أَعْرِفُهُ من كرمِهِ ونَجابَتِهِ ، وما أتبيَّنُه وأستدِلُّ عليه من امتداد عنُقه ولجاج جانبه ، واعتراضِه فى مَشْيِهِ ، فلذلك استَعْظَمَتْ إيثارِى إيّاه . وذكَرَ العِنانَ والقَصْدُ العُنُق لأنَّ طولَه بطولها ، واللَّدَدُ أصلُهُ فى الخصومَةِ ، يقال خَصْمٌ أَلَدُّ . وقوله « إذاجِيادُ الخَيْلِ » إذا ظرفٌ لما دَلَّ عليه قولُه « فى عِطْفِهِ الأَلَدِّ » . وقوله « تَرْدِى » فى موضع الحال ، والعامل فيه جاءت . والرَّدَيان : ضَرْبٌ من المشى . قولُه « مملوءةً » فى موضع الحال ، والعامل فيه تَرْدِى . والحَرْدُ : القَصْد ، وفى القرآن : ﴿ عَلَى حَرْدٍ قادرِينَ ﴾ ، أى على جِدٍّ من أمْرِهم ، والمعنى : إذا جاءت الخيلُ العِتاقُ قد حَمِيَتْ ونَشِطَتْ فامتلأَتْ غَضَباً ، وصار مَشْيُها رَدَيانًا ، كان فى عِطْفِ هذا لَدَدٌ واعتراضٌ ، وفى مَشْيه

اقتسار والتواء. والعِطْفُ من كل شيء: جانِبُهُ من لَدُنْ رأسِه إلى وَرِكه.
ويقال: ثَنَى عِطْفَهُ، إذا أعْرَضَ وجفَا.

٢٠٤

وقال آخر[١]:

١ — لَعَمْرُ أَخِيكَ لا يَنْفَكُّ مِنَّا أَخُو ثِقَةٍ يُعَاشُ به مَتِينُ[٢]

قوله «لَعَمْر أخيك» يجوز أن يُرِيدَ بأخيك نَفْسَهُ، كأنّه قال لَعَمْرِي. وجَعَلَ نَفْسَه أخاهُ على طريق الاستعطاف وتلطيف الحالِ. ويجوز أن يَكُونَ المُخاطَبُ كانَ لَهُ أخٌ يَعِزُّ عليه ويُقْسِمُ بحياتِه، فاقْتدى به فى ذلك إعظاماً لهُ وللمُقْسَمِ بِهِ. ولَعَمْرُ مُبْتَدَأٌ وخَبَرُهُ محذوفٌ، كأنَّهُ قال لَعَمْرُ أخِيكَ قَسَمِى أو ما أُقْسِمُ به. ومعنى لا يَنفَكُّ: لا يَزَالُ. والمَتِينُ: كلُّ صُلْبٍ شديدٍ، والمصدرُ المَتانةُ، وماتَنْتُ الرَّجُلَ مُمَاتَنَةً، إذا حاكَيْتَهُ ففَعَلْتَ مثل ما يفعله من الشِّدَّة. يقولُ: وبقاءِ أخيكَ لا يزال منّا أخٌ يوثَقُ بوُدِّهِ، ويُحْسَنُ الظَّنُّ بنيابَتِه، ويُعَاشُ به وفى ظِلِّه، جَلْدٌ قوىٌّ عَزِيز.

٢ — مُفِيدٌ مُهْلِكٌ ولِزَازُ خَصْمٍ على المِيزانِ ذُو زِنَةٍ رَزِينُ[٣]

قوله «مُفِيدٌ مُهْلِكٌ» مثل قول الآخر:

* مُفِيدٌ مُفِيتٌ[٤] *

ويكون أفادَ متعدِّيًا إلى مفعولين، وقد حَذَفَهُما، وكذلك مُفِيتٌ. ويجوز

(١) التبريزى: «وقال أيضاً». فتكون الحماسية على هذا لقبيصة بن النصرانى.
(٢) رواه التبريزى: «لعمر أبيك»، ثم قال: إذا روى لعمر أخيك فإنه يجوز أن يريد بأخيه نفسه». (٣) هذا البيت وشرحه الذى يليه ساقط من م.
(٤) لكعب بن سعد الغنوى فى أمالى القالى (٢: ١٤٨). وتمامه:
مفيد مفيت المائدات معود لفعل الندى والمكرمات كسوب

أن يكون أفاد بمعنى استفاد ، فيكون معنى مُفيدٌ مُهلِكٌ : كَسُوبٌ بالغَزْوِ مِنفاقٌ . والأوّل أصلَحُ فى هذا . وقوله « لِزَازُ خَصْمٍ » لِزَازٌ كالسِّنادِ والعِمَاد وما أشبههما . واللَّزُّ أصله اللُّزوم والثَّباتُ . على ذلك قولهم لِزَازُ الباب[1] . ثم توسّعوا فقيل هو مِلَزٌّ فى الخصومة ولِزَازٌ ؛ وهو مُلَزَّزُ الخَلْقِ ، أى مُجْتَمِعُه . يقول : يفيدُ أولياءهُ الخيرَ والغُنْمَ ويُهلِكُ أعداءهُ ، ثم يَلزَمُ خَصْمَهُ فلا يفارقهُ أو يَغْلِبَه . وإذا وُزِنَ بغيرِه رَجَحَ عليه فى السَّبْرِ والاختبار ، فإذا استُخِفَّ ذلك كان هو وقورًا رزينًا . ويقال رزينٌ بَيِّنُ الرَّزانة ، وامرأةٌ رَزَانٌ .

٣ ــ يَزِيدُ نَبَالَةً عن كلِّ شىءٍ ونافِلَةً وبعضُ القَوْمِ دُونُ

نَبالةً مصدر نَبُـل . والنَّافِلةُ : الفَضْل . ودونَ ، حقيقتُه القاصِرُ عن الشىء . ويقال هو دُونَكَ فى الحَسَب على التوسُّع ، هذا إذا كان ظَرْفًا . ويقال هو دونٌ فى الرِّجال ، وما هو بدونٍ ، فيُجْعَلُ اسمًا ، والذى فى البيت هو على هذا . يقولُ : ومع اجتماع هذه الخِصال فيه مَرْوٌ ونُبْـلٌ ، وحَمِيّةٌ وعِزٌّ ، فيَفضُلُ على كلِّ نَبيلٍ ، ويَعلو على كلِّ ذى شأنٍ نَبيهٍ ، وبَعْضُ القَوْمِ ساقِطٌ قاصِرٌ ، متأخِّرٌ ناقِصٌ .

٢٠٥

وقال خُفَافُ بن نُدْبَة[2] :

١ ــ أَعَبّاسُ إنّ الذى بيْنَنَا أَبَى أن يجاوِزَهُ أَرْبَعُ

المخاطَبُ عَبّاس بن مِرْدَاس ، ومراد الشاعر أن يقول : يا عَبّاسُ ، إنّ

(١) هى الخشبة التى يلز بها .

(٢) هو خفاف بن عمير بن الحارث بن الشريد السلمى . وأمه ندبة سوداء وإليها ينسب =

الحُرُمات الأربع التى تجمعنى وإياك ، مَنَعَت أن يتخطّاها ما بيننا من الشرّ ، فهو يَقِفُ دونها ، ويَقْصُرُ عن تجاوُزِها . وظاهِرُ الكلام فيه قَلْبٌ ، لأنه جَعَلَ الفعلَ الذى هو المجاوزة للأربع ، والأربع هى الآبِيَةُ من أن يجاوِزَها ما حَدَثَ بينهما . وصَلَحَ ذلك لأنّ المراد لا يَلتبسُ من الكلام . وعلى هذا قول الآخر :

* كما أسْلَمَتْ وحْشِيّةٌ وَهَقَا *

لأنّ الوَهَقَ يُسْلِمُ الوَحْشِيّةَ . ويمكن أن يقال : إذا تعَدَّى أحدُ الشيئين صاحِبَهُ فقد صار الآخَر كأنّهُ تعدّاهُ ، وإذا كان كذلك ساغَ أن يُجعَل لكلٍّ واحد منهما المجاوزةُ .

٢ ــ عَلائقُ مِنْ حَسَبٍ داخِلٍ مع الإلِّ والنَّسَبُ الأرْفَعُ

٣ ــ وأَنّ ثَنِيَّةَ رَأْسِ الهِجَا ءِ بَيْنِى وبَيْنَكَ لا تُطْلَعُ

هذا تفسير الخِصَالِ الأربع التى أجْمَلَها . والعلائق ، جمع عِلاقة ، وهو ما يُتعاَّق به من الشَّىء أو يُعاَّقُ به الشىء . وقوله « من حَسَبٍ داخِلٍ مع الإلِّ » ، فالحَسَبُ : الشَّرَف . والإلُّ : العَهْدُ . ومعنى داخلٍ مَعَهُ ، أى مختلطٌ به . والنَّسَبُ الأرفَع يجوز أن يكون يَعْنِى به النَّسَبَ من قِبَل الأب ، لأنه أرفع النسبين ، ويجوز أن يَعنىَ النسبَ الرفع العَلِيّ . وقد حَصَل إلى هذه الغاية

= وهى بفتح النون وضمها . وهو أحد غربان العرب ، ثانيهم عنترة ، وثالثهم السليك بن السلكة كل منهم أمه سوداء . وهو ابن عم خنساء بنت عمرو بن الشريد ، ويكنى أبا خراشة ، وله يقول عباس بن مرداس :

أبا خراشة أما كنت ذا نفر فإن قومى لم تأكلهم الضبع

وقد أسلم خفاف وبقى إلى زمان عمر . انظر الإصابة ، وأسد الغابة ، والأغانى (١٦ : ١٣٤ ــ ١٣٩) والخزانة (٢ : ٤٧٠ ــ ٤٧٥) والاشتقاق ١٧٢ ، ١٨٨ والشعر والشعراء ٣٠٠ .

من العلائق ثلاثٌ : حَسَبٌ ، ونَسَبٌ ، وعَهْدٌ بينهما ، والعلاقة الباقية هى مذكورةٌ فى البيت الذى يليه ، وهو قوله :

وأنّ ثَنِيّةَ رَأْسِ الهِجا ء بينى وبينَكَ لا تُطْلَعُ

كأنّهما كانا تعاقدَا أن لا يهجو أحدُهما صاحِبَهُ ، لا يذكُرُهُ فى الشِّعْرِ ناحتاً أثْلَتَهُ . وجعَل لرأس الهجاء عَقَبَةً تَثْنِي بشُقّتها من يريدُ قَطْعَها . ويقال طَلَعَ الثَّنِيّةَ واطَّلَعَها ، إذا أشْرَفَ عليها . فإن قيل : وما الفَصل بين الحَسَب والنَّسَب ؟ قلت : إنّ الحَسَب ما يُعَدّ من الخِصَال الكريمة ، وتَرَى الحسيبَ يوجِبُ للحسيب ويَعْرِف له بحَسَبه مَحَلاً وقَدْرًا ، وإنْ لم يكُن بينهما قُرْبَى ولا قرابةٌ . والنَّسَبُ يريد به الرَّحم والقرابة . فإنْ قيل : فما معنى الإلّ ، وما الفَرْقُ بينه وبين الخَصْلَة الرابعة ، وهى التعاقُدُ على تركِ الهجاء واطِّراحه ؟ قلتَ : الإلّ : العَهدُ ، بذلك فَسّرَهُ أبو عُبيدةَ فى قوله تعالى : ﴿ لا يَرْقُبُونَ فى مُؤْمِنٍ إلاًّ ولاَ ذِمَّةً ﴾ . كأنهما كانا تواثقَا على أن لا يُدَبِّرَ كلٌّ واحدٍ منهما على صاحبه ، ولا يَسْعَى فى نَصْب المكايد له — فهذا ميثاقٌ بينهما — ثم اتّفقَا أيضاً على أن لا يتهاجَيَا . وإذا كان كذلك فالفصل بين الأمرين ظاهر ، كما ظهر بين الحَسَب والنَّسَب .

٤ — وأَبغِضْ إلىَّ بإتْيانِها إذا أَنا لم أَنْسَها أَدْفَعُ[1]

قوله «وأبغِضْ إلىّ بإتْيانِها» استُعِيرَ فيه بناء الأمر للخَبَر ، لأنّ معناه التعجُّب والتعجّب خَبَرٌ ، وهم يستعيرون المبانى للمعانى ، كما يستعيرون الجُمَل والمفردات . وهذا كما يُستَعارُ بناء الخَبَرِ للأمر كقوله : ﴿ والمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ ﴾ . وموضع بإتيانها رَفْعٌ على أنّه فاعلٌ ، كأنه قال بَغُضَ إتيانُها إلىّ جِدًّا . يقول : ما أَبغَضَ

(١) التبريزى : «لم آتها» .

إتيان عَقَبةِ الهجاء واطّلاعَها إلىّ ، لأنّى أربأ بنفسى عنه وقَدْرى ، وأصونُ منه دينى وعِرْضى ، وأتناهَى فعْلَ ذلك فلا يكون من همّى . ولو لم أترُكْها تأثُّمًا وتكرُّمًا ثم أردتُ مناقضتك ومقاذعَتك ، لكان ما تعاقدْنا عليه من تَرْكِه يدفعُنى عنه ، ويمنعُنى منه . فإذا طَرْفٌ لقولِه أدْفَعُ(١) .

٢٠٦

وقال بعضُ اللُّصُوصِ من طَيِّءٍ(٢) :

١ – ولما أنْ رَأيتُ ابنَىْ شُمَيْطٍ بسِكَّةِ طَيِّءٍ والبابُ دُونى

٢ – تَجَلَّلتُ العَصَا وعلمْتُ أنِّى رَهِينُ مُخَيِّسٍ إنْ أدْرَكُونى

الشِّعرُ لبعض المتلصِّصة ، وكان أُنهِيَ حالُه إلى أمير المؤمنين علىّ عليه السلام وهو بالكوفة ، فوجَّه فى طَلَبه ابنَىْ شُمَيْطَ ، فأحَسَّ بذلك وركِبَ فرَسَه

---

(١) روى التبريزى بعد هذه الحماسية مقطوعة أخرى لعبد بن علقمة ونصها :

غُيِّبْتُ عن قَتل الحُتات وليتنى شهدتُ حُتاتًا حينَ ضُرِّج بالدمِ

وفى الكفِّ منى صارمٌ ذو حقيقةٍ متى ما يُقدِّمْ فى الضريبة يُقدمِ

فيعـلمَ حيًّا مالكٍ ولفيفُها بأنْ لستُ عن قتل الحُتاتِ بمحرمِ

فقل لزهير إن شتمتَ سَرَاتَنا فلسنا بشتَّامين للمتشتِّمِ

ولكننا نأبى الظَّلامَ ونعتصى بكلِّ رقيق الشفرتين مصمِّمِ

وتجهلُ أيدينا ويحلُمُ رأيـنا ونشتمُ بالأفعال لا بالتكلمِ

وإن التَّمادى فى الذى كان بيننا بكفَّيك فاستأخِرْ له أو تقدَّمِ

وقد روى ابن جنى فى التنبيه منها البيت الأول .

(٢) هو شبيب بن عمرو بن كريب الطائى ، كان يصيب الطريق فى خلافة على بن أبى طالب ، فبعث إليه أحمر بن شميط العجلى وأخاه فى فوارس ، فأحس شبيب بذلك ، وركب فرسه العصا فنجا به . انظر البيان (٣ : ٨٥) وشرح التبريزى للحماسة .

العَصَا فنَجَا به ، وذكر قِصَّتَهُ فى هذه الأبيات . وقولُه « والبابُ دونى » يعنى بابَ البَلَد وللَسالِح(١) . وقولُه « تَجَلَّتْ العَصَا » جوابُ لمَّا ، أى رَكِبْتُهُ على جُلِّهِ ولم أتلوَّمْ لإسراجِهِ ، خوفاً على نَفْسِى ، وعِلْمًا أنِّى إن توقَّفت أُودِعْتُ السجن مُرْتَهَنًا بما كَسَبَتْ يَدِى . و « مُخَيَّسٌ » : اسمُ سجْنٍ بناهُ أمير المؤمنين عليه السلام . والتَّخْيِيسُ : التذليل ، وأصْلُهُ فى الكدِّ . على هذا قال النابغة :

وخَيِّسِ الجنَّ إنى قد أذِنْتُ لهم يَبْنُون تَدْمُرَ بالصُّفَّاح والعَمَدِ

ويقال فى الشتم : خُيِّسَ أنفُه فيما يكره ، كما يقالُ أُرْغِمَ أنْفُهُ .

٣— ولَوْ أنِّى لَبِثْتُ لهم قليلاً لَجَرُّونى إلى شَيْخٍ بَطِينِ(٢)

٤— شَدِيدِ مَجَامِعِ الكَتِفَيْنِ باقٍ على الحَدَثانِ مُخْتَلِفِ الشُّئُونِ(٣)

قوله « قليلا » يجوز أن يكون ظَرْفًا ، يريد زمانًا قليلا ، ويجوز أن يكون صفةً لمَصْدَرٍ محذوفٍ ، يريدُ لَبثًا قليلا . فيقول : لم أتمكَّث للطالبين لمَّا عَرَفْتُ الحال ، ولم أتباطأْ معرِّجًا على إعداد شيء ، ولو ظَفِروا بى لجرُّونى إلى حضرةِ رجلٍ عظيمِ البطنِ شيْخٍ ، وذلك صفةُ أمير المؤمنين عليه السلام . ولقد رُوِى عن النبيِّ صلوات الله عليه فى عِظَم بَطْنه أنه قال : « هو لكثرة عِلْمِه » . وقولُه « شديدِ مجامعِ الكتفَيْن » من صفَتِه إلى آخر البيت . يريد أنه شديد الظَّهر ، قويّ المَتْن ، مجتمع الخَلْقِ ، وذلك خِلْقَةُ الأسَد . وقوله « باقٍ على الحَدَثان » يعنى صَبْرَهُ فى حوادث الدَّهر ، وانتصابه فى وجوه بُغاة الجَوْر ، لا يأخُذه فى

(١) م : « أو المسالح » .

(٢) رواية الجاحظ :

ولو أنظرتهم شيئاً قليلا لساقونى إلى شيخ بطين

(٤) رواية الجاحظ : « شديد مجالز الكتفين صلب »

طلب الحقِّ وإمضائه لومةُ لائم ، واعتراضُ مُمانعٍ[1] ، ولا يَلفِتُه عن هَدْيه وسَنَنِه كراهةُ كارهٍ ، وقَعْدَةُ خاذلٍ . وقوله « مختلفِ الشئون » يعنى طرائقه فى زُهدِه وعِلْمِه وورَعِه ، وبأسِه وإقدامِه فى ذات الله ، وجُبْنِه عن محارِمِ الله ، وتعفُّفِه عن احتجاز المطامع ، وابتناء المصانع ، مع قلّة الاحتفال باكتساب رِضَا خَلْقِه ، إذا أدّاهُ إلى سَخَطِ ربِّه ، إلى ما لا يكاد يجتمع إلا فى مِثْلِه ، ويطولُ الكلامُ بعدِّه وضَبْطِه . وفى هذه الطريقة وإن اختَلَفَ الوَصْفان والموصوفان قول الآخر[2] :

قليلُ التَّشَكِّى للمُهِمِّ يُصيبُهُ ... كثير الْهَوَى شَتَّى النَّوَى والمَسالِكِ

٢٠٧

وقال حُرَيْثُ بن عَنَّابٍ[3] :

١ — لَمَّا رأيتُ العبْدَ نَبْهانَ تارِكِى ... بِلَمّاعةٍ فيها الحوادثُ تَخطِرُ

٢ — نُصِرْتُ بِمَنْصُورٍ وبابْنَىْ مُعَرِّضٍ ... وسَعْدٍ وجَبّارٍ بل اللهُ يَنْصُرُ

٣ — ولِلّهِ أعطانى المَوَدَّةَ مِنْهُمُ ... وثَبَّتَ ساقِى بعد ما كِدتُ أعْثُرُ

لمّا عَلَمٌ للظَّرْفِ ، وهو لوقوع الشيء لوقوع غيره ، وجوابُهُ نُصِرْتُ . وأراد بنى نَبْهانَ فذَكَرَ الجَدَّ والمرادُ القومُ ، وسَمَّى نَبْهانَ العَبْدَ تَهْجِينًا له ، ورَمْيًا إياهُ باللؤم . واللَّمّاعة : المَفازَةُ يلمَعُ فيها السَّرابُ . وجَعَلَها مَخُوفةً لا تؤمن فيها نوائب الدَّهْرِ ، وحوادث الموتِ . ومعنى تَخْطِرُ تَحْدُثُ وتعترض . ويقال رُمْحٌ خَطّارٌ ، أى شديد الاهتزاز ، ومنه خَطَرانُ الفَحْلِ بذَنَبِه عند الصِّيال .

(١) فى الأصل والتيمورية : « وإعراض ممانع » وفى م : « وإغراض اعتراض ممانع » ، والوجه ما أثبتنا .

(٢) هو تأبط شراً . انظر الحماسية ص ١٣ ص ٩٤ .

(٣) سبقت ترجمه فى الحماسية ٦٩ ص ٢٥٥ .

فيقول : لمّا وجدتُهم متخلفين عنّى وتاركين لى بمَفَازةٍ هذه صفتُها ، استنصرتُ غيرَهم فنصرنى اللهُ بالأقوام الذين ذكرتُهم . ولا يمتنع أن يكون اللّمَاعة كناية عن الأمر الشديد والداهية المُنكَرة . ويكون قولُه « تارِكى بلمّاعةٍ » كما يقالُ تركْتُه بحالة سَوْء ، وبآخرِ رَمَق ، وما يجرى مَجْراهُ . وقولُه « فيها الحوادثُ تَخْطِرُ » جَعَلَهُ مَثلاً لما لم يكُن يأْمَنُهُ من فنون الحوادث ، وصُروف المَتالف . ثم أخذ يشكر الله على ما عَطَفَ عليه من مَيْلِ الأقوام الذين أغاثوه ، وثَنَى إليه من نَصْرِهم ، وعلى تثبيت قدمه بعد ما كادت تَزِلُّ به ، وتَلافيه بحُسْنِ الاستمساك ، عند ما ظَنَّ من إشراف الهَلاك .

٤ــ إذا رَكِبَ النّاسُ الطريقَ رأيتَهُمْ لَهُمْ قائدٌ أعْمَى وآخرُ مُبْصِرُ

الضمير من قوله « لهم قائد » يجوز أن يكون لناصِريه ، وهم الذين سَمّاهم ، ويكون الكلام مَدْحاً وما بعد هذا البيت يتلوه فى ذلك ويَتْبَع . ويجوز أن يكون لخاذِليه بنى نَبْهان ، ويكون الكلام ذَمًّا ، وما بعده يطّرِدُ معه ويذهب. ووجه المدح أن يكون المراد بقولِه « إذا ركِبَ النّاسُ الطريقَ » إذا انْتَوَى النّاس نِيأّتهم ، فسلَكُوا فى مَناجعهم ومزالِفهم[(١)] ، ومتصرَّفاتهم ومَعاقِلِهم ، طرائقهم الآمنة ، رأيتَ هؤلاء القومَ لعزِّهم ومَنَعَتِهِمْ يسيِّرُهم اللّيْلُ والنّهار ، ويقودُهم الظُّلَمُ والأنوارُ ، لا يَحْذرون مَنِيعاً ، ولا يخافون مُغِيراً ، ولا ينأى عنهم اسْتِباحةُ حِمًى ، ولا يَعرِض لهم حيثُما توجّهُوا أذًى . فالقائد الأعمى هو اللّيل ، والآخَر للبصِير هو النّهار . ووجه الذمّ أنّهم لجهلهم وسوء تأتّيهم ، إذا أبْصرَ النّاسُ مراشِدَهُم واستَبْصَروا فيما يُقْدِمُون عليه أو يُحْجمون عنه وجدتَ هؤلاء القومَ يستَضيئون برأىِ كلِّ أحدٍ ، ويستشيرون كلَّ ذى نِحْلَةٍ ومَذْهَب ، فيُرْشِدُهم جماعة ويُغْوِيهم آخرون ، على حسب اختلاف الآراء والمقاصِد ، لا بصيرة

(١) المزالف : القرى التى بين الريف والبر .

تُمْسِكُهم ، ولا عزيمةَ تَغْلِبهم وتَجْذِبهم ، فهم تَبَعٌ لِكلِّ ناعِقٍ ، وجوابٌ لِكل نادِبٍ .

٥ — لهم مَنْطِقانِ يَفْرَقُ الناسُ مِنْهُمَا ولَحْنانِ مَعْرُوفٌ وآخَرُ مُنْكَرُ

إذا جُعِل الكلامُ مَدْحاً على ما قَدَّمْتُهُ ورتّبتُه يكون معنى « لهم مَنْطِقان » أنَّهم خطباء شعراء ، فالنّاسُ يرْهَبُون نَظْمَهم ونَثْرَهُم ، ويهابُونَ ألسنَتَهم وأقوالَهُمْ في مجالِسِ المُلُوكِ ، وأنديةِ الاحتفال . ومعنى « ولَحْنانِ معروفٌ وآخَرُ مُنْكَرُ » أنَّ لهم اصطناعاً لمُوالِيهم فلَحْنُهم فيه لحن معروفٌ حَسَنٌ مَرْجُوٌّ ، واستئصالاً لمُعَادِيهم فلَحْنُهم فيه لحن مُنْكَرٌ مَخُوفٌ . وفي طريقة هذا الوجه قول نُصَيْب :

يُحَيَّونَ بَسَّامِينَ طَوراً وتارةً يُحَيَّونَ عَبَّاسِينَ شُوسَ الحواجِبِ

واللَّحْنُ : المَعَارِيض ، وفي القرآن : ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ . وأصله العُدول والميلُ عن الظاهر . وإذا جُعِلَ ذَمًّا لأولئك القَوْم يكون المعنَى أنَّهم ذوو وجوهٍ في لقاء النَّاس مختلفةٍ ، وأقوالٍ غيرِ صادقةٍ ، فلكل منهم مَنْطِقان : أحدُهما في التقوُّل والتنفُّق ، والآخر في البُهْتِ والتخرُّص ، عَرَفهما النّاسُ فهم يَفْرَقُون منهما . ولهم تعريضان بَعْدَهَا : أحدُهما يَعْتَادُونَهُ عند نكْثِ العهود ونقض العُقود ، وقد عَرَفه الناس فهو مشهور من أفعالِهِم ؛ والآخر يتعاطَوْنَه عند إعمال حيلةٍ ، وإمضاء غِيلَةٍ ، فهو خافٍ بَعْدُ مَنْكُور .

٦ — لِكلِّ بني عَمْرِو بنِ عَوْفٍ رِبَاعَةٌ وخَيْرُهمُ في الخير والشرِّ بُحْتُرُ

قوله « لِكل بني عمرو بن عَوْف رِبَاعَةٌ » ، أي لِكلِّ واحد منهم أمْرٌ مستقيمٌ ، وتدبيرٌ مرضيٌ[١] ، وأفضَلُهُمْ في السَّرَّاءِ والضَّرَّاء بُحْتُرُ بن عَتُود .

(١) كذا في م والتيمورية والتبريزي . وفي الأصل : « مضى » أي مضىء .

ويُقال : ما في بني فلانٍ أحدٌ يَضْبِط رِباعَتَهُم[(١)] غيرُ فُلانٍ ، أي أمْرَهم وشأنَهم . والناس على رَبعاتِهم[(٢)] ورِباعَتِهم ، أي على استقامتهم . وحُكِيَ : تركْنَاهم على سَكِنَاتِهِم ورَبِعاتِهم ، أي على حالتِهم الحسنة . ولا يُقال ذلك في غير الحَسَن . وحُكِيَ أيضاً : هو على رِباعَةِ قَوْمِه ، وهو ذُو رِباعةِ قومه ، أي سيِّدهم ومُدَبِّرُهم . فعلى هذا يجوز أن يكون المعنى لكلّهم ذو رِباعةٍ ، فحَذَفَ المُضافَ . ويؤيِّد هذا قَوْلُه « وخيْرهُم في الخير والشَّرِّ بُحْتُرُ » . وقد حُكي[(٣)] في هذه الأبيات معان غريبَةٌ فتفهَّمْها[(٤)] .

٢٠٨

وقال أَبانُ بن عَبْدَةَ [بن العَيَّار[(٥)]]

١ – إذا الدِّينُ أَوْدَى بالفَسادِ فقُلْ له يَدَعْنَا وَرَأْسًا من مَعَدٍّ نُصَادِمُهْ

الدِّين يجوز أن يرادَ به الطاعة والائتلاف هاهنا . ومعنى أَوْدَى بالفساد : هَلَكَ بفسادِ ذات البَيْنِ . ويجوز أن يرادَ به دينُ الإسلام ، ومعنى أَوْدَى بالفَسادِ أوقَعَ[(٦)] بما ظَهَر من وُلاةِ الأمر ، جعلوا الخلافة مُلْكاً ، وفَيْءِ المسلمين مِلْكاً . وقيل أراد بالفَسادِ الحربَ المعروفةَ بحرب الفَسَاد ، وسُمِّيَت بذلك لتناهي الشَّرِّ والحقدِ بين أهْلِها ، ويقالُ إنّ الواحد منهم كان يَخْصِفُ نَعْلَهُ بأُذُنِ مقتولِه ويشرب الماء في قِحْفِ رأْسِه . ويكونُ المرادُ بالدِّين في هذا الوجه ائتلافَ

(١) الرباعة ، بفتح الراء وتكسر .
(٢) الربعة ، بالتحريك ، وبفتح فكسر ، وبكسر ففتح .
(٣) م والتيمورية : « جرى » .
(٤) التبريزي : « وقال ابن الخياط : يقول : لكل هؤلاء أمر وشأن ، وخيرهم بحتر ، ولا يصلح للرياسة والسياسة ، لأنه لئيم دنيء » .
(٥) التكملة من التيمورية . وذكر التبريزي أنه في إحدى النسخ « أبان بن عبيدة » ثم قال : « عبدة بن عيار ابن مسعود بن جابر بن عمرو بن جزء » .
(٦) كذا في جميع النسخ .

العشيرة ، لأنّ هذه الحربَ كانت فى أحياء طَيِّئٍ . والرَّأْسُ : الجماعة الكثيرة . قال :

وَرَأْسِ أعْداءٍ شَدِيدٍ أَضَمُهْ سِرْنَا إليه إذْ غَزَانَا أعْظَمُهْ[1]

وقولُه « نُصَادِمُه » أى نُدَافِعُه ونُصَاكُّه . فيقول : إذا ارتفعت دعوةُ الاتِّفاق والائتلاف من بين العشائر ، وبَطَلت طاعةُ بعضهم للبَعْض ، وسَقَط التعاوُنُ والتجمُّع [منهم[2]] بما يَعُمُّهُم من المُبَاينة ، ويَظْهَرُ فيهم من أثر العُقُوق والمُشَاقَّة ، فَقُلْ له ليتركْنا وجَيْشًا عظيما من قبائلِ مَعَدٍّ نُدَافِعُه ونحارِبُه . وإذا كان بيننا التَّوازُر والتألُّف لم نُبالِ بقبائل مَعَدٍّ كلِّها . قولُه « نُصَادِمُه » فى موضِع الحال ، أى مُصادِمِين له . وقولُه « يَدَعْنا » إن شئتَ قلتَ انجزَم بلام الأمر وقد حُذِف ، كأنّه قال : قل له ليدَعْنَا . وإن شئتَ قلت انجزَمَ على أن يكونَ جوابَ أمرٍ محذوفٍ ، كأنّه قال : قُلْ له دَعْهُمْ يَدَعْنا . وعلى هذا قولُه عزّ وجلّ : ﴿ قُلْ لِعِبَادِىَ الذينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاَةَ ﴾ ، كأنّه قال قل لهم افعَلُوا يفعَلوا .

٢ ــ بِبِيضٍ خِفَافٍ مُرْهَفَاتٍ قواطِعٍ لداوُدَ فيها أَثْرُهُ وخواتِمُهْ

الباء من قوله « ببِيضٍ » تعلّقَ بنُصَادِمُه من البيت الأوّل . ويعنى بها السُّيوف . وجعلها خِفَافًا لسُرْعةِ الضاربين بها فى إعمالها . والمُرْهَفَاتُ : المُرَقَّقاتُ الحَدِّ ، المَوَاضِى فى الضَّرائب . وقال : لداوُدَ فيها خواتِمُ ، يريدُ عِتْقَها . وداوُد عليه السلام إنَّمَا سَرَدَ الدُّروعَ لمّا ليَّنَ اللهُ الحديدَ له مُعجِزةً لا السُّيوف ، لكن القَصْد إلى العِتْق والقِدَم ، لا إلى الطَّبْع والعَمَل . وقيل فيه إنَّهُ قَدَّرَ أنّ الأمْرَ

(١) الرجز للعجاج فى ديوانه ٦٤ .

(٢) هذه من م والتيمورية .

فى نسبة السُّيوف والدُّروع إلى داود على سَوَاء ، لجهْله . والأثْرُ : فِرِنْدُ السَّيف . وذِكْرُ الخواتِم مَثَلٌ ، أى هى مما اتُّخِذَ فى أيّامه ، واستُعمل تحت خواتِمِه .

٣ — وَزرْقٍ كَسَتْها رِيشَها مَضْرَحِيَّةٌ أَثِيثٌ خَوَافِى رِيشِها وقَوَادِمُهْ

٤ — بِجَيْشٍ تَضِلُّ البُلْقُ فى حَجَرَاتِهِ بِيَثْرِبَ أُخرَاه وبالشَّأْمِ قادِمُهْ[(١)]

يَعْنِى بالزُّرْقِ نِصالاً مجلُوَّةً قُذِّذَتْ بريش صَقْرٍ . والمَضْرَحِيُّ : الكريمُ من الصُّقور ، وقيل هو ما طال جَناحاهُ منها ؛ وتُوُسِّع فيه فقيل للسَّيِّد السَّرِيِّ هو مَضْرَحِىٌّ . وقال « كَسَتْها رِيشَها مَضْرَحِيَّةٌ » على المجازِ ، لمَّا كان القُذَذُ من جناحِها . وجَعَل فى القَوَادِمِ — وهى كبار الرِّيش — وفى الخوافى — وهى صغارُه — أثَاثةً وجُثُولةً ، نفْيًا للحَرَقِ[(٢)] والفَسَادِ عنها . وذكَرَ أثِيثًا لأنّه أجرِىَ مَجرَى الفعل ، وتأنيثُ الخَوَافى ليس بحقيقىّ . وقولُه « بجيشٍ تضِلُّ البُلْقُ فى حَجَراته » يصفه بالكثرة — ألا تَرَى أنّهُ جعَلَ له حَجَراتٍ ، وهى النَّواحى ، واحدَتُها حَجْرةٌ . وفى المَثَل « يَرْبِضُ حَجْرةً ويرتَعِى وسَطًا » — وأنّ البُلْقَ من الخَيْل على شُهرتِها إذا ضَلَّتْ عن أربابها فذهَبَتْ فى جوانبه لم يُهتَدَ إليها . وقولُه « بيَثْرِبَ أُخراهُ » يعنى مدينةَ الرسولِ عليه السلام . يريدُ أنّ جَيْشَهُ يأخُذُ من الأرضِ ، لكثرته ، ما بين المدينةِ إلى الشأمِ .

٥ — إذا نحن سِرْنا بين شَرْقٍ ومَغْرِبٍ تَحَرَّكَ يَقْظانُ التُّرَابِ ونائِمُهْ

لم يَرْضَ بما انتهَى إليه من الوصفِ فى كَثْرته ، فزاد وقال : إذا سِرنا بين مشارقِ الأرض ومغارِبها طَبَّقْنا الأرضَ بكَثْرتنا ، فتزلزلَ لنا الطريقُ المسلوكُ وغيرُ المسلوكِ . واليَقْظانُ : ما وُطِئَ بالأرجل وسُلِك ، فكأنّ ترابَهُ

(١) كلمة « الشأم » كذا وردت بالهمز فى الأصل فقط .

(٢) الحرق ، بالتحريك : النسل والتقطع .

مُنْقَبِهُ . والنائم : الذى لم يُوطَأْ ولم يُسْلَك ، فكأنَّ تُرَابَهُ نائمٌ . وقد أحسن ما شاء فى الاستعارة ، والطِّباقِ بالنَّوم واليقظة . فأمّا قول زهير :

يُهَدُّ لَهُ ما دُونَ رملَةِ عالجٍ ومَنْ أهْلُهُ بالغَوْرِ زَالَتْ زَلازِلُهْ(١)

فقد حَسَّنَه التقسيم وإن كان شأْوُه مقصورًا عن شأْوِ هذا .

٢٠٩

وقال أُنَيْفُ بنُ حَكِيمٍ النَّبْهانىُّ(٢) :

١ — جَمَعْنا لهم من حَىِّ عَوْفٍ ومالِكٍ كتائبَ يُرْدِى المُقْرِفينَ نَكالُها

٢ — لهم عَجُزٌ بالحَزْنِ فالرَّمْلِ فاللِّوَى وقد جاوَزَتْ حَىَّ جَدِيسٍ رِعالُها

قولُه « من حىّ عَوْفٍ ومالِكٍ » أراد من حَيَّىْ عوْفٍ ومالكٍ فاكتفى بالتوحيد عن التثنية . ومثل هذا الاكتفاء قوله فى البيت الثانى « وقد جاوَزَت حَىَّ جَدِيسٍ رِعالُها » لأنّ المراد حَيَّىْ طَسْمٍ وجَدِيسٍ فاكتفى بذكر أحَدِهما عن الآخر ، لتجاورهما فى الذِّكر ، واشتهارهما فى العُرْف . وقوله « يُرْدِى المُقْرِفِين نَكالُها » فالإقرافُ : هُجْنَةٌ تَلْحَقُ من قِبَل الفَحْل . وخَصَّهُم بالذِّكر لأنهم عنده لا يأنَفُون من التقصير فى الحرب والنُّكول ، ولا يتمعضون من الانهزام والنُّكوصِ ، فالبلاء إليهم أسبقُ ، والنَّكالُ فيهم أبْسَط . وقوله « لهم عَجُزٌ بالحَزْنِ فالرَّمْلِ فاللِّوَى » رتَّبَ النَّسَق بالفاء لما يُفيدُه من التعقيب بلا مُهْلَةٍ . وفى الأمرِ العامّ يُقطَعُ الحَزْن — وهو ما غَلُظَ من الأرض — إلى ما سَهُلَ

(١) ديوان زهير ١٤٤ .

(٢) هذه الحماسية تكرار للحماسية رقم ٣٣ ص ١٦٩ مع تخالف يسير فى الرواية . وهذا سهو من أبى تمام . ومن عجب أن التبريزى لم يتنبه أيضا إلى ذلك . وقد سبق اسم الشاعر « أنيف بن حكيم » . لكن ما ورد هنا فى جميع النسخ يطابق ما فى التبريزى .

من الرَّمل ، ويُقْطَعُ الرَّمْلُ إلى اللِّوَى ، وهو مُسْتَرَقُّه . وقوله « وقد جاوَزَتْ حيَّىْ جديس » فإنه يعنى بلاد حيَّىْ طَسْمٍ وجديسَ ، فحَذَفَ المُضافَ . والرِّعال : جمع الرَّعْلَةِ والرَّعيل ، وهما الجماعة المتقدِّمة من الجيش . والمراد أنهم لكثرتهم شغلوا ما بين هذه المواضع . ومثْلُه ما تَقَدَّم من قولِهِ :

* بيَثْرِبَ أُخْراهُ وبالشَّأْمِ قادِمُهْ[1] *

٣ — وتَحْتَ نُحُورِ الخيْلِ حَرْشَفُ رَجْلَةٍ   تُتَاحُ لغِرَّاتِ القُـلُوب نِبالُها

الحَرْشَفُ : الجماعة من الرَّجَّالَة . ويقال راجِلٌ ورَجْلٌ ورَجْلَةٌ ورَجَّالَةٌ للمُشَاةِ على أرجُلِهم . وصَفَهم بأنَّ فيهم رُمَاةً وأنهم عند التَّعْبِيَةِ تَتقدَّم الرَّجَّالة الرُّماة ، وخَلْفهم الفُرسان كالسَّنَدِ لهم والإيادِ[2] ، يمنعونهم مما يُشَرِّدُهُمْ أو يُغَيِّر نَظْمَهم ؛ ثم وَصَفَهُم بأنَّ نبالَهم تُقَدَّر للقلوب الغارَّة ، لأنَّهم حُذَّاقٌ يصيبون المَقاتل . ومَعْنَى « تُتَاحُ » تُهَيَّأُ . ويُقالُ تَاحَ يَتُوحُ ويَتِيحُ ، لغتان . وأتاحَ الله له كذا . والغِرَّاتُ : جمع غِرَّة ، يقال جارِيةٌ غِرَّةٌ : غَرِيرةٌ . ويُرْوَى « لِحَبَّاتِ القُلُوبِ » ، والمعنى ظاهر .

٤ — أَبَى لَهُمُ أنْ يَعْرِفوا الضَّيْمَ أنَّهُمْ   بَنُو ناتِقٍ كانت كثيراً عِيالُها

يقول : مَنَعَ لَهُمُ التزام الضَّيْمِ والرِّضاَ بالدَّنيَّة وُفُورُ عَدَدِهم ، وذلك أنَّ العِزَّةَ فى الكثرة . ويقال نَتَقَتِ المرأة والنَّاقَةُ فهى تَنْتُقُ نُتُوقاً ، وهى كثرة الوَلَد سُرْعَةُ الحَمْلِ . وذَكَرَ العِيالَ استعارةً فى الأولاد ، واحِدُها عَيِّلٌ ، يقال عنده كذا عَيِّلًا . ويقال عَيِّلٌ وعَيَايِلُ ، وهو مُعِيلٌ مُعَيِّلٌ ، أى كثير العيال . وفاعِلُ أَبَى قولُه « أنَّهُمْ بَنُو ناتقٍ » ، وأَنْ يَعْرِفوا فى مَوْضِع وباقى الأبيات قد تَقَدَّم بتفسيره[3] .

(١) انظر الحماسية السابقة . (٢) الإيادة : ما يؤيد به الشىء ويقوى .
(٣) انظر ماسبق فى الحماسية ٣٣ ص ١٧١ — ١٧٣ .

٢١٠

وقال الكَرَوَّسُ بن زَيْدٍ[١] :

١ — رَأَتْنِي ومِنْ لُبْسِي المَشِيبُ فأمَّلَتْ غَنَائِي فكُونِي آمِلاً خَيْرَ آمِلِ[٢]

يقول : رأتنى هذه القبيلة، وقد قنّعنى المشيب بخمَارِه ، وَنَجَّذَنى الدَّهرُ بأحداثه ومصائبه[٣] ، فعلّقتْ رَجاءَهَا بغَنائى وكفايتى ، وشدّتْ أزْرَها لمّا تفرّستْ فى نَظَرى وشهامتى ، فقوّيْتُ أمَلَها ، وأكّدتُ طمعَها ، وقلْتُ : كُونى آمِلاً خَيْرَ آمِلٍ . وهذا الكلام يجوز أن يكون معناهُ دُومى على أَمَلِكِ وكُونى خَيْرَ آمِلٍ ، فأُصدِّقُ ظَنَّكِ وأُحقِّقُ طمعَكِ . ويجوز أن يكون دعاء لها ، كأنّه قال : جعَلكِ الله خَيرَ آمِلٍ . وخير الآملين مَن يُبلِّغُهُ الله مَأمُولَهُ ، ويُنِيلهُ طَلِبَتَه وسُؤلَه . وإنّما قال « كُونى آمِلاً » ولم يَقُلْ آملةً ، لأنَّ المُرادَ كُونِى حَيًّا آمِلاً ، فلم يقصدْ قَصْدَها .

٢ — لَئِنْ فَرِحَتْ بى مَعْقِلٌ عِنْدَ شَيْبَتِى لَقَدْ فَرِحَتْ بى بينَ أيْدِى القَوابِلِ

٣ — أهَلَّ به لمّا اسْتَهلَّ بِصَوْتِهِ حِسَانُ الوُجُوهِ لَيِّنَاتُ الأَنامِلِ

يقول : إن كانت هذه القبيلة سُرَّتْ بى عند كِبْرَتِى[٤] ، واستِكْمالِ رَأْيِى

---

(١) شاعر إسلامى طائى . والكروس : الضخم الرأس : وهو الكروس بن زيد بن الأجذم بن مصاد بن معقل بن مالك بن عمرو بن ثمامة بن مالك بن جدعاء بن ذهل بن رومان بن جندب بن خارجة بن سعد بن فطرة بن طيئ . قال يخاصم ابن عم له إلى مروان بن الحكم ، وهو على المدينة :

قضى بيننا مروان أمس قضية فما زادنا مروان إلا تنائيا
فلو كنت بالأرض الفضاء لعفتها ولكن أتت أبوابه من ورائيا

وهو أول من جاء بخبر الحرة الكوفة . وفيه يقول عبد الله بن الزبير الأسدى :

لعمرى لقد جاء الكروس كاظما على نبإ للمؤمنين وجيع

انظر المؤتلف ٢٧١ ومعجم المرزبانى ٣٥٦ وشرح التبريزى .

(٢) م : « غناى » .

(٣) م والتيمورية : « ومصايره »

(٤) م : « كبر » . وفى التيمورية « كربتى » ، وهذه الأخيرة محرفة .

وتَجْرِبَتِي ، فَحُقَّ لَهَا ذلك ، فقد استبشَرَتْ بي عند ولادتي ، وحِينَ هُنِّئَتْ بِقَدْمَتِي . والقوابِلُ : جمعُ القابِلَةِ ، وهي التي تقبَلُ الوَلَدَ عند الولادة . واللام من قوله « لَئِنْ » دَخَلَتْ مُوَطِّئَةً للقَسَمِ ، وجَوَابُ القَسَمِ المَنْوِيّ « لَقَدْ فَرِحَتْ » . وهذا خِلافُ قول الآخر[1] :

وهُنِّئَ بِي قَوْمِي وَمَا إِنْ هَنَأْتُهُمْ وأَصْبَحْتُ في قَوْمِي ولَيْسُوا بِمَنْبِتِي[2]

وقولُه « أَهَلَّ به لَمَّا اسْتَهَلَّ بِصَوْتِهِ » نَقَلَ اللفظَ إلى الغَيْبَةِ بعد أن كان في حديث نَفْسِهِ ، على عَادَتِهِم في تصاريفِهِم . يقول : تَبَاشَرَتْ نساءُ الحيِّ عند ميلادِي ، فرَفَعْنَ أصواتَهنّ بالشكر لله والثَّناء عليه ، كما يُهِلُّ المُلَبِّي في الحج ، والنَّاظِرُ إلى الهِلالِ ، حين وقعْتُ عن أمّي[3] ، واستَهْلَلْتُ ببُكائي . وإنّما وصَفَ النِّساء بحُسْنِ الوُجوه ولِين الأبدان ، ليدلّ على أنّهن ربائبُ نِعْمَةٍ وذواتُ نَعْمةٍ ، لم يُقاسِينَ شَقاءَ عَيْشٍ ، ولم يَكْتَسِينَ جلابِيبَ فَقْر .

٢١١

وقال قَوَّال[4] :

١ — قُولاَ لِهَذَا المَرْءِ ذو جَاءَ سَاعِيًا هَلُمَّ فإنَّ المَشْرَفِيَّ الفَرَائِضُ

قوله « ذو جاء ساعِيًا » ذو بمعنى الذى ، وهي لفظةٌ طائيّةٌ تَجِيءُ بهذه الصُّورة في كل حالٍ ولا تُغَيَّرُ . وقوله « هَلُمَّ » لهم فيه طريقان : منهم

(١) هو الشنفرى الأزدى . المفضلية رقم ٢٠ .

(٢) رواية المفضليات « وهنّئ بى قوم » و« وأصبحت فى قوم » . وهى الرواية الصحيحة ؛ لأنه يريد بهؤلاء القوم بنى سلامان بن مفرج الذين أسروه . والمثبت : الأصل ، ويقع مصحفاً فى بعض الروايات : « بمنبتى » .

(٣) م : « من أمى » .

(٤) التبريزى : « قوال الطائى » . وهو شاعر إسلامى أدرك الدولة العباسية . وقد قال هذه الأبيات فى ساع جاء يطلب إبل الصدقة ، وهو أمية بن الله بن عمرو بن عثمان بن عفان . انظر الخزانة (٢ : ٢٩٦) وما سبق فى ترجمة أدهم بن أبى الرعراء . الحماسية ٢٠٠ .

من يجعلُه اسمًا للفِعْل فلا يغَيِّرُهُ عن حالِه فى المؤنّث والتثنية والجمع ، وهم أهل الحجاز . وفى القرآن : ﴿ والقائلينَ لإخوانِهِمْ هَلُمَّ إلَيْنَا ﴾ . ومنهم من يجعله هاء التنبيه وقد رُكِّبَ مع لُمَّ وهو فِعْلٌ ، فيثنّيه ويجمَعُه ويؤنّثُه . وعلى الطريقتين جميعًا يكون ميمه مفتوحة ولا يُجْريه مَجْرَى رُدَّ وزُرَّ ، فيُكسَرُ آخرُه ويُضَمُّ وإن كان فِعْلاً ، وذلك لأنّ التركيب قد غَيَّرَهُ فسُلِب بعضَ أحكامه . ومعنى البيت : أبْلِغا المرءَ الذى جاء واليًا للصَّدَقات ومُستوفيًا لها : أَقبِلْ وتعَالَ ، فإنّ الذى تُعْطَى بَدَلاً من الفرائضِ السَّيْفُ . وهذا فى جَعْلِهِ المَشْرَفِىَّ هو الفرائضَ مجازًا ، كما قال الآخر[1] :

* تَحِيَّةُ بينِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ[2] *

والفرائضُ : الأسنان التى تَصْلُحُ لأن تؤخَذَ فى الصَّدَقاتِ . والمَشْرَفِىّ : السَّيْفُ نُسِب إلى المشارف : قُرًى لهم كانت تُطْبَعُ السُّيوفَ فيها . وقد حُكِىَ فى المَرْءِ « الامرُؤُ » وقد بقى ألفُ الوَصْل مع دخول الألف واللام ، إلاّ أنّه قليل .

٢ — وإنّ لنا حَمْضاً من الموتِ مُنْقَعًا وإنّكَ مُخْتَلٌّ فهل أنت حامِضُ

العربُ تقولُ : « الخُلّةُ خُبْزُ الإبل والحَمْضُ فاكِهَتُها » . ومعنى مُنْقعًا ثابتًا ، يقالُ « أَنْقِعْ له الشَّرَّ حتى يَسْأَمَ » أى أدِمْهُ . والمُخْتَلُّ : راعِى الخُلَّةِ ، وكانت الإبلُ إذا بَشِمَت الخُلَّةَ[3] وسئِمَتْه حتى اتَّخَمَتْ منه ، نَقَلوها إلى الحَمْضِ لتَشْتَهِىَ الخُلَّةَ ثانيًا . وهذا مَثَلٌ ضَرَبَهُ لهذا الساعى . يقول : إنّكَ

(١) هو عمرو بن معديكرب . الخزانة (٤ : ٥٣) .

(٢) صدره : * وخيل قد دلفت لها بخيل *

(٣) كذا فى م والتيمورية . وفى الأصل : « شبمت » ، تحريف . والمعروف فى « بشم » أن يتعدى بالحرف ، يقال بشم من الطعام ، أى اتخم منه ، وأبشمه الطعام .

مَلِلتَ العافية والسلامة ، فهلُمَّ إلى البَلاء والشَّرِّ من الوِلاية .

٣ــ أظُنُّكَ دُونَ المالِ ذُو جِئْتَ تَبْتَغِي ستَلْقاكَ بِيضٌ للنُّفوسِ قَوابِضُ

قوله « دُونَ المال » تعلَّق بأظُنُّك ، ولا يجوز أن يتعلق بقوله جئتَ ، ولا تبتغى ، لأن « ذو » يطلب من الصِّلة ما يطلبه « الذى » وإذا كان كذلك فما فى صِلَتِه لا يعمل فيما قَبْلَهُ . وقال « ذو جئتَ » وكان الأجوَدُ أن يقول : ذو جاء يبتغى[1] ، لأنه أجرى مَجْرى الذى ، فكما جُوِّزَ أن يقال أنت الذى فعلْتَ كذا ، و :

* أنا الذى سَمَّتْنِ أُمِّى حَيْدَرَهْ[2] *

جُوِّز فى ذو أيضاً ، لأنَّ المُرادَ به المُخاطَب . والمالُ فى الأكثر يطلقونه على الإبل ، على هذا قَوْلُهُمْ : المال فى الرِّعْيِ . والشَّاعِرُ قَصْدُه فى الكلام إلى التهكم والسُّخرية ، وقد خَالَطَ به التوعُّد والاستهانة ، لذلك قال أظُنُّكَ . وقوله « ذو جئتَ » فى موضع المفعول الثانى[3] وتبتغى فى موضع الحال ، ومفعولُهُ حُذِفَ . والمعنى أحْسِبُكَ الذى جاء دون المال تبتغى صَدَقاتِهِ ، ستَرَى ما أعدَّ لك من سُيُوفٍ تنتزع الأرواحَ والمُهَج . فإن قيل : كيف استجاز تكرير معنًى واحدٍ فى بيتين على تقارُب بينهما ، وهَلاَّ اكتَفَى بقوله « هَلُمَّ فإنّ المشرفيَّ الفرائضُ » ؟ قلتَ : إنّ قولَهُ أظُنُّكَ دون المال ذو جِئْتَ تبتغى ، بما دَخَلَهُ من التهكُّم والوعيد ، وتكشُّفَ فيه من الغَرَض المقصود ، صار كأنَّهُ أدَّى غير ما أداهُ قولُهُ « هَلُمَّ فإنَّ المَشْرَفيَّ الفرائضُ » . ومثله قول عيقمة بن عَبَدَةَ :

---

(١) لسنا ندرى كيف يكون هذا أجود ، أو كيف يصح . فإنه إنما يصح إذا كان « ذو » مفعولا ثانياً لأظنك ، فتكون العبارة : أظنك ذو جاء يبتغى . وليس كذلك ، بل هو صفة للفظ « المال » . وأما المفعول الثانى لأظن فهو جملة « ستلقاك » . فهذه زلة من زلات أبى على .

(٢) لعلى بن أبى طالب . انظر ٤٠٧ ، ٦١١ وحواشى ١١٥ .

(٣) هذا ما فهمه المرزوقى . والصواب أنه صفة للمال ، كما سبق التنبيه .

فإنْ تَسْألونى بالنساء فإننى بَصِيرٌ بأدواء النِّساء طَبِيبُ
إذا شابَ رَأسُ المرء أو قلَّ مَالُه فَلَيْسَ له فى وُدِّهِنَّ نَصِيبُ
يُرِدْنَ ثَرَاءَ المالِ حيثُ علِمْنَهُ وشَرْخُ الشَّبابِ عِندهُنَّ عجيبُ

ألا تَرَى أنّه لم يَرَ المَعْنَى متكرِّراً فى البيتين ، لما كان أحدُهما يشتمل من الاستيفاء والبيان على ما لم يشتمل عليه الآخَرُ .

٢١٢

وقال وَضَّاحُ بن إسماعيل[1] :

١ — صَبَا قَلْبِى ومَالَ إليْكِ مَيْلَا وأرَّقَنِى خيَالُكِ يا أُثَيْلَا
٢ — يَمَانِيَةٌ تُلِمُّ بنا فتُبْدِى دَقِيقَ مَحَاسِنٍ وتُكِنُّ غَيْلَا

يقالُ صَبَا قَلْبِى يَصْبُو صَبْوًا وصُبُوًّا . والصَّبْوَةُ : جَهْلُ الفُتُوَّة . يقولُ : أسْهَرَنِى خَيَالُكِ ، وانعدلَ قلبِى عن وَجهِه وطِيَّتِه ، ذَهاباً فيكِ ، ومَيْلاً إليكِ . ثمَّ أخذ يصف الخيال فقال : هى تأتينى من ناحية اليمن ، فتزورُ زيارةً خفيفةً لا تَلبثُ مَعَها ولا تَمَكَّثُ فأتمتَّع بها ، وتُبْدِى لى فى إلمامِها ما دَقَّ من محاسنِها كالعين والأنفِ والأسنان والفَم ، وتَسْتُرُ ما جَلَّ منها كالمِعْصَم والساعد والساق

(١) وضاح : لقب غلب عليه لجماله وبهائه ، ويقال له أيضاً « وضاح اليمن » . وفى الأغانى : « كان وضاح اليمن ، والمقنع الكندى ، وأبو زبيد الطائى يردون مواسم العرب مقنعين يستر ون وجوههم خوفا من العين وحذرا على أنفسهم من النساء ، لجمالهم » . واسمه عبد الرحمن ابن إسماعيل بن عبد كلال بن داذ بن أبى جمد ، وهو من شعراء الدولة الأموية . ويزعم الرواة أن أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان — وهى زوجة الوليد بن عبد الملك — كانت تعشقه وأنها أرسلت إليه وإلى كثير فى حجة لها أن ينسبا بها ، فأما كثير فهاب ذلك وامتنع ، وأما وضاح فنسب بها ، فبلغ ذلك الوليد فطلبه فقتله .

وهذه الحماسية التى يقولها وضاح هى من إحدى القصائد التى مدح بها الوليد بن عبد الملك قبل أن يجفوه الوليد . الأغانى (٦ : ٣٠ — ٤٤) .

والفَخِذ ، فأسْهَرَ . كأنّه رآها فى المنام على ما كان يراها فى اليقظـة خَرَادَةً[١] وحَيَاء . ويقال مِعْصَمٌ غَيْلٌ ، وساعِدٌ غَيْـلٌ ، أى ممتلئٌ من اللّحم غليظ . والمحاسِنُ قيل لا واحد لها ، ومثْله فى ذلك المَسَاوى والمذاكير . وقال الخليل : واحدُها مَحْسِنٌ ، وهى المواضِـعُ الحَسَنَةُ . يقال : امرأةٌ كثيرة المحاسن .

٣ — ذَرِينِى ما أَمْنَ بَنَاتِ نَعْشٍ من الطَّيْفِ الذى يَنْتَابُ لَيْـلاَ[٢]

يستعفِى من خيالِها لاشتِغال قَلْبِه بالغزْو . والاستعفاء فى الحقيقة من الحُبِّ الذى يصوِّرُها فى فِكْرِه حتى يَحْلُمَ بها . وقوله « ما أَمْنَ » الضميرُ للخيل ولم يَجْرِ لها ذِكْر ، ولكنّ المرادَ مفهومٌ . وموضِـعُ « ما أَمْنَ » نَصْبٌ على الظَّرْف ، أى مُدَّةَ أمِّها ، لأنّ ما مع الفِعْلِ فى تقـدير مصدرٍ حُذِف اسم الزّمان معه . وبنات نَعْشٍ من الكواكب الشاميّة ، وكان غَزْوُه نحوَ الروم . والمعنى : أعْفِينى من الصِّبا واللهو ، وشُغْل القَلْب بالحُبِّ والعِشق ، ما دمتُ فى هذا الوجه ، وقاصدًا نحو الغَزْو . وليْـلاً ، انتَصَبَ على الظَّرف ، كأنّه كان يسير النهار ، فإذا نَزَلَ ليلاً ونامَ أرّقهُ الخيال . ورَوَى بعضُهم : « يَأْتابُ ليلاً » وهو يفتَعِلُ من الأَوْب ؛ ويَنْتابُ أَوْجَه فى النَّقْدِ وأحْسَن .

٤ — ولـكنْ إنْ أرَدْتِ فهيِّجِينَا إذا رَمَقَتْ بأعيُنِها سُهَيْلاَ

يقولُ : إن أردتِ تشويقَنا إليكِ ، وتذكيرَنا بك ، فليكن عند مُنصرَفِنا من الغَزْو ، وقُفُولِنا من هذا الصُّقْع ، وحين تَنظُرُ خيلُنا إلى سُهَيْـل . وإنما قال ذلك لأنّ سُهيْلاً من الكواكب اليمانِيَة . لذلك قال عمر بن أبى ربيعة :

أيُّها المُنْـكِحُ الثُّرَيَّا سُهَيْـلاً عَمْرَكَ اللهُ كيفَ يَلْتَقِيانِ[٣]

(١) المعروف أخردت إخراداً ، بمعنى استحييت .

(٢) التبريزى : « ما أمت » ولكن فى شرحه « ما أمن » كما هنا .

(٣) هذا تورية منه . والثريا هذه هى الثريا بنت عبد الله بن الحارث صاحبة عمر . وسهيل هذا ، هو سهيل بن عبد العزيز . الأغانى (١ : ٩٠) .

هى شاميَّةٌ إذا ما استقلَّتْ ومُهَيْلٌ إذا استقلَّ يَمانِ

ومثل قولِ وَضَّاحٍ ما قاله المتلمس ، وهو :

فَلتَتْرُكَنَّهُمُ بليْــلِ ناقتى تَدَعُ السِّماكَ وتَقتَدِى بالفَرقَدِ(١)

والسِّماكُ من قِبَل المَشرِق ، والفَرقَدُ من قِبَل الشام .

٥ — فإنّكَ لو رأيتَ الخَيْلَ تَعْدُو عَوَابِسَ يتّخِذْنَ النَّقْعَ ذَيْلاَ

٦ — رَأيتَ على مُتُونِ الخَيْلِ جِنًّا تُفِيدُ مَغَانِمًا وتُفِيتُ نَيْلاَ

يَصِفُ الغَزْوَ وملاقاةَ العدوّ ، وأنّه لا يحتمل التَّصَابى والتبطُّل ، ولا يَصلُح للمُشتَغِلِ به التشوُّقُ والتغزُّل ، فيقول : لو رأيتَ الدَّوَابَّ عاديةً بفُرسانها وقد تكلَّحَتْ لاشتداد الحال عليها ، وسحَبت ذَيْلاً من الغُبار لتَناهِى شَدِّها ، لرأيتها كأنّ عليها جِنًّا لا رِجالاً ، تستفيدُ المغانمَ من أعدائها . وتُفيتُهم نَيلَ شيء منها . وهذا كما قيل « يَسْبِقُ إن طُلِبَ ، ويَلْحَقُ إن طَلَبَ » ، ويَشْهَدُ لأفادَ وأنّه يكون بمعنى استفاد قولُ الآخر(٢) :

فلا أنا منه ما أفاد ذوُو الغِنَى أفدتُ وأعْدانى فأتلفتُ ما عِندِى

٢١٣

وقال آخر(٣) :

١ — لا قُوَّتِى قُوَّةُ الرّاعى قَلاَئصَهُ يَأْوِى فيأوِى الـكَلْبُ(٤) والرُّبَعُ

٢ — ولا العَسِيفَ الذى يَشْتَدُّ عُقْبَتَهُ حتى يَبِيتَ وباقِى نَعْـلِهِ قِطَعُ

(١) فى ديوان المتلمس ٦ مخطوطة الشنقيطى : « تذر السماك وتهتدى » .

(٢) هو بشار ، أو ابن الخياط ، أو أبو العريان . سمط اللآلئ ٣١٠ . وقبله :

لست بكفى كفه أبتغى الغنى ولم أدر أن الجود من كفه يعدى

(٣) لم يعرفه شراح الحماسة . وهو وضاح اليمن ، صاحب الحماسية السابقة . انظر الحيوان (١ : ٢٦٥) وشروح سقط الزند ٢٠٦ .

(٤) رواية الجاحظ : « الراعى ركائبه » .

أَخَذَ أبو تمّام هذا المأخَذَ في قوله :

والصَّبْرُ بالأرواحِ يُعْرَفُ فَضْلُهُ ‏ صَبْرُ المُلوكِ وليْسَ بالأجْسَادِ

يقولُ : ليس غَنَائي في الأمور وكِفايتي غَناء الرُّعاة الذين سَعْيُهم وكَدُّهم مقصوران على ضمِّ القِلاصِ وحِفْظِها في مَراعيها عند سَرْحِها وإراحتها ، فإذا أَوَى إلى مَوْضِعٍ أَوَى إليه كَلْبُهُ الذي يَحْرُسُ به ورُبَعُهُ . والرُّبَعُ : ما نُتجَ في الربيع . وقولُه « ولا العَسِيفِ » انعطف على الرّاعي . يُريدُ : ولا قوّتي قوّة العسيفِ . فالعسيف : الأجيرُ والعبد المستَهانُ به ، المُمْتَهن في العمل . يقال : كم أعسفُ عليك ، أي كم أعْمَلُ لك . وقولُه « يشتَدُّ عُقْبَتَهُ » انتصب عقبتَهُ على الظَّرف ، أي وقت عقْبته ، كأنه يعاقب الرَّكوبَ غيرَه . يقال هما يتعاقبان للرُّكوب بينهما ، أو الأمْرُ يَرْكب هذا عُقْبَةً وهذا عُقْبَةً . والعُقْبَةُ قيل فَرْسخان . ويَشْتَدُّ : يَفْتَعِلُ من الشَّدّ : العَدْوِ . وبعضُهم يرويه « تَشْتَدُّ عُقْبَتُهُ[1] » بالرَّفع ، ويجعل تَشْتَدُّ من الشِّدّةِ ، أي تشتَدُّ عُقْبَتُهُ عليه ، والصوابُ ما قدَّمْتُه . والمعنى : ولا غَنَائي أيضاً غَناء الأجير الذي يَعْدو عُقْبَتِه ووقْتَ عُقْبَتِهِ ، وليس يريدُ أنَّ له عُقْبَةً فيترُكها ويَعْدو ، لكن المعنى إذا كان لغيره نوْبَةٌ في الرُّكوب لمعاقبتِهِ صاحبَه ، فنوْبَتُه الشَّدُّ والخِدْمَةُ حتى يأتِيَ عليه المساء وقد تَقَطَّعَ ما بَقِيَ عليه من حذائه . وقولُه «وباقي نَعْلِهِ قِطَعُ» في مَوْضِعِ خَبَرِ يَبيتُ ، تقديرُه : حتّى يبيتَ مُنْقَطِعَ باقي النعل .

٣ — لا يَحْمِلُ العَبْدُ فينا فَوْقَ طاقَتِهِ ‏ ونَحْنُ نَحْمِلُ ما لا تَحْمِلُ القَلَعُ

يقول : العَبْدُ المُسْتَخْدَمُ فينا لا نُكَلِّفُه إلَّا دون ما يُطِيقُه ، إبقاء عليه ، وتَرْكاً لاستنفاد وُسْعِه ، ونحن نحتمل من مَشاقِّ الأمور ، ومُثقِلاتِ الأعباء

(١) وهي رواية الجاحظ أيضا .

ما لا تُطيقه الجبال . والقَلَعُ : جمع قَلَعةٍ ، وهى الهضابُ العِظام ، وبها سُمِّى الحِصْن المَبْنىّ على الجبل قَلَعةً[1] . ويقال أقْلَعَ فلانٌ قِلاَعاً[2] ، إذا بناها ؛ وبها سُمِّيَت السَّحابُ العِظام قَلَعاً أيضاً .

٤ — مِنَّا الأَناةُ وبَعْضُ القَوْمِ يَحْسَبُنا أنَّا بِطاءٌ ، وفى إبْطَائِنـــا سَرَعُ

الأَناةُ : الرِّفْقُ . يقول : نَستأْنى فى الأمور فِعْل الحازِم ذى الرأى السَّديد ، والتأمُّل اللطيف ، الذى يَنْظُر فيما له وعليه ، فيَدرِى كيف يُورِدُ ويُصْدِرُ ، ويُبْرِمُ وينقُض ، ولا نَتَهَجَّمُ فيما نزاولُه فِعلَ العَجُولِ الأخرق الذى لا يتتبَّع العواقب ، ولا يتجنَّب المقابِح ، فلا يُبالى أيًّا يأخُذُ ويَدَع . وكثيرٌ من الناس يظنُّ بنا تباطؤًا فى المهمَّات وتثاقُلا ، والذى يَعُدُّونَهُ بُطئًا فهو سرعةٌ ، لأنَّا نَترُكُ كلَّ ما تَتولاَّه مفروغاً منه مُحكَماً ، لا تَفاوُتَ فيه فيحتَاجُ إلى استئناف تَدبُّر ، واستحداثِ نَظَر وتتبُّع .

٢١٤

وقال عَمْرو بنُ مِخْلاةَ الكلبىّ[3] :

١ — ويَوْمٍ تَرَى الرَّاياتِ فيه كأنَّها حَوَائمُ طَيْرٍ مُسْتديرٌ وواقِـعُ

---

(١) يقال هذا بفتح اللام وإسكانها .

(٢) هذا ما فى الأصل والتيمورية . ونحوه فى التبريزى : « ويقال أقلع فلان قلعة إذا بناها » لكن فى م : « إقلاعا » . وفى اللسان : « وأقلعوا بهذه البلاد إقلاعا بنوها فجعلوها كالقلعة » .

(٣) التبريزى : « الكلابى » ، والصواب أنه كلبى ، من بنى تيم اللات بن رفيدة ابن كلب . الطبرى (٧ : ٤٢) والاشتقاق ٣١٤ والأغانى (١٧ : ١١٢) . ويقال له « ابن مخلاة الحمار » أيضا ، و « ابن مخلى » . وهو شاعر إسلامى جزرى ، كما ذكر المرزبانى فى معجمه ٢٤١ . وكان مداحا لبنى مروان . والشعر يقوله فى يوم مرج راهط وكان ذلك سنة ٦٥ . انظر معجم البلدان والأغانى (٩ : ٣٥ / ١٠ : ١٥٣ / ١٤ : ١١٦ ، ٢١٨ / ١٧ : ١١١ ، ١١٢ ، ١١٤ / ١٩ : ١٠٩) والميدانى (٢ : ٣٦٧) وكتب التاريخ فى حوادث سنة ٦٥ . وأبيات هذه المقطوعة روى منها أبو الفرج ١ ، ٣ ، ٥ ، وزاد بيتين أحدهما بعد الأول ، وهو :

مضى أربع بعد اللقاء وأربع وبالمرج باق من دم القوم ناقع

٢— أصابَتْ رِمَاحُ القَوْمِ بِشْرًا وثابتاً وحَزْنًا وكلٌّ للعشــيرة فاجِــعُ (١)
٣— طَعنًا زياداً فى أُسْتِهِ وهو مُدْبِرٌ وثَوْرٌ أصابَتْهُ السيوفُ القواطِــعُ (٢)
٤— وأدْرَكَ همَّاماً بأبْيَضَ صَارِمٍ فَتًى من بني عَمْرٍو طُوَالٌ مُشَايِــعُ (٣)
٥— وقد شَهِــدَ الصَّفَّينِ عَمْرو بن مُحْرِزٍ فَضَاقَ عليه المَرْج والمَرْجُ وَاسِــعُ (٤)

الرايات : الأعلام . والحوائم : جمع حائمةٍ ، وهى العِطَاشُ من الطُّيور تَحُومُ حَولَ الماء . وحَوَمَاتها : دورانُها ؛ فـكثُر استعمالُه حتَّى صار كلُّ عطشانَ حائما . ويُرْوَى : «عَوَاطفُ طَيْرٍ» . وقوله «مستديرٌ وواقعٌ» بدلٌ من حوائم ، وجَعَلَ الرَّاياتِ بعضُها جائلٌ فى الجوِّ دائرٌ ، وبعضُها ساقطٌ ، لأنَّ المنهزمين تَسقط أعلامهم فتنخفض ، والظَّافِرين تَثْبُتُ أعْلامُهم فتَخْفُقُ . وقولُه «وكلٌّ للعشيرة فاجِــعُ» ، أى كل واحدٍ من المذكورين رئيسُ عشيرةٍ قد فُجِعوا به . والشَّاعر يَذْكُرُ وقعةَ المَرْجِ مَرْجِ رَاهِطٍ — وراهِطٌ رَجُلٌ من قُضَاعَةَ فى الجاهليّة الأولى — واجتَمَع به المَرْوانيَّةُ ، وهم الذين دَعَوْا إلى مَروانَ بنِ الحكَم ، وهم كلبٌ وعَبْسٌ وغيرهُم من قبائل اليمن . والزبيريّة ، وهم الذين دَعَوْا إلى ابن الزُّبَير ،

— والآخر بعد الثالث ، وهو :

ونجى حبيشا ملهب ذو علالة وقد جذ من يمنى يديه الأصابع

وروى المرزبانى البيت الخامس من هذه الحماسية فقط ، وزاد بعده :

فلن ينصب القيسى للناس راية من الدهر إلا وهو خزيان خاشع

(١) فى الأصل : «بالعشيرة» وأثبتنا ما فى م والتيمورية .

(٢) هو زياد بن عمرو العقيلى ، كما ذكر التبريزى ، وكما سيأتى . وأما ثور فهو ثور ابن يزيد السلمى ، كما ذكر الطبرى . وروى المرزبانى : «وهو هارب» .

(٣) التبريزى : «عمرو بن محرز من أشجع» وقال أيضاً : «ووضع طوال مع مشايع ردىء فى صنعة الكلام ، لأن الطوال ليس من المشايعة بقريب» .

(٤) الصفين ، مثنى صف ، كما نص التبريزى ، وهى تطابق رواية م والتيمورية . وفى الأصل : «الصفين» بكسر الصاد والفاء المشددة ، على أنها صفين المكان المشهور . قال التبريزى . «وهو تصحيف» .

وهم قَيْسٌ ومن تَبِعَهُم ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فكانت الدَّبْرة(١) على القَيْسيّة ورئيسُهم زُفَر بن الحارث ، ومعهُم الضَّحَّاكُ بن قَيْس . ولهذا قال الشاعر :

فَمَنْ يَكُ قد لاقى من المَرْج غِبْطَةً فكان لقَيْسٍ فيه خاصٍ وجادِعُ(٢)

وقولُه «طعنّا زيادًا فى استه» ، فهو زياد بن عمرو العُقَيْلى . وقوله «وهو مدبر» أى مُوَلٍّ منهزِمٌ . ويجوز أن يكون من الإدبار ، لتَرْكِه الرَّأىَ حتّى بُلِىَ بما بُلِىَ . وعمرو بن مُحْرِز من أشْجَعَ(٣) . وقال : ضَاقَ عليه المَرْجُ على سَعَته ، لأنّه كان مَغْلُوباً مَطْلوباً . ويقالُ ضَاقَ بفُلان الفَضَاء . والمُشَايِع : المُقَوِّى لأصحابه المُتابع لهم . وجَعَلَه طُوَالاً لأنَّهم يستحبُّون تَمام الخَلْق ، وامتدادَ القامة . وقولُه « وثَوْرٌ أصابَتْهُ السُّيُوفُ القواطِعُ » ، رفَعَ ثوْرًا لأنَّ الفِعْلَ بعْدَهُ شُغِلَ عنه ، وإن نَصَبَهُ طَلَباً للمطابقة إذ كان فى الجملة التى قَبْلَه منصوبٌ كان أحْسَنَ .

٢١٥

وقال زُفَرُ بن الحارث(٤) :

١ — أفِى اللهِ أمّا بَحْدَلٌ وابنُ بَحْدَلٍ فيَحْيَا وأمّا ابن الزُّبيْرِ فيُقْتَلُ

كان معاويةُ بن أبى سفيان لمّا جعل ابنَه يزيدَ ولىَّ عَهْدِه بايعَهُ الناسُ

(١) الدبرة ، بالفتح : العاقبة السيئة ، أى الهزيمة . فى الأصل : « الدعوة » ، صوابه فى م والتيمورية .

(٢) جعل التبريزى هذا البيت من أبيات هذه الحماسية . لكن نسخ المرزوقى تجعلها من الشواهد فحسب ، ولذلك لم يعلق عليه بشىء من التفسير أو التوضيح . والذى أوجب هذا اللبس عند التبريزى موافقة هـذا البيت لسائر الأبيات فى الوزن والروى والموضوع . والخاصى : قاطع الخصية . والجادع : قاطع الأنف أو الأذن ونحوهما . والمراد بذلك الإذلال والقهر .

(٣) فى الأصل : « من أشجع الناس » وكلمة « الناس » مقحمة ، والصواب فى م والتيمورية . وذكر التبريزى من أولاده زياد بن عمرو بن محرز الأشجعى . وهم بنو أشجع بن ريث بن غطفان .

(٤) سبقت ترجمته فى الحماسية ٢٨ .

إلّا الحىّ(١) من قَيْسٍ ، فإنّهم قالوا : والله ، مَا نُبَايِـعُ ابنَ الـكلبيَّةِ — وذاك أنّ أمّ يزيدَ مَيْسُونُ بنتُ مالكِ بن بَحْدَلٍ الـكلبيّ — فصار فى نفس يزيدَ لقيسٍ ذلك ضِغْناً وحقداً ، وابتدأ الشرُّ بينهم وبين بنى أميّة ، فلما هلك يزيدُ استُخلِفَ ابنُهُ معاويةُ بن يزيد ، وأُمُّه كلبيَّةٌ أيضاً ، وصار حَسّان بن مالك بن بَحْدَلٍ أخو مَيْسُونَ وخالُ يزيد بن معاويةَ كالمالكِ للأمرِ ، فـكانت خلافته أياماً قليلةً ، وتحرَّكت فِتنةُ ابن الزُّبير ، فاضطرب حسّانُ بن مالكٍ فى الأمر اضطرابا شديدا ، وصار يدعو النّاسَ إلى نفسه تارةً وإلى من يختارونه من بنى أمَيّةَ أخرَى ، حتّى قال الشّاعر :

وما النّاسُ إلّا بِحْدَلِىٌّ على الهوَى ... وإلّا زُبَيرِىٌّ عَصَى فَـتزَبَّرَا

إلى أن وقع الاختيارُ على مَرْوانَ بنِ الحـكم ، فلمّا قام بالدّعوة صارت البَحدَلِيَّـةُ معه ، فسُمُّوا مَرْوانيَّة ، وصار السّبب فى حرب قيسٍ وتَغْلِبَ أنْ صارت قَيْسٌ زُبَيْرِيَّةً وتَغْلِبُ مروانيَّة ، فيقول زُفَرُ بن الحارث وهو رئيس قيس « أفِي الله » يريدُ : أفى ذاتِ الله ومَرْضِيِّ حكمِه أن يُطْلَبَ حياةُ ابن بَحْدَل والمتعصّبَةِ لبنى أميّة ومَروانَ وعبد الملك ابنه ، ويُطْلَبَ قتلَ عبد الله بن الزُّبير مع فَضْلِهِ وشرفِهِ وسابقَتِه . وهذا الـكلامُ تقريعٌ للنّاس وإكبارٌ للأمْرِ . وقولُه « أمّا بَحْدَلٌ » حُـكْمُ أمّا أن ينقطع عما قَبله ، ولهذا عُدَّ من حروف الابتداء ، ولأنه يتَضَمّن معنَى الجزاء والجزاء له صَدْرُ الكلام ، إذا كان كذلك فكأنّه قال : أفى الله هذه القصّةُ وهذا الأمْرُ والشّأن . وقوله « فيَحْيَا » فأخبر عن أحد الاسمين لمّا عُلِمَ أنّ صاحِبَهُ فى مِثلِ حالِه . وفى القرآن : ﴿ واللهُ وَرَسُولُه أَحَقُّ أن يُرْضُوه ﴾ .

(١) وكذا فى م والتيمورية . وعند التبريزى حيث نقل كلام المرزوقى بدون نسبة : « إلا هذا الحى » .

٢ — كَذَبْتُمْ وَبَيْتِ اللهِ لا تَقْتُلُونَهُ ... وَلَمَّا يَكُنْ يَوْمٌ أَغَرُّ مُحَجَّلُ

إنّما قال « كَذبتم » لأنّ الذى أنكره منهم وقرّعهم عليه كان خبرًا .
ويجوز أن يكون المعنى : كَذَبَتْكُم أنفسُكم حين حدّثتموها بما لا يَتِمُّ لكم .
وقولُه « لا تَقتلُونَهُ ولمّا يَكُنْ يَوْمٌ » ، يقول : لا تَقْدِرون قبل أن يكون لنا عليكم يَوْمٌ مشهورٌ على قَتْله ، وإذا عَجَزْتُم قَبْلَهُ فَفِي مستقبلِ الزّمانِ بَعْدَهُ أنتُم أعْجَز ، وعن أُمْنِيَّتكم وتَرْجِيم ظَنِّكم أَبْعَد .

٣ — ولَمَّا يَكُنْ لِلمَشْرَفِيَّةِ فَوْقَكُمْ ... شُعَاعٌ كَقَرْنِ الشَّمْسِ حِينَ تَرَجَّلُ

قَرْنُ الشَّمس : أوّل ما ظهَرَ منها . والترجُّل ، قالوا : إذا ارتفعت الضُّحَى وانبسطت الشّمس ولم يشتدَّ حَرُّها فذلك الترجُّل . وقال ابن الأعرابيّ : التَرَجُّل قَبْلَ المُتُوع ، والمُتُوع قبل انتصاف النّهار ، وأنشد لمُزرِّدٍ :

فأَصْبَحَ كالدِّهقانِ لَمَّا بَدَا لهُ ... من الشَّمسِ إشراقٌ ولَمَّا تَرَجَّلِ

بيّنَ بالشّرط الثانى غَرَضَهُ فى تعجيزهم ، وأنّ الذى يريدونَهُ من قَتْلِهِ لا يتمّ أبداً لهم ، ولا يَدْخُلُ تحت مَقدورهم[1] .

٢١٦

وقال حَسَّانُ بن الجَعْدِ[2] :

١ — أَبْلِغْ بَنِي خَازِمٍ أَنِّى مفارِقُهُم ... وقائلٌ لجِمالى غُدْوَةً بِينِى

٢ — إنّى امْرُؤٌ غَرِضٌ من كل مَنْزِلَةٍ ... لا شِدّتِى تُبْتَغَى فِيها ولا لِينِى

(١) هذا ما توقعه الشاعر ، ولكن أتت الأقدار بخلاف ما قدر ، فقد لقى عبد الله ابن الزبير حتفه بيد الحجاج ، إذ أسره وصلبه بمنى منكوسا سنة ٧٣ .

(٢) شاعر إسلامى كما يتضح من ذكر علاقته بعبد الله بن خازم . وكان عبد الله بن خازم أميراً لخراسان ، ولى إمرتها لبنى أمية ، فلما ظهر ابن الزبير كتب إليه ابن خازم بطاعته فأمره على خراسان ، ثم ثار به أهل خراسان فقتلوه وأرسلوا رأسه إلى عبد الملك ٧٢ .

هذا الشَّاعر خرجَ إلى عبد الله بن خازم راغبا في جوارِه والسُّكونِ في جماعته فلم يُحْمِدْهُ وانْصَرَفَ عنه ، وقال : لِيُبْلَغْ هذا الرَّجلُ وذَوُوه أنّى مرتحِلٌ ونافِضٌ يَدِى منه ، وحامِلٌ إبلى على مُفارَقة أرضِه ، ومُظْهِرٌ الزُّهْدَ في صُحبتِه ، لأنّى أجتوِى كُلَّ مَنْزِلَةٍ لا تَمَسُّ حاجتُها إلى كَوْنِى بها ، وأنتوِى البُعْدَ عن كل جنْبَةٍ لا تشتد رغبتُها في إقامتى فيها ، كما أنّى أضجرُ بجِوارِ كُلِّ من اعتقَدَ الغِنَى عن رأيِى وغَنائى ، وخشونتى ولينى . ويقال : غَرِضْتُ من كذا ، إذا مَلِلْتَه ؛ وغَرِضْتُ إلى كذا ، إذا اشتقتَهُ . فهو كما يقال رَغِبْتُ فيه ورغِبْتُ عنه .

٢١٧

وقال القَتَّالُ الكِلابِيُّ[1] :

١ — إذا هَمَّ هَمًّا لم يَرَ الليلَ غُمَّةً عَلَيْهِ ولم تَصْعُبْ عليه المراكِبُ[2]

يصفه بالإقدام والتَّشمير ، وحُسن النَّفاذِ في الأمور ، وأنه متى ما وَقَعَ في نَفسِه أمرٌ فهَمَّ به اقتَعَدَ الليلَ ولم يَعُدَّه حائلا دون مُراده ولا مانعاً عن قَصْدِه ومرادِه ، حتى يَصيرَ رُكُوبُهُ غُمَّةً ، وما يُتَصَوَّرُ من هَوْلِه شِدَّةً تَدْفَعُ في الصَّدْرِ ، وتُحَلِّئُ عن الوِرْد ، ولم يَشُقَّ عليه المراكب ، ولا يُسْتَكْرَهُ فيه المصاعب . ويقال : هو في غُمَّةٍ من أمرِهِ ، أي حَيْرةٍ وظُلْمَةٍ . وأصل الغَمِّ[3] التَّغطية .

٢ — قَرَى الهَمَّ إذْ ضَافَ الزَّماعَ فأصبَحَتْ مَنازِلُهُ تَعْتَسُّ فيها الثَّعالِبُ

يقول : يَجْعلُ قِرَى همّهِ إذا اعتراه ، النَّفاذَ والعزيمة ، والإجماعَ فيه

(١) سبقت ترجمته في الحماسية ٤٢ ص ٢٠١ .
(٢) هذا ما في م والتيمورية والتبريزى . وفى الأصل : « ولم يصعب » .
(٣) هذا الصواب من م والتيمورية والتبريزى . وفى الأصل : « الغمة » .

والصَّريمة ، فترى مَنَازِلَه تَستبدلُ بُسكّانِها وَحْشاً تَعْتَسُّ فيها ، ويَعْتَاضُ هو من الدَّعَةِ والخفضِ تَعباً يمتطيه ، ودُءوباً يستمرُّ فيه . والاعتساسُ : الاختلاف بالليل . ويقال : عَسَّ واعتَسَّ ، ومنه أُخِذَ العَسَسُ . وفى المَثَل الجارِى « كَلْبٌ عَسَّ خَيْرٌ من أسَدٍ رَبضَ » .

٣ ـ جَلِيدٌ كريمٌ خِيمُهُ وطِبَاعُهُ عَلَى خَيْرِ ما تُبْنَى عليه الضَّرائِبُ

يُقالُ هُوَ جَلْدٌ وجليدٌ بمعنًى . والخِيمُ : الطبيعةُ ؛ وقال أبو عُبيدة : أصلُه فارسيٌّ مُعَرَّب . والطِّبَاعُ : ما طُبِع عليه الإنسان فى مَأْكَلِه ومَشْرَبِهِ وسائر أحوالِه . والضَّرائبُ : جَمعُ الضَّريبة ، وهى الخليقةُ . ويُقالُ : ليس لفلانٍ ضَرِيبٌ ، أى شبيه ، وهو كريمُ الضَّرِيبةِ . فيقول : قَوِىُّ الجَأْشِ ، مَرضِيُّ الطَّبِيعة ، وقد جُبِلَ فى كلِّ ما يُسْتَكْشَفُ من أُمُورِه على أحسنِ ما تُجْبَلُ عليه النُّفُوس والأخلاق .

٤ ـ إذا جَاعَ لم يَفْرَحْ بأَكْلَةِ سَاعَةٍ ولم يَبْتَئِسْ من فَقْدِها وهو سَاغِبُ

أحْسَنَ حاتمُ طيِّئٍ فى هذه الطَّرِيقة حين قال :

غَنِينَا زَمانًا بالتَّصَعْلُكِ والغِنَى فكلتاهُما يَسقِى بكأسَيْهِما الدَّهْرُ(١)

فما زَادَنَا بَغْياً على ذِى قَرَابَةٍ غِنَانا ولا أَزْرَى بأحْسَابِنا الفَقْرُ(٢)

والشَّاعِرُ يَصِفُ كَرَمَ نفسه وحُسْنَ صَبرِهِ على تَقَلُّب الأحوال ، فالشَّبْعَةُ لا تُطْغيه ، والجَوْعةُ لا تُؤْيِسهُ فتُرْدِيه . والسَّغَب : الجوع . وأضافَ الأَكْلَةَ إلى سَاعَةٍ تَقْصِيراً بها وإزراء ، وإن كانَ ذلكَ وَقتاً لهَا . وقولُه « من فَقْدِها »

(١) روى البيت فى بيتين من ديوان حاتم ١١٩ . وهما :

غنينا زمانا بالتصعلك والغنى كما الدهر فى أيامه العسر واليسر

لبسنا صروف الدهر ليناً وغلظة وكلا سقاناه بكأسيهما الدهر

(٢) فى الديوان : « فما زادنا بأوا » والبأو : الفخر والكبر .

يريدُ من فَقْدِ لها ، والمَصْدرُ يضافُ إلى الفاعل والمفعول جميعاً ، على هذا قَوْلُه تعالى : ﴿ مِنْ دُعَاءِ الخَيْرِ ﴾ .

٥ — يَرَى أنّ بَعْدَ العُسْرِ يُسْرًا ولا يَرَى إذا كان يُسْرٌ أنّهُ الدَّهْرَ لازِبُ(١)

يُستحسَنُ لبشّار فى هذه الطريقة قوله ، بل قد صار مَثَلاً :

خَليلَيَّ إنّ العُسْرَ سوفَ يُفيقُ وإنّ يَسَارًا فى غَـدٍ لَخَقِيقُ

وما أنا إلاّ كالزّمانِ ، إذا صَحَا صَحَوْتُ ، وإنْ ماقَ الزّمانُ أَمُوقُ

يقولُ : يَعْلَمُ أنّ أسبابَ الدُّنيا وتصاريفَها مبنيّةٌ على التّغيُّر والتبدُّل ، فالعُسْر واليُسْر يتعاقبان ولا يَلازَمان ، فمتى استَغْنَى كَرُمَ ولم يَبْطَرْ ، عِلْمًا بأنّه يَفْنَى فلا يبقى ، وإذا افتقر عَفَّ ولم ييأس ، ثِقةً بأنّه يزولُ ولا يدوم . وقولُه « يَرَى » من البيت يجرى مَجرَاه من قولِه تعالى : ﴿ إنّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعيدًا ﴾ ، لأنّه بمعنى يظنّونه ، وليس كذلك فى قوله ﴿ ونَرَاهُ قَرِيباً ﴾ لأنه بمعنى نعْلَمُهُ . وقد يُستعمَلُ العِلمُ فى موضعِ الظّنِّ أيضاً ، لذلك قال :

وأَعْلَمُ عِلْمًا لَيْسَ بالظّنِّ أنّهُ إذَا ذَلَّ مَوْلَى المَرْءِ فَهْوَ ذليلُ(٢)

٢١٨

وقال أوْسُ بن حَبْنَاء(٣) :

١ — إذا المَرْءُ أوْلاكَ الهَوَانَ فأَوْلِهِ هَوَانًا وإن كانت قريبًا أَوَاصِرُهْ(٤)

(١) هذه رواية الأصل والتبريزى . وفى م : «إذا كان يسرا» ، والتيمورية : «إذا كان عسرا» .

(٢) لطرفة فى ديوانه ٥٢ والشعر والشعراء ١٤٧ . ونسب فى اللسان (حصى) إلى كعب بن سعد الغنوى .

(٣) الظاهر أنه شاعر إسلامى ، ولعله أخو المغيرة بن حبناء الشاعر الإسلامى ، الذى ترجم له البغدادى فى الخزانة (٣ : ٦٠١) . وذكر : أن « حبناء » أم المغيرة ، شهر بالنسبة إليها واسم أبيه حبين بن عمرو بن ربيعة الحنظلى التيمى ، لكن صاحب القاموس لم يذكره فى إخوة المغيرة . قال : « والحبناء : الضخمة البطن ، وأم المغيرة ، ويزيد ، وصخر ، الشعراء . وأبوهم عمرو بن ربيعة » .

(٤) روى الجاحظ هذه الأبيات فى البيان (٢ : ٣٥٧ / ٣ : ٦١) بدون نسبة .

حقيقة أَوْلاكَ كذا : جعَلَهُ مما يَلِيكَ ، لكنه اشتَهَرَ فى الإحسانِ ، وقد يُستعمَلُ فى الإساءة ، كما فعَلَهُ هذا الشاعر . ومثله بَشَّرْتُه فى معنى تَناوُلِه الشَّرَّ ، وإن كان اشتهارُه فى الخير . ألا ترَى قوله تعالى: ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ . يقول : قابِلْ مُعامِلَكَ بمثل ما يَرْصُدُه لكَ ، فإنّ الأفعالَ بين الناس قُرُوضٌ ، وشَرْطُ القُرُوض الوفاءُ بها ، والخروج من ذِمَمِها ، فمَنْ أهانَكَ فأَهِنْهُ وإن قَرُبَتْ عَوَاطِفُ أرْحامِهِ ، وشوابِكُ أسبابه ، ولا تُوجِبْ له إلاّ مِثْلَ ما يوجِبُهُ لك . ويقال : بينى وبينَه آصِرَةٌ ، أى عاطفةٌ ، والأَصْرُ : العَطْفُ . وقولُه « قريبًا » خبر كان ، وقدَّمَه على اسمه ولم يؤنِّثه لأنّه أراد النسبةَ فلم يَبْنِه على الفعْل . ومثله قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ من المُحْسِنِينَ ﴾ .

٢ — فإنْ أنتَ لم تَقْدِرْ عَلَى أن تُهِينَهُ فَذَرْهُ إلى اليَوْمِ الذى أنت قادِرُهْ

يقول : إنْ أعجزَكَ مكافأتُهُ على إساءته إليك ، وأعْوَزَكَ إنالَتُهُ مثلَ ما يُنيلُكَ فى الحال ، فأَنْظِرْه إلى الوقت المساعد لك من مستقبَل أيّامِك ، وانتظرْ نوبتَك من الدّهر ، فإذا أمكنَتْك الفُرصةُ فانتهِزْها . وقوله « إلى اليوم الذى أنت قادِرُهْ » أراد أنت قادرٌ فيه ، فقدَّر الظّرفَ تقديرَ المفعول الصحيح لأنّ الظّرفَ إذا أُضيف إليه يخرج من أن يكون ظَرْفًا كما يخرج منه إذا دَخَل عليه حرف الجرّ . على هذا قولُهم :

* يا سارِقَ اللّيلةِ أهلَ الدارْ(١) *

وقولُه :

* طَبّاخِ ساعاتِ الكَرَى زادَ الكَسِلْ(٢) *

(١) الخزانة : (١ : ٤٨٥) وسيبويه (١ : ٨٩) ، ولم ينسب فيهما .

(٢) مجالس ثعلب ١٥٢ والخزانة (٢ : ١٧٢) وسيبويه (١ : ٩٠) والكامل ١١٣ ليبسك . وقد نسب فى الكامل إلى الشماخ بن ضرار ، والصواب أنه لجبار بن جزء وهو ابن أخى الشماخ ، كما ذكر البغدادى . وقد ساق قصة الرجز مفصلة .

٣ — وقارِبْ إذا ما لم تكُنْ لكَ حِيلةٌ وصَمِّمْ إذاَ أيقَنْتَ أنّكَ عاقِرُهْ

يقول : اجْرِ مع الدّهر فى تصرُّفِه وتلوُّنه ، ودارِ عدوَّك وجامِلْه إن أعياكَ مكايَلَتُه ومحاسَبَتُه ، فإذا انقضَتْ أيّامُه وتيسَّرَ لك بعد مُداجاتِك له عَقْرُه وإهلاكُه فاثبُتْ فى الأَزْم عليه ، والانتقام منه ، ثباتَ السّيف القاطع فى ضريبتِه ، وإيّاكَ والغَفْلةَ عند بعد إيقاظِك إيّاه ، واللِّينَ معه وقد خَشّنْتَه .

٢١٩

وقال آخر(١) :

١ — إنِّى إذا ما القَوْمُ كانُوا أنْجِيَهْ(٢)

٢ — واضطَرَبَ القومُ اضطرابَ الأرْشِيَهْ(٣)

٣ — وشُــدَّ فَوْقَ بعضِهِمْ بالأَرْوِيَهْ

٤ — هُنَاكِ أَوْصِينِى ولا تُوصِى بِيَهْ

قوله « إنى إذا ما القوم » خبر إنّ فى قوله « أوْصينى ولا تُوصِى بِيَهْ » . والمعنى : إنى أهْلٌ لأنْ يوصَى إلىّ حينئذ فى غيرى ، ولا يُوصَى غيرى بى . فتَبيَّنَ هذا من الكلام وإن كان على لفظ الأمر والنَّهْى . وعلى هذا قول القائل زَيْدٌ قمْ إليه ، أى هو أهلٌ لأن تقُومَ إليه . فبهذا التقدير وأمثالِه جاز أن يقع الأمر موضع الخبَر . وأنشد أبو زَيْدٍ :

(١) هو سحيم بن وثيل اليربوعى ، كما فى اللسان (نجا) . وسحيم شاعر مخضرم عاش فى الجاهلية أربعين سنة وفى الإسلام ستين سنة . انظر الخزانة (١ : ١٢٣ — ١٣٠) وابن سلام ١٢٩ والاشتقاق ١٣٨ والإصابة .

(٢) روى أيضا : « أنجيه » كما فى اللسان (نجا) ، وفسره بقوله : « أى انتحوا عن عمل يعملونه » .

(٣) ويروى أيضاً : « واختلف القوم اختلاف » ، و « والتبس القوم التباس » و « واختلف القول » . انظر اللسان (٢٠ : ١٨٠) .

وكُونى بالمكارِمِ ذكِّرينى ودَلِّى دَلَّ ماجِدَةٍ صَنَاعِ[1]

وقال : أراد كونى تُذَكِّرينى ، فوضع ذكِّرينى موضع تذكِّرينى . ومرجِعُ هذا الذى قاله إلى مثل ما بَيَّنَّاه . وكما أنَّ خبر إنّ فيما بيّناه فكذلك جواب إذا ، فافْهَمْه . وما من قوله « ما القومُ » زائدةٌ . وأَنْجِيَةٌ : جَمْع نَجِيٍّ ، والنَّجِىُّ يقع للواحد والجمع . وفى القرآن : ﴿ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ . ومعنى كانوا أنجيةً ، أى صاروا فِرَقاً لِمَا حَزَبَهم من الشَّرّ ، ودهِمَهم من الخوف ، يتناجَوْن ويتشاوَرُون .

وقوله « واضطربَ القَوْمُ » أى أخَذَهُم القيامُ والقعود ، وفارقَهم القَرَارُ والهُدُوّ ، فأقبَلَ بعضُهم يمشى إلى بعضٍ ، متعاونينَ فى التهيُّؤ والارتحال ، ومتساعِدِين على التيسُّر للانتقال . فَشَبَّهَ مَيَلانَهم وتَرَجُّحَهم فى اختلافهم ، بترجُّح الأرشِيَة عند الاستقاء عليها من الآبار البعيدة القَعْر ، ومَيَلانِها .

وقولُه « وشُدَّ فوق بعضهم بالأرويهْ » ، يعنى أنَّهم رَكِبُوا الليل وداوَموا السَّير ، فَغَلَبَ النُّعاس على طائفةٍ منهم حتَّى خِيفَ عليهم السُّقُوط ، لضعف استمساكهم ، فشُدَّت الحِبالُ فوقَهُم . والأَرْوِية : جمع الرِّواء وهو الحبل الذى يُرْوَى به ، أى يُسْتَقَى . ومنه قيل الرَّاوية ، ويجوز أن يكون الاضطراب الذى ذكره لاتِّصال التَّسيار وغلبةِ النوم ، للإخْلال بالنُّزول والقرارِ أيضاً . وصَرْفُه إلى الأول أحسن .

وقولُه « هُنَاكِ أوْصِينِى » هُنَاكِ يُشَارُ به إلى الزَّمان والمكان معاً ، وموضِعُه نصْبٌ على الظَّرف ، والكاف منه كاف الخطاب ، والعامِل فيه أوصينى . والمعنى : فى ذلك الوقت يوجَد الغَناء والكِفايةُ عندى ، ويحصُل الصَّبرُ والمداومةُ منّى ،

(١) لرجل جاهلى من بنى نهشل . نوادر أبى زيد ٣٠ ، ٣٢ ، ٥٨ . وقبله :

ألا يا أم فارع لا تلومى على شىء رفعت به سماعى

فاجعلى وصَاتَكِ إلىَّ لا بى ، واعتمدى علىَّ لا على غيرى . وقال بعضُ القدماء : معنى كانوا أنْجِيَهْ ، يريد قوماً ناموا على رواحِلهم فرأوا فى منامهم كأنَّهم يتناجَوْن . والصواب عندى ما قدَّمته .

٢٢٠

وقال المُتَلَمِّسُ(١) :

١ ــ أَلَمْ تَرَ أَنَّ المَرْءَ رَهْنُ مَنِيَّةٍ صَرِيعٌ لِعَافِى الطَّيْرِ أَوْ سَوْفَ يُرْمَسُ

٢ ــ فَلَا تَقْبَلَنْ ضَيْماً مَخَافَةَ مِيتَةٍ وَمُوتَنْ بِهَا حُرًّا وَجِلْدُكَ أَمْلَسُ

قال هذا فيما كان بين ضُبَيْعةَ وبكْرِ بن وائل ، ومعنى ألَمْ تَرَ اعْلَمْ . يقولُ : الإنسانُ مُرْتَهَنٌ بأجَلِهِ ، فإمّا أن يموت حَتْفَ أنْفِهِ فيُدفَن ، وإما أن يُقتَل فى معركةٍ فيُترَكَ لعَوافِى السِّباع والطَّير . وجَعَلَ « رَهْنُ مَنِيَّةٍ » و « صَرِيعٌ لِعافِى الطَّيْر » جميعا خبَرَيْن لأنّ ، ثمَّ أتى بأوِ الإباحةِ . ويجوز أن ينتصبَ صريعٌ على الحال ، وفى رفْعِهِ وجْهٌ آخر ، وهو أن يكون خبر مبتدأ محذوف ، كأنه هو صَريعٌ . وإن جَعَلتَ أو التى تكون للشَّكّ يكون الـكلامُ مبنيًّا على اليقين ثم يَعترض فيه الشَّكّ . والأصلح فى مثل هذا أن يُجْعَل بإمّا ، ليكونَ بِنْيَةُ الـكلامِ على الشّكّ ، إذْ كانَ واحِدٌ من الأمرين لا يُتَيَقَّن .

وقولُه « فلا تَقْبَلَنْ ضَيْماً » يقول : ادْفَعْ عن نفسِكَ خُطَّةَ الضَّيْمِ والهَضِيمة ،

(١) التبريزى : « واسمه جرير بن عبد المسيح بن عبد الله بن زيد » . وهو من بنى ضبيعة ، وأخواله بنو يشكر ، وكان ينادم عمرو بن هند ملك الحيرة ، وهو الذى كتب له إلى عامل البحرين بيه طرفة بمثله ، ويروون أنه دفع صحيفته إلى غلام بالحيرة ليقرأه فنطق لما أريا به ، فألقى بها فى الحيرة ونجا بنفسه . والمتلمس من أشعر المقلين فى الجاهلية . انظر الأغانى (٢١ : ١٢٥ – ١٢٧) والخزانة (١ : ٣/٤٤٦ : ٧٣) والشعر والشعراء ١٣١ – ١٣٦ .

ولا تلتزم العَارَ والدَّنيّةَ ، إشفاقاً من المنِيَّة . وانْتَصَبَ « مخافةَ » على أنّه مفعولٌ له . وقولُه « وموتَنْ بها » ، الضمير من بها يرجع إلى المخافة ، أى مُتْ بتلك المخافة حُرًّا لم يَستعبدْك الخصْم ، ولم يَستوطِئك الظُّلم ، وجِلْدُكَ نقِيٌّ من العيبِ ، سليمٌ من العار والشَّيْنِ . ويُرْوَى « واحْيَنْ بها حُرًّا وجِلْدُكَ أملَسُ » والرواية الأولى أحْسَنُ ، ويكون «واحينْ» أمراً بالحياةِ وقد أدخل عليه النُّونَ الخفيفة . ومعنى يُرْمَسُ : يُدْفن . والرَّمْس : الدَّفْن . والرِّياح الروامس منه ، وتوسَّعُوا فى الدَّفن فقيل ارْمُسْ هذا الحديث ، كما يقال ادْفِن . وعافى الطَّيْر : ما يَعترِى منه . ويقال فلانٌ كثير العافية والعفاةِ ، ويُرادُ الزُّوَّار والمُجْتَدُونَ .

٣— فَمِنْ طَلَبِ الأوْتَارِ ما حَزّ أنْفَهُ قَصِيرٌ وخاضَ المَوْتَ بالسَّيفِ بَيْهَسُ

٤— نَعَامَةُ لَمَّا صَرَّعَ القَوْمُ رَهْطَهُ تَبَيَّنَ فى أثوابِهِ كيفَ يَلْبَسُ

قصيرٌ : صاحب جَذِيمة الأبرَش . وقصّة جذيمة وزبّاء الرُّوميةِ مشهورة . وإنَّ قصيراً تَوَصَّلَ بأنْ جَدَع أنفَ نفسِه ، إلى أن استَخْدَمَتْه زَبّاء ثمّ استخلصتْه حتى تمكّن فأدركَ ثأرَهُ منها . وَبيْهَسٌ هو الذى يلقبُ نَعامَةَ ، وهو رَجلٌ من بنى غُراب بن فَزارة ، وكان يُحَمَّق ، فقُتل له سبعةُ إخوة فجَعل يَلبَسُ القميصَ مكان السّراويل ، والسّراويلَ مكان القميص ، فإذا سُئِل عن ذلك قال :

الْبَسْ لِكلِّ عيشةٍ لَبُوسَها إمّا نعيمَها وإمّا بُوسَها[1]

فتوَصَّل بما صَوَّرَه من حاله عند الناس إلى أن طَلَب بدماء إخوتِه . وحديثُه مشهور أيضاً . وكلام المتلمّس بَعْثٌ وتحضيضٌ على دفع الضَّيْم ، وركوبِ الإباء من التزام العار ، فلذلك أخذ يذكُرُ بحال من استُضْعِف ، فلم يَزَلْ يحتالُ حتى أدرَكَ مَباغِيَهُ من أعدائه .

(١) يروى أيضاً : « لكل حالة » ، وهى رواية التبريزى .

وقوله : « ما حَزَّ أنفَهُ » ما زائدة . وارتفع « نَعَامَةُ » على أنه بَدَلٌ من قوله يَبْهَسُ . وموضع « كيفَ » نَصْبٌ على أنّه مفعول تَبَيَّنَ ، والعامِلُ فى كيفَ يَلْبَسُ تَبَيَّنَ . كأنَّه قال : تبيَّن فى أثوابه يَلْبَسُ أىَّ لِبْسَةٍ .

٥ — وما الناسُ إلا ما رأَوْا وتحدَّثوا وما العجْزُ إلا أن يُضَاموا فيَجْلِسُوا[1]

قوله « ما رأَوْا » ما مع الفعل فى تقدير مصدرٍ ، كأنّه قال : وما النّاس إلاّ رُؤيةٌ وتَحدُّث ، أى اعتبار بالمشاهدة أو بما يُرْوَى من أخبار الأممِ البائدة ؛ فهو كقولك : ما زيدٌ إلا أكْلٌ وشُرْب ، فيكون إمّا على حَذْف المضاف ، كأنَّه قال : ما زيدٌ إلا ذُو أكْلٍ وشُرْب ؛ وإما أن يكون لكثرتهما منه ، ووَلوعه بهما ، كأنَّه نَفْسُ الأكل والشُّرب . فيقول : ما الناس إلا ذَوُو الاعتبار بما يشاهدونَهُ أو يسمعونهُ من أخبار أسلافِهم ، فيتيقّنونَ بأنه لا بُدَّ من الفناء ، فلا ينبغي لأحد أن يحتمل ضَيْماً أو يصْبِر على مكروه ، وما العجزُ إلا أن يُظْلَمُوا ويُسَامُوا الخسفَ فيرضَوْا به ، وينطَوُوا عليه كاظمين وساكنين . ويجوز أن يريد بقوله « وما الناس » وما حَزْمُ الناس ، فحذف المضاف ، ويكون حينئذ ما رأوا فى موضع الظَّرف ، كأنه أراد : ما حَزْمُهم إلاّ مدَّةَ رؤيتهم وتحدُّثهم ، أى إذا اعتبَروا بالأمرين ، ويكون هذا فى باب الإخبار كقولهم : الهلالُ اللَّيلةَ ، على تقدير حدوثُ الهلال أو طُلُوعُه اللّيلةَ . ويكون الدّلالة على هذا الوجه أنه طابَقَهُ بقوله « وما العجز » .

٦ — أَلَمْ تَرَ أَنَّ الجوْنَ أَصْبَحَ راسِيًا تُطِيفُ به الأيّامُ ما يتأيَّس

الجوْنُ : حِصْنُ اليمامةِ ، ويُقال إنه من مصانِع طَسْمٍ وجَدِيسَ . فيقول : لا توعِدُونا فإنَّ حصنَنا حصينٌ لا يُوصَلُ إليه ، ولا يُستباح حِماه . ومعنَى « تُطِيف

(١) التبريزى : قال أبو هلال : الرواية الجيدة ما رواه أبو عمرو :
وما الناس إلا حل نفس على السرى وما العجز إلا نومة وتشمس

به الأيَّامُ » تُلِمُّ به الأحداث وتَنُوبه النَّوائب فلا يُطيعُ . وقولُه « لا يتأيَّس » أى لا يلين . وأنشد الأصمعىّ :

إنْ تَكُ جُلْمُودَ صَخْرٍ لا أُؤَيِّسُهُ أُوقِدْ عليـــه فأَحْمِيه فينصدعُ[١]

ومَوْضِـع « تُطيفُ به الأيّام » نصْبٌ إن شئتَ على الصفة ، وإن شئتَ على أنّهُ خَبَرٌ بَعْدَ خَبَرٍ . وموضع « ما يتأيَّس » نصبٌ على الحال ، والعـامل فيه تطيفُ .

٧ – عَصَى تُبَّعًا أزمانَأهْلَـكَتِ القُرَى يُطَانُ عليه بالصفيـحِ ويُكَلَسُ

يُرْوَى :

... أيّامَ أهْلَـكَتِ القُـــرَى يُطَانُ على صُمِّ الصفيح ويُـكَلَسُ[٢]

يقول : إنّ تُبَّعًا لـما غَزا القرى والمدنَ لم يصل اليمامة للحصن . وذِكْرُه العصيانَ كما قال غيرُه . « تمَرد مارِد وعَزَّ الأبْلَقُ[٣] » . وقوله « يُطَان عليـه بالصَّفيح » أى يُجْعَل بدل طِينِه فى الإصلاح والعمارة الـكِلْس بالحجارة . ويجوز أن يكون « بالصفيح » فى موضِـع الحال ، أى يُطانُ ويُكَلَسُ بصفائحِه ، أى وهو مبنىٌّ الحجارة .

٨ – هَلُمَّ إليها قد أُثِيرَتْ زُرُوعُها وعادَتْ عليها المَنجَنُونَ تَـكَدَّسُ

يُخاطِبُ النُّعمان . و « إليها » أى إلى اليمامة . وهذا الـكلام تهكُّمٌ وسخرية . يقول : إنْ قَدَرْتَ عليها فاقْصِـدْها فإنها أَخْصَبُ ما يكون ، مُزدَرَعُها مُثارٌ

(١) نسب فى اللسان (٥ : ١٣٣) إلى عباس بن مرداس . وهو فى المخصص (١٠ : ٩٥) بدون نسبة . وانظر مقاييس اللغة (أيس) .

(٢) التبريزى : « ويروى : يطان على مثل الصفيح » .

(٣) قائله الزباء نفسها ، وكانت قصدت ماردا – وهو حصن دومة الجندل ، والأبلق – وهو حصن للسموأل بن عاديا بأن تيماء ، فلم تقدر عليهما ، فقالت هذا القول ، فصار مثلا . مجمع الأمثال (١ : ١١٣) .

ودالِيَتُها تدور . ومعنى « تكدَّسُ » يركَبُ بعضُها بعضاً فى الدَّوَران . ويُستعملُ فى سَير الدَّوابِّ وغيرها . وقال ابن الأعرابىّ : التَّكَدُّس أن يُحرِّكَ مَنكِبيه إذا مَشَى . وقال الأصمعىّ . هى من مَشْى القِصار الغِلاظ . ويقال كَدَسَ به الأرضَ إذا ضَرَبَها به . وأُنشدت :

وخَيْلٍ تكَدَّسُ بالدارِعِيــــنَ نازَلْتَ بالسَّيفِ أبْطالَها(١)

وروى بعضهم : « قد أُبينَتْ زُروعها(١) » . والإبانة : الإنارة . وقوله « هَلُمَّ إليها » كما يقال أقبِلْ إليها . وقد مضى القولُ فى هَلُمَّ(١) .

٩ ـ وذاكَ أوانُ العِرْضِ حَىَّ ذُبابُهُ زَنابيرُهُ والأزرقُ المُتَلَمِّسُ

ويُروى « جُنَّ ذُبابُهُ » أى كثُر ونَشِط . والعِرضُ : وادٍ من أودية اليمامة ، فلكَ أن تَجُرَّهُ بإضافة الأوانِ إليه وهو مرفوعٌ ، ولكَ أن تَنصِبَ الأوانَ فترفَعَ العِرْض بالابتداء ، واسم الزمان يضاف إلى الجمل من الابتداء والخبر ، والفِعْل والفاعِل ، وكأنّه قال : وهذا الذى ذكرتُ هو فى هـذا الأوانِ . وقوله « حَىَّ ذُبابُهُ » أى عاشَ بالخِصْب فيه . و« زنابيرُه » يرتفع على أنه بَدَلٌ من الذُّباب . وذُبابُ الرَّوضِ قد تُسمَّى الزَّنابير . وقوله « والأزرق المتلمِّس » إشارة إلى جنسٍ آخرَ غيرِ الأوّل ، وهو ما كان أخضرَ ضَخمًا . والمتلمِّس : الطالب ، ويقال إنّه سُمِّىَ المتلمِّسَ بهذا البيت ، واسمه جرير بن عبد العُزّى(٤) .

١٠ ـ يكونُ نَذيرٌ مِن ورائىَ جُنَّةً ويَنْصُرُنى منهمْ جُلَىٌّ وأحْمَسُ

١١ ـ وجَمْعُ بنى قُرّانَ فاعرِضْ عَلَيْهِمُ فإنْ يَقْبَلوا هاتا التى نحنُ نُوبَسُ

---

(١) البيت للخنساء . ديوانها ص ٧٥ طبع ١٨٨٨ .

(١) اللسان : « هلموا إليه قد أبينت زروعه » .

(٣) انظر البيت الأول من الحماسية ٢١١ .

(٤) أو ابن عبد المسيح ، كما سبق فى ترجمته .

قوله « يكونُ نذيرٌ » قيل فيه هو نذير بن بُهْثَةَ بن وَهْب بن حَرْب . وقيل أراد بالنّذير المُنذِر . والمعنى : إنى أرْصُد لهم من يُنذِرُنى بهم فيخبرُنى بمجيئهم إذا همّوا به ، فأتّقِى وأستَجِنُّ وأتحرّزُ . وجُلَيٌّ وأحْمَسُ من ضُبَيْعة بن ربيعة بن نزَار يقول : وإذا جاء وقت التّجاذُب والتدافُع قام بنصرى هذان البَطْنانِ . وقوله « وجَمْعَ بنى قُرّانَ » النّصْب فيه على إضمار فعل ، كأنّه قال : سُمْ جَمْعَ بنى قُرّان ، ويكون الفعل الظاهر تفسير المضمر ؛ والرّفع على الابتداء . ومعنى البيت : أجْرُونا مجرى نُظرائنا فإنّا نَرْضَى بهم قُدْوةً ، واعرِضوا ما تَسُوموننا على بنى قُرّان ، فإنْ وجدتموهم يتلقّونه بالقَبول ، ويوطِّنون أنفسَهم عليه ، فلنا بهم أُسوةٌ ، وإلاّ فالامتناع منه واجبٌ . وقوله « هاتا التى نحنُ نُوبَسُ » أى هذه الخُطّة التى نُكْرَه عليها . والأَبْس : القَهر . وقال ابنُ الأعرابىّ : أبَسْتُ الرّجلَ ، إذ لقيتَه بما يَكره ؛ وأبَسْتُ منه ، إذا وضَعْتَ منه باستخفافٍ به وإهانةٍ له . وجواب الجزاء لم يجئْ بَعْدُ .

١٢ — فإنْ يُقْبِلُوا بالوُدِّ نُقْبِلْ بِمِثْلِهِ وإلّا فإنّا نحنُ آبَى وَأَشْمَسُ

١٣ — وإن يَكُ عَنّا فى حُبَيْبٍ تَثَاقُلٌ فَقَدْ كانَ مِنّا مِقْنَبٌ ما يُعَرِّسُ

قوله « فإن يُقْبِلُوا بالوُدّ » أعاد به الشَّرط ، وذلك أنّه قال فى البيت الذى قبله « فإن يَقْبَلُوا هاتا التى نحن نُوبَسُ » ، ولم يأتِ للشّرط بجوابٍ ، ثم قال « فإن يَقْبَلُوا بالوُدّ نُقْبِلْ بِمِثْلِهِ » ، فاكتفَى بجوابٍ واحد لاشتماله على ما يكون جوابًا لهما ، فكأنه قال : إن قَبِلُوا ما نُوبَسُ نَقْبَل مِثْلَه ، وإن أقْبَلُوا بعد ذلك وادِّينَ ووامِقِين أقبلنا بمِثْلِه ، وإلّا فنحن أشدُّ إباءً ، وأبلغُ شِماسًا ، وأحمَى أنفا وأعزُّ جانبا ، والشِّماس : الامتناع ، ومنه شِماسُ الدّابّة ، وهو أن لا يُمَكِّنَ من الإسراج والإلجام . وكانت بنو ضُبَيْعَةَ حلفاءَ لبنى ذُهْل بن ثعلبةَ بن عُكَابَةَ ،

فوقَعَ بينهم نزاعٌ ، فما تبهُم المُتلمِّسُ . وقوله « وإنْ يك منّا فى حُبَيْبٍ تثاقُلٌ » فإنّه أراد حُبَيِّب فخفَّف ، وهو حُبَيِّبُ بن كعب بن يشكر بن بكر بن وائل . يقول : إنْ تكاسَلَ بنو حُبَيِّب عن طلب دمائنا ، وتثاقلوا عن إدراك ثأرنا ، فقد كان منا من يدأبُ ويَسهرُ ، فَلا يَرَى(١) تعريسًا وتلوُّمًا وتعريجًا فى ذلك . والمِقْنَبُ : زُهاء ثلاثمائةٍ من الخَيل . والتعريس : نزولٌ فى آخر الليل .

٢٢١

وقال سَعْدُ بنُ ناشِبٍ(٢) :

١ــ تُفَنِّدُنى فيمَا تَرَى مِنْ شَرَاسَتِى   وشِدَّةِ نَفْسِى أمُّ سَعْدٍ وما تَدْرِى

٢ــ فَقُلْتُ لها إنّ الحَليمَ وإنْ حَلَا   لَيُلْفَى عَلَى حَالٍ أَمَرَّ من الصَّبْرِ(٣)

تُفَنِّدُنى أى تُجهِّلنى . والفَنَد : إنكارُ العَقْل من هَرَمٍ . يقال شَيخٌ مُفَنَّدٌ . وفى القرآن : ﴿ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴾ ، أى تجهِّلونى ، وفُسِّر على تُكذِّبونى أيضا . والشَّراسةُ : صُعوبةُ الخُلُقِ وخُشونة الجانب . فيقول : تُعَيِّبُنِي(٤) هذه المرأةُ على ما ترَى من عُسرِ الخُلُق وإباءِ النَّفسِ وفَظَاظَةِ القَلْب ، جاهلةً بأحوال الرِّجال ، والفَصْل بين أوقاتِ الجِدّ والهزل ، والشِّدَّة واللِّيان ، فأجَبتُها وقلتُ : إنّ الرَّجُل الحليم وإن لانَ عِطفُه وسَهُل خُلُقُه فقد يُوجَدُ فى وقتِ الغِلظة وعند حالةِ القسوةِ أمَرَّ مَرَارةً من الصَّبِر ، وأشدَّ صلابةً من الحَجَر . وقولُه « وما تَدْرِى » فى موضع الحال . وفى هذه الطريقة قولُ الآخر(٥) :

(١) م : « ترى » . والمعنى يتجه بكل منهما .
(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٠ ص ٦٧ .
(٣) التبريزى : « إن الكريم » . وقد أشير فى هامش الأصل إلى أنه كذلك فى نسخة .
(٤) م : « تفتنى » ، التيمورية : « تعتبنى » .
(٥) هو الشنفرى الأزدى . المفضليات (١ : ١١٠) .

وإنّى لَحُلْوٌ إنْ أُرِيدَتْ حَلاوَتِى وَمُرٌّ إذا نَفْسُ العَزُوفِ اقشعرّتِ

٣— وفى اللِّينِ ضَعْفٌ والشَّراسةُ هَيْبَةٌ وَمَنْ لا يُهَبْ يُحْمَلْ على مَرْكَبٍ وَعْرِ

الواو من قولِهِ « والشَّرَاسَةُ » عاطفةٌ لجُمْلةٍ على جُمْلةٍ ، ولا يجوز أن يُجَرَّ الشَراسةُ على أن يكون معطوفًا على فى اللِّين ، لما فيهِ من العطف على عامِلَين بحرْفٍ واحدٍ[1] . ومعنى البيت أنَّ من استُلِين جانبُه فى كلِّ حالٍ استُضْعِفَ واهتُضِم ، ومن استُخْشِنَ خُلُقه هِيبَ وتُحُومِى .

٤— وَمَا بِى عَلَى مَنْ لانَ لِى من فَظَاظَةٍ ولكنّنى فَظٌّ أَبِيٌّ على القَسْرِ

فى هذه الطَّريقة قول الآخر[2] :

أبِيٌّ لما آبَى سريعٌ مَبَاءَتِى إلى كُلِّ نَفْسٍ تَنْتَحِى فى مَسَرَّتِى

يقولُ : أَضعُ كلَّ واحدٍ من الفظاظة والسُّهولة ، والشَّراسة والسَّلاسةِ ، فى موضِعه ، وأستعمِلُه مع من يستحقُّه ، فمن جَرَى معى وانقاد لى لِنْتُ له ، وقابَلْتُهُ بمثل فِعْلِهِ ، ومَن تأبَّى علىَّ وطَلَبَ منِّى متابَعَتَه والجَرْىَ مع هَواه أَبَيْتُ عليه ، وخالَفْتُهُ فيما يبتغيه . والقَسْر : القَهر على الكُرْه ، ويقال قَسَرْتُه واقْتَسَرْتُه ، ومنه قيل للأَسد قَسْوَرَةٌ .

٥— أُقِيمُ صَغَا ذِى المَيْلِ حَتّى أردَّهُ وأَخْطِمُهُ حتَّى يَعُودَ إلى القَدْرِ

٦— فإنْ تَعْذُلِينِى تَعْذُلِى بى مُرَزّأً كَرِيمَ نَثَا الإعْسَارِ مُشْتَرَكَ اليُسْرِ

---

(١) أى العطف على معمولى عاملين بحرف واحد . والمسألة خلافية . قالوا : إذا لم يكن أحد العاملين حرف جر فإنه لا يجيز العطف نحوى إلا الأخفش ، وإذا كان أحدهما حرف جر مؤخراً نحو زيد فى الدار والحجرة عمرو ، أو وعمرو الحجرة فإنه لا يجيز العطف إلا الأخفش أيضاً . وإن كان حرف جر مقدماً ، كما فى نص هذا البيت فإن المنع مذهب سيبويه ، وبه قال المبرد وابن السراج وهشام ، وقد أجاز الأخفش هذا العطف ، وبه قال الكسائى والفراء والزجاج . انظر آخر باب العطف عند الأشمونى .

(٢) هو الشنفرى الأزدى . المفضليات (١ : ١١٠) .

قولُه « أقيمُ صَغَا ذِى المَيْل » ، تبجّحَ فيه بأنه عارفٌ بأسرار الرِّجال ، لطيفُ التَوَصُّل إلى إنزالهم مَنازلَهم ، بصيرٌ بمداواة أدوائهم ، لا يَترُكُهم سُدًى ، ولا يُخَلِّيهم أهمالا . والصَّغَا : المَيْل والاعوجاج ، يقال صَغَا فؤاده يَصْغَى ويَصْغو ، أى مالَ . وصِغْوُكَ مع فلانٍ ، أى مَيْلُك . يقول : مَن مالَ عَنَّا فإنى أقوِّم اعوجاجَه بما يُحوِج إليه من قولٍ وفعلٍ ، حتَّى أرُدَّه إلى ما أريدُه ، فإن تبيَّنْتُ فيه تعدِّيًا لِطَوره ، وذهابًا عن حَقِّه وحَدِّه ، زَمَمْتُه بزمامِ مثلِه حتَّى يَرْجعَ إلى مَرْتبته وقَدْره . وقولُه « فإن تَعذُلِينى » يصِفُ نَفسَهُ بأنّه سَمْحٌ معطاء ، لا يُكَفُّ عن البَذْل ، ولا يُرَدُّ عن الإعطاء والجود ، على تلوُّن الزَّمان به ، وتَغَيُّرِ الأحْوالِ عليه . والمُرَزَّأ : المُصابُ فى مَالِهِ كثيراً . وقولُه « تَعذُلِى بى مُرَزَّأً » ، أى رجلاً مرزَّأً ، وذلك الرّجلُ هُوَ هو كما يقال : لقيتُ بزيدٍ الأسدَ[1] . والثَّنا : الخبَر ، ويُستعمل فى الخير والشَّرّ ، والثناء لا يستعمل إلاَّ فى الخير ، يقول : إن تُمتِنِى على ما هو دأْبِى من الإفضال ، تُمتِ بى رجلا لا يفكِّرُ فى عُقَب الدَّهْرِ ، وكُروره بالغِنَى والفقْر ، فإن نَابَهُ العُسرُ حَسُنَ بلاؤه وكَرُمتْ أخبارُه فيه ، وإن نالَه اليُسْر أشرَكَ الأقاربَ والأجانبَ فى نَفْعه ، فعَمَّتْ فواضلُهُ لديهم .

وقد أكثر الشُّعراء فى هذا المعنى . فمن ذلك قَوْلُ الشَّمَرْدَل :

وَصُولٌ إذا اسْتَغْنَى وإن كان مُقْتِرًا ... من المالِ لم تُحْفِ الصَّديقَ مسائِلُهْ

وقولُ المَرّار :

إذا افتقَرَ المَرّارُ لم يُرَ فَقْــرُهُ ... وإن أيسَرَ المَرّارُ أيسر صاحِبُهْ

وأحسَنُ من الجميع قول الآخَر :

إذا افْتَقَرُوا عَضُّوا على الفَقْرِ حِسْبَةً ... وإنْ أيْسَرُوا عَادُوا سِرَاعًا إلى الفَقْرِ

(١) وهذا ما يسميه البلاغيون « التجريد » .

٧ — إِذَا هَمَّ أَلْقَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ عَزْمَهُ وصَمَّمَ تَصْمِيمَ السُّرَيْجِيِّ ذِى الأَثْرِ

يذْكُر من نفسه الصَّرَامةَ والنَّفَاذ ، وفَصْلَ الأمور ، والصَّبر على ممارَسَة الخطوب . يقول : إذا عَزَمَ على الأمر كان جميعَ الرأى ، يجعلُ الهمومَ به نَصْبَ عَيْنَيه ، حتّى يَخرُجَ منه ، ونَفَذَ نَفَاذ السَّيف الخذِم لا يتوقَّف فى الضَّريبة ، ولا يَكْهَم . والسُّرَيْجِيُّ : منسوبٌ ، ويجوز أن يكونَ وُصِف بذلك لكثرة مائه ورونقه ، حتّى كأنَّ فيه سراجاً ؛ ومنه قيل : سَرَّجَ الله أمْرَك ، أى حَسَّنه ونَوَّرَه . والتَّصميم : المُضِيُّ فى الأمر ، ويقال صَمَّمَ فى عَضَّته ، إذا نَيَّبَ . قال :

فأطْرَقَ إطْرَاقَ الشُّجاع ولو يَرَى مَسَاغاً لنابَيْهِ الشُّجَاعُ لصَمَّما(١)

والأَثْر : الفِرِنْدُ والماء ، ويقال أُثْرٌ بالضمّ .

٢٢٢

وقال أيضاً :

١ — لا تُوعِدَنَّا يا بِلَالُ فإنَّنَا وإنْ نَحْنُ لم نَشْقُقْ عَصَا الدِّينِ أحْرَارُ

يُخاطب بهذا الكلام بِلَالاً الخارجيّ ، ويعيِّره خروجَه من طاعة السُّلطان وشَقَّه عَصَا الإسلام ، فيقول : اتْرُكْ توعُّدَنا فإنّا وإن لم نُفرِّق الجماعةَ تفريقَك ، ولم نُخالِف المسلمين مخالَفَتَك فإنّ فينا كَرَماً وإباءً يحميانا من الانهضام ، ويحرِّم علينا الصَّبرَ على المَذَلّة والعار ، فلا طريق لك إلى تَمَلُّكِنَا والتحكُّم فينا . وقال الخليلُ قولُهم شَقَّ عَصَا المسلمين ، العَصَا : الاجتماع والائتلاف . والأَجْوَدُ عِندى أن يكونَ مَثَلاً كما يُقَالُ للرَّفيق الحَسَنِ السِّياسة : هو لَيِّنُ العَصَا ، وفى ضِدِّه :

(١) للمتلمس فى ديوانه ٢ نسخة الشنقيطى . ويروى : « لناباه » شاهداً على إلزام الألف . شرح الأشمونى (١ : ٧٩) .

هو صُلْبُ العَصا ، وكقولهم : قَشَرْتُ له العصا ، إذا أبَنْتَ له ما فى نفسك ، وكما قيل : « عصا الجبان أطْوَل » . وقال بعضهم[1] يصف الخوارج :

رَجَوْا بالشِّقاق الأكلَ خَضْماً فقَدْ رَضُوا أخيراً من أكل الخَضْمِ أن يأكلوا قَضْما

فأتى بالشِّقاق وأصلُه من شقِّ العصا .

٢ — وإنّ لنا إمّا خَشِيناكَ مَذْهَبًا إلى حَيْثُ لا نَخْشاكَ والدَّهْرُ أطْوارُ

يَتَوَعَّدُه بأنّه إن أعياهُ مُقارَّتُهُ ولم يَفِ[2] بمدافعتِه ، فارَقَ أرضَهُ وتَرَبَّصَ به ما لا يُؤمَن من تغير الزمان ، وتحوُّل الأحوال ، لأنّ فى سَعةِ الأرض مَذهبًا له ، وفى التباعُد عنه راحةً تُؤْمِنه . وقد أومأ بقوله « والدَّهْرُ أطوارُ » إلى تصاريف الزمان ، وتلوُّنه بالخير تارةً وبالشرِّ أُخْرَى . ويقال الناسُ أطوارٌ ، أى أخيافٌ على حالاتٍ شتَّى . وفى القرآن : ﴿ وقد خَلَقَكُم أطْوارًا ﴾ . وقوله « إلى حيث لا نخشاك » أجرى حيث مجرَى الأسماء ، وجعَل لا نخشاك من تمامه ، وحذف الضمير منه تخفيفاً ، كأنّه قال إلى حيث لا نخشاك فيه ، أى إلى مكانِ الأَمْنِ منك . ويروى « فإنّ لنا عنكم مَزَاحًا ومَذهَبًا » . والمَزَاحُ : المَبْعَدُ ، يقال : زاحَ عَنِّى .

٣ — فلا تَحْمِلَنَّا بَعْدَ سَمْعٍ وطاعةٍ على غايةٍ فيها الشِّقاقُ أوِ العَارُ

يقول : لا تُلْجِئْنا بعد انقيادِنا لك فى كثير من الأمور ، ودخولنا تحت هَوَاكَ ، وتَلَقِّينا بالسَّمْع والطاعةِ أمْرَكَ ، إلى غايةٍ تُضَيِّقُ نِطاقَ صَبْرِنا ، وتُعَجِّزُ طاقتَنا وجُهْدَنا ، فتُفْضِى بنا الحالُ إلى أحد شيئين ، إمّا مُشاقَّتِك ومجاهَدَتِك ، وركوبِ كلِّ صعبٍ وذَلُولٍ فى الخروج عنك وعليك ، وإمّا الرِّضا بالدَّنيّة

(١) هو أيمن بن خريم الأسدى ، يذكر أهل العراق حين ظهر عبد الملك بن مروان على مصعب بن الزبير . اللسان (خضم ، قضم) . والرواية فى اللسان : « القضما » .
(٢) م : « ولم يقف » .

والدُّخولِ تحت العار والهضيمة ، فلا حظّ لنا ولك فى واحدةٍ منهما . وقد مَضَى القولُ فى الشِّقاقِ وأصلِه . ويقالُ هو يُشاقُّهم خِلافاً وعِناداً .

٤ — فإنّا إذا ما الحَرْبُ أَلْقَت قِناعَها   بِها حِينَ يَجْفُـوها بَنُوها لَأَبرَارُ

قوله « إذا » ظرفٌ لخبر إنّ ، وهو أبرارُ . وكذلك قوله « حين يجفُوها » ، والتقدير : إنّا لأبرارٌ بالحربِ إذا ألقَت قِناعَها وجفَاها أبناؤها . وقوله « ألقَت قِناعَها » مَثَلٌ . يريد : إذا اشتدَّت فتكشَّفَت ، وزالت المساتَرَة بين أولادِها فتبرَّجت ، فى أقبح زِيِّها وأفظع صورتها . وتشبيه الحربِ فى ابتدائها بالفَتِيَّةِ المُخَدَّرَةِ وتَسَتُّرِها ، وعند تفاقُمِها بالعجوز واطِّراحها لقناعِها ، مشهور فى عاداتِهِم وطرائقهم . وبِرُّ أبنائها بها : صبْرُهم على حَرِّها ، وتهييجهم لنارِها . وجفاؤهم بها أن يكونوا على الضِّدّ من ذلك .

٥ — ولَسْنَا بِمُحْتَلِّينَ دَارَ هَضِيمَةٍ   مَخَافَةَ مَوْتٍ إنْ بِنَا نَبَتِ الدّارُ

هذا خِلافُ قول الآخَر :

إذا ارتحلوا عن دَارِ ضَيْمٍ تَعَاذَلُوا   عَلَيْهَا وردُّوا وَفْدَهم يَسْتَقِيلُها[1]

وانتصب « مَخَافة » على أنّه مفعولٌ له ، والهَضِيمة والمَضِيمةُ واحد .

٢٢٣

وقالَ قُرَادُ بن عَبَّادٍ[2] :

١ — إذَا المَرْءُ لم يَغْضَبْ لهُ حِينَ يَغْضَبُ   فَوَارِسُ إنْ قِيلَ ارْكَبُوا المَوْتَ يَرْكَبُوا[3]

(١) لعميرة بن جعل . المفضلية ٦٣ . وأنشده الجاحظ فى البيان (٢ : ٣٤٧) .

(٢) التبريزى : قال أبو هلال : هكذا فى الأصل ، وهو خطأ ، وإنما هو قراد بن العيار بن محرز بن خالد بن أرقم بن قسيم بن ناشرة بن سيار بن رزام ، وأبوه العيار أحد شياطين العرب » . ويؤيد ما قال أبو هلال أن الآمدى فى المؤتلف ١٥٩ ذكر أباه « العيار » ثم قال : « وكان ابنه قراد بن العيار شاعراً منكراً شريراً بذىء اللسان ، وعمر دهراً طويلا ، وهلك فى ولاية محمد بن سليمان الأولى وقد بلغ من السن أكثر من مائة سنة » . وانظر معجم المرزبانى ٣٢٨ .

(٣) الآمدى : « معاشر » بدل « فوارس » .

٢ – ولم يَحْبُهُ بالنَّصْرِ قَوْمٌ أعِزَّةٌ مَقَاحِيمُ فى الأمر الذى يُتَهَيَّبُ
٣ – تَهَضَّمَهُ أدْنَى العَـدُوِّ ولم يَزَلْ وإن كان عِضًّا بالظُّلامَةِ يُضْرَبُ

يُخْبِر بأنّ عِزّ الرجلِ بعشيرته ، واعتلاءَهُ بذويه وأقاربه ، فإذا لم يتعصَّبْ له فُرسانٌ يَسخَطُون لسُخطِهِ ويمتَعِضُون من دُخول الضَّيْم عليه ، فيركَبُونَ حَدَّ الموْت فى هواه ، ويقتحمون الشَّدائد فى نُصرتِه ، تَجاسَرَ عليه أضعفُ أعدائه ، وأدْنَى مُخالفيه ، وإن كان فى نَفْسه منكراً دَاهِيَةً لا يُطاقُ ، ولم يَزلْ مَضروباً بالظُّلْمِ والهضيمة ، مقهوراً بالإزراء والمَضِيمةِ ، وإن كان لا يُؤتى من حَدٍّ ومضاء . والعِضُّ : السيِّئ الخُلُق ، والمُنْـكَرُ الشَّديد اللِّسان . ويقالُ هو عِضُّ مالٍ وعِضُّ سَفَرٍ وقِتَال ، إذا كان حَسَنَ الغَنـاء فى جميعها . وجوابُ « إذا المرء » قولُه « تَهَضَّمَهُ » ، وهو العامِلُ فيـه . والمقاحِيم : جمع المِقحام ، وهو الذى يَخُوضُ قُحْمَةَ الشىء ، أى معْظَمَه . ومعنى تَهَضَّمَه كَسَرَهُ وأذَلَّه . والحِباء : عطاء بِلا مَنٍّ ولا جزاء . ويقالُ : حَبَاهُ الله بكذا ، وحباهُ كذا أيضاً . وخبرُ لم يَزَلْ « يُضْرَبُ » ، وفى الجملة جوابُ « وإن كان عِضًّا » .

٤ – فَآخِ لِحالِ السِّلْمِ مَنْ شئتَ واعْلَمَنْ بأنّ سِوَى مَوْلاكَ فى الحَرْبِ أجْنَبُ
٥ – ومَوْلاكَ مَوْلاكَ الذى إنْ دَعَوْتَهُ أجابَكَ طَوْعاً والدِّماءُ تَصَبَّبُ
٦ – فلا تَخْذُلِ المَوْلَى وإن كان ظَالِماً فإنّ بِهِ تُثْأَى الأمُورُ وتُرْأَبُ

يحثُّه على استصلاح [بنى[1]] الأعمام ، وينبـه على أنَّهم المعتَمَدون فى الشَّدائد ، فيقول : وَالِ لِأيّام السلامة وأحوال المُوَادَعةِ والمُسالَمَة من شِئت ، وإن لم يَجْمَعْك وإيّاه نَسبٌ ولا سَبَبٌ ، عالِماً بأنَّه لا يَصلُح للحرب ومجاذَبة الأعداء إلّا قريبٌ ، وأنّ من سِوَاهُ فيها غَرِيب . وقولُه « ومولاك مولاك »

(١) التكملة من م والتيمورية .

تلاقَى به تحقيقَ ما قدّمهُ، وتأكيدَ ما أطلقه، ونَفَى عنه تَسلُّطَ المجاز والاتّساع. فيقول: مولاكَ فى الحقيقة هو ابن عَمِّك الذى إن استغَثْتَ به أبْعَدَ ما كان منك أغاثكَ عن حُنُوٍّ وشفقة، وإن دَعوتَهُ والـكَلْمُ يَقْطُر وحبلُ الألفةِ يَنقطع، أجابَكَ لا بتصنُّعٍ وتعمُّلٍ، فأمّا من وَلاؤه بالاسم دون المعنى، أو يكون مداجيًا لك يُجامِلُك بالغِشّ وينطوى لك على الضِّغْنِ، يخذلُك أحْوجَ ما كنتَ إليه، ويَبْعُدُ عنك أقربَ ما كُنْتَ فيه، فلا معتَمَدَ عليه، ولا استنامةَ إليه. وانتصب « طَوْعًا » لأنّه مصدرٌ فى موضع الحال. ومثل هذا قولُ الآخر:

أَخُوكَ الذى إنْ تَدْعُهُ لِمُلِمَّةٍ ... يُجِبْكَ وإنْ تَغْضَبْ إلى السَّيْفِ يَغْضَبِ

وقوله « ولا تَخذُلِ المَوْلى وإن كان ظالما » يجوز أن يكون المعنى: لا تَخْذُلْه وإن كان ظالِمًا لك، ويجوز أن يكونَ على منهاجِ ما جاء فى الخبر: « انْصُرْ أخاكَ ظالمًا أو مَظْلُومًا ». يقول: طالِبْ نفسَكَ لمولاكَ بمثْلِ ما تُطالِبُ به مولاكَ لنفسك، وَانصُرْهُ على كل حال.

وفى مثل طريقة البيتين الأوّلَين من هذه المقطوعة قولُ الآخَر[1]:

ومَنْ لا يَكُنْ ذا ناصِرٍ يَوْمَ حَقِّهِ ... يُغَلَّبْ عليــه ذو النَّصِيرِ ويُضْهَدِ
وفى كثرة الأيدى لِذِى الظُّلْمِ زاجِرٌ ... إذا خَطَرَتْ أيْدى الرِّجال بمشهدِ

ومعنى « به تُنْأَى الأمور وتُرْأَبُ » يريد بالمولى تُصْلَحُ الأمور وتُفسَدُ. ويقال: رأَبْتُ الثَّأى، كما يقال رَفَعْتُ الخَرْق.

(١) هو عدى بن زيد العبادى. حماسة البحترى ١٥٤.

٢٢٤

وقال زاهرٌ أبو كِرامٍ التَّيْمِيُّ(١) :

١ — للهِ تَيْمٌ أيُّ رُمْحِ طِرَادِ لاقَى الحِمَامُ به وتَصْلِ جِلادِ

قوله « لله تَيْمٌ » ، تيمٌ : رجلٌ من بنى يَشْكر ، بارزَ أبا كِرَامٍ فقتَلَه ، وكان أحدَ الفُرسان ، فأخذ أبو كِرَامٍ يُقيم أمرَه ويعظِّم شأنه ، لأنّ ثناءه عليه وإكبارَه لمكانه راجعٌ إليه ، إذ صار قَتِيلَه . واللام من « للهِ تَيْمٌ » دخلَت للتخصيص ، والتعجُّبُ دخَلَ فى الكلام أيضاً بقوله « أيُّ رُمْحِ طِراد » . وعلى هذا قولُهم : للهِ دَرُّه . وهذا التخصيص باللام يجرى مجرى الإضافة فى قولِهم : بَيْتُ اللهِ ، وكعبةُ الله ، وإن كانت الأشياء كلُّها لله . وقوله « أيُّ رُمْحِ طِرادِ لاقَى الحِمَامَ به » الضميرُ فى به لتَيْمٍ ، والمعنى : لاقَى الموتَ بتَيْمٍ أىُّ رُمْحِ مُطارَدَةٍ ، وأىُّ نَصْلِ مُجالدةٍ ، كأنّه كان رُمحًا ونَصلا ، ومِحَشَّ حربٍ . ويجوز أن يكون المراد : لاقى الموتَ به أىُّ سلاحٍ وعُدّة ، وأىُّ مقاتلٍ وبطل . ولك أن ترفع « الحِمام » ، والمعنى : لاقى الموتُ بتيم أىَّ رمح وأىَّ رامح ، وأىَّ سيفٍ وأىَّ سائف . ودلَّ على صاحب السيف والرُّمح قوله « ومِحَشِّ حربٍ » فى البيت الثانى .

٢ — ومِحَشِّ حَرْبٍ مُقْدِمٍ مُتعرِّضٍ للمَوْتِ غيرِ مُعَرِّدٍ حَيَّـادِ

يقالُ : حَشَشْتُ النارَ ، إذا جمعتَ الحطَبَ إليها وهيَّجْتَها . كأنّه جعله آلةً فى حَشِّ نار الحرب ، لأنّ المِفْعَل والمِفْعال للآلات . والتَّعريدُ : تَرْكُ القَصدِ وسرعةُ الانهزام . والحَيّادُ : الذى يَحيدُ عن موضع القتال كثيرًا . يريدُ أنّه

(١) أبو كرام ، كذا ضبط فى النسخ بكسر الكاف وتخفيف الراء . و « التيمى » نسبة إلى تيم . وعند التبريزى « أبو كَدّام التيمى » ، ثم قال : « ويروى : كِدَام » .

يُقدِم ولا يُحجِم . وانعطف « ومِحَشّ حربٍ » على « ونَصْلٍ جلاَّدِ » .

٣ – كاللَّيْثِ لا يَثْنِيهِ عن إقْدَامِهِ خَوْفُ الرَّدَى وقَعاقِعُ الإيعادِ

٤ – مَذِلٌ بمُهْجَتِهِ إذا ما كَذَّبَتْ خَوْفَ المَنِيَّةِ نَجْدَةُ الأنْجَادِ

يقول : هو فى بأسِهِ وإقدامِهِ ، مِثْلُ اللَّيث لا يَصرفه عن الوجهِ الذى يَؤُمُّهُ ، والأمرِ الذى يَهِمُّهُ ، ما يستشعِرُه الجَبَانُ من خوفِ الموت ، وقعقعة الوعيد . والقعقعةُ : صوتُ الجِلْدِ اليابس والبَكْرَةِ ؛ وتوسَّعُوا فيه فقالوا : هالَ فلاناً قعقعةُ الوعيدِ . وقالوا : تقعقعَتْ مَفاصِلُه أيضاً .

وقولُه : «مَذِلٌ بمهجته» كأنّه يطُولُ تعرُّضُه للشّدائد ، ويدومُ ابتذالُه لما يَجِبُ صَونُه من كرائم النَّفس ، فِعْلَ مَن ضَجِرَ بمهجتِهِ فاستقتل ، واستطابَ الموتَ فتَعَجَّلَ . ويقال : مَذِلَ بسرِّه ، إذا باح به . والمُهْجَةُ : خالِصَةُ النَّفس ، ومنه الأُمْهُجَانُ فى اللَّبَن[1] . وانتصَبَ « خَوْفَ المَنيَّةِ » على أنّه مفعول له ، وإذا ما كَذَّبَتْ نَجْدَةُ الأنْجَادِ ، ظرفٌ لقوله مَذِل ، والمعنى : إذا خَانت شِدَّةُ الأشِدّاء ، ولم تَفِ بما تَعِدُ شجاعَةُ الشُّجْعَان ، لاستفحال الشّأن ، فإنَّ هذا الرّجلَ كان يمذُلُ بمهجته ، فكأنَّهُ يميلُ إلى انقطاع العُمر . والأنجادُ : جمع النَّجِد . والنَّجْدَةُ : البأْسُ . ويقال : هو صادِقُ البأس ، كما قيل كاذب البأس .

٥ – سَاقَيْتُهُ كأسَ الرَّدَى بأسِنَّةٍ ذُلُقٍ مُؤَلَّلَةِ الشِّفَارِ حِدَادِ

٦ – فَطَعَنْتُهُ والخَيْلُ فى رَهَجِ الوَغَى نَجْلاءَ تَنْضَحُ مثلَ لَوْنِ الجادِى

أخذ يقتصُّ كيف قتَل تَيماً . والمُسَاقاة تكون من اثنين ، ولذلك قال :

(١) يقال . لبن أمهجان ، إذا سكنت رغوته وخلص ولم يخثر .

« بأسِنَّةٍ ذُلُقٍ » فجمع ، وإنَّما كان سِنانانِ من رُمحَين . ويجوز أن يكونَ جَمَعَ لأنَّه أراد الزُّجَّ والسِّنانَ من كلٍّ واحدٍ منهما . والذُّلُق : المُحَدَّدة . وذَلْقُ كل شيء : حَدُّهُ ، ومنه قيل ذَليقُ اللِّسانِ . والمُؤلَّلَةُ أيضا : المحدَّدة . والشِّفارُ ، أصلُه أن يستعمل فى السِّكِّين العريض . وكما جَعَلَ هذا الشَّفرةَ للرُّمح جعلهُ غيرُه للسَّيف فقال :

ويَرْكَبُ حَدَّ السَّيْفِ من أن تَضيمَهُ إذا لم يَكُنْ عن شَفْرَةِ السَّيْفِ مَزْحَلُ[1]

وقوله « فَطَعَنتهُ والخَيْلُ » الواو واو الحال ، والرَّهَجُ : الغبارُ . وقوله : « نجلاء » أراد طَعَنْتُهُ طَعنةً نَجْلاء أى واسعة ، تَنْضَحُ أى تَرُشُّ . والنَّضْحُ بالحاء غير معجمة يستعمل فيما رَقَّ ، وبالخاء معجمةً فيما غَلُظَ . وقولُه « مثلَ لونِ الجادِى » يَعنِى به دمًا ، أى لَوْنُهُ مثلُ لونِ الزَّعفران .

٧ — فكأنما كانَتْ يَدِى مِنْ حَتْفِهِ لما انْثَنَيْتُ لَهُ على مِيعَادِ

٨ — فهَوَى وجَائشُهَا يَفُورُ بمُزْبِدٍ من جَوْفِهِ مُتَدَارِكِ الإِزْبَادِ[2]

قوله « فكأنما كانت يدى من حَتفِهِ » يريدُ أنه سقط لأوّلِ طعنةٍ ، فكانت نفسُه فيها ، لأنها كانت جائفةً نافذةً إلى المقتل ، فكأنَّ بين حَيْنِهِ وبين يدِى لَمَّا أَمْلَتُها للطَّعن مَوْعِدَةً أُنجِزَت ، وخطفةً اخْتُطِفَت . وقولُه « فهَوَى وجائشُها يَفُور » يريدُ : سَقَطَ وما يَجِيشُ من نَجيعِهِ يَسيلُ وقد عَلاه الزَّبَدُ لكثرته وقوّته ، فهو يَفورُ ولا يَرْقَأُ ولا يهدأ . ومعنَى «متدارِك الإِزْبادِ» أى متتابِعهِ ، أى إزْبادُه لا ينقطِعُ .

(١) البيت لمعن بن أوس . ديوانه ٣٧ ليبسك وأمالى القالى (٣ : ٢١٩) .

(٢) التبريزى : « متتابع الإزباد » .

٢٢٥

وقال عَمْرُو القَنَا[١] :

١ ـ القائلِينَ إذا هُمْ بالقَنَا خَرَجُوا مِنْ غَمْرَةِ المَوْتِ فى حَوْماتِهَا عُودُوا

الحَوْماتُ : جمع حومَةٍ ، وهى فى الأصْل أكثر موضِعٍ فى البَحر ماء ، وكذلك فى الحوض ، فاستعارها لشدّة الحرب . وإنّما يَصِفُ حِرصِهُم على القِتال ، وأنّه لَا يلحقُهُم السآمَةُ فيه والمَلال ، فمتى خرجُوا من غَمْرةِ مَنِيَّةٍ ، وحَومةٍ كريهة ، مطاردِينَ الأعداءِ ، دَعَتْهُم أنفُسُهم إلى أن يتنادَوْا : عُودُوا ، فلا شِفاءَ نِلْنَا ، ولا بَوَاءَ من الأعداءِ أصَبْنَا . وقولُه « بالقَنَا خَرَجُوا » أى خَرَجوا ومعهم القَنا. وعُودُوا فى مَوْضِعِ المفعول من القائلين ، وهو حكايةُ ما قالوا .

٢ ـ عَادُوا فعَادُوا كِرَامًا لاتنَابِلَةٌ عنـد اللِّقاء ولا رُعْشٌ رَعَادِيدُ

قوله « لا تنابِلَةٌ عند اللِّقاء » مثلُه قول الهُذَلى[٢] :

قد ظَلَتُ فيها مَعِى شُعْثٌ كأنهمُ إذا يُشَبُّ سَعِيرُ الحرب أرمَاحُ

يَقُولُ : عادوا لاتفاق آرائِهم واجتماع كَلماتِهِم ، وهم كِرامُ للموافقةِ ، شِدادُ المُناصبةِ ، لايتضاءلون عند اللِّقاء ، ولا يتقاصرُون فى جَهدِ البلاء ، ولا يرتَعِشُونَ فى الدِّفاع ، ولا يتخاضعون أوانَ الامتناع . والتنابلةُ : جمع التِّنبالِ ، وهو القصيرُ . والرّعاديد : جمع رِعدِيدٍ ، وهو الذى لا يتماسكُ جُبْنًا وضَعفَ قلب .

٣ ـ لاقَوْمَ أكْرَمُ منهم يَوْمَ قالَ لَهُمْ مُحَرِّضُ المَوْتِ عن أحْسَابِكُمْ ذُودُوا

---

(١) فى هامش التيمورية : « وهو أحد الفوارس الخوارج مع قطرى » . وانظر خبر حربه مع المهلب وابنه حبيب فى تاريخ الطبرى ، فى حوادث سنة ٦٥ . وهو غير عمرو القنا الجاهلى الذى ذكره لقيط بن يعمر فى قوله :

كمالك بن قنان أو كصاحبه عمرو القنا يوم لاقى الحارثين معا

(٢) هو أبو ذؤيب . ديوان الهذليين (١ : ٥٠) .

دخل تحتَ قولِه « أَكْرَمُ مِنهُمْ » كلُّ خصلةٍ محمودةٍ ، لأنّه إذا تناهى كَرَمُهم إذا دَعا الدَّاعِي وقتَ التحريض : أنِ ادفَعُوا عن أحسابِكُم ، فقد حصَّلُوا كُلَّ مَنقَبةٍ شريفة ، وطَلَعُوا على كلِّ ثَنِيَّةٍ من ثَنايا المجدِ مُنيفة ، وا كتَسَبُوا من الأُحدوثَةِ الجميلة بما يَظهرُ من بَلائِهم ما يَقْصُرُ عنهُ كلُّ أُكرومةٍ نبيهةٍ .

٢٢٦

وقال الفَرَزدَق[١] :

١ — إنْ تُنْصِفُونَا يَالَ مَرْوَانَ نَقْتَرِبْ إلَيْكُمْ وإلّا فأْذَنُوا ببِعَـــادِ

يقولُ : إنْ حملتُمونا[٢] فى مجاورتِنا لَكُم على السَّوَاء ، وتركتُم[٣] البَغْىَ عَلَيْنَا والعَلاء ، اختلطنا بكم ، وطلبنا موافقتَكُمْ ، وإلا فاعلمُوا أنَّ البِعادَ منكم هَمُّنا وهِمَّتُنا ؛ لأنّه إذا لم يكن لنا صَبْرٌ على الاهتضام ، ولا طريقٌ إلى الانتقام ، فلا ثالثَ لهما إلَّا الانتقال . ويقال أذِنْتُ بكذا ، إذا عَلِمتَ به فاستعددتَ له ؛ وآذَنَنِي فُلانٌ ؛ ومنه الأَذان بالصلاة ، والفِعل منه أَذَّنَ .

٢ — فإنَّ لنَا عَنكُمْ مَزَاحًا مَذْهَبًا بِعِيسٍ إلى رِيحِ الفَلَاةِ صَوَادِ[٤]

قولُه « مَزَاحًا » هو من زَاحَ يَزِيحُ ، إذا ذَهبَ ؛ ومنه أَزَحْتُ العِلّةَ . والكلامُ خارجٌ على أنَّه تفسيرُ البِعادِ الذى ذَكره وبَيَانُهُ . يقولُ : إن سُمتُمُونا خَسْفًا ، وأذقتُمُونا فى وِلايتِكُمْ عَسْفًا ، فإنّ لنا عنكم فى الأرضِ مَبْعَدًا ومُنتأى ،

(١) شهرة الفرزدق تغنى عن ترجمته . ولا يكاد مرجع من مراجع التراجم الأدبية يخلو منها . وذكر ياقوت فى معجم البلدان (٣ : ٣٠٤) أن الأبيات للبرج بن خنزير التميمى وكان الحجاج قد ألزمه البعث إلى المهلب لقتال الأزارقة ، فهرب منه إلى الشام . وذكر المبرد فى الكامل ٢٩٠ أن الأبيات لمالك بن الريب المازنى ، قالها حين هرب من الحجاج .

(٢) فى الأصل : « إن حكمتمونا » ، صوابه فى م والتيمورية .

(٣) فى الأصل : « وتركتمونا » ، صوابه فى م والتمورية .

(٤) رواية ياقوت : « مزاحا ومزحلا » .

بإبلٍ بيضٍ كِرامٍ ، أَلِفَتِ المفاوزَ ، فهى للتَّلكُّؤ(١) عنها نوازِعُ دونها ، عَوَاطِشُ إلى ريحها . والصَّوَادِى : جمع صادِيَةٍ ؛ والصَّدَى : العَطَش .

٣— مُخَيسَةٍ بُزْلٍ تَخَايَلُ فى البُرَى   سَوَارٍ على طُولِ الفَلَاةِ غَوَادِ

التَّخْيِيس : حَبْس الإبل على الكدِّ والعَمَل ؛ ومنه قول النابغة :

* وخَيِّسِ الجِنَّ إنّى قد أَذِنْتُ لَهُمْ(٢) *

أى احبِسْهُم واستعمِلْهُم ، وإنَّما وَصَفَ العِيسَ لِيُرِىَ أنَّهُ متمكِّنٌ من مُرادِه فى التَّباعُدِ ، مستظْهِرٌ فى العُدَّةِ للسَّفَر إنِ اضْطُرَّ إليه . وجعَلَها بُزْلاً لتكونَ متناهيةً فى القُوَّةِ . وقوله « تَخَايَلُ فى البُرَى » أى تختال فى سَيرِها وهى مُبْرَاةٌ تُطِيقُ وَصْلَ السَّيْر بالسُّرَى ، على امتداد الشُّقَّةِ وطول الوِجهةِ . وقوله « فى البُرَى » فى موضع النَّصب على الحال .

٤— وفى الأرْضِ عن ذى الجَوْرِ مَنْأًى ومَذهبٌ   وكلُّ بلادٍ أُوطِنَتْ كبِلادى

أظهر فى الكلام طِيبَ نَفْسه على السَّفر ، وسُلوَّه عن بلدِه وموطنِه ، فقال : فى الأرض الواسعة مُتَنزَحٌ ومتوجَّه عن الجائرين ، وكلُّ مكانٍ اتخذته(٣) وطناً كان كمَسْقَطِ رأسى ، ومقرِّ نَشْئِى ، إذ لا قَرابةَ بين الدِّيار وسكّانها ولا مُشاكَلَة ، وإنما يُختارُ منها ما كان إلى السلامةِ أقرب ، وللعِزِّ أجلَب ، ومن المهانةِ والذُّلِّ أبعد .

٥— وماذا عسَى الحَجَّاجُ يَبْلُغُ جَهْدَهُ   إذا نحنُ خَلَّفْنا حَفِيرَ زِيادِ(٤)

كان شَكْوُه من الحجّاج بن يوسف ، وتأذِّيه بسوء معاملتِه ، فأخذ يستهينُ

---

(١) م والتيمورية : « للتأخر » .

(٢) عجزه : * يبنون تدمر بالصفاح والعمد *

(٣) هذا ما فى م والتيمورية . وفى الأصل : « أعدته » .

(٤) جهده ، بالنصب فى الأصل ، وبالرفع فى م والتيمورية والتبريزى .

به . يقولُ : إذا خرجْتُ من مَلَكَته ، وفارقْتُ أرَضِي(١) مملكته ، وتباعدتُ عن حَومةِ سُلطانِه ، ودارِ أمرِه ونَهْيِه ، وخَلّفتُ ورائى حَفيرَ زياد بن أبيه ، الذى هو حَدُّ عَمَلِه ، فماذا تَراهُ يَقْدِر عليه منِّى ، أو يستطيعُ اختيارَه من إيذائى وقَصْدى . وعسى من أفعال المقاربة ، والفِعْلُ بعده يَصْحبه أنْ فى الكلام . وفى القرآن : ﴿ وعسَى أنْ تَكرَهُوا شيئاً وهو خيرٌ لكم وعسَى أنْ تُحِبُّوا شيئاً وهو شرٌّ لكم ﴾ . إلا أنه فى الشِّعر قد يشبه تكادُ ، وهو نظيرُه فى أنه من أفعال المقاربةِ ، فيُنزَعُ منه أَنْ ، لأنّ الفِعْلَ بعد كاد يكون بغيرِ أَنْ . ومثْله فى ذلك قول الآخر :

* عَسَى اللهُ يُغْنِى عن تِلادِ ابن قادرِ *

ويَعْنِى بحفيرِ زيادٍ نَهرًا كان احتفَرَهُ زياد .

٦ — فبِاُسْتِ أبى الحجّاجِ واُستِ عَجُوزِهِ عُتَيِّدَ بَهْمٍ تَرْتَعِى بِوِهادِ

قوله « بِاُسْتِ أبى الحجّاج » قال أبو زيد : القَصْدُ بمثل هذا القول أن يبيِّنَ أنه يتجاسَرُ على ذِكر السَّوْءةِ منه . والباء من قوله « بِاُسْتِ » متعلقةٌ بمُضمَرٍ ، كأنه لَحِقَ باستِ والِدِيه كلُّ خِزْيةٍ وعارٍ ، ومَنقَصةٍ وشَنار . وقولُه « عُتَيِّدَ بَهْمٍ » انتصبَ على الشَّتْمِ والاختصاص ، والعامِلُ فيه فعل مضمرٌ ، كأنه قال : أعْنِى وأذْكُرُ . وجَعْلُه بهذا الاسم أشهرُ وأعرَفُ منه بالعَلَمِ له ، والاسم الذى سُمِّيَ به . وهذا هو الغَرَض فى كلِّ ما يُنْصَبُ على المدح أو الذّمّ ، ولذلك كان أبلَغَ من الصفات التابعةِ لموصوفِها فى المعنى ، إذ كانت الصِّفة تجىء لشرح الاسم وإزالة اللَّبْسِ عنه ، وبابُ المَدْح والذّمّ يجىء للتنويه والرّفع

---

(١) أرضى جمع أرض مضافا إلى ما بعده ، وأصله أرضون . وهـذا ما فى الأصل والتيمورية . وفى م : « أرض » .

أو التَّهجين والحَطّ . والعُتَيِّد : تصغير عَتُود ، وهو ما رَعَى وقَوِىَ من أولادِ الغَنَم . والبَهْم : صغارُ أولادِ الغنم . وقولُه « تَرْتَعِى » موضِعُه جرٌّ على أنه صفةٌ لقولهِ بَهْم . والوِهاد : ضِدُّ النِّجَاد . والمعنى : أنّه فى القِلةِ والخِسّة رئيسُ أشباهٍ له هذا صِفَتُهُم فيما يَنالونه من دُنْياهُم ، فهو فيهم كعَتُودٍ من بَهْمٍ ذلك صفتُها .

٧ – فلولا بنو مَرْوَانَ كانَ ابنُ يوسُفٍ كما كانَ عَبْدًا من عَبِيدِ إيَادِ[1]

يقولُ : لولا تقدُّم الحجّاج ببنى مروان ، واستعمالُهم إيّاه ، وجَذْبُهُم بِضَبْعِه ورَفْعُهُم خَسِيسَتَه ، وإبطاؤهم الناسَ عَقِبَهُ لـكان حديثًا كما كان قديمًا ذليلاً مَهِينًا حقيرًا ، قَمِيًّا بين أمثالٍ له من إيَادٍ .

٢٢٧

وقال آخر :

١ – قد عَلِمَ المسْتَأْخِرُونَ فى الوَهَلْ
٢ – إذا السُّيُوف عُرِّيَتْ من الخِلَلْ
٣ – أنَّ الفِرارَ لا يَزِيدُ فى الأَجَلْ

يقال استأخَرَ بمعنى تأخّر ، كما يقال استقدَمَ بمعنى تقدَّم . والوَهَل : الفَزَع .

(١) روى بعده التبريزى :

زَمانَ هو العبـــدُ المقِرُّ بذلّةٍ يُراوِحُ صِبْيانَ القُرَى ويُغادِى

وقال فى تفسيره : « قال ذلك لأن الحجاج كان معلما بالطائف . وفى ذلك يقول الشاعر :

أينسى كليب زمان الهزال وتعليمه سورة الكوثر
رغيف له فلكة ما ترى وآخر كالقمر الأزهر »

ثم قال : « وكان الحجاج فى صغره يسمى كليباً » .

والخِلَلُ : بَطائن جُفونِ السَّيف ، والواحدة خِلّة ، والمراد بها هاهنا الجُفون . وقوله « أنّ الفِرار » سَدَّ مسدَّ مفعولَىْ عَلِمَ . يقولُ : بانَ وظهر للّذين يتأخّرون عن الدِّفاع ، ويتحامَوْنَ المِصَاع ، مستشعرين أنّ الإحجام يَقِيهم[1] ويُبْقِيهم ، وظانّينَ أنّ الفِرارَ من الزُّحُوف إذا انتُضِيَتِ السيوفُ يزيد فى أعمارهم — أنّ الحَذَر لا يُغْنى من القَدَر ، وأنّ الهرَب لا يزيدُ فى الأَجَل . وهذا كلامُ مَن ابتَذَلَ نفْسَه فَسَلِمَ وصار يُعَيِّرُ من كان بخلافِه .

٢٢٨

وقال شِبْلٌ الفَزارىُّ[2]

وحارَبَهُ بنو أخيهِ فقَتَلَهُم

١ — أيا لَهْفِى عَلَى مَنْ كُنْتُ أدْعُو فيَكْفِينِى وساعِدُهُ الشَّديدُ[3]

يَتَندّم على ما أُجْرِى إليه وجرّهُ القدرُ فيهم وفيه ، ويتذمّمُ من نكايتِه فى ذويه ويتحزّنُ على ما فاتهُ من تَلافيه ، ويتلهّفُ من فِقدانِه إيّاهم على فاقَتِه إليهم ، فقال : يا حَسْرتاهُ على مَن كانَ مَفْزَعِى فى النَّوائب ، ومُعْتَمَدِى فى الشّدائد ، أستنصِرُهم فينصرونَنِى ، وأستكفيهم فتحْصُلُ منهم كفايتى ، والقُوّةُ لهم وبهم ، والنُّصْرَةُ مجتَلَبَةٌ من جهتهم . وقولُه « وساعِدُهُ » الواو واو الحال ، أى يَكْفِينِى بقُوّةٍ وشِدّةِ بأس .

٢ — وما عَنْ ذِلَّةٍ غُلِبُوا ، ولكنْ كَذاكَ الأُسْدُ تَفْرِسُها الأُسُودُ

بَيّنَ أنّهم لم يُؤْتَوْا مِن ضَعفٍ ، ولم يَنكَبُوا عن وَهْن ، ولكنّ الأشدّاء إذا

(١) فى الأصل : « يغنيهم » ، صوابه فى م والتيمورية .
(٢) كذا فى جميع النسخ . وعند التبريزى : « شبيل » بالتصغير .
(٣) التبريزى : « بساعده . أى يكفينى الشديد بساعده » .

تلاقَوْا متدافِعِينَ ومتجاذبين ، فلا بُدَّ من حُصُولِ الغَلَبِ فى أحَدِ جانبَيهم ، واحتجانِ القَهرِ لأقرب طائفتيهم . على ذلك الأسودُ تَـكْسِرُها الأسُود . وقوله : « كذاكَ الأُسْدُ » الأُسْدُ مرتفع بالابتداء ، وتَفرِسُها الأسود فى موضع الخبر ، وكذاكَ فى موضع الحال ، والتقدير : ولـكنّ الأُسْدَ تَفرِسُهَا الأُسدُ كذلك ، أى أمثالاً لمَنْ قَتَلَتْ ، ويجوز أن يكون أشار بذلك إلى الغَلبِ ، لأنَّ غُلِبُوا يَدُلّ عليه ، ويجوز أن يكون ذلك خبراً مقدَّماً للأُسد ، وتَفرِسُها فى موضعِ الحال . والتقدير : ولـكن كأمثالهم الأُسدُ إذا فرسَتْها الأُسد ، ومثل هذا قول الآخر :

قَوْمُنَا بَعْضُهُمْ يُقَتِّلُ بَعْضًا لا يَفُلُّ الحديدَ إلاّ الحديدُ

ومن الأمثال : « النَّبع يَقْرَعُ بعضُه بعضاً » .

٣ — فَلَوْلَا أنَّهمْ سَبَقَتْ إليهمْ سوابِقُ نَبْلِنَا وهُمُ بَعيدُ

٤ — لَحَاسَوْنا حِيَاضَ المَوْتِ حَتَّى تطايَرَ من جوانِبِنا شَرِيدُ

هذا الـكلام اعترافٌ منه بقُوَّتِهِم وغَنَائِهِم فى الحرب واستقلالِهِم ، فيقول : لولا أنَّا رَشَقناهُم بالنَّبلِ على بُعدِهِم عنا ، وقَبلَ تمـكنهم منّا ، لـكان الإتيَانُ عليهم متعذِّرًا ، والفَرَاغُ من مُنَاوشتهم متصعِّبًا ، لمـا فيهم من الثَّباتِ فى الدِّفاعِ والصَّبرِ على الوِقَاعِ ، ولأنَّهم كانوا يُساقُوننا المَوتَ من حِياضِهِ إلى أن يتفرَّقَ عنا ، ويذهبَ مِن جوانبنا كلُّ مختلِطٍ بنَا ، يَأساً منَّا ، ونفوراً من حالنا ، لمـا يستشنِعُه من جَهْدِ بلائنا ، ويُبْشِمُهُ من عَسَرِ لِزامِنا ، لـكنّهم شُغِلوا بما دَهَمَهُم من ذلك . وقولُه « وهُمُ بعيد » بعيدٌ مِثْلُ الصَّدِيقِ والرَّسول ، فى أنه يَقَعُ للواحدِ والجمع . وقولُه « شرِيدُ » يُرادُ به الـكَثْرة ، وإنْ كان لفظُهُ واحداً . وقوله : « لَحَاسَوْنَا حِياضَ الموتِ » فيه توسُّعٌ ، لأنَّ المَعْنَى ما فى الحِيَاضِ .

٢٢٩

وقال قَطَرِىُّ بن الفُجَاءة[١] :

١ — ألا أيُّها البَاغِى البِرَازَ تَقَرَّبَنْ أُسَاقِكَ بالمَوْتِ الذُّعَافَ المُقَشَّبَا

يخاطِبُ من طَلَبَ مبارزتَهُ . ومعنى « تَقَرَّبَنْ » أقبِلْ وهَلُمَّ . وقوله أساقِكَ بالموت الذُّعافَ » يجوز أن يكون معناه أسَاقِكَ بسبب الموتِ ، ويجوز أن يكون على القَلْب أراد أساقِكَ الموتَ بالذُّعَافِ ، والمعنى بأن أفعَلَ بك ما يَقوم مَقامَ سَقْىِ الذُّعاف . ويَدُلُّ على هذا الوَجْه قوله فيما بَعْد : « فَمَا فى تساقِى المَوْتِ فى الحرْبِ سُبَّةٌ » . والذُّعَاف : سَمٌّ ساعةٍ ، ويقال طعامٌ مَذْعُوفٌ . ومَوْتٌ ذُعافٌ أى وَحِىٌّ . والمُقَشَّبُ : الذى قد خُلِط به أدوِيَةٌ تُقَوِّيه وتهيِّجه . وأصل القَشْب : الخلْط ، حتّى قيل رَجُلٌ مُقَشَّبٌ ، أى مخلوط الحسَب باللُّؤم .

٢ — فما فى تَسَاقِى المَوْتِ فى الحَرْبِ سُبَّةٌ على شَارِبِيهِ فاسْقِنى منه واشْرَبَا[٢]

التَّساقى : أن يَسقِىَ بعضُهم بعضًا ، ولا يصحّ الأمرُ منه لواحِدٍ ، ولا يَتعدَّى إليه . ومن هذا الوجه خالَفَ تفاعَلَ ، وإن لم يَكُنْ فعلُهما إلاَّ من اثنين فصاعدًا . ألا تَرَى أنّكَ تقولُ يا زَيدُ ضارِبْ عَمْرًا ، ولا تقول تَضَارَبْهُ . والمرادُ بالكلام إظهار طِيب النَّفْس بالموت ، والتَّسَلِّى عن الحياةِ ، وأنّه لا يَدخلُ العارُ على من شَرِبَ كأسَ الرَّدَى ، ولا مَنْقَصَةَ على مُتَنَازِعِيها[٣] ، فهاتِها وخُذْها .

---

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٢٠ ص ١٣٦ . وقد ضبط فى النسخ هنا بسكون الطاء والصواب فتحها كما سبق .

(٢) التيمورية : « على ساقييه » وفى هامشها إشارة إلى الرواية الأخرى .

(٣) كذا فى م والتيمورية ، وفى الأصل : « منازعيها » .

٢٣٠

وقال دَرّاجٌ حين طُعِن :

١ – شُدِّى عَلَىَّ العَصْبَ أُمَّ كَهْمَسْ
٢ – ولا تَهُـلْكِ أَذْرُعٌ وأَرْؤُسْ
٣ – مُقَطَّمـاتٌ ورِقَابٌ خُنَّسْ
٤ – فإنَّما نحن غَـدَاةَ الأَنْحُسْ
٥ – هِيمٌ بِهِيمٍ طُلِيَتْ تَمَرَّسْ

يقوِّى قلبَها على أَسْوِ جراحِه ، وإحكام شدِّ عصائبِه ، ويقولُ : لايَهُولَنَّكِ ما تَرَيْنَ من أذرُعٍ مُفصَّلةٍ ، وأرؤُسٍ مقطَّمةٍ ، ورقابٍ مُقَصَّرَةٍ ، فإن المَوْتَ يأتى لحِينِهِ وأوانِهِ ، وقدْرِهِ وميقاتِه ، ولا يقرِّبُهُ شِدَّةُ الجِلادِ ، ولا فَظَاعَةُ الجِراحِ ، واعلَمِى أنَّ الذى أدَّانا إلى ما تشاهدينَهُ تَنَاهِى العداواتِ والضَّغائن ، وانطواء الصدور على الحزَازَات والسَّخَائم ، وأنَّ كُلًّا منّا كان يَكظِمُ غيظَهُ ، ويكتُمُ حِقدَهُ ، انتظارًا لِعُقَبِ الأيَّام ، وفُرَصِ الإمهـال ، فلمّا جَمَعَنا القَدَرُ لغداةِ الأَنحُس ، كُنَّا كإبِلٍ جَرْبى طُلِيَتْ بالهِنَاءِ لاقتْ مِثْلَها فتحاكَّتْ متلذِّذةً ، وتدافعت متشفِّية . الهِيمُ : الإبلُ العِطاش ، وإذا كانت جَرْبَى قد عَطِشَتْ وطُلِيَتْ كان حُمَّاهَا أزْيَدَ ، وكَرْبُها أفظَعَ ، وتحـكُّـكُها أشدّ . والخُنَّس : جمع خانس ، كشاهدٍ وشُهَّدٍ . والخُنوس : الانقباض والانخفاض . والباء من قوله « بِهِيمٍ » يَتعَلَّقُ بتَمَرَّس ، وتَمَرَّس صِفَةُ الهِيم الأوَّل ، وطُلِيت صفةٌ للثّانى .

٢٣١

وقال الأَرَقَطُ بن دِعْبِلٍ(١) بن كلبٍ العنبرىُّ :

١ — إِنّى ونَجْمًا يَوْمَ أَبْرَقِ مَازِنٍ عَلَى كَثْرَةِ الأَيْدِى لَمُؤْتسيانِ(٢)

لَقِيَ هذا الرَّجلُ وابنُه قومًا لُصُوصًا فقاتَلاهم وظفِرا بهم ، فأخذ يقتصُّ الحال . ونَجْمٌ : اسمُ ابنِه . يقول : إنّى وابنى نَجْمًا فى يومِ الالتقاء مع المتلصّصة بأبْرَقِ مازِنٍ — والأَبْرَق مكانٌ فيه حجارةٌ سُودٌ وبيضُ ، ومنه جَبَلٌ أَبْرَقُ ، إذا كان طاقاتُه ذاتَ لونَيْنِ سَوادٍ وبَياضٍ — على كثرتِهم وقِلّتنا ، لمؤتَسِيَان ، أى يُوَاسِي كلٌّ منا صاحبَهُ على أمرِه ، ويساعِدُه على مِراسِهِ . وقوله « على كثرة الأيدى » فى موضع الحال .

٢ — يَلُوذُ أَمَامِي لَوْذَةً بِلَبَانِهِ وتُرْهِبُ عَنَّا نَبْعَةٌ ويَمَانِ

الضمير فى قوله يَلُوذُ لنَجْمٍ ابنْهِ ، والباء فى بلبانِهِ يتعلّق بيلوذُ ، ولا يجوز أن يتعلّق بقولِه لَوْذَةً ، لأن الفعل والمصدر إذا اجتمعا فالفعل بالعَمَل أولَى . والهاء ضمير الفَرَس ، ولم يَجْرِ ذِكْرُه ، ولكن المرادَ مفهومٌ ، وكان الأرقَطُ فارسًا على ما يدُلُّ الكلامُ عليه ، والابنُ راجِلًا . وكان لياذُه من حَرِّ الوِقاع فى الوقت بَعدَ الوقتِ بأبيه ، على عادة مُزاوِلِى الحروب فى تَسانُد الرَّجّالة إلى الفُرسان ، ثم قال « وتُرْهِبُ عَنَّا نَبْعَةٌ ويَمَانٍ » تنبيها على عُدَّتِهما واستظهارِهما بسلاحِهما . ويَعنِى بالنَّبْعةِ قَوسا .

٣ — ونَغْشَى فَنَغْشَى ثُمَّ نُرْمَى فَنَرْتَمِى وَنَضْرِبُ ضَرْبًا ليس فيه تَوَانِ

يقول : نَحْمِلُ عليهم فيحملون علينا ، ثم يَرْمُونَنا من بَعْدُ فنرميهم . كأنّهم

---

(١) كذا فى جميع النسخ . وعند التبريزى : « رعبل » .

(٢) أنشده ياقوت هذا البيت فى (أبرق مازن) مسبوقا بقوله : « وقال الأرقط » .

طارَدُوا أوّلاً ثم ناضَلوا وأخَّرُوا الجِلَاد . فقال : ونَضْرِبُ ضَرْبًا لا فتُورَ فيه ولا تقصير ، وهذا كما قال الآخر[1] :

* عَنَّا طِعَانٌ وضَرْبٌ غَيْرُ تَذْبِيبِ[2] *

فالتَّذْبِيبُ المنفِيُّ كالتَّوَانى .

٢٣٢

وقال وَدّاكُ بن نُمَيْلٍ المازِنى[3] :

١ — نَفْسِى فِدَاءٌ لبنى مازِنٍ من شُمُسٍ فى الحَرْبِ أَبطالِ

يقول : أَفْدِى من كلِّ سوءٍ بنفسى بنى مازِنٍ ، من فُرسانٍ يَنفِرون من الضَّيْم ، ويَشْمُسون إذا التَقَوْا مع الأعداء فى الحرب ، شِماسًا لا يُحَصِّلُهُم[4] على طَمَعٍ مُتِيح ، ولا يؤدِّيهم إلى يَأْسٍ مُرِيح ، بل يتردّدون فى الجِذاب ، فلا يزالون معهم على مِرَاسٍ إتعابٍ لا يَنقطع ، ولِزامِ شَرٍّ لا يُقْلِع ، وهكذا يكونُ شُمُوس الخيْل فى الإباء والانقياد . وقال لَقِيطٌ[5] فبيَّنَ المعنى وأوْضَحَه :

جَرَّتْ لِمَا بَيْنَنا حَبْلَ الشَّمُوسِ فلا يَأْسًا مُبِينًا نَرَى منها ولا طَمَعَا

وفى طريقة بيت وَدّاكٍ قولُ عبد الرحمن بن حَسّان :

وإنِّىَ من قومٍ كِرَامٍ يَزِيدُهم شِمَاسًا وصَبْرًا شِدَّةُ الحَدَثانِ

---

(١) هو سلامة بن جندل . المفضليات (١ : ١٢٠) .

(٢) صدره : * همت معد بنا هما فنهنها *

(٣) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٧ ص ١٢٧ . وكذا تكررت « نميل » هنا بالنون . وانظر ما سبق . وعند التبريزى : « ثميل » بالثاء .

(٤) هذا ضبط م . وضبط فى الأصل : « يحصلهم » بفتح الحاء وتشديد الصاد ، وكلاهما مما لم يرد فى المعاجم .

(٥) لقيط بن يعمر الإيادى . وقصيدته أول مختارات ابن الشجرى .

٢ — هِيمٌ إلى الموْتِ إذا خُيِّروا ... بَيْنَ تِبَـــاعاتٍ وتَقيالِ

الهِيمُ : العِطاش ، والتِّباعةُ والتَّبِعَةُ بمعنًى . يقول : إذا خُيِّرَ بنو مازنٍ فيما يزاوِلُونه بين الصـبر على القِتال وبين الرِّضا فيما يَلحَقُهم معه تَبِعَاتُ العارِ ، وُجِدُوا يُؤثِرُونَ فَوْتَ الرُّوح على الْتِزَام الهَضْم ، إيثارَ العطشانِ للماء .

٣ — حَمَوْا حِمَـاهُمْ وسَمَا بَيْتُهُمْ ... في باذِخاتِ الشَّرَفِ العـالى

يقول : مَنَعوا حِمَاهُم ممن يُرِيدُ دُخولَه ، ويرومُ إباحَتَهُ ، فَسَلِمَ على مَرِّ الأيّام ، وصار بيتُهم من يَفَاعِ الشرف العالى فى أعلى مَنزِلةٍ ، فلا يَرْتَقِى إليه هِمَّةُ حاسد ، ولا ينالُه أُمنِيَّةُ مُنازِعٍ . والباذِخ : الجَبَـل الطويل ؛ ومنه البَذَخ الـكِبْر .

٢٣٣

وقال سَوّارٌ[١] :

١ — أجَنُوبُ إنَّكِ لو رأيْتِ فَوَارِسى ... بالسِّيفِ حِينَ تبادَرَ الأشرارُ

٢ — سَعَةَ الطَّرِيقِ مَخَافَةَ أن يُؤسَرُوا ... والخَيْـــلُ يَتْبَعُهُمْ وهُمْ فُرّارُ

هذا الـكلام تلهُّف وتحسُّر ، وإخبار بحُسْنِ بَلائِهِ وبلاءِ فُرسانِه فيما مُنُوا به وتَحمُّدٌ . فيقول : لو شاهَدْتِ فُرسانى يا جَنُوبُ بالسِّيف — وهو شاطئ البَحْرِ — حين تَسابق شِرَارُ الرِّجال وجُبناؤهم إلى مُتَّسَع الطريق ، خارجينَ من مَنافِذِ المَضِيقِ ، خوفاً من الإسارِ ، هائمين على وجوهِهم ، والخيْلُ فى طَلَبِهم وهم يستغيثون بى عند احمِرارِ البَاسِ ، واشتدادِ المِرَاس ، على عادتِهم مَعِى فى الـكرائِه ، لرأيْتِ أمراً مُنْـكَراً . حَذَفَ جواب الأمر ، وإبهامُ الحال فى مثل

(١) سبقت ترجمة سوار بن المضرب فى الحماسية ١٨ ص ١٣٠ .

هذا الكلام أبلغُ من بيانها، وقد مضى القولُ فى مثله، فيما تقدَّم. وسَعَةَ الطريق: مفعولُ تَبادَرَ، ومَخافةَ انتصبَ على أنه مفعولٌ له، وأنْ يُؤسَرُوا مفعولٌ من لَلمَخافةِ.

٣ — يَدْعُونَ سَوَّارًا إذا احْمَرَّ القَنَا ولِكُلِّ يَوْمِ كَرِيهَةٍ سَوَّار

احمرارُ القَنا إنّما يكونُ من الدَّمِ السّائلِ عليه، لِكثرةِ الطَّعْنِ. وقد قيلَ: موتٌ أحْمَرُ، ومَنِيَّةٌ حمراء، يُرادُ الشِّدَّةُ، حَتَّى قِيلَ سَنَةٌ حمراء، وقالوا: «الحُسْنُ أحْمَرُ» أى يُتَجَشَّمُ فى طَلَبِ الجمالِ الشَّدائدُ. وقوله «ولِكُلِّ يَوْمِ كريهةٍ سَوَّارُ» أراد أن يُبَيِّنَ أنَّ ذلك دَأْبُهم عند الكريهةِ فى دُعائى ودأْبى فى الإجابةِ، وأنّه لم يَكُنْ بِدْعًا منهمْ ومِنِّى ولا نُكْرا.

٢٣٤

وقالَ أبُو حَزَابَةَ[١] [التَّمِيمِىُّ]:

١ — مَنْ كَانَ أحْجَمَ أوخَامَتْ حَقيقَتُه عِنْدَ الحِفَاظِ فلمْ يُقْدِمْ على القُحَمِ

٢ — فعقبةُ بْنُ زُهَيْرٍ يوْمَ نَازَلَهُ جَمْعٌ مِنَ التُّرْكِ لمْ يُحْجِمْ ولمْ يَخِمِ

هذا الكلام يجرى مجرى التعريض لما يَشْتمل عليه من التعيير. وقوله «فَعُقْبَةُ» مبتدا وخَبَرُهُ لم يُحْجِمْ. فيقول: من كان كَفَّ فى اللِّقاء عن الإقدام وقتَ الحاجة، وأعْفَى نفسَهُ من الاقتحام أوانَ المحافظة، راضيًا بالقُصُور والتقصير، والانخزال والفتور، أوْ سقطتْ هِمَّتُه، وتَخَتَّرَت حقيقَتُه[٢]، فلم تَبْعَثْهُ أنَفَةٌ، ولم

(١) اسمه الوليد بن حنيفة، وأحد بنى ربيعة بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم. شاعر من شعراء الدولة الأموية بدوى، حضر وسكن البصرة ثم اكتتب فى الديوان، وضرب عليه البعث إلى سجستان فكان بها مدة، وعاد إلى البصرة، وخرج مع ابن الأشعث لما خرج على عبد الملك، قال أبو الفرج: وأظنه قتل معه. الأغانى (١٩ : ١٥٢) التبريزى: «وقال أخو حزابة، أو ابن حزابة». والتكملة بعده من التيمورية.

(٢) التختر: التفتر والاسترخاء. فى الأصل: «وتحيرت»، صوابه فى م والتيمورية.

يهيِّجْه امتعاضٌ وأَبيَـةٌ، فعقبَةُ بن زهير يومَ مُنازَلَتِه للأتراك لم يتوقَّف فى المُدافَعة، ولم يتلبَّثْ فيها دون أبْعَـدِ الغايَةِ. والإحجَامُ: ضِدُّ الإقدام. وقد مَضَى القَوْلُ فى موضوعِه. وحقيقةُ الرَّجُل: ما يَحِقُّ عليه الدَّفعُ عنه من ذَوِيه وحَسَبه، كما أنَّ حقيقةَ الأمر ما يُتَيَقَّنُ من وُجُوبِه. واستعارةُ النَّوم فيها حَسَنٌ، فهو كما يُقال نامَ الثَّوبُ إذا أَخْلَق. وقُحَمُ الأمور والطُّرُق: ما صَعُبَ منها. وقوله «لم يَخِمْ» يقال خام عن قِرْنِه، إذا نَـكَلَ ونَـكَصَ على عَقِبه. ويقالُ أيضا: خَامَ فى مكيدَتِهِ يَخِيمُ، إذا لم يَظفرْ فيها بخَير. وقولُه «فعُقْبَةُ» جَوَابُ من كان أحْجَمَ.

٣ ــ مُشَمِّرٌ للمَنَايَا عَنْ شَوَاهُ إذا ما الْوَغْدُ أَسْبَلَ ثَوْبَيْـهِ على القَدَمِ

يقول: كَشَفَ فى المُجاهَدةِ عن ساقِه، وتَشَمَّرَ للبَلاء عند سِياقِه، إذا الدَّنِئُ من الرِّجال أرخَى ذَيلَه، فلا يَتَشَمَّرُ لتَلَقِّى المُهِمّة، وتَغَشَّى غِطاءَ عَجْزِه، فلا ينبعثُ لِدفْعِ المُلِمَّـة، ولا يتحرَّكُ لِمَنْعِ المَظْلِمَـه. والشَّوَى: الأطراف. والوَغْد من قولك: وَغَدْتُ القومَ، إذا خدمتَهم. وقوله «إذا ما الوَغْد» ما زائدة، وإذا ظَرْفٌ لمـا دَلَّ عليه قوله «مُشَمِّرٌ» وهو جوابه. وفى خِلاف قولِه قولُ الآخَرِ[1]:

وكُنْتُ إذا جَارِى دعَا لِمَضُوفَةٍ أُشَمِّرُ حتى يَنْصُفَ السَّاقَ مِئْزَرِى

٤ ــ خَاضَ الرَّدَى فى العِدَى قِدْمًا بِمُنْصُلِهِ والخَيْلُ تَعْلُكُ ثِنْىَ المَوْتِ بالُّلجُمِ

يقول: دَخَل قديمًا فى مكاشَفَةِ أعدائِه الهلاكَ بسيفه، لا يَنْقَبِضُ ولا يُحجِم، والخَيْلُ عَوَاضٌ على لُجُمِها، تَعلُكُها فى أثناء الموت. والعَلْكُ: المَضغ، ويقال: فى لِسانه عَوْلَكٌ، أى يَمْضَغُه[2]. فعَلَى هذا يكون «ثِنَى المَوْتِ»

(١) هو أبو جندب الهذلى. اللسان (نصف)، وقد سبق فى ص ٢٩.

(٢) فى الأصل «مضغة» تحريف، صوابه فى التيمورية. وفى القاموس أن العولك لجلجة فى اللسان. وفى مقاييس اللغة: «ويقولون: فى لسانه عولك، إذا كان يمضغه ويعلكه».

ظرفا ، كما يقال جعلتهُ ثِنْيَ كذا . ويجوز أن يكونَ مفعولًا من تَعْلُكُ . ويقال : ثَنَيْتُ الشيء ثَنْيا ، ثم يُسمَّى المَثْنِيُّ ثِنْيا . ويكونُ « باللُّجُم » في موضع الحال ، كأنَّه قال : والخيل تَمْضُغُ مُثَنَّى الموتِ ، أي مضاعَفَه ، مُلْجَمة . وهذا حَسَنٌ . وبعضُهم رَوَى « والخَيْلَ تَعْلُكُ ثِنَّ الموت » ، والثِّنُّ : حُطامُ اليَبَسِ ، والمختار ما قَدَّمْتُه . وفي هذه الطَّريقة قول الآخر :

خُضْنَا إليهِ الموتَ في أيْمَانِنا   حُمْرُ الشِّفَارِ جُفُونُهُنَّ الأرؤُسُ

٥ — وهُمْ مِئُونَ أُلُوفًا وَهْوَ في نَفَرٍ   شُمِّ العَرَانِينِ ضَرَّابِينَ لِلْبُهَمِ

يقولُ : وَاقَعَ الأعداء ونَاجزَهم ، على كثرة عددهم ، وهو في رِجالٍ كِرامٍ يَسْتَنْكِفُونَ من تَقبُّل العار ، قَتَّالِينَ لِبُهَمِ الرِّجال . وقوله « مِئُون » جمع مائة وهي من الأسماء المنقوصة إذْ كانت لامُها محذوفةً ، بدلالة قولهم : أَمْأَيْتُ ، ولذلك جُمِعَ على السَّلامة . وإنَّما أشار إلى جِنْس التُّرْكِ كُلِّهِ فعَدَّهُمْ أعداءه ، لا أنَّه حَارَبَ مِئِينَ أُلُوفًا منهم . والبُهَمُ : جمع بُهْمَةٍ ، وهم الشُّجعان الذين لا يُدْرَى كيف يُؤْتَونَ ، لاستِبهامِ أحوالِهم .

٢٣٥

وقال أَوْسُ بن ثَعْلَبَة(١) :

١ — جَذَّامُ حَبْلِ الهَوَى مَاضٍ إذا جَمَلَتْ   هَوَاجِسُ الهَمِّ بَعْدَ النَّوْمِ تَعْتَرِكُ

يَصِفُهُ بالنَّفاذ في الأمور ، واجتماع الرَّأي في الخُطوب ، والمُضيِّ فيما يَعرِضُ ،

(١) هو أوس بن ثعلبة بن زفر بن وديعة بن مالك بن تيم الله بن ثعلبة بن عكابة . وكان سيد قومه وأحد فرسان بكر بن وائل بخراسان ، ولي خراسان أيام الدولة الأموية . وهو صاحب « قصر أوس » ، وفيه يقول ابن أبي عيينة :

فيا حسن ذاك القصر قصراً ونزهة   ويا فيح سهل غير وعر ولا ضنك
كأن قصور القوم ينظرن حوله   إلى ملك موف على قنة الملك =

وتَرْكِ التَّباطؤ عَمَّا يَعِنُّ ويحدُث ، وأنَّهُ لا يمنعه من ركوبِ الأسفار وتجشُّمِ المشاقِّ ما يَدفَعُ فى صَدرِ العَزمِ ، ويَثْنِي من حَدِّ القَصْدِ ، بل يقطَع علائق الهوَى ، ويُبْعِدُ عن نفسِه عوائقَ المُنَى ، فيَمضِي قُدُمًا إذا أقْبلَتْ عوارضُ الهموم بالَّليل ، تتردَّدُ بين القَلبِ والخاطر ، وتجولُ بين الفِعْل والفاعل . والجَذْمُ : القَطعُ . وحَبْلُ الهوَى : الوُصلَةُ التى بينهُ وبينَ النفس . وعَكَرَ واعتَكَرَ : عَطَفَ . [والهاجس : ما وَقعَ فى خَلَدِك . وأنشد :

فطأطأتُ النَّعامةَ من قريبٍ وقد وقَّرتُ هاجسَها بهجسِي[1]

النَّعامة : اسم فرسه[2]] .

٢ ــ وَمَا تجَهَّمَنِي لَيْلٌ ولا بَلَدٌ ولا تَكَاءَدَنِي عن حَاجَتِي سَفَرُ

قوله « وما تجَهَّمَنِي لَيْلٌ » فيه قَلْبٌ ؛ لأنَّ المعنى : ما تجَهَّمْتُ ليلًا ولا بلداً . ويقال تجَهَّمْتُ فُلَانًا ولِفُلَانٍ ، إذا استقبلتَه بوَجهٍ كريهٍ . وأسَدٌ جَهْمُ الوَجهِ . فيقول : لا أتَكَرَّهُ زَمنًا ، ولا أستصعِبُ مَرْكَبًا ، ولا أستبعِدُ بَلدًا إذا سَنَحَ أمرٌ أوجَبَ نُهوضًا ، أو سفرٌ اقتضى لبُعْدِه صبراً جميلًا . ويقالُ تكاءَدَنِي كذا ، وتَصَعَّدَنِي كذا ، إذا شَقَّ عليك .

٢٣٦

وقال آخر[3] :

١ ــ أقولُ وسَيْفِي فى مَفَارِقِ أغلَبٍ وقَدْ خَرَّ كالجِذْعِ السَّحُوقِ المُشَذَّبِ

مفعول « أقولُ » أول البيت الذى بعدَه ، وهو قولُه « بِكَ الوَجْبَةُ » .

= وهو زوج أم الظباء السدوسية ، التى اشترت بشار بن برد بدينارين ثم أعتقته . معجم البلدان (٧ : ٩٩) والأغانى (٣ : ٢١) .

(١) أنشده فى اللسان (هجس) .

(٢) التكملة من م والتيمورية .

(٣) التبريزى : « وقال آخر وقد أوقعت مازن بقوم من بنى عجل فقتلوا منهم ، فعدت بنو عجل على جار لبنى مازن فقتلوه » .

وقال « فى مَفَارِقِ » لأنّهُ جمعَهُ على ما حَوْلَه ، كما يقال بَعِيرٌ ضَخْمُ العَثَانِين ، كأنّهُ جَعَلَ كُلَّ قِطعةٍ مِمّا يلِي المَفرِقَ مفرِقا فجمَعه . ومعنى خَرَّ سَقَطَ ، ومصدرُه الخُرور . والسَّحُوق من النَّخْل والحُمُر : الطويل . يقال : أتَانٌ سَحُوقٌ ، نَخلةٌ سَحوق . يقول : لمّا تمكّنتُ من أغلَبَ قنَعْتُه بسَيْفى فسقط ، فقُلتُ متشفِّيا ومُسْتَهيئًا : أناخَتِ الوَجْبَةُ بكَ لا بمَن كُنتَ تطلُبه لها[1] ، وهذا كما يقال : لليدين وللفَمِ . وقوله « كالجِذْعِ » فى موضع الحال ، والعامل فيه خَرَّ ، وتشبيهُهُ إيّاهُ بالجِذْعِ من قديم التّشبيه ، وفى القرآن : ﴿ كأنّهُمْ أعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَة[2] ﴾ . وَجَعَلهُ مُشَذَّبًا ليكون طُولُه أظهرَ .

٢ ـ بِكَ الوَجْبَةُ العُظْمَى أناخَتْ ولم تُنِخْ بِشُعْبَةَ فابْعَدْ من صَرِيعٍ مُلَحَّبِ

أراد بالوَجبةِ العُظْمَى المنِيّةَ . وفى القرآن : ﴿ فإذَا وَجَبَتْ جُنُوبُها ﴾ . أى نَزَل بك المكروه الأعظم ، والبلاء الأفظع ، لا بِشُعْبة . كأنَّ هذا المصروعَ كان يَتوعَّدُ شُعْبَةَ بالقتل ، أو يريدُه له ويتمنّاه ، فما ائتَمرَهُ[3] به أصابه وحَقّ عليه . وقوله « فابعد » دُعاءٌ عليه على طريق الاستهانة بما حَلَّ به . والمُلَحَّبُ : المذلَّلُ ، ومنه طريقٌ لاحِبٌ أى واضحٌ . ويجوز أن يكون معنى مُلَحَّبٌ مجروحٌ مُقطَّع يقالُ لحَبْتُ اللّحم إذا قطَعْتَهُ طولا .

٣ ـ سَقاهُ الرَّدَى سَيْفٌ إذا سُلَّ أومضَتْ إليه ثَنايَا المَوْتِ من كُلِّ مَرْقَبِ

هذا مثل قول تأبّط شرًّا .

إذَا هَزّهُ فى عَظْمِ قِرْنٍ تَهَلَّلَتْ نواجِذُ أفْوَاهِ المَنَايا الضّوَاحِكِ[4]

وإن كان هذا أبلغ ؛ جَعَل ضَحِكَ الموتِ تألُّقَ السَّيْفِ إذَا جُرِّدَ من

(١) كذا فى م والتيمورية . وفى الأصل : « تظلمه لها » .
(٢) الآية ٧ من سورة الحاقة . وفى الآية ٢٠ من سورة القمر : « كأنهم أعجاز نخل منقعر » .
(٣) ائتمر به : هم به .
(٤) البيت ٨ من الحماسية ١٣ .

الغِمدِ سُرُوراً به ، وفلانٌ جَعَلَهُ إلى المضروب به ثِقَةً بكونِهِ له . ويقالُ أَوْمَضَ وَوَمَضَ ، إذا لَمَعَ . ورواه بعضهم : « أَوْمَضَتْ إليه مَنَايَا المَوْتِ » ، وهو تصحيف .

٤ــ وَيَاعِجْلُ عِجْلَ القاتِلِينَ بِذَحْلِهِمْ غَرِيباً لَدَيْنَا من قبائلِ يَحْصُبِ[١]

٥ــ جَنَيْتُمْ وجُرْتُمْ إذْ أَخَذْتُمْ بِحَقِّكُمْ زَعَمْتُمْ غَرِيباً مُرْمِلًا غيرَ مُذْنِبِ[٢]

قولُه « عِجْلَ القاتلين » هو إضافةُ البعضِ إلى الكلّ ، وكرّره توكيداً . ولكَ أن تَضُمَّ عِجْلَ الأوّلَ وتَنصِبَ الثانى على البدلِ ، أو على عَطفِ البيان . وبَنُو عِجْلٍ كانوا مَوْتُورِينَ بما ارتكب منهم قبيلةُ الشاعرِ ، وهم بَنُو مازِنٍ ، فلَمْ يطلُبُوا ذَحلَهُمْ من وجهِهِ ، ولا أدرَكوا الثّأر من كاسبِهِ ، لكنهم أخذوا غريباً كان جاوَرَ بنى مازن فقتلوه ، فقال هذا الشاعرُ فى مخاطبتهم معيّراً ، وهازئاً متهكّماً : يا عِجْلَ القاتلين بوترهم غريباً كان عندنا من بنى يَحْصُبَ ، لم يَسْعَ فى اكتساب الثّأر الذى تدّعونه ، ولا أعمَلَ فيه يدَهُ وسِنانَه حتَّى جَنَيْتم وعَدَلْتم عن طريقِ الرّشاد ، إذ أخذتم بحقكم — على زُعمِكُم — غيرَ واتِرِكم . فقوله « إذْ أخذتُم بحقكم زَعَمْتُم » يجوز أن يُضَعِّفَ بالزُّعْمِ دعواهُم الحقَّ المشارَ إليه ، ويجوز أن يضعِّفَ ما توَهَّموه من دَرَكِ الثّأر بما فعلوه . ويجوز أن يضعِّفَ الأمرينِ جميعاً ، وهو الأشبه . فإن قيل : أين مفعولا زعمتم ، وكيف ساغ حذفهما ؟ قلت : الحذفُ هنا كالحذفِ فى قوله تعالى : ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ . وكالحذفِ فى قول الكُمَيت :

بأىِّ كتابٍ أمْ بأيّةِ سُنَّةٍ ترى حُبَّهُمْ عاراً عليك وتَحْسَبُ[٣]

(١) التبريزى : « فيا عجل » .
(٢) التبريزى : « غريباً زعمتم » .
(٣) كذا فى جميع النسخ ، وعند التبريزى كذلك . ومشهور الرواية كما فى الهاشميات ٣٨ : « عاراً على » .

فكما حُذِفَ مفعولا تَحْسِبُ في بيت الكُمَيْت، ومفعولا تزعمون في الآية، كذلك حذف مفعولا زعمتم من هذا البيت، ويكون التقدير: إذْ أخذتم بحقّكم — زَعَمْتُمُوه مأخوذاً — رجُلاً هذا صِفَتُه، وبحقّكم زعمتموه ثانيا، فحذَفَ ذِكْرَ الحقّ لِمَا تقدَّمَ من ذِكرِه، ولمّا حذف المفعول الأوّل جاز حذفُ الثانى، وهذا كما يُحذَفُ المبتدأ والخبر من مسألة الكتاب[1]، وهى متى ظننت أو قُلْتَ زَيْدًا مُنْطَلِقًا. إذا أعماتَ الفِعلَ الأوّلَ ساغ ذلك، لأنَّ الفعل الثانى نقيضُهما، وقد حصلَ فى الكلام ذِكرُهما. فاعلَمْه. والمُرْمِل: الفقير.

٦ — وما قَتْلُ جارٍ غائبٍ عن نَصيرِه لطالبِ أوتارٍ بَمَسْلَكِ مَطْلَبِ

٧ — فلَمْ تُدْرِكوا ذَحْلا ولم تَذْهَبوا بما فَعَلْتُمْ بنى عِجْلٍ إلى وجْهِ مَذْهَبِ[2]

يقول: الوِتْرُ مقيمٌ فى موضعِه ثابتٌ على حاله، لم تُزِيلوه ولم تُظْعِنوه عن مَحَلِّه، لأنَّ قَتْلَ جارٍ للواتر غائبٍ عن نُصّارِه، بعيدٍ عن أرضه وديارِه، لطالبِ الثأر ليس بطريقٍ يؤدّيه إلى نيلِ مُرادٍ، ولا بسببٍ يوصِلُه إلى اشتفاء من داء، فأنتم لم تُصِيبوا نُجْحًا فى فعلكم، ولا سَلِمتم فيما أتيتم من عارٍ يَلحقكم.

٨ — ولكِنَّكم خِفْتُم أسِنَّةَ مازِنٍ فنَكَّبْتُم عنها إلى غَيْرِ مَنْكِبِ

٩ — وقد ذُقْتُمُونا مَرّةً بعد مَرّةٍ وعِلْمُ بَيَانِ المَرْءِ عِنْدَ المُجَرِّبِ

يقال نَكَّبَ بمعنى تنكّب، ومثله قَدَّمَ بمعنى تَقدَّم؛ ومعناه انحرَفَ. ويقال هو أنكَبُ عن الحق ومِنْكَابٌ عنه، إذا جانَبَه فيصيرُ منه فى شِقٍّ. يقول: هِبتُمْ أعداءكم عندما هَمَمتم به من طَلَبِ وِتْرِكم، واستشعرتم منهم جُبْنًا، فحذِرْتُموهم، ثم عَدَلتم عنهم إلى غيرِ مَعدِلٍ فقَبُحَتْ صورتُكم، واخترتمْ ذلك

---

(١) كتاب سيبويه (١: ٤١). ونصه: «وقد يجوز ضربت وضربنى زيدا، لأن بعضهم قد يقول: متى رأيت أو قلت زيداً منطلقاً. والوجه متى رأيت أو قلت زيد منطلق».

(٢) كذا فى م والتيمورية والتبريزى. وفى الأصل: «فلم تدركوا ثأرا».

لأنكمْ خَبَرتمونا حالةً بعد أُخرى ، والمَرْءُ يَتبيَّنُ الشىءَ ، ويَعرِفُ الخَصْمَ عند تجربته .

٢٣٧

وقال بغثر بن لَقيطٍ الأسدىّ(١) :

١ – أمّا حكيمٌ فالتَمَسْتُ دِماغَهُ ومَقِيلَ هامَتِهِ بحَدِّ المُنْصُلِ
٢ – وإذا حُمِلْتُ على الكَريهةِ لَمْ أَقُلْ بَعْدَ العزيمةِ لَيْتَنى لَمْ أفعَلِ

قوله « أمّا » يتضمّن معنى الجزاء ، وأكثرُ ما يجىءُ مكرّرًا ، وقد جاء هنا غير مكرّر . فيقول : مهما كان من شىء فقد طَلَبْتُ دِماغَ هذا الرجُلِ بسيفى ، فأصَبْتُهُ غير مُتندِّمٍ على ما فَعَلْتُ ، ولا متذمِّمٍ منه ، لأنى إذا حُمِلْتُ على خُطَّةٍ صعبةٍ فوطَّنْتُ نفسى عليها ، وقرّرْتُ عزمى فى تجشُّمِها لم أقُلْ بعد الدخول فيها والخروج منها بِوُدِّى ألاّ أكونَ لابَسْتُها . وأراد بالمَقِيلِ المَقَرَّ . والهامَةُ : رأس كلِّ حيوان ، والجميع الهام . والمُنْصُلُ ، من أسماء السيف . ويقال : ما لَهُ عزيمةٌ أى لا يَثْبُتُ على ما يَعزِمُ عليه . ورأيُهُ ذو عَزِيمٍ . والعَزْمُ : توطين النَّفس على المراد .

٢٣٨

وقال رجلٌ من بنى نُمير(٢) :

١ – أنا ابْنُ الرّابعينَ مِنَ آلِ عَمْرٍو وفُرْسانِ المَنابِرِ من جَنَابِ(٣)
٢ – نُعَرِّضُ للسُّيوفِ إذا التَقَيْنا وُجُوهًا لا تُعَرَّضُ للسِّبابِ

(١) ذكر فى القاموس (بغثر) أنه شاعر جاهلى .
(٢) نسب المبرد فى الكامل ٦٧ لبيسك بيتين شبيهين بالأول والثانى إلى القتال الكلابى .
(٣) رواية المبرد للبيتين الشبيهين :

أنا ابن الأكرمين بنى قشير وأخوالى الكرام بنو كلاب
نعرض للطعان إذا التقينا وجوها لا تعرض للسباب

٣ — فآبائى سَرَاةُ بنى نُمَيْرٍ   وأَخْوالى سَرَاةُ بنى كِلَابِ

يفتخرُ بأنّ آباءه رؤساء خطباء. والرابعُ: الرئيس الذى كان يأخُذُ رُبعَ الغنيمة فى الغَزْو. ويقالُ رَبَعَ فُلانٌ فى الجاهليّة وخَمَسَ فى الإسلام. وذكر عَمراً وجَنَاباً ليُرِىَ أنه كريم الطّرَفين، يدلّ على هذا قولُه فيما بَعْدَه:

فَآبائى سَرَاةُ بنى نُمَيْرٍ   وأخوالى سراةُ بنى كِلاب[1]

وقولُه «نُعرِّض للطِّعان إذا التَقَيْنا» يَصِفُ تكرُّمَهم وتصوُّنَهم فى السِّلم، وتبذُّلَهم فى الحرب. ويُشْبِهُ هذا قولُ الراعى:

وَيَبتذِلُ النَّفسَ المَصُونَةَ نَفْسَهُ   إذا ما رأى حَقًّا عليه ابتذالَها[2]

وقول الآخر[3]:

نُعرِّضُ للسُّيوفِ إذا التَقَيْنا   وُجُوهاً لا تُعرَّضُ لِلِّطامِ

وسَرَاةُ القومِ: خِيارُهم. وقال الخليلُ: السَّرْوُ: سَخاء فى مُرُوَّةٍ. وفَعَلَةٌ فى جمع المعتلّ نادرٌ، لأنه يختصّ بالصحيح، نحو الفَجَرَة والكَفَرَة، وبإزائه من المعتلّ فُعَلَةٌ نحو قُضَاةٍ وغُزَاة.

٢٣٩

وقال الهُذْلُول بن كَعْبٍ العَنْبرِىُّ[4]:

حين رأته امرأتُه يَطْحَن للأضياف، فقالت: أهذا بعلى[5]؟!

(١) نمير وكلاب أخوان، أبوهما عامر بن صعصعة، فأبناؤهما أبناء عمومة.

(٢) سبق البيت بدون نسبة فى الحماسية ٢١.

(٣) هو الحريش بن هلال القريعى. انظر الحماسية ٢١.

(٤) ذكره المرزبانى فى المعجم ٤٩١ وقال: «ويقال الذهلول»، أى بتقديم الذال.

(٥) المبرد فى الكامل ٢٣: «ومما يستحسن ويستجاد قول أعرابى من بنى سعد بن زيد مناة بن تميم وكان مملكا، فنزل به أضياف فقام إلى الرحا فطحن لهم، فمرت به زوجته فى نسوة فقالت لهن: أهذا بعلى؟! فأعلم بذلك فقال ...». مملكا، من الإملاك، وهو عقد النكاح.

١ ـ تَقُولُ وَدَقَّتْ صَدْرَها بيمينها أَبَعْلِيَ هذا بالرَّحَا المُتَقَاعِسُ(١)

حَكَى ما قالته امرأتُه وهى تدقُّ صَدْرَها بيمينها ، مستنكرةً لما رأتْهُ من طَحنِه لضيفِه ، ومستفظِعَةً لما شاهَدَتْ من تَخَفُّفِه وتبذُّلِه ، وهو قوله : أبَعْلِي هذا المتقاعِسُ بالرَّحَا . فإنها استشنَعت هيئتَه وامتهانَه نفسَه فيما يُمتَهَن فيه الخدم(٢) ، ويأنَفُ من تولِّيه ذَوُو(٣) الرَّزانة والعِزّة . وإنَّما ابتدأ كلامَه بتقول لأنَّ القولَ يُحكَى به ما كان كلاماً ، ويُعْمَلُ فيما كان قولاً . والمُتقاعِسُ : بناءٌ لما يُفعل تكلُّفا . على هذا قولهم تَخَازَرَ وتَعَامَى . والقَعَسُ : دخول الظَّهْرِ وخروج الصَّدر . وقوله « أبَعْلِي » موضعُه رفعٌ بالابتداء ، والألف لفظُه لفظ الاستفهام ، ومعناه الإنكار والتقريع . وقولُه « هذا » يكون فى موضع الخبر ، والمتقاعِسُ يتْبعه على أنَّه عَطْف البيان له . وإن شئتَ جعلْتَ هذا صفةً لبَعْلِي والمتقاعِسُ خَبراً . وقولُه « بالرَّحا » لا يجوز أن يتعلّق بالمتقاعس ، لأنَّه فى تعلُّقِه به يصير من صِلَة الألف واللام ، وما فى الصِّلَةِ لا يتقدَّم على الموصول ، ولكن تجعلُه تبييناً وتتصوَّرُ « المتقاعِسُ » اسماً تامًّا ، ويصيرُ موقعُ بالرَّحا بعده موقعَ بِكَ بَعْدَ مَرْحَبًا ، ولكَ بعْد سَقْياً وحَمْداً . وإذا كان كذلك جاز تقديمُه عليه ، كما جاز أن تقول : بِكَ مَرْحَبًا ، ولكَ سَقْيًا . وللمازنىّ فى مثل هذا طريقةٌ أخرى : وهو أن يجعل الألف واللام من المتقاعِس للتعريف فَقَطْ ، ولا يؤدّى معنى الذى ، كما تَقُولُ نِعْمَ القائمُ زَيْدٌ ، وبئْسَ الرَّجُل عَمْرو ، وإذا كان كذلك لم يحتج إلى الصلة ،

(١) التبريزى والمبرد : « تقول وصكت » . وعند التبريزى أيضاً « نحرها » موضع « صدرها » .

(٢) كذا فى م والتيمورية وفى الأصل : « يمتهن الخدم » .

(٣) كذا فى م والتيمورية . وفى الأصل : « ذو » بالإفراد .

مجاز وقوع بالرحا متقدّماً عليه ومؤخَّراً بعده. وموقعُ الجملة التي حكاها من كلام المرأة نَصْبٌ على أنه مفعول لتقول. فأمّا ما يَعمل في لفظِه « قالَ » ومتصرّفاته فهو ما يكونُ قولاً ووصفاً للجُمَل، كقولِك قلتَ حقًّا أو باطِلاً، أو قُلتَ صدقاً أو كذِباً وما أشْبَهَهُ. والبعلُ يقالُ للرَّجُل والمرأة، وقيل بَعْلَةٌ أيضاً، والفعلُ منه بَعُلَ بَعَالَةً وبُعُولَةً. والبِعالُ: ملاعبَةُ الرجلِ أهْلَهُ. ويقال بنو فلانٍ لا يُبَاعِلُون، أى لا يَتزوَّج إليهم ولا يُزَوِّجونَ.

٢ — فَقُلْتُ لَهَا لا تَعْجَلِي وَتَبَيَّنِي بَلاَئِى إذا التفَّتْ عَلَيَّ الفوارِسُ

حَكَى ما جَعَلَهُ جَواباً للمرأة: كما حَكَى كلامَها، وهو قولُه «لا تَعْجَلِي» مع ما يَتْبَعُه. ومعنى البيت: لا تُسرعِي إنكارَكِ، بل تثبّتِي في حكمِك، وتبيَّنِي بَرَاعَتِي في فَعَالِي، وغَنَائي عند الشدائد وبلائي، إذا اجتمع عَلَيَّ في حَوْمةِ الحربِ الفُرسانُ، وأحاط في مَضايقِها بيَ الأقرانُ، فإنَّ نَجْدةَ الأبطالِ تظهر في مثل تلك الحال. واعلَمِي أنَّ ما يُستنكَفُ منه هو التَّخلُّف عن الكِفاح، والرِّضا عن النَّفْس بما لا يَجْعلُه الكريمُ منه ببِالٍ، فأمّا خِدمةُ الضَّيفِ وامتهانُ النَّفسِ في الاحتفال له، فمقبولٌ من أخلاقِ الكِرام، محمودٌ عند تجاربِ الرِّجال.

وقُدِّمَ القَوْلُ في شذوذ فوارِسَ وحُكْمِه[1].

٣ — أَلَسْتُ أَرُدُّ القِرْنَ يَرْكَبُ رَدْعَهُ وفيه سِنانٌ ذُو غِرَارَيْنِ يابِسُ[2]

أقبلَ يُقَرِّر المرأةَ على زَكِيِّ أفعالِه، ورضِيِّ أخلاقِه. وألف الاستفهام إذا

---

(١) انظر ما سبق في ص ٣٩ — ٤٠.

(٢) هذه رواية جميع النسخ والكامل ومعجم المرزباني. وانفرد التبريزي برواية « نائس » ولكنه في الشرح اعترف بالرواية الأولى ضمناً قال: « ويقولون حديد يابس، وبارد، يعنون الصلب. والنائس: المضطرب ». وقد روى في اللسان (ردع) هذا البيت برواية « نائس » منسوباً إلى نعيم بن الحارث بن يزيد السعدي.

اتَّصَلَ بحرف النفي تقرَّر به فيما كان واجباً واقعاً ، وإذا انفرَدَ عن حرفِ النَّفي تقرَّر به فيما كان منفيًّا مدفوعاً . يقول القائل مقرِّراً : أفعَلْتُ هذا ؟ إذا لم يكن فَعَلَهُ فأنكَرَهُ . وألم أفعلْ كذا ؟ إذا كان قد أتاه واكتسبَهُ . والقِرْنُ : النَّظير في البأس . وموضع « يركَبُ رَدْعَه » [نصب على الحال ، أى راكباً رَدْعَه[1]] . والرَّدْع : الدَّفع والكَفُّ . وتحقيق الكلام : أدفعُ القِرن وقد ركِبَ رَدْعِى إيَّاه فسَقطَ . وقال الخليلُ : رَكِبَ رَدْعَهُ ورَدِيعَهُ[2] ، أى خرَّ صريعاً لوَجْهِهِ . وذِكْرُ الرُّكوبِ مَثَلٌ . ويجوز أن يكونَ المُرادُ بالرَّدْع ما تلطَّخ به من الدَّم ؛ ويقال ثوبٌ مَرْدوع ، إذا كان قد لُطِخَ بالزعفران[3] أو غيره . وذكر بعضُ أصحاب المعانى أنَّ معنى « ركبَ رَدْعَهُ » أى إذا كُفَّ لم يرْتدِعْ ومَضَى لوجهه ، كأنَّهُ يتلَقَّى الرَّدْع بالرُّكوب . وقال أبو العباس المُبرِّد : « هو من ارتَدَعَ السَّهْمُ ، إذا رَجعَ النَّصْلُ فى سِنْخِهِ متجاوزاً[4] » . قال : « ويقال رَكِبَ البَعيرُ رَدْعَهُ ، إذا سَقَط فدخل عُنُقُه فى جَوْفِهِ . ومنه ارتدَعَ فلانٌ عن دينه[5] » . والذى قاله تحصيلُه ما أوردتُه وكشفتُهُ . وقولُه « وفيه سِنَانٌ » يريدُ أنه مطعونٌ بسِنانٍ ذى حَدَّينِ صُلبٍ . وموضع « وفيه » موضع الحال ، والعامِلُ فيه يركَبُ ، كما أن يركَبُ فى موضع الحالِ والعامِلُ فيه أرُدّ .

٤ ـ وَأَحْتَمِلُ الأَوْقَ الثَّقِيلَ وأَمْتَرِى   خُلُوفَ المَنَايَا حِينَ فَرَّ المُغَامِسُ

قولُه « وأحْتَمِلُ » ينعطف على خَبر ليس ، وهو أرُدُّ ، ويكون من جُملةِ

---

(١) التكملة من م والتيمورية .

(٢) لم يذكر فى اللسان والقاموس بهذا المعنى ، وذكر بدله فى القاموس الرداع ، كغراب .

(٣) م والتيمورية : « إذا كان به لطخ من الزعفران » .

(٤) نص الكامل ٢٣ – ٢٤ عند تفسير هذا البيت : « إذا رجع النصل متأخراً فى السنخ » .

(٥) هذه الجملة الأخيرة لم ترد فى الكامل .

ما قرَّرها به(١) . والأَوْقُ : الثِّقْلُ . ومعنى « أمتَرِى » أى أَمْسَحُ . والخُلُوفُ : جمع الخِلْف ، وهو ما يَقْبِضُ عليه الحالبُ . وقولُه « حينَ فَرَّ المُعَامِسُ » يُرْوَى « المُغَامِسُ » بالغين معجمةً . فمعنى « المُعَامِس » بالعين الذى يدخُل فى الشّدائد ويُدْخِلُ غيرَهُ فيها . ويقالُ : يَوْمٌ عَماسٌ ، أى شديدٌ . ويكون المُعَامِسُ كقولهم المُغَامِر ، وهو الذى يَدْخُل فى الغَمَرَاتِ ويُدْخِلُ غيره فيها . وقال بعضهم : العَمَاسُ : الحربُ الشّديدة وكلُّ ما لا يُقامُ لَهُ . ويجوز أن يكون المُعَامِسُ من قولِهِم عَمَسْتُ الأمْر ، أى أخفَيْتُه . ورجلٌ عموسٌ : يتَعَسَّفُ الأشياء بجَهْلِه . فيكون المعنى : الذى يَرْكَبُ رَأْسَهُ ولا يُبالِى أُصِيبَ أو أَصابَ . ومعنى « المُغَامِس » بالغين معجمةً : الذى ينغمس فى الشّرّ والبلاء ، ويَغمِسُ غيرَهُ فيهما . ومعنى البيتِ : أَلَستُ المُتحمِّلَ للأعباء الثقيلة ، والمُستخرِجَ من ضُروع المنايا وأخْلافِها الشّرَّ ، فى الوقت الذى يَزِلُّ فيه المُعامِسُ أو المُغَامِس ، فلا يَثْبُت . وجَعلَ مَرْىَ الخلوفِ مثَلاً لتهييج الشّرّ ، واستدرار الموت ، كأنّه يستزيدُ من البلاء ولا يَمَلُّهُ ، إذا لم يَثْبُتْ له من ذلك صفَتُه .

٥ — وأَقْرِى الهُمُومَ الطّارقاتِ حَزَامَةً إذا كَثُرَتْ للطّارِقاتِ الوَساوِس

يقالُ : قَرَيتُ الضّيفَ ، إذا أحسنتَ إليه وأعددتَ له قِراهُ . يقول : ألستُ أَقرِى طوارقَ الهمّ ، وعوائقَ البَثِّ ، حَزْمًا ورأيًا ، وجلَدًا ونفاذًا ، إذا ازدحَمتِ الوساوِسُ على القلوب ، واعتلجت بناتُ الصُّدور ، فارتبكت الآراء ، وذَهبَ من الرِّجال الغَناء .

٦ — إذا خامَ أقوامٌ تقحَّمْتُ غَمْرَةً يَهابُ حُمَيّاها الأَلَدُّ المُدَاعِسُ(٢)

(١) كذا فى م والتيمورية على الصواب . وفى الأصل : « من جملة أقررها به » .

(٢) رواية المبرد :

إذا هاب أقوام تجشمت هول ما يهاب حميّاه الألد المداعس

خامَ عن قِرْنه يَخِيمُ : هابَ الإقدامَ عليه . ويقال خامَ الرَّجلُ ، إذا رَجَع عليه كيدُه ، فضَرَّهُ ؛ فيجرى مجرى خابَ وإن كان يختصّ بالكيد . فيقولُ : إذا ضَعُفَ الأقوامُ عن التدبير ، وعَيُّوا بالأمور فلم يعرِفوا مصادِرَها ومواردَها ، توسَّطْتُ قُحْمَةَ كلِّ شَرٍّ يَهابُ سَوْرَتَها الرَّجُلُ الخصيمُ اللَّجُوج ، المُدَافِعُ للأقران . قوله « حُمَيّاها » مُصَغَّر لا مُكَبَّر له . والدَّعْس : الطعن والدَّفع وشدَّة الوَطْء . ويقال : طريقٌ مِدْعاس ، أى مُذَلَّلٌ .

٧ — لَعَمْرُ أبيكِ الخيرِ إنِّى لخادِمٌ   لضَيْفِى وإنِّى إن رَكِبْتُ لَفَارِسُ

قوله « لَعَمْرُ أبيكِ » استعطافٌ لها ، إذ أقسَمَ بحياةِ أبيها لِمَا جرَى فى العادة من إعظام المُقْسَم به ؛ وإكبارِ موقِعِه . والعَمْر والعُمْر لغتان ، ولا يُستعمل فى القَسَم إلاّ بفتح العين . وإضافَة الأب إلى الخيرِ ، كما يقالُ هو فَتَى صِدْقٍ ، وهو رجلُ كَرَمٍ . وقولُه « إنِّى لخادِمٌ لضَيْفى » اعترافٌ بما عَدَّتْهُ ذنْبًا ، وبيانُ أنَّ التَّبجُّح فيما أنكرته ، وأنّ التوفُّر على الضَّيفِ وإكرامَه فى قِرَانِ الفروسيَّة ، ومن الخصال المحمودة .

٨ — وإنِّى لأَشْرِى الحَمْدَ أبغِى رَبَاحَهُ   وأَتْرُكُ قِرْنِى وهْوَ خزيان ناعِسُ

هذا من جملة ما أقسمَ عليه ، فيقول : إنى لأشترى الحمدَ طالبًا رِبْحَه ، ومُجتَنِيًا [ثمَرَهُ . و[1]] ثمَرَةُ الإحسانِ الشُّكْرُ ، ويَجابُ الشُّكْرُ الثَّناء الجميل والأحدوثَةَ الحَسَنَةَ من كلِّ من يسمعُ بالصَّنيع . ولمّا استَعملَ الشِّرَى فى اكتساب الحمدِ مجلِّيًا للمعنى ، استَعْمل الرِّبْح فيما يَتَسَبَّبُ منه ويَنتَتِجُ . على ما يُتَعَوَّدُ فى المتاجِر ، ويُتَطلَّبُ من البياعات . وقوله « وأَتْرُكُ قِرْنى وهْوَ خَزيانُ » أى أهينُه وأكسِرُه ، حتَّى يَبقَى مُطرِقًا خجِلا مغضوضَ الطَّرْفِ

(١) التكلة من م والتيمورية .

مُتَنَدِّمًا ، كَمَنْ غَلَبَه النُّعاسُ . وقِيل « نَاعِسُ » المرادُ به أنّه مُشرِفٌ على الموتِ . قال : ويقال طَعَنْتُ صاحبي فأنَمْتُه ، أى قَتَلْتُه . وطعنتُ صاحبي فأنعسْتُه ، أى رَنّحْتُه . والرَّباحُ : مصدرٌ كالرِّبْح . ويقال للفائز بالخير : هو رَابحُ الصَّفْقة .

٢٤٠

وقالت كَنْزَةُ أمُّ شَمْلَةَ بن بُرْدٍ المِنْقَرِىّ[1] :

١ — إنْ يَكُ ظَنِّى صَادِقًا وهْوَ صَادِقِى بِشَمْلَةَ يَحْبِسْهمْ بهـا مَحْبِسًا أَزْلَا

قد مضى الكلام فى حذف النُّون من « يَكُ » فى غير موضع . ومرادُ كَنْزَةَ من الكلام أن تجعَلَ التّقَصِّىَ فى مجاهَدَةِ القَوْمِ ، وبُلوغَ أبعدِ الغاياتِ فى طَلَبِ الثّأر من ابنها ببالٍ ، فأقبلَتْ تقولُ : ظَنِّى بابنى كَيْتَ وكيتَ ، مذكِّرة ومُوصِيَةً . والذى زعَمَتْ أنّه فى ظنها ، ومن أحاديثِ نَفْسها ، هو ما تقترحُه على ابنِها ، وتتمَنَّى أن يحتفظ به من وَصَاتِها . وقولُها « وهو » يجوز أن يكون للظّنّ ، والمعنى : إن كنتُ أَلمعِيًّا[2] ، فظنّى بشَمْلَةَ يَصْدُقُنِى لا محالةَ ، فإنه يفْعَلُ كذا . والباء من قولها « بِشَمْلَةَ » يجوز أن يكون متعلّقًا بصادِقِى ، أى وهو يَصْدُقُنِى بسبب شَمْلَةَ ، وإن شئتَ يتعلّقُ بظَنِّى . ويجوز أن يكونَ « هو » ضمير ابنِه[3] شَمْلَةَ ، والمعنى : وهو فيما أتفرّسُه فيه وأعتَقِدُه من غَنَائه ، يَصْدُقُنِى — ويكون « بِشَمْلَةَ » تبيينًا لا صِلَةً ، كما يكونُ بكَ بَعْدَ مَرْحَبًا تبيينًا — بِحَبْسِ القَوْم بتلك المعركة

(١) التبريزى « من ولد قيس ، وكانت أمة لبنى منقر اشتراها برد » . ويعنى بقيس قيس بن عاصم المنقرى . وقيس بن عاصم صحابى مخضرم .

(٢) الوجه : « إن كنت ألمعية » . ولكن المرزوقى قصد جنس « الشاعر » .

(٣) الوجه : « ابنها » أيضاً .

مَحْبِسًا ضَيِّقًا . ويقال أَزَلُوا مالَهُم يأزِلُونَها[1] أَزْلاً ، إذا حَبسُوها فى المرعَى ، مخافةَ الأَعداء عليها . فالأَزْلُ مَصدرٌ وُصِف به .

٢ — فَيَاشَمْلَ شَمِّرْ واطْلُبِ القَوْمَ بالّذى أُصِبْتَ ولا تَقْبَلْ قِصَاصًا ولا عَقْلا

هذا يدل على ما قدّمناه فى البيت قَبْلَه ، فإنّها رجَعَتْ إلى مخاطبَة ابنها بعد ما ذَكَرت هواجِسَ ظُنونِها ، وجَرَّدَتِ القولَ له بمُرادِها منه ، وأَمَرَتْهُ بالتَّشمير فى طلب القوم كلِّهم بمن أُصِيبَ به ، واطِّراحِ التقصيرِ فيما جُعِلَ له من سلطانه فى حقه ، وبأن لا يَقْبَل الدِّيَةَ وإن غَالَوْا بها ، ولا يَرْضَى بالقِصاص منهم وإن مُكِّنُوا من الجانى عليه أيضاً ، بل يَعُمُّ القومَ كلَّهم بالقتل ، فإنه حينئذ يكون مدرِكاً تَبْلَه ، ونائِضًا وِتْرَهُ ، وقاضياً حقَّ صاحبِه . والقِصَاصُ : أخذ الشىء بالشىء ، وأصلُه من القَصِّ : القَطْع .

١٢٤

وقالت أيْضًا :

١ — لَهْفِى عَلَى القَوْمِ الذين تَجَمَّعُوا بِذِى السِّيدِ لم يَلقَوْا عليًّا ولا عَمْرَا

٢ — فإن يَكُ ظَنِّى صَادِقاً وهو صَادِقى بِشَمْلَةَ يَحْبِسْهُمْ بها مَحْبِسًا وَعْرَا

قد تَقَدَّمَ القولُ فى لَهْفِى ، وما يجوز فيه من نِيّة الإفراد والإضافة[2] . وإنّما تَحَسَّرتِ الشّاعرةُ على مافات عَلِيًّا وعَمْرًا من مُلاقاة القومِ المجتمعين بذى السِّيد المتخلِّفين للقتال . وإنما تلهّفَتْ لِمَا كانت تؤمِّل من تأثيرِها فيهم . وموضع « لم يَلقَوْا » نَصْبٌ على الحال ، والعامل فيه تجمّعوا . ثم قالت كالمستدرك برَجائه . إن كنتُ صَادِقَةَ الظَّنِّ بابنى شَمْلَةَ — وهو يَصدُقُنى

(١) كذا فى جميع النسخ ، استعمل المال استعمال الإبل .
(٢) انظر ما سبق فى ص ٤٤ .

لا محالة — فإنّه يحبسُ القومَ بتلك المعركة تحبيسًا صَعْبًا . تُرِيدُ أنَّ ما فات للمذكورَيْنِ سيتلافاه ، فيما يَعِدُها به ظَنُّها وأمَلُها فيه . والقولُ فى « إن يَكُ ظنى صادقا » على ما تقدَّم . والصِّدْقُ والكَذِب أصلهما فى الكلام ، وتُوُسِّعَ فيهما فقيلَ بَرْدٌ صادِقٌ ، والفَجْر الصادق والكاذب ، وهو فَتَى صِدْق ، وصَدَقُوهم القتالَ . ويقالُ : طريقٌ وعْرٌ : بيِّن الوُعورة والوَعارة ، أى غليظٌ . وقد توَعَّرَ وَوَعَرَ .

٢٤٢

وقال شُبْرُمَةُ بن الطُّفَيْل[1] :

١ـ لَعَمْرِى لَرِيمٌ عند باب ابْنِ مُحْرِزٍ أَغَنُّ عليه اليَارَقَانِ مَشُوفُ[2]

٢ـ أَحَبُّ إلَيْنَا من بُيُوتٍ عِمَادُها سُيُوفٌ وأَرْمَاحٌ لَهُنَّ حَفِيفُ[3]

الأصل فى الرِّئم : الظَّبْيُ الخالص البياض . وهذا الكلام يَخُصّ به الشاعرُ واحدًا مُعَيَّنًا كان يُقَصِّرُ فى طلبِ الوِتْر ، ويشتغل عنه بالصِّبا واللَّهْوِ ، ويؤْثِرُ المُقامَ بأطيبِ المنزلَيْنِ من البَدْو والحَضَر ، لا يُهِمُّهُ إلا الرَّقاعةُ والخَلاعةُ ، خاليَتَيْن من التَّعَب والنَّصَب ، فأخذ يُعَرِّضُ به ويقول على وجه التهكم والسُّخرِيَةِ منه : وبقائى ، لَلِقاء امرأةٍ كأنّها ظَبْيَةٌ مَسكنُها فى جوارِ هذا الرَّجُل فى صَوْتِها غُنَّةٌ ، مُحَلّاةٍ بيارَقَيْنِ ، مَجْلوّةِ الوَجْه ، أَحَبُّ إلينا من

(١) لم نعثر له على ترجمة . ولكن « ابن محرز » الذى ذكره ، من مشهورى المغنين أيام الدولة العباسية . وهو مسلم بن محرز ، مولى بنى مخزوم . الأغانى (١ : ١٤٥ — ١٤٧) .

(٢) فى اللسان (يرق) : « لعمرى لظبى » .

(٣) التبريزى واللسان : « أحب إليكم » . والكلام تهكم كما سيأتى فى التفسير .

الأُوِىِّ إلى بيوتٍ مستحدَثةٍ بُنِيَتْ على عَمَدٍ مُتَّخذةٍ من رِماحٍ وسُيوفٍ . وهذه البيوت للغُزاة والمتصيِّدة أكثرَ ما تكونُ . ألا ترى قول امرئ القيس بعد فراغِه من الصيد :

ورُحْنا إلى بَيْتٍ بعَلْيَاء مُرَدَّحٍ   سَمَاوَتُهُ من أتحمِىٍّ مُشَرْعَبِ
وأوْتادُهُ ماذِيّةٌ وَعِمادُهُ   رُدَيْنِيّةٌ فيها أسِنّةُ قَعضَبِ[1]

وفى هذه الطريقة قول الآخَر :

واللهِ لَلنَّوْمُ على الديباجِ   على الحشايا وسريرِ العَاجِ
مع الفَتاةِ الطَّفْلَةِ المِغْناجِ   أهْوَنُ يا عَمْرُو من الإدلاجِ
وزَفَراتِ البازِلِ العَجْعاجِ[2]

وقوله « مَشُوفُ » من الشَّوْفِ ، وهو التَّجْلية ، يقال تَشَوَّفَتِ المرأة ، إذا تزيَّنَتْ وطَرَّت[3] ، وشُفْتُها وهى مَشُوفةٌ[4] . وقوله « لهُنّ حَفِيفٌ » ، فالحفيفُ : صوتُ طَيَران الطائر وصوت الرَّمْيَة .

٣ ــ أقولُ لِفِتْيانٍ ضِرارٍ أبُوهُمُ   ونحن بصَحْراء الطِّعانِ وُقُوفُ
٤ ــ أقيمُوا صُدورَ الخيْلِ إنّ نُفُوسَكم   لِميقاتِ يومٍ ما لهُنّ خُلُوفُ

قوله « أقيموا صدور الخيْلِ » فى موضع المفعول لأقُولُ ، والواو من قوله

---

(١) قعضب : رجل كان يعمل الأسنة فى الجاهلية .

(٢) أنشد هذا الرجز الإسكافى فى مبادئ اللغة ٤٨ والتبريزى فى شرحه .

(٣) كذا على الصواب فى م . وطرت : صارت طريرة . والطرير : ذو الرواء والمنظر . وفى الأصل والتيمورية : « وظهرت » .

(٤) لم يفسر المرزوقى « البارق » . قال التبريزى : « فارسى معرب ، أصله ياره ، وهو السوار » . وقيده استينجاس فى المعجم الفارسى الإنجليزى بأنه سوار عريض : (Broad bracelet) .

« ونحن بصحراء الطِّعان » واو الحال . ويقال أقَمْتُه فقام بمعنى قوَّمْتُه فتَقوَّم ، فيَتعَدَّى . وأقمت بالمكان إذا ثبَتَّ فيه إقامةً ، وأقَمْتُ من المكان إذا ارتحلْتَ عنه . قال امرؤ القيس :

* وفيمن أقامَ من الحىِّ هِرٌّ[1] *

فأما قول الشاعر :

أقولُ لأمِّ زِنْباعٍ أَقِيمِى صُدورَ الخَيْلِ شَطْرَ بنى تَمِيمِ

فمعناه اقْصِدى وتوجَّهى بِعِيسِكِ نحوَهُم . والشاعر أخذ يُبيِّن ما يأخُذ به نفْسَه من حَثِّ القومِ على القتال ، وتشجيعهم على اقتحامِ الأهوال ، ويُرِى أنه مع تقصير مَن قَدَّم التعريض به ، وعَلَّقَ التقريعَ بإهماله وتعذيرَه ، وعيَّرَه اشتغالَه بما لا يشتغلُ الموتورُ به ، لا يدَع أن يقولَ مُحَضِّضاً لهؤلاء الفتيان وقد وَقَعوا فى مَيدانِ الطِّعانِ وعَرْصَةِ الطِّراد : اثبُتوا فى وجوهِ أعدائكم ، وانصِبوا صدورَ خيلِكم لهم ، واستَبدِلوا بالانحراف تقحُّمًا ، وبالازورارِ تهجُّمًا ، ودَعُوا الذَّهابَ إلى ما يأمرُكم به الفَشَل ، ويدعوكم إليه التهاوُن والكَسَل ، مستشعِرين الخوفَ من الموتِ ، فإنّ لكلِّ نفسٍ أجَلا لا يؤخِّره الإحجامُ والنُّكوصُ ، ولا يقدِّمه الإقدام والنُّهوضُ . وقوله « ما لهُنّ خُلوف » ، أى ليس للنُّفوس تخلُّف عن الأمد المسمَّى ، ولا تراجُعٌ عن الحَيْنِ المُوَحَّى . والميقاتُ يُستعمل فى الزَّمانِ والمكانِ ، لأنّ الوقتَ الحَدُّ . ألا تَرى أنهم يقولون ميقاتُ أهلِ المشرق ، يريدون الموضع الذى يُقبَلُ له الحجّ إذا ابتُدئ بالمسير إليه منه .

---

(١) عجزه : * أم الظاعنون بها فى الشطر *

٢٤٣

وقال قَبِيصةُ بن جابرٍ [١] :

١ — بِثِنْيَيْ هِضَيمٍ جَدٌّ نَمَانِي بَطِيًّا بالمحاولةِ احتِيَالى [٢]

رواه بعضهم « بُنَيَّ هَيْصَمٍ هو جَد تُمَانى » و « أوجدتمانى » ، وليس بشيء ، لأنه يصير المعنى : يا بُنَيَّ هَيْصَمٍ أوجدتُمانى بطيء الحيلة بالمحاولة ؟ يريد : إنى سريعُ الحيلة . وهذا كلامٌ مُشَبَّجٌ مُخْتَلٌّ [٣] . وعلى روايتنا يقول : سَمَا بيَ جَدٌّ عالٍ بِثِنْيَيْ هذا المكان . والثِّنْيُ : ما انثَنَى من الوادى ، أى انعطَف . ويقالُ : ثَنَيْتُه ثَنْيًا ، ثم يُسمَّى المثنيُّ ثِنْيًا ، وما ثُنِيَ به أيضاً ثِنْيًا . على هذا قولُ طَرَفَةَ :

* لكالطِّوَلِ المُرْخَى وثِنْياهُ باليَدِ [٤] *

وقوله « بَطِيًّا بالمحاولة احتيالى » انتَصَب بَطِيًّا على الحال ، فالعامل فيه نَمَانِي . و « احتيالى » فى موضع الرَّفع على أنه فاعِل بَطِيء ، وقد أضافَ

(١) هو أبو العلاء قبيصة بن جابر بن وهب بن مالك بن عميرة الأسدى الكوفى ، له إدراك وصحب عمر بن الخطاب ، وهو من فقهاء أهل الكوفة ، وكان أخا معاوية من الرضاع ، سأله معاوية يوما عن الوليد بن عقبة : ما كان شأنك وشأن الوليد ؟ قال : خيرا يا أمير المؤمنين فى أول وصل الرحم وأحسن الكلام ، فلا تسأل عن الشكر وحسن الثناء ، ثم غضب على الناس وغضبوا عليه وكنا منهم ، فإما ظالمون فنستغفر الله ، وإما مظلومون فغفر الله له ، وخذ فى غير هذا يا أمير المؤمنين فإن الحديث ينسى القديم . قال : ولم ؟ فوالله لقد أحسن السيرة وبسط الخير وكف الشر . قال : فأنت أقدر على ذلك يا أمير المؤمنين منه فافعل . قال : اسكت لأسكت . فسكت وسكت القوم . قال له : مالك لا تتحدث ؟ قال : نهيتنى عما كنت أحب فسكت عما أكره . الإصابة ٧٢٧٠ والأغانى (٤ : ١٨٥) .

(٢) رواية الأصل هذه نص عليها التبريزى فى شرحه ، وهى رواية ياقوت فى معجم البلدان (٨ : ٤٦٨) . ورواية م والتبريزى : « بُنَيَّ هَيْصَمٍ هو جَدَّ تُمَانِي » . ورواية التيمورية : « بثنيى هضيم هوجدتمانى » .

(٣) المشبج ، من التشبيج ، وهو التخليط .

(٤) صدره : * لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى *

المصدرَ إلى المفعول ، لأنّ المعنى : يبطؤُ احتيالُ الناس علىَّ إذا حاوَلوهُ والمعنى يتعذّر وقوعُ ذلك منهم ، لفَرْطِ حزَامتى ، واستحكام تجربتى . ومثل هذه الإضافة قوله تعالى : ﴿ وَلَمَنِ انتَصَرَ بعد ظُلْمِه ﴾ ، لأنّ المعنى بعد ظُلم الظالم له . هضِيمٌ : فعِيلٌ من الهضْمِ ، مِثْل حِذْيَمٍ ، وهو اسمٌ لمكانٍ ضَيِّقٍ . وقيل فرَسٌ أهْضمُ ، إذا كان ضَيِّقَ الجَوْف .

٢ — وعاجَمْتُ الأُمورَ وعاجَمَتْنى كأنّى كنتُ فى الأُمَمِ الخَـوَالى

العَجْمُ : العَضّ فى الأصل ، ويستعمل فى الامتحان ، لأن الناظر فى الشيء هل هو صُلْبٌ أو لا يَعْجُمُه و يَعَضُّ عليه . ويقال عَجَمَتْنى الخطوب ، أى ابتليتُ بها . وفيما حُكِىَ عن الحجّاج[1] : « إنّ أمير المؤمنين نثَرَ كِنانَتَهُ فعَجَمَ عِيدَانَها عُودًا عُودًا » . وإنما استُعمِل فى معاناة الشدائد ومزاولتها كما استُعمِل المحاكّة والاحتكاك فيها . فيقول : إنى مُجرَّبٌ مُدرَّبٌ ، زاوَلتُ النَّوائب ، وعارَكتُ الأهوال والعجائب ، فلَزِمتُها ولزِمَتْنى ، وأزَمْتُ بها وأزَمَت بى ، وصِرتُ لطول تجارِبى وامتداد أيّامِ مُحاكّتى نِقَابًا مُحَدَّثًا[2] ، أبلُغُ بظَنّى ما يَبلُغ غيرى بمشاهدته . هذا على قُرب مِيلادى ، وحَداثةِ سِنّى ، حتى كأنى كنتُ فى الأمم الماضين ، وأحدَ الرّجال المعَمَّرين ، فأدرِكُ الشيء قبل حصولِه ، وأتصوَّرُه ولم يَجِئْ بصورةِ ما فُرِغ منه وقُضِىَ ، فظَنّى عِيَانٌ ، ويومى دهرٌ .

٣ — فلَسْنَا من بَنِى جَدّاءَ بِكْرٍ ولكنّا بَنُو جِـدٍّ النِّقَالِ

الجَدّاء : المقطوعة الثّدى . والبِكْر : الباقية على حالتها الأولى . ويقال

(١) انظر البيان (٢ : ٣٠٩) والكامل ٢١٥ والعقد (٤ : ١١٩) والطبرى (٧ : ٢١٠) وصبح الأعشى (١ : ٢١٨) وعيون الأخبار (٢ : ٢٤٣) وابن الأثير (٤ : ١٥٦) .

(٢) النقاب ، بالكسر : العلامة الفطن المبحث . والمحدث ، بفتح الدال المشددة : الملهم الصادق الظن .

رَحِمٌ جَدّاء ، إذا كانت غير موصولة . والشاعر جعَـلَ الجَدّاء البِكْر كِنَايةً عن الضّعيفة الشّرِّ ، القليلة الأهْلِ ، على عادتهم فى جَعْـلِ النِّتاج لها ، والوِلادِ والرَّضَاع والفِطام إذا فَظَّعوا حالها[1] . فيقول : لسنا أبناء الحرب القليلة الدَّرّ ، اليسيرة الأذى والشّرّ ، التى لم يتكثَّر موقِدُوها ، ولم يتشمّر لها خُطّابُها ومُوَلِّدُوها ولـكِنّا بنو المُنَاقَلاَتِ الشديدة الهِياج ، والوَقَعاتِ الصَّعبة المِرَاس ، التى كَثُر ذَرْؤُها ، وتكرّر القِتال حالاً بعدَ حالٍ من أهليها . وقولُه « بَنُو جِـدِّ النِّقال » يريد : بنو النِّقال البليغ المتناهى ، الذى لا مُساهَلةَ فيه ولا مُياسَرة . ويجوز أن يكون المعنى : لسنا أصحابَ حربٍ بِكْرٍ ، ولـكنّا بنو حربٍ عَوَانٍ . كأنه جَعَلَ النِّقال فى الوِلاد .

وقد اضطرب بعضُ المفسِّرين فى هـذا البيت ، فأتى بما يَمُجُّه السَّمْع ، ولا يَعيه القلب ، فقـال : المعنى لسنا بعُقمٍ لم يكثُر أولادُنا ، بل فينا الـكثرةُ والعِزّ . وقولُه « بَنُو جِدِّ النِّقال » يعنى به المُنَاقَلة فى الـكلام ، يريدُ أنهم خُطباء . قال : فالمِصراع الثانى ليس من الأول فى شىء ، وإذا كان كذلك فـكأنّ أبا تمّام ذَكَر البيت على رداءته ليُتَجَنَّب قولُ مِثلِه ، ولينبِّه على المُتَرذِّلِ منه ، كما نبَّهَ على المختار المستحسَن بغيره .

وهذا القـائلُ لم يَرْضَ بذَهابِهِ عن الصواب ، حتّى ظنّ بأبى تمّامٍ ما لم يخطُرْ له ببالٍ .

٤ ـ تَفَرَّى بَيْضُهَا عَنَّا فَـكُنَّا بَنِى الأَجْلاَدِ مِنْهَا والرِّمَالِ[2]

تبجّح فيما مضى بما أعطاه الله من الظّفَر بالأعداء ، وتوحّدَه به من الفطنة والذّكاء ، والنّكارة والدّهاء ، وبحسن الصّبر على مدارسة العَوْصاء ، ومداوَسة

(١) فى جميع النسخ : « قطعوا حالها » . (٢) م : « بنى الأجبال » .

الغَمّاء ، وبمجانبة الهيِّن من الحروب ، واقتحام أصعب الخطوب . وأقبَلَ الآن يفتخر بالكثرة ، إذ كان العزّ فيها ، فقال : «تفرّى بَيضُها عنا» . والضمير فى بيضها للأرض ، كما يقال : مِن الأرض خُلِقنا وإليها عَوْدُنا . وفى القرآن : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا . أحياءً وأمواتًا ﴾ . وساغ ذلك وإن لم يَجْرِ لها ذِكْرٌ لَمَّا لم يَلْتَبِس ، لدلالة الكلام عليه . والمعنى : تشقَّقَ بيضُ الأرض عنّا ، فنحن بنو حُزُونِها وسهولها . وإنما يعنى كثرتَهُم واتّساعَ ديارِهم ، إذ كان الأرضُ لا تنقسم إلّا إليها . والأَجْلَاد : جمع الجَلَد ، وهو الصُّلْب من الأرض ، وذِكْر البَيْض مَثَلٌ ، وقد تقدّم القولُ فى بيضة البَلَد .

٥ ـ لَنَا الحِصْنَانِ من أَجَإٍ وسَلْمَى وشَرْقِيَّاهُمَا غَيْرَ انْتِحَالِ

٦ ـ وتَيْمَاءُ الَّتِى مِنْ عَهْدِ عَادٍ حَمَيْنَاهَا بأَطْرَافِ العَوَالِى

هذا كالبيان لما تقدّم ، والكشفِ عما أجمل ، لأنه أَتْبَعَ ما وَصف من أخلاقهم وعزّهم ، بتحصُّن بلادهم وتمنُّع جبالِهم ، فقال : لنا جبلا طيٍّ أجأٌ وسَلْمَى ، ونواحى الشَّرقِ منهما ، دعْوَى صحيحةً لا يضعِّفُها انتحالٌ ، ولا يُوهِّنها كِذَابٌ . ويقال انتحلتُ الشَّىء ، إذا ادَّعيته ولم يكن من شانِك . على هذا قال الأعشى :

فكيف أنا وانتحالى القَوَا فِ بَعدَ المَشيبِ كَفَى ذاكَ عارا[1]

ونُحِلَ الشَّاعرُ قصيدةً ، إذا رُوِيت عنه ولم تكن من قِبلِهِ . وانتصب « غير » على أنّه مصدر أكّدَ به ما قبله ، وعلى قولهم : هذا زيد حَقًّا ، وغيرَ شَكٍّ . وقولُه « وتيماء » أراد ولنا تيماءُ التى هذا صفتُها وحَظُّها من عِنا يَتنا بها .

(١) ديوان الأعشى ٤١ واللسان المقاييس (نحل) . والقواف ، هى القوافى ، مثل ما جاء فى قول الله : (وجفان كالجواب) ، أى كالجوابى . وفى الديوان : « فما أنا أم ما انتحالى القواف » .

وهى بلدةٌ بناحية يَثرِب . وقولُه « من عَهْدِ عادٍ » جَعل مِنْ بدل مُنذُ ، لأنّ مُنذ فى الأزمنة بمنزلة مِنْ فى الأمكنة ، فهو فى موضع الظّرف ، والعامل فيه حميناها . وقد ذكر امرؤ القَيْس [تيماء[1]] فقال :

وتَيماءَ لم يَترُكْ بها جِذْعَ نَخْلَةٍ ... ولا أُجُمًا إلا مَشيداً بجَنْدَلِ[2]

٢٢٤

وقال سالم بن وابصَةَ[3] :

١ — عليك بالقَصْدِ فيما أنتَ فاعِلُه ... إنّ التَّخَلُّقَ يأتى دونَهُ الخُلُقُ

قوله « عليكَ » مما أُغْرِىَ به وحُضِّضَ ، وصار بذلك من أسماء الأفعال . ويقال عليك كذا وعليك بكذا . والمعنى الزَمْه وخُذْ نَفْسَكَ به . والقَصدُ : واسطة الأمور ، فما تعَدّاه سَرَفٌ وما انحطّ عنه قصورٌ . ولذلك قيل لمن ليس بجَسيمٍ ولا ضئيلٍ ، وليس بقصيرٍ ولا طويلٍ : هو قَصْدٌ ومقتصِدٌ . ومعنى البيت : عليكَ باستقامة الطريقة وملازَمة الأعدَلِ فى القضيّة مما تُلابِسهُ وتفعلُه ، واترُكْ تكلفَ ما ليس من شيمتك وسجيّتك ، فإنك إن تجشمتَهُ صابرًا على البَلوَى فيه نَزَعَتْ نفسُكَ قريبًا عنه ، وعُدْتَ إلى مذهبك الأوّل فلحقك الذّمُّ له .

٢ — ومَوْقِفٍ مِثْلِ حَدِّ السَّيْفِ قمتُ به ... أَحْمِى الذِّمارَ وتَرْمِينى بِهِ الحَدَقُ

يقال للمكان النّابى بصاحِبِه ولا يمكنه الاستقرارُ به تشبيهًا : هو مثل حَدِّ

---

(١) التكلة من م والتيمورية .

(٢) الأجم ، بالجيم : الحصن . والرواية المشهورة : «ولا أطمًا» والأطم كالأجم وزناً ومعنى .

(٣) سالم بن وابصة بن معبد الأسدى : شاعر فارس من شعراء عبد الملك بن مروان ، وهو تابعى كان غلاما شابا فى خلافة عثمان ، وأبوه وابصة صحابى جليل ، وفد على الرسول سنة تسع . الإصابة ٣٠٤٤ ، ٩٠٨٦ والمؤتلف ١٩٧ وشرح شواهد المغنى للسيوطى ١٤٣ . ونسبة الشعر إلى سالم هى كذلك فى المؤتلف ونوادر أبى زيد ١٩١ والبيان (١ : ٢٣٣) . ونسب فى الحيوان (٣ : ١٢٧) والعقد (٢ : ٢٤) وزهر الآداب (١ : ٧٧) والشعراء ٥٥٧ إلى العرجى . ونسب فى حماسة البحترى ٣٥٨ إلى ذى الإصبع . وبدون نسبة فى مجالس ثعلب ٣٠٠ .

السيف ، وكقَرْنِ الأعْفرِ ، وحدّ السّنان . وذِمارُ الرّجُل : ما يجب عليه حفظُه . ورجُلٌ ذِمْرٌ (١) وذَمِيرٌ ، إذا كان مُنكَراً داهيةً . ويقال ذَمّرْتُ الرجُلَ إذا حَضَضْتَه ، وتذامَرَ القومُ فى كذا إذا تَحاضُّوا . والمعنى : رُبَّ مكانٍ ضيّقٍ دقيق ، لا تَثبُتُ عليه الأقدامُ ، أنا قمتُ به حامياً لما يَحِقُّ علىَّ حِمايَتُه ، والعيونُ ترمُقُنى والنّفوسُ تتطلّع إلَى ما يكونُ منّى ، وتَتنسّم أخبارى فيه وبَلائى . وقولُه « وترمينى به الحَدَقُ » جعل الفعلَ على التوسّع للحَدَق ، وإنما هو للناظرين بها . ألا ترَى أنه يقالُ رمانى القومُ بأبصارِهم . وموضع « أحمِى الذِّمارَ » موضعُ الحال .

٣ — فما زَلِقْتُ ولا أَبْلَيْتُ فاحشةً   إذا الرّجالُ على أمثالِها زَلِقُوا (٢)

يقول : استقَمتُ فى فعلى ، وتثبّتُّ فى موقِفِى ، ولم أتعثر فيما صرّفتُ القولَ فيه ، ولم أتزلّقْ عندما حاضَرتُ به ودافعتُ عنه ، ولم أقدِم على ما يُعَدُّ سَقْطَةً منّى أو يَشينُنى ، إذا تُحُدِّثَ به عنّى فى وقتٍ تكثُر زَلاّتُ الرّجالِ فى مطالعة أمثالِه من المواقف ، وتَبْطُل دعاوِيهم المتقدِّمة لما يَظهرُ من عجزهم ، وسُوء استمساكهم (٣) . وجوابُ إذا فيما تقدّم . والمعنى : إذا زَلِقَ الرّجالُ فى أمثالِه من المقامات ثَبَتُّ أنا .

٢٤٥

وقال آخر (٤) :

١ — إنْ أَكُ قَصْدًا فى الرّجال فإنّنى   إذَا حَلَّ أَمْرٌ سَاحَتِى لَجسيمُ

(١) ويقال أيضاً ذمر بفتح فكسر ، وذمر بكسرتين مع تشديد الراء .
(٢) يقال أبلاه جهده ونائله ، إذا أداه إليه . ورواية التبريزى : « ولا أبديت فاحشة » .
(٣) كذا فى م والتيمورية . وفى الأصل : « ونبو استمساكهم » .
(٤) لم يرو التبريزى هذه الحماسية ذات البيت الواحد . والبيت فى عيون الأخبار (٤ : ٥٤) مع نسبته إلى « أوفى بن موله » ، ولعل صوابه « أوفى بن موألة » فهو المعروف فى أعلامهم .

قد تقدّم القول فى حذف النون من أكُ . ومعنى البيت إن كان فى خِلقتى اقتصادٌ فلم أبْلغ غايات الجِسام ، فإن غَنائى فى النوائب إذا نابت ، واهتدائى لوجوه الخُروج منها إذا حَزَبَتْ ، يَحْكُمان لى بجزالة الرأى وجَسامةِ النفس ؛ لأنّ الرجُل بقلبِه ولسانِه ، لا بجسْمِه وجثمانِه . وفى هذه الطريقة قولُه :

إذا كنتُ فى القومِ الطِّوالِ أصَبْتُهُمْ   بِعارِفَةٍ حتى يُقالَ طَوِيلُ[1]

والسَّاحَةُ : فضاءٌ بين دور الحىّ ، وكما قيل على التوسُّع نَزَلَ بساحَتِهِ أمْرٌ ، قيل أيضاً نَزَلَتْ بعَقْوَتِه خُطُوبٌ .

٢٤٦

وقال عامرُ بن الطفَيْل[2] :

١ — قَضَى اللهُ فى بعضِ المكارِهِ لِلفَتَى   بِرُشْدٍ وفى بَعْضِ الهَوَى ما يُحاذِرُ

٢ — ألَمْ تَعلَمِى أنّى إذا الإلْفُ قادَنِى   إلى الجَوْرِ لا أنْقادُ والإلْفُ جائرُ

معنى هذا يماثل قول الله تعالى : ﴿ عَسَى أنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خيرٌ لَكُمْ وَعَسَى أنْ تُحِبُّوا شيئاً وهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ﴾ . وفى مثله قال غيره :

كم فَرْحَةٍ مَطْوِيَّةٍ   لكَ تحتَ أثْناءِ النّوائبْ

ومَسَاءةٍ قد أقْبلَتْ   من حَيْثُ تُنْتَظَرُ المَواهِبْ

ويقال قَضَاهُ وقَضَى به . وقولُه «وفى بعض الهوى» أراد به : وقَضَى له فى بعض المَحابِّ ما يُحاذِر ؛ فوضع الهوى موضع المَحابِّ لأنَّ كلَّ محبوبٍ يصحَبُه الهوى ، كما أنّ قولَه « ما يحاذِرُ » موضوعٌ موضِعَ الغَوَاية لكونِهِ فى مقابلة

---

(١) سيأتى البيت فى حماسية فى (باب الأدب) منسوبة إلى أحد الفزاريين . وأنشده الجاحظ فى البيان (٣ : ٢٤٤) بدون نسبة . والتبريزى : « وصلتهم بعارفة » : الجاحظ : « فضلتهم » .

(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ٢٧ .

الرُّشْدِ ، إذْ كان الغَىُّ مِن حقِّه أن يُحاذَرَ . وقوله « ألم تَعْلَمى » تنبيهٌ على مكانِه من الرَّأى ، وأنَّ ظنَّه يقومُ مقامَ عِيانِ غيرِه . وألف الاستفهام إذا اقترن بحرف النَّفى يقرِّرُ به فيما يَجِبُ ويَحِقُّ ، فيقولُ : أمَا عرَفْتِ من دأْبى وطبيعتى ، أنّى لا أتبع الغَير ، ولا أنقادُ لما يُجانِبُ العدلَ ، فمتى سامَنِى أليِفى مطاوعتَهُ فيما لا أستوفِقُه أبَيتُ عليه ، وتركتُه وما يختارُ من الاعتساف وركوب الجورِ والضَّلالِ . وكان يجب أن يقول : لا أنْقادُ وهو جائرٌ ، فوضَع الظاهرَ موضع المضمَر .

٢٤٧

غزا مُجَمِّعُ بن هِلاَلِ

ابن خالدِ بن مالكِ بن هلال بن الحارث بن تَيم اللهِ(١) ، يريدُ بنى سَعْدِ بن زَيْدِ مَنَاةَ ، فلم يَغْنَم ورجَعَ من غَزاتِه تلك ، فمرَّ بماء لبنى تميمٍ عليه ناسٌ من مُجاشِعٍ ، فقَتل فيهم وأَسر ، فقال فى ذلك :

١ — إنْ أُمْسِ ما شَيخًا كبيرًا فطالَ ما عَمِرْتُ ولكن لا أرَى العُمْرَ يَنْفَعُ

قوله « ما شيخًا » ، ما زائدة للتأكيد . يقول : إن صرتُ شيخًا طاعنًا فى السِّنِّ ، ضارِعًا لنائبة الدهر ، مُهدِفًا لِسهامِه ، مُقرَّعًا بلياليه وأيّامِه ، فحقٌّ ذلك واجبٌ ، لأنّ من يَعِشْ يَكْبَرْ ومن يكبر يَهْرَم ، وطولُ العمر لا يُجْدِى إذا كان مؤدّاهُ إلى الضَّعف ، وقُصاراه الموت . وقوله « طال ما عَمِرْتُ » يجوز أن يكون ما مع الفعل فى تقدير المصدر ، ويكون حينئذ حرفًا عند سيبويه ، والتقدير :

(١) زاد السجستانى بعده فى المعمرين ٣٢ : « بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن على ابن بكر بن وائل . وذكر السجستانى أنه عاش مائة سنة وتسع عشرة سنة فقال هذا الشعر . وانظر الخزانة (٤ : ٣٦٠ — ٣٦١) .

فقد طال عمري . وعلى هذا يُكتَبُ طال مُنفصِلاً من ما . ويجوز أن يكون ما كافةً للفِعل عن العمل ، ومُخرِجًا له من بابِه ، ولذلك جاز وقوع الفِعل بعدَهُ ، وإن كان الفِعْلُ لا يدخُل على الفِعْل ، وعلى ذلك يُكتب طالَ متصلاً بما لأنَّه منه ومن تمامه . ومعنى عَمِرْت : بَقِيتُ وحَيِيتُ . والعُمْر ، قال الخليل : هو الحياةُ والبقاء ، ومنه لعَمْرُ الله . وقولُ الشاعر[1] :

وعَمِرْتُ حَرْسًا قَبْلَ مَجْرَى دَاحِسٍ   لَوْ كَانَ للنَّفْسِ اللَّجُوجِ خُلُودُ

يشهد لذلك . وقولُه « لا أرى العُمْرَ » أراد اتّصال العمر وطولَهُ ، فحذف المضاف وأقامَ المضاف إليه مقامَه . وذكر بعضهم أنّ أبا تمّام أخطأ في قولِه :

ما لِامرئٍ خاضَ في بَحْرِ الهَوَى عُمُرٌ   إلاَّ وللبَيْنِ منه السَّهْلُ والجَبَلُ

لأنّ العُمْرَ اسمُ مُدَّةِ الحياة بأسرِها لا يتبعّض ، فكما لا يُقال ما لزيدٍ رأسٌ إلاّ وفيه شَجَّةٌ ، كذلك لا يقالُ ما له عُمْرٌ إلاّ وهو قصير . قال : وليس قولهم : ما لَهُ عَيْشٌ إلاّ مُنغَّصٌ ، ولا حياةٌ إلاّ مكدَّرةٌ ، مثلَ قولك ما لَهُ عُمْرٌ إلاّ قصير . لو قُلْتَه ، لأنّ عيشَ الإنسان ليس هو مُدَّة حياتِه بأسرِها . ألا ترَى أنك تقولُ : كان عَيْشي بالعِراق طيِّبًا ، وكانت حياتي[2] بمصرَ لذيذةً ، ولا تقول كان عُمْري . والذي قالَهُ هذا المعترض على أبي تمّام يبطله ما حكيتُه عن الخليل في تفسير العُمْر ، والبيتُ الذي أنشدتُه . ألا ترَى أنّ قوله « عَمِرْتُ حَرْسًا قبلَ مَجْرَى دَاحِسٍ » يقتضي تبعيضَ عمره ، إذْ كان ما بعدَهُ من عُمْرِه قد أفْرَدَه عما قَبْلَه ، وإذا كان الأمر على هذا جاز أن يقال : كان عُمْري قبلَ مَجْرَى داحِسٍ أطيَبَ من عُمْري بعدَه . وفي القرآن : ﴿فقد لَبِثْتُ فِيكُم عُمُرًا﴾ أي بعض عُمْري ، فحذف المضاف .

(١) هو لبيد ، كما في المعمرين ٦٣ .

(٢) هذا ما في م والتيمورية . وفي الأصل : « وكان عيشي » .

٢ – مَضَتْ مِائَةٌ من مَوْلِدِى فَنَضَوْتُها وخَمْسٌ تِبَاعٌ بَعْدَ ذالكَ وأَرْبَعُ[١]

هذا تفصيلٌ لما أجملَه من كِبْرَتِه . يقول : أتت عَلَىَّ مائة سنةٍ من ميلادى فألغيتُها[٢] ورائى ، كأنّى لبِسْتُها ثم خَلَعْتُها واستتبعتُ بعدَها تِسعًا توالتْ ، فَلِى عُذر فى ضَعفٍ يَظهر ، أو كَسَلٍ يَلحق ، إذ كنتُ غابرَ لِدَاتٍ فَنَوا ، ومتعرَّقَ أعوامٍ بادَ أهلُها فنُسُوا . قولُه « فنضيْتُها » يُروَى « فنضوتُها » . ويقال نَضَا ثَوْبَه يَنْضُو ويَنْضِى إذا نَزَعَه ، لغتان . على هذا قول امرئ القيس :

* فجئتُ وقد نَضَتْ لنَوْمٍ ثيابَها[٣] *

ويقال نَضَى سيْفَهُ وانتضَى بمعنًى . وقوله « بعد ذالكَ » إن قيل لِمَ لَمْ يَقُلْ بعد تلك ، والإشارةُ إلى قوله مائةٌ ؟ قلت : لم يُراعِ تأنيثَ المذكورِ وتذكيرَه ، بل أراد ما ذكرتُ . على ذلك قول ذى الرُّمَّة :

ومَيَّةُ أَحْسَنُ الثَّقَلَيْنِ خَدًّا وسالِفَةً وأَحْسَنُهُ قَذَالاَ

ألا تَرَى أنه لم يَقُلْ وأحسنُهُما . وقولُه « وخَمْسٌ تِبَاعٌ » يقال تَبِعَ تِباعًا ، فهو مصدرٌ وُصِفَ به . ويقال أيضاً رميتُه بسهمين تِباعًا ، أى وِلاءً ، وتابَعَ بينهما فلانٌ تِباعًا .

٣ – وخَيْلٍ كأسْرَابِ القَطَا قدْ وَزَعْتُها لهَا سَبَلٌ فيه المَنِيَّةُ تَلْمَعُ[٤]

تذكَّر بما كان منه عند تَعَالِى سِنِّه وتَنَاهِى عُمرِه ، ما كان منه فى رَيْعَانِ شبابِه ، وعند استكمالِ قوَّتِه وتَرَامِى الأحداثِ به ، فيقولُ : رُبَّ خيلٍ تمتد

---

(١) رواية المعمرين : « وعشر وخمس بعد ذاك » . وهذا يوافق ما زعموا أنه عاش ١١٩ سنة .

(٢) فألغيتها ، بالغين المعجمة ، كذا وردت فى جميع النسخ . وفى الخزانة حيث نقل عن المرزوقى « فألفيتها » بالفاء . ولعلها « فألقيتها » .

(٣) عجزه : * لدى الستر إلا لبسة المتفضل *

(٤) السجستانى : « فيارب خيل كالقطا »

وتتوالَى مبادِرةً إلى المُلتَقَى، وتسترسل استرسالَ فِرَق القَطا عند اندفاعها للوِرْد، أنا بعثْتُها وهَيَّجتُها، ولها عَارِضٌ يمطر بالموتِ ويَلمعُ. والسَّبَل: المَطَر. ورواه بعضهم: «لها أَسَلٌ» وهي الرِّماح. وقوله «قد وَزَعْتُها» يجوز أن يكون معناهُ كَفَفْتُها عن التعجُّل، ويجوز أن يكون قسَّمتُها للتعبئة أو الغــارة، لأنه يُقال وَزَعْتُ الشيء ووزَّعتُه جميعاً؛ وعنــده أوزاعٌ من الناس، أى فِرَقٌ، وعلى الوجهين فتدبيرُها كان إليه. وقوله «قد وَزَعْتُها» من صفة الخيل، لأنّ جواب رُبَّ فيما بعدَهُ، ولها سَبَلٌ في مَوْضع الحال. وقولُه «فيه المنيّة» من صفة السَّبَل، ويَلْمَعُ في موضع الحال للمنيّة، والعامل ما يدلُّ عليه الظرف.

٤ — شَهِدتُ وغُنْمٍ قد حَوَيْتُ ولذَّةٍ أَتَيْتُ وماذا العَيْشُ إلّا التَمَتُّعُ[1]

قوله «شهدتُ» جواب ربّ، فيقول: رُبَّ خيلٍ على هذه الصِّفة حَضَرتها مُدَبِّراً لها، وربَّ غنيمةٍ تَغَنَّمْتُها وتولَّيتُ قسمتها، ورُبَّ لذّةٍ أتيتها ونِلتُ مَنالى منها. ثم أقبلَ كالمتلفِّت إلى غيرِه، فقال: وما العَيْشُ إلا التمتّع بهذه الأشياء. ارتفع «العَيْشُ» على أنَّه عطفُ البيان لِذَا، لأنه جَعل العيش كالحاضر، فأشار به إليه وإن كان القصدُ إلى الجنس. والتمتع: الانتفاع بالشيء زماناً طويلا. ومنه مَتَع النَّهارُ: ارتفع، واستمتعتُ وامْتَتَعتُ وتمتَّعت بمعنًى.

٥ — وعاثِرَةٍ يَوْمَ الهُيَيْمَا رَأَيْتُها وقَدْ ضَمَّها من دَاخل الحُلْبِ مَجْزَعُ[2]

يقول: وربّ امرأةٍ في هذا اليوم لتمكُّن الخوفِ منها، وتملُّكِ الجزَعِ قلبها، رأيتُها تَعْثُرُ لوجهها ولا تستقيم في مشيها، مخافَةَ السِّباء لهــا، وقد ضَمَّها مَجْزَعٌ، أى استولَى عليها الحزنُ والقلقُ، حتى صار يضمُّها إليه ولا يدعُها لغيره.

(١) السجستانى: «أصبت وماذا العيش إلا تمتع».

(٢) ياقوت: «الهييما: اسم موضع كانت فيه وقعة لبنى تيم الله بن ثعلبة بن عكابة، على بنى مجاشع». وأنشد هذا البيت والبيتين ٧، ٨.

وقولُه « من داخِلِ الخِلْبِ » بَيَّنَ به منشأَ الجزَع ومقرّه ، والخِلْبُ : حجاب القَلبِ ، ومنه قولهم : خَلَبَتِ المرأةُ فلاناً ، أى أصابت خِلْبَه بلطفِها وخَدَعَتْهُ ، خَلْباً . ثم يقال : هو خِلْبُ نساء ، كما يقال هو زِيرُ نساء . وهذا على طريقتهم فى النَّقْضِ والنَّقض وما أشبهه .

٦ – لَهَا غَلَلٌ فى الصّدْرِ لَيْسَ ببَارِحٍ شَجًى نَشِبٌ والعَيْنُ بالماء تَدْمَعُ

يجوز أن يكون قولُه « لها غَلَلٌ » فى موضع الجرِّ على أن يكون صفةً لعائرةٍ ، ويجوز أن يكون فى موضع المفعول الثانى لقولِهِ رأيتُها : وأصل الغَلَلِ هو الماء يَجرِى بين الشجر ، فاستعاره لما تداخَلها من الشَّجَى . وقال الخليل : الغَلَلُ : تغَلغُل الماء بين الشجر . والغَلْغَلةُ : سُرْعة السير ؛ ومنه رسالةٌ مُغَلغَلةٌ أى محمولة من بلَدٍ إلى بلَدٍ . ورواه بعضهم[1] « لها غُلَلٌ » بضمّ الغين ، جمع غُلَّةٍ . ولو كان كذا لقال ليست ببارِحَةٍ[2] . ومعنى « ليس ببارحٍ » أى ليس بزائلٍ ، وموضع قوله « شجًى نَشِبٌ » رفعٌ على البدل من غَلَل . ويريدُ فلانٌ أنّه عَلِقَ به كما ينشَبُ الصَّيدُ فى الحِبالة . وفى الكلام المرويّ : نَشِبَ فلانٌ مَنْشَبَ سَوء ، أى وَقَعَ فيما لا يتخلّص منه . وقولُه « والعين بالماء تَدْمَعُ » فى موضع الحال ، ولابُدَّ من الواو فيه ليتعلّق بذى الحال . والعامل فيه قولُه شَجًى نَشِبٌ . ولو كان فى الجُمْلَةِ ضمير لكُنتَ فى دخول الواو وسقوطه بالخيار ، إذْ كان الضمير يُعلِّقُ من الحال ما يُعَلِّقُه الواو .

٧ – تقولُ وقد أفرَدْتُها من حَلِيلها تَعَسْتَ كما أتْعَسْتَنِى يا مُجَمِّعُ

قوله « تقول » جواب رُبَّ . والمُرَادُ : رُبَّ عائرة هذه صفتُها فى يوم الهَيْجاَ

(١) هو أبو هلال كما نص التبريزى .

(٢) التبريزى بعد أن ساق هذه الرواية « ليس ببارح ، أى بارحة ، فذكر لأن المؤنث غير حقيقى » .

قالت لى بعد أن سَبَيْتُها وفرّقتُ بينها وبين زَوجها بالقَتل سقَطْتَ لوجهك ، ولاانتعَشْتَ من عَثْرتِك يا مُجَمِّع ، ولحقكَ الانكسار والنَّكْس كما ألحقتَهُما بى . وسُمِّى الزّوجُ حليلا والمرأة حليلةً لأنّ كلّ واحدٍ منهما يَحُلُّ مع صاحبه .

٨ — فَقُلْتُ لَهَا بَلْ تَعْسَ أُخْتِ مُجَاشِعٍ   وقَوْمِكِ حَتَّى خَدُّكِ اليَوْمَ أضْرَعُ

يقول : أجَبْتها بأن قلت بل التَّعْسُ لك ولقومِكِ حين ضَيَّمُوكِ ، وفعلُوا ما أدّى وبالَه إلى أن صار خَدُّكِ اليومَ ضارعاً ، وجدُّكِ سافلاً . وقوله « بل تَعْسَ أختِ مجاشعٍ » تَدَارَكَ بِبَلْ دعاءها عليه فنقَلَهُ إليها ، لأنّ بلْ للإضراب عن الأوّل والإثباتِ للثانى . وأجْرَى تَعْساً فى الإضافة مَجرى وَيْكَ ، وذاك أنّ المصادر التى قد اشتُقّ الأفعال منها إذا دُعِىَ بها تُستعملُ باللام لا غير ، تقول : تَبٌّ لزيْدٍ وخُسْرٌ لعَمرٍو . وما لم يُشتَقّ الفعلُ منه وهو وَيلٌ وَوَيْحٌ وَوَيْسٌ إذا كان معها اللام رُفعتْ وصارت باللام جُمَلًا ، وإذا أفرِدَت عن اللام أضِيفَتْ ونُصبت . تقولُ وَيْلٌ لزيدٍ وَوَيْحٌ لعَمْرٍو فترفعُ ، وويلَ زَيْدٍ وويحَ عَمْرٍو فتَنصِبُ . وهذا الشاعر قال : « بل تَعْسَ أخْتَ مُجَاشع » فأجراه مَجرى وَيْلَ الفِعْلُ يُشتقّ منه . ومُجَاشع : قبيلة . فقال أخْتَ مجاشع كما يقالُ يا أخا بَكْرٍ ويا أخا تَميمٍ ، و « أَضْرَعُ بمعنى ضَارِعٍ . ويُقال خَدُّهُ ضَارِعٌ ، وجَنْبُهُ ضَارِعٌ . والضَّراعة : الاستِفالُ فى خضوعٍ . قال الهذلىّ[1] :

* لشانِئِكَ الضَّرَاعَةُ والكُلُولُ[2] *

٩ — عَبَأتُ له رُمْحًا طويلا وألّةً   كأنْ قَبَسٌ يُعْلَى بها حين تُشْرَعُ

أخذ يبيّن كيف تمكّن من قَتْل زوجها ، وماذا أعدّ من السلاح له . ويقال :

---

(١) هو ساعدة بن جؤية . ديوان الهذليين (١ : ٢١١) .

(٢) صدره : * ألا قالت أمامة إذ رأتنى *

عَبأتُ الخيلَ وعَبّأتَها ، إذا هيّأتها للحرب ، وعَبّيتُها أيضاً . وعَبأتُ الطِّيبَ والمَتاعَ لا غير . والمراد : هَيّأتُ له رُمحًا طويلا ، وسِنانًا لَمّاعًا بَرّاقًا ، كأنما يُغلَى به نار إذا أُشْرِعَ للطَّعن . والألّةُ : تُستعمل في الحربة وتشتهر بها . وأصل الأليل البريق . والمراد بها هاهنا السِّنانُ كما ذكرت . وقولُه « كأنْ قَبَس » يجوز فيه الرّفع والنصب والجرّ ، فإذا رفَعْتَ فعَلَى الضمير ، يريدُ كأنها قَبَس يُغلَى بها حين أُشْرِعَتْ . والقَبَسُ : النار . ومن نَصَبَ فلأنَّه أعملَ كأنّ مُخفّفةً عملَها مثقّلة . يريدُ : كأنّ قبَسًا يُغلَى بها ، ويكون الخبَرُ يُغلَى بها . ومن جَرّ فقال كأنْ قبسٍ ، جعل أنْ زائدة وأعملَ الكافَ كما زيدَ في قولِهِ : لمّا أن جاء زَيْدٌ أعطيْتُه ، وفي قولِهِ : واللهِ أَنْ لو جِئْتَني لأكْرَمْتُكَ ، يريد واللهِ لو جئتَني .

١٠ – وكائنْ تَرَكْتُ مِن كَريمةِ مَعْشَرٍ عليها الخُمُوشُ ذاتَ حُزْنٍ تفَجّعُ

نَبّه بهذا الكلام على أنّ ما حكاهُ من حديث العاثِرَةِ يوم الهُبَيْمَا ، واقتصَّه من شأن بَعْلِها ، لم يكنْ بِدْعًا منه ولا عَجَبًا ، بل ذلك دَأْبُه مع أمثالها قَبلها وبَعدَها . وقولُه « وكائنْ » لغةٌ في كأيِّنْ ، وهما جميعًا بمعنى كَمْ ، وهو للتكثير . فيقول : وكم امرأةٍ كانت كريمةَ عشيرتِها تركتُها وهي تَخْمِشُ وجهَها ، وتتفجّعُ جزَعًا على قَيِّمِها من بَعْلٍ أو أخٍ أو ابن . والمعنى : كان ذلك منّي كثيرًا . وقولُه « عليها الخُمُوش » الخَمْشُ في الوجه وفي سائر البَدَن مثل الخَدْش . ومعنى عليها ركِبَها وعلاها(١) كما يقال على فُلانٍ دَيْنٌ أي رَكِبَهُ وعَلاَه .

---

(١) هذا ما في م والتيمورية . وفي الأصل : «ومعنى عليها ومعنى علاها» . والكلام من مبدأ « كم » ، وهو للتكثير » إلى « في ضده » من شرح البيت الأول من الحماسية التالية ساقط من م .

٢٤٨
وقال الأَخْنَسُ بن شهاب[١] :

١ ــ فَمَنْ يَكُ أَمْسَى فى بِلَادٍ مُقَامُهُ يُسَائِلُ أَطْلَالاً لَهَا لا تُجَاوِبُ[٢]

يُرْوَى « فى بلادٍ مُقَامُه » والمُراد: من أَمْسَى مُقَامُه فى بلادٍ مسائلاً أطلالاً لتلك البلاد. فمُقامه اسمُ أمسَى، وخبره فى بلادٍ. ويُروَى « بلادٍ مُقَامَةٍ » على الإضافة، ويكون اسم أمْسَى ضميرَ « مَنْ » المُستكِنّ فيه. والمُقَامَةُ: الإقَامَةُ، والمرادُ: مَن أمسى فى بلادِ إقامةٍ، أى بلاد مُستصلَحةٍ للإقامة مستوطَنَةٍ. و « يُسائلُ » على الرِّوايتين فى موضع الحال. وكما يُقال هو بَلَدُ مُقامةٍ، يقالُ فى ضِدِّه هو بَلَدُ قُلْعَةٍ. والبِلادُ: جمع بَلَدٍ، وهو القِطْعة من الأرض اختُطّ فيها أو لم يختطّ. يشهد لهذا قول الراجز:

* قد تَرَكَ البَرْنِىُّ فاهُ بَلَدَا *

أى لا أسنانَ فيه. وقولُ الآخر[٣] :

عَرَفَ الدِّيارَ توهُّمًا فاعتادَها من بَعْدِ ما شَمِلَ البِلَى أَبْلادَها

ومعنى البيت: مَن كان الوقوفُ على ديار الأحبّة من همِّه، فأَمْسَى مُقامُه فى بلادٍ مُسائلاً أطلالاً فيها لا تجاوبُه، فأَمرِى كَيْتَ وكَيْتَ[٤]. وجواب الجزاء فيما بعده. وقد مرَّ القول فى حذف النون من يَكُ.

(١) هو الأخنس بن شهاب بن شريق بن ثمامة بن أرقم بن غنم بن حزابة بن الحارث ابن نمير بن أسامة بن بكر بن معاوية بن تغلب بن وائل. وهو فارس « العصا »، والعصا فرسه. وانظر الاشتقاق ٢٠٣ والأمالى (٣ : ١٨٥)، وهو شاعر جاهلى قبل الإسلام بدهر. شرح الأنبارى للمفضليات ٤١٠ والخزانة (٣ : ١٦٩). وقصيدة هذه المقطوعة برقم ٤١ فى المفضليات.

(٢) هذا البيت لم يروه المفضل.

(٣) هو عدى بن الرقاع. اللسان (بلد).

(٤) الكلام بعده إلى أول شرح البيتين الأخيرين من الحماسية ٢٤٩ ساقط من م. ومن هنا تبدأ المعارضة على نسخة (لاله لى) التى أشرنا إليها بالرمز (ل).

٢ — فَلابْنَــةِ حِطَّانَ بنِ قَيْسٍ مَنَازِلٌ كَمَا نَمَّقَ العُنْوَانَ فى الرِّقِّ كَاتِبُ(١)

الفاء مع ما بعدَهُ إلى صدر البيت الذى يليه جواب الجزاء ، كأنّه قال : فلهذه المرأة منازلُ أنا وقفْتُ بها ، وقضَيْتُ حَقَّ الهَوَى فيها . والمعنى : مَن كان الوقوف على الدِّيار من دينِهِ فى الهوى ومذهبه ، حتَّى صار يُسَائل ما لا يُجيب ، فلِي فى الوقوف على ديار ابنةِ حِطّانَ ما يزيدُ على كل مذهبٍ ، ويَفِى على كل عادةٍ . وقولُه « كما نَمَّقَ العُنوانَ » من صفةِ المنازل ، ويروى « العُنيانَ » و « العُلْوان » . فأما العُلْوان فهو فُعْوال من عَلَنَ الأمرُ ، أى ظهر . وأمّا عُنوانٌ فهو فُعْوالٌ أيضاً من عَنَّ له كذا ، أى عَرَضَ . وأمّا عُنْيان فهو فُعْلانٌ من عَنَاهُ كذا يَعْنِيه . وفى هذا القدر من الكلام فى هذا الموضِـع كفايةٌ إذ كُنّا قد بَسَطْنا القولَ فى شرح كتاب الفصيح . وكان الواجب أن يقول كعُنْوانٍ نَمَّقَه كاتبٌ ، وتشبيه آثار الديار بالـكتابة مألوفٌ فى طرائقهم ، لـكنّه طوَّلَ الـكلامَ تحقيقاً للتشبيه ، فصار ظاهرُه كأنه شبَّه الآثارَ بتنميقِ الـكاتب خطَّه إذا عَنْوَنَ كتابًا . ومثله قول الهُذَلِىّ(٢) :

هَبَطْنَ بَطْنَ رُهَاطٍ واعْتَصَبْنَ كما يَسْقِى الجُذوعَ خِلالَ الدُّورِ نَضّاحُ

ألا تَرَى أنّ المرادَ تشبيه الإبل وقد دخلَتْ فى السَّراب بجُذوع نَخْلٍ مسقيّةٍ فى أصولها الماء ، فجاء ظاهرُه كأنَّه شبَّه الإبل بسَقْى النَّضّاح للجذوع ؛ لأنّ معنى كما يَسْقِى كَسَقْىٍ ، كما أنّ معنَى كما نَمّقَ كتنميق .

٣ — وَقَفْتُ بها أَبكِى وأُشْعِرُ سُخْنَةً كما اعتادَ مَحْمُومًا بخَيْبَرَ صالِبُ(٣)

---

(١) المفضليات : « لابنة حطان بن عوف » .

(٢) هو أبو ذؤيب الهذلى . ديوان الهذليين (١ : ٤٦) .

(٣) بعده عند التبريزى ، ولم يرو فى المفضليات :

خليلىَّ عُوجا من نَجَاءِ شِمِلَّةٍ عليها فتًى كالسَّيف أروعُ شاحبُ

يقول : وقفتُ بهذه الأطلال مقيما بها رَسْمَ من ثبتَ عَهْدُه فى الهوَى ، ولم يغيّره تقاذُفُ الأحبّة والنّوى ، ومظهِرًا التلهّف والتحسّر فى إثْر ما تقادَمَ من أيّام الوصال بالبُكا ، وقد أبْطِنتُ جَوًى اعتادنى منه حُمَّى سَخُنَت منها بَشَرَتى ، وحُمَّت لها روحى ومُهجتى ، كما يعتاد الصالبُ — وهى الحُمَّى التى معها صُداع — محمومًا بخَيبر . وإنما قال ذلك لأنّ خيبر مَحَمّة ، وحُمّاها موصوفة بالشدّة . ويقال فى المثل : « صالِبٌ أشَدُّ من نافِضٍ » . وحَكى الأصمعىّ أنّ أعرابيًّا ثَقُلَت عليه مُؤَنُ عيالِه لكثرتهم ، فحدَّثته نفسُه بأنه لو نقَلَهم إلى خَيبر لنَقَصَهم وباؤُه ، وأثّر فيهم بالتقليل صالبُه ، وأَوْرَدهم خَيبر ، وأنشأ يقول :

وَيْحَكِ حُمَّى خَيْبَرَ استَعِدِّى هاكِ عِيالى فاذْهَبِى وجِدِّى

وباكِرِى بصالبٍ ووِرْدِ أعانَكِ اللهُ على ذا الجُنْدِ

فَحُمُّوا بأجمعهم وسَلِموا ، ثمّ تَلِف هو من بينهم .

وقوله « وأُشْعِرُ سُخْنةً » يُروى بضم السين وكسرها . فالسُّخْنةُ كالحُمْرة ، والسِّخْنةُ كالجِلسة . ومعنى أُشْعِرُ جُعِلَ شِعارى . والشِّعار : ما يَلِى الجسدَ من الثياب ، وتُوُسِّعَ فيه فقيل أُشْعِرَ قلبى همًّا . ويقال شَعَرْتُ المرأةَ ، أى نِمْتُ معها فى شِعارها .

٤ — خَلِيلاَىَ هَوْجاءُ النَّجاءِ شِمِلَّةٌ وذُو شُطَبٍ لا يَجْتَوِيهِ المُصاحِبُ

مَوْضِع قولِه « خليلاى » مع خَبَرِه نَصْبٌ على الحال من قولِه « وقَفْتُ بها » ، واستُغْنِى بالضمير فيه عن إدخال الواو العاطفة لأنه يُعلِّقُ من الحال بالأوّل ما يعلِّقه الواو . ومعنى قوله « هَوْجاءُ النَّجاءِ » ناقةٌ فى نَجائها وسرعة مَرِّها هَوَجٌ واضطراب . ويقال نجاءٌ أهْوَجُ ، كما يقالُ عَدْوٌ والِهٌ[1] . وقد

(١) من شواهده قول تأبط شراً فى المفضلية الأولى :

حتى نجوت ولما ينزعوا سلبى بواله من قبيض الشد غيداق

تجاوزوا هذا الحدّ حتى قالوا غبارٌ مجنونٌ، وزِمامٌ سَفِيه. والشَّمِلَّةُ : الخفيفة. وقوله «وذو شُطَب» أراد به سيفاً ذا طرائق. «لا يجتويه» أى لا يكرَهُه متحمِّلُه لجودته. وهذا الكلام إشارةٌ إلى أنّ أصحابَه خَذَلوه ولم يروا مساعَدتَه فى الوقوف على الدار.

٥ــوقد عِشْتُ دَهْرًا والغُوَاةُ صَحَابتى أُلئكَ خُلْصانى الذين أصاحِبُ

٦ــقَرِينَةَ مَن أَسْفَى وقُلِّدَ حَبْلَهُ وحاذَرَ جَرّاهُ الصَّديقُ الأقاربُ(١)

يذكر ماتعاطاه من البَطالةِ أيّامَ صِباه، فيقول : بقيت زماناً فيما مَضَى من عُمرى طويلا مُتباعِدَ الأطرافِ، والذين أصاحِبُهم وأوثِرُ معاشرتَهم أهلُ الغَوايةِ، وأربابُ البَطالةِ والخَسارة، لا أُواخِي غيرَهُم، ولا أصالِحُ سِواهم. والصَّحابةُ مصدرٌ فى الأصل [وَصفَ به الخُلْصان أيضاً مصدرٌ كالكُفران والشُّكْرانِ فى الأصل(٢)]، ولذلك صَلَحَ أن يَقع للواحد والجميع. يقالُ فلانٌ خالِصَتى وخُلْصانى، إذا خَلَصَت مَودَّتُه. قال :

* وعاش صافيةً للهِ وخُلْصانا *

ويقال : هؤلاء خُلصانى، أى أخِلاّئى. وقوله «الذين أُصاحِبُ» أراد أُصاحِبُهم، وحذفَ الضميرَ استطالةً للاسم بصلَتِه. وقوله «قرينةَ من أَسْفَى» فالقرينة أُلحِقَتِ الهاء به لأنه جُعِل اسماً، فهو كالبَنِيّةِ والذَّبيحةِ. ومعنى أَسْفَى : دخَل فى السَّفَاء. والسَّفَاء ممدود : السَّفَهُ، والرَّجُل سَفِىٌّ. ومعنى «قُلِّدَ حَبْلَهُ» خُلِّىَ واختيارَه، وأصلُه فى البعيرِ إذا أُرسِلَ فى المرعَى وجُعِل زِمامُه على عُنقِه لِتتصرّف كما يشاء، ثم نُقِل إلى من وُعِظ كثيراً حتى أُهمِل أمرُه تبرُّماً به. ويقال أيضاً : أُلقِىَ حبلُه على غاربِه، فى هذا المعنى. ومعنى «وحاذَرَ جَرّاه

(١) هذا البيت لم يرد فى المفضليات. (٢) التكملة من ل والتيمورية.

الصـديقُ الأقاربُ » ، أى تبرءوا منه خوفاً من جرائره التى يجنيها عليهم . وكانوا يسمُّون مثله الخَليع . وعلى هذا قولُ الشَّنفرَى فى صفة نفسه :

طَريدُ جِناياتٍ تَياسَرْنَ لَحْمَه عَقِيرتُه لأيِّا بِما حَنَّ أوّلُ

ومعنى تَياسَرْنَ [لحمه[1]] اقتَسَمْنَ « لحمَهُ » من الميسِر[2] . وهذا من فصيح الكلام . والصديق يوصَفُ به الواحدُ والجمع . والبيت الثانى شَرْحٌ لقوله « والغُواةُ صحابتى » ، ويُفيدُ من نهايات الغَىِّ ما لا يُستفاد من ظاهره ومُطَّلَبه .

٧— فأدَّيْتُ عَنِّى ما استَعَرتُ من الصِّبَا فلِلمال عِنـدى اليومَ راعٍ وكاسِبُ

٨— تَرَى رائداتِ الخَيْلِ حَوْلَ بُيُوتِنا كَمِعْزَى الحِجَازِ أعْوَزَتْها الزَّرائبُ

يقول : رفَضْتُ الآنَ ما كنت أقْصُرُ وقتى عليه ، وأصرِف همى إليه ، من سُلوك طرائق الجهل ، والجرىِ فى ميادين اللَّهو ، واستَبصَرْتُ حتَّى عَرَفتُ من الرَّشاد ما حَمَلنى على رَدِّ مستعار الغىّ ، واطِّراحِ[3] مستعادِ البُطْل ، فصِرْتُ أحفظ من المال ما كنتُ أضيِّعه ، وأصحبُ من الحزْم ما صِرْتُ أخلِّفُه ، وأجمع من العُدّة للحوادث ما بَقِيتُ أهمِله وأفرِّقه . وقوله « أدّيتُ عَنّى » حَقَّق بدخول عن أنَّ المُؤدَّى وجبَ عليه . ألا تَرى أنَّه لو قال أدّيتُ كذا من دون عن لجاز أن يكون لنفسِه أدَّى ما أدَّى ، ولجاز أن يكون لغيره . ولأنّ معنَى أدّيت عنّى نَحَّيْتُ عن نفسى . وقوله « فلِلمال عندى اليومَ راعٍ وكاسب » نَبَّهَ به على أنَّه جامعٌ لَهُ وحافظٌ . ولم يُشِرْ بقوله « اليومَ » إلى وقتٍ مُعيَّن ، لأنه أراد حاضِرَ الأزمان ومؤتنَفَها . فأما قولُه « ترَى رائدات الخَيْل » فالرَّائدات

(١) التكملة من ل .

(٢) كذلك فى ل والتيمورية . وفى الأصل : « من اليسر » .

(٣) كذا فى ل والتيمورية . وفى الأصل : « واطراد » .

المختلفات ، ومنه المَثَل : « الرّائد لا يَكْذِبُ أهْلَهُ » . والمُراد أنّ الذى يرتبطونه من المـال ويقتنونَهُ الخيـلُ ، لا الإبل والغنم ، وأنَّها تختلف فيما بين بيوتهم لـكثرتها ، لأنّهم غَزّاءون وأربابُ غارات ، فخُيولهم مربوطةٌ بالأفنية لئلا تَبعُدَ عنهم أوانَ الحاجة لِقَصْدٍ أو مَتْعٍ ؛ وهى فى اختلافها وكثرتها وتردُّدِها بين البيوت كِمِعْزَى الحجازِ وقد ضاق عنها محابِسُها ومرابِضُها . وقوله « كمِعزى الحجاز » فى موضع الحال من تَرَى ، وأعْوَزَتْهَا فى موضع الحالِ مما دَلَّ عليه الكاف من قوله كمِعْزَى . والأجود أن يُضْمرَ معها قد ليقْرُبَ بناء الماضى من الحال . والتقدير تراها مشابِهَةً لمعزى الحجاز وقد عَدِمَتْ محابسَها ، فهى تَرُودُ . وفى هذه الطريقة قول سَلَمة بن الخُرْشُب :

يَسُدُّون أبوابَ القِبَاب بضُمَّرٍ إلى عُنَنٍ مستوثِقات الأواصرِ

والزَّرْب والزَّرِيبةُ واحد ، ويقال أعْوَزَهُ الدَّهرُ : أفقَرَهُ . وأعوَزَ الرّجُل : ساءت حالُه .

٩ ــ فَيُغْبَقْنَ أحْلَابًا ويُصْبَحْنَ مِثْلَهَا فَهُنَّ من التَّعْدَاءِ قُبٌّ شَوَازِبُ

يُقَالُ غَبَقْتُهُ إذا سَقيتَهُ غَبُوقًا ، وصَبَحْتُه إذا سقَيْتَهُ صَبُوحًا . والصَّبُوح والغَبُوق : يُشْرَب بالغـداةِ والعشىّ ، لأنَّهما كالفَطُور والذَّرُور والسَّحُور . فيجوز أن يريدَ أنها تُعدَى فى القرّتَيْن[1] ، ويكون « أحلابًا » بمعنى أشْوَاطٍ وأطْلاقٍ . يقال احلُبْ فرسك قَرْنًا أو قرنَيْن ، واحْلُبْها أحْلَابًا وحَلَبات . ويشهدُ لهذا قولُه « فهُنَّ من التَّعْدَاءِ قُبٌّ شوازِبُ » . وتحقيق الـكلام أنه جُعِـل صَبُوحُهُنَّ وغَبُوقُهُنَّ أن أُعدِيَتْ فى أوّل النَّهار وآخرِه لتَضْمُرَ ، كما قال أبو تمّـام :

* تعليقها الإسراجُ والإلجـامُ[2] *

(١) القرتان : الغداة والعشى ، وذلك لمـا فيهما من البرد .

(٢) صدره : * بسوابح لحق الأياطل شزب *

وكما قال غيرُه(١) :

* فإنّ المُندّى رِحْلَةٌ فرُكوبُ(٢) *

والتّندية : أن تُرْعى في الوِرْد بعد السّقي شيئاً ليُعْرَض عليها الماء ثانيةً . ويجوز أن يريد أنّها تُسقى اللّبنَ غُدُوًّا وعشِيًّا ، كما قال :

* نُطْعِمها اللّحْمَ إذا عَزّ الشّجَرْ(٣) *

يريدُ باللّحْمِ اللبن ، وكما قال الآخر(٤)

* يُعْطَى دَوَاءَ قَفِيّ السَّكْنِ مَرْبُوبِ(٥) *

ويكونُ الأحلابُ جمعَ حَلَب ، مصدر حَلَبْتُ ، والمراد به المَحاوبُ فجمعه لاختلافها . ويكون قولُه « فهُنّ من التّعداء » كلاماً مستأنَفًا ، والمعنى أنّها تُصْنَعُ وتُضَمّرُ ، فتُتَفقدُ بكلّ ما يُصلِحُها ويُقوّيها ويعوّدُها الجِرَاء . والقُبُّ : جمع أقَبّ وقَبّاء . والشّوازب : الضّوامر .

١٠ــ فوارِسُها من تَغْلِبَ ابنَـةِ وائلٍ   حُمَاةٌ كُماةٌ ليْسَ فيهم أشائبُ

قوله « من تَغْلِبَ ابنَـةِ وائلٍ » أخْبرَ به أنّهم لم يتكَثّرُوا بغيرهم ، فليس فيهم خُلطاء من سواهم ولا غُرَباء ، وإنما هُم من أصلٍ واحد . وهذا كما قال سَلَمَة ابن الخُرْشُبِ .

وأمسَوْا حِلالًا ما يُفرّقُ بَيْنَهُمْ   على كلّ ماء بَيْنَ فَيْدَ وساجِرِ

وهو خلاف قول الآخر وهو يهجو :

(١) هو علقمة بن عبدة الفحل . المفضلية ١١٩ .
(٢) صدره : * تراد على دمن الحياض فإن تعف *
(٣) أنشده فى اللسان (لحم) . وأنشد بعده :
* والخيل فى إطعامها اللحم ضرر *
(٤) هو سلامة بن جندل السعدى . المفضلية ٢٢ .
(٥) صدره : * ليس بأسى ولا أقنى ولا سغل *

ولمّا أن رأيتُ بنى جُوَيْنٍ جُلُوسًا ليس بينهم جَلِيسُ[1]

إذا ما قُلْتُ أيُّهُمُ لِأَيٍّ تشابهَتِ المناكِبُ والرُّءوسُ

لأنّ هذا يصف أهل بَيْتٍ بأنّهم لا يُرَى فيهم نديم ولا مُعَاشِرٌ ، ولا يَغْشَى فِناءَهُم جليسٌ ولا مُخالِطٌ ، ولا يَقصِدُهُم عافٍ ولا مُجْتَدٍ ، ولا يَؤُمُّهُمْ راجٍ ولا مُعْتَفٍ ، إنّما اكْتَفَى كُلٌّ منهم بصاحبِه ، وانفردَ كلُّ ذى بَيْتٍ بِنَسِيبِه . وعلى هذا الذى فسّرنا يكون « من تَغلِبَ ابنَةِ وائلٍ » خَبَراً ، وحُمَاةٌ خبرًا ثانيا . والتقدير : فوارِسُها تغلبيُّون حُمَاةٌ . ويجوز أن يكون من تَغلِبَ ابنةِ وائلٍ فى موضع الحال ، وحُمَاةٌ الخبر ، والتقدير : فوارِسُها وهم من بنى تَغْلِبَ حُماة . وحُمَاةٌ : جمع حامٍ . وكُماةٌ : جمع كَمِيٍّ . وهذا البناء من الجموع لا يكون إلّا فى المعتلّ . والأشائبُ : جَمْعُ أُشَابَةٍ ، وهم الذين جُمِعُوا من شىء إلى شىء ، على رداءةٍ فيهم وهُجنةٍ تَشُوبُهم .

١١ـ فَهُمْ يَضرِبُونَ الكَبْشَ يَبْرُقُ بَيْضُهُ على وجْهِهِ من الدِّماء سبائبُ

١٢ـ وإن قَصُرَتْ أسيافُنا كان وَصْلُهَا خُطَانا إلى أَعْدائِنَا فَنُضَارِبُ

وصَفَهم بأنّهم يطلبون الرُّؤساءَ فى الحربِ بالقتل والنِّكاية ، دونَ الأوساط والعَجَزَة والسُّقّاطِ ، فهو كقولِ الآخَرِ[2] :

من عَهْدِ عَادٍ كانَ معروفًا لنا أَسْرُ المُلُوكِ وقَتْلُهَا وقِتالُها

وقوله « يَبْرُقُ بيضُه » فى موضع الحال من يَضربون ، و « على وجهه من الدِّماء سبائبُ » فى موضع الحال أيضا من قولِه يَبْرُق بيضه . والسَّبائبُ :

(١) فى الأصل : « بنى جرين » وأثبتنا ما فى ل والتيمورية .

(٢) هو بشامة بن الغدير . الحماسية ١٣٤ .

الطُّرَق(١) ، الواحدة سَبِيبَةٌ ، وقولُه « وإن قَصُرَتْ أسيافُنا » مثل قول الآخر(٢) :

* نَصِلُ السُّيُوفَ إِذَا قَصُرْنَ بِخَطْوِنا(٣) *

وفى طريقته قول الآخر(٤) :

إذا الكُمَاةُ تَنَحَّوْا أَنْ يَنَالَهُمُ ... حَدُّ الظُّبَاتِ وَصَلْنَاها بأيدينا

١٣ ـ فَلِلَّهِ قومٌ مِثْلُ قَوْمِي عِصَابَةً ... إذا حَفَلَتْ عند المُلُوكِ المَصَائِبُ

قوله « فللَّهِ قَوْمٌ » تعجُّبٌ وتحضيضٌ . والكلام فى مثله قد تقدَّم مشروحًا(٥) . وانتصب « عصَابَةً » على أنَّه تمييز . ويجوز أن يكون حالاً أيضًا . وقولُه « إذا حَفَلَتْ » أى اجتمعت . وإذا ظَرْفٌ لما دَلّ عليه قولُه « للهِ قَوْمٌ مثلُ قَوْمِي » ، أى ناهِيكَ بهم من قَوْمٍ فى ذلك الوقت . والمعنى أنّه يَظْهَر من عِزِّهم وفَخْرهم فى مجالس المُلوك ما يُسْتَحَقُّ به التعجُّبُ منهم .

١٤ـ أَرَى كُلَّ قَوْمٍ قَارَبُوا قَيْدَ فَحْلِهم ... ونَحْنُ خَلَعْنَا قَيْدَهُ فهو سَارِبُ

يصف عِزَّهم وكرمَهم وعِظَم حِشْمتهم فى قلوب مَن سواهم ، وأنَّ أحدًا لا يتجاسَرُ على التعرُّض لأسبابهم ، والتبسُّط فى أحميتِهم ، فمالُهم وإن عَزَبَتْ فى مراعيها مَحْمِيَّةٌ ، وسُروبُهم آمنةٌ ، وإذا كانت الأقوامُ غيرهم يُقَيِّدُ فُحُولَها تقييدا مُقارَبًا ، وتُحْفَظُ مَرَاعيها حِفظًا مُلاحَظًا ، مخافَةَ أن تَسْرُبَ فى المَرْتَع ، وتَبعدَ عن المَجْمَع ، وتتبعَها الإناثُ فتَقْرُبَ من المُغيرِ عليها ، وتمكّن الطامع

(١) الطرق : جمع طرقة بالضم ، مثل غرفة وغرف ، وهى الطرائق .
(٢) هو كعب بن مالك . البيان (٣ : ٢٦) .
(٣) عجزه : * قدما ونلحقها إذا لم تلحق *
(٤) هو بشامة بن حزن النهشلى . الحماسية ١٤ .
(٥) انظر ما سبق فى ص ٦٧٢ .

فيها ، رأيتنا لا نبالى بشىء من ذلك ، فَنُخَلِّيها وذَهابَها حيثُ شاءت ، وأنّى اختلفَتْ وتصرّفَتْ ، لأَمْننا عليها ، وعلمنا بأنّ عِزّنا يحميها ويذُبُّ عنها ، ويقصُرُ الأيدىَ دونها . والساربُ : الذّاهب فى الأرض ، حتى قيل سَرَبَ الماء وانْسربَ ، ومنه اشتقاق السَّراب .

٢٤٩

وقال العُدَيْلُ بن الفَرْخِ العِجْلِىُّ(١) :

١ – ألاَ يااسْلَمِى ذاتَ الدَّماليج والعِقْدِ وذاتَ الثَّنَايا الغُرِّ والفاحِمِ الجَعْدِ(٢)

قوله « يا اسلَمِى » يراد به يا هذه اسلمى ، فحذَفَ المنادَى . ومعنى اسلَمى : دُومى سالمةً . وانتَصبَ « ذاتَ الدَّماليج » على أنه نداءٌ ثان ، ويجوز أن يكون انتصابُه على إضمار فِعل ، كأنه قال : أذكُرُ ذاتَ الدماليج . وهذا يَجرى مَجرى الكناية لمّا كَرِه التّنبيه على اسمِها . والدماليج : جمع الدُّملوج ، وهى المِعضَد . وقال الخليل : يقال دَملَجتُ الشيء ، إذا سَوَّيْتَ صيغتَه ، كما يُصاغ الدُّملُجُ . وقوله « وذاب الثنايا » كان وجْهُ الكلام أن يقول : والثنايا الغُرّ ، لكنّه أعاد لفظ ذات ليكونَ الخِطابُ به أفخمَ وأجلَّ قَدْرًا ، ولشدّة اتصال المُضاف

(١) العديل بهيئة التصغير ، بن الفرخ بفتح الفاء ، وقيده فى الخزانة (٢ : ٣٦٨) بضمها . ولقبه « العباب » كشداد ، وكان العباب كلباً له . وهو شاعر إسلامى فى الدولة المروانية ، كان قد هجا الحجاج وهرب منه إلى قيصر ملك الروم ، فبعث إليه : لترسلن به أو لأجهزن إليك خيلا يكون أولها عندك وآخرها عندى . فبعث به إليه وجرى بينهما حديث انتهى بالعفو عنه . الخزانة والأغانى (٢٠ : ١١ – ١٩) والاشتقاق ٢٠٨ والشعر والشعراء ٣٧٥ – ٣٧٧ .

(٢) قال أبو رياش : ليست هذه الأبيات للعديل ، وهى قصيدة طويلة لأبى الأخيل العجلى قالها فى آخر أيام بنى أمية ، ووفد على عمر بن هبيرة الفزارى فقيل له : إن أبا الأخيل العجلى بالباب يستأذن . فقال : « إذن والله لا يأذن له غيرى » . فقام من مجلسه حتى أتاه على الباب فأخذ بيده وأقعده معه على بساطه ثم قال : أنشدنى منصفتك . فأنشده إياها ، فكساه وأعطاه ثلاثين ألفاً . المنصفة : القصيدة ينصف فيها الشاعر عدوه . انظر ما سبق فى ٤٤٠ .

بالمضاف إليه ، كأنه عَدَّهما اسمًا واحدًا لا تَحمِلَ بالحذفِ عليه . ويجرى هذا المجرى قولُه تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِى صَلاَتِهِمْ خاشِعُون . والَّذِين هُمْ ﴾ ، ﴿ والذين هم ﴾ . وقول الشاعر(١) :

أما والذى أَبكَى وأضحَكَ والذى أماتَ وأَحْيَا والذى أَمْرُهُ الأَمْرُ

والعِقْد : القَلادة ، يقال عقَدتُ عَقْدًا ، ثم يُسَمَّى المعقود عِقْدًا ، فهُما كالنَّقْض والنِّقْض . والفاحم : الشَّعر الأسوَد الحسَن(٢) وقد فَحَمَ فُحُومًا .

٢ — وذاتَ اللِّثَاتِ الحُمِّ والعارضِ الذى به أَبْرَقَتْ عَمْدًا بأَبْيَضَ كالشُّهْدِ

اللِّثاتُ: مَغارِزُ الأسنان . والحُمُّ : جمع أَحَمَّ وحَمَّاء ، وهو الأَسوَد من كلِّ شىء . ويُرْوَى « الحُوِّ » وهو جمع أَحْوَى وحَوّاء . والحُوَةُ : حُمْرةٌ تَضرِبُ إلى سوادٍ . والعارضُ : ما يَظهرُ من الثَّغرِ عند النُّطق من الجانبين . ومعنى أَبْرَقَتْ به : أَطلَعَتِ البَرْقَ . والبَرْقُ : وَميضُ السَّحابِ أصلُه . ويقال : بَرَقَ السَّحابُ بَرقًا وبَرِيقًا ، وأبرق لغةٌ فيه ، كذلك قال الخليل . وقولُه « عَمْدًا » مصدرٌ فى موضع الحال ، أى أبرَقَتْ عامدةً . ويريدُ بالأبيض رُضابَ الفم . والتشبيه بالشُّهْدِ قُصِدَ به إلى العذوبة .

٣ — كأنَّ ثَنَاياها اغتَبَقْنَ مُدامةً ثَوَتْ حِجَجًا فى رأسِ ذى قُنَّةٍ فَرْدِ

الاغتباق : شُرْبُ العَشِىِّ ، وخَصَّهُ بالذِّكر لأنَّ القصدَ إلى أنها عند السَّحَر يطيبُ نَكْهَتُها ، فإذا تغيَّرتِ الأفواه وخَلَفَت كانت هذه كأنها مغتبقة خَمْرًا بقيَت سنينَ فى رأسِ جَبل انفرَد عن الجبال ورءوسِها ، بحصانته وتمنُّعه . وهذا منه إشارةٌ إلى قَلْعةٍ فى قُلَّةِ جَبَل شاهِق ، أو قَصْر أو حِصْن شَبَّهَه بجبل هذه صِفَتُه .

(١) هو أبو صخر الهذلى . أمالى القالى (١ : ١٤٩) .
(٢) كذا فى ل والتيمورية . وفى الأصل : « الشعر الأسود الأسود » ، تحريف .

٤ ـ لَعَمْرِى لقد مَرَّت لِىَ الطَّيْرُ آنِفاً بما لم يكُنْ إذ مَرَّتِ الطيرُ مِن بُدِّ

كانَ زَجّارًا(١) فلذلك قال ما قال . وخبرُ « لعَمْرى » محذوفٌ ، كأنّه قال لعمرِى قَسَمِى . ولقد جوابُ القَسَم مع ما بَعدَه . والقسمُ كما يقعُ بالمفرد يقع بالجملة . وأنَّثَ الطيرَ لأنه أراد الجماعة ، فلذلك قال مَرَّت . وآنِفاً انتصَب على الظَّرف ، والمعنى فيما ائتُنِفَ من الوقت ، وإنما عافَ هذه العيافةَ التى أشار إليها فيما دار بين قومِه من الشَّرّ ، وكأنّه آمَنَ بما أوجبَه مُرورُ الطيرِ فى حُلمِه ، فلذلك قال بما لم يكُنْ من بُدّ . ومن بُدٍّ موضِعُه اسمُ لم يكُنْ ، وخبرُه محذوف ، لأنّ التقدير بما لم يكن بُدٌّ من وقوعِه إذ مَرَّتِ الطيرُ . وهذا كما يقالُ ما جاءنى من رجل فى اللَّفْظ ، وإن كان التقديران مختلفين . ومعنى قولِ القائل لا بُدَّ من كذا : لا اتِّساعَ فى الاستغناء عنه . ويقال رجُلٌ أَبَدُّ وامرأةٌ بَدّاء ، إذا تباعَدَ إحدى فخذيه عن الأخرَى ، وبَدَدتُ الشىءَ أَبُدُّه ، إذا جَزَّأْتَه أجزاءً فى القَسْم . ويقال هاتِ بِدّى ، أى نصيبى ، ومنه يقال استَبَدَّ فلانٌ بكذا إذا اختَصَّ .

٥ ـ ظَلِلْتُ أُسَاقِى الهَمَّ إخْوَتِىَ الأُولَى أبوهُمْ أَبِى عِند المِزَاحِ وفى الجِدِّ

يقال : ظَلّ يفعلُ كذا ، إذا فعلَهُ نهاراً ، ثم يتوسَّعُونَ فيه ، ويجرى مجرى صار يفعل كذا يدلّ على ذلك قوله تعالى : ﴿ وإذَا بُشِّرَ أحَدُهم بالأُنثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا ﴾ ألا تَرَى أنَّ البِشَارة بالأنثى تتَّنِقُ كلَّ وقتٍ من ليلٍ وَنهارٍ . وقولُه « أساقِى الهمّ » يجوز أن يريدَ به الغَمّ ، كأنّه كان يُبَاثُّ إخوانَه وأصفياءَهُ لما كان يدور عليه أمرُ عشيرته من الخلاف المؤدِّى إلى التَّقالى والتحزُّب ، وما كان يَخافُه من التَّفانِى عليهم عند التجارُب . والأُولَى فى معنى الذين ، والجملة التى بعدُه من صِلَتِه . وقولُه « أَبُوهُمْ أبى عند المِزَاحِ وفى الجِدّ » يَجرِى مجرى التَّأكيد للأُخُوَّةِ ، والتَّحقيق للتَّشابُكِ ، والممازجةِ بالنِّسبة ، والمعنى : على كلِّ

(١) كذا فهم المرزوقى ، وليس هذا بلازم .

حالٍ إذْ لا ثالثَ لها . ووَضَع المُزاحَ موضعَ الهَزلِ . ومثل هـذا فى معنى التَّأكيد ، وإن كان لفظُه لفظَ البدل قولهم : جاءنى بنو تميمٍ صغيرُهم وكبيرهم ، صريحُهمْ وهجينُهمْ ، وما أشبَهَهُ . ويجوز أن يريدَ بالهمِّ مصدرَ هَمَمتُ بالشىء ، كأنَّه اجتمع مع إخوته ليوافِقَهم على رأْيٍ يَبنُونَ أمرَهم عليه مَعَ الفساد(١) الظاهر له بين ذَوِيه وفصيلته . ويروَى « المُزاح » بضم الميم فيكون اسماً ، والمِزاحُ بكسر الميم فيكون مصدرَ مازَحْتُ .

٦ ــ كِلاَنَا يُنادِى يا نِزَارُ وبيننا قَناً من قَنَا الخَطِّىِّ أو من قَنا الهِنْدِ

كِلاَ اسم مفردٌ يؤكَّد به المثنَّى ، كما أن كُلًّا اسم مُفْرَدٌ يؤكَّدُ به المجموع . والمراد به هنا كلُّ واحدٍ منَّا ، لذلك قال ينادى . والمعنى إنّ اعتزاءَ كلٍّ واحد من طائفتينا إلى أبٍ واحد ، والشَّرُّ إذا وقع بين الأقارب كان فى عُقول ساداتهم أشدَّ تأثيراً ، وأبلغَ عند الاستعمال به تحذيراً ، إذْ كان مُفاسَدةُ النَّسِيبِ لنَسيبِه أفظعَ ، وكان التَّقاطع حيث يجب التَّواصل أشْنَعَ ، لأنَّ عِزَّ السَّيِّد بتابعِيه ، وليس الأقارب منهم كالأجانب . وقوله « وبَيْنَنَا قَناً من قنا الخطِّىّ » الواو واو الحال ، وقد حَذَفَ المضاف وأقام المُضافَ إليه مَقامَه . والمراد : وبيننا اختلافُ قَناً خَطِّيّةٍ بالطَّعْنِ ، أى بَلَغَ جَهْدُ البلاء بينهم هذا المبلغَ وانتهى إلى هـذه الحالة . وقال « من قنا الخطِّىّ » والمرادُ من قَنَا الموضع الخطِّىّ أو المـكان ، فأقام الصِّفةَ مقامَ الموصوف(٢) . يدلُّ على هذا أنّه قال بعدَهُ « أو مِن قَنا الهِنْد » . ويجب أن يكونَ القنا الأوّل وإن كان جمعَ قَناةٍ مُتَناولاً لما هو أقلُّ مما يتناوله القَنا الثانى حتى يحصُلَ معنى التبعيض(٣) بمِنْ . والخطُّ : جزيرةُ

---

(١) هذا ما فى ل والتيمورية . وفى الأصل : « من الفساد » .

(٢) فى التنبيه : « وإن شئت قلت : أراد من قنا الخط ، فزاد ياء النسب لغير حقيقة الإضافة ، كقولهم فى الصفة أشقر وأشقرى ، وأحمر وأحمرى » .

(٣) كذا على الصواب فى ل والتيمورية . وفى الأصل : « مع التبعيض » .

عُمَان . ويقال فى الرِّماح هى الخطيّةُ ، كأنّه اسمٌ لها .

٧ ــ قُرُومٌ تَسَامَى من نِزَارٍ عَلَيْهِمُ مُضَاعَفَةٌ من نَسْجِ داوُدَ والسُّغْدِ[1]

القُرُوم فى الأصل : الفُحُول المَصاعبُ التى أُعفِيتْ من الحمل عليها وتُرِكَت للنحلة . ويقال أقرَمْتُ البعير فاستقرمَ . وعنى بها ها هنا الأبطالَ الكرام . وتَسامَى ، أى تتعالى فى التّبارى[2] والتّمارى . والأصْلُ فى تَسَامَى تَتَسامَى فحُذِفَ إحْدَى التاءينِ استثقالاً لاجتماعهما . وقوله « من نِزَارٍ » فى موضع الصِّفةِ لقُروم ، والتقديرُ قرومٌ نِزاريّةٌ تَتَسَامَى ، وقوله « عليهم مضاعَفَةٌ » فى موضع الحال والعاملُ فيه تَسامَى . ومعنَى المُضاعَفة : التى نُسِجت حَلْقتين حَلْقتين . و « من نَسْجِ داوُدَ » فى موضع الصِّفة للمُضاعَفة ، أراد مضاعَفةً داوُديةً وسُغْدِيّةً . وارتفَعَ مُضَاعَفَةٌ بالظَرفِ فى المذهبين جميعا لوقوع الظرف فى موضع الصفة . ومثْلُهُ من مسائل الكتابِ : مررْتُ برجُلٍ مَعَهُ صَقْرٌ صائدًا به غدًا[3] .

٨ ــ إذا ما حَمَلْنَا حَمْلَةً ثَبَتُوا لنا بمُرْهَفَةٍ تُذْرِى السَّوَاعِدَ من صُعْدِ

٩ ــ وإنْ نَحْنُ نَازَلْنَاهُمُ بصوارمٍ رَدَوْا فى سَرابيلِ الحديدِ كما نَرْدِى

أمّا البيت الأوّل فقد ألمّ فيه بمعنى قولِ الآخر[4] :

فَلَمَّا قَرَعْنَا النَّبْعَ بالنَّبْعِ بَعْضَهُ ببَعْضٍ أَبَتْ عِيدانُه أن تُكَسَّرَا

والمُرْهَفَةُ : السُّيُوفُ المُرقَّقَة الحدّ ، وسيفٌ رهيفٌ ، وقد رَهُفَ رَهافَةً . ومعنى تذْرِى تُسْقِطُ ، وهو فى موضع الصِّفَة لمُرْهَفةٍ . ومعنى « مِنْ صُعْدِ » من أعْلَى . وهذا كما قال غيره :

---

(١) لم يفسر هو ولا التبريزى السغد ، وهو بضم السين ويقال بالصاد المضمومة : جيل من الناس بلادهم بين بخارى وسمرقند .

(٢) كذا فى ل والتيمورية . وفى الأصل : « فى التمادى » .

(٣) انظر كتاب سيبويه (١ : ٢٤١ ــ ٢٤٢) .

(٤) هو زفر بن الحارث الكلابى . الحماسية ٢٨ .

يُنذِرِى بإرعاشٍ يَمينَ المُؤتَلِي   خُضُمَّةَ الذِّراعِ هَـذَّ المُختَلِي

وقوله « وإن نحن نازلناهم » فالنِّزال يأتونَ به ويركبُونَه في المَضايق حيث لا يَتَّسع المجال للخَيْل ، وإذا كان كذلك فالبيت الأوّل من صفة الفُرسان ، والثانى من نَعتِ الرَّجّالةِ . وقوله « رَدَوْا فى سرابيل الحديدِ كَمَا تَرْدِى » ، الرَّدَيَان فى الأصْلِ عَدْو الحمار بين آرِيِّه ومُتَمَعَّكِهِ ، ولم يَقْصِدْ تفضيلًا لأحد الفريقين على الآخر إمّا لقَصْدِهِ إلى الإنصاف فى اقتصاص ما يَجْرِى من الأحوال ، وإمّا لأنّ الفرقتين كانتا من أصلٍ واحدٍ جَعَلَهُما على سَواء من البَلاء .

١٠ — كَفَى حَزَنًا ألاّ أزالُ أَرَى القَنَا   يَمُجُّ نَجِيعًا من ذِرَاعِى ومن عَضْدِى

لكَ أن تَرْفَع « أزَالُ » على أن يكون أنّ مُخَفَفَةً من الثقيلة ، والمُرادُ أنّى لا أزال . ولكَ أن تَنصبَهُ على أن يكونَ أنْ هى النّاصبة للفعل . وموضِعُ أنْ لا أزَالَ على الوجهين جميعًا رَفْعٌ بكَفَى . وحَزَنًا انتَصَبَ على التمييز . والمعنى : كَفَى من حَزَنٍ أنّى لا أزال أرى الرِّماحَ تَصُبُّ دَمًا من ذِراعى ومن عَضْدِى ، أى مِن قَومٍ بهم أبْطِشُ وأعتَزُّ ، فَهُمْ مِنِّى بمنزلة الذِّراع والعَضُد . وهذا فى الاستعارة لمَنْ يَقْوَى به الرَّجُلُ ويَعتَضِدُ أبْلَغُ وأشبَع وإنْ تَساوَتْ الطريقتان — من قول الآخر(١) :

فإنْ أكُ قَدْ بَرَدتُ بِهِمْ غَلِيلِى   فَلَمْ أقْطَعْ بِهِمْ إلّا بَنَانِى

وقد قيل « أَخُ الرَّجُلِ عَضُدُه » . والمَجُّ : إخراجُ الماء من الفم ، وتوسَّعُوا فقالوا للمَطَر : هو مُجَاجُ السَّحابِ . والنَّجِيعُ : دمُ الجوف . ويقال تَنَجَّعَ الرَّجُل ، إذا تلطَّخَ به .

١١ — لَعَمْرِى لَئِنْ رُمْتُ الخُروجَ عَلَيْهِمُ   بِقَيْسٍ عَلَى قَيْسٍ وعَوْفٍ عَلَى سَعْدِ

(١) هو قيس بن زهير . الحماسية ٤٤ ص ٢٠٣ .

١٢ـ وضَيَّعْتُ عَمْرًا والرِّبَابَ ودَارِمًا وعَدْوَانَ وَدٍّ كَيْفَ أَصْبِرُ عن وَدِّ(١)

١٣ـ لَكُنْتُ كَمُهْرِيقِ الَّذِى فى سِقَائِهِ لِرَقْرَاقِ آلٍ فَوْقَ رابِيَةٍ صَلْدِ

نَبَّهَ بهذا الكلام على قُرب القَرابة بينهم، وتأكُّد الالتحام فيهم، وأنّ تَمازُجَ الأنساب، وتواشُجَ الأسباب، يُوجِبان أنّ طوائفَ هؤلاء الجموع كطوائف تلك، فإنْ أخذ يطلبُ الخروج عليهم، والنِّكاية فيهم، احتاج أن يخرُج بقيسٍ على قيس، وبسَعْدٍ على سعد، لأنّ عوْفًا هو ابن سعد. واحتاج أن يُراغِمَ عَمْرًا والرِّبابَ ودارِمًا وَوَدًّا، وأن يضيِّع حظوظَهم وحقوقَهم، ويُفِيتَ نفسَه وذَوِيه مأمولَ الخيرِ من جهتهم، والتكثُّرَ والتعزُّز بمكانهم، وذلك أيسرُ نتائجِ التَّقاطع والتدابر، والتنازُع والتنابذ، والتجاذُب والتحارُب؛ هذا إلى ما فيه من مجانَبةِ الرَّشاد، والتباعُد فى طُرق الضلال والفَساد. وقوله «كيف أصبرُ عن وَدٍّ» هو الذى يُسمِّيه النُّقّادُ والبُصَراء بصنعةِ الشِّعر وتمييز البديع فيه «الالتفات». كأنه لمّا ذَكر وَدًّا والخلافَ عليه، ونفْضَ اليدِ ممّا يجمعه وإيّاه، وكشْفَ الرّأسِ بالمُعاداةِ معه، رَقَّ للرَّحِمِ قلبُه، وضاق بالحال المتصوَّرةِ صدرُه، والتفَتَ إلى من بحضرتِه فقال: كيف يكون صبرى عن مِثلِه. ثم أخذ يمثل نفسَه فيما يأتيه، ويصوِّر نفسه إن أخذ فيه، فقال: لَعَمْرِى إنّ صورتى إذا ركبتُ هذه الخُطّةَ مَعَهم، ومَثَلى فيما أختارُه من مُفاسَدةِ الأقارب مع هذا التحقُّق والتَّدانى، والاستنامة إلى آمالٍ متخيَّلةٍ فى الأجانب، مَثَلُ رجل قد أعَدَّ ماءً فَمِه لوقتِ حاجتِه، وهو فى مَفازةٍ متنائيةِ الأرجاء، فترقرقَ له السَّراب من مكان يُتَوصَّل إليه بمشقّةٍ تُتكلَّف، وزيادةِ تَعَبٍ تُتجشَّم، فَصَبَّ ما قد استَصْحَبَه من الماء، وتيقَّن النَّجاةَ به، اغترارًا بما تَراءَى له وتَظَنّاه، وهو لا يَدرى هل يقدِرُ على الوصول إليه، وإذا جاءه هل يجد له حقيقةً أو لا.

(١) رواية التبريزى: «وعمرو بن أد كيف أصبر عن أد».

وقد ضَرب الله المَثل بالسَّراب لأعمال الكُفَّار واغترارهم بها فقال : ﴿ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسِبُهُ الظَّمْآنُ ماء حتى إذا جاءه لم يَجِدْهُ شيئاً[1] ﴾ . والرابيةُ : المكان المرتفع . والصَّلْد : الصُّلب الذى لا يُنبِتُ شيئاً . والرَّقْراق : ما ترَقْرَقَ[2] فيما يَتخيَّل للعين ولَمَع ، ويوصَفُ به الدَّمْعُ والماء والجارية الرائقة . يدُلّ على ذلك قولُه :

* رَقارِقَ لا زُرْقَ العُيونِ ولا رُمْدَا *

ولامرئ القَيْس يصف الدمع :

* أو الدُّرِّ رَقْراقُه المُنْحَدِرْ[3] *

وقوله « لـكنتُ كمُهرِيق الذى » جواب القَسَم ، وبعضُهم روَاه : « فـكنتُ كمُهْرِيقٍ » وعلى هذا يكون الجواب محذوفاً . وقد حَمَلَ الكلام على المعنى لظُهورِ المراد منه دون اللَّفظ ، والأوّل أَكشَفُ .

١٤ — كمُرْضِعَةٍ أَوْلادَ أُخْرَى وضَيَّعَتْ   بَنِي بَطْنِها هذا الضَّلالُ عن القَصْدِ

يجوز أن يكونَ المُرْضِعةُ امرأةً فعَلَت ذلك فضُرِبَ المثلُ بهذا ، ويَشهدُ لذلك قولُ الآخر[4] :

كمُرْضِعَةٍ أولادَ أُخرى وضَيَّعَت   بَنِيها فلم تَرْقَعْ بذلك مَرْقَعَا[5]

ويقال : النَّعامُ تفعل ذلك لسوء هدايتها ، فتترُكُ الواحدةُ منها بيضَ نفسِها

---

(١) وردت « يحسبه » فى نسخة الأصل و ل ، على قراءة كسر السين . وكسر السين فى هذا المضارع لغة أهل الحجاز ، وفتحها لغة تميم . وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بفتح السين حيث وقعت فى المصحف ، وقرأ باقى السبعة بكسرها . تفسير أبى حيان (٢ : ٣٢٨) .

(٢) كذا فى التيمورية . وفى سائر النسخ : « ترقق » وكتب إزاءها فى ل « ترقرق » .

(٣) صدره :   * فأسبل دمعى كفض الجمان *

(٤) هو ابن جذل الطعان الكنانى ، كما فى الحيوان (١ : ١٩٧) وحماسة البحترى ١٧٠ .

(٥) فى ثمار القلوب ٣١٣ : « فلم تحسن بما فعلت صنعا » .

وتَسُومُ فى المَرعَى ، فإذا أرادت العَودَ إليها لم تَهتَد ، فتجثِمُ على بيض غيرِها .
ويَشهد لهذا الوجه قولُ الآخر(١) :

فإنّى وتَرْكِى نَدَى الأكرَمِينَ   وقَدْحِى بكَفِّى زَنْدًا شَحَاحَا
كتارِكةٍ بَيْضَها بالعَــراء   ومُلبِسَةٍ بَيْضَ أخرَى جَنَاحا

وقوله « هذا الضَّلالُ عن القصد » يَجرِى مجرى قوله « كيف أصْبِرُ عن وَدِّ(٢) » ، فى أنه من باب الالتفات . ومثلهما قول جرير :

مَتَى كان الخِيَامُ بذِى طُلُوحٍ   سُقِيتِ الغَيثَ أيَّتُها الخِيَامُ

والشاعر لم يُقنعه التشبيه الأوّلُ ولم يكتَفِ به ، لأنّ الثانى أدَلُّ على الحال فيما يرومُ تصويرَه ، وأشبَهُ بقصّته إذا فعل فَعْلَتَه . والقَصْد : الطريق المستقيم ، وهو المقصود .

١٥ــ فأوصيكُمَا يا ابنَىْ نِزارٍ فتابِعَا   وَصِيَّةَ مُفْضِى النُّصْحِ والصِّدْقِ والوُدِّ
١٦ــ فلا تَعلَمَنَّ الحربَ فى الهَامِ هَامَتِى   ولا تَرْمِيَا بالنَّبْلِ ويْحَكُمَا بَعْدِى(٣)

جَعلَ وَصَاتَهُ شاملةً لقبائل ربيعةَ ومُضَر ، وهما ابنا نزار بن مَعَدّ ، فيقول : أبْذُل نُصْحِى لكم ، وأبسطُ وصيّتِى إيّاكم فيكم ، فتابِعوها واعملوا بحَسَبِها ، فإنّها ممحوضَةٌ لكم عن قلبِ رجلٍ سليمِ الغَيبِ ، نقىّ الجَيْب ، صائب الرأى ، صادقِ الوُدّ . وقولُه « مُفْضِى النُّصْحِ » أى واصلٍ نُصْحُهُ إليكم ، وصائر فى فَضَاء وسَعَة . والمعنى انكشافُه وخُلوصُه . وفى القرآن : ﴿ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ ﴾ . وقولُه « فلا تعلَمَنَّ الحربَ فى الهام هَامَتِى » هذا صريحُ الوصيّة

(١) هو ابن هرمة . الحيوان (١ : ١٩٩) . وانظر ثمار القلوب ٣٠٣ واللسيرى (٢ : ٥٠٢) والموشح ٢٣٧ .
(٢) فى البيت ١١ من هذه الحماسية .
(٣) ويروى : « فَلَا تُعلِمُنَّ الحربَ » ، كما أشار التبريزى .

التى دعا إليها ، وسامَهُم ارتسامَها وحفظَها . وجَعلَ النَّهىَ لهامته ، والمُخاطَبون هم المنهيُّون ، فهو كقولك : لا أرينَّك هاهنا ، والمُراد : لا تكن هاهنا فأراك . وتحقيق قوله « فلا تَعلَمَنّ الحربَ فى الهام هامَتى » : لا تتحاربوا بعدى فتعلمَ هامتى بين الهام الحربَ بينكم ، أى عليكم بالتَّواصُل والتَّعاضُد ، وإيّاكم والتقاطُعَ والتَّدابُر ، فإنَّ ذلك يؤدِّى ضَعفَكم ، واجتراء الخصمِ عليكم ، إن لم يُؤدِّ إلى التَّفانى والتَّهالُك . وكانت العرب تقول : إن عِظامَ الموتى تَصيرُ هاماً فتطيرُ وتتنسَّم أخبار الأحياء . وقوله «ولا تَرْمِيَا بالنَّبْلِ ويْحَكُما بَعْدِى» ، يقول : دعوا التَّفاخُر والتنافُر ، والتَّجاذُب والتَّحارُب ، فإنّ ذلك من آكدِ أسباب التَّقالى والتهاجُر . وهم يجعلون المُناضَلة مَثلًا للمُفاخرة ، على هذا قولُ لبيد :

فانتَضَلْنَا وابنُ سَلْمَى قاعِدٌ كعَتِيقِ الطَّيرِ يُغْضِى ويُجَلّ

ثم قال :

فرَمَيتُ القَوْمَ رِشْقًا صائبًا لَيْسَ بالعُصْلِ ولا بالمُفْتَعَلْ

١٧ ـ أَمَا تَرْهَبانِ النَّارَ فى ابْنَىْ أبيكما ولا تَرْجُوانِ اللهَ فى جَنَّةِ الخُلْدِ

١٨ ـ فما تُرْبُ أثْرَى لو جَمَعْتَ تُرابَهَا بأكْثَرَ من ابْنَىْ نِزارٍ على العَدِّ

١٩ ـ هُمَا كَنَفا الأرضِ اللَّذا لو تَزَعْزَعَا تَزَعْزَعَ ما بَيْنَ الجَنُوبِ إلى السُّدِّ

ذكَّرهُم بما فى صلة الرَّحِم من الأجرِ ، وبما فى قطيعته من الإثم ، فأخذ يُرغِّبهُم ويُحذِّرُهم ، فيقولُ : أمَا تخافُونَ أن يحِقَّ عليكم العَذابُ إذا استهنتُم بالوعيدِ الوارد فى القَطيعة واستعمالِ البَغى ، وتعرَّضتُم لسَخَطِ الله عزّوجلّ فى تجاوُزِ مأمورِه ، وأما ترجُونَ أن يحلّ الثَّوابُ الكريم فى الصِّلةِ واستعطافه

أولى المحارمِ والقُرْبةِ[(١)] ، إذا رَعَيْتُمْ أمرَه ، والتزمتم حتمَهُ ، واستنجزتُم مَوعودَه . وإنّما أخرجَ الخطابَ بلفظ التثنية ، وإن كان الوعظُ متوجِّها إلى جميعهم ، لأنّه قال « فأوصيكما يا ابنَىْ نزارٍ » .

وقولُه « فما تُرْبُ أثْرَى » أثرى والثَّرَى يجعلان اسمين للأرض ، إلّا أنّ أثرَى جُعِل كالعلَم لها ، ولذلك لم يُصْرَف . والثَّرى : النَّدَى . وفى المَثَل « التقَى الثَّرَيان » . وفُسِّرَ قوله « وما تحتَ الثَّرَى » على ما تحت الأرض . ويُقال : ثَرِىَ ثَرِىٌّ ، فيُرادُ به التُّراب النَدِىُّ . وفى الاستكثار قيل : هم أكْثرُ من الثَّرَى . والشّاعر وَصفَ ابنَىْ نزارٍ بالكثرة ، لأنّ فيها العزَّ والغَلبة ، ثم لم يَرْضَ بذلك حتّى قال « هُمَا كَنَفَا الأرض » . ومعنى « لو جَمَعْتَ تُرَابَهَا » لو أحطتَ علماً به وضَبطتَه . ومعنى « بأكْثرَ منْ ابنَىْ نِزَارٍ على العَدِّ » بأكثر منهما معدودَين ؛ فوضِع على العَدِّ موضع الحال . وقَطَع همزةَ ابنَىْ نزارٍ ضرورةً ، كما قال الآخر[(٢)] :

إذَا جاوز الإثْنَيْنِ سِرٌّ فإنَّهُ   [بِنَثٍّ وإكثارِ الوُشاةِ قَمِينُ][(٣)]

ويركبون هذه الضَّرورةَ فى الأكثر الأعمِّ إذا كانت الألِفُ فى اسمٍ ، وذلك أنّ ألِفات الوصل بابُها الأفعال دون الأسماء حتّى يُمْكِنُ حَصْرُها[(٤)] إذا لم تَكن فى مصدرٍ ، فإذا كان كذلك فالمعتادُ فى ألِفات الأسماء القَطْع ، فَعلَى ذلك يُستحسَنُ قَطعها فيها ، وإن كانت فى الوصل للضَّرورة .

وقوله « هما كَنَفَا الأرض » فالكَنَفُ : الجانبُ والنَّاحيةُ . ومنه تكَنَّفَهُ بَنُو فلانٍ . والمعنى أنَّهم مُحْدِقون بالأرض . وقولُه « اللّذا لو تَزَعْزَعَا » حذف

(١) القربة ، بضم وبضمتين : القرابة ، ومثلها القرب والقربى .

(٢) هو قيس بن الخطيم . ديوانه ص ٢٨ . واللسان (نثث) .

(٣) التكلة من ل . وبدلها فى التيمورية كلمة : « البيت » . وفى الديوان : وتكثير الحديث » ، وفى اللسان : « وتكثير الوشاة » .

(٤) أى يمكن حصر ألفات الوصل فى الأسماء ، وهى الأسماء العشرة .

النون استطالةً للاسم بصلتِهِ . وعلى هذا قَوْلُه :

أَبَنِي كُلَيْبٍ إنَّ عَمَّيَّ اللَّذَا قَتَلاَ الْمُلُوكَ وفَكَّكَا الأغلَالا[1]

والزَّعْزعةُ : التحريك ، ومنها ريحٌ زَعْزاعٌ . وقولُه « ما بين الجَنُوبِ إلى السُّدِّ » يريدُ ما بين مَهَبِّ الجَنُوبِ إلى سدِّ يأجوج . ويقال سَدٌّ وسُدٌّ لُغتان ، وقيل السَّدُّ ما يفعله الآدميّون ، والسُّدُّ بالضم ما لا صُنْعَ للآدمى فيه . ومُراد الشّاعر أن مِسَاكَ الأرض وجوانبها بابْنَىْ نزارٍ ، فإن تزعزعا تزلزلت الأرض . وهذا الكلامُ نهايةٌ فى بابه .

٢٠ - وإنِّى وإنْ عادَيْتُهُمْ وجَفَوْتُهُمْ لَتأْلَمُ ممّا عَضَّ أكبادَهم كَبْدِى

٢١ - لأنَّ أبِى عِنْدَ الحفاظِ أبُوهُمُ وخَالُهُمُ خَالِى وجَدُّهُمُ جَدِّى

يقولُ : أنا وإن كنتُ متنكِّرًا لهم مُستجفِيًا ، وجافيًا مَعَهم معاديًا ، ومتحامِلاً عليهم مُناصِبًا ، فللعلائق الجامعة بينى وبينهم ، والأواصرِ العاطفةِ ضميرى عليهم ، ولأنِّى أرى أطرافى من السَّبَب والنَّسب تَظْأَرُنى وتَأْبَى إلَّا التَّحَنُّن لهم ، وتضُمُّنى فتمنع من الانحراف عنهم — يَسوؤُنى ما يَسُوؤُهم ، وأشتكى لشكواهم ، وأتألّم ممّا ينالُهم ، وبحسب ذلك أختارُ لهم ما أختارُه لنفسى ، وأريد بهم ما أريدُ بمن لا يَتميَّزُ عنّى ، فذلك هو الذى يَدعُونى إلى استصلاحِهم ، والوَصاةِ بما يُؤدِّى إلى مصالحِهم ، فِعْلَ الأمَسِّ سُهْمَةً ، والأخَصِّ نُسبَةً . وكيف لا أكون كذلك ، وإذا حافَظْنا الحقوق ، وراعَينا الوسائل والحظوظ[2] تَنَاسَقَتِ الأُبُوّة بيننا والأمومة ، وتلاحَظت البُنُوّة والأُخُوّة .

---

(١) البيت للأخطل فى ديوانه ٤٤ والخزانة (٢ : ٤٩٩ - ٥٠١) . وقد ذكر فى الخزانة خلافاً شديداً فى تعيين اسمى عميه .

(٢) فى الأصل : « والخصوص » ، صوابه فى سائر النسخ .

٢٥٠

وقالت عاتكةُ بنتُ عبد المطَّلب[١] :

١ — سائلْ بنا فى قَوْمِنا ولْيَكْفِ من شَرٍّ سَمَاعُهْ[٢]

٢ — قَيْسًا وما جَمَعوا لنا فى مَجْمَعٍ باقٍ شَنَاعُهْ

هذه الأبيات تناسب ما قبلها وتؤدِّى إلى مِثْل مؤدّاها ، لذلك قالت « سائلْ بنا فى قومنا » لأنّ ما تألَّمَتْ منه كان فى عشيرتها وذويها ، وكأنّ الخَطْبَ كان عظيما ، والشرَّ كان مُستفحِلاً شديدًا ، فأخذت تَبْعث على التَّسآل[٣] عنهم فى قومهم ، إذ كان البلاء لم يَعْدُهم . ويجوز أن يُريد : سائلْ بنا وعن حالِنا فيما بين قومِنا ، كأنه يَدَّعِى أنّ لهم شأنًا فى قومهم ليس لغيرهم . وقولها « وليَكْفِ من شرٍّ سماعُه » توجُّعٌ مما نالهم ، واستفظاعٌ لما أُجْرَوا إليه فيما أداروا أنفسَهم عليه[٤] . وظاهِر لفظ الأمر للسَّماع ، وهو فى الحقيقة للمخاطَب ، لأنّ المراد : واكتَفِ إذا

(١) هى عاتكة بنت عبد المطلب بن هاشم ، عمة النبى صلى الله عليه وسلم ، اختلف فى إسلامها . الإصابة ٦٩٥ من قسم النساء .

(٢) التبريزى : « قال أبو هلال : لما قتل البراض بن قيس عروة بن عتبة الجعفرى كانت قريش بعكاظ ، فاحتملوا نحو مكة ، وأتى هوازن قتل البراض عروة فأتبعوهم فأدركوهم بنخلة ، فاقتتلوا حتى دخلت قريش الحرم وجن عليهم الليل ، فكفت عنهم هوازن ، فقال خداش ابن زهير :

يا شدة ما شددنا غير كاذبة على سخينة لولا الليل والحرم

• وللنبى فى ذلك الوقت عشرون سنة ولأبى طالب ستون سنة ، فقال البراض فى ذلك :

نقمت على المرء الكلابى فخره وكنت قديماً لا أقر نخارا

علوت بنصل السيف قلة رأسه فأسمع أهل الواديين جؤارا

والإشارة بعكاظ فى البيت الرابع إلى ما كان فى أيام الفجار الآخر وكلها فى عكاظ أو فى مواضع قريبة منها . وكان مصرع عروة فى أيام الفجار الآخر . انظر العقد (٥ : ٢٤٥) ، والأغانى (١٩ : ٧٥) .

(٣) هذا ما فى ل ، م والتيمورية . وفى الأصل : « التسائل » .

(٤) أداروا ، بتقديم الدال ، كما فى جميع الأصول . وقد سبق نحوه فى ص ٤٥ .

سألتَ من الشرِّ بالسَّماع دون العِيان ، فهو فى باب الأمر ــ أعْنِى ليَكُفِ ــ كقولهم فى باب النَّهْى : لا أَرَيَنَّكَ هاهنا ، إذ كان المراد : لا تكن ها هنا فأراك .

فإن قيل : لِمَ نَكَّر قولَه من شرٍّ ، والذى يومِئُ إليه يجب أن يكون معروفًا مشهورًا ؟ قلت : إنّ فائدة المُنَكَّرِ مثل فائدة المعرَّف فى مثل هذا المكان ، ألا تَرَى أنّكَ تقول: فلانٌ يَلبسُ خَزًّا وقَزًّا ، والخزَّ والقزَّ ، فلا يختلف المفهوم منهما ؟ وقوله « قَيْسًا وما جَمَعُوا لنا » انتَصَب قيسًا على إضمار فِعلٍ ، كأنه قال : سائل قيسًا والجيش الذى جَمَعوه لنا فى تَخيُّل أخبارُه تُتحمّل وتُنشَر على مَرِّ الأحقاب والأيّام ، وشناعتُه تُستفظَع وتُذكر فى المَشاهِد والأقوام . والشَّنَعُ والشَّناعةُ والشَّناع والشُّنُوع : قُبْح الشىء الذى يطيرُ خبرُه ويَعْلو . ومنه شَنَعَ النَّجْم ، إذا ارتفَع فى السماء . والشَّنَاعُ : الناقة الخفيفة . وتشنَّعَت : تَشمَّرت فى السَّير وجَدَّت . وإنما قالت « وما جَمَعوا لنا » لأنها أشارت بما إلى الجنس . ويجوز أن تريد : والذى جَمَعوا من أنواع المَلَامات والجرائم . وإذا فَسَدَ ذاتُ البَيْن من قومٍ أخَذوا يَتجرَّمون ويعدِّدون ما لا يكونُ جِنايةً جِناية .

٣ ــ فيه السَّنَوَّرُ والقَنَا   والكَبْشُ مُلْتَمِعًا قِناعُهْ[1]

أشار بقوله « فيه السَّنَوَّر » إلى ما اشتَمل عليه ذلك المَشهدُ من العَدَد والعُدّة . وموضع « فيه السَّنَوَّر » من الإعراب جَرٌّ على أنه صفةٌ لَجَمْعٍ . والمراد بالسَّنَوَّر والقنا والكَبْش أجناسُها . والسَّنَوَّر : الدِّرع ، وقيل هو جماعة الأسلحة والكَبْش : الرئيس . ومعنى « مُلتمِعًا قِناعُه » بارقًا ، أى عليهم البَيضُ . وانتَصَب ملتمِعًا على الحال . ويجوز أن يُنْوَى الاستئنافُ بقولِهِ « والكَبْشُ » ، وحينئذ يُرْوَى « ملتمِعٌ » بالرَّفع ، فيكونُ خبرًا عنه ، وموضع الجُملة يكونُ

(١) م والتبريزى : « ملتمع » ، وهما روايتان .

نَصْبًا على الحال ، وقد سُمِّيت البَيضةُ يَلْمَعًا لبريقهِ[1] ، كما سُمِّيَ السَّرابُ يَلْمَعًا . وفى المثل السائر « أَكْذَبُ مَن يَلْمَع » .

٤ — بِعُكَاظَ يُعْشِى الناظِرِيـــنَ إذا هُمُ لَمَحُوا شُعَاعُهْ

٥ — فيـــه قَتَلْنا مالِكًا قَسْرًا وأَسْلَمَهُ رَعَاعُهْ

٦ — ومُجَــدَّلاً غادَرْنَهُ بالْقاعِ تَنْهَسُهُ ضِبَاعُــهْ

قوله « بعُكَاظَ » الباء منه تَعَلَّقَ بقولهِ فى مَجْمَع ، ويجوز أن يتعلَّقَ بمُلتمِعًا . وشُعاعُه يرتفِع بيُعْشِى ، والضميرُ منهُ يجوز أن يعودَ إلى عُكاظَ لكوْنِ الشُّعاع به ، ويجوز أن يعودَ إلى القِناع لأنّ اللمعانَ له . ويقالُ أشَعَّت الشمسُ ، أى انتَشر شُعاعُها . ويقالُ لَمَحَهُ ببَصَرِه ولَمَحَ البصرُ ، ولَمَحَ البَرْقُ ، وبرقٌ لَمّاحٌ . وقولها « فيه قَتَلنا مالِكًا » الضميرُ يعود إلى المَجْمَع ، ويجوز أن يعودَ إلى عُكَاظ . ومعنى قَتَلناه قَسْرًا ، أى قَصْدًا ، لا اتِّفاقًا . والقَسْرُ : القَهْر على كُرْهٍ . ويقالُ قَسَرْتُه واقتسرتُه . وقولها « وأسْلَمَهُ رَعاعُه » ، إشارةٌ إلى لفائفَ انضمُّوا إليه فخذَلوه ولم يَفُوا له . والرَّعاعُ : سَفِلَةُ الناس وسُقَّاطُهم . وقال الخليل : الرَّعَاعةُ : الرَّجُل الذى لا فؤادَ له ، ومنه رَعَاعُ الناس . و « مُجَدَّلاً » انتصَب بفعلٍ ما بعدَه تفسيرُه ، كأنّه قال : وغادَرْنَ مُجَدَّلاً غادَرْنَه . والضميرُ فى الفِعْل للخَيْل . والمُجَدَّل : المصروع على الجَدَالةِ ، وهى الأرض . والقاعُ : المُستَوِى من الأرض . وموضع « تَنْهَسُه » نَصْب على الحال ، والعامل فيه غادَرن . والنَّهْس : أَخْذُ الشىء بمقدَّم فيك . ويُرْوَى : « تَنْهَشُه » بالشين معجمةً . وكان الأصمعىُّ يقول : النَّهْسُ والنَّهش سواء ، وهو أَخْذ اللَّحم بالفمِ . وخالفه

---

(١) كذا فى جميع النسخ ، أى لبريق البيض .

أبو زَيدٍ فقال : النَّهس بالسِّنين أخْذُك الشيء بمقدَّم فيك . والضميرُ في قوله « ضباعُه » يعودُ إلى القاع .

٢٥١

وقال عبد القَيْس بن خُفَاف[١]

أحد بني حنظلة بن مالك ، البُرجُميّ[٢] :

١ ــ صَحَوْتُ وزايَلَني باطِلِي لَعَمْرُ أبيكَ زِيالاً طَوِيلاً

يقولُ : وبَقاءِ أبيكَ لقد أفقتُ من سُكْر البَطَالة ، وفارقني ما كنتُ أتعاطاه من الصِّبا والجَهالة ، فِراقاً ممتدًّا لا ينقطع بمُعاوَدةٍ تَعْرِضُ دُونَه ، أو بمُواصَلةٍ تُبطلُه وتُزيلُه . فإن قيل : كيف وَصَفَ الزِّيالَ بالطُّول ؟ قلتَ : الطول في الحقيقة لوقتِ الزِّيال لا لَهُ ، لكنَّه وصَفه به على طريق التوسُّع . وهم يستعملون الطُّولَ والعَرض على ضَرْبين : أحدهما في المُجَسَّمات ، وذلك وصْفٌ لذهابها في الجهتين . والثاني أن يرادَ بهما الاتساع للشيء ، أو امتدادُ الوقتِ به . وهذا الوجه قد يُستعمل في المُجَسَّم وغير المُجَسم . وأكثرُ ما يُستعمل منه العَرض من دون الطُّول . على هذا قولُهم : نِعمةٌ عريضةٌ وجاهٌ عريض[٣] . وقال الله تعالى : ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُها السَّموات والأرْضُ﴾ وقال : ﴿فذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ . وربما جَمَعوا

---

(١) شاعر جاهلي من شعراء المفضليات ، قال أبو الفرج في الأغاني (٧ : ١٤٥) : « وأما عبد قيس بن خفاف البرجمي فإني لم أجد له خبراً أذكره إلا ما أخبرني به جعفر بن قدامة » ، فذكر قصة في أنه حمل دماء عن قومه فأسلموه فيها ، وأنه أتى حاتماً الطائي ومدحه ، فحملها عنه . انظر القصة أيضاً أمالي القالي (٣ : ٢١) ، وقد أشار إليها المرزباني في معجمه ٣٢٥ .

(٢) البرجمي : نسبة إلى البراجم ، وهم خمسة من أولاد حنظلة بن مالك بن عمرو بن تميم : عمرو ، وقيس ، وغالب ، وكلفة ، وظليم ، وتحالفوا على أن يكونوا كبراجم الأصابع في الاجتماع . والبراجم : ما ينشز من الأصابع إذا قبضت اليد .

(٣) الأبيات هي المفضلية رقم ١١٧ .

بينهما فقد قالوا : عِشْنا زَمناً طويلاً عريضاً . والدَّهرُ العريضُ الطويلُ ، يراد به الكمالُ والاتساع ، وقد قال كُثَيِّر :

بِطَاحِيٌّ له نَسَبٌ مُصَفًّى وأَخلاقٌ لها عَرْضٌ وطُولُ

فهذا على التَّشبيه بالمُجسَّمات ، والقَصْدُ إلى السعة ، لأنَّ الأخلاقَ تُوصَفُ بالسَّعَةِ والضِّيق . وقد عِيبَ على أبى تمَّامٍ قولُه :

* بِيَوْمٍ كَطُولِ الدَّهْرِ فى عَرْضِ مِثْلِهِ[1] *

وقيل جَعَلَ للزَّمانِ عَرْضاً مع أنه لا حاجَةَ به إليه ، إذ كانَ بذِكْر الطول قد استوفَى المعنى المقصود . وهـذا من قائله ظلمٌ صريحٌ لأنه سَلَكَ مثلَ طريقةِ كُثَيِّرٍ من التَّشبيه بالمُجسَّم ، فَكَما قال فى الأخلاق لها عرضٌ وطولٌ ، كذلك قال فى الزَّمان لَهُ طُولٌ كذا فى عَرْضِ مِثْلِهِ ، ولا فَصْل . وقوله « وزَايَلنى بَاطِلِى » قال سيبويه : يقال زايَلْتُ بمعنى بارَحْتُ ، ومنه قولهم ما زالَ يفعل كذا ، لأنَّ معناهُ ما بَرِحَ ، ويقالُ زالَ الشىءَ من الشىء يَزِيله زَيْلاً ، إذا مَازَهُ منه ، وزالَ الشىء يَزُولُ زَوالاً ، إذا فارَقَ . وجَوَاب القَسَم مُقَدَّمٌ عَلَيْهِ .

٢ ــ وَأَصْبَحْتُ لا نَزِقاً لِلَّحاءِ ولا لِلْحُومِ صَدِيقِى أَكُولاَ[2]

٣ ــ ولا سَابِقِى كَاشِحٌ نَازِحٌ بِذَحْلٍ إذا ما طَلَبْتُ الذُّحُولاَ

أجْرَى أَصْبَحْتُ مُجْرَى صِرْتُ . والنَّزِقُ : الطَّيَّاشُ الخفيف العقل . ويقال نزِقَ يَنْزَقُ نَزَقاً ، ومنه نَزَّقْتُ الفَرَسَ ، إذا ضَرَبْتَهُ حتى يَنْزَق واللِّحاء : المشاتَمَةُ . يقول : استَبْدَلْتُ من الخِفَّةِ وقَاراً ؛ ومن العجلة أَناةً وسُكوناً ، فلا يستخِفُّنى النَّزَقُ لِملاحاة الرجال ، وثَلْبِ أعراض الأصدقاء بالاغتياب . ويقال

(١) من قصيدة له فى ديوانه ٢٤٤ يمدح بها أبا المستهل الطائى . وعجزه :
* ووجدى من هذا وهذاك أطول *

(٢) المفضليات : « لا نزقا باللحاء » .

للمُغْتاب : هو أكولٌ لِلحُوم النَّاس ، كالسَّبُع الضَّارى . والنَّمَّام : هو أضْرَبُ من مَشَى بِشَفَةٍ ، من قوله عَزَّ وَجَلّ : ﴿ مَشَّاء بِنَمِيمٍ ﴾ . وفى القرآن : ﴿ أيُحِبُّ أحَدُكُمْ أنْ يَأكُلَ لَحْمَ أخِيهِ مَيْتًا ﴾ . وقوله « صديق » أراد به الكثرة لا الواحد .

وقولُه « ولا سَابِقِي كاشِحٌ نَازِحٌ » فالكاشِحُ : العدوُّ الباطِنُ العَداوة . والنازح : البعيد الدَّار أو النَّسَب . وفى البيت يحتمل الوجهين . يقول : إذا سعيتُ فى طلب إصابةِ الأوتار ، لم يَفُتْنى العدُوُّ البعيد الدار ، لأنَّ المسافات لا تمنَعنى عن الطَّلَبِ وإن شَقَّت وثَقُلَتْ .

٤ — وَأصْبَحْتُ أعْدَدتُ للنَّائباتِ عِرْضًا بَرِيئًا وَعَضْبًا صَقِيلَا

٥ — وَوَقْعَ لِسَانٍ كحَدِّ السِّنانِ ورُمْحًا طويلَ القَنَاةِ عَسُولَا(١)

يقولُ : وصِرْتُ كما استنكفت(٢) من مَسَاوِى الأَخلاقِ ، وأخَذْتُ أتعطّف على مكارِمِها ، أعددتُ أيضًا لحوادث الدَّهر نَفْسًا نَقيَّةً من الدَّنيَّات ، رافضة للمُنكَراتِ ، وسَيفًا قاطعًا مصقولًا . كأنَّهُ فى وقت مساعَدَةِ الأحوالِ له وإقبالِ الزَّمان عليه ، يَعلَمُ أنَّ المقدورَ كما يُعْطِى يرتَجِعُ ، فيَسعَى فيما تَسلَمُ معه النَّفس ويَطِيبُ به النَّشر . وإنَّما قَرَنَ بذِكْرِ العِرضِ المُعَدِّ أسلحتَهُ ليُرِىَ اكتفاءه بها إذا نابَتِ النائبات ، كما قال غيرُه(٣) :

فلمَّا نَأَتْ عَنَّا العشيرَةُ كُلُّها أنَخْنَا فحالَفْنَا السُّيُوفَ على الدَّهْرِ

فَمَا أَسْلمَتْنَا عند يومِ كريهةٍ ولا نَحْنُ أغْضَيْنَا الجُفُونَ على وِتْرِ

وقولُه « ووقْعَ لِسَانٍ » يجوز أن يكونَ من وقَعْتُ الحديدةَ بالمِطْرقةِ ، إذا

(١) ابن جنى فى التنبيه : « فى هذا دلالة على أن القناة غير الرمح » .
(٢) فى الأصل : « استنكف » والوجه ما أثبتنا من ل ، م والتيمورية .
(٣) هو يحيى بن منصور الحنفى ، فى الحماسية ١٠٨ ص ٣٢٦ .

ضربتَها؛ ومنه حافِرٌ وَقِيعٌ، إذا أثَّرت فيه الحجارة. ويجوز أن يكونَ من وَقَعْتُ بهم وأوْقَعْت؛ ومنه وقَماتُ الدَّهرِ ووقائعُه. يقولُ: وأعددتُ لها لِسانًا مؤثِّرًا تأثيرًا شديدًا، إذا اعتَرَزَ في رِكاب القوْلِ نافذاً حديداً، نَفاذَ السِّنانِ. وهذا كما قال:

وِلِسانًا صَيْرَفِيًّا صارِمًا كحُسامِ السَّيفِ ما مَسَّ قَطَعْ[1]

وقد قيل: «المَرْءُ بأصغَرَيْهِ قلبِه ولسانِه». وإذا تَنَقَّت الأعراضُ طالت الألسنةُ. وكانت الشُّعراء والخطباء عُدَّةً للقبائل كالرِّجال والأموال، بل كان الانتفاع بمكانِهِم، والدِّفاعُ بألسنتهم أتمَّ وأكمل. وقوله «ورُمْحًا» أي وأعددتُ رُمحًا، وجعَلَه طويلَ الخَشَبَةِ لأنَّ مُستعمِلَه طويلاً أفرَسُ. والعَسُول: الشديدُ الاهتزاز؛ ومنه عَسَلانُ الذِّئب، وقولهم: عَسَلَ الدَّليلُ في الطَّريق.

٦ ــ وسابِغَةً من جِيَادِ الدُّرُوعِ تَسْمَعُ للسيفِ فيها صَليلاَ

٨ ــ كمَتْنِ الغَدِيرِ زَهَتْهُ الدَّبُورُ يَجُرُّ الْمُدَجَّجُ منها فُضُولاَ[2]

يقول: وأعددتُ لها أيضاً دِرعًا واسعةً من خيْرِ أجناسِها، يَنْبُو عنها السيف فلا يَعملُ فيها، لاستحكامِها وجَوْدةِ سَرْدِها، إلاّ ما تَسمَعُ من صليلها عند إصابتِها به، صافيةً كأنها صَفحةُ الماءِ من غَديرٍ هَبَّت عليه ريحُ الدَّبُورِ، فحرَّكتْهُ واستخَفَّته، فصار على ظواهِرِه حَبَابٌ يتدافَع. وإذا لَبِسها المتدجِّجُ في السِّلاح، المستعدُّ للكِفاح، فَضَلَ عنه منها فواضِلُ يُجَرِّرُها. وهذا كما قال الآخر[3]:

* تُغَشِّي بَنَانَ المَرْءِ والكَفَّ والقَدَمْ[4] *

(١) البيت لسويد بن أبي كاهل اليشكري في المفضلية ١٩٩.

(٢) رواية المفضليات: «زفته» بمعنى طردته ودفعته.

(٣) هو راشد بن شهاب اليشكري في المفضلية رقم ٨٦.

(٤) صدره: * مضاعفة جدلاء أو حطمية *

والقَصْدُ فى هذا إلى صفةِ الدِّرع وجودتِها . ولو قَصَدَ مَدْحَ لابِسِها لكان يجعلها صِدَارًا أو بَدَنة . على أن كُثَيِّرًا لما أنشد عبد الملك قولَه فيه :

على ابنِ أَبى العاصى دِلاصٌ حَصِينَةٌ أَجادَ المُسَدِّى سَرْدَها وأَذَالَها

قال له : قولُ الأعشى لقيس بن معديكَرِبَ أحسنُ من قولك :

وإذا تَجِىءُ كتيبةٌ ملمومةٌ خَرْساء يَخْشَى الذّائدُون نِهالَها

كنتَ المُقَدَّمَ غيرَ لابِسِ جُنّةٍ بالسيفِ تَضْرِبُ مُعْلِمًا أبطالَها

فقال كثيِّر : يا أمير المؤمنين وصفتُك بالحزم ، ووصَفَ الأعشى صاحبَهُ بالخُرْق .

ولقائلٍ أن يقول : إنّ المُبالَغَةَ فى الشِّعر أحسنُ من الاقتصاد ، والأعشى أعطَى المبالغة حَقَّها ، فهو أعذَرُ[1] ، وطريقَتُهُ أَسْلَمَ .

٢٥٢

وقالت امرأةٌ من بنى عامرٍ[2] :

١ — وحَرْبٍ يَضِجُّ القومُ من نَفَيَانِها ضَجِيجَ الجِمَالِ الجِلَّةِ الدَّبِرَاتِ

انعطَفَ قوله « وحَرْبٍ » على مجرورٍ تَقَدَّمَه ، وليس على إضمار رُبَّ ، بدلالةِ قولِها « سيَتْرُكها قومٌ » . كأنه غَلَبَ على ظنّها لما رأت من أمارات الشرِّ بين قومِها باستعمالهم البَغْيَ ، واستيطائهم الظُّلْم ، واستبدالهم بالتَّحابِّ تباغُضًا وبالتَّعاطُف تدابُرًا ، وبالتّناصُر تخاذُلا ، وهم من جُرْثومةٍ واحدةٍ ، أنّه سيَحْدُثُ فى مُؤْتنَفِ الأحوال منهم أَحداثٌ ، وتَظهر على مرور الأيام لدواعى الهُلكِ آياتٌ من كذا وكذا ، وحَرْبٍ يتشاكَوْن من اشتمالها لهم ، وتَناوُلِها بالمشارَكةِ مَنْ

(١) كذا فى ل والتيمورية والتبريزى . وفى الأصل : « أغرز » ، وفى م : « أعذب » .
(٢) التبريزى : « وقال أبو رياش : هى من بنى قشير » .

عِدَاهم معهم ، وتجاوزُ القُرَباء بعد ذلك إلى البُعَداء فيهم . وهذا المعنى اقتضاه قوله « من نَفَيانها » لأنّ أَصلَه أن يُستعمَل فيما يتطاير من القَطْرِ عند سَيَلان الماء من أعلَى إلى أسفَل فى جوانب المَصَبِّ ، فشَبَّهَ ما يتدافع وينتشِرُ من أذَى الحربِ فى جوانب القوم به . والجِلَّةُ : المَسَانُّ من الإبِل . وتَعنِى التى مع السِّنّ أَضَرَّ بها الكَدُّ ، وجَهَدَها الاستعمال ، وأزْمَنَها الدَّبَرُ ، فقالت : تَضِجُّ العَشيرةُ لما يقاسُونَه من هذا الحرب ضَجيجَ تلك الإبل عند ما تُقاسِى من العمل . وهذا التشبيه الصائب المتناهِى فى الدّلالة على حالة المُشبَّه . وقد قال الراجز فى هذه الطريقة يَصِفُ حَرْبًا :

وأَغْشَتِ الناسَ الضَّجَاجَ الأَضْجَجَا　　وصاحَ خاشِى شَرِّها وهَجْهَجَا[1]

٢ ـ سَيَتْرُكُهَا قَوْمٌ ويَصْلَى بِحَرِّهَا　　بَنُو نِسْوَةٍ لِلثُّكْلِ مُصْطَبِرَاتِ

نَبَّهَتْ بهذا إلى استفحال الحرب التى تَوَعَّدَت بها وتفاقُمِ الخَطْبِ ، فقالت : تَضجَر بها فِرقةٌ منهم فينفُضُون الأيدِىَ منها تفاديًا من مُلابستِها ، ويعتزلون عنها طلبًا للسَّلامة من عُقباها ، وحَذراً من امتدادِها إلى غايةٍ لا تُمْلَكُ فيها الاستقالةُ منها ؛ ويَصبِر فيها أُخرى ، وهم المنهمكون فى إيقاد نارها ، والاصطلاء بحرِّها ، المعنُون فى إثارةِ كامِنها ، وإذاعة واقفها[2] ، الذين لا يبالُون بما يفعلونه أو يفعل بهم ، وقد تعوَّدَ الثُّكْلَ أمهاتُهم فلا يَجزَعْنَ لقتلاهم ، وأَلِفَ الأَيْمَةَ نساؤهم فلا يحزنَّ لموتهم . ومعنى « للثُّكْلِ » أى من أجْلِه ، وهذه اللام فى هذا الموضع قد تؤدى معنى على ، فاعلَمْه .

٣ ـ فإنْ يكُ ظَنِّى صَادِقًا وَهْوَ صَادِقٌ　　بِكُمْ وبأَحْلامٍ لَكُمْ صَفِرَاتِ

٤ ـ تُعِدْ فِيكُم جَزْرَ الجَزُورِ رِمَاحُنَا　　ويُمْسِكْنَ بالأَكْبادِ مُنْكَسِرَاتِ

(١) من أرجوزة للعجاج فى ديوانه ص ١٠ .

(٢) كذا فى جميع النسخ . والإذاعة : الإفشاء والإظهار . ويقال أذاع به ، أى ذهب به .

قولُها « فإن يكُ ظنِّى صَادِقًا » يجرى منها مجرى التَّحذير والوعيد ، وفيه بعض الاستفاءة ، لأنَّها إذا رهَّبت من القَطيعةِ وآفاتها ، فقد رَغَّبتْ فى الصلةِ وآياتها . وقد تَقَدَّمَ القولُ فى صادِقًا وصَادِقٍ ، وفى حَذْف النُّون من يكُ فى الْجَزْم مشروحا . وقولُها « وبأحْلَام اسكم صَفِرَاتِ » ، أى لا خَيْرَ فيها ، وقد زالت المُسْكَةُ[1] عنها . ويقالُ صَفِرَ الإناء وغيرُه صُفُورًا ، وإناء صِفرٌ وصَفِرٌ . وقال الخليل : هو صَفِرٌ صَحِرٌ على الإتباع ، أى خالٍ . وقولها « تُعِدْ فيكم جَزْرَ الجزور » جواب الجزاء من قولِها ، فإن يك ظَنِّى صادقًا ، كأنَّها ذَكَّرَتْهم حالة مُنكَرة تقدمتْ لهم ، فلذلك قالت : تُعِدْ فيكم . والجَزْر : القَطع . وقيل الجَزُورُ لأنها تُقْطَعُ وتُقْسَم . والجَزَرَةُ : الشاةُ تُذْبح . ويقال . تُرِكَ بَنُو فلانٍ جَزَرَ الرِّماح ، أى قُتِلُوا واجتزرَتْهم السِّباع . وجعَل الإعادَة للرِّماح على الاتِّساع . وقوله « ويُمْسَكن بالأَكبادِ » يروى بفتح السِّين ، أى يُضْبَطْنَ ؛ ويروى بكسر السِّين : وهو ظاهرُ المعنى . وانتصب « منكسراتِ » على الحال والمُرَاد أنهُمْ يَجُرُّونَ الرُّمحَ عند الطَّعْنِ ويصيبون المَقاتل .

٢٥٣

وقال مَعْبَد بن عَلْقَمَة[2] :

١ — غُيِّبْتُ عن قَتْلِ الحُتَاتِ ولَيْتَنى شَهِدْتُ حُتَاتًا يومَ ضُرِّجَ بالدَّمِ[3]

(١) فى الأصل : « المسئلة » ، صوابه فى سائر النسخ .

(٢) روى التبريزى هـذه الحماسية متقدمة على هذا الموضع ، أى بعد الحماسية ٢٠٥ كما سبق التنبيه فى ص ٦٢٩ . ومعبد بن علقمة ، هو معبد بن أخضر المازنى ، وأخضر زوج أمه فنسب إليه هو وأخوه عباد الذى ندبه عبيد الله بن زياد لقتال الخوارج ، وقد قتل أخوه عباد فى حربهم تلك ، فتقدم للأخذ بثأره فى جماعة من المازنيين ، فحاربوا الخوارج حتى قتلوهم جميعاً لم ينج منهم إلا عبيدة بن هلال . وفى ذلك يقول معبد بن علقمة .

سأحمى دماء الأخضريين إنه أبى الناس إلا أن يقولوا ابن أخضرا

الكامل ٥٩١ — ٥٩٢ .

(٣) انظر اللآلىء ٤٤٣ . والحتات هـذا ، هو الحتات بن يزيد المجاشعى وقد ذكر الجاحظ فى البيان (٢ : ٢٣٧) إلى أن بنى مازن — وهم رهط معبد — هم الذين ضربوه .

٢ — وفى الكَفِّ مِنِّى صارِمٌ ذُو حَقِيقةٍ مَتَى ما يُقدَّمْ فى الضَّرِيبةِ يُقْدِمِ

٣ — فيَعْلَمَ حَيًّا مالِكٍ ولَفِيفُها بأَنْ لَسْتُ عن قَتْلِ الحُتَاتِ بمُحْرِمِ

إنما قال هذا لأنّه كان يُستَبعَدُ وقوعُ قَتْلِهِ من جهته، إذ كان منه ذَا رحمٍ مَحْرَمٍ. فجمع فى كلامه هذا بَيْن تَلَهُّفٍ على فائِتَةٍ، وتَمَنٍّ على شَرْطٍ عَقَدَه بِهِ له، فيقول: أُخِّرْتُ عن قَتْلِ هذا الرَّجُلِ يَومَ أُصيبَ ولُطِّخَ بالدَّم، فذهبَتْ نفسُه فيه وتغيَّبْتُ، وكنتُ أَوَدُّ وأَتَمَنَّى أن أكون حاضره، ومشاهِدًا وقتَهُ وحَيْنَه، ومعى سيفٌ قاطع يَنفُذُ فى الضَّريبة إذا أُعمِلَ بِحَقِّهِ من المَضاء وحقيقته، ويأتى على المضروبِ بِحَدِّه وصرامته، فيتيقَّنَ الجيشان ومن لف لِفَّهُمْ[1] وانضاف إليهم من أوباشٍ تجمَّعُوا لهم، وقُاش تكثَّروا بهم، بأنّى لست عن قتل هذا الرّجلِ بذاهب ولا مُمْتَنِـع حتّى كأنِّى فى حَرَمٍ. وقوله «يَوْمَ ضُرِّجَ» فهو من الضَّرَجِ[2]، وهو الحمرة. والإِضْرِيج: ضَرْبٌ من الخز أحمر. ويقال: ضَرَّجْتُ الثَّوبَ، إذا صبغته بالحمرة خاصَّةً، وتَضَرَّجَ الخَدُّ عند الخَجَل. وقوله «ذو حقيقةٍ» فالحقيقة ما يصير إليه حَقُّ الأمر ووجُوبه، وتوسَّعوا فقيل: حاقَقْتُ الرجلَ، إذا جاذبته حقًّا بينكما. ويقال «هو نَزِقُ الحِقاقِ»، إذا جَاذَبَ فى صغار الأمور. وقولُه «بمُحْرِمٍ» يقال: أَحرَمَ الرجلُ، إذا دَخل فى الحرَم، أو فى الشهر الحرَامِ. وفسَّرَ قول الرَّاعى:

* قَتَلُوا ابنَ عَفَّانَ الْخَلِيفَةَ مُحْرِمًا[3] *

---

(١) لفهم، وردت فى الأصل، ل، م بكسر اللام، وهى صحيحة. يقال: جاء بنو فلان ومن لف لَفهم ولِفهم، بفتح اللام وكسرها، وفى لغة قليلة بضم اللام، كما فى اللسان، وقد عبر عن هذه اللغة القليلة بقوله «وإن شئت رفعت»، أى ضممت.

(٢) لم ترد هـذه الكلمة فى المعاجم المتداولة. وقد ضبطت فى نسخة الأصل بسكون الراء، وفى ل، م بفتحها.

(٣) عجزه كما فى جمهرة أشعار العرب ١٧٦ والخزانة (١ : ٥٠٣) واللسان والمقاييس (حرم): * ودعا فلم أر مثله مقتولا *

على أنهُ كان له حرمةُ الإمامةِ والبلَدِ والشَّهر ، لأنهُ قُتِل رضى الله عنه في ذى الحِجَّة . وانتصبَ « فَيَعلَمَ » على أنه جواب التمنّى .

٤ — فَقُلْ لِزُهَيْرٍ إن شَتَمْتَ سَرَاتَنَا فَلَسْنَا بشَتَّامِينَ للمُتَشَتِّمِ (١)

٥ — ولكِنَّنَا نَأْبَى الظِّلامَ وَنَعْتَصِى بكُلِّ رقيقِ الشَّفْرَتَيْنِ مُصَمِّمِ

يقولُ : أبْلِغْ هذا الرَّجُلَ أنك إن اعتمدتَ على رُكوبِ السَّفَه معنا ، وتعمّدتَ فى مجاذبتنا سَبَّ خِيَارِنا ، وثَلْبَ أعراضِنا ، فإنّا نَرْبأُ بأنفسنا عن مجاراتِك فى هذا المَيدان ، ومكايلتِكَ بمِكيال السِّباب . والمتشتِّم : المُتحكِّك بالشَّتم والمتعرِّضُ له . ويصلُحُ أن يكون للجِنْس فيدخُل فيه زُهيرٌ وغيرُهُ ، ويَصْلُح أن يُراد به زُهَيْرٌ خاصّةً . وقوله « ولكِنَّنَا نأبَى الظُّلامَ » يريد : لا نرضَى بالدَّنيّات ، ونمتنع من التزام الظُّلامات ، ونُدافع عن أحسابِنا بكُلِّ سيفٍ رقيقِ الحدَّينِ ، نافذٍ فى الضَّريبةِ . والظُّلامُ والظُّلامَةُ والمَظلِمَةُ واحدٌ ، وهو ما تَظَالَمَ النَّاسُ بسببها بينهم . ويروَى : « الظِّلام » بكسر الظاء ، مصدر ظالَمتُه مُظَالَمةً وظِلامًا . وقوله « ونَعْتصِى » يُقال عَصِيتُ [بالسَّيف (١)] ، واعْتَصَيْتُ وعَصَوْتُ بالعَصَا . ومَرَّ يعتصِى على العصا ، أى يتوكَّأُ عليها . والتصميم : المضىُّ فى الأمر . ويُقال صَمَّمَ فى عَضَّته ، إذا نَيَّبَ .

٦ — وَتَجْهَلُ أَيْدِينَا وَيَحْلُمُ رَأْيُنَا وَنَشْتِمُ بالأفْعَالِ لا بالتَّكَلُّمِ (٢)

٧ — وإنَّ التَّمَادِى فى الذى كان بَيْنَنَا بِكَفَّيْكَ فاسْتَأْخِرْ لَهُ أو تَقَدَّمِ

أفعال جُملةِ الإنسان تُنْسَبُ إلى جوارحهم على المجاز والسَّعَة ، فلذلك

(١) التكلة من سائر النسخ .

(٢) نشتم ، بكسر التاء فى جميع النسخ . ويقال أيضاً « نشتُم » بضم التاء .

نَسَبَ الجَهْلَ إلى الأيْدِى . والمعنَى أنَّ ما يُذَمُّ من أفعالِ القُلوب لا نَكتسبه بوجْهٍ ، بل فينا الرأىُ الثَّاقب ، والوقار الغالِب ، والأناةُ والحِلْم ، والسَّكينة والعِلْم ؛ فأمَّا اليدُ فإذا بَطَشنا بها بطشنا جَبَّارين . أى نَحْمُ بجَهدِنا ومقدار طاقتنا فإذا أُحرِجنا فخَرَجنا عن العادة كانت أفعالُ أيدينا أفعالَ الجُهَّال الذين لا رِعَةَ تَرْدَعُهم ، ولا رقّة تضبِطُهم . وقولُه « ونَشْتِمُ بالأفعال » ، يقول : نجعل جزاء الشَّتْم والمنقَصةِ والثَّلْبِ الفِعلَ لا القَول ، إذْ كان القولُ يَذهب أدراجَ الرِّياح ، والفِعلُ يَبقَى أثرُه على مرِّ الأيَّام . وقولُه « إن التَّمادى فى الذى كان بيننا بِكفَّيْك » تَوعُّدٌ . يقول : أمرُ اللَّجَاج والاستمرارِ فيما يزيدُ ما بيننا فسادًا أنت قادرٌ عليه ، ومتمكِّنٌ من اختياره ، فإنْ شئتَ فتقدَّمْ فيه ، وإن شئتَ فتأخَّرْ عنه . ويقالُ استأخَرَ واستقدم ، وتَقَدَّم وتأخَّرَ ، بمعنًى واحدٍ .

٢٥٤

وقال أُمَيَّةُ بن أبى الصَّلْتِ[١] :

١ — غَذَوْتُكَ مَوْلُودًا وعُلْتُكَ يَافِعًا ... تُعَلُّ بما أُدْنِى إليكَ وتُنْهَلُ[٢]

٢ — إذا لَيْلةٌ نابَتْكَ بالشَّكْوِ لم أَبِتْ ... لِشَكْوِكَ إلا ساهِرًا أَتَمَلْمَلُ

٣ — كأنِّى أنا المَطْرُوقُ دُونَكَ بالذى ... طُرِقْتَ بهِ دُونِى وعَيْنِىَ تَهْمِلُ

(١) أمية بن أبي الصلت ، وأبو الصلت هو عبد الله بن أبى ربيعة بن عوف الثقفى ، شاعر مخضرم ، أدرك الإسلام ولم يسلم . ولما أنشد النبى صلى الله عليه وسلم شعره قال : آمن لسانه وكفر قلبه . وكان فى الجاهلية ممن نظر فى الكتب وقرأها ولبس المسوح تعبداً ، وفى الإسلام كان يحرض قريشاً بعد وقعة بدر ، ويرثى قتلى المشركين ، وتوفى سنة تسع من الهجرة . الإصابة والخزانة (١ : ١١٩ — ١٢٢) وابن سلام ٦٦ — ٨٦ والاشتقاق ١٨٤ والأغانى (٣ : ١٧٩ — ١٨٥ / ١٦ : ٦٩ — ٧٦) وابن قتيبة ٤٢٩ — ٤٣٣ .

(٢) هذه الحماسية اختلف فى قائلها . قال التبريزى . « وتروى لابن عبد الأعلى ، وتُنسب لأبى العباس الأعمى ، قال أبو هلال : أوردها أبو عبيدة فى أخبار العققة والبررة » . وأبو العباس الأعمى شاعر أموى ترجم له فى الأغانى (١٥ : ٥٧) . واسمه السائب بن فروخ .

اعتَدَّ عليه بما تَجَشَّمَه فيه بعد أن كان السَّببَ في إبدائه وإنشائه ، وبما أَعَدَّ له وتكفَّلَ به ، من ابتداء الطُّفولة إلى انتهاء الشَّباب واستِكمال القُوَّة ، إذْ كان جارِحَهُ ومربِّيَهُ[١] ، والقائم بمُؤَنِه على اختلاف سِنيه[٢] . ويقال غَذَوْتُكَ غَذْوًا . والغِذاء : الطَّعام والشَّراب . ويقالُ غلامٌ يافعٌ ويَفَاعٌ ويَفَعٌ ، وقد أَيْفَعَ وأصلُه الارتفاع ، ومنه اليَفَاعُ من الأرض والجَبَل . وقولُه « عُلْتُكَ » أي أنفقتُ عليك . يقول : ربَّيتُك لما وُلِدتَ ، ومنتُكَ حين أيفعتَ ، وفي تلك المدَّة تُسقَى العَلَلَ والنَّهَل ، وتُطْعَم الحارَّ والبارد ، وتُكْسَى اللَّيِّن والخَشِن ، كُلُّ ذلك بما أَجمَعُه لك ، وأُدْنِيه منك ، وبعدَ أن أَقِيَك من المَحاذر ، وأحفظك دونَ المَتالف ، شفقةً عليك ، واهتماما بشأنِك ، فلئن طرَقَتْكَ ليلةٌ بشَكاةٍ تؤذيك ، أو عارضٍ يُضْنيك ، سهرتُ طولَ تلك اللَّيلة لا أَهدأ قَلَقا ، ولا أستَنهِضُ لدَفع ما أجدُه سَكَنًا[٣] ، ولا أستلينُ مِهادًا ، ولا أَثني لمقرِّ راسي وِسادًا ، بل أتلوَّى وأضطربُ ، وأَتملمَلُ على فِراشي وأتقلَّبُ ، حتَّى كأنِّي المختَصُّ بما اشْكاكَ ، والمَدْهِيُّ بما دَهاك ، لا يَجِفُّ مَدْمَعِي ، ولا يَوْطُؤُ مضجعي . وقولُه « تَعَلُّ بما أُدْنِي » يجوز أن يكونَ موضع تُعَلُّ صِفَةً لقولِه يافِعًا ، أي مَعْلُولاً ؛ ويجوز أن يكونَ خبر مبتدإٍ محذوف كأنه قال : وأنت تُعَلُّ وتُنْهَلُ بما أُدْنِيه . وقولُه « لم أَبِتْ لِشَكْوِكَ » فالشَّكْوُ والشَّكوَى والشَّكَاةُ واحِدٌ . والتَّمَلمُل : القلق وتركُ الهُدُوّ . ويُرْوَى « تُعلُّ بما أَجْنِي عليكَ » والمعنى أَجْنِي لكَ . وهذا كما يقالُ : سَعَى فلانٌ على ذَوِيهِ ، إذا سَعَى لهم في مصالِحهم : ويقالُ جَنَى الثَّمَرَ يَجْنِي جَنْيًا وجِنايةً . قال الأخطلُ :

* دَانِي الجِنايَةِ مُونِـعُ الأَثْمَارِ[٤] *

---

(١) الجارح : الكاسب . (٢) في نسخة الأصل : « سنة » .

(٣) السكن : كل . ما سكنت إليه واطمأننت ، من أهل وغيره .

(٤) صدره في ديوان الأخطل ٧٧ :

* وكأن ظعن الحي حائش قرية *

٤ ــ فلمَّا بَلَغْتَ السِّنَّ والغَايةَ التى إليها مَدَى ما كنتُ فيكَ أُؤَمِّلُ

٥ ــ جَعَلْتَ جَزَائِى مِنْكَ جَبْهًا وغِلْظَةً كأنَّكَ أنْتَ المُنْعِمُ المُتَفَضِّــلُ

يقول : فلمَّا تَكامَلَ منك الشَّبابُ ، وتَعَلَّقَتْ بك الآمَالُ ، وبلَغتَ المدَى المنتَظَر للانتفاع بك ، والاستظهار بكفايتك ، والاضطلاع بكِفايَتِك ، وصَلَحْتَ لأنْ تكونَ عُدَّةً وعَددًا ، وبَأْسًا مَخُوفًا ، وطَمَعًا مَرجُوًّا ، أقبلتَ تُجازِينِى بإحْسَانى إساءةً ، وبما استَلَنْتَ من جانِبى غِلْظَةً ، وبما تَرَفْرَفَ عليك من رحمتى ورِقتى نُبُوًّا وقسوةً ، حتَّى كأنّ ما سالَ عليك من نِعمتى[1] كان لَكَ ، وما أسْبَلَ عليك من فَضْلِى وإفضالِى كان منك ؛ لا مُراجعةً فى الأوّل تَرُدُّكَ ، ولا مُلاحَظَةَ لعُقباكَ تَنِيه بِكَ .

والجَبْهُ : مقابلةُ الإنسان بما يَكرهه .

٦ ــ فلَيْتَكَ إذ لم تَرْعَ حَقَّ أُبُوَّتِى فَعَلْتَ كما الجارُ المجاوِرُ يَفْعَلُ[2]

٧ ــ تَراهُ مُعِدًّا للخِلافِ كأنّه بِرَدٍّ على أهلِ الصَّوابِ مُوَكَّلُ

يقول : وَدِدْتُ أنك إذ لم تُنزِلْنِى إكبارَ الآباء ، ولم تَرْعَ منِّى حقوقَ الوِلادِ والإنشاءِ سِرْتَ معى بسيرةِ المُجَاوِرِ لجارِه ، والمُرافِق لرفيقِه ؛ فإنّ ذلك إذا عُدَّ درجاتُ المَبارِّ ، ومُدَّت علائق التّحابِّ ، وتؤُمِّلَ ذِمم القرابةِ ، وحُرَمُ الصداقة ، أضعَفُ الأواخى ، وأدْوَنُ المَراقِى . ثم أخَذَ يُنبِّه على سُوءِ اختياره ، وتمادِى لَجَاجِه ، وتَنَاهِى جهلِه والتوائه ، فقال : « تراه مُعِدًّا للخِلاف » أى جَعَلَ الخِلافَ على ذوِى الرأى وأربابِ العقــلِ ، وأولى الحَزَامةِ والحِلم ، عُدَّةً

(١) ل والتيمورية : « نعمى » .

(٢) أنشد التبريزى بين هذا البيت وتاليه :

وسَمَّيْتَنِى باسمِ المُفَنَّدِ رأيُهُ وفى رأيِكَ التَّفنيدُ لو كنتَ تَعقِلُ

فكأنهُ وكَّل بِرَدِّ صوابهم. واستقباح المُحَسَّنِ عندهم. فإن قيلَ: بماذا دَخَلَ هذه الأبياتُ وما يتلوها — وهو فى معناها — فى باب الحماسة؟ قلتَ: دخلتْ فيه بالمشاكلةِ التى بيْنها وبين ما تقدّمها من الأبيات، المُنْبِئةِ عن المُفاسَدةِ بين العشائر، وما يتولَّدُ فيها من الإحَنِ والضغائن، المُنْسِيَةِ للتَّوَاشُجِ والتّناسُب، المُنْشِئةِ لهتكِ المَحارم، المبيحةِ لسَفْكِ الدِّماء وقَطْعِ العِصَم؛ إذ كان عُقوقُ البنين للآباء، وتَناسِى الحُرَم، فيه مثلُ ذلك. وهو ظاهرٌ بيِّنٌ.

٢٥٥

وقالت امرأةٌ من بنى هِزّان(١)

يقال لها «أمُّ ثَوَاب» فى ابنٍ لها عَقَّها:

١ — رَبَّيْتُهُ وهو مِثْلُ الفَرْخِ أَعْظَمُه أُمُّ الطَّعَامِ تَرَى فى جِلْدِهِ زَغَبا
٢ — حتى إذا آضَ كالفُحّالِ شَذَّبَهُ أَبَّارُهُ ونَفَى عن مَتْنِهِ الكَرَبَا
٣ — أنشَا يُمَزِّقُ أثوابِى يؤدِّبُنى أَبَعْدَ شَيْبِى عندى تبتغى الأَدَبَا(٢)

يقال ربَبْتُهُ وربَّيْتُهُ بمعنًى. ومعنى البيت: كانَ ابنى حين ولدتُه فى ضَعْفِه وصِغَرِه، وتَساقُطِ قوّته، وتَخَلْخُلِ بِنْيَتِه، ورَخاوة مفاصله، كفَرْخِ القَطاة ولم يَستبدِلْ بعدُ بزَغَبِه شَكِيرًا، ولا بانحلال عَقْدِه تماسُكًا، فأقبلتُ أربّيه وأعظَمُ شىء فيه بطنُه، وأرقِّيه فى مَدارجِ النَّشْء والترشيح وهو لا يميِّز ما ينفعه مما يضرُّه، متردِّدًا فى الأحوال التى تَجْرى إليه، وتتغيّرُ عليه، بين صيانةٍ كاملةٍ، وشفقةٍ بارعةٍ، وحِفظٍ مُتَّصِلٍ، وإشفاقٍ مُطَّرِدٍ. وتَسْمِيَتُه البَطْنَ

---

(١) هم بنو هزان بن صباح بن عتيك بن أسلم بن يذكر بن عنزة بن أسد بن ربيعة الفرس بن معد بن عدنان. الاشتقاق ١٩٤.

(٢) أشار التبريزى إلى رواية: «أبعد ستين».

بأمِّ الطَّعام ، كما قيل للجلدة الرقيقة المُلْبَسةِ الدِّماغَ أمُّ الدّماغ ، وكما سُمِّىَ المَجَرَّةُ أمَّ النُّجوم ، وكلُّ ذلك لما فى المضاف والمضاف إليه من الانضمام والاحتواء .
وقد سَمَّى الشَّنْفَرى تأبَّطَ شرًّا بأمِّ عِيالٍ ، فقال :

وأمِّ عِيالٍ قد شَهِدْتُ تَقُوتُهم إذا أطعمَتْهم أوْتَحَتْ وأقلَّتِ

لِمَا كان يَجمع من أمرِ أصحابه ويتكفَّل به لهم ويُدَبِّرُه . وقولها « حتى إذا آضَ كالفُحّالِ » حتى وُضِعَ للغايةِ ، وأُضيفَ إلى إذا وما بعده من الجملة التى انشَرَحَ إذا بها . والمعنى إلى هذا الوقت . وموضع « كالفُحّالِ » نَصْبٌ على الحال[1] . يقول : لم أزَلْ أجرِى معه فى تربيته وتفقُّدِه ، إلى أن استكمَل شَبابُه ، وبَرَعَ نَباتُه ، وامتدَّ قَوامُه ، فصار كفحلِ النَّخْل وقد قطَعَ مُتعهِّدُه منه شَذَبَه[2] ، وألقَى عن ظهره كَرَبَه ، ليَكمُلَ طولُه ، ويتِمَّ غِراسُه . والكَرَب : أُصول الأعذاق تُترَك كالأوتادِ ليُرْتَقَى بها فى النَّخْل . والفُحّال : فَحْل النَّخْل خاصّةً ، ولا يقال لغير فَحْلِها فُحّال . والابّارُ والأُبّر : المُلَقِّحُ للنَّخْل . والفُحّال لا يُؤَبَّر ، ولكن لمَّا كان يُؤَبَّرُ به النَّخْل أضاف الأبّار إلى ضميره ، على عادتهم فى إضافةِ الشىء إلى غيره لأدْنى تعلُّق بينهما . ألا ترَى إلى قوله تعالى : ﴿ فإذا جاءَ أجَلُهُمْ ﴾ وفى موضعٍ آخر : ﴿ فإنَّ أجَلَ اللهِ ﴾ . ومعنى آضَ ، قال الخليل : الأيْضُ صَيرورةُ الشىء شيئًا غيرَه وتحوُّلُه عن حاله . وقولُه « أنشا يُمزِّقُ أثوابى » هو جوابُ قوله حتى إذا آضَ كالفُحّال ، وهو العاملُ فى إذا ، أعْنِى أنْشأ . ويقالُ أنْشأ اللهُ الخَلْقَ ، ونَشأَ فلانٌ حديثًا ، ثم يقال : أنشأ يفعل كذا ويقول كذا . يقول : لمّا بَلَغَ هذا المبلغَ ابتدأ يضربُنى ويُخَرِّقُ ثيابى ، مُرْشِدًا

(١) هذا مذهب لبعض النحاة . وبعضهم يراه خبراً لآض ، إذ يعدون «آض» فى الأفعال العشرة الملحقة بصار فى العمل ، وهو مذهب ابن مالك . همع الهوامع (١ : ١١٢) .

(٢) الشذب ، بالتحريك : قشر الشجر وقطعه .

ومؤدِّبًا ثم قالت وكأنّها أقبلَت على إنسانٍ غيره بحضرتها تُخاطِبُه مُنكِرةً ومتعجِّبةً : أَبَعْدَ المَشيبِ يَطلُبُ تأديبى . وهذا الكلام منها كالإشارة إلى المَثَل المضروب السائر فى الأُمَم : « من العَنَاء رياضةُ الهَرِم » ، وهو مع ذلك يَجرِى مجرى الالتفات .

٤ ــ إنِّى لَأُبصِرُ فى تَرْجيلِ لِمَّتِهِ وخطِّ لِحْيَتِه فى خَــدِّهِ عَجَبَا

٥ ــ قالت لهُ عِرْسُه يومًا لتُسْمِعَنى مَهْــلاً فإنّ لنــا فى أُمِّنا أَرَبَا

٦ ــ ولو رَأَتْنِىَ فى نارٍ مُسَــعَّرَةٍ ثم استطاعَت لزادَت فوقَها حَطَبَا

قولها « إنى لأُبصِرُ » ، يقال أبصَرتُ الشىءَ وبَصُرتُ به . والبَصَر : العَينُ ونَفاذُ القلبِ . وحُكِىَ أنّ معاوية قال لابن عبّاسٍ وقد كُفَّ بصرُه : ما لكم يا بنى هاشمٍ تُصابون بأبصاركم إذا أَسنَنْتُم ؟ فقال : كما تصابون ببصائركم عنده !! والترجيل : غَسل الشَّعر ومَشْطه . وعَجَبا مفعول أُبصِرُ . ويقال أمرٌ عَجَبٌ وعجيبٌ وعُجابٌ ، إذا تجاوزَ حدَّ العَجب . والاستعجاب : شدّة التعجُّب . تقول : أرَى بَعْدَ ما شاهَدتُه من طُفولتِه وضعف حَرَاكِه وتنقُّل الأحوال به وقتًا بعد وقت ، ونَشْئًا بعد نَشْءٍ ، عَجَبًا فى لِمَّتِه ولِحْيَتِه المختَطّة(1) . أى أتعجَّب كيف تحوّلَ عن تلك الحالة إلى ما أجِدُه عليه الساعةَ . ثم قالت حاكيةً عن زوجتِه ما كانت تتفوَّه به سُمْعةً ورياءً ، وتقيمُ به سُوقَها حِيلةً ونِفاقًا ، إظهارًا لخلافِ ما يَنطوى عليه قلبُها ، ويَشتمل عليه ضميرُها : كُفَّ عن إيذاء أمّنا فإنّا لا نستغنى عنها ، ولا تَتمشَّى أمورُنا إلاّ بها وبحياتِها . ومعنى مَهْلاً رِفقًا لا تَعجَل . وأصل المَهْل والمَهَل السَّكينة والوقار ، ومنه الإمهال فى الدَّيْن . والأَرَب : الحاجة . ثم صَرَّحت بما عَرَفَتْهُ من سوء نِيَّتِها فيها ، وحِرْصِها على

---

(1) فى الأصل : « المختلطة » ، صوابه فى م ، ل والتيمورية .

الزيادة فى مساءتها ، فقالت : تَكَأَّدَتْ ذلك المقالَ منها مَلَقاً منها ومجاملة ، ولو وجدَتْنى فى نارٍ مُحْرِقةٍ ثم قَدَرَت لزادت فى وَقودِها وإضرامِها . ويقال . سَعَّرْتُ النارَ والشَّرَّ وأسعَرْتُهما ، وإنّه لِمِسْعَرُ حَرْب .

٢٥٦

وقال ابنُ السَّلْمانىّ[١] :

١ — لَعَمْرُكَ إنّى يومَ سَلْعٍ لَلاَئمٌ   لِنَفْسِى ولكن ما يَرُدُّ التَّلَوُّمُ

سَلْعٌ : موضعٌ أضاف اليومَ إليه تعريفاً . وحُكِىَ السَّلْعُ : شَقٌّ فى الجبل ، ومنه قيل : تَسلَّعَت رِجلُه ، إذا تَشَقَّقَت . وكأنّ قولهم : هادٍ مِسْلَعٌ[٢] من هذا ، أى يَشُقُّ أجوازَ الفلاةِ شَقًّا . واللام من « لَعَمْرُكَ » لام الابتداء ، وخبر المبتدإ محذوفٌ . ولا يجىء « عَمْرو » فى القَسَم إلا مفتوحَ العين ، وإن كان الضمُّ لُغَةً فيه ، ومعناه البقاء . والتلوُّم : تكلُّف اللَّوم ، فهو كالتذمُّم . يقول : وبقائك إنّى فى هذا اليوم لعاتِبٌ على نفسى ومُقرِّع لها ، ولكن ماذا يُغنِى التعتُّبُ والأمرُ فائتٌ . وقوله « ما يَرُدُّ » يجوز أن يراد به ما يَرجِعُ ، ويجوز أن يكون بمعنى ما ينفع . ويقال : هذا أرَدُّ عليك ، أى أنفعُ . وموضعُ « ما » يجوز أن يكون مفعولا ، ويجوز أن يكون مبتدأً .

٢ — أأمْكَنْتُ من نَفْسِى عَدُوِّىَ ضَلَّةً   أَلَهْفِى عَلَى ما فاتَ لو كنتُ أَعْلَمُ

قوله « أأمْكَنْتُ » لفظه الاستفهام ، ومعناهُ التقريع والتَّوبيخ . وهذا

---

(١) شاعر إسلامى كان إبراهيم بن عربى والى اليمامة من قبل عبد الملك قد قبض عليه وحمله إلى المدينة مأسورا ، فلما مر بسلع ، وهو موضع قرب المدينة ، قال هذه الأبيات . معجم البلدان (سلع) . وابن السلمانى ، كذا ورد فى جميع النسخ ، ويعززه ما فى معجم البلدان . وعند التبريزى : « ابن السليمانى » . والسلمانى : نسبة إلى سلمان ، وهم حى من مراد ، كما فى الأنساب ٣٠٢ ب .

(٢) هو فى قول سعدى الجهنية ترثى أخاها أسعد :

سباق عادية ورأس سرية   ومقاتل بطل وهاد مسلع

الكلام هو صريحُ لَوْمِه لنَفْسه ، فيجوز أن يكون حَذَف قبلهُ لفظةَ قائلٍ ، كأنه قال : إنِّى لائمٌ لنفسى وقائلٌ أأمْكَنْتُ . ويجوز أن يكون استأنف عَذلَ نفسه من بَعْدُ أيضاً . وقولهُ « ضَـلَّةً » مصدر فى موضع الحال ، ويجوز أن يكون مفعولاً له ، أى فعَلْتُ ذلك ضالًّا أو لإضْلالِى. وأصلُ الضَّلالِ الذَّهاب عن القصد . ويقال ضَـلِلْتُ مكانى ، بكسر اللام وفتحها ، إذا لم تهتدِ إليه وأضْلَلْتُ بعيرى ، إذا شَرَدَ فذهَبَ عنك . وقولُه « ألَهْـفَى على ما فات » تحسُّرٌ وتأسُّفٌ ، وهو كلامٌ مستقلٌ بنفسه . وقولُه « لو كنتُ أعْلَمُ » تَندُّمٌ على ما قصَّر فيه من النَّظر والفحصِ ، والـكشفِ عن عُقْبَى الأمْرِ . وأعْلَمُ مفعولُه محذوف ، وهو بمعنى أعرِف ، فيكتفِى بمفعول واحد ، كأنَّه أراد : لو كنتُ أعْلَمُ مَغَبَّتَه[1] . وجواب لو محذوفٌ ، أى لو علمْتُ ما تندَّمْتُ ولا شَقِيتُ ، وهذه اللفظةُ هِجِّيرَى كلِّ متوانٍ فى الشَّىء حتّى يفوتَه أو يُـكابِدَ المـكروهَ فيه . والبيت على ثلاثة فصولٍ ، كُلُّ فصلٍ منها ينفردُ بمبناه ولا يفتقر إلى سـواهُ . فالأوَّل قوله « أأمْكَنْت من نَفْسِى عَدُوِّىَ ضَلَّةً » كأنه يستنكر ما اتَّفق منه ضَلالاً ، فأخذ يستفهم تقريعًا وعتابًا . والثانى «ألَهْـفَى على ما فاتَ» ، وقد تقدم القول فى إعراب « ألَهْـفَى[2] » . والثالث قولُه « لو كنتُ أعْلَمُ » أى لو علمْتُ لتحزَّمت .

٣ـ لوَ أنَّ صُدورَ الأمْرِ يَبْدُونَ للفتَى كأعْقَابِهِ لم تُلْفِهِ يَتَنَـــدَّمُ

هذا مَعذرةٌ فيما سَهَا عنه ومَسْلاةٌ عمَّـا بُلِىَ به [فتحزَّنَ له[3]] . وقولُه « لو أنَّ صدورَ الأمر » ، هو حذف المضاف ، والمراد : لو أنَّ مؤدِّيات صدورِ الأمرِ ومسبِّباته تظهر للفَتَى كما تَظهر له عند أعجازه ، لم ترَهُ نادمًا على فائتٍ .

---

(١) ل والتيمورية : « مغبته » ، أى عاقبته . وما فى سائر النسخ أقوم .

(٢) انظر ما سبق فى الحماسية ٤ ص ٤٤ .

(٣) التكملة من م ، ل ، وفى التيمورية : « فتحرز له » .

ولا جازِعًا إثْرَ هالِك . وفى طريقته قولُ ابنِ الرُّقَيَّات :

فى مُقْبِلِ الأمرِ تَشْبِيهٌ ومُدْبِرُهُ كأنَّما فيــه بالَّليل المصابيحُ

٤ — لَعَمْرِى لقَدْ كانَتْ فِجَاجٌ عَرِيضَةٌ ولَيْـلٌ سُخَامِيُّ الجناحَيْنِ أَدْهَمُ

٥ — إذِ الأرْضُ لم تَجْهَلْ عَلَيَّ فُرُوجُها وإذْ لِيَ عن دَارِ الهَوَانِ مُرَاغَمُ(١)

هذا تَذَكُّرٌ لموارد تَخَلُّصِه من الأمر الذى لُزَّ به ، والبلاء الذى استأسَرَ له ، وتَحسُّرٌ فى عُدولِه عن مَدارِجِ الحزمِ فيه ، وانتهاز الفُرصَةِ فى الممكن منه ، اغترارًا بما لم يَجُز السُّكون إليه ، وانتظارًا لما لم يَصلح الاعتماد عليه ، حتَّى يَتَمَكَّنَ طالبُه من مُراده فيه ، وانسدَّتِ الطُّرقات بينه وبين ما يَرومه من بُعْدٍ عنه ، واحترازٍ منه ؛ فقال متهافِتًا : لعَمْرِى لقد كانت لى سُبُلٌ واسعةٌ يمكننى سلوكُها ، لا مُدافِعَ دونها ولا ممانع ، ولَيلٌ أسودُ الطّرفين مظلم ، يستُرنى إذا ركِبْتُه ، ويُساعدُنى على مجانبة ما أحْذَرُهُ ، لا مُجاذِبَ عنه ولا مُنازِعَ . وكانَ من قولِه « لقد كانَتْ فِجَاجٌ » هو كانَ التَّامَّةُ المستغنيةُ عن الخبر . وقولُه « وليلٌ سُخاميٌّ » فالسُّخَامُ : الأسود ، كأنَّه يريدُ سِرَارَ الشّهر ؛ ومنه سَخَّمَ اللهُ وجهَه ، أى سَوَّدَهُ . والسُّخامِيُّ المنسوبُ ، فى معناهُ ، ومثلُه الدَّوّارِى والدَّوّارُ من قولِه :

* والدَّهْرُ بالإنسانِ دَوَّارِيُّ(٢) *

ويجوز أن يريدَ بالسُّخَامِيِّ الجناحَين ، اللِّينَ وقِلَّةَ الآفاتِ فى جوانبه ؛ فإنّ السُّخام الرِّيشُ اللّيِّن تحت الجناح ، لأنّ قوله أدْهم قد دلّ على الظُّلْمة .

وقولُه « إذِ الأرض » إذْ لما مَضَى ، وقد شُرِح بالجملة التى أُضيفَ إليها

(١) ابن جنى : « قوافى هذه القطعة كلها مجردة غير مؤسسة ، إلا مراغم هذه ، فقد ساند إذن . وقد استقصيت هذا فى كتاب المعرب فى تفسير قوافى أبى الحسن » .

(٢) للعجاج فى ديوانه ٦٦ واللسان والمقاييس (دور) .

ومعنى « لم تَجْهَل علىَّ فروجُها »[١] ، أى ثُغورُها ومواضعُ المَخافة منها كانت علىَّ مَعالِمَ لا مَجاهِل ، فأدرِى كيف آتِيها ، وأنفُذُ فى قَطْعِها والخروج منها ، لا أتهيَّبُ ولا أتحيَّرُ . ويقال جَهِلَ فُلانٌ عَلَى ، إذا شَقَّ عليك ، قال الشاعر[٢] :

جَهْلًا عَلَى وجُبْنًا عَنْ عَدُوِّهِمِ لَبِئْسَتِ الخَلَّتانِ الجَهْلُ والجُبْنُ

وقولُه « وإذْ لِىَ عن دار الهوان مُرَاغَمُ » الأصل فى المراغمة الهِجرانُ ، يقال فلانٌ يُراغِمُ أهلَهُ أيَّامًا ثم يرجع . وفى القرآن : ﴿ يَجِدْ فِى الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا ﴾ ، أى مُتَّسعًا لهجرته .

٦ـ فَلَوْ شِئتُ إذْ بالأمْرِ يُسْرٌ لقَلَّصَتْ بِرَحْلِىَ فَتْــلَاءُ الذِّراعَيْنِ عَيْهَمُ

٧ـ عليها دليــــلٌ بالبلادِ نَهارَهُ وباللّيلِ لا يُخْطِى لَهَا القَصْدَ مَنْسِمُ[٣]

يُخْبر عن نفسِه بأنَّه إنَّما أُتِىَ من تقصيره وتهاونِه فيما وَجب من جِدِّه وتشميره ، فيقول : لو أردتُ حين كان الخطبُ أيسرَ ، وأسباب المَنْع أقصر ، تَخفَّتْ بى وشمَّرت فى الانتقال عن دار المَذَلَّة والهَوَان ، ناقةٌ فى ذراعيها فَتَلٌ . والفَتَلُ هو تباعُد المِرفَقَين عن الزَّور ، لئلا يصيرَ حازًّا ولا نا كِبًا ولا ضاغطًا . والعَيْهَمُ والعَيْهَمَةُ : النَّاقة الماضيةُ ، وكذلك العيهامَةُ ؛ وقيل هى الطَّويلة العُنُق ، الضَّخمةُ الرأس ، وذلك محمودٌ فى صفاتها . وقولُه « عليها دَليلٌ بالبِلاد » فإنَّه يَعنِى به نفسَه . وبالبلاد أراد بِه فى البِلاد ، كما يُقال فلانٌ بالبَصْرة وفى البصرة . ويجوز أن يكون أجْرَى قولَه « دليلٌ » مجرَى عارفٍ وعالم ، فلذلك أَتَى بالباء . وقولُه « وبالليل لا يُخْطِى لها القَصْدَ مَنْسِمُ » ، أى لِبَصَرِه لا يخطئ

(١) يرى التبريزى أن هذا التعبير من باب القلب ، وينظر له بقوله تعالى : « فعميت عليهم الأنباء » ، أى هم عموا عنها .

(٢) هو قعنب بن أم صاحب ، من حماسية ستأتى فى باب الهجاء .

(٣) التبريزى : « دليل بالفلاة » .

مَنْسِمُ بَعِيرِه فَيَزِيغُ عن القَصْدِ . وهذا وإن جَعَله من صفة البعير فالمُراد به أنّهُ [هادٍ[١]] خِرِّيتٌ . والدَّليلُ أصلُه فاعلُ الدَّلالةِ ، فهو كالدَّالّ ، وقد تُوُسِّعَ فيه . والبَلَدُ : الأرضُ وإن لم تُخْتَطّ .

٢٥٧

وقال آخر :

١ ــ أعْدَدْتُ بيضاءَ للحُروبِ ومَصْـــقُولَ الغِرارَيْنِ يَفْصِمُ الحَلَقـا
٢ ــ وفارِجًا نَبْعَـةً ومِلْءَ جَفِيـــرٍ من نِصَـــالٍ تَخَالُها وَرِقَا[٢]
٣ ــ أرْيَحِيًّا عَضْبًا وذا خُصَلٍ مُخْـلَوْلِقَ المَتْنِ ســابحًا تَئِقَا[٣]
٤ ــ يَملأُ عَيْنَيْكَ بالفِناءِ ويُرْ ضِـيكَ عِقَابًا إن شِئْتَ أو نَزَقَا

تبجّح فى هذه الأبيات بهمّته فى جَمْع آلتِه ليوْمِ حاجتِه ، فأخذ يَذْكُرُ الشىءَ بعد الشىءِ من عُدّتِه وعَتَادِه ، على مايَسَّرَهُ له مَرُّ الأيام فى جِدِّه وجِهادِه ، فقال : هَيأْتُ لملاقاة الأبطال ومناوَشَةِ الرّجال دِرْعًا لم يَشِنْها صَـدأٌ ، ولم يَعِبْها فى السَّرْدِ خَلَلٌ ، وسيفًا مسنُونَ الحَدّيْن ، مصقول الصفحتين ، يقْطَعُ البَيْض ويَفْصِلُ الحَلَقَ . والفَصْمُ : الـكَسر بلا بينونة ، والقَصْمُ : الـكسر مع بينونة .

وقوله « وفارِجًا » أى وأعددتُ فارِجًا ، وهو القوْسُ المتباعدة[٤] الوَتَر عن الـكبد ، وكذلك الفُرُجُ . وقوله « نبعةً » أى هى قضيبٌ وليست بِشِـقَّةٍ .

---

(١) التكلة من ل ، م والتيمورية .

(٢) كذا وردت ورقا بكسر الراء فى جميع النسخ . وقد قيدها الإمام المرزوقى فى الشرح بمعنى الفضة . لكن التبريزى رواها « ورقا » بفتح الراء . وفسرها بقوله : « والورق يريدون ورق الحواء ، وهو يشبه النصال المشاقص ، وهى العراض التى فى وسط كل نصل منها عير » . والحواء ، كرمان : نبت يشبه لون الذئب ، كما فى اللسان .

(٣) التبريزى : « سابقاتئقا » .

(٤) كذا فى م ، ل . وفى الأصل والتيمورية : « المتباعد » ، والقوس يذكر ويؤنث .

والنَّبعُ أجوَدُ شَجَرٍ يُتخذُ منه القسىّ العربيّةُ ، وجعَلَه صفةً لأنه ضمَّنَه معنى الصفات . وعلى هذا أسماء الأجناس ، كقولك هذا خاتَمٌ حديدٌ ، متى وَصَفتَ بها تَضَمَّنَ معنى فِعْل . وقوله « ومِلْءَ جَفِيرٍ » المِلْء : القَدْرُ الذى يُملأُ به الظَّرف ، والمَلْءُ بالفتح المصدر . والجفير : كِنانةُ النَّبْل إذا كانت واسعة من خَشَبٍ ، والجَفْرُ فى البئر منه . وقوله « من نِصالٍ » أراد بها نِبالا رُكِّبَتْ فيها نصالٌ بيض تَتَلألأُ فتُحْسَبُ فِضّةً(١) .

وقوله « وأرِيحيًّا عَضْبًا » يعنى رجلاً يَرتاحُ للنَّفاذ فى الأمور الصّعاب والمَضاء ويَهتزُّ ، والمراد به نفسُهُ(٢) . والعَضْب : القاطع . وقد مرّ القولُ فى تصرُّفه(٣) . وقوله « وذا خُصَل » يعنى به فَرَسًا له خُصَلٌ من الشَّعر مُخْلَوْلِقَ المَتْن ، أى مصنوعاً أملسَ المَتْنِ شديد المَلاسة ، لأنّ مُفْعَوْعِلاً من أبنية المبالغة . على هذا قولهم اعشَوْشَبَتِ الأرض فهى معشوشِبةٌ . والتَّئِقُ : المُمْتلئ نشاطا . وقوله « يَملأُ عينيكَ بالفِناء » ، فى طريقته قولُ الآخر(٤) :

يَزِينُ البَيْتَ مَرْبُوطاً ويَشْفِى قَرَمَ الرَّكْبِ

والعِقَابُ : جمع العَقْبِ ، وهو الجَرْى بعد الجَرى . وقال الخليل : إذا كان للفَرَس جَمامٌ بعد انقطاع الجَرْى قيل : عِقابٌ . والنَّزَقُ : الخِفّة والعَجَلة ويقال

---

(١) انظر الحاشية الأولى لهذه الحماسية .

(٢) كذا فهم المرزوقى ، وهو معنى بعيد . والأوفق ما ذكره التبريزى نقلا عن أبى العلاء المعرى ، قال : يجوز أن يكون صفة السيف بأريحى لأنه يهتز فكأنه يرتاح للضرب . وقد جاء فى شعر صخر الغى ما يدل على أنهم نسبوا السيوف إلى « أريح » وذلك قوله :

وصارم أخلصت خشيبته أبيض مهو فى متنه ربد
فلوت عنه سيوف أريح إذ باء بكفى ولم أكد أجتهد

قوله باء بكفى ، صارت كفى له مباءة أى مأوى . ولم أكد أجد لعزته . وخشيبته : طبيعته وهو رقيق . وأريح : قرية بالشام .

(٣) انظر ما سبق فى ص ٦٠ ، ١٤٢ .

(٤) هو عقبة بن سابق الجرمى ، كما فى الخيل لأبى عبيدة ١٦٠ .

تَزَّقْتُ الفَرَس ، إذا ضربْتَه حتى يَنْزَقُ . ومعنى « يَملأُ عينيكَ » ، أى يشغَلُهما محاسِنُها[1] حتى لا تَدَّسِع لغيرها .

٢٥٨

وقال قَتَادَة بن مَسْلَمَة الحَنَفِىّ[2] :

١ — بَكَرَتْ عَلَىَّ من السَّفَاهِ تَلُومُنِى سَفَهًا تُعَجِّزُ بَعْلَهـا وتَلُومُ

البيت على كلامين ، وذلك أنّ المِصْراع الأول إخبارٌ عن زَوْجتِه بسوء عشرتها[3] ، وتوجيهها العَتْبَ عليه فى غير كُنْهِه ؛ والمصراعُ الثانى رُجوعٌ منه عليها فيما أنكَرَتْ ، ورَدٌّ للعَتْبِ إليها لمَّا تَجَرَّمَت . وقال « تَلُومُنى » فى الصَّدرِ وفى العَجُز « تُعَجِّزُ بَعْلَها » وهما واحدٌ ، على عادتِهم فى تصريفهم الكلام عند الأمْنِ من الالتباس ، فيقول : ابتكَرَتْ عَلَىَّ تَلُومُنى وتَنْسُبُنى إلى العَجز ، من السَّفَاهِ ، أى ممّا تصوّرَتْه سَفَاهًا من أحوالى . ثم أخذ يَجبَهُها ويُسَفِّهُ قولها وفعلَها فقال : سَفَهًا تُعَجِّزُ بَعلَها[4] ، أى تَعجيزُها لى وتقريعُها إيّاى لسَفَهِها ، وجَهْلِها بموارد الأمور ومصادرها . والسَّفَهُ والسَّفَاهُ والسَّفاهةُ : الخِفَّةُ والاضطراب . ويقال : تَسَفَّهت الرِّيحُ الغُصونَ ، إذا حرّكَتْها . والبُكُورُ ، أصلُه الابتداء ، ولذلك قيل لأوّل النّهار بُكْرَة . وتَلُومُنى فى موضع الحال ، والعاملُ فيه بَكَرَتْ . وانتصَب سَفَهًا على أنه مفعولٌ له وقد قُدِّمَ . والبَعْلُ ، أصله النِّكاح ، ولذلك

(١) الوجه : « محاسنه » ، لأن النعت السابق كله لمذكر .

(٢) قتادة بن مسلمة الحنفى ، شاعر جاهلى ، هو الذى أجار الحارث بن ظالم المرى حين قتل خالد بن جعفر بن كلاب : وخرج مستجيرا بالقبائل محتمياً بها وفى ذلك يقول الحارث بن ظالم :

قتادة الخير نالتنى حذيته وكان قدما إلى الخيرات طلاعا

انظر الأغانى (١٠ : ٢٤ — ٢٦) .

(٣) فى الأصل : « بعشيرته » ، صوابه فى ل ، م .

(٤) ابن جنى : « أراد تعجزنى فوضع الظاهر موضع ضمير المتكلم » .

قيل للمرأة بَعلةٌ أيضاً ، وقد ابتَعَلَتْ وتَبَعَّلَت ، أى أطاعت زوْجَها .

٢ ــ لمّا رأتني قد رُزِيتُ فَوَارِسى وبَدَتْ بجِسْمِى نَهْكَةٌ وكُلومُ

جوابُ لمّا تقدّمَ ، وهو بكَرَتْ علىّ . كأنّ هذا الشاعرَ لاقَى هو أعداءَهُ ومُنابذِيه ، بأصحابِه ومعاونِيه ، فكانت الدَّبْرَةُ عليه وعليهم ، فجُرِحَ هو وقُتِل أولئك ، فعَدّت امرأتُه تلك الفَعلةَ منه وما أنفَقَ عليه سَفَهًا وذَنْبًا يستحقُّ لها اللّوم ، فطَفِقت باكرةً عليه تُعَجِّزه وتؤنِّبُه . والنَّهْكَةُ : التأثير ، يقال بانَتْ عليه نَهْكَةُ العِلّةِ والمصيبةِ . ومعنى رُزِيتُ : أُصِبْتُ بهم . وتقدَّمُ القولُ في مجيء الفَوارِس جَمْعًا لصفات المُذَكَّر يُغنِي عن إعادته[1] .

٣ ــ ما كُنْتُ أوَّلَ مَن أصابَ بنَكْبَةٍ دَهْرٌ وَحَىٌّ باسِلُونَ صَمِيمُ

قوله « من أصاب » نَكِرةٌ تُفيدُ الكثرة ، والمُراد أوَّلَ إنسانٍ أصابَه بنَكْبةٍ دهرٌ . وهذا على عادتهم في نسبة الحوادث إلى الدهر ، كما قال بعضُهم[2] :

يا دَهْرُ قد أكثَرْتَ فَجْعَتَنا بسَرَاتِنا وَوَقَرْتَ فى العَظْمِ

فأمّا تنكيرُه الدّهر فقد حُكِى عن أبى زيدٍ وأبى عبيدةَ ويونُس أنّ الدهرَ والزّمان والزَّمن والحِيْن ، يقعُ على محدودٍ وغير محدود ، وعلى عُمر الدُّنيا من أوّله إلى آخره . وقال الخليلُ : الأبَدُ الدّهر الممدود ، ويُجعَل اسمًا للنازلة . ويقال : دَهْرٌ من الدّهر ، لبَعْضِه ، كما يقال حِينٌ من الدهر . وقد اشتُق منه فقيل : إنها لَدَاهِرةُ الطُّولِ ، أى طويلةٌ جدًّا . والشاعر أراد بما قاله التجلُّد للشامت والتَّسلِّىَ من المُصاب ، وأن يُظهر لمن ألْقَى السَّمْعَ جَهلَ امرأتِه وعُدُولَها

(١) انظر ما سبق في الحماسية ٣ ص ٣٩ .

(٢) هو الأعشى . ملحقات ديوانه ٢٥٨ واللسان (وقر) والمقاييس (دهر) .

عن الصواب . وقوله « وحَىٌّ باسِلُون صَمِيمُ » ، فالبُسول : عُبوسة الشجاعة والغضَب . ويقال بَسُل واستَبْسَل . والصَّمِيم : خالِصة الشىء وما به قِوَامُه ؛ ومنه قيل صميم الصَّيف والشتاء . ويقال للرَّجُل : هو من صميم قوْمِه ، أى من مَحْضِ أصلِهم . ويوصَف بالصَّميم الواحدُ والجميع[١] .

٤ — فانَلْتُهُم حتَّى تَـكافَأَ جَمْعُهُمْ والخَيْـلُ فى سَبَل الدِّماء تَعُومُ

معنى تـكافأ جمعهم : انكفَؤُوا فهزموا . وهذا من الـكَفْء : قَلْبكَ الشىءَ لوجْهِه . ومنه كفأتُ الإناء ، إذا قَلَبتَه . ويجوز أن يكون من الـكُفْء : النَّظير والمِثْل ، ويكون المعنى تكافَؤُوا فى مُدافَعتى ومُقاوَمتى ، أى تَساوَوْا حتى لم يَفضل أحدٌ منهم على الآخر [فى ذلك[٢]] . وعلى هذا ما رُوِى فى الخبر : « المُسلمون تتكافأُ دِماؤهم » . والسَّبَلُ : ما سال من المَطَر والدَّم ، ومنه أسْبَلَ السِّتْرَ والإزار ، إذا أرخاهُما . ومعنى تَعُومُ : تَسْبَح ؛ ويُسمَّى الفَرَسُ عَوّامًا لسَبْحِها فى الجَرْى . وعلى التشبيه قالوا : النُّجوم تعُومُ فى الفَلَك . ومراد الشاعر اقتصاصُ الحال ، وأنّه قد أدَّى ما كان إليه من المجاهدة ، فلا تَبِعَةَ عليه .

٥ — إذْ تَتَّقِى بِسَرَاةِ آلِ مُقَاعِسٍ حَذَرَ الأسِنَّةِ والسُّيُوفِ تَمِيمُ[٣]

قوله « إذ تتّقِى » ظرفٌ لقوله تَعُوم . والاتّقاء : أن تجعل بينك وبين محذورك شيئاً يَقِيك . والسَّرَاةُ : جمع سَرِىّ[٤] ، والفعلُ منه سَرَا يَسْرُو ، ولم يجئْ فى المعتلّ فَعَلَةٌ فى الجمع إلَّا هذا ؛ لأنّ هذا البناء يختصُّ بالصَّحيح ،

(١) كذا فى الأصل والتبريزى . وفى سائر النسخ : « والجمع » .
(٢) لم ترد فى الأصل ، وإثباتها من سائر النسخ .
(٣) التبريزى : « حَدَّ الأسِنَّة » .
(٤) قالوا : جاء على غير قياس ولا يعرف غيره أن يجمع فعيل على فعلة ، والقياس سراة بالضم مثل قضاة . ويقول سيبويه : إنه اسم للجمع ، وليس جمعا .

نحو فَسَقَةٍ وكَتَبَة ، فهو بإزاء فُعَلَةٍ من المعتلّ نحو قُضاةٍ ورُماةٍ . وانتَصبَ « حَذَرَ الأسِنَّةِ » على أنَّه مفعولٌ له ، وتميمٌ يرتَفِعُ بِفعْلهم ، وهو تَتَّقِي ، والتقدير : إذ تَتَّقِي وحين تَتَّقِي بِسَرَاةِ هؤلاء القوم تميمٌ حذَرًا من الأسِنَّةِ والسُّيوفِ .

٦ـ لم أَلْقَ قَبْلَهُمُ فَوَارِسَ مِثْلَهُمْ أَحْمَى وهُنَّ هَوَازِمٌ وهَـزِيمُ

يجوز أن يكون عَنَى بالفَوارس أصحابَه الذين فُجِعَ بهم ، فبَيَّنَ أنَّهم لم يُؤتَوا فيما مُنُوا به من ضَفَفٍ[1] وفَشَلٍ ، ولا من تقصير وكَسَل ، بل حامَوْا عن أحْسَابهم جَهْدَهُم ، ودافَعُوا عن أعراضهم طاقتَهم ، حتَّى لم يُبقُوا غايةً يتعلَّقُ بها حُسْنُ المحافَظة إلا أشرفوا عليها ، وراموا بجَهْدِ الممارسةِ تجاوُزَها . ويكونُ في وصفِ أصحابِه بهذه الصِّفَةِ على الحَدِّ الذي عليه في وصف نَفْسِه بقوله « قاتَلْتُهُمْ حتَّى تَكافَأَ جَمْعُهُم » وبقوله « يَمَّمْتُ كَبْشَهُمُ بطَعْنَةٍ فَيْصَلٍ » . وإنَّما تَكلَّفَ كلَّ ذلك ليُقيمَ عُذرَ نفسه وعذرَهُم فيما اتَّفق عليهم ، وليُرِيَ أنَّ ما لَزِمه وإيَّاهُم قد أُدِّيَ بتمامه ، وإنْ حالَ محتومُ القدَر بينهم وبين النَّجاح . ويجوز أن يكون المراد بهم فُرسَانَ الأعداء ، ويكونُ ثَناؤُه عليهم على عادتهم في الرَّفْع من الخصمِ عند اقتصاص الأحوال ، ونُسبَتِه فيما تجاذَبُوهُ إلى الغَناءِ والاستقلال ، وكَمالِ الشِّدّة والاضطلاع ، ليكونَ صُورتُه غالبًا ومغلوبًا أحسنَ ، والاعتدادُ بمجاراتِه ومجاذبته أوْفرَ وأبلَغ فأمّا قولُه « أَحْمَى » فالمُراد به أحْمَى منهم ، فحَذَفَ . وهذا الحَذْفُ من أفْعَلَ الذي يتمُّ بمِنْ يجوزُ إذا وَقَعَ خَبَرًا لا صِفَةً ، وقد تقَدَّم القَوْلُ فيه . أي لم أَلْقَ فُرسانًا مِثْلَهم قبلَهم هم أحْمَى منهم حازمين ومهزومين . وقولُه «وهُنَّ هَوَازِمٌ» الواو واو الحال ، والضميرمنه لفِرَق

(١) هذا ما انفرد به نسخة الأصل . والضفف ، بالتحريك : الضعف ، كما في القاموس ، وفي سائر النسخ : « ضعف » .

الخيلِ وطوائفِها ، ولهذا قال هَوازمُ ، لمّا كان فواعِلَ يختصُّ بجمع المؤنّث إلا فى الأحرف المعدودة عند الكلام فى فوارس[1] . ومثل هوازم قولُهم الخوارج — لأنَّ المراد به الفِرَقُ — وما أنشدَناهُ أبو عليٍّ النحويُّ الفارسيُّ رحمه الله ، للقُطاميِّ :

فوارسُ بالرِّماح كأنَّ فيها شَوَاطِنَ ينتزِعن بها انتزاعا

قال : وجاء فى شعره أيضاً :

* ما ينَامُ سَوَافِرُهْ[2] *

ثم قال : لا يمتنع أن يكون سَوَافِرُ جمع سَافِرٍ الذى هو المصدر ، كما قال الآخر :

* فقد رأى الراءون غَيْرَ البُطَّلِ *

فجَمع باطلا على البُطَّلِ ، والباطل مصدرٌ ، تقول قد قلتَ باطلاً كما تقولُ قد قلتَ حقًّا . فأما قوله « وهو هَزِيمُ » فهو فعيل بمعنى مفعول ، والمُراد به الكثرة لا الواحد ، كأنّه قال وهُنَّ من بينِ هازمةٍ ومهزومَةٍ .

٧ — لَمّا الْتَقَى الصَّفّانِ واختَلَفَ القَنَا والخَيْلُ فى رَهَجِ الغُبار أُزُومُ[3]

٨ — فى النَّقْعِ سَاهِمَةُ الوُجُوهِ عَوَابِسٌ وبِهِنّ من دَعْسِ الرِّماحِ كُلُومُ[4]

٩ — يَمَّمْتُ كَبْشَهُمُ بطَعْنَةِ فَيْصَلٍ فهَوَى لُحرِّ الوَجْهِ وَهْوَ ذَمِيمُ[5]

لمَّا هذه عَلَمٌ للظَّرف، وهو لوقوع الشيء لوقوع غيره، وجوابُهُ يجيء من بَعْدُ،

(١) انظر ما سبق فى الحماسية ٣ ص ٣٩ .
(٢) البيت بتمامه كما فى ديوان القطامى ٢٢ :
تعارض براق المتون موقعا رضيض الحصى ليست تنام سوافره
(٣) م والتبريزى : « فى نقع العجاج أزوم » .
(٤) م : « والقوم ساهمة الوجوه » .
(٥) التبريزى : « دميم » بالدال المهملة .

وهو قولُه « يَمَّمْتُ كَبْشَهُمُ » . فيقول : لمَّا تواقَفَ الفئتان فى مَصَافِّهم ، واشتجرت الرِّماحُ بالطَّعن بينهم ، والدوابُّ عَوَاضُّ على لُجُمها فى القَتام السَّاطع ، متغيِّرةُ الألوان لاشتداد الشَّرِّ اللازم ، كوالِحُ الوجوهِ لما يَقع بها من الطَّعن الدِّرَاك ، والدَّفعِ بالرِّماح ، قصدتُ رئيسَهم بطَعنةِ رَجُلٍ يقضى الأمرَ ، ويَفصِل العُمْرَ ، فسقَط لوجهه وهو مذمومٌ لعُتُوِّهِ وبَغْيه . وقوله « أُزُومُ » جمع آزِمٍ ، والأَزْم : الإمساكُ والعَضُّ ، وكُنِىَ به عن الحِمْية فقيل : « نِعْمَ الدَّواء الأَزْمُ » .

وقوله « فى النَّقْع » الأجود أن يكون مصدرَ نَقَع الشَّرُّ والصوتُ والموتُ ، إذا كثُر وارتفع ، وأن يُعدَلَ به عن الغُبار ، لأنَّه قال : فى رَهَج الغُبار . ومعنى رهَج الغبار : ما أثير من الغبار . وقولُه « ساهِمَةُ الوجوه » السُّهوم : تغيُّر اللونِ مع هُزَلٍ ويُبُوس . والدَّعْسُ : الطَّعنُ وشِدَّةُ الوطء . ويقال طريقٌ مِدعَاسٌ ، أى مُذَلَّلٌ ؛ ورَجُلٌ مِدْعَسٌ شديد الطَّعن .

وقولُه « فَهَوَى لحُرِّ الوجه » فالحُرُّ من كل شىء أعتَقُهُ ، وقال الخليلُ : حُرُّ الوجه : ما بَدا من الوَجنةِ . حُرَّةُ الذِّفْرَى : موضع مَجَال القُرْط[1] .

١٠ــ ومَعِى أُسُودٌ من حَنيفَةَ فى الوَغَى ... لِلْبَيْضِ فوق رءوسِهمْ تَسْوِيمُ

١١ــ قَومٌ إذا لَبِسُوا الحديدَ كأنَّهُمْ ... فى البَيْضِ والحَلَقِ الدِّلاصِ نُجُومُ

١٢ــ فَلَئِنْ بقيتُ لأرحَلَنَّ بغَزْوَةٍ ... نَحْوَ الغَنائمِ أو يَموتَ كريمُ

قولُه « من حنيفَةَ » فى موضع الصِّلة لأُسودٍ ، وفى الوَغَى ظرفٌ لما دَلَّ عليه قولُه أُسودٌ ، وتقديره معى رجالٌ يشابهون الأُسُودَ شجاعة وإقدامًا فى الحرب حنفيُّون . والوَغَى أصلُه الجَلَبَةُ والصَّوتُ ، ثم صار كالاسم للحَرْب . وقولُه :

(١) هذا أحد قولين ، والآخر أنها صفة ، يقال هى حرة الذفرى ، أى حسنة الذفرى أسيلتها . والذفرى : العظم الشاخص خلف الأذن .

« للبَيْض فوق رءوسهم تسويم » ، فالتَّسويم : العلامة والتأثير ، ومنه قولهم : الخَيْل المُسَوَّمةُ ؛ وكلّ ذلك من السِّما : العَلَامة ، ويقال السِّيمِيا . ومعناه أنّهم لطول لُبْسِهم للبيض ، ودَوام مُمارستهم للحرب ، قد انحَسَر الشَّعْرُ عن جوانب رءوسهم . ويشبه هذا المصراع قول الآخر[1] :

قَدْ حَصَّتِ البيضةُ رأسِى فَمَا أَطعَمُ نَوْمًا غَيْرَ تَهْجاعِ

وقول أبى تَمّام الطائى :

عَبُوسٌ كَسَا أبطالَهُ كُلَّ قَوْنَسٍ يُرَى المرء منه وهو أفْرَعُ أنْزَعُ[2]

وقولُه « قومٌ إذا لبِسُوا الحديد » ارتفع قَوْمٌ على أنه بَدَلٌ من قوله أسُودٌ . ويجوز أن يكونَ خبرَ مبتدإٍ محذوف كأنه قال : هم قَوْمٌ . وإنما يَصِفُهم بأنهم مشاهيرُ بحسن البلاء ، متميِّزون عن الفُرسان إذا حَضَرُوا الوَقَعات ، بعلاماتهم ومعارِضِهم التى عُرِفوا بها وفيها ، فلا يخفى آياتُهم إذا تَدَجَّجُوا ، ولا يلتبسُ أحوالُهُم متى تَطَلَّعُوا ، بل كأنّهم النُّجومُ فى المناظِر والقُلوب . وجعل الحديد كناية عن أنواع الأسلحة . والدِّلاصُ : اللَّيِّنة الملساء ، يقال دِرعٌ دِلاصٌ ودَلِيصٌ ، ودُروعٌ دُلُصٌ . وقال الخليل : ربَّما جاء دِلَاصٌ فى صفة الجَمْع .

وقوله « فلئِن بقيتُ لأَرْحَلَنَّ بغَزْوَةٍ » اللام من لئن موطِّئةٌ للقسم ، ولَأَرحلنّ جوابُه[3] . وقولُه « نحو الغنائم » ظرفٌ لِأَرحَلَنَّ . ورواه بعضُهم :

---

(١) هو أبو قيس بن أبى الأسلت الأنصارى . المفضلية ٧٥ .

(٢) أى إن بيض الحديد يخفى شعر الفرسان ، فن كان منهم طويل الشعر بدا كأنه أنزع منحسر الشعر . وفى نسخة الأصل : « يرى الموت » وفى الديوان ١٩١ : « ترى الموت » : وكلاهما محرف عما أثبتنا من سائر النسخ .

(٣) ابن جنى : « لأرحلن إنما هو جواب حلف محذوف ، أى أقسم لأرحلن . واللام فى لئن زائدة وموطئة للام الجواب ، وليست بواجبة . ألا ترى إلى قول الله سبحانه : وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين . وصار القسم وجوابه عوضا عن جواب الشرط ، أى إن أبق أرحل » .

« تَحوِى الغنائمَ » ، ويكون صفةً لغَزْوَةٍ ، أى حاويةٍ للغنائم . وقوله « أو يموتَ كريمُ » أو بَدَلٌ من إلّا ، ويموتَ ينتصب بأن مُضْمَرَةً ، كأنّه قال إلّا أن يموتَ كريمُ . ويَعْنِى بالكريم نَفْسَهُ . وفى طريقته قولُ لبيد :

* أو يَرتبطْ بَعْضَ النُّفوس حِمَامُهَا[1] *

٢٥٩

وقال رجلٌ من بنى يَشْكُر[2] :

١ — أَلَا أَبْلِغْ بنى ذُهْلٍ رَسُولاً وخُصَّ إلى سَرَاةِ بَنِى النِّطَاحِ[3]

٢ — بأَنَّا قد قَتَلْنا بالمُثَنَّى عُبَيْدَةَ منكُمُ وأَبا الجُلَاحِ

٣ — فإن تَرْضَوْا فإنّا قد رَضِينَا وإن تَأْبَوْا فأَطرافُ الرِّماحِ

٤ — مُقَوَّمَةٌ وبِيضٌ مُرْهَفَاتٌ تُتِرُّ جَمَاجِمًا وبَنَانَ راحِ

قولُه « رَسولاً » أراد رسالةً . وقوله « وخُصَّ إلى سَرَاة بَنى النِّطاح » أى تَوَصَّلْ إلى أن تَخُصَّهم بأدائها . والسَّراةُ تقدَّم القولُ فيه[4] .

وقوله « بأنّا قد قَتَلْنا » الباء زائدةٌ للتأكيد ، وموضع بأنّا نَصْبٌ على أنه بدلٌ من رسولا . ومثله أَعْلِمْ بكذا ، يريدُ أَبلغْ خيارَ هؤلاء القوم وأماثِلَهم أنّا قتلنا بدلَ الواحد الذى قتلتموه منّا اثنين منكم ، فإن رَضِيتم فرِضانا مع رضاكم ، وإن أبيتُم وتسخَّطتم حاكمنا كم إلى ظُبَى السُّيوف وقد أُرهِفتْ ، وإلى أسنَّةِ

---

(١) صدره : * تراك أمكنة إذا لم أرضها *

(٢) زاد التبريزى : « فيما كان بينهم وبين ذهل »

(٣) م : « وخص بها » ، أى بالرسالة . وأشار التبريزى إلى رواية : « وخص به » ، أى بالقول . ورواية التبريزى : « بنى البطاح » بالباء المضمومة ، وفسره بقوله : « البطاح مالك بن عامر بن ذهل بن ثعلبة »

(٤) فى البيت ٥ من الحماسية ٢٥٨ ص ٧٦٧ .

الرِّماح وقد قُوِّمت . وهذا الكلام اعتلاء واقتدار ، وتوعُّدٌ واستكبار . والفاء من قوله « فأطرافُ » بمـا بعدها جوابُ الجزاء ، وارتفَع أطرافُ بالابتداء ، وخبَرُه محذوف ، كأنه قال : فأطرافُ الرماح وبيضُ السيوف بيننا . وتُترُّ فى موضع الصِّفة للبيض ، ومعناه تُسقِط . والمُرهَفات : المُرقَّقات الحدّ . والرّاح : جمع راحة .

١٦٠

وقال جُرَيبةُ بن الأشْيَم الفَقْعَسىّ(١) :

١ — فِدًى لفَوَارِسَ المُعْلِمِيـ ـن تحتَ العَجَاجَةِ خالى وعَمّ

---

(١) هو جريبة بن الأشيم بن عمرو بن وهب بن دثار بن فقعس بن طريف الأسدى ثم الفقعسى . قال الآمدى : كان أحد شياطين بنى أسد وشعرائها فى الجاهلية ، ثم أسلم فقال :

بدلت دينا بعد دين قد قدم كنت من الدين كأنى فى حلم
يا قيم الدين أقمنـا نستقم فإن أصادف مأثما فلم ألم

الإصابة ١٢٨٠ والمؤتلف ٧٧ . وأخوه مطير بن الأشيم . وروى التبريزى من سبب الشعر ونسبته أن النعمان بن بجير العجلى كان قد غزا بنى فقعس ورئيسهم أهبان بن عرفطة ، فلما بصر بنو فقعس بالخيل قالوا : هذه عير عليها تمر . فابتدرتها خيلهم ، فلحق بهم جريبة بن الأشيم ويكنى أبا سعد ، فلما رآهم رجع واقتتل القوم فقتل أهبان ، قتله الحصف بن معبد العجلى ، وقال فى ذلك هذه الحماسية . فتزعم هذه الرواية أن أبا تمام أخطأ فى نسبة الشعر إلى جريبة ، وإنما هى للحصف ، وليس لجريبة علاقة بهذا الأمر إلا أنه حضر الوقعة وفر منها وقال :

قالوا أبا سـعد ألم تعرفهم ثكلت جريبة أمه من يعرف
والله ما منوا على وإنما منت على شراف إذ تتحرف

شراف : اسم فرسه . وذكر التبريزى رواية أخرى تنسب الشعر إلى سبرة بن عمرو ، وهو فقعسى تقدمت له الحماسية رقم ٦٠ . يقوله مناقضة لشاعر عجلى قال شعرا فى حرب شنتها بنو فقعس على بنى عجل . ثم ذكر رواية ثالثة عن أبى محمد الأعرابى ، تؤيد أن الشعر لجريبة . قال : كان من قصة هذا الشعر أن سلهبا وأبا سلهب ، من بنى ضبيعة بن عجل ، سارا فى جمع من بكر بن وائل يطلبان ، وخرجت بنو فقعس فى غزى لهم أيضا يطلبون الغنائم ، فالتقى الجمعان ولا يريد منهم واحد صاحبه . فلما التقوا صاح بنو فقعس : نزال نزال ! فلم ينزلوا وقاتلوا على الخيل ، فشد فروة بن مرثد الفقعسى على أبى سلهب العجلى فاختلفا ضربتين ، فكلاهما قتل صاحبه ، وهزمتهم بنو فقعس وقتلوا منهم . فقال فى ذلك جريبة .

٢ — هُمُ كَشَفوا عَيْبَةَ العائبين مِنَ العارِ أَوْجُهُهُمْ كالحُمَمْ[1]

حَمِدَهم لما ظَهَرَ من وفائهم وبلائهم ، ففدَّاهم وأثنى عليهم . والمُعْلِم : الذى شَهَرَ نفسَه فى الحرب بعلامةٍ لكَىْ إذا أَبْلَى عُرِفَ بها[2] . والعَجَاجُ : الغُبار ، وكذلك العَجَاجةُ . ويقال لفَّ عَجاجتَه على بنى فلان ، إذا أغارَ عليهم . وقوله « خالى » فى موضع الرّفع ، لأنه خبر المبتدأ . وقوله « هُمُ كشَفوا عَيْبَةَ العائبين » العَيْبَةُ : شِبه الخريطة من الأَدَم . وهذا مَثَل ، أى أظهروا من عَيْبِ مَن كان يَطلبُ عيبَهم ما كان خافيًا ، وكذَّبوهم فيما كانوا يختلقونه ويتنفَّقونه به ، فكأنَّهم كشَفوا عِيابَهم المنطويةَ على عيوبهم ، فاسودَّت وجوهُهم بما غَشِيَها من العار حتى صارت كالحُمَم . ويقالُ : « فلانٌ عَيْبةُ عُيوب ، ومِذنَبُ ذُنوب » . ويقال : عابَ المتاعُ وغيرُه ، إذا صار ذا عَيب ؛ وعِبْتُهُ أنا ، أى جعَلتُ فيه عيْبًا . وعلى هذا قول الله تعالى : ﴿ فأَرَدْتُ أن أَعِيبَها ﴾ . والحُمَم : الفَحْم . ويقال جارِيَةٌ حُمَمَةٌ ، أى سوداء .

٣ — إذا الخيلُ صاحَتْ صِياحَ النُّسورِ حَزَزْنا شَرَاسِيفَها بالجِذَمْ

يقول : إذا ضَجَّتِ الخيلُ من الطَّعنِ الواقع على نُحُورِها ، وهَمَّت بالازْوِرار أكرهناها على الصبر والتقدُّم . ومثله قول خِداش بن زُهير :

يَصِيحُونَ مِثلَ صِيَاحِ النُّسو رِ من أَسَلٍ وارِدٍ صادِرِ

---

(١) نبه التبريزى على هذه الرواية ، وروايته فى الصلب : « غيبة الغائبين » . ثم قال : « ومن روى غيبة الغائبين أراد : من قتل منهم فى عار تسود منه وجوههم أدرك هؤلاء القوم ثأرهم فغسلوا ذلك العار عنهم ، فكأنهم بذلك حفظوا عهد من غاب عنهم . قال أبو هلال : والوجه الأول — أى عيبة العائبين — أجود ، لقوله كشفوا ولم يقل حفظوا » .

(٢) كذا وردت العبارة فى جميع النسخ . ولها وجه فى العربية يخرج على حذف المنصوب بكى ، فيكون تقدير الكلام : لكى يعرف ، إذا أبلى عرف بها . قال صاحب التصريح فى الكلام على (كى) : « فإن ادعوا — أى الكوفيون — أن حذف المنصوب وبقاء ناصبه قد ثبت فى صحيح البخارى فى تفسير : وجوه يومئذ ناضرة : كيما فيعود ، أى كيما يسجد . قلنا : إن ثبت حذف يسجد فهو غريب لا يقاس عليه » . فالحذف هنا على مذهب ضعيف ،

ومعنى حَزَزْنا قَطَعْنا . والشَّراسيف : مَمَاطُّ الأضلاع : والجِذَم : السِّياط . وقوله « صاحَت صياحَ النسور » ، يريدُ صاحت صياحًا يُشْبه صياحَ النسور(١) . وإذا ظرفٌ لقوله حَزَزْنا .

٤ — إذا الدَّهْرُ عَضَّتْكَ أنْيابُهُ لَدَى الشَّرِّ فَأْزِمْ به ما أَزَمْ

هذا مَثَلٌ ، والذى أشار إليه بالأنياب نُوَبُ الدَّهرِ وحوادِثُه . وقوله « فأْزِمْ به » أى اعْضَض به ، والمعنى صابِرْهُ . والتوسُّع فى الأَزْمِ والعَضِّ على طريقةٍ(٢) ، يقال : هذا عَضيضى وأنا عَضيضُه ، أى نتشاكس فى الأمر(٣) . وإنى لَعِضاضُ عيْشٍ ، أى صَبورٌ على شدّته . و « ما أَزَمْ » ما مع الفعل فى تقدير المصدر ، واسمُ الزَّمان محذوفٌ معه ، فهو فى موضع الظَّرف(٤) . والمعنى : اعضَضْ به مُدّةَ عَضِّه بك . ورواهُ بعضهم : « فارْزُمْ له ما رَزَم » ، والمعنى : اثبُتْ له ما ثَبت لك . وإنما قال « فأْزِمْ به » طلبًا المطابقةِ والموافقةِ(٥) . على هذا قوله تعالى : ﴿ فمن اعتَدَى عليْكُم فاعتَدُوا عليْهِ ﴾ ، والثانى ليس باعتداء ، بل هو جزاؤه . وجوابُ إذا قوله « فأْزِمْ به » وهو العامل فيه .

٥ — ولا تُلْفَ فى شَرِّه هائبًا كأنَّكَ فيـه مُسِرُّ السَّقَمْ

فى شرِّه ، أى فى مرّ الدَّهر . يقول : لا تُوجَدَنّ فيما تُدْفَعُ إليه وتُمتَحَن به من نوائب الدَّهر خائفاً متهيِّبًا مستشعِرًا لليأس من النَّجاح ، وانقلابِ الأمر

(١) التبريزى : « صياح النسور ، أى أصواتاً قصيرة ... وقال أبوهلال : يقول إنها قد عودت ترك الصهيل فى الغزو ، فإذا صاحت صياح النسور لأمر يعرض لها — وهو صوت واحد ضربناها بالسياط ، لتذكر العادة » .

(٢) العضيض فسر فى اللسان بأنه القرن ، وفى القاموس بأنه القرين .

(٣) أى على طريقة واحدة .

(٤) هو ما يعبر عنه الإعرابيون بقولهم : ما مصدرية ظرفية .

(٥) هو ما يسميه البلاغيون المشاكلة .

إلى الخير والصَّلاح ، فتكونَ بمنزلةِ مَن به داءٌ عُضالٌ لَزِمَهُ ، فأعياه مُداواتُه حتى يئسَ من إقلاعه وذهابِه ، فجعل يَكتُمه ويُخفِى أثرَه ، وهو خائفٌ مما يتعقَّبُه . ورواه بعضُهم : « مُشِرُّ السَّقَمْ » . أى مُظهِرُه . وهذا كما رُوِىَ بيتُ امرئِ القيس :

* لو يُشِرُّونَ مَقْتَلِى[1] *

وأُنْشِدَ فيه :

* وحتَّى أُشِرَّتْ بالأَكُفِّ المصاحِفُ[2] *

ومعناه تَغْتَمُّ لما تُقاسِيه ، وتخافُ نُزولَ أمثالِه ، فتنخزِل وتنقطع ، فِعْلَ الوَصِبِ المريضِ إذا اشتكَى مما به .

٦ — عَرَضْنا نَزَالِ فلم يَنزِلوا وكانت نَزَالِ عليهم أَطَمّْ

يقول : عَرَضْنا عليهم المُنازَلة فقُلْنا نَزَالِ ، لمّا ضاقَ مجالُ الخيلِ عن الطِّراد ، فتكرَّهوه ولم يَنشَطوا له . وكانت هذه العَرْضَةُ بهذه اللَّفظة أشدَّ عليهم وأغلَبَ لهم من كلِّ ما تقدَّم من ألفاظ التَّداعى والتَّجاذب . وقد تقدَّم فى لفظة نَزَالِ وبنائه وتأنيثِه وحقيقته ما فيه كفايةٌ[3] . ومعنى « أَطَمّْ » يقالُ طَمَّ البحرُ ، إذا غَلَبَ سائرَ البحور . والطَّامَّة : الخَصْلةُ التى تَطُمُّ على ما سِواها . وفى القرآن : ﴿ فإذا جاءتِ الطامَّةُ الكُبْرَى ﴾ ، يرادُ به القيامة .

٧ — وقد شَبَّهوا العِيرَ أَفراسَنا فقد وجَدُوا مَيْرَها ذا بَشَمْ[4]

---

(١) والرواية المعروفة « لو يسرون » بالسين المهملة . وهو بتمامه :

تجاوزت أحراساً إليها ومعشرا على حراصا لو يسرون مقتلى

(٢) لكعب بن جعيل ، أو الحصين بن الحمام المرى ، يذكر يوم صفين . وصدره :

* فما برحوا حتى رأى الله صبرهم *

(٣) انظر ما سبق فى الحماسية ٩ ص ٦٢ — ٦٣ .

(٤) يروى أيضاً : « ذا شبم » قال أبورياش : الشبم البرد ومعناه صادفوا الموت : =

العِير : الإبل عليها المِيرَةُ وغـيرُها . وقال بعضهم : هو من قولهم : عارَ الشىء : ذَهَبَ ، يَعِيرُ ، وهى جماعات السَّفْر ، ووزنُه فُعْل ، جمع عائرٍ ، كعائذٍ وعُوذٍ ، إلّا أنّ العين كُسرت لتدلّ على الياء[(١)]. والمَيْر : مصدر مارَهُم يَميرُهم ، إذا نقَل إليهم المِيرَة . والمعنى : لجهلهم بخصمهم ، وثِقَتِهم بأنفُسِهم وتمـكُّن البَغْىِ من اختيارِهم ونظرِهم ، عدُّونا غَنيمةً تُغْتَنَمُ ، وإبِلًا بأحمالِها تُساقُ وتُقْتَسَمُ ، فقد استَوْبَلوا عاقبةَ غنيمتهم وذاقوا وخامَةَ مِيرتِهم . والبَشَم : الثِّقَل ، يقالُ بَشِمْتُ من الطّعام ، وبَغِرتُ من المـاء .

٢٦١

وقال آخر[(٢)] :

١ — أتانى عن أَبى أَنَسٍ وَعِيدٌ فَسُلَّ لِغَيْظَةِ الضحّاكِ جِسْـمِى[(٣)]
٢ — ولم أَعصِ الأميرَ ولم أُرِبْهُ ولم أَسبِقْ أبا أَنَسٍ بِوَغْمِ[(٤)]

هذه الأبيات إنما خَتم بها الباب وإن لم تكن منه على عادته ، فى إتْباع المعنى بضدِّه كثيرًا . والأغلبُ فى الظنِّ بقائلها أن يكون قَصَد بها الهُزْء والتملُّحَ . وفى طريقتها قول الآخر[(٥)] :

— والموت بارد ، والنعم بارد . ومنه قول خداش بن زهير :

بين الأميلح والطرفاء تشدخهم زرق الأسنة فى أطرافها شبم

(١) هذا تصريف زادر لكلمة « العير » .

(٢) فى معجم البلدان (٣ : ٤٧٤) « قال الأسدى » . التبريزى : « وقال شقيق ابن سليك الأسدى » وهو شاعر إسلامى ، يقول هذا الشعر معتذراً إلى الضحاك . وهو أبو أنس الضحاك بن قيس بن خالد الشيبانى الفهرى . شهد صفين مع معاوية ، وغلب على دمشق ، ودعا إلى بيعة ابن الزبير ، ثم دعا إلى نفسه . وقتل بمرج راهط سنة ٦٥ . الإصابة ٤١٦٤ وتهذيب التهذيب .

(٣) التبريزى : « تغيض الضحاك » صوابه « تغيظ » ، كما فى معجم البلدان .

(٤) التبريزى : « الأمير هو الضحاك بن قيس الفهرى صاحب المرج » .

(٥) هو أبو دلامة ، كما فى عيون الأخبار (١ : ١٦٤) والأغانى (٩ : ١١٩— ١٢٠) .

إنى أَعُوذُ برَوْحٍ أن يُقرِّبَنى إلى القِتال فيَخزَى بى بنو أَسَدِ(١)
إنّ المُهلَّبَ حُبَّ الموتِ أورثَكم ولم أرِثْ نَجْدةً فى الحَرْبِ عن أَحَدِ(٢)
إنّ الدُّنُوَّ من الأعداء تَعْلَمُه مما يُفرِّقُ بين الرُّوحِ والجَسَدِ

ولبعضهم :

باتَتْ تُسَخِّفُنى هِنْدٌ وقد عَلِمَتْ أنّ الشَّجاعةَ مَقْرُونٌ بها العَطَبُ(٣)
يا هِنْدُ لا والذى حَجَّ الحَجيجُ لهُ ما يشتَهِى الموتَ عندى من له أَدَبُ(٤)
للحَرْبِ قومٌ أَضَلَّ اللهُ سَعْيَهُمُ إذا دَعَتْهُمْ إلى أهوالِها وثَبُوا(٥)
ولستُ منهم ولا أرضَى فَعالَهُمُ ما القَتْلُ يُعْجِبُنى منهم ولا السَّلَبُ

وأبلغ منه قول الآخر :

اثنانِ منّا يغلِبانِ واحِدَا إذا تعاوَنَا وكان راقِدَا

فأما قولُه « فسُلَّ لغَيْظَةِ الضَّحاكِ » فالضَّحّاكُ اسم أبى أَنَسٍ . ومعنى سُلَّ : ذابَ ، كجِسْمِ من به السُّلالُ ، وهو داء معروف . وقال « غَيْظة » لأنه أراد المرّةَ الواحدة ، وهذه الهاء تدخُل فى المصادرِ على اختلافِها لهذا المعنى كالضَّرْبةِ والخَرْجَةِ والإلمامة والاستخراجة . وقولُه « ولم أَرِثْهُ » يُرْوَى بفتح الهمزة

(١) روح هذا ، هو روح بن حاتم المهلبى ، وكان أبودلامة قد شهد معه الحرب فقال له روح : تقدم وقاتل . الأغانى : « إلى البراز » .

(٢) وكذا فى الأغانى وشرح التبريزى . وفى م ، ل والتيمورية وعيون الأخبار : « ورثكم » .

(٣) الأبيات فى عيون الأخبار (١ : ١٦٤) والعقد (١ : ١٦٦) وفى ل والتيمورية وعيون الأخبار والعقد : « تشجعنى » . وأشير فى هامش ل إلى رواية « تسخفنى » ولم تنص المعاجم على « التسخيف » فإن صحت كانت بمعنى النسبة إلى السخف وهو الضعف .

(٤) فى العيون : « لا والذى حجت الأنصار كعبته » . وفى العقد : « لا والذى منع الأبصار رؤيته » . وفى العيون : « من له أرب » أى من له عقل . وفى حواشى ل : « أرب بالراء محتمل أيضاً ، أى عقل » .

(٥) العيون : « إلى حوباتها » ، العقد : « إلى نيرانها » .

وضَمِّها ؛ والفرقُ بينهما أنه يقالُ رابَهُ الدَّهرُ إذا قَصَدَهُ برَيْبِهِ وحَوادِثِه ؛ وأرابَهُ : أتاه بريبة . والوَغْمُ : التِّرَةُ والذَّحْل .

٣ — ولكنَّ البُعُوثَ جَرَتْ عَلَيْنَا فصِرنا بين تَطْوِيحٍ وغُرْمِ (١)

٤ — وخافَتْ من جِبَالِ السُّغْدِ نَفْسِي وَخَافَتْ من جِبَالِ خُوَارَزْمِ (٢)

قولُه « ولكنّ البُعوث جَرَتْ علينا » يقالُ ضُرِبَ البَعْثُ على الُجنْدِ ، وأُجْرِيَ البَعْثُ عليهم ، أى بُعِثُوا إلى العَدُوّ . وجَمَعَه فقال البُعُوث ، لاختلافه وتكرُّرِه . وهذا كما يُجْمَع الضَّرْبُ على الضُّروبِ والفَنُّ على الفُنون . والتَّطوِيحُ : والتَّبْعِيدُ فى الأرضِ ، والحَمْل على ركوبِ المهالِك . ويقال طُوِّحُوا وطُيِّحُوا جميعًا .

٥ — وقَارَعْتُ البُعُوثَ وقارَعُونِى فَفَازَ بضَجْعَةٍ فى الحىِّ سَهْمِى (٣)

٦ — فأعْطَيْتُ الجِعَالَةَ مُسْتَمِيتًا خَفِيفَ الحَاذِ من فِتْيَانِ جَرْمِ

قولُه « قارَعْتُ البُعُوثَ » يريدُ به ساهمتُهُم ، والقُرْعَةُ الاسم . ويقال : هو قَرِيعِى أى مُقارِعِى ، كما يُقالُ هو خَصِيمِى . وقولُه « البُعُوثَ » أراد أصحاب البُعُوث ، فحذفَ المضاف . ويجوز أن يكون سَمَّى المبعوثَ بَعْثًا ثمَّ جمَعَه ، وهذا على عادتِهم فى الوصف باسم الحدَث . وقولُه « فاز بضَجْعَةٍ فى الحَىِّ سَهْمِى » أى خَرَج (٤) قِدحِى باضطجاعى وراحَتِى . ويقال رَجُلٌ ضُجْعِىٌّ بضم الضاد

---

(١) التبريزى : « جنت علينا » ويبدو أنه تحريف فى النسخة ، لأنه ذكر فى التفسير : « ضرب البعث على الجند ، وأجرى البعث عليهم » .

(٢) التبريزى : « ويروى خواء رزم »

(٣) التبريزى وياقوت : « وقارعتنى » .

(٤) فى الأصل : « ضرج » ، صوابه فى سائر النسخ .

وكسرها ، وضُجَمَةٌ ، للعاجز اللازم مَنزِلَهُ ، ومنه قيل للنُّجوم الثَّوابتِ الضَّواجعُ . وقولُه « أعْطَيْتُ الجِعَالة » ، يريدُ أُعطيتُ الرِّشوةَ لنائبٍ عَنِّى من بنى جَزْمٍ ، خفيفِ الحالِ فقير ، رَضِىَ بالموت وعرَّض بنفسِه له ، لاسعَدَ بالرَّاحةِ والسَّلامة ، ويَشقَى هو بالتَّعبِ والهَلَكة[1] . ويقال : فلانٌ خفيفُ الحاذ ، أى الحالِ والمَؤنة ؛ وهما بمجاذٍ واحد ، أى بِحالٍ واحد .

تَمَّ بَابُ الحماسة ، بحمد الله الذى هو ولىُّ الحمد[2]

---

(١) ذكر التبريزى أنه عنى بالمستميت حطان بن خفاف بن زهير بن عبد الله بن رمح ابن عرعرة بن نهار .

(٢) فى نسخة ل : « تم باب الحماسة بحمد الله وحسن توفيقه فى شهر ربيع الأول سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة ، وحسبنا الله ونعم الوكيل » .

باب المراثی

بابُ المَراثِي

١٦٢

قَالَ أبو خِرَاشٍ الهُذَلِيُّ[(١)] :

١ — حَمِدتُ إلٰهِي بَعْدَ عُرْوَةَ إذْ نَجَا ... خِرَاشٌ وَبَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ من بَعْضِ

خِرَاشٌ : مصدر خارشْتُه ، أو جمع خَرْشٍ ، وهو الأثر كالخدش ؛ ومنه تَخَارَشَ الكلابُ : مَزَّقَ بعضُها بعضا . والخِراش : سِمَةٌ مستطيلةٌ كاللَّذْعة الخفيَّة ، ويقال بَعيرٌ مخروشٌ . والمِخْرَشُ : اسمٌ لما يُؤَثَّرُ به ، خشبةً كان أو غيرها . فأمّا أبو خُرَاشَةَ من بيت الكِتاب[(٢)] :

أَبَا خُرَاشَةَ أَمّا أنتَ ذا نَفَرٍ ... فإنّ قَوْمِيَ لم تَأْكُلْهُمُ الضَّبُعُ[(٣)]

فقد رُوِي بضمّ الخاء وكسرها ، فخُراشَةُ يجوز أن يكونَ من خَرَشَ لعيالِه ، أي كَسَبَ ، ويكونُ من باب عُمَالَةٍ وعُجَالَةٍ وصُبَابَةٍ وما أشبهها . وخِرَاشَةٌ منه من باب وِلايَةٍ ونِكابةٍ[(٤)] وما أشبَهَهُما .

---

(١) هو خويلد بن مرة ، أحد بني قرد بن عمرو بن معاوية بن تميم بن سعد بن هذيل شاعر مخضرم ، أدرك الإسلام فأسلم وحسن إسلامه . ونزل به قوم من اليمن حجاج ، واضطروه أن يستقي لهم تحت الليل ، فنهشته حية في طريقه ، ثم سقاهم وأطعمهم ولم يعلمهم بما أصابه ، فأصبح وهو في الموت ، فلم يبرحوا حتى دفنوه ، فلما بلغ عمر غضب شديداً ، وقال : لولا أن تكون سنة لأمرت ألا يضاف يمان أبداً . انظر الأغاني (٢١ : ٤٧ — ٤٨) والإصابة والاستيعاب وأسد الغابة واللآلئ ٢١٦ — ٢١٧ والخزانة (١ : ٢١١ — ٢١٢) والاشتقاق ١١٠ والشعر والشعراء ٦٤٦ — ٦٤٨ .

(٢) كتاب سيبويه (١ : ١٤٨) وانظر الخزانة (٢ : ٨٠) .

(٣) البيت للعباس بن مرداس . وأبو خراشة هذا هو خفاف بن ندبة الصحابي الشاعر .

(٤) في جميع الأصول : « نكاية » بالياء ، وهو تحريف ، صوابه « نكابة » بالباء وهي مصدر نكب على قومه ينكب نكابة ، أي صار منكباً لهم وعريفا ، والنكابة كالنقابة وزناً ومعنى .

وأبو خِراشٍ هذا كان خِراشٌ ابنُه وعُرْوَةُ أخُوهُ، اصطَحَبا فى مُتَصَرَّفٍ لهما[1] فأسَرَهُما بَطنان من ثُمالَةَ: بنو رِزَامٍ وبنو بَلَّالٍ[2]، وكانوا موتورين، فاختلفُوا فى الإبقاء عليهما وقتلِهما، فمالَ بنو بَلَّالٍ إلى قتلهما، وتفاقمَ الأمرُ بينهما فى ذلك إلى أن صار يُؤدِّى إلى المقاتَلةِ، فتفرَّد أولئك بعُرْوَةَ فقتَلوه، وتفرَّد هؤلاء بخِراشٍ فخلا به واحدٌ منهم منتهِزًا للفُرصةِ فى الإسداءِ إليه، فقال له: كَيْفَ دِلِّيلاكَ[3]؟ قال: قَطَاةٌ[4]! فألقَى عليه رداءَهُ وقال: انْجُهْ. فمرَّ لِطِيَّتِهِ، فلما انحرفوا للنَّظَرِ فى أمرِه قال لهم مُمسِكُه: إنَّهُ أفلَتَ! فطَرَدوه فأعياهُمْ، فلما رَجَعَ خِرَاشٌ إلى أبيه وخَبَّرَهُ بما جَرَى على عُرْوَةَ، وبما اتَّفَقَ من صاحبِهِ فى بابه، اقتصَّ قِصَّتَهُ فى هذه الأبيات.

وقد حُكِيَ فيما رُوِيَ عن الأصمعيّ وأبى عُبيدةَ أنّهما قالا: لا نَعرِفُ مَن مَدحَ مَن لا يَعرِفه غيرَ أبى خِراشٍ. وقد سَلَكَ من شُعراء الإسلام مَسلَكَهُ أبو نُواسٍ فى أبيات أوَّلُها:

ودَارِ نَدَامَى عَطَّلُوهَا وأدْلَجُوا ... بها أثَرٌ منهم جَدِيدٌ ودَارِسُ
مَسَاحِبُ من جَرِّ الزِّقَاقِ على الثَّرَى ... وأضْغَاثُ رَيْحَانٍ جَنِيٌّ ويَابِسُ
ولم أدْرِ مَنْ هُمْ غيرَ ماشهِدَتْ لهم ... بشرقِيِّ ساباطَ الدِّيَارُ البَسَابِسُ

ومَرَّ بى أبياتٌ لبَعْض الأغفَالِ فيها:

سَقْيًا لَهُمْ فِتْيَةً تَدْمَى سُيُوفُهُمُ ... لا عِلْمَ لِي غَيْرَ أنَّ القَوْمَ أحْرَارُ

(١) كذا فيما عدا الأصل. وفى الأصل: «منصرف» بالنون.

(٢) بنو بلال، بفتح الباء وتشديد اللام، كما فى الخزانة (٢: ٤٥٩) عند ذكر هذه القصة نقلا عن الأغانى (٢١: ٤٣).

(٣) الدليل: الدلالة والعلم بها، وهى الدليل الهادى أيضاً. وقال المبرد: «وقوله كيف دليلاك، فهى كثرة الدلالة. والفعيلى إنما تستعمل فى الكثرة، يقال: القتيتى لكثرة النميمة. ويقال: الهجيرى لكثرة الكلمة المترددة على لسان الرجل».

(٤) عنى أنه فى دلالته وهدايته كالقطاة، ويضرب بها المثل فى هدايتها إلى الماء.

فهذا ما رواه الناسُ

وقد حَكَى أبو العبّاس فى الكامل[١] : أنّ خِراشاً كان فى القِدِّ مأسورًا ، وأنّ آسِرَهُ نَزَلَ به ضَيْفٌ فقام يَحْتَشِدُ له ، فنظر[٢] ذلك الضيفُ إلى خِراشٍ وكان مُلْقًى وراء البيت ، فسألَهُ عن حالِهِ ونَسَبِه فشرَحَ له قِصَّتَهُ وانتَسَبَ ، فقَطَعَ إسارَهُ وخَلَّاهُ ، فلما رجع ربُّ البيت قال : أَسِيرِى أَسِيرِى !! وأراد السَّعْىَ فى أَثَرِه ، فوتَّرَ قَوْسَه وحَلَفَ أنه إن تَبِعَه رماهُ .

وقد ذُكِرَ أنّ مُلْقِيَ الرِّداء كان مُجتازاً بعُرْوَةَ ، فرآه بادِىَ العَورَةِ مصروعًا ، ففعَلَ ذلك به[٣] . فهذا قِصَّتُه على الاختلاف فيه .

وقولُه « حَمِدْتُ إلٰهى » رُوِى : « حَمِدْتُ الإلٰه » ، وقَلَّ ما يقع فى الاستعمال الإلٰه معرَّفًا باللام[٤] ، وقد أتَى به على أصلِهِ ، إذ كانت العادة جرَتْ باستعمال لفظة الله بدلَه ، حتى جَرَى مجرى الألقاب فى أن يكون مقدَّمًا وسائر الصِّفاتِ تَتْبعه . ومعنى اللفظة : الذى تَحِقُّ له العبادةُ . والحَمد يَجرِى مَجرَى الشكر ، إلّا أنه يُستعمل فى مُسْدِى الإحسانِ ، وفى مَن رُضِيَتْ أفعالُه وإن لم يكن منه إحسان ، فيقال : حَمِدْتُ فلانًا على اصطناعِه لى ، وحَمَدْتُه على بَراعتِه وفَضْلِه ؛ والشكر لا يُستعمَل إلا فيمن يكون منه إسداء معروفٍ وأَخْذٌ بإحسان . والمعنى

(١) الكامل ٢٣٧ ليبسك .

(٢) فى الأصل : « فنزل » ، صوابه فى سائر النسخ وشرح التبريزى .

(٣) كان العرب كذلك يفعلون ، يمر الرجل بالقتيل فيلقى عليه ثوبه يستره به . انظر المفضلية ٦٧ وقول متمم بن نويرة فى البيت الثانى منها :

لقد كفن المنهال تحت ردائه ... فتى غير مبطان العشيات أروعا

(٤) ومن هذا القليل قول أمية بن أبى الصلت :

له ما رأت عين البصير وفوقه ... سماء الإله فوق سبع سمائيا

سيبويه (٢ : ٥٩) والخزانة (١ : ١١٨) . وقد سبق أيضاً قول عمرو بن كلثوم فى الحماسية ١٦٠ :

معاذ الإله أن تنوح نساؤنا ... على هالك أو أن نضج من القتل

أشكرُ اللهَ بعد ما اتّفقَ مِن قتـل عُرْوة ، على تخلُّصِ خِراش ، وبعضُ الشرِّ أخَفُّ من الآخر . كأنه تصوَّرَ قتلَهما جميعاً لو اتّفقَ ، فرأى قتلَ أحدِهما أهون . وهذا الكلام ، أعنى « وبعض الشرّ أهوَنُ من بعض » رَمَى به مَرمَى الأمثال . فإن قال قائلٌ : ليس فى الشرِّ هَيِّن ، وأفعَلُ هذا يُستعمل فى مُشترِكين فى صفة زاد أحدُهما على الآخر ؛ لا تقولُ : زَيْدٌ أفضَـلُ من عمرٍو ، إلاّ وقد اشترَكا فى الفَضْل ، فكيف جاز أن يقولَ : وبعض الشرِّ أهوَنُ من بعض ، ولا هَيِّنَ فى الشرّ ؟ قلت : إنّ للشرّ مراتبَ ودرجاتٍ ، فإذا جئتَ إلى آحادِها ، وقد تصوَّرْتَ جُمَلَها ، ورُتبَ الآحادِ فيها ، وجدتَ كلَّ نوع منها بمُضامَّته للغير له حالٌ فى الخِفَّةِ أو الثِّقَل ، وإذا كان كذلك فلا يمتنع أن يُوصَفَ شىءٌ منه بأنّهُ أَهْوَنُ من غَيره . ولا يُشْبِه هذا قولَهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وأَحسَنُ مَقِيلاً ﴾ ؛ لأنّك إذا تصوّرتَ حالَ أهل الجنّة مع أهل النّار لم تجِد ثَمّ مراتبَ متقاربةً يَترقَّى الواصفُ فى دَرَجِها ، ويَتصوَّر اشتراكَهم فيها ، إذ لم يكن ثَمّ مشارَكةٌ البتّةَ بوجهٍ من الوُجوه . فالجامع بين الآية وبين هذا وأشباهِهِ خارجٌ عن الطَّريقة . والصَّوابُ أن يقالَ فى الآية : إنّ المعنى : أصحابُ الجنّةِ يومئذٍ أحسَنُ حالاً وأعظمُ شاناً ، وأعلَى درجةً ومكاناً ، وخيرٌ مستقرٌّ وأفضلُ مَقيلا ، من أن يُشَبَّهَ بشىء ، أو يُحَدَّ بوصفٍ ، فحُذِف منه ما حُذِف . وعلى هذا يُحمَلُ قول المسلمين : اللهُ أكبَرُ ، وما رُوِىَ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه لمّا سَمِعَ الكُفّار يقولون: اُعْلُ هُبَل ! قال: « اللهُ أَعْلَى وأَجَلّ ! ».

٢ – فواللهِ ما أنسَى قَتيلا رُزِئتُهُ بجانبِ قُوسَى ما مَشَيت عَلَى الأرضِ (١)

---

(١) قوسى ضبطت فى الأصول والتبريزى كذا فى أصل ديوان الهذليين (٢ : ١٥٨) بضم القاف ، وضبطت فى القاموس وشرحه وكذا فى معجم البلدان عند إنشاد هذه الأبيات بفتح القاف ، قال ياقوت : « يجوز أن يكون فعلى من القوس بالضم وهو معبد الراهب ، أو من القوس وهو الزمان الصعب ، أو من الأقوس وهو الرمل المشرف . قيل : بلد بالسراة » .

تَعَلَّقَ الباء من قولِه « بجانب » بقتيلا ، كأنَّهُ قال : ما أنسَى قتيلاً بجانب قُوسى رُزِيته . وموضع رُزيته وبجانب قوسى جميعاً صِفَة للقتيل ؛ وقد دَخَلَهُ بعضُ الاختصاص بذكرهما . وقولُه « ما مَشَيْتُ » ما مع الفعل فى تقدير مصدر حُذِفَ اسمُ الزَّمان معه ، كأنَّه قال : مُدَّةَ مَشْيِي على الأرض . وفى الكلام نيَّةُ الشَّرْطِ والجزاء ، كأنَّه قال : لا أنْسَى قتيلاً رُزِيته إنْ مَشَيتُ على الأرض ، ومعناه إنْ بَقيتُ حيًّا ، فلذلك وقع الماضى فيه فى موضع المستقبل ، لأنّ «ما مَشَيْتُ على الأرض» فى موضع ما أمشى على الأرض، وإنْ أَمْشِ على الأرض. فأمّا تذَكُّرُهُ له أبداً فالوجه أن يكون عامًّا فيما يتعلق بالمتوفَّى وبمن يَرْثيه ، كأنه لا يَنْسَى أخلاقَهُ وطيبَ العيشِ معَه ، ولا الامتناع بمكانه وشدَّةَ الفاقة إلى حياته ، فلا يَنْسَى ما يلزمه فى قضاءِ ذِمامه وطَلَبِ دمه ، ومكافأةِ أعدائِه وقاتِليه ، إلى غير ذلك . يَشهد لهذا الذى قُلناه ما يجيء كثيراً فى هذا الباب من قولهم « هَوَّنَ وَجْدِى أننى لم أفعَلْ كذا » و «يذكِّرنى من فلانٍ كذا » ، وما يجرى هذا المجرى ، ويجوز أن يكون قال : لا أنْسَاهُ ، تعظيما للمصيبة به ، وتفظيعاً للحال المعترِضَة فيه ، وعلى عادة قولِ النَّاس عند النازلة الهائلة ، والنائبة الكاربة : لا يُنْسِينى هذا شىءٌ ، وهو نَصْبَ عَيْنى إلى أن أموتَ ، والمَعنى : لا يُرَى أعظم منه .

٣ ــ على أنَّهَا تَعْفُو الكُلُومُ وإنَّمَا نُوَكَّلُ بالأدْنَى وإنْ جَلَّ ما يمضى

مثله قول الأحوَص :

إنَّ القَــديم وإن جَلّت رزيئته يَنْضُو فيُنسَى ويبقى الحادث الأُنُفُ

وقوله « على أنَّها تعفو الكلوم » يجرى مجرى الاعتذار منه والاستدراك على نفسه فيما أطلقه من قوله : لا أنسى قتيلا رُزِئْتُهُ مُدّة حَياتى . يكشف هذا أن موضع « على أنَّها تعفو الكلومُ » من الإعراب نصبٌ على الحال ، والعامل فيه

ما أنْسَى قتيلا . وهذا كما تقول : ما أَتْرُكُ حَقَّ فُلَانٍ عَلَى ظَلْعٍ بِى ، كأنّ التقدير أؤدِّيه ظالعاً ، فعلى المثال الذى ذكرنا يجىء ما أنسَى قتيلا رزِئْتُه على عفاء الكلوم ، أى أذكره عافياً كَلْمى كسائر الكلوم . ويعنى بالكَلْمِ : الحَزَّة عند ابتداء الفَجْعة . وإنّما قال هذا لأنّ الإنسانَ بكونه مُهْدِفاً للأحداث ، غَرضاً للمصائب والأرزاء ، موزَّع الحال بين ما يتجدَّدُ له أو يَبْلَى ، مُقَسَّم الصبر فى أثناء ذلك على ما يَحْدُثُ أو يَتَوَلَّى ، فلذلك قال « نُوَكَّلُ بالأَدْنى وإن جَلَّ ما يَمْضى » فهذا بيانُ كونِ الكلام اعتذاراً . وقوله « على أنّها » الضمير للقصّة ، وخبر أَنّ الجملةُ بعدها ، ولو قال : على أنّه لجاز وكان الضمير للشأن والأمر . والمرادُ : على أنّ القصة إذا اقتُصَّت ، والصُّورةَ إذا تُحُقِّقت ، أنّ الجروح تعفو ، وإنما الجَزَعُ للأقربِ منها فالأقرب يتسلّط فيعلو . وهذا كما سئل بعضهم : ما أشَدُّ الأدواء ؟ فقال : ما يَحْضُرك ، وإن بَرَّحَ بكَ ما غابَ ! ويقال عَفَا الشىء ، إذا دَرَس عَفَاء وعفُوًّا ، وتَعَفَّى أيضاً ، وعَفَته الرِّيح ، وعفا الشىء : كثُرَ عُفُوًّا وعفَوْته . قال أبو زيد : يقال عَفوتُ صُوف الشّاةِ ، إذا أخذته ، وعفوتُه إذا وفَّرْتَهُ ، فهو من الأضداد . وأبلغ ممّا قاله قولُ الآخر[1] :

فلم تُنسِنى أَوْفَى المصيباتُ بَعْـدَهُ ولكِنَّ نَكْءَ القَرحِ بالقَرحِ أَوْجَعُ

٤ — ولَمْ أدرِ مَنْ أَلقَى عليه رِداءَهُ ولكنّهُ قد سُلَّ عن مَاجدٍ مَحْضِ[2]

ويجوز أن يكون « من » بمعنى الذى فيكون فى موضع المفعول ، « وألقَى عليه رداءهُ » صِلتُه ، ويجوز أن يكون [مَنْ[3]] استفهاماً مبتدأً وألقى عليه رداءه فى موضع الخبر ، ويكون الجملة فى موضع المفعول لـ « لَمْ أدرِ » . وتحقيق

(١) هو مسعود أخو ذى الرمة يرثى ابن عمه أوفى بن دلهم . انظر تحقيق هذا مسهباً فى حواشى البيان (٢ : ١٩٢) .

(٢) كذا رواية الأصل والديوان . لكن فى سائر النسخ والتبريزى : « على أنه قد سل » .

(٣) التكملة مما عدا الأصل .

الـكلام : لم أدر ما يقتضى هذا السُّؤال ، لأنّ الذى خَفِىَ عليه ذاتُ المُلقِى واسمُه لا فعله . وموضع « على أنه » نَصْبٌ فى موضع الحال ، كأنّه قال : أدريه مَسلولًا من ماجدٍ مَحضٍ . ويروى : « سِوَى أنه قد سُلّ » ويكون موضع سِوَى من الإعراب نَصْبًا على أنّه استثناء خارجٌ ، ألا تَرَى أنه يتأتّى أن يَجْعَلَ مكانَهُ لَـكِنْ ، والتقدير : لا أعرف اسمَهُ ونَسَبَهُ ، إلّا أنّه وَلَدُ كريمٍ بما ظَهر من فعله . والمستثنى قد انقَطَعَ عن الأوّل ، ألا تَرَى أنه قد عَرَفَهُ بدِلالته وإن لم يعرف نفسَهُ وذاتَهُ . ومعنى البيت : ولا أعلم الذى اهتدى لهذه المَـكرُمة فى بابِ ابنى خِراش ، ولـكنّه كريم الأصل شريفُ الفَرعِ ، مؤثِرٌ لفعل الصَّنيعةِ كيف اتّفقتْ ، لا يُراعِى وُجوبَها ولا زَكاءها . وأصل المَجْدِ الـكثرة ، يُقال أمجدتُ الدابةَ العَلَفَ ، إذا أكثرتَ له . وأراد بالمحض صَفاءَ النسَب .

٥ ـ ولم يَكُ مَثْلوجَ الفؤادِ مُهَبَّجًا أَضَاعَ الشَّبابَ فى الرَّبِيلَةِ والخَفْضِ

قوله « ولم يكُ » حذف النون من يَكُنْ لـكثرة الاستعمال لهذه اللفظة ، ومضارعةِ النون لحروف المدِّ واللين ، وقد مَضَى مثلُه . وقولُه « مثلوجَ الفؤادِ » أى باردَ الفؤاد غير ذكِىٍّ ولا حَدِيدٍ . والمُهَبَّج : المتورِّم ، يقال هَبَّجَهُ بالعَصَا فَهَبِج وتَهَبَّجَ ، إذا ضربَهُ بها فانتفخ وتورَّم . والرَّبِيلة ، أصلُها الرُّطوبة والسِّمَنُ . يقال : رجلٌ رَبِلٌ ، وبئرٌ ذاتُ رَبَالَةٍ ، إذا كانت ناجعةَ الماء فى الماشية تَسْمَنُ عليه . والرَّبْلُ : ما تَفَطَّرَ من الورق فى آخر الصَّيف بِبَرْدِ الليل . يقال : هُمْ يتربَّلُون . والرِّيبال من أسماء الأسد إذا لم يُهْمَز ، يجوز أن يكون فِيعَالًا من هذا ، لتَربُّله وعِظَمِه . والخَفْض : الدَّعَةُ وتركُ السَّفَر . ومعنى البيت : أنه رَجَعَ إلى صفة عُروةَ فقال : كان ذَكِىَّ الفؤاد شَهْمًا ، نافذاً فى الأمور حىَّ القَلْب ، لا آفَةَ به فيتورَّمَ جِلْدُه أو يتغيّرَ لونُه ، ولم يكن ممّن ضَيَّعَ شبابَه فى التَّوَدُّع

وصَلاحِ البدَن ، حتّى كانَ يَتْرُكُ السّفرَ واكتسابَ الأُحدوثة بما يَمتَهِنُ فيه النَّفس ، ويتعرَّض من أجلِهِ لِلتَّلَف .

٦ – ولكنَّه قد نازَعَتْهُ مَجَاوِعٌ على أنه ذُو مِرَّةٍ صَادِقُ النَّهْضِ (١)

لكِنْ المخفَّفَةُ استدراك بعد نَفْي ، والمشدَّدةُ وإن كان للتحقيق فيه معناه . فلمَّا نَفَى عنه ما قَدَّمَهُ في البيت الذى قبله (٢) ، استدرَكَ على نفسه إثباتَ ما يَتَضَمَّن هذا البيتُ له . ويروى « ولكنه قد لَوَّحَتْهُ مخامِصُ » ، ومعنى لوَّحَتْهُ غيَّرَتْه ، والمخامصُ : جمع مَخْمَصَةٍ ، وهي خَلاء البطن من الطَّعام جُوعًا . وفي الحديث : « تَغدُ الطَّيرُ خِماصاً وتروحُ بِطَاناً » . والمجاوِع مثل المَخَامِص . والخصال التي تَحْمِل النُّفوسَ على الصَّبر على الجوع والخَمَاصَةِ مَخَامِصُ ومَجَاوِعُ . فيقول : كما انتَفَى عنه تلك الأوصافُ الذَّميمة جاذبَتْهُ في مساعيه ومتصرَّفاته لمباغيه الشريفة ومطالبِهِ مجاوِعُ أو مَخامصُ ، يريدُ خِصالاً تُجَوِّعُ فيها النفس وتُفْطَمُ فيها عن لذيذ الطُّعْمِ ؛ وهو ذو قُوَّةٍ ، إذا نَهَضَ في الأمور صَدَقَ فيها ، ولم يكذِبْ فِعْلَ مَن يأتي الشيء تعذيراً أو رِياء . وقولُه « صَادِقُ النَّهْضِ » جَعَل الصدقَ للنَّهْضِ وإن كان الفِعلان له ولذلك كان نكرةً تقديره : ذو مِرَّة صادقٌ نَهضَتُه ، وأصل النُّهوض البَرَاح من الأرض ، ومنه النَّاهض : الفَرخ الذى وَفَرَ جناحاه فنَهضَ للطَّيَران .

(١) الديوان : « قد نازعته مخامص » .

(٢) كذا في الأصل . وفي سائر النسخ : « الذى يليه » ، أى الذى يليه هذا ، فالمعنى يستقيم بكل منهما .

٢٦٣

وقال عَبْدَةُ بنُ الطَّبِيب[1] :

١ ـ عَلَيْكَ سلامُ اللهِ قَيسَ بنَ عَاصِمٍ ورَحْمَتُهُ ما شاء أن يَتَرَحَّمَا

حيّاه بقوله : « عليك سلام اللهِ ورحمته » وهكذا تحيَّةُ الموتى ، بتقديم عليك ، والمعنى : عليك من الله السَّلامَةُ ! وسلامَتُهُ وقد ماتَ ، فى توفُّر الرَّحمة عليه لذلك قال « ما شاء أن يَترحَّما » ، فاستدام له التحيّة بقوله : ما شاء أن يترحّم ؛ لأن الترحم من الله دائمٌ ، لاتّصال رحمته فى خلقه ، فكأنه قال : توفَّرَتْ عليك الرَّحمةُ ما شاء أن يترحّم . وقوله « ما شاء » ما مع الفعل فى تقدير مصدر ، وهو فى موضع الظَّرف ، والمصادرُ يُحذف معها أسماء الزَّمان كثيراً ، فالتقدير : مُدَّة مشيئته للرَّحمة . والسلامُ من أسماء الله تعالَى ، مصدرٌ فى الأصل ، والُمراد به ذو السَّلامة . وليس فى أسمائه تعالى ما هو مصدرٌ إلا هذا ، وقولهُم إله ، والباقى كُلُّه صفاتٌ . وقوله « قيسَ ابنَ عاصمٍ » هو على لغة من لا يُنوِّن فى غير النداء[2] ، ومن ينوِّن يقول قَيْسُ فيبنيه على الضّم .

---

(١) التبريزى : « عبدة واحدة العبد ، وهو نبت ، وهو من بنى عبشمس بن سعد بن زيد مناة بن تميم » . وعبدة هذا بسكون الباء ، وأما علقمة بن عبدة الفحل فبفتحها . والطبيب اسمه يزيد بن عمرو بن وعلة بن أنس بن عبد الله بن عبد نهم بن جشم . وعبدة شاعر مقل مجيد ، وهو مخضرم أدرك الإسلام فأسلم ، وشهد مع المثنى بن حارثة قتال هرمز سنة ١٣ . وكان فى جيش النعمان بن مقرن الذين حاربوا الفرس بالمدائن . وكان عبدة أسود ، وهو من لصوص الرباب . انظر الإصابة والأغانى (١٨ : ١٦٣ – ١٦٤) واللآلئ ٦٩ – ٧٠ والشعر والشعراء ٧٠٥ .

(٢) أى لا ينون الأعلام الموصوفة بالأبناء المضافة إلى الأعلام ، وهى اللغة الغالبة . وفى غير الغالب أن ينون ، فيقول فى غير النداء : رحم الله قيساً ابن عاصم . والمعروف عند النحويين أن التنوين إنما يكون فى الضرورة لا فى الاختيار ، وذلك كقول الراجز :

جارية من قيس بن ثعلبة تزوجت شيخاً غليظ الرقبه

انظر همع الهوامع (١ : ١٧٦) والتصريح (٢ : ١٧٠) .

٣ ـ تَحِيَّةَ من غَادَرْتَهُ غَرَضَ الرَّدَى　　إذا زَار عن شَحْطٍ بِلَادَكَ سَلَّمَا[1]

انتَصَبَ « تَحِيَّةَ » على المصدر مما دلّ عليه قولُه عليك سلامُ الله ، كأنَّه قال : أحيِّيك تَحِيَّةَ من غَادَرْتَهُ . و « من غادرته يجوز أن يكون مَنْ معرفةً فى موضع الذى وغادرتَهُ من صلته ، ويجوز أن يكون نَكِرةً فى موضع إنسان كأنه قال: تحية إنسان هكذا ، فيكون غادرتَهُ صفة لَهُ . وانتَصَبَ « غَرَض الرَّدَى » على الحال ، وهو فى موضع النَّكِرة وإن كان مُضافاً إلى ما فيه الألف واللام ، لأنّ غَرضَ يَتَضَمَّن معنى الصِّفة ، كأنه قال غادرته منصُوباً للرَّدَى وهَدَفاً له . وقولُه « إذا زار عن شَحْطٍ بلادك سَلَّما » يجوز أن يكون فى موضع الصِّفة لغرضَ الرَّدى أو حالا له ، ويجوز أن يكون فى موضع الحال إذا جَعلتَ مَنْ معرفةً ، ويجوز أن يكون فى موضع البَدل من غادرتَهُ إذا جعلتَهُ صِلةً . وقولُه « عن شَحْطٍ » أراد بعد شحط أى بُعدٍ . يقال : شَحَط يَشْحَطُ شَحْطاً وشُحُوطاً . وكأنَّهُ أشار به إلى بُعد المزار والعَهْد جميعا . وقوله « سَلَّما » جوابُ إذا . ومعنى البيت : أحيِّيك تحيَّةَ الرَّجلِ الذى غادرتَهُ غَرَضَ الرَّدَى ، أو تحيَّةَ إنسانٍ هكذا ، على التقديرين . أى تركْتَهُ مُهْدِفا للمهالك والمعاطِب ، وبمَدْرَجَةِ الآفات والنَّوائب ، أشدَّ ما كان حاجة إليك ، لا ناصِرَ له ولا مُلتجأ ، ولا مُستغاثَ ولا مُعتمدَ ، وإذا أراد قضاء

---

(١) التبريزى : « قال أبو هلال : عرض الردى بالغين معجمة ، أى هدف الردى صباح مساء . وهذه صفة لجميع الناس ، وليس فيه تخصيص لأحد . والجيد عرض الردى ، بالعين غير معجمة ، من قولهم : فلان بعرض الأمر ، أى بحيث يناله ولا يخطئه . وإذا كان كذلك عاش عيشة نكدة لتوقعه له ، لأنه بصدده . أى جعله هذا الميت معرضاً للأعداء ينالونه كيف يريدون . وقال النمرى : يروى بالعين وبالغين ، فقال أبو محمد الأعرابى : هذا موضع المثل :

أعيتك حمر الوحش أن تصطادها　　فعبأت رحلك للحمار الآهل

ذكر نبذاً من الحروف ، وأعرض عن تفسير قوله إذا زاد عن شحط بلادك سلماً . ومعنى ذلك أن قيس بن عاصم كان كثير الإفضال على عبدة بن الطبيب فآلى عبدة ألا يخرج فى سفر إلا بدأ بتوديعه ، وإذا قدم منه بدأ بزيارته والتسليم عليه ، فكان ذلك دأبه فى حياته ، وفى زيارة قبره بعد وفاته » .

حقِّك ، أو زيارتَك للتسلِّي بك ، فقطع المسافةَ بينه وبينك لم يَرْزَأْك شيئاً إلاَّ تسليمًا عليك . وهذا الكلام تصريح باليأس منه ، وإظهارٌ للحاجة إليه .

٣ ـ فما كانَ قَيسٌ هُلْكُهُ هُلكُ واحِدٍ ولكنَّهُ بُنيانُ قَومٍ تَهدَّمَا[١]

يجوز أن يروى « هُلْك » بالنَّصب والرفع ، فإذا نصبْتَ كان هُلكه فى موضع البَدَل من قَيسٍ وهُلك ينتصب على أنه خبر كان كأنَّه قال : فما كان هُلكُ قيس هلك واحد من الناس ، بل مات بموته خَلْقٌ كثير ، وتقوَّضَ بِبِنْيَتِه وعزِّهِ بنيانٌ رفيع . وإذا رفعتَهُ كان هلكه فى موضع المبتدأ ، وهُلك واحدٍ فى موضع الخبر ، والجملةُ فى موضع النَّصب على أنَّه خَبَرُ كان . ويُشبه هذا البيتَ قولُ امرئ القيس :

فَلَوْ أنَّها نَفْسٌ تَمُوتُ سَوِيَّةً ولكنها نَفْسٌ تُساقِطُ أنفُسَا

إذا رَوَيْتَ « تُساقِطُ » بضمِّ التاء[٢] . ومثلُهُمَا وإن أغمضَ قولُ الهُذَلِيّ[٣] :

مُطَأْطَأَة لم يُنبِطُوها وإنَّها لَيَرْضَى بِها فُرَّاطُها أمَّ وَاحِدِ

لأنَّ المعنى أنَّ الفُرَّاط لما حَفَرُوا القبر رضُوا بأن يضعوا فيه واحدًا ، فإذا هم يدفنون بدَفنِه خَلْقًا كثيراً .

وصَلَحَ قوله « ولكنه بُنيانُ قومٍ تَهدَّما » فى مقابلةِ « فما كان قَيْسُ هُلكه » لمعناهُ الموافق له ، وذلك أنَّ البُنيان وتَهدُّمَه لم يكن إلاَّ لموت أربابه .

---

(١) قال أبو عمرو بن العلاء : هذا البيت أرثى بيت قيل . وقال ابن الأعرابى : هو قائم بنفسه ، ماله نظير فى الجاهلية ولا الإسلام .

(٢) الرواية الأخرى : « تَسَاقَطُ » ، أى تتساقط .

(٣) هو أبو ذؤيب . ديوان الهذليين (١ : ١٢٣) .

٢٦٤

وقال هشامٌ أخو ذى الرُّمَّة[1] :

١— تعزَّيْتُ عن أَوْفَى بِغَيْلانَ بَعْدَهُ عَزَاءً وجَفْنُ العَيْنِ مَلْآنُ مُتْرَعُ

هِشامٌ هذا فُجِع بأخيه أوْفَى ، وأتَى عليه زمانٌ مقاسِيًا لآلام الفجيعة به ، ثم أُصيبَ بعده بغَيلان — وهو ذو الرُّمَّة — فيقول : تسليْتُ عن الرزيئة بأوْفَى أخى ، بعد أن أُصِبْتُ بغيلانَ عَقِيبَهُ ، وجَفْنُ عينى مملوء دمعًا ، عَزَاءً . وانتصَب « عَزَاءً » على المصدر ، وهو موضوعٌ موضع التّعزِّى ، والفِعل من العَزاء عَزِىَ[2] وعَزِىَ جميعًا ، أى صَبَرَ . ويقال : هو حَسَنُ العِزْوَةِ ، أى العَزاء ، وبناء تَعزَّى بناء تَكلَّف . والواو من قوله « وجَفْنُ العين » واو الحال ، والعامل فى موضع الجملة تعزَّيْتُ . وفائدة اقتران هذه الحال بما قبلهُ هو أن يتبيَّن به ضَعْفُ العَزاءِ المشار إليه ؛ لأنّ العَزاء المتكلَّفَ إذا صحِبَهُ البُكاء لم يكن عزاءً فى الحقيقة ، ولا يمتنع أن يكون الجملة التى هى « وجَفْنُ العَيْن ملآنُ » فى موضع الصِّفة لعزاء ، لأنك إذا قلتَ رأيتُ رجلاً ومعه غُلامُه ، معناه رجلاً بهذه الصفة ، فكذلك يكون المرادُ عزاءً بهذه الصفة وهى أن يصحبَه البُكاء . ولا يجوز أن يكون العاملُ فى موضع قوله « وجَفْنُ العين » عزاءً إذا جعلتَه حالاً ؛ لأنّ الاعتماد على الفِعل ، وعزاءً معمولُه ، وللصدرُ وقد تَبِع الفِعلَ معمولاً له

(١) التبريزى : « وقال هشام بن عقبة العدوى أخو ذى الرمة يرثى أوفى بن دلهم ، وذا الرمة غيلان . وقال أبو هلال : كان لذى الرمة ثلاثة إخوة : أوفى ، وهشام ، وجرفاس ، وكانوا يقولون الشعر ، فغلب ذو الرمة على شعرهم » . وفى الشعراء ٥١٠ أن إخوته أوفى وهشام ومسعود ، فمات أوفى ثم مات بعده ذو الرمة ، فقال مسعود هذا الشعر فى رثائهما . وفى الأغانى (١٦ : ١٠٧) أن هذا الشعر لمسعود أخى ذى الرمة يرثى به أخاه ذا الرمة وابن عمه أوفى بن دلهم .

(٢) رسمت فى ل والتيمورية « عزا » بالألف . والذى فى المعاجم المتداولة « عزى » كفرح فقط .

يؤكِّدُه لا يعملُ فى غيره عملَه ، ولا فِعلَ معه . وقولُه « مُتْرَعُ » أراد الامتلاء وزيادةً ، وهو الانصباب . يقال أتْرَعْتُ الإناء ، إذا ملأْتَه مَلْأً يَضيقُ عمَّا يحويه حتى يَنصبَّ منه . ويقال تَرِعَ الإناء وأتْرِعَ بما فيه . والمُتَتَرِّع : المتسرِّع إلى الشرّ المقتحِم فيه ، منه . وجَعل الامتلاءَ للجفن لأنه يُمسِكُ الدَّمع ، وأصل الجفن الحَبْس ، لذلك قيل لقِراب السيف : جَفْن .

٢ـ نَعَى الرَّكْبُ أوْفَى حينَ آبَتْ رِكَابُهُم ... لَعَمْرِى لقد جاءوا بشَرٍّ فأَوْجَعُوا

٣ـ نَعَوْا باسِقَ الأفعالِ لا يَخْلُفُونَهُ ... تَكادُ الجِبالُ الصُّمُّ منه تَصَدَّعُ

أتبَعَ ما تقدَّم باقتصاص نعيِّ الرُّكْبان لأوْفَى ، كأنه أراد أن يَذكر ابتداء المُصاب به ليتبيَّن كيف توفَّرَ الجزَعُ عليه ، وكيف انصرف ما انصرَفَ منه إلى ما تعقَّبَهُ من المُصاب الثانى ، فيقول : ذكَر الرُّكبانُ مَوْتَ أوْفَى عند إيابِهِم ، ولَعَمْرى لقد ذكروا شَرًّا عظيما ، وأوجعوا قلبًا سليمًا . وقولُه « نَعَوْا باسِقَ الأفعال » أعاد ذِكر النَّعِيِّ تفظيعًا للشأن . ويقالُ نَعَى نَعْيًا ونَعِيًّا ونُعْيانًا ، أى خَبَّر بالموت . وقولهم : نَعاءِ فلانًا ، لفظةٌ يَشهَرُون بها موتَ الرئيس . ومعنى « باسِقَ الأفعال لا يخلُفُونَه » أنهم ذكروا موتَ رجلٍ علىٍّ الشأن ، شريفِ الأفعال ، رفيع الحكمة ، هم بأجمعهم لا يقُومون مَقامَه فيما كان يتولاه فى الحيِّ من الإحسان إليهم ، والتحمل عنهم ، وبَسْطِ الخير فيهم ، والبُسُوقُ فى الأفعال ، وهو فى الأصل الطُّول والاستكمال ، ويجوز أن يكونَ إشارةً إلى أنه لا يُدرَكُ غايتها ، فكلُّ فعلٍ يقع من غيره إذا قِيس إلى ما يأتيه يَتَّضِعُ دونَه ، ويَنحطُّ عن رتبته ، فلا يعلو عُلُوَّهُ ، ولا يَكمُلُ كمالَه . وعلى هذا قولهم : فلانٌ رفيع الفَعال علىُّ المَقال . ويجوز أن يُريدَ بالبُسُوقِ امتدادَ الصِّيت بها ، وصُعودَها فى دَرَج تقبُّل الله تعالى إيَّاها إلى السماء . وهذا كما يقال : قولُك هذا يَرتقِى إلى الملإ الأعلى . وهذا الشِّعر إسلامِىٌّ ، فلا يمتنع أن يشيرَ فيه إلى قولِه عزَّ وجلَّ :

﴿ إليه يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ والعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُه ﴾ . وقولُه « تَكادُ الجِبالُ الصُّمُّ منه تَصَدَّعُ » مُنقطعٌ مما قَبلَهُ ويجرى مجرى الالتفات ، لأنَّهُ لمّا قال « نَعَوْا بَاسِقَ الأفعال لا يَتَخلَّفونهُ » كأنَّه أَقْبَلَ على مَن حَولَه فقال : تَكادُ الجبال الصُّمُّ منه تَصَدَّعُ ، ويكونَ الضَّمير من قوله منه يَرجِعُ إلى النَّعِيِّ ، ودَلَّ عليه قوله نَعَوْا . وهذا كما يقالُ : مَن حَمِدَ الله تعالَى كان خيرًا له ، أى كان الحمدُ خَيْرًا له . والمُرَادُ بالصُّمِّ الصِلاب كأنَّه لا خُروق فى أثنائها ولا تَخَلْخل .

٤ — خَوَى المَسْجِدُ المعمورُ بَعدَ ابنِ دَلهَمٍ وأَمْسَى بأَوْفَى قَوْمُه قد تَضَعْضَعُوا

ابن دلهَمٍ كان السبب فى عمارة المسجد الذى أشار إليه ، فلمّا مضى لسبيلِه صار المسجِدُ خاليًا إذ كان هو المُرَاعِيَ والمُتَفَقِّدَ لصَلاح أمره . وأوفى — يعنى الذى يَرثيه — كان قِوامُ أمرِ عشيرته به ، وانتظامُ شئونهم بمكانِه ، فلما ثُلَّ عَرْشُهُ وأُصِيبوا به اضطَرِبت أحوالُهم ، واتّضعت رُتُباتُهم ، فصاروا بعدَهُ كالمسجد المعمور بعد ابن دَلهمٍ . أراد أن يشبه تضعضع القوم بموت أوفى ، بخراب المسجد بموت ابن دلهم فلم يَأْتِ بلفظ التَّشبيه إذ كان معناهُ من الكلام مفهوما . والضَّعضعةُ : الخضوع والتَّذلُّلُ .

٥ — فلَمْ تُنسِنِي أَوْفَى المُصيباتُ بَعْدَهُ ولَكِنَّ نَكْءَ القَرْحِ بالقَرْحِ أَوْجَعُ

القَرْحُ والقُرْح لُغتان فى عَضِّ السلاح وما يَجرَحُ فى الجسَد . ويقال إنَّهُ لَقَرِحٌ قَرِيحٌ ، وقَرِحَ قَلبُه من الحُزْن . ونَبَّهَ بهذا الكلام على أنَّ الجزعَ بأَوْفَى لم يُزِلْه ما تَعَقَّبهُ من المصائب ، ولكنَّه زادهُ اشتدادًا ، ثم شَبَّهَهُ بالقَرْح وهو الجُرْح ، وقد جَلَبَ وَيَبِس ، إذا نُكِئَ وقُرِحَ ثانيًا ، أى أُدْمِى وقُشِرَتْ جُلْبَتُه كما أنَّ القَرْحَ إذا فُعِلَ به ذلك كان إيجاعُه أشدَّ وأبلغ ، فالهَلَع بموت أوفَى وقد أُمِدَّ بمُصابٍ آخر يكون أتمَّ وأكمل . وقوله « أوجع » موضوعٌ موضِعَ أشدّ إيجاعًا .

فإن قيلْ : كيف صَلَحَ ذلك ، وأَفْعَلُ الذى للمبالغة والتَّفضيل يَتبَع ما أفعَلَه وكذلك أَفعِلْ به ، وفِعْل التعجُّب يجب أن يكون من الثلاثى لا غيرُ : فَعَل وفَعُل وفَعِلَ ، وأَوْجَعَنِي ليس منها ؟ قُلتَ : ذلك سائغٌ على مذهب سيبويه ، إذ كان عنده أنَّ فعل التعجُّب يكون من الثُّلاثىّ ومما كان على أفْعَلَ خاصَّة ، على ذلك حُـكِيَ قولُهم : ما أعطاه للمال ، وما آتاه للخَير ، وإنما هما من الإيتاء والإعطاء ، لا من الأَتْيِ والعَطاء ، وكذلك قولُهم : ما أسداه للمعروف ، وذلك لـكثرة وجوه الشَّبَه بين فَعَل وأَفْعَل ، ألا ترَى أنَّهما يتَّفقان فى معنًى ، وأنَّه يُقالُ فى مفعولِهما مفعولٌ ، وفى فاعلهما فاعل ، وأنَّ كلَّ واحدٍ منهما يقع فى مطاوَعة الآخَر ، إلى غير هذا من الشَّبَه . وكان أبو العباس المُبَرِّد[1] يقول : ذلك جائزٌ على حذف الزَّوائد ، يعنى بناء التعجُّب من أفْعَل ويشبِّهه بقول الشَّاعر[2] :

* يَـكْشِفُ عن جَمَامِهِ دَلْوُ الدَّالْ[3] *

وقوله : * ومَهْمَـــهٍ هَالكِ مَنْ تَعَرَّجا[4] *

ويقول الله تعالى : ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ . ويُجوِّز مثلَ هذا فى كل ما كان أصله ثلاثيًا على أىِّ بناء حَصَل . وكان يَتْبع مذهبَ الأخفش فى ذلك ، فاعلَمْه[5] .

---

(١) تتفق نسخ الأصول على ضبطه بهذا الضبط حيثما ورد .

(٢) هو العجاج . ملحقات ديوانه ٨٦ واللسان (دلا) .

(٣) رواية الديوان وسائر النسخ : « عن جماته » . والجمات : جمع جمة ، وهى المكان الذى يجتمع فيه ماء البئر ، والجمام ، بكسر الجيم هى كذلك جمع جمة . والشاهد فيه استعمال الدالى بمعنى المدلى . وقد رسم فى الأصل « الدالى » ، وهو تحريف . إذ أن أرجوزة العجاج هذه مقيدة بالسكون غير مطلقة بحركة .

(٤) وهذا الشطر أيضاً للعجاج فى ديوانه ٩ واللسان (هلك) .

(٥) كلمة « فاعلمه » انفردت بها نسخة الأصل .

٢٦٥

وقال مُتَمِّمُ بن نُوَيْرَةَ يرثى مالكًا أخاهُ(١) :

١ — لَقَدْ لَامَنِي عند القُبُورِ على البُكَا ... رفيقِي لِتَذْرَافِ الدُّمُوعِ السَّوَافِكِ

٢ — فَقَال أتَبْكِي كُلَّ قَبْرٍ رأيْتَهُ ... لِقَبْرٍ ثَوَى بين اللِّوَى فالدَّوَانِكِ

٣ — فقلتُ له إن الشَّجَا يَبْعَثُ الشَّجَا ... فَدَعْنِي فهـذا كُلُّهُ قَبْرُ مَالِكِ

يقول : استَسرَفَ رفيقي بكائى عند القُبور ، واستفْظَعَ سَيَلان الدُّموع من عَيْنِي فقال مُوَبِّخًا : أمِنْ أجل قَبْرٍ لكَ بين اللِّوَى فالدَّوانِكِ تبكى عند كلِّ قَبْرٍ تَرَاهُ ؟ فأجبته بأنّ الُحزنَ يُهَيِّجُ الُحزْنَ فاتركنى ، فكلُّ قبرٍ أنتهي إليه يذكّرنى قبرَ مالكٍ ، إذْ ليس لى فى قبر مالكٍ إلا مِثْلُ مالِي فى القُبور كُلِّها .

(١) روى التبريزى عن أبى محمد الأعرابى أن هذا الشعر ليس لمتمم بن نويرة ، بل هو لابن جذل الطعان الفراسى ، من بنى كنانة ، يرثى أخاه مالكا . وأول الأبيات :

ثنى الحزن أرمام غشينا بمنشد ... ورملة قرى عن يمين الشنابك

فأسعدت أبكى مالكاً وكأنه ... بجثوة بينى وبين الشوابك

ولا صاحبى لم يبك ر الناس ضاحك ... سلى وبالك شجوذ غير ضاحك

وقال أتبكى كان رمس رأيته ... لرمس مقيم بالملا والدوانك

فقلت له إن الشجا يبعث البكا ... فدعنى فهذا كله قبر مالك

ألم تره فينـا يقسم ماله ... وتأوى إليه مرملات الضرائك

فآخــر آيات مناخ مطيـة ... ورحل علافى على متن حارك

فلمـا استوى كالبدر بين شعوبه ... وأمت بهاديها فجـاج المهالك

بعينى قطامى تأوب مرقبا ... فبات به كأنه عـين فارك

أطفنا به نستحفظ الله نفسه ... نقول له مصاحباً غير هالك

ومتمم بن نويرة ، وأخوه مالك ، شاعران صحابيان من بنى ثعلبة بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم . وقد قتل « مالك فى حرب الردة ، قتله خالد بن الوليد فى ظروف مبهمة اختلف الرواة فيها ، فبعضهم يقول إنه قتله مرتدا ، وبعضهم يقول إنه أخطأ فى قتله . واستتبع ذلك اختلافهم فى تزوج خالد لامرأة مالك ، أو تسريه لها ثم ردها على أخيه متمم . وقد حقق ذلك الأستاذ الجليل الشيخ أحمد محمد شاكر فى مقال نشر بالمقتطف أغسطس سنة ١٩٤٥ وبالهدى النبوى شعبان سنة ١٣٦٤ . وانظر الإصابة ٧٦٩٠ ، ٧٧١١ والشعراء ٢٩٦ — ٢٩٩ والأغانى (١٤ : ٦٣ — ٦٩) . وقد ساق التبريزى أيضاً خبر مقتله مفصلا .

يُرِيدُ أنّ أسبابَ الْحُزْنِ ومهيّجاتِه تَتشابَهُ ، فكلٌّ منها يَقُومُ مَقَامَ الآخر ولا سِيّما وقد تَوافقت فى الجنسيَّة . وقولُه « لتَذرافِ الدُّمُوعِ السَّوافِكِ » أى من أجلِه ، بعدَ قولِه « على البُكا » ، فيه من الفائدة المتجدِّدةِ التنبيهُ على إجابة الدُّموعِ له ، وانصبابِها بحَسب مرادِه ، حتّى لا جُودَ من الحِجَاج[١] فى شىء من الأوقات ، ولا تَوَقُّفَ من السَّيَلان فى حالٍ من الحالات ، وليس كلُّ باكٍ بهذه الصِّفَة . فكأنَّه لامَهُ على البكاء من أجل ما استنكره من إجابة الدُّموع السائلة له ، إذ كان ذلك بالضَّرر عليه أعْوَدَ ، وإلى بُطلان العَينِ بمكانِه أدْعَى . وقال « السوافِك » والسَّفْكُ صَبُّ الدَّمِ والدَّمعِ ، فوصَفَ الدموعَ بها لأنّها جمع سافِكَةٍ ، والمرادُ ذواتُ السَّفْكِ . والسَّفْكُ أيضا : نَثْرُ الكلام . ويقال : رجلٌ سَفَّاكٌ للدِّماء ، وسَفَّاكٌ بالكلامِ ، أى يُنثِرُ الكلامَ ويَصُبُّ الدِّماء .

وقولُه « بين اللِّوَى فالدَّوانِك[٢] » اكْتَفَى بَيْنَ باللِّوى ، وهو مُسْتَرَقُّ الرَّمْل لوقوعه على أماكنَ مختلفة ، ولمّا اكتفَى به جاز أن يَترتَّبَ عليه فالدَّوانِك . ولو رُوِى « والدَّوانِك » كان جائزًا ، إلّا أنّ اللِّوى حينئذ لا يُتصوَّرُ شمولُه لِبقاعٍ كما يُتصور فى أسماء الجموع شمولُها للكثير ، نحو القَومِ والرَّهطِ والعشيرة .

والشَّجَا : الحُزْن . يقالُ شَجاهُ يَشْجُوهُ شَجْوًا ، فَشَجِيَ يَشْجَى شَجًا . ومعنى يَبعَثُ يُهَيِّجُ ويُثِيرُ . على هذا قولُكَ بَعَثْتُه من مَنامِه ، والبَعْثُ فى الجُندِ . وقولُه « فهذا كلُّه قبر مالِك » أشار بهذا إلى الجِنْس كما هو ، كأنه أراد جنس القُبور ؛ يدُلُّ عليه إتْباعُه إيَّاهُ بما يُفيدُ العُمومَ ، وهو قولُه كلُّه . ويقال

(١) حجاج العين بكسر الحاء ، هو العظم المستدير حولها .

(٢) رواه التبريزى : « بين اللوى فالدكادك » . وقال : « وذكر بعضهم أن اللوى هاهنا يقع على أماكن مختلفة . ولأجل ذلك جاز أن يترتب عليه فالدكادك . وإذا روى : فالدوانك ، لا يتصور وقوع اللوى على أماكن مختلفة ، والدوانك علم لموضع » .

ذَرَفَتْ عينُهُ ذَرْفًا وذَرَفانًا وذَرِيفًا . فأما قولُه « تَذْراف » فهو من باب ما تُكَثِّر فيه المصدرَ من فَعلتُ وتُلْحِقُه الزَّوائدَ وتبنيه بناءً آخر على غير ما يجب للفعل ، قَصْداً إلى المبالغة والتكثير . وقولُه « الدَّوانك » عَلَمٌ لموضعٍ . [ودَنَك[1]] فيما أظنُّه مُهمَلٌ .

ومالك بن نُوَيْرَةَ قُتل فى الرِّدَّة أيامَ أبى بكرٍ رضى الله عنه .

٢٦٦

وقال أبو عطاء السِّنْدِىّ[2] :

١ ــ ألاَ إنّ عَيْناً لم تَجُدْ يومَ واسِطٍ عليك بجارِى دَمْعِها لَجَمُودُ

٢ ــ عَشِيَّةَ قامَ النائحاتُ وشُقِّقَتْ جُيُوبٌ بأَيْدِى مَأْتَمٍ وخُدُودُ

افتتح كلامَه بألاَ ، ثم أخذ يعظِّم أمرَ الفجيعة ، ويبيّن موقِعَها من النفوس ، وشدَّةَ تأثيرها فى القلوب ، واشتراكَ الناسِ كافةً فى الجَزَع لها ، والهَلَع عليها ، فقال : إنّ عَيْناً لم تَتَسَخَّ بدمعِها الجارى على هذا المرثىِّ يومَ واسطٍ لَجَمُودُ الحِجَاجِ على المصائب[3] ، شديدةُ البُخْلِ بما فى شئونِها من الذخائر . والجُمود : ضِدُّ الذَّوْب ، واستعمالُه فى الدَّمْع مجاز .

(١) ليست فى نسخة الأصل ، وهى فى سائر النسخ .

(٢) هو أبو عطاء أفلح بن يسار السندى ، مولى بنى أسد ، شاعر من مخضرمى الدولتين ، وكان فيه عجمة . وكان من شيعة بنى أمية ، توفى عقب أيام المنصور . الأغانى (١٦ : ٧٨ ــ ٨٤) والمرزبانى ٤٨٠ ، واللآلى ٦٠٢ ــ ٦٠٣ والعينى (١ : ٥٦٠ ــ ٥٦١) والخزانة (٤ : ١٧٠) . والشعراء ٧٤٢ ــ ٧٤٦ . وهذه المرثية يقولها فى مقتل يزيد بن عمر بن هبيرة ، قتله المنصور بواسط سنة ١٣٢ . الطبرى (٩ : ١٤٦) وابن خلكان (٢ : ٣٦٩) واللآلى ٦٠٢ . وذكر التبريزى أنه قتله غدراً بعد أن آمنه ، فلما حمل رأسه إليه قال للحرسى : أترى إلى طينة رأسه ! ما أعظمها ! فقال الحرسى : طينة إيمانه أعظم من طينة رأسه ! !

(٣) سبق مثل هذا التعبير فى الصفحة السابقة س ٤ .

وقولُه « عشيَّةَ قام النائحـات » بدلٌ من قولِه « يومَ واسطٍ » ، وأسماء الزَّمان تُضاف إلى الأفعال ، وهو توقيتٌ وتحـديدٌ ، إلاّ أنّ فيه بياناً لتفظيع الشان . وعلى هذا ضَبْطُهم لِمدَى الأوقات فى ترتيب النوائب ، والتنبيه على ما يتقدَّم من الأحداث أو يتأخر . ومعنى قيام النائحات ، تهيؤُّها للنَّوْح . وعلى هذا قولهم : قامتِ السيوف ، وقولُه تعالى : ﴿ إذا قُمْتُمْ إلى الصَّلاة ﴾ . وأصلُ التَّناوُح : التقابُل ، يقال فى الجبَلَين المتقابلين : هما يتناوَحان . وقولُه « شُقِّقَتْ جُيُوبٌ بأيدِى مَأْتَمٍ وخُدُودُ » فالمأتَم : النِّساء يجتمعن فى الخير والشرّ ، وأصلُه من الأَتْم ، وهو التقاء المَسلَكين ، ومنه أيضاً الأَتُومُ فى صفة النِّساء . وهذا الكلام وإن كان اقتصاصَ حالٍ ففيه دِلَالةٌ على تَمَكُّنِ الجزَعِ بالمُصابِ من كافَّةِ النَّاس ، وتناهيهم فيما يُستدلّ به على شدّةِ تأثيرِه فيهم .

٣ — فإنْ تُمْسِ مَهْجُورَ الفِناء فرُبَّمَا أقامَ بِهِ بَعْـدَ الوُفود وُفُودُ

٤ — فإنَّكَ لم تَبْعُدْ على مُتَعَهِّدٍ بَلَى كُلُّ مَنْ تَحْتَ التُّراب بَعيدُ

الرواية المختارة : « وربَّما أقامَ به بعد الوفودِ وُفودُ » : بالواو ، وذلك أن الشَّرْطَ فى قوله « فإن تُمْسِ مَهْجُورَ الفِناءِ » جوابه فإنَّك لم تَبْعُدْ ، ويصيرُ : « وربّما أقامَ » بيان الحالِ فيما تقدَّم من رِياستِهِ وقتَ تَوَفُّرِ الناس على قَصْده وزيارته . والمعنى : إنْ مُتَّ وصرتَ مهجور الساحةِ مرفوضَ الخدمة — وربَّما كانت الوفود فيما مَضَى من حياتِكَ تزدحمُ على بابِكَ ، وتتلاقى فى فنائك — فإنَّك السَّاعةَ لم تَبْعُد على مَن يتعهَّـدُك ، ويرى قضاء حقّك ، وإقامةَ الرَّسم فى واجبِك ، ثم قال مستدركا على نَفْسِه : بلى كلُّ من تحت التراب فقد بَعُدَ عن ذلك كلِّه . ويعنى بالوفودِ طُلَّابَ الحاجات والمؤدِّين لواجبات الشُّكر ، إذ كان فى حياتِه المقصودَ والمشارَ إليه ، والمُصْطَنِـعَ لطوائف الناس بما يتفرّقُ من إحسانه فيهم .

وقوله « على مُتَعَهِّدِ » يريدُ متَتَبِّعَ العهود بالحفظ لها ، ومَنعها من الضَّياع والدُّروس . وكما يُقالُ : تعَهَّدتُ الشَّىء إذا تأمَّلتَهُ هل بَقِىَ على ما عَهِدتَه ، يقال : تفقَّدتُ الشَّىءَ إذا تأمَّلتَهُ هل لحِقَهُ فُقُودٌ أمْ لا . وإذا رَوَيْتَ « فربما أقام به بعد الوُفود وفُود » ، وجملته جزاء للشرط ، يَصيرُ « فإنَّكَ لم تَبْعُد » استئنافُ كلامٍ ، ويكون الفاء رابطَةً لجملةٍ على جُملةٍ ، والمعنى : إنْ هُجِرَ فناؤكَ السَّاعةَ لموتك فربَّما كان مَألفًا للوُفُود أيّامَ حياتِك . وفى طريقته قولُ الآخر :

فقد كان يَخشاكَ الكَمِىُّ ويَتَّقِى أَذاكَ ويَرجُو نَفْعَكَ المتضعضِعُ

فإن قِيلَ : الشّرط والجزاء لا يصِحّانِ إلا فيما كان مستقبلا ؛ ألا ترى أنّه لا يجوز أن يقول القائل : إن خرجْتَ أمْس أعطيْتُك فيه دِرْهمًا ؛ لأنّ الوقت وقد انقَضى لا يصحُّ تعليق الشّرط والجزاء به ، وإنما يُعلَّقان أبدًا بما يُستأنف من الزّمان ، حتَّى يصحَّ من الفاعِل إيقاعُ فعله به واستحقاقُه الجزاء عليه . قلتَ : إنّ الأمر فى الشّرط على ما ذَكرتَ إلَّا فى لفظ كانَ ، لأنّهم جوّزوا أن يقولَ القائل : إن كُنتَ خرجْتَ أمْسِ إلى موضع كذا أعطيتُك اليومَ كذا ، والمعنى إن ثبتَ فى علمى وقوعُ الخروج منك أمْسِ . وجَوّزوا هذا فى لفظة كانَ لقوّتِه فى العبارة عن الأحداث ، فأمّا الجزاء فلا يجوز فيه مثلُ هذا لا بلفظةِ كان ولا بغيره . ويمتنع أن يُقال : إن تجِئْنى اليوم أعطيتُك أمْسِ ، على أن تكون العطيَّةُ سَلَفًا فى جزائه على فِعلِه . فإن قيل : كيف جاز أن تقولَ على هذا « فربَّما أَقَامَ » وأقام بناء ماضٍ ؟ قُلتَ : إنّ الجواب فى قولِه « فربّما » ليس بالفِعل ، وإنَّما هو بجملةٍ من مبتدإٍ وخبرٍ ، كأنَّه قال : ففناؤك ربَّما أَقَامَ به بعد الوُفودِ وُفُودٌ فيما مَضَى . والفاء فى جواب الجزاء إنما تُجلَبُ إذا كان الجزاء غير موافِقٍ للشّرط ، وهو أن يكون مبتدأً وخَبَرًا ، لا فِعْلاً وفاعِلاً ، وإذا كان كذلك فقد

سَلِمِ اللَّفظُ وصار المعنى : إن أمسَى فِناؤكَ مهجُورًا السَّاعةَ فرُبَّما كان مألوفًا من قبل . والعَربُ تقول : هذا بذَاكَ . أى عِوَضٌ من ذاك . فأما وقوع الماضى بعد إنْ فلأنَّ إن يَنقُله بكونه شرطًا إلى المستقبل ، وهذا كما يَنقُلُ « لَمْ » بناءَ المستقبَل إلى الماضى . وهذا ظاهرٌ .

٢٦٧

وقال آخر :

١ — لو كان حَوضَ حِمارٍ ما شَرِبْتَ به ⁂ إلاّ بإذْنِ حمارٍ آخِرَ الأَبَدِ [1]

حِمَارٌ اسمُ أخيه ، وكان فى حياته يتعزَّزُ به فلا يعترض عليه أحدٌ فيما يفعله ، ولا يَطمع إنسانٌ فى اهتضام جانبِه وقَصْدِه فيما يختصُّه ، فلما أُصيبَ به استُلِين جانبُه ، واستُبيح حريمُه ، حتى إنه جَبَى ماءً فى حوضٍ ليسقِيَ إبلَه منه ، فجاء من زاحَمَهُ فيه واستَبدَّ به دونه ، فقال متلهِّفًا : لو كان هذا الحوضُ حوض حمارٍ أخى ما جَسَرْتَ على شُربِ مائه ، ولا على امتهانه فيه ، بل كنتَ تستأذنه ثم تُقْدِم عليه . وقوله « آخِرَ الأَبدِ » يتعلقُ بقوله « ما شَرِبْتَ به » . فأما تكريره لفظةَ حمارٍ فهم يفعلون ذلك فى الأعلام وما يَجرِى مجراها ، وفى أسماء الأجناس ، ويكونُ القصدُ إلى التعظيم فى التكرير . على ذلك قولُه تعالى :

---

(١) أنشد ياقوت هذه الحماسية فى رسم (حوض حمار) ، وقال : « قيل حمار اسم رجل ضعيف ، وكانوا يتمثلون بضعفه . وقيل بل أراد الحمار بنفسه . يقول : لو كان حوضى حوض حمار ما شربت منه إلا بإذن الحمار ، لضعفك وذلتك وقلتك ، ولكان الحمار أعز منك ، ولكنك وجدت حوضى حوض رجل أهلك الدهر قومه ونظراءه فطمعت فيه ، فليس ما فعلته دليلا على عزك ، ولكنه دليل على ضعفى . كأنه يحرض قومه بذلك » .

﴿ رُسُلُ اللهِ اللهُ أعلَمُ حيثُ يَجْعَلُ رِسالاتِهِ[1] ﴾ وقولُ الشاعر[2] :

لا أرَى المَوْتَ يَسْبِقُ الموتَ شَىْءٌ   نَغَّصَ الموتُ ذا الغِنَى والفَقِيرَا

وقد قيل إنّ حِمَارًا المذكور اسم رَجُلٍ كان يُضرَب به المثل فى الذُّل ، فلذلك ذكره . ولا يجوزُ أن يُرادَ به واحدٌ من الحُمُر ، لأنه لو كان كذلك لوجَبَ أن يقولَ فى الثانى إلا بإذن الحمار ؛ لأن النَّكِرةَ إذا أُعيد ذِكرُها يجب تعريفُه بالألف واللام إشارةً إليه . على هذا كُتِبَ فى أواخِرِ الكُتُبِ وقد قُدِّمَ فى أوائِلها : سَلامٌ عليك : والسلامُ عليك .

٢ــ لكِنَّهُ حَوْضُ مَن أَوْدَى بإخْوَتِهِ   رَيْبُ الزَّمانِ فأمْسَى بَيْضَةَ البَلَدِ

هذا الكلام فيه تنبيهٌ إلى شِدَّة فاقته إلى من يَذُبُّ عنه ، وتأكُّدِ جَزَعِه لما فاتَه من الصِّيانةِ بإخوتِه ، فيقول : لكنه حوضُ رَجلٍ فرّق الدهرُ بينَه وبين من كان يَعتزُّ به ، ويَدفعُ الظلمَ والمضيمةَ عن نفسِه بمكانِه ، فأمسى لا ناصرَ له ، ولا دافِعَ دونَه ، كبَيْضةِ البلد . وقد قيل فى بيضة البلد : إنه أراد بَيضَ النَّعام ، لأنها سيِّئة الهِداية ، فتَضَعُ بيضَها فى موضع ، ثم تَترُكه ضَلالاً عنه فتَضِيع ، وربما تذهَبُ وتَحضُن بيضَ غيرِها تظُنُّ أنها بيضُها . وقد ضُرِبَ المَثلُ بها فقيل :

كتارِكَةٍ بيْضَها بالعَــراء   ومُلْبِسَةٍ بَيْضَ أُخرى جَناحا[3]

وقد قيل : إنّ بيضةَ البَلَدِ هى الكَمْأَةُ البيضاء تنشَقُّ عنها الأرض — وهى

(١) قرأ ابن كثير وحفص « رسالته » بالتوحيد ، وباقى السبعة « رسالاته » على الجمع . تفسير أبى حيان (٤ : ٢١٧) .

(٢) هو عدى بن زيد العبادى ، أو ابنه سوادة . الخزانة (١ : ١٨٣) وكتاب سيبويه (١ : ٣٠) .

(٣) البيت لإبراهيم بن هرمة . الحيوان (١ : ١٩٩) وانظر ثمار القلوب ٣٥٣ والدميرى (٢ : ٥٠٢) والموشح ٢٣٧ .

الفَقْع — فتَطَؤُه الماشيةُ، وتَنقُرُه العافية[1]، ولذلك قيلَ: «أذَلُّ من فَقْعٍ بقاعٍ». وكما ضُرِبَ المثلُ ببيضة البلد في الذُّلّ ضُرِبَ المثلُ بها في العِزّ أيضاً. وقد مَضَى ذِكرها. وأنشدنى بعضُهم لأخت عَمرِو بن عَبْدِ وَدّ[2] ترثى أخاها، وكان أمير المؤمنين عليه السلام قاتِلَه:

لو كان قاتِلُ عَمرٍو غيرَ قاتِلِهِ ... بَكَيْتُه ما أقامَ الرُّوحُ فى جَسَدِى
لكنَّ قاتِلَهُ مَن لا يُعابُ به ... وكان يُدعى قديمًا بيضةَ البَلدِ

والمراد إذا مُدِح أنه لا نظيرَ لها، ولا أُختَ معها، فالنَّعامةُ تُطِيفُ بها إشفاقاً عليها. ومما يُحتجُّ به فى الذّمّ قولُ الآخَر:

إنّ أبا نَضْلَةَ لَيْسَ من أَحَدْ ... ضَلَّ أباه فهو بَيضـــةُ البَلَدْ

وبَيضةُ الإسلام: جماعتهم. ويقال تَفَرَّى بيضةُ الأرض عن بنى فُلانٍ، إذا تناسَلوا وكثُروا. وبيضة الخدر قد تقدَّمَ القولُ فيه[3].

٣ – لو كانَ يُشْكَى إلى الأمواتِ مالقِىَ الـ ... أحياءُ بَعْدَهُمُ من شِدَّةِ الكَمَدِ
٤ – ثم اشتَكيتُ لأشكانِى وساكِنُه ... قَبْرٌ بِسِنْجَارَ أو قَبْرٌ على قَهَدِ

قَصْدُه إلى بيانِ برِّ أخيه به أيّامَ حياتِه، فقال: لو جَرَت العادةُ بتكلُّف الأحياء الشَّكوى إلى الأموات، وإنهاءِ ما يقاسونه من الجزَع فيهم، ومن النَّوائب بفقدهم وبَعْدَهُم[4]، ثم كان يَنفع ذلك أو يُثمِر إصغاءً وإجابةً،

(١) العافية: طلاب الرزق من الإنس والدواب والطير. انظر ص ٨٢٣ س ٢.

(٢) كذا على الصواب فى ل والتيمورية. وفى الأصل: «عمرو بن معديكرب» وفى م: «عمرو بن ود» كلاهما محرف. وكان مقتل عمرو بن عبد ود فى غزوة الخندق، قتله على عليه السلام، وقتل كذلك ابنه حسل بن عمرو. السيرة ٦٩٩ – ٧٠٠ جوتنجن. وود بفتح الواو: صنم لهم، وقد ورد ذكره فى القرآن الكريم.

(٣) انظر ما سبق فى الحماسية ١٦٧ ص ٥٠٥.

(٤) كذا ورد ضبطها فى جميع النسخ.

وجريْتُ أنا على عادتهم فى مُبَاثَّةِ أخِى ، والإفاضةِ فى الشَّكْوِ إليه ، لأرضانى وأزال شكواىَ .

وقوله « أشكانى » يقال شَكوته فأشكانى ، كما يقال طَلبتُ منه كذا فأطْلَبنِى ، وعَتَبْتُ عليه فأعتَبَنِى . وقوله « وساكِنُه قبرٌ بِسنجارَ أو قبْرٌ على قَهَدِ » ، قَدَّمَ المعطوفَ وهو ساكِنُه على المعطوفِ عليه ، وهو قبرٌ بسنجار . ومثله قوله :

* عَلَيْكِ ورحمةُ الله السلامُ[1] *

وإنما يَحسُن هذا إذا كان العاملُ مُقدَّماً ، وهو فى الفعل والفاعل أكثرُ منه فى المفعول ، فأمَّا المجرور فلا يجوز ذلك فيه ، لا يجوز أن تقولَ مَررتُ وعَمْرٍو بزيْدٍ إذ كان فيه تقدُّم المعطوف على المعطوف عليه وعلى العامل فيه .
والكَمَدُ : حُزنٌ وهَمٌّ لا يُستطاعُ إمضاؤُه ، وقال الدُّرَيْدِىّ : هو مَرَضُ القَلْبِ من الحزن . يقال كَمِدَ يكمَد كَمَدًا ، ورأيته كامِدَ الوجهِ وكَمِدَ الوجه ، إذا بان به أثرُ الكَمد ؛ وأكْمَدَهُ الحُزن إكمادًا .

٢٦٨

وقال رَجلٌ من خَثْعَمَ[2] :

١ — نَهِلَ الزَّمانُ وعَلَّ غيرَ مُصَرَّدِ ... مِن آلِ عَتَّابٍ وآلِ الأسْوَدِ

(١) البيت لا يعرف قائله ، وقيل : هو للأحوص . الخزانة (١ : ١٩٢) وصدره :

* ألا يا نخلة من ذات عرق *

(٢) ابن جنى فى المبهج ٣٩ : وخثعم اسم قبيلة غير مصروف . وهو فى الأصل اسم بعير . والخثعمة : تلطخ الجسد بالدم . ويقال : إنما سميت بذلك لأنهم نحروا بعيراً فتلطخوا بدمه وتحالفوا . فخثعم على هذا فى الأصل ماض كدحرج ، نقل فسميت القبيلة به . ويجوز أن يكون مصدراً حذفت منه الهاء عند النقل ، وأصله خثعمة » . وخثعم هو أفتل بن أنمار بن أراش بن عمرو بن لحيان بن عمرو بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يعرب بن —

٢– من كُلِّ فَيَّاضِ اليَدَيْنِ إذَا غَدَتْ نَكْبَاءُ تُلْوِى بالكَنِيفِ المُوصَدِ

النَّهَلُ : الشُّرْبُ الأوَّل . والعَلَلُ : الشُّرب الثانى . والتَّصريد : تقليل الشُّرب ؛ يقالُ إناءٌ مُصَرَّدٌ ، إذا كان ما يحويه دُونَ الرِّىِّ ، ويقالُ صَرَّدَ عَطَاءَهُ إذا نَزَّرهُ . وقَصْد الشَّاعر إلى بيان تأثير الزّمان فى الذين ذكرهم حالاً بعد حالٍ ، ووقتاً بعد وقتٍ ، وأنَّهُ استوفَى منهم ما أراد دَفعةً بعد أُخرى ، وثانيةً بعد أُولى ، غَيْرَ مُقَلِّلٍ ولا مُطفِّف .

وقوله « من كلّ فيّاض اليدين » بدلٌ من قوله « من آل عتّاب » ، وقد أعادَ العاملَ فيه ، وهذا يكثُر فى المجرور . على هذا قولُ الله تعالَى : ﴿ قَالَ المَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ ﴾ ألا تَرَى أنه أعاد اللام كما أعَادَ هذا الشّاعر مِنْ . وهذا التكرير تأكيدٌ للإبدال ، وتنبيهٌ على أنّ الثانىَ من الأوّل . والفيّاض : الكثير السَّيلان ، وهو بناء المُبالَغة . والنَّكباء : ريحٌ تنكَّبتْ عن مَهابِّ الرِّياح الأربع . وإذا كَثُرت النَّكباواتُ واشتدَّ هُبُوبُها شَمِلَ القَحط : ويقال: إنَّهُ لَمِنكابٌ عن الحقِّ ، أى كثير العُدول عنه ، والأنكب البعير كأنَّهُ يَمشى فى شِقّ ، ومعنى تُلْوِى : تذهب به . والكنيف : الحظيرةُ من الشَّجر ؛ والمُوصَدُ : الذى جُعِل له إصادٌ إحكاماً له ، والإصادُ : عَتَبَةُ الباب ، والجميع الأُصُدُ . وفُسِّرَ قولُه عزّ وجلّ : ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ ﴾ أى مُطْبَقَةٌ . ويُهْمَزُ ولا يهمز . وقيل : الوصيد الفِناء . والمعنَى أنَّ الزَّمانَ ألحّ عليهم ، وتناولَ منهم الأفضلَ فالأفضلَ تَناولاً لا تقليلَ فيه ولا تَعذير ، فَذَهَب منهم بكلِّ رَجُلٍ

= قحطان . نهاية الأرب (٢ : ٣١١ وما قبلها) . على أن البيت الرابع من هذه الحماسية نسبه ياقوت فى رسم (البقيع) إلى عمرو بن النعمان البياضى ، فى أبيات أخرى قالها يرثى قومه ، وكانوا قد دخلوا حديقة من حدائقهم فى بعض حروبهم ، وأغلقوا بابها عليهم ثم اقتتلوا ، فلم يفتح الباب حتى قتل بعضهم بعضاً . ونسب الجاحظ هذا البيت الرابع أيضاً إلى حارثة بن بدر ، فى البيان (٣ : ٢١٩ ، ٣٣٦) . والبياضى : نسبة إلى بياضة بن عامر بن زريق بن عبد بن حارثة بن مالك بن غضب بن جشم بن الخزرج . نهاية الأرب (٢ : ٣١١) .

سَخِيّ واسع المعروف إذا اشتدّ الزّمانُ وأَسنَتَ النَّاس . وقول الجعْدىّ :

سأَلتْنِي عن أُناسٍ هَلَكُوا شَرِبَ الدَّهْرُ عليهمْ وأَكَلْ(١)

ليس مما قالَهُ في شيء ، وإنما يريدُ مَرَّ عليهم دهرٌ مديد وزمانٌ طويل ، فشَرِبَ النَّاسُ بعدهم وأَكلُوا ونَسوا أولئك . وهذا مثل .

٣ – فاليَوْمَ أَضْحَوْا للمَنُونِ وَسِيقَةً من رائحٍ عَجِلٍ وآخَرَ مُغْتَدِ

٤ – خَلَتِ الدِّيارُ فسُدْتُ غَيْرَ مُدَافَعٍ ومِنَ الشَّقَاءِ تَفَرُّدِي بالسُّودَدِ(٢)

قولُه « فاليَوْمَ » أشار به إلى الزّمان الحاضر المُتَّصل بما بعده ، غيرَ محصورٍ بنهاية ، ولا مضبوطٍ بذكرِ غاية ، وهذا كما يُقال : فُلانٌ بالأمسِ كان يفعلُ كذا وهو اليومَ رئيسُ بَلَدٍ . فذِكرُ الأمسِ واليومِ لاتِّصال الوقتين ، وتقريب المَدَى بين الماضي منهما والحاضر . والوسيقةُ : الطَّريدةُ . ونَبَّهَ بهذا الكلامِ على أنّ الدّهر بَعْدُ جارٍ على عادته المستأنَفةِ معهم في الأخْذ منهم ، والذّهابِ بهم . وقَوْلُه « من رائحٍ عَجِلٍ وآخَرَ مُغْتَدِ » بيانٌ لذَهاب الواحد منهم في إثر الآخَر . والعَجِل : المستعجِل . ويقال عَجِلٌ بكسر الجيم وعَجُلٌ ، ومثله العَجْلان .

وقوله « خَلَتِ الدِّيار فسُدْتُ غَيْرَ مدافَعٍ » يُروى « غير مُسَوَّدٍ(٣) » .

(١) وكذا جاءت نسبته في أمالي المرتضى (١ : ٦٦) واللسان (١٣ : ٢٢) ونسبه الجاحظ في الحيوان (٥ : ٢٨) إلى دهمان النهرى .

(٢) كذا في التيمورية ، وهو ما يقتضيه التفسير ما بعده . وفي سائر النسخ : « مسود » .

(٣) مسود ، كذا وردت في جميع النسخ بالتنوين في هذا التفسير وفي متن الأصل ، ل ، م . وهو جار على مذهب من لا يعترف بالتصريع إلا في أول بيت من القصيدة . والحق أن التصريع جائز في كل بيت . قال ابن رشيق في العمدة (١ : ١١٥) : « وقد كثر استعمالهم هذا حتى صرعوا في غير موضع تصريع ، وهو دليل على قوة الطبع وكثرة المادة » .

ومعنى « خَلَتِ الدِّيار » ماتَ الرُّؤساء الذين لكل واحد منهم بَيتٌ ودارٌ يُنسَبُ إليه ، ويُتَبَجَّحُ به . وإذا روَيتَ « غير مُدَافَعٍ » يكون حالًا ، كأنه سادَهم ولا مُنازِعَ له ولا مُتَأَبِّيَ عليه . وإذا رويت « غَيرَ مُسَوَّدٍ » جاز أن يكون غير مفعولاً من سُدتُ ، فيكونَ مثل قول الآخر :

وَضَعَ الدَّهْرُ عليهم بَرْكَهُ ... فأراه لم يُغادِرْ غيرَ فَلّْ

فيكون المعنى : سُدتُ مَن لا يَصلُح أن يُنسبَ إلى السِّيادة في حال ؛ لأنَّ مَن استُصلِحَ لها ، أو ذُكِرَ في عِدَاد الرُّؤساء إذا عُدُّوا ، ماتوا وبادُوا . وجاز أن يكون حالاً ، ويكون المعنى سُدتُ قبلَ أوانِ سِيادتِي ، أي سدتُ ولم أُسَوَّد بعدُ . وقولُه « ومن الشَّقاء تَفَرُّدِي بالسُّودَدِ » ، يؤكد المعنى الذى ذكرناه أوّلًا في غيْرَ مُسَوَّد ، وإنما شَقِيَ بزُعمِه لأنَّه فُجِعَ برؤساء عشيرته ، وفى ذاك ضَعفُهُ وتراجُع رِياسته .

٢٦٩

وقال محمَّدُ بن بَشِيرٍ الخارجيّ[1] :

١— نِعْمَ الفَتَى فَجَعَتْ به إخوانَهُ ... يَوْمَ البَقِيعِ حَوَادِثُ الأيامِ

٢— سَهْلُ الفِناء إذا حَلَلْتَ بِبابِه ... طَلْقُ اليَدَيْنِ مُؤدَّبُ الخُدّامِ

(١) هو أبو سليمان محمد بن بشير بن عبد الله بن عقيل الخارجي ، نسبة إلى بني خارجة ابن عدوان بن عمرو بن قيس بن عيلان بن مضر . شاعر فصيح من شعراء الدولة الأموية ، وكان منقطعا إلى أبي عبيدة بن عبد الله بن ربيعة القرشي ، وإلى يزيد بن الحسين وابنه الحسن . وقد رثى أبا عبيدة بقصيدة رائية في الأغاني . وكان يبدو في أكثر زمانه ، يقيم في بوادي المدينة فلا يكاد يحضر مع الناس . الأغاني (١٤ : ١٤٢ — ١٥٥) والخزانة (٤ : ٣٧) . قال التبريزي : « في نسخة : يسير الخارجي ، وفيها يسير فعيل من اليسر ، وبشير هو الوجه » .

٣ – وإذا رأيتَ شقيقَهُ وصديقَهُ   لم تَدْرِ أيُّهمَا ذوُو الأرحامِ[١]

المحمود : الذى يَطلبه نِعْمَ بالاختصاص من بين جنسه محذوفٌ ، كأنه قال نِعْمَ الفتى فتًى فَجَعتْ به إخوانَه . والضمير من قوله «به» عائدٌ إلى المحذوف ، والجملة من الفعل والفاعل قد خَصَّصتْه حتَّى صار كالمعرفة . ومثلُه قوله تعالى : ﴿ نِعْمَ العَبْدُ إنَّهُ أوّابٌ ﴾ كأنه قال : نعم العبدُ أيوب . والحذف فى مثل هذا المكان يصلحُ إذا كان المحمود مشهورَ الشَّأن ، معلوماً أمرُه من القرائن فى الكلام . وارتفع « حوادثُ » بفعِلها وفعلُها فَجَعَتْ ، وذكر الإخوان تنبيهٌ على من آخاهُ من الأجانب والقرائب جميعاً .

وقوله « سَهْلُ الفناء » ارتفع على أنه خبر مبتدأ مضمر ، وجعل فِنَاءه للزُّوَّار والمجتدينَ والعُفاةِ سَهلا ، وذلك مَثلٌ لكثرة إحسانِه إليهم ، وحُسنِ توفُّرِه عليهم . ومعنى « مؤدِّب الخُدّام » تنبيهٌ على اقتدائِهمْ بمولاهم فى تَفقُّد الوُرَّاد وإكرامِهم ، والمبالغة فى التخفُّف لهم والسَّعى فى مصالحِهم .

وقوله « وإذا رأيت شقيقهُ وصديقَهُ » فالشقيق إشارة إلى إخوان الولادِ[٢] ومن جَرَى مجراهم ، ممن شاركه فى نَسَبِه حتى كأنه شُقَّ منه . والصديق إشارةٌ إلى إخوان المودَّة ومَنْ ضَرَب بسهمٍ فى الانصباب إليه ، والاعتزاء إلى جَنبتِه والاعتماد عليه . ثم قال « لم تَدْرِ أيهما ذوُو الأرحام » تنبيها على تساويهما فى المحلِّ عنده ، وشُمول حُسن التَّفقُّد لهم ، حتى تَرَى كلاًّ منهم يُدِلُّ بمثل إدلال صاحبِه ، لا تمايزَ ولا تباين . وفى طريقته قوله :

فما زال بى إكرامُهم واقتفاؤهم   وإلطافُهم حتَّى حسِبْتُهُمُ أهلِى[٣]

(١) التبريزى : « صديقه وشقيقه » .
(٢) هكذا وردت فيما عدا الأصل . وفى الأصل : « الولادة » وهما بمعنى واحد .
(٣) البيت لبكير بن الأخنس ، كما سبق فى حواشى ص ٣٠٣ ، وهو من أبيات الحماسة .

وأشار بقولِه : « شقيقةُ وصديقةُ » إلى الجنسين ، وفائدتهما الكثرة لا الوَحدة . ألا ترَى أنَّهُ قال : لم تدر أيُّهما ذوُو الأرحام ، أى أىُّ الجنسين .

٢٧٠

وقال أيضاً :

١ — طَلَبْتُ فلَمْ أُدرِكْ بوجْهِي وليتني قَعدتُ فلم أبْغِ النَّدَى بَعْدَ سائبِ

قوله « بوجهى » تعَلَّقَ الباء منه بطلَبْتُ ، والمعنى ببَذْلِ وجهى ، كأنَّه تَوَلَّى الطَّلبَ بنفسه ، وابتَذلَ وجهَه وجاهَه فيه ، فلم يُدرِكْ المطلوب . ومفعول « طَلبْتُ » محذوف دَلَّ عليه قوله « فلم أبْغِ النَّدَى » والتَّقدير : طلبْتُ بعد سائبِ النَّدَى ببذْلِ وجهى فلم أَنَلْهُ ، وليتنى قعَدتُ فلم أبْغِهِ ، ولا يمتنع أن يتعلَّق الباء من قوله بوجهى بأدْركْ ، وهو المختار عند أصحابنا البَصريِّين ، ويكون التقدير : طلبْتُ النَّدَى فلم أُدرِكْه ببَذلِ وجهى . وقوله « بعد سائب » يجوز أن يكونَ العامل فيه طَلبتُ وكلُّ واحدٍ من الأفعال المجتمعة ، وهى : طلبْتُ وأُدرِكُ وقَعَدتُ ولم أبْغِ . والمعنى : بعد موت سائب .

٢ — ولو نَجَأَ العَافِى إلى رَحْلِ سائبٍ ثَوَى غَيْرَ قالٍ أو غَدَا غَيْرَ خائبِ

ألَمَّ فى هذا البيت بقول الآخر[1] :

حتى يكونَ عزيزًا من نُفوسِهِمُ أو أنْ يبينَ جميعاً وهو مُختارُ

لأن معنَى « من نفوسِهم » مقيما فيهم ، وكالواحِد منهم . يقول : ولو التجأ العُفاةُ هاربين من الزَّمان ، ونَكَد الحدَثَان ، إلى فِناء هذا المرثىّ ، أقاموا مُكَرَّمين معظَّمين ، لا يجتوُونهُ ولا يُبغِضونَهُ ما داموا مقيمين ، وإذا أرادوا

(١) هو يزيد بن حمان الكونى ، من الحماسية ٩٣ ص ٣٠١ .

الانصرافَ عنه اغتدَوْا غيرَ محرومِينَ ولا يائسين . وانتصَبَ « غَيْرَ » على الحال وأشار بالعافى إلى الجنْس ؛ ويقال عَفَاهُ واعتَفاهُ ، إذا طَلَب مَعروفَه ، فأعفاهُ أى أعطاهُ . ومنه عافية السِّباع والطَّير .

٣ ــ أَقُولُ ومايَدْرِى أُناسٌ غَدَوْا به إلى اللَّحْدِ ماذا أَدْرَجُوا فى السَّبَائبِ

موضع « ماذا أَدْرَجُوا » نَصْبٌ على أنَّه مفعولٌ لأقولُ ، ويجوز أن يكون ما مَعَ ذا بمنزلةِ اسمٍ واحدٍ وأدرجوا فى موضع الخبر ، ويجوز أن يكون ما وحدَهُ اسماً وذَا خَبَرُه بمنزلة الذى وأدرجوا من تمامِه . والمعنى : أقول متلهِّفاً فِعْلَ مَن أعياهُ الأمر فالتَحَفَ باليأس ، وتَعَلَّلَ بكلمة الحسرةِ بعد الفوات : أىُّ رَجُلٍ أُدرِجَ فى الكَفَنِ والغادونَ به إلى اللَّحدِ لا يعلمون . وهذا تفظيعٌ للشَّأن ، وتعظيم لحادثِ الرُّزْء ، وقولُه « أُناسٌ » أشار به إلى الجماعة والطَّائفة ، والألف فيه زائدة بدلالة قولهم أَنَسٌ وأَناسِىُّ وإنسٌ . وإذا كان كذلك فقولُه ناسٌ منه أيضاً ، والألف زائدة ، وفاء الفِعْل محذوفة . ومن ذَهَبَ إلى أنَّ لفظةَ الناس ليست من أُناسٍ فى شىء ، وأنّ الألفَ فيه منقلبةٌ عن حرفٍ أصلىٍّ فقد أخطأ . والسبائب : جمع سبِيبةٍ ، وهى الثوبُ الأبيَضُ ، العمائمُ وغيرها . وكذلك السِّبُّ . قال الشاعر[(١)] :

* يَحُجُّون سِبَّ الزِّبرِقانِ المزعفَرا[(٢)] *

٤ ــ وكُلّ امرىءٍ يَوْمًا سَيَرْكَبُ كارِهاً على النَّعْشِ أَعْنَاقَ العِدَى والأقارِبِ

العِدَى : الغُرباء ، وانتصبَ كارهاً على الحال من سَيَرْكَب ، وموضع على

(١) هو المخبل السعدى . إصلاح المنطق ٤١١ واللسان (سبب ، حجج) . وأنشد البيت فى البيان (٣ : ٩٧) بدون نسبة .

(٢) صدره : * وأشهد من عوف حلولا كثيرة *

النَّعْشِ منصوبٌ على الحال مِمّا فى قوله كارِهًا ، ويجوز أن يكون صفة لـكارِهٍ ، كأنه قال : يركبُ كارهًا حاصلاً على النَّعْشِ أعناقَ العِدَى يومًا ما . وقال الخليل : قومٌ عِدًى : بُعُدٌ عنك وغُرباء ويقال قومٌ أعداء أيضًا بهذا المعنى . والعِدَى : البُعْد نفسُه .

٢٧١

وقال دُرَيْدُ بن الصِّمَّة[1] :

١ — نَصَحْتُ لعارضٍ وأصحابِ عارضٍ ورَهْطِ بنى السَّوْداءِ والقَوْمُ شُهَّدِى[2]
٢ — فقلت لهم ظُنُّوا بألْفَىْ مُدَجَّجٍ سَرَاتُهُمُ فى الفارسىِّ المُسَرَّدِ

يقال نَصَحْتُه ونَصَحْتُ له ، نُصْحًا ونَصِيحةً ونَصَاحةً ونَصَاحِيَةً ، وهو ناصِحُ الجَيْبِ ، أى ناصحُ الصَّدْرِ . وقوله « والقومُ شُهَّدِى » فائدتُه أنَّهم

(١) دريد بن الصمة بن الحارث بن بكر ، من بنى جشم بن معاوية بن بكر بن هوازن من فخذ منهم يقال لهم بنو غزية . ودريد تحقير أدرد على الترخيم . والأدرد : الذى كبر حتى سقطت أسنانه فصار يعض على دردره . والصمة : الشجاع ، وهو لقب لأبيه ، واسمه معاوية . ودريد شاعر شجاع فارس من ذوى الرأى فى الجاهلية . وشهد يوم حنين مع هوازن وهو شيخ كبير . وقال :

يا ليتنى فيها جذع أخب فيها وأضع

وقتل دريد يومئذ فيمن قتل من المشركين . المعمرين ٢١ — ٢٢ والاشتقاق ١٧٧ — ١٧٨ والأغانى (٩ : ٢ — ١٩) والآلى ٣٩ — ٤٠ والمؤتلف ١١٤ والخزانة (٤ : ٤٤٢ — ٤٤٧ / ٣ : ٤٦١ — ٤٦٢) والسيرة ٨٤١ — ٨٤٢ جوتنجن والشعراء ٧٢٥ — ٧٢٩ .

(٢) أبيات هذه الحماسية ، هى من الأصمعية رقم ٢٨ (طبع المعارف) ، وكان من خبر الشعر ما رواه التبريزى أن عبد الله — وهو اسم آخر لعارض وهو أخو دريد ، كان يسمى عارضا ، وعبد الله ، وخالدا ، وكان يكنى أبا أوفى ، وأبا ذفافة ، وأبا فرعان — كان عبد الله هذا أسود إخوته ، فغزا ببنى جشم و بنى نصر لبنى معاوية بن بكر بن هوازن ، وغنم مالا عظيما ، بمنعرج اللوى ، فنعه دريد عن اللبث وقال إن غطفان ليست بغافلة عنا ! فحلف أنه لا يريم حتى يقسم ، فلحقت بهم عبس وفزارة وأشجع ، وأوقعوا بعبد الله وأصحابه ، وقتل عبد الله ، وجعل دريد يذب عنه وهو جريح . وهو قوله : « فجئت إليه والرماح تنوشه » .

كانوا له حاضرين ومضطرِّين من كلامِه وإشارتِه وبَذْلِهِ النُّصْح لهم ، إلى ما كان أدّى إليه مراسلتُهم فى ذلك وهم غائبون ، إذْ كان يَبِينُ لهم منه ما كان يَبِين وقتَ الحُضور .

وقوله « ظُنُّوا بألْفَىْ مُدَجَّجٍ » يجوز أن يكون معناه : ظُنُّوا كلَّ ظَنٍّ قبيحٍ بهم إذا غزَوكم فى أرضكم وعَقر دياركم[١] . ويجوز أن يكون معنى ظُنُّوا أيقِنوا ، لأن الظَّنَّ يستعمل فى معنى اليقين . على ذلك قولُ الله تعالى : ﴿ الذين يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ ﴾ .

وقولُه « سَرَاتُهم » ، يعنى به رؤساءَهم وخيارَهم ، وقد مضى القولُ فى بنائه[٢] . والفارسىّ المُسرَّد ، يَعنى به الدُّروع . والسَّرد : تتابُع الشىء ، كأنه أراد فى الدُّروع تتابُعَ الحلَقِ فى النَّسجِ . لذلك قيل فى الأشهُر الحُرُم : ثلاثةٌ سَرْدٌ ، وواحِدٌ فَرْدٌ . وقال الخليل : السَّرْدُ : اسمٌ جامعٌ للدُّروع وما أشبهَهَا من عَمَل الحلَق ، لأنه يُسْرَدُ فيُثْقَب طرَفَا كلِّ حَلْقَةٍ بالمِسمار ، وفى القرآن : ﴿ وقَدِّرْ فى السَّرْدِ ﴾ ، أى اجعلْ المساميرَ على قَدْر خُروق الحلَق ، لا يَغلُظِ المسمارُ فيتخرق ، أو يَدِقُّ فيَقْلَقَ . ومعنى البيتين : بذَلتُ نُصْحى لهؤلاء القومِ بلسانى وقوْلى فيما صَلَحَ فيه التخاطُبُ ، وبإشارتى وتعريضى ، وهم لى حاضرون يَسْمَعون ويَعُون ، وقلتُ لهم : إنّ الأعداء لكم مترصِّدون ، وإليكم قاصدون ، وعَدَدهم وعُدَدهم تامّة ، فوسِّعوا مجالَ الظَّنِّ السَّيِّئ بهم إذا تمكّنوا منكم ، أو أيقِنوا بقَصْدِهم ، على الطريقتين اللَّتَين بيَّنَّا .

٣ — فلمّا عَصَوْنى كنتُ مِنهم وقد أرَى غَوايَتَهُم وأنّنى غَيْرُ مُهْتَدِ

(١) اتفقت النسخ على ضبط « ستر » بالفتح ، وهو يقال بالضم والفتح ، الضم لغة الحجاز ، والفتح لغة نجد . وعقر الدار : أصلها أو وسطها .

(٢) انظر البيت ٥ من الحماسية ٢٥٨ ص ٧٦٧ .

لمّا عَلَمٌ الظّرف ، وهو لوُقوع الشيء لوقوع غيرِه ، فيقول : لما أصرُّوا على ما كانوا عليه ، واطّرحوا نُصْحى ومَشُورتى عليهم ، تَبِعتُ رَأيَهم ولم أتفرّدْ عنهم(١) وأنا أرى جَهلَهم ، وأتصوّر عاقبةَ لَجَاجِهم ، وأنى ضالٌّ عن الطّريق عادِلٌ عن الصّواب فى اتّباعى لهم ، لكنّى لم أستَصْلِحْ لنفسى الخروجَ منهم ، والتَّباعُدَ عنهم . وقوله « كُنتُ منهم » مِنْ هـذه تُفيدُ تبيينَ الوِفاق وتَرْكِ الخلافِ ، وأنّ الشأنَينِ واحدٌ لا تمايُز بينهم ولا تبَايُن . وهم يقولونَ فى النّفى أيضًا . لستُ مِنكَ ، أى انقطَع ما بيننا ، فلا خِلاط ولا اشتراك . على هذا قول الشاعر(٢) :

* فإنّى لَسْتُ منكَ ولستَ منِّى(٣) *

فأمّا قولهم : أنتَ منِّى فرسخان ، قال(٤) شيخُنا أبو علىّ [الفارسىُّ رحمه الله(٥)] هذا كلامُ الذّليل مع المُستذِلّ ، والمعنى : أنتَ فى هِدايتى مَدَى الفرسَخين . وإلى غايتهما ، وقد خالَفَ هذه الطريقة حُصَيْن(٦) بن المُنْذِرِ فقال :

أمَرْتُكَ أمْرًا حازمًا فعَصَيْتَنِى فأصْبَحْتَ مَسلوبَ الإمارةِ نَادِمَا
فما أنا بالباكِى عَلَيْكَ صبابةً وما أنا بالدّاعِى لِتَرْجِعَ سالما

٤ ــ أمَرْتُهُمُ أمْرِى بمُنْعَرَجِ اللِّوَى فَلَمْ يَسْتَبِينُوا الرُّشْدَ إلّا ضُحَى الغَدِ

قوله « أمرى » يجوز أن يُرِيدَ المأمورَ به ، ويكون الأصل : أمرتُهُمْ

(١) كذا فى الأصل . وفى سائر النسخ : « ولم أنفرد عنهم » .
(٢) هو النابغة الذبيانى . ديوانه ص ٧٩ .
(٣) صدره : * إذا حاولت فى أسد فجوراً *
(٤) كذا سقطت فاء الجواب فى جميع النسخ ، على ما جاء فى قول الله : « وأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم » .
(٥) هذه التكملة ليست فى الأصل ، وإثباتها من سائر النسخ .
(٦) كذا ورد فى النسخ بالصاد المهملة ، وصوابه بالضاد المعجمة ، انظر المؤتلف ٨٨ والخزانة (٢ : ٨٩ ــ ٩٠) والطبرى (٦ : ١٨) وتهذيب التهذيب .

بأمْرِى ، فحَذَف الجارَّ ووصل الفعلُ بنفسه . ويجوز أن يكون مصدرَ أمَرتُ ، وجاء به لتأكيد الفعل . وقوله « بمنعَرَج اللِّوَى » تحديدٌ وتوقيتٌ ، وبيانُ أنّ ذلك كان من هَمِّه حتى اختارَ له الموضع الذى كان أوفقَ عندَهُ ، والوَقتَ الذى كان أعْوَدَ عليهم فيما أمرَهم به . واللِّوَى : مُستَرَقُّ الرّمل . ومُنعَرَج : منعَطَف . وقوله « فلم يستبينوا الرُّشد » أى لم يتبيّنوه فى الحال حتى جاء الوقتُ المقدَّر له . وذِكْر الغَدِ يَكثُر فيما يتَراخى من عواقب الأمور إذا أحيلَ عليه البيانُ والظُّهور فيه . والمعنى : فى المستأنَفِ من الوقتِ . وهذا زاد عليه «ضُحَى» لأنه من النهار أضوأ ، فكأَنّ المعنى : لم يبِنْ لهم مادعوتُهم إليه إلّا فى الوقتِ الذى لا لَبْسَ فيه ولا اعتراضَ شَكّ . ومثلُه قولُ المتلمِّس :

عَصَانى فَلَمْ يَلْقَ الرَّشَادَ وإنَّمـا ... يُبَيِّنُ عن أمرِ الغَوِىِّ عواقِبُهْ

٥ — وهَلْ أنَا إلَّا من غَزِيَّةَ إنْ غَوَتْ ... غَوَيْتُ وإن تَرْشُدْ غَزِيَّةُ أَرْشُدِ(١)

يُقالُ رَشِدَ يَرْشَدُ رَشَدًا ورشَادًا ، ورشَدَ يَرْشُدُ ؛ فلَكَ أن تضمَّ الشّين من ترشد وأن تفتحها . وقوله « هل أنَا » هو فى مذهب النّفى وإن كان استفهامًا ولذلك تَبِعَـهُ إلّا ، كأنّهُ قال : ما أنا إلّا من غَزِيَّةَ فى حالَـتَىِ الغَىِّ والرَّشاد ، فإن عدَلُوا عن الصَّواب عدلتُ معهم ، وإن اقتحموه اقتحمت بهم . وغَزِيَّةُ هو رهطُه . فإن قيل : إنّهُ كرَّر معنًى واحدًا فى هذه الأبيات مرَّتَيْنِ ، لأنّ قولَهُ « إن غَوَتْ غَوَيْتُ » قد اشتَمل عليه « كُنتُ منهم وقد أرى غوايتهم وأَنَّنى غير مُهتَد » . قلتُ : فى الأوّل اقتصَّ الحالَ التى دارَ عليها معهم ، وفى الأمر بقيَّةٌ ، وللنُّصح تَوَجُّهٌ ، وأنّهُ اجتهَد فى رَدِّهم إلى ما هو أردُّ عليهم وأنفَعُ لهم ، فلما عَصَوْه فى ذلك أمسكَ عنهم جاريًا فى الطَّريق الذى يسلـكونَهُ وإن عَلِمَ

(١) غزية ، بفتح الغين . ابن دريد فى الاشتقاق ١٧٧ : « ومن قبائل بنى جشم بنو غزية — والغزية فعيلة من الغزو . والغزى : الجماعة من القوم يغزون » .

الخطأُ فيه . وقولُه « وهل أنا إلّا من غزيّةَ » بيانٌ لِمَا دُفِعُوا إليه بعد تبيُّن الرّشاد لهم ، وابْتُلُوا به من مقاساة سُوء العاقبة لسوء اختيارِهم ، فقال : وما أنا إلا شَرِيكٌ لهم فيما أثمرَ لهم جهلُهم وغَوايتُهم كما كنتُ شريكاً لهم لو رَشِدُوا فيما كان يثمِرُ لهم رشادُهم . فهو فى الأوّل ذَكَرَ اتّباعَه لهم بعدَ النُّصح ناظرًا من وراءِ رأيه ما يُدفعون إليه ويُمتَحنون به ، وفى الثّانى ذكر انغماسَهم معهم فيما أعْقَبَ لهم اختيارُهم ، وأنّهُ شَقِيَ بمثل ما شَقُوا به فى عُقْبَى جهلهم أو بأشَدَّ منه ، وإذا كان كذلك اختَلَف الحالتان والاتّباعان . ثمّ أخذَ يبيِّنُ محنتَهُ ، فقال :

٦ـ تنَادَوْا فقالوا أرْدَتِ الخيْلُ فارِسًا فقُلْتُ أَعَبْدُ اللهِ ذلكمُ الرَّدِى

٧ـ فَجِئْتُ إليه والرِّماحُ تَنُوشُهُ كوَقْعِ الصَّيَاصِى فى النَّسِيجِ الممدَّدِ

يعنى بالخيل الفُرْسان . يقول : نادَى بعضهم بعضًا : أسْقَطَتِ الخيلُ فارِسًا ! فقلتُ : أعبدُ الله ذلكم السّاقط الهالك ، وإنما دَعاهُ إلى هذا القولِ أمران : أحدهما سوء ظنِّ الشقيق ؛ والثانى أنّه عَلِمَ إقدامَه فى الحرب ، وابتذالَهُ النّفسَ وتعرُّضَه للحَتفِ ، فدعاهُ الشّفقةُ والإشفاقُ إلى قَصْدِهِ لوقايتِه بنفسه ، فلحِقهُ والرِّماحُ تتناولُه وتَقَعُ فيه وقْعَ الصَّياصِى ، وهى خشبةُ الحائك فى نَسْجِه الممدود إذا أرادَ تمييز طاقاتِ السَّدَى بعضِها من بعض ، وكأنّهُ سُمِّيتْ بذلك تشبيهًا بصِيصِيَة الدِّيك وهما مِخلَبانِ فى ساقه ، وبصيصية الثّوْر ، وهو قَرْنُه . وقوله « أعبدُ الله » ، وقد سماه مَعْبَدًا أيضا ، وهم يفعلون كثيرًا فى الأعلام مِثلَ ذلك . ألا تَرَى حالَهُم فى سليمان ، وأنّهم يُسَمُّونه مَرّةً سُلَيْماً ومَرّةً سَلّامًا[1]

---

(١) هو مماثل لما نصنعه فى عصرنا هذا من تغيير بعض الأسماء للتدليل ونحوه . ومن شواهده قول الأسود بن يعفر :

ودعا بمحكمة أمين سكها من نسج داود أبى سلام

وقول الآخر[1] :

* صَبَوْتَ أَبَا ذِيبٍ وأنتَ كَبِيرُ[2] *

يعنى أبا ذؤيب . وقولُه : « تَنُوشُه » من النَّوشِ . والظَّبْيةُ تَنُوشُ الأراكَ وتنتاشه ، أى تتناولُه ، وفى القرآن : ﴿ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ .

٨ـ وكنتُ كذاتِ البَوِّ رِيعَتْ فأقبَلَتْ إلَى جَلَدٍ من مَسكِ سَقْبٍ مُقَدَّدِ[3]

بَيَّنَ ماذا أدركَ من أخيه لما أرادَ وقايتَه والذَّبَّ عنه فقال : كنتُ كناقةٍ لها ولدٌ فأُفزِعَتْ فيه لما تباعَدَتْ عنه فى مَرعاها ، فأقبلَتْ نحوَه ، فإذا هو بجَلَدٍ مُقطَّعٍ ، وشِلوٍ مُبدَّد . كأنَّه انتهى إلى أخيه ، وقد فُرِغَ مِن قَتلِهِ ومُزِّقَ كُلَّ ممُزَّق . والبَوُّ ، أصله جلدُ فَصيلٍ يُحشَى تِبنًا لتَدِرَّ عليه ، فاستعاره للولد . وكذلك الجَلَدُ هو ما جُلِدَ من المسلوخ وأُلبِسَ غيرَه لتشَمَّه أمُّ المسلوخ فتدِرَّ عليه . والمَسْكُ : الجلد ، لأنَّه يُمسِك ما وراءه من اللحم والعَظم . والسَّقْبُ : الذَّكَر من أولاد الإبل ؛ وناقةٌ مِسقابٌ ، إذا وَلدت الذُّكرانَ كثيرا .

٩ ـ فطاعَنْتُ عَنْهُ الخَيْلَ حتَّى تَبَدَّدَتْ وحتَّى عَلاَنِى حَالِكُ اللَّوْنِ أَسْوَدِ

١٠ ـ قِتالَ امرِئٍ آسَى أخَاهُ بنفْسِهِ ويَعْلَمُ أَنَّ المَرْءَ غَيْرُ مُخَلَّدِ

يقول : دافَعتُ الخيلَ — يعنى الفُرسانَ — عنه حتَّى انكشفوا ، وإلى أن جُرِحتُ فسالَ الدَّمُ عَلَىَّ ، وكان ذلك منِّى دِفاعَ رجلٍ جعلَ نَفسَه إسْوَةَ أخيه ، واختارَ لها مثلَ ما سِيق إليه ، عالمًا بأنَّ المَرءَ لا يَبقَى ، بل مآلُه إلى الفَناء ، وأنَّ استقتالَه ليلحقَ بأخيه خيرٌ له من أن يَبقَى بَعده فيَشقَى بالجزَع له وفيه .

— وكما قالوا فيه « سلام » قالوا فيه أيضاً « سليم » . ومنه قول النابغة فى ديوانه ٦٤ :

وكل صموت نثلة تبعية ونسج سليم كل قضاء ذائل

(١) هو أبو ذؤيب الهذلى . ديوان الهذليين (١ : ١٢٧) .

(٢) صدره : * ديار التى قالت غداة لقيتها *

(٣) انفردت نسخة الأصل برواية : « فكنت كذات » .

ويقال : هو يَأْتَسِي بفُلانٍ ، أى رَضِيَ لنفسه ما رَضِيَ ذاكَ لنفسِه . والمُوَاساةُ والتَأَسِّي والائتساء واحد . وقوله : « حَتَّى عَلَانِي حَالِكُ اللون أَسْوَدُ » ، فيه إقواء ، وكثيرٌ من العلماء يُهوِّنون الأمرَ فى الإقواء ولا يَعُدُّونه عيباً قبيحا . وحُكِيَ عن الأخفَشِ أنّه قال : ما أنشدَتْني العربُ قصيدةً سَلِمَتْ من الإقواء طالت أو قَصُرَت . ويُرْوَى : « وحتّى علاني حالكٌ لوْنُ أَسْوَدِ » ، والضَّعفُ فيه ظاهر . ألا تَرَى أنّه قال حَالِكٌ وهو الشَّدِيدُ السواد ، ثمّ قال لَوْنُ أَسْوَدِ . وفى إضافَةِ لون إلى أَسْوَدَ مالا يُرتَضَى . وأَجْوَدُ من هذا أن يُروى : حالكُ اللّون أَسْوَدِى » وهو يريد أسودِيٌّ ، كما قيل فى الأحمر الأحْمَرِيُّ ، وفى الدّوّار دَوّارِيٌّ ، ثمّ خُفِّفت ياء النسبة بحذف أحدِها ، وهو الأوّل ، وجعل الثانى صِلَة .

١١ ـ فإنْ يَكُ عبدُ اللهِ خَلَّى مَكَانَهُ فَمَا كان وَقافاً ولا طَائشَ اليَدِ

قوله « خَلَّى مكانَهُ » أى مَضَى لسبيله . والوَقّافُ : الجبان المتوقِّفُ فيما يَعِنُّ له عَجْزًا وضعفَ قلب . ويقال : وَقّافَةٌ أيضاً ، والهاء للمبالغة ، والطائشُ : الخفيف ، ومنه الطَّيَّاشُ . ويقال : هو طائشُ السَّهمِ ، إذا عَدَلَ سهمُه عن الهَدَف ولم يَقْصِدْ قَصدَه ؛ ثم يُقال : هو طائشُ اليَدِ ، إذا كان فيما يتولّاهُ من الأعمال كذلك . يقول : إنْ كان عبد الله تُوُفِّيَ وخَلَّى ما كان يَسدُّه بنفسه وغَنَائه من أمرِ العشيرة وسياستهم ، فلقدْ كان مِقدامًا صائبَ الرّأى ، حليمًا فيما يأتيه ، لا يَطِيشُ زَهواً ، ولا يُؤْثِرُ على الصّواب شيئا .

١٢ ـ كَمِيشُ الإزارِ خَارِجٌ نِصفُ سَاقِهِ بَعِيدٌ من الآفاتِ طلّاعُ أَنْجُدِ

الكَمْشُ والكَمِيشُ : الخفيف السّريعُ الحركة . يقال : انكَمِشْ فى حاجتِك ، أى تَخفَّفْ وأسرِع . وأضافَ الكَمِيشَ إلى الإزار على المجاز كما يُقالُ : عفيف الحُجْزةِ ، ونَقِيُّ الجيب . وقوله « خارجٌ نِصْفُ سَاقِهِ » يصفه

بالتَّشمُّر . وقد قيل : هو عَارِى الظُّنوب ، فى هذا المعنى . قال :

* عَارِى الظَّنَابِيبِ مُمْتَدٌّ نواشِرُهُ[(١)] *

وقد يُرَادُ بهذا قِلَّة اللَّحْم والهُزال . وقوله « بعيدٌ من الآفاتِ » يريدُ أنَّه لا داءَ به ولا غائلةَ ، فهو سالِمُ الأعضاء متين القُوَى . ومعنى « طَلاعُ أنْجُد » أنّه يتصعَّدُ فى دَرَج السُّموّ . ويقال طَلَّاعُ أنجِدَةٍ أيضًا ، قال :

* طَلَّاعِ أنْجِدَةٍ فى كشحِهِ هَضَمُ[(٢)] *

فأنجِدَةٌ جَمْعُ نِجَادٍ ، ونِجادٌ جَمْعُ نَجدٍ . فأما أنجُدٌ ، فالأصلُ أن يكون لأدنَى العَدد وقد استُعير للكثير ، لأنّه كفَلْسٍ وأفْلُس . وهم كما يضعون بناء القليل للكثير والكثيرِ للقليل فى أصلِ الوَضْع ، يَستعيرون بناءَ القليل للكثيرِ وإنْ كان بناء الكثير قد استُعمل أيضا . يكشف هذا أيضا أنّهم يقولون : رَسَنٌ وأرسَانٌ ، فوضعوه للكثير وإن كان فى الأصلِ للقليل ؛ وقالوا دِرهَمٌ ودَرَاهِم فوضَعُوهُ للقليل . وقال الله تعالى : ﴿ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴾ يريدُ أهلَ الجنّة . فوَضَعَ الغُرُفَاتِ موضع الغُرَف على الاستعارة .

١٣ — قليلُ التَّشكِّى للمُصِيباتِ حافِظٌ   من اليَوْمِ أعْقَابَ الأحاديثِ فى غَدِ

يريدُ بقوله « قليلُ » نَفْىَ أنواعِ التشكِّى كلِّها عنه . على هذا قوله تعالى : ﴿ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ، وقولُهم : قَلَّ رجلٌ يقول ذاك ، وأقَلُّ رجلٍ يقولُ ذاك . والمعنى : أنَّه لا يتألَّمُ للنَّوائب تنزلُ بساحته ، والمصائبِ تتجدَّد عليه

---

(١) البيت لتأبط شراً فى القصيدة الأولى من المفضليات وعجزه :

* مدلاج أدهم واهى الماء غساق *

(٢) البيت لزياد بن منقذ ، وهو المعروف بالمرار العدوى . وصدره فى اللسان (نجد) :

* يغدو أمامهم فى كل مربأة *

من أبيات أولها :

كم فيهم من فتى حلو شمائله   جم الرماد إذا ما أخمد البرم

فى ذويه وعشيرته ، وأنَّه يحفظ من يومه ما يتعقَّبُ أفعالَه من أحاديثِ النَّاسِ فى غَده ، فهو نقىُّ الأفعالِ من العُيُوبِ ، طيِّبُ الأخبار فى أفواه الناس ، صَبورٌ على العَزَّاء .

١٤ — تَرَاهُ خَمِيصَ البَطْنِ والزَّادُ حاضِرٌ عَتِيدٌ وَيَغْدُو فى القَمِيصِ المُقَدَّدِ

مِثلُ المصراع الأوَّل قولُ الآخر[١] :

* يابِسُ الجَنْبَيْنِ من غَيْرِ بُوسٍ[٢] *

يَصفه بقِلَّةِ الطُّعْمِ مع اتّساع الحال ، وطاعَةِ الزاد ، فيقولُ : تَرَى بطنَهُ منطويًا والزَّادُ مُعَدٌّ ، لأنَّه يُؤْثِر به غيرَه على نفسه ، ولأنَّه لا نَهْمَةَ ثَمَّ ولا حِرصَ على عِمارة البَدن ، ولا على استسراء الثِّياب ، فهو يَغدو فى القميص المُمَزَّق ، إذْ كان يبتذِلُ نَفسَه فيما كان يَكْسِبُه فَخْرًا وعُلُوًّا[٣] . ويقال : عَتُدَ فهو عَتِيدٌ عَتادًا ، وأَعتَدْتُه أنا . ومنه سُمِّىَ العتيدةُ التى يكونُ فيها الطِّيبُ ، والعَتَدُ بفتح التاء وكسرها : الفَرسُ المُعدُّ للمِهمَّات من الطَّلب والهرب وغيرِهما ، الذَّكرُ والأنثى فيه سواء .

١٥ — وإنْ مَسَّهُ الإقْوَاءُ والجَهْدُ زَادَهُ سَمَاحًا وإتْلَافًا لِمَا كانَ فى اليَدِ

يقول : وإن اتَّفق عليه إعسارٌ ونَفادُ زاد ، وجَهدٌ من نكد الزَّمان وإعوازٍ زادَه سخاءً وإتلافًا للمال ، جَرْيًا على عاداتِه التى أَلِفَها ، لا يَهْضِمُهُ ضُرٌّ ، ولا يَلِينُهُ فَقر . ويقال : أَقْوَى الرَّجلُ ، إذا نَفِدَ زادُه . ويقال : زادَ الشىءُ ضِدّ نقَص ، وزدته أنا فازداد . وفى طريقته قولُ الآخر :

قَدْ جَعَلَ اللهُ فِيكَ قَلْبًا يَأْبَى على الشُّغْلِ أن يَضِيقَا

(١) هو تأبط شراً ، من الحماسية ٢٧٣ .

(٢) عجزه : * وندى الكفين شهم مدل *

(٣) يكسبه ، ضبط فى جميع النسخ بفتح الياء ، يقال أكسبه مالا ، وكسبه أيضاً .

١٦ — صَبَا ماصَبَا حتّى عَلَا الشَّيْبُ رَأْسَهُ فلمَّا عَلَاهُ قال للبـــاطِلِ ابْعَدِ

يجوز أن يكون صبا الأوّل من الصِّبا واللّهوِ ، وصَبَا الثانى من الصَّبَاء بمعنى الفَتَاء ، فيكون المعنى : تعاطَى اللّهوَ والصِّبا ما دامَ صبيًّا ، فلما اكتهلَ وظَهر فى رأسه الشَّيبُ فاشتَغل نَحَّى الباطِلَ عن نفسِه زُهدًا فيه ، ورجوعًا إلى الحقِّ ، ورغبةً فيما يَكسِبُه لأحدوثَةَ الجميلةَ من أبوابِ الصَّلاحِ والجِدِّ . ويجوز أن يكون المعنى : تعاطَى الصِّبا ماتعاطاه إلى أن علاهُ المَشِيبُ ، فيسقط التجنيس من البيت ، وهو يَحسُن به . وما صَبَا فى موضع الظَّرف على الوجهين جميعًا ، أى مُدَّةَ الأمرين . وحتَّى للغاية . وقوله « ابْعَد » من بَعِدَ يَبْعَدُ ، إذا هَلَكَ . ولو أرادَ البُعد لقالَ ابْعُدْ ، بضمّ العين . وجَرَى أبو نُواسٍ فى هذه الطريقة لمّا قال :

قَدْ عَذَّبَ الحبُّ هذا القلْبَ ما صَلَحَا فَلَا تَعُدَّنَّ ذَنْبًا أن يُقالَ صَحَا

١٧ — وطَيَّبَ نَفْسِى أَنَّنِى لم أَقُلْ لَهُ كَذَبْتَ ولم أَبْخَلْ بما مَلَكَتْ يَدِى

أَنَّنِى فى موضع الفاعِلِ لطيَّبَ ، وليس القصدُ إلى أنَّه لم يَقُل له كَذَبْتَ قَطُّ ، وإنما المُرادُ أَنّى لم أَجْفُهُ بأدْوَنِ ألفاظ الجفاء . على ذلك قولُ الله تعالَى فى الوَصَاةِ بالوالدين وتنزيهِهما عن قبائحِ القولِ والفِعل : ﴿ وَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ فأفٍّ الأصـلُ فى صيانتِهما عن الخَنَا وفُحْشِ القولِ ، والنَّهْرُ الأصل فى تَركِ إيذائِهما بالفِعْلِ والزَّجرِ . فيقولُ : سَلّانى طاعتى له واحتشامى منه مُدَّةَ حَيَاتِه ، وإعطائى إيّاهُ فى القول عند مخاطبتِه ، والفِعْلِ وقتَ مجالَسته ولَدَى مُعاملتِهِ . وأشار إلى القول بقولِه « لم أَقُلْ له كَذَبْتَ » وإلى الفعلِ بقوله « ولم أَبْخَلْ بما مَلَكَتْ يَدى » . والمعنى لم أبخَل بملك يدِى عليه ، فحذف عليه كما يحذَفُ للفعول إذا دلّ عليه الكلام .

٢٧٢

وقال أيضا :

١ — تقولُ ألا تَبْكِي أخاكَ وقد أرَى مَكَانَ البُكَا لكِنْ بُنِيتُ عَلَى الصَّبْرِ

٢ — فقلتُ أعبدَ اللهِ أَبْكِي أمِ الّذِي لَهُ الجَدَثُ الأعْلَى قَتِيلَ أَبِي بَكْرِ (١)

يقول : اجتمعَتْ عليَّ المصائب والرَّزايا فاقتسمَتْني ، فإذا دُعِيتُ إلى البُكاء على أخي ، أرَى البُكاء يَحِقُّ له لِفاقتي إلى حياتِه ، وتكامُلِ فَضله في نفسه ، لكنِّي وُجِدْتُ صبورًا إذْ كانت عليه بِنْيَتي ، وإذ صار دَيْدَني ودأْبِي وقولُه « مكانَ البُكا » بيانُ استحقاقِ أخيه البكاءَ عليه . وقد قَصَرَ البكاء ، وللشّاعرِ أن يَقْصُرَ الممدود باتفاقٍ من المذهبَين . وفي طريقته قول الآخر (٢) :

ولو شِئتُ أن أبْكِي بُكاً لبَكَيْتُه عليْكَ ولكن ساحةُ الصَّبْرِ أوْسَعُ (٣)

وقوله « فقلتُ أعبد الله أبكِي » ، كَشَفَ به [عن (٤)] تَوَالِي الرَّزايا ، وأنَّ جَلَدَه متوَزَّعٌ فيها ، فكأنّه قال : إلى مَن أصرِف البُكا ، ومَن أخُصُّ به أعبدَ الله أم المَدفونَ في القَبرِ الأعلى قتيلَ أبي بكر بن كِلاَب . وقوله « الأعلى » يريد الأشرَف ، ويجوز أن يُريدَ الأعلَى في مكانِه وموضِعِه . والجَدَثُ : القبر ، وكذلك الجَدَف ، وجمعه الأجداث . وفي القرآن : ﴿ فإذا هُمْ مِنَ الأجْدَاثِ إلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴾ . وانتَصَبَ عبد اللهِ بأبْكِي ، وقتيلَ على البدَلِ من الذي .

---

(١) في الأغاني (٩ : ٢) : « وكان للدريد إخوة ، وهم عبد الله الذي قتله غطفان ، وعبد يغوث قتله بنو مرة ، وقيس قتله بنو أبي بكر بن كلاب ، وخالد قتله بنو الحارث بن كعب » .

(٢) هو إسحاق بن حسان الخريمي . معاهد التنصيص (١ : ٨٤) .

(٣) يروى : « أن أبكي دما » . (٤) هذه من م ، ل والتيمورية .

٣ — وعَبْدُ يَغُوثَ تَحْجُلُ الطَّيْرُ حَوْلَهُ وعَزَّ المُصابَ جَثْوُ قَبْرٍ على قَبْرِ

نَبَّهَ بقوله « تَحْجُل الطّيرُ حَولَه » على أنه تُرِك بالعَراء ، وعوافِي الطّير تأ كله ، فلم يُدْفن ، وإنما قال تَحْجُل إشارةً إلى امتلاء حواصلها وثِقَلها ، فهي تحجُل حَوْله[1] ولا تَطيرُ . والحَجْل : مَشيُ المُقيَّد ، وتوثُّب الإنسان على إحدى رجليه وقد رَفعَ الأُخرى . ونَزَوانُ الغُرابِ حَجْله . وهذا الكلام تلهفٌ وتحزُّن . وقولُه « وعبدُ يغوثَ » وإن استأنفَ الكلامَ به فهو في المعنَى معطوف على ما قبلَه ، كأنّه قال : أيُّهُمْ أبكي وقد كثُروا . وقولُه « وعَزَّ المُصابُ » يُرْوَى المُصابُ بالرَّفع ويُراد بالمُصابِ المصيبة ، ويرتفع « جَثْوُ » على أنّه بدلٌ منه ، ويكون مفعولُ عَزّ محذوفًا ، كأنه قال : وعَزَّ الشاعِرَ المصيبةُ جَثْوُ قبرٍ على قبر . وإذا روَيتَ « وعَزّ المصابَ » بالنّصب ، يكون المُصابُ الشاعِرَ ، وجَثْوُ قبرٍ هو الفاعل ، والمعنى غَلَبَهُ تَوالِي المصائب عليه . وقولُه « جَثْوُ قَبْرٍ عَلَى قَبْرٍ » أي حصول الواحد في إثْر الواحد . ويقال : جَثا لِرُكْبَته ، وفي القرآن : ﴿ حَوْلَ جَهَنَّمَ جُثِيًّا[2] ﴾ ، أي لازمينَ لرُكَبِهم لا يستطيعون القيام . واستعمالُ الجُثُوِّ مجاز هنا ؛ لأنّ القبر لا يجثو . والجُثوةُ من التُّرابِ وغيره : ما جُمِعَ ، وبه سُمِّي القبر جُثوة . وروى بعضُهم : « حَثْوُ قبرٍ على قبرٍ » فجَعل الحَثْوَ للقبر ، وإنما يُحْثَى عليه[3] ، كما قال :

(١) هذا ما في التيمورية وفي سائر النسخ « حولها » .

(٢) وردت الآية بهذه القراءة في جميع النسخ ، وهي قراءة جمهور القراء ما عدا حمزة والكسائي . وكذلك يقرءون « عتياً » و « صلياً » كلها عندهم بضم أوائلها . وأما حمزة والكسائي فيقرآن بكسر أوائلها . تفسير أبي حيان (٦ : ٢٠٨) .

(٣) كذا فهم المرزوقي ، أما ابن جني فقد قال في التنبيه : « حثو قبر على قبر ، أي حثو قبر عقيب حثو قبر . فعلى هذا صفة لحثو ، كقولك ولد له عشرون ولداً رأساً على رأس ، أي تابعاً وتالياً » .

* وما مِنْ قِلًى يُحْثَى عليه من التُّرْبِ *

وروَى بعضُهم « وعَزَّى » والمعنَى سَلَّى المُصابَ ، أى نفسَه ، من البُكاء والتحزُّن ، توالى الأرزاء عليه ؛ فإنه تَمَرَّن بها ، فصار يصبِرُ عليها . ويكونُ فى هذا مُلِمًّا بمعنى قول الآخر[(١)] :

فَقَدْ جَعَلَتْ نَفْسِى على النَّأْيِ تَنْطَوِى وعَيْنِى عَلَى فَقْدِ الصــــديقِ تَنَامُ

٤ — أَبَى القَتْلُ إلَّا آلَ صِمَّةَ إنَّهُمْ أَبَوْا غَيْرَهُ والقَدْرُ يَجْرِى إلى القَدْرِ

يقولُ : لم يَرضَ القتلُ إلَّا آلَ صِمَّةَ لأنّهم الكرامُ ، والدّهر يأبَى فى الاختيار أن يكونَ حظه من غيرهم ، كما أنّ آلَ صِمَّةَ لم يرضَوْا من أحداثِ الزَّمان فيهم إلَّا بالقتل ، إذْ كان ذلك عندهم أحسنَ المِيتَات وأكرمَها وقولُه « أبى القتلُ إلّا آلَ صِمَّةَ يُشبهه قولُ الآخَر[(٢)] :

أَرَى المَوْتَ يَعْتَامُ الكِرامَ ويَصْطَفِى عَقِيــــلَةَ مالِ الفاحِشِ المُتَشَدِّدِ

وقولُه « إنّهم أبَوْا غيرَهُ » يشبِهُهُ قولُ الآخر[(٣)]:

* وما ماتَ مِنَّا مَيِّتٌ حَتْفَ أَنْفِهِ[(٤)] *

وقولُه « والقَدْر يجرى إلى القَدْرِ » يريد كما قُدِّرُوا للقتل قُدِّرَ القتلُ لهم ، لأنّهم بما اجتَمَع فيهم من الخِصال الشَّريفة التى يختارها الدّهرُ لنوائبه ، كأنّهم خُلِقوا للدَّهرِ ولتأثيرِه الذى هو القتل ، لأنّ القتلَ لما كان أشرف أسباب الحَتْف عندهم فأحَبُّوهُ ومالوا إليه ، صاروا لذلك كأنّ القَتْل خُلِق لهم .

(١) هو عبد الصمد بن المعذل ، أو الحسين بن مطير ، كما سبق فى حواشى الحماسية ٧٧ ص ٢٧٣ .

(٢) هو طرفة بن العبد ، فى معلقته .

(٣) هو السموأل ، كما سبق فى الحماسية ١٥ .

(٤) عجزه : * ولا طل منا حيث كان قتيل *

٥ – فإمّا تَرَيْنَا لا تَزَالُ دِمَاؤُنا لَدَى وَاتِرٍ يَسْعَى بها آخِرَ الدَّهْرِ

٦ – فإنّا لَلَحْمُ السَّيْفِ غَيْرَ نَكِيرَةٍ ونُلْحِمُهُ حِينًا ولَيْسَ بِذِى نُكْرِ

جواب إمّا أوّلُ البيت الذى يليه ، وهو فإنّا . والفاء من فإنّا رابطةٌ ما بعدها بما قبلها ، ولا تَزَالُ دماؤنا إلى آخر البيت فى موضع المفعول لتَرَيْنَا ، ولَدَى واترٍ لفظه واحدٌ والمُراد به الكَثْرة . وآخِرَ الدَّهْرِ : ظرفٌ ، والعاملُ فيه « لا تزالُ دماؤنا » لأنّ المعنى إمّا تَرَيْنَا لا تزال دماؤنا أبَدَ الدّهر لدَى واترِين يَسعَون بها . ولا يجوز أن يكون العاملُ فيه يَسْعَى بها ، لأنّ فيه إيهامًا أنهم لا ينالُون الوِتْر من الواترين سريعًا ، ولكنّهم يَسعَونَ بدمائهم أبَدَ الدّهر . وهذا الكلامُ كالاعتذار من كثرة القتلِ فيهم، فيقول: إن اتّصلَ القتلُ فينا حتّى نرَى دماءنا أبَدَ الدّهر لدى واترين ، فإنّا لحبِّنا للقتل طُعْمُ السُّيوفِ حقًّا غيرَ ذى إنكارٍ ولا امتراء ، وكما تَتَطَعَّمُ مِنّا فإنّا نُطْعِمُها أيضًا مِن غيرنا ، فنَجعل أعداءنا لُحمةً لها غيرَ ذى شكٍّ ولا مِرْيةٍ . وقوله « غير نكيرةٍ » انتصَب على المصدر وأكثرُ ما يُستعمل نكيرٌ بغير الهاء فالنُّكر والنَّكير ، كالعُذْرِ والعَذِيرِ والعُذْرَى . ومثلُ هذا المصدر يؤكِّدُ به الكلام الذى قبله ، ويجرى مجرى حَقًّا وما أشبهه . ويجوز أن يكون الهاء من النَّكيرة للمبالغة(١) . وقولُه « ونُلحِمُه حينًا » فالحينُ اسمٌ للزمان المتّصل ، فكأنّه قال : ونُلْحِمُهُ فيما يتّصلُ من الأوقات . وليس يُرِيدُ حينًا من الأحيان . وإن رُوِى « غير نكيرِه » على أن يكون الضميرُ منه يَعودُ إلى السَّيْفِ كأنّه قال : غَيْرَ منكورٍ له ، فيجعَلُه حالًا لِلَّحم ، فليس بجيِّد ؛ لأنّ القَصدَ إلى تأكيد الكلام بهذا المصدر ؛ فكما أنّ

(١) زاد ابن جنى رأياً آخر انفرد به ، وهو قوله : « يجوز أن يكون غير هذا ، وهو أن يريد به النكرة التى هى ضد المعرفة ، ثم أشبع كسرة الكاف فأنشأ عنها ياء ، مثلها فى الصياريف والمطافيل » .

فى آخر البيت قولَه « وليس بذى نُكرٍ » تأكيدٌ لما قبلَه ، كذلك يجب أن يكون غيرَ نَكيرةٍ هكذا ، ليتقابل الصَّدْرُ والعَجْز على حَدٍّ واحدٍ من التَّأكيد وحصول هاء التأنيث فى نَكيرةٍ لا يجب أن يُنكر ، كما لا يُنكَرُ فى قولهم نكرةٌ ومعرفةٌ ، وكما لا يُنكَرُ الألف فى آخر ذِكرَى وعُذْرَى .

٧ ـ يُغارُ عَلَيْنَا واتِرِين فَيُشْتَفَى بِنَا إنْ أُصِبْنَا أو نُغيرُ عَلَى وِترِ

نَبَّهَ بقوله « فَيُشْتَفَى بنا » أنَّهم الثَّأرُ المُنيمُ ، فإذا أصيبت دماؤهم كان فيها للأعداء الشِّفاء . وانتصبَ على الحال من الضمير فى علينا . وقولُه « أو نُغيرُ على وترٍ » ، يريدُ على وترٍ لنا عندهم ، فكأنه قال : أو نُغيرُ على واترين لنا . وقد سَلكَ الأعشى هذه الطَّريقَة ، فلم يُوَفِّ القِسمةَ حقَّها كما فعل هذا ؛ لأنه قال :

فأظعنتَ وِترَكَ من دارِهم ووِترُكَ مِنْ قَبْلِهم لم يُقِمْ

والمعنى أزعجتَ الوِتْرَ الذى كان لك عندهم من دارهم ، على عادتِك مع سائر الناس من قَبْلُ فى إدراكِ الثَّأرِ سريعًا ؛ لأنَّ قوله « ووِترُكَ من قَبلهم لم يُقِمْ » إشارةٌ إلى أنه لا يُمهِلُ ولا يُهمِلُ فوِترُه لا يَتَلَوَّمُ عند الأعداء .

٨ ـ قَسَمْنَا بِذاكَ الدَّهرَ شَطْرَيْنِ بَيْنَنَا فَمَا يَنْقَضِى إلّا ونَحْنُ عَلَى شَطْرِ

أشار بقوله « ذاك » إلى ما تقدَّم ذكرُه من تردُّدِه فى مجاذَبة الأعداء طالبينَ مَرَّةً ، ومطلوبين أخرَى . وانتصب « شَطْرَين » على المصدر ، كأنه قال : قَسَمنا الدَّهر قسمين . ويجوز أن يكون حالًا على مَعنَى قَسَمناهُ مختلفًا ؛ فوقَع الاسمُ موقعَ الصِّفَةِ لمَّا تَضَمَّن معناهُ ، كما تقول : طَرحْتُ متاعِى بعضَه فَوْقَ بَعْضٍ ، كأنك قلتَ متفرِّقًا . والمراد : جَعَلنا أوقاتَ الدَّهر بيننا وبين أعدائنا مقسومَةً قسمين ، فتراها لا ينقضى شىءٌ منها إلا ونحن فيه على أحَدِ

الحدَّين . إمَّا أن تكونَ لنا الكَرَّةُ عليهم فنُدال منهم . وإما أن تكونَ لهم الجولَةُ علينا فيُنالَ مِنَّا .

٢٧٣

وقال تَأَبَّطَ شَرًّا[(١)] :

وذُكِرَ أنه لخَلَفٍ الأحمرِ ، وهو الصَّحيح[(٢)] .

١ — إنَّ بالشِّعْبِ الذى دُونَ سَلْعٍ   لَقَتِيـــلًا دَمُهُ ما يُطَلُّ

يجوز أن يكون ذكر الشِّعبَ الموصوفَ لأنَّ قَبر ذلك القَتيلِ كان فيه ، ويجوز أن يكون ذَكَره لأنَّه قتِل عندَهُ ، وهو فى اللُّغة ما انفرج بين جبلين ونحوها . والسَّلْعُ بفتح السين وكسرِها : شَقٌّ فى الجبَل ، ومنه سَلَعْتَ رأسَه ، أى شققته . وقولهم هادٍ مِسْلَعٌ[(٣)] ، أى يَشقُّ أجوازَ الفلاة . وقوله « دَمُه ما يُطَلُّ » من صفة القتيل ، والمعنى أنِّى فى طَلَبِ ثأره ، فدَمُه لا يَذهب هَدَرًا . والطَّلُّ : مَطْلُ الدَّم والدِّية وإبطالُهما . وقال :

* أزُهَيرُ ليسَ أبوكَ بالمطلُولِ *

---

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ١١ ص ٧٤ .

(٢) وعبارة التبريزى مطابقة لهذه ، وزاد : « وقيل : قال ابن أخت تأبط شراً . قال النمرى : ومما يدل على أنها لخلف الأحمر قوله فيها :

* جل حتى دق فيه الأجل *

فإن الأعرابى لا يكاد يتغلغل إلى مثل هذا . قال أبو محمد الأعرابى : هذا موضع المثل : ليس بعشك فادرجى . ليس هذا كما ذكره ، بل الأعرابى قد يتغلغل إلى أدق من هذا لفظاً ومعنى . وليس من هذه الجهة عرف أن الشعر مصنوع ، لكن من الوجه الذى ذكره لنا أبو الندى . قال : مما يدل على أن هذا الشعر مولد أنه ذكر فيه سلْماً ، وهو بالمدينة ، وأين تأبط شراً من سلع . وإنما قتل فى بلاد هذيل ورمى به فى غار يقال له رخمان . وفيه تقول أخته ترثيه :

نعم الفتى غادرتم برخمان   بثابت بن جابر بن حيان

* من يقتل القرن ويروى الندمان * » .

والقصيدة فى العقد (٣ : ٢٩٨ — ٣٠٠) طبع لجنة التأليف ، بزيادة بعض أبيات وخلاف فى الرواية .

(٣) انظر ما سبق فى حواشى حماسية ابن السلمانى ص ٧٥٩ .

٢ – خَلَّفَ العِبْءَ عَلَيَّ وَوَلَّى أنا بالعِبْءِ لَهُ مُسْتَقِلُّ[1]

أراد بالعبء طَلَبَ دَمِه والنَّيلَ من عَدُوِّه . وقوله «أنا بالعِبْءِ له مستَقِلٌّ» تحقيقٌ للوعد بإدراك الثَّأر ، وإظهارُ اقتدارٍ على النِّكاية فى الأعداء . وقوله « لَهُ » أى من أجل المرثىّ ، وإنَّما سُمِّىَ الثِّقْلُ عِبْئًا لأنَّه من عَبَأْت المتاعَ أعبؤُه عَبْئًا ، ثم يُسمَّى المَتاعُ عِبْئًا ، فهو كالنِّقضِ والنَّقْض . وكثُر استعماله حَتَّى تسمَّحُوا به فيما يدخُل من الثِّقل على القَلب ولا يُحمَلُ على الظهر .

٣ – ووَرَاءَ الثَّأْرِ مِنِّى ابنُ أُختٍ مَصِعٌ عُقْدَتُهُ ما تُحَلُّ

أعطَى فيما اجتَمَعَ من الوصف التَّرتيبَ حقَّهُ ، وذلك لأنَّه اجتَمَع مفردٌ وجُملةٌ فى صفةِ « ابنِ أُختٍ » فقَدَّم المُفرد على الجملة ، وهذا وجهُ الكلامِ وحقُّه ؛ لأنّ الجملة إنَّما وُصِفَ بها لوقوعها موقع المُفرد ، فإذا صاحَبها مفرد كان الأَولى تقديمَه ، وإذا كان كذلك فعُقْدتُه ارتَفع بالابتداء ، وما تُحلُّ خَبرُه . والمَصِع : الشَّديد المقاتَلة الثّابتُ فيها . ويعنى بوراء هاهنا الخلفَ ، وإن كان يصلُح للقُدّام . وفى هذا الكلام ضَربٌ من الوعيد ، كأنّه يجرى مجرى قولِ القائل : الله من ورائِكَ . ويُريدُ : وفى طَلَبِ الثأر من جهتى ابن أُختٍ هذه صِفَتُهُ ، ويعنى به نفسَهُ . ويجرى هذا المجرى قول الشَّنفَرَى :

همت وهَمّتْ وابتدرنا وأسدلت وشَمَّر مِنِّى فارطٌ مُتَمَهِّلُ

والفارط المتمهِّل هو الشَّنفرَى . وقوله « عُقدَتُه ما تُحَلُّ » يجوز أن يريد ما يَعقِده برأيه أو يُحْكمه لا يُنقَضُ . ويجوز أن يريدَ به قُوَّتَه وجلادته ، وتكون العُقدةُ راجعةً إلى استحكام خَلْقِه وصَبرِه فى الشَّدائد .

(١) فى العقد : « قذف العبء » .

٤ — مُطْرِقٌ يَرْشَحُ مَوْتًا كما أَطْـ رَقَ أَفْعَى يَنْفِثُ السَّمَّ صِلُّ[1]

شَبَّهَ نفسَهُ فى إطراقِهِ وسكونه ، منتظراً لفرصةٍ ينتهزها فى إدراك ثأره بالحيّة ، وأنّه فى إمساكه يرشَحُ بالموتِ لعدُوِّه كما أن الحيّة إذا أطرقَ نَفَثَ بالسّمّ . والرّشْح كالعرَق ، والنَّفْث ، كالقَذْف . والصِّلُّ من صفة الأفعى ، ويُوصف به الداهية وكلُّ خبيث ، يقالُ : هو صِلُّ إصلالٍ ، كما يقالُ داهيةُ دَوَاهٍ . وأسماءالحيّات وصفاتُها تُستعارفى الدّواهى كثيرا . والأفعى مؤنّثة، وذكَرُها الأُفْعُوان . وقال الخليل : الأفعى حَيّةٌ قصيرةٌ عريضةُ الرأس . وينوّن فيقال أفعًى ، وبعض طيّئٍ يقلِبُ ألِفَهُ واوًا فيقول أفْعَوْ[2] ، وبعض قيسٍ يقلبها ياء فيقول أفْعَىْ . ومنه تفعَّى فلانٌ ، إذا ساء خُلُقُه . وقال سيبويه : صَرْفُه أكثر وأجود . ويصلح للذّكر والأُنثى . والأُفعُوان الذّكر لا غير .

٥ — خَبَرٌ ما نَابَنَا مُصْمَئِلٌ جَلَّ حَتَّى دَقَّ فيه الأَجَلُّ[3]

٦ — بَزَّنِى الدَّهْرُ وكانَ غَشُومًا بِأَبِيٍّ جَــارُهُ ما يُذَلُّ[4]

يعنى بالخبر نعىَّ المتوَفَّى ؛ وقد استعظَمَهُ وجعلَهُ داهيةً منكَرةً حتّى علا شأنُهُ وجَلّ عن أن يُضْبَط بوصفٍ ، أو يُحَدَّ بنعت ، فلذلك قال « جَل حتّى دَقَّ فيه الأجَلُّ » . ويقال داهيةٌ مُصْمَئِلّةٌ ، إذا اشتدّت . والأجَلُّ تأنيثُه الجُلَّى ، والألف واللام فيه بدلٌ من الإضافة النّائبة عن مِن فى قولهم : هو أجَلُّ

(١) التبريزى والعقد « يرشح سما » .

(٢) هكذا ضبطت فى ل هى و « أفعى » التالية بسكون آخرها . وكذلك وردت « أفعو » ساكنة الواو فى اللسان (فعا) فى حديث ابن عباس : « لا بأس بقتله الأفعو ، ولا بأس بقتل الحدو » ، ثم قال : « ومنهم من يقلب الألف ياء فى الوقف ، وبعضهم يشدد الواو والياء » .

(٣) مصمئل ، وردت بعدم التنوين فى الأصل ، وبالتنوين فى سائر النسخ . وانظر ما سبق فى حواشى ٨٠٧ .

(٤) كذا ضبطت فى ل . وكتب فوق الكلمة « معا » ، لتقرأ بالقراءتين .

من كذا، ومعناه الجليل . وقولُه « بَزّنى الدّهرُ » أى غلَبنى واستَلَبنى . وقوله « بأبِىّ » الباء دخلَتْ للتّأكيد زائدةً ، كأنّه قال : بَزّنى الدّهرُ أبِيًّا . ومثلُه قول الآخر(١) :

* سُودُ المحاجِرِ لا يَقْرَأْنَ بالسُّوَرِ(٢) *

ويجوز أن يكون عَدَّى بَزّنِى بالباء لمّا كان معناه فَجَعَنى ، ويكونَ من باب ما عُدِّى بالمعنى دون اللّفظ ، كقوله :

إذَا تَغَنّى الحمامُ الوُرْقُ هَيَّجَنِى ولو تعزّيْتُ عَنْها أمَّ عمّـارِ(٣)

وقولُه « جارُه ما يُذَلُّ » من صفة الأبِىّ . والأبىُّ المتصعِّبُ المتمنِّع . والغَشْمُ : الظُّلم والقَهر. وقوله « وكان غَشُومًا » يعنى به الدّهر ، وهو اعتراضٌ بين الفاعل والمفعول ، ومثلُه يتأكّد به الكلام . وقوله « يذلُّ » يُروى بفتح الياء ، ويُذَلُّ على ما لم يُسَمَّ فاعلُه ، والمعنى ظاهر ، وصَفَه بأنّه كان عزيز الجار محمِىَّ الفِناء ، وأنّه كان له عُدَّةً على الدّهر ، وسلاحًا معه فاستلبَه منه .

٧ — شامِسٌ فى القُرِّ حتى إذا ما ذَكَتِ الشِّعْرَى فبَردٌ وظِلُّ

٨ — يابِسُ الجَنْبَيْنِ مِنْ غَيْرِ بُوسٍ ونَدِىُّ الكَفَّيْنِ شَهْمٌ مُدِلُّ

وصفَه بأنّه كان يُنتَفع به فى كُلِّ حالٍ وزمان ، ، وأنّه كان غِياثًا للناس فى حالَتِى السَّرّاء والضَّرّاء ، فكانَ الشّمسَ عند البَرد ، والظِّلَّ عند الحرّ . يقال : ذَكَتِ النّارُ تَذْكو ، وأذكيتها ، وكذلك أذكيْتُ الحربَ . ونَوء الشِّعرَى

(١) هو الراعى النميرى ، أو القتال الكلابى . انظر حواشى صفحة ٣٨٣ .

(٢) صدره : * هن الحرائر لا ربات أحمرة *

(٣) أى ذكرنى أم عمار . والبيت للنابغة الذبيانى فى معلقته برواية أبى زيد القرشى فى جمهرة أشعار العرب ص ٥٣ .

بشدّة الحرّ يجيء . ويقال للشّمس ذُكاء من ذلك . وقد جاء مثل هـذا فى النّسيب ، يقول ابنُ الرُّقيّات :

سُخْنَةٌ فى الشتاء باردةُ الصَّيْـــفِ هِلاَلٌ فى اللَّيلةِ الظَّلْماءِ

والمعنى أنّها للضّجيع فى الصَّيْف هكذا ، وفى الشتاء هكذا . وقد أتى الأعشى بهذين المعنيين فى بيتين ، وابنُ الرُّقيّات أتى بهما مع ثالثٍ لهما فى بيت واحد . وبيتُ الأعشى :

وتَبْرُدُ بَرْدَ رِدَاءِ العَـــرُو سِ بالصَّيْفِ رقرقْتَ فيه العبيرا[1]
وتَسْخُنُ ليــــلةَ لا يستطيـ عُ أَنْ ينبِحَ الـكلبُ إلّا هَرِيرَا[2]

وأما قوله « يابسُ الجنبين من غير بُوسٍ » يريدُ[3] أنه يُؤْثِرُ بالزّاد غيرَه على نفسِه . وعادتُهم التّمدُّحُ بالهُزال ، فهو كقول الآخر[4] :

تَراهُ خَميصَ البطْنِ والزّادُ حاضِرٌ عَتِيدٌ ويغدُو فى القَمِيص المُقَدَّدِ

وقولُه « نديُّ الـكفّين » ، أراد أنّه سخِيٌّ . ويقال : هو يتندَّى على أصحابه ، أى يتسخّى . والشّهم : الذّكيُّ الحديد ، ومنه قيل للقُنفُذ الشّيهم . والُمدِلُّ هو الواثق بنفْسه وبآلاته وعُدَّته .

٩ ــ ظاعِنٌ بالحَزْمِ حتّى إذا ما حَلَّ حَلَّ الحَزْمُ حَيْث يَحُلُّ
١٠ ــ غَيْثُ مُزْنٍ غامِرٌ حين يُجْدِى وإذا يَسْـــطُو فلَيْثٌ أَبَلُّ

وصَفَه بأنه مستعمِلٌ للحزم وآخِذٌ به ، ظاعنًا كان أو مقيما . وأشاد بقوله

---

(١) انفردت نسخة الأصل برواية : « عبيرا » .

(٢) اتفقت النسخ على ضبط « ينبح » بكسر الباء ، وهما لغتان ، يقال بكسر الباء وضمها .

(٣) كذا جاء جواب « أما » بدون الفاء ، وانظر ما سبق فى حواشى صفحة ٨١٤ .

(٤) دريد بن الصمة . الحماسية ٢٧١ .

« ظاعِنٌ » إلى غزَواته ، وأسفاره وغاراته ؛ وبقوله « حَلَّ الحزمُ حَيثُ يَحُلُّ » إلى شدَّةِ حذره فى إقامته ، ودوام اتِّقائه من الأعداء حتَّى لا ينسام ولا يَغفُل عنهم . وقولُه « غيثُ مُزْنٍ غامِرٌ حين يُجْدِى » وصَفه بأنّ منافعَه عامَّةٌ للخَلْق. والُمزنة : السَّحابةُ البيضاء . والغامر : الشَّاملُ جدواه وعطيَّتُه . وقوله « وإذا يسطو فليثٌ أَبَلٌّ » ، الأَبَلُّ : الفاجر المصمِّمُ الماضى على وجهه ، لا يُبالِى ما أَتِىَ . والمراد أنّه فى الإحسانِ بالغٌ أقصى الغايات ، وعند السَّطوة على الأعداء كاللّيث الـكثير الإفساد ، الشَّديد النِّكاية . والسَّطْوُ : البَسْط على الإنسان تقهرَهُ مِن فوق . ويقال : سطا عليه وسطا بِهِ . وقال الخليل : سُمِّى الفَرسُ ساطيًا لأنّه يسطو على سائر الخيل ، فيقوم على رجليه ويرفع يَدَيه .

١١ – مُسْبِلٌ فى الحىِّ أَحْوَى رِفَلٌّ ‏ ‏ ‏ ‏ وإذا يَغْزُو فسِـــمْعٌ أَزَلُّ

١٢ – ولَهُ طَعْمَانِ : أَرْىٌ وشَرْىٌ ‏ ‏ ‏ ‏ وكِلاَ الطَّعْمَينِ قَدْ ذَاقَ كلُّ

مفعول « مُسْبِلٌ » محذوفٌ . وصفَهُ بأنّه فى الحىّ – والحالُ سلامةٌ – يُسْبِلُ إزارَه خُيَلاء وكِبْرًا ، ويتبختر ذاهبًا فى التُّرْفةِ إلى أرفع الدَّرجة[(١)] ، وأنّه ذا غَزَا فهو كالسِّمع ، وهو الوَلدُ بين الذِّئب والضَّبُع ، وهو أخبَث السِّباع وأعداها . والزَّلَلُ : خِفَّةُ العَجُز ، وذلك خِلقتُه[(٢)] .

وقولُه « وله طَعمان أرْىٌ وشَرْىٌ » يريدُ به أنّه للمُوالِينَ كالأرْى – ويراد به العَسَلُ وإن كان فى الأصل عَملَ النَّحل – وللمُعادِينَ كالشَّرْى ، وهو الحنظَلُ .

---

(١) التبريزى : « والوجه الآخر فى مسبل أن يكون عاملا فى أحوى ، ويراد به مسبلا شعراً أسوى ، أى أسود ؛ لأنهم كانوا يوفرون لممهم . ويصفو الشاب بحسن اللمة . . . . ويدل على توفيرهم الشعور أنهم كانوا إذا أسروا الفارس من المذكورين جزوا ناصيته ليفتخروا بذلك » .

(٢) التبريزى : « والأزل : الأرسح ، وهو الممسوح العجز . وهم يصفون الرجل بذلك ويكرهونه للمرأة » .

ثم قال : وكِلاَ الطّعمين قد ذاق كُلٌّ ، أى كلٌّ واحدٍ من الطّعمين قد ذاقهُ كلُّ واحدٍ من قَبِيلَىِ الأعداء والأولياء . ومفعول ذاقَ محذوفٌ إذا جعلتَ كِلاَ مبتدأ ، كأنّه قال : قد ذَاقَهُ كلٌّ . والأجودُ أن تجعلَ كِلاَ مفعولَ ذاق ولا تجعلَه مبتدأً . ومثله : زيدًا ضرَبْتُ ألا ترَى أنّه يُختار على : زَيدٌ ضرَبْتُ . وكِلاَ اسمٌ موحَّدٌ يؤكَّدُ به المثنَّى ، كما أنّ كُلًّا اسمٌ مُوحَّدٌ يؤكَّدُ به الجمعُ . وهو مقصورٌ كَمِعًى ، وألفه منقلبَةٌ عن واو ، وهذا مذهبُ أصحابنا البَصريِّين ، والكوفيُّون عندَهُم أنَّه اسمٌ مثنًّى .

١٣ – يَرْكَبُ الهَوْلَ وَحِيداً وَلا يَصْـ ـحَبُـــهُ إِلّا اليَمانِى الأَفَلّْ

هذا كقولِ الآخَرِ[1] :

يَظَلُّ بِمَوْماةٍ ويُمسِى بغـــيرِها جَحِيشاً ويَعْرَوْرِى ظُهورَ المهالِكِ

والمعنى: أنّه لا يتكثَّرُ بالأصحاب إذا همّ باقتحامِ أمرٍ عظيمٍ ، وهَولٍ شديدٍ ، بل يتفرّدُ فيه مستصحبًا سيفَهُ الأفَلّ ، وهو الذى قد كثُر فُلولُه بكثرة الاستعمال . وانتَصَبَ « وحيداً » على الحال . وقولُه «ولا يَصْحَبُهُ» انعطفَ عليه ، وهو صِفَةٌ للوحيد[2] وتأكيدٌ للوَحدَةِ[3] .

١٤ – وفُتُوٍّ هَجَّرُوا ثمّ أَسْرَوْا لَيْلَهُمْ حتَّى إذا انْجابَ حَلُّوا

(١) هو تأبط شرا . الحماسية ١٣ ص ٩٥ .

(٢) أى صفة معنوية لا نحوية ، على أن الوجه أن تكون الجملة حالية مؤكدة معطوفة على الحال قبلها .

(٣) كذا وردت هذه اللفظة بفتح الواو فى جميع النسخ ، وهو رد على من أنكر صحة هذا الضبط . ويؤيد صحته ما ورد فى اللسان (٤ : ٤٦٢) : «وحكى سيبويه الوحدة فى معنى التوحد» ، وقد ضبطت بفتح الواو .

١٥ — كُلُّ ماضٍ قَدْ تردَّى بمـاضٍ كَسَنَا البَرْقِ إذَا ما يُسَلْ(١)

فُتُوٌّ: جمع فتًى، ولام فتًى ياء بدلالة قولهم فِتْيانٌ، لـكنّه بناهُ على مصدره وهو الفُتوّةُ، وهذا المصدرُ إنَّما جاء على هذا عِوَضا مِن حملِ بناتِ الواو على الياء كثير، فكأنَّهم أرادوا أن يحملوا ماهو من الياء على الواو أيضاً، وهو شاذٌّ(٢).

ومعنى هَجَّرُوا: ساروا فى الهاجرة. ويقال: جُبتُ الظَّلامَ واجتَبْتُه فانجابَ. وجُبْتُ المفازةَ: قطعتُها. يريدُ أنَّهم وصَلُوا السَّيرَ بالسُّرَى، فلمَّا انكشَفَ الظَّلامُ نزلوا. وقد اشتمل هذا الـكلامُ على جواب رُبَّ؛ لأنَّ قولَه حَلُّوا — وهو جوابُ إذا انجابَ — صار جَوَابًا لِرُبَّ أيضاً. ويقال: سَرَى وأسرَى بمعنًى واحِد. وقولُه «كل ماضٍ قد تَرَدَّى بماضٍ» يريدُ أنّ كلَّ واحدٍ من هؤلاء الفِتيانِ نافذٌ فى الأعمال والغَزَوَاتِ، وقد تقلَّدَ سيفاً نافذًا فى الضَّريبات، وإذا انتُزِع من غِمده لَمَعَ التماعَ البرق. ويقال: ارتدَى بسيفه وتردَّى واعتَطفَ به، ويسمَّى السَّيفُ الرِّداء والعِطافَ.

١٦ — فاحْتَسَوْا أنفَاسَ نَوْمٍ فلَمَّا ثَمِـلُوا رُعْتَهُمْ فاشْمَعَلُّوا(٣)

قوله «رُعْتَهُمْ» جواب لمَّا، ومعنى اشمَعَلُّوا جَدُّوا فى المُضِىّ. ويقال رجلٌ

---

(١) روى بعده التبريزى:

فادَّرَكنا الثَّأرَ منهمْ ولَمَّا يَنجُ مِلْحَيَّين إلَّا الأقلُّ

(٢) أما ابن جنى فيرى أن واوه قد تكون أصلية فلا شذوذ، قال فى التنبيه: «فتو طريف التصريف، وذلك أن لامه بدلالة قوله سبحانه: ودخل معه السجن فتيان. وفعول إذا كان مكسراً ولامه واو قلبت إلى الياء، وذلك نحو عصى ودلى وحقى. فأما أن تكون ياء ثم تقلب فى التكسير واوا فقلب القضية ونقض الطريقة. غير أن هذا متخرج على مذهب أبى الحسن الأخفش، وذلك أنه يذهب إلى أن لام فتى يصلح أن يكون واواً وأن يكون ياء، ولا قاطع عليه فى فتية ولا فتيان، لأن له أن يقول إنه كصبية وصبيان».

(٣) رواية التبريزى: «فلما هوموا».

مُشْمَعِلٌّ ، أى جادٌّ خفيف . والمعنى أنَّهم ساروا يَومَهم وليلتَهم ، وكلٌّ يرجِعُ من نفسه وسلاحِه إلى ما يُرتَضَى ويُعتَدُّ به ، ثم نزلوا وهوَّموا ، وناموا نومَةً خفيفةً مثل حَسْوِ الطَّير ماء الثَّمَد ، تمشَّت فى يَقَظتهم بقدر بيبها فى عُروقهم ، ومزاولتها لخفوتهم وسكونهم ، فلما صارُوا منها كالسُّكارى أنبهَتَهُمْ وبعثَتْهُم للارتحال ، نخفُّوا وأطاعوا . ودَلَّ بهذا الكلام على أنّ المَرثِيَّ كان رئيسَهم ومدبِّرَهم ، على زيادة غَنائه وذكائه ، وشهامته ومضائه ، وأنّه لما بعثَهُمْ جَدُّوا وخَفُّوا غيرَ مُتوقِّفين فى أمره ، ولا مُعتَلِّين على رأيه .

١٧ — فَلَئِنْ فَلَّتْ هُذَيْلٌ شَبَاهُ   لَبِمَا كانَ هُذَيْلًا يَفُــلُّ

١٨ — وبِمـا أَبْرَكَهُمْ فى مُنَاخٍ   جَعْجَعٍ يَنْقَبُ فيه الأَظَلُّ[(١)]

يقولُ : إن كان هُذَيلٌ قد تمكَّنَتْ منه فكَسَرت حدَّه وأتعسَتْ جَدَّه ، فهو بما كان يؤثِّرُ من قَبلُ فى هذيل فيطأُ حريمَها ، ويُكثِرُ قتيلَها . والعربُ تقول : هذا بذاك ، أى هو عِوَضٌ منه . واللام من قوله « لئن » موطئة لقَسَمٍ مضمَرٍ ، والتى فى قوله « لبما » جوابُ ذلك القسم . والشَّباةُ حَدُّ الشَّىء . ويقال : أشْبَى الرَّجلُ ، إذا أتى بأولادٍ نجباء يصيرُ له بهم حَدٌّ حديدٌ كشَبَا الأسِنّة . ويقال أيضاً : أشْبَيْتُ الرجل ، أى وجدت له شباة . حكاه أبو عمرو . ويجوز أن يكون « شَبْوَةُ » وهو اسم العقرب ، من الشَّبَا ، لإبرتها .

وقوله « وبما أبْرَكَهُم » معطوفٌ على لَبِما كانَ . والجَعْجَعُ : مُنَاخُ سَوء ،

---

(١) التبريزى : « وبما أبركها » برجوع الضمير إلى القبيلة . وقد روى التبريزى بعده بيتاً آخر ، هو :

وبِمـا صَبَّحها فى ذَرَاها   مِنه بَعْدَ القَتْلِ نَهْبٌ وَشَلُّ

الذرى ، بالفتح : الكنف والناحية . والشل : الطرد .

وهو الأرض الغليظة . والأظَلُّ : باطِنُ خُفِّ البعير . ومعنى[(١)] يَنْقَبُ أى يَحْفَى . والُمراد : وبما كانَ ينالُ منهم ويحملهم فيه على المراكب الصَّعبة ، ويُنزلهم له بالمنازل الحزْنة ، التى تؤثِّر فى أنفسهم وأموالهم . وهم يجعلون مثلَ هذا الكلام كنايةً عن التأثير القبيح . ويشبهه قول الآخر[(٢)] :

مَنْ يَذُقِ الحرْبَ يجِدْ طَعْمَهَا مُرًّا وتُبرِكْهُ بجعجـــاعِ

وقول الآخر[(٣)] :

لقد حَمَلَتْ قَيْسَ بنَ عيْلانَ حَرْبُنَا عَلَى يابِسِ السِّيسَاءِ مُحْدَوْدِبِ الظَّهرِ

وقول الآخر[(٤)] :

وحَمَلْنَاهُمُ عَلَى حَزْنِ ثَهْلَا نَ شِـلَالًا ودُمِّىَ الأنْسَاءِ

١٩ – صَلِيَتْ مِنِّى هُذَيْلٌ بِخِرْقٍ لا يَمَلُّ الشَّرَّ حـــتَّى يَمَلُّوا

٢٠ – يُنْهِلُ الصَّعْدَةَ حتَّى إذا ما نَهِلتْ كانَ لَهـا منْــهُ عَلُّ[(٥)]

يقول : ابتُلِيَتْ هُذيلٌ من جهتى برَجُلٍ كريمٍ يتخرَّقُ فى العُرفِ مع الأولياء ، وبالنُّـكْرِ مع الأعداء ، لا يفتُرُ عن النِّكاية فيهم ، وعن الإغارة عليهم ما دام لهم ثباتٌ وكانَ للجزَاء عليهم مَحِلٌ . وقولُه « حتى يملُّوا » يريدُ حتَّى يملُّوه ، وليس المراد قعودَهم عن مكافأتِهِ ، ومتارَكتَهم لهَيْجِه ، وإنَّما يريدُ أنه لا يَكُفُّ عن الإيقاع بهم ، ولا يُمْسِك عن التَّأثير فيهم ، حتَّى يَبْشَمُوا الشَّرَّ[(٦)] وحتَّى لا تَبقى فيهم قُوةٌ ولا نُهوضٌ فيُراصِدُوا أو يُكاِيدوا .

---

(١) فى الأصل : « ومنه » ، صوابه فى سائر النسخ .

(٢) هو أبو قيس بن الأسلت . المفضلية ٧٥ .

(٣) هو الأخطل . ديوانه ١٢٩ واللسان (سيس) . وقد سبق فى ص ٤١٣ .

(٤) هو الحارث بن حلزة اليشكرى ، فى معلقته .

(٥) روى التبريزى بعده البيتين ٢٣ ، ٢٤ ثم ٢١ ، ٢٢ .

(٦) انظر ما سبق من التحقيق فى الحاشية ٣ من الصفحة ٦٤١ .

وقولُه « يُنْهِلُ الصَّعْدَةَ » يريدُ الإبانةَ عن الحال التى أشار إليها من دوام الحربِ ، وبَسْطِ القتل ، فيقول : يُرَوِّى الرُّمحَ من دمائهم بالسَّقْيَةِ الأولى ، فإذا ما رَوِيَتْ[1] لم يُرضِه ذلك حتَّى يُعقِّبَه بمثلِه من السَّقيةِ الثانية . والمعنى اتِّصالُ الوَقَعات ، وامتدادُ البلاء منه فى صَبِّ الغارات . والصَّعدةُ : القَناة تَنبتُ مستويةً ، وجمعُها صَعَدَاتٌ بفتح العين ، لأنها اسم . ثمَّ قيلَ فى المرأة المستوية القامة ، والأتانِ الطَّويلةِ : صَعْدَةٌ ، وهى وصفٌ لها ، ويُجمع حينئذٍ على صَعْدَاتٍ بسكون العين ، لكونها صفةً .

وقولُه « صَلِيَتْ منِّى هُذَيْلٌ بخِرْقٍ » ، مثل قولِه من قَبْلُ : « وَوَرَاء الثَّأر منى ابنُ أختٍ » فى أنَّ الخِرْق هو هو لا غيرُه[2] . ويُقالُ صَليتُ بكذا أى ابتُليتُ به ومُنِيتُ ، وأصلُه من صِلاءِ النَّار ، يقالُ صَليتُ أصلَى صِلاءً ، واصطَلَيتُ أصطلى اصطلاء .

٢١ ـ تَضْحَكُ الضَّبْعُ لِقَتْلَى هُذَيْلٍ وَتَرَى الذِّئبَ لها يَسْتَهِلُّ
٢٢ ـ وعِتَاقُ الطَّيْرِ تَهْفُو بِطَانًا تَتَخَطَّاهُمْ فَمَا تَسْتَقِلُّ[3]

استعارَ الضَّحِكَ للضَّبُع ، والاستهلالَ للذِّئب . وأصل التهلُّل والاستهلال فى الفَرَح والصِّياح ، والمراد رَغَدُ العَيْش لها ، واتِّصال طُعْمِهما باتِّصال قَتلِه فى هذيل . وليس قولُ من قال معنى تَضْحَكُ : تَحيضُ ، بشىء . وقوله « وعتاقُ الطَّير تَهفُو بِطَانًا » مثل قول الآخر[4] فيما تقدم :

* وعبد يغُوث تَحجُلُ الطَّيرُ حَوْلَه[5] *

---

(١) أى الرماح المفهومة من الرمح .
(٢) هذا فى سائر النسخ . وفى الأصل : « لا غير » .
(٣) التبريزى : « تغدو بطاناً » ، ثم نبه على رواية : « تهفو » .
(٤) هو دريد بن الصمة ، فى الحماسية ٢٧٢ .
(٥) عجزه : * وعز المصاب حثو قبر على قبر *

ويَعنى بالعِتاق آكلةَ اللُّحمان وعافِيَةَ الجِيف منها . وقوله « تَهْفُو بطاناً » أى إنّها قد زَوَّرَتْ[1] ، وامتلأتْ حواصلُها فثقُلت ، فإذا طارَتْ تخطَّتهم فى الطَّيرانِ فلا ترتفع فى الجوِّ ، بل تُسِفُّ لثِقَلِها . وبِطانٌ : جمع بَطِينٍ . وتهفو : تطيرُ ؛ يقال : هَفَتِ الصُّوفةُ فى الهواء ، أى ارتفعت . قال الخليلُ : ويقال لرَفارِف الفُسطاط إذا تحرَّكَتْ : تهفُو بها الرِّيح . ثم تُوُسِّع فيه ، فيقال : هَفَا الظَّليمُ ، وهفا قلبُ فلانٍ فى إثْرِ كذا .

٢٣– حَلَّتِ الخَمْرُ وكانَتْ حَرامًا ... وبِلأْيٍ ما أَلَمَّتْ تَحِلُّ[2]

٢٤– فاسْقِنِيها ياسَوادَ بْنَ عمرٍو ... إنَّ جِسْمِى بَعْدَ خالِى لَخَلُّ

هذا على عادتهم فى تحريم الخمر وما يجرى مجراها فى وَلُوع النَّفس به والمَيْلِ إليه إذا قُتِلَ لهم قتيلٌ ، حتَّى يُدْرِكُوا ثأرَهُ ، أو حَزَبهم أمرٌ عظيم يحتاجُون فيه إلى مُناهضةٍ ومزاولة . وربَّما كانوا يحرِّمون على أنفسِهم تنظيفَ البَدن والأخذَ من الشَّعر وما شاكَلَهُ ، وذلك على حَسب مَيل الطِّباع وإيثار فَطْم النَّفس عن الشَّيء الذى لا مَتْرَكَ له عندَها . والقَصدُ فى جميعه حَبْسُ النَّفس عن المطلوب وتذكيرُها بالمفقود ، لئلَّا تتناساهُ أو تتشاغَل عنه[3] . فيقول : أدركتُ الثَّأرَ فحلَّت الخَمْرُ بعد أن كانت مُحرَّمةً بالنَّذر علىَّ ، وبجَهدٍ ألمَّتْ حَلَالًا ، إشارةٌ منه إلى ما قاساهُ فى طَلَب دَمِه . ومعنى بلأْيٍ : بعد جَهد وبجَهد . على ذلك قولُه :

* فلأْيًا بلأْيٍ ما حَمَلْنَا غُلَامَنَا[4] *

(١) أبو زيد : زور الطائر تزويراً ، إذا ارتفعت حوصلته .

(٢) سبق التنبيه على أن التبريزى روى هذا البيت وتاليه بين البيتين ٢٠ ، ٢١ .

(٣) كذا فى الأصل . وفى سائر النسخ : « لئلا يتناساه أو يتشاغل عنه » .

(٤) لامرئ القيس فى ديوانه ٨٤ . وعجزه :

* على ظهر محبوك السراة محنب *

وفى هذه الطريقة لامرئ القيس :

حَلَّتْ لِيَ الخَمْرُ وكُنتُ امرَأً عَنْ شُرْبِها فى شُـغُلٍ شاغِلِ

وقول الآخر(١) :

فيا لَيْلَ إنَّ الغِسْلَ ما دُمْتُ أيِّمًا عَلَيَّ حَرَامٌ لا يَمَسُّنِيَ الغِسْـلُ

وقولُه « ما ألمّت » يجوز أن يكون ما صِلةً ، ويجوز أن يكون مع الفعل بعدَهُ فى تقدير المصدر . يريدُ : وبِلأْيٍ ألمّتْ حَلَالًا . والإلمامُ أصلُه فى الزِّيارةِ الخفيفة ، وتُوُسِّع فيه فأجْرِيَ مجرى حَصَلَتْ عندى . وقوله :

فاسقِنِيها ياسَوَادَ بنَ عمرٍو إنّ جِسمى بعـد خالى لَخَلُّ

أظهر التشفِّيَ بما نالَهُ من الأعداء حتَّى دَعَا مَن خاطَبَهُ إلى ما كان يتشوَّفُهُ مِن سَقْيِه له ، كما أظهرَ التوجُّعَ لفقده مَن أُصيبَ به بقوله « إنّ جِسْمِى بَعْدَ خالِى لَخَلٌّ » . والخلّ : المهزول . وقوله « يا سوادَ بن عمرٍو » جَعَل سَوَادَ — وقد رَخَّمَهُ عن سوادَةَ — بمنزِلة ما جاء تامًّا ولم يُحذَفْ منه شيء فجعل سواد وابن بمنزلةِ شيء واحد ، وبَناهُ على الفَتح . فالفتحة فى ابنَ للإعراب ، والفتحةُ فى سوادَ للبناء . ولك أن ترويه : « يا سَوَادُ بنَ عمرٍو » والضَّمَّةُ فيه ضمّة المنادى المفرد ، فيكون كقولك : يا زَيْدَ بنَ عَمْرو ويا زيدُ بنَ عمرٍو ، فاعلَمْه .

---

(١) هو عبد الرحمن بن دارة . إصلاح المنطق ٦ — ٧ واللسان (غسل) .

٢٧٤

وقالَ سُوَيْدُ المَرَاثِدِ الحارثىّ[1] :

١ — لَعَمْرِى لَقَدْ نَادَى بأرْفَعِ صَوْتِهِ   نَعِىُّ سُوَيْدٍ أَنَّ فارِسَكُمْ هَوَى[2]

٢ — أجَلْ صادِقًا والقائلَ الفاعِلَ الذى   إذا قال قولًا أنبَطَ الماءَ فى الثَّرَى

يُرْوَى : « أَنَّ صاحِبَكم هَوَى » ، ومعنى صاحبكم رئيسُكُم ، كما أنّ معنى فارِسَكم أفرَسُكُم ، ولهذا أقسم وعَظَّم الحال فى نعىِّ النّاعِى حتّى جَعَلَهُ يُنادِى بأرفع صوتِه فِعلَ النّادِبِ المتحسّرِ ، ثم صَدَّقَه فى ثنائه وخَبَرِه فقال : أجَلْ صادِقًا أى قلتَ صَادِقًا . وأجَلْ هو لتحقيق الإخبار ، كأنَّه لمّا قال : إنّ صاحِبَكم أو فارِسَكم سوى ، قال : أجل أنت مُصَدَّقٌ ، ثم زاده ثناءً فقال : وإنّ القائلَ الفاعل الذى إذا قال قولًا أنبَطَ الماءَ فى الثَّرى . وقولُه « أنّ » صاحبَكُم ، أراد بأنّ صاحِبَكُم ، فحذف الباء وَوَصَلَ الفِعل . وانتصب « صادِقًا » على الحال ، والعامِلُ فيه ما دلّ عليه الكلامُ من معنى قلتَ . و « القائلَ الفاعِلَ » عطفَهُ على صاحبكم ، ويجوز أن تَرفَعَهُ ، كأنّهُ قال : وهو القائل الفاعِل ؛ والنَّصب أحْسَنُ

---

(١) كذا فى الأصل ، وفى سائر النسخ : « سويد الحارثى » فقط . التبريزى : « وقال سويد المراثد : الحارثى . أبو هلال : ويقال سويد المراثى . سويد تصغير أسود على الترخيم . والمراثد : جمع مرثد ، وهو فى الأصل مصدر رثدت المتاع بعضه فوق بعض ، أى نضدته » . وقد سبق فى الحماسية ١٦ عن البرقى ذكر « سويد بن صميع المرثدى ، من بنى الحارث » . فهذا قول ثالث فى تسميته . انظر البيان (٢ : ١٨٦) وحواشيه . والأبيات رواها المبرد فى الكامل ٧٢٧ ليبسك منسوبة إلى أعرابى .

(٢) كذا فى سائر النسخ والتبريزى . وفى الأصل : « ان صاحبكم » ، وسيأتى أنها رواية أخرى . ويبدو أن صواب رواية البيت هو ما رواه المبرد فى الكامل : « نعى حيى » فيكون اسم المرثى حييا ، إذ أن سويدا اسم الشاعر ، وأن مطابقته اسمه لاسم المرثى على رواية المرزوقى والتبريزى أمر بعيد الاحتمال .

وأجود ، ومعنى أنْبَطَ الماء فى الثَّرى : وَصلَ القولَ بالفعلِ الجالب للخير ، وقَرَّبَ الغَناء من العَناَء اللاحق فى الأمْرِ ، وهو بعد ذلك مَثَلٌ لِتحقيق قولِه ، وصِلَةِ النَّجاز بوعْدِه . ومعنى أنْبَطَ الماء : أخرجه . ويقال نَبَطَ أيضا ، فإن قيل : هل يجوز أن يكون التَّصديق منه للنَّاعِى فى قوله « هَوَى » لا غَيْر لأنَّه هو الخَبَر ، ويكون هذا كما قال دريد[1] : « أعبْدُ الله ذلكم الرَّدِى » جوابا لقولِه « أردتِ الخيلُ فارساً » ؟ قلتَ لا يجوز ذلك ، بدلالة قوله « والقائلَ الفاعلَ الذى » ، لأنّ هذا العطف لا يكون إلّا على « صاحبَكم » . فكأنه صدّقه فى الأمرين جميعا ، وزادهُ مِن بعدُ ما زاده[2] . وكذلك قول دريد ، لا يمتنع أن يثْبِتَ الفروسيَّة له مع الإرداء أيضاً فى استثباته إيَّاهم لمَّا قالوا : أردتِ الخيلُ فارِسًا .

٣ — فَتى قَبَلٌ لم تُعْبِسِ السِّنُّ وَجْهَهُ ... سِوَى خُلْسَةٍ فى الرَّأسِ كالبَرْقِ فى الدُّجَى[3]

وصفَهُ بأنه مُقْتَبَل الشَّباب لم يَمسَّه أوائل الكِبَر ، وأنّ السِّنّ لم تَنقُص رونقَ شبابه ، ولم تُرَنِّق ماءَ بشرته ، فهو طَلْق الوجهِ غيرُ عابس . والعُبُوس : ظهور الغضب فى الوجه . ويقال منه : يومٌ عَبُوسٌ ، أى شديد . وقوله « سِوَى خُلسَةٍ فى الرَّأس » استثناء منقطِعٌ ، ويَعنِى أنَّه ظَهرَ من الشَّيبِ فى رأسه شُعلةٌ ،

(١) انظر البيت ٦ من الحماسية ٢٧١ .

(٢) هذا ما فى سائر النسخ . وفى الأصل : « وزاد من بعد ما زاد » .

(٣) فى جميع النسخ : « لم تعبس » بالباء ، وصوابه بالنون ، كما فى رواية التبريزى واللسان (عنس) وكامل المبرد . ونبه صاحب اللسان أن رواية المبرد « تَعْنَسْ » . وقال : « قال الأزهرى : وهو أجود » ، أى أجود من رواية تُعْنِس . وأنشد فى اللسان نظيره لأبى ضب الهذلى :

فتى قبل لم يعنس الشيب رأسه ... سوى خيط فى النور أشرفن فى الدجى

ورواية عجزه عند المبرد : « سوى وضح فى الرأس » .

فهو كالبرقِ يلمعُ فى سوادِ الليل . والخُلْسةُ : بياضٌ فى سوادٍ ، وقد أخْلَسَ رأسُه ، وشَعَرٌ خليس ، ومنه قيل للمولود بين الأسود والبيضاء ، والأبيض والسوداء : خِلاسِيٌّ .

٤ — أشارَتْ لَهُ الحربُ العَوانُ فجاءها يُقَعْقِعُ بالأقرابِ أوّلَ منْ أتى

٥ — ولَمْ يَجْنِها لكنْ جَنَاهَا وَلِيُّهُ فآسَى وآداهُ فكانَ كَمَنْ جَنَى

قولُه « أشارت له الحربُ العَوَانُ » كأنهُ لم يصبر إلى أنْ دُعِيَ ، ولكن حين اهتاجت الحربُ جاءها ، فكأنَّ الحَرْبَ أشارَتْ إليه . والعَوانُ : الحرب التى قُوتِل فيها مرّةً بعد أخرى ، تشبيهاً بالعَوانِ من النِّساء ، وهى النَّصَف . والفعل منه عَوَّنَتْ وعانَتْ . وقوله « يُقَعقِع بالأقرابِ » يجوز أن يكون المعنى جاءها ولخواصرِه قعقعةٌ ، أى صوتٌ ، لشدّة عَدْوِه وحِرصِه . وقد يُسمَعُ من جوفِ العادِى العَجِل وصَدرِه النَّهيمُ والصَّوتُ الشَّديد ، إذا استُعجِل[1] فى الإدراك ويجوز أن يكون القعقعةُ التى ذَكَرَها من السِّلاح الذى كان عليه . وقوله « أوّلَ مَن أتى » يجوز أن يكون مَنْ نكرةً ، كأنَّه قال : أولَ فارسٍ طَلَع ، فيكون أتَى صفةً له ؛ ويجوز أن يكون معرفةً وأتَى صلةً له ، كأنه قال : أوّلَ الآتين ، ويكون « مَنْ » مُوحَّدَ اللَّفظ مجموعَ المعنى . وانتَصَبَ أوّلَ على الحال فى الوجهين جميعاً ، والعامل فيه جاءها أو يُقعقِع . وقوله « ولم يَجْنِها لكن جناها وليُّه » يُحقق ما قلناهُ من أنه لم ينتظر الاستغاثة ، ولكن لمّا طَلَعتْ له أمارات امتحان وليِّه آسَاه بنَفْسه ، وأعداهُ على مِحنَتِه ، فكان كالجانى وإن لم يكن منه جنايةٌ ، بَذْلَ اجتهادٍ وسُرعةَ إنجاد . فالبيت الأوّل كما قال الآخر[2] :

قومٌ إذا الشَّرُّ أبدَى ناجذَيهِ لهمْ طاروا إليه زَرَافاتٍ ووُحْدَانا

(١) هذا ضبط ل ، م ، وضبط فى الأصل بالبناء للفاعل .

(٢) هو قريط بن أنيف ، أو أبو الغول الطهوى . الحماسية الأولى ص ٢٧ .

والبيت الثانى كقول الآخر[١] :

وإنّى لا أزالُ أخا حروبٍ … إذا لم أجْنِ كنتُ مِجَنَّ جانِ

وقوله « آداه » أصلُه أعداه ، والألف الثانية همزة أُبدلَت من العين فى الأصل ، والمعنى أعانَهُ . ويجوز أن يكون مِن الأداة ، أى جَعل له أداةَ الحربِ وعُدَّتَها . وأنشد الأصمعىُّ قولَ الأسود بن يَعْفُر :

ما بَعْدَ زيدٍ فى فَتاةٍ فُرِّقُوا … قَتْلًا وسَبْيًا بعد حُسْنِ تآدِ[٢]

وقال : معناه بعد أَخْذ الدهر أداتَه .

٢٧٥

وقال رجل من بنى نَصرِ بن قُعَيْن[٣] :

١ — أَبلِـغْ قبائلَ جَعْفَرٍ إن جِئتَها … ما إنْ أُحاوِلُ جَعْفَرَ بنَ كلابِ[٤]

(١) هو سوار بن المضرب السعدى . الحماسية ١٨ ص ١٣٢ .

(٢) جاء فى شرح المفضلية ٤٤ : «كان المنذر بن ماء السماء خطب ابن امرأة تدعى أم كهف ، من بنى زيد بن مالك بن حنظلة ، فأبوا أن يزوجوه إياها ، فغزاهم وأجلاهم من بلادهم وقتلهم » .

(٣) بنو نصر بن قعين ، بطن من بنى أسد بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر . المعارف ٣٠ . وقعين يجوز أن يكون تصغير أقعن ، من القعن ، وهو قصر فى الأنف فاحش. وهذا الرجل هو ربيعة — بضم الراء وفتح الباء وتشديد الياء المكسورة — بن عبيدة بن سعد بن جذيمة بن مالك بن نصر بن قعين . قال أبو محمد الأعرابى : ليس فى العرب ربيعة غيره . وهو أبو ذؤاب الأسدى . وكان ولده ذؤاب قتل عتيبة بن الحارث بن شهاب اليربوعى يوم خو ، وأسرت بنو يربوع فى ذلك اليوم ذؤابا ، أسره الربيع بن عتيبة بن الحارث وهو لا يعلم أنه قاتل أبيه ، فأتى ربيعة الربيع وافتدى ولده ذؤابا بشىء معلوم يؤديه فى سوق عكاظ ، فلما دخلت الأشهر الحرم وافى ربيعة بالإبل الموسم وتخلف الربيع بن عتيبة لشغل عرض له يواف بالأسير ، فقدر ربيعة أن الربيع علم بأنه قاتل أبيه فقتله ، فرثاه بهذه الأبيات وسارت عنه وبلغت يربوعا ، فعلموا أن ذؤابا قاتل عتيبة فأقادوه به . انظر الحيوان (٣ ، ٢٤٦) ، وشرح التبريزى للحماسة ، وأمالى القالى (٢ : ٧٢ — ٧٣) والمؤتلف ١٢٥ .

(٤) قال التبريزى : « قبائل جعفر ، يعنى جعفر بن ثعلبة بن يربوع ، رهط عتيبة » . ورواية الأمالى : « قبائل جعفر مخوصة » .

٢ — أَنَّ الهَوَادَةَ والمَوَدَّةَ بيننا خَلَقٌ كسَحْقِ اليُمْنَةِ المُنْجَابِ

قولُه « ما إنْ أُحاوِلُ جَعْفَرَ بنَ كلابِ » يجرى مجرى الصفة فى شرح الاسم الذى أراده وإزالة اللَّبسِ عنه . والهَوادةُ : الحُرمة والذِّمام والصُّلح . والمُهاودة : المُوادَعَةُ . وتَهوَّدتُ إلى فُلانٍ تهوُّدًا ، أى توسَّلْتُ إليه بوسيلة ؛ من قولهم : بيننا هوادةٌ ؛ ومنه هَوَّدَ الرجلُ إذا مشَى مَشْيًا ساكنًا . فيقول : أَبْلِغْ هؤلاء القومَ إن زُرتَهُمْ أنَّ أسباب الصُّلح والمودّة ، والذِّمام والحُرمة ، قد خَلُقَتْ بينى وبينهم ، وتغيَّرت عما عُهِدَتْ ، فهى تزدادُ على مَرِّ الأيّام دروسًا وهُمودًا كخَلَقِ البُرود المنشقِّ ، تزيدُه الأيّام بِلًى وانسحاقًا ، فلا تماسُكَ فيها ، ولا رجاء لصلاحها وعَودها إلى ما كانت . والثَّوبُ السَّحْقُ وُصِفَ بالمصدر ، كأنّ البِلَى سَحَقَهُ . واليُمْنَةُ : ضربٌ من بُرود اليَمَنِ . والمُنجاب : المنشَقّ . وهذا الكلام وعيدٌ ، ويشتمل على أنّ الطَّمع من رجوع الأمر إلى ما كان زائلٌ ، وأنّ الفسادَ فى ذاتِ بينِهِمْ مُتظاهر ، لا يَقبلُ إصلاحًا ، ولا يَأتى مُزاولوهُ فَلَاحًا . وقولُه « أنّ الموادَةَ » فى موضع نصبٍ على أنّه مفعول ثانٍ لأبلِغْ .

٣ — أَذُؤَابُ إنّى لَمْ أَهَبْكَ ولم أَقُمْ للبَيْعِ عند تحضُّرِ الأَجْلَابِ(١)

يُرْوَى « لم أَهَبْكَ » من الهِبَة ، أى لم أسمَحْ بدمِك كما يتواهَبُ النَّاسُ الشَّىءَ بينهم ، وحكى ابنُ الأعرابىّ : وَهَبنى اللهُ فِداءَك . ومنه قولُهم : هَبْهُ كذا ، أى احْسَبْهُ . ويُروَى : « لم أُهِنْكَ » ، أى لم أتغافَلْ عن طلَب دَمِك استهانةً بكَ . وقولُه « ولم أَقُمْ للبَيْع عند تحضُّرِ الأجلاب » ، يريدُ : إنِّى لم أَجد الدِّيَةَ ، فكنت بائعًا لدمِك كما يُباع الجَلَبُ من الأموال ، إذا سِيقت

(١) انفردت نسخة الأصل برواية « لم أهنك » . وفى المؤتلف :

أذؤاب إنى لم أبعك ولم أهب بعكاظ حيث تجمع الأجلاب

إلى الحضَر . ولم يُرِدْ بقوله « لم أَقُمْ » القيامَ الذى هو ضدُّ الجلوس ، إنما المُراد لم أترشّح ولم أتهيّأ . على ذلك قولُه عزّ وجلّ : ﴿ إذا قُمْتُم إلَى الصَّلَاةِ ﴾ .

٤ – إنْ يَقْتُلُوكَ فَقَدْ ثَلَلْتَ عُرُوشَهُمْ بِعُتَيْبَةَ بنِ الحارثِ بنِ شهابِ[1]

٥ – بأَشَدِّهِمْ كَلَبًا عَلَى أعدائِهِمْ وأَعَزِّهِمْ فَقْدًا عَلَى الأَصْحَابِ[2]

الثَّلُّ : الهَدْمُ ؛ ويقال ثُلَّ عَرش فلانٍ ، إذا تضعضعَتْ حالُه واتّضَع عزُّه قال الأصمعىّ : وربما قيل ثُلَّ عُرْشُه ، وإذا أريد به القَتْلُ فليس إلّا بضمّ العين . قال ذو الرمة :

* وقد ثَلَّ عُرْشَيْهِ الحُسَامُ المُذَكَّرُ[3] *

والعُرْشان : لحمتان مستطيلتان من جانبِي العُنُق ، وفيهما الأخدعان . وقولُه «إن يقتُلوكَ » وقد كانوا قَتَلُوه يريدُ إنْ تبجَّحُوا بقتلك وصاروا يفرحون به ، فقد أثَرْتَ فى عِزِّهم ، وهدمت أساس مَجدِهم بما نِلتَ مِن رئيسهم عُتَيبة ابنِ الحارث . وقوله « بأشدِّهم كَلَبًا » جعله بدلًا من قوله بعتيبة ، وقد أعاد حرف الجرّ فيه ، وقد مضَى مثلُه[4] ، وذكرنا الشاهدَ فيه من قوله تعالَى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ ﴾ ومعنى أشدِّهم كَلَبًا أشدُّهم تأثيراً ونكايةً فى الأعداء . ومن كلام الحسَن : « إنّ الدُّنيا

---

(١) الأمالى : « فقد هتكت بيوتهم » .

(٢) انفردت نسخة الأصل والتبريزى بهذه الرواية . وفى المؤتلف وسائر النسخ : « على أعدائه » . وفى الأمالى :

بأحبهم فقدا إلى أعدائهم وأشدهم فقدا على الأصحاب

وقال القالى : ويروى :

بأشدهم أوقا على أعدائهم وأجلهم رزءاً على الأصحاب

(٣) صدره فى ديوان ذى الرمة ١٣٦ واللسان والمجمل والمقاييس (عرش) :

* وعبد يغوث تحجل الطير حوله *

(٤) انظر البيت الثانى من الحماسية ٢٦٨ .

لما فُتِحت على أهلها كَلِبُوا عليها أشَدَّ الكَلَب» ، أى حَرَصُوا أشدَّ الحِرص . ويقال : دَهرٌ كَلِبٌ ، أى مُلِحٌّ على أهله بما يسوؤهم . وقولهم كَلْبٌ كَلِبٌ يأكل لحومَ النّاس فيأخُذُه منه شِبْه جنون . وقولُه «وأعزّهم فقداً على الأصحاب» يريدُ وأشدّهم ، ومنه استعَزّ اللّحمُ ، إذا صَلُبَ ؛ وبَعِزٌّ علىّ أن أرى كذا ، أى حَقّ واشتدّ . ويقولون : أتحبُّنى ؟ فيقالُ : لَعَزّ ما ، أى لَحَقّ ما .

٢٧٦

وقال الحُرَيثُ بنُ زيدِ الخَيْل (١)

١ — ألا بكَرَ النّاعِي بأوْسِ بن خالدٍ ... أخِى الشَّتْوَةِ الغَبْراءِ والزَّمَنِ المَحْلِ (٢)

٢ — فإنْ تَقْتُلُوا بالغَدْرِ أوْسًا فإنّنى ... تركْتُ أبا سُفْيانَ مُلْتزِمَ الرَّحْلِ (٣)

---

(١) فى جميع النسخ : «الحرث بن زيد الخيل» ، وإنما هو «الحريث» بالتصغير كما فى التبريزى والأغانى (١٦ : ٥٦) ، والإصابة ١٦٧٣ والشعر والشعراء ٢٣٤ . وفى الإصابة والشعر والشعراء أنه كان لزيد الخيل ولدان : مكنف وحريث ، أسلما وصحبا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشهدا قتال الردة مع خالد بن الوليد . ومما يؤكد تصحيح اسمه ما أنشده ابن حجر له :

أنا حريث وابن زيد الخيل ... ولست بالنكس ولا الزميل

وأنشد له الواقدى فى الردة أشعاراً منها :

ألا أبلغ بنى أسد رسولا ... وهذا الحى من غطفان قيلى

بأن طليحة الكذاب أمسى ... عدو الله حاد عن السبيل

وقد قتله عبيد الله بن الحر الجعفرى مبازرة فى حرب كانت بينهما من قبل مصعب بن الزبير . وابيات الحماسية هذه فى الأغانى والشعر والشعراء .

(٢) قال أبو رياش : كان سبب هذه الأبيات أن عمر بن الخطاب بعث رجلا يكنى أبا سفيان ليس بالهاشمى ولا الأموى — إلى البادية يستقرئهم ، فمن لم يقرأ شيئاً — أى شيئاً من القرآن — ضربه ، فانتهى إلى بنى نبهان ، فاستقرأ أوس بن خالد بن عمرو ، ابن عم لزيد الخيل ، فلم يقرأ شيئاً فضربه فمات من ضربته ، فقامت ابنته وأم أوس تندبانه ، فأقبل حريث بن زيد الخيل حتى دخل على أبى سفيان فقتله وأصحابه وقال هذه الأبيات . وزاد أبو الفرج فى روايته عن أبى عمرو ، أنه هرب إلى الشام . وذكر أبو الفرج أيضاً أنه أوس بن خالد بن زيد .

(٣) الأغانى : «فإن يقتلوا أوساً عزيزاً» .

أبو سفيان مُصدِّقٌ ورد حَيَّهُمْ لاستيفاء الصَّدَقة عليهم، فاتَّهمَ أوسَ بن خالد بأنه سَتَرَ بعضَ مالِه طمعًا فيما يلزمه من الصَّدَقة فيه، واقتطاعًا من الواجِب عليه، فأخذَهُ أبو سفيان يضربُه، وارتقَى ما بينهما إلى أن أدّى إلى قَتْلِه، فصاحت أمُّ أوسٍ فأغاثَها قائل هذه الأبيات، ورَمَى أبا سفيانٍ بسهم نَفَذَ فيه فقتله.

وقولُه «بَكَر النَّاعِي»، يجوز أن يكون معناه ابتدأ ينعاهُ لأنَّ البُكورَ أصلُه ذلك، ولذلك قيل في أوّل النَّهار: بُكرةٌ. ويجوز أن يكون بمعنى جاء بُكرةً. فيقول: ابتكر المُخبِر بقتل أوسِ بن خالد ملجأِ الضُّعفاء، وثِمَالِ الأيتام، في الشَّتْوَةِ الغَبراء، القليلة الأمطار، الشديدة الإمحال. والمَحْلُ: يُبْسُ الأرض. ويقال زَمَنٌ ماحِلٌ ومَحْلٌ، وقد أمحَلَ النّاسُ إذا أسنَتُوا. وقوله «فإن يقتلوا بالغَدْرِ أوْسًا» يريدُ أنَّ أبا سفيان هذا كان انطوَى على غِلٍّ لأوْسٍ، وعداوةٍ كامنةٍ له، فتوصَّلَ بما ادَّعى من خيانتِه في مالِ الصَّدقة إلى ضربِه وقتلِه، لذلك قال: «إن تقتلوا بالغَدْرِ». وقوله «فإنّى تركْتُ أبا سفيانَ ملتزِمَ الرَّحْلِ»، يريد: إنِّى اتَّأرتُ من أبي سفيانَ وجعلتُه ملتزِمًا لرحلِه لا حَرَاكَ به، أي قتلتُهُ بدلًا من صاحبِه.

٣ — فلا تَجْزَعِى يا أمَّ أَوْسٍ فإنّهُ تُصِيبُ المنَايَا كُلَّ حَافٍ وذى نَعْلِ[1]

أخَذَ بعد اقتصاص الحال يُسَلِّى أمَّ أوسٍ عن ابنها، ويطيِّبُ قَلْبَها، ويعرِّفها أنّ الموتَ طريقٌ يَسْلُكه الناس على اختلاف طبقاتِهم، وأنّه لا مَحِيدَ عنه ولا مَعْدِل. وحَسُنَ ذلك منه لأنّه كان قد أدْرَكَ الثَّأرَ لها، وشفَى نفسَها من داء مصيبتِها، فأقبل يَبْرُدُ[2] غليلَها بَوعظِه، زيادةً في الاهتمام لها والتوفُّر عليها.

(١) فيما عدا الأصل: «تصيب المنايا». وفي الأغاني: «يلاق المنايا».

(٢) هذا ضبط جميع النسخ. يقال برد الطعام وبرده، بالتضعيف، وأبرده.

وكان يجب أن يقول : كل ذى حَقٍ وذى نَعلٍ ، أو كُلُّ حافٍ وناعلٍ ، لكنّه لما وجَدَ اسم الفاعل يَنوبُ مَنابَ ذى كذا ، لم يُبالِ أن يكون أحدُهما بذى . وهذا يُبيِّن ما يسلكُه أصحابنا البصريُّون فى مثل قولهم : طالقٌ وحائضٌ ، أنّه على طريق النِّسبة وَفى معنى ذاتِ طَلاقٍ وذاتِ حيض ، ويؤكِّد صحّته .

٤ — قَتَلنا بقتلانا من القومِ عُصْبةً كِرَامًا ولَمْ نأكلْ بهم حَشَفَ النَّخلِ (١)

٥ — ولولا الأُسَى ماعِشتُ فى النّاس بَعْدَهُ ولكن إذا ما شئتُ جاوَبَنى مِثْلِى (٢)

فى هذا الكلام دِلالةٌ على استفحال الشّرِّ بينهم حتّى قُتِلَ من الجانبين عِدّة ، لذلك قال : قتلنا بدل قتلانا من القوم عصبة يرجِعُون إلى كَرَم . والعُصبَةُ : العَشرةُ من الرِّجال ، وقيل ما بين العشرة إلى الأربعين ، وكذلك العِصابة من النّاس والطّير والخيل . وهذا تنبيهٌ على أن الثأر الذى أدركه منهم كان مُغنيًا ، والاشتفاء من دائه بِهِ كان مُجيبًا . وقولُه « ولم نأكلْ بهم حَشَفَ النّخل » يريدُ : لم نشتغِلْ عن طلب دمهم بالأكل . وذِكر الحَشَفِ إزراء بذلك الطّعام لو صُرِفت النّفوسُ إليه مع تَضايُق الوقت فى طلب الدّم . ويجوز أن يريدَ : لم نأخذ ديتَهم . وجَعَل التّمرَ حَشَفًا كما قال غيرُه (٣) .

ولا تأخُذُوا منهمْ إفالًا وأبكُرًا وأُترَكَ فى بيتٍ بصَعدَةَ مُظلِمِ

والإفالُ والأبكرُ لا تُؤخَذانِ فى الدِّية (٤) ، ولكنْ حَقّر أمرَها . وقولُه : « ولولا الأُسَى ما عِشتُ فى النّاس بعده » يريدُ لولا التصبُّر والتأسِّى والاقتداء بهم فى المصائب ، لقتلتُ نفسى ولم أعِشْ بَعْدَه — يعنى بعد أوس — فى النّاس ،

(١) الأغانى ، « أصبنا به من خيرة القوم سبعة » و « ولم نأكل به » .
(٢) فى الشعراء ، « فى الناس ساعة » و « ساعدنى مثلى » .
(٣) هو كبشة أخت عمرو بن معديكرب . الحماسية ٥٢ ص ٢١٧ .
(٤) فى الأصل : « لا تؤخذ إلا فى الدية » ، صوابه فى سائر النسخ .

ولـكنْ متى شئتُ وجدتُ لنفسى نظائرَ ممّن فقدوا أعزّتَهم . ويُشبه هذا قولُ الخنساء :

ولولا كثرةُ الباكينَ حَوْلِى ‌ ‌ ‌ ‌ على إخوانِهِمْ لقتلتُ نَفْسِى

وقوله « ما عشْتُ فى الناس بعده » جواب لولا ، ونابت عن خبر المبتدأ وهو الأسى ، كأنّه قال : لولا الأسى مانعٌ لى ما عشتُ فى النّاس بعدَه . وقد تَقدم القولُ فى لولا ، وفيما يقع فيه[1] .

٢٧٧

وقال البَرَاء بن رِبْعِىّ الفَقْعَسىّ[2] :

١ ــ أَبَعْدَ بَنِى أُمِّى الذين تتابَعُوا ‌ ‌ ‌ ‌ أُرَجِّى الحياةَ أم منَ الموتِ أَجزَعُ

قولُه « أبَعْدَ » لفظُه لفظُ الاستفهام ، والمعنى معنى التوجُّع . والاستفهامُ يَطلُبُ الفِعْلَ . فيقول : أُرَجِّى الحياةَ أم أجزَعُ من الموت بعد إخْوانى الذين انقرضوا وذهب الواحدُ فى إِثْر الواحدِ فدرجوا . والمعنى : ماذا يجوز أن يكونَ منِّى : أيحسُنُ الطَّمَعُ فى الحياة بعدَهم ، أم الجزعُ من الموتِ عَقِبَ الفَجْع بهم . وأم هذه يجوز أن يكون أوْ بدلها ، لأنها المنقطعة . ألا تَرَى أنّ التى تكون عديلةَ الألفِ فى العطف مِن شرطِها أن يكون أحدُ الأمرين اللَّذَيْنِ يَسأَلُ عنهما المستفهمُ قد وقَع عنده إلّا أنه لا يَدْرى أيُّهما هو . يقول القائل : أرأيتَ زيدًا أم عمرًا ، وهو لا يشكُّ أنّ أحدهما رآه ، إلا أنّه لا يدرى أيُّهما هو . والذى فى البيت ليس كذلك فتأمَّله .

(١) انظر ما سبق فى ص ٤٦٦ فى الحماسية ١٥٧ .

(٢) التبريزى : « وقال أبو حبال البراء بن ربعى الفقعسى . البراء فى اسم رجل يجوز أن يكون مأخوذاً من قولهم : أنا براء منك ، أى برىء ، أو من قولهم لآخر ليلة من الشهر ليلة البراء ... والربعى : ما نتج فى أيام الربيع ، ويكنى به عن ولد الرجل فى شبابه ... قال أبو هلال : أبو حبال هكذا رويناه فى الأصل ، وهو تصحيف ، وإنما هو أبو الحناك بالنون والكاف » . وقد ذكره صاحب المؤتلف ٨٦ وصاحب القاموس فى (حنك) .

٢ ــ ثمَانِيَةٌ كانوا ذُؤَابَةَ قَوْمِهِمْ بِهِمْ كُنْتُ أُعْطِى ما أَشاء وَأَمْنَعُ(١)
٣ ــ أولئِكَ إخْوَانُ الصَّفَاء رُزِيتُهُمْ وما الكَفُّ إِلَّا إِصبَعٌ ثُمَّ إِصْبَعُ

ذكر أن إخوانَهُ كانوا ثمانيةً ، وأنّهم كانوا رؤساء قومهم ، وأنّه بعِزّهم ومكانِهم مِن قبيلتِهم كان يدفَعُ عن نفسه ما يشاء ، ويَقبَل لها ما يشاء . وفى قولِه « كنتُ أعطِى ما أشاء » حَذْفٌ ، ولو أتى على حدِّه لكان : كنتُ أُعطِى ما أشاء إعطاءَهُ وأمنَعُ ما أشاء مَنعَه . والمفاعيل تُحذَفُ كثيرًا لأنّ القرائن تدل عليها . وإنما قال « ذؤابة قومهم » ولم يقل ذوائب قومهم ، لأنّه عدَّهم شيئًا واحدًا ، لتناصُرِهم واتّفاق أهوائهم . والذُّؤابَةُ : اسمٌ فى الأصل ، وقد وُصِفَ به ، وكما قيل هو ذؤابَةُ قومِهِ ، وهم ذوائبُ قومِهِ ، قالوا فى الضِّدّ منه : هو ذُنابة قومه ، وهم ذَنائب قومه . وقولُه « أولئك إخوان الصّفاء » نَبَّهَ به على زوال الخلافِ وسقوط المِرَاء من بينهم ، وعلى خُلُوص نِيَّة كلِّ وَاحدٍ منهم مع صاحبه ، حتى كانَ ما يجمعهم تَصَافيا بلا كَدَرٍ ، وتوافُقًا بلا حَسَدٍ ، وأنّهم كانوا فى التّعاوُن والتّظاهُر كالكفِّ الواحدة ، فكلٌّ واحدٍ منهم كالإصبع من تلك الكف ، فلما تُخُرِّموا ومات الواحدُ بعد الواحد ، صارت الكفُّ تتراجَعُ بنُقصان أصابِعها حتّى صارت لا تغنى فى البَطْشِ بِها ، ولا تَعمَلُ عند القبض والبسط عَمَلَها .

٤ ــ لَعَمْرُكَ إِنِّى بالخليلِ الذى لَهُ عَلَيَّ دَلَالٌ وَاجِبٌ لَمُفَجَّــعُ
٥ ــ وَإِنِّىَ بالمَوْلَى الّذِى لَيْسَ نَافِعِى ولا ضائِرِى فِقْـدانُهُ لَمُمَتَّعُ

أقسم بأنّه مُفَجَّعٌ بمن تَعِزُّ حياتُه ويكرُم مقامُه ، حتّى يَرَى لنفسِه تدَلُّلًا

(١) المؤتلف : « من أشاء » .

واجباً عليه ، وتمكُّنا مكيناً منه ؛ ومُمَتَّعٌ بمن لا رغْبةَ له فى العيش معه ، فليس فى بقائه نَفْعٌ له ولا فى ذهابِهِ ضررٌ عليه ، وكان الواجب أن يقول : ليس نافعى حياتُه أو وجدانه ، حتّى يكونَ فى مُقابلةِ قوله « ولا ضائرى فِقدانُه » إلّا أنّه لمّا ضاقَ نطاقُ البيت عنه لم يُبالِ بالاقتصار على نافِعِى ، إذ كان المرادُ بها مفهوماً ، وإذْ كان ضميرُه فى ليس يقومُ مقامَ حياتِهِ لو أتَى به . وسَمَّى مَن اشتدَّت فاقتُه إلى حياته خليلًا لاختصاصِ مكانِه من قلبه ، وعلى عادَتِهم فى تسمية المعتَمَد عليه خليلًا ، حتّى سمَّوا الفرَسَ والسَّيف خليلًا . قال يعنى الفرَسَ :

. . . . وأَتَّقى بهادِيهِ إنِّى للخليلِ وَصُولُ[1]

وقال الآخر فى السيف :

* ما سَدَّ كَفِّى خَليلُها[2] *

وسمَّى القبِيلَ الثَّانى مَوْلًى إشارةً إلى أبناء عمِّــه الذين لا غَناء عندهم ، ولا انتفاع له بمكانهم .

٢٧٨

وقال مُطيع بن إياسٍ ، فى يحيى بن زياد[3] :

١– يا أَهْلِ َبكُّوا لِقلْبِيَ القَرِحِ وللدُّمُوعِ السَّواكِبِ السُّفُحِ

---

(١) البيت لأبى الأبيض العبسى ، سبق فى الحماسية ١٥٧ . وصدره :

* أقيه بنفسى فى الحروب وأتقى *

(٢) سبق فى ص ٤٦٩ : « ما شد » بالشين المعجمة . والبيت بتمامه :

وإنى كما قالت نوار إن اجتلت على رجل ما شد كفى خليلها

(٣) مطيع بن إياس بن أبى سلمة الليثى الكنانى ، من مخضرمى الدولتين ، كان ظريفاً خليعاً متهما بالزندقة ، ولد ونشأ بالكوفة . وأخباره مسهبة فى الأغانى (١٢ : ٧٥ – ١٠٣) وأمالى المرتضى (١ : ٩٨) ، ولسان الميزان (٦ : ٥١ – ٥٢) . وكان يحيى بن زياد الحارثى صديقاً له هو وحماد الراوية ، وحماد عجرد ، وعمارة بن حمزة ، وآخرون ، كلهم ظريف متهم بالزندقة . انظر الحيوان (٤ : ٤٤٧ – ٤٤٨) . وكان المنصور يعجب بهذه الحماسية . الأغانى (١٢ : ٨٢) .

٢— راحُوا بِيَحْيَى ولو تطاوِعُنِي الْـ أقدارُ لم تَبْتَكِرْ ولم تَرُحِ[1]

لم يَرْضَ بتجرُّدِه لتلقِّي الأمر الذي دَهِمَه، وبتفرُّدِه في الجزَع للخَطْبِ المُلِمِّ به حتى طَلَبَ من ذويه وعشيرته إسعادَهُ في البُكاء لما نابَهُ فأقرَحَ قَلْبَهُ، وأسالَ دمعَهُ. وإنما فَعَلَ ذلك لأنه يَعُدُّ التعاوُنَ فيه والتَّشارُكَ، أدلَّ على تجليل الفجيعة له؛ والائتساءَ والتَّساوِيَ، أجْلَبَ للتخفيف ممَّا به. ألا تَرَى أنّ الله تعالى يقولُ في أصحابِ النار: ﴿ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾، فأيأسَهم من أن يكون اشتراكُهُم في العذاب يسلِّيهم أو يرجِعُ بضربٍ من النَّفع عليهم، على العادة في دار الدُّنيا. وقوله «قلبِيَ القَرِح» يقال. أقرَحَهُ الهمُّ فقَرِحَ وهو قَرِحٌ قريحٌ. وقيل في القَرْح هو البَثْر إذا تراقَى إلى فساد. وقوله «السَّواكب» جمع ساكِبة، ووُصِفَ الدُّموعُ به على معنى ذات سُكوبٍ، كما قيل عَيْشٌ ناصِبٌ، أي ذو نَصَبٍ على النِّسبة. والسُّفُح: جمع سَفوح، والسَّكْبُ والسَّفْحُ يراد بهما الصَّبّ إلّا أنّ السَّفحَ أبلغُ من السَّكْب، لذلك ارتقَى من السَّواكب إليه. وحكَى الخليل أنّ أهل المدينة يقولون: اسكُبْ على يَدِي. ويقال رجُل سَفّاحٌ للدِّماء، ولم يُقَل سَكّابٌ، لأنّ السَّكب لا يبلغُ حدَّ السَّفْح.

وقوله «راحوا بيحيي ولو تطاوِعُني الأقدار»، يقول مُنَبِّهاً على مِساسِ الفاقة إلى بقائه، وغلبة اليأس من الاعتياض منه: راحوا ولو أطاعني القَدَرُ ما فُجِعنا بفِراقه، فكان لا يبتكر لا غادياً ولا رائحا. ومن رَوَى بالتاء «لم تبتكر» جعل الفعلَ منسوباً إلى الأقدار يريدُ: لم تبتكر الأقدار ولم تَرُحْ به وأنا راضٍ.

(١) ل: «لم يبتكر ولم يرح» بالياء، وهذه هي الرواية التي تتلاءم مع مفهوم التفسير فيما بعد.

وإنّما قال « بَكُّوا » لأنّ فَعَّلَ يفيد التكثير من الفاعلين . وتكرير الفعل من واحدٍ حالًا بعد حال .

٣ – ياخيرَ من يَحْسُنُ البكاءُ لَهُ ال ... يَومَ ومن كان أمْسِ للمِدَحِ

٤ – قد ظَفِرَ الحُزْنُ بالسُّرورِ وقد ... أُدِيلَ مَكْرُوهُنا من الفَرَحِ

إنما ناداهُ لقوله « قد ظَفِرَ الحُزْن بالسُّرور » ، كأنَّه يريدُ إعلامَه تأثيرَ المُصابِ فيهم ، وأنّهم قد استبدلُوا بعدَه بالسُّرور حُزنًا دائمًا ، وبالفَرَحِ مكروهًا راتبًا . و « مَنْ » نَكِرة . وقوله « يَحْسُن البكاءُ له اليومَ » صفة له ، فيقول : يا خيرَ إنسان كان المدحُ فيما مضَى من الزّمان أَوْلَى به ، والبكاءُ عليه فى الحال والاستقبال أحقّ لَهُ ، قد تأدّى حالُنا بَعدك إلى أن أَبدلَنا القدرُ بالفرح تَرَحًا مُتَّصلاً ، وبالمحبوب مَكروهًا لازما .

ومعنى ظَفِرَ الحُزْنُ بالسرور وأُدِيلَ مكروهُنا ، أنّ الغَلَبَ لها حتى لا ثَباتَ للسرور والفَرَح معهما ، ولا انتِياش منهما(١) . يبيّن ذلك أنه قال « وقد أُدِيلَ مكروهُنا » أى جُعِل له على الفرح دَولةٌ . وقوله « من الفَرَح » يريد من المفروح به ، وهو المحبوب ؛ لأنه كما طابَقَ الحُزْنَ بالسرور فى الصدر ، طابَقَ للمكروهَ بالمحبوب فى العَجُز . وهذا كما يقال : لا يسرُّنى بهذا الأمر فرَحٌ ومفروحٌ به ومُفرِحٌ . والوصفُ بالمصدر ووضْعُه موضع الفاعل والمفعول مشهورٌ . وقد خرج فى هذا الكلام جوابُ سائلٍ يقول : ما الفرق بين السرور والفرح ؟ وكيف أتى بهما وهما بمعنًى واحد ؟

(١) الانتياش : الاستنقاذ ، يقال انتاشه ، أى استنقذه واستدركه وأخذه من مهوته .

٢٧٩

وقال مُطيعٌ أيضاً[١] :

١— قلتُ لِحَنّانَةٍ دَلُوحٍ   تَسُحُّ من وابلٍ سَحُوحِ
٢— أَمِّى الضَّريحَ الذى أَسَمِّى   ثم اسْتَهِلِّى على الضَّريحِ
٣— ليس من العَدْلِ أن تَشِحِّى   على فتًى ليس بالشَّحيحِ[٢]

أراد أن يدعوَ للقبر بالسُّقيا فجعَل بدلَ الدعاء سؤالاً وتمنِّيًا ، لأنَّ طريقةَ الجميع واحدةٌ فقال : قلتُ لسابةٍ فيها رعدٌ ، فكأنَّها كانت تَحِنُّ برعدها إلى شيء كحَنِين الناقة إلى وطنها أو وَلدِها . دَلُوح ، أى ثقيلة . يقال : مَرَّ البعيرُ يَدْلَحُ بحِمله ، أى يمشى متثاقلاً . والسَّحابةُ تَدْلَحُ من كثرة مائها . تَسُحُّ أى تَصُبُّ . وابلٌ : مطرٌ ضخمُ القَطرِ . سَحُوح : كثير الانصباب شديدُهُ : إن قيل : كيف جعَلَ السَّحَّ مرّةً للحنّانة ومرّةً للوابل ، والوابل يكون مصبوبًا لاصابًّا ، وما فائدة مِن فى قوله « من وابلٍ سَحُوح » فإنّ المرادَ به الكثرة ، وهم يجعلون ، إذا قصدوا إلى المبالغة ، الفعلَ الواقعَ بالشَّىء له . ألا تَرَى أنهم يقولون : مَوتٌ مائتٌ ، وشِعرٌ شاعرٌ . وهذا كما قالوا : سيلٌ مُفعَمٌ ، والسيلُ

(١) كذا نسبه أبو تمام . وفى الأغانى (١٣ : ٧٩) أن الشعر لحماد عجرد يرثى الأسود ابن خلف ، وكان يماشره ولا يكادان يفترقان . ومما يجدر ذكره هنا أن حماد عجرد كان معاصراً لمطيع بن إياس وصديقاً مواصلا له . وقد روى أبو الفرج بعد البيت الأول :

جاءت علينا ، لها رباب   بواكف هاطل نضوح

وبعد الثانى ، وهو مما يؤيد نسبته إلى حماد عجرد فى رثائه للأسود :

على صدى « أسود » الموارى   فى اللحد والترب والصفيح
فاسقيه ريا وأوطنيه   ثم اغتدى بعده وروحى
اغدى بسقياه فأصبحيه   ثم اغبقيه مع الصبوح

وكلمة الصبوح ، هى فى الأصل « الكسوح » .

(٢) فى الأغانى : « على امرئٍ » .

لا يُملأ إنما يُملأ به الشيء . وإذا كان كذلك فالسَّحُّ من الحَنّانَةِ حقيقةٌ ، والسَّحُّ من الوابل مجاز ، والمرادُ به ما ذكرنا . على أنه لا يمتنع أن يكون سَحَّ من باب فَعَلتُه ففَعَل ؛ فقد حَكَى الخليلُ : سَحَّ المطرُ والدَّمعُ ، وقال : هو شدَّة انصبابِهما . ويقال من السَّحِّ : فَرَسٌ مِسَحٌّ ، أى يَصُبّ العَدْوَ . وأرضٌ سَحَاحٌ[1] ، أى تسيل من مَطَرٍ يسير .

وقوله « أُسَمِّى الضَّريحُ الذى أسمِّى » يريدُ الذى أنصُّ عليه وأبيِّنه بذكر اسم صاحبِه ، إذ لم يكن للضريحِ اسمٌ يتميَّز به عن القبور ، فكأنَّ بيانَ الكلام : أسمِّى صاحبَه ، فحذفَ المضاف وهو صاحبٌ ، ثم أقام المُضافَ إليه مقامَه ، فجاء أسمِّيه ، ثم حذف المفعول من الصلة لطولها فبقىَ أسمِّى . ومعنى استَهِلِّى : صُبِّى . ويقال هَلَّ السحابُ بالمطرِ واستَهَلَّ وانهلَّ المطرُ انهلالاً . والأهاليلُ : الأمطار الشديدةُ الانصباب[2] . ويجوز أن يكون لمّا وصفَ السحابةَ بالحَنّانة لرَعدِها كَنَى عن المطر بالاستهلال ، لأنّه كالحَنين ، وهو رفعُ الصوت بالتلبية وغيرها ، فيكون الحنين والاستهلال للرَّعد والمطر كالسؤال والجواب . فأما قولُه « على الضريح » فتكراره تنبيهٌ على عِظَم شأنه وفَظاعة الفَجْع به . والتفخم بالتكرير يحصُل كثيراً . والضَّريح : القبر بلا لَحْد ، وهو فَعيل بمعنى مفعول ، لأنه يقال ضَرَحوا له ضريحاً . وقال الدُّريديّ : سمّى ضريحاً لأنه انضَرح عن جَالَىِ القبر[3] ، أى اندفَع فصار فى وسَطِه . وقولُه :

ليس من العدل أن تَشِحِّى   على فتًى ليس بالشَّحيحِ

يريد : ليس من الإنصاف البُخْلُ بمائك وصَوْبِك على فتًى كان لا يَبخل

---

(١) لم ترد هذه الكلمة فى المعاجم المتداولة .

(٢) قيل لا واحد للأهاليل ، وقيل واحدها هلال والجمع سماعى .

(٣) الجالان : الجانبان ، يقال جال وجول وجيل ، وهو الجانب والناحية .

بمالِه، وما يُجتدَى منه فى جاهِه وحالِه. وهذا ظاهر. وفى طريقته قول أبى تمّام:

وكيف احتمالِى للغُيوثِ صَنيعةً ... بإسقائها قبْرًا وفى لَحْدِهِ البَحْرُ

٢٨٠

وقال الأشْجَعُ السُّلَمىّ[١]:

١ — مَضَى ابنُ سعيدٍ حين لم يَبْقَ مَشْرِقٌ ... ولا مَغْرِبٌ إلّا لهُ فيه مادِحُ[٢]

يقول: فُجِعَ الناسُ بابن سعيدٍ حين كَمَل وبَرَع وشمِل نفعُه فعَمّ حتى لم يَبقَ بُقعةٌ من جوانب الشرق والغرب إلا وتَرَى فيها شاكراً لنعَمِه، حامداً لفَعالِه، مادحًا لفرط إحسانِه. وإنما يَعظُم الرُّزْء باستكمال فضائل المرثىّ، وشمول فواضِله.

٢ — وما كنتُ أدرِى مافواضِلُ كَفِّهِ ... على الناسِ حَتّى غَيَّبَتْهُ الصَّفائحُ

قوله «ما فواضِلُ كفِّهِ» استفهامٌ، وموضع الجملة من الإعراب أنه مفعولُ أدرِى وقد عُلِّق عنه، والمعنى: ما أدرى ما يقتضى هـذا السؤالُ. والفواضِلُ: جمع فاضلة، وهو اسمٌ لما يَفضُل من نَدَى كَفِّهِ فيتجاوزُها إلى

---

(١) هو أشجع بن عمرو السلمى، من ولد الشريد بن مطرود السلمى، وكان يكنى أبا الوليد، شاعر من شعراء الدولة العباسية، نشأ بالبصرة وقال الشعر وأجاد وعد فى الفحول، وكان الشعر يومئذ فى ربيعة واليمن، ولم يكن لقيس شاعر معدود، فلما نجم أشجع وأجاد افتخرت به قيس. ومدح البرامكة وانقطع إلى جعفر خاصة وأصفاه مدحه فأعجب به ووصله إلى الرشيد ومدحه فأعجب به أيضاً فأثرى وحسنت حاله. الشعراء ٨٥٧ — ٨٦١، والأغانى (١٧ : ٣٠ — ٥١) وتاريخ بغداد (٧ : ٤٥) ومعاهد التنصيص (٢ : ١٣٣) والموشح ٢٩٥ وقال التبريزى: «قال أبو هلال: كان البحترى يقول: إنه يخل. ومعنى الإخلاء أن يأتى بألفاظ حسنة ليس تحتها كبير معنى».

(٢) الأبيات رواها القالى فى أماليه (٢ : ١١٨) والحصرى فى زهر الآداب (٣ : ٢٠٩) وروى صاحب العقد (٣ : ٢٨٧) بعض أبيات هـذه الحماسية منسوبة إلى منصور النمرى.

الناس . ويجوز أن يكون فاضلةٌ مصدرًا بمعنى فَضْلٍ أو إفضالٍ ، فيكون كالعافيةِ والقائمِ من قولهم قُمْ قائمًا ، والباليَةُ من قولهم ما أباليه باليَةً[1] ، ثم لاختلافه جَمَعَهُ . والمصادرُ تُجمع إذا اختلفت ؛ على ذلك قولهم العُلوم والعُقولُ وما أشبههما . وإذا جُعِل كذلك يكون قد عدَّى فواضِلَ وهو جمعٌ مكسَّرٌ إلى قوله على الناس . وحَصَل من هذا الكلام أنّ قوله « على الناس » يتعلّقُ بفواضل على وجهين : أحدهما أن يكون فواضل جمع فاضلة ، وهو اسم للفاعل ، والثانى أن يكون فواضل جمع فاضلة ، وهو مصدرٌ ، وتعدِّى مثلِهِ ليس بكثير .

وقوله « حتى غَيَّبَتْهُ الصفائح » معناه إلى أن غَيَّبَتْهُ الصفائح . والصفائح : أحجار عِراضٌ سُقِّف بها قبرُه . يقول : لم أتبيَّنْ مقادير إحسانه عند الناس ، ومَبالغَ أياديه لديهم ، وفنونَ برِّهِ بهم ، وانصبابَ مِنَنِه إليهم ، لاختلاف مواقعها ، ولخفاء كثيرٍ منها على حَسَب قُصودِهِ فى الإفضال ، ولتبايُنِ مَواضِع الصنيعة فى التفصيل والإجمال ، إلى أن خَلَّى مكانَه فظهرت الفاقةُ على متحمِّلى نِعَمِه ، وتَظاهرَ الحمد والثَّناء من الكافّة على اختلاف منازِلهم وتباعُدِ مظانّهم ، فحينئذ بان لى كثرتُها وتوفُّرها .

٣ — فأَصْبَحَ فى لَحْدٍ من الأرضِ مَيِّتًا ... وكانَتْ به حَيًّا تَضِيقُ الصَّحَاصِحُ[2]

قوله « فى لَحْدٍ » موضعه نصبٌ على أن يكون خبر أصبح ، وانتَصَبَ « ميِّتًا » على الحال ، وكذلك قوله « حيًّا » انتَصبَ على الحال . ولا يجوز أن يكون « لَحدٍ » فى موضع الحال ومَيِّتًا خبر أَصْبَحَ ، لأنّ مَيِّتًا من الصَّدْر فى مقابلة حَيًّا من العَجُز ، ولا يكون ذلك إلا حالاً ، فكذلك يجب أن يكون

(١) المعروف « البالة » بخفف البالية .

(٢) الأمالى : « وكانت له حيا » .

ميّتا ، وإلّا اختلفا وفَسد المعنى . يقول : أصبحَ وهو ميِّتٌ يتّسع له لَحدٌ من الأرض ، وكانت الصَّحاصِحُ تَضِيقُ عنه وهو حَيٌّ . فيجوز أن تكون تَضِيقُ عن جُيوشِه وأصحابه الذين كانوا يَحيَونَ بحياته ، ويَسطُون على الدّهر بعزّته ، ويجوز أن يُريد بالضِّيق ما كان يَبثُّ من إحسانه ، ويَنتَشِر من جَدْواه فى أهل الأرض ويشمَلُهم من المنافِع بمكانه وجاهه ، فيكون التّقدير أنّها لو جُسِّمتْ لكانت الصَّحاصِحُ تضيق عنه . والصَّحصح والصَّحصَحان : الأرضُون المستوِية الواسعة . وفى طريقته للبحترى :

كانوا ثَلاثةَ أبْحُرٍ أفْضَى بهـا ... وَلَعُ المَنونِ إلى ثلاثةِ أقبُرِ

٤ ـ سَأبْكِيكَ ما فَاضَتْ دُموعِى فإنْ تَغِضْ ... فحَسْبُكَ مِنِّى ما تُجِنُّ الجَوانِحُ[١]

ضَمِن له دوامَ البُكاء ما دامت الدُّموع تُجِيبُه وتُساعده ، فإنْ عَجَزَت ونقَصتْ عن المُراد ، وانقَطعت أوان الحاجة ، فكافِيهِ منه ما تشتمل عليه جوانِحُه ، ويتضمّنُه صدرُه وفؤاده . وقولُه « ما فاضت » فى موضع الظَّرف ، أى مُدّةَ فَيضِها . وقولُه « حَسْبُكَ » مبتدأ وخَبَرُهُ « ما تُجِنُّ » . وقد يتمّ حَسْبُك بنفسه فلا يحتاجُ إلى خَبرٍ ، فيُقالُ حسبك ، وحينئذٍ[٢] يتضمّن معنى الأمر ، كأنّه يرادُ به اكتَفِ ، ولذلك يستقلُّ الكلامُ به . ويقال : غاض الماء وغِضتُه . والجوانح : الضُّلوع ، سُمِّيت بذلك لانحنائها . والجُنُوح : المَيْل .

٥ ـ وما أنا من رُزْءٍ وإن جَلَّ جازِعٌ ... ولا بسرورٍ بعد مَوْتِكَ فارِحُ[٣]

قولُه « ما أنا من رُزءٍ » تبرُّؤٌ من الجزَع على الرُّزء ، أى لستُ له بصاحِبِ

---

(١) هذا البيت لم يروه القالى . وفى زهر الآداب : « ما تكن الجوانح » .

(٢) هذا ما فى سائر النسخ . وفى الأصل : « حقيقته » .

(٣) زهر الآداب : « بعد ما مات » .

وإن جَلّ الفادِحُ ، كما أنى لستُ بسُرُورٍ به وإن عَظُم بفارِحٍ . والمعنى : أنّ المنايا والعطايا تساوت أقدارها عندى بعدك ، لأنك كنتَ المرجُوّ عندى ، والمَخُوفَ عليه لدَىّ ، فلما فاتَنى القدرُ بك أمِنْتُ من الجزَع لحادثِ شرّ ، ويئِسْت من الفرح لنائبِ خير . ولو قال بَدَلَ جازِعٍ وفارِحٍ : جَزِعٍ وفَرِحٍ ، كان أفصحَ وأكثر ، لأنّ فَعِلَ إذا كان غير متعَدٍ فالأجود والأقيس فى مصدرِه[1] فَعَلٌ ، وفى اسم الفاعل فَعِلٌ ، وإذا كان متعدِّياً فبابُه فاعِلٌ . وقد قيل فى المريض مارِضٌ ، وفى السّليم سالِمٌ ، لأنّ البابين يتداخَلان . وقولُه « ولا بسرورٍ » أى ولا بذى سُرورٍ فحذف المُضاف وأقام المُضاف إليه مقامَه .

٦ــ كأنْ لمْ يَمُتْ حَىٌّ سِوَاكَ ولم تَقُم ... على أحَدٍ إلاّ عليكَ النوائحُ[2]

٧ــ لئِنْ حَسُنَتْ فيكَ المَراثِى وذِكْرُها ... لقد حَسُنَتْ من قَبلُ فيك المدائحُ

قوله « كأنْ » مخفّف كأنّ ، واسمه مُضمرٌ ، أراد كأنّ الأمرَ أو الشأن لم يَمُتْ حَىٌّ سواكَ . والخطْبُ إذا وَقَع مستغرباً كان تأثيرُه أشدَّ ، ونَكْؤُه أوجع منه ، إذا أُلِفَ وُقوعُه ، وتُمُرِّن بتكرُّره . فيقول : إنّ المُصيبةَ عَظُم تأثيرُها فى النُّفوس ، فكأنّ موتَك بِدْعُ فَعَلاتِ الدهر ، وكأنّ النِّياحةَ لم تَقُم على مَن سواك ، إذْ كانت طوائفُ النّاس على تبايُنهم وتباعُدِ أقطارهم ، واختلاف هممهم وأوطارِهم ، تَشَارَكوا فى الجزَع لكَ ، وتشابَهُوا فى استعظام الأمر والخطْب بك ، فكأنّهم لم يَروْا مفقوداً ، ولا قامت النّوائحُ فيهم عند بكائهم هالِكًا .

وقوله « لئن حَسُنَتْ فيك المَراثى وذِكرُها » مثلُه قولُ الآخَرِ[3] :

---

(١) فى جميع النسخ : « فى مصدرهما » .
(٢) رواية زهر الآداب : « كأن لم يمت حى سواه ولم يقم على أحد إلا عليه » .
(٣) هو مطيع بن إياس . البيت الثالث من الحماسية ٢٧٨ ص ٨٥٣ .

يا خيرَ مَن يحسُنُ البكاءُ له الـ ... يَوْمَ ومَن كانَ أمسِ لِلمدَحِ

وقد تقدّم القولُ فى لام لَئِن واليمينِ المضمَرة فى الكلام[1] . والجواب لقد حَسُنَتْ ، وقوله حَسُنَتْ فى موضع تَحْسُنُ ، لأنّ حرف الشّرط نَقَل المُضِيّ إلى الاستقبال ، وجوابُ الشّرط بالفاء هاهنا وقد حُذف كأنّه قال : إن يحسن الرّثاء لك وفيك ، الآنَ وفى مستقبَلِ الزّمان ، فَلَلْمدائحُ فيما مضى كانت حسنةً فيك .

٢٨١

وقال يَحيَى بنُ زيادٍ[2] :

١ – نَعَى ناعِيَا عَمرٍو بِلَيْلٍ فَأَسْمَعَا ... فَرَاعَا فُؤاداً لا يَزَالُ مُروَّعا[3]

يقول : خَبّرَ النّاعيان بموتِ عَمرٍو ليلًا ، فأبلغا الخبر وهو فظيع مُنكَر ، وفزّعا قلباً لا يزالُ مُفزَّعًا . وإنما قال بليلٍ لأنّهما لم يصبرَا إلى مجىء النهار استعظاماً للخَطْب ؛ لأنّ اللّيل لمّا كان أخْفى للوبلِ صار سَعْىُ الناعيين فيه أدلّ على استفحال الرُّزء . وقوله « أسْمَعَا » حَذَف مفعولَيه لأنّ المراد أسْمعا النّاسَ نَعِيَّهُ ، وهو بتجرُّد من المفعول يُستعمل فى المكروه كثيراً ، ولأنه إذا أطلق

(١) منها البيت ١٧ من الحماسية ٢٧٣ .

(٢) هو أبو الفضل يحيى بن زياد الحارثى ، قال التبريزى : « وهو خال أبى العباس السفاح » . وهو خطأ ، والصواب أن أباه زيادا هو خال أبى السفاح . قال المرزبانى فى معجمه ٤٩٧ : « يحيى بن زياد بن عبيد الله بن عبد المدان – وهو عمرو – بن الديان – هو يزيد – ابن قطن بن زياد بن الحارث بن مالك بن ربيعة بن كعب بن الحارث بن كعب . وزياد بن عبيد الله خال أبى العباس السفاح ، وقلده المدينة فى خلافته . ويحيى يكنى أبا الفضل » . وأنشد المرزبانى البيت الأول والثالث من هذه المرثية .

وكان يحيى معاصراً لمطيع بن إياس ، وقد سبق ذكره فى الحماسية ٢٧٨ التى يرثيه بها مطيع بن إياس . وقد سجل مطيع أن يحيى كان خطيباً أديباً ، وذلك فى مرثية له فى الأمالى (١ : ٢٧٠) :

ما الذى غالك أن تحـير جوابا ... أيها المصقع الخطيب الأديب

(٣) المرزبانى : « كان قدما مروعا » .

مُبهمًا فالإطلاق فى مثل هذا المكان أبلغُ ، وإنما قال « مُرَوَّعاً » إيذانًا بأن ذلك الرَّوع ثبت فى القلب حتى لا إفاقة منه . ويجوز أن يريدَ أنّه مرَزًّاً فى الكرام ، فهو الدَّهرَ قلِقٌ لا يسكن ، وحَذِرٌ لا يأمن .

٢– وما دَنِسَ الثوْبُ الذى زَوَّدوكَهُ وإن خَانَهُ رَيْبُ البِلَى فتقطّعا

الدَّنَسُ : لَطْخُ الوسَخِ ونحوِه حتى فى الأخلاق . يقال : هو دَنِسُ المُروءةِ ، وقد دَنِسَ عِرضُهُ . ونبّهَ بهذا الكلام على أنّ زاد المُتوَفَّى من الدنيا كَفَنُه ، وأنّ ما كُفِّن فيه المتوفَّى بَقِيَ طاهِراً لطهارة نفسه وعُنصُرِه ، وأنّه كان يَجِبُ بقاؤه جديداً لا يؤثِّر فيه البِلى ، ولا تَسبِقُ إليه الخُلوقةُ ، وأنّ تأثيرَ رَيبِ الدَّهر فيه بالتقطيع خِيانَةٌ منه . وكل هذا تعظيمٌ للمرثىّ ، وأنّ حالَهُ بخلاف أحوال غيره حيًّا وميِّتا . ومعنى « خانَهُ رَيْبُ البِلَى » أى نزول البلى ، قال أبو عُبيدة : يقال رابَ عليه الدَّهْرُ ، أى نَزَلَ[1] .

٣– دَفَعْنا بِكَ الأيّامَ حَتى إذا أتَتْ تُرِيدُكَ لم نَسْطِعْ لها عَنْكَ مَدفَعا

يجوز أن يريد بالأيّام نوائبَ الأيام وأحداثَها لحذف المضاف وأقام المضافَ إليه مقامَهُ ، ويجوز أن يريدَ الأيّام أنفُسَ الأحداث ، فسمّاها أيّامًا كما تُسمّى الوقَعاتُ بها ، وكما قال الله عزّ وجلّ : ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُها بَيْنَ النَّاس ﴾ . ومعنى « حتى إذا أتَتْ تُرِيدُكَ » موضع تُرِيدُكَ نصبٌ على الحال ، أى مُرِيدةً لك . وفائدة حتى الغايةُ : كأنّه قال : دافَعْنا الأيامَ بك وبمكانِك إلى وقت مجيئها مُرِيدةً لكَ ، فحينئذٍ لم تقدِر على دفاعها . وقوله « لم نَسْطِع » أراد نستطع فحذفَ منه تخفيفًا لكثرته فى الكلام . يقال اسطاع يَسْطيع ، بمعنى استطاع

(١) هذا نص لغوى نادر .

يستطيع ؛ وقد حكى أَسطَاعَ بفتح الهمزة يُسطِيعُ بضم الياء ، وليس هذا من الأول لأنّ هذا فى معنى أطَاعَ .

٤ – مَضَى فمضَتْ عَنِّى به كُلُّ لَذّةٍ تَقَرُّ بها عَيْنَاىَ فانْقَطَعَا مَعَا

يقول : مَضَى عَمْرٌو لسبيله فانقطعت عنِّى لذّات الدنيا ، وفارقَتْنى بفراقه ، فانقطَعا مجتمعَيْن ومصطحبين . وموضع « تَقَرُّ بها عيناىَ » جرٌّ على أن يكون صفةً للذّةٍ ، أى كلُّ لَذّةٍ تبرُدُ لها عيناى لها وتُسَرُّ نفسى بحصولها . وقوله « مَعا » فى موضع الحال . وقوله تَقَرُّ بها عيناى ، قيل هو من القَرار ، وقيل هو من القُرّ : البَرْد . وهذا أقرب لأنّه يقال فى ضدِّه : سَخُنَت عينه ، وهو سُخْنة العَين(١) .

٥ – مَضَى صَاحِبِى واستَقْبَلَ الدَّهْرُ صَرْعَتِى ولا بُدَّ أن أَلقَى حِمَامِى فأُصْرَعا

هذا فى طريقة قوله :

فغَبَرْتُ بعدهمُ بعيشٍ ناصبٍ وإخالُ أنِّى لاحِقٌ مُستَتْبَعُ(٢)

ومعنى « استقبل الدَّهرُ صرعتى » توطينٌ للنَّفس على أنَّها بمَدرَجة الدَّهر ، فهو ينتظر إيقاعه بها وكأن قدْ . ومعنى استَقبَلَ الدَّهرُ صرعتى ، أى إماتَتِى ، كما يقال « لِكلِّ جَنْبٍ مَصْرَعُ(٣) » . ومعنى « لا بد » : لا محالة ، وهو من البَدَد : الاتِّساع والتفريج . كأنّه تضايَقَ الأمرُ فيه فلا اتِّساعَ معه ، ويقال : لا بد من أن يكون كذا ، ولا بدَّ أن يكون كذا ، و « أنْ » يُحذف حرف الجرِّ معه كثيرا .

---

(١) السخنة ، بالضم : مصدر ، كالسخونة .

(٢) البيت لأبى ذؤيب الهذلى فى ديوان الهذليين (١ : ٢) والمفضليات (٢ : ٢٢١) وجمهرة أشعار العرب ١٢٨ ، والخزانة (١ : ٢٠٢) وشواهد المغنى ٩٢ .

(٣) من قول أبى ذؤيب الهذلى ، قبل البيت السابق :

سبقوا هوى وأعنقوا لهواهم فتخرموا ولكل جنب مصرع

٢٨٢

وقال ابنُ المقفَّع[1] يَرْثِي يحيى بنَ زيادٍ[2] :

١ — رُزِئْنا أبا عمْرٍو ولا حَيَّ مِثْلَهُ فَلِلّهِ رَيْبُ الحادِثاتِ بمَنْ وَقَعْ[3]

يقول : أُصِبْنَا بأبى عمرو ، وهو مفقودُ النَّظير ، معدومُ الشَّبيه . فموضع « ولا حَيَّ مثلَهُ » نَصْبٌ على الحال ، والعامل فيه رُزِينا . ثمَّ قال على وجه التعجُّب : لله رَيبُ الدهر بأىِّ رجل وقَع . فقولُه « بمَنْ وقع » منقطَع مما قبله وإن كان فاعلُ وقع الضميرَ العائدَ إلى الرَّيب المستكنَّ ، لأنَّ قوله « لله ريبُ الحادثات » كلام مستقلٌّ بنفسه فيما يُفيد من إكبار الشَّانِ وتفظيع الحال . وإضافةُ الشَّىء إلى الله عزّ وجلّ تفخيمٌ وتعظيم ، على ذلك قولهم : بَيتُ الله — وإن كان المساجدُ لله[4] — ولله دَرُّه . وقوله « بمن وقع » مستقلٌّ بنفسه أيضاً وفيه استعجاب من أن يكون الدّهر يَعرِض لمثله أو يَهُمُّ به مَعَ فخامة أمرِه وجلالةِ نفسه . ولو قال : وبمن وقع ، فزاد واوًا ، لـكان أكشفَ فى المعنى

---

(١) هو عبد الله بن المقفع ، من أشهر كتاب العربية ، فارسى الأصل ، ولد مجوسيا فى العراق ، وأسلم على يد عيسى بن على عم السفاح ، وولى كتابة الديوان للمنصور العباسى . واتهم بالزندقة فقتله فى البصرة أميرها سفيان بن معاوية المهلبى . والمقفع : لقب أبيه واسمه داذويه ، وكان الحجاج قد ولاه خراج فارس فأخذ الأموال فعذبه فتقفعت يده . وقال ابن مكى : الصواب المقفِع بكسر الفاء ، لأنه كان يعمل القفاع : جمع قفعة بالفتح ، وهو شىء يعمل من الخوص شبيه بالزنبيل لا عروة له . أخبار الحكماء للقفطى ١٤٨ وابن خلكان (١ : ١٤٩ — ١٥١) فى أثناء ترجمة الحسين بن منصور الحلاج ، والفهرست ١١٨ وخزانة الأدب (٣ : ٤٥٩) وأمالى المرتضى (١ : ٩٣) .

(٢) التبريزى : « وقيل يرثى ابن أبى العوجاء عبد الكريم » .

(٣) مثله ، جاءت روايتها بالنصب فى جميع النسخ ، وكذا التبريزى ، على أن تكون صفة لحى ، والخبر مقدر . وقال السيوطى فى همع الهوامع (١ : ١٤٦) : « حذف خبر هذا الباب — يعنى باب لا — غالب فى لغة الحجاز ملتزم فى لغة تميم وطيىء ، فلم يلفظوا به أصلا » .

(٤) أى خصصت الكعبة باسم « بيت الله » تشريفا لها وإن كان كل مسجد لله . وفى القرآن الكريم « وأن المساجد لله » . وفى نص التبريزى : « وإن كانت المساجد كلها لله » .

المرادِ به[1] . ولا يمتنع أن يكون بمن وقع فى موضع الحال ، كأنّه قال : لله رَيْبُ الحادثات واقِعًا بمن وَقَع ، ومؤثِّرًا مُوجِعا ، ويكون حالا للرَّيب ، والعامل فيه ما دلّ عليه لله ريبُ الحادثات .

٢ — فإن تَكُ قد فارَقتَنا وتركتَنا ذَوِى خَلَّةٍ ما فى انْسِدادٍ لها طَمَعْ

٣ — فقد جَرَّ نَفْعًا فَقْدُنا لكَ أَنَّنا أمِنَّا على كلِّ الرَّزايا مِنَ الجَزَعْ

حذْف النون من تَكُ قد تقدَّمَ القولُ فيه . والمعنى إن فارقْتنا والوَهىُ بك لا يُرقَع ، والخَلَّةُ بك لا تُسَدُّ ، وحديثُ النَّفس بالطَّمع فيك لا يَخطُر بالقلب ولا يَجولُ فى الفِكر ، فقد جَلَبَ إلينا فَقْدُك نفعًا ، وهو أمْنُنا من تسلُّط الجزَع علينا لرزيئةٍ مستأنفةٍ ، أو نَكبةٍ معترِضة ، إذْ كان خَوفُنا عليك ، وحذَرُنا فيك . وقوله « ما فى انسدادٍ لها طمع » فى موضع الجرّ ، لأنّه صفةٌ لخلّةٍ . يريدُ ما لنا طَمَعٌ فى انسدادٍ من أجلها وبَعْدَها يحصُل . وجوابُ إن تَكُ ، الفاء مع ما بَعدها من قوله « فقد جَرَّ نَفْعًا » ، وإنما جُلبَ الفاء لمخالفة الجزاء للشّرط بكونه مبتدأ وخبرا ، والمبتدأ محذوف كأنّه قال : والأمر والشّأن قد جر فقدُنا لك نفعًا . وقوله « إننا أمِنّا » إذا كسرتَ الهمزة من إنّ يكون على الاستئناف ، ويكون جملة الكلام تفسيرًا للنَّفع المستَجَدّ له ، وإذا رويت « أَنّنا » بفتح الهمزة يكون بمعنى لأنّنا أمِنّا ، فيكون الكلام بيانا لعلّةِ حصول النَّفع . ويجوز أن يكون موضع أنّنا نصبًا على البدل من نَفْعًا .

وقولُه « على كلّ الرزايا » ، على تعلّق بقوله أمِنّا ، يقال هو آمِنٌ على كذا ، وقد أمِنتُ على مالى عند فلانٍ من امتداد الأيدى إليه ، أى لا تمتدّ ، كذلك أمِنّا على كل الرزايا من الجزع ، أى لا نَجْزع . وأتى بلفظة العموم فيه ،

(١) هذا ما فى الأصل ، وفى سائر النسخ : « المراد منه » .

وهو كُلٌّ ، إيذانًا بتساوى الخطوب عنده ، وانحطاطِها عن درجة المُصاب به وفيه ، حتى لا جَزَعَ يتجدَّدُ بَعدَه لحادثٍ يحدُثُ ولا يجوز أن يتعلّق قوله «على كلّ الرزايا» بقوله : من الجزع ، لأنه لو كان كذلك لكان فى صلته ، والصّلة لا تتقدّم على الموصول .

٢٨٣

وقال بعضُ بنى أَسدٍ :

١ — بَكّى على قَتلَى العَدَانِ فإنّهمْ طالت إقامتُهُمْ ببطْنِ بَرَامِ[1]

٢ — كانوا على الأعداء نارَ مُحرِّقٍ ولقومِهِمْ حَرَمًا من الأَحْرامِ

يخاطب امرأةً والنساء كُلُّهنّ عندهُ تلك المرأة ، فيقول : أكثِرى البُكاء على المقتولين بهذا المكان — وقيل العِدَانُ[2] ساحل من سواحل البحر — والمدفونين ببطن بَرامٍ ، فقد طالت إقامتُهم . والمراد أنّ اليأس منهم قد حصَلَ وقَوِىَ ، وأنّ غيبتَهم اتّصَلَتْ فرُفِعت الأطماعُ من عَودِهم والاجتماع معهم . ثم أخذ يصفُهم فقال : كانوا على المنابِذين والمخالِفين كنار هذا الملك ، لا تُبقى ولا تَذَر — ومحرِّق هو عمرو بن هِند ، وكان نَذَرَ أن يُحْرِق مائةَ نفس ، ففعل ، فضُرِبَ المثلُ بناره — وكانوا لقومهم حَرَمًا من الأحرام ، لا مخافةَ فيهم ولا هضيمة . يريدُ أنّ قومَهم يأمَنون نزولَ النوائب بهم فى فنائهم ، فكانوا كمن

(١) العدن ، بالكسر فى جميع النسخ ، ما عدا م والتبريزى ، فهى فيهما بالفتح ، وقد أنشد ياقوت هذه الحماسية فى (عدان) بعد أن قال : « عدان النهر بالفتح : ضفته » . والعدان بالفتح هى عند التبريزى قبيلة من قبائل أسد . قال : « العدان من بنى أســد ثم من بنى نصر ابن قعين ، وأصل العدان فى اللغة ساحل من السواحل . وبرام وخزام ببلاد بنى عامر » . وقال ابن منظور فى اللسان (عدن) : « والعدان قبيلة من أسد » . ثم أنشد هذا البيت .

(٢) اتفقت النسخ على ضبطها هنا بكسر العين .

حَصَل فى الحرَم ، وأن أعداءهُمْ كانوا يحترقون بنكاياتهم فيهم ، فكانوا عليهم كنار هذا الملك .

وقوله « مُحَرِّق » وإن كان صفةً فى الأصل ، فصار بالاشتهار فى رجُل واحدٍ كالعَلَم له . وعلى هذا جاء فى قوله :

* عليهنّ فتيانٌ كساهُم مُحَرِّقٌ[1] *

وقوله :

* إليك ابنَ ماءِ المُزْنِ وابنَ مُحَرِّقٍ[2] *

وقولُه « حَرَمًا من الأحرام » نكَّرهُ لاختلاف الأحرام . وهى حَرَم الله تعالى بمكة والشام ، وحَرَمُ الرّسول عليه السلام بالمدينة .

٣ – لا تَهلِكى جَزَعًا فإنّى واثقٌ برماحِنا وعَواقِبِ الأيّامِ

هذا الكلام تسليةٌ لها وإن كان أمرَها بالبكاء ، وإيذانٌ أنه سيُدرك الثأر ، فهو ينتظر عُقَب الأيام وانتهاز الفُرص . ونَبّه بقولِه « واثقٌ برماحِنا » على الغَناء عندهم ، وأنّ العناية متوفِّرةٌ من جهتهم . وانتصب « جَزَعًا » على أنه مصدرٌ لعلّةٍ ، ولا يمتنع أن يكون فى موضع الحال يُريدُ جازعةً ، وهذا الجزع الذى نهاها عنه ليس يريدُ به الُحزنَ لفَقدِه ، وإنما يُريدُ الحزنَ لسلامة الواتر على مرّ الأيام لا غيرُ . ألا ترى أنه قال : فإنى واثقٌ برماحنا . وقولُه « عواقبِ الأيام » يُشيرُ فيه إلى تغيُّر الزمانِ واختلاف الحَدَثان ، وأن الدّهرَ

(١) للحصين بن الحمام . الحماسية ١٣٣ ص ٣٨٩ . وعجزه :
* وكان إذا يكسو أجاد وأكرما *

(٢) ابن ماء المنذر ، عنى به النعمان بن المنذر بن ماء السماء . ونحوه ما ورد فى شروح سقط الزند ١٣٩٨ من قول سعيد بن أنيس يخاطب النعمان :
إليك ابن ماء المزن أقبلت بعدما مضى لى سبع من دخولى على أهلى

كما يُعطي يَرتجع . وكما يولِّي ينتزع ، فغِيَرُه لا تؤمَن ، وأحداثُه على حالةٍ واحدة لا تقِفُ(١) .

٢٨٤

وقال آخر :

١ — نَعَى لي أبا المِقْدَامِ فاسودَّ مَنْظَرِي ‌‌ ‌‌ من الأرضِ واستكَّتْ عليَّ المَسامعُ

٢ — وأقبلَ ماءُ العَيْنِ من كلِّ زَفْرَةٍ ‌‌ ‌‌ إذا وَرَدَتْ لَمْ تَسْتَطِعْها الأضالِعُ

يقول : خَبَّر الناعي بموت أبي المِقدام فدِيرَ بي ، وأصبحَتِ الدنيا مُظلمةً في عيني ، وأورَثَ خبرُه صَمَماً في أُذُني ، فلا الأذُن تأذَنُ للكلام على ما كانت تعملُ ، ولا العين تُدرِكُ المرئيّات إدراكَها مِن قَبل ، كلُّ ذلك لتأثير نَعِيِّهِ في الحواسِّ التي هي طُرُق العلوم وتبيُّنِ المشاهَدات . وبعد ذلك أقبل الدّمعُ يَسِيلُ في إثْرِ زَفَراتٍ اتصلَتْ وتعاقَبَتْ ، وكل واحدةٍ منها لامتلاء الصدر بها كادَتِ الضلوع تستقيم لورودِها . والزَّفرة : أن يَتردَّد النَّفَس في الصدر ثم يمتلئُ منه ويَزْفِرَ به ، أي يَرْمِي . وقد أومأ أبو تمّام إلى هذا المعنى وإن يصرِّح تصريحَه في قوله :

وما للدّارِ إلاّ كلُّ سَمْحٍ ‌‌ ‌‌ بأدمُعِهِ وأضـــلعِهِ سَخِيِّ(٢)

فأمّا أبو عُبَادة ففي قوله :

ووراءهم صُـــعَداءُ أنفاسٍ إذا ‌‌ ‌‌ ذُكِرَ الفراقُ أَقَمْنَ عُوجَ الأضْلُعِ(٣)

قد بالَغَ في الإبانة كلَّ المبالغة . وقوله « استكَّتْ عليَّ المَسامعُ » فالمَسامع :

(١) روى التبريزي بعد البيت الأخير من هذه الحماسية :

عاداتُ طَيّ في بني أَسَدٍ لَهُمْ ‌‌ ‌‌ ريُّ القَنا وخِضابُ كلِّ حُسامِ

(٢) ديوانه ص ٢٤٣ . ‌‌ (٣) البحتري ص ١٠٠ .

جمع المِسْمَع بكسر الميم ، وهو الأذُن . والمَسْمَع ، بفتح الميم : موضع السَّماع وقوله « استكَّت » من قولهم بئر سَكُوكٌ ، إذا كانت ضيِّقة الخَرْق . فإذا أريد الصَّمَمُ وقيل استكَّت أذُنُه فحقيقته ضاقَ صِمَاخُها ، وهو الخَرْق الباطنُ المُفضِى إلى الرَّأس .

٢٨٥

وقال آخر :

١ ــ قد كان قَبلَكَ أقوامٌ فُجِعْتُ بهم   خَلَّى لنا هُلْكُهمْ سَمْعًا وأبْصَارَا[١]

٢ ــ أنت الذى لَمْ يَدَعْ سَمْعًا ولا بَصَرًا   إلاّ شَفًا فأَمَرَّ العيشُ إمرارا

قولُه « فُجِعْتُ بهم» الجملة فى موضع الصِّفة لقوله أقوامٌ . وخَلَّى لنا هُلْكُهم ، فى موضع خبر كان . والمعنى : قد فُجِعْتُ فيما مضى من الزمان بأقوامٍ جَزِعْتُ لهم بل هَلِعْتُ ، وأقمتُ الرَّسمَ فى البكاء عليهم بل أسرفْتُ ، فبقَّى الفَجْع بهلاكهم لى ولمن تَبِعَنى واقتدَى بى ، السَّمعَ والبصَرَ بعدَهم ، فزجَّينا الوقتَ مستمتِعِين بما سَلِمَ من حواسِّنا ، وعائشِين مع الناس فى باقى عُمرِنا ؛ فلما أُصِبْنا بك استَمدَّت قوانا ، واستنزَلَتنا عن ذخائر صبرِنا ، فبَطَلَت طرائق العُلوم مِنّا ، وتناهَت فى العَجْز عنا حوامِلُنا إلاَّ شَفًا ، فطالت شِقْوتنا ، وأمرَّ عَيْشُنا . والشَّفَا : الباقى من الشىء القليل . ويقال : ما بَقِىَ من النهار إلا شَفًا ، أى مقدارُ ما بين الليل والنهار حين غَرَبت الشمس .

وقولُه « لم يَدَعْ » بالياء ، هو أقْيَسُ الرِّوايتين ؛ لأن الصِّلَة جاءت على حَدِّها مع الموصول . وإذا رويتَهُ بالتاء فعلى الخطاب ، وساغَ لأنَّ المخاطَب

(١) التبريزى : « لنا فقدهم » .

والذى مرجعُهما إلى شىء واحد، وقد مضى مثله[1]، فاعلَمْه. وقال المازنىُّ: لولا كثرة مجيئه لردَدْتُه. ومثله:

* أنا الذى سَمَّتنِ أُمِّى حَيْدَرَهْ[2] *

وقال سَمْعًا وأبصارًا لأنّ السمعَ اسمُ الجِنس، فهو كالجمع.

٢٨٦

وقال نَهشَلُ بنُ حَرِّىّ[3]:

١ — بنَفْسِى خَلِيلاَىَ اللَّذانِ تَبرَّضَا دُموعِى حتى أسْرَعَ الحُزْنُ فى عَقْلِى[4]

تعلّق الباء من «بنفسى» بفعلٍ مضمرٍ دلّ عليه جَلِيَّةُ الحال، وقرينة الكلام، كأنه قال: أفدى بنفسى مَن أخَاله. ومعنى «تبرّضا» أفنيا دُموعى شيئًا فشيئًا، وقليلاً قليلاً؛ لأنّ التبرُّض التبلُّغُ والتطلُّب من هاهُنا وهاهُنا. وماء بَرْضٌ، أى قليل. وبَرَضَ لى من مالِهِ بَرْضًا، إذا أعطاك القليل. قال:

(١) انظر ما سبق فى ص ١١٥، ٤٠٧.

(٢) لعلى بن أبى طالب، كما سبق فى حواشى الموضعين السابقين.

(٣) اقتصرت نسخ المرزوقى على هذه النسبة. ونص التبريزى: «وقال الشمردل بن شريك، أو نهشل بن حرى». والنسبة إلى الشمردل هى الصواب، فقد روى أبو الفرج فى الأغانى أنه كان له أخ يدعى قدامة جاءه نعيه فى يوم، ثم تلاه نعى أخيه وائل بعده بثلاثة أيام فرثاهما بالقصيدة التى منها البيت الأول من هذه الحماسية. انظر الأغانى (١٢: ١١٢ — ١١٣).

وأما نهشل الذى تنسب إليه هذه المرثية خطأ فهو نهشل بن حرى — كلفظ المنسوب إلى الحر بالفتح — بن ضمرة بن ضمرة بن جابر بن قطن بن نهشل بن دارم. شاعر شريف مخضرم بقى إلى أيام معاوية، وكان مع على فى حروبه، وقتل أخوه مالك بصفين وهو يومئذ رئيس بنى حنظلة، فرثاه نهشل بمراث كثيرة. وجده ضمرة بن ضمرة كان اسمه شقة بن ضمرة، فسماه النعمان ضمرة باسم أبيه، إعجابا به، بعد أن قال فيه المثل السائر: تسمع بالمعيدى لا أن تراه! ابن سلام ١٣٠ والاشتقاق ١٥٠ والأغانى (٨: ١٥٣ — ١١/١٥٤: ١٣٤) والخزانة (١: ١٤٧ — ١٥٢) والإصابة والشعر والشعراء ٦١٩ — ٦٢١ ووقعة صفين ٢٩٩ — ٣٠٢.

(٤) صدره فى الأغانى: * سبيل خليلى اللذين تبرضا *

لَعَمْرُكَ إنِّى وطِلاَبَ سَلْمَى لَكالمتبرِّض الثَّمَدَ الظَّنُونا[١]

والمعنى فَدَيْتُ بنفسى صديقىّ اللذين نَضَبَ فى البكاء لهما دموعى ، وتأدَّى إلىَّ الحزنُ[٢] إلى أن عَمِل فى عقلى فأزالَه ، فَدَمعى وصَبرى مستنفَدان لتأثير الفجيعة بهما . وجَمَل الفعل فى تَبَرَّضا للخليلين ، وحَقُّ الكلام تَبَرَّض الحزنُ لهما والبكاءُ عليهما دموعى ، إلى أن أسرعا فى عَقْلى فصار والِهًا .

٢ – ولولا الأُسَى ماعِشْتُ فى الناسِ بعدَهُ ولكن إذا ما شِئْتُ أسعَدَنى مِثلى[٣]

قوله « ما عشْتُ فى الناس » أى مع الناس ومختلطا بهم ، فموضعُ فى الناس نَصْبٌ على الحال ، والكلام جواب لولا ، وخبر المبتدأ الذى هو الأُسَى محذوفٌ استُغنِى عنه بجواب لولا ، والمعنى لولا أنَّ لى بالناس إُسوةً فى مصائبهم ، فأورثنى ذاكَ تماسكاً وصَبرًا ، لقتلتُ نفسى فلم أعِشْ ساعةً من عمرى ، ولكن متى شئتُ وجدتُ لنفسى أقرانًا إنْ دعَوتُهم أجابونى ، وإن استسعدتُهم أسعَدونى . والإسعادُ ، قال الخليل : يُستعمل [فى المساعَدة[٤]] على البكاء خاصّةً ، ومثله :

ولولا كثرةُ الباكِينَ حَوْلِى على إخوانهم لقتلتُ نَفْسِى[٥]

٢٨٧

وقال أيضاً[٦] :

١ – أغَرُّ كمِصباحِ الدُّجُنَّةِ يَتَّقِى قَذَى الزَّادِ حتى يُستَفادَ أطايبُه[٧]

(١) أنشده فى المقاييس (برص) واللسان (ثمد) بدون نسبة .

(٢) فيما عدا نسخة الأصل : « وتأدى الحزن » .

(٣) التبريزى : « فى الناس ساعة » .

(٤) هذه من سائر النسخ ، وهى ساقطة من نسخة الأصل .

(٥) البيت للخنساء . ديوانها ص ٥٠ .

(٦) زاد التبريزى : « والمرثى مالك بن حرى أخو نهشل : ويكنى أبا ماجد ، قتل بصفين مع على ، وكان شجاعا » . وانظر بعض مراثيه فى وقعة صفين ٢٩٩ – ٣٠٢ .

(٧) التبريزى : « حتى تستفاد » .

الدُّجُنَّة : الظُّلمة ؛ وليلةٌ مِدْجَانٌ . والدَّجْن : إلباس الغَيم ؛ ويقال : هو يَومُ دَجْنٍ . وأراد بقوله « أغَرُّ » إنّه كريمٌ نقِيُّ العِرض أبيضُ الطَّلعة ، فكأنّه فى تلألُؤِه ونُور وجهه وتهلُّله مصباحُ الظَّلام . ومعنى « يتّقِى الزّادَ » أنّه يزهد فى خبائث الزّاد وما يشين أخْذُهُ وتَطَعُّمه ، إلى أن يستفيد الطيِّبات منه . ويُشيرُ بقَذَى الزّاد إلى ما يُفِىء عليه غَدرٌ أو غُلول ، أو مَخانَةٌ[١] أو ابتذالٌ . ويُشِيرُ بالطيِّبِ إلى ما كان من حِلِّه ووجهه ، لا عارَ فى اكتسابه ، ولا بِذلة فى احتجانه[٢] . وبعض الناس[٣] روَى : قَدَى الزّاد » ، والقدَى : الرائحة الطيِّبة ، يقال قِدْرٌ قَدِيَةٌ ، إذا كانت طيِّبة الرائحة . كأنّ المراد عنده : لا يتشمّمُ الزادَ ورائحته حتى يتيقّنه طيِّباً . والأوّلُ الأصحُّ والأجود ، وذلك أنّه أراد بالقَذَى الخبيثَ ، وقد طابَقَ الطيِّبَ به ، كما قال الآخر[٤] :

* وما كان زادى بالخبيث كما زَعَمْ[٥] *

وذِكْر القدَى مستَبعدٌ هاهنا ، ولا فائدة فى إبقائه له ، ويغلِبُ فى ظَنّى أنّه تصحيف .

٣ — وهَوّنَ وَجْدِى عن خَلِيلِىَ أنّنِى   إذا شِيتُ لاقَيْتُ امرأً ماتَ صاحِبُهْ

---

(١) أى ما يكسبه بهذه الطرق الخبيثة . والمخانة : الخيانة . وفى الأصل : « مخافة » ، صوابه فى ل . وهذه العبارة ساقطة من م . وفى ل : « غدرا أو غلولا أو مخانة أو ابتذالا » بالنصب ، وله وجه .

(٢) كذا على الصواب فى ل ، م والتيمورية . والاحتجان : الجمع والاكتساب . وفى نسخة الأصل : « فى احتجابه » ، وليس بصواب وإن كان موافقا للسجع .

(٣) هو ابن جنى فى التنبيه . وقال : « لام القدا واو ، وهو رائحة الطعام . يدلك على ذلك ما حكاه أبو زيد قداوة الطعام » .

(٤) هو راشد بن شهاب اليشكرى . المفضلية ٨٦ .

(٥) صدره : * ولكن أنباء أتتنى عن امرئ *

٣ — أخٌ مَاجِدٌ لم يُخْزِنِى يَوْمَ مَشْهَدٍ كما سَيْفُ عَمْرٍو لم تَخُنْهُ مضارِبُهْ

يقول : خَفَّفَ وجدى بخليلى لمّا أصبتُ به ائتسائى بغيرى من النّاس ، لأنى متى شئت لاقيتُ مَن امتُحِن بمثل مِحنتى . ثم قال « أخٌ ماجدٌ » أى خليلى وصاحبى أخٌ ماجد ، لم يُهِنِّى يوم حَفلٍ ولم يَخذُلْنى عند احتشادٍ وجَمعٍ ، ولا جَلَبَ علىَّ فى مَشهدٍ من المشاهد ما أَستحيِى منه أو أَخْزَى له ، بل كان لى عند ما أدعوه له مُجيباً ، وفى الشَّدائد عَونًا وظَهيرا ، لا يتغيَّبُ عنى ولا يَفتُرُ معى ، كصَمْصَامَةِ عَمْرٍو[1] ، له نفاذٌ حيث أعْمَلَه ، ومضاءٌ عند ما يَهُزُّهُ ، لا يَخُونُ ولا يرتدُّ ، فكذلك كان صاحبى . وارتَفَع قوله أخٌ ماجدٌ على أنه خَبَرُ مبتدإ مضمرٍ . وقوله « كما سيفُ عَمْرٍو » لو رويتَ « كما سَيْفِ عَمْرٍو » لجاز ، تجعَلُ ما صلةً وينجرُّ السّيف بالكاف . ومثله قوله :

كَما العَظْمِ الكسيرِ يُهاضُ حَتَّى يَبِتَّ وإنَّما بدأ انصِدَاعا[2]

تَجُرُّ العظمَ بالكاف ، وإن رفَعْتَهُ كان مبتدأً ، وكذلك إذا رفَعْتَ سَيْفُ ، ويكون ما من قَوْلِهِ ما الكافّة ، ويكون مثل ما من قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كفَرُوا لو كانوا مُسلِمِين[3] ﴾ . والضمير من قوله « لم يخُنْه » يرجع إلى عَمْرو ، ويجوز أن يرجع إلى السيف أيضاً .

---

(١) التبريزى : « وكان سيف عمرو لا ينبو ، فاستوهبه عمر بن الخطاب فوهبه له ، فقيل لعمر إنه غيره وإنه ضن بالصمصامة ، فذكر عمر ذلك فغضب عمرو بن معديكرب وقال : إنما أعطيتك السيف لا الساعد ! » . وفى اللسان (صمم) أنه أهداه لسعيد بن العاص .

(٢) البيت للقطامى فى ديوانه ص ٣٧ من قصيدة يمدح بها زفر بن الحارث .

(٣) الآية الثالثة من سورة الحجر . و « ربما » قال أبو حيان : « لم تقع فى القرآن إلا فى هذه السورة على كثرة وقوعها فى لسان العرب » . وقال : « وقرأ عاصم ونافع : ربما ، بتخفيف الباء ، وباقى السبعة بتشديدها ، وعن أبى عمرو الوجهان . وقرأ طلحة بن مصرف وزيد بن على : ربّتما بزيادة تاء » . وقد جاءت « ربما » فى الأصل و ل ، م بتشديد الباء .

٢٨٨

وقال أَسْوَدُ بنُ زَمَعَةَ(١) :

١ — أتَبْكِي أنْ يَضِلَّ لها بَعِيرٌ ... ويَمْنَعُها من النَّومِ السُّهودُ

٢ — فلا تَبكِي عَلَى بَكْرٍ ولكنْ ... على بَدْرٍ تقاصَرَتِ الجُدودُ

٣ — ألا قَد سادَ بَعْدَهُمُ رِجالٌ ... ولولا يَوْمُ بَدْرٍ لم يَسُودُوا

كان السبب فى قول الأسود هذا الشِّعر أنّ قريشًا كانت حرَّمَتِ البُكاء على أنفسهم لقَتْلَى بدر ، لئلّا يَشمَتَ النبىُّ صلَّى الله عليه وسلَّم وأصحابُه بهم ، وكان الأسود قد فُجِع بابنه زَمَعَةَ ، إذ كان من قَتلَى ذلك اليوم ، فاقتَدَى بالنّاس فى ترك البُكاء عليه ، فاتَّفَقَ أنْ كانت له مَشْرَبَةٌ(٢) فتنزَّه ومضى إليها فسمع بكاء امرأةٍ فقال لأصحابه(٣) : انظُروا فإنْ [كانَ(٤)] البكاء قد حُلِّلَ ،

(١) كذا على الصواب فى سائر النسخ . وفى الأصل : « سويد » ، تحريف . التبريزى « وقال الأسود بن زمعة بن المطلب بن نوفل يرثى ابنه زمعة بن الأسود وقتل يوم بدر مع قريش مشركا . وفى نسخة : المطلب بن أسد بن عبد العزى » . على أن الصواب أنه الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى ، وهو الذى قال فيه الرسول صلوات الله عليه : « اللهم أعم بصره وأثكله ولده » . السيرة ٢٧٢ . والصواب فى ابن زمعة : « أبو زمعة » وزمعة ولده .

(٢) المشربة : أرض لينة لا يزال فيها نبت أخضر ريان . وهى بفتح الراء وضمها كما فى القاموس . وقد ضبطت فى ل بضم الراء .

(٣) السيرة ٤٦١ — ٤٦٢ : « إذ سمع نائحة من الليل ، فقال لغلام له وقد ذهب بصره : انظر هل أحل النحيب ، هل بكت قريش على قتلاها لعلى أبكى على أبى حكيمة — يعنى زمعة — فإن جوفى قد احترق . قال : فلما رجع إليه الغلام قال : إنما هى امرأة تبكى على بعير لها أضلته . فذاك حين يقول الأسود : » وأنشد هذه الحماسية ، وزاد فيها بين الثانى والثالث :

على بدر سراة بنى هصيص ... ومخزوم رهط أبى الوليد

وبكى إن بكيت على عقيل ... وبكى حارثا أسد الأسود

وبكيهم ولا تسمى جميعاً ... وما لأبى حكيمة من نديد

(٤) التكملة من ل ، م .

حتَّى نبكىَ نحنُ أيضًا زَمَعة ، فرَجَعَ إليه وقيل : إنَّه بكاء امرأةٍ ضَلَّ لها بَعيرٌ . فقال هذا الشِّعرَ مُنْكِرًا لبكائها ومستعظِما .

وقوله « أتبكي أن يَضِلَّ » لفظُه لفظ الاستفهام ، والمعنى معنى الإنكار . وقوله أن يَضِلَّ : أراد مِنْ أن يَضِلَّ ، وهم يحذفون حرف الجرِّ مِن أنْ كثيرًا . والسُّهودُ : امتناعُ النَّوم ؛ ورَجُلٌ مُسَهَّدٌ ، إذا كانَ قليل النوم . ولم يَرْضَ بأنْ أنكَرَ البكاء عليها ، وتَرْكَ النَّوْمِ لفقدان بعيرها ، حتَّى نَهاها فقال :

فلا تَبْكِي على بَكْرٍ ولكن على بَدْرٍ تقاصَرَت الجُدُودُ

يُريدُ أنَّ الذى يجب البكاء له ما جرَى على رؤساء قريشٍ وأرباب الجدودِ فيهم ببَدْرٍ ، وأنَّ الحَيْفَ العظيم والخُسران المبينَ والغَبْنَ الشَّديدَ فى ذاك ، لا فى ضَلَالِ بَكْرٍ . وبَدْرٌ : اسم بِئْرٍ اتَّفقت الوقْعةُ عندها . وقوله « تقاصَرَتِ الجُدُود » من فصيح الكلام ، وهو تفاعُلٌ من القُصورِ والعجز ، لا القِصَر الذى هو ضِدُّ الطول ، كأنَّها تبارَتْ فى القُصور ، يَدُلُّ على ذلك أنه يُقَالُ قَصَرْتُ كذا على كذا ، إذا حَبَسْتَهُ عليه ومنَعْتَهُ من الذَّهابِ عنه حتَّى صار كالعاجز عن غيرِهِ . ويقال أيضا قَصرتُه على كذا ، إذا رَدَدْتَهُ دون ما أراد . ومنه القَصْرُ فى الصَّلاةِ . ويقال تقاصَرَتْ إلى فُلانٍ نَفْسُهُ ذُلًّا . وقَصرَ السَّهمُ عن الهَدَف فهو قاصِرٌ . ولا يمتنع — وإن كان الأوّل هو الوجْهُ — أن يُجعَل من القِصَر ، ويكونَ ضِدَّ تطاوَلَت ، ويكون عَلَى موضوعًا موضع الباء ، كما يقال : هم على ماءِ كذا وهم بماءِ كذا .

وقولُه « ألَا قد سَادَ بَعْدَهُمُ رِجالٌ » يريدُ أنَّ أهلَ السِّيادة انقرضوا وبادوا فى ذلك اليوم ، فعادَتْ إلى مَن لا يستحقُّها ولم يكُن لها بأهْلٍ[1] . ومثل

---

(١) التبريزى فى تفسير هذا البيت : « يعرض بأبى سفيان بن حرب ، لأنه رأس قريشاً لما قتلت أشرافهم » .

هذا وإن كان أغمض منه قولُ الآخر :

* وَأَلْحَقْنَا المَوَالِيَ بالصَّمِيمِ *

٢٨٩

وقال الأَسَدِىّ

وخَبَرُه فى مُنادَمَتِهِ معروف[1] :

١ — خَلِيلَيَّ هُبَّا طَالَ مَا قَدْ رَقَدْتُما أَجِدَّكُمَا لا تَقْضِيَانِ كَرَاكُمَا

قوله « طال ما » يجوز أن يكون ما الكافّة وقد رُكِّبَ مع طال تركيباً واحداً حتّى صارا مَعًا كالشىء الواحد . ويجوز أن يكون ما منفصلًا من طال ، ويكون مع الفعل الذى بعده فى تقدير المصدر ، كأنه قال : طال رقُودُكُمَا . فإذا كُتِبَ المُرَكَّبُ مع ما يجب أن يُوصَلَ أحدُهما بالآخر ، وإذا كُتِبَ الثانى يُفصَلُ بين طالَ وبين مَا . و« أَجِدَّكُمَا » انتَصَب على المصدر ، ذكره سيبويه فى باب ما ينتصب من المصادر توكيداً لما قبله[2] . قال : ومثله فى الاستفهام :

(١) التبريزى : « وذكروا أن رجلين من بنى أسد خرجا إلى أصبهان ، فآخيا دهقانا بها فى موضع يقال له راوند ، فمات أحدهما وغبر الآخر ، والدهقان ينادمان قبره ، يشربان كأسين ويصبان على قبره كأسا . فمات الدهقان فكان الأسدى ينادم قبريهما ويترنم بهذا الشعر ، وكان يشرب قدحا ويصب على قبريهما قدحين » . وروى أبو الفرج روايات فى نسبة هذه الأبيات إلى قس بن ساعدة ، أو عيسى بن قدامة الأسدى ، أو الحزين بن الحارث أحد بنى عامر بن صعصعة ، أو أحد الكوفيين الذين وجههم الحجاج إلى الديلم ، وكل هذه الروايات تشترك فى حديث الخمر والمنادمة ، إلا الرواية الأولى التى تمثل قسا وقد ابتنى مسجداً بين قبر أخويه يعبد فيه الله . الأغانى (١٤ : ٤٠ — ٤٢) . ونسب الشعر فى معجم البلدان (راوند) ومعجم ما استعجم (خزاق) إلى الأسدى ، وحكيا القصة التى رواها التبريزى ثم قال ياقوت : وقال بعضهم : إن هذا الشعر لقس بن ساعدة فى خليلين له كانا وماتا . وقال آخرون : هذا الشعر لنصر بن غالب يرثى به أوس بن خالد وأنس بن خالد . وقد سبق ذكر أوس بن خالد فى الحماسية ٢٧٦ . وانظر الخزانة (١ : ٢٦١ — ٢٦٨) .

(٢) كتاب سيبويه (١ : ١٨٩ — ١٩٠) .

أجِدَّكَ لا تفعل كذا، كأنه قال أجِدًّا. غيرَ أنَّه لا يُستعمل إلّا مُضافًا، فهو يجرى في التأكيد مجرَى حقًّا. وفي الإضافة: جهْدَكَ، ومَعاذَ الله، والمعنى: أتجعلان فِعلَكُما جِدًّا. وقوله «لا تقضيان كَرَاكُما» كأنه لما اتّصل رقادُهما ودلّ على حالَيهما في امتدادِه قولُه هُبّا، وقولُه طالما قد رقدتما، جَعلَ النّفيَ بلا، ليدلّ على اتّصاله في الاستقبال، وأنَّ سؤالَه عمَّا يجيء لا عمَّا هو فيه. ولو جُعِلَ بَدَلَ «لا» ما، كان للحال. ومعنى البيت: يا خليليَّ انتبها فقد امتدَّ رقادُكما. وأتجِدّان جِدًّ كما في أنَّ كَراكُما بعدُ لا مُنتهَى له ولا انقضاء، بل يتّصل ويدوم. وقوله «طالما قد رقدتما» يُكتفَى به إذا كان المتقدِّم من الكلام يشتمل على ما قد استُطيل. وعلى ذلك عَزَّ ما، وشَدَّ ما.

٢ ــ ألَمْ تَعلَمَا مَا لِي بِرَاوَنْدَ كُلِّهَا ولا بِخُزَاقٍ من صَدِيقٍ سِوَاكُمَا[1]

قوله «ألم» هو لم أُدخل عليه ألف الاستفهام، والاستفهام كالنّفي في أنه غير موجَب، ونفيُ النّفي إيجاب، فلذلك قُرِّرَ بألَمْ فيما كان واجبًا واقعًا، لأنّه يتضمَّن من التّحقيق والتّثبيت في التّقرير، وتأكيدِ المُقرَّر على المُخاطَب، مثلَ ما يتضمَّنه القَسَمُ لو أُتِيَ به بدله؛ لذلك عقّبه بما يُعقَّبُ به القسم، وهو ما النّافية. وقد تقدَّم القولُ[2] في قول القائل: الله يَعْلَمُ ويَعْلَمُ الله، والله يَشهدُ؛ أنَّ جميعَ ذلك يُستعمل استعمالَ الأيمان. وكذلك قول القائل:

ولقــد علمْتُ لتأتِيَنَّ مَنِيَّةٌ ما بَعْدَهَا خَوْفٌ عَلَيَّ ولا عَدَم

فقولُه «ولقــد علمْتُ» جارٍ مجرى اليمين فيما ذكرتُ من التّأكيد، لولا

---

(١) في رواية لأبي الفرج:

ألم تعلما أني بسمعان مفرد وما لي فيه من حبيب سواكما

وأنشده ياقوت في رسم (سمعان) برواية أبي تمام مع تغيير «رواند» إلى «سمعان» وذكر أن سمعان جبل في ديار بني تميم. ثم ذكر أن «سمعان» اسم رجل نسب إليه عدة أديرة.

(٢) انظر ما سبق في ص ١٨٨ ــ ١٨٩.

ذلك لما عُقِّبَ بما يكونُ جوابَ اليمين . وقولُه « ألم تَعلما » أصله تَعلَمان ، ودخلت ألم للتّقرير . وقوله « مالى براوَنْد » فى موضع المفعول لتَعلمانِ ، لأن تَعلَمَ هاهنا فى موضع تَعرِف ، كقوله تعالى : ﴿ ولقَدْ عَلِمْتُمُ الّذِينَ اعتَدَوْا مِنْكُمْ فِى السَّبْتِ ﴾ ، وكذلك : لقد علِمتُ لَتأتِيَنَّ ، أصله لتأتِينَّ ودخلت علِمْتُ لِيُؤكَّدَ بها ، لأنّك أخرجْتَ الكلامَ بها من أن يكونَ على سبيلِ التظنّى أو من خبَرِ مُخبِرٍ فيكون إحالةً عليه . واللام من « لتأتينَّ » له الصّدر ، فيمنَع علمت من العمل ، وإذا كان كذلك كان موضع لتأتينّ نَصْباً على أنّه مفعول عَلِمْتُ ، وعلِمْتُ بمعنى عَرَفْتُ . وقوله « من صَدِيقٍ » فى موضع الرّفع على أن يكون اسم ما . وفائدة من الاستغراق ، و «سواكما» فى موضع غير ، وهو صفةٌ لصديق . والكلام هو استبطاء فى استمرارِ رُقادِهما عنه ، وغفلتهما مما هو بسبيله ، وباطنه تَلَهُّف وتوجُّعٌ .

٣— أُقِيمُ عَلَى قَبْرَيْكُما لستُ بارِحًا طُوَالَ اللّيالى أوْ يُجيبَ صَدَاكُما[1]

٤— أُصُبُّ على قبرَيكُما مِنْ مُدامَةٍ فإن لم تَذُوقاها أُبَلِّ ثَرَاكُما[2]

يقول : أَصِلُ مُقامى على قبريكما باتّصال اللّيالى ودوامِها ، ولا أبرح إلا أن يجيبَنى صداكما . وقوله « لست بارِحًا » فى موضع الحال ، كأنّه أراد : أقيمُ مُلازماً أبداً . وطَوَالَ انتصب على الظّرف ، والعامل فيه يجوز أن يكون بارِحًا ، ويجوز أن يكون أُقيمُ . فأمّا قوله « أو يُجيبَ » فأو بدلٌ من إلى ، والفعل بعده انتصب بأنْ مُضمَرة . والعربُ تقول : عظام الموتى تصير أصداء وهاما ، لذلك قال : أو يجيب صداكما .

(١) فى رواية بالأغانى : « مقيم على قبريكما » .

(٢) فى رواية بالأغانى : « فإلا تذوقا أرو منها » .

وقوله « أَصُبُّ على قبريكما من مُدامة » مِنْ أفاد التَّبعيض ، وموضع من مُدامَةٍ نصبٌ على أنَّه مفعول أصُبُّ ، والمعنى أجريكما فى المنادَمة والشُّرب مَجراكُما وأنتُما حَيَّان ، فإذا عادت النَّوبة إليكما أصُبُّ ما نابكما من المُدامة على قبريكما ، لأنَّه إن لم يَبُلَّ ريقَكما رطَّب قبريكما . وقوله « أَبُلَّ » يجوز أن تبنيه على الفتح والضمّ والكسر ، لأنك تُدْغم وإن كان مُعْرَبًا ، فيلتقى بنقل الحركة عن العين إلى الفاء ساكنان ، ثم يُبنى على الكسر لأنَّه أصلٌ فى التقاء السّاكنَين ، أو على الفتح لخفَّته ، أو على الضمّ للإتباع . ولا خِلاف فى إدغام المُعْرَب من كلّ العرب ، فأمّا المبنىُّ فبعضٌ يُظهِر التَّضعيفَ فيه فيقول : ارْدُد ، وبعضٌ يقول رُدَّ فيُدغِم وإن كان مبنيًّا ، إلَّا أنَّ الأصل فى الإدغام للمعرب ، ثم حُمِل المبنىُّ عليه فاعلَمْه .

٥ — وأُبكيكُما حَتَّى المَماتِ وما الذى يَرُدُّ على ذِى عَوْلَةٍ أَنْ بَكاكُما[(١)]

قولُه « وما الذى يردُّ على ذى عَوْلَةٍ » يجرى مجرى الالتفات . وقوله « إن بكاكما » إذا فتحت الهمزة يكون موضعُه من الإعراب الرفع على أن يكون فاعل يَرُدّ ، لأنَّ أنْ مع الفعل فى تقدير المَصْدر ، وإن رَوَيْت إن بكسر الهمزة كان شَرطًا وجوابُه يدلُّ عليه ماتقدَّمه ، وفاعل يَرُدُّ ما يدلّ عليه أُبكيكما من مصدره ، كأنَّه قال : وما الذى يردّ البكاء على ذى عَوْلَةٍ إن بكاكُما . على ذلك قولهم : «مَنْ كذَبَ كان شرًّا له ، ومن صَدَق كان خيرًا له » يريدون كان الكذبُ شرًّا له والصِّدق خيراً له . والمعنى : أبكيكما ما اتَّصلَ عمرى . ثم قال كالملتفت إليهما على طريق اليأس : وما يُغنى البكاء عن المُعْوِل إن بَكاكُما . فقوله « ما » استفهام ومعناه للإنكار . والعويل : صوت الصَّدر ، ومنه العَوْلة ، وقد أعْوَلَتِ المرأةُ .

---

(١) فى رواية بالأغانى : « سأبكيكما طول الحياة » .

٢٩٠

وقال عبدُ المَلِكِ بنُ عبدِ الرَّحيم الحارِثىّ(١) :

١ ـ إنّى لأربابِ القُبورِ لَغابِطٌ لسُكْنَى سَعِيدٍ بينَ أهلِ المَقابِرِ

٢ ـ وإنِّى لمَفجُوعٌ بِهِ إذْ تكاثَرَتْ عُدَاتِى ولم أهْتِفْ سِوَاهُ بناصِرِ

قولُه « سُكْنى » أن تُسْكِن إنساناً منزلًا بلا كِراء ، والمنزل سَكَنٌ ومَسْكَن ؛ وهو مصدر كعُذْرى وبُشْرَى . ومعنى البيت : إنِّى أغبط للوتى لحصول سعيدٍ فيما بينهم ، فإنّ الجمال الذى كانَ للأحياء بمُقامه فيهم كأنّه انتقلَ إلى الأموات عنهم ؛ وإنِّى لمتبيِّنٌ تأثيرَ الفَجْع به ، وشِدّةَ فاقتى إليه ، إذا تَزاحَمَ الأعداء وتبالَغُوا فى قَصْدِى ، ولا يكون لى من أستَنْصِرُه عليهم غيره . وقوله « سِواه » فى موضع النَّصب على أنّه استثناء مقدَّمٌ . ويقالُ هَتَفَ هَتْفاً وهُتَافاً . والهَتْفُ : الصَّوت الشديد ، وقوسٌ هَتَفَى ، والحمامُ تَهْتِفُ . وهَتَفَ به وصاح به ، إذا دعاهُ .

٣ ـ فكنتُ كمَغْلُوبٍ على نَصْلِ سَيْفِهِ وقد حَزَّ فيه نَصْلُ حَرّانَ ثائرِ

النَّصل : اسمُ حديدةِ السَّيف ، لذلك صَلَح إضافتُه إلى سيفِهِ وإن كان قد يُستعمل استعمالَ السّيف . ألا تَرَى أنّه قال : وقد حَزَّ فيه نَصل حَرّان . يقولُ : كان عُدّتى على الدهر وسلاحى على أعدائى ، فلما فَقَدْتُه والأعداء بالمرصادِ لى ، صِرْتُ كان غُلِبَ على سَيْفِهِ وسيفُ عَدوّه قد خَرَجَ عليه كطالبِ ثأرٍ وكبدُه حرَّى ، لشدّةِ عداوَتِه واستحكام غيظه يَعملُ فيه ، ويَنْفُذُ فى الضَّريبة منه ،

(١) التبريزى : « يكنى أبا الوليد ، وهو شامى كلامى شاعر » . وكلمة « كلامى » محرفة ، صوابها « كلاعى » بفتح الكاف . قال السمعانى فى الأنساب (٤٨٢ ا) : « هذه النسبة إلى قبيلة يقال لها كلاع نزلت الشام ، وأكثرهم نزل حمص » .

والمراد : كنتُ كمن غُلِبَ على عُدّته أشدَّ ما كان حاجةً إليها ، وحين تمكّنَ العدوُّ وهو تامُّ الآلة ، مَكِينُ القُوى فى المنازَلة .

٤ — أَتيناهُ زُوّارًا فأمْجَدَنا قِرًى من البَثِّ والداء الدَّخِيلِ المُخَامِرِ

٥ — وأُبْنَا بزَرْعٍ قد نَمَا فى صدورنا من الوَجْدِ يُسْقَى بالدُّموعِ البَوَادِرِ

يقول : جئناه زائرين فوسَّعَ قِرانَا من الحُزْن والداءِ المتمكِّن من القلب ، المُخامِرِ له . والمُخامِرُ مأخوذٌ من الخَمَر ، وهو ما واراكَ من الشَّجَر وغيرِه . وإذا كان كذلك فهو أبلغ من قوله الدَّخيل ، لأنه يُفِيدُ فى الموصوف فائدةً أكثرَ من الدُّخول ، إذ كان المرادُ به دبيبَهُ فى أثناء القَلب وأطباقِهِ ، وذَهابَه فى أجزائه وأضعافِه ، وليس فى الدَّخيل هذا المعنى . ويقال أمجَدْتُ الدَّابّةَ العَلَفَ ، إذا أكثرتَ له .

وقوله « وأُبْنا بزرعٍ قد نما فى صدورنا » نَبَّه بهذا الكلام على أنَّ حُزْنَه يزيد على مَرِّ الأيام ، فهو كالزَّرع النامى ، وأنَّ سُقياه الدُّموع . ومعنى البوادر المُستبِقَةُ لكثرتها وغَلَبتها . وأصل الزَّرع الإنبات . والزُّرعةُ : البَذْر . لذلك قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿ أأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُون ﴾ . وازدرع ، إذا زَرَع أو أَمَر به لنفسِه خاصَّةً . ويقال : زُرِع لفلانٍ بعدَ شَقَاء ، إذا أصابَ مالاً بعد الحاجة . فإن قيل : كيف قال « أمجَدَنَا قِرًى » والميِّتُ لا يَعمل شيئًا ؟ قلتَ : لمّا جعله مَزُورًا أقام له قِرًى لزائره على عادته وهو حىٌّ . وهذا المعنى من كلامه أبيَنُ وأظهر من كلام عَبْدَةَ بنِ الطَّبيب لمّا قال :

* إذا زارَ عن شَحْطٍ بِلادَكَ سَلَّمَا[1] *

---

(١) من الحماسية ٢٦٣ . وصدره :

* تحية من غادرته غرض الردى *

٦ – ولمّا حَضَرْنا لاقتسام تُرَاثِهِ أَصَبْنا عَظِياتِ اللُّهَى والمآثِرِ

٧ – وأَسْمَعَنا بالصَّمْتِ رَجْعَ جَوابِهِ فأَبلِغْ به من ناطقٍ لم يُحاوِرِ

اللُّهَى: أفضَلُ العطايا وأجزلُها، والواحدة لُهْيَةٌ ولُهْوَةٌ؛ ومنه اللُّهْوَةُ التى تُلقَى فى الرَّحَى. يقول: لمّا اجتمَعْنا لنقتسم تركته فيما بيننا لم نَجِدْ له إلّا ما كَسَبَه عطاياه من المآثر الكريمة. فأضاف عظيات إلى اللُّهَى والمآثر جميعاً، وهى جمع مأثُرة، وهى ما يُؤْثَر من المحامد والمعالى ويُذْكَر. ويجوز أن يُريد بالعظيات المفاخر التى ادَّخَرَها له اللُّهَى، ويكون اللُّهَى حينئذ الأموال الكثيرة. ويجوز أن يكون المراد بالمآثر الأعلاقَ الثمينة، والنَّفائسَ الكريمة، التى فرّقها فى حياته، وآثر غيرَه بها. وقوله «وأَسْمَعَنا بالصَّمْتِ رَجْعَ جَوَابِهِ» أى مَرْجوع جوابِهِ، كما قال غيرُه[١]: «اسألِ الأرض، أينَ مَن شَقَّ أنهارَكِ، وغَرَسَ أشجارَكِ، وجَنَى ثِمارَكِ؛ فإنْ لم تُجِبْكَ حِوَاراً أجابتْك اعتبارًا»؛ وكما قال الآخر[٢]:

* وعَظَتْكَ أَجداثٌ صُمُتْ[٣] *

ومثله:

وكانت فى حياتِكَ لِى عِظَاتٌ فأنتَ اليومَ أوعظُ منك حَيّا[٤]

(١) هو الفضل بن عيسى بن أبان. الحيوان (١ : ٣٥). وانظر البيان (١ : ٨١) وعيون الأخبار (٢ : ١٨٢).

(٢) هو أبو العتاهية. ديوانه ٥٢.

(٣) عجزه: * ونعتك أزمنة خفت *

(٤) البيت من مشهور شعر أبى العتاهية، فى رثاء صديقه على بن ثابت. انظر البيان (١ : ٤٠٧ – ٤٠٨) والأغانى (٣ : ١٤٢). وذكر الجاحظ أن أبا العتاهية أخذ هذا المعنى من قول أحد الحكماء حين قام على سرير الإسكندر وهو ميت: «الإسكندر كان أمس أنطق منه اليوم، وهو اليوم أوعظ منه أمس». انظر أيضاً البيان (١ : ٨١) لنسبة هذا القول الأخير.

٢٩١

وقالت امرأةٌ من بنى شَيبان[1] :

١– وقالوا ماجِدًا مِنْـكُم قَتَلْنَا كَذاكَ الرُّمْحُ يَكْلَفُ بالـكَرِيمِ

٢– بِعَيْنِ أُباغَ قَاسَـمْنَا المَنَايا فـكانَ قَسِيمُها خَيْرَ القَسِيمِ

انتَصَب « ماجِداً » على معنى أنه مفعول مُقدَّم ، ومنكم فى موضع الصِّفة له. وموضع ماجِداً منكم قَتَلْنا الجملة موضع المفعول لقوله قالوا . وقوله « كذاك الرُّمْحُ » جوابٌ لهذا الابتداء ، كأنَّه قال : فأجيبوا : الرُّمْحُ يَكلَفُ بالـكريم كذلك ، فأُشير بذلكَ إلى الخبر الذى اقتصُّوه . والكاف من كذاك كاف الخطاب لا موضعَ له من الإعراب . وتلخيص الكلام : الرُّمح يَكْلَفُ بالـكرام كَلَفًا مثلَ ذلك الـكاف . والعامل فى كذاك يَـكْلَفُ . والمعنى : تنادَوا : قَتَلْنا ماجِداً منكم ؛ فأُجيبوا : الرُّمح يعشَقُ الـكرامَ ويُولَعُ بهم مِثلَ ذلك . وأكثر ما يجيء الجواب فى إثر السُّؤال من واحدٍ فى القرآن ، كقوله تعالى : ﴿ لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ . وقد أَلمَّ فى هذا البيت بقول طرَفة :

أَرَى المَوتَ يَعْتَامُ الـكِرامَ ويَصطفِى عَقِيـلَةَ مالِ الفاحِشِ المُتَشَدِّدِ

وقولُه « بعَيْنِ أُباغَ قاسَمْنَا المَنَايا » مثلُه قول الآخر :

* وقاسَمَنِي دَهْرِى بَنِيَّ بشَطرِهِ *

[1] (١) التبريزى عن أبى محمد الأعرابى : « هذا الشعر لبنت فروة بن مسعود ، ترثى فروة وقيسا ابنى مسعود بن عامر بن عمر بن أبى ربيعة ، وقتلا مع المنذر ذى القرنين يوم عين أباغ يوم قتل المنذر ، وكان الذى قتل المنذر شمر بن عمرو الحنفى وكان مع الحارث بن أبى شمر الغسانى . وهو المنذر بن امرئ القيس ، وأمه ماء السماء النمرية » . وقال ياقوت فى (أباغ) : « وقالت ابنة فروة بن مسعود ترثى أباها ، وكان قد قتل بعين أباغ : واد وراء الأنبار على طريق الفرات إلى الشام وكانت منازل إياد بن نزار . وكان عندها فى الجاهلية يوم بين ملوك الشام الغساسنة وملوك الحيرة اللخميين ، وفيها قتل المنذر اللخمى » .

كأنَّه كانَ للمَنَايا نصيبٌ فيهم فقاسَمَتهم على نصيبها فوقَعَ إليها خَيْرُ النَّصيبَين . والمعنى : اختارتْ منهم الأمثلَ فالأمثل ، وغَادَرَتِ القَلَّ منهمْ والمُسترذَل . وقوله قَسِيمٌ يكون فى معنى مقسوم ، وقد يكون القسيمُ المُقاسِم ، وليس هذا موضِعَه . ولك أن ترْوِى « قاسَمْنَا المَنَايَا » بسكون الميم ، ويكون المنايا فى موضع المفعول ، ولك أن تفتح الميم وتجعل للمنايا فاعلة ؛ والمعنى فيهما مُتقارِبٌ . وكانت الوقعةُ بعين أُباغ ، فلذلك خَصَّه بالذِّكر ، وقاسَمَ يقتضى مفعولاً آخر ، كأنَّه قال : قاسَمْنَا المنايا النَّاسَ أو الأصحاب . وقولُه « قَسِيمُها » . كقولك نصيبُها . وخَيْرُ القَسِيم كقولك خَير الأنصِباء . وأنشد ابنُ الأعرابىّ فى هذه الطَّريقة :

إذا ما المَنَايا قاسَمَتْ بابنِ مِسحَلٍ ... أخا واحِدٍ لم يَرْضَ نِصْفًا قَسِيمُها
فآبَ بلا قَسْمٍ وآبَتْ بقَسْمِها ... إلى قَسْمِهِ لاقَتْ قَسِيمًا يَضِيمُها

كأنَّه كانَ للمنايا نصيبٌ فى أخيه ، فقاسَمَتْهُ وأخذت نصيبه إلى نصيبها ، وآبَ هو بلا نصيب . ثم دعَا على المنيّةِ[1] فقال : قيَّضَ الله لهَا قَسِيمًا يظلمها كما ظلَمَتْنى .

٢٩٢

وقال عُتَىُّ بنُ مَالِكٍ[2] :

١ — أَعَدَّاءُ مَنْ لليَعْمَلاتِ على الوَجَى ... وأَضيافِ لَيْلٍ بَيَّتُوا لِنُزُولِ
٢ — أَعَدَّاءُ ما لِلْعَيشِ بَعْدَكَ لَذَّةٌ ... ولا لخَلِيلٍ بَهْجَةٌ بِخَلِيلِ

(١) فى الأصل : « الموت » ، والصواب من سائر النسخ .
(٢) التبريزى : « عتى بن مالك العقيلى » ، ولم أعثر له على ترجمة .

٣ — أَعَدَّاءُ ما وَجْدِي عليكَ بِهَيِّنٍ ولا الصَّبْرُ إن أُعْطِيتُه بجَمِيلِ

ناداه مُسائِلًا له على طريق التوجُّع[1] : مَنْ خَلَّفْتَ بعدَكَ للوُرَّاد ، وعلى مَن اعتمدتَ فى تفقُّد الأضياف . واليَعْمَلات : النُّوقُ السِّراعُ . والوَجَى هو الحَفَى . وقال الخليل : اليَعْملة لا يُوصفُ بها إلا النُّوق . وقال أبو سعيدٍ : يقالُ للجَمَل يَعْمَلٌ ، اسمٌ له من العَمَل ، كما يقال يَعْمَلَةٌ ، وأنشد :

إذْ لا أزالُ على أقتادِ ناجيةٍ صَهْباءَ يَعْمَلةٍ أو يَعْمَلٍ جَمَلِ

أراد أو جملٍ يَعمَل . وموضع « على الوَجَى » نَصْبٌ على الحال ، كأنَّ فِناءَه وداره كان مألَفًا للعُفاةِ ومَجمَعًا للأضياف ، فإذا أرادوا مَن يؤويهم لم يُؤْثروا تطلُّبًا على قصده ، ولم يَجِدُوا تَطلُّمًا وتوفُّرًا إلَّا مِن عندِه ، فقال على طريق التحسُّر : مَنْ يُؤْوِى الأضيافَ وقد بَهرهم السَّعىُ وأتعبهم الطَّلَب غَيرُكَ ، ومن يُنزل السَّفر وقد أكَلَّهُم التَعَبُ وأملَّهم الدأْبُ حتَّى حَفِيت رواحلُهم ، وحتَّى بَيَّتُوا لنزولٍ ، مَيلًا إلى نَيلِ راحتِهم . ويقال بَيَّتَ الأمرَ ، إذا دبَّره بالَّليل . وكلُّ رأيٍ أجْلَتَهُ بليلٍ فهو مُبيَّت . وماءٌ بَيُّوتٌ ، إذا باتَ ليلةً فى الإناء . وبَيَّتُّ القومَ ، إذا أوقعتَ بهم ليلًا . ويقالُ للهَمِّ : هو بَيُّوتٌ ، وللصَّقِيع بَيُّوت .

وقوله « أعَدَّاءُ ما للعَيْشِ بَعْدَكَ لَذَّةٌ » يصفُه فيه بأنَّه كان ببليغ لُطفِه وجميل خُلُقه ، وسهولة جانبه ورَحابة جَنابِه ، يَطِيبُ العيشُ معه على ما يعترضُ فيه من مساءةٍ أو مَسرَّةٍ ، إذْ كان يَتحمَّل الأعباء عمن يجاورُه[2] ، ويُخَفِّفُ ظهرَ مَن ينصَبُّ إليه ، أو يَتَسبَّب بقرابةٍ لديهِ ، أو يتوكَّلُ لمَخالَّةٍ عليه ، فكانَ لذيذُ الحياة يوجَدُ عنده ، وصَفْوُ البقاء يَحصُلُ معه . وقوله « ولا لخليل بهجةٌ بخليل » يعنى أنَّ النَّاسَ وقد رأَوا مآلَ أمرِكَ إلى الفَناء ، وانقطاعَ السُّرور عنهم

(١) فى الأصل : « على ظهر التوجع » ، صوابه فى سائر النسخ .
(٢) فى الأصل : « يتحاوره » ، صوابه فى سائر النسخ .

بعد النَّماء ، صار لا يتهج بعضُهم ببعضٍ ، فلا يَسْكُن الصَّديقُ إلى صديقه ، ولا القريبُ مع قريبِه ، لغَلَبَة اليأسِ من الخير ، وارتفاع الطَّمع من الفَرَج .

وقوله « أعدَّاء ما وَجْدِى عليكَ بِهَيِّنٍ » كَرَّر مُناداتَهُ دِلالةً منه على لُزومِ التَّوجُّع ، وتنبيهاً على حُصُولِ العَنَاء والاشتكاء بعد التَّودُّع . ثم قال : ليس جَزَعى عليكَ بخفيف ، ولا وَجدى عليك بطفيف ، ولا صَبْرى لو حَصَلَ بجميل ، لأنَّ الصَّبرَ على فَقدِك منكَر ، وهَوْنَ الوَجد وخفَّتَه مُستفظَع ، فليس لنا إلّا الاستمرار فيما نحن بسبيله من اللهَفِ والحسرة والاستسلام للشَّقاء والهَلَكة .

٢٩٣

وقال أيضاً :

١ — كأنِّىَ والعَدَّاء لم نَسْرِ ليلةً ولم نُزْجِ أنضاءً لهنَّ ذميلُ

٢ — ولم نُلاقِ رَحْلَينا ببيداءَ بَلْقَعٍ ولم نَرْمِ جَوْزَ اللَّيلِ حيثُ يَميلُ

أدخل الألف واللام فى هذه المقطوعة على العَدَّاء لأنه صفةٌ فى الأصل ، فهو كالحسَنِ والعبَّاس وما أشبههما ، فإذا أتَيْتَ به ولا ألفَ ولامَ فيه فلأنَّك جعلتَهُ عَلماً ، فصار معرفةً بالعَلميَّة ، وإذا أدخلتَ الألف واللام عليه فإنَّك راعيتَ حالَه وهو صفةٌ ثم جعلتها نفسَ المُسمَّى وأدخلت الألف واللام عليه . فعَلَى الأوّل لا يفيدُ الاسم [فى[1]] المُسمَّى شيئاً أكثرَ من تمييزه عن غيره ، وعلى الثانى أفاد معنى الوصفيّة فيه مع التميز ، فصار كالصفات الغالبة الجارية مَجْرى الألقاب فى التخصيص .

وقولُه « كأنِّىَ والعَدّاء لم نَسْرِ ليلةً » يريد أنّ الشىء إذا انقطعَ فكأنه

---

(١) هذه من ل ، م والتيمورية .

لم يكن . والمعنى أنّى وقد فقدته فكأنّى وإيّاه لم نصطحب فى قَطْع مسافة ، ولم نشترك فى سَوقِ أنضاء من الإبلِ لتحمُّل كُلفةٍ ، أو صبرٍ على مشقّةٍ . ونبّه بهذا الكلام على تبذّله —كان— فيما يكسبه الأحدوثةَ الجميلة ، وإن تكلّف فيه الأثقالَ العظيمة . والذّميل : إسراع السَّير . والأنضاء : جمع النِّضْو . وقال الدُّرَيدىّ : يقالُ : ذَمَلَت الناقةُ ذَميلاً وذَمَلاناً ، وهو ضَربٌ من السَّير أعلى من العَنَقِ ، وناقةٌ ذَمولٌ . والإزْجاء : السَّوْق .

وقوله «ولم نُلقِ رحْلَيْنا» لو قال رحالنا لكونهما اثنين من اثنين ، لجرَى مثل قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما ﴾ كان أدْخَلَ فى الاستعمال ، لكنّه أتى به على الأصل . والبَيْداء : المَفازةُ . والبَلْقَع : القَفْر الخالى . والمعنى على ما تقدم فى البيت الذى قبلَهُ ، من الصبر على الشدائد .

وقوله « ولم نَرْمِ جَوْزَ الليل حيثُ يَميلُ » أراد حيث يميلُ الليلُ . وحيث هذا ظرفُ زمانٍ . يريد فكأنّا لم نَرْمِ بأنفسنا جَوْزَ اللّيل وقتَ ميلِه . يشيرُ إلى جُنوحِه وإشرافِه على تَهَوُّرِه ، لأنّ ميلَه على ذلك يكون . ومما جاء فيه وهو للزّمان دون المكان عند أبى الحسن الأخفَش قولُه :

للفتَى عَقْــلٌ يَعِيشُ بِهِ حيثُ تَهْـدِى ساقَهُ قَدَمُهْ[1]

لأنّ المعنى : للفتى عقلٌ يعيش به مُدّةَ سعيِه وحياتِه ؛ ونُهوضِه بساقِه فى أمرِه . ويجوز أن يكون حيثُ ظرفاً لمكانٍ ، ويكون المعنى : إنّا نعتسف الطريقَ فحيثُ مالَ الليلُ مِلنا معه . ويجوز أن يكون فاعل يميل ما دلّ عليه « ولم نَرمِ » من المصدرِ ، ويكون المعنى حيثُ يميلُ الرَّمْىُ ويذهَبُ فيه .

(١) لطرفة فى ديوانه ١٩ .

٢٩٤

وقال أبو الحَجْناء(١) :

١ـ أضْحَتْ جيادُ ابن قَعْقاعٍ مُقَسَّمَةً   فى الأقْرَبِينَ بلا مَنٍّ ولا ثَمَنِ
٢ـ وَرَّثْتَهُمْ فَتَسَلَّوا عنك إذْ وَرِثوا   وما وَرِثْتُكَ غيرَ الهمِّ والحَزَنِ(٢)

القَعْقاع والقَعْقَعانِيُّ : الذى إذا مَشَى سُمِع لمفاصله تَقَعْقُع . وأراد بالأقربين وُرَّاثَه ، وبالجياد خيلَه . فيقول : أضحتْ خيلُه مُفَرَّقةً فى وُرَّاثِه ، وهم لا يَمْتَنُّون له بها ولا يبتاعونها ، فتكونَ له المِنَّةُ أو الثَّمن . ثم قال : ورَّثتَهم فَنَسُوكَ اشتغالًا بالإرث ، وتسلِّيًا عنك بالمال ، وأنا باقٍ على ما كنتُ عليه من التَّحزُّنِ والاهتمام لا إرثَ لى غيرُهما . وهذا كلامُ متأسِّفٍ ومستنكِرٍ من أقاربه ما يَرام عليه من نِسيانه والسُّرور بما فازوا به من ماله . والسُّلُوُّ : طِيب النَّفس عن الشىء . وفى تَسَلَّى من التَّكلُّف ما ليس فى سَلَاهُ .

٢٩٥

وقال آخر :

١ـ لَنِعْمَ الفَتَى أضحَى بأكنافِ حائلٍ   غَداةَ الوَغَى أكْلَ الرُّدَيْنيَّةِ السُّمْرِ
٢ـ لَعَمرِى لقدْ أُرْدِيتَ غيرَ مُزَلَّجٍ   ولا مُغْلِقٍ بابَ السَّماحَةِ بالعُذْرِ
٣ـ سأبكيكَ لا مُسْتَبْقِيًا فَيضَ عَبْرةٍ   ولا طَالِبًا بالصَّبْرِ عاقبةَ الصَّبْرِ

(١) هو أبو الحجناء نصيب الأصغر ، مولى المهدى ، أقطعه المهدى ضيعة بالسواد ، وعمر بعده ، ومدح الرشيد والفضل بن يحيى . وكان شيبة بن الوليد العبسى وأخوه ثمامة يبرانه ، وكانا من وجوه قواد المهدى ، فلما مات شيبة دخل نصيب على ثمامة وهو يفرق خيل شيبة على الناس ، فأمر له بفرس ، فأبى أن يقبله وبكى ثم قال :

يا شيبة الخير إما كنت لى شجناً   آليت بعدك لا أبكى على شجن

ثم البيتين اللذين أنشدهما أبو تمام هنا ، فجعل ثمامة ومن هو عنده حاضر من أهله وإخوانه يبكون . الأغانى (٢٠ : ٢٨) .

(٢) الأغانى : « فتعزوا عنك » .

المحمود محذوفٌ ، كأنَّه قال : نِعمَ الفَتَى فتًى أضحَى وانتَصَبَ « أُكْلَ » على أنّه خبر أضحى ، وبأكنافِ حائلٍ ظَرفُ مكانٍ . وغداةَ الوَغَى ظرف زمانٍ ، وتَعلَّقا جميعاً بأضحى . ويجوز أن يُجعَلَ بأكناف حائلِ الخبر ، وينتصب أُكْلَ على الحال . ولا يمتنع أن ينتصب غداةَ بما دلَّ عليه بأكنافِ حائلٍ من الفعل المضمَرِ . ويجوز أن يكون العامِلُ فيه أُكْلَ ، لأنَّه ليس بمصدر فلا يعمل ما فى صلته فيما قبله . والأُكْل : الطُّعْمُ ، وإضافته إلى الرُّدينيّة لم تُفِدْ فيه اختصاصًا . ألا تَرَى أنَّ فائدتَه وهو مضافٌ مثلُ فائدته لو نُوِّنَ فقيل أُكْلًا للرُّدينيّة . ومثلُه قَيْد الأوابِد وما أشبهه . ومعنى البيت : محمودٌ فى الفِتيان فَتًى حصَل بجانب هذا الوادى غداةَ الحربِ طُعْماً للرُّدينيَّة السُّمْر . وأصل الوَغَى الجَلَبةُ والصَّوت . واللام مِنْ « لَنِعْمَ » جوابُ قَسمٍ مضمر .

وقولُه « لعمرى لقد أُرْدِيتَ غيرَ مُزَاَّجٍ » أقبل عليه يخاطِبُه بعدَ أن كان يخبرُ عنه ، على عادتهم فى افتنانهم فى الكلام ، وكأنَّ الخطاب أدَلُّ على التحسُّر والتَّوجُّع من الإخبار ، ولذلك عَدَلَ إليه . واللام فى لَعَمْرِى لام الابتداء . وخبر المبتدأ محذوف ، كأنَّه قال : لعمرى قَسَمِى . واللام من لَقَدْ جوابُ اليمين ، والمعنى : وبقائى لقد أُهلِكتَ غيرَ ضعيفٍ ولا جَبَانٍ وقتَ المُدافَعةِ والمانعة فتُضَيِّعَ محفوظاً ، ولا متشدِّداً على تزاحُم المجتَدِين والسُّؤَّالِ ، بإقامة المعاذير والعِلَّات ، فتُغلِقَ للسماحة بابًا مفتوحا .

وقوله « سأبكيك لا مستبقيًا فَيضَ عَبرةٍ » يريدُ أنَّ بُكاءَهُ يتَّصلُ إلى أن يستنفد موادَّ دَمعِه ، وأنه لا يطلُبُ بتكلف الصَّبر ما يتعقَّبه من التَّسلّى . فقوله « بالصبر » أراد بتكَلُّفِ الصَّبر ، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامَه ، وذاك أنَّ الإنسانَ إذا تَصَبَّرَ فيما يَدهَمُه مُدَّةً ، وتَماسَك به بُرهةً ، أدَّاهُ مرورُ الأوقاتِ الى أن يَتَسَلَّى ؛ فعاقِبَةُ الصَّبر هو التَّسلّى ، فإذا تسلَّى عادَ طمَعُه فيما يُرجَى ،

وحَذرُهُ مِمّا يُخشَى ، إلى ما كان أو أشَدّ ، وذلك حالُ مَن لا هَمَّ له .

٢٩٦

وقال خَلَفُ بن خَلِيفة[1] :

١ — أعاتِبُ نَفسِي أن تَبَسَّمْتُ خالِياً وقد يَضْحَكُ المَوْتُورُ وهو حَزِينُ

انتصب خالِياً على الحال من أعاتِبُ . وأن تبسَّمْتُ بفتح الهمزة معناه لأنْ تبسمتُ ، ومن أجل تبسُّمِي . ولك أن تكسر الهمزة من إنْ فيكون شرطاً ويكونُ جوابُه ما دَلَّ عليه أُعَاتِبُ نفسي . والمعنى : إذا خَلَوْتُ بنفسي أبْسُطُ العَتْبَ عليها لما يتّفقُ منها فى المَلَأ من مُتابَعةِ النّاسِ على تصرُّفهم فى المُؤانَسة والمضاحَكة ، وطَلَبِ موافقتِهم عند المفاكهة والمحادثة . هذا وليس ذاك لداعيةِ سُرورٍ ، ولا لباعثةِ ابتهاجٍ وحُبورٍ . ثم قال « وقد يَضحكُ الموتورُ وهو حَزِينُ » يريد أنَّ الموتور وإنْ تَناهَى حزنُه ، واشتَدَّ قَلقُه وبثُّه ، فقد يضحك قَطْعًا لشماتةِ شامتٍ ، وتَجَلُّداً مع عَدُوٍّ مكافِحٍ ، أو جرياً على عادةٍ ، أو استمراراً فى إقامة موافَقةٍ ، ولا يُعَدُّ ذلك منه إخلالًا بواجب الهلَع، ولا إغفالًا للوازِمِ الجَزَع ، والضَّحِكُ أبلغُ من التَّبسُّم ، فكذلك أنا وإن تَبَسَّمْتُ لضَربٍ من تلك الضُّروبِ ، فَطَلَبُ الوِترِ والقيام بسُنَّةِ الحزنِ نَصْبُ عَيْنِي ، وأهمُّ الأُمورِ إلىّ .

٢ — وبالدَّيْرِ أشْجَانِي وكَمْ من شَجٍ لَهُ دُوَيْنَ المُصَلَّى بالبَقِيعِ شُجُونُ

٣ — رُبًى حَوْلَهَا أمثالُها إن أتَيْتَها قَرَيْنَكَ أشْجَاناً وهُنَّ سُكُونُ

٤ — كذا الهَجْرُ أنّا لم يَضِحْ لَكَ أمْرُنا ولَمْ يأتِنا عَمّا لدَيْكَ يَقِينُ

(١) كان يقال له « الأقطع » ، لأنه قطعت يده فى سرقة فاستعاض عنها بأصابع من جلود ، وكان من معاصرى جرير والفرزدق . وفيه يقول الفرزدق :

هو اللص وابن اللص لا لص مثله لنقب جدار أو لطر الدراهم

وقد عده الجاحظ من شعراء المولدين المطبوعين . البيان (١ : ٥٠) والشعر والشعراء ٦٩٢ — ٦٩٥ .

الأشجان : جمع الشَّجَن ، وهو الحزن ، وفى أدنى العدد ، والشُّجون جمعه الكثير . وقوله « رُبى حولها أمثالها » موضعه رفع على أنه بدل من قوله شُجون . ويعنى بها القبور المسنَّمة . وحولها أمثالها صفة للرُّبى . وما أشار إليه من المماثلة يعنى فى الصُّورة والغَناء جميعا . وقد ألمّ فى هذا بقول الآخر(١) :

فقلت له إنَّ الشَّجَا يبعث الشَّجَا فَدَعْنِى فهــذا كلُّهُ قَبرُ مالكِ

وإنَّما يريد أنَّ قبور أحبّته بالدَّير وقبور أحبّة مَن يأتسى بهم من المفجوعين ببَقيع الغَرقَد ، لأنّ أولئك ماتوا حَتْفَ أنفِهم وفى أماكنهم ، فدفنوا فى مقابرهم ، وأصحابُ الشّاعر قُتِلوا وتغرّبوا فدُفِنُوا ثَمَّ . والكلامُ توجُّعٌ وتلهُّف . وقوله « دُوَيْنَ المصلَّى » تحديدٌ للمقبُرة ، وتقريبٌ لها من المصلَّى ، لذلك قال دُوينَ فصغَّر دُونَ . وعلى ذلك تصغيرهم لقُبَيْلٍ وبُعَيدٍ وفُوَيق . وقوله « إن أتيتَها قرينَك أشجانا » مثل قول الآخر(٢) :

أتيناهُ زُوّارًا فأمجَــدَنا قِرًى من البثِّ والدّاءِ الدَّخيلِ المخامِرِ

وأضاف إليه معنى البيت الآخر بقوله « وهنّ سكون » وهو « وأسمعنا بالصَّمتِ رَجعَ جوابه(٣) » . وقوله « كذا المهجر » يجوز أن يُشير بذا إلى ما قدَّمه ، ويجوز أن يكون وضع حرفَ الإشارة والمشارُ إليه يجىء من بعدُ على طريق التَّفسير له ، والتَّرجمة منه . والمراد ما بيننا من استعجام الأخبار ، وذَهاب لالتقاء والاجتماع ، على اتِّصال التَّزاور إذا فُعِلَ ، أشبَهُ شىء بالهِجران ؛ وذلك مالم يدخل بيننا فى شىء من الأوقات والأحوال . وهذا تحسُّرٌ آخر جديد ، وتلهُّف شديد .

---

(١) هو متمم بن نويرة . الحماسية ٢٦٥ ص ٧٩٧ .
(٢) هو عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثى . الحماسية ٢٩٠ ص ٨٨١ .
(٣) صدر البيت ٧ من الحماسية ٢٩٠ . وعجزه :
* فأبلغ به من ناطق لم يحاور *

٢٩٧

وقال عبدُ الله بنُ ثَعْلَبَةَ الحَنَفِيُّ(١) :

١ — لِكلِّ أُناسٍ مَقْبَرٌ بِفِنائِهم فَهُمْ يَنْقُصُونَ والقُبُورُ تَزِيدُ

٢ — وما إنْ يَزالُ رَسْمُ دارٍ قدَ اَخْلَقَتْ وَبَيْتٌ لِمَيْتٍ بالفِناءِ جَدِيدُ(٢)

٣ — هُمُ جِيرَةُ الأحياءِ أمّا جِوارُهُم فَدانٍ وأمّا المُلْتَقَى فَبَعِيدُ(٣)

يقول على وجه التحزُّن والتفجُّع والتوجُّع : تساوت أحوالُ النّاس فى مقاساة البلاء ، ومعاناة الشَّقاء ، لا تفاضل فيما بينهم ولا تمايز ، يَرَوْن مصارعَهم بأفنيتهم ، وجنودَ الموت والفناء متسلِّطةً على طوائفهم ، تَختَرِمُ الواحدَ بعد الواحد منهم بلا حياء ولا رِقبةٍ ، ولا استبقاء ولا رِعَة ، وقد رَضُوا بحكمه وأخذِه ، واختياره وقَسْمه ، فعَسْفُه عندهم رِفق ، وبطشُه رحمةٌ وعدل ، يَرَوْن فِرَقَ أحيائِهم(٤) على مُرور الأيّام إلى تراجُعٍ وتناقُص ، ومصيرَ مَصانِعِهم ومساكِنِهم قريبًا إلى البِلى والتعطُّل ، ويجدُون عَدَدَ الأموات إلى تزايُدٍ وتكاثُر ، ومقابرَهم إلى عِمارةٍ وتوافُر . هذا وقد الْتزموا ما يَجرِى عليهم الْتزامًا ، لا سُخطَ فيهم ولا إنكار ، ولا كراهةَ ولا مَلال ؛ فلا المجاورةُ بين الفريقين تنقطع ، ولا المهاجرة ترتفع ، ولا الأحوالُ تتبدّل ، ولا العادةُ فى جميعها تتغيَّر ؛

(١) ذكره ابن الجوزى فى صفة الصفوة (٣ : ٢٩٠) فى الطبقة السادسة من أهل البصرة ، وكان معاصراً لسفيان بن عيينة . وروى له ابن قتيبة فى عيون الأخبار (٢ : ٣٩٥) وكذا ابن الجوزى قوله : « تضحك ولعل أكفانك قد خرجت من عند القصار !! » . وروى له ابن الجوزى هذه الأبيات فى صفوة الصفوة .

(٢) صفة الصفوة : « دار حى قد اخربت » .

(٣) صفة الصفوة . « هم جيرة الأموات » .

(٤) هذا ما فى ل ، م . وفى الأصل : « أحبابهم » . وفى التيمورية : « أحيائهم » .

فنى كل قبيلةٍ حدوثُ مصيبةٍ ، ونزولُ بلية ؛ وفى كل مَجْمَعةٍ تأثيرُ فجيعةٍ ، ونكايةُ منيّة . فبماذا نستمسك ونعتصم من الفناء ، وعلى ماذا نعوِّل ونعتمد فى الرَّخاء ، وكيف رضينا بتدانٍ يُبْطِله فناء ، وتجاوُرٍ بُنِيَ على تدابُر ، وأنَّى يستقيم البناء والتَّشييد ، لمن مَلَّكَهُ النَّفادُ والتَّشتيت ، ومتى يحصل السُّلُوّ لمن هو مُرتَهَنٌ بتجديد الفُقود .

٢٩٨

وقال آخر :

١ ــ لا يُبْعِدِ اللهُ إخوانًا لَنا ذَهَبُوا ... أفناهُمُ حَدَثانُ الدَّهرِ والأَبَدُ

٢ ــ نُمِدُّهُمْ كلَّ يومٍ مِن بَقيَّتِنا ... ولا يَؤُوبُ إلينا منهمُ أحَدُ

معنى لا يُبعِدِ الله لا يهلك الله . يقال بَعِدَ الرَّجلُ إذا هلَك . فإن قيل : كيف قال لا يُبْعِدِ اللهُ وقد عقَّبه بقوله أفناهُم حَدَثان الدهرِ والأبد ، وهل الهلاك إلّا الفناء ؟ قلتَ : هذه اللّفظةُ جرت العادةُ فى استعمالها عند المصائب ، وليس فيه طلبٌ ولا سؤال ، وإنَّما هو تنبيهٌ على شدَّة الحاجة إلى المفقود ، وتناهِى الجزَعِ فى الفَجْع به . ألا ترَى أنَّ الآخَر[1] قال :

يقولُونَ لا تَبْعَدْ وهم يَدْفِنُونَنِي ... وأينَ مكانُ البُعدِ إلّا مكانيا

وأشار بقوله « حَدَثان الدَّهرِ » إلى النَّوائب والنَّكبات ، وبقوله الأبدُ إلى نَفْس الدَّهر ؛ لأنَّ مَن سلِم من الآفات أدّاهُ مرورُ الأيّام واللَّيالى إلى الفَناء والهَرَم . أمَا سمِعتَ قولَ القائل :

وَدَعَوْتُ رَبِّى بالسَّلامَةِ جاهِدًا ... لِيُصِحَّنِى فإذا السّلامةُ داءُ[2]

(١) هو مالك بن الريب . جمهرة أشعار العرب ١٤٤ والخزانة (١ : ٣١٩) .

(٢) نسبه المبرد فى الكامل ١٢٥ لبعض شعراء الجاهلية . وقبله كما فى الكامل وشروح سقط الزند ٣٠٨ :

كانت قناتى لا تلين لغامز ... فألانها الإصباح والإمساء

والأموات على اختلافهم لا يخرجون من هذين الحكمين . وقوله « نُمِدُّهُمْ كلَّ يومٍ من بقيّتنا » مثل قوله :

* فهم يَنقصون والقبور تَزيدُ[(١)] *

إلا أنّه زاد على ما قاله ، حين قال : « ولا يؤوب إلينا منهمُ أحد » . ويجوز أن يُريد بقوله « مِن بقيّتنا » من خيارنا . يقال : فلانٌ من بقية قومه ، أى من خيارهم . ويكون مثلَ قوله :

* أرَى الدَّهرَ يعتامُ الكرامَ ويَصطفِي[(٢)] *

٢٩٩

وقال الغَطَمَّشُ الضَّبّيّ[(٣)] :

١ — إلى اللهِ أشكو لا إلى النّاسِ أنّني أَرَى الأرضَ تَبقَى والأخلّاءَ تذهبُ

٢ — أخِلَّاءِ لو غيرُ الحِمامِ أصابَكُمْ عَتَبْتُ ولكن ما على المَوْتِ مَعْتَبُ[(٤)]

صَرَف شكواهُ عن النّاس إلى الله عزّ وجلّ ، يأسًا مِن معُونتهم ، وإشكاءِ يَحْصُل مِن جهتهم ، ولأنّ الله تعالى هو الذى أجرى المقاديرَ بما يَتألّمُ منه ، مِن بقاء الأرض وفَناء الأصدقاء . ثم قال « أخِلاءِ لو غيرُ الحمام أصابكم » ، كأنّه أقبلَ على الذّاهبين معتذِرًا إليهم من استسلامه للحكم الجارى عليهم ،

---

(١) عجز البيت الأول من الحماسية السابقة .

(٢) لطرفة بن العبد فى معلقته . وعجزه :

* عقيلة مال الفاحش المتشدد *

(٣) ابن جنى فى المنهج : « الغلمشة : أخذ الشىء قهراً . قالوا : ومنه اشتق الغطمش فى اسم رجل ، فهو على هذا اسم مرتجل . وقالوا : الغطمش : الرجل الكليل البصر ، فهو على هذا منقول من الصفة » .

(٤) كذا فى سائر النسخ والتبريزى ، وهو ما يناسب التفسير التالى . ورسم فى الأصل : « أخلاى » .

ومن عَجْزِ قُواه عن نُصرتهم فيما أصابَهم فقال : لو كان القاصدُ لـكم غيرَ الموت لتسَخَّطتُ الحالَ ولم يكن منّي بها رِضًا ، ولـكنْ ما على الموت طريقٌ للعَتْب ، ولا فيــه لى رَجَاء لإعتَاب ، ورُجُوعٌ باعتذار . وقوله « أخِلَّاء » يُرْوَى « أخِلاىَ » على قَصر المدود . والأجود أن يُترك مَدُّته على حالها[1] ، وتُحذف الياء من آخره فى النِّداء ، لأنَّ الـكسرةَ تدلُّ عليه . وقد ألَمّ بقوله :

أمِنَ المَنُونِ ورَيْبِهـــا تَتَوَجَّع والدَّهْرُ ليس بِمُعْتِبٍ من يَجْزَعُ[2]

٣٠٠

وقال أَرْطَاةُ بنُ سُهَيَّةَ[3] :

١ـ هَلْ أنتَ ابنَ لَيْلَى إن نَظَرْتُكَ رائحٌ مَعَ الرَّكْبِ أو غادٍ غَداةَ غَدٍ مَعِى

٢ـ وقَفْتُ على قَبْرِ ابنِ لَيْلَى فلَمْ يَكُنْ وُقوفِى عليه غَيْرَ مَبْكًى ومَجْزَعِ

٣ـ عَنِ الدَّهْرِ فاصْفَحْ إنَّه غيرُ مُعْتِبٍ وفى غيرِ مَن قد وَارَتِ الأرضُ فَاطمَعِ

خاطَبَ المرثِيَّ متلهِّفًا على مفارقته ، ومتحسِّرًا فى إثْرِ الفائتِ منه ، فقال : هل تَرُوحُ مع رُكبان الإبلِ إن انتظرناك ، وهل تغدو غداةَ غدٍ معى إن أقمتُ لك . وهذا تحزُّنٌ وإظهارُ يأسٍ ، وبيانُ انقطاعِ ما بينهم من التألُّف والاجتماع ، والتَّعاون والاصطحاب . ومن روى « غداتَئذٍ » فالمُرادُ غداةَ إذِ الأمرُ كذا ،

---

(١) هذا ما فى التيمورية . وفى الأصل : « على حالته » وفى سائر النسخ : « على حاله » .

(٢) لأبى ذؤيب الهذلى فى ديوان الهذليين (١ : ١) ، وهو مطلع المفضلية ١٢٦ .

(٣) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٣٥ ص ٣٩٧ . وروى التبريزى من سبب الشعر أنه كان مات له ابن ، فأقام على قبره حولا يأتيه كل غداة فيقول : ياعمر ، إن أقمت إلى المساء فهل أنت رائح معى ؟! ويأتيه عند المساء فيقول مثل ذلك ثم ينصرف . فلما كان رأس الحول تمثل بقول لبيد :

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

فحذف الجملة التى أضيف إذْ إليها لينشرِح بها ، لكون المراد مفهوما ، ثمّ أتى بالتنوين عِوَضًا من الجملة المحذوفة ليستقلّ إذْ به .

وقولُه :

وقفْت على قبر ابن ليلى فلم يكن ... وقوفى عليه غيرَ مبْكَى ومجزَعِ

مثل ما تقدّم من قول الآخَر (١) :

رُبَّى حَوْلَهَا أمثالُها إنْ أتيتَها ... قَرَيْنَكَ أشْجَانًا .... (٢)

وقول الآخر (٣) :

أتيناه زُوّارًا فأمْجَدَنا قِرًى ... من البثِّ والدّاء الدّخيلِ المُخامِرِ

وقوله « عن الدهر فاصْفَحْ » رَجَع إلى نفسه وأقبل يُشيرُ عليها بالرِّضا بالمقدور ، وترك التكلُّف للعَتْب على الدّهرِ فى ارتجاع الموهوب ، إذ كان ذاك لا يؤدِّى إلى زَجْرٍ وارعواء ، ولا إلى تَلافٍ (٤) من جهته أو إعتابٍ . وقوله « وفى غير من قد وارت الأرضُ فاطمعِ » تصويرٌ لليأس من المدفون ، وأنه لا طَمَعَ فى إيابه إذْ لم يكن حالُه كغيبة الغائبين .

وكلُّ ما فيه من غريب وتصريف قد مَرّ القولُ فيه .

٣٠١

وقال آخرُ فى أخٍ له مات بعد أخٍ :

١ ـ كأنِّى وصَيْفِيًّا خَلِيلَىَّ لم نَقُلْ ... لِمُوقِدِ نارٍ آخِرَ الليلِ أَوْقِدِ (٥)

٢ ـ فلو أنّها إحْدَى يَدَىَّ رُزِيتُها ... ولكنْ يَدِى بانَتْ على إثْرِها يَدِى

---

(١) هو خلف بن خليفة ، فى الحماسية ٢٩٦ .

(٢) تمامة : « وهن سكون » .

(٣) هو عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثى . فى الحماسية ٢٩٠ .

(٤) التلافى : التدارك . وفى نسخة الأصل : « ائتلاف » .

(٥) هنا تنتهى نسخة دار الكتب المصرية التى رمزنا إليها بالرمز « م » .

٣ ــ فأقْسَمْتُ لا آسَى على إثْرِ هالكٍ قَدِى الآنَ من وَجْدٍ على هالكٍ قَدِى

يقول : لمّا انقطع ما بينى وبين أخى صَيْفِيٍّ بالموت صِرتُ كأنْ لم يجمَعْنى وإيّاه أُخُوّةٌ ووِصال ، ولا وِلادة ولِبان ، فلم نترافَدْ على ابتناء مَكْرُمَةٍ ، وإيقاد نارٍ لطارقِ ليلٍ ، وطالبِ قِرًى وضِيافة ، ولم نتعاونْ على إقامةِ مروءةٍ وإسداء عارِفة . ثم قال « فلو أنّها إحدى يدىّ رُزِيتُها » . وموضع إحدى مبتدأ ورُزِيتها فى موضع الخبر . والشّاعر إنّما يريد بيانَ تَوالِى المصائب عندَه وعليه ، وتفاقُمِ الخطْب لديه فقال : لو أُصِبْتُ بإحدى يَدَىّ لكان فى الباقية بعضُ الاجتزاء والاستغناء ، ولكنْ تَبِعَتِ الأولى الثانيةُ ، فأدّى فَقْدُهما إلى انقطاع الحياة ، وافتقادِ العُدّة فى الآلات . وحذف جَواب لَوْ لأنّ المراد مفهوم ، فهو كما تقول : لو رأيتَنى وأنت شابٌّ ، ولو رأيتَ زيْدًا وفى يده السّيف ؛ لأنّ المعنى لرأيتَ الأمر بخلافه . والضمير فى قوله « فلو أنها » يجوز أن يكون للقصّة ، ويجوز أن يكون للمصيبة ، كأنّه قال : فلو أنّ القصّة والشّان إحدى يدىّ رُزِيتُها .

وقوله « فأقسمتُ لا آسَى على إثرِ هالك » معناه حَلَفتُ لا أحزَنُ لفَقْدِ هالك بعد هذا تَتَجَدَّد ، لأنّ حَذَرى كان عليهما ، وخَوْفى كان مِن فقدهما ، كما كان رجائى فيهما ، وطمعى مُعلَّقًا بحياتهما .

وقوله « قَدِى الآن » معناه حَسْبى . وقد تُزادُ النون عليه ليَسْلَم السكون فى داله ، إذ كان مبنيًّا عليه ، فيقال قَدْنى ، وإن جعلتَ قد غير مضاف فى الموضعين جاز . ويجوز تحريك الدال فى الأول لالتقاء الساكنين ، وفى الثانى لأنّ كلّ ساكنٍ وَقَعَ رَوِيًّا يجوز إطلاقُه بالكسر . قال حُجّة فى زيادة النون وحذفه :

* قَدْنِىَ من نَصرِ الخُبَيْبَيْنِ قَدِى[1] *

---

(١) الرجز لحميد الأرقط . الخزانة (١ : ٤٥٣) .

فأَتَى بالوجهين جميعاً . وقوله « الآن » موضعه نصب على الظرف ، ولا يجىء إلاَّ بالألف واللام ومبنيًّا معه . « ومِن وَجدِ » موضعه رفع على أنه خبر المبتدأ الذى هو قَدِى . وكَرَّر قدى على طريق التأكد ، والثانى مبتدأ مثل الأول وخبره مضمر وهو مثل ما ظَهَر وصار خبرَ الأوّل . ومعنى الآنَ أنه اسمٌ للزّمان الحاضر : وقال بعضهم : هو الزّمان الذى هو آخر ما مضى وأوّل ما يأتى من الأزمنة ، وإنما بُنِى لأنها وقعت فى أوّل أحوالها بالألف واللام . وحُكم الأسماء أن تكون شائعةً منكورةً فى الجنس ثم يدخُل عليها ما يعرِّفها من إضافةٍ وألفٍ ولامٍ ، فخالف الآنَ سائرَ أخواتها بوقوعه معرفةً فى أوّل الأحوال ، ثم لزم مع ذلك موضِعًا واحداً ، لأنَّ لزومَها فى هذه الحالة لموضِعِه قد ألحقه بشبه الحروف ، إذ كان حُكم الحروف لزومَها لمواضعها فى أوّليّتها لا يزولُ عنها ، فبُنِىَ لذلك ، واختيرت الفتحة لخفّتها .

٣٠٢

وقال آخر :

١ ــ هَوَى أَبِى مِنْ عُلَى شَرَفٍ يَهُولُ عُقَابَه صَعَدُهْ

٢ ــ هَوَى مِنْ رَأْسِ مَرْقَبَةٍ فَزَلَّتْ رِجْلُهُ ويَدُهْ

يقول : سقط أبِى من أعلى جبلٍ يَهُولُ الارتقاء إليه والصُّعودُ فيه عِقبانَه ، لسُموقه وارتفاعه . أى إذا همّت العُقاب بالطَّيَران إلى قُلَّته تداخَلَها منه هَوْلٌ وهَيبةٌ . وهذا تهويل وتفظيع للشأن . وأعادَ قولَه « هَوَى » تحسُّرًا وتوجُّعًا . والرقبةُ هو للحَرَسَةُ . والعُلَى هو الأعلى . ويقال صَعِدَ يَصْعَدُ صُعودًا وصَعَدًا وصُعُدًا[1] .

(١) ل : « وصعداء » ولم تعرف المعاجم إلا الصعود ، والصعد بضمتين ، ذكرت الأخيرة فى اللسان .

وهَوَى مصدره الهَوِىُّ والهُوِىُّ بالفتح والضم ، وقد تقدَّمَ القول فيه[١] . والأُهوِيَّة : البئرُ ، وما بين أعلى الجبل إلى مستقَرٍّ بطن الوادى . وقيل الهاوية : كلُّ مَهْواةٍ لا يُدرَكُ قَعرُها . وقوله « يَهُولُ عُقابَهُ صَعَدُه » فى موضع الصِّفة للشَّرَف . ومعنى زَلَّتْ رجله ، أى انخلعت وبانت منه .

٣ ــ فَــلا أُمٌّ فتَبْكِيهِ ولا أُخْتٌ فتَفْتَقِــدُهْ

لم يجعل فتبكيه ولا فتفتقده جوابًا للنَّفى ، لأنَّ الجواب يكون منصوبًا ، لـكنّه عَطَفَ على ما قبله ، وهو عَطْفُ جملةٍ على جملة . ومثله فى القرآن : ﴿ولا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ ، لأنَّ المعنى لا يُؤذن لهم ولا يعتذرون . وكذلك هذا ، معناه لا أمَّ له فلا تبكيه ، إلاَّ أنَّ الجملة المعطوفة مما فى القرآن موافقةٌ للجملة المعطوفِ عليها ؛ لأنَّ كلَّ واحدةٍ منهما متركِّبةٌ من فعل وفاعل ، والتى عُطِفَ عليها هى من ابتداء وخبَر . والجُمل الخبَرِيَّة إذا اختلفت مثلَ هذا الاختلاف يَسُوغ عطف بعضها على بعضٍ ، ألا تَرَى أن الله تعالى يقول : ﴿سَوَاءٌ عليكمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صامِتُونَ﴾ ، فعطف أنتم صامتون وهو ابتداءٌ وخبَرٌ ، على ما قبله وهو فعل وفاعل ، لأنَّ المعنى لا يختلِف ، بل يصير كأنّه قال : أَدَعَوتموهم أم صَمَتُّم . وقد جاء على العكس من هذا ، لأن الشاعر يقول :

* أَمُوفٍ بأَدْراعِ ابنِ طَيْبَةَ أم تُذَمّ[٢] *

فعطف تُذَمُّ ، وهو من فعل وفاعل بأمْ على مُوف وهو ابتداءٌ وخبر ، لأنَّ المعنى أأنت مُوف محمودٌ أم غادرٌ مذموم . والكلام فى لا أُخْتٌ فتفتقده على

(١) انظر ما سبق فى الحماسية ١٢ ص ٩١ .

(٢) فى الأصل : « بأدراع ام » تحريف ، صوابه فى سائر النسخ . وفى ل : « ظبية » صوابه فى نسخة الأصل والتيمورية والمفضليات (٢ : ١٠٩) ، وهذا عجز بيت لراشد بن شهاب اليشكرى . وصدره :

* أقيس بن مسعود بن قيس بن خالد *

ذلك ، كأنه قال لا أُخْتٌ له فلا تفتقدُه . وقال الخليل : تفقَّدت أمر كذا : تعهَّدته ، وافتقدته : لم أره هلاكاً وغَيبةً .

٤ ـ هَوَى عن صَخْرةٍ صَلْدٍ فَفُتَّتْ تحتَها كَبِـدُهْ[1]

٥ ـ أُلامُ على تبَكّيه وأَلْمُسُهُ فلا أَجِـدُهْ

٦ ـ وكيفَ يُلامُ مَحْزونٌ كبيرٌ فاتَهُ وَلَدُهْ

أعاد قوله « هَوَى » استفظاعاً وتحسُّراً . وعَدَّى هَوَى هاهنا بعَنْ لأنه أجراه مجرى زَلَّ وما أشبهه . والصَّلْدُ : ما لا يُنبِت شيئاً من الحجارة . ومن الأرَضِين . ومنه أصْلَدَ الزَّنْدُ ، إذا لم يَخرُج منه النارُ ولم يكن وريًا . ومعنى قوله « فُتَّت تحتها كبِدُه » تقطّعت كبده لمّا حَصَل على الأرض . ويُشير بالصخرة إلى المَرقَبة .

وقوله :

أُلام على تبَكّيه وأَلْمُسُهُ فلا أَجِدُهْ

معناه أنّ الناس يستسرفون اتصالَ بكائى عليه ، ودوامَ التحسُّرِ فى إثره ، والحاجةُ إليه تدعونى إلى طَلَبه فلا أظفَر به ، فعند كل طَلَبٍ يحصُل يأسٌ ، ويتعقّب ذلك اليأسَ منّى بكاءٌ وتحزُّن . وقولُه « أَلْمُسُهُ » بمعنى ألتمسه . واللَّمْس والمَسّ يتقاربان فى معنى الطَّلب والالتماس . ألا تَرَى قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنا السَّماءَ فَوَجَدْناها مُلِئَت حَرَسًا شَديدًا وشُهُبًا ﴾ ، وأنّ مُسترِقةَ السَّمع لم يلمُسوا السماء ولا طلبوا ذلك منها ، وإنما تراقَوْا للسَّمع ليسترِقوا السَّمع

(١) التبريزى : « ففرث تحتها » . والتفريث . والتفتيت . قال التبريزى : « وقال أبو العلاء : إذا روى ففرت تحتها كبده ، فهو من قولهم أفززته أى أزعجته . . . كأنه يريد أن كبده زالت من موضعها . وبعض الناس ينشد : ففتت . ومنهم من يقول : ففرت ، يريد فريت من تفرى الأديم ، ويحمله على لغة طيىء ، يقولون : المرأة دعت ، أى دعيت » .

لا غير . وإذا كان كذلك فمعنى لَمَسَ الْتمس وطَلَبَ . وكذلك قولُ الشاعر[1] :

مَسِسْنا من الآباءِ شيئاً وكُلُّنا   إلى حَسَبٍ فى قومه غيرِ واضعِ

معنى مَسِسْنا منه طلبنا وفتَّشنا ونظرنا ، وليس هو من المَسِّ باليد فى شىء .
ويَدُلُّ على أن معنى قوله ألْمَسُه أطلبه أنّه عَقَّبه بقوله فلا أجده ؛ وهذا ظاهر .
وقوله :

وكيف يُلام محزون   كبيرٌ فَاتَهُ ولدُهْ

يريد : كيف يُلام على البكاء والتوجُّع محزونٌ قد مَسَّهُ الكِبَرُ ، ومَن كان أعَدَّه لحياته ومماته ، واعتدَّه للنيابة عنه فى عِياله ومعاشِه ، قد فاتَه حتّى لا طمع فى إيابٍ له ، ولا فى مَغُوثَةٍ من جهتِه وإن استغاثَ به .

٣٠٣

وقال آخر :

١ ــ إذا مَادَعَوْتُ الصَّبْرَ بَعْدَكَ والبُكا   أجَابَ البُكا طَوْعًا ولم يُجِبِ الصَّبْرُ

٢ ــ فإنْ ينقَطِعْ منك الرَّجاء فإنه   سَيَبْقَى عليكَ الحُزْنُ ما بَقِىَ الدهرُ

يقول : إذا ميَّلتُ الرأىَ بين حَمْل النَّفس على الاستمرار فى الجزَع ، والذَّهاب فى الهَلَع ، وبين ضبطه وإمساكه والأخْذ بالصَّبر فيه ، ثمَّ استدعَيتُ الصَّبرَ من جانب والبكاء من جانب ، وجدتُ البكاءَ يستجيب سريعاً من غير تباطؤٍ واستكراه ، ووجدت الصّبرَ يَخذُل ويتأخَّر ، فلا يكون منه دنوٌّ ولا مساعَدة . وهذا الكلام تلهُّفٌ وتوجُّع . ثم أقبَلَ على المرثىِّ فقال : إن كان الأملُ فيك منقطعاً ، والرَّجاء من إيابك متأخِّراً مستبعَداً ، فإنّ الحزنَ يبقى

(١) هو يزيد بن الحكم . الحماسية ٥٨ ص ٢٣٢ .

عليك ويتّصل باتّصال الأبد، لا يَفتُر ولا يتغيّرُ. وقولُه « طَوْعًا » مصدرٌ في موضع الحال، أراد: أجابَ طائعاً غير مُجْبَر.

٣٠٤

وقال النّابغة يرثى أخًا له من أمّه[١]:

١ — لا يَهنِئُ النّاسَ ما يَرْعَوْنَ من كَلَإٍ   وما يَسُوقُونَ من أَهْلٍ ومِنْ مَالِ

٢ — بعد ابْنِ عاتِكَةَ الثّاوِى عَلَى أَبَوَى   أَمْسَى بِبَلْدَةِ لا عَمٍّ ولا خالِ[٢]

دعاهُ الضَّجَرُ بموت من أُصِيبَ به إلى أنْ دَعَا على النّاس كافّةً بأن لا يهنئَهم اللهُ ما يرعَونهُ من حِمًى، وما يَحُوزونه من مالٍ ولُهًى، ويسوقون من أهلٍ ووَلَدٍ، ويجمعونَهُ من عَتادٍ وذخيرة. وهذا يدلُّ على شماتةٍ من قومٍ حصلتْ عليه حين فُجِعَ بأخيه، فيجوز أن يكون النّاسُ وإن كان لفظُه عامًّا يختصُّ[٣] بمن مُنِى بعداوته، وابتُلى بشَماتَتِهِ. فقد قيل فى قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ ﴾ إنّه كان رجلا واحداً. ولا يمتنع أن يكون اعتَقَد فى النّاس كافّةً أنهم نظَروا بعين الحاسدِينَ إليه أيّامَ حياته، لحسْن توفُّره، وكمالِ بَراعته. وهذا شَأنُ مَن أُعجِبَ بشىءٍ أوتيَه، فلمّا فَقَده ظنّهم شَمِتوا به، وأدركوا مُراداً لهم فى فقدِهِ، لا اختصاصَ فيه ولا تبايُنَ، فعمّهم بالدُّعاء عليهم.

---

(١) ل: « ورزئ أخا له من أمه ». التبريزى: « يرثى أخاه من أمه. وأمه عاتكة بنت أنيس الأشجعى ». والأبيات ليست فى ديوانه المطبوع فى خمسة دواوين، بل فى طبع بيروت ١٣٤٧ ص ٩١. وأنشدها ثعلب فى المجالس ١٣٨ وياقوت فى معجم البلدان (أبوى). واسم أخيه هذا « صحار » كما فى ديوان النابغة.

(٢) روى التبريزى: « على أمر ». وقال: « ويروى الثاوى على أبوى، وهو موضع فيه قبره. وذو أمر: موضع بعينه » قال ياقوت: « أمر: موضع بالشام ». وقال فى أبوى أيضاً: « اسم موضع أو جبل بالشام ». ورواية ياقوت وثعلب: « أضحى ببلدة ».

(٣) هذا ما فى ل والتيمورية. وفى الأصل: « عاما تعريضا ».

وقوله « بعد ابن عاتكةَ » نسبه إلى أمّه تنبيهاً على أنّ الجامعَ بينهما كانت الأمومة. وقوله « الثاوى على أبَوَى » يَدُلُّ على أنّ قبره كان به. وقوله « ببلدة لا عمّ ولا خال » نبّه به على تبايُنِه عن بلاده وأقاربه، وأنّه مات فى غُربة.

٣ ــ سَهْلُ الخليقَــةِ مَشّاءٌ بأَقْدُحِه إلى ذَوَاتِ الذُّرَى حَمّالُ أثقالِ

٤ ــ حَسْبُ الخليلَيْنِ نَأْيُ الأرضِ بينهما هذا عليها وهذا تحتَها بَالِ[1]

وصَفَهُ بأنه كان سهلَ الجانب حسنَ الخُلُق، جميلَ التعطُّف أوانَ القَحطِ والجَدْبِ على الفُقراء والمساكين، ضَروباً بِقِداحِه على الإبل السِّمانِ ذواتِ الأسنِمَة الكبيرة، إذا حَضر الأيسار، لشدَّة الزّمان؛ وأنّه كان يَدخُل تحت الأعباء الثقيلة فيحملُها على جاهِه ومالِه لذويه، والعُفاةِ الراجين له.

وقولُه « حَسْبُ الخليلين نأيُ الأرضِ بينهما »، يعنى بالخليلين نفسَه والمفقودَ، فيقول: حَسْبُنا من البُعد وإن كان التَّدانى بالجوار حاصلا أن صاحبى تحتَ التُّراب يَبْلَى، وأنِّى على ظهرها أمشى وأحيا. وقوله « هذا عليها وهذا تحتها » أشار إلى كلٍّ واحدٍ منهما بما يُشارُ به إلى الحاضر، تنبيهاً على التَّجاورِ والتَّدانى فى الدِّيار، وأنَّ البُعدَ إنَّما كان فى تَعَذُّر الوِصال، وسقوط التَّزاوُر والالتقاء.

٣٠٥

وقال مُوَيْلِكٌ المزمومُ يرثى امرأتَه:

١ ــ أمْرُرْ على الجَدَثِ الذى حَلَّتْ به أُمُّ العَلاءِ فَحَيِّها لو تَسمعُ

٢ ــ أنَّى حَلَلْتِ وكُنْتِ جِدَّ فَرُوقَةٍ بَلَدًا يمرُّ به الشُّجاعُ فيَفزَعُ

(١) ثعلب فى المجالس: « أخذ الناس كلهم هذا المعنى من النابغة. يعنى حسب الخليلين ».

٣ ـ صَلَّى عَلَيْكِ اللهُ مِن مفقودةٍ إِذ لا يلاءُمُكِ المكانُ البَلْقَعُ

يخاطِبُ نفسه ويبعثُها على زيارة المفقودة والتسليمِ عليها ، قضاءً لحقِّها ، وتجديداً للعهد بها ، فقال : أمْرُرْ على القبر الذى دُفنت فيه ، وسَلِّمْ عليها إن كانت تَسْمَعُ . وهذا توجُّع وتلهُّف . ويُروى « فحيِّها هل تَسْمَعُ » ، والفرق بين لو هنا وبين هل ، أنَّ « لو » فائدته الشَّرط هاهنا ، والكلام به كلام مَن غلَبَ القنوطُ عليه من إدْراكها تحيَّة مَن زارها ؛ و « هل » من حيث كان للاستفهام يصير الكلامُ به كأنّه كلامُ راجٍ أو طامعٍ فى سَماعها . ويكون المعنى : حيِّها وانظر هلْ تسمع .

وقوله « أنَّى حَلَلْتِ » معنى أنَّى كيف ومِن أين . وفَروقٌ بناء المبالَغة ، وازدادَ تناهيًا بدخول هاء المبالغةِ عليه . فيقول مخاطبًا لها : كيف تأتَّى منك الاستيطانُ والنُّزول فى قَفْرٍ إذا مرَّ به الرجلُ القويُّ القلبِ تَداخَلَهُ رُعْبٌ ، واستولى عليه قلقٌ وذُعر ، وعهدى بِكِ وكنتِ أضعفَ الناس قلباً وأشدَّهم مِن ذِكر المحاذر استيحاشاً . وقوله « كنتِ جِدَّ فروقةٍ » ، كقولك كنتِ فروقةً جدًّا لا هزلاً ، وحقًّا لا باطلا . والبَلَد : القطعة من الأرض اختُطَّ أو لم يُختَطّ .

وقوله « صلى عليكِ اللهُ » فالصلاة من الله تعالى الرَّحمة ، كأنَّه يئس منها فأقبلَ يترحَّم عليها ، فيقول : إنَّكِ فى شَبابِكِ وقربِ ميلادك ، وكمالِكِ فى خصال أمثالِك ، لم يَلِقْ بك فِقدان ، ولا كان لوقت مجىء الموتِ بطلبك منِّى انتظار ، ثم كنتِ من التُّرْفَةِ والنَّعمة ، ومساعدة القدَر لك ، بحيثُ لا يوافقُكِ الانتقالُ إلى القَفْر ، والتوحُّش عن الأهل .

وهذه الأبيات غايةٌ فيما يُحدِّث به المفجوع نفسَه .

٤ ـ فلقد تَرَكْتِ صَغيرةً مَرْحومةً لَمْ تَدْرِ ما جَزَعٌ عَلَيْكِ فتَجْزَعُ

٥ – فَقَدَتْ شَمَائلَ مِنْ لِزامِكِ حُلوَةً فَتَبِيتُ تُسْهِرُ أهلَهَا وتُفجِّعُ[١]
٦ – فإذا سَمِعتُ أَنِينَها في لَيْلِها طَفِقَتْ عَلَيْكِ شُؤُونُ عَيْنِيَ تَدْمَعُ[٢]

قوله « لم تَدْرِ ما جَزَعٌ عليك فتجزع » لم يجعَـلْ « فتجزعُ » جوابًا ولا عطفًا على ما قبله ، وليس اللفظ على واحدٍ منهما ولا المعنى ، وإنما قوله « فتجزعُ » منويٌّ به الاستئناف ، كأنَّه أراد أنها مِن صِغَرها لا تعرف المُصيبةَ ولا الجزَعَ لها ، وهي على حالها لا تجزع ، لأنَّ ما تأتيه من الضَّجَر والبُكاء ، وتَتركه من النَّوم والقَرار ، فِعلُ الجازعين ، وغايةُ الفاقدين . وفي كتاب الله عزّ وجلّ قوله : ﴿ إِنْ تُبْـدُوا ما في أنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاء[٣] ﴾ ، لك أن ترفع فيغفرُ على نيّة الابتداء ، كأنَّه قال : فهو يغفرُ لمن يشاء . ومثلُ هذا كثيرٌ في القرآن والشِّعر . على ذلك قولُه :

فما هو إلاَّ أن أراها فُجَاءةً فأُبهَتُ حتى ما أَكادُ أُجيبُ[٤]

يُرفع « أبهتُ » على الابتداء والاستئناف .

وقوله « فقَدتْ شمائلَ » ، يريد الأخلاقَ والشِّـكْلَ[٥] وجميلَ المخالَطَة .

وقال الخليلُ : الشِّمالُ : خَليقة الرجُل وطبيعته ، وجمعه شمائل . وأنشد :

هُمُ قومي وقد أنكرتُ منهمْ شمائلَ بُدِّلوها من شِمالي[٦]

---

(١) ل والتيمورية : « تسهد أهلها » ، بالدال .

(٢) التبريزي : « وإذا سمعت » .

(٣) قراءة الرفع هذه هي قراءة ابن عامر وعاصم ويزيد ويعقوب وسهل ، وقرأ باقي السبعة بالجزم عطفاً على الجواب ، وقرأ ابن عباس والأعرج وأبو حيوة بالنصب على إضمار أن ، فينسبك منها مع بعدها مصدر مرفوع معطوف على مصـدر متوهم من يحاسبكم ، تقديره يكن محاسبة فغفرة وتعذيب . وقراءة رابعة ، قرأ الجعفي وخلاد وطلحة بن مصرف « يغفر » بالجزم ولا فاء قبله ، ويروى أنها كذلك في مصحف عبد الله . تفسير أبي حيان (١ : ٣٦٠ – ٣٦١) .

(٤) البيت لعروة بن حزام العذري ، ويروى أيضاً لكثير عزة . الخزانة (٣ : ٦١٨) وحماسة ابن الشجري ١٥٣ .

(٥) الشكل ، بالكسر : الدل .

(٦) البيت للبيد في ديوانه ١٣٨ واللسان (شمل)

فيقول : كانت اعتادتْ منكِ توفُّراً ومداراةً وحُسنَ خُلق ، ولينَ عِطفٍ وكرمَ مخالَطَة ، وإيناسًا فى مجاملة ، فلما انقطع عنها جميعُ ذلك بالفراقِ باتت لا تنام ولا تُنيم ، بل تَفَجّعُ وتَوَجّعُ ، ومهما أدركْتُ شكواها وبكاءها أقبلَتْ مفاصلُ رأسى تَسمح بالدّمع فأبكِى عليكِ ولَهاً . ومعنى « طفِقَت عليك شُؤونُ عينى » كقولك : أقبلَت تفعل كذا ، وجعلَت تقولُ كذا .

٣٠٦

وقال حَفْصُ بن الأحنفِ الكنانى[1]

١ ـ لا يَبْعَدَنّ ربيعةُ بن مُكَدَّمٍ وَسَقَى الغوَادِى قَبْرَهُ بذَنُوبِ[2]

٢ ـ نَفَرَتْ قَلُوصِى مِن حجارةِ حَرّةٍ بُنِيَتْ عَلَى طَلْقِ اليدَيْنِ وَهُوبِ

قوله « لا يبعَدنّ » لفظُه لفظُ الدُّعاء ، والكلام فيه على ما تقدَّم . وكا قيل : بُعْدًا له وسُحقًا لم يُقل مِن بَعِدَ بَعَدًا إذا هَلَكَ بَعَدًا له ، وكان استعمالُ هذا فى الدُّعاء أقربَ فلم يجئْ . ومعنى « وسَقَى الغوادِى قبرَه بذَنوبِ » أنه دَعا

(١) التيمورية : « بن الأخيف » . قال التبريزى : « ويروى لحسان » . وقال أيضاً : « ويروى : الأخيف ، وهو الصحيح ... وقال أبو العلاء : حفص مأخوذ من قولهم ازبيل من جلود : الحفص ، وقد قيل إن ولد الأسد يسمى حفصا . وحفص بن الأخيف يختلف فى لفظه ، فيقال الأحنف ، من حنف الرجل ، وهو أن تقبل إحدى الرجلين على الأخرى ، وقيل الحنف أن يمشى الإنسان على ظاهر قدميه . . . . ويروى : الأخنف ، بالخاء والنون ، وهو أن يكون أحد جانبى الجسم مخالفاً للآخر . ومن روى الأجنف فهو من الجنف ، أى الميل والظلم » .

(٢) كان من خبر هذا الشعر أن نبيشة بن حبيب خرج فى فرسان من بنى سليم ، فلقوا ربيعة بن مكدم ، فظل يقاتلهم حتى حمل عليه نبيشة فطعنه ، فاستمر يقاتلهم وهو مطعون قد عصب طعنته ، فلما وجد الموت اتكأ على رمحه ، وأقبل السلميون وهم يحجمون عنه يخالونه حيا وهو قد فارق الحياة ، فرمى أحدهم فرسه فندر عنها ميتاً ، ودفن على رأس ثنية غزال فكان لا يمر به أحد من العرب إلا عقر عليه دابة أو بعيرا ، حتى مر به كرز بن خالد وهو شيخ كبير ، فقال : لا أعقر ناقتى ولكن أرثيه مكان ذلك ، ويقال بل عمرو بن شقيق الفهرى . ويقال حفص ابن الأحنف العامرى .

له بالسُّقيا . والغَوادى هى السّحابات التى تنشأ غُدوةً . والذَّنوب : الدَّلو بما فيه من الماء ، قال :

* له ذَنوبٌ ولنا ذنوبُ(١) *

وربَّما جُعِلَ الذَّنوب الحظَّ والنصيب ، كما قال :

* وحُقَّ لشَأْسٍ مِنْ نَدَاكَ ذَنُوبُ(٢) *

وفى القرآن : ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ ﴾ . وفى البيت الذى نحن فيه يحتمل الوجهين .

وقوله « نَفَرَتْ قَلوصِى مِن حجارةِ حَرَّةٍ » فإنَّه كان اجتازَ بقبرِ ربيعةَ وقد نُضِدَ عليه حجارةٌ سُود ، فنَفَرتْ قَلوصُه ، فأخذَ يقتصُّ ما كان اتَّفق ويُنكِره .

وقوله « بُنِيَتْ على طَلْقِ اليدَين » من صفة الحجارة . ومعنى طلق اليدين أنّه سَخِىٌّ بَذّالٌ يُطلِق يدَيه بالمعروف . والوَهُوب : الكثير الهبات .

٣ — لا تَنفِرِى يا نَاقَ مِنْهُ فإنَّهُ شَرّابُ خَمْرٍ مِسْعَرٌ لحُرُوبِ(٣)

٤ — لولا السِّفارُ وبُعْدُ خَرْقٍ مَهْمَهٍ لتَرَكْتُهَا تَحْبُو على العُرْقُوبِ(٤)

جَعل نِفارَ ناقته كأنّه كان من المدفون ، فنهاها عن ذلك ، ثم أخذ يصفه بالكرم والشّجاعة ، والتقدُّم فى الشُّربِ والبَطَالةِ . والمِسعر : الذى كأنَّه آلةٌ فى إيقاد نار الحرب .

وقوله « لولا السِّفار » كانت(٥) العادة فى العرب أنّ الواحد منهم إذا اجتازَ

(١) فى اللسان (ذنب) :

لنا ذنوب ولكم ذنوب فإن أبيتم فلنا القليب

(٢) لعلقمة بن عبدة فى المفضليات (٢ : ١٩٦) . وصدره :

* وفى كل حى قد خبطت بنعمة *

(٣) التبريزى : « شريب خمر » ، وفى الأصل كتب تحت « شراب » : « شريب » إشارة إلى أنها رواية أخرى .

(٤) فى الأصل : « لتركتها تكبو » ، صوابه فى ل والتيمورية والتبريزى .

(٥) بعده سقط فى التيمورية ينتهى قبيل الحماسية ٣٢٣ ، وسننبه على نهايته بعد .

بقبرِ كريمٍ كان مأوًى للأضياف ، ومقيمًا لقِراهم ، ينحَر راحلتَه ويُطعِمها النّاسَ إذا أعوزَ الزّادُ ولم يتّسع ، يفعل ذلك نيابةً عنه ، إلّا أن يمنع مانعٌ من بُعْد السّفر وتناهى المشقّة وما يجرى مَجراه ، فقال هذا الشّاعرُ معتذرًا من إبقائه على راحلتِه ، لمّا خفّ الزّادُ الذى كان معه ، وعَجز عن الصَّحْب على بُعد المسافة وطُول المشقّة ومَسَاس الحاجة . ومعنى « لتركتُها تحبو على العُرقوب » أى لعَرْقَبْتُها . والحَبْو : ما يفعله الصبىُّ من الزّحف قبل القيام ، ويفعله البعيرُ وهو يريد المَشْى . ومنه الحابى من السِّهام ، وهو الذى يسقُط ثم يَزْحَف إلى الهَدَف . ويقال : حبا للخَمسينَ ، أى لم يبلغْها وقد دنا منها ؛ وهو من فصيح الكلام . والخَرْق: المكان الواسع تتخرّق فيه الرّيح . والمَهْمَهُ : الأمْلَسُ الواسعُ .

٣٠٧

وقال آخر :

١ ـ أجارِىَ ما أزدادُ إلّا صَبَابَةً عَلَيْكَ ولا تزدادُ إلّا تنائيا[١]

٢ ـ أجارِىَ لو نَفْسٌ فَدَتْ نَفْسَ مَيِّتٍ فَدَيْتُكَ مَسْرُورًا بِنَفْسِى ومَالِيا

الصَّبابة : الوَجْد والمحبّة ، والفعل منه صَبِبْتُ بكسر الباء أَصَبُّ . ورجُلٌ صَبٌّ ، وامرأةٌ صَبّة . وقوله « أجارى » ، ليس بندبةٍ[٢] ، لأنّ المندوبَ لا يكون إلا بيا ووَا ، لكنّه على العادة والرّسم ناداه ورخّمَهُ . يقول : لا أزداد على مُرور الأيّام وتصرُّفِ الأوقاتِ إلا شَوْقًا إليك ، ووَلُوعًا بك ، وقوّةَ أسفٍ عليك ، إذْ لم يكن حالى حالَ المتحسِّر فى إثْرِ فائتٍ ، والرّافع طمعَه من لقاء مائت ، فيُعقِبه الفوات يأسًا ، ويُورِثه ما يشاهده من حال الفناء تناسيًا أو تسليًا ؛ وأنت

(١) ل والتبريزى : « عليك وما تزداد » .
(٢) فى الأصل : « ليس يندبه » وأثبتنا ما فى ل والتبريزى .

لا تزداد إلَّا تناهيًا فى الانقطاع ، وتنائيا فى الهِجرة والإعراض . فقوله « تنائيا » لم يُرِدْ تباعُدَ الأَجرام وتراخِيَ المَزار ؛ لأنَّ تجاورَ الدِّيارِ وتصاقُبَها كان باقيًا على ما كان فى الأصل .

وقوله « أجارِيَ لو نفسٌ فدَتْ نفسَ ميِّت » ، يريد : لو كان السَّبيل إلى التَّفادى بين الأحياء والأموات مسلوكًا ، وقَبولُ الأبدال عند الاستعراض والدُّعاء مُجابًا إليه مألوفا ، لـكنتُ السابقَ إليه ، والجاعلَ فى فدائكَ النَّفسَ والمال ، وأنا مغتبطٌ بذلك ومغتنمٌ له ، لـكن لا مانع لما طُلِب ، ولا مَعْدِلَ عما حُتِمَ .

٣ — وَقَدْ كُنتُ أرجُو أنْ أُمَلَّاكَ حِقْبَةً فحَالَ قَضَاء اللهِ دُونَ رجائيا

٤ — ألَا لِيَمُتْ مَنْ شَاء بَعْدَكَ إنَّمَا عَلَيْك مِنَ الأقْدارِ كانَ حِذَارِيَا

قوله « أنْ أُملَّاكَ » يقال مُلِّيتُ فلانًا فتَملَّيتُه ، أى جُعِلَ لى أن أعيش معه مُلاوةً فيبقى لى ممتَّعًا به . والمَلَوانِ : اللَّيل والنَّهار ، من هذا[1] . يقول : كنت أرجو أن أُمَتَّعَ بحياتك حِقبةً — وقال الخليل : الحِقبة زمانٌ من الدهر لا وقتَ له ، والجميع الأحقاب والحِقَبُ والحُقُبُ مثلُه — فحجز بينى وبين مرادىَ القدرُ الذى لا يُملَكُ معه إلَّا الاستسلام له .

وقوله : « ألا لِيَمُتْ مَن شاء بعدك » مثل قول الآخر :

* فآليت لا آسى على إثرِ هالِكٍ[2] *

وقول الآخر[3] :

* أمِنَّا على كلِّ الرَّزايا من الجَزَعْ[4] *

(١) أصرح منه قول ابن جنى فى التنبيه : « ولام أملاك واو ، وهو من الملوين ، وهما الليل والنهار » .

(٢) البيت الثالث من الحماسية ٣٩١ . وعجزه :

* قدى الآن من وجدى على هالك قدى *

(٣) هو عبد الله بن المقفع . الحماسية ٢٨٢ .

(٤) صدره : * فقد جر نفعاً فقدنا لك أننا *

٣٠٨

وقالت فاطمةُ بنت الأَحْجَمِ الخُزَاعيّة(١) :

١ — ياعَيْنِ بَكِّى عند كُلِّ صَبَاحِ جُودِى بأربَعَـــةٍ على الجَرَّاحِ

قوله « بَكِّى » يجوز أن يريدَ به أكثِرِى البكاء ، ويجوز أن يريدَ كرِّرِى البكاء ، لأنَّ تضعيف العين إذا لم يكن للتَّعدية مثل كَرَّمَ — لأنَّه كأكرمَ لا فرقَ بينهما ، يكون للتكثير أو التكرير ، وذلك كقولك ضَرَّب وقَتَّل . وإنَّما قال « عند كلِّ صَباحٍ » لأنَّه يريد اجعَلِى مَبْدَأَ نَهارِكِ لذلك ، أو لأنَّه يريد كانَ وقتَ نكايته فى الأعداء ، وشنِّ الغارات على المنابِذين ، فاجعلى بإزاء فِعلِهِ حينئذٍ البكاءَ عليه السَّاعةَ . وقوله « جودى بأربعة » أراد بالأربعة قبائلَ الرَّأس . والدَّمعُ يخرج من الشؤُون . فأراد : جودى بدَمعكِ كلِّه . ولا تدَّخِرى منه شيئا . وقوله « يا عينِ » حذف الياءَ لوقوعها موقعَ ما يُحذف فى النداء وهو التنوين ، ولأنَّ الكسرة تدلّ عليه . وبابُ النِّداء بابُ حذفٍ وإيجاز .

٢ — قد كُنْتَ لِى جَبَلًا أَلُوذُ بِظِلِّهِ فتَرَكْتَنِى أَضْحَى بأَجْرَدَ ضَاحِ

أقبلَ يخاطب المرثىَّ على عادتهم فى الانتقال عن الإخبار إلى الخطاب ، وعن الخطاب إلى الإخبار ، تفنناً واقتداراً . فيقول : كنتَ لى جبلَ عِزٍّ ، آوِى إليك فى الشَّدائد ، وأعوِّل على حسن دِفاعك فى النَّوائب ، وأستكِنُّ بظلِّك ،

---

(١) كان والدها الأحجم — ابن دندنة — ويقال « الأجحم » أيضاً — أحد سادات العرب . وزوجته هى خالدة بنت هاشم بن عبد مناف . وقال السكرى : الشعر لليلى بنت يزيد ابن الصعق ، ترثى ابنها قيس بن زياد بن أبى سفيان بن عوف بن كعب ، وقال الأخفش : إنه لامرأة من كندة ترثى زوجها الجراح . انظر أمالى القالى (٢ : ١ — ٢) والتنبيه ص ٨٧ . وقد ذكر القالى أن عائشة رضى الله عنها تمثلت بهذه الأبيات بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم .

وأتحصَّن بتمنُّعك، فغادرتنى بارزاً للآفات، ومعرَّضاً للحوادث والنِّكايات[١]. لا مَعْقِل لى ممَّا يَدهَم، ولا مَلاذَ عند ما يهجُم. والضَّاحى: البارز للشَّمس، والفعل منه ضَحِىَ يَضْحَى؛ وقد أتى بهما فى البيت. والأجرد: الأملَسُ. يَضرِبُ[٢] ذلك مثلًا لكونه مُعْوِرًا لا واقِىَ له ولا ساتر، ولا مُحامِىَ ولا مدافِع.

٣– قد كنتُ ذاتَ حَمِيَّةٍ ما عِشْتَ لِى … أَمْشِى البَرَازَ وكنتَ أنتَ جَنَاحِى

٤– فَاليَوْمَ أَخْضَعُ للذَّليلِ وأتَّقِى … منه وأَدْفَعُ ظالِمِى بالرَّاحِ

قوله «قد كنتُ ذاتَ حَمِيَّةٍ» يقال حَمِيتُ من الشَّىء أَحْمَى حَمِيَّةً، أى أَنِفْتُ وغضبت. ورجل حَمِىُّ الأَنْف: لا يحتمل الضيم، وحَمَى أنفَه من كذا. والمعنى: كنتُ فى حياتك آنَفُ ممَّا أُسَامُ من الضَّيم فأتسخَّطُه، وتتَّسع المقدرةُ لدَفعِه والإباء منه، والآنَ صار بدلَ ذلك السُّخْطِ الرِّضا، وبإزاء ذلك الانتقامِ الاستسلام. و «ما عشت» فى موضع الظَّرف، أراد مُدَّةَ عيشِك لى. وقوله «أمشِى البَرَازَ» البرازُ: المكان الفَضاء من الأرض. وإذا خرج إنسانٌ إلى ذلك الموضع قيل بَرَّز. ومن هذا قولهم: بَرَّز على أقرانِه، أى صار فى البَرَاز ظُهوراً عليهم واقتداراً. وكما تصرَّفوا فى هذا على ما ترَى تصرَّفوا فى الظَّاهرة، وهى الضَّاحيةُ العالية، فقيل: ظهَرَ فلانٌ على فُلانٍ، أى عَلاهُ، وأظهرهُ اللهُ عليه[٣]، وفى القرآن: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾. وأصلُه أمشِى فى البَرَاز، فحذَف الجارَّ ووصَلَ الفعلُ فعَمِل. والمعنى: كنتُ لا أستتر ولا أكتتم[٤] تهيُّباً وتخوُّفاً من شىء. وقوله «وكنتُ أنتَ جَناحِى» فالجناح من الطَّائر والإنسان:

(١) ل: «والنكبات».
(٢) ل: «وضرب».
(٣) كذا فى ل. وفى الأصل: «وأظهره ما فيه عليه».
(٤) ل: «ولا أكتمن».

يداهُ. والمعنى : كنتُ أطير بقوَّتِك، وأنهض فى الأمور بصَولتِك ، وأبْطِشُ بالأعداء بيدِك وأيْدِك .

وقوله « فاليومَ أَخْضَعُ للذَّليل » أراد باليوم متَّصِلَ وقتِهِ من الحال والاستقبال ، والمعنى : صرتُ من طلَب السَّلامة على الدَّهر وأهلِه بحيث يَطْمَعُ فىَّ الذَّليل ، ويَستلين جانبى المَهين ، فأتقِّى ذا الشَّوكة ومَن لا شوكة له ، وأحذَرُ مَن يُخشَى كَيدُه ومَن لا كيد له . وقوله « وأدفَعُ ظالمى بالرَّاح » يريد أدفعُــه بألْيَنِ ما أجدُ السَّبيلَ إليه ، لا خشونةَ لى فى قولى[1] ولا مزاحمةَ فى رُكنى ، ولا اعتراضَ شديداً منِّى فى اهتضامِه لى ، ولا محاجَّةَ قويَّةً على جِدَالِه إيّاى ، فِعْـلَ مَن لا حَدَّ له ولا حديدةَ ، ولا عُدَد ولا عَتيدة ، ولا حِمًى ولا حَمِيَّة .

٥ — وإذا دَعَت قُمْرِيَّةٌ شَجَنًا لها   يومًا على فَنَنٍ دَعَوْتُ صَباحى[2]

٦ — وأَغُضُّ من بَصَرِى وأَعلَمُ أَنَّهُ   قَدْ بانَ حَدُّ فَوَارِسى ورِماحى

قولُه « وإذا دَعتْ قمرية شجناً » كلامٌ أُخرجَ على ما فى اعتقادهم من بُكاء الحمام ، فيقول : إذا ناحت حمامةٌ على غُصْنٍ وهى تدعو حُزْنَها ليهتاجَ بكاؤها ويمتدّ صوتها ، فإنى أَشْجَى لصوتها وأُجاوبُها داعياً صَباحى ، أى قائلاً : وا صباحاه !

وقولُه « وأغضُّ مِن بَصَرِى » غَضُّ الطَّرْفِ مِن فعلِ الذليل المتخزل ، كما

(١) هذا الصواب من ل . وفى الأصل : « لا خشونة فى قوله » .

(٢) ورد هذا البيت عند التبريزى متأخرا عن تاليه ، وهو الأوفق . وقال البكرى فى التنبيه على الأمالى ص ٨٧ : وأخبرنى غير واحد عن أبى العلاء المعرى — رحمه الله — أنه كان يرد هذه الرواية ويقول إنها تصحيف ، وكان ينشده : « وإذا دعت قمرية شجبا لها » بكسر الجيم وبالباء بعدها ، يعنى فرخها الهالك ، وهو الهديل . والشجب : الهلاك ، والشجب : الهالك . وأخلق بهذا القول أن يكون صحيحا ، والحق أحق أن يتبع » .

أن طُموحَهُ فعلُ العزيزِ الناظرِ من فوق . فيقول : إنى عارفٌ بمقدارى بَعدَكَ ، ومتيقّن نكوصى وسقوطَ حشمتى بذَهابك ، وكِلَّةَ(١) حَدِّى وحدِّ أصحابى لفقدانك ، فأغمِّض عينى فى كثيرٍ مما يجرى علىّ وأُلابِسُه ، مخافةَ أن أرى ما هو أكبرُ منه . وقولُه « وأعلم أنّه » الضمير ضمير الأمر والشأن . يريدُ : وأعلم أنّ الأمرَ انفلالُ فُرسانى ، وتفلُّلُ أسنَّة رماحى . وهذا مَثَلٌ لسقوط القُوَى واستعلاء العِدَى ، وذهاب العُدَّة وتراجُع العِدَّة . ولا يمتنع أن يريد بحدّ فوارسى نفسَ المفقود ، جعله لفُرسانه حَدًّا إذ كان مقدامَهم ومِدرَهَهم ، ولرماحِهِ سِنانًا إذ كانت تعمل بقوّته ، وتنفُذ بصرامته .

٣٠٩

وقال آخر(٢) :

١ــ إخوتى لا تَبْعَدُوا أَبدًا   وَبَلَى واللهِ قد بَعِدُوا

٢ــ لو تَمَلَّتْهُمْ عَشِيرَتُهُمْ   لاقتناءِ العِزِّ أو وَلَدُ(٣)

٣ــ هانَ مِنْ بَعْضِ الرَّزِيئةِ أو   هانَ مِن بَعْضِ الذى أَجِدُ

٤ــ كلُّ ما حَىّ وإن أَمِرُوا   وارِدُو الحَوْضِ الذى وَرَدوا(٤)

لك أن تروى « إخْوَتِى » و « إخْوَتا » . فمن روى « إخوتى » فإنّه يسكّن الياء وأصله الحركة ، لكونه علامة الضمير متطرّفًا على حَرْفٍ واحدٍ

(١) الكلة بالكسر : مصدر كل السيف ونحوه كلا وكلة وكلالة وكلولة وكلولا ، إذا لم يقطع .

(٢) كذا ورد فى ل . وعند التبريزى : « وقالت أيضا » ، أى فاطمة بنت الأحجم . وقد ذكرها ابن جنى صريحة فى التنبيه : « وقالت فاطمة بنت الأحجم الخزاعية » .

(٣) هذه رواية ل وأشير فى هامشها إلى أنها فى نسخة « أوولدوا » ، وبهذه الرواية الأخيرة وردت فى نسخة الأصل والتبريزى . ومقتضى عبارة الشرح أولوية رواية ل .

فوجب تقويتُه بالتحريك كما كان سبيل أختَيه الكافِ والهاء لو وقَعا موقِعَه، لكنّهم آثروا الفتحة لخفّتها، ويدلّ على أنّ الأصل الفتحة أنه لو كان ما قبلَه حرفاً كان لا يجيء إلّا مفتوحا. وذلك قولك رَحَایَ وعَصَایَ، إلا أنّه لمّا كان باب النِّداء باب حذفٍ وإيجاز، لكثرة استعمالهم له، سَكَّنوا الياء. ومَن قال «إخوتا» فرّ من الكسرة وبعدها ياءٌ إلى الفتحة، فانقلبت الياء ألفاً. على ذلك قولهم باديةٌ وباداةٌ، وناصِيَةٌ وناصاةٌ، وقولك يأباها وأنت تريد بأبى هما. وقوله «لا تَبْعَدوا» قد تقدّم القول فيه[1]. فأمّا استدراكُه لقوله «وبَلَى والله قد بَعِدوا» فإنه تنبيهٌ منه على أنّ لا تبعَدوا وإن كان لفظُه لفظَ الدُّعاء فهو جارٍ على غير أصلِه، وأنّه إنما هو تحسُّرٌ وتوجُّع.

وقوله «لو تَمَلَّتْهُمْ عشيرتهم»، يريد: لو بَقُوا معهم مُلاوَةً من الدّهر ممتّعين بهم، ومقتنين العزَّ بمكانهم أو أولادُهم بَقُوا معهم فتربّوا في حُجورهم، وتأدَّبُوا بسياستهم، واحتَبَوْا بأردية السِّيادةِ في أفنيتهم ومحافِلهم — لهانَ بعضُ الرزيئة. ولك أن تروى «أو ولدوا» على أن يكون فعلًا وواوُ الضمير بعد حرف الرويّ تُجعَل وصلًا، ويكون المعنى: لو أعقبُوا وخلَّفوا أولاداً يَرِثونَ مجدَهم ويُحيُون أسماءهم، ويَعمُرون مَعالِيَ آبائهم بعدهم. وجواب لو أوّل البيت الذى يليه، وهو «هان من بعض الرزيئة» ومعناه: لو قُضِي الأمرُ على ذلك لخفَّ بعضُ ما على النّاس لهم ومن أجلهم، أو خفَّ بعضُ الذى أجدُه أنا من الاكتئاب والاهتمام بفَوتهم. وقوله «من بعض الرزيئة» الأخفش يجيز زيادة «مِن» في الواجب، فعلى طريقته يكون المعنى هان بعضُ الرزيئة. وسيبويه يمتَنِع من زيادة من إلّا فيما ليس بواجبٍ، كالاستفهام والنّفي. فَعَلى طريقته يكون المعنى: كانَ ابتداءُ الهوّنِ بعضَ الرزيئة أو من بعض الرزيئة.

(١) انظر الحماسية ٢٩٨ ص ٨٩٢، و ٣٠٦ ص ٩٠٥.

وقوله « كلُّ ما حيّ » ما زائدة ، ويجوز أن يريد بالحيِّ القبيلة . ومعنى أمِرُوا كَثُروا . يقال أمِرَ الشَّىء وآمَرَه الله له(١) . ويجوز أن يريد بالحيِّ ضدَّ الميّت ، ويكونَ الضمير من أمِروا عائداً إلى لفظ كلّ . فيقول : كل قبيلة وإنْ تناسَلوا وتكاثروا فمآلُ أمرِهم إلى مثلِ ما آل أمرُ إخوتى ، ومَوردُهم من الذَّهاب والفَناء مثلُ مَوردهم ، إذ كان الموتُ لا معدِلَ عنه ، ولا مَنجَى لأحدٍ منه . وجواب الشَّرط فى قوله وإن أمِروا دلّ عليه قوله « وارِدُو الحوضِ الذى وردوا » ، والضمير العائد من الصِّلة إلى الموصول محذوف ، كأنه قال : الذى وردوه ، لأنّهم استطالوا الاسم بصلته .

٣١٠

وقالت امرأةٌ أخرى(٢) :

١– طافَ يَبْغِى نَجْوَةً مِنْ هَلاكٍ فهَلَكْ(٣)

٢– لَيْتَ شِعرِى ضَلَّةً أىُّ شىءٍ قتَلَكْ

النَّجاة والنَّجوة : ما ارتفع من الأرض حتَّى لا يصلَ إليه السَّيلُ ولا يبلغَه . قال :

فمَنْ بنَجْوَتِهِ كمن بعَقْوَتِهِ والمستكِنُّ كمَنْ يمشى بقِرواحِ(٤)

فجعله هاهنا مثَلًا لما كان يطلبه من وجه الخلاص من الآفات . وكأنَّ هذا

(١) كلمة « له » ليست فى ل .

(٢) التبريزى : ويروى أنها لأم تأبط شراً ، ويقال لأم السليك بن السلكة » . ورجح التبريزى أن الشعر لأم السليك بن السلكة بخبر طويل ساقه فى شرحه . وفى العقد (٣ : ٢٦١) : « خرج أعرابى هارباً من الطاعون فبينما هو سائر إذ لدغته حية فمات ، فقال أبوه يرثيه » .

(٣) هذا وزن نادر من أوزان الشعر . قال التبريزى : « من مشطور المديد والقافية متراكب . قال أبو العلاء : هذا الوزن لم يذكره الخليل ولا سعيد بن مسعدة . وذكره الزجاج وجعله سابعا للرمل . وقد يحتمل أن يكون مشطوراً للمديد » .

(٤) لأوس بن حجر فى ديوانه ص ٤ ليبسك ، أو عبيد بن الأبرص . اللسان (قرح) .

المرثىّ كان استشعر خوفاً من الموت فأخذ يتنقّل فى البلاد والبقاع ويتطلّب موضعاً يبعّده من الآفات ، فبقى يتردّد فى ذلك ويتحيّر ، فإذا الهلاك قد فاجأه من حيث لا يحتسب ولا يرتقب . وإنّما نكّر من هلاكٍ لأنّه جعلَ كلَّ نوعٍ منه هلاكاً ، ولم يَدْرِ ماذا يصيبُه .

وقوله « ليت شِعْرى » موضع شعرى نصبٌ فى معنى عِلمى . ويقال شَعَرْت شِعْرةً كما يقال فَطَنت فِطنة ، إلّا أنّه لا يستعمل مع ليت إلّا وقد حُذِف الهاء منه . وقوله « أىُّ شىء قتلك » الجملة كما هى فى موضع نصب ، لأنّها نابَت عن مفعوليه . وخبر ليت مضمَر لا نجده إلّا كذلك ، فهو يُشبِه خبرَ المبتدأ بعد لولا إذا قلت لولا زيد لخرجت ، لأن لَخرجتُ جوابُ لولا . وخبر المبتدأ محذوف لا يجىء إلّا على ذلك . واستغناء ليت بمفعولَىْ شِعرى عن خبره ، كاستغناء المبتدأ بعد لولا بجوابه عن خبره . و « ضَلّةً » ، انتصبَ على المصدر ، والعامل فيه فعل مضمر . وهذا الضّلال يجوز أن يكون لنفسه فيما استَبهَمَ عليها من حال المتوفى ، كأنّه ضَلَّ عن العلم ضَلَّة ، ويجوز أن يكون للمتوفَّى نفسِه ، كأنّه عَدَّ غيبتَه وخفاء أمره ضلالا له ، والمعنى : تمنيت أنّى أعلم أىُّ شىء أهلكك ، وهذا لضلالى عن معرفة حالِك ، وذَهابى عن العلم به . هذا على الأول ، وعلى الثّانى يكون المعنى : ما الذى قتلك حتّى ضلِلْتَ هذا الضّلالَ .

فإنْ قيل : خبر ليت كيف يجىء فى التّقدير وإنْ لم يظهر فى الاستعمال ؟ قلتَ : تقديره ليت شعرى واقعٌ أىُّ شىء قتَلَك ، أى ليتنى علمت أو وقَعَ عِلمى بما يقتضى هذا السُّؤالُ ، لأنّ الذى تمنّاه هو ما كان جوابه لا نفسُ السُّؤال .

٣ ـ أمَرِيضٌ لم تُعَدْ أم عَـــدُوٌّ خَتَلَكْ[1]

(١) بعده عند التبريزى :

أم تَوَلّى بك ما غالَ فى الدّهرِ السُّلَكْ

السلك ، كصرد : فرخ القطا ، وقيل فرخ الحجل .

٤ ـ كُلُّ شَيءٍ قاتِلٌ حِينَ تَلْقَى أَجَلَكْ

٥ ـ والمَنايا رَصَدٌ للفَتَى حَيْثُ سَلَكْ(١)

٦ ـ أيُّ شيءٍ حَسَنٍ لِفَتًى لَمْ يَكُ لَكْ

قوله « أمريض لم تُعَد » هو إعلام منها بأنه تغيَّب نخفِيَ أمرُه فيما أصابه حتَّى لم يبِنْ له أثر ، ولا لمرضه نبأ . وهو يجرى مجرى البيان لقولها « أيُّ شيء قتلك » فتقول : أمريضٌ كنتَ فى غربةٍ ووطنٍ وَحشةٍ ، فمتَّ حتْفَ أنفك لا يعُودك مُشفِق ، ولا يتفقَّدك ممرِّض ، أو اغتالَكَ عدوّ فتوصَّلَ إلى الغِيلة فى بابك بإعمال الخَتْل والحِيلة . ويروى : « أو رصيدٌ خَتَلَكْ » ، والمعنى : أو خَدَعَك عن حياتك مَنْ كان بالمرصاد لكَ من أعدائك . وقال الخليل : الخَتْلُ : تَخادُعٌ عن غفلة .

وقوله :

كلُّ شيءٍ قاتِلٌ حِينَ تَلْقَى أجلَكْ

تريد الإخبارَ عن استواء أسباب الموت فى الأخذ والظَّفَر ، إذا دنا الأَجَل . وأنَّ كلَّ سببٍ ينُوب مَنابَ الآخَر إذا انتهت المُدَّة .

وقوله :

والمَنايا رصَدٌ للفَتَى حيثُ سلَكْ

تُريد به أنَّ البِقاعَ والتحوُّلَ(٢) فيها لا يغنى ؛ لأنَّ حُكمَ الله تعالى يبحَثُ وينقِّب عن المطلوب حيث كان ، فالموتُ رصَدٌ للفتى حيثُ استطرَقَ وأنَّى توجَّه .

(١) روى التبريزى هذا البيت وبعده البيت السادس ثم الخامس .

(٢) كذا بالحاء المهملة فى جميع النسخ . يقال حال الرحل وتحول من موضع إلى موضع ، أى انتقل .

وبعضهم يرويه : « والمنايا رُصَّد » كأنَّه جمع الرَّاصد لكون المنايا جمعا . والأوّلُ أفصَح وأجود .

وقوله :

أيُّ شيء حسنٍ لفتًى لم يَكُ لَكْ

يصفُه ببراعته وتكامُلِ محاسنه ، واستتمام آلات الرِّياسة فيه ، فكأنه لا يُستحسَن من الفِتيانِ شيء خَلقا ولا خُلقًا إلَّا وقد كان حصَلَ له ، واجتمع فيه . وقد تقدم القول فى حذف النُّون من لم يك .

٧ — سأعزِّى النَّفسَ إذْ لم تُجِبْ مَنْ سَأَلَكْ

٨ — إنَّ أمرًا فادِحًا عَنْ جوابِى شَغَلَكْ

٩ — طالما قد نِلْتَ فى غيرِ كدٍّ أمَلَكْ[1]

قوله « سأعزِّى النَّفس » أى سأصبِّرها ، إذْ كنتَ مع السَّائلين — وإن اختلفوا — على حَدٍّ واحدٍ فى ترك مجاوبتهم ، فعَمَمْتَ ولم تَخُصّ . وهذا التعزِّى الذى أشار إليه ليس لتَسَلٍّ عن المفقود ، ولا لِتَنَاسٍ منه ، ولكنَّه[2] طِيبُ النَّفس بتَشَارُك النّاسِ فى إمساكه عن إجابتهم .

وقوله : « إنَّ أمرًا فادِحًا » اكتسب أمرٌ وهو نكرةٌ من النَّعت الذى تَبِعه بعضَ الاختصاص ، فلذلك صلَح الابتداء به حتَّى دخل إنّ عليه . ألا ترى

(١) روى التبريزى هذا البيت بعد البيت الرابع ، ثم روى بعدهما الثامن فالسابع ، ثم بيتين لم يروهما المرزوقى ، وهما :

ليتَ قَلبِي ساعةً صَبْرَه عنكَ مَلَكْ

ليتَ نفسِي قُدِّمَتْ للمنايا بَدَلَكْ

(٢) بعدها فى الأصل كلمة « مهما » ، وهى مقحمة .

أنَّ فائدتَه مع إبهامه كاملةٌ فى المراد ، والمعنى : إنَّ عظيمًا من الأمور صَرَفَكَ عن رَسْمِك ودأْبك فى مباسَطَتى ومُباثَّتى . ولأنَّ الكلامَ قد يُحْمَل على المعنى فيما يُستفاد منه ، فكأنَّه قال : ما صرَفك وشغَلك عن جوابى إلَّا أمرٌ عظيم فادح ؛ إذ كانت العادةُ قَدُمَتْ منك فى حُسْن التوفُّر[1] علىَّ والإقبال ، لتوَجُّه خطابى نحوَك .

وقوله :

طالما قد نلت فى غَـيْرِ كَدٍّ أمَلَكْ

إيذانٌ بأنَّه نالَ من الدُّنيا كثيرًا من إرادته وأمانيه ، حينَ هبَّت أرواحُه ، وساعدَتْه أيامُه وحالاتُه ، وأنَّه طالما كان يتحصَّل له المَباغِى بلا كدٍّ لإقبال الدُّنيا عليه ، ويتسهَّلُ له المَطَالب لاقتران المناجح بما لديه أو إليه ، وفى ذلك بعضُ التَّسلِّى للجازعين له ، والمتوجِّعين لفَنائه .

وقد تقدم القول فى لفظةِ طالما وبينت معناه ومجاه فى الكتاب[2] :

٣١١

وقال العُجَيْرُ السَّلُولِى[3] :

١ – تَرَكْنا أبا الأضياف فى لَيْلَةِ الصَّبَا بِمَرٍّ ومِرْدَى كُلِّ خَصْمٍ يُجادِلُهْ[4]

(١) فى الأصل : « التوفير » ، والوجه ما فى سائر النسخ .

(٢) انظر الحماسية ٢٨٩ ص ٨٧٥ .

(٣) العجير لقب له ، واسمه عمير بن عبد الله بن كعب بن عبيدة بن جابر بن عمرو بن سلول ، وبنو سلول هم بنو مرة بن صعصعة غلبت عليهم أمهم فسموا بها . والعجير شاعر مقل إسلامى من شعراء الدولة الأموية . الأغانى (١١ : ١٤٦ – ١٥٣) والخزانة (٢ : ٣٠٩) ، والمؤتلف ١٦٦ . وكان يكنى أبا الفرزدق باسم ولد له . والمؤتلف ومعجم المرزبانى ٢٣٢ . كما كان يكنى أبا الفيل فيما قال البغدادى . وقد ذكر المرزبانى حفيده عمرو بن الفرزدق بن العجير فى الشعراء .

(٤) تلتبس بعض أبيات قصيدة هذه الحماسية بأبيات الشمردل بن شريك ، التى رواها أبو الفرج فى الأغانى (١٢ : ١١٣ – ١١٤) .

يُروى « تركنا أبا الحجْناء » وهو فيما أظنُّه كُنْية المرثىّ . وجعله أبا الأضياف لتوفُّره عليهم ، ولأنَّ داره كانت مثواهم . وهم يقولون : فلانٌ أبو مثوايَ ، وفى المرأة : أمُّ مثوايَ ، لمَنْ قَرَاهم . وأشار بليلة الصَّبَا[1] إلى ليلةٍ بعينها[2] اتَّفق فيها على هذا الرَّجل بمَرّ ، وهو موضعٌ ، اجتماعُ الخصوم حولَه[3] . والمِرْدَى : صخرةٌ يُكسَر بها النَّوى ؛ هذا أصله ، ثم يقال فلانٌ مِردَى الخصوم ، أى يُرمَون به فيَكسِرُهم . وقوله « كلِّ خَصْمِ » أراد بالخصم الكثرة ، كأنَّه حضَرَه من كلِّ قبيلٍ من مُخالِفيه مِردًى لهم يجادِلُه عنهم ويجاذبه . وقوله « بمَرَّ » منَعَه من الصَّرف لأنَّه جعله اسْمًا معرفة ، ولو ذكَّره لصرفه . والواو من قوله « ومِردى كلِّ خصم » واو الحال[4] . والصَّبا : ريحٌ تستقبل القبلة ؛ والفعل منهُ صَبَا يصبو . وأضاف الليلة إلى الصَّبا تعريفًا وتخصيصا ، كأنَّه كان للصَّبا شأنٌ فى تلك اللَّيلة .

٢ — تركْنا فتًى قدْ أيقَنَ الجوعُ أنَّه إذا ما ثوَى فى أرْحُلِ القوم قاتِلُه

= وانظر بعض أبيات العجير فى معجم البلدان (مر) وأمالى القالى (١ : ٢٧٥) . وذكروا أن العجير كان له ابن عم يدعى « جابر بن زيد » ، وكان كريماً مفضالا ، قال فيه العجير :

إن ابن عمى لابن زيد وإنه لبلال أيدى جلة الشول بالدم

فكان إذا سمع بأضياف عند العجير لم يدعهم حتى يأتى بجزور كوماء فيطعن فى لبتها عند بيته ، فيبيتون فى شواء وقدير . وكان الناس يقولون له : مالك لا تكثر إبلك ؟ ! فيقول : إن العجير لم تدعها تكثر ! ! ثم سافر ابن زيد فمات بمكان يقال له « مر » ، فرثاه العجير بهذا الشعر . الأغانى ومعجم البلدان .

(١) رواية أبى الفرج : « فى كل شتوة » ، ورواية ياقوت : « فى ليلة الدجى » .

(٢) الحق أنها ليست ليلة بعينها ، وأن الإطعام عند هبوب الصبا هو غاية الكرم ، وذلك لما يصاحبها من الجدب . وكان لبيد فى الجاهلية قد آلى ألا تهب صبا إلا أطعم . الأغانى (١٤ : ٩٤) . وانظر (مطاعيم الريح) فى بلوغ الأرب (١ : ٩١ — ٩٢) .

(٣) كذا فسر المرزوقى . والحق أن « مر » موضع مات فيه ودفن .

(٤) وبذا تكون جملة « يجادله » خبراً لكلمة « مردى » ، وهذا تفسير ضعيف . والأوفق فيما نرى ، أن تكون كلمة « مردى » معطوفة على « أبا الأضياف » و « يجادله » فى موضع الصفة لخصم . فيكون قد نعته بالكرم وقوة العارضة .

يقول : تركنا فى ذلك المكان فتًى كان ربيعاً للفقراء ، ومَألَفاً للأضياف . وإذا اشتدّ الزمان وأسْنَتَ النَّاسُ تيقّن الجدبُ والقحطُ أنّه لا يُقارُّه ، بل يَقتله بما يُفيضه على النّاس من إحسانه ، ويَشملُهم من تَفَقُّدِهِ وبرِّه . وقوله «قد أيْقَنَ الجوع» إلى آخر البيت ، من صفة الفتى ، وفى طريقته قول الآخر[1] :

يُقاتِل جُوعَهمْ بمُكلَّلاتٍ من الفُرْنِيِّ يَرْعَبُها الجَمِيلُ[2]

وقوله « إذا ما ثَوَى » ظرفٌ لقاتله .

٣ — فَتًى قُدَّ قَدَّ السَّيفِ لا مُتضائلٌ ولا رَهِلٌ لَبَّاتُه وَأَباجِلُهْ

معنى « قُدَّ قَدَّ السيف » أنه فى مضائه ونفاذه كالسيف . والقَدّ : القطع طُولاً . ويقال : هو حَسَن القَدِّ ، أى التقطيع ؛ وهو على قدِّه ، أى على قَدْرِه . وهو يقتدُّ الأمورَ بالسيف ، إذا دَبَّرها بالسيف . ومعنى لا مُتضائل : لا مُتخاشع . والضُّؤولة : الدِّقّة ، يقال : هو ضئيل الجسم . والرَّهِل : المُسترخِي اللّحمِ[3] من السِّمن . يقال : فَرَسٌ رَهِلُ الصدر . واللَّبَّات : جمع اللَّبَة ، وهو الصدر ؛ وجَمَعه على ما حَوْلَه ، أو جعَل كلَّ قطعةٍ لَبَة . والأباجل : جمع أبْجَل ، وهو عِرقٌ فى الساق ، والمعنى أنه ليس بكثير اللَّحم على الصدر غليظِ الساق . وهم يتمدّحون بالهُزال ويذُمُّون السِّمَن . ويُروى « وبآدِلُه » ، وهو ما بين العنُق والتَّرقُوة . ومعنى البيت : أنه فى قدّ السيف ومَضائه ، لا يَشِينُه تخاضُعٌ ، ولا هو سمينٌ مسترخِي اللَّحم على الصدر ولا على ما حولَه . ولا متضائل ، ارتفع متضائل

(١) هو أبو خراش الهذلى . ديوان الهذليين (٢ : ١٤١) واللسان (جمل) . وانظر إصلاح المنطق ٣٠٠ .

(٢) هذا تنظير المرزوقى ، أما التبريزى فقد نظر له بقول القائل :

هم المطعمون سديف السنا م والقاتلو الليلة البارده

(٣) فى نسخة الأصل : « المسترخى من اللحم » ، وأثبتنا ما فى سائر النسخ .

على أنه خبر مبتدأ محذوف ، كأنه قال : لا هو متضائل . ولبّاته ارتفع بفعله ، وفعلُه رَهِلٌ .

٤ – إذا جَدَّ عند الجِدّ أرضاكَ جِدُّه وذُو باطِلٍ إن شئتَ ألهاكَ باطِلُهْ

٥ – يَسُرُّكَ مظلومًا ويُرضيك ظالمًا وكلُّ الذى حَمّلتَهُ فهوَ حامِلُهْ[1]

يصفُه بأنه كان مُستَصْلَحًا للهَزلِ والجِدّ ، فإن جَدَّ حَسُن جِدُّه وتناهَى الرِّضا به والاستحسانُ له ، وإن هَزَلَ ألهَى هزلُه على اقتصادٍ فيه واستطابة له ، لأنه أخذ من مَكارم الأخلاق بأوفر النَّصيب ، فهو ينخرِط فى كلّ سِلك ، ويدخُل فى كلّ شأنٍ وأمر .

وقوله « يسرّك مظلومًا » انتصب مظلومًا على الحال . يقول : إن اهتُضِمتَ انتقَمَ لك من ظالمك ، وإن اهتضمتَ أنت غيرك لم يَبعد عن نُصرتك . وهذا على طريقتهم فى قولهم : « انصُرْ أخاك ظالمًا أو مظلومًا[2] » . وقوله « وكلُّ الذى حَمّلتَه فهو حاملُه » يصفُه برَحابة الصدر والأخذِ فى كلّ ما يُدعَى إليه بالصبر ، وأنه يتحمل الأعباءَ الثقيلةَ عن ذَويهِ والمنتسِبين إليه ، لا يَضْجَر بما يحُلُّ بفِنائه ، ولا يتسخَّط أمرًا يُقترحُ عليه ، أو يُستَنهَض إليه .

---

(١) روى التبريزى : بعده :

إذا نزَلَ الأضيافُ كان عَذَوّرًا على الحىِّ حتّى تَستقِلَّ مَراجِلُه

العذور : السيىء الخلق ، كأنه يحتاج إلى أن يعتذر لسوء ما يفعل ، ومعناه أنه يسىء خلقه على خدمه وأصحابه ، لأنه يريد أن يعجل قرى الأضياف .

(٢) حديث حسن ، رواه الدارمى وابن عساكر . الجامع الصغير رقم ٢٧٣٩ .

٣١٢

وقال أبو الحَجْناء(١) :

١ – أعاذِلَ مَنْ يُرزأْ كحَجْناءَ لا يَزَلْ كَئيبًا ويَزْهَدْ بَعْدَهُ فى العَوَاقِبِ

يقول : ياعاذِلةُ ، مَن يُصَبْ بمثل من أُصِبْتُ به يتَّصلِ اكتئابُه ، ويَدُمْ زُهدُه فى عواقب أطهار النِّساء ومباشرتهن(٢) عِلمًا بأنَّ مثل ذلك الولد لا يُعتاض منه . وحَجناء : ابنُه . كأنَّ عادلةً آذته بتكرير الوَصاة عليه وإدامةِ الوعظ له ، وأنَّ ما يأتيه من التفجُّع مُستسرَفٌ ومُستقبَحٌ ، لخروجه(٣) عن العادات ، فأقبل يجيبها ويذكر عُذرَه لها . وقد صرح غيره(٤) بهذا المعنى فقال :

أفبَعْـدَ مَقْتَلِ مالكِ بن زُهَيْرٍ ترجو النِّساءُ عواقِبَ الأطهـارِ

٢ – حَبيبًا إلى الفِتْيانِ صُحبَةُ مِثْلِهِ إذَا شانَ أصحـابَ الرِّحالِ الحقائبُ

انتصب حَبيبًا على الحال للضمير فى قوله « بعده » . وصُحبةُ ارتفع على أنّه قامَ مَقام فاعل حبيبًا . ويروى « حبيبٌ إلى الفتيان » فيكون خبرًا مقدَّمًا ، والمبتدأ صحبة مثله . وجواب إذا ما يدلُّ عليه صدر البيت ، كأنه قال : إذا بَخِـلَ أصحابُ الرِّحال بالزاد فشانَهم امتلاء حقائبهم وقلّةُ إنفاقهم منها ، ففى ذلك الوقت

(١) التبريزى : « أبو الحجناء مولى بنى أسد » . وأبو الحجناء هذا غير أبى الحجناء نصيب الذى تقدمت ترجمته فى الحماسية ٢٩٤ . فتلك الحجناء ابنة نصيب ، وفيها يقول :

لقد أصبحت حجناء تبكى لوالد بدورة عين قل عنه غناؤها

والحجناء فى هذه الحماسية اسم رجل هو ولد الشاعر ، وهى تسمية نادرة .

(٢) وقد تابع التبريزى المرزوقى فى هـذا الفهم متأثرين بالشاهد الذى سيأتى فى نهاية تفسير هذا البيت . والأوفق أن يكون المراد عواقب الأيام والدهر .

(٣) فى نسخة الأصل : « بخروجه » .

(٤) هو الربيع بن زياد ، اللسان (قوى) وشروح سقط الزند ١١٤٦ . والبيت فى العمدة (١ : ٩٤) بدون نسبة .

يَستحِبُّ الفِتيانُ صحبةَ مثلِ ابنى حَجناء، لحُسْنِ توفُّره، ورَحابة صدره، وكرم نِجابته، وجميل تفقُّدِه لأصحابه. وإنما قال «صحبةُ مثلِه» ولم يقل صحبتَه، إجلالاً له، وصيانةً لاسمه، لا إثباتاً لنظيرٍ له[1]. وعلى هذا قولهم: مثلُ فلانٍ لا يُوازَى، ومثلُك لا يَفعل كذا. وفى القرآن: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ﴾.

٣ ــ نِظَامُ أُناسٍ كان يَجْمَعُ شَمْلَهُمْ   ويَصْدَعُ عنهم عادِياتِ النَّوائبِ[2]

يريد أن داره كان مجمَعًا لأُناسٍ هو يَنظِم شَمْلهم، ويؤلِّف جمعَهم، فإنْ حَزَبهم من النَّوائب عادياتُها فرَّقها عنهم، وإن حَلَّ بِفِنائهم من أثقال الزمان ما يَبْهظُهم[3] آساهُم وتحمَّل عنهم. وقوله «عادياتِ» يجوز أن يكون من العَدَاء الظُّلْم؛ يقال عَدا يعدو عُدُوًّا[4] وعَدَاءً وعُدْواناً. ويجوز أن يكون من العَدْو، يريد مسرعاتِ النَّوائب وصادماتها. ومعنى يَصدَع يُفرِّق، ومنه تصدَّعت الأرضُ بفلانٍ، إذا تغيَّب فارًّا.

٤ ــ وجَرَّبْتُ ما جَرَّبْتُ منه فَسَرَّنى   ولا يَكشِفُ الفِتيانَ غيرُ التَّجارِبِ

يريد أن ينبّه على أنَّ ما وصفه به لا عن تقليدٍ أو شكٍّ والتباس، ولا عن تخمينٍ أو حَدْسٍ وقياس، بل عن تجريب واستكشاف على مرّ الأيام. فيقول: لم أَرضَ منه بعَفْوِ أفعالِه وما يختاره فى مقاصِدِه، بل أَخَذْتُ أستدرجُه وأتعرَّف غَوْرَ[5] مقالِه وفعاله بالسَّبْر والنَّظَر، فلم أَرَ إلاّ ما سَرَّ وآنَسَ، وزاد فى العلم به فأَبهَج. وقوله «ولا يَكشِفُ الفتيانَ غيرُ التَّجارب»، يشبه الالتفات،

(١) هذا ما فى ل. وفى نسخة الأصل: «لا إثبات النظير له».

(٢) هذه رواية الأصل. وفى ل، «يجمع بيننا». وكتب فوقها: «بينهم». ورواية التبريزى «بينهم».

(٣) كذا على الصواب فى ل. وفى نسخة الأصل: يتحفظهم».

(٤) وعدوا أيضاً، بفتح العين وسكون الدال.

(٥) هذا ما فى ل. وفى نسخة الأصل «غرر».

كأنه أقبلَ بعد ما خبَّر، على إنسانٍ فقال : إنَّ الفتيان تتشابَهُ ظواهرُ أمورهم، ولم يخبرْكَ عنهم مثلُ مجرِّب . ولهذا قيل فى المثل السائر :

تَرَى الفِتيانَ كالنَّخْـــلِ ... وما يُدْرِيكَ ما الدَّخْلُ[1]

٥ — بَعيدُ الرِّضا لا يبتغى ودَّ مُدْبِرٍ ... ولاَ يَتَصَدَّى للضَّــغِينَ المُغاضِبِ

قوله « بعيد الرِّضا » يريد أنه ليس بسريع الفَيئة إذا سَخِطَ، لكنه يَعْرُكُ أذَى مُجاذِبه ومجاوِره بجَنْبه، ويصبر ما أمكن، فإذا أظهرَ الفَكيرَ[2]، وتلقَّى ما يزاولُه بالضَّجَر الشديد، لم يُرْضِه أدنى المعاذيرِ فِعْلَ مَن لا حَمِيَّة له ولا عزيمة . وقوله « لا يبتغى وُدَّ مُدْبِرٍ » وَصَفه بأنّه آخذٌ بالعَزْمِ إذا أُحوِجَ إليه، غيرُ راغبٍ فى الزَّاهد فيه . وهذا كما يقال : فلانٌ وَصَّالٌ صَرُوم .

وقولُه « ولا يتصدَّى للضغين المغاضب » معنى يتصدى أن ينظر إليه نظَرَ غيرِ محتفلٍ به، وكالمعْرِض عنه، حتى يخرجَه ذلك إلى ما يطالبه . يريد أنه لا يتعرَّض لعدوِّه والمضطغن عليه، بل يتركه ينطوى على ما فى صدره من غِلٍّ وعداوة، ولا يُخرجه[3] إلى مبادرةٍ ومكاشَفة، بل يجرى على المداجاة معه، منتظراً ما يكون منه، ومحاذِراً ما يُتَّقَى من جهته . وهذا كما قال الآخر[4] :

* أفِرُّ من الشَّرِّ فى رِخْوِهِ[5] *

(١) البيت لعثمة بنت مطرود البجلية، كما فى أمثال الميدانى (١ : ١٢٣) . وقد ضمنته ابنة الخس شعراً لها فى البيان (١ : ٢٢٠) واللسان (١٨ : ١٧٩ - ١٨٠) .

(٢) النكير : الإنكار، وفى الأصل : « النكيرة » وأثبتنا ما فى سائر النسخ . انظر لفظ « النكيرة » ما مضى فى الحماسية ٢٧٢ ص ٨٢٥ .

(٣) ل : « يحرجه » بالحاء المهملة .

(٤) هو أبو ثمامة بن عازم . الحماسية ١٨٧ ص ٥٧٩ .

(٥) سبق برواية : « رخوة » . وعجزه :

* فكيف الفرار إذا ما اقترب *

وقد ألمّ بقول الآخر[1] :

إذا حارَبْتَ حارَبَ من تُعادِي ... وزاد سِـــلاحُه منك اقترابا

٦ ـ وكنتُ إذا ما خِفْتُ أمراً جَنَبْتَه ... يُخَفِّضُ جأشى ضَـبْنُكَ المتراعِبُ[2]

يصفه بحُسن المدافعة عن متسبِّب إليه ، ومبالَغة النُّصرة لمن أوَى إلى جَنْبَته ، فيقول : إذا خفتُ جريرةً ارتكبتُها ثم لُذْت بفنائك ، واعتمدتُ تعصُّبَك ، سكَّن من جأشي وأزال قلقي قَبْضُك الواسع ، ودَفْعك المحامِي ، وذبُّك المبالِغ[3] . وقوله « المتراغب » يُروى بالغين معجمة وبالعَيْن ، فإذا روى بالغين معجمةً فهو من الرَّغابة . ويقال : وادٍ رَغيبٌ ، وحَوض رغيب ، أي واسع ؛ ورجلٌ رَغيبُ البطن ، أي أكول . ومن رَوَى بالعين غير معجمة فهو من قولهم سيل راعِبٌ : يملأ الوادى . ومنه حِسْيٌ متراعِب . أى واسعٌ لا يملؤه شيء . ومعنى يخفِّض جأشي يسكِّن نفسي . ويقال : هو رابط الجأش ، أى قويُّ النفس ؛ وخافِض الجأش ، أى ساكنه . والخفض : ضدُّ الرفع . والتخفيض : مَدُّك رأسَ البعير إلى الأرض . والضَّبْث : القبض الشديد ، ومنه يقال : ناقةٌ ضَبوثٌ ، أى سمينة لا يُشَكّ فى سِمَنها ، كأنه فعول فى معنى مفعولة ، أى حيث ضُبِثَ منها باليد مَلأَت الـكفَّ لحمًا .

٣١٣

وقال آخر :

١ ـ إذا ما امرؤٌ أثنَى بآلاء مَيِّتٍ ... فلا يُبْعِـدِ اللهُ الوليدَ بنَ أدْهَمَا

(١) هو ربيعة بن مقروم . الحماسية ١٧٧ ص ٥٤٣ .

(٢) أشار التبريزى إلى رواية : « ضبنك المتراغب » . والضبن ، بالكسر : الكنف والناحية .

(٣) ل : « البالغ » .

٢ ــ فما كانَ مِفراحًا إذا الخيرُ مَسَّهُ ولا كانَ مَنَّانًا إذا هوَ أنْعَمَا[١]
٣ ــ لَعَمْرُكَ ما وَارَى التُّرابُ فَعالَهُ ولـكنَّما وَارَى ثِيـابًا وأعْظُمَا

الآلاء : النِّعَم ، واحدها إلًى . ويعنى بها صنائعَهُ ومِنَنَهُ عند الناس . فيقول : إذا ذَكر مُنعَمٌ عليه إحسانَ المنعِم عليه ، وأياديَه لديه ، فشَكَر ثمَّ تجاوزَ الشكر إلى الثَّناء فأفرط ، فلا أبعَدَ اللهُ هذا الرجل . وهذا الكلامُ وإن كان دعاءً فى موضعه الذى استعمل فيه أبلَغُ من كلِّ ثناء ، وأزْيَدُ من كلِّ تقريظ وإطراء . ولذلك اقتصَر عليه ولم يخلِط به غيره .

وقوله « فما كان مِفراحًا إذا الخير مَسَّه » يصفُه بأنه لا يُطْغيه الغِنى فيَكْسِبُه كِبْرًا وبَأْوًا ، بل يزدادُ تواضُعًا فيما يناله ، وتودُّدًا إلى الناس على اتّساع حاله ، حتى يُشْرِكَهم فى خيره . وقولُه « ولا كان مَنّانًا إذا هو أنعما » يصِـفُه بأنه لا يُكدِّر نعمهُ عند غيرِه بالمنِّ والأذى ، بل يتناساها حتى يكون فى صورة من لم يُسْدِ ولم يصطنِـع .

وقوله « لعمرك ما وارى التُّرابُ فَعاله » يريد أنّ مكارمَه لم تَمُت بموته ، ولم تُدفَن فى قبره ، بل هى منشورةٌ فى النّاس لا تُنسَى ، ومأثورةٌ لا تُلغَى ، فهى على مرِّ الأيّام تزداد جِدَّةً ، وعند النَّاس طَرَاءةً ، لأنَّها تُذكَر وتُتلَى ، ولأنَّ ما سُيِّر فيه من الشِّعر والمدائح تُقرأ وتُروَى . وقوله « ولـكنَّما وارى ثيابًا وأعظُما » الفعل للتُّراب ، وهذه إشارةٌ إلى الـكفَن ونفس المتَوَفَّى ، وفيه من إظهار التوجُّع ما كفَى وأغنى .

---

(١) روى التبريزى بين هذا البيت وتاليه :

ونادَى المنادِى أوّلَ الليلِ باسمِهِ إذا أجْحَرَ الليلُ البخيلَ المذمَّما

أجحره : ألزمه بيته فلم يبرز لضيف أو طارق ليل .

٣١٤

وقال أبو الشَّغْب العبسى[١]

فى خالد بن عبدالله[٢] ، وهو أسيرٌ فى يدَىْ يوسُفَ بنِ عُمَر :

١ – ألَا إنّ خيرَ النَّاسِ حَيًّا وهالِكاً أسيرُ ثَقيفٍ عِنْدهُمْ فى السَّلاسلِ[٣]

قوله « حَيًّا وهالكا » يجوز أن ينتصب على الحال والعامل فيه ما دلّ عليه خير الناس ، ويكون الكلام ثناء على المخبَرَ عنه بخير النَّاس ، ويجوز أن ينتصب على التمييز ، وحينئذٍ يكون تفصيلاً للنَّاس ، كأنّه قال : إنّ خير الناس من الأحياء والأموات أسيرُ ثَقيف . وقوله « عندهم » يجوز أن يكون فى موضع الحال ، ومعناه حاضراً لهم وقريباً منهم ، ويكون العامل فيه ما دلّ عليه أسير ثَقيف ، ويكون فائدة الكلام أنّه كان يجوز أن يكون أسيراً لهم ولم يكن عندهم ، فأفاد أنّه أسيرُهم وحاصِلٌ بحضرتهم . وكذلك قوله « فى السَّلاسل » يجوز أن يكون فى موضع الحال ويكونَ العامل فيه ما عمل فى الظَّرف ، فيكون تقديره بحضرتهم مقيَّدًا ، ويجوز أن يكون العامل فى عندَهم ما دلّ عليه قوله فى السَّلاسل من الفعل .

---

(١) أبو الشغب العبسى : شاعر من شعراء الدولة الأموية ، واسمه عكرشة ، كما سيأتى فى الحماسية ٣٦٣ التى يرثى بها ابنه شغباً ، وكما فى أمالى القالى (٢ : ٨٨) .

(٢) هو خالد بن عبد الله القسرى ، كان والياً على العراق وما يليه من الأهواز وفارس والجبال ، وأخوه أسد بن عبد الله كان أيضاً والياً على خراسان ، وكان بدء ولايتهما سنة ١٠٦ وعزلا سنة ١٢٠ . وهذه الحماسية ليست من مراثى الأموات ولكنها تمجيد من أبى الشغب لخالد وتنويه به ، فهى من مراثى الأحياء . يقال : رثيت للحى رثيا ومرثاة ، أى توجعت له ورققت . وكان من خبر خالد أن الوليد بن يزيد بن عبد الملك لما ولى الخلافة – وأمه أم الحجاج ابنة محمد بن يوسف الثقفى ، كما فى التنبيه والإشراف – دفع بخالد إلى يوسف ابن عمر عامله على العراق ، فحمله إلى الكوفة وعذبه حتى قتله ، وذلك فى سنة ١٢٦ – تاريخ الطبرى .

(٣) رواية الجاحظ فى البيان (٣ : ٢٣٦) :

ألا إن خير الناس قد تعلمونه أسير ثقيف موثقاً فى السلاسل

٢– لَعَمْرِى لقد عَمَّرْتُم السِّجْنَ خَالِدًا وأَوْطَأْتُمُوه وَطْأَةَ المتَثَاقِلِ[١]

هذا الكلام تفظيعٌ للأمر الذى رَكبوه ، وإعلامٌ منه بأنّهم أتَوْا قبيحا من الأمر منكراً ، عمَّ وبالُه النّاسَ وظهر تأثيرُه فيهم . فهذا فائدة اليمين وجوابُها . وقوله « عمَّرتم » أى أدمتم سَجْنَه وأطلتم حَبْسَه ، كأنّهم جعلوا خالداً للسِّجن عُمْرَهُ . والعُمْر : السُّنُونَ والحين ، ومنه قوله تعالى ﴿ لَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا[٢] ﴾ . وقوله « وأوطأتموه وطأةَ المتثاقِل » يجوز أن يكون وطأة مصدرا من أوطأتموه وإن لم يكن من لفظه ، وهذا كما يُجعَل العطاء موضعَ الإعطاء ، والجابَة موضع الإجابة . والمفعول الثانى محذوف ، كأنّه قال : أوطأتُموه السِّجنَ أو الأرضَ إيطاءَ المتثاقِل ، أى أثقلتموه . ويجوز أنْ يريد : أوطأتموه فوطِئَ وطأة المتثاقل أى يَفعَل فعلَ المتثاقل وإن لم يكن معه تثاقُل ، هو يطأ عَقِبَه .

٣١٥

وقال مُهَلْهِلٌ[٣] :

١– نُبِّيتُ أنّ النَّارَ بَعْدَكَ أُوقِدَتْ واسْتَبَّ بَعْدَكَ يا كُلَيبُ المجلِس

---

(١) فى ل : « ابْن عرتم » وكتب فوقها : « خ : لقد » ، أى هى كذلك فى نسخة . ورواية البيان : « ابْن أعمرتم » . ورواية التبريزى تطابق رواية ل والبيان . وروى بعده التبريزى :

لقــد كان يَبنِى المَكرُماتِ لقومِه ويُعطِى اللُّهَى فى كُلِّ خَيرٍ وباطلِ

فإن تسجُنوا القَسْرِىَّ لاتسجُنوا اسمَهُ ولا تسجُنوا مَعــرُوفَه فى القبائلِ

ورواها الجاحظ ، لكن روى الأول على هذا الوجه :

لقــد كان نَهّاضا بكل ملمَّة ومُعطِى اللُّهَى غمراً كثيرَ النوافلِ

(٢) العمر ، بضمتين : لغة فى العمر بضمة واحدة . وبالأخيرة انفرد الأعمش . تفسير أبى حيان (٥ : ١٣٣) .

(٣) اسمه عدى بن ربيعة ، وقالوا : سمى مهلهلا لأنه أول من أرق الشعر وهلهله . وهو أخو كليب بن وائل الذى هاجت بمقتله حرب بكر وتغلب ، وهو كذلك خال امرئ القيس –

٣ — وتَكَلَّمُوا فِى أَمْرِ كُلِّ عَظِيمَةٍ لَوْ كُنْتَ شاهِدَهُمْ بِهَا لم يَنْبِسُوا

كان كليبُ وائلٍ لا تُوقد معَ نارِه للضِّيفانِ نارٌ فى أحمائه ، وفيما يَقرُب مِن منازلِه وأوطانه ، بل يتفرَّد بذلك لا مبارِىَ له ولا مشارِكَ ؛ وكان إذا حَضَرَ مجلسَهُ النّاسُ لا يجسرُ أحدٌ أن يُجاذِبَ غيرَه أو يفاخرَه أو يسابَّه ، إعظامًا لقَدْرِه وإجلالًا لشأنِه وأمْرِه ، فيقول على وجه التحسُّر : خُبِّرْتُ أنَّ نيرانَ الضِّيافة بعدَكَ أُوقِدَتْ لسُقوط احتشامك ، وأنَّ أهلَ المجلس تنازَعُوا الكلامَ بَعدَكَ وتجاذبوه ، حتَّى صار بعضُهم يسبُّ البعضَ ويصكُّ فى وجهه الكلامَ القبيح ، لا رِقْبَة تَرْدَعُهم ، ولا حِشمةَ تدفَعُهُم .

وقوله « وتكلّموا فى أمرِ كلِّ عظيمةٍ » ، يريد أنَّ الكلامَ منهم فيما يَدهَمهم من النُّوَب[1] نُهِىَ ، لأنَّهم صاروا سُدًى لا يَبِين التّابعُ من المتبوع فيها ، ولا الرئيس من المرءوس ، حتَّى صار تدبيرُ العظيمة بينهم فوضَى فَضًّا ، يتناهبون إدارةَ الكلام فى دفعها ، ويتجاذبون إجالةَ الرَّأى فى رفعها ، ولو كنتَ حاضرَهم ما جَسَرُوا أن يتقدَّموا بين يديك بارتجالِ خطاب ، أو رَجْعِ جواب . ويقال :

= وجد عمرو بن كلثوم . الأغانى (٤ : ١٣٩ — ١٥١) والخزانة (١ : ٣٠٠ — ٣٠٤) والمرزبانى ٢٤٨ واللآلئ ٢٦ — ٢٧ ، ١١١ — ١١٢ والشعراء ٢٥٦ — ٢٥٩ . وكان من خبر مقتل كليب أن كليباً بلغ من بغيه أنه كان يحمى من المرعى مدى صوت كلب فيختص به ، حتى قالت العرب « أعز من كليب وائل » . وكان قد تزوج جليلة بنت مرة ، وأخوها جساس بن مرة كان له خالة تسمى « البسوس » جاورته ولها ناقة يقال لها « سراب » فمرت إبل كليب بسراب وهى معقولة بفناء البسوس ، فلما رأت الإبل نازعت عقالها وتبعت إبل كليب ، فلما رآها رمى ضرعها فنفرت حتى بركت بفناء صاحبتها فبرزت صارخة تصيح : وا ذلاه ! فلما سمع جساس صوتها سكنها وقال : والله ليقتلن غداً جمل عظيم أعظم عقراً من ناقتك ! فمر جساس بكليب وهو على غدير الذنائب منفرداً فقتله . انظر الخزانة والعقد فى (أيام العرب) والأغانى .

(١) النؤب ، كذا وردت مهموزة فى الأصل ، فيكون من همز المعتل . وفى اللسان : « والنائبة : النازلة ، وهى النوائب والنوب ، الأخيرة نادرة » .

كلَّمتُه فما نَبَس ، أى لم يتكلَّمْ بحرف ، وما سمعتُ للقول نَبْسةً ولا زَجْمة . وقوله « استبّ » يقتضى اثنين فصاعدًا ، وإنَّما نمَّ بِالمجاسِ ، لأنَّ المراد به أهلُ المجلس ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، كقوله تعالى : ﴿ وَسَلِ ٱلْقَرْيَةَ[1] ﴾ ، وقولِ العرب : بنو فلان يَطؤُهمُ الطَّريق .

٣١٦

وقال آخر :

١ ــ لَقَدْمَاتَ بالبَيْضاءِ مِنْ جانِبِ الحِمَى فَتًى كان زَيْنًا للمواكِبِ والشَّرْبِ

٢ ــ تَظَلُّ بَنَاتُ العَمِّ والخالِ حَوْلَهُ صَوَادِيَ لا يَرْوَيْنَ بالباردِ العَذْبِ

٣ ــ يَهِلْنَ عَلَيْهِ بالأَكُفِّ مِنَ الثَّرَى وما مِنْ قِلًى يُحْثَى عليه من التُّرْبِ

الحِمَى : اسمٌ للموضع الذى فيه الماء والكلأ وقد دُفِع عنه النَّاس[2] . ويقال : أحميت المكانَ ، إذا جعلتَه حِمًى . وقوله « بالبيضاء مِن جانب الحِمَى » توقيتٌ المكان الذى وقع فيه الحادثة ، وذلك إعظامٌ لخطْبها ، وتفظيعٌ لشأنها . وقوله « كانَ زَيْنًا للمواكب والشَّرب » يصفه بالرِّيَاسة ، وأنَّه كان يَزِين المواكب خَلْفَه من حيث يستحقُّ التعظيمَ والتَّقديمَ والاتِّباع ؛ لم يَرِثْ ذلك فيهم عن كَلَالةٍ[3] ، فهو كما قال الأعشى :

---

(١) هذه قراءة ابن كثير والكسائى وخلف ، وذلك بنقل حركة الهمزة إلى السين ثم حذفها فى أمر المخاطب إذا تقــدمه واو أو فاء ، وسائر القراء بإثبات الهمزة فى ذلك . فإن لم يتقدمه ذلك فالكل متفقون على النقل نحو سل بنى إسرائيل ، وإن كان لغائب فالكل بالهمزة نحو وليسألوا ما أنفقوا ، إلا حمزة وقفاً . تفسير أبى حيان (٣ : ٢٣٦) وإتحاف فضلاء البشر ١٨٩ .

(٢) عينه ياقوت فى رسم (البيضاء) بأنه حمى الربذة ، قال : « والبيضاء : موضع بقربه حمى الربذة » ، وذلك حيث أنشد هذه الحماسية .

(٣) الكلالة : كل ما لم يكن من النسب لحا .

* كُلٌّ سَيَرضَى بأن يُلقَى له تَبَعَا[1] *

وقوله « والشُّرب » يريد أنَّ مَن نادَمَهُ واختلط بأهل مجاسِه زانه ذلك ولم يَشِنْه ، لِمَا سُلِّمَ له من الاعتلاء والفَضل ، والسَّابقة فى الرِّيَاسة والطَّول .

وقوله « تظلُّ بنات العمّ والخال حوله صوادِىَ » أراد أنَّ غليلَهنَّ وحَمْىَ أكبادِهنَّ لا يزول بالبارد العذب من الماء ، إذ لم يكن ذلك عن عطشٍ ، ولكن كان لِمَا اهتاجَ فى صدورهنَّ من بوارح التوجُّع ، ولواذع الغموم والتفجُّع ، حتَّى كُوِيت أكبادُهن بمواسمها ، واحترقتْ أحشاؤهنَّ من لفح نَوَائرها .

وقولُه « يَهِلن عليه بالأكفِّ من الثَّرى » يريد أنَّ النوائح لما هِلْن التُّرابَ عليه لم يَفعلن ذلك عن بُغض وإهانة ، ولكن إظهاراً لما أفضَى إليه أحوالُهنَّ من السقوط فى الترابِ والالتزاقِ به ، ولِمَا شمِلهنَّ من الصَّغار والابتذال بموته . ويقال : هِلْتُ الترابَ وغيرَه أَهِيلُه هَيْلاً . وفى الحديث : « أتَكِيلون أم تَهِيلون ؟ قالوا : نَهِيل . قال : فكِيلوا ولا تَهِيلوا[2] » وحَثَوْتُه أحثُوه حَثْوًا . والصَّوادى : العِطاش ، والفعل منه صَدِىَ يَصْدَى صَدًى .

٣١٧

وقالت جارية

ماتت أمُّها فأضرّت بها رَابَّتُها[3] :

١ - ولوْ يَأْتِى رَسُولى أمَّ سَعْدٍ أتى أُمِّى ومَنْ يَعْنِيهِ حاجِى

(١) كذا ورد نصه فى جميع النسخ . وانظر ما سبق من بيان الرواية فيه ص ١٢١ .

(٢) نصه فى اللسان (هيل) : « وفى الحديث : أن قوما شكوا إليه سرعة فناء طعامهم ، فقالوا : أتكيلون أم تهيلون ؟ فقالوا : نهيل . فقال : كيلوا ولا تهيلوا ؛ فإن البركة فى الكيل . وذكر قبله : « الجوهرى : هلت الدقيق فى الجراب : صببته من غير كيل » .

(٣) الرابة : امرأة الأب . التبريزى : « فأضرت بها امرأة أبيها » .

٢ — ولكنْ قد أتى مَنْ بَيْنَ وُدِّى وبيْنَ فُؤادِهِ غَلَقُ الرِّتاجِ
٣ — ومَن لم يُؤْذِهِ أَلَمٌ برأْسى وما الرُّئْمانُ إلاّ بالنِّتاجِ

كأنَّها لما ناكَدَتْها رابَّتُها ، ولَجَّت فى إهانتها والإضرار بها ، راسلت أباها تُطْلِعه على ما تقاسى منها ، وتستمدُّ التعصُّب لها رجاء أن يزجرَها ، فلم تَرَ مِن عطفِه عليها ما يُرضيها ، ولا مِن إنكاره فيها ما يَردَعُها ، فلمّا استمرت الحالُ بها على طريقةٍ واحدة اقتصَّتْها شاكية فقالت : لو وَرَدتْ رسالتى على والدتى ومَن يُهِمّه أمرى لاقتَضَتْها الشفقةُ الاعتناء بشأنى ، وعطَفَتْها الأمومةُ على ما أقترِحُه من حاجى ، ولكن قد وَرَدتْ على من صُرِف ودُّه عنِّى ، وحيل بينه وبين الحُنوِّ علىّ ، فانسدَّت طُرُق الأمل فيه ، وأُغلقت أبوابُ الخير مِن جهته ، فلا اهتزازَ لمأرُبة ، ولا انبعاثَ لدفع مَضرّة ، ولا توجُّعَ لشكوَى تَظهر ، ولا تَرَحُّمَ لبَلْوَى تُذكر . وما ذلك إلاّ لأنّ علائق الوِداد تستحكم بالنِّتاج ، ومعاقدَ الإشفاق تَتوثّق بالوِلادِ ، فبهذا انفصلت الأبوّة عن الأمومة ، وضعفت الأسبابُ إلاّ عن الرّضاع والحضانة .

وقولُه « وما الرِّئمان إلا بالنِّتاج » فيه بعضُ ما فى المثل السائر ، وهو « ابنُكِ مَن دَمَّى عَقِبَيْكِ » . يريد من قمتِ عنه وقد ولدْتِه . وفى المثل الآخر : « ابنُكَ ابنُ بُوحِكَ[1] » أى الناشئ فى باحة دارِكَ . والباحَة : عَرْصة الدار ، وجمعها بُوح . والرِّئمان : العطف ، يقال رئِمتهُ أرْأَمُه رَأْمًا ورِئْمانًا ، ثم يسمَّى الولد رأْمًا ، وهو المرءوم . قال أبو ذُؤَيب :

كعُوذِ المُعطَّفِ أَحْزَى لها بمَصْدَرَةِ الماءِ رَأْمٌ رَذِىٌّ[2]

(١) الميدانى : « يقال البوح النفس ، فإن صح هذا فيجوز كسر الكافين وفتحهما . ويقال البوح الذكر ، فعلى هذا لا يجوز الكسر » .
(٢) ديوان الهذليين (١ : ٦٦) .

٣١٨

وقالت أُمّ الصريح الكِنْدِيّة :

١ ـ هَوَتْ أُمُّهم ماذا بهم يومَ صُرِّعوا ... بجَيْشانَ مِنْ أسبابِ مَجْدٍ تصَرَّما[1]

٢ ـ أَبَوْا أن يَفِرُّوا والقَنَا في نُحُورِهِم ... ولم يَرتَقُوا مِن خَشْيَةِ الموتِ سُلَّما[2]

٣ ـ ولو أنَّهُمْ فَرُّوا لكانوا أعِزَّةً ... ولكنْ رأَوْا صبراً على الموتِ أكْرَما[3]

قوله « هَوَت أُمُّهم » أى هلكت . والمَهْواةُ والهُوَّة والهاوية والأُهْوِيَّةُ والهُوّاءة على فُعّالةٍ بمعنًى ، وهو ما بين أعلى الجبل أو البئر إلى المستقَرّ . وفى القرآن : ﴿ فأُمُّه هاويةٌ ﴾ ، قيل هى اسمٌ لجهنّم ، أى هى مأواهم كما تُؤوى الأمُّ الولدَ ، وقيل هى من هَوَت أُمُّهم ، وهذه اللفظة تُستعمل عند الداهيةِ يُشرِف عليها الإنسانُ أو يقعُ فيها ، وفيها معنى للتعجُّب والاستفهام . على ذلك قوله :

هَوَتْ أُمُّه ما يَبْعَثُ الصُّبْحُ غاديا ... وماذا يؤدِّى الليلُ حينَ يؤوبُ[4]

وعلى الأوّل قول الآخر[5] :

* كُنتَ كمن تَهْوِى به الهاوية[6] *

وقيل : هوَت أُمُّهم ، معناه أمُّ رءوسهم هاوية فى الهُوّة أو فى النار . وتلخيص البيت هَوَت أُمُّهم أى شىء تصَرّم بهم من أسباب المجد يوم صُرِّعوا

---

(١) جيشان : مخلاف باليمن . وقد أنشد هذه الأبيات ياقوت فى رسمه .

(٢) ياقوت : « فى صدورهم » .

(٣) التبريزى : « فلو أنهم »

(٤) البيت لكعب بن سعد الغنوى فى اللسان (هوا) وأمالى القالى (٢ : ١٥٠) ، والخزانة (٤ : ٣٧٣ ـ ٣٧٥) .

(٥) هو عمرو بن ملقط الطائى . اللسان (هوا) .

(٦) صدره : * يا عمرو لو نالتك أرماحنا *

بجَيْشان ، وهو عَلَمُ البقعة(١) اتَّفقت الوقعةُ بهم فيها . وماذا إن شئت جعلتَ ما اسماً مبتدأً وذا خبره ، وإن شئت جعلتَ ما مع ذا اسماً واحداً ويكون مبتدأً وتصَرَّم فى موضع خبره . وهذا الكلام مخرجه على الاستفظاع والتعجُّب .

وقوله «أَبَوْا أن يَفِرّوا » يصف ثباتَهم فى وجه البلاء ، وصَبْرَهم على الطِّعان والوِقاع . والواو من قوله « والقَنَا فى نُحُورهم » واو الحال ؛ أى امتنعوا من الإحجام والنُّكوص فلم يطلُبوا وجهَ المَهْرَب ، ولا سلكوا طُرقَ المَخْلَص ، مع الإمكان والتمكُّن ، وتمهُّد المَعذِرة عند الناس فيما يأتونه والتنصُّل ، ومع العِلم باستظهار الأعداء عليهم ، وقُعود العجز عن الوفاء بهم .

ثم قال « ولو أنهم فرُّوا لكانوا أعزَّة » أى لو تأخَّروا وكَفوا لما لحقهم ذُلٌّ فيه ولا غضاضة ؛ ولا تَسَلَّطَ على عِزِّهم نقيصةٌ وحَقارة ، ولكن وجَدوا الصبرَ على الموت ، والاستقتالَ بعد الإفناء أكرمَ فى الأُحدوثة ، وأنفَى للعار والمَذَمَّة .

٣١٩

وقال الحسين بن مُطَيْر(٢) .

١ — أَلِمَّا عَلَى مَعْنٍ وقُولاَ لِقَبْرِه سَقَتْكَ الغوادِى مَرْبَعاً ثم مَرْبَعَا(٣)

٢ — فيا قَبْرَ مَعْنٍ أنت أوَّلُ حُفْرَةٍ من الأرض خُطَّت للسَّماحَةِ مَضْجَعَا(٤)

(١) ل : « علم لبقعة » .

(٢) هو الحسين بن مطير بن مكمل ، مولى لبنى أسد بن خزيمة ثم لبنى سعد بن مالك بن ثعلبة بن دودان بن أسد . وهو من مخضرمى الدولتين ، شاعر مقدم فى القصيد والرجز فصيح ، قد مدح بنى أمية وبنى العباس ، وكان زيه وكلامه يشبه مذاهب الأعراب وأهل البادية . الأغانى (١٤ : ١١٠ — ١١٤) والخزانة (٢ : ٤٨٥ — ٤٨٨) . وعند ابن النديم ٢٣٠ أن شعره نحو مائة ورقة . والأبيات فى الأغانى والخزانة والقالى (١ : ٢٧٥) .

(٣) الأغانى والخزانة : « ألما بمعن ثم قولا لقبره » .

(٤) الأغانى والخزانة : « كنت أول حفرة » .

يخاطب صاحبَين له ، يسألهما زيارة قبرِ معن وإبلاغَه عنه أنه مقيمٌ على ما هو دأبه ووُكده من طلب السُّقيا له ، فواصَلَ اللهُ ذلك لك من السُّحُب التى تنشأ غُدوَةً ، رِبعًا[1] بعد ربيع . والمعنى : دامت النَّضارة والطَّراوة . وإنما خَصَّ الغوادىَ لأنّ المرادَ حصولُه له غداةَ كلِّ يوم . وقولُه « مَرْبَعًا » يجوز أن يكون ظرفًا ، ويكون أن يكون مفعولا ، ويكون المربع والربيع المطرَ نفسَه . قال الخليل : وقد يسمَّى الوسمىُّ ربيعًا . ويكون المعنى : سَقَتْك مطرًا الغوادى بعد مطر . ويجوز أن يكون مصدرًا من قولهم رُبِعَت الأرضُ ، إذا أصابَها الرَّبيع ، فكأنه قال : رَبَعَتْكَ الغوادى مَرْبَعًا بعد مَرْبَعٍ ، أى سقتك الغوادِى سقيًا بعد سقى .

وقوله :

* فيا قبرَ معنٍ أنت أوّلُ حفرةٍ *

يحتمل وجهين : أحدهما أن يكون مثلَ قول الآخر[2] :

كأن لم يَمُتْ حَىٌّ سِوَاكَ ولم تَقُمْ على أحَدٍ إلَّا عليكَ النوائحُ

ويكون الكلام تفظيعًا للحال ، وتنبيهًا على أنّ ما وقع لم تجرِ العادةُ بمثله ، فهو مُستبدَعٌ لِعِظَم موقعِه فى النُّفوس ، حتى كأنّه لم يُرَ قبرٌ قبلَه دُفِن فيه كريم . والآخر أن يكون المعنى : أنتَ أول حَفيرة استُحدِثَتْ لتُوارَى فيها السَّماحة والسَّخاء والمروءة ، فتصيرَ مضجعًا لها ، ويكون المعنى أنَّ السَّماحةَ ماتت بموتِ مَعْنٍ ودفنتْ بدفنه ، وأنت أوّلُ خُطَّةٍ اختُطَّت للسَّماحة نفسِها . وقوله « مضجعًا » انتصَبَ على الحال .

---

(١) ل : « وربيعا » .

(٢) هو أشجع السلمى . الحماسية ٢٨٠ ص ٨٥٩ .

٣ــ ويا قَبْرَ مَعْنٍ كيف وارَيْتَ جُودَهُ وقد كان منــه البَرُّ والبَحْرُ مُتْرَعَا

٤ــ بَلَى قدوَسِعْتَ الجُودَوالجُودُمَيِّتٌ ولو كان حَيًّا ضِقْتَ حتى تَصَدَّعَا

كرَّرَ مناداةَ القبر توجُّعاً وتحسُّرًا ، ثم أخذ يتعجَّب ويقول مُنكراً : كيف سَتَرتَ جوده ، وقد كان مِلْئًا للبرِّ والبحر معًا . وفى طريقتــه قولُ الآخَر[1] :

عجبًا لأربعِ أذرُعٍ فى خَمْسَةٍ فى جوفها جَبَلٌ أشَمُّ كَبِيرُ

فإن قيل : لم قال مُتْرَعًا فوَحَّدَ والإخبار عن البرّ والبحر جميعاً ؟ قلتَ : يجوز أن يكون إنما وَحَّد لأنَّه نَوَى التَّقديم والتأخير ، كأنه قال : وقد كان منه البَرُّ مُترعًا والبحر ، أى والبحر أيضاً مُترع ، فيرتفع البحرُ بالابتداء ، واكتفى بالإخبار عن الأوّل إذ كان المعطوف كالمعطوف عليه . ومثله :

* فإنِّى وقَيَّارًا لغريبُ[2] *

يريد : إنّى لغريبٌ بها وقيار أيضاً غريب ، وهو اسم فرسِه . ويجوز أن يكون لمّا علم أنَّ المعطوفَ حكمُه حكم المعطوف عليه اكتفَى بالإخبار عن أحدهما ، ثقةً بأنّ الثّانى عُلِم أنّه فى حكمه . ومثله :

رَمانِى بأمرٍ كنتُ منه ووالدى بريئًا ومن أَجْلِ الطَّوِىّ رَمانى[3]

(١) هو عبد الله بن أيوب التيمى . الحماسية ٣٢٧ .

(٢) لضابئ بن الحارث البرجمى . الخزانة (٤ : ٣٢٣) والإنصاف ٦٥ وسيبويه (١ : ٣٨) ونوادر أبى زيد ٢٠ والكامل ١٨١ ليبسك والشعراء ٣١١ . وصدره :

* فمن يك أمسى بالمدينة رحله *

(٣) البيت لابن أحمر ، وقيل للأزرق بن طرفة بن العمرد الفراصى ، كما فى اللسان (جول) . ويروى : « ومن جول الطوى » ، كما فى شرح التبريزى واللسان والمقاييس (جول) ، ورواية المرزوقى هنا هى الصحيحة ، قال ابن برى : لأن الشاعر كان بينه وبين خصمه حكومة فى بئر ، فقال خصمه إنه لص ابن لص ، فقال هذا الشعر . وبعد البيت :

دعانى لصا فى لصوص وما دعا بها والدى فيما مضى رجلان

* بَلَى قد وسعت الجود والجود ميت *

بلى جوابُ استفهامٍ مقرونٍ بنَفي نحو قولك ألَمْ ، أليس ، وما أشبههما . وهذا الشَّاعر لما قال متعجِّباً من مخاطبة القبر ومُنكِراً : كيف واريتَ جودَه على كثرته ووفوره ، وشموله لأقطار البرِّ والبحر ، صار بما اعتبر وشاهدَ من الحال كأنَّ القبرَ قال له : ألم أسَعْهُ ، ألم أواره ، ألم أتضمَّنه على ما به ؟ فقال مصدِّقاً له ، ومتلهِّفاً : بلى قد وسعتَه واشتملتَ عليه وهو ميِّت ، ولو كان حَيًّا لضِقْتَ عنه حتى تنقطع وتنشق[1] ، والصَّدع : الشَّقُّ فى الشيء الصُّلب . وصدَعْتُ الفَلاةَ والنَّهرَ قطعتُهما .

٥ — فتًى عِيشَ فى مَعرُوفِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ كما كان بَعْدَ السَّيْلِ مَجْرَاهُ مَرْتَعا

٦ — ولمّا مَضَى مَعْنٌ مَضَى الجودُ فانقضى وأصْبَحَ عِرْنينُ المَكارِمِ أجْدَعا[2]

قوله « فتًى عِيشَ فى معروفه » موضعه نصبٌ على المدح والاختصاص ، والعامل فيه فعلٌ مضمَر ، كأنّه قال : أذْكُرُ فتًى هذا صفته . ويجوز أن يكون موضعه رفعاً على الاستئناف ، ويكون خبر مبتدأ محذوف ، كأنّه قال : هو فتًى ، أو مَن أؤبِّنه فتًى ، وقوله « عِيش فى معروفه بعد موته » يجوز أن يكون أراد مَن استغنَى به وبمعروفه من المتَّصلين به ، والمنقطعين إليه ، والراجين له . ويجوز أن يكون أراد من عاش من وُقوفه وحبائِسه بعدَه ، ويجوز أن يريد أنّه علَّمَ النَّاسَ الجودَ والكرم ، فمِن مُقتدٍ به آخِذٍ أخْذَهُ ، ومُستَنّ بسُنَّتِه سالكٍ مسلكه ، فما يفعله هؤلاء صار كأنّه هو الفاعل له . ثمَّ شبَّهه بالغيث يصوبُ فيُحيِي العبادَ ثم

(١) ل : « وتتشقق » .

(٢) وكذا رواية التبريزى . وفى أمالى القالى (١ : ٢٧٥) : « وانقضى » . وروى موضعه فى الأغانى والخزانة :

أبى ذكرُ معن أن تموت فعاله وإن كان قد لاقى حماماً ومصرعا

يعيشُ النّاسُ فى آثاره بَعد انقطاعِه ومُضيِّه . وقوله « كما كان بعد السَّيل مجراه » ارتفع مجراه بكان ، وكان الحكمُ أن يَلِيَهُ فلم يَسُغْ لأنَّ الضمير فيه يرجع إلى السَّيل وقد تَقدَّم عليه ، والإضمار قبل الذِّكر أو ما يجرى مجراه لا يجوز ، فامتنع ردُّه إلى رتبته من وَلْىِ العاملِ له ، لشىء يرجع إلى الضمير المتَّصل به لا لشىء يرجع إليه . وتلخيص الكلام : كما كان مجرى السيل مرتعاً بعده .

وقوله « ولَمَّا مَضَى مَعْنٌ » لَمّا يجىءُ لوقوع الشىء لوقوع غيره ، وهو علَمٌ للظَّرف . فيقول : حينَ مضى مَعْنٌ لسبيله وانقطعت حياتُه ، فُقِد الجود وانمحت آثاره ، فأصبحت المكارم ذَليلةً إذْ مات من يَرُبُّها ويَعْمُرها ، كمن جُدِع أنفُه مُثْلةً وعقوبة ، وإرغاماً وإهانة . ويقال فى المثل : « مِنِّى أنفى وإن كان أجدَع » . والعِرْنين : ما ارتفعَ من الأنف والأرض ، وأوائلُ الشىء ، وأشراف القومِ وسادتُهم ، وكما ضُرب المثل بجَدْع الأنف فى الإذلال ، ضُرِب بصلم الأذن فيه لذلك . قال :

* فمَشُّوا بآذان النَّعامِ المُصَلَّمِ (١) *

٣٢٠

وقال آخر :

١ — ما ذا أجَالَ وثيرةُ بن سِمَاكِ من دَمْعِ باكيةٍ عليه وباكِ (٢)
٢ — ذَهَبَ الذى كانت مُعَلَّقَةً به حَدَقُ العُنَاةِ وأنفسُ الهُلّاكِ

(١) لكبشة أخت عمرو بن معديكرب فى الحماسية ٥٢ ص ٢١٨ . وصدره :
* فإن أنتم لم تثأروا واتديتم *

(٢) التبريزى : « قال أبو العلاء يروى : وثيرة بالثاء . . . ويروى : وتيرة . . . ويروى وُبَيْرَة ومَزْيرة ، ويرى : أحال ، وأجال ، وأسال . فأجال من جولان الدمع ، وأحال بالحاء : صب » . ورواية القالى (١ : ٢٧٦) : « ماذا أحال وثيرة » .

يقول على وجه التعجُّب وإكبارِ الأمر : أىُّ دمع أراقه وتبرةُ بن سِمَاكٍ من عَينٍ باكية عليه وباكٍ . يريد أنَّ المصيبةَ به أثَّرت فى جماهير النَّاس وطوائفِ الخلْق ، وأنَّهم لم يملكوا فيما دَهِمهم إلَّا البكاء إطفاء لنار الوجد ، وإراحةً من تعب القلب[١] ، وماذا يُغنى العَويل ، وهو الرَّاحةُ المطلوبةُ من البكاء إذا حَمَّت الحقيقةُ ، إلَّا زيادةٌ فى اللَّوعة وإنجادٌ للمصيبة . وقد تقدم القول فى ماذا ، وشرَحْنا أمره[٢] .

وقوله : « ذهب الذى كانت معلَّقةً به » يريد أنه كان يَفُك الأَسْراء ، ويُنعش الفقراء ، حتَّى أن مَن ابتُلِى بأسرٍ ، أو رُمِىَ بفقر ، فإنَّه لم يُعَدَّ لفكِّهِ ولم يُرْجَ لجبره غيرُه ، فأعيُنهم كانت ممتدَّةً إليه ، وآمالُهم كانت معلَّقةً به ، وإذْ قد مَضى لسبيله ، وانتقل إلى جوارِ من هو أحقُّ به ، فقد استَبْدَلوا بالطمع خيبةً ، ومن التعزُّز ذِلَّة ، وبَقُوا فى ملَكةِ مِحَنِهم لا انفكاكَ لهم منها ، ولا ارتياشَ[٣] من سقطاتها .

٣٢١

وقال أشجعُ بن عَمرٍو السُّلَمىُّ[٤] :

١ – أنعَى فَتَى الجُودِ إلى الجُودِ   ما مِثْلُ مَن أنعَى بموجودِ

(١) ل : « القلوب » .
(٢) انظر ما سبق فى الحماسية ٢٧٠ ص ٨١١ و ٣١٨ ص ٩٣٤ .
(٣) كذا وردت فى النسختين . يقال ارتاش : حسنت حاله . والوجه « انتياش » . والانتياش والاستنقاذ والاستدراك .
(٤) زاد التبريزى : « فى محمد بن منصور بن زياد » . ونسبة الشعر إلى أشجع هى كذلك فى الشعر والشعراء ٨٥٩ وقد رواها ابن قتيبة سبعة أبيات . لكن الجاحظ فى البيان (٣ : ١٢٣) بتحقيقنا قد نسبه إلى أبى الشيص . وترجمة أشجع مضت فى الحماسية ٢٨٠ ص ٨٥٦ .

٢ ـ أنعَى فتًى مَصَّ الثَّرَى بَعْدَهُ بقيَّـةَ المـاء من العُـودِ(١)

قوله « أنعى فتى الجود » إنما أضافه إلى الجود إيذاناً بأن الجودَ كان يمتلكه فهو فتاه. أو يريد أنّ الجود كان يتبجَّح بكوْنِ هذا الرّجلِ من أسرته وأصحابه ، لأنه كان يتَفَتَّى فى الجود ؛ وهذا كما يقال : فلانٌ فَتى الحرب ، وكما قيل : « لا فَتَى إلا علىٌّ فى الوَغَى » . فيقول : إنَّه الآن وقد مضَى لسبيله فإنِّى أنعاه إليه ، لنَتَشارك فى فقده والجزع عليه . ثم قال : « ما مثل من أنعَى بموجود » ، وهذا يشبهُ الالتفات ، كأنه أقبلَ على إنسانٍ فقال : أذكرُ موتَ مَن كان معدومَ النَّظير ، قليلَ الشبيه ، فلا الجود يجدُ من يخلُفُه ويُبلى ذكرَه ، ويقوم بأوَده فيقيمُه فيقال هو فتى الجود ، ولا نحن نعتاضُ منه مَن يجمعُ شمائلها ، ويَجبُر كَسْرنا ، ويسدُّ مَفاقرَنا إذا أضرَّ الزمان بنـا .

وقوله « أنعى فتًى مَصَّ الثَّرى بعده » ، يريد : تغيَّرت الأرض عما كانت عليه ، فيبِست أشجارُها واغبرّت ساحاتها(٢) بموت هذا المرثىّ ، فالدُّنيا مُدْبِرة ، والأقطار مُقْشعِرَّة ، والبؤس للبَئِيس مُعانِق ، والخير بتوابعه من النَّدى والتطوُّل والخِصْب والترطُّب مُفارِق .

---

(١) أنشد بعده التبريزى ، وكذا أنشد ابن جنى البيت الأول من البيتين التاليين :

وانثلَمَ المجـدُ بهِ ثُلمةً جانبُها ليس بمسـدودِ
فالآنَ تُخْشى عَثَراتُ النَّدَى وصَولةُ البُخلِ على الجـودِ

(٢) كذا فى ل . وفى الأصل : « ساحتها » .

٣٢٢

وقال عبدُ الله بن الزَّبِير الأسديّ[١] :

١ ــ رَمَى الحَدَثانُ نِسْوَةَ آلِ حَرْبٍ بِمِقْدارٍ سَمَدْنَ لَهُ سُمُودَا[٢]

٢ ــ فرَدَّ شُعورَهُنّ السُّودَ بِيضاً وردَّ وُجوهَهنَّ البِيضَ سُودَا[٣]

السُّمود : الغَفلة عن الشَّىء وذَهابُ القلب عنه . ويقال للمأخوذ عن الشَّىء : ابرُكْ سُمودَك . وفى القرآن : ﴿ وأنتُمْ سامِدُون ﴾ ، أى ساهون لاهون . وقوله « رَمَى الحَدَثانُ نِسوةَ آلِ حرب بمقدارٍ » فيه ما يجرى مجرى القَلْب ، لأنّه لو قال رمى المقدار نسوةَ آل حَرْبٍ بحدَثانٍ ، لكان أقربَ فى المعتاد ، وأجْرَى على طريق الدِّين . فيقول : جَرَّ المقاديرُ على نسوةِ آل حَرْبٍ نَوْبَةً من نوائب الدهرِ أثَّرَتْ فى عقولهنّ ، حتى غَفَلن عن أسباب الدِّين والدُّنيا كلِّها ، وحتى

(١) هو عبد الله بن الزبير بن الأشيم بن الأعشى بن بجرة ، ينتهى نسبه إلى أسد بن خزيمة ، والزبير هذا بفتح الزاى وكسر الموحدة . وهو شاعر كوفى المنشأ والمنزل ، من شعراء الدولة الأموية ومن شيعتهم والمتعصب لهم ، فلما غلب مصعب بن الزبير على الكوفة أتى به أسيراً فمن عليه ووصله ، فمدحه وأكثر من مدحه وانقطع إليه ، ولم يزل معه حتى قتل مصعب ، وعمى هو بعد ذلك ومات فى خلافة عبد الملك . الأغانى (١٣ : ٣١ – ٤٧) ومعاهد التنصيص (٢ : ١٠٨ – ١١٠) والخزانة (١ : ٢٤٥ – ٢٤٦) . ولم يذكره الصفدى فى نكت الهميان .

(٢) نسبت الأبيات فى زهر الآداب (٢ : ٧) إلى ابن الزبير أيضاً . وفى عيون الأخبار (٣ : ٦٧) إلى فضالة بن شريك ، وفى أمالى القالى (٣ : ١١٥) إلى الكميت بن معروف . وانظر اللسان (سمد) والأضداد لابن الأنبارى ٣٦ . ورواية ثعلب : « آل صخر » . وفى اللسان : « بأمر قد سمدن » . وفى عيون الأخبار : « بفادحة سمدن » .

(٣) روى بعدهما التبريزى :

فإنَّكَ لو رأيتَ بكاءَ هِندٍ ورَملةَ إذْ تَصُكَّانِ الخُدودا

سمعتَ بكاءَ باكيةٍ وباكٍ أبانَ الدهرُ واحدَها الفَقِيدا

شيَّبْنهنَّ ولفَحَت وجوهَهنَّ[(١)]، فردَّت السُّودَ من شعورهنَّ بيضا، والبيضَ من وجوههن سُودا.

وهذا كما حُكى عن العُريان بن الهيثم[(٢)]، لمّا سأله عبدُ الملك عن حاله، فقال: «ابيضَّ منِّى ما كنتُ أُحِبُّ أن يسوَدَّ، واسوَدَّ منى ما كنت أحبُّ أن يبيضَّ» فى كلامٍ طويل. ثم قال:

وكنتُ شَبابى أَبيضَ اللَّونِ زاهرًا فصرتُ بُعَيْدَ الشَّيبِ أَسْوَدَ حالكا

٣٢٣

وقال مُسْلِمُ بن الوليدِ[(٣)] وماتت امرأتُه:

١ – حَنِينٌ ويأْسٌ كيف يجتمعانِ مَقيلاهُما فى القَلْبِ مُخْتلِفانِ

٢ – غَدَتْ والثَّرَى أَوْلَى بها مِن وَلِيِّها إلى مَنزِلٍ ناءٍ لِعَيْنِكَ دانِ

٣ – فلا وجْدَ حتَّى تَنزِفَ العينُ ماءَها وتَعْترِفَ الأحشاءُ لِلْخَفَقانِ

هذا الكلام شَكْوٌ من حالِهِ فيمن أُصيب به، فيقول: اليأس حاصلٌ منها إذ كان غائبُ الموتِ لا إيابَ له، والشَّوقُ إليها غالبٌ حتى كأنِّى ما فقدتُها؛

(١) إلى هنا ينتهى سقط التيمورية الذى بدأ فى ص ٩٠٦.

(٢) وكذا فى عيون الأخبار (٢ : ٣٢١). وفى البيان (١ : ٣٩٩/٢ : ٦٩) أنه «الهيثم بن الأسود بن العريان».

(٣) مسلم بن الوليد الأنصارى، الملقب صريع الغوانى، من شعراء الدولة العباسية، مولده ومنشؤه بالكوفة. وهو أول من أشاع البديع فى شعره، وتبعه فى ذلك أبو تمام. وكان مسلم مداحاً جل مدائحه فى يزيد بن مزيد، وداود بن يزيد، والبرامكة، وصافا للشراب، وكثير من الرواة يقرنه بأبى نواس فى هذا المعنى. قال ابن قتيبة: ولى بريد جرجان فى خلافة المأمون، فلم يزل بها حتى مات. الشعر والشعراء ٨٠٨ – ٨١٩ ومعاهد التنصيص (٢ : ١٠ – ١٥) وتاريخ بغداد (١٣ : ٩٦ – ٩٨) وملحق الجزء الخامس من الأغانى المطبوع مع ديوانه فى ليدن ١٨٧٥.

فيا عجبا كيف اجتمَعَ مع اليأس رَجاءٌ مع اختــلاف مقرِّهما فى القلب ، ومع تَنافيهما عند التحصيل والـكَشْف ، وهل يكونُ الإنسان فيما اعتِيدَ وعُرِف من أحوال الأزمان مُبْتَلًى بأسباب الخيبة من الشَّىء ، ومتردِّدًا معها بين علائق الطمع فيه . والمَقيلُ الموضـع من قِلتُ . وفى القرآن : ﴿ أصحابُ الجَنَّةِ يومَئذ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وأحسَنُ مَقِيلاً ﴾ .

وقوله « غَدَتْ والثَّرى أَولَى بها من وليِّها » تحسُّر ، فيقول : ابتـكرَتْ وهى فى مَلَـكة الثُّراب دون ملـكة وليِّها ، فالثَّرى صار أولى بها . والانتقالُ من بين الأحْيَاء إلى الأموات أحقُّ وأوجبُ فى أمرها . وقوله « إلى منزل ناء لعينك دانٍ » مثلُ قول الآخر[1] :

. . . أمَّا جِـــوَارُهمْ فدانٍ وأمَّا الملتقَى فبعيد[2]

وقد أَلَمَّ فى قوله « غَدَتْ والثَّرى أولَى بها » بقول الآخَر[3] :

صلَّى الإلٰهُ عليكِ مِن مَفقودَةٍ إذْ لا يلائمُـكِ المـكانُ البَلْقَعُ

وقوله « فلا وجدَ حتى تَنزِف العينُ ماءها » يريد به : لا وجد يُعتَدُّ به إذا ذُكِر الهلَع على مثله حتى تستنفدَ العينُ دمعَها ، لاتِّصال البكاء بها ، وحتى تستمرَّ الأحشاء فى خفَقان القلب فتذلَّ له وتصبرَ عليه ، حتى يصير عادةً وسجيّةً ويقال : عَرَفَ فلانٌ لـكذا واعترَف له ، إذا صَبَر فيه واعتاده . على ذلك قوله :

* على عارِفاتٍ للقاء عَوَابِسٍ[4] *

ويقال نَزَفتُ البئرَ وأنْزَفتُها جميعاً ، قال العجّاج :

(١) هو عبد الله بن ثعلبة الحنفى ، فى الحماسية ٢٩٧ ص ٨٩١ .
(٢) أوله : « هم جيرة الأحياء » .
(٣) هو مويلك المزموم ، فى الحماسية ٣٠٥ ص ٩٠٣ .
(٤) للنابغة فى ديوانه ٥ . وعجزه :
* بهن كلوم بين دام وجالب *

* وأنزفَ العَبْرَةَ من لاقى العِبَرْ *

وفى المثل « أجْبَنُ من المنزوفِ ضَرْطًا » .

وقوله « لا وَجْدَ » خبرهُ محذوف ، كأنّه قال : لا وجد حاصلٌ أو موجود .
والخفقانُ فى القلبِ والجناح : الاضطراب ، ومنه خَفْقُ البُنُودِ والأعلام ، حتّى سُمّى الأعْلَامُ خوافِقَ . قال :

لقد تركتْ عَفراءُ قلبى كأنّه   جَناحُ عُقَابٍ دائمُ الخفَقانِ[1]

٣٢٤

وقال مُسلمُ أيضاً[2] :

١ — قَبْرٌ بحُلْوَانَ استَسَرَّ ضَرِيحُه   خَطَرًا تَقاصَرُ دُونَه الأخطارُ

٢ — نفضَتْ بكَ الأحْلاسُ نَفْضَ إقامةٍ   واسترْجَعتْ نُزّاعَها الأمْصَارُ

قوله « استسرّ » بمعنى أسَرَّ ، ومثله استعجب بمعنى عَجِبَ . وأكثر ما تَرَى استسرّ يكون فى معنى استَخفَى وتوارَى . على ذلك قولهم فى آخِرِ الشهر استَسرَّ القمرُ ليلةً أو ليلتين ، فهو من السِّرَار ، وهو آخِرُ يومٍ فى الشّهر ، والخَطَر : ارتفاع المكانةِ والحالِ فى الشّرف ، ثم يقال فى الشّريف : هو عظيمُ الخَطَر . والضَّريح ، أصله القبر يُشَقّ وسطُه ولا يُلحَد . وارتفع « قبر » بالابتداء لأنّه بصفته وهو بحلوان قَرُبَ من المعارف ؛ واستَسَرَّ فى موضع الخبر . والمعنى : قبر بهذا المكان اشتمَلَ جوفُه على عظيمٍ من العظماء ، رفيعِ المكانةِ جليلِ الخطر ، يتقاصر عنه كلُّ عظيمٍ جليل . وقوله « خطَرا » أراد ذا خطر ، فحذَف المضاف ،

(١) البيت لعروة بن حزام فى ديوانه مخطوطة الشنقيطى ، وأمالى القالى (٣ : ١٦٢) .

(٢) يقولها فى رثاء يزيد بن مزيد . ديوان مسلم ٢٣٨ والبيان (٣ : ١٤١ ، ٢٦٠) وأمالى القالى (١ : ٢٧٦) .

وكذلك الأخطار، أراد ذَوُو الأخطار. وقوله «تقاصَرُ» يجوز أن يكون من القصور: العجزِ، أى تعجِزُ أن تبلغ مَحَلَّه الأخطار. ويجوز أن يكون ضدَّ تطاوَل فيكون من القِصَر.

وقوله «نُفِضت بك الأحلاسُ نَفْضَ إقامَةٍ» يريد أنّ العُفاة قَعَدوا عن الاجتداء بعد موتِكَ يأسًا ممن يُطمَع فيه، أو يُرْجَى خيرُه، فنَفَضوا أحلاسَ رواحِلِهم نَفْضَ مَن يقيم فى بلاده ويطَّرِح التَّرحال. وقوله «استرجَعَتْ نُزَّاعَها الأمصارُ» معناه أنّ مَن كان على بابه انصرفوا إلى أوطانهم نافضين أيديَهم ممّن يتعطَّف عليهم، أو يصطنِعُهم وينظُر لهم، فكأنَّهم كانوا ودائعَ الأمصار عندهُ مدَّةَ مُقامِهم ببابه فارتجعَتْهُم. والنُّزّاع: جمع نازِع، وهو البعيد والغريب جميعا، وكذلك النَّزيع والجميع النزائع. ويجوز أن يكون مِن نَزَعْتُ إليه نِزَاعًا، أى حَنَنْتُ. فيقول: المقيمُ فى موضِعه رَفَضَ التَّرحالَ، والمسافر عاد إلى مَقَرِّه يأسًا مِن كسب المال.

٣ — فاذهبْ كما ذَهَبَتْ غَوَادِى مُزْنَةٍ ... أثْنَى عليها السَّهْلُ والأوْعَارُ

٤ — سَلَكَتْ بِكَ العَرَبُ السَّبِيلَ إلى العُلَى ... حَتَّى إذا سَبَقَ الردَى بِكَ حارُوا

يقول: اذهب لوَجْهِك وآلاؤك منشورةٌ، وصنائعُك محمودةٌ مشكورة، وآثارك كآثار السُّحبِ وقد أغاثت النّاسَ بأمطارها، فإذا أقلَعَتْ تَرَى أهلَ السهلِ والوَعرِ يُثْنون عليها. والغوادى: السَّحابات التى تَنشأ غُدْوَةً، وكأنّه أراد أقطاعًا منها، وأضافها إلى المُزْنة لأنَّها منها تجمَّعت فكَمَلَتْ مُزنةً. ويجوز أن يكون المراد بالغوادى أمطارًا تَصُوب غدوةً، وأضافها إلى المزنة.

وقوله «سلكت بك العَربُ السَّبِيلَ إلى العلى» يريد أنك هادِى العربِ ودليلُهم فى اكتساب المعالى وابتداء المكارم، فأنت قائدهم وهم يَطَؤون عَقِبَك،

ويقتَدُون بكَ ، حتّى إذا فقدوا إرشادَك تحيَّروا فلم يهتدوا ، وضَلّوا فلم يَرشُدوا . ومعنى « سَبَقَ الرَّدَى بك » كأنّهم كانوا يتشبّثون به ويَلزَمونه حافظين بقاءَهُ فجاء الرَّدَى يطلبُه ويختاره ، فانتهزَ الفُرصةَ فى السَّبق به واجتذابه من أيديهم ، والفوز به من دونهم . ومفعول سَبَقَ محذوف ، كأنّه قال سبقَهم الرَّدَى[1] بك .

٣٢٥

وقال حَنَشٌ[2] فى يعقوبَ بن داود :

١ — يعقوبُ لاتَبْعَدْ وجُنِّبْتَ الرَّدَى ... فَلَنَبْكِيَنَّ زَمَانَكَ الرَّطْبَ الثَّرَى

٢ — وَلَئِنْ تَعَهَّدَكَ البلاءُ بنفسه ... فلقِيتَهُ إنَّ الكريمَ لَيُبْتَلَى

لم يَرضَ بالجرىِ على عادة النّاس فى قولهم عند المصاب : لا تَبْعَدْ ، حتّى زاد عليه « وجُنِّبتَ الرَّدَى » ليكون الكلامُ أدلَّ على التوجُّع ، وأوفَى بالتّنبيه على حاجة النّاسِ إلى بقاء المتوفّى . وقوله « فلَنبكِيَنَّ زمانَك الرَّطبَ الثَّرَى » يشير فيه إلى إحسانه الضّافى ، ومعروفِه الواسع الوافى ، وأنّه كان للناس كالحَيَا يُحيِي الأرضَ وسُكّانَها ، فكانَ ثَرَى الأرضِ به رطْبا ، وزمانُه خِصبا . وفيه إلمام بقوله :

---

(١) هنا تنتهى النسخة التيمورية . وتستمر المقابلة بين نسختين : الأصل ، ل .

(٢) وكذا فى ل . وعند التبريزى : « أبو حنش الهلالى » ، وهو الصواب . قال التبريزى : « قال أبو هلال : قال دعبل : اسمه خضير بن قيس النميرى . بصرى ، كان يحفظ القرآن ، وعاش مائة سنة ، وصحب يعقوب وزير المهدى ، فلما حبسه المهدى ونال منه ما نال. قال . . . » . وذكره ابن النديم فى الفهرست ٢٣١ عند ذكر دواوين بعض الشعراء : « أبو حنش النميرى ثلاثون ورقة » . وكان كما ذكر أبو الفرج فى الأغانى (١٨ : ٧٤) على صلة بأبى محمد اليزيدى ، قال له يوماً يا أبا محمد : قل أبياتاً قافيتها على هاءين . فقال أبياتاً منها :

أبلغ حضيراً عنى أبا حنش ... عائرة نحوه أوجهها

وردت حضيراً فى الأغانى بالحاء المهملة . ومما يجدر ذكره أن الأبيات ليست رثاء فى ميت ، بل هى رثاء لحى ، كما سبق نظيره فى الحماسية ٣١٤ ص ٩٢٧ .

* اذهَبْ كما ذهبَتْ غوادِي مُزْنَةٍ[1] *

وقوله « ولئن تعهَّدَكَ البلاءُ بنفسه » أفاد قوله « بنفسه » إكبارَ الأمرِ وتفظيعَ الشَّانِ فى موته وفِقْدانه ، كأنَّ البلاء لم يرضَ فى الذَّهابِ به بأن يعتمِد على نائبيهِ ورسُلِهِ ، بل جاءه بنفسه . وقوله « إنَّ الكريمَ ليبتلى » تَسْلِيَة[2]. ومعنى « تعهَّدَكَ » أى نَظَر هل أنتَ على ماعَهِدَكَ ليَرى فيك رأيَه . وفى الكلام إلمامٌ بقول الآخر[3] :

أرى الموتَ يَعتامُ الكِرامَ ويَصطفِى عَقِيلَةَ مالِ الفاحِشِ المتشدِّدِ

ويعنى بالبلاء الموتَ ، وقد يكون فى غير هذا الموضِع النِّعمةَ والاختبار . ومنه قوله تعالى : ﴿ إِيَبْتَلِيَ اللهُ ﴾ ، أى يَمتحِن . وقوله « لئن » اللام موطِّئة للقسم ، وهو مضمر وجوابه « إنَّ الكريمَ ليبتلى » .

٣ــ وأرى رجالاً يَنْهَسُونَكَ بَعْدَما أغْنَيْتَهمْ مِن فاقةٍ كلَّ الغِنَى

٤ــ لو أنَّ خَيْرَكَ كان شرًّا كُلُّهُ عِنْدَ الّذِينَ عَدَوْا علَيكَ لَمَا عَدَا

معنى ينهسونك يغتابونك ، وأصل النَّهس فى العظْم إذا عُرِقَ ما عليه من اللَّحم . وانتصب « كلَّ الغِنى » على المصدر ، ووضع الغنى موضع الإغناء على عادتِهم فى وضع الاسم موضعَ المصدر . والمعنى : أرى مَن أحسنتَ إليه وأنعشتَه وبعد الفاقةِ أغنيتَه ، يتنقَّصك ويغتابُك ، سوءَ محافَظةٍ منهم ، ولدناءةِ أصلهم ولؤمِ عِرقهم .

ثم قال : لو أنَّ خيرك عندهم كان كلُّه شرًّا لما جاوز فعلُهم بك ، ومكافأتُهم لك ، ما نراه . ومعنى « عَدَوْا عليك » ظلموك . ومعنى « لَمَا عدا » لَمَا جاوز

(١) من الحماسية ٣٢٤ لمسلم بن الوليد . والنص هناك : « فاذهب » . وعجزه :
* أثنى عليها السهل والأوعار *

(٢) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « يسليه » .

(٣) هو طرفة بن العبد ، فى معلقته .

ويقال عدا عليه عَدْوا وعُدُوًّا وعَدَاء وعُدْوانا . وارتفع « كلُّه » على التوكيد للمضمر فى كان ، ويجوز أن يكون اسم كان . وفى قوله « لَمّا عدا » ضمير للشرّ ، ومفعوله محذوف ، كأنه قال : لَمّا جاوز الشَّرُّ ، أى جزاء الشّرّ ، ما يأتونَه فى نقيصتك والوضع منك . والكلام تحسُّرٌ وتَشَكٍّ من متحمِّلى صنائع المفقود ، وذمٌّ للدّهرِ وأهله .

٣٢٦

وقالت صَفِيَّةُ الباهليّة(١) :

١ ــ كُنّا كغُصْنَيْنِ فى جُرْثُومةٍ سَمَقَا حِيناً بأحْسَنِ ما تَسْمُو له الشَّجَرُ(٢)
٢ ــ حَتَّى إذا قِيلَ قد طالَتْ فُرُوعُهُما فطابَ فَيْئَاهُما واستُنْظِرَ الثَّمَرُ(٣)

قوله «سمقا» أى طالا فى كان . والجُرثومة : الأصل فيقول : كنا كغصنين خرجا من أصلٍ واحد فنَميا وطالا ، واستكملا زمانًا ، وبقيا يَزدادانِ على أحسنِ ماتزداد له الأشجار ، حتّى إذا فرَعا ، وآتتْ أغصانُهما وبرَعا ، وكثر ورقُهما ، واستُطيب ظلُّهما ، وصارا يُنتظر ثمرهما ، وقَفَ الأمرُ بهما دونَ الغايةِ المرجوّةِ فيهما ، ودُعِيَ أحدهما مقدَّما على الآخر للمحتوم لهما . والفَرع من كلِّ شىء : ما تفرَّع منه فى أعلاه . الفىء من الظّلّ : ما فاء من جانبٍ إلى جانب . ومعنى استُنظِر انتُظِر . ورواه بعضهم : « واستُنضِر الثَّمَر » ، أى وجد ناضراً غضًّا . والأوّل أحسن .

(١) هى إحدى الأعرابيات . وذكر ابن عبد ربه فى العقد (٣ : ٢٧٧) أن الأبيات رثاء لزوجها ، وذلك فى باب (من رثت زوجها) ، وابن قتيبة فى عيون الأخبار (٣ : ٦٧) أنها رثاء لأخيها .

(٢) العقد : « بسقا » ، عيون الأخبار : « سموا حيناً على خير ما ينمى » ، التبريزى : « ما يسمو » .

(٣) العقد وعيون الأخبار : « وطاب قنواهما » .

٣ — أَخْنَى عَلَى واحدِي رَيْبُ الزَّمانِ وما يُبْقِي الزَّمانُ على شيءٍ وما يَذَرُ(١)
٤ — كُنَّا كأنجُمِ ليلٍ بينها قمرٌ يَجْلُو الدُّجَى فهوَى مِن بَيْنِها القَمرُ(٢)

قوله « أخنى » جواب إذا من قوله « حتى إذا قيل قد طالت فروعهما » ، وقوله « وما يُبقى الزَّمان » اعتراض حَصَلَ بين ما قبله وما بعدَه من القصّة ، مؤكِّدٌ له . فيقول : لمَّا بلغ الأمرُ بنا ذلك المبلغَ أناخ حَدَثانُ الدّهرِ على أحدِهما فأتلفه وأفسده ، والزَّمانُ هذا دأبُه ، لا يَسلَمُ عليه شيءٌ ، بل يرتجعُ كما يُعطى ، ويَسلبُ كما يَهَب .

ثم قال : « كُنَّا كأنجُمِ ليلٍ بينها قمرٌ » ، وهذا تشبيه ثانٍ ، كأنها فى الأوَّل — وهو كُنّا كغُصْنين — شَبَّهتْ نفسَها وصاحبَها بغُصنَين ، وفى الثّانى شبَّهتِ العشيرةَ كلَّها والمتوفَّى فيها ، بنجوم ليلٍ أحدقَتْ بقمرٍ استضاء ظلامُ اللَّيلِ بنُوره فسقط ذلك القمرُ من وسطها فعادَ اللَّيلُ كما كان .

وهذا الكلام فيه تفضيلٌ المتوفَّى على ذَوِيه كلِّهم ، فإنَّهم كانوا يَستكشِفون ظُلمة حوادثِ الدَّهرِ من جهته ومكانِه ، فلمَّا فارقَهم عادَ الشَّرُّ جَذَعًا(٣) ، والضِّياء حِندِسا .

---

(١) انفرد ابن قتيبة برواية « على واحدى » و « لا يبقى » و « لا يذر » .

(٢) ابن قتيبة : « وسطنا قمر . . . من بيننا » . وقال : ومن هذا أخذ الطائى — يعنى أبا تمام — قوله :

كأن بنى نبهان يوم وفاته نجوم سماء خر من بينها البدر

انظر ديوان أبى تمام ٣٦٩ .

(٣) عاد جذعا ، أى جديداً كما بدأ ، وأصل الجذع من الدواب والأنعام الصغير السن قبل أن يثنى بسنة ، وهو أول ما يستطاع ركوبه والانتفاع به .

٣٢٧

وقال التَّيمىّ(١) فى منصور بن زِيَاد(٢) :

١ ـ لَهفَى عليك لِلَهْفَةٍ مِنْ خائفٍ   يَبْغِى جِوَارَكَ حِينَ لَيْسَ مُجِيرُ

« لَهفَى » مبتدأ ، وهو لَهفُ مضاف إلى ضمير النَّفس ، ففرّ من الكسرة وبعدها ياء إلى الفتحة فانقلبت ألفا . ولو رُوى لَهفِى عَلَيْكَ ، لجاز ، ويكون جارياً على أصله . و « عليك » فى موضع الخبر . واللام من لِلَهْفة متعلّقٌ بما دلَّ عليه لَهْفَى . فيقول : لى عليك حسرةٌ شديدةٌ من أجلِ حسرةِ رجلٍ نابَهُ من حوادِثِ الدَّهرِ ما اختَشَى لهفطلب جِوَارَك ، والاستعاذةَ بفِنائك ، وقتَ لامجيرَ له ثم لا يَجِدُك . وقوله « حينَ ليس مجير » ظرفٌ ليَبغِى ، ويبغِى فى موضع الصِّفة لخائف . وخبر ليس محذوف ، كأنَّه قال : حينَ ليس مجيرٌ فى الدُّنيا ، أو ينعَشُه ، أو ما أشبه ذلك . وأضاف حينَ إلى ليس فبناهُ لأنَّ المضافَ إليه غيرُ متمكِّن ، فاكتسب البناء من جهته ، فالفتحة فى حينَ فتحةُ بناء . ولا يمتنع أن يكون فتحةَ إعراب ، كأنَّه أجرى حينَ على سلامته ولم يعتدَّ بالإضافة فيه .

٢ ـ أمَّا القُبُورُ فإنَّهنّ أوانِسٌ   بجِوَارِ قَبْرِكَ والدِّيارُ قُبورُ

٣ ـ عَمَّتْ فَوَاضِلُهُ فَعَمَّ هَلاكُهُ   فالنَّاسُ فِيهِ كُلُّهُمْ مأجُورُ

---

(١) التبريزى : « قال أبو هلال : هو عبد الله بن أيوب ، ويكنى أبا محمد ، عربى من أهل اليمامة ، فصيح كلامى . وقال الفضل بن سهل لأبى سهل الخطاب الأزدى : من أشعر من بقى ؟ قال : مسلم . قال : لا ، بل التيمى . ومن مشهور قوله :

لعمرك ما الأشراف فى كل بلدة   وإن عظموا للفضل إلا ضائع
ترى عظماء الناس للفضل خشعاً   إذا ما بدا والفضل لله خاشع
تواضع لما زاده الله رفعة   وكل رفيع عنده متواضع »

(٢) منصور بن زياد : أحد وجوه الدولة العباسية ، وكان ابنه محمد بن منصور كاتباً للبرامكة ، الشعراء ٨٣٠ .

يقول : فارقْتَ الأحياءَ وفى كلِّ فِرقةٍ من فِرَقهم غَمٌّ شامل ، وزفرةٌ متّصلة ، فاختلَطْتَ بالأموات ، فالأُنسُ الذى كان فى الأحياء انتقلَ بانتقالك إلى الأموات ، فديارُ الأحياء ذاتُ وَحْشَةٍ ونُفُور ، فهى كالقُبورِ لِما حصَل فيها من الفجْعِ بك ، وفارَقَها من نَسيمِ الرَّوْح والرَّاحةِ بفراقك . وقبورُ الأموات ذواتُ أُنْس وقَرارٍ بمجاورتها لقبرك ، ولما يَغْدُو ويروح إليها من زُوّارِك .

وقوله « عَمَّتْ فواضِله فعَمَّ هلاكُه » يريد أنَّ إحسانَه عَمَّ الخلْق ، وصنائعَه شمِلتْهم ، فبحسب ذلك عمَّتْهم الفجيعةُ به ، فالنَّاسُ كلُّهم مُصابون مأجورون ، قد استوت أقدامُهم وتناسَبَتْ أحوالُهم فيما نالَهُمْ من الحسرة فيك ، وأضرَّ بهم من الخلَلِ الواقِع فى عَيْشهم بك .

٤ — يُثْني عَلَيْكَ لِسَانُ مَنْ لَمْ تُولِهِ   خَيْرًا لأنَّكَ بالثَّناءِ جَديرُ

٥ — رَدَّتْ صَنَائعُهُ إليه حياتَهُ   فكأنَّهُ من نَشرِهَا منشور

يقول : عَرَف النّاسُ على اختلافهم وتبايُنِ أوطانهم ، فضلَكَ وفواضلَك ، فاتفقت ألسنتُهم فى الثَّناء عليك والحمدِ لك ، فمَنْ لم تُسْدِ إليه خيراً منك ، ولم تُشركه فى النِّعمة عِندك ، صار مقتدياً بغيره فى إطرائكَ ومدحِك ، وتقريظِك وتزكيَتك ، لأنَّك عندهم كلِّهم جديرٌ بذلك ، لا لمكافأةٍ على إحسانك ، وَلا لشكرٍ وجَبَ عليهم فى تحمُّل أفضالِك .

وقوله « رَدَّت صنائعُهُ إليه حياتَهُ » ، يقول : تَذاكَرَ النّاسُ بعوارِفك لديهم ، ونشروا محامدَك فيهم ، فكأنَّك حيٌّ لم يُوارِكَ قبر ، ولم يَفُزْ بك موت . ويقال أنشر اللهُ الموتَى ونَشَرهم جميعاً . وأَنْشَرَ أفصح . وقوله « من نَشْرِها » أى من نَشر النّاس لها ، فأضيف المصدر إلى المفعول .

٦ — فالنَّاسُ مأتَمُهُمْ عَلَيْهِ واحِدٌ   فى كلِّ دارٍ رَنَّةٌ وزَفِيرُ

٧ – عَجَباً لأرْبَعِ أذْرُعٍ فى خَمْسَةٍ فِى جَوْفِهَا جَبَلٌ أشَمُّ كَبِيرُ

أصل المأتم النِّساء يجتمِعْنَ فى الخير والشَّرّ ، وجعله هاهنا المصيبةَ نفسَها . والرَّنين : الصَّوت . والرَّنَّة الفَعْلَةُ منه . وانتصب « عَجَباً » على المصدر ، والعامل فيه فعلٌ مضمَر ، كأنَّه قال : عجِبْتُ عَجَباً . وإنَّما قال أربَع أذرع ، لأنَّ الذِّراع مؤنثة ، وفى خمسة لأنَّه أراد الأشبار . والشِّبْر مذكَّر . ويشبه هذا قوله :

بَلَى قَدْ وَسِعْتَ الجودَ والجودُ ميِّتٌ ولَوْ كان حَيًّا ضِقْتَ حَتَّى تَصَدَّعا(١)

والجبل الأشَمُّ : الطَّويل الرَّأس . ويقال عِزٌّ أشَمُّ ، يراد به الارتفاع .

٣٢٨

وقال نَهارُ بنُ تَوسِعَةَ(٢) يَرْثِى أخاه :

١ – عِتْبَانُ قد كُنتُ امرأً لِىَ جانِبٌ حَتَّى رُزِيتُكَ والجُدُودُ تَضَعْضَعُ

٢ – قد كنتُ أشْوَسَ فى المَقَامَةِ سَادِراً فَنَظَرْتُ قَصْدِى واستَقَامَ الأخْدَعُ

يقول : يا عِتْبان ، كنتُ رجلاً كان لى ملاذٌ ألوذ به ، وجانبٌ أستنيم إليه ، وأتعزَّز بعزِّه ، إلى أن فقدتُك ، والجدود تنحطّ بعد الارتفاع ، وتعوجُّ عقيب الاستواء . فقوله « والجدود تضعضع » اعتراضٌ ، لأنَّ قوله « كنتُ أشوَسَ » متَّصل بما قَبلَه . والشَّوَس هو النَّظَر فى اعتراضٍ كنظر الغَضْبانِ والكارِهِ للشَّىءِ

(١) للحسين بن مطير ، فى الحماسية ٣١٩ .

(٢) نهار بن توسعة بن تميم بن عرفجة بن عمرو بن حنتم بن عدى بن الحارث بن تيم الله ابن ثعلبة ، أحد شعراء بكر بن وائل هو وأبوه توسعة . وهو شاعر أموى . قال التبريزى : « وكان أشعر بكرى بخراسان » . وهو القائل ليزيد بن المهلب :

كانت خراسان أرضاً إذ يزيد بها وكل باب من الخيرات مفتوح

فاستبدلت « قتبا » جعدا أنامله كأنما وجهه بالخل منضـوح

يعنى قتيبة بن مسلم . المؤتلف ١٩٣ .

المعرضِ عنه والمُقَامة : المجلس . والسَّادر : الذاهب عن الشَّيء ترفُّعاً عنه . ويقال أتى فلانٌ أمْرَه سادراً ، إذا جاءه من غير جهته . والسَّدَر : ظُلمة تَغْشَى العين ، وكأنَّ السادر منه . وقوله «فنظرتُ قَصدِي» أراد نظرتُ حيثُ أقْصِدُ ، ومكانَ قَصدِي . وإعرابه يجوز أن يكون نصبا على الظَّرف ، وقد حُذف اسم المكان معه ، ويجوز أن يكون مصدراً ، كأنه قال : فنظرت أقصِد قَصدِي ، أى قاصداً قصدى فدلَّ المصدرُ على اللَّفظ بالفعل ، والواقعُ موقع الحال هو الفعل . ومعنى البيت : قد كنتُ بما فى نفسى من الكِبْر والتعلِّي على النَّاس أنظرُ إلى أهل المجلس نظرَ المعترِض عليهم ، المعرِض عنهم المستَهين بهم ، المأخوذِ عن قصدى فيهم عجباً واستغناء ، فلما فقدتُك زالت تلك الخُنزُوانة عني ، واستقام عنق من الصَّوَر العارض له ، كما اعتدل نظرى فزال عنه الشَّوَس الذى كان فيه .

ويُستحسن لأوس بن حَجرٍ قوله :

* تَشَاوَسْ يزيدُ إنَّنِي مَنْ تَأَمَّلُ[1] *

٣ — وفَقَدتُ إخْوَانِي الذِينَ بعَيْشِهِمْ ... قد كنتُ أُعطِي ما أشاء وأمْنَعُ[2]

خاطب عِتبانَ فيما تقدم ، وشكا بَثَّهُ إليه ، على عادة النَّاس فى إظهار التلهُّف عند مخاطبة المفقود ، والجرىِ فى مباثَّته على عادتهم معه فى حياته . وفى الثَّانى أخبَرَ عن نفسه بأنَّه مُرَزَّأٌ فى إخوانه . كأنَّ المصائبَ كانت متوافيةً إليه ، ملحَّة فى تكرير الفجائع عليه ، فإخوانُه تفانَوْا واحداً بعد واحد ، وتداعَوْا فى التَّتابُع سَنَدا بعد سند ، فقال : ورُزِئت إخوانى الذين كنت أعطِى ما أشاء

(١) لم يرو فى ديوان أوس بن حجر . وأنشده فى مجالس ثعلب ١٥٥ والإنصاف ٣٤٤ . ورواية ثعلب : « تشاوس قليلا » وابن الأنبارى : « تشاوس رويداً » . وصدره فيهما :

* يقلب عينيه كما لأخافه *

(٢) سبق نظيره فى الحماسية ٢٧٧ فى قول البراء بن ربعى :

ثمانية كانوا ذؤابة قومهم ... بهم كنت أعطى ما أشاء وأمنع

إعطاءه، وأمنع ما أهداه معه، مدّة عيشهم، وزمنَ بقائهم. ويقال: عشت عَيْشاً ومَعاشا. والمَعِيش والمَعِيشة والمَعَاش. اسمُ ما يُعاش به. ويقال هو عائشٌ أي حاله حسنة.

٤ — فلِمَن أَقولُ إذا تُلِمُّ مُلِمَّـةٌ أَرِنِي بِرأيك أم إلى مَنْ أَفْزَعُ
٥ — فلْيأْتِيَنَّ عليـكَ يومٌ مَرَّةً يُبْـكَى عليك مُقَنَّعًا لا تَسْمَعُ(١)

قوله «فلمَنْ أقولُ إذا تلمُّ ملمة» كلامُ من سلبه القَدَر إخوانَه، وقصَّ جناحه فأعياهُ طيرانُه(٢)، فمتى طرقَهُ حادثٌ أو ألمّ بساحته من الدّهر نائبٌ لم يكنْ له مَن يرجعُ إليه مستشيراً، أو يقتبس من نور رأيِه مستضيئاً، ولا وجَدَ مَن يستدفِـع به البلاءَ أو يستَعْديه على مهتضِمه، فيصرِفُ بقوّته عن نفسه العَداء فيبقى أَسيرَ الغِيَر، وقيذَ الفكر(٣). ومعنى «أرِنِي برأيك» أرشِدْني برأيك، واهدِني بنظَرك. وقد حذف المفعول الثانى لقوله أرنى، والمراد أرِنى الصّوابَ أو وجْه الأمرِ برأيك. ويقال: رأيْتُ الشّيء بعيني رُؤْيةً ورأْيا، ورأيته بقلبي رأيا لا غير. فأمّا قولُ زُهير:

فقال أميرى ما تَرَى رَأْيَ ما تَرَى أَنَخْتِلُه عن نفسه أم نُصَاوِلُه(٤)

فالمراد به ما تَرَى رأيَ أيِّ الأمرين ترى. فما ترى سؤالٌ عن جُملة الرّأى ورَأْيَ ما تَرَى سؤالٌ على طريق التّفصيل، وقد بيّنه بقوله أنختله أم نصاوله. وقوله «إلى مَن أفزع» يقال فَزِعت إلى فلان أفزع، إذا التجأتَ إليه؛ وهو

(١) أخذه من قول متمم بن نويرة فى البيت ٤٥ من المفضلية ٩.
(٢) فى نسخة الأصل: «فأعيا طيرانه»، وأثبتنا ما فى ل.
(٣) كذا فى النسختين. والوقيذ: المغشى عليه، والذى يضرب حتى يشرف على الموت. وقذ، فهو موقوذ ووقيذ.
(٤) رواية الديوان ١٣٢: «ما ترى رأى ما نرى». وفى شرحه: «أميره: الذى يؤامره. ما ترى رأى ما نرى فى الصيد، أى قد رأينا كذا وكذا فما ترى فيه».

لنا مَفْزَع ، أى نفزَعُ إليه . وفى ضدِّه يقال : هو لنا مَفزعةٌ ، أى نفزع منه . ويَستوِى فيه الواحد والتثنية والجمع ، والمذكَّر والمؤنث .

وقوله « فلَيأتينَّ عليك يومٌ مَرّةً » خِطابٌ لنفسه . وقد ألمَّ بقول الآخر (١) :

* وإخالُ أنِّى لاحِقٌ مُسْتَتْبَعُ (٢) *

يريد أن أجَله قد قرُبَ ولا بقاءَ للرُّوح على ما يمارسه ويزاولُه . وأشاد بقوله « يومٌ » إلى وقت النَّازلة . ويقال فعل كذا مَرًّا ومَرَّيْن كما تقول مرّةً ومرتين ، و « مقنَّعا » انتصب على الحال من قوله « يُبكَى عليك » ومعناه مُسَجًّى مستور الوجه . ولا تَسمع فى موضع الصِّفة لقوله مقنّعا ، أى مقنعا غير سامع عَولةَ الباكِى . و « ليأتينَّ » جواب يَمينٍ مضمرة ، ويُبكَى عليك فى موضع الصِّفة ليومٌ ، أى يومٌ يُبكَى عليك فيه ، أو يُبكاهُ عليك إن قدّرته تقدير المفعول به . ومثله : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ﴾ ، وقد مرَّ القول فيه (٣) .

٣٢٩

وقال يزيد بن عَمْرٍو الطائىّ (٤) :

١ – أصابَ الغَليلُ عَبرتِى فأسالَها وعادَ احتمامُ ليالــتى فأطالَها

٢ – ألاَ مَن رأى قومى كأنّ رِجالَهُمْ نَخِيلٌ أتاها عاضدٌ فأمالَها (٥)

الغَليل : حرارةُ الجَوف ، يقال به غُلّة . والاحتمام : القَلَق والانزعاج ، يقال أحمَّنى الأمرُ إحماما . والعاضد : قاطع النَّخل ، والذى يُقطَع به يقال له

(١) هو أبو ذؤيب الهذلى . ديوان الهذليين (١ : ٢) ، والمفضليات (٢ : ٢٢١) .

(٢) صدره : * فغبرت بعدهم بعيش ناصب *

(٣) انظر ما مضى فى ص ٣٣ .

(٤) لم أعثر له على ترجمة .

(٥) التبريزى : « من رأى قوما » . وقال : « قال أبو العلاء : إذا رويت : أتاها عاصف فأمالها ، فهى من عصف الريح » .

المَعْضَد . فيقول : تناهَى حَمْىُ جَوفى وغُلّة كبِدى ، فأسَلْتُ دمعى إطفاء لنائرتها ، وعاد قاقُ ليلتى ، وطار النَّومُ عنِّى فطال له ليلتى . وقوله « احتمام ليلتى » أضاف الاحتمامَ إلى ليلته لـكونه فيها ، ولاجتماع الوساوس عليه ، لتَفرُّدِه عما يشتغل به . ويروى : « احتمامى ليلتى » ، ويكون ليلتى فى موضع الظَّرف ، يريد احتمامى فى ليلتى . وإنما قال احتمامُ ليلتى لمـا كان تقدَّمَ من مصائبه فى عشيرته .

وقوله « ألاَ مَن رأَى قومى » لفظه استفهام ، والمعنى معنى التوجُّع . وقد يأتون به على الخطـاب هل رأيتَ قومى ؟ كأنَّ هذه الرُّؤيةَ مستنـكَرة فهو يَستثبِت . وقوله « كأن رجالَهم نَخيلٌ » شبَّههم وقد صُرِعوا بنخيلٍ معضودة . وهذا التشبيه ورَد مثلُه فى القرآن ، فى قوله تعالى : ﴿ كأنَّهُمْ أعجـازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ ﴾ . وجملةُ المعنى كأنّه يُنـكِر أن يكون قومُه بهذه الصِّفة ، فقال مستثبِتاً على طريق التحسُّر : مَن رأَى قومى مَقتَّلين مُصرَّعين كأنّ فُرسانَهم نخيـلٌ قَصَدها عاضدٌ فأمالها . وفائدة أَمَالَها ، على فصاحته فى هذا الموضع ، تصويرُ حالة الرِّجال حِينَ تُرِكوا بالعَرَاء كيف تُرِكوا .

٣ — أُدَفِّنُ قَتلاها وآسُو جِراحَها   وأَعلَمُ أن لا زَيْغَ عمَّا مُنَى لَهـا
٤ — وقائلةٍ مَنْ أَمَّها طالَ ليْـلُهُ   يزيدُ بن عمْرٍو أمَّها واهتَدَى لهـا

وَصف حالتَه وما مُنى به فى ذَوِيه وعشـيرته ، وكيف تَولَّى من المقتولين دفْنَهم ، ومن المجروحين أَسْوهم ، لأنّه إذا احتاج إلى تولِّى ذلك منهم كان أشقَى له وأعْودَ بالـكَمَد عليه . وقوله « وأعلَمُ أن لا زَيْغَ عمـا مُنَى لها » رِضاً منه بمحتوم القضاء ، وإظهارٌ للتصبُّر فى البلاء ، وتحسُّر على ما فاتَه من القوم فى حالتَى الشِّدّة والرَّخاء . ومُنَى لها ، يعنى قدِّر لها ، وأصله مُنِيَ ، فأخرجه على لغتِهِ ، لأنّهم يفرُّون من الـكسرة وبعدها ياء إلى الفتحة ، فتنقلب الياء ألفاً . والزَّيغ :

الميل والانحراف . وقوله « أن لا زَيْغَ » أن فيه مخففة من الثقيلة ، أراد أنّه لا زَيْغَ . والضمير فى أنّه للأمر والشأن ، ولا زيغ فى موضع خبر أنْ .

وقوله « وقائلةٍ مَنْ أمّها » مَن فى موضع المبتدأ ، وطال ليله فى موضع الخبر ، كأنّه قال : الذى أمّها طال ليلُه . ويزيد بن عمرو مبتدأ آخر وأمّها فى موضع الخبر ، وهو استئناف كلامٍ منقطع عما قبله . ويعنى بيزيد بن عمرٍو نفسَه .

وروى الأثرم هذه الأبياتَ عنْ أبى عُبيدةَ للنابغة الذُّبيانىّ ، وأثبتَها فى ديوانه وقد غيّر أبياتَه ترتيباً ولفظا ، وقال : إنما هو زياد بن عمرو؛ لأنّ اسم النابغة زياد[1] ، وزعم أنّه قالها فى وقعة طَيِّئٍ يومَ «شَرَاف[2]» ، غزاهم حِصن بن حُذَيفة ومعه النابغة ، فالتقوا بشَرَاف . والناسبون كالكلبىّ والشَّيبانىّ واليَربوعىّ والأصمعىّ ، ذكروا أنّ النابغة هو زياد بن معاوية بن جابر بن ضِباب بن يربوع ابن غَيظ بن مُرّة . وأبو تمّامٍ نسبها إلى يزيد بن عمرٍو الطائىّ . وفى ألفاظ هذه الأبياتِ على مارواه أبو تمّامٍ شاهدُ صدقٍ على أنّه ليزيد لاللنابغة. والله أعلم .

ومعنى البيت : رُبَّ امرأةٍ قالت متوجِّعةً متحسّرة : من قَصَد هؤلاء المقتولين ، ووُفِّق فى الاهتداء فقد أُطيلَ ليلُه ، لأنه يردُ منهم على ما يَجْرح القلب ويُطيلُ السَّهرَ . ثم قال يزيدُ بن عمرٍو : أنا الشقىُّ الذى أمّها واهتدى لها ، مجيباً للقائلة . وفائدة اهتدى أنّ الموضع الذى قُتلوا فيه كان كالملتَبِس عليهم ، فصار هو الطّالبَ له ، والمهتَدِىَ إليه ، والمنبِّه عليه . وانجرّ « وقائلةٍ » بإضمار ربَّ ، وجوابه مَنْ أمّها ، والجملة فى موضع المفعول لقائلة . وقد تعرّى قائلة من صفةٍ لها ، وأكثر ما يجىء المجرور برُبَّ يجىء موصوفا .

(١) انظر الحيوان (٥ : ٥٥٥) حيث أنشد الجاحظ البيت منسوبا إلى النابغة برواية :

وقائلة من أمها واهتدى لها زياد بن عمرو أمها واهتدى لها

(٢) يقال بالبناء على الكسر كقطام ، وبالإعراب مع التنوين وعدمه . معجم ما استعجم .

٣٣٠

وقال قَسَامُ بن رَوَاحَةَ السِّنْبِسىّ[١] :

١ – لَبِئْسَ نصيبُ القوم من أَخَوَيْهِمُ ... طِرادُ الحواشى واستراقُ النَّواضِحِ

٢ – وما زال من قتلَى رَزَاحٍ بِعَالِجٍ ... دَمٌ ناقِعٌ أو جاسِدٌ غيرُ مَاصِحِ

أخويهم يريد صاحبيهم . والعرب تقول : يأخا بكرٍ ، يريد[٢] واحداً من بنى بكر . والحواشى : صغار الإبل ورُذالُها . والنَّواضح : التى يُستقى عليها الماء ، واحدتها ناضحة . وسمِّيت بذلك لأنّه جُعِل الفعلُ لها كأنّها هى التى تنضح الزِّراعاتِ والنَّخيل . وهم يسمُّون الأكّار النَّضَّاح . على ذلك قول الهُذَلِىّ[٣] :

هَبَطْنَ بطنَ رُهَاطٍ واعتَصَبْنَ كما ... يَسقِى الجذوعَ خِلالَ الدُّورِ نَضَّاحُ

فيقول : مذمومٌ فى أنصباءِ القومِ مِن صاحبَين لهم يُقتلانِ طردُ الإبل وسَوقُها ، وسرقة البُعران التى يُسْتَقَى عليها . وإنما جعل الطَّرائدَ حواشىَ الإبلِ ونواضحها إزراءً بها ، كما قالت كَبْشَةُ أختُ عمرو بن مَعديكرِبَ :

* ولا تأخُذوا مِنهمْ إفالاً وأبْكُرا[٤] *

يعنى فى الدِّية . وهذا تعريضٌ بمن وجَب عليه أن يُهمّه طلبُ دمِ صاحبهم

---

(١) التبريزى وابن جنى : « قسامة » بالتاء . وقد ورد برواية المرزوقى فى المؤتلف ٢٢٧ ، والمرزبانى ٣٤٠ حيث رويا أبيات هذه الحماسية ، أى « قسام » . لكن البغدادى فى الخزانة : (٤ : ٨٨) قال : وهو فى بعض نسخ الحماسة قسام بن رواحة ، وفى بعض آخر منها قسامة بزيادة الهاء . ثم نقل نسبه من جمهرة الأنساب : قسامة الشاعر بن رواحة بن جل بن حق ابن ربيعة بن عبد رضا بن ود بن ود بن معن بن عتود بن عنين بن سلامان بن ثعل بن عمرو بن الغوث بن طيىء . قال البغدادى : « ولم أر فى نسبه لاسنبسا ولا عنبسا » وهو شاعر جاهلى .

(٢) كذا فى النسختين ، أى يريد القائل .

(٣) هو أبو ذؤيب . ديوان الهذليين (١ : ٤٦) .

(٤) من الحماسية ٥٢ ص ٢١٧ . وعجزه :

* وأترك فى بيت بصعدة مظلم *

فاقتصر من الأعداء على الغارة عليهم ، وسَرِقة الإبل منهم . وفيه هُزُوٌ أيضاً ، وبَعْثٌ على طلب الدّم .

وقوله « وما زالَ مِنْ قَتْلَى رِزَاح بعالجٍ دَمٌ ناقع » فالنّاقع : الثّابت ، مصدره النُّقوع . والماصحُ ، قال الخليل : هو الرّاسخ فى الثرى ، وهو هاهنا الذّليل ، والدارس . يقال مَصَحتِ الدّار إذا دَرَست ، ومَصح الظّلُّ ، إذا قصُر . قال الأعشى :

* إذا الآلُ مَصَحْ[1] *

وهذا الكلام تذكيرٌ بدماء قتلاهم . ورملُ عالجٍ : موضعٌ معروف . ورَزَاح : قبيلة . فيقول : ولا يزال من مقتولِى هذه القبيلة بهذا المكان دمٌ ثابت ، أو يابسٌ غير زائل . والمعنى أنّ دماءهم بحالها ما لم يثأروا بهم ؛ لأنّ غَسْلَ تلك الدّماء إنما يكون بما يُصَبُّ من دماء أعدائهم .

٣ــ دَعَا الطَّيْرَ حَتَّى أَقبَلَتْ مِنْ ضَرِيّةٍ دَوَاعِى دَمٍ مُهْرَاقُهُ غيرُ بَارِحِ[2]

لم يَرْضَ بما ذكره فى البيت المتقدِّم من التّذكير بدماء المقتولين حتّى بَسطَ القولَ فيه وجَنّحه بأن قال : دعا دواعى دمائهم طيورَ الأماكِن النّائيةِ والجبالِ المُطِلّةِ ، حتى أقبلَتْ من ضَرِيّة ــ وهو اسم بلادٍ تشتمل على جبَالٍ ــ عَوَافى سباعِها وطيورِها تَستدِلُّ بها ، فوقعت عليها تأكل من جِيَفها . ويجوز أن يريد بالدّواعى الرِّياحَ الذّاهبة فى الأقطار . وقوله « مُهراقُهُ غيرُ بارح » أى هو مصبوبٌ موضعَه لم يَحُل ولم يَزُلْ . وأعاد المعنى تفظيعاً ، ويجوز أن يريد بقوله « مهراقُه » الموضعَ المصبوبَ فيه الدّم ، كأنّه يستشهد به فقال : هو غير بارح . وقال مُهراقُهُ والأصل

(١) البيت بتمامه فى ديوانه ١٦١ :

ولقد أجلم حبلى عامداً بعفرناة إذا الآل مصح

(٢) فى المؤتلف : « غير نازح » .

مُهراقٌ فيه . وإنما قلنا هذا ليكون بين هذا وبين قوله « دم ناقع أو جاسد غير ماصِح » فصْل . والكلامُ يشتمل على ما يُطَرِّى المصيبة ويهيِّج الفجيعة ، ويصوِّر مَصرعَ القوم بما يأتيه من عوافى الطَّير . وفيه بعثٌ شديد وحضٌّ بليغٌ على طلب الدّم .

٤— عَسَى طَيِّئٌ مِنْ طَيِّئٍ بَعْدَ هذِهِ سَتُطفِى غُلاَّتِ الكُلَى والجوانِحِ

عسى لفظه وُضِعت للتَّرجِّى والتأميل ، إلاَّ أنَّها تؤذِن بأنّ الفعل مستقبَلٌ مطموع فيه ، فيجب أن يُستأنَى له ، وإن كانت من أفعال المقاربة . وبهذا يَبِين عن لفظة « كاد » لأنّ كاد لمشارفة الفعل فهو يلى الفعل بنفسه تقول كاد زَيْدٌ يفعل كذا ، وعسى يَحُولُ بينه وبين الفعل أنْ ، يدُلّك على هذا أنّه قال « سَتُطفِئُ غُلاَّت الكُلَى والجوانح » . لمّا كان من شَرط عسى أن يجىء بعده أنْ إيذاناً بالاستقبال جَعَل هذا بدل أنْ السِّينَ ، لأنّه أشهر فى الدّلالة على الاستقبال ، وإنّما قال « عسى طَيِّئٌ من طيِّئٍ » لأنّ الجذاب الذى أشار إليه والقتالَ ، كان بينَ بطنَينِ منهما . وقوله « بعد هذه » أشار إلى الحالة الحاضرة ، الجامعةِ لكلٍّ ما ذَكره . والجوانح : جمع جانحة ، وهى الضُّلوع القِصار . والمعنى : المطموع فيه من أولياء الدَّم أن يطلبوا الثّأر فى المستقبل ، وإن كانوا أخّروه إلى هذه الغاية ، فتسكنَ نفوسٌ وتَبرُدَ قلوب . وقد آلَمَ بهذا الكلام كل الإيلام ، لِمَا خَتَم به كلامَه المتقدِّم .

وأبلغ من هذا قول الآخر ، وهو فى طريقته :

وإنى لَرَاجِيكُم على بُطْءِ سعيكُمْ كما فى بطونِ الحاملاتِ رَجاء

٣٣١

وقال سُليمان بن قَتَّةَ العَدَوىّ[١] :

١ — مَرَرْتُ على أبياتِ آلِ مُحَمَّدٍ فلم أَرَها أمثالَها يومَ حُلَّتِ
٢ — فلاَ يُبْعِدُ اللهُ الدِّيارَ وأهْلَها وإنْ أصبحَت منهم برغْمِى تخلَّتِ

الآلُ عند أصحابنا البصريِّين والأهلُ واحد ، ويدلُّ على ذلك أن تصغير الآل أُهَيْل ، كما أنّ تصغير الأهل أُهَيْل . وأخبرنا الفرّاء عن الكسائى أنّه قال : سمعت أعرابيًّا فصيحا يقول : أُهَيْلٌ وأُهَيْـلٌ ، وآلٌ وأُوَيْلٌ ، قال أبو العبّاس ثعلب : فقد صار أصلين لمعنيين ، لا كما قال أهل البصرة ؛ وحكى أبو عُمَر الزّاهدُ عن ثعلبٍ أنّ الأهل القَرابة ، كان لها تابعٌ أو لم يكن ، والآل : القرابة بتابِعها . قال : ولهذا أجودُ الصلوات على النبى صلى الله عليه وسلم وأفضلُها : اللهمّ صلّ على محمدٍ وعلى آل محمد : وقد ورد فيه التوقيف . رُوى أن أمير المؤمنين عليه السلام سأل النبىّ صلوات الله عليه : كيف الصلاة عليك؟ قال : « قولوا اللهمّ صلِّ على محمدٍ وعلى آل محمد » .

وقوله « فلم أرها أمثالَها يومَ حُلَّتِ » ، يريد أنها قد ظهر عليها من آثار الفَجْع والمصيبة ما صارت له وحْشاً ، فحالُها فى ظهور الجزَع عليها ليست كحالها فى السُّرور أيّامَ حَلُّوها . فهو مثل قول الآخر :

بَكَتْ دارُهم من فَقْدِهم فتهلّلت دُموعى فأىَّ الجازعَينِ أَلُومُ

---

(١) ذكره ابن قتيبة فى مقدمة الشعراء ٦ باسم « سليمان بن قتة التيمى المحدث » . وفى حواشي بعض أصوله : « ابن قتة هذا عدوى ، وهو أول من رثى أهل البيت » . وذكره الطبرى فى تاريخه (٨ : ٢٤٨) باسم « سليمان بن قتة مولى بنى تيم بن مرة » وذكر أنه كان صديقاً لأسد بن عبد الله القسرى الذى توفى سنة ١٢٠ . وروى له أبو الفرج شعراً فى (١٧ : ١٦٥) . وذكر التبريزى أن البرقى روى هذه المقطوعة لأبى رمح الخزاعى .

أمُستعبرٌ يَبكِى من الهُونِ والبِلَى أمَ اَخَرُ يبكى شَجْوَه ويَهيمُ

وقد سلك محمّد بن وُهَيْب مثلَ هذا فى مديحة فى المأمون أوّلها:

طَلَلانِ طال عليهما الأمَدُ دَرَسَا فلا عَلَمٌ ولا نَضَدُ[(١)]

لَبِسَا البِلَى فكأنّما وَجَدَا بَعْدَ الأحبّةِ مثلَ ما أجِدُ

وسلك أبو تمّام هذا المسلكَ فزاد عليهم كلّهم، لأنّه قال:

قد أقسَمَ الرّبْعُ أنّ البَيْنَ فاجَعُهُ أنْ لم تحُلَّ به عَفراءُ عن عُفُرِ

وقوله «فلا يُبعِدِ الله الدّيارَ وأهلها» فيه دلالةٌ على أنّه جعل الدار وحالَها كالمفقودِين وأحوالِهم، إذ كانت لفظة لا تَبْعَدْ ولا يُبعِدِ الله يستعمَل فى الفائت. وقوله «وإن أصبحَتْ منهم برَغْمِى تخلّتِ» تحسُّرٌ على أهل الدار والدار جميعًا.

٣— ألاَ إنّ قَتلَى الطَّفِّ من آلِ هاشمٍ أذَلّتْ رِقابَ المسلمينَ فذَلّتِ

٤— وكانوا غِياثًا ثم أضْحَوْا رزيّةً ألاَ عَظُمَتْ تلكَ الرّزايا وجَلّتِ

قَتلَى الطفِّ[(٢)]: الحسينُ ومن مَعَه من ذويه عليه السلام. وقوله «أذلّت رقابَ المسلمين فذلّت» كأنّها لما أذِلّتْ، بأن بُغِىَ لعترة رسول الله صلى الله عليه وسلم وولدِه عليه السلامُ الغوائلُ، واستُحِلَّ منهم المحارمُ، ونِيلَ منهم ما كان محظوراً من غيرهم من المسلمين، فكيف منهم، وقُهِروا على حقوقهم واستُبيحت دماؤهم وحُرَمهم — التزَمَتْ رقابُهم ذلك الذّلّ فأقرّتْ به وخضعت له ولبستْه لبسةَ مَن كان ذلك نصيبَه من مَواليه، فصاروا كالراضين [به[(٣)]] وإن لم يكن ذلك رِضًا. وقوله «وكانوا غياثًا» يُريد أنهم كانوا للمسلمين غَوْثًا

(١) من أبيات فى الأغانى (١٧ : ١٤٧ — ١٤٨).

(٢) الطف: أرض من ضاحية الكوفة فى طريق البرية.

(٣) هذه من ل.

عندما يَنزِل بهم فلا يرجون لمُلِمِّهم دِيناً ودُنيا غيرهم ، فلمّا نِيلَ منهم ما نيل صاروا رزيئةً لهم كلِّهم ، لأنّه بحسَب رجائهم كان فيهم ، وعلى مقدار مكانتهم من قلوبهم صار نوازِلُ الغمِّ تَنـكِي فيهم ، وفواقِرُ الرُّزْء تكسِر ظهورَهم .

وقولُه « ألا عَظُمَت تلك الرَّزايا وجَلَّتِ » التفات ، كأنّه أقبلَ مُسْتكبِرًا ومُستفظِعًا على مَن حوله فقال : ما أعظَمَ هذه الرزايا وما أجلَّها ، لقد بلغَت مَبلَغًا شنيعًا ، وافترّت عن البلايا افترارًا قبيحًا ، فيالَها ما أنكاها وأقرَحَها .

٣٣٢

وقالت قُتَيْلَةُ بنتُ النَّضْر بن الحارث(١)

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل أباها صَبرًا(٢) :

١ — يا رَاكِبًا إنّ الأُثَيْـلَ مَظِنَّةٌ من صُبْحِ خامِسَةٍ وأنتَ مُوَفَّقُ(٣)

الأُثيل : موضعٌ كان فيه قبر النَّضر ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم تأذَّى به فقتله صَبْرًا ، وكان من جملة أذاه أنّه كان يقرأ الكتبَ في أخبار العجَم على

(١) كذا في الإصابة ٨٨٤ من قسم النساء ومعجم البلدان (الأثيل) وحماسة البحترى ٤٣٤ والعمدة (١ : ٣٠) . قال البحترى : « وكانت حازمة ذات رأى وجمال ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يتزوجها حتى كان من أبيها ما كان » . وذكر ابن إسحاق في السيرة ٣٥٩ وأبو الفرج (١ : ٩) والحصرى (١ : ٢٧) أنها « قتيلة بنت الحارث » فهى على هذا القول أخت النضر لا بنته . وقال أبو الفرج في الأغانى : « فيقال إن شعرها أكرم شعر موتور وأعفه وأكفه وأحلمه » .

(٢) هذا على القول بأنها بنت النضر . وأما على القول الآخر فإنها أخته . ومهما يكن فإن مقتل النضر بن الحارث كان يوم مرجع النبى صلى الله عليه وسلم من بدر ، أمر عليا أن يضرب عنقه صبراً ، وهو بالصفراء .

(٣) نسب الجاحظ هذه الأبيات إلى ليلى بنت النضر في البيان (٤ : ٤٣) وذكر أنها عرضت للنبى صلى الله عليه وسلم وهو يطوف بالبيت واستوقفته وجذبت رداءه حتى انكشف منكبه ، وأنشدته شعرها بعد مقتل أبيها ، قال صلى الله عليه وسلم : « لو كنت سمعت شعرها هذا ما قتلته » .

العرب ، ويقول : محمدٌ يأتيكم بأخبار عادٍ وثمود ، وأنا منبِّئكم بأخبار الأكاسرة والقياصرة . يريد بذلك القَدْح فى نبُوَّته ، وأنَّه إنْ جاز أن يكون ذلك نبيًّا لإتيانه بقِصص الأمم السَّالفة فإنِّى وقد أُتيت بمثلها رسولٌ أيضاً . وذكر ابنُ عبَّاسٍ فى قوله تعالى : ﴿ ومِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ الحدِيث ﴾ ، أنَّها نزلت فى النَّضر بن الحارث الدَّارِىّ[1] ، وكان يشترى كتبَ الأعاجم فارسَ والرُّوم ، وكُتُبَ أهلِ الحيرة ، فيحدِّث بها أهلَ مكَّة ، وإذا سمع القرآنَ أعرَض واستهزأ به . وقُتَيلةُ ابنتُه لمَّا جاءت إلى حضرة النبى صلى الله عليه وسلم وأنشدَتْه هذه الأبياتَ رَقَّ لها النبىُّ صلّى الله عليه وسلم وبكى . وقال : « لو جئتِنى من قبلُ لعفَوْت عنه » ، ثم قال : « لا يُقتَلُ قرشىٌّ بعد هذا صَبراً » . فأمَّا قولها « يا راكباً » فإنها دَعَتْ واحداً من الرُّكبان غيرَ معيَّن ، فكلُّ من كان يجيبها منهم كان هو المدعوّ . والمَظِنَّةُ : المنزِل المَعْلَم . وقولها « من صبح خامسَةٍ » تريد من صبح ليلة خامسةٍ لليلة التى تبتدئ فى السَّير منها إلى الأُثَيل وأنتَ على الطَّريق غيرُ عادلٍ منها . وإنما تُرِيدُ أن تقول : إذا كان ابتداء السَّير من موضعها يكون انتهاؤه فى أُثَيل من سَيْرٍ يحصُل فى صباح ليلةٍ خامسة لليلتها . ومن قولهم[2] : إذا خَرجْتَ عن مكانٍ كذا فموضعُ كذا مَنْزِلٌ قَمِنٌ منك ضَحْوَةَ غَدٍ ، وموضعُ كذا مظِنَّةٌ من عشيَّة يوم كذا . وعلى هذا الوجه قولُ الآخر :

يَسِطُ البيوتَ لكى يَكونَ مَظِنَّةً ... من حَيْثُ تُوضَعُ جَفْنَةُ المُسترفِدِ

وإن كان الأوَّل فى الزَّمان وهذا فى المكان .

---

(١) ذكر فى الإصابة ٨٧٠٥ أنه النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد الدار القرشى العبدرى .

(٢) ل : « ومن كلامهم » .

٢ — بَلِّغْ به مَيْتاً فإنّ تَحِيَّةً ما إنْ تَزَالُ بها الرَّكائبُ تَخْفِقُ

٣ — مِنِّى إليه وعَبْرَةً مَسْفُوحَةً جَادَتْ لِمَائِحِها وأُخْرَى تَخْنُقُ

هذا هو الرِّسالةُ التى تُرِيدُ أن تُحمِّلها الراكبَ ، تريد : يا راكباً بَلِّغ بهذا المكان ، إذا أتيتَه ، مقبوراً فيه تحيّتى ، فإنّ التَّحيات أبداً تخفِق بها الرَّكائب وتُبلِّغ أربابها . والخَفْقُ . الاضطراب . ومفعول بَلِّغ الثّانى محذوف ، لأنّ قولها « فإنّ تحيَّةً » يدلُّ عليه .

وقولُها « منِّى إليه » يتعلّق بفعلٍ مضمَر قد دَلّ عليه بَلِّغْ ، كأنّه قال : أوصِلْ إليه منى تحيَّة ، وأدِّ منِّى تحية ، لأنّ جميعَ ذلك معناه بلِّغْه عنِّى . وقولها « وعبرةً مسفوحَةً » معطوف على المفعول المضمَر الذى أظهرته . والمسفوحة : المصبوبة . وقولها : « جادت لمائحِها » أى أجابت داعِيَها وساعدت مُستقيها . وقولُها « وأخرى تَخنُقُ » معطوف على عَبْرَةً ، كأنّها قالت : وأدِّ إليه أيضا عبرةً قد خنقَتْنى وهى فى الطّريق لم تُوجَد . وهذا الكلام يشتمل على اقتصاصِ حالِها ، وعلى ما فى نفسها من الحسَرات وآلام الفجيعة . والرَّكائب : جمع رَكوبة ، وهى مفردةٌ عن الموصوف ، لا يقال ناقة رَكوبة ، وكذلك حَلوبة وقَتوبةٌ . وقولها « جادت لمائحها » فى موضع الصِّفة لعَبرة ، كما أنّ تخنُق فى موضع الصِّفة الأخرى . والمعنى : بلِّغْه عنِّى تحيَّة وأعلِمه من حالى بكاءً يتّصلُ ولا ينقطع ، ودمعاً يُساعِد ولا يَخذُل ، فمن سائلٍ مَسفوحٍ ، ومن خانقٍ مَدفوعٍ . وجادت من الجَوْدِ . ولك أن تَروِى « لمائحها » و « لمَاتِحها » . والماتح أبلغ ، لأنّ المَتْح الاستقاء ، والمَيْح أن تُدخَلَ البئرُ ليُملأَ الدَّلوُ إذا قلّ الماء . والذى يدلُّ على قلّة الدَّمع والجهدِ فى إسالته يكون أجودَ فى الرواية .

٤ — فلَيَسْمَعَنّ النَّضرُ إن نادَيْتَهُ إن كان يَسْمَعُ مَيِّتٌ أو يَنطِقُ

قولها « إن ناديْتَهُ » شَرْطٌ وجوابه ما دَلَّ عليه ليسمعَنَّ ، وكذلك قولها « إن كان يسمَعُ ميِّت » شرط ثان وجوابه يدلُّ عليه ليسمعَنَّ . وترتيب الكلام إذا جاء على وجهه . إن ناديتَ النَّضر وقد أتيتَه عنِّي فليسمعنَّ نداءكَ ولَيُجيبنَّكَ إن كان الميِّت يسمع أو ينطِق . وقولُها « ليسمعنَّ » جواب يمين مضمرة ودَلَّ على ليجيبَنَّك أيضاً ، لأنَّ مَن صحّ فيه السَّمع إذا دُعِيَ صَحّ منه الجواب . وقد يقول الإنسانُ وقد سُئل شيئاً : السَّمْعُ والطَّاعة ، والمفهوم فيه : إنِّي أجيبُك إلى ملتَمَسك . ويريد به الفعلَ لا سماعَ سؤالِه من دونِ الفعل .

٥ – ظَلَّتْ سُيُوفُ بنى أبيهِ تَنُوشُهُ ... لِلّهِ أرحامٌ هُناكَ تَشَــقّقُ

٦ – أمُحَمَّدٌ ولأنتَ نَجْلُ نَجيبةٍ ... مِنْ قومِها والفَحْلُ فَحْلٌ مُعْرِقُ

٧ – ما كانَ ضَرَّكَ لو مَنَنْتَ ورُبَّما ... مَنَّ الفَتَى وهو المَغِيظُ المُحْنَقُ

٨ – والنَّضْرُ أقرَبُ مَنْ أصَبْتَ وسيلةً ... وأحَقُّهم إنْ كانَ عِتْقٌ يُعْتَقُ

قولها « ظَلَّت سيوفُ بنى أبيه تنوشُه » تحسُّرٌ منها لما جَرَى على أبيها[1] ، تريد : صارت سيوفُ إخوانه تتناولُه بعد أن كانت تَذُبُّ عنه ، وتَضَعُ منه بعد أن كانت ترفعُه ، وتبتذل حُرُماتِه بعد أن كانت تصونُها . ثم قالت كالمستعطِفة والمتعجِّبة . لله أرحامٌ وقَراباتٌ فى ذلك المكان قُطِعَت أسبابها ، وهُتِكت أستارُها .

وقولها « هناك » ظرف ، والكاف كاف الخِطاب ، ويُشار به إلى مكانٍ مُتَراخٍ . وإذا قيل هنالك فزِيد فيه اللامُ كان آكَدَ ، والمشار إليه أبعد . والعامل فى « هناك » تَشَقّقُ ، وهو فى موضع الصِّفة للأرحام . واللام من قولِه « لله » لام التعجُّب . وهم إذا عظَّموا شيئاً نسَبوه إليه تفخيما لأمره جلَّ شأنه .

(١) الكلام بعد « هناك تشقق » ساقط من ل ، وسننبه على نهاية هذا السقط .

وقولها « أمحمدٌ » نوَّنَت المنادَى المفردَ المعرفةَ ضرورةً ، ولو رُدَّ إلى أصله فقيل أمُحمَّدُ لجاز . وسيبويه يختار تركَه على البناء فى هذا المكان وإن نوَّنه للضرورة ، لمشابهة البناء فى هذا المكان الإعراب[1] . ولذلك جاز حمل الصفة عليه . ومثل هذا قول الآخر[2] :

لا نَسَبَ اليَوْمَ ولا خُلَّةً اتَّسَعَ الخَرْقُ على الرَّاقِعِ

فنوّن خَلّة ، والفتح فيه للبناء ، لأنّه مبنىٌّ كمنصوب . وبعضهم روى : « أمحمدٌ ها أنت نَجْلُ نَجيبةٍ » ، فأدخل ها التنبيهِ على الجملة وقد تعرّت من حرف الإشارة . وقد جاء مثلُه . قال النابغة :

ها إنَّها عِذْرَةٌ إلا تكن نَفَعَتْ فإنّ صاحبَها قد تاهَ فى البَلَدِ

والواو من « ولأنت » عاطفة للجملة ومفيدةٌ معنى الحال ، وكذلك الواو من قوله « والفحلُ فحلٌ مُعرِق » . والمعنى : أنت كريمُ الطرفين مُعِمٌّ مُخْوَلٌ . ويقال : هو عريقٌ فى الكرم ، إذا كان متناهياً فيه . وإنما نادته فى هذا البيت واستعطفَتْه مقرِّظة ومُثْنية والمدعُوُّ له قولها : ما ضَرَّك لو مَننت . وهذا الكلام فيه اعترافٌ بالذّنب ، والتزامٌ للنِّعمة والمِنّة فى العفو لوحصل . فتقول : أىُّ شىء كان يضرُّك لو عفوتَ والفتى وإن كان مُغْضَبًا مُضْجَرًا ، منطوياً على حَنَقٍ وعداوةٍ ، قد يَمُنّ ويعفو . هذا إذا جعلت ما استفهاما . ويجوز أن تجعل ما نافية والاستفهام فى مثل هذا الكلام يفيد معنى النفى . وإنما قالت « ربّما » لأنّ الحالة التى أشارت إليها بقولها « المَغِيظ المحنَق » يقل فيها المَنّ ، ورُبَّ للقليل .

---

(١) التبريزى : « إذا نون المنادى العلم فسيبويه يختار رفعه ، وهو مذهب عيسى بن عمر والخليل بن أحمد . وكان أبو عمرو بن العلاء ينصب » . ومثل هذا الكلام عند ابن جنى فى التنبيه .

(٢) هو أنس بن العباس بن مرداس ، أو أبو عامر جد العباس بن مرداس . العينى (٢ : ٣٥٢) .

وقولها « والنَّضر أقربُ مَن أصبتَ وسيلةً » تذكيرٌ منها بما يجمع النبيَّ صلى الله عليه وعلى آله وإيّاه من القُربَى والقرابة . وإنما يَدُلُّ بذلك على وجه الاستحقاق للصَّفح عن الخيانة ، لما يُدِلُّ به من الأسباب المتواشِجة ، والأرحام المتشابكة . وقولها « وأحقُّهم إن كان عِتْقٌ يُعتَق » أرادت : وأحقُّهم بأن يُعتَق إن كان عتقٌ ، أى إن وقَع عِتق ، فحَذَف الباء ، وحروف الجرّ مع أن تُلغَى كثيراً ، ثم حَذَف أنْ ورفَع الفعل ، فهو كقوله :

ألا أيُّهذا الزاجرى أحضرُ الوَغَى وأنْ أشهَدَ اللَّذّاتِ هل أنت مُخْلِدِى(١)

يدلُّ على أنّ أنْ من أحضُر محذوفٌ أنه عطف عليه بأن فقال : « وأن أشهدَ اللّذّات » . وجواب الشرط ، وهو « إن كان عِتقٌ » ، ما يدلُّ عليه « وأحقُّهم » و « أقرب مَن أصَبْتَ » . وكان هذه كان التامّة فلهذا استغنت عن الخبر . والمعنى : والنَّضر أقرب الأُسراء الذين أسرتَهم إليك ، وأحقُّهم بالعِتق إن وقع فِكاكٌ وعِتْق .

٣٣٣

وقال النَّابغة الجَعْدىّ(٢) :

١ ـ فَتًى كانَ يُدْنِيهِ الغِنَى من صَدِيقِهِ إذا ما هو استَغْنَى ويُبْعِدُه الفَقْرُ(٣)

(١) لطرفة بن العبد ، فى معلقته .

(٢) هو عبد الله بن قيس ، من بنى جعدة بن كعب بن ربيعة ، ويكنى أبا ليلى . وهو من مخضرمى الجاهلية والإسلام . ويقال إنه كان أقدم من النابغة الذبيانى . الذبيانى نادم النعمان ، وهذا نادم أباه . قالوا : ومات بأصبهان وهو ابن مائتين وعشرين سنة . الشعراء ٢٤٧ ـ ٢٥٥ والمعمرين ٦٤ ـ ٦٦ وابن سلام ٢٦ ـ ٢٨ والأغانى (٤ : ١٢٧ ـ ١٣٩) والخزانة (١ : ٥٠٩ ـ ٥١٥) والمؤتلف ١٩١ ومعجم المرزبانى ٣٢١ والموشح ٦٤ ـ ٦٧ ، واللآلئ ٢٤٧ والاستيعاب ، وأسد الغابة ، والإصابة .

(٣) كذا ورد هذا البيت . والحق أنه للأبيرد الرياحى كما فى الكامل ١٢٣ ليبسك . ولم يرو التبريزى هذه الحماسية .

هذا مثلُ قول الهُذَلىّ[١] :

أبو مالكٍ قاصِرٌ فقــــرَهُ على نَفْسِهِ ومُشيعٌ غِنـــاء

وأحسن منهما قول الآخر :

إذا افتقَروا عضُّوا على الفقرِ حِسبةً وإن أيْسَرُوا عادُوا سراعًا إلى الفقرِ

٣٣٤

وقال أيضًا :

١ ـــ فَتًى كانَ فِيهِ ما يَسُرُّ صَدِيقَهُ عَلَى أَنَّ فيـــــه ما يَسُوءُ الأعاديا

٢ ـــ فَتًى كَمَلَتْ خَيراتُه غَيْرَ أنَّهُ جَوَادٌ فلا يُبقِى من المال باقِيَا[٢]

لمّا قال : « كان فيه ما يَسُرُّ صديقه » وعَلِم أنَّ فى النّاس مَن يَجمع الخيرَ خالصًا من دون الشَّرِّ خشِىَ أنَّه إنْ سكَتَ على هذه الجملة ظُنَّ به القُصُورُ عن التَّمام ، والوُقوفُ دونَ الكمال ، فلا يكون فيه النِّكايةُ فى الأعداء والإساءة إليهم ، وإذلالُهم وإرغامُهم . ثمّ وصَفَه بأن قال « على أنَّ فيه ما يسوء الأعاديا » وهذا هو النِّهاية فى الكمال ؛ لأنّه إذا عَرَف لأوليائه ما يُوجِب عليه التوفُّرَ عليهم ، وجَميلَ التفقُّد لهم ، وعَرَف لأعدائه ما يُوجب التنقصَ منهم وإذلالَهم ، كان فى ذلك أكملُ الكمال .

وقوله « فَتًى كَمَلت خيراتُه غير أنَّه جواد » هذا استثناء فى نهاية الحُسْن ، فهو كالتأكيد لأوّلِ الكلام ؛ لأنّ كونَه جوادًا لا يكون عيبًا فيُخرجَه من قوله « كَمَلت خيراتُه » ، لـكنّه إذا كان عَيبُه المستثنى من الخيْراتِ الجودَ الذى

(١) هو المتنخل . ديوان الهذليين (٢ : ٣٠) .
(٢) البيتان من قصيدة رثى بها النابغة الجعدى أخاه ، وروى البغدادى فى الخزانة (٢ : ١٢ ــ ١٣) بعض أبياتها .

هو مُؤْثَرٌ عند الله تعالى وعند النَّاس ، فخصالُه المحمودة الباقية ماذا ترى تكون . فهو استثناء منقطع من الأوَّل ، كأنّه قال : كملت خيراته لكنّه جواد . وإذا تأمّلْتَ وجدت البيتَ الثّانىَ مثلَ البيت الأوّل ، فى أنَّه أتبَعَ ثناء بثناء ، وأردَفَ مديحًا بمديح ، فعجُزُ كلٍّ واحدٍ منهما يؤكِّدُ صدرَه ، ويَزيده مُبالغةَ معنًى وتظاهُرَ مبدأ ومُنتهًى . ومثلُهما بيت النابغة :

ولا عيبَ فيهم غيرَ أنَّ سُيوفَهمْ   بِهِنَّ فلُولٌ مِن قِراعِ الكتائبِ

وموضع قوله « فتى » فى البيتين جميعا نصبٌ على الاختصاص ، كأنه قال أَذْكُرُ فتًى هذه صفتُه . ولا يمتنع أن يكون موضعه رفعًا على أن يكون خبر مبتدأ محذوف . فإنْ قيل : ما موضع « على أنّ فيه ما يسوء الأعاديا » من الإعراب ؟ قلتَ : هو يجرى وإن كان جمعًا بين صفتين متضادّتين على أنَّ الثانيةَ كالحال للأولَى ، كأنَّه قال : فيه ما يسرُّ صديقه مركّبا على ما يسوء الأعاديا . وقوله « فما يُبقِى من المال باقيا » تأكيد للجود . وانتصاب « باقيا » يجوز أن يكون على المفعول ، ويجوز أن يكون على المصدر ، وقد وضعَه موضع الإبقاء . ومثلُه :

* كَفَى بالنَّأيِ من أسماء كافِ[1] *

وضع كافٍ موضع كفاية ، وهو مصدرٌ منصوب ، لكنَّه حذف فتحة الإعراب من آخره وإن كانت الفتحة مستخَفَّة ، على طريقة مَنْ قال :

* كأنَّ أيدِيهنَّ بالقاع القَرِقْ[2] *

(١) البيت لبشر بن أبى خازم فى مختارات ابن الشجرى ٧٥ . وعجزه :

* وليس لحبها إذ طال شاف *

(٢) الرجز فى اللسان والمقاييس (قرق) وإصلاح المنطق ٤٦٤ .

٣٣٥

وقال[1] :

١ ـ وأىَّ فَتًى ودَّعتُ يومَ طُوَيْلِعٍ عشيَّةَ سلَّمْنا عليه وسلَّما

٢ ـ رَمَى بصدورِ العِيسِ مُنخرَقَ الصَّبا فلَمْ يَدْرِ خَلْقٌ بعدَها أينَ يَمَّما

٣ ـ فيا جازِىَ الفِتْيانِ بالنِّعَمِ اجْزِهِ بِنُعْماهُ نُعْمَى واعْفُ إن كان أظْلَمَا[2]

انتصب « أىَّ » بودَّعتُ ، والكلام فيه تعجُّبٌ على طريق التفخيم للشأن ، والتعظيم للأمر . وانتصب « عشيَّةَ » على البَدَل من يوم ، والمعنى : ما أجلَّ شأنَ فتًى ودَّعْناه عشيَّةَ شيَّعناه مِن يوم طُوَيلِع ، وقَضَينا فيما بيننا وبينه بَعْدُ حقَّ التوديع ، بأن سلَّمنا عليه وسلَّم هو علينا ، أى قلنا : أصْحَبَكَ اللهُ السلامةَ ، وحفِظَك حيثُ كنتَ ! وقال لنا مثلَ ذلك . وهذا كأنَّه كان تثنيةً للوَدَاع حينئذ ، وتَذْكرةً مِن بَعْدُ من الشاعر . وإرسالُ القَول فيه تحسُّرٌ وتوجُّع . وقوله « وسلَّما » يريد وسَلَّم علينا ، فحذَفَ علينا ويجوز أن يكون أراد بودَّعتُ الوَدَاعَ الذى لاتلاقِىَ بعده . ألا تَرَى أنه يقال للمُفارق : غَيْرَ مُوَدَّعٍ ! أى جعَلَ الله بعده التقاء . وقد كشَفَ عن هذا المعنى طَرَفةُ حيث يقول :

قِفِى وَدِّعينا اليومَ يا ابنةَ مالِكِ وعُوجِى علينا مِن صُدورِ جِمالِكِ

قِفِى لا يكُنْ هذا تَعِلَّةَ ساعةٍ لِبَيْنٍ ولا ذا حَظَّنا من نَوَالِكِ

فإذا جعلتَ ودَّعتُ على هذا ، انفَصلَ معناه عن معنى سلَّمنا عليه وسلَّما . وهذا ظاهر .

---

(١) يفهم من هذا الصنيع أن الشعر للنابغة الجعدى . وفى التبريزى : « وقال آخر » فيكون غيره . وأنشد ياقوت هذه الأبيات فى معجم البلدان (٦ : ٧٣) .

(٢) أظلما ، هذه الرواية التى يقتضيها الشرح . وقد كتبت بخط مخالف لخط الأصل : « مجرما » وهذه الأخيرة هى رواية التبريزى ، قال التبريزى بعدها : ويروى إن كان أظلما » .

وقوله « رَمَى بصدور العِيس منخَرَق الصَّبَا » يريدُ أنه توجَّهَ فى المَفَازة حيث تنخرِق الرِّيحُ ، ورَمَى بصُدور رَوَاحِلِه نحوها ، فلم يُعرَف له بعد ذلك خَبَرٌ ولا أثر . وقوله « أين يَمَّما » موضعُ الجملة من الإعراب نصبٌ على أنَّه مفعول لم يَدْرِ ، كأنه قال : لم يَدْرِ خَاقٌ ما يقتضى هذا السُّؤال . وهذا الكلامُ نهايةٌ فيما يثيره الجَزَعُ من المشفِقِ القَلِق ، ويَدُور فى شكوَى المتولَّه الحَدِب ، لأنه إذا لم يمكنْه الرُّجوعُ إلى شيء بعد جوْلةِ الوداع والافتراق ، إلاَّ إلى صَدْمة اليأس والاكتئاب ، فذاكَ أجلب لِلوَاذِعِ الرَّزيئة ، وأجمعُ لبوارح الشَّكِيَّة .

وقولُه « فيا جازِىَ الفِتيان بالنِّعَم اجزِهِ » دعاء له ، والمعنى أحْسِن إليه بَدَل إحسانه إلى خَلْقِكَ ، وجَزَاء على إنعامِه فى عبادِكَ ، وتجاوَزْ عن سيِّئاته فيما كان فيه ظالما ، وعن الحقِّ والنِّصْف عادِلا . وقوله « كان أظلما » أى كان ظالما . وأفعلُ بمعنى فاعلٍ جاء كثيراً . ومثله :

* فتلك سبيلٌ لستَ فيها بأوحَدِ[(1)] *

وجعل فى الثانى شرطا لأنَّه قال « واعفُ إن كان » وفى الأوَّل لم يأتِ بمثله ليدلَّ على سلامة طريقته من الجَوْر والاهتضام ، وبراءةِ ساحته فى غالب ظنِّه ممَّا يستحق به العقابَ والانتقام . والكلام وإن كان فيه دعاء فهو تحسُّرٌ وتوجُّع . وإنما قلتُ هذا لأنَّ استعمالَ الدُّعاء بعقبِ ما ذَكَر طريقٌ فى إظهار الخيبة لا يكاد يعفِّيها تعاوُر الأحوالِ بالسَّلوة ، ولا يحوِّل عن سلوكها تعاقُبُ الأزمانِ بالمساءةِ والمَسَرَّة .

---

(١) سبق إنشاده وتخريجه فى ص ١٠١ . وصدره :

* تمنى أناس أن أموت وإن أمت *

٣٣٦

وقال شَبيب بن عَوَانة(١):

١ – لِتَبْكِ النساءُ المُعْوِلاتُ بِعَوْلَةٍ أبا حُجُرٍ قامَتْ عليه النوائحُ

٢ – عَقيلَةُ دَلّاهُ لِلَحْدِ ضريحِهِ وأَثوابُهُ يَبرُقْنَ والخِمسُ مَائحُ

٣ – خِدَبٌّ يَضِيقُ السَّرجُ عنه كأنَّما يَمُدُّ رِكابَيْهِ مِن الطُّولِ ماتِحُ

لِتَبْكِ النساء أمرٌ من فعلٍ يدلُّ على الحال. ألا ترى أنّه وصَف النِّساء المأمورات بأنّهن مُعْوِلات. والأمر وإن كان فى الأكثر يُبْنَى على المستقبل يصحُّ أن يبنى على ما للحال، ويراد به الاستدامة والاستمرار فى الفعل. على ذلك قول الله تعالى: ﴿ يٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ﴾. وقوله «بعَوْلَةٍ» تَعَلّق الباء منه بلِتَبْكِ، والمراد أن يكون بكاء المُعْوِلات أبا حُجُرٍ بزيادة عَوْلَةٍ. المُعْوِلات: الصَّائحات، والاسم العَويل. و«قامت عليه النَّوائح» فى موضع الحال وقد مضمَرة، كأنّه قال: لتَبْكِه النِّساء فقد ماتَ والنوائحُ يَنُحْنَ عليه. وهذا كلُّه تفظيع للرَّزيئة، وتنبيهٌ على وجوب البكاء له، وأنّ الزِّيادة فى العَوْلات عليه مُسَوَّغَةٌ، لأنّ فَقْدَ اسمِه غير مُشَاهَدٍ من قبلُ ولا مُعتادٍ.

وقوله «عقيلةُ دَلّاهُ» اقتصاصُ حالِ التجهيز والدَّفن، وأنّها وقعت بمرأى منه ومسمَع، فشَقِي بمزاولَتِها، وكَدِّ لمشاهدتها. وأراد بالأثواب أكفانَه، فجعلها تبرُق لبياضها. والمائح أصله الذى يدخل البئرَ فيغرف الماء فى الدِّلاء إذا قلَّ الماء. وهاهنا أراد الذى يدخل القَبرَ فينظفه ويُصلح ما يجب إصلاحه منه. ودَلّى، أصلُه الإرسال، وتوسّعُوا فيه فقيل: دَلّاه بغُرور، إذا خدعَه. وتدلَّى

(١) العوانة: النخلة الطويلة، أو دابة دون القنفذ، وبها سمى الرجل.

على كذا بالحِيَل . فيقول : عقيلةُ هو الذى أرسلَه للَحْد القبر ، وأكفانُه لبياضها ونظافتها تَلْمَعُ ، والخِمْسُ هو الذى تَوَلَّى من القبر ما تَوَلَّى . وسَوْق كلِّ هذا تفجُّع وتألُّم ، وتذكُّر لما سَخِنت له العين ، وأُحرِقت له الكبد .

وقوله « خِدَبٌّ » هو الكامل الخَلْق التامُّ الأعضاء ، القوىّ السوىّ . لذلك قال « يضيق السَّرجُ عنه » وقوله « كأنَّما يَمُدُّ ركابَيْه » وصفه بامتداد القامة وطول البادَّيْن[1] . ويُحمد من الفارس ذلك . وقوله « كان ماتِحًا » أى مُستَقِيًا ، يَمُدُّ ركابَيْه من بئرٍ لطولها . والخِدَبُّ : الطويل . يقال : إنَّ فى ذلك لَخَدَبًا أى طولًا . وبعيرٌ خِدَبٌّ : ضَخْمٌ شديد .

٣٣٧

وقال[2] :

١ — أبا خالدٍ ما كان أدْهَى مُصيبةً ⠀⠀ أصابت مَعَدًّا يومَ أَصبَحْتَ ثاويا

٢ — لَعَمْرِى لَئِنْ سُرَّ الأعادِى وأظْهَرُوا ⠀⠀ شَماتًا لقد مَرُّوا بِرَبْعِك خاليا

٣ — فإنْ تَكُ أَفْنَتْهُ اللَّيالِى فأوشَكَتْ ⠀⠀ فإنَّ له ذِكْرًا سيُفْنِى اللَّياليا

خاطب المرثىَّ فقال متلهِّفًا : ما أعظَمَ مصيبةً أصيبت بها قبائلُ مَعَدٍّ يومَ فُجِعَتْ بك فأصبحتَ مقيمًا فى مكانٍ لا تَبْرَحُ منه . يُشِيرُ إلى القبْرِ . ويقال : ثَوَى بالمكان وأَثْوَى جميعا . وقوله « أدْهَى » يقال دَهاه كذا يَدْهَاهُ دَهْيًا ودَهْوًا ، إذا أثَّر فيه تأثيراً شديدا وداهِيَةٌ دَهْيَاء ودهواء . والدَّاهية : المنكر من الأمر . فيقول : إنَّ المصيبةَ بك ما أعظَمَها وأنكرها ، فيا لَمَعَدٍّ فقد بُلِيَتْ بها .

وقوله « لعمرى » مبتدأ وخبره محذوف ، و « لئنْ سُرَّ » شَرْطٌ ، واللام

(١) البادان : مثنى باد ، وهو باطن الفخذ .

(٢) التبريزى : « وقال آخر » .

موطِّئةٌ للقَسَم ، وجواب لعَمرى لقد مَرُّوا ، وجواب الشَّرط ما دَلّ عليه هذا الجواب . والمعنى : وبقائى لئن كان الأعادى مسرورين بموتك ، شامتين بذويك وعشيرتك لفقدهم لك ، فقد وقعت الشَّماتةُ فى وقتها وحِينها ، ووافاهم السُّرور لحادثِ أمرٍ عَظُم موقعُه ، لأنَّهم مرُّوا بربعكَ خاليا . والمعنى : أنَّ ما كان ممدودا على ذويك وأوليائك من نطاق الاعتزاز بمكانك ، والاعتلاء بجَدِّك وجدُوِه قاصراً زائلا منقطعا . وانتصب « خاليا » على الحال . وقوله « فإنْ يكُ أفنَتْه اللَّيالى فأوشكت » معنى أوشكت . أسرعَتْ . كأنَّه استقصرَ مدّةَ بقائه . ويجوز أن يكون استقصَرَ مدّةَ علّته . والكلام فى حذف النُّون من إن تكُ فقد تقدَّمَ فى مواضعَ . وقوله « فإنَّ له ذكرًا سيُفنى الليالى » يريد : إنْ كان عمرُه قد انقطَعَ فإنَّ ذكرَه متَّصلٌ بالأبد ، لا تفنيه الأيّام ولا تقطعُه الآماد ، بل هو يُفْنى الأيّام والآماد . ووشْكُ البَين : سرعةُ القطيعة . وتقول : لَوَشْكَانَ ذا ، كما تقول : لَعَجْلان ما كان كذا . ومثله قوله :

فإن تسجُنوا القسرىَّ لا تسجُنوا اسْمَهُ ولا تسجُنوا معروفَه فى القبائلِ[1]

٣٣٨

وقالت امرأةٌ من كِنْدة :

١ــ لاتُخْبِرُوا الناسَ إلاّ أنَّ سيِّدَكُم أسلَمْتُموهُ ولو قاتَلْتُمُ امتَنَعا

٢ــ أنْعَى فتًى لم تَذُرَّ الشَّمسُ طالعةً يومًا من الدَّهرِ إلاّ ضَرَّ أوْ نَفَعا

قوله « لا تُخْبِرُوا الناسَ إلاّ » تهكُّم وسُخريّة ، يشُوبُه تعيير شديد . أى قد ارتكبتم أمراً عظيما بتسليمكم سيِّدَكم ، فاستُرُوا أمرَكم ولا تُنَبِّئوا الناسَ به . وهذا مخاطبةٌ لقومٍ خَذَلوا رئيسَهم ولم يثبُتوا معه ، حتى قُتل . فيقول :

---

(١) البيت ٤ من الحماسية ٣١٤ ص ٩٢٨ .

لو ثبتوا وتابعوا الدافَعَ عن نفسِه وعنهم . وقوله « إلاّ أنّ سيِّدكم » إلاّ بمعنى غير ، فهو منقطعٌ مما قبله . وهذا الاستثناء من المعنى ، كأنه قال : سَلِمْتُم إلاَّ أنّ سيِّدَكم أسلمْتُم .

وقولها « أنعَى فتًى لم تذرَّ الشمسُ طالعةً » انتصب طالعةً على الحال المؤكِّد لما قبلَه . والكوفيُّون يقولون فى مثله : انتصب على القطع . وكما أنّ الحال يجىء مؤكِّداً لما قبلَه تجىء الصِّفةُ أيضاً مؤكِّدة لما قبلَها . ومثال الحال : رأيتُه فى الحمَّام عرياناً ، فعريان حالٌ مؤكِّدة . ومثال الصفة أن تقول : فعلتُ كذا أمسِ الدَّابرَ . وذُرُور الشمس : انتشارُها فى الجوّ . والمعنى : أذكرُ موتَ فتًى لم تطلُع الشمسُ يومًا من أيَّام الدَّهرِ عليه إلاّ وهو ضارٌّ لأعدائه نالكٍ فيهم ، أو نافعٌ لأوليائه مُسْدٍ إليهم . وفى هذا ذهبَ إلى مثل ما قاله عدىّ :

إذا أنتَ لم تنفعْ بوُدِّكَ أهلَه ... ولم تَنْكِ بالبُوسَى عدوَّك فابعَدِ

٣٣٩

وقالت امرأةٌ من بنى أسَدٍ :

١ — خَليلَيَّ عُوجَا إنَّها حاجَةٌ لنا ... على قَبْرِ أهْبَانٍ سَقَتْهُ الرَّوَاعِدُ

تخاطب صاحبين لها تسألها التعريجَ على قبرِ أهبان زائرَيْنِ له ، ومجدِّدَيْنِ العهدَ به . وقوله « سقته الرَّواعد » دعاءٌ للقبر بالسُّقيا . والرَّواعد : السَّحاب التى فيها الرَّعد . وقولها « إنها حاجة لنا » حَشْوٌ واعتراض ، وقد وقع موقعًا حسناً ، وفيه استعطافٌ للمخاطَبَيْنِ واستلطافٌ فيما تُكلِّفهما . ويقال : ما عند فلانٍ تعويجٌ عليهم ، أى تعريج . وعُجْنا بالمكان أشدَّ العِياجِ والعَوْجِ ، أى عَطَفْنا .

٢ — فتًى الفتَى كلُّ الفتى كان بَيْنَهُ ... وبين المُرَجَّى نَفْنَفٌ مُتباعِدُ

قولها « كلُّ الفتَى » مفيدٌ للتأكيد ، وجامعٌ أسبابَ الفتوّة كلِّها

الموصوف ، فكأنها قالت : تَمَّ الفتى التامُّ الفتوّة حتى لم يغادِرْ شيئاً من علائقها وأسبابها . وقولها « كان بينه وبين المُزَجَّى » ، والمُزَجَّى : الضَّعيف ، كأنه يُزَجَّى الوقتُ فى الاعتداد به بين الفتيان . ويجوز أن يكون سمِّى الضعيفُ مُزَجَّى لتأخُّره وحاجتِهم إلى تزجيته واستحثاثه فيما يَعِنّ . وهذا كما قيل « الموكَّب » فى الضعيف الفروسيّة . والنَّفْنَف : المَهْواة بين الجبلَين ، والأرضُ بين الأرضَين . وهذا كما يقال : بين هذا وبين كذا بَوْنٌ بعيد . فتقول : بين هذا الفتى وبين من يُزَجَّى فى الفتيان مَهواةٌ بعيدة ، حتى لا التقاء ولا تدانِىَ .

٣ ــ إذا انتضَلَ القومُ الأحاديثَ لم يكُنْ عَيِيًّا ولا عِبئاً على مَن يُقاعِدُ[1]

أصل الانتضال والنِّضال فى الرِّماء ، ثم يستعمَل توسُّعا فى المفاخَرة وقتَ المنافرةِ ، ومُجاثاة الخُصوم لدى المناقَرة[2] . ألا ترَى لبيداً يقول :

فانتضَلْنا وابنُ سَلْمَى قاعدٌ كعَتيقِ الطَّيْرِ يُغضِى ويُجَلّْ

ثم قال :

فرمَيْتُ القومَ رِشْقاً صائبًا ليس بالعُصْلِ ولا بالمُفْتَعَلْ

فيقول : إذا تجاذَبَ القومُ أطرافَ السَّمَر والأخبار ، وتنازَعوا قَصَص الفُرسان والأيّام ، ودَسُّوا فى أثناء المسارّة روائعَ التبجُّح والمكاثَرة ، لم يكن حاجزاً فيما بينهم فَدْمًا ، ولا ضعيفَ التصرُّف بكِيًّا ، ولا كان ثقيلاً على جُلسائه ، سَيِّئَ العِشْرة[3] لخلطائه ، بل كان حسن المجلِس معهم ، مُستحلَى المنادَمة بينهم ، خفيفَ الوطأة عليهم .

ومن روى : « ولا ربًّا على من يقاعد » فإنه يُريد : لا متكبِّرًا على جليسه فعلَ ذى المَلَكة والسُّلطان ؛ والآخِذِ على مُصطنِعِه بالاعتلاء والامتنان .

(١) التبريزى : « ولا ربا » . وقال : « ويروى : عبئاً ... ويروى : لغبا ، أى ضعيفاً » .

(٢) المنافرة ، بالفاء : المفاخرة ، كأنها من كثرة النفر بمعنى العشيرة . وبالقاف : المنازعة ومراجعة الكلام .

(٣) فى الأصل : « العشيرة » ، تحريف .

٣٤٠

وقال كعبُ بن زُهَير[1] :

١ ــ لقــد وَلَّى أَلِيَّتَهُ جُوَىٌّ مَعاشِرَ غيْرَ مَطْلُولٍ أُخُوها[2]

كان جُوَىٌّ على ما دلّ عليه الكلامُ حلَفَ في وجوه نا كبيه والعازِمين على قتله ، أنهم لا يستمرئون فِعلَهم ذلك ، وأن عشيرتَه وأصحابَه سيطلبون دمَه ويُدرِكون ثأره ، فكانوا عند ظنّه بهم من غير إهمال ولا تضجيع . فيقول : جَعَل جُوَىٌّ وِلايةَ يمينه التى أقسم بها إلى معاشرَ لا يُبطَل دمُ صاحبهم ولا يُهدَر ، بل لا ينامون ولا يُنِيمون حتى ينالوا الوِتْر . وقوله « غير مطلول أخوها » أى دم أخيها ، فحذف المضاف وأقام المضافَ إليه مقامه . قال :

دماؤهم ليس لهـا طالب مطلولةٌ مثلُ دمِ العُذْرَهْ

وقال :

تلكُمْ هُريرةُ لا تجفُّ دموعها أَهُرَيْرَ ليس أبوكِ بالمطلولِ

---

(١) هو كعب بن زهير بن أبى سلمى ، من شعراء الصحابة ، نشأ فى بيت كلهم شعراء ، فأبوه وجده ، وعمتاه سلمى والخنساء غير المشهورة ، وخال أبيه بشامة بن الغدير ، وابنا عمته صخر والخنساء المشهورة ، وأخوه بجير وولده عقبة وحفيده العوام ، كلهم شعراء . أسلم بعد الفتح ، وعفا عنه الرسول وآمنه بعد كان قد أهدر دمه ، وكساه البردة . انظر كتاب الصحابة والأغانى (١٥ : ١٤٢ ــ ١٤٣) والشعراء ١٠٤ ــ ١٠٧ ومعجم المرزبانى ٣٤٢ والخزانة (٤ : ١١) .

(٢) جؤى هذا هو جؤى بن عائذ ، من مزينة . وكانت مزينة حلفاء الأوس ، فمر جؤى على الأوس والخزرج وهم يقتتلون فدخل فى الأوس فأصيب جؤى ، فمر به ثابت الخزرجى والد حسان ، وقال له : لقد دخلت فى قوم يحمونك ! فقال جؤى وهو يجود بنفسه : أعطى الله عهداً ليقتلن بى منكم خمسون ليس فيهم أعور ولا أعرج . وثارت مزينة ، فأعملت القتل فى الخزرج فقتل منهم عدة . شرح السكرى لديوان كعب ٢٠٩ ــ ٢١١ وشرح التبريزى للحماسة ــ

أى لا يُنسَى دمُه ولا يُبطَل ديتهُ . والأَلِيَّةُ : اليمين ، وجمعها أَلاَيَا . والفعل منه آلَيْتُ أُولِى إيلاء ، وائتَلَى . وفى بعض اللغات يقال الأَلْوَةُ .

٢ – فإن تَهْلِكْ جُوَىُّ فإنَّ حَرْبًا كظَنِّك كان بَعْدَكَ مُوقِدُوها

خاطَب بعد أن أخبر على طريق التَّسلية ، فيقول : إن ذَهَبْتَ لما دُعِيتَ له فإنَّ الذين شَبُّوا نارَ الحرب بعدَكَ فى التقاضى بك كانوا كما ظننتَهم ، وعند أَمَلِكَ فيهم . فقوله « موقدوها » ارتفع بكان ، وكظنِّك فى موضع خبر كان وقد تقدَّم ، والجملة أعنى كان موقدوها بعدك كظنّك خبر إن ، واسم إنّ وهو حَرْبًا نكرةٌ غير موصوفة أيضا ، وساغ ذلك لمّا كان المراد بها مفهوما معلوما . ويجوز أن يُجعل قولُه « كظنِّك كان بعدَكَ موقدوها » من صفة حَرْبًا ، ويُجعل خبر إنّ محذوفا ، كأنَّه قال : إنّ حربا هذه صفتُها وقَعَتْ . وبيتُ الأعشى حجّةٌ فى الوجهين جميعًا . وهو :

إنَّ مَحَلًّا وإنَّ مُرْتَحَلَا وإنّ فى السَّفْرِ إذْ مَضَى مَهَلَا

ألا ترى أنَّ معناه إنَّ لنا مَحَلًّا وإنَّ لنا مرتحلًا ، فحذف الخبر ، ومَحَلٌّ ومرتَحَلٌ نكرتان .

٣ – وما ساءت ظنونُكَ يومَ تُولِى بأرماحٍ وَفَى لك مُشرِعُوها

٤ – ولو بَلَغَ القتيلَ فَعَالُ قَوْمٍ لسَرَّكَ من سيوفِكَ مُنْتَضُوها(١)

٥ – كأنكَ كنتَ تَعلَمُ يَوْمَ بُزَّتْ ثِيَابُكَ ما سَيَلْقَى سالِبُوها(٢)

---

(١) بعده عند التبريزى ، وهو فى الديوان بعد البيت التالى :

لِنَذْرِكَ والنُّذُورُ لها وَفَاءٌ إذا بلغَ الخَزَايَةَ بالِغُوهَا

(١) بعده عند التبريزى :

فما عُتِرَ الظِّبَاءُ بِحَىِّ كَعْبٍ ولا الخمسونَ قصَّرَ طالبُوها

صَبَحْنَ الخَزْرَجِيَّةَ مُرْهَفَاتٍ أَبَانَ ذَوِى أَرُومَتِهَا ذَوُوهَا

قوله « وما شاءت ظنونك » تشكُّرٌ للعشيرة وإن كان لفظه إعلامَ جُوَىً ما كان منهم وثناء عليهم ، فيقول : لقد حَسُنَ ظنُّك بأرماحٍ وفى لك مهيِّئوها ومُعْلوها يوم حَلِفك ، فلا جَرَمَ أنَّهم صَدَّقوا ظنَّك بهم ، وحقَّقوا اعتقادَك فيهم ، وجدُّوا فى طلب الأمر وانكمشوا ، حتَّى بَرَّتْ يمينُك ، وطابت نفوسُ أوِدَّائك والمفجوعينَ بك . وجعل الباء من قوله « بأرماحٍ » متعلِّقا بقوله ظنونك ، وإنَّما الظَّنّ كان بأربابها ، مجازًا واتِّساعا .

وقوله « ولو بلغ القتيلَ فَعالُ قومٍ » يريد لو أمكن إبلاغُ المقتولين ما يفعله الأحياء بعدَهم لقُمْتُ فى ذلك وقَعدتُ ، علمًا بأنّ ما أتاه قومُكَ إذا تأدَّى إليك سَرَّكَ وقوعُه وحمِدتَهم له . ويقال : نَضَا سيفَه وانتضاه ، إذا جَرَّدَهُ من غمده . وقال « من سيوفك » وأضافها إليه لمَّا كان أربابُها من أسبابه ، وما للسَّبب مثل ما للمسبَّب .

وقوله « كأنك كنت تعلم يوم بُزَّتْ ثيابك » أراد بالثِّياب السِّلاحَ ، وهذا كما يُقال له البَزُّ . قال الهُذلىّ[1] :

* فوُقِّرَ بَزٌّ ما هنالِكَ ضائعُ[2] *

يعنى به السَّيف ، ومعنى وُقِّرَ وُقِّعَ وَقَراتٌ وهَزَمَاتٌ فيه . ويقال بَزَّه كذا وابتزَّه . وفى المثل : « مَن عَزَّ بَزَّ » ، أى من غَلَبَ سَلَب . وقال الدُّريدىّ : البَزُّ السِّلاح ، يدخل فيه الدِّرع والمِغْفَرُ والسَّيف . وجعل تَعلَم بمعنى تعرِف ، لذلك اكتفَى بمفعولٍ واحد ، كقول الله تعالى : ﴿ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ . و « ما سيلقى » ما بمعنى الذى ، وما بعده من صلته ، وحذَف المفعولَ من سَيَلقى

---

(١) هو قيس بن عيزارة . ديوان الهذليين (٣ : ٧٨) ، وانظر ما سيأتى فى الحماسية ٣٤٥ ص ٩٨٨ .

(٢) صدره : * فويل ام بز جر شعل على الحصى *

استطالةً للاسم بصلته ، أراد ما سيلقاه ، ويعنى بذلك ما يصيبُهم فى مكافأةِ فعلِهم ، وعند الانتقام منهم .

٣٤١

وقال آخر :

١ ــ نَعَى النَّاعِى الزُّبَيْرَ فَقُلْتُ تَنْعَى فَتَى أَهْلِ الحجازِ وأهلِ نَجْدِ

٢ ــ خَفِيفَ الحـاذِ نَسَّالَ الفَيَافِى وعَبْدًا للصَّحابةِ غيْرَ عَبْـدِ

يقول : خَبَّرَ الناعى بموت الزُّبير ، فقلت معظِّمًا لشأنه ، ومفخِّمًا للتأثير بمكانه : إنكَ تذكر موتَ قريع أهلِ الحجاز وأهل نجد ومختارِهم ، ومَن لا تحقُّ الفتُوَّة بالاتِّفاق إلا له . وقوله « خفيف الحـاذِ » وصفه بخفّة العجُز وقلّة اللَّحم على الفخِذ ، وذلك مستحبٌّ من الفُرسان . قال الخليل : الحـاذان : أدبارُ الفخِذين ، والآحاذ الجميع[1] . وقيل هو الظَّهر . والحـاذُ فى غير هذا المكان : الحـال والمَؤُونة . وقوله « نَسَّال الفيافى » أراد نَسَّالٌ فى الفيافى ، فأجراه مجرى قَطَّاع الفيافى . والنسَلان : مِشية الذِّئب إذا أعنَقَ وأسرع . ويقال : نَسَل الماشى ، إذا أسرع . وفى القرآن : ﴿ فإذا هُم مِنَ الأَجْدَاث إلى رَبِّهم يَنْسِلون ﴾ أى يُسْرِعون .

وقوله « عَبْدًا للصَّحابة غيرَ عَبْدِ » يصفه بكرم الصِّحاب ، وحُسن التوفُّر على الرِّفاق . والصَّحابة مصدر فى الأصل ، يقال أحسَنَ الله صَحَابتك ، ثم استُعمِل صفةً ، وقَوِىَ فى الوصفيَّــة حتى جَرَى مَجرى الأسماء ، وتفرَّد عن الموصوف به . وكذلك قولهم صاحبٌ اسم الفاعل من صَحِبَ ، تفرُّدُه بنفسه ، قَوِىَ حتى كأنَّه ليس بمشتقٍّ من صَحِبَ ، لا يكاد يقال هو صاحِبٌ زَيْدًا كما

(١) المعروف فى جمعه « أحواذ » ، كما فى اللسان .

يقال هو ضاربٌ زيداً . ومعنى « غير عَبْـدٍ » نَفْىٌ لذُلِّ العبودّية ، لأنّ قوله «عبداً للصحابة» أراد كرم الخُلُق وسهولةَ الجانب ، وتحمُّلَ الأعباء عن رفقائه . وقد ألمّ فى هذا بقول الآخر(١) :

* طَبَّاخِ ساعاتِ الـكَرَى زادَ الـكَسِلْ *

٣٤٢

وقال رُقَيبَة الجَرْمىّ ، من طيِّئ :

١ ـ أقولُ وفى الأكفانِ أبيَضُ ماجِدٌ   كغُصْنِ الأَرَاكِ وجْهُـهُ حِينَ وسَّما

٢ ـ أحَقًّا عِبَادَ الله أنْ لَسْتُ رائيًا   رِفاعَـةَ طُولَ الدَّهرِ إلاَّ تَوَهُّما

مفعول « أقول » هى جملة البيت الذى يليه ، والواو من قوله : « وفى الأكفان أبيضُ ماجد » واو الحال ، و « كغصن الأراك » فى موضع الصِّفة لأبيض . شبَّه امتدادَ قامتِه به . و « وجهُه » على هذا يكون مبتدأً وخبره حين وسَّما ، والجملة فى موضع الصِّفة لما قبله . وظروف الأزمنة لا تتضمَّن الأشخاص والجُثَث ، لا تقول زيدٌ اليوم ، ولكن هذا مثل قولهم : الهلالُ اللَّيلةَ ، فكما جازَ هذا لأنّ المراد طُلوع الهلال اللَّيلة ، كذلك قوله « وجهُه حين وسَّما » لأن المعنى : بُقُولُ وجْهِه(٢) حين وَسَّمَ . ومعنى وسَّمَ : خَرَجَ قليلاً ، وحقيقتُه أنَّه بمعنى توسَّم ، كما أنّ وجَّهَ بمعنى توجَّه ، ونَبَّهَ بمعنى تنبَّه ، وقدَّم بمعنى تقدَّم . ويقال لَوَّن الغلامُ(٣) ، وطَرَّ ، ووَسَّم ، وبَقَل بالتخفيف ، فى معنًى واحد . وأجاز أبو حاتم بَقَّل بالتَّشديد ورواه الأصمعىّ ولم يُجِزْهُ غيره . والمعنى : أقول

(١) هو الشماخ ، أو جبار بن جزء أخى الشماخ ، أو أبو النجم ، أو ابن المعتز . الخزانة (٢ : ١٧٣ بولاق) و (٤ : ١٧٧ سلفية) .

(٢) بقول الوجه : خروج شعره . وفى الأصل : « يقول وجهه » ، تحريف .

(٣) استعمال مجازى لم يرد فى المعاجم المتداولة .

متلهِّفا وقد كُفِّن بمرأى منِّى ثَمّ شابٌّ مجتمِعٌ كريمٌ شريفٌ حسن الطَّأَة[(١)] ، كأنّه غُصن من الأراكِ ووجهُه قد وَسَمَّ حديثا . والمعنى : اعْتُبِط ولم يُمتَّع بشبابه ، ولا أُمْهِل لاستكماله واكتهاله . فأقول : حقًّا عبادَ الله ما أرى .

وقد ألمّ فى هذا المعنى بقول النّابغة :

* يقولون حِصْنٌ ثم تأبَى نفوسُهم[(٢)] *

كأنه يكذِّب المشاهدة كما كذَّب النابغة الإخبار . وكلُّ ذلك لاستفظاع الحال ، واستعظام الأمرِ والخطْب . فأمّا قوله « أحَقًّا » انتصبَ[(٣)] عند سيبويه على الظَّرف ، كأنّه أفى الحقّ ذلك . فإن قيل : كيف جاز أن يكون ظرفاً ؟ قلتَ لمّا رآهم يقولون : أفى حقٍ كذا ، أو أفى الحقِّ كذا ، جعله إذا نصبوه على تلك الطّريقة ، قال :

أفِى حَــقٍّ مُواساتِى أخاكمْ   بمالى ثمَّ يَظلِمُــنى السَّرِيسُ[(٤)]

وقال :

أفى الحقِّ أنِّى مُغْرَمٌ بكِ هائمٌ   وأنَّكِ لا خَلٌّ هَوَاكِ ولا خَمْرُ

وقوله « أن لستُ رائيا » أنْ مخفَّفة من الثقيلة . والمعنى أفى الحقِّ لستُ رائيًا هذا الفتى إلا متوهِّما أبَدَ الدَّهر . وقوله « توهُّما » مصدر فى موضع الحال .

---

(١) الطأة بفتح الطاء : الحال اللينة . قال الكميت :

أغشى المكاره أحياناً ويحملنى   منه على طأة والدهر ذو نوب

(٢) عجزه كما فى شروح سقط الزند ٢٦٢ ، ٨١٣ :

* فكيف بحصن والجبال جنوح *

(٣) جرى فى حذف فاء الجواب على مثل ما جرى عليه فى ص ٨١٤ . وهو جائز على قلة .

(٤) لأبى زبيد الطائى ، كما فى اللسان (سرس) . والسريس : العنين ، أو الذى لا يولد له .

وفائدة قوله « عبادَ الله » أنّه رجع فيما كان لا يؤمن به ولا يسكُن إليه شناعةً وقباحة ، إلى النّاس كافةً يستثبتُهم ويستَفْتيهم .

٣— فأُقْسِمُ ما جَشَّمْتُهُ من مُهِمَّةٍ تَؤُود كِرَامَ القَوْمِ إلا تَجَشَّمَا[1]
٤— ولا قُلتُ مَهْلًا وهو غَضبانُ قد غَلَا مِن الغَيظ وسْطَ القومِ إلاّ تَبَسَّما

يصِفُ رضاه وحُسنَ طاعتِه له ، وقُوّةَ نهضته بكلِّ ما يُحَمَّلُه من الأثقال المتعِبة ، والآراب المثقِلة ، ودوامَ صبرِه على جميع ما يُكَلَّفُه من المهمّات الشاقّة على كِرام النّاس الباهظةِ ، إلى ما كان يُوجِب له ويعظِّم قدرَ كلامِه ، فقال : ولم أقل له رفقاً إذا احتمَى غيظاً إلّا سكَنَ وحَسُنت فَيئتُه ، وكَرُمت عَطفتُه ، حتَّى بَدَا لىَ مَضحَكُه ، وتهلَّلتْ فى لُقيایَ غُرّتُه . هذا ومجلسُه مشهود ، والأقوامُ حولَه قعود ، فلا يتداخله نَخْوة ، ولا تأخُذه بالإباء والتشدُّد عزّة . وهذا كلُّه تنبيهٌ على تَعالِى لوعتِه ، وتَغالِى حُرْقته وفَجْعته .

٣٤٣

وقال آخر :

١— ألاَ لَا فَتى بعدَ ابنِ نَاشِرَةَ الفتَى ولا عُرْفَ إلّا قد تَوَلّى فأدْبَرَا
٢— فَتًى حَنْظَلِيٌّ ما تَزَالُ رِكابُهُ تَجودُ بِمَعروف وتُنْكِرُ مُنْكَرَا
٣— لَحَى اللهُ قوماً أسْلَمُوكَ وجَرَّدُوا عَنَاجِيجَ أعطَتْهَا يَمِينُك ضُمَّرَا

حذف الخبر من قوله « لا فَتى » و «لا عُرْفَ» جميعا ، كأنّه قال : لا فتى فى الدنيا بعدَ ذهابه ، ولا عُرْفَ موجودٌ بعد تَوَلِّى عُرْفه . وفى وصفه المرثىّ

(١) التبريزى : « من ملمة » .

بالفتى كأنَّه جَمَع له الفضائلَ كلَّها ، كما أنَّ نفيه العُرفَ كأنَّه نَفَى به المحامدَ كلَّها ؛ لأنَّ من شرط الفتوّة أن يَدخل تحتَها خِصالُ الخير ، كما أنَّ العُرف والمعروف يدخل تحتَه كلُّ ما عُرِف فى الإحسان والصَّلاح . ولك أن تنوِّن « لا فتًى » وإن كان الأوّل أشرفَ فى المعنى وأبلغ ، فيكون فى موضع الرَّفع بالابتداء ، وكذلك لا عُرْف ترفعه وتنوّنه ، لأنَّك تلقى حركة الهمزة من إلّا وهى كسرة على التَّنوين . والفصل بين الرَّفع والنَّصب أنَّ النَّصب يفيد الاستغراق ، كأنّه نفى قليلَ الجِنس وكثيرَه ، إذا كان جوابَ هل مِن فَتًى ، ومن عُرْفٍ ؟ والرَّفع لا يكون فيه الاستغراق ، لكونه جوابَ هل فتًى وهل عُرْفٌ[1] ، فلا يمتنع أن يكون السُّؤال عن واحدٍ من الجنس ويكون الجوابُ على حدِّه . وقوله « ما تزال ركابه » من صفة فتًى ، و « تجود بمعروف » خبر ما تزال .

وارتفع « فتًى حَنظليٌّ » على أنه خبر مبتدأٍ محذوف ، ولو نصبه على المدح والاختصاص لجاز ، وقَصْدُه إلى أنَّه أمّارٌ بالمعروف ، ونَهّاءٌ عن المنكر ، ولا يَرضى بذلك فيما يليه من البلاد ، بل ترى الرُّكبان تطوف به ، فيأتيهما فى الأباعد مثلَ ما يأتيهما فى الأقارب[2] . وقوله « ركابه » أراد أصحاب رِكابه يعنى رسله .

وقوله « لَحَى الله قوما أسلموك » تصريحٌ بأنَّ أصحابَه خذلوه وتقاعدوا عن نُصْرَته حتَّى تمكّن منه الأعداء فقتلوه . وقوله « جرّدوا عناجيج أعطتْها يمينُك ضُمَّرا » بيانٌ لأن الخيل التى جرّدُوها للرَّكض فى الهرَب ممَّا سمحت به يدُه ، فلم يُراعُوا ذِمّة ، ولم يحافِظوا حُرمة ، ولا راجعوا أنفسَهم فيما تُنتِجه الأحدوثة ، وتسير به الرَّكبُ من سيِّئ القالة . والعَناجيج : الخيل الطِّوال ،

---

(١) فى الأصل : « هل من فتى ومن عرف » .

(٢) فى الأصل : « فتأتيهما . . . ما تأتيهما . . . » .

واحدها عُنجوج . ومعنى « لَحَى الله » يجوز أن يكون من اللِّحاء : السَّبّ والذمّ . ويجوز أن يكون من اللَّحْى : القَشْر . وكيف جعلتَه فهو دعاء عليهم ، تسويدًا لوُجوههم ، وإلحاقًا للعارِ بهم ، وتقبيحًا لفعلهم ، وجزاءً على صُنعهم . وفائدة قوله « ضُمّرا » أنهم لم يُؤتَوْا من عُدّةٍ ولا عَدَدٍ ، وإنّما أُتُوا من عجزِهم وجُبنِهم ، وسوء نيّاتِهم ، وسُقوط همّتهم .

٣٤٤

وقال آخر :

١ ـ أَضْحَى أبو القاسمِ الثَّاوِى ببَلْقَعَةٍ تَسْفِى الرِّياحُ عليهِ مِنْ سَوَافيها[١]

قوله « أضحى » هاهنا لاتصال الوقت ، والباء من قوله ببلقعة تعلق بالثاوى ، وخبر أضحى تَسفِى الرِّياح عليه ، والكلام توجُّعٌ وتحسُّرٌ بأنَّه استَبدلَ بمَجالِسِه الفضاء ، ومن نُدَمائه وخلطائه الخَلاَء ، ومن رفيع دَسْتِه ونَبيهِ فَرْشِه التُّراب ، والرِّياح السَّوافى تأتى بها إليه ، وتجمعه عليه[٢] . والسَّفَا والسافياء : التُّراب . ويقال سَفَت الريحُ التُّرابَ وغيرَه تَسفيه سَفْيًا ، والريح سافية ، والجميع السَّوافى ، للترابِ والوَرَق واليَبيس . وقيل السافياء : الريح تحمل ترابًا كثيراً تهجُم به على الناس . والسَّفَا : اسم ما تسفيه . والبَلْقَع : المكان الخالى .

٢ ـ هَبَّتْ وقدعَلِمَتْ أنْ لا هُبُوبَ به وقد تكون حَسيرًا إذْ يُباريها

يقول : هبَّت الرياحُ عليه رافعةَ الحشمةَ فى ابتذالها إيّاه ، عالمةً أنه لا هبوبَ

(١) أولها عند التبريزى :

كانت خُزاعةُ مِلْءَ الأرضِ ما اتَّسَعَتْ فقصَّ مَرُّ اللَّيـــالى منْ حَواشِيها

(٢) جعل ضمير التراب مرة مؤنثاً وأخرى مذكراً .

لريح دَولته ، ولا نَفاذَ لأمره ، ولا استقامةَ لصولته ، وقد كانت إذا هَمَّت بمباراته تقِف حَسيرًا بهيرًا لا انخراقَ لها ، ولا تَجَرُّ لذيلها . وقوله « أن لا هُبوبَ » أن مخفَّفة من الثَّقيلة ، كأنَّه قال : أنَّه لا هبوب به . والضَّمير للأمر والشأن ، وإن شئتَ كان للمرثىّ . ولا هبوب فى موضع خبر أنّ ، والجملة سَدَّت مَسَدّ مفعولى عَلِمَتْ .

٣ ـ أَضْحَى قِرًى للمَنَايا رَهْنَ بلقَعَةٍ وقد يكونُ غَـداةَ الرَّوْعِ يَقْرِيها

يقول : صار طُعمةً للمنايا هذا المفقودُ ومرتَهنًا فى قبره ، لا انفكاكَ له ولا دِفاعَ به ، وقد كان وهو حَىٌّ غداةَ الرَّوع يَقرِى المنايا من لحوم الأعادى ، ويجعلهم قِراها وطُعْمها . ويقارب هذا قولَ الآخر(١) :

وإنَّا لَلَحْمُ السَّيف غَيْرَ نكيرةٍ ونُلْحِمُهُ حيناً وليس بذى نُكْرِ

٣٤٥

وقال عَقيل بن عُلَّفة(٢) :

١ ـ لِتَغْدُ المَنايا حيثُ شاءتْ فإنَّها مُحَلَّلَةٌ بعدَ الفتى ابنِ عَقيـلِ

٢ ـ فتًى كان مَوْلاهُ يَحُلُّ بنَجْوَةٍ فحَـلَّ الموالِى بَعْدَهُ بمَسِيلِ

٣ ـ طَويلُ نِجادِ السيفِ وَهْمٌ كأنَّما تَصُولُ إذا استَنْجدتَه بقَبيلِ

كأنَّه أذِن لأنواع الموت أن تبتكر حيث شاءت ، وتَنالَ من الناس مَن أرادت ، فقد حلَّ لها ذلك بعد أخْذها الفتى ابنَ عقيل ، لأنَّه هو الذى كان

(١) هو دريد بن الصمة . الحماسية ٢٧٢ ص ٨٢٥ .

(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٣٦ ص ٤٠٠ . وساق التبريزى نسبه : « عقيل بن علفة بن الحارث بن معاوية بن ضباب بن خابر بن يربوع بن غيظ بن مرة » . والأبيات يقولها فى رثاء ولده علفة بن عقيل ، وهو ولده الأكبر . الأغانى (١١ : ٨٨) .

يُخشى عليه منها ، ويُرتجى يومُه وغدُه ، وإذ قد أصيب الناسُ به فلا خطَرَ على المنايا ، ولا خوفَ من الرزايا . ويقال : حَلاته من كذا تحليلاً ، إذا أطلقتَه له .

وقوله « كان مولاه يحُلُّ بنَجْوةٍ » فالنجوة : اسم المكان المرتفِع ، والجميع النِّجاء . وقيل هو اسمٌ لما إذا أَوَيْتَ إليه نَجَوْتَ من محذورك . وقد دخَل تحت قوله « مولاه » ابنُ العمِّ وكلُّ مَن ينتسب إليه بوَلاء . ألا ترَى أنَّه لما أعاد ذِكره قال : « فحَلَّ الموالِى بعدَهُ بمَسِيل » . وإنما قال ذلك لأنَّهم كانوا بأجمعهم يتعزَّزون به ويستظهِرون على الدَّهر بحياته ، فلما أُصيبوا به تمكَّنت الأقدارُ من التأثير فيهم ، وتسلَّقت الآفاتُ من كلِّ جانبٍ عليهم ، وصاروا بمنزلة من نزَلَ فى مسيلٍ من الأرض فلعبت السُّيول به ، وتهجَّمت نُؤَبُ[1] الزَّمان عليه ، وقد كان من قبلُ فى يَفَاعٍ لا يرتفع إليه الأَتِىُّ وإن طَمَا ، ولا يرتقى إليه الأبِىُّ وإن استعَلَى .

وقوله « طويل نِجاد السيف » وصَفه بامتداد القامة ، وهذا كما أنَّ الفرسَ إذا وُصف بطول الخَدِّ قيل : هو طويل العِذَار . ومثله قول أبى نُواس .

سَبْطُ البَنَان إذا احتبَى بنجادِهِ غَمرَ الجماجمَ والسِّماطُ قِيامُ

وهذا المعنى مضادٌّ لما وَصَف به بعضهم[2] تأبَّط شرًّا ، وكان يلقَّب بالشَّعْل ، فسَلَبَ بزَّ قتيسلٍ له وتقلَّدَ سيفَه ، وكان القتيل حَسَنَ الشَّطَاط ، وتأبَّطَ شرًّا قصيرَ القامة ، فطال عليه حمائلَ السيفِ للسلوبِ وانجرَّ على الأرض ، فقال فيه :

فويْلُمِّ بَزٍّ جَرَّ شَعْلٌ عَلَى الحَصَى فوُقِّر بَزٌّ ما هنالك ضائـعُ

أراد بالبَزِّ السيف ، ومعنى وُقِّر وُقِّع فيه وَقَراتٌ وهَزَماتٌ ، لتأثير الحصَى

(١) وكذا وردت هنا كلمة « نؤب » بالهمزة . انظر ما مضى فى ص ٩١٩ .

(٢) هو قيس بن عيزارة . انظر حواشى الحماسية ٣٤٠ ص ٩٨٠ .

فيها . وجعل البزَّ ضائعاً لِمَا لِبسه غيرُ صاحبِه . فأمّا قوله « يصول إذا استنجدتَه بقبيل » فإنّه يصفه بغنائه إذا استُغيثَ به وكمال آلاته ، حتى صار المستنصِر له والمستغيث به ، إذا أجابه واحتضره ، كأنّه أجابه قَبيلٌ لا رجُل . والزَّهَمُ : العظيم التامُّ الخَلْق . ويقال : جَملٌ وهمٌ ، وهو القويُّ العظيم المنقاد ، المطيعُ لصاحبه .

٣٤٦

وقال مُسافِعٌ العَبْسِىّ[1] :

١ ــ أبعد بنى عَمْرٍو أُسَرُّ بِمُقْبِلٍ من العَيْشِ أوْ آسَى على إثْرِ مُدْبِرِ

٢ ــ وليسَ وَرَاءَ الشيءِ شيءٌ يَرُدُّهُ عليك إذا وَلَّى سِوَى الصَّبْرِ فاصْبِرِ

قوله « أبعد بنى عمرو أُسَرُّ بمقبلٍ » كأنّه قال منكرًا مستقبِحًا . يريدُ أُسَرُّ بعد أن فُجِعت بهؤلاء القوم بقدَرٍ يساعدُ ، أو عيشٍ يُقبِل ، أو زمانٍ يُطاوِع ، أو أحزَنُ فى إثْر فائتٍ ، أو أجزع لتولِّى مُدْبِرٍ . والمعنى : أنَّ السُّرور كان يتصل بحياتهم ، والغَمّ كان يُحذَر مخافةَ أن يكون فيهم ، وإذا قد مضَوْا لسبيلهم فلا شيء من أعراض الدنيا يَلحق له حبورٌ إذا نِيل ، ولا شيء من أعلاق المُنَى يُحزَنُ له إذا أُفيتَ .

وقوله « وليس وراء الشيء شيء يردُّه عليك » أى[2] يَرجِعه إليك . فالاعتصام بحَبل الصَّبر هو الأَوْلَى ؛ والأحبّ دِيناً ودُنيا ، فاصبر . وقوله « سِوَى الصبر » موضعُه من الإعراب استثناء خارج ، لأنّ الصبر ليس من الشيء الرّادّ الفائتَ فى شيء ، فقد انقطع مما قبله .

---

(١) هو مسافع بن حذيفة العبسى ، كما فى شرح التبريزى . قال البغدادى فى الخزانة (٢ : ٣٦٠) : « وهو شاعر فارس من شعراء الجاهلية » .

(٢) فى الأصل : « أو » .

٣ — سلامٌ بنى عمرٍو على حيثُ هامُكُمْ   جَمَالَ النَّدِىِّ والقَنَا والسَّنَوَّرِ

٤ — أولَاكَ بَنُو خيرٍ وشرٍّ كِلَيْهِما   جَمِيعًا ومعروفٍ أَلَمَّ ومُنْكَرِ

لما استسلم للجزع وما اعتاده من الهَلَع ، وصبَّرَ نفسَه مسلّياً ، وتتبع أثر المصيبة معفياً ، حيّاهم فقال : عليكم التَّحِيَّةُ من اللهِ يا بنى عَمرٍو حيث قَرَّت هامكم . و « هامكم » ترتفع بالابتداء وخبره محذوف ، كأنه قال : حيث هامكم حاصلة موجودة . والجملة أضيف إليها حيث لينشرح بها ، لأن حيث يقتضى جملتين ، فهى فى الأمكنة مثل حينَ فى الأزمنة . ثم قال « جمالَ النَّدِى » أى أَذكرُ جمالَ المجلس يومَ الحفل ، وزَينَ السِّلاح غداةَ الروع ، فانتصبَ جمالَ على الاختصاص والمدح[1] . وذَكَرَ الهامَ على عادةِ العرب ، فى زعمهم أنَّ عظامَ الموتَى تصير هامةً تطير . والنَّدِىُّ والنَّادى : المجلسُ . ويقال : نَدَاهُمُ المجلسُ ، أى جَمَعَهم ، فانتَدَوْه .

وقوله « أولاك بنو خيرٍ وشرٍّ كليهما » إيذان منه بأنَّهم كانوا مستصلَحِين لكلِّ ما يعنُّ ويحدُثُ من السَّرَّاء والضَّرَّاء ، فكانوا بنى الخير لاستدرار المنافع من مالهم وجاههم ، وبنى الشَّرِّ لاستدفاع البلايا بِبأسِهم . وكانوا يُسْعِدون مواليَهم ببِرِّهم وتفقدهم ، ويُشْقُون مُعَادِيَهم بحَدِّهم وسطوتهم . وقوله « كليهما جميعا » انجرَّ كليهما على البدل من خيرٍ وشرٍّ ، ولا يجوز أن يكون توكيدًا لهما ، لأنَّ توكيد ما لا يُعرَف لا فائدةَ فيه . والكوفيُّون يجوِّزون توكيدَ ما يَدخله التَّجزئةُ من النَّكرات ، يقولون : قرأت كتابًا كلَّه ، وأكلتُ رغيفاً كلَّه ، على التوكيد . وأصحابنا البصريُّون يجيزون الكلامَ بمثل هذا ، ولكنهم يمتنعون من إجراء الآخِر على الأوّل على طريق التّأكيد ويجعلونه بدلًا ، كأنّه قال بنو كِلاَ الخير

(١) وقال التبريزى إنه منصوب على النداء .

والشَّرّ. وانتصب « جميعا » على الحال. وكِلَا يضاف إلى المثنّى، إلّا أنّ المعطوفَ والمعطوفَ عليه والحرفَ العاطفَ الواوَ بمنزلة المثنّى وفائدة قوله « معروف ألَمّ ومنكَر » أن يُصْرَفَا إلى النّوازل الملمّة والحوادث الطّارئة، فيكون الخير والشر مقصورين على أفعالها، فلذلك قال « ومعروفٍ ألَمّ ومنكر » ليتَمَيَّزَ ما يكون من فعلهما عما يحدُث من غير فِعلهما.

٣٤٧

وقال الربيعُ بن زيادٍ العَبْسىّ[1]

فى مالكِ بن زُهيرٍ العبسىّ :

١ – إنّى أَرِقْتُ فلم أُغَمِّضْ حَارِ مِنْ سَيّئ النّبأ الجَلِيلِ السّارى[2]

٢ – مِنْ مِثْلِهِ تُمْسِى النِّساءُ حَوَاسِرًا وتَقُومُ مُعْوِلَةً مع الأسْحارِ

يقول: لمّا تساقطَ الخبرُ الموجِع السّارى بليلٍ، العظيمُ فى شأنه، الفظيع عند وُقوعِه إلىّ، سهرتُ فلم أغمّض يا حار. كأنّه ذكَرَ ابتداءَ حاله لا ابتداء نَعيِّه. والأرَق: السَّهَر. ويقال غمّضتُ عيني بالتشديد، وغَمَضْتُها، واغتمضْتُ. وأضاف السَّيِّئَ إلى النّبأ لأنّه جعل النّبأ للجِنْس، فهو كإضافة البعض إلى الكلّ.

---

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٦٣ ص ٤٨٤.

(٢) كان من خبر هذه الأبيات فيما روى التبريزى أن مالك بن زهير العبسى كان متزوجاً فى بنى فزارة، فبعث إليه أخوه قيس حين قتل ندبة بن حذيفة أن اخرج عنهم ليلا. فبعث إليه مالك: مالى إلى بنى بدر من ذنب، وإنما ذنبك عليك، وما أنا بتارك منزلى لما أحدثت أنت. وغبر مالك فى بنى فزارة دهراً، ثم غدرت به فزارة، وجه إليه حذيفة من يقتله فقتلوه، وكان الربيع مجاوراً لحذيفة، فجاء إليه وقال: يا حذيفة سيرنى فإنى جاركم، فسيره ثلاث ليال، فقال حمل لحذيفة: بئس ما صنعت، قتلت مالكا وخليت حبل الربيع، والله ليضرمنها عليك ناراً فدونك الرجل قبل أن يفوتك ولا أحسبك تدركه. ثم إن الربيع جمع بنى عبس للقاء بنى فزارة، وجرت بسبب هذا حروب فيما بينهم.

ويقال: أساء ما صنعَ ، فهو سيّئٌ ، وساءنى الشّىءُ مَساءةً ، وسُؤْتَنى بما فَعلتَ مَساءةً ومَسائيَةً . ويقال السَّيِّئُ والسَّيِّئة والسُّوءى . والسيِّئة كالخطيئة ، وهو بإزاء الحسنة ، والسُّوءى بإزاء الحسنى . والسُّوء : الاسمُ الجامعُ للآفات والأدواء .

وقوله « من مثله تُمسِى النِّساءُ حواسرا » أى يأتى عليهنّ المَساء وقد طَرحْنَ خُمُرَهنّ فهنّ كاشفات الرُّءوس ، مسبِلات الشُّعور ، لا يَكتَسِينَ ولا يستترن ، ويقُمْن مع السَّحَر صائحاتٍ عائداتٍ إلى عادتهنّ من النِّياحة والبكاء . وقيل الإمساء من الظُّهر إلى المغرب ، وقيل بل إلى نِصف اللَّيل من الإمساء . وروَى بعضهم : « تَمْشِى النِّساء » أى يمشين متبرِّزات لا يدفعُهنّ عن ذلك حشمةٌ ولا يَحجزهنّ رِقبَةٌ . والأوّل أجوَدُ ، حتّى يكون المساء فى مقابَلة الصَّباح ، ويكونَ الشّاعرُ قد ذكر طَرَفَىِ النّهار من أوقاتهنّ .

٣ — أفبَعْدَ مَقْتَلِ مالكِ بن زُهَيْرٍ تَرْجُو النِّساءُ عواقِبَ الأطهارِ[1]

٤ — ما إنْ أرَى فى قَتْلِهِ لِذَوِى القُوَى إلّا المَطِىَّ تُشَدُّ بالأكوارِ[2]

هذا فيه ما فى قول الأخطل :

قوم إذا حارَبُوا شَدُّوا مآزِرَهُمْ دونَ النِّساءِ ولو باتَتْ بأطْهارِ

وإلى هذا أشار أبو تمامٍ فى قوله :

لَبَّيْتَ صَوْتاً زِبَطْرِيًّا هَرَقْتَ له كأسَ الكَرَى ورُضَابَ الخُرَّدِ العُرُبِ

وقوله « أفبعد » لفظه لفظ الاستفهام ، والاستفهامُ يطلب الفعل ، فكأنّه قال : أترجو النِّساء عواقبَ الأطهار بعد مقتل مالك ؟ وهو ينكر أن يكون ذلك

(١) أنشد ابن رشيق هذا البيت فى العمدة (١ : ٩٤) شاهدا على ما سماه الخليل « الإقعاد » وهو هنا حذف نون متفاعلن وإسكان ما قبله فى آخر تفعيله من الشطر الأول ، وهو ما يسميه المتأخرون « القطع » . وانظر شروح سقط الزند ١١٤٦ .

(١) التبريزى : لذوى الهمِّ » .

أو يُستجازَ وقوعُه . والمراد بعواقب الأطهار مراجعةُ البُعولة إلى مضاجَعة النِّساء بعقِبِ أطهارهنّ والتمتُّع بهنّ . والمعنى أنّ الأمر أفظَعُ من أن يُتوَهَّمَ ذلك ، والخطْبَ فى المصاب به أنكَى فى القُلوبِ والنُّفوسِ من أن يُتذكَّرَ لذّاتٌ ، أو يُتحدَّثَ بتناسُلٍ وولادات . وقوله « ابن زُهَيْرِ » جعل عَروض الضَّرب الثانى من الكامل مقطوعة[1] ، ولو قال « زُهَيِّرِ » لاستقام له وكان يكون متفاعِلُنْ . وهم يُدْخِلون على الأعلام التَّغييرَ كثيرًا ، لكنَّه مال إلى هذا وجعله فَعِلاتُنْ . وقد فَعَلَ فى أوّل المقطوعةِ مثلَ ذلك ، لكنَّه فى ذلك أعذَر لأنَّه جعلَها مصرَّعَة ، ولم يرضَ بأن جعله فَعِلاتُنْ حتَّى سكَّنَ العين منه وجعله مَفْعُولُنْ ، ويسمَّى مقطوعا مُضْمَرًا . وفَعَلَ أيضا مثلَه فى قوله :

* ومُجَنَّبَاتٍ ما يَذُقْنَ عَذُوفَا *

والعُذر فيه كالعُذر فى قوله « أفبعد مقتل مالِك بن زُهَيْرِ » ولو قال « عَذوفةً » لاستقام له . وربَّما مالوا إلى المُزاحَفِ من غير ضرورةٍ . على ذلك قول المُتَنَخِّلُ فى الطائيَّة :

أبيتُ على مَعَارٍ فاخِرات   بِهِنّ مُلَوَّبٌ كَدَمِ العِبَاطِ[2]

رَوَوا أنَّ كلّ العرب ترويه « مَعَارٍ فاخرات » بالتنوين ، وإنَّما هو من الضرب الأوّل من العَروض الأولى من الوافر : مُفاعَلَتُنْ مفاعَلَتُن فَعُولُنْ ، فجعل مُفاعلتن الثانى مفاعيلن بالعَصْب ، وهو فى زِحاف هذا البحرِ جائز ، لكنَّه لو رُوِى « مَعَارِىَ » بفتح الياء لسَلِم ، ولم يفعل . وقوله « ما إن أرى فى قتله لذوِى القُوى »

(١) أى جعل العروض التى ضربها الثانى مقطوع مقطوعة مثله . وهذه العروض أصلها العروض التامة .

(٢) ديوان الهذليين (٢ : ٢٠) : « على معارى » .

أضاف المصدرَ إلى المفعول والمراد فى قتلهم لمالك ، ويعنى بذوى القُوَى ذوى الرَّأى والفِعْل(١) ، والعدد والعُدّة ، فيقول : لا أرى لمن كان هكذا من أولياء دمه وطُلّاب ثأره ، إلّا امتطاء الإبل وتَجنيبَ الخيول ، وركوبَ كلِّ صعب وذَلول ، إلى أن يُنالَ من العدوّ مثلُ ما ناله منهم ، فإنَّ فى ركوب الجِدِّ مساعدةً من الجَدّ ، ولن ترى العزمَ أصْرخ بالفعلِ إلا وثَمَّ مطاوَعَةٌ من القَدَر . وقوله « تُشَدُّ بالأكوار » يريد تُشَدُّ الأكوار عليها ، فرَمَى بالكلام .

٥ — ومُجَنَّباتٍ ما يَذُقْنَ عَذُوفًا يَقْذِفْنَ بالمُهُرَاتِ والأمْهارِ

٦ — ومَسَاعِرًا صَدَأُ الحديدِ عليهِمُ فكأنّما تُطْلَى الوُجوهُ بِقَارِ

عَطَف قوله « ومجنّبات » على « إلاَّ المطى » والمراد أرى لهم أعدادَهم مطايَا مرحولة ، وخيلاً مجنوبة . وكذا كانت عادتُهم فى مَقْصَدِهم الغارات ، وركوبِهم إلى الوَقَعات ، أن يركبوا الإبلَ ويجنِّبوا الخيلَ إلى أن ينتهوا إلى موضع الغارة ، أو ملتقَى القومِ للمحارَبة ، فحينئذ يُنيخون الإبل ويركبون الخيلَ وهى وادعةٌ لم يلحقْها كبير(٢) تعب ، ولم يمتلكها سآمةُ ضَجَر ، فيُعمِلونها كما يحبُّون .

وهذا كما قال النابغةُ يصف خيلَ عمرِو بن هندٍ :

مُقَرَّنَةً بالأُدْمِ والعِيسِ كالقَطَا عليها الخُبُورُ مُحْقَباتُ المَرَاجِلِ(٣)

ويَقْذِفْن بالأولاد فى كلِّ مَنْزِلٍ تَشَحَّطُ فى أسلائها كالوصائلِ

ومعنى « ما يذقن عَذُوفًا » أى أدنى ما يُؤْكَل . وقال الخليل : يستعمل فى الطعام والشراب . ويقال : ما ذُقْتُ عَذْفًا ولا عَذُوفًا ولا عَذُوفةً ولا عَذَفًا(٤) .

(١) كذا فى النسختين ، ومعناه صحيح .

(٢) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « كثير » بالثاء .

(٣) الخبور : جمع خبر ، بالفتح ، وهى المزادة العظيمة .

(٤) ضبط فى النسختين بفتح العين . وفى اللسان بضمها ، وفى مادة (عدف) مهملة الدال فى اللسان والقاموس : « عداف » بضم العين .

أى ذَوَاقًا . والفعل منه قد يُبنَى فيقال تعذَّفْتُ عَذُوفةً . وقوله « بالمُهَرَات والأمهار » أى لما يلحقهنّ من الكلال ، والتحامل عليه فى طىّ المنازل بها والتَّرحال والمَساعِر : جمع المِسعر ، وهو كأنه آلةٌ فى إسعارِ نار الحرب وإيقادها . وإنما قال « صدأُ الحديد عليهم » لاتّصال لُبسهم الدُّروع[1] ، و « كأنما تُطلَى الوجوهُ بقارِ » لأنّ المراد أنّ السَّموم والحَرور قد لَفَحَت وجوهَهم ، وغيَّرتْ ألوانَهم، لأنّهم تعوّدوا قَصْدَ الغارات ، وقَطْعَ المشاقّ . وجعَلَ الخيلَ كالفُرسان والفُرسانَ كالخيل فى الصّبر والثَّبات .

٧ ــ مَن كان مسرورًا بمقتلِ مالكٍ فليأتِ ساحَتَنا بوَجْهِ نَهارِ[2]

٨ ــ يَجِدِ النِّساءَ حواسِرًا يَنْدُبْنَهُ يَلْطِمْنَ أَوْجُهَهُنَّ بالأسحارِ

كانت العادة مستمرّةً مستحكِمةً فيهم ، أنّهم لا يَنْدُبون القتيلَ أو يُدرَكَ ثأره . فيقول : مَن كان فرحًا بمقتل مالك ، شامتًا بأوليائه ، فلينزِعْ ملابسَ المسرّة وليطَّرِحْ أرديةَ الشَّماتة ، فقد أُدرِكت الأثآرُ وأُريقت الدِّماء ، وشُفيت الأدواء ، وليحضُرْ ساحتَنا فى أوّل النهار ، ليرى أنَّ ما كان مُحرَّمًا من الرِّثاء قد حَلّ ، وأن الحَظْر الواقعَ بمكانه قد رُفِع ، ويجدَ النساءَ مكشوفاتِ الرءوس يَذكُرنه بما كان من فضائله ، ويندُبْنه بأشهر أوصافِه ، وأعلى مراتبه ومَحالِّه ، فإنّ ذلك متّصلٌ من فعلهنّ غيرَ منقطعٍ فى أطراف الليل والنهار ، والآصالِ والأسحار ، وبعضهم يرويه :

* مَن كان محزونًا بمقتل مالكٍ *

والمراد الموالُون ، كما كان المراد بالأوّل المنابذِين . وأكثرُ من رأيناه كان

(١) ل : « للدروع » .

(٢) هذه أوجه من رواية التبريزى : « فليأت نسوتنا » .

يروى « فليأتِ نسوتَنا » ورأيت الأستاذَ الرئيسَ أبا الفضل ابنَ العميد يقول : « إنى لأتعجَّب من أبى تمّام مع تكلُّفه رَمَّ جوانبِ ما يختاره من الأبيات[١] ، وغَسْلِه من دَرَن بَشِع الألفاظ ، كيف ترك تأمُّلَ قولِهِ فليأتِ نسوتَنا . وهذه لفظةٌ شنيعة . وكيف ذهَبَ عليه تأمُّلُ قولِه :

قلتُ لقومٍ فى الكَنيفِ تروَّحوا عشيّةَ بِتنا عندما وَانَ رُزَّحِ[٢]

تنالوا الغِنَى أو تبلُغُوا بنفوسِكم إلى مُستَراحٍ من حِمامٍ مُبَرِّحِ

حتى جمع بين كنيف ومستراحٍ فى بيتين . وتأمَّلْ أمثال ما ذكره وبيَّنه من شرائط الاختيار » .

٩ ـــ قد كُنَّ يَخبَأْنَ الوُجوهَ تَستُّرًا فاليومَ قد أَبْرَزْنَ للنُّظّارِ[٣]

١٠ ـــ يَضْرِبْنَ حُرَّ وُجوهِهِنَّ عَلَى فَتًى عَفِّ الشَّمائلِ طَيِّبِ الأخبارِ

يصفهنَّ بأنهن ابتذَلْن أنفسَهنّ للمصيبة وقد كان من قبلُ سِترُ الصيانة مُشبَلًا عليهن ، لا يُظهِرنَ المَعارِيَ من الوجوه وسائرِ الأعضاء لأحدٍ من الناس ، لتستُّرهنّ وارتفاعِ محالِّهنّ ومناصبِهنَّ عن التبرُّز والتبرُّج ، إذ كُنَّ بيضاتِ خُدورٍ وربّاتِ حِجالٍ وستور . وقوله « فاليوم قد أبرَزْنَ للنُّظّار » يريد الوجوه . وهُنَّ وإن رَمَيْنَ قِناعَهنّ ، وأظهَرْن مُحيَّاهُنَّ فإنّ أحداً لا يَطمَع فى الدُّنُوِّ منهنّ ، والنظر إليهنّ ، فيخرجَ إلى حدِّ المنكَر . وقوله « يَضرِبْنَ حُرَّ وُجوهِهِنّ عَلَى فتًى » يريد ما يَنَلْن من أنفسهنّ بالضرب والإهانة ، إجلالاً للرَّزيئة ، واقتداءً بالمرثىّ[٤] . والعَفُّ : العفيف ، ومصدره العِفّة والعَفاف . والشمائل : خَلِيقة الرَّجل

(١) انظر ما مضى فى ١٣ — ١٤ ، ٨٤ .

(٢) من الحماسية ١٥٦ ص ٤٦٤ ـــ ٤٦٥ .

(٣) التبريزى : « حين برزن » . ويروى : « حين بدون » . انظر شروح سقط الزند ٥٢ والمزهر للسيوطى (٢ : ٣٦٤) فى (معرفة التصحيف والتحريف) .

(٤) هذا هو الوجه . وفى الأصل : « اقتداء بالمرثى » ، ل : « وافتداء بالمرثى » .

وطبيعتهُ ، واحِدها شِمال . وقوله « طيِّب الأخبار » أى حديثُه حسنٌ فى الناس لا يُؤْبَن بدنيّةٍ ، ولا يُوسَمُ بنقيصة .

٣٤٨

وقال كعبُ بن زُهير[1] :

١ — لَعَمْرُكَ ما خَشِيتُ عَلَى أُبَىٍّ مَصَارِعَ بيْنَ قَوٍّ فالسُّلَىِّ[2]

٢ — ولـكِنِّى خَشِيتُ عَلَى أُبَىٍّ جَرِيرةَ رُمْحِه فى كلِّ حَىِّ

٣ — من الفِتْيانِ مُحْلَوْلٍ مُمِرٍّ وأمَّارٌ بإرْشــادٍ وَغَىِّ

٤ — ألاَ لَهفَ الأرامِلِ واليَتَامَى ولَهْفَ الباكياتِ على أُبَىِّ

قوله « لعمرك » مبتدأ وخبره مضمر ، وفيه معنى اليمين ، وجوابها ما خشيت . فـكأنَّ هذا المتوفَّى مضَى لسبيله لعارِضٍ عَرَض له بين قَوٍّ والسُّلَىِّ . وإنما قال « مَصارع » لأنَّه جعل كلَّ قطعةٍ ممـا بين هذين الموضعين كالمَصرَع لواحدٍ من الناس . فيقول توجُّعًا : وبقائكَ ما خشِيتُ على هذا الرجلِ أن يُصرَع بين هذين الموضعين ، ولـكنِّى كنت أخشى عليه جرائره فى الأحياء ، وتِراتِه فى القبائل . وعلى ما يدلُّ عليه كلامُه كان مات هذا المرثىُّ حَتْفَ أنفِه ، فلهذا قال : لم أختَشِ عليه القدر بين هذين المكانين ما خشِيتُ عليه من جرائر رُمحِهِ فى الأحياء .

---

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٣٤٠ ص ٩٧٨ .

(٢) الأبيات الثلاثة الأولى فى معجم البلدان (السلى) ، والأول والثانى فى محاضرات الراغب (٢ : ٣٠٨) واللسان (سلا) والجمهرة (١ : ١٧٣) . والأول فى معجم ما استعجم (السلى) والثانى فى الجمهرة (١ : ٦٥) . قال ابن دريد : « أنشده ابن الأعرابى فى كتاب المراثى لامرأة ترثى أباها . والأبيات كلها فى الكامل ٧٢٥ ليبسك مع خـلاف فى الرواية والترتيب قال المبرد : « فهذا الشعر من أجلِّ أشعار العرب ، ينبىء صاحبه أن تقديره فى المرثى أن تكون منيته قتلا ، ويتأسف من موته حتف أنفه » .

وقوله « من الفتيان مُحْلَوْلٍ مُمِرٌّ » تعلَّقَ من بمحذوف ، كأنه قال : كان من بين الفِتيان سهلَ الخُلُق ، وطِيء الجانب . والمُحْلَوْلى هو الذى تَناهَى حلاوَتُه . قال الخليل : افعَوْعَل : بناء للمبالغة . على ذلك قولهم اعشَوْشَبَ المكانُ ، إذا تَناهَى عُشْبُه ؛ واحْلَوْلَى ، إذا تناهى حلاوته . والمُمِرّ : الذى صار مُرًّا . وليس هذا من قولهم : ما أَمَرّ وما أَحْلَى ، لأن ذلك معناه ما أتى بحُلوٍ ولا مُرٍّ ، ولكن يجب أن يكون من أمَرّ الشىء فهو مُمِرٌّ ، وفى بعض اللغات مَرّ . قال :

* لئن مَرَّ فى كِرمانَ لَيلِى لَطالَمَا[1] *

حتى يكونَ مثلَ محلولٍ . وقوله « أمّارٌ بإرشادٍ وغىّ » وضَع إرشاداً موضع رشادٍ ، ألا ترى أنّه قال وغىٍّ . وهم كما يستعيرون الاسم للمصدر يستعيرون المصدر للاسم ، وكما يوضع العطاء موضع الإعطاء فى قول القطامىّ :

* وبعد عطائك المائة الرِّتاعا[2] *

يضعون الإعطاء موضع العَطاء . فعلى هذا وضع الإرشاد موضع الرَّشاد . [وإذا كان كذلك فيجب أن يكون إرشاد هذا لا يتعدّى ، لوقوعه موقع الرَّشاد[3]] . وقوله « ألا لَهفَ الأراملِ واليتامى » الصدر من البيت تحسُّرٌ لما أصاب الفقراء واليتامى بعد موته ، إذ لم يكن فى الدهر مَن يُؤويهم أو يُمونهم . والأرامل : جمع أَرْمَل ، وهذه الصفة يشترك فيها المؤنّث والمذكّر ، واشتقاقُه من أرمَلَ القوم ، إذا نفِدَتْ نفقاتُهم ، وحقيقته صاروا من الفقر فى الرَّمْل ، كما يقال أَتْرَبَ الرجلُ[4] . والشهادةُ فى اشتراك الرجلِ والمرأة فى هذه الصفة قولُ جرير :

---

(١) البيت للطرماح فى ملحقات ديوانه ١٣٥ واللسان (مرر) . وعجزه :

* حلا بين شطى بابل فالمضيح *

(٢) ويروى : « الرباعا » . وصدره فى ديوان القطامى ٤١ :

* أكفراً بعد رد الموت عنى *

(٣) التكلة من ل . (٤) إذا قل ماله ، ويقال أيضاً لمن اغتنى .

هٰذِى الأَرامِلُ قد قضَّيتُ حاجَتَها ... فمن لحاجَـةِ هذا الأرمَلِ الذَّكَرِ

وقوله « ولَهفَ الباكيات على أبىّ » هذا العجز تحسُّرٌ للمتعلّقين بحَبْله ، والرّاجين ليومه وغده ، والواصلين سَبَبَهم بسببه دون أولئك ، فتكريره اللّفظ يشتمل على هذا المعنى .

٣٤٩

وقال(١) :

١ — فى بَعْضِ تَطْوَافِ ابن طُعْـ ... ـمَةَ آمِنًا لاقَى حِمَامَهْ

٢ — وَرَصَدًا لَهُ مِنْ خلفِهِ ... يَغْـتَرُّهُ لا بل أَمامَهْ(٢)

٣ — غُرَّ امرُؤٌ مَنَّتْـهُ نَفْـ ... ـسٌ أن تَدُومَ له السَّلامَهْ

٤ — هيهـاتَ أَعْيا الأَوَّلِيـ ... ـنَ دَوَاءُ دَائِكَ يا دِعامَهْ

قوله « فى بعض تَطواف ابن طعمة » قد أبرز اسمَه ، يقول : يا دعامة . فهو دعامة بن طُعمة . وتَطواف : بناءٌ لمـا يَشُوبُهُ فى الوقوع أدنى تكلُّف . فكأنّ هذا الرجل كان جَوّالةً ، فاتّفق عليه أن مات آمَنَ ما كان ، فأخذ يقتصُّ حالَه ويتحزَّنُ له ، وجعل التَّطْواف للجنس ، وأضاف البعضَ إليه . وانتصب « آمنًا »

---

(١) يفهم من هذا الصنيع أن هذه المقطوعة لكعب بن زهير أيضاً . لكن فى رواية التبريزى : « وقال آخر » .

(٢) رواه ابن جنى والتبريزى : « رصداً له من خلفه » . وقال ابن جنى : « لك فى من هذه أوجه : إن شئت علقتها بنفس رصد ، وإن شئت جعلتها صفة له فعلقتها حينئذ بمحذوف ، وإن شئت علقتها بنفس يغتره ، ويجوز أن يكون حالا من الفاعل فى تغتره . ولا يجوز أن يكون حالا من الهاء ، لا فى له ولا فى تغتره ، لأن الإنسان لا يكون من وراء نفسه ، فالمعنى إذن يدفعه » .

على الحال مِنْ لاقَى حِمَامَه ، وإذا كان العامل فى ذى الحال فِعْلا جاز تقديم الحال عليه .

وقولُه « وصَدًا له » خَفِىَ عليه كيف اتَّفق مصرعه . ومعنى صَدًا له دعاه . ويجوز أن يكون فَعَل بمعنى تفعَّل ، كأنّ صدا بمعنى تصدَّى له قائداً . والتصدِّى تعرُّضٌ يختلط بازورارٍ وإعراض . على ذلك قوله تعالى : ﴿فأَنت لَهُ تَصَدَّى﴾ . يقول : تصدَّى له الحَيْنُ سائقًا له يأتيه على غِرّة ، بل تصدى قائداً لاَ سائقاً . كأنّه لما خَفِىَ عليه مِن أين أَتَى لم يَقطع الكلامَ على وجهٍ واحد ، بل تدارَكَ وانتقل وهو بعد شاكٌّ ، ولكن كأنّه أومأ إلى جِماع الطُّرُق . وقوله :

غُرَّ امرُؤٌ منَّتْه نَفْـ ـسٌ أن تدوم له السلامه

معنى غُرَّ خُدِع على وَجْهٍ له فى الاستنامة إليه غَرَرٌ . ويقال : ما غَرَّكَ بفلانٍ ؟ أى لِمَ اجترأتَ عليه وكان الوجه أن لا تجترئ . على ذلك قوله تعالى : ﴿ ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكريم ﴾ . ويقال : مَن غَرَّكَ من فلانٍ ؟ أى مَن الذى جَذَبك عنه وحالَ بينك وبينه ، وكان الوجه أن تكون مُقبلاً عليه . ويقال : ما غرَّك من فلانٍ ؟ أى لِم وثِقْتَ به وكان الحُكم أن لا تثق به . فأما قوله « منَّته نفسٌ » فإنما نكَّرهُ لغرضٍ ما[1] ، وهو أنّ لكلِّ رجلٍ فيما يهمُّ به أو يرجوه أو يخافه نَفْسَين : نفسٌ تبعثه عليه ، ونفس تصرِفه عنه ، فلهذا قال : منَّته نفسٌ أن تدوم له السلامة ، أى غرّت تلك النَّفس امرأً جَعَلت من أمانيه دوامَ السلامة . يشهد لهذا الذى قلناه قولُ الآخر :

شاوَرَ نَفْسَيْهِ طمعٍ وخَيبةٍ تقول هاتى : لا ، وهاتيك : بَلَى

ثم قال :

(١) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « فإنها نكرة لغرض ما » .

فشجَّعَته نفس حِرْصٍ طَمِعتْ   وحذَّرته نفسُـه الأخرى الرَّدَى

وقولُه :

هيهات أعْيَــا الأوَّلِيــن دواءُ دائكَ يا دِعامه

أراد بالأوَّلين الأممَ السالفة ، وقد أعجزَهم دواء الموت . وقولُه « هيهات » استبعادٌ لوقوع ما تقدَّم ذِكرُه ، وهو أن تدومَ [له[1]] السَّلامة . وهيهات : اسمٌ للفعل وهو بَعُدَ ، وفاعله ما دلَّ عليه ما قبلَه ، وكأنَّه قال : بَعُـد ذاك أن يكون . على هذا قولُه :

فهيهاتَ هيهات العقيقُ ومَن به   وهيهات خِلٌّ بالعَقيق تُواصِلُه[2]

٣٥٠

وقال غُوَيَّةُ بن سُلْمِيّ بن رَبيعة[3] :

١ — ألاَ نادَتْ أُمامةُ باحْتِمَالِ   لِتَحْزُنَنى فلا بِكِ ما أُبالِى

٢ — فَسِيرِى ما بَدَا لَكِ أوْ أَقِيمِى   فأيًّا مَا أَتَيْتِ فَمَنْ تَقَالِ

يقول : أظهرت هذه المرأةُ من نفسها ارتحالاً عنِّى لتجلبَ علىّ حُزناً وغمًّا ، ونادت بالفِراق وكثرتْه على ألسنة الناس . ثم انصرَفَ عن الإخبار عنها وأقبلَ عليها يخاطبُها فقال : لا بِكِ ما أبالى . وهذه اليمين فيها تهكُّم وسُخرِيّة ، لأنَّ مَن

(١) هذه من ل .

(٢) البيت لجرير ، فى ديوانه ٤٧٩ ومقاييس اللغة (عق) واللسان (هيه) . ورواية الديوان « فأيهات أيهات . . . وأيهات » . وتواصله ، بالتاء كذا جاءت أيضاً فى رواية الديوان ، وفى المقاييس : « نوَصّله » بالنون ، وفى اللسان : « نحاوله » .

(٣) ابن جنى : « يجوز أن يكون تحقير غاوية ، ويجوز أن يكون تحقير غية بعد التسمية بها » . وفى معجم المرزبانى ٣٠٧ — ٣٠٨ : « عوية ، ويقال غوية بغين معجمة ، وهو عوية ابن سلمى بن ربيعة بن زبان بن عامر بن ثعلبة الضبى ، من بنى ثعلبة بن ذؤيب ، جاهلى » .

يُحِلُّ من قلبه امرأةً محلًّا لا يجعلها أهلاً للإقسام بها . فقولك لا بِكِ ، كقولك لا بالله . وما أبالى جوابُ القسم . وقيل : أراد لا بِكِ أبالى ، أى لا أبالى بكِ ، ويكون ما صلةً ، ولا قسَمَ فى هذا الكلام على هذا . ورُوِى «فآبَكِ ما أُبالى» فيكون دعاءً عليها . ومعنى آبَكِ : أبعَدَكِ الله ، والشاهد فى ذلك قوله :

وخَبَّرْتَنِى يا قلبُ أنّكَ ذو نُهًى ... بلَيْلَى فَذُقْ ما كنت قبلُ تقولُ[1]

فآبَكِ هَلاّ والليالِى بغِرّةٍ ... تُلِمُّ وفى الأيّام عَنكَ غُفُولُ[2]

فإذا رويت لا بِكِ فالبيت على كلامين ، لأنّ لا بِكِ ينفصل عما قبله ، ويصير ما أبالى متّصلاً به لأنّه جوابه . وإذا رويتَ «آبَكِ» فالكلام على فصولٍ ثلاثة . فالفصل الأوّل أنها أرادت أن تُدْخِلَ عليه جَزَعاً بالفراق ، فكأنه أقبل قُبلَها[3] ودعا عليها ، ويكون الدعاء حشواً حَسَناً ، وما أبالى كلاماً آخر ، وينفصل ما أبالى عن الدعاء وعن الأوّل .

وقوله «فسيرِى ما بدا لك أو أقيمى» استهانَ بها وبفراقها ، فخَيَّرَها بين السَّير ما بدا لها وأرادته ، وبين الإقامة ، ثمّ قال : فأىَّ الأمرينِ اخترتِ فعَن تقالٍ لى إيّاه . وإنّما قال تقَالٍ ولم يقل قِلًى ، لأنّ فى التّقالى زيادةَ معنى ، وهو أن يحدُثَ الفعلُ شيئاً بعد شىء . على ذلك قولُه تداعَى البِناءُ وما أشبَهَه . وقوله «فأيًّا ما أتيتِ» أيًّا انتصَبَ بأتيتِ ، وما صلة ، ومِن شرط أىٍّ أن يجىء مضافاً ،

(١) فى أساس البلاغة : «أنك ذو عرى» .

(٢) فى مقاييس اللغة (أدب) : «تزور» بدل «تلم» . وفيه أيضاً : «شغول» . وأنشده فى اللسان وأساس البلاغة (أدب) برواية «غفول» ، ونسب فى أساس البلاغة إلى رجل من بنى عقيل .

(٣) القبل ، بالضم : الوجه . الجوهرى : «وقولهم إذا أقبل قبلك ، أى أقصد قصدك وأتوجه نحوك» .

فأفرده هنا لمّا كان المضافُ إليه معلومًا . على ذلك قوله تعالى : ﴿ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ . ألا ترى أنّ المعنى أيَّ الأسماء تدعوا . ولمّا كان السَّيرُ منها أحبَّ إليه عَلَّقَهُ بما وَسَّعَ أَمَدَهُ فقال : ما بَدَا لَكِ ، ولم يشترط فى الإقامة شيئًا . وقوله « فمن تقالِ » ، عن تقتضى فعلًا مضمرا ، كأنّه قال : أىَّ الأمرين أتيتِ أتيتِ عن تقالٍ منّى ، فحذَفَ الثّانىَ ، لأنّ الأوّل يدلُّ عليه . وحذَف منّى أيضًا لأنّ فى الكلام عليه دليلًا . وما بدا لك فى موضع الظَّرف . وبدا هذا من البُدُوّ : الظُّهور ، وليس من البَدَاء : التحوُّل ، لأنّ المعنى سِيرِى مدّةَ ظُهور السَّير فى رأيك . ففاعل بدا السَّيرُ ، ودلّ عليه سِيرِى لأنّ الفعلَ يدلُّ على مصدرِه كما أنّ المصدرَ يدلُّ على فعلِه .

٣ — فكَيْفَ تَرُوعُنِى امرأةٌ ببَيْنٍ حَيَاتى بَعْدَ فارسِ ذى طَلَالِ[1]

٤ — وبَعْدَ أبى ربيعةَ عبدِ عَمْرٍو ومَسْعُودٍ وبعـــد أبى هِلالِ

٥ — أصابَتْهُمْ حَمِيدِينَ المَنَايَا فِدًى عَمِّى لِمُصْبَحِهِمْ وخالى

٦ — أولئكَ لو جَزِعْتُ لهم لَكانُوا أعزَّ عَلَىَّ مِنْ أهـــلِى ومالِى

أخذ يتعجب من نفسه ومِمّن يظن به أنّه يقف موقف من يُفزعه امرأةٌ بفراق ، فقال : كيف يكون ذلك مُدّةَ حياتى بعد أن فُجِعْتُ بفارسِ هذا الفَرَس . وذو طَلَالٍ كان اسْمَ فرسه ، و « حياتى » انتصب على الظَّرف ، أى مُدّةَ حياتى ؛ لأنّه حُذف اسم الزّمان معه . ثمّ عدّد بعدَ ذكرِ هذا الفارسِ مَن فُجِع به من عشيرته حالًا بعد حال ، ووقتًا بعد وقت ، ذكر أبا ربيعة ومسعودًا وأبا هلال ، وهؤلاء كانوا حُماةَ العشيرة وفُرسانَ الكتيبة ، فلهذا خصّهم

(١) ل والتبريزى : « وكيف » .

بالذِّكر وشَهَر نفسَه بالتوجُّع لهم . ولو كانوا على غير هذه الصِّفة لما استحسن لنفسِه الاعتدادَ بهم فى الحالة التى ذكرها .

وقوله « أصابتهم حَميدينَ المنايا » حميدين انتصب على الحال ، يريد أنَّ أيامهم سَلِمَتْ من شَوْبِ العَار ، وقَباحة الذِّكر ، وأنهم أُصيبوا وهم مشكورونَ محمودونَ بلسان القريب والبعيد ، والأجنبىِّ والنسيب . وقوله « فِدًى عَمِّى لمُصبَحِهِم وخالى » كلامٌ منقطع ممّا قبله ، وهو كالالتفات . كأنّه أقبلَ عَلى مُخاطَبٍ فقال : أفدى مُساهُم ومصبَحَهُم بأطرافِ العمومةِ والخؤولة . وذَكَر المُصْبَح وكأنَّ المُمْسَى معه منوىٌّ ، لأنَّ طرفَىِ النَّهار مذكوران فى الغارة والضِّيافة وما يشبههما من الإساءة والإحسان . وقيل المسى يتَّصل بأوّل حد الليل ، وكذلك المُصبَح يبتدئ من أوّل حدِّ النَّهار . وقيل إنَّ المسى يستحقُّه الوقت إلى أن ينقضى شطر من الليل ، وكذلك المصبح يستحقُّ إلى أن ينقضى شِطرٌ من النهار . والغَرض فى التَّفدية التى تبرَّع بها هو إظهار اليَأس والتفجُّع فى إثر أوقاتهم وأفعالهم فيها .

وقوله «أولئك لو جَزِعْتُ لهم لكانوا» إقرارٌ بأنّه لم يوفِّ الجزعَ فيهم حقَّه ، ولو وَفَّى لكان ذلك يُوجِب عليه الزُّهدَ فى العشيرةِ والأهلِ والمال ، وسائرِ ما يطيب العيشُ به وله . فالشَّرط الذى ذكره ليس هو شرطًا فيما يوجبه التوجُّعُ فى كونهم عزيزًا ، لأنّهم أعزّاء عليه فى كلِّ حال ، وإنّما هو شرطٌ فيما يوجبه التوجُّع للمتوفَّى لو تُكلِّف على وجهِه وكُنْهِه ، لكأنه قال : لو أعطيتُ الجزعَ حُكمَهُ لكان حالى حينئذ بخلاف حالى السَّاعةَ ، ولَكانَ لى عذرٌ فى ذلك ، لأنَّهم أعزُّ علىَّ من أهلى ومالى ، لكنِّى تركتُ ذلك اقتداءً بالنّاس فى جَزَعهم لمُصابهم . فذكر السبب فى أنّ ما يُظهِر منه ليس يعُدُّه شيئًا مُغْنيا مع

ما يستحقُّونه[1] . وهم يكتفون بذكر السَّبب عن المسبَّب وبذكر المسبَّب عن السبب كثيرا .

٣٥١

وقال قُرَادُ بن غُوَيَّة[2] :

١ — ألاَ لَيْتَ شِعْرِى ما يَقُولَنْ مُخَارِقٌ إذا جَاوَبَ الهَامَ المُصَيَّحَ هَامَتِى[3]

٢ — ودُلِّيتُ فى زَوْرَاءَ يُسْفَى تُرابُها علىَّ طَوِيلًا فى ثَرَاها إقامَتِى

تقدَّمَ القولُ فى ليت شعرى وأنَّ خبر ليت يُحذَفُ أبدا كما يُحذف خبر المبتدأ بعد لولا ، وأنَّ شعرى بمعنى عِلْمِى ، ويصير ما بعده سادًّا مَسَدَّ مفعولَيه كما يسدُّ جواب لولا مَسَدَّ خبر المبتدأ بعده . وإنَّما تمنَّى أن يَعْلَمَ موقعَ مُصابه من مخارقٍ على حسنِ تربيته له ، وحميد تعطُّفه عليه ، وميله مدّةَ عيشِه إليه . وكيف يَجزع له ويقلَق لفِراقه إذا حَدَثَ به قضاء الله ودخل فى جُملة الأموات ، وجاوَبَ صداه أصداءهم . وهذا على عادتهم فيما كانوا يقولونه من أنَّ عظام الموتَى تصير أصداءً وهامًا ؛ حتّى قال النبيُّ صلى الله عليه وسلَّم : « لا عَدْوَى ولا هَامَةَ ولا صَفَر » . ويقال صاح يصيح ، فإذا أريد المبالغةُ قالوا صَيَّحَ . ويقال : سمِعت الصَّيحة فى الغارة وما أشبَهَها ، وسمِعت الصائحة ، فى صَيْحة المناحة . وقوله « ما يقولَنْ مخارق » أدخل النُّون الخفيفة لتُؤْذِن بالاستقبال ، وموضع النونين

(١) ابن جنى فى التنبيه : « هم على كل حال أعز عليه من أهله وماله ، فما وجه هذا الشرط ، ومن صحة الشرط أن يكون مما يتسلط عليه ؟ والجواب أنه ذكر السبب فاكتفى به من المسبب ، فكأنه قال ، لو جزعت لهم لكنت معذوراً فى ذلك لأنهم أعز على من أهلى ومالى » .

(٢) سبقت ترجمة أبيه فى الحماسية السابقة .

(٣) التبريزى : « ويروى : المصبح ، بالباء » .

الخفيفة والثقيلةِ الاستفهامُ وكلُّ ما ليس بواجب ، وإذا ظرفٌ ليقولنّ ، وجاوب جملةٌ مضاف إليها وشُرح إذا بها .

وقوله « ودُلِّيتُ فى زَوْرَاء يُسْفَى ترابُها » أى أدخِلتُ فأُرسلْتُ فى حُفرةٍ معوجَّة ، يعنى اللحد ، وقوله « يسفى ترابُها علىّ » أى يُهال ترابُها عليه إذا دفن فيها . وقد مضى القول فى السّافياء والسّـوافى[1] ، إلا أنَّه يقال سَفَت الرِّيح التُّراب سَفْياً ، ثم قالوا : سَفِى الترابُ يَسفِى ، والتُّراب سافٍ ، وهو من باب فَعَلَ وفَعَلْتُهُ . وقال بعضهم : كان يجب أن يقال فى التُّراب مسفىٌّ فقيل سافٍ ، كقولهم عيشة راضية وإنما هى مرضيَّة . وقال الخليل : السَّفَا : اسمُ ما تَسفيه الرِّيح من التُّراب وغيره . وطويلا : انتصَبَ على الحال ، والعامل فيه دُلِّيتُ ، وإقامتى فى موضع الرَّفع على أنَّه فاعل طويلاً . والمقبور هكذا مُقامُه فى الثَّرى . وهذا اقتصاصُ حالِه عند ما تمنَّى معرفتَهُ من جهة مخارِقِ إذا حصلَتْ له من التلهُّف والتوجُّع . ثم استمرّ فى ذكر الحال فقال :

٣ — وقالُوا أَلَا لا يَبْعَدَنّ اختيالهُ   وصَولَتُهُ إذا القُـــرُومُ تَسَامَتِ

٤ — وما البُعدُ إلّا أنْ يكونَ مُغَيَّباً   عَن النّـاسِ مِنِّى نَجْدَتى وقَسَامَتِى[2]

يريد : وقال الناس مكبراً[3] ما يقع بى ، ومظهراً الفجيعة لى : لا يبعدن اختيالُه وصَولَتُهُ ، يعنى كِبْره وحميَّتَه ، وبأسَه وبطشه ، إذا حَصَلَ بين الصَّفَّين ، فتدافعت فُحولةُ الرِّجال ، وتزاحمت أركانُهم فى القتال أو الجدال . وقد تقدم

(١) انظر ما مضى فى ص ٩٨٦ .

(٢) ل : « وبسالتى » وفى هامشها : « ويروى وقسامتى » . التبريزى : « وقسامتى » ، ثم قال : « ويروى : وبسالتى » .

(٣) كذا فى النسختين .

القول فى لا يَبعَدنَّ وما أشبَهَه[1] . والقُرم : جمع القَروم ، وهو الفَحْلُ أُقْرِمَ ، أى تُرِكَ حَتَّى استقْرَم ، وهو للـكْرم لا يُحَمَل عليه شىء ، وإنَّما يُترَك للفِحْلة . ويقال قَرْمٌ ومُقْرَمٌ . على ذلك قولُه :

إذا مُقْرَمٌ مِنَّا ذَرَا حَدُّ نابِهِ تَخَمَّطَ فينا نابُ آخَرَ مُقْرَمِ[2]

ومعنى تسامَتْ تبارَتْ فى السّمُوّ ذكراً وحالا .

وقوله « وما البُعد إلا أن يكون مغيّبا » يقول : إنّ الانتفاعَ بهذا القول إعظاماً للرُّزْء ليس يقع ، لأنّ البُعد كل البُعد فى الموت ، الذى يتغيَّبُ به عن النَّاسِ ما شَمِلهم من معونتى ومَغُوثتى ، وإحسانى وإفضالى ، ويقال رجل نَجدٌ[3] ، وهو ظاهر النَّجْدة . ورجل قَسِيمٌ وسيم : ظاهر القَسَامة والوَسامة . كأنّه أراد بالقَسَامة ما قُسِمَ فى الخَلق من طَوْله . وكذلك قولهم : رجل مقسَّم الوجهِ ، يرجع إلى هذا ، لأن المعنى ما قُسِمَ فى أعضائه من الحُسْن ، فكلُّ عضوٍ يَمُتُّ بمِثل ماتّةِ صاحبِه . والقَسَامة : الجماعة يَشهدون على الشَّىء ويُقسِمون مع الشَّهادة .

٥ - أيَبْكِى كما لو ماتَ قَبْلِى بَكَيْتُه ويَشْكُرُ لى بَذْلِى له وكَرامَتِى[4]

٦ - وكنتُ له عَمًّا لطيفاً ووالِداً رَؤُوفاً وأُمًّا مهَّدَتْ فأنامَت

---

(١) انظر ما مضى فى ص ٨٩٢ ، ٩٠٥ .

(٢) لأوس بن حجر فى ديوانه ٢٧ واللسان والمقاييس (قرم ، ذرا) وكذا اللسان (خمط) .

(٣) بالفتح ، وبفتح فضم ، وبفتح فكسر ، ثلاث لغات .

(٤) رواه ابن جنى فى التنبيه : « ويشكرنى » ، وقال : « يجوز أن يكون أراد : على بذلى ، فحذف حرف الجر فنصبه بالفعل قبله ، على ما تقدم . ويجوز أن يكون بذلى بدلا من ضمير المتكلم ، أى يشكر بذلى . وإنما يجوز البدل من ضمير المتكلم وضمير المخاطب إذا كان بدل البعض أو بدل الاشتمال ، نحو عجبت منك عقلك ، وضربتك رأسك . ومن أبيات الكتاب :

ذرينى إن أمرك لن يطاعا وما ألفيتنى حلمى مضاعا » .

قوله « أبكى » هو بيانُ ما تمنَّى معرفتَه من أحوال مُخَارِقٍ عند مفارقتِه له، فقال : ليتنى علمتُ هل يوفِّى الجزَعَ حقَّه ، كما لو أصبتُ به كنت أوَفِّيه ، ويَرْثِى لى بمثل ما كنت أرثيه ؛ وهل يشكر آلائى لَدَيه ، وإقبالى عليه ، وإحسانى إليه مدة حياتى أمْ لا . لحذف لا لأن المراد مفهومٌ ، أنَّه يريد أيكون ذلك أم لا . وعلى ذلك قول القائل : ليتنى علمتُ أزَيْدٌ فى الدار — إذا سكتَّ عليه ، فلا بد من أن تريد أم لا .

وقوله « وكنت له عمًّا لطيفا » ، أى كنتُ جَمَعت له مدّة عمرى وما اطّرد فى نفسى ، بين حَدَب الآباء وشفقتِهم ، ولُطف العمومةِ وتوفُّرِهم ، وتفقُّد الأمَّهات وإشبالهن[1] . والمعنى : كنتُ أتنقّل له فى الأحوال بين ما يأتيه العمُّ فى وقتِ لُطفِه أو يأتيه الوالد وقتَ رأفتِه ، أو الأمُّ وقتَ تربيتها ولُطفها . وقد سارت هذه اللفظة ، وهى « أمٌّ مَهَّدَتْ فأنامت » مثلاً فيما يُنشَر من إحسان الغير إلى الغير . ويقال : ما امتَهَد فلانٌ عندى مَهْدَ ذلك ، أى ما وَطَّدَ لنفسه . وقد أخرج فى مِعرَضٍ آخَرَ فقيل :

* كما مَهَّدَتْ للبَعْلِ حسناءُ عاقرُ[2] *

وروى بعضهم : « ويَشْكُرُنى بذلى له وكرامتى » على أن يكون بَذلى بدلاً من المضمر فى يَشكُرُنى .

---

(١) الإشبال : التعطف والمعونة .

(٢) البيت لدريد بن الصمة ، كما فى الحيوان (٧ : ٣٧ — ٣٨) أو معقر بن حمار لبارق ، كما فى الأغانى (١٠ : ٤٥) والمزهر (٢ : ٣٤٨) . ومصدره :

* لما ناهض فى الوكر قد مهدت له *

٣٥٢

وقال مِسْجَاحُ بنُ سِبَاعٍ[1] :

١ — لَقَدْ طَوَّفْتُ فى الآفاقِ حَتَّى ... بَلِيتُ وقد أَنَى لى لَوْ أَبِيدُ

٢ — وأَفْنَانِى ولا يَفْنَى نَهَارٌ ... وليلٌ كُلَّما يَمْضِى يَعُودُ

٣ — وشهرٌ مُسْتَهَلٌّ بَعْدَ شَهْرٍ ... وحَوْلٌ بَعْدَهُ حَوْلٌ جَدِيدُ

٤ — وَمَفْقُودٌ عَزِيزُ الفَقْدِ تَأْتِى ... مَنِيَّتُهُ وَمَأْمُولٌ وَلِيدُ

يقول : جُلْتُ فى نواحِى الأرضِ شرقِها وغَرْبِها ، عافياً وطالباً بما يَطلُب به مثلِى المالَ والجاه ، والعِزَّ والفخر ، إلى أن مَسَّنِىَ الكِبَرُ ، وتسلَّط علىَّ البِلَى والهَرَمُ ، وضَعُفَ الأملُ فى البقاء بحسب قُوَّةِ الخوف من الفَنَاء ، فقد آن لى أن أَلحقَ السابقين إنْ قُدِّر لى ذلك . وقوله « أَنَى لى » يقال أَنَى وآن بمعنًى ، وفاعلُه ما دلَّ عليه لو أَبيدُ ، والمعنى أَنَى لى البُيُودُ إن كُتِبَ وقُضِىَ علَىَّ .

وقوله « وأفنانى ولا يَفْنَى نهارٌ » جَمع بين فِعلَين ، على قوله نهار ، لكنَّه أَعمَلَ الثَّانىَ ، وهو المختار . والمراد : أثَّر فىَّ قُوَاىَ مُضِىُّ نهارٍ لايتقضَّى ، وتجدُّدُ ليلٍ لايتصرَّم ، بل كلما يمضى واحدٌ عادَ بدلَهُ آخَرُ ، وكذلك أفنانى ، أى أفْنَى جِدَّتِى وغَنَائِى ، شهر ينسلخ بعد استهلاله ، إلى وقت استكماله ، وسَنَةٌ يتبعها مثلُها ، فلا يُعرَف قضاؤها . ثمّ ما يلحقُنى فى أثناء تلك اللَّيالى والأيّام ، والسِّنِينَ

---

(١) المرزبانى فى معجمه ٤٦٩ : « المسجاح — ويقال المسحاج — بن سباع بن خالد ابن الحارث بن قيس بن نصر بن عائذة بن مالك بن بكر بن سعد بن ضبة . جاهلى » . وأنشد له هذه الأبيات . وذكره السجستانى فى المعمرين ٧٦ وأنه عاش حتى هرم وملّ الحياة . وأنشد له أيضاً هذه الأبيات ، ولكنه أسقط اسم أبيه « سباع » وزاد « ذهل » بين « عائذة » و « مالك » . وفى الاشتقاق ١٢١ : « ومنهم مسحاج بن سباع ، كان من المعمرين . ومسحاج مفعال من السحج ، والسحج : قشرك الشىء » .

والأعوام، مِنْ فَقْدِ من أعتمدُه ليومى وغَدِى، وخِلافتى بعد موتى وأستكفِلُه وَلَدِى، وأسترعِيه هَمَلِى. هذا مع كماله فى فضله، وبَرَاعته وطَوْلِه، والإشادة بالتَّنويه إليه من كل جانب، والشهادةِ له بالتبريز من كلِّ فاضل. ومِن ولادةِ طفلٍ يعلِّق الرّجاء بنَشْئِه، وتُجْمَع أسباب الطَّمَع فى حياته، ويُشغَلُ الوقتُ بتربيَته والتَّرفرُفِ عليه عِوَضاً مما كان له من كاسبه وكافِلِه، ورحمةً لبقائه بَعْدَ مَن كان يعزُّ عليه، وعَقِب مَن هنِّئَ فيه فلم يَهْنَأْهُ.

وإذا تأمَّل الناظرُ ما اقتصَّه هذا الشاعرُ فى هذه الأبيات على قِلَّتها، من امتحانه بالكَبْرة والسِّنّ، وتَراجُع القوّة بمآخذِ الدَّهر، ومع التَّجْوال فى البُلْدَان، ومُقاساة الشَّقاء فى الحلِّ والتَّرحال، والتنقُّلِ فى الأحوال، ثم مرُورِ الأيّام وكُرُورِها بما لا يَسُرُّ عليه، إلى أن رَفَع الطَّمعَ عما كان تجمعُه يدُه ونفضَ اليدَ مما كان يشدُّه قَبْضُه، ثم المُصابِ فى الكامل البارع، وتعليق الرّجاء بالطِّفل الدارج—وجدَ عَيشَه على العكس مما وصفه امرؤ القيس فى قوله:

أَلاَ انعَمْ صَبَاحًا أيُّها الطَّلَلُ البالِى ... وهل يَنْعَمَنْ مَن كان فى العُصُرِ الخالى
وهل يَنْعَمَنْ مَن كان أقْرَبُ عَهدِهِ ... ثلاثينَ شهراً أو ثلاثةَ أحوالِ[1]
وهل يَنْعَمَنْ إلاّ خلىٌّ مُخَلَّدٌ ... قليلُ الهُمُومِ ما يبيتُ بأَوجالِ

فتأمَّلها فإنّها عجيبة.

---

(١) رواية ديوان امرئ القيس ٥٠ : «فى ثلاثة أحوال».

[خاتمة الجزء فى نسخة الأصل]

تم الجزء الأوّل من شرح الاختيار المنسوب إلى أبى تمّام الطائى ، المعروف بكتاب الحماسة .

يتلوه فى الجزء الثانى إن شاء الله تعالى : « وقال حران[1] بن عمرو بن عَبْد مَناةَ يرثى زيدَ الفوارس وغيرَه من أبناء عمه :

تبكى على بكر شربتُ به سفهًا تَبـكّيها على بكرِ
هَلاًّ على زَيد الفوارس زَيْـــدِ اللّاتِ أو هَلاًّ على عمرِو
تَبـكين لا رَقَأَتْ دُمُوعُكِ أَوْ هَلاًّ على سَلَفَىْ بَنى نَصْرِ[2] »

---

(١) كذا فى الأصل . وانظر ما سيأتى فى تحقيقه .

(٢) فى نهاية هذا الجزء من نسخة الأصل هذا النص :

قد وقف هذا الكتاب الجليل والأثر الجميل ، والدة السلطان الأعظم ، والخاقان المفخم ، السلطان عبد المجيد خان أدام الله أيام وعمر دولته إلى آخر الدوران . أعنى بها حضرت بزم عالم سلطان ، علية الشان ، جعل الله سعى الواقفة مشكوراً ، وجزاءها جزاء موفوراً ، لسنة ست وستين ومائتين وألف ١٢٦٦ .

